

كتاب : الفرج بعد الشدة  
المؤلف : القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي

الباب الأول

ما أنبأنا به الله تعالى في القرآن

من ذكر الفرج بعد اليأس والامتحان

إن مع العسر يسرا

قال الله تعالى، وهو أصدق القائلين، وهو الحق اليقين " بسم الله الرحمن الرحيم، أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، ووضعتنا عنك ووزرنا، الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب " .

فهذه السورة كلها، مفصحة بإذكار الله عز وجل، رسوله عليه السلام، منته عليه، في شرح صدره بعد الغم والضيق، ووضع وزره عنه، وهو الإثم، بعد إنقراض الظهر، وهو الإثقال، أي أثقله فنقض العظام، كما ينتقض البيت إذا صوت للوقوع، ورفع - جل جلاله - ذكره، بعد أن لم يكن، بحيث جعله الله مذكوراً معه، والبشارة له، في نفسه عليه السلام، وفي أمته، بأن مع العسر الواحد يسرين، إذا رغبوا إلى الله تعالى ربهم، وأخلصوا له طاعتهم ونياتهم.

وروي عن عبد الله بن عباس، أو عن علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: لا يغلب العسر الواحد يسرين، يريد أن العسر الأول هو الثاني، وأن اليسر الثاني هو غير الأول، وذلك أن العسر معرفة، فإذا أعيد، فالثاني هو الأول، لأن الألف واللام لعريفه، ويسر، بلا ألف ولام، نكرة، فإذا أعيد، فالثاني غير الأول، وهذا كلام العرب، فإذا بدأت بالاسم النكرة، ثم أعادته، أعادته معرفة بالألف واللام، ألا ترى أنهم يقولون: قد جاءني الرجل الذي تعرفه، فأخبرني الرجل بكذا وكذا، فالثاني هو الأول، فإذا قالوا: جاءني رجل، وأخبرني رجل بكذا، وجاءني رجل، فأخبرني رجل بكذا وكذا، فالثاني غير الأول، ولو كان الثاني - في هذا الموضع - هو الأول، لقالوا: فأخبرني الرجل بكذا وكذا، كما قالوا في ذلك الموضع.

وقال الله تعالى: " سيجعل الله بعد عسر يسراً " .

وقال: " ومن يتق الله، يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه " .

وقال تعالى: " أو كالذي مر على قرية، وهي خاوية على عروشها، قال أتني بحبي هذه الله بعد موتها، فأما الله مائة عام، ثم بعثه، قال: كم لبثت، قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، قال: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك، ولجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها، ثم نكسوها لحماً، فلما تبين له ذلك، قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير " .

فأخبر الله تعالى: أن الذي مر على قرية، استبعد أن يكشف الله تعالى عنها، وعن أهلها، البلاء، لقوله: أتني بحبي هذه

الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه... إلى آخر القصة، فلا شدة أشد من الموت والخراب، ولا فرح أفرح من الحياة والعمارة، فأعلمه الله عز وجل، بما فعله به، أنه لا يجب أن يستبعد فرجاً من الله وصنعاً، كما عمل به، وأنه يحيي القرية وأهلها، كما أحياه، فأراه بذلك، آياته، ومواقع صنعته.

وقال عز وجل: " أليسَ اللهُ بكافٍ عبدهُ، ويخوفونك بالذين من دُونِهِ " .

وقال تعالى: " وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ، دعانا لجنبه، أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره، مرَّ كأنَّ لم يدعنا إلى ضرِّ مسِّه، كذلك زُيِّنَ للمسرفين ما كانوا يعملون " .

وقال عز وجل: " هو الذي يسيِّركم في البرِّ والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف، وجاعهم الموج من كلِّ مكان، وظننوا أنهم أحيط بهم، دعوا اللهَ مخلصين له الدين، لئن أنجيتنا من هذه، لنكوننَّ من الشاكرين، فلما أنجاهم، إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقِّ " .

وقال تعالى، في موضع آخر: " قل من ينجيكم من ظلمات البرِّ والبحر، تدعونه تضرعاً وخفية، لئن أنجيتنا من هذه، لنكوننَّ من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها، ومن كلِّ كرب، ثم أنتم تشركون " .

وقال تعالى: " وقال الذين كفروا، لرسلهم، لنخرجنكم من أرضنا، أو لنعودنَّ في ملتنا، فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين، ولنسكتنكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي، وخاف وعيد " .

وقال عز وجل: " ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمةً، ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض، ونُري فرعونَ، وهامانَ، وجنودهما منهم، ما كانوا يحذرون " .

وقال عز وجل: " أمَّنْ يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض، أإلهَ مع الله، قليلاً ما تذكرون " .

وقال جل من قائل: " وقال ربكم ادعوني، أستجب لكم " ، وقال عز من قائل " وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعاني، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون " .

وقال تعالى: " ولنبلونكم بشيء من الخوف، والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون " .

وقال جل جلاله: " الذين قال لهم الناس، إنَّ الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسخهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم " .

وروي عن الحسن البصري، أنه قال: عجباً لمكروب غفل عن خمس، وقد عرف ما جعل الله لمن قالهن، قوله تعالى: " ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون " .

وقوله تعالى: " الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسخهم سوء " .

وقوله: " وأقوض أمري إلى الله، إنَّ الله بصير بالعباد، فواقهم الله سيئات ما مكروا " .

وقوله: " وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبتنا له ونجيناها من الغم وكذلك ننجي المؤمنين " .

وقوله: " وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبّت أقدامنا، وانصرنا على القوم

الكافرين، فأتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين " .  
وروي عن الحسن أيضاً، أنه قال: من لزم قراءة هذه الآيات في الشدائد، كشفها الله عنه، لأنه قد وعد، وحكم  
فيهن، بما جعله لمن قاهن، وحكمه لا يبطل، ووعد لا يخلف.

### قصة آدم عليه السلام

وقد ذكر الله تعالى، فيما اقتضه من أخبار الأنبياء، شذائده ومحنه، استمرت على جماعة من الأنبياء عليهم السلام،  
وضروباً جرت عليهم من البلاء، وأعقبها بفرج وتخفيف، وتداركهم فيها بصنع جليل لطيف.  
فأول ممتحن رضي، فأعقب بصنع خفي، وأغيث بفرج قوي، أول العالم وجوداً، آدم أبو البشر، صلى الله عليه، كما  
ذكر، فإن الله خلقه في الجنة، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته، ونماه عن أكل الشجرة، فوسوس له  
الشیطان، وكان منه ما قاله الرحمن في محكم كتابه: " وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه، فتاب عليه وهدى " .  
هذا بعد أن أهبطه الله إلى الأرض، وأفقدته لذيد ذلك الخفض، فاقضت عادته، وغلظت محنته، وقتل أحد ابنيه  
الآخر، وكان أول أولاده.

فلما طال حزنه وبكاؤه، واتصل استغفاره ودعاؤه، رحم الله عز وجل تذلله وخضوعه، واستكانته ودموعه، فتاب  
عليه وهداه، وكشف ما به ونجاه.

فكان آدم عليه السلام، أول من دعا فأجيب، وامتنح فأثيب، وخرج من ضيق وكره، إلى سعة ورحب، وسلى  
همومه، ونسي غمومه، وأيقن بتجديد الله عليه النعم، وإزالته عنه النقم، وأنه تعالى إذا استرحم رحم.  
فأبد له تعالى بتلك الشدائد، وعوضه من الابن المفقود، والابن العاق الموجود، نبي الله صلى الله عليه، وهو أول  
الأولاد البررة بالوالدين، ووالد النبيين والصالحين، وأبو الملوك الجبارين، الذي جعل الله ذريته هم الباقين، وخصهم  
من النعم بما لا يحيط به وصف الواصفين.  
وقد جاء في القرآن من الشرح لهذه الجملة والتبيان، بما لا يحتمله هذا المكان، وروي فيه من الأخبار، ما لا وجه  
للإطالة به والإكثار.

### قصة نوح عليه السلام

ثم نوح عليه السلام، فإنه امتحن بخلاف قومه عليه، وعصيان ابنه له، والطوفان العام، واعتصام ابنه بالجبل، وتأخره  
عن الركوب معه، وبركوب السفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال، وأعقبه الله الخلاص من تلك الأهوال،  
والتسكن في الأرض، وتغييض الطوفان، وجعله شبيهاً لآدم، لأنه أنشأ ثانياً جميع البشر منه، كما أنشأهم أولاً من  
آدم عليه السلام، فلا ولد لآدم إلا من نوح.  
قال الله تعالى: " ولقد نادانا نوحٌ، فلنعم الجيبون، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وتركنا  
عليه في الآخرين " " ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم " .

### قصة إبراهيم عليه السلام

ثم إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وما دفع إليه من كسر الأصنام، وما لحقه من قومه، من محاولة إحراقه، فجعل الله تعالى عليه النار برداً وسلاماً، وقال: " ولقد آتينا إبراهيم رشداً من قبل، وكنا به عاملين " ، ثم اقتصر قصه، إلى قوله تعالى: " قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً، فجعلناهم الأخسرين ونجيناها ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً، وكلاً جعلنا صالحين، وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا " .

ثم ما كلفه الله تعالى إياه، من مفارقة وطنه بالشام، لما غارت عليه سارة، من أم ولده هاجر، فهاجر بها وبابنه منها إسماعيل الذبيح عليهما السلام، فأسكنهما بواد غير ذي زرع، نازحين عنه، بعيدين منه، حتى أتبع الله تعالى هما الماء، وتابع عليهما الآلاء، وأحسن لإبراهيم فيهما الصنع، والقائدة والنفع، وجعل لإسماعيل النسل والعدد، والنبوة والملك، هذا بعد أن كلف سبحانه إبراهيم أن يجعل ابنه إسماعيل بسبيل الذبيح، قال الله تعالى فيما اقتضه من ذكره في سورة الصافات: " فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي، قال يا بني أتني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى، قال يا أبة افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتلّه للجين، ونادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا هو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم " .

فلا بلاء أعظم من بلاء يشهد الله تعالى أنه بلاء مبین، وهو تكليف الإنسان، أن يجعل بسبيل الذبيح ابنه، وتكليفه، وتكليف المذبوح، أن يؤمن ويصبر، ويسلم ويحتسب، فلما أديا ما كلفا من ذلك، وعلم الله عز وجل منهما صدق الإيمان، والصبر والتسليم والإذعان، فدى الابن بذبح عظيم وجازى الأب بادن آخر على صبره، ورضاه بذبح ابنه الذي لم يكن له غيره، قال الله عز وجل: " وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين " ، إلى قوله: " لنفسه مبین " ، وخلصهما بصبرهما وتسليمهما من تلك الشدائد الهائلة.

وقد ذهب قوم إلى أن إبراهيم إنما كلف ذبح ابنه في الحقيقة، لا على ما ذهب إليه من ذلك أن الذي كلفه أن يجعل ابنه بسبيل الذبيح، لا أن يذبحه في الحقيقة، واستدل الحسن البصري على أن إسماعيل هو الذبيح، لا إسحاق، وأن الأمور به كان الذبيح في الحقيقة، بقوله تعالى: " فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب " ، فحصلت لإبراهيم البشرى، بأنه سيرزق إسحاق، وأن إسحاق سيرزق يعقوب، ولا يجوز للنبي أن يشك في بشارة الله تعالى، فلو كان إسحاق هو الذبيح، ما صح أن يأمره بذبحه قبل خروج يعقوب من ظهره، لأنه كان إذا أمر بذلك، علم أن البشرى الأولى، تمنع من ذبح إسحاق قبل ولادة يعقوب، وكان لا يصح تكليفه ذبح من يعلم أنه لا يموت أو يخرج من ظهره من لم يخرج بعد، ومتى وقع التكليف على هذا، لم يكن فيه ثواب، وفي قوله تعالى: " إن هذا هو البلاء المبين " . دليل على عظم ثواب إبراهيم، وصحة الأمر بالذبح، يبين ذلك قوله تعالى: " فلما أسلما وتلّه للجين " ، أي استسلما لأمر الله، وهما لا يشكان في وقوع الذبيح على الحقيقة حتى فداه الله تبارك وتعالى، فهذا دليل على أن الذبيح غير إسحاق، ولم يكن لإبراهيم ولد غير إسحاق، إلا إسماعيل صلى الله عليهم أجمعين.

### قصة لوط عليه السلام

ومن هذا الباب قصة لوط عليه السلام، لما نهي قومه عن الفاحشة، فعصوه، وكذبوه، وتضييفه الملائكة، فطالبوه فيهم بما طالبوه، فحسف الله بهم أجمعين، ونجى لوطاً، وأثابه ثواب الشاكرين، وقد نطق بهذا كلام الله العظيم في مواضع من الذكر الحكيم.

## قصة يعقوب ويوسف عليهما السلام

ويعقوب ويوسف عليهما السلام، فقد أفرد الله تعالى بذكر شأنهما، وعظيم بلوَاهما وامتحانهما، سورة محكمة، بين فيها كيف حسد إخوة يوسف، يوسف، على المنام الذي بشره الله تعالى فيه بغاية الإكرام، حتى طرحوه في الحب، فخلصه الله تعالى منه، بمن أدلى الدلو، ثم استعبد، فألقى لله تعالى في قلب من صار إليه إكرامه، واتخاذ له ولدًا، ثم مراودة امرأة العزيز إياه عن نفسه، وعصمة الله له منها، وكيف جعل عاقبته بعد الحبس، إلى ملك مصر، وما لحق يعقوب من العمى لفرط البكاء، وما لحق إخوة يوسف من التسرق، وحبس أحلهم نفسه، حتى يأذن له أبوه، أو يحكم الله له، وكيف أهدى يوسف إلى أبيه قميصه، فرد الله به بصيرًا، وجمع بينهم، وجعل كل واحد منهم بالباقيين وبالنعمة مسرورًا.

## قصة أيوب عليه السلام

وأيوب عليه السلام، وما امتحن به من الأسقام وعظم الأذى، والدود والأذى، وجاء القرآن بذكره، ونظمت الأخبار بشرح أمره، قال الله تعالى: " وأيوب إذ نادى ربه، آتني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له، فكشفنا ما به من ضر، وآتيناه أهله، ومثلهم معهم، رحمة من عندنا، وذكرى للعابدين ". وأخبرنا أبو علي الحسن بن محمد بن عثمان الفسوي، قراءة عليه بالبصرة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، قال: حدثنا يعقوب بن سفيان الفسوي، قال: حدثنا عمرو بن مرزوق، قال: حدثنا شعبة، عن قتادة، عن النضر بن أنس عن بشير بن هنيك عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: لما عافى الله عز وجل أيوب عليه السلام، أمطر عليه جرادًا من ذهب، قال: فجعل يأخذه، ويجعله في ثوبه، فقيل له: يا أيوب أما تشيع؟ قال: ومن يشيع من رحمة الله؟.

## قصة يونس عليه السلام

ويونس عليه السلام، وما اقتص الله تعالى من قصته في غير موضع من كتابه، ذكر فيها التقام الحوت له، وتسيحه في بطنه، وكيف نجاه الله عز وجل، فأعقبه بالرسالة والصنع. قال الله تعالى: " وإن يونس لمن المرسلين، إذ أبق إلى الفلك المشحون، فسأهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أنه كان من المسبحين، للبت في بطنه إلى يوم يبعثون، فنبذناه بالعراء وهو سقيم، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ". قال صاحب الكتاب: أو ها هنا ظاهرها الشك، وقد ذهب إلى ذلك قوم، وهو خطأ، لأن الشك، لا يجوز على الله تعالى، العالم لنفسه، العارف بكل شيء قبل كونه، وقد روي عن ابن عباس، وهو الوجه، أنه قال: أو يزيدون، بل يزيدون، وقال: كانت الزيادة ثلاثين ألفًا، وروي عن ابن جبير ونوف الشامي أنهما قالا: كانت الزيادة سبعين ألفًا، فقد ثبت أن أو هنا، بمعن بل وقد ذهب إلى هذا، الفراء، وأبو عبيدة، وقال آخرون: إن أو هنا، بمعنى ويزيدون. ومنها قوله تعالى: " وذا النون إذ ذهب مغاضبًا، فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له، ونجينا من الغم، وكذلك نجى المؤمنين "، قال بعض المفسرين: معنى لن نقدر عليه لن نصيق عليه.

وهذا مثل قوله: " ومن قدر عليه رزقه، فلينفق مما آتاه الله " ، أي ضيق عليه، ومثل قوله: " قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه " .  
وقد جاء قدر بمعنى ضيق في القرآن، في مواضع كثيرة، ومن هذا قيل للفرس الضيق الخطو: فرس أقدر، لأنه لا يجوز أن يهرب من الله تعالى نبي من أنبيائه، والأنبياء لا يكفرون، ومن ظن أن الله تعالى لا يقدر عليه، أي لا يدركه، أو أنه يعجز الله هرباً، فقد كفر، والأنبياء عليهم السلام، أعلم بالله سبحانه، من أن يظنوا فيه هذا الظن الذي هو كفر. وقد وري: أن من أدام قراءة قوله عز وجل: " وذا النون إذ ذهب مغاضباً.. الآية " ... إلى قوله: المؤمنين، في الصلاة، وغيرها، في أوقات شدائده، عجل الله له منها فرجاً ومخرجاً.

وأنا أحد من واصلها في نكبة عظيمة لحقتني، يطول شرحها وذكرها عن هذا الموضع، وكنت قد حبست، وهددت بالقتل، ففرج الله عني، وأطلقت في اليوم التاسع من يوم قبض علي فيه.

### قصة موسى بن عمران عليه السلام

وموسى بن عمران عليه السلام، فقط نطق القرآن بقصته في غير موضع، منها قوله تعالى: " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي، ولا تحزني، إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك، لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وهم لا يشعرون، وأصبح فرؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصية، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون، وحرّمتنا عليه المراضع من قبل، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثرهم لا يعلمون " .

فلا شدة أعظم من أن يتبلى الناس بملك يذبح أبناءهم، حتى ألفت أم موسى ابنها في البحر مع طفولته، ولا شدة أعظم من حصول طفل في البحر، فكشف الله تبارك اسمه ذلك عنه، بالتقاط آل فرعون له، وما ألقاه في قلوبهم من الرقة عليه، حتى استحيوه، وتحريم المراضع عليه حتى رده إلى أمه، وكشف عنها الشدة من فراقه، وعنه الشدة في حصوله في البحر.

ومعنى قوله تعالى: ليكون لهم عدواً وحزناً، أي يصير عاقبة أمره معهم إلى عداوة لهم، وهذه لام العاقبة، كما قال الشاعر:

لئولاء الموت وابنوا للخراب ... وكلّكم يصير إلى ذهاب

وقد علم أن الولادة لا يقصد بها الموت، والبناء لا يقصد به الخراب، وإنما عاقبة الأمر فيهما تصير إلى ذلك. وعلى الوجه الأول، قوله تعالى " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس " أي إن عاقبة أمرهم، وفعلهم، واختيارهم لنفوسهم، يصيرهم إلى جهنم، فيصرون لها، لأن الله عز وجل، لم يخلقهم ليقصد تعذيبهم بالنار في جهنم، عز الله عن هذا الظلم.

وجعل الله عاقبة أمر موسى عليه السلام، من تلك الشدائد، وشدائد بعدها، إذ أرسله إلى فرعون، لتخليص بني إسرائيل، وقصصه التي قبلها، وحديثه إذ خرج خائفاً يترقب، فهذه شدة أخرى كشفها الله تعالى عنه من تلك الشدائد، وشدائد بعدها، نالته، يأتي ذكرها، أن بعثه نبياً، وأقصد به بني إسرائيل من الشدائد التي كانوا فيها مع

فرعون، فقال عز وجل، في تمام هذه القصة: " وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى، قال: يا موسى إنّ اللأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين، فخرج منها خائفاً يترقب، قال: ربّ نجني من القوم الظالمين " ، فهذه شدة أخرى كشفها الله عز وجل.

قال تعالى: " ولما توجه تلقاء مدين، قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، ولما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال: ما خطبكما، قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما، ثم تولى إلى الظلّ، فقال ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير " ، فهذه شدة أخرى، لحقته بالاغتراب، والحاجة إلى الاضطراب في المعيشة والاكتساب، فوفق الله تعال له شعبياً، قال الله عز وجل، في تمام هذه القصة: " فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فلما جاءه، وقصّ عليه القصص، قال لا تخف، نجوت من القوم الظالمين " .

ثم أخبر الله تعالى في هذه القصة، كيف زوجه شعيب ابنته، بعد أن استأجره ثمانى حجج، وأنه خرج بأهله من عند شعيب، فرأى النار، فمضى يقتبس منها، فكلمه الله تعالى، وجعله نبياً، وأرسله إلى فرعون، فسأله أن يرسل معه أخاه هارون، فشد الله تعالى عضده به، وجعله نبياً معه، فأمر فرج أحسن من فرج أتى رجلاً خائفاً، هارباً، فقيراً، قد آجر نفسه ثمانى حجج، بالنبوة والملك ؟

قال الله تعالى في سورة الأعراف: " وقال اللأ من قوم فرعون، أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، ويدرك وآهلك، قال: سنقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم، وإنّا فوقهم قاهرون " ، فهذه شدة لحقت بني إسرائيل، فكشفها الله عنهم، قال سبحانه: " قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا، ومن بعدنا جتنا، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون " .

وقال تعالى، في تمام هذه القصة، في هذه السورة، بعد آيات، " وتمّت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون " ، فأخبر تعالى عن صنع لهم، وقلقه البحر حتى عبروه يبساً، وإغراقه فرعون لما اتبعهم.

وكل هذه أخبار عن محن عظيمة المجت بمرح جلييلة، لا يؤدي شكر الله عليها، ويجب على العاقل تأملها، ليعرف كنه تفضل الله عز وجل بكشف شدائده وإغاثته، بإصلاح كل فاسد لمن تمسك بطاعته، وأخلص في خشيته، وأصلح من نيته، فسلك هذه السبيل، فإنها إلى النجاة من المكارة، أوضح طريق، وأهدى دليل.

### قصة أصحاب الأخلود

وذكر الله سبحانه وتعالى، في " والسماء ذات البروج " ، أصحاب الأخلود، وروى قوم من أهل الملل المخالفة للإسلام عن كتبهم أشياء من ذلك، فذكرت اليهود والنصارى: أن أصحاب الأخلود كانوا دعاة إلى الله، وأن ملك بلدهم، أضرم لهم ناراً، وطرحهم فيها، فاطلع الله تعالى على صبرهم، وخلوص نيلهم في دينه وطاعته، فأمر النار أن لا تحرقهم، فشوهوا فيها قعوداً، وهي تضطرم عليهم، ولا تحرقهم، ونجوا منها، وجعل الله دائرة السوء على الملك، وأهلكه.

### قصة دانيال عليه السلام

وذكر هؤلاء القوم: أن نبياً، كان في بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام بزمان طويل، يقال له دانيال، وأن قومه كذبوه، فأخذوه ملكهم، فقدموه إلى أسد مجموعة في جب، فلما اطلع الله تعالى على حسن اتكاله عليه، وصبره طيباً لما لديه، أمسك أفواه الأسود عنه، حتى قام على رؤوسها برجليه، وهي مذلة، غير ضارة له، فبعث الله تعالى إرميا من الشام، حتى تخلص دانيال من هذه الشدة، وأهلك من أراد إهلاك دانيال.

وعضدت روايتهم، أشياء رواها أصحاب الحديث، منها ما حدثناه علي ابن الطيب الحسن بن علي بن مطرف الرامهرمزي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الجراح، قال: حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي، قال: حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني، قال: إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان، فحدثنا بعض أصحابنا عنه، عن الأجلح الكندي، عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: ضرى بخت نصر أسدين، فألقاهما في جب، وجا بدانيال فألقاه عليهما، فلم يهيجاه، فمكث ما شاء الله، ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون، من الطعام والشراب، فأوحى الله إلى إرميا، وهو بالشام، أن أعد طعاماً وشراباً لدانيال، فقال: يارب، أنا بالأرض المقدسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله تعالى إليه أن أعد ما أمرناك به، فإنا سنرسل إليك من يملكك، ويحمل ما أعددت ففعل، فأرسل الله إليه من حملة، وحمل ما أعد، حتى وقف على رأس الجب.

فقال دانيال: من هذا؟ قال: أنا إرميا.

قال: ما جاء بك؟ قال: أرسلني إليك ربك.

قال: وذكرني؟ قال: نعم.

قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يجيب من رجاه والحمد لله الذي من توكل عليه كفاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، وبالسيئات غفراناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي يكشف ضرنا، بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقنا، حين تسوء ظنوننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا، حين تنقطع الحيل منا.

### الشذائد التي جرت على نبينا محمد صلوات الله عليه

وقد ذكر الله تعالى في محكم كتابه، الشدة التي جرت على محمد صلى الله عليه، وعلى آله الأخيار، فيما اقتضه من قصة الغار، فقال سبحانه: "إلا تنصروه، فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم".

وروى أصحاب الحديث، ما يطول إعادته بألفاظه وأسانيده، أن النبي صلى الله عليه وسلم، لما خاف أن يلحقه المشركون، حين سار عن مكة مهاجراً، دخل الغار هو وأبو بكر الصديق، فاستخفى فيه، فأرسل الله عنكبوتاً فنسج في الحال على باب الغار، وحمامة عششت، وباضت، وفرخت للوقت، فلما انتهى للمشركون إلى الغار، رأوا ذلك، فلم يشكوا أنه غار لم يدخله حيوان منذ حين، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر، ليريان أقدامهم، ويسمعان كلامهم، فلما انصرفوا، وأبعدوا، وجاء الليل، خرجا، فسارا نحو المدينة، فورداهما سالمين. وروى أصحاب الحديث أيضاً، من شرح حال النبي صلى الله عليه وسلم، في المحن التي لحقت من شق الفرث عليه، ومحاوله أبي جهل، وشيبة وعتبة ابني ربيعة، وأبي سفيان صخر بن حرب والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط،



وغيرهم، قتله، وما كانوا يكشفونه به، من السب والتكذيب، والاستهزاء والقدح والتأنيب، ورميهم إياه بالجنون، وقصدهم إياه غير دفعة بأنواع الأذى والعصية والافتراء، وحصرهم إياه صلى الله عليه وسلم، وجميع بني هاشم في الشعب، وتخويفهم إياه، وتدبيرهم أن يقتلوه، حتى بعد، وبيت علياً عليه السلام، على فراشه، ما يطول اقتصاصه، ويكثر شرحه، ثم أعقبه الله تعالى، من ذلك، بالنصر والتمكين، وإعزاز الدين، وإظهاره على كل دين، وقمع الجاحدين والمشركين، وقتل أولئك الكفرة المارقين والمعاندين، وغيرهم من المكذبين الكاذبين، الذين كانوا عن الحق ناكثين، وبالدين مستهزئين، وللمؤمنين مناصيين متوعدين، وللنبي صلى الله عليه وسلم مكاشفين محاربين، وأذل من بقي بعز الإسلام بعد أن عاذ بإظهاره، وأضمر الكفر في إسراره، فصار من المنافقين الملعونين، والحمد لله رب العالمين.

### أخبار جلاء في آيات من القرآن وهي تجري في هذا الباب وتتضاف إليه

حدثنا علي بن أبي الطيب بن مطرف، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الجراح، قال حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، قال: حدثنا إبراهيم بن راشد، قال: حدثنا عبد الرحمن بن حماد الشعبي، قال: حدثنا كههمس بن الحسن، عن أبي السليل، قال: قال أبو ذر: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم، يتلو هذه الآية: " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره "، ثم يقول: يا أبا ذر، لو أن الناس كلهم أخذوا بما لكفتهم.

وحدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، قال: حدثنا سفیان، عن مسعر، عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال إن بني فلان أغاروا علي، فذهبوا يابلي وائني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن آل محمد، لكذا وكذا أهل، ما فيهم مد من طعام، أو صاع من طعام، فسل الله عز وجل. فرجع إلى امرأته، فقال: ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرها.

فقلت: نعم ما ردك إليه.

فما لبث أن رد الله عليه إبله أوفر ما كانت، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره.

فصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وأمر الناس بمسألة الله عز وجل، والرجوع إليه، والرغبة فيه، وقرأ عليهم " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب " .

وحدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الفرسي، عن إسحاق بن سليمان، عن معاوية بن يحيى، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء، وسئل عن هذه الآية: " كل يوم هو في شأن "، قال: سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن من شأنه أن يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويرفع آثماً، ويضع آخرين.

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب، قال: أنبأنا محمد بن عبد الواحد، أبو عمر، قال:

حدثنا بشر بن موسى الأسدي، قال: حدثنا أبو بكر الأسدي، قال: حدثنا أبو حاتم الرازي، قال: حدثنا محمد بن عبد الكريم، قال: سمعت سعيد بن عنبسة يقول: بينما رجل جالس وهو يعث بالخصى ويجذف بها، إذ رجعت حصاة منها فصارت في أذنه، فجهد بكل حيلة، فلم يقدر على إخراجها، فبقيت الحصاة في أذنه دهنراً تؤلمه، فبينما

هو ذات يوم جالس، إذ سمع قارئاً يقرأ: " أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ... الآية " ، فقال الرجل: يا رب أنت الجيب، وأنا المضطر، فكشف ضم ما أنا فيه، فنزلت الحصاة من أذنه. قال مؤلف هذا الكتاب: وقد لقيت أنا أبا عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب، وبالزاهد، وهملت عنه، وأجاز لي جميع ما يصح عندي من رواياته، ولم أسمع هذا الخبر منه، إلا أنه قد دخل في الإجازة. حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا خالد بن خدّاش، قال: حدثنا عبد الله بن زيد بن أسلم، عن أبيه زيد عن أبيه أسلم: أن أبا عبيدة حصر، فكتب إليه عمر: مهما نزل بامرئ من شدة، يجعل له الله بعدها فرجاً، ولن يغلب عسر يسرين، فإنه يقول: " اصبروا، وصابروا، وربطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون " .

حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا الحسن بن علي، قال: حدثنا أحمد بن صالح، قال: حدثنا عبد الله بن وهب، قال: حدثنا أبو صخر: أن يزيد الرقاشي حدثه، قال: سمعت أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إن يونس عليه السلام، حين بدا له أن يدعو الله عز وجل بالظلمات، حين ناداه وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم، " لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين " ، فأقبلت الدعوة تحف بالعرش. فقال الملائكة: يا رب هذا صوت ضعيف مكروب، من بلاد غربة.

فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: ومن هو؟ قال: ذاك عبدي يونس، الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مجابة. قالوا: يا رب، أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء، فتجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه بالعراء. قال أبو صخر: فأخبرني أبو سعيد بن سبيط وأنا أحدثه بهذا الحديث، أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، فأثبت الله عليه اليقطينة.

قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء.

قال أبو هريرة: هيأ الله تعالى له أروية وحشية تأكل من حشيش الأرض، فتجيء، فتفشج له، وترويه من لبنها كل عشية وبكرة، حتى نبت، يعني لحمه.

وقال أمية بن أبي الصلت، قبل الإسلام، في ذلك، بيتاً من الشعر:

فأنبت يقطيناً عليه برحمة ... من الله، لولا الله ألقى ضاحياً

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثني ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا يوسف بن موسى، قال: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، قال: حدثنا عبد الله ابن مسعود في بيت المال، قال: لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام، أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونس تسبيح الحصى في الظلمات، ظلمات ثلاث، بطن الحوت، وظلمات الليل، وظلمة البحر، فنأدى في الظلمات " أن لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين " فنبذناه بالعراء وهو سقيم " ، قال: كهياة القرخ المعوط، الذي ليس له ريش.

أبو الحسن بن أبي الليث الكاتب يطلق من حبسه على إثر دعاء دعا به

حدثني فتى من الكتاب البغداديين، يعرف بأبي الحسن بن أبي الليث، وكان أبوه من كتاب الجليل، يتصرف مع لشكروورز بن سهلان الديلمي، أحد الأمراء - كان - في عسكر معز الدولة، قال: قرأت في بعض الكتب، إذا دهمك أمر تخافه، فبت وأنت طاهر، على فراش طاهر، وثياب كلها طاهرة، وقرأ: " والشمس وضحاها " ، إلى

آخر السورة، سبعاً، " والليل إذا يغشى " إلى آخر السورة، سبعاً، ثم قل: اللهم اجعل لي فرجاً ومخرجاً من أمري، فإنه يأتيك في الليلة الأولى أو الثانية، وإلى السابعة، آت في منامك، يقول لك: للمخرج منه كذا وكذا.

قال: فحبست بعد هذا بسنين، حبسة طالت حتى أيست من الفرج، فذكرته يوماً وأنا في الحبس، ففعلت ذلك، فلم أر في الليلة الأولى، ولا الثانية، ولا الثالثة شيئاً، فلما كان في الليلة الرابعة، فعلت ذلك على الرسم، فرأيت في منامي، كأن رجلاً يقول لي: خلاصك على يد علي بن إبراهيم.

فأصبحت من غد متعجباً، ولم أكن أعرف رجلاً يقال له علي بن إبراهيم، فلما كان بعد يومين، دخل إلي شاب لا أعرفه، فقال لي: قد كفلت بما عليك، فقم، وإذا معه رسول إلى السجن بتسليمي إليه، فقمتم معه، فحملني إلى منزلي، وسلمني فيه، وانصرف.

فقلت لهم: من هذا؟ فقالوا: رجل بزاز من أهل الأهواز، يقال له علي بن إبراهيم، يكون في الكرخ، قيل لنا إنه صديق الذي حبسك، فطرحنا أنفسنا عليه، فتوسط أمرك، وضمن ما عليك، وأخرجك.

قال مؤلف هذا الكتاب: فلما كان بعد سنين، جاءني علي بن إبراهيم هذا، وهو معاملي في البز، منذ سنين كثيرة، فذاكرته بالحديث، فقال: نعم، كان هذا الفتى قد حبسه عبدوس بن أخت أبي علي الحسن بن إبراهيم النصراني، خازن معز الدولة، وطالبه بخمسة آلاف درهم، كانت عليه من ضمانه، وكان عبدوس لي صديقاً، فجاءني من سألني خطابه في أمر هذا الرجل، وجرى الأمر على ما عرفتك.

اللهم اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً

وما أعجب هذا الخبر، فإني قد وجدته في عدة كتب، بأسانيد، وبغير أسانيد، على اختلاف الألفاظ، والمعنى قريب، وأنا أذكر أصحابها عندي: وجدت في كتاب محمد بن جرير الطبري، الذي سماه: كتاب الآداب الحميدة، والأخلاق النفيسة، حدثني محمد بن عمارة الأسدي، قال: حدثنا عبد الله بن يزيد، قال: أنبأنا أنيس بن عمران النافعي أبو يزيد، عن روح ابن الحارث بن حبش الصنعاني، عن أبيه، عن جده، أنه قال لبنيه: يا بني، إذا دهمكم أمر، أو كربكم، فلا يبيت أحد منكم، إلا وهو طاهر، على فراش طاهر، في لحاف طاهر، ولا تبيت معه امرأة، ثم ليقرأ والشمس وضحاها، سبعاً، والليل إذا يغشى، سبعاً، ثم ليقل: اللهم اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، فإنه يأتيه آت في أول ليلة، أو في الثالثة، أو في الخامسة، وأظنه قال: أو في السابعة، فيقول له: للمخرج مما أنت فيه كذا وكذا. قال أنيس: فأصابني وجع لم أدر كيف أزيله، ففعلت أول ليلة هكذا، فأتاني اثنان فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: جسده، فلمس جسدي كله، فلما انتهى إلى موضع من رأسي، قال: احجمها هنا، ولا تحلق، ولكن اطله بغرا، ثم التفت إلي أحدهما، أو كلاهما، فقالا لي: كيف لو ضممت إليهما " والزينون ".

قال: فلما أصبحت سألت أي شيء الغرا؟، فقليل لي: الخطمي، أو شيء تستمسك به الحجمة، فاحتجمت، فبرئت، وأنا ليس أحدث بهذا الحديث أحداً، إلا وجد فيه الشفاء بإذن الله تعالى، وأضم إليها التبن والزيتون.

من يتوكل على الله فهو حسبه

ووجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي عبد الواحد بن نصر، عن أبي القاسم عبد الرحمن بن العباس، قال: حدثني أبو ساعدة بن أبي الوليد بن أحمد بن أبي داود، قال: حدثني أبي، قال:.

حدثنا إبراهيم بن رباح، قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، قال: حدثنا الواثق، قال: حدثنا المعتصم: أن قومًا ركبوا البحر، فسمعوا هاتفاً يهتف بهم، من يعطيني عشرة آلاف دينار حتى أعلمه كلمة، إذا أصابه غم، أو أشرف على هلاك، فقالها، انكشف ذلك عنه.

فقام رجل من أهل المركب، معه عشرة آلاف دينار، فصاح: أيها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وعلمي. فقال: ارم بالمال في البحر، فرمى به، وهو بدرتان فيهما عشرة آلاف دينار.

فسمع الهاتف يقول: إذا أصابك غم، أو أشرفت على هلكة، فاقراً: " ومن يتق الله، يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً ". فقال جميع من في المركب للرجل: لقد ضيعت مالك.

فقال: كلاً، إن هذه لعظة ما أشك في نفعها.

قال: فلما كان بعد أيام، كسر بهم المركب، فلم ينج منهم أحد غير ذلك الرجل، فإنه وقع على لوح. فحدث بعد ذلك، قال: طرحني البحر على جزيرة، فصعدت أمشي فيها، فإذا بقصر منيف، فدخلته، فإذا فيه كل ما يكون في البحر من الجواهر وغيرها، وإذا بامرأة لم أر قط أحسن منها. فقلت لها: من أنت وأي شيء تعملين ها هنا؟

قال: أنا بنت فلان بن فلان التاجر بالبصرة، وكان أبي عظيم التجارة، وكان لا يبصر عني، فسافر بي معه في البحر، فانكسر مركبنا، فاختطفت، حتى حصلت في هذه الجزيرة، فخرج إلي شيطان من البحر، يتلاعب بي سبعة أيام، من غير أن يطأني، إلا أنه يلامسني، ويؤذيني، ويتلاعب بي، ثم ينظر إلي، ثم ينزل إلى البحر سبعة أيام، وهذا يوم موافاته، فاتق الله في نفسك، واخرج قبل موافاته، وإلا أتى عليك.

ما انقضى كلامها حتى رأيت ظلمة هائلة، فقالت: قد والله جاء، وسيهلكك.

فلما قرب مني، وكاد يغشاني، قرأت الآية، فإذا هو قد خر كقطعة جبل، إلا أنه رماد محترق.

فقالت المرأة: هلك والله، وكفيت أمره، من أنت يا هذا الذي من الله علي بك؟ فقامت أنا وهي، فانتخبنا ذلك الجوهر، حتى حملنا كل ما فيه من نفيس وفاخر، ولزمتنا الساحل نهارنا أجمع، فإذا كان الليل، رجعنا إلى القصر.

قال: وكان فيه ما يؤكل، فقلت لها: من أين لك هذا؟ فقالت: وجدته ها هنا.

فلما كان بعد أيام رأينا مركباً بعيداً، فلوحنا إليه، فدخل، فحملنا، فسلمنا الله تعالى إلى البصرة، فوصفت لي منزل أهلها، فأتيهم.

فقالوا: من هذا؟ فقلت: رسول فلانة بنت فلان.

فارتفعت الواعية، وقالوا: يا هذا لقد جددت علينا مصابنا.

فقلت: اخرجوا، فخرجوا.

فأخذتهم حتى جنت بهم إلى ابنتهم، فكاذوا يموتون فرحاً، وسألوها عن خبرها، فقصته عليهم.

وسألهم أن يزوجوني بها، ففعلوا، وحصلنا ذلك الجوهر رأس مال بيني وبينها. وأنا اليوم أيسر أهل البصرة، وهؤلاء أولادي منها.

المعلی بن ایوب الكاتب يتخلص من الفضل ابن مروان بدعاء دعا به

وذكر أبو عبد الله محمد بن عبدلوس الجهشياري، في كتابه، كتاب الوزراء، أن المعلى بن عبد الله بن المعلى بن أيوب، حدثه عن أبيه، قال: قال لي المعلى بن أيوب: أعنتني الفضل بن مروان، ونحن في بعض الأسفار وطالني بعمل طويل يعمل في مدة بعيدة، واقتضانيه في كل يوم مراراً، إلى أن أمرني عن المعتصم بالله أن لا أبرح إلا بعد الفراغ منه.

فقعدت في ثيابي، وجاء الليل، فجعلت بين يدي نفاطة، وطرح غلماي أنفهم حولي، وورد علي هم عظيم، لأنني قلت: ما تجاسر علي أن يوكل بي إلا وقد وقف على سوء رأيي من المعتصم.

فإني لجالس، وذقني على يدي، وقد مضى الليل، وأنا متفكر، فحملتني عياني، فرأيت كأن شخصاً قد مثل بين يدي، وهو يقول: " قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر، تدعوناه تضرعاً وخفية، لئن أنجيتنا من هذه، لنكوننّ من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كلّ كرب ".

ثم انتبهت، فإذا أنا بمشعل قد أقبل من بعيد، فلما قرب مني كان وراءه محمد بن حماد دقش صاحب الحرس، وقد أنكر نفاطتي، فجاء يعرف سببها، فأخبرته خبري.

فمضى إلى المعتصم، فأخبره، فإذا الرسل يطلبوني، فدخلت إليه، وهو قاعد، ولم يبق بين يديه من الشمع إلا أسفله. فقال لي: ما خبرك؟ فشرحت له.

فقال: ويلى على النبطي، يمتهنك، وأي يد له عليك، أنت كاتبتي، كما هو كاتبتي، انصرف.

فلما وليت، رديني، واستدنانني، ثم قال لي: تمضي مديدة، ثم ترى فيه ما تحب.

قال: فانصرفت، وبكرت إلى الفضل على عادي، لم أنكر شيئاً.

### ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل

وحدثني أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازي الكاتب، في المذاكرة، في خبر طويل، لست أقوم على حفظه: أن رجلاً كانت بينه وبين رجل متمكن من أذاه عداوة، فخافه خوفاً شديداً، وأهمه أمره، ولم يدر ما يصنع. فرأى في منامه، كأن قاتلاً يقول له: اقرأ في كل يوم، في إحدى ركعتي صلاة الفجر، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.. إلى آخر السورة.

قال: فقراءتُها، فما مضت إلا شهور، حتى كفيت أمر ذلك العدو، وأهلكه الله تعالى، فأنا أقرؤها إلى الآن.

قال مؤلف هذا الكتاب: دفعت أنا إلى شدة لحقتني شديدة، من عدو، فاستترت منه، فجعلت دأبي قراءة هذه السورة في الركعة الثانية من صلاة الفجر، في كل يوم، وأنا أقرأ في الأولة منها: ألم نشرح لك صدرك... إلى آخر السورة، لخبر كان بلغني أيضاً فيها، فلما كان بعد شهور، كفاني الله أمر ذلك العدو، وأهلكه الله من غير سعي لي في ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأنا أقرؤها في ركعتي الفجر إلى الآن.

### إذا ضاق بك الصدر ففكر في ألم نشرح

وأما الخبر في: ألم نشرح لك صدرك، فإن أبا بكر بن شجاع، المقرئ البغدادي، الذي كان يخلفني على العيار في دار الضرب بسوق الأهواز، في سنة ست وأربعين وثلاثمائة، وكان خازن المسجد الجامع بها، وكان شيخاً محدثاً ثقة نيلاً، من أمناء القاضي الأحنف وهو محمد بن عبد الله بن علي بن محمد ابن أبي الشوارب، حدثنا بإسناد له ذكره، لم أحفظه، ولا المتن بلفظه، وبعد عن يدي إخرجه من الأصل، وقد تحريت مقارنة اللفظ بجهدني، ولعله يزيد أو

ينقص: أن بعض الصالحين، ألح عليه الغم، وضيق الصدر، وتعذر الأمور، حتى كاد يقنط، فكان يوماً يمشي، وهو يقول:

أرى الموت لمن أمسى ... على الذلّ له أصلح

فهتف به هاتف، يسمع صوته، ولا يرى شخصه، أو أرى في النوم - أنا الشاك - كأن قائلاً يقول:

ألا يا أيها المرء ... الذي الهمّ به برّح

إذا ضاق بك الأمر ... ففكّر في ألمٍ نَشْرَح

قال: فواصلت قراءتها في صلاتي، فشرح الله صدري، وأزال همي وكربي، وسهل أمري، أو كما قال: وحدثني غيره بهذا الخبر، على قريب من هذا، وزادني في الشعر:

فإن العسر مقرون ... ييسرين فلا تبرح

وقد ذكر القاضي أبو الحسين، في كتابه كتاب الفرج بعد الشدة البيتين المتصلين فقط، وقال في الآخر منهما: إذا أعضلك الأمر، ولم يذكر لهما خبراً، ويروى أيضاً: إذا لج بك الأمر.

وروى غيره البيتين الأولين لأبي العنابية، في غير حديث له.

## الباب الثاني

### ما جاء في الآثار من ذكر الفرج

بعد اللأواء وما يتوصل به إلى كشف نازل الشدة والبلاء

### أفضل العبادة انتظار الفرج من الله تعالى

أخبرني القاضي أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التوحي، أبي رحمه الله تعالى، قال: حدثنا محمد بن إبراهيم الصلحي، قال: حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا حماد بن واقد.

وحدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأزدي، قال: حدثنا حماد بن واقد، قال: حدثنا إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق الهمداني، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلوا الله عز وجل من فضله، فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج من الله تعالى.

أخبرني أبي، قال: حدثنا الفضل بن محمد العطار الأنطاكي، قال: حدثنا سليمان بن سلمة، قال: حدثنا بقية، عن مالك، عن الزهري، عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: انتظار الفرج من الله تعالى عبادة. أخبرني أبي، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الكوفي، قال: حدثنا حسين ابن حسن، عن سفيان بن إبراهيم، عن حنظلة المكي، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انتظار الفرج عبادة. حدثني أبي، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني علي بن موسى الرضا، قال: حدثني أبي موسى، قال: حدثني أبي جعفر، قال: حدثني أبي محمد، قال: حدثني أبي علي قال: حدثني أبي الحسين، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل.

أخبرني أبي، قال: حدثني أحمد بن عبد الله بن النعمان، قال: حدثني محمد بن يعقوب بن إسحاق الأعرج، قال: حدثنا عبد الله بن محمد عن سعدويه، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن بكر، قال: حدثنا عبد العزيز ابن عبد الله عن علي بن أبي علي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جده، عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لعلي عليه السلام، في حديث ذكره: واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً.

### اشتدتي أزمة تنفرجي

أخبرني أبي، قال: كتب إلي عبد الله بن مبشر، حدثنا أبو الأشعث، قال: حدثنا أمية بن خالد، عن الحسين بن عبد الله بن ضميرة، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشتدتي أزمة تنفرجي.

حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني علي بن الجعد، قال: أخبرني شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا وائل يحدث عن كردوس بن عمرو، وكان ممن قرأ الكتب: إن الله عز وجل يتلي العبد وهو يحبه، ليسمع تضرعه.

### النصر مع الصبر والفرج مع الكرب

حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا أبو سعيد المدني، قال: حدثني أبو بكر بن أبي شيبه الحزامي، قال: حدثني محمد بن إبراهيم بن المطلب بن أبي وداعة السهمي، قال: حدثنا زهرة بن عمرو التيمي عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لعبد الله بن عباس: ألا أعلمك كلمات تنفع بهن؟ قال: بلى، يا رسول الله. قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة، فإذا سألت، فسل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، جف القلم بما كان وما هو كائن، فلو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عز وجل لك، لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق واليقين، فافعل، فإن لم تستطع، فإن في الصبر على ما تكره، خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً.

### المعونة على قدر المؤونة

أخبرني أبي، قال: حدثت عن إسحاق بن الضيف، قال: حدثنا داود ابن الحبر، قال: حدثنا عبد الله بن أبي رزين، عن فراس بن يحيى، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن المعونة من الله عز وجل، تأتي العبد على قدر المؤونة، وإن الصبر يأتي على قدر شدة البلاء. وربما قال: إن الفرج يأتي من الله تعالى، على قدر شدة البلاء.

من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته

حدثنا أبو محمد وهب بن يحيى بن عبد الوهاب المازني، لفظاً من حفظه، في داره بالبصرة، ببني سلوس الباطنة، بحضرة قبر مجاشع ومجالد السلمي، صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالقرب من بني يشكر، قال: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، قال: أنبأنا محمد بن بكر البرساني، عن ابن جريج، عن ابن المنكدر، عن أبي أيوب، عن مسلمة بن مخلد، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: من ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن فك عن مكروب، فك الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته.

### إن الله في عون العبد ما دام في عون أخيه

أخبرني أبي، قال: حدثنا أبو عقيل الخولاني، قال: حدثنا مؤمل بن إهاب، قال: حدثنا مالك بن سعيد، عن الأعمش. وأنبأنا نصر بن القاسم، قال: حدثنا الوكيعي، قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش. قال أبي: وأنبأنا ابن بنت منيع من طريق آخر، واللفظ له، قال: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، قال: حدثنا حماد عن محمد بن واسع، وأبي سورة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ستر أخاه المسلم، ستره الله يوم القيامة، ومن نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، وإن الله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه. أخبرني أبي، قال: حدثنا محمد بن محمد، قال: حدثنا محمد بن عبد الملك بن مغيث، قال: أخبرني أبي عن جدي، قال: حدثنا عقيل بن شهاب، أن سالم بن عبد الله بن عمر أخبره، أن ابن عمر أخبره، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: من كان في حاجة أخيه كان الله تعالى في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة. هذا حديث مشهور، جاء به أبو داود، في كتاب السنن، الذي حدثنا به عنه، محمد بن بكر بن داسه، باختلاف في اللفظ، وليس غرضي جمع طرقه وألفاظه، فآتي بها مستقصاة.

### من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا

حدثنا أحمد بن عبد الله بن أحمد الوراق، قال: حدثنا أبو حامد محمد ابن هارون الحضرمي، قال: حدثنا محمد بن صالح النطاح، قال: حدثنا المنذر بن زياد الطائي، قال: حدثنا عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده، رضي الله عنهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال:

من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب.

حدثنا علي، قال حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا خالد بن خدّاش، قال: حدثنا عبد الرزاق عن بشر بن رافع الحارثي، عن محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قول لا حول ولا قوة إلا بالله، دواء من تسعة وتسعين داء، أيسرها الهم. أخبرنا أبو محمد الحسن بن خلاد الرامهرمزي، خليفة أبي علي القضاة، قال: أخبرنا وكيع، أن القاسم بن إسماعيل أبا المنذر السورمي حدثه: قال: حدثنا نصر بن زياد، قال: كنت عند جعفر بن محمد، فأتاه سفيان بن سعيد الثوري،



فقال: يا ابن رسول الله، حدثني. قال: يا سفيان، إذا استبطأت الرزق، فأكثر من الاستغفار، وإذا ورد عليك أمر تكرهه، فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا أنعم الله عليك، فأكثر من الحمد لله.

### قصة الثلاثة انطبقت عليهم صخرة

#### ونجتهم أعمالهم

حدثنا محمد بن جعفر بن صالح الصالح أبو الفرج، من ولد علي بن صالح، صاحب المصلى، قال: حدثنا أبو الجهم أحمد بن الحسين بن طلاب المشغرائي، من قرية من قرى غوطة دمشق يقال لها: مشغرا، قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الجعفي، قال: حدثنا أبو أسامة، قال: حدثنا عبيد الله بن عمر، عن سالم، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: بينما ثلاثة رهط من بني إسرائيل يسرون، إذ أخذهم المطر، فأووا إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة، فسدت الغار، فقالوا: تعالوا فليسأل الله تعالى كل رجل منا بأفضل عمله.

فقال أحدهم: اللهم إنه كانت لي ابنة عم جميلة، وكنت أهواها، فدفعت إليها مائة دينار، فلما جلست منها مجلس الرجل من المرأة، قالت: اتق الله يا ابن عم، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقامت عنها، وتركت المائة دينار، اللهم إن كنت تعلم، أي فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عندك، فأفرج عنا، فانفرج عنهم ثلث الصخرة.

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت أغدو عليهما بصوحهما، وأروح عليهما بغبوقهما، فغدوت عليهما يوماً، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أنصرف عنهما، فيفقدنا غداًهما، فوقف حتى استيقظا، فدفعت إليهما غداًهما، اللهم إن كنت تعلم أي إنما فعلت ذلك ابتغاء ما عندك، وخشية منك، فأفرج عنا، فانفرج الثلث الثاني.

وقال الثالث: اللهم إن كنت تعلم، أي استأجرت أجيراً، فلما دفعت إليه أجره، قال: عملي بأكثر من هذا، فترك علي أجره، وقال: بيني وبينك يوم يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم، ومضى، فابتعت له بأجره غنماً، ولم أزل أنميها وأرعها، وهي تزيد وتكثر، فلما كان بعد مدة، أتاني، فقال لي: يا هذا إن لي عندك أجراً، عملت كذا وكذا في وقت كذا وكذا، فقلت: خذ هذه الغنم، فهي لك، فقال: تمنعني من أجري، وتمزأني، فقلت: خذها فهي لك، فأخذها ودعا لي، اللهم إن كنت تعلم أي فعلت هذا خشية منك، وابتغاء ما عندك، فأفرج عنا، فانفرج عنهم باقى الصخرة، وخرجوا يمشون، وذكر الحديث كذا.

قال مؤلف هذا الكتاب: هذا الحديث مشهور، رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن أبي أوفى، والنعمان بن بشير الأنصاري، وغيرهم، وعن كل واحد منهم عدة طرق، وقد اختلف في ألفاظه والمعنى واحد، وليس غرضي هنا، جمع طرقه وألفاظه، فأستقصى ما روي من ذلك، إلا أن في هذه الرواية، غلطاً لا بد من تبينه، وهو أنه روي من غير طريق عن أبي أسامة، عن عمر بن حمزة العمري، عن سالم، عن ابن عمر ليس فيه عبيد الله، والمشهور أنه عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر.

وجاء من طريق أخرى أبين من هذا، ووقع لنا بعلو، فحدثني أبو العباس محمد بن أحمد الأثرم، المقرئ البغدادي، بالبصرة سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، قال: حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، قال: حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع، قال: أنبأنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني سالم بن عبد الله ابن عمر، أن عبد الله بن عمر، قال: سمعت النبي

صلى الله عليه وسلم يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أوهم المبيت إلى غار، فدخلوا، فانحدرت عليهم صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، وذكر الحديث إلى نحو الرواية الأولى.

### لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا هارون بن سفيان، قال: حدثنا عبيد بن محمد عن محمد بن مهاجر، قال: حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه، عن جده، قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ألا أخبركم وأحدثكم بشيء، إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من الدنيا، ودعا به، فرج الله عنه؟ فقليل له: بلى. قال: دعاء ذي النون، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

### دعاء للمريض

وجدت في كتاب ألفه محمد بن جرير الطبري، وسماه: كتاب الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة: حدثنا ابن بشار، قال: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد بن عبد الرحمن الحميري، قال: كان بأبي الحصاة، فكان يلقى - من شدة ما به - البلاء.

قال حميد: فانطلقت إلى بيت المقدس، فلقيت أبا العوام، فشكوت إليه الذي بلي، وأخبرته خبره. فقال: مره فليدع بهذه الدعوة: ربنا الذي في السماء عرشه، ربنا الذي في السماء تقدس اسمه، أمرك ماض في السماء والأرض، وكما رحمتك في السماء، فاجعلها في الأرض، اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك، على ما بفلان من وجع. قال: فدعا به، فأذهب الله تعالى عنه.

### كلمات الفرج

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا أبو خيثمة، قال: حدثنا يزيد بن هارون عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: كلمات الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع، ورب الأرضين السبع، ورب العرش العظيم.

### دعوات المكروب

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا زيد بن أحمز الطائي، قال: حدثنا عبد الملك بن عمرو أبو عامر، قال: حدثنا عبد الجليل بن عطية عن جعفر بن ميمون، قال: حدثني عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت. أخبرني أبو بكر مكرم بن أحمد بن عبد الوهاب بن مكرم القاضي، قال: حدثنا أبو الأزهر محمد بن جعفر، قال:

حدثنا أبو نعيم، قال: حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن هلال مولى غفرة، عن عمر بن عبد العزيز، عن عبد الله بن جعفر، قال: علمتني أُمِّي أسماء بنت عميس، شيئاً أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن تقول عند الكرب: الله ربي، لا أشرك به شيئاً.

أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، قال: حدثنا محمد بن إسماعيل السلمي، قال: أنبأنا ابن أبي مريم، قال: حدثني يحيى بن أيوب، قال: حدثني عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، عن هلال مولى غفرة، عن عمر بن عبد العزيز، عن عبد الله بن جعفر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول عند الكرب: الله ربي، لا أشرك به شيئاً.

حدثنا بالموصل، في مجلس عضد الدولة، وهو يسمعون، إبراهيم بن محمد الأنصاري المعروف بالشمدي، وهو يخلفني يومئذ في جملة من أعمال علي القضاء بجزيرة ابن عمر، وسنه أكثر من تسعين سنة، وكان عضد الدولة استدعاه منها لعلو إسناده، وعمل له مجلساً بحضوره، حدث فيه، وأحضرني وجماعة مخصوصين من أهل العلم، حتى سمع منه، وسمعنا معه، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن قريعة الأزدي، وأبو العباس محمد بن حسان البصريان، قالوا: حدثنا عفان بن مسلم، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن أسامة بن زيد، عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن شداد بن الهاد، عن عبد الله بن جعفر، عن علي عليه السلام، قال: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بي كرب أو شدة، أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، عز الله، وتبارك الله، رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين.

وأخبرني القاضي أبو الحسن علي بن إبراهيم بن حماد، قال: حدثنا محمد بن يونس الكديمي، قال: حدثنا روح بن عباد، قال: حدثنا أسامة بن زيد، فذكر بإسناده مثله.

وأخبرني القاضي علي بن إبراهيم، قال: حدثنا الكديمي، قال: حدثني سعيد بن منصور البلخي، قال: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن محمد ابن عجلان، عن محمد بن كعب القرظي، فذكر بإسناده مثله. حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، قال: حدثني روح بن عباد، عن أسامة بن زيد، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد، عن عبد الله بن جعفر، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا نزل في كرب، أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله، وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين.

حدثنا: علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا أبو خيثمة، قال: حدثنا عفان بن مسلم، عن عبد الواحد ابن زياد، قال: حدثنا مجمع بن يحيى، قال: حدثنا أبو العوف صعب، أبو صعب العزري، عن أسماء بنت عميس، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: من أصابه هم، أو غم، أو سقم، أو شدة، أو ذل، أو لأواء، فقال: الله ربي، لا شريك له، كشف الله ذلك عنه.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني سعيد بن سليمان، قال: حدثنا فضيل بن مرزوق، قال: حدثنا أبو سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أصاب مسلماً قط، هم، أو حزن، فقال: اللهم إني عبدك، وابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عنه كرب، وأبدله مكان حزنه فرحاً.

قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا أبو حفص الصفار أحمد بن حميد، قال: حدثنا جعفر بن سليمان، قال: حدثنا الخليل بن مرة، عن فقيه من أهل الأردن، قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا أصابه غم أو كرب يقول: حسبي الرب من العباد، حسبي الخالق من المخلوق، حسبي الرازق من المرزوق، حسبي الله الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا القاسم بن هاشم، قال: حدثني الخطاب بن عثمان، قال: حدثني ابن أبي فديك، قال: حدثنا سعد بن سعيد، قال: حدثنا أبو إسماعيل ابن أبي فديك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كربني أمر، إلا تمثل لي جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، قل توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك... إلى آخر الآية. حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثني ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، قال: حدثنا النضر بن إسماعيل البجلي عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن عبد الله، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا نزل به هم، أو غم، قال: يا حي، يا قيوم، برحمتك أستغيث. حدثنا جعفر بن أبي طالب بن أبي جعفر بن البهلول التنوخي القاضي، قال: حدثنا أبو القاسم عبد الوهاب بن أبي حية، قال: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، قال: حدثني النضر بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: حدثنا عبد الله بن مسعود قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا نزل به غم أو كرب، قال: يا حي، يا قيوم، برحمتك أستغيث.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا هارون بن سفيان، قال: حدثني عبد الله بن محمد القرشي، عن نعيم بن مورع، عن جوير، عن الضحاك، قال: دعاء موسى حين توجه إلى فرعون، ودعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم حنين، ودعاء كل مكروب: كنت وتكون، حياً لا تموت، تنام العيون، وتنكدر النجوم، وأنت حي قيوم، لا تأخذك سنة ولا نوم، يا حي، يا قيوم.

### دعاء الفرج

دعاء الفرج، أعطانيه أبو الحمد داود بن الناصر لدين الله واسمه أحمد بن الهادي للحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المعروف بطباطبا ابن إسماعيل ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقال لي: إن أهله يتوارثونه، وهو عن أمير المؤمنين عليه السلام.

يا من تحل به عقد المكاره، ويفل حد الشدائد، ويا من يلتمس به المخرج، ويطلب منه رَوْحُ الفرج، أنت المدعو في المهمات، والمفزع في الملمات، لا يندفع منها إلا ما دفعت، ولا ينكشف منها إلا ما كشفت، قد نزل بي ما قد علمت، وقد كادني ثقله، وألم بي ما بهظني حمله، وبقدرتك أوردته علي، وبسلطانك وجهته إلي، ولا مصدر لما أوردت، ولا كاشف لما وجهت، ولا فاتح لما أغلقت، ولا ميسر لما عسرت، ولا معسر لما يسرت، فصل الله علي محمد، وعلى آل محمد، وافتح لي باب الفرج بطولك، واحبس عني سلطان الهم بجولك، وأنلني حسن النظر فيما شكوت، وأذقني حلاوة الصنع فيما سألت، وهب لي من لذنك فرجاً هنياً عاجلاً، وصلاًحاً في جميع أمري سنياً شاملاً، واجعل لي من عندك فرجاً قريباً، ومخرجاً رجباً، ولا تشغلني بالاهتمام عن تعاهد فروضك، واستعمال سنتك، فقد ضقت ذرعاً بما عراني، وتحيرت فيما نزل بي ودهاني، وضعفت عن حمل ما قد أثقلني همماً، وتبدلت بما أنا

فيه قلقاً وغمماً، وأنت القادر على كشف ما قد وقعت فيه، ودفع ما منيت به، فافعل بي ذلك يا سيدي ومولاي،  
وإن لم أستحقه، وأجيني إليه وإن لم أستوجهه، يا ذا العرش العظيم ثلاث مرات.

### دعاء آخر للفرج

وأعطني دعاء آخر للفرج، وقال لي: إن أهله بصعدة، يتوارثونه عن أهل البيت عليهم السلام: لا إله إلا الله حقاً  
حقاً، لا إله إلا الله تعبداً ورقاً، لا إله إلا الله إيماناً وصدقاً، يا منزل الرحمة من معادتها، ومنشئ البركة من أماكنها،  
أسألك أن تصلي على محمد، عبدك ونيك، وخيرتك من خلقك وصفيك، وعلى آله مصايح الدجى، وأئمة الهدى،  
وأن تفرج عني فرجاً عاجلاً، وتنبلي صلاحاً لجميع أمري شاملاً، وتفعل بي، في ديني ودنياي، ما أنت أهله، يا  
كاشف الكرب، يا غافر الذنب، يا الله، يا رب.

### استغفروا ربكم إنه كان غفارا

حدثني أبو بن العباس بن الحسن الذي كان وزير المكفي - ولقيت أيوب بالأهواز في حدود سنة خمسين وثلثمائة  
- من حفظه، قال: حدثني علي بن همام، بإسناد لست أحفظه: أن أعرابياً شكى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب  
عليه السلام شدة لحقته، وضيقاً في الحال، وكثرة من العيال.  
فقال له: عليك بالاستغفار، فإن الله تعالى يقول: استغفروا ربكم، إنه كان غفاراً... الآيات.  
فعاد إليه، وقال: يا أمير المؤمنين قد استغفرت كثيراً، وما أرى فرجاً مما أنا فيه.  
قال: لعلك لا تحسن أن تستغفر.  
قال: علمني.

قال: أخلص نيتك، وأطع ربك، وقل: اللهم إني أستغفرك من كل ذنب، قوي عليه بدني بعافيتك، أو نالته يدي  
بفضل نعمتك، أو بسطت إليه يدي بسابغ رزقك، أو اتكلت فيه، عند خو في منه، على أناتك، أو وثقت فيه  
بجلمك، أو عولت فيه على كرم عفوك، اللهم إني أستغفرك من كل ذنب خنت فيه أمانتي، أو بخست فيه نفسي، أو  
قدمت فيه لذتي، أو آثرت فيه شهوتي، أو سعيت فيه لغيري، أو استغويت فيه من تبعتني، أو غلبت فيه بفضل حيلتي،  
أو أحلت فيه عليك يا مولاي، فلم تؤاخذني على فعلي، إذ كنت - سبحانه - كارهاً لمعصيتي، لكن سبق علمك  
في باختيارتي، واستعمالي مرادي وإيتاري، فحلمت عني، لم تدخلي فيه جبراً، ولم تحملني عليه قهراً، ولم تظلمني شيئاً،  
يا أرحم الراحمين، يا صاحبي عند شدتي، يا مؤنسي في وحدتي، ويا حافظي عند غربتي، يا وليي في نعمتي، ويا كاشف  
كربتي، ويا سامع دعوتي، ويا راحم عبرتي، ويا مقيل عثرتي، يا إلهي بالتحقيق، يا ركني الوثيق، يا رجائي في الضيق،  
يا مولاي الشفيق، ويا رب البيت العتيق، أخرجني من حلق المضيق، إلى سعة الطريق، وفرج من عندك قريب وثيق،  
واكشف عني كل شدة وضيق، واكفني ما أطيق وما لا أطيق، اللهم فرج عني كل هم وكرب، وأخرجني من كل  
غم وحزن، يا فارج الهم، ويا كاشف الهم، ويا منزل القطر، ويا مجيب دعوة المضطر، يا رحمن الدنيا والآخرة  
ورحيمها، صل على خيرتك محمد النبي، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وفرج عني ما ضاق به صدري، وعيل معه  
صبري، وقلت فيه حيلتي، وضعفت له قوتي، يا كاشف كل ضر وبلية، ويا عالم كل سر وخفية، يا أرحم الراحمين،

وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.  
قال الأعراب: فاستغفرت بذلك مراراً، فكشف الله عز وجل عني الغم والضيق، ووسع علي في الرزق، وأزال عني  
الحنّة.

### لا أبالي على أي حالة أصبحت

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني علي بن الجعد وإسحاق بن  
إسماعيل، قالوا: حدثنا سفيان ابن عيينة، عن أبي السوداء، عن أبي مجلز، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما  
أبالي على أي حالة أصبحت، على ما أحب، أو على ما أكره، وذلك أي لا أدري، الخير فيما أحب، أو فيما أكره.  
حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا إبراهيم بن سعيد، قال:  
حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن إبراهيم، قال: إن لم يكن لنا خير فيما نكره، لم يكن لنا خير فيما نحب.  
حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا عبد الرحمن بن صالح  
الأزدي، قال: حدثنا أبو روح، رجل من أهل مرو، عن سفيان بن عيينة، قال: مر محمد بن علي، على محمد بن  
المنكدر، فقال: ما لي أراك مغموماً؟ فقال أبو حازم: ذلك لدين فدحه.  
قال محمد بن علي: أفتح له في الدعاء؟ قال: نعم.  
قال: لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها دعاء ربه، كانت ما كانت.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا عبد الرحمن بن صالح  
الأزدي، قال: حدثنا أبو روح، قال: قال ابن عيينة: ما يكره العبد، خير له مما يجب، لأن ما يكره، يهيجه على  
الدعاء، وما يجب، يلهيه عنه.

### دعاء داود عليه السلام

قال ابن أبي الدنيا، قال حدثنا أبو نصر التمار، قال: حدثنا سعيد بن عبد العزيز التنوخي، قال: قال داود عليه  
السلام: سبحان الله مستخرج الدعاء بالبلاء، سبحان الله مستخرج الشكر بالرخاء.

### ما أقرب النعيم من اليأس.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم العبدلي،  
قال: حدثنا العلاء بن عبد الجبار العطار، قال: حدثنا أبو عبد الصمد العمي، قال: سمعت مالك بن دينار، يقول في  
مرضه، وهو من آخر كلام سمعته يتكلم به: ما أقرب النعيم من اليأس، يعقبان، ويوشكان زوالاً.

### عبيدك بفنائك

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا محمد بن الحسين، قال:  
حدثني عبد الله بن محمد التميمي، قال: حدثنا شيخ مولى لعبد القيس، عن طاووس، قال:

إني لفي الحجر ذات ليلة، إذ دخل علي بن الحسين عليهما السلام، فقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير، لأستمعن إلى دعائه الليلة، فصلى، ثم سجد، فأصغيت بسمعي إليه، فسمعته يقول: عبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك.

قال طاووس: فحفظتهن، فما دعوت بمن في كرب، إلا فرج الله عني.

ذبح عجلاً بين يدي أمه فخبل

حدثنا إبراهيم بن محمد الأنصاري، بالموصل، بحضر عضد الدولة، قال: أنبأنا أبو خليفة القضل بن الحباب الجمحي القاضي، وأبو جعفر محمد بن محمد بن حبان الأنصاري، البصريان، قالوا: حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكي، قال: حدثني حماد بن سلمة. قال: حدثنا أبو عمران الجوفي عن نوف البكالي: أن نبياً أو صديقاً ذبح عجلاً بين يدي أمه، فخبل، فبينما هو كذلك ذات يوم، تحت شجرة فيها وكر طير، إذ وقع فرخ طائر في الأرض، وتغير في التراب، فأتاه الطائر، فجعل يطير فوق رأسه، فأخذ النبي أو الصديق الفرخ، فمسحه من التراب، وأعاده في وكره، فرد الله عز وجل عليه عقله.

### الغمرات ثم ينجلين

أخبرني أبي، قال: حدثنا حرمي بن أبي العلاء، قال: حدثنا الزبير بن بكار، قال: وحدثني أحمد بن عبد الله بن أحمد الوراق، قال: حدثنا أحمد ابن سليمان الطوسي، قال: حدثنا الزبير بن بكار، قال: أخبرني عثمان بن سليمان، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يوماً لجلسائه، وفيهم عمرو بن العاص: ما أحسن شيء؟ فقال: كل رجل برأيه؛ وعمرو ساكت.

فقال: ما تقول يا عمرو؟ قال: الغمرات ثم ينجلين.

### طول الغمة يطمع في انقضائها

كتب سعيد بن حصيد، إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، كتاباً من الاستتار، قال فيه: وأرجو أن يكشف الله، بالأمر أعزه الله، هذه الغمة الطويل مداها، البعيد منتهاها، فإن طولها، قد أطمع في انقضائها، وتراخي أيامها، قد سهل سبيل الأمل لفنائها.

### رقعة أبي الفرج البغاء إلى القاضي التنوخي مؤلف الكتاب يتوجع له في

محنته

قال مؤلف هذا الكتاب: ولحقتني محنة غليظة من السلطان، فكتب إلي أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي الكاتب الشاعر النصيبي، المعروف بالبغاء، رقعة، يوجع لي فيها، نسختها: بسم الله الرحمن الرحيم، مدد النعم - أطل الله بقاء سيدنا القاضي - بغفلات المسار وإن طال، أحلام، وساعات الحن، وإن قصرت بشوائبهم، أعوام، وأحظانا بالمواهب، من ارتبطها بالشكر، وأهضنا بأعباء المصائب، من قاومها بعدد الصبر، إذ كان أولها بالعظة مذكراً، وآخرها بمضمون الفرج مبشراً، وإنما يتعسف ظلم الفتنة، ويتمسك بتفريط العجز، ضال الحكمة،

من كان بسنة الغفلة مغموراً، وبضعف المنة والرأي مقهوراً، وفي انتهاز فرص الحزم مفترطاً، ولمرصي ما اختاره الله تعالى فيه متسخطاً.

وسيدنا القاضي - أدام الله تأييده - أنور بصيرةً، وأظهر سريرةً، وأكمل حزمًا، وأنفذ مضاءً وعزمًا، من أن يتسلط الشك على يقينه أو يقدر اعتراض الشبه في مروءته ودينه، فيلقى ما اعتمده الله من طارق القضاء المحتوم، بغير واجبه من فرض الرضا والتسليم، ومع ذلك فإنما تعظم الخنة إذا تجاوزت، وضعف التنبيه من الله جل ذكره إلى واجب العقوبة، ويصير مجيء السلطان - أدام الله عزه - بما، وجوب الحجّة، وشغلت الألسن عن محمود الشاء منها بمذموم اللاتمة، فإذا خلت من هذه الصفات المليمّة، والشوائب المذمومة، كانت - وإن راع ظاهرها - بصفات النعم أولى، وبأسماء المنح أحق وأحرى، ومتى أعمل ذو الفهم الثاقب، والفكر الصائب، مثله أعزه الله، بكامل عقله، وزائد فضله، فيما يسامح به الدنيا من مرتجع هباتها، وتمد له من خدع لذاتها، علم أن أسعد أهلها فيها ببلوغ الآمال، أفرهم فيما خوله من التغير والانتقال، فصفاؤها مشوب بالكدر، وأمنها مروع بالخدر، لأن انتهاء الشيء إلى حده، ناقل له عما كان عليه إلى ضده، فتكاد الخنة، بهذه القاعدة، لاقتراها من الفرج بفسيح الرجاء، وانتهاء الشدة منها إلى مستجد الرجاء، أن تكون أحق بأسماء النعم، وأدخل في أسباب المواهب والقسم، وبالْحَقِيقَة، فكل وارد من الله تعالى على العبد، وإن جهل مواقع الحكم منه، وساء استتار عواقب الخيرة بمفارقة ما ثقل عنه، غير خال من مصلحة، بتقديم عاجل، وادخار آجل. وهذا وصف ما ذكر الله به سيدنا القاضي - أدام الله تأييده - إذ كان للمثوبة مفيداً، وللفرج ضامناً، وبالْحَقِيقَة مبشراً، وإلى المسرة مؤدياً، وبأفضل ما عوده الله جل اسمه عائداً، وهو - أدام الله كفايته - ينتجز ذلك بمستحکم الثقة، ووجهة الدعاء والرغبة، ووسائل الصبر والمعونة، ولعله أن يكون إليه أقرب من ورود رقعتي هذه عليه، بقدره الله ومشيئته، ولولا الخوف من الإطالة، والتعرض للإضجار والماللة، بإخراج هذه الرقعة عن مذهب الرقاع، وإدخالها بذكر ما نطق به نص الكتاب، من ضمان اليسر بعد العسر، وما وردت به في هذا المعنى، الأمثال السائرة، والأشعار المتناقلة، في جهة الرسائل وحيز المصنفات، لأودعتها نبذاً من ذلك، لكني أثرت أن لا أعدل بما عما افتتحتها به، واستخلمتها له، مقتصراً على استغناء سيدنا القاضي - أدام الله تأييده - عن ذلك، بمرشد حفظه، ووفور فضله، ومأثور نباهته ونبله، والله يبلغه ونبيلغه فيه نهاية الآمال، ولا يخليه، في طول البقاء، من مواد السعادة والإقبال، إن شاء الله تعالى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

### حسن الظن بالله أقرب إلى الفرج

قال بعض الصالحين: استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل، في كشفها، فإن ذلك أقرب بك إلى الفرج.

### الصبر على قدر البلاء

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: أفضل عمل المتحنيين، انظار الفرج من الله عز وجل، والصبر على قدر البلاء.

وعنه: الصبر كفييل بالنجاح، والمتوكل لا يخيب ظنه.



## قد ينجلي المكروب عما يسر

وكان يقال: العاقل لا يذل بأول نكبة، ولا يفرج بأول نعمة، فربما أفلح المحبوب عما يضر، وأجلى المكروه عما يسر.

شكا عبد الله بن طاهر، إلى سليمان بن يحيى بن معاذ كاتبه، بلاء خافه وتوقعه. فقال له: أيها الأمير، لا يغلبن على قلبك، إذا اغتممت، ما تكره دون ما تحب، فلعل العاقبة تكون بما تحب، وتوفي ما تكره، فتكون كمن يستسلف الغم والخوف. قال: أما أنك قد فرجت عني ما أنا فيه.

## لماذا أصبح الاستغفار سنة في الاستسقاء

بلغني أن الناس قحطوا بالبلدية، في سنة من خلافة عمر بن الخطاب، فخرج بهم مستسقياً، فكان أكثر قوله الاستغفار.

فقيل له: يا أمير المؤمنين، لو دعوت. فقال: أما سمعتم قوله عز وجل " استغفروا ربكم، إنه كان غفراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات، ويجعل لكم أنهاراً ". فصار الاستكثار من الاستغفار في الاستسقاء سنة إلى اليوم.

## أقوال الحكماء في الصبر

يحكى عن أنوشروان، أنه قال: جميع المكاره في الدنيا، تنقسم على ضربين، فضرب فيه حيلة، فالاضطراب دواؤه، وضرب لا حيلة فيه، فالاضطراب شفاؤه. كان بعض الحكماء يقول: الحيلة فيما لا حيلة فيه، الصبر. وكان يقال: من اتبع الصبر، اتبعه النصر.

ومن الأمثال السائرة: الصبر مفتاح الفرج، من صبر قدر، ثمرة الصبر الظفر، عند اشتداد البلاء يأتي الرخاء. وكان يقال: تضايقي تنفجني. وكان يقال: إذا اشتد الخناق انقطع. وكان يقال: خف المضار، من خلل للفساد، وارج النفع، من موضع المنع، واحرص على الحياة، بطلب الموت، فكم من بقاء سببه استدعاء القناء، ومن فناء سببه إثارة البقاء، وأكثر ما يأتي الأمن من قبل الفزع. والعرب تقول: إن في الشر خياراً. وقال الأصمعي: معناه، أن بعض الشر أهون من بعض. وقال أبو عبيدة: معناه، إذا أصابتك مصيبة، فاعلم أنه قد يكون أجل منها، فلتهن عليك مصيبتك. قال بعض الحكماء: عواقب الأمور، تتشابه في الغيوب، فرب محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من داء هو شفاؤه.

وكان يقال: رب خير من شر، ونفع من ضر.

وروي أن أمير المؤمنين علياً قال: يا ابن آدم، لا تحمل هم يومك الذي لم يأت، على يومك الذي أتى، فإنه إن يكن في عمرك، يأتك الله فيه بمحبتك، واعلم أنك لن تكسب شيئاً سوى قوتك، إلا كنت فيه خازناً لغيرك بعد موتك. وقال وداعة السهمي، في كلام له: اصبر على الشر إن قدحك، فرما أجلى عما يفرحك، وتحت الرغوة اللبن الصريح.

### شريح القاضي يحمده الله على المصيبة أربع مرات

قال شريح: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عز وجل عليها أربع مرات، أحمدته إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمدته إذ رزقني الصبر عليها، وأحمدته إذ وفقني للاسترجاع، لما أرجو فيه من الثواب، وأحمدته إذ لم يجعلها في ديني.

### من ساعة إلى ساعة فرج

ويشبه هذا ما روي عن بزرجهر بن البختكان الحكيم، الذي كان وزير أنوشروان، فإنه حبسه عند غضبه، في بيت كالقبر ظلمة وضيقاً، وصفده بالحديد، وألبسه الخشن من الصوف، وأمر أن لا يزداد كل يوم، على قرصين خبزاً شعيراً، وكف ملح جريش، ودورق ماء، وأن تحصى ألفاظه، فتنقل إليه، فأقام بزرجهر شهوراً، لا تسمع له لفظة. فقال أنوشروان: أدخلوا إليه أصحابه، مروهم أن يسألوه، ويفتحوه في الكلام، واسمعوا ما يجري بينهم، وعرفوني. فدخل إليه جماعة من المختصين - كانوا - به، فقالوا له: أيها الحكيم، نراك في هذا الضيق، والحديد، والصوف، والشدة التي وقعت فيها، ومع هذا، فإن سحنة وجهك، وصحة جسمك، على حالهما، لم تتغيرا، فما السبب في ذلك؟

فقال: إني عملت جوارشاً من ستة أخلاط، آخذ منه كل يوم شيئاً، فهو الذي أبقاني على ما ترون.

قالوا: فصفه لنا، فعسى أن نبتلى بمثل بلوك، أو أحد من إخواننا، فنستعمله ونصفه له.

قال: الخلط الأول: الثقة بالله عز وجل، والخلط الثاني: علمي بأن كل مقدر كائن، والخلط الثالث: الصبر خير ما استعمله המתحنون، والخلط الرابع: إن لم أصبر أنا فأبى شيء أعمل، ولم أعين على نفسي بالجرع، والخلط الخامس: قد يمكن أن أكون في شر مما أنا فيه، والخلط السادس: من ساعة إلى ساعة فرج.

قال: فبلغ كسرى كلامه، فعفا عنه.

### يأتي الله بالفرج عند انقطاع الأمل واستبهاام الحيل

فصل لبعض كتاب زماننا، وهو علي بن نصر بن علي الطيب: وكما أن الله جل وعلا يأتي بالخيوب، من الوجه الذي قدر ورود المكروه منه، ويفتح بفرج، عند انقطاع الأمل، واستبهاام وجوه الحيل، ليحض سائر خلقه، بما يريهم من تمام قدرته، على صف الرجاء إليه، وإخلاص آمالهم في التوكل عليه، وأن لا يزووا وجوههم في وقت من الأوقات عن توقع الروح من، فلا يعدلوا بآمالهم على أي حال من الحالات، عن انتظار فرج يصدر عنه، وكذلك أيضاً، يسهم فيما ساءهم، بأن كفاهم بمحنة يسيرة، ما هو أعظم منها، وافنداهم بملمة سهلة، مما كان أنكى فيهم لو لحقهم.

قال إسحاق العابد: ربما امتحن الله العبد، بمحنة يخلصه بها من الهلكة، فتكون تلك المحنة، أجل نعمة. قال: وسمعت، أن من احتمل المحنة، ورضي بتدبير الله تعالى في النكبة، وصبر على الشدة، كشف له عن منفعتها، حتى يقف على المستور عنه من مصلحتها.

وقال عبد الله بن المعتز: ما أوطأ راحلة الواثق بالله، وآنس مئوى المطيع لله.

حكى بعض النصارى، أن بعض الأنبياء عليهم السلام، قال: نحن تأديب من الله، والأدب لا يدوم، فطوبى لمن تصبر على التأديب، وتثبت عند المحنة، فيجب له لبس إكليل الغلبة، وتاج الفلاح، الذي وعد الله به محبيه، وأهل طاعته.

قال إسحاق: احذر الضجر، إذا أصابتك أسنة الحن، وأعراض الفتن، فإن الطريق المؤدي إلى النجاة صعب المسلك. قال بزجمهر: انتظر الفرج بالصبر، يعقب الاغتباط.

### حسن الظن بالله لا يوجب

فصل آخر، لبعض كتاب زماننا، وهو علي بن نصر بن بشر الطبيب: كما أن الرجاء مادة الصبر، والمعين عليه، فكذلك علة الرجاء ومادته، حسن الظن بالله، الذي لا يجوز أن يخيب، فإننا قد نستقري الكرماء، فنجدهم يرفعون من أحسن ظنه بهم، ويتحوبون من تخيب أمله فيهم، ويتحرجون من إخفاق رجاء من قصدهم، فكيف بأكرم الأكرمين، الذي لا يعوزه أن يمنح مؤمليه، ما يزيد على أمانيتهم فيه، وأعدل الشواهد بمحبة الله جل ذكره، لتمسك عبده برحابه، وانتظار الروح من ظله ومآبه، أن الإنسان لا يأتيه الفرج ولا تدركه النجاة، إلا بعد إخفاق أمله في كل ما كان يتوجه نحوه بأمله ورغبته، وعند انقلاق مطالبه، وعجز حيلته، وتناهي ضره ومحنته، ليكون ذلك باعثاً له على صرف رجائه أبداً إلى الله عز وجل، وزاجراً له على تجاوز حسن ظنه به.

### يدرك الصبور أحمد الأمور

وروي عن عبد الله بن مسعود: الفرج والروح، في اليقين والرضا، والهم والحزن، في الشك والسخط. وكان يقول: الصبور، يدرك أحمد الأمور.

قال أبان بن تغلب: سمعت أعرابياً يقول: من أفضل آداب الرجال، أنه إذا نزلت بأحلمهم جائحة، استعمل الصبر عليها، وأهم نفسه الرجاء لزوالها، حتى كأنه لصبره يعاين الخلاص منها والغناء، توكلأ على الله عز وجل، وحسن ظن به، فمتى لزم هذه الصفة، لم يلبث أن يقضي الله حاجته، ويزيل كربته، وينجح طلبته، ومعه دينه وعرضه ومروءته.

### رب حياة سببها طلب الموت وموت سببه طلب الحياة

روى الأصمعي، عن أعرابي، أنه قال: خف الشر من موضع الخير، وارج الخير من موضع الشر، فرب حياة سببها طلب الموت، وموت سببه طلب الحياة، وأكثر ما يأتي الأمان من ناحية الخوف.

قال مؤلف هذا الكتاب: ما أقرب هذا الكلام، من قول قطري بن الفجاءة، الخارجي، ذكره أبو تمام الطائي، في كتابه المعروف بالحماسة:

لا يركن أحد إلى الإحجام ... يوم الوغى متخوفاً لحمام  
فلقد أراي للرماح دريئة ... من عن يميني مرّة وأمامي  
حتى خضبتُ بما تحدرّ من دمي ... أحناء سرجي أو عنان لجامي  
ثم انصرفت وقد أصبتُ لوم أصب ... جذع البصير قارح الإقدام  
فهذا من أحب الموت، طلباً لحياة الذكر.  
وقد أفصح بهذا الحصين بن الحمام المري، حيث يقول:  
تأخرتُ أستقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدماً  
وهذا كثير متسع، وليس هو مما نحن فيه بسبيل، فستوعبه ونستوفيه، ولكن الحديث ذو شجون، والشيء بالشيء  
يذكر، ونعود إلى ما كنا فيه.

### أقوال في توين المصاب

قال بعض عقلاء التجار: ما أصغر المصيبة بالأرباح، إذا عادت بسلامة الأرواح.  
وكانه من قول العرب: إن تسلم الجلة فالسخل هدر.  
ومن كلامهم: لا تياس أرض من عمران، وإن جفها الزمان.  
والعامة تقول: نهر جرى فيه الماء، لا بد أن يعود إليه.  
وقال تيمستوس: لم يتفاضل أهل العقول والدين، إلا في استعمال الفضل في حال القدرة والنعمة، وابتدال الصبر في  
حال الشدة والحنة.  
وقال بعض الحكماء: العاقل يتعزى فيما نزل به من المكروه بأمرين، أحدهما السرور بما بقي له، والآخر رجاء الفرج  
مما نزل به، والجاهل يجزع في محنته بأمرين، أحدهما استكثار ما أدى إليه، والآخر تخوفه مما هو أشد منه.

### كلمات في الصبر على الحنة

وكان يقال: الحن آداب الله عز وجل خلقه، وتأديب الله بفتح القلوب، والأسماع، والأبصار.  
ووصف الحسن بن سهل، الحن، فقال: فيها تمحيص من الذنب، وتنبيه من الغفلة، وتعرض للثواب بالصبر، وتذكير  
بالنعمة، واستدعاء للمثوبة، وفي نظر الله عز وجل وقضائه الخيار.  
وبلغني هذا الخبر على وجه آخر: قرىء على أبي بكر الصولي، وأنا حاضر أسمع، بالبصرة في سنة خمس وثلاثين  
وثلاثمائة، في كتابه كتاب الوزراء: حدثكم أبو ذكوان القاسم بن إسماعيل، قال:

سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الكاتب، يصف الفضل بن سهل، ويذكر تقدمه، وعلمه،  
وكرمه، وكان مما حدثني به: أنه برىء من علة كان فيها، فجلس للناس، وهنوه بالعافية، فلما فرغ الناس من  
كلامهم، قال الفضل: إن في العلل لنعماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ  
من الغفلة، وإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد،  
الخيار.

## إنما يتلى الصالحون

وكتب محمد بن الحنفية، إلى عبد الله بن عباس، حين سيره ابن الزبير عن مكة، إلى الطائف: أما بعد، فإنه بلغني أن ابن الزبير سيرك إلى الطائف، فأحدث الله عز وجل لك بذلك أجراً، وحط به عنك وزراً، يا ابن عم، إنما يتلى الصالحون، وتعد الكرامة للأخيار، ولو لم توجر إلا فيما تحب، لقل الأجر، وقد قال الله تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم" عزم الله لنا ولك، بالصبر على البلاء، والشكر على النعماء، ولا أشمت بنا وبك الأعداء، والسلام.

## النعمة والعافية تطران الإنسان

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له في محنة لحقته: إن الله تعالى ليمتحن العبد، ليكثر التواضع له، والاستعانة به، ويجدد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويأخذ بيده في شدته، لن دوام النعم والعافية، يطران الإنسان، حتى يعجب بنفسه، ويعدل عن ذكر ربه، وقد قال الشاعر:

لا يترك الله عبداً ليس يذكره ... ممن يؤذبه أو من يؤثبه  
أو نعمة تقتضي شكراً يدوم له ... أو نعمة حين ينسى الشكر تنكبه

## كلمات في الشكر على العافية والصبر على الشدة

وقال الحسن البصري: الخير الذي لا شر فيه، هو الشكر مع العافية، والصبر عند المحنة، فكم من منعم عليه غير شاكر، وكم مبتلى بمحنة وهو غير صابر.

وقال أبو الحسن المدائني، في كتابه كتاب الفرج بعد الضدة والضيقة: كان ابن شبرمة إذا نزلت به شدة، يقول: سحابة ثم تنقشع.

وقال في كتابه هذا، عن جعفر بن سليمان الهاشمي، قال: قال بعض الحكماء: آخر المهم، أول الفرج، وكان جعفر يقول: قد وجدناه كذلك.

وقد ذكر هذا الخبر القاضي أبو الحسين، في كتابه كتاب الفرج بعد الشدة عن المدائني، هكذا.

وذكر أبو الحسين القاضي في كتابه كتاب الفرج بعد الشدة، فقال: حدثني بعض أصحابنا، قال: حدثني الحسن بن مكرم، قال: حدثني ابن أبي عدي، عن شعبة، عن قنادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: لأن أكون في شدة، أتوقع بعدها رخاء، أحب إلي من أن أكون في رخاء، أتوقع بعده شدة.

## لو كان العسر في كوة لجاء يسران فأخرجاه

وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم، بغير إسناد، أنه قال: لو كان العسر في كوة، لجاء يسران، فأخرجاه.

قال مؤلف هذا الكتاب: كان لي في هذا الحديث، خبر طريف، وذلك أنني كنت قد لجأت إلى البطيحة، هارباً من نكبة لحقتني، واعتصمت بأمرها معين الدولة أبي الحسين عمران بن شاهين السلمي - على ما كان يقول رحمه الله - فألفت هناك جماعة من معارفي، بالبصرة وواسط، خائفين على نفوسهم، قد هربوا من ابن ببيعة، الذي كان في ذلك

الوقت وزيراً، ولجأوا إلى البطيحة، فكنا نجتمع في المسجد الجامع بشقشى الذي بناه معز الدولة أبو الحسين، فنتشاكى أحوالنا، ونتمنى الفرج مما نحن فيه من الخوف والشدّة والشقاء.

فقال لي أبو الحسن محمد بن عبد الله بن جيشان الصلحي الناجر، وكان هذا في يوم الجمعة لتسع ليال خلون من جمادى الأولى سنة خمس وستين وثلاثمائة: حدثني في هذا اليوم أبو محمد الحسن بن محمد بن عثمان بن قنيف، وكان أحد خلفاء الحجاب في دار المقتدر بالله، وهو شيخ مشهور، ملازم الآن خدمة معين الدولة، قال: حدثنا أبو القاسم بن بنت منيع، قال: حدثنا أبو نصر التمار، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دخل العسر كوة، جاء يسران فأخرجاه.

فلما سمعت ذلك، قلت بديهاً:

إنا روينا عن النبي رسول ال ... له فيما أفيد من أدبه  
لو دخل العسر كوة لأني يس ... ران فاستخرجاه من ثقبه

فما مضى على هذا المجلس، إلا أربعة أشهر، حتى فرج الله تعالى عني، وعن كثير ممن حضر ذلك المجلس، من המתحنين، وردنا إلى عوائده عندنا، فله الحمد والشكر.

وجدت هذا الخبر على غير هذا، فقد حدثنا به - من أصل كتابه - جعفر بن أبي طالب ابن البهلول، قال: حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي، قال: حدثني علي بن الجعد، قال: أنبأنا شعبة، عن معاوية بن قرة، عن حدثه عن عبد الله بن مسعود، قال: لو أن العسر دخل في حجر، لجاء اليسر حتى يدخل معه، قال الله تعالى: " فإنّ مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً ".

وحدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا علي بن الجعد، فذكر نحوه بإسناده.

وأخبرني أبي: قال: قال جعفر بن محمد بن عيينة، حدثنا محمد بن معمر، قال: حدثنا حميد بن حماد، قال: حدثنا عائد بن شريح، قال: سمعت أنس بن مالك، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينظر إلى حجر بجبال وجهه، فقال: لو جاءت العسرة حتى تدخل تحت هذا الحجر، لجاءت اليسرة حتى تخرجها. فأنزل الله تعالى: " فإنّ مع العسر يسراً، إنّ مع العسر يسراً ".

### كلمات في افراج المخن

وذكر القاضي أبو الحسين، في كتابه كتاب الفرّج بعد الشدّة، بغير إسناد: أن علياً عليه السلام، قال: عند تناهي الشدّة، تكون الفرّجة، وعند تضايق البلاء، يكون الرخاء، ومع العسر، يكون اليسر.

وذكر عنه عليه السلام، أنه قال: ما أبالي بالعسر رميت، أو باليسر، لأن حق الله تعالى في العسر الرضا والصبر، وفي اليسر الحمد والشكر.

قال مؤلف هذا الكتاب: حدثني بعض الشيعة، بغير إسناد، قال: قصد أعرابي أمير المؤمنين علياً عليه السلام، فقال: إني ممّتحن، فعلمني شيئاً أنفع به.

فقال: يا أعرابي إنّ للمحن أوقاتاً، ولها غايات، فاجتهد العبد في محنته، قبل إزالة الله تعالى إياها، زيادة فيها، يقول الله عز وجل: " إن أردني الله بضرّ، هل هنّ كاشفات ضرّه، أو أردني برحمة، هل هنّ ممسكات رحمته، قل حسبي

اللَّهِ، عليه يتوكَّل المتوكِّلون " ، ولكن، استعن بالله، واصبر، وأكثر من الاستغفار، فإن الله عز وجل وعد الصابرين خيراً، وقال: " استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنّات، ويجعل لكم أنهاراً " ، فانصرف الرجل.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

### الوزير المهلب يجهنم الغياث من الله تعالى

حدثنا أبو محمد الحسن بن محمد المهلب، في وزارته، قال: كنت في وقت من الأوقات - يعني في أول أمره - قد دفعت إلى شدة شديدة، وخوف عظيم، لا حيلة لي فيهما، فأقمت يومي قلقاً، وهجم الليل، فلم أعرف الغمض، فلجأت إلى الصلاة والدعاء، وأقبلت على البكاء في سجودي، والتضرع، ومسألة الله عز وجل، تعجيل الفرج لي، وأصبحت من غد، على قريب من حالي، إلا أنني قد سكنت قليلاً، فلم ينسلخ اليوم حتى جاءني الغياث من الله تعالى، وفرج عني ما كنت فيه، على أفضل ما أردت، فقلت:  
بعثت إلى رب العطايا رسالة ... توسّل لي فيها دعاءً مناصح  
فجاء جواباً بالإجابة والمنجّت ... بها كرب ضاقت بهنّ الجوانح

### عند تناهي الشدة تكون الفرجة

أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى، قال: حدثنا ابن دريد، قال: أخبرنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي عن أبيه قال: كان عمرو بن أحيحة الأوسي يقول: عند تناهي الشدة، تكون الفرجة، وعند تضايق البلاء، يكون الرخاء، ولا أبالي أي الأمرين نزل بي عسر أم يسر، لأن كل واحد منهما يزول بصاحبه.

### المنصور العباسي يحول بين الإمام الصادق وبين الحج

أخبرني أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، خليفة أبي علي القضاء بها، قال: حدثنا محمد بن العباس الزبيدي، قال: حدثني عمي الفضل بن محمد الزبيدي، قال:

أراد جعفر بن محمد الحج، فمنعه المنصور، فقال: الحمد لله الكافي، سبحان الله الأعلى، حسبي الله وكفي، ليس من الله منجى، ما شاء الله قضى، ليس وراء الله منتهى، توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها، إن ربي على سراط مستقيم، اللهم إن هذا عبد من عبيدك، خلقتك كما خلقتني، ليس له علي فضل، إلا ما فضلته علي به، فاكفني شره، وارزقني خيره، واقدح لي في قلبه الخبة، واصرف عني أذاه، لا إله إلا أنت، سبحان الله رب العرش العظيم، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم كثيراً.  
قال: فأذن له المنصور في الحج.

### الباب الثالث

من بشر بفرج من نطق فال ونجا

من محنة بقول أو دعاء أو ابتهاج أعرابية ذهب البرد بزرعها فعوضت خيرا

أخبرني أبو بكر محمد بن يحيى الصولي بالبصرة سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، قراءة عليه وأنا أسمع، عن البرقي، قال: رأيت امرأة بالبادية، وقد جاء البرد فذهب بزرع كان لها، فجاء الناس يعزونها، فرفعت طرفها إلى السماء، وقال: اللهم أنت المأمول لأحسن الخلف، وبيدك التعويض عما تلف، فافعل بنا ما أنت أهله، فإن أرزاقنا عليك، وآمالنا مصروفة إليك.

قال: فلم أبرح، حتى جاء رجل من الأجلاء، فحدث بما كان، فوهب لها خمسمائة دينار.

المعتضد يتخلص من سجنه

ويطش بالوزير إسماعيل بن بلبل

وحدثني أبي في المذاكرة، من لفظه وحفظه، ولم أكتبه عنه في الحال، وعلق بحفظي، والمعنى واحد، ولعل اللفظ يزيد أو ينقص، عن أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمدون، لا أظن إلا أنه هو سمعه منه، أو حدثه من سمعه من عبد الله بن أحمد بن حمدون نديم المعتضد بالله، عن المعتضد، أنه قال: لما ضرب إسماعيل بن بلبل بيني وبين أبي الموفق، فأوحشه مني، حتى حبسني الحبسة المشهورة، وكنت أتخوف القتل صباحاً ومساءً، ولا آمن أن يرفع إسماعيل عني، ما يزيد في غيظ الموفق علي، فيأمر بقتلي.

فكنت كذلك، حتى خرج الموفق إلى الجبل، فازداد خوفي، وأشفقت أن يحدثه عني إسماعيل بكذب، فيجعل غيبته طريقاً إليه، فلا يكشفه، ويأمر بقتلي، فأقبلت على الدعاء، والتضرع إلى الله، والابتهاج في تخليصي.

وكان إسماعيل يجيئني في كل يوم، مراعيًا خبري، ويريني أن ذلك خدمة لي.

فدخل إلي يوماً: ويدي المصحف، وأنا أقرأ، فتركنه، وأخذت أحادثه.

فقال: أيها الأمير، أعطني المصحف لأتفائل لك به، فلم أجبه بشيء.

فأخذ المصحف، ففتحه، فكان في أول سطر منه: " عسى ربكم أن يهلك عدوكم، ويستخلفكم في الأرض، فينظر كيف تعملون " ، فاسود وجهه، واربد، وخلط الورق.

وفتحه الثانية، فخرج " ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين " .. إلى قوله: يجذرون، فازداد قلقاً واضطراباً.

وفتحه الثالثة، فخرج " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم " .

فوضع المصحف من يده، وقال: أيها الأمير، أنت والله الخليفة، بغير شك، فما حق بشارتي؟ فقلت: الله، الله، في أمري، احقن دمي، أسأل الله أن يبقي أمير المؤمنين، والأمير الناصر، وما أنا وهذا؟ ومثلك في عقلك، لا يطلق مثل هذا القول بمثل هذا الاتفاق، فأمسك عني.

وما زال يحدثني، ويخرجني من حديث، ويدخلني في غيره، إلى أن جرى حديث ما بيني وبين أبي، فأقبل يحلف لي



بأيمان غليظة، أنه لم يكن له في أمري صنع، ولا سعاية بمكروه، فصدقته، ولم أزل أخاطبه بما تطيب به نفسه، خوفاً من أن تزيد وحشته، فيسرع في التدبير لتلفي، إلى أن انصرف. ثم صار إلي بعد ذلك، وأخذ في التصل والاعتذار، وأنا أظهر له التصديق والقبول، حتى سكن، ولم يشك أي معترف ببراءة ساحته.

فما كان بأسرع من أن جاء الموفق من الجبل، وقد اشتدت علته، ومات، فأخرجني العلمان من الحبس، فصيروني مكانه، وفرج الله عني، وقاد الخلافة إلي، ومكنني من عدوي إسماعيل بن بلبل، فأنفذت حكم الله فيه.

### قال الواثق لا أترك الفرج يموت في حبسي

وحدثني علي بن هشام الكاتب، قال: سمعت أبا عبد الله الباقراني، يقول: سمعت عبيد الله بن سليمان، يقول في وزارته، قال لي أبي:

كنت يوماً في حبس محمد بن عبد الملك الزيات، في خلافة الواثق، آيس ما كنت من الفرج، وأشد محنة وغماً، حتى وردت علي رقعة أخي الحسن بن وهب، وفيها شعر له:  
محنٌ أبا أيوب أنت محلّها... فإذا جزعت من الخطوب فمن لها  
إنّ الذي عقد الذي انعقدت به... عقد المكاره فيك يحسن حلّها  
فاصبر فإنّ الله يعقب فرجة... ولعلّها أن تنجلي ولعلّها  
وعسى تكون قريبة من حيث لا... ترحو وتمحو عن جديديك ذلك  
قال: فنفّاءت بذلك، وقويت نفسي، فكثبت إليه:  
صبرني ووعظني وأناها... وستجلي، بل لا أقول: لعلّها  
ويحلّها من كان صاحب عقدها... ثقة به إذ كان يملك حلّها  
قال: فلم أصل العتمة ذلك اليوم، حتى أطلقت، فصليتها في داري ولم يمض يومي ذاك، حتى فرج الله عني، وأطلقت من حبسي.

وروي أن هاتين الرقعتين وقعتا بيد الواثق، الرسالة والجواب، فأمر بإطلاق سليمان، وقال: والله، لا تركت في حبسي من يرجو الفرج، ولا سيما من خدمني، فأطلقه على كره من ابن الزيات لذلك.

### بين الحسن البصري والحجاج بن يوسف الثقفي

وحدثني بعض شيوخنا، بإسناد ذهب عني حفظه، وبلغني عن صالح بن مسمار، فجمعت بين الخبرين: أن الحسن البصري دخل على الحجاج بواسط، فلما رأى بناءه قال: الحمد لله، أن هؤلاء الملوك ليرون في أنفسهم عبراً، وأنا لنرى فيهم عبراً، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فرش فيتخذه، وقد حف به ذباب طمع، وفراش نار، ثم يقول: ألا فانظروا ما صنعت، فقد رأينا - يا عدو الله - ما صنعت، فماذا يا أفسق الفسقة، وبأ أفجر الفجرة، أما أهل السماء فلعنوك، وأما أهل الأرض فمقتوك.

ثم خرج وهو يقول: إنما أخذ الله الميثاق على العلماء، ليبينه للناس، ولا يكتُمونه. فاغتاظ الحجاج غيظاً شديداً، ثم قال: يا أهل الشام، هذا عبيد أهل البصرة يشتمني في وجهي فلا ينكر عليه أحد،

علي به، والله لأقتلنه.

فمضى أهل الشام، فأحضره، وقد أعلم بما قال، فكان في طريقه يحرك شفثيه بما لا يسمع.  
فلما دخل على الحجاج، رأى السيف والنطع بين يديه وهو متغيظ، فلما وقعت عليه عين الحجاج، كلمه بكلام غليظ، ورفق به الحسن، ووعظه.  
فأمر الحجاج بالسيف والنطع فرفعا، ثم لم يزل الحسن يمر في كلامه، إلى أن دعا الحجاج بالطعام، فأكلا، وبالوضوء فتوضأ، وبالغالية فغلفه بيده، ثم صرفه مكرماً.  
وقال صالح بن مسمار: قيل للحسن بن أبي الحسن: بم كنت تحرك شفثيك؟ قال: قلت: يا غياثي عند دعوتي، ويا عدتي في ملمي، ويا ربي عند كربتي ويا صاحبي في شلتي، ويا وليي في نعمتي، ويا إلهي، وإله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى، ويا رب النبيين كلهم أجمعين، ويا رب كهيعص، وطه، وطس، ويس، ورب القرآن الحكيم يا كافي موسى فرعون، ويا كافي محمد الأحزاب، صل على محمد وآله الطيبين الطاهرين الأخيار، وارزقني مودة عبدك الحجاج، وخيره، ومعروفه، واصرف عني أذاه، وشره، ومكروهه، ومعرته.  
فكفاه الله تعالى شره بمنه وكرمه.  
قال صالح: فما دعونا بما في شدة إلا فرج عنا.

## الحجاج

أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ٤٠ - ٩٥: والي العراقين لعبد الملك بن مروان، وهو الذي يضرب به المثل في الظلم والجور، ثقفي من نسل أبي رغال اليعقوبي ٢ - ٢٧٤ وأبو رغال، بقية من قوم ثمود، كان قائد الفيل، ودليل الحيشة، لما غزوا الكعبة، فهلك فيمن هلك منهم، ودفن بين مكة والطائف، ومر النبي صلوات الله عليه، بقبره، فأمر برجمه، فرجم الأغياني ٤ - ٣٠٣.

وكانت ثقيف، عشيرة الحجاج، من أشد القبائل على رسول الله، فقد تمزأوا به، وقعلوا له صفين، فلما مر بهم رجموه بالحجارة، حتى أدموا رجله، وقال رسول الله: ما كنت أرفع قدماً، ولا أضعها، إلا على حجر اليعقوبي ٢ - ٣٦، وقال الإمام علي، في إحدى خطبه: لقد هممت أن أضع الجزية على ثقيف الأغياني ٤ - ٣٠٦.

كل ذلك، كان من جملة أسباب حقد الحجاج، على النبي صلوات الله عليه، وعلى أولاده، وبغضه إليهم، حتى ضرب بذلك المثل، قال الشاعر: معجم البلدان ٢ - ٣٢٣  
أنا في الحلة الغداة كأني... علوي في قبضة الحجاج

ويبلغ من حقه على النبي، أنه لما دخل المدينة، سماها: ننتة، وقد سماها رسول الله: طيبة، ولما رأى الناس يطوفون بقبر رسول الله ومنبره، قال: إنما يطوفون برممة وأعواد العقد الفريد ٥ - ٤٩ يريد بالأعواد: منبر النبي، وبالرممة: جسده الشريف.

وتبع حقه على النبي، حقه على الذين نصره وآزروه، وهم الأنصار، فكان يسميهم: الأشرار العقد الفريد ٥ - ٣٩ وختم أعناق بعض الصحابة منهم بقصد إذلالهم الطبري ٦ - ١٩٥ وكان يقول: ويحكم، أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه، أم رسوله إليهم؟ يشير بذلك إلى أن عبد الملك بن مروان، أكرم على الله من النبي صلوات الله عليه العقد الفريد ٥ - ٥٢.

ولد الحجاج بالطائف، وكان والده يؤدب الصبيان العقد الفريد ٥ - ١٣، وجاء مشوهاً، واحتيج إلى إجراء له، لكي يكون في حالة طبيعية مروج الذهب ٢ - ٩٧، ونشأ أخفش العينين، دقيق الصوت، شذرات الذهب ١ - ١٠٦ والعيون والحدائق ٣ - ١١ فكان لتشويه بدنه، وخفش عينيه، ودقة صوته، ووضاعة نشأته، أصل قوي فيما ابتلي به من سادية عجيبة، فكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته في سفك الدماء وفيات الأعيان ٢ - ٣٠ وكان يقول: إني - والله - لا أعلم على وجه الأرض خلقاً هو أجراً على دم مني العقد الفريد ٢ - ١٧٦، وكان له في القتل وسفك الدماء غرائب لم يسمع بمثلها وفيات الأعيان ٢ - ٣١، وهو أحد أربعة في الإسلام، قتل كل واحد منهم أكثر من ألف رجل لطائف المعارف ١٤١، راجع بعض غرائبه في التعذيب وسفك الدماء، في آخر القصة ١٤٩ من هذا الكتاب.

وكانت سياسة الحجاج التي سلكها في العراق، من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية السيادة العربية ٤٤ ولما مات، خلف في حبسه ثمانين ألفاً، حبسوا بغير جرم، منهم خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسه ستر يستتر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء مروج الذهب ٢ - ١٢٨ والعيون والحدائق ٢ - ١٠، وجاء في محاضرات الأدباء ٣ - ١٩٥ أنه أحصى من قتلهم الحجاج، سوى من قتل في بعثته وعساكره وحرابه، فوجدوا مائة وعشرين ألفاً، ووجد في حبسه مائة ألف وأربعة عشر ألف رجل، وعشرون ألف امرأة، منهم عشرة آلاف امرأة مخدرة، وكان حبس الرجال والنساء في مكان واحد، ولم يكن في حبسه سقف ولا ظل، وربما كان الرجل يستتر بيده من الشمس، فيرميه الحرس بالحجارة، وكان أكثرهم مقرنين بالسلاسل، وكانوا يسقون الزعاف، ويطعمون الشعير المخلوط بالرماد، وكان المسجونون في سجن الحجاج يقرنون بالسلاسل، فإذا قاموا، قاموا معاً، وإذا قعدوا قعدوا معاً الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا، مخطوط ص ١١، ولا يجد المسجون المقيد منهم، إلا مجلسه، فيه يأكلون، وفيه يتغوطون، وفيه يصلون القصة ٨٧ من هذا الكتاب.

وبلغ من شنيع سمعة الحجاج، وشهرته بالظلم، أن أبا مسلم الخراساني، الذي اشتهر بقسوته وضراوته على الدم الحرام، حتى قيل إنه قتل أكثر من ألف رجل لطائف المعارف ١٤١ و ١٤٢، قيل في حقه: إنه حجاج زمانه مرآة الجنان ١ - ٢٨٥.

قال الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز: لعن الله الحجاج، فإنه ما كان يصلح للدنيا ولا للآخرة معجم البلدان ٣ - ١٧٨ وقال فيه: لو جاءت كل أمة بمناقضها، وجننا بالحجاج، لفضلناهم العقد الفريد ٥ - ٤٩، وقيل للشعبي: أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم، بالطاغوت، كافرًا بالله البصائر والذخائر م ٢ ق ١ ص ٧٣، والعقد الفريد ٥ - ٤٩، وقيل لعبد الله بن المبارك: أبو مسلم كان خيراً أو الحجاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شراً منه ابن الأثير ٥ - ٤٧٩، وكان الحسن البصري، يسميه: فاسق ثقيف وفيات الأعيان ٢ - ٣٧٤، وقال القاسم ابن محمد بن أبي بكر: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام، عروة، عروة العقد الفريد ٥ - ٤٩، وقال ابن سيرين: إنه لم ير أغشم من الحجاج شذرات الذهب ١ - ١٠٦.

ووصف الحجاج نفسه بأنه: حقود، حسود، كتود، فقال له سيده عبد الملك بن مروان: ما في إبليس شر من هذه الخلال نهاية الأرب ٣ - ٢٦٧.

ولعل أصدق ما وصف به الحجاج، ما وصفه به سيده عبد الملك بن مروان، فقد كتب إليه يقول: إنك عبد، طمت بك الأمور، فغلوت فيها، حتى عدوت طورك، وجاوزت قدرك، أنسيت حال آباتك في اللؤم، والدناءة في المروءة

والخلق؟ فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين، أصك الرجلين، ممسوح الجاعرتين ابن الأثير ٤ - ٣٨٦ .  
أما بشأن ما ارتكبه الحجاج من تخريب، بحيث نزلت جباية العراق من مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم، في عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، إلى ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط، فراجع في ذلك حاشية القصة ١٨٢ من هذا الكتاب.

وعم شؤم الحجاج، أفراد عائلته من آل أبي عقيل جميعهم، فإنهم بعد هلاكه، أمر سليمان بن عبد الملك باعتقاهم، وسيرهم إلى العراق، حيث حبسهم صالح بن عبد الرحمن بواسط، وعذبهم حتى قتلهم ابن الأثير ٣ - ٥٨٨ و ٥٨٩ .

ولما استخلف الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز، سير الباقيين من آل أبي عقيل إلى البلقاء، وكتب إلى الحارث بن عمر الطائي، عامله عليها: أما بعد، فقد بعثت إليك بآل أبي عقيل، وبس - والله - أهل البيت في دين الله، وهلاك المسلمين، فأنزلهم بقدر هوانهم على الله تعالى، وعلى أمير المؤمنين البصائر والذخائر م ٢ ق ٢ ص ٥٨٦ .

### دعاء دعا به الحسن بن الحسن ففرج الله عنه

وجدت في بعض الكتب، بغير إسناد: كتب الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى صالح بن عبد الله المزني، عامله على المدينة، أن أنزل الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فاضربه في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، خمسمائة سوط.

قال: فأخرجه صالح إلى المسجد، ليقراً عليهم كتاب الوليد بن عبد الملك، ثم ينزل فيضرب الحسن، فبينما هو يقرأ الكتاب، إذ جاء علي بن الحسين عليهما السلام، مبادراً يريد الحسن، فدخل والناس معه إلى المسجد، واجتمع الناس، حتى انتهى إلى الحسن فقال له: يا ابن عم، ادع بدعاء الكرب.

فقال: وما هو يا ابن عم؟ قال: قل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين.

قال: وانصرف علي، وأقبل الحسن يكررها دفعات كثيرة.

فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل عن المنبر، قال للناس: أرى سحنة رجل مظلوم، أخروا أمره حتى أراجع أمير المؤمنين، وأكتب في أمره.

ففعّل ذلك، ولم يزل يكتب، حتى أطلق.

قال: وكان الناس يدعون، ويكررون هذا الدعاء، وحفظوه.

قال: فما دعونا بهذا الدعاء في شدة إلا فرجها الله عنا بمنه.

حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا قال: حدثني محمد بن الحسين قال:

حدثني محمد بن سعيد، قال: حدثنا شريك، عن عبد الملك بن عمير، قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى عثمان بن

حيان المري: خذ الحسن بن الحسن، فاجلده مائة جلدة، وقفه للناس يوماً، ولا أراني إلا قاتله.

قال: فبعث إليه فجيء به وبالخصوم بين يديه.

فقام إليه علي بن الحسين عليه السلام، فقال: يا أخي تكلم بكلمات الفرج يفرج الله عنك.

قال: ما هن؟ قال: قل: لا إله إلا الله الحكيم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله رب السموات السبع،

ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين.

قال: فقالت، فأفند، فرده، وقال: أنا أكتب أمير المؤمنين بعذره، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب.  
ووجدت هذا الخبر، بأعلى وأثبت من هذين الطريقتين، حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد الأثرم المقرئ، قال: حدثنا  
أحمد بن الربيع اللجعي الجرار الكوفي، قال: حدثنا الحسين بن علي، يعني الجعفي، عن والده، عن قدامة، عن عبد  
الملك بن عمير، قال: حدثني أبو مصعب، قال: كتب عبد الملك إلى عامله بالمدينة هشام بن إسماعيل: أن حسن بن  
حسن، كاتب أهل العراق، فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث إليه بشرط، فليأتوا به.  
قال: فأتي به، فسأله عن شيء.

فقام إليه علي بن الحسين عليهما السلام، فقال: يا ابن عم، قل كلمات الفرج، لا إله إلا الله رب السموات السبع،  
 ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين، قال: فقالت.  
ثم إن الأمير نظر إلى وجهه، فقال: أرى وجهاً قد قرف بكذبة، خلوا سبيله فلأراجعن أمير المؤمنين فيه.

### دعاء ينجي من الحية

حدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثني ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، عن الفضل بن يعقوب، قال: حدثنا  
الفرجاني، قال: لما أخذ أبو جعفر إسماعيل بن أمية، أمر به إلى الحيس، فرأى في طريقه على حائط مكتوباً: يا وليي في  
نعمتي، ويا صاحبي في وحياتي، ويا عدتي في كربتي، قال: فلم يزل يكررها حتى خلى سبيله، فاجتاز بذلك الحائط  
فإذا ليس عليه شيء مكتوب.

أجار حية فأرادت قتله فخلصه جميل صنعه  
ويروى: أن حية استجارت برجل من العباد، من رجل يريد قتلها، قال: فرفع ذيله، وقال: ادخلي، فتطوقت على  
بطنه.

وجاء رجل بسيف، وقال له: يا رجل، حية هربت مني الساعة، أردت قتلها، فهل رأيتها؟ قال: ما أرى شيئاً.  
فلما أجارها، وانصرف من يريد قتلها، قالت له الحية: لا بد من قتلك.

فقال لها الرجل: ليس غنى عن هذا؟ قالت: لا.

قال: فأمهليني، حتى آتي سفح جبل، فأصلي ركعتين، وأدعو الله تعالى، وأحفر لنفسك قبراً، فإذا نزلته، فافعلي ما بدا  
لك.

قالت: افعل.

فلما صلى، ودعا، أوحى الله إليه: إني قد رحمتك، فاقبض على الحية، فإنما تموت في يدك، ولا تضرك.

ففعل ذلك، وعاد إلى موضعه، وتشاغل بعبادة ربه.

وروى هذا الخبر، جعفر العابد، برامهرمز، على غير هذه السياقة، إلا أن المعنى متقارب، فأوردت ما بلغني من ذلك،  
فقال: قرأت في كتب الأوائل، أن حية أفلتت من يد طالب لها ليقتلها، وأنها سألت الرجل أن يخبأها، فخبأها في  
فمه، وأنكرها للطالب لها.

وحدثني عبد الله بن الحارث بن السراج الواسطي، قال: حدثني بعض أصحاب أبي محمد سهل بن عبد الله التستري،  
عنه، قال: كان في بني إسرائيل، رجل في صحراء قريبة من جبل، يعبد الله تعالى، إذ مثلت له حية، فقالت له: قد  
أرهقني من يريد قتلي، فأجرتني، أبارك الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله.

قال لها: ومن أجبرك؟ قالت: من عدو يريد قتلي.

قال: وممن أنت؟ قالت: من أهل لا إله إلا الله.

قال: فأين أخيبك؟ قالت: في جوفك، إن كنت تريد المعروف.

ففتح فاه، وقال: ادخلي، ففعلت.

فلما جاء الطالب، قال له: رأيت حيةً تسعى؟ فقال العابد: ما أرى شيئاً، وصدق في ذلك.

فقال له الطالب: الله.

فقال: الله.

فتركه، ومضى، ثم قال لها: اخرجي الآن.

فقالت: إني من قوم لا يكافنون على الجميل إلا ببيع.

ثم ساق الحديث على قريب مما تقدم.

ووقع إلي الخبر بقريب من هذا المعنى، على خلاف هذه السياقة: قرىء على أبي العباس الأثرم، المقرئ البغدادي،

وهو محمد بن أحمد بن حماد بن إبراهيم بن ثعلب، في منزله بالبصرة، في جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة،

وأنا حاضر أسمع، حدثكم علي بن حرب الطائي الموصلي، قال: حدثنا جعفر بن المنذر الطائي العابد بمهروبان، قال:

كنت عند سفيان بن عيينة، فالتفت إلى شيخ حضار، فقال له: حدث القوم بحديث الحية.

فقال الرجل: حدثني عبد الجبار، أن حميد بن عبد الله خرج إلى متعبده، فمثلت بين يديه حية، وقالت له: أجزني

أجارك الله في ظله.

قال: وممن أجريك؟ قالت: من عود يريد قتلي.

قال: فأين أخيبك؟ قالت: في جوفك.

ففتح فاه، فما استقرت، حتى وافاه رجل بسيف مجرد، فقال له: يا حميد أين الحية؟ قال: ما أرى شيئاً.

فذهب الرجل، فأطلعت الحية رأسها، وقالت: يا حميد أتخس الرجل؟ فقال: لا، قد ذهب، فاخرجي.

قالت: اختر مني إحدى خصلتين، إما أن أنكنك نكتةً فأقتلك، أو أفرث كبذك، فترميه من دبرك قطعاً.

فقال: والله، ما كافيتني.

فقال: قد عرفت العداوة التي بيني وبين أبيك آدم قديماً، وليس معي مال فأعطيك ولا دابة فأحملك عليها.

فقال: امهليني، حتى آتي سفح الجبل، وأحفر لنفسي قبراً.

قالت له: افعل.

فبينما هو يسير إذ لقيه فتى حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فقال له: يا شيخ، ما لي أراك مستسماً

للموت، آيساً من الحياة؟ قال: من عدو في جوفي يريد هلاكِي.

فاستخرج من كفه شيئاً فدفعه إليه وقال: كله.

قال: ففعلت ذلك، فوجدت مغصاً شديداً، ثم ناولني شيئاً آخر، فإذا بالحية سقطت من جوفي قطعاً.

فقلت له: من أنت يرحمك الله؟ فما أحد أعظم علي منة منك

فقال: أنا المعروف، إن أهل السماء رأوا غدر هذه الحية بك، فسألوا الله عز وجل، أن يعينك، فقال لي الله تعالى: يا

معروف، أدرك عبدي، فأياي أراد بما صنع.

أهدر عبد الملك دمه فدعا فأمنه وأحسن إليه

بلغني أنه جنى رجل جنابة على عهد عبد الملك بن مروان، فأهدر دمه ودم من يؤويه، وأمر بطلبه، فحماماه الناس كلهم.

فكان يسيح في الجبال والبراري، ولا يذكر اسمه، فيضاف اليوم واليومين، فإذا عرف طرد ولم يدع أن يستقر. قال الرجل: فكنت أسيح يوماً في بطن واد، فإذا بشيخ أبيض الرأس والحية، عليه ثياب بياض، وهو قائم يصلي، فقممت إلى جنبه.

فلما سلم انفتل إلي، وقال لي: من أنت؟ قلت: رجل أخافني السلطان، وقد تحماني الناس، فلم يجزني أحد من خلق الله تعالى، فأنا أسيح في هذه البراري، خائفاً على نفسي.

قال: فأين أنت عن السبع؟ قلت: وأي سبع؟ قال: تقول: سبحان الله الإله الواحد، الذي ليس غيره أحد، سبحان الدائم الذي ليس يعادله شيء، سبحان الدائم القديم، الذي لا ند له ولا عديل، سبحان الذي يجبي ويميت، سبحان الذي هو كل يوم في شأن، سبحان الذي خلق ما يرى، وما لا يرى، سبحان الذي علم كل شيء بغير تعليم، ألهم إني أسألت بحق هذه الكلمات وحرمتهن، أن تفعل بي كذا وكذا، وأعادهن علي، فحفظتهن.

قال الرجل: وفقدت صاحبي، فألقى الله تعالى الأمن في قلبي، وخرجت من وقتي متوجهاً إلى عبد الملك، فوفقت ببابه، واستأذنت عليه، فلما دخلت عليه، قال: أتعلمت السحر؟ قلت: لا، يا أمير المؤمنين، ولكن كان من شأني كذا وكذا، وقصصت عليه القصة.

فأمني، وأحسن إلي.

#### أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي ٢٦ - ٨٦

استعمله معاوية على المدينة، وهو ابن ست عشرة سنة، وكان أحد فقهاء المدينة المدعوين، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه، وقد ناهز الأربعين، فلما بشر بها، أطبق المصحف، وقال: هذا فراق بيني وبينك تاريخ الخلفاء ٢١٧، الفخري ١٢٢، فوات الوفيات ٢ - ٣٢. من محاسنه أنه نقل اللواوين من الفارسية، والرومية، إلى العربية، وسك الدنانير في الإسلام، ومن سيئاته أنه سلط الحجاج بن يوسف الثقفي، الظالم السيء الصيت، على الناس، فولاه الحجاز أولاً، ثم العراق، فقتل العباد، وحرب البلاد أحسن التقاسيم ١٣٣ وواسطة السلوك ٢٩، والسيادة العربية ٤٤، وهو أول من غدر في الإسلام، آمن عمرو بن سعيد الأشدق، ثم قتله العقد الفريد ١ - ٧٩ و ٤ - ٤٠٩، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف في الإسلام، قال في إحدى خطبه: والله، لا يأمرني أحد بتقوى الله، إلا ضربت عنقه فوات الوفيات ٢ - ٣٣ وتاريخ الخلفاء ٢١٩، ومنع أهل الشام من الحج إلى مكة، وبني قبة الصخرة في بيت المقدس، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها، بدلاً من الكعبة، وأقام الناس على ذلك أيام بني أمية اليعقوبي ٢ - ٢٦١، وقد لخص عبد الملك سياسته، في خطبة له، قال: إن من كان قبلي من الخلفاء، كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أدوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف تاريخ الخلفاء ٢١٨ ولما حضره الموت جعل يضرب على رأسه بيده، ويقول: وددت أني كنت منذ ولدت إلى يومي هذا حمالاً تاريخ الخلفاء ٢٢٠ وابن الأثير ٤ - ٥٢١، راجع أخباره في تاريخ الخلفاء ٢١٦ - ٢٢٠ والعقد الفريد ٤ - ٢٥ و ٣٩٩، و ٥ - ١٠٣ و ٦ - ٩٩ وتاريخ اليعقوبي ٢ - ٢٧٣ والهفوات النادرة ٤٢.

يا كاشف الضر بك استغاث من اضطر

وأخبرني صديق لي: أن بعض أصحابنا من الكتاب، دفع إلى محنة صعبة، فكان من دعائه: يا كاشف الضر، بك استغاث من اضطر.

قال: وقد رأيته نقش ذلك على خاتمه، وكان يردد الدعاء به، فكشف الله محنته عن قريب.

### سليمان بن وهب يتخلص من حبسه بدعاء صادق استجابة

حدثني علي بن هشام، قال: سمعت أبا عبد الله حمد بن محمد القناني، ابن أخت الحسن بن مخلد. قال مؤلف هذا الكتاب: قال لي أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى، في كلام جرى بيننا - غير هذا - طويل: كان حمد بن محمد هذا، ابن عمه الحسن بن مخلد، وكان أبي عرفني أنه أشار على المقتدر بالله، وقد استشاره فيمن يقلده الوزارة، فأسميت له حمد بن محمد هذا، وأبا عيسى أخا أبي صحرة، وأبا زبور، ومحمد بن علي المادرائين.

قال: سمعت عبيد الله بن سليمان بن وهب، يقول: كان المتوكل، أغيظ الناس على إيتاخ، وذكر حديثاً طويلاً، وصف فيه كيف قبض المتوكل على إيتاخ وابنيه ببغداد، لما رجع من الحج، بيد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، قال فيه: قال سليمان بن وهب: ساعة قبض على إيتاخ ببغداد، قبض علي بسر من رأى، وسلمت إلى عبيد الله بن يحيى. وكتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم، بدخول سر من رأى، ليتفقوا به على الأتراك، لأنه كان معه بضعة عشر ألفاً ولكثرة الطاهرية، بخراسان، وشدة شوكتهم.

فلما دخل إسحاق سامراء، أمر المتوكل بتسليمي إليه، وقال: هذا عدوي: ففصل لحمه عن عظمه، هذا كان يلقاني في أيام المعتصم، فلا يبدأني بالسلام فأبدأه به لحاجتي إليه، فبرد علي كما يرد المولى على عبده، وكل ما دبره إيتاخ، فعن رأيه.

فأخذني إسحاق، وقيدني بقيد ثقيل، وألبسني جبة صوف، وحبسني في كيف، وأغلق علي خمسة أبواب، فكنت لا أعرف الليل من النهار.

فأقمت على ذلك عشرين يوماً، لا يفتح علي الباب إلا دفعة واحدة في كل يوم وليلة، يدفع إلي فيها خبز وملح جريش، وماء حار، فكنت آنس بالخنافس، وبنات وردان، وأتمنى الموت من شدة ما أنا فيه. فعرض لي ليلة من الليالي، أن أطلت الصلاة، وسجدت، فتصرعت إلى الله تعالى، ودعوته بالفرج، وقلت في دعائي: اللهم، إن كنت تعلم أنه كان لي في دم نجاح بن سلمة صنع، فلا تخلصني مما أنا فيه، وإن كنت تعلم أنه لا صنع لي فيه، ولا في الدماء التي سفكت، ففرج عني.

فما استتممت الدعاء، حتى سمعت صوت الأقفال تفتح، فلم أشك أنه القتل، ففتحت الأبواب، وجيء بالشمع، وحملي الفراشون، لنقل حديدي.

فقلت لحاجبه: سألتك بالله، اصدقني عن أمري.

فقال: ما أكل الأمير يوماً شيئاً، لأنه أغلظ عليه في أمرك، وذلك أن أمير المؤمنين وبخه بسببك، وقال: سلمت إليك سليمان بن وهب تسمنه أو تستخرج ماله؟ فقال الأمير: أنا صاحب سيف، ولا أعرف المناظرة على الأموال ووجوهها، ولو قرر أمره على شيء لطالبت به.

فأمر أمير المؤمنين الكتاب بالاجتماع عند الأمير لمناظرتك، وإلزامك مالا يؤخذ به خطك، وتطالب به، وقد اجتمعوا، واستدعيت لهذا.



قال: فحملت إلى المجلس، فإذا فيه موسى بن عبد الملك، صاحب ديوان الخراج، والحسن بن مخلد، صاحب ديوان الضياع، وأحمد بن إسرائيل الكاتب، وأبو نوح عيسى بن إبراهيم، كاتب الفتح بن خاقان، وداود بن الجراح، صاحب الزمام، فطرح في آخر المجلس.

فشتمني إسحاق أقبح شتم، وقال: يا فاعل، يا صانع، تعرضني لاستبطاء أمير المؤمنين، والله، لأفرقن بين لحمك وعظمتك، ولأجعلن بطن الأرض أحب إليك من ظهرها، أين الأموال؟. فاحتججت بنكبة ابن الزيات لي.

فبدري الحسن بن مخلد، فقال: أخذت من الناس أضعاف ما أديت، وعادت يدك إلى كتبة إيتاخ، فأخذت ضياع السلطان، واقتطعتها لنفسك، وحزمتها سرقة إليك، وأنت تغلها ألفي ألف درهم، وتترى بزي الوزراء، وقد بقيت عليك من تلك المصادر جملة لم تؤدها، وأخذت الجماعة تواجهي بكل قبيح، إلا موسى بن عبد الملك، فإنه كان ساكناً لصداقة كانت بيني وبينه.

فأقبل من بينهم على إسحاق، وقال: يا سيدي، أتأذن لي في الخلوة به لأفصل أمره؟ قال: افعل. فاستدناي، فحملت إليه، فسارني، وقال: عزيز علي يا أخي، حالك، وبالله لو كان خلاصك بنصف ما أملكه لفديتك به، ولكن صورتك قيحة، وما أملك إلا الرأي، فإن قبلت مني، رجوت خلاصك، وإن خالفتني، فأنت - والله - هالك.

قال: فقلت: لا أخالفك.

فقال: الرأي أن تكتب خطك بعشرة آلاف ألف درهم، تؤديها في عشرة أشهر، عند انقضاء كل شهر ألف ألف درهم، وتترفه عاجلاً مما أنت فيه.

فسكت سكوت مبهوت، فقال لي: ما لك؟ فقلت له: والله، ما أرجع إلى ربعا، إلا بعد بيع عقاري، ومن يشتري مني وأنا منكوب، وكيف يتوفر لي الثمن وأنا على هذه الحالة؟.

فقال: أنا أعلم أنك صادق، ولكن احرس نفسك عاجلاً يعظم ما تبذله، ويطمع فيه من جهتك، وأنا من وراء الحيلة لك في شيء أميل به رأي الخليفة من جهتك، يعود إلى صلاحك، والله المعين، ومن ساعة إلى ساعة فرج، ولا تتعجل الموت، ولو لم تستفد إلا الراحة مما أنت فيه يوماً واحداً، لكفى. قال: فقلت: لست أهتم ودك ولا رأيك، وأنا أفعل ما تقول.

فأقبل على الجماعة، وقال: يا سادتي، إني قد أشرت عليه أن يكتب خطه بشيء لا يطيقه، فضلاً عما هو أكثر منه، ورجوت أن نعاونه بأموالنا وجاهنا، ليمشي أمره، وقد واقفته ليكتب بكذا وكذا. فقالوا: الصواب له أن يفعل هذا.

فدعا لي بدواة وقرطاس، وأخذ خطي بالمال على نجومه، فلما أخذه، قام قائماً، وقال لإسحاق: يا سيدي، هذا رجل قد صار عليه للسلطان - أعزه الله - مال، وسيله أن يرفه، وتحرس نفسه، وينقل من هذه الحال ويغير زيه، ويرد جاهه، يانزله داراً كبيرة، وإخداً بفرش وآلة حسنة، وإخداً خداماً بين يديه، ويمكن من لقاء من يؤثر لقاءه من معاملته، ومن يجب لقاءه من أهله وولده وحاشيته، ليجد في حمل المال الحال عليه، قبل محله، ونعينه نحن، ويبيع أملاكه، ويرتجع ودائع من هي عنده.

فقال إسحاق: الساعة أفعّل ذلك، وأبلغه جميع ما ذكرت، وأمكنه منه، ونهضت الجماعة.

فأمر إسحاق بفك حديدي، وإدخال الحمام، وجاءني بخلعة حسنة، وطيب، وبخور، فاستعملته، واستدعاني، فلما

دخلت عليه، فهُض إلي، ولم يكن في مجلسه أحد، واعتذر إلي مما خاطبني به، وقال: أنا صاحب سيف، ومأمور، وقد لحقني اليوم من أجلك سماع كل مكروه، حتى امتنعت عن الطعام غماً بأن ابتلى بقتلك، أو يعتب الخليفة علي من أجلك، وإنما خاطبتك بذلك، إقامة عذر عند هؤلاء الأشرار، ليبلغوا الخليفة ذلك، وجعلته وقاية لك من الضرب والعذاب، فشكرته، وقلت ما حضرني من الكلام.

فلما كان من الغد، حولني إلى دار كبيرة، واسعة، حسنة، مفروشة، ووكل بي فيها، على إحسان عشرة وإجلال، فاستدعيت كل من أريده، وتسامع بي أصحابي، فجاؤوني وفرح الله عني.

ومضت سبعة وعشرون يوماً، وقد أعددت ألف ألف درهم، مال النجم الأول، وأنا أتوقع أن يجلب، فأطالب، فأؤديه، فإذا بموسى بن عبد الملك قد دخل إلي، فقمت إليه، فقال: أبشر.

فقلت: ما الخير يا سيدي؟

فقال: ورد كتاب عامل مصر، بمبلغ مال مصر لهذه السنة مجملاً في مبلغ الحمل والنفقات، إلى أن ينفذ حسابه مفصلاً، فقرأ عبيد الله ذلك على المتوكل، فوقع إلى ديواني بإخراج العبرة لمصر، ليعرف أثر العامل، فأخرجت ذلك من ديوان الخراج والضياح، لأن مصر تجري في ديوان الخراج والضياح وينفذ حسابها إلى الديوانين، كما قد علمت، وجعلت سنتك التي وليت فيها عمالة مصر، مصدرية، وأوردت بعلمها السنين الناقصة عن سنتك، تطفلاً في خلاصك، وجعلت أقول: النقصان في سنة كذا عن سنة كذا وكذا التي صدرناها، كذا وكذا ألفاً.

فلما قرأ عبيد الله العمل على المتوكل، قال: فهذه السنة الوافرة، من كان يتولى عمالتها؟

فقلت أنا: سليمان بن وهب يا أمير المؤمنين.

فقال المتوكل: فلم لا يرد إليها؟ فقلت: وأين سليمان بن وهب؟ ذاك مقتول بالمطالبة، قد استصفي وافقر.

فقال: تزال عنه المطالبة، ويعان بمائة ألف درهم، ويعجل إخراجهم.

فقلت: وترد ضياعه يا أمير المؤمنين، ليرجع جاهه.

قال: ويفعل ذلك، وقد تقدم إلى عبيد الله بهذا، واستأذنته في إخراجك، فأذن لي، فقم بنا إلى الوزير، وقد كان دخل إلى إسحاق برسالة الخليفة بإطلاقي.

فخرجت من وقتي، ولم أؤد من مال النجم الأول حبة واحدة، ورددته إلى موضعه.

وجئت إلى عبيد الله، فوقع لي بمائة ألف درهم معونة على سفري، ودفع إلي عهدي على مصر، فخرجت إليها.

## المتوكل

أبو الفضل جعفر المتوكل بن أبي إسحاق محمد المعتصم ٢٠٧ - ٢٤٧: لم يكن المتوكل أكبر أولاد المعتصم، ولذلك فإنه لم يعد في نشأته إعداداً يؤهله للموضع الذي وضعته الظروف فيه.

وعندما توفي الواثق، واجتمع رجال الدولة يتذكرون فيمن يرشح للحكم، كان المتوكل - إذ ذاك - في قميص وسراويل قاعداً مع أبناء الأثرانك، يتسلسل ما الخير؟ الطبري ٩ - ١٥٤.

وكان وهو شاب له شعر قفا في زي المخنثين الطبري ٩ - ١٥٧، غير أن وفاة أخيه الواثق، وعدم وجود خلف له في سن توهله للحكم، اضطر رجال الدولة إلى اختيار المتوكل خلفاً لأخيه، وأصر القاضي النبيل أبو عبد الله أحمد بن أبي داؤد على مبايعته، وألبسه الطويلة، وعممه بيده الطبري ٩ - ١٥٤، وكان جزاؤه منه على ذلك أن قبض

ضياعه وضياح أولاده، وأجبرهم على الإقرار والإشهاد ببيعها، وحبس أولاده، ثم نفاهم عن سامراء، ولم يحبس القاضي لأنه كان مشلولاً طريح الفراش الطبري ٩ - ١٨٩ .

ولما تولى الحكم ساس المملكة سياسة صيبانية خرقاء، قوامها التعصب والتزق، وهو أول من أظهر من بني العباس الاتهام على الشهوات، وكان أصحابه يسخفون ويسفون بحضرته، وكان يهاتر الجلساء، ويفاخر الرؤساء زهر الآداب ١ - ٢٥٢ وكان أول خليفة ظهر في مجلسه اللعب والمضاحيك مروج الذهب ٢ - ٣٩١ وكان له مضحكان، اسم أولهما شعرة، واسم الثاني: بعرة البصائر والذخائر م ١ ص ٢٥ وكان يستطيب معاشرته للمخنثين ومجالستهم الملح والوارد ٢٨٢ وكان قد بسط نديمه عبادة المخنث، الذي كان مجاهراً بالعهر والبغاء البصائر والذخائر م ٤ ص ٦٥، بحيث أباح له أن يدخل عليه وهو نائم مع نسائه الملح والوارد ١٤٨، وكان أبو الشبل البرجمي قد نفق عليه بإيثاره العبث الأغاني ١٤ - ١٩٣ تجارب الأمم ٦ - ٥٥٦ وغضب على نديمه أحمد بن إبراهيم بن حمدون، فنفاه إلى تكريت، ثم قطع أذنيه معجم الأدباء ١ - ٣٦٥، وكان قد غضب على إبراهيم بن حمدون، والد أحمد، إذ اتهمه بأنه قد حزن لموت الواثق، فأمر بنفيه إلى السند، وأن يضرب ثلاثمائة سوط معجم الأدباء ١ - ٣٦٨ ولاطف أحد ندمائه، فأمر بأن تدخل في أسننه فجلة الهفوات النادرة رقم ٢١٨ ص ٢٣٠ . وكان شديد البغض للإمام علي وأهل بيته، يقصد من يتولى علياً وأهله، بالقتل والمصادرة، بحيث كان اتهام الإنسان بالشيعة لآل علي، في أيامه، كافياً لقتله وفيات الأعيان ٥ - ٣٤٠ وكرب قبر الحسين الشهيد، وعفى آثاره، ووضع على سائر الطريق مساح، لا يجدون أحداً زاره إلا أتوه به، فقتله، أو أمهكه عقوبة مقاتل الطالبين ٥٩٧، وفيات الوفيات ١ - ٢٠٣ وتاريخ الخلفاء ٣٤٧ والطبري ٩ - ١٨٥ وذكر أنه كان يكره من تقدمه من الخلفاء: المأمون، والمعتمد، والواثق، فحبتهم علياً وأهل بيته ابن الأثير ٧ - ٥٦ .

وكان يظهر من سب الإمام علي، والاستهزاء بذكره كثيراً خلاصة الذهب المسبوك ٢٢٦ وكان نديمه عبادة المخنث، يرقص بين يديه، والمغنون يغنون: أقبل الأصلح البطين، خليفة المسلمين ابن الأثير ٧ - ٥٥ وبلغه أن أمير مصر، ضرب رجلاً عشر درر، فاستحلفه بحق الحسن والحسين أن يكف عنه، فكتب إلى الأمير أن يجلبه مائة جلدة الولاية والقضاة للكندي ٢٠٣ وبلغه أن أبا عمر الجهضمي، روى حديثاً عن النبي صلوات الله عليه أثنى فيه على الحسن والحسين وأبيهما وأمهما، فأمر بضربه ألف سوط تاريخ بغداد للخطيب ١٣ - ٢٨٧ و ٢٨٨ وغضب ولده المنتصر، يوماً، من استهزاء عبادة للمخنث بعلي، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكلب، ويضحك منه الناس، هو ابن عمك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكل أنت لحمه، ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه، فقال المتوكل للمغنين: غنوا جميعاً: ابن الأثير ٧ - ٥٥ غادر الفتى لابن عمه... رأس الفتى في حر أمه

وقتل ابن السكيت إمام اللغة والأدب، لأنه أثنى على الحسن والحسين ابن الأثير ٧ - ٩١ وغضب على قاضي القضاة بمصر، فأمر بأن تحلق لحيته، وأن يطاف به على حمار وأن يضرب في كل يوم عشرين سوطاً تاريخ الخلفاء ٣٤٧ .

واستعمل على المدينة ومكة، عمر بن فرج الرخجي، لمعرفة بنصبه وبغضه علياً ابن الأثير ٧ - ٥٦، فمنع آل أبي طالب من التعرض لمسألة الناس، ومنع الناس من البر بهم، وكان لا يبلغه أن أحداً بر أحداً منهم بشيء - وإن قل - إلا أمهكه عقوبة، وأثقله غرماً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات، يصلين فيه، واحدة بعد واحدة، ثم يرفعه ويجلسن إلى مغازلهن، عواري، حواسر، إلى أن قبل المتوكل، فعطف عليهم المنتصر، وأحسن إليهم مقاتل

الطالبيين ٥٩٩ ووصفت للمتوكل عائشة بنت عمر بن فرج الرخجي، فوجه في جوف الليل، والسماء تمطل، إلى عمر، أن اعمل إلي عائشة، فسأله أن يصفح عنها، فأبى، وحملها إليه في الليل، فوطئها، ثم ردها إلى منزل أبيها الخاسن والأضداد ١١٨.

وأنفق على بناء قصوره في سامراء، أربعة وعشرين ألف ألف دينار الديارات ٣٦٤ - ٣٧١، وكان المصروف على ثلاثة منها مائة ألف درهم مروج الذهب ٢ - ٤١٨، وصرف في حفلة ختان ولده المعتز ستة وثمانين ألف ألف درهم الديارات ١٥٠ - ١٥٧ وبلغ ما نثره في تلك الحفلة على المغنين والمغنيات، عشرين ألف ألف درهم، وحصل في ذلك اليوم للمزين الذي ختن المعتز، نيف وثمانون ألف دينار، سوى الصياغات والخواتم والجواهر والعداات الديارات ١٥٥ و ١٥٦. ورغب يوماً أن يعمل الشاذ كلاه، بأن يشرب على الورد، ولم يكن موسم ورد، فأمر فسك له خمسة آلاف ألف درهم، وأن تلون، وتشر مكان الورد، لكي يشرب عليها. وكان قد بايع لولده المنتصر، ثم المعتز، ثم المؤيد ابن الأثير ٧ - ٤٩ ثم رغب في تقديم المعتز، لمحبه لأمه، فسأل المنتصر أن ينزل عن العهد، فأبى، فكان يحضره مجلس العامة، ويحط منزلته، ويتهدده ويشتمه تاريخ الخلفاء ٣٥٠ ويطلب من الفتح أن يلطمه الطبري ٩ - ٢٢٥ وتجارب الأمم ٦ - ٥٥٥، وابن الأثير ٧ - ٩٧ وأمر المتوكل بقبض ضياع وصيف، وإقطاعها الفتح بن خاقان على الفتك بوصيف، وبغا، وبابنه المنتصر، تجارب الأمم ٦ - ٥٥٤، واشتد عبثه، قبل قتله بيومين، بابنه المنتصر، مرة يشتمه، ومرة يسقيه فوق طاقته، ومرة يأمر بصفعه، ومرة يتهدده بالقتل الطبري ٩ - ٢٢٥ فاضطر المنتصر أن يشاور بعض الفقهاء وأن يعلمهم بمذهب أبيه، وحكى عنه أموراً قبيحة، فأفتوه بقتله، فاتفق مع الأتراك، وقتلوه تاريخ الخلفاء ٣٥٠.

وقد كان تصرف المتوكل مع أولاده، ومع قواده، ومع حاشيته، ومع رعيته، لا بد أن يؤدي به إلى النهاية التي انتهى إليها، ففتح بذلك على من خلفه من الخلفاء، وعلى من يلوذ بهم من رجال الدولة، باباً استحال سده، وكان فاتحة لما أصيب به الخلفاء من بعده، والوزراء، وسائر رجال الدولة، من قتل، وسمل، وتشريد، وامتهان.

## الديوان

الديوان، كلمة كانت في الأصل تطلق على جريدة الحساب، ثم أطلقت على الحساب، ثم على الموضوع الذي يجري فيه الحساب المنجد.

وأول من دون الدواوين في الإسلام، الخليفة أبو حفص عمر بن الخطاب الطبري ٤ - ٢٠٩ والقحوري ٨٣ والأعلام ٥ - ٢٠٤ والمنجد وكتب فيه الناس على قبائلهم، وفرض لهم العطاء الطبري ٤ - ٢٠٩، وكان يحمل دواوين القبائل بين مكة والمدينة، فيوزع بيده العطاء على الصغير والكبير الطبري ٤ - ٢١٠. ثم اتسعت رقعة الدولة، ومصرت الأمصار، فأصبح للمدينة ديون الطبري ٦ - ١٨٠ وللكوفة ديوان، ولبصرة ديوان الطبري ٦ - ١٧٩، وأحدث معاوية بن أبي سفيان ٣٥ - ٦٠ ديوان الخاتم، وأمر أن تثبت فيه نسخة من كل توقيع يصدره، كما رتب البريد الذي أصبح من بعد ذلك ديواناً مهماً من دواوين الدولة القحوري ١٠٧ و ١٠٨ وقلد الدواوين الأخرى كتاباً منهم سرجون الرومي، قلده ديوان الخراج الطبري ٦ - ١٨٠. وفي أيام عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٨٦، نقلت الدواوين من الرومية والفارسية، إلى العربية الأعلام ٤ - ٣١٢ والقحوري ١٢٢ واستعان أولاده بمواليهم، فنصبوهم كتاباً على الدواوين الطبري ٦ - ١٨٠، وكانت الدواوين في

أيام بني أمية، مقتصرة على دواوين الأصول، ولم تكن في أيامهم دواوين أزمة الطبري ٨ - ١٦٧ .  
وفي أيام الخلافة العباسية، اتسعت الدواوين، وتشعبت، ولما استقرت الأمور في أيام المهدي، قلد الدواوين عمر بن  
بزيع، وتفكر، فوجد أنه لا يمكن أن يضبطها، لعدددها، واتساع أعمالها، فاتخذ دواوين الأزمة، وولى كل ديوان  
رجلاً الطبري ٨ - ١٦٧ فأصبح لكل ديوان من دواوين الأصول، ديوان زمام يراقبه، ويشرف على أعماله وزراء  
٢٩٤، ثم اتخذ المهدي ديواناً، أسماه: ديوان زمام الأزمة الطبري ٨ - ١٦٧ يظهر من اسمه، أنه كان يراقب ويشرف  
على دواوين الأزمة.

وكان توقيع الخليفة يقل إلى ديوان التوقيع، وبعد التحقق من صحة التوقيع، وتخليد نسخه في الديوان، يقل إلى  
ديوان الزمام وزراء ٢٠٣، ويقابله الآن في العراق، ديوان مراقب الحسابات العام، فإن أقره صاحب الديوان، نقل  
إلى حيث يجري تنفيذه، وإذا كان التوقيع أمراً بصرف مال، نقل إلى ديوان بيت المال، ويقابله الآن في العراق،  
مديرية الخزينة المركزية، حيث يتم تسليم التوقيع، وتسلم المال.

ثم انقسم ديوان بيت المال إلى ديوانين، واحد للعامة وزراء ٢٠٨ وآخر للخاصة وزراء ١٤١، وانقسم ديوان  
الضياح إلى ديوانين، واحد للضياح العامة، وآخر للضياح الخاصة وزراء ٣٣، وهي الضياح العائدة للخليفة  
والأمراء من أهل بيته، وعليه ديوان زمام خاص وزراء ٢٨٤ ثم أضيفت إلى ديوان الضياح الخاصة، الضياح  
المستحدثة وزراء ٣٤٠، ورتب لديوان الإعطاء، وهو ديوان الجيش وزراء ١٦٤ مجالس للتفرقة، يقوم فيها بتفريق  
الأموال، وكلاء عن صاحب الديوان وزراء ٢٦ وعليه ديوان زمام الجيش القصة ٨ - ٣٤ من نشوار المخاضرة  
وللنفقات ديوان وزراء ١٤٠ وعليه ديوان زمام النفقات وزراء ٣٨٠ وكان أبو العباس بن الفرات أحدث ديواناً  
اسمه: ديوان الدار وزراء ١٤٨ فانترع الوزير عبيد الله بن سليمان من ذلك الديوان، مجلس المشرق، وجعله ديواناً  
منفرداً، سماه: ديوان المشرق وزراء ١٤٩ وكذلك الوزير القاسم بن عبيد الله، فقد انتزع من ديوان الدار، مجلس  
المغرب، وجعله ديواناً منفرداً، سماه: ديوان المغرب وزراء ١٤٩.

وأحدثت دواوين اقتضت الظروف إحداثها، مثل ديوان البر وزراء ٣١٠ وقد أحدثه الوزير أبو الحسن علي بن  
عيسى بن الجراح، عندما أقنع المقتدر، فوقف على الحرمين والثغور، المستغلات التي يملكها بمدينة السلام، وغلتها  
ثلاثة عشر ألف دينار، والضياح الموروثة بالسواد، الجارية في ديوان الخاصة، وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار،  
وديوان المرافق، أي ديوان الرشى، وكان سبب إحداثه أن من سبق من الوزراء، تساهلوا في الجباية، وأنزلوا من  
بدلات ضمانات الأمصار، مبالغ عظيمة، لقد مبالغ ارتفاق، يؤديها إليهم العمال سراً وزراء ٣٨ فأصبح الارتفاع لا  
يفي بالنفقات، فأنشأ الوزير ديوان الارتفاق، وأمر العمال أن يعثروا إليه بالمبالغ التي اتفقوا على إرفاق الوزراء  
السابقين بها، ليصرفها في أمور الدولة.

وفي السنة ٣٢٤ لما ضعف أمر الدولة في أيام الراضي، نصب أبا بكر محمد بن رائق، أميراً للأمرء، وقلده إمارة  
الجيش والخراج والمعادون، وجميع الدواوين، وكان ابن رائق بواسط، فأنحدر إليه الكتاب، والحجاب، وأصحاب  
الدواوين، فبطلت الدواوين من ذلك الحين، وبطلت الوزارة، وأصبح أمير الأمرء هو الناظر في جميع الأمور،  
وصارت الأموال تحمل إلى خزائنه، وهو يطلق للخليفة ما يقوم بأوده ابن الأثير ٨ - ٣٢٢ و ٣٢٣.

دعوة مستجابة

حدثني أبو بكر محمد بن إسحاق الأهوازي أحد شهود أبيهما، عن مسرور بن عبد الله الاستادي، قال: حزني أمر صقت به ذرعاً، فأتيته بجي بن خالد الأزرق، وكان مستجاب الدعوة، فرآني مكروباً قلقاً، فقال لي: ما شأنك؟ فقلت: دفعت إلى كيت وكيت.

فقال لي: استعن بالصبر، فإن الله وعد الصابرين خيراً.

فقلت له: ادع لي، فحرك شفتيه بشيء لا أعلم ما هو، فانصرفت على جملي من القلق، فلما أصبحت أتاني الفرج بإذن الله تعالى.

قال مؤلف هذا الكتاب: ويجي بن خالد هذا، هو جد عبد الله بن محمد بن يحيى الأهوازي الكاتب، وعبد الله هذا جدي لأمي.

### دعاء لشفاء العلل

حدثني عبد الله بن أحمد بن داسه البصري، قال: اعتللت علة شديدة، أيست فيها من نفسي، على شدة كنت فيها، فعادني بعض أصحاب أبي محمد سهل بن عبد الله التستري، فقال: كان أبو محمد سهل، يدعو الله في عله، بدعاء ما دعا به أحد إلا عوفي.

فقلت: وما هو؟ فقال: قل: اللهم اشفني بشفانك، وداوني بلوائك، وعافني من بلائك.

قال: فواصلت الدعاء بذلك، فعوفيت.

### غلام نازوك وكتاب العطف

حدثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق، بن يعقوب بن إسحاق ابن البهلول التنوخي، عن أبي الحسين بن البواب المقرئ، قال: كان يصحبنا على القرآن، رجل مستور صالح، يكنى أبا أحمد، وكان يكتب كتب العطف للناس، فحدثني يوماً، قال: بقيت يوماً بلا شيء، وأنا جالس في دكاني، وقد دعوت الله أن يسهل قوتي، فما استتممت الدعاء، حتى فتح باب دكاني غلام أمرد، حسن الوجه جدان فسلم علي وجلس.

فقلت له: ما حاجتك؟ فقال: أنا عبد مملوك، وقد طردني مولاي، وغضب علي، وقال: انصرف عني إلى حيث شئت، وما أعددت لنفسي من أطرحها عليه في مثل هذا الوقت، ولا أعرف من أقصده، وقد بقيت متحيراً في أمري، وقيل لي إنك تكتب كتب العطف، فاكتب لي كتاباً.

فكتبت له الكتاب الذي كنت أكتبه، وهو: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين إلى آخر السورة، والمعوذتين، وسورة الإخلاص، وآية الكرسي، ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل، لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وتلك الأمثال نضربنا للناس، لعلهم يفكرون... إلى آخر السورة، وكتبت آيات العطف، وهي: لو أنفقت ما في الأرض جميعاً، ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم... الآية، ومن آياته أنه خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودةً ورحمةً إلى آخر الآية، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً... إلى آخر الآية.

وقلت له: خذ هذه الرقعة، فشدّها على عضدك الأيمن، ولا تعلقها عليك إلا وأنت طاهر.

فأخذها وقام وهو يبكي، وطرح بين يدي ديناراً عيناً، فداخلتني له رحمة، فصليت ركعتين، ودعوت له أن ينفعه الله

بالكتاب، ويرد عليه قلب مولا، وجلست.

فما مضت إلا ساعتان، وإذا بأبي الجود، خليفة عجيب، غلام نازوك، وكان خليفته على الشرطة، قد جاءني، فقال لي: أجب الأمير نازوك، فارتعت.

فقال: لا بأس عليك، وأركبني بغلاً وجاء بي إلى دار نازوك، فتركني في الدهليز ودخل. فلما كان بعد ساعة، أدخلت، فإذا نازوك جالس في دست عظيم، وبين يديه الغلمان قياماً سماطين، نحو ثلثمائة غلام وأكثر، وكاتبه الحسين جالس بين يديه، ورجل آخر لا أعرفه. فارتعت، وأوهيت لأقبل الأرض، فقال: مه، عافاك الله، لا تفعل، هذا من سنن الجبارين، وما نريد نحن هذا، اجلس يا شيخ، ولا تخف، فجلست.

فقال لي: جاءك اليوم غلام أمرد، فكنت له كتاباً للعطف؟ قلت: نعم.

قال: اصدقني عما جرى بينكما، حرفاً، حرفاً.

فأعدته عليه، حتى لم أدع كلمة، وتلوت عليه الآيات التي كتبتها.

فلما بلغت إلى قول الغلام: أنا عبد مملوك، وما أعددت لنفسي من أقصده في هذه الحال، ولا أعرف أحداً ألتجأ إليه، وقد طردني مولاي، بكيت لما تداخمني من رحمة له، وأريته الدينار الذي أعطانيه، فدمعت عينا نازوك وتجلد، واستوفى الحديث.

وقال: قم يا شيخ، بارك الله عليك، ومهما عرضت لك من حاجة، أو لجار لك، أو صديق، فسلنا إياها، فإننا نقضيها، وأكثر عندنا وانيسط في هذه الدار، فإنك غير محبوب عنها، فدعوت له وخرجت.

فلما صرت خرج باب المجلس، إذا بغلام قد أعطاني قرطاساً فيه ثلثمائة درهم، فأخذته وخرجت.

فلما صرت في الدهليز، إذا بالفتى، فعدل بي إلى موضع وأجلسني.

فقلت: ما خبرك؟ فقال: أنا غلام الأمير، وكان قد طردني، وغضب علي، فلما أن جئتك، واحتبست عندك، طلبني، فرجعت مع رسله.

فقال لي: أين كنت؟ فصدقته الحديث، فلم يصدقني، وأمر بإحضارك، فلما اتفقنا في الحديث، وخرجت الساعة، أحضرتني، وقال: يا بني، أنت الساعة من أجل غلmani عندي، وأمكنتهم من قلبي، وأخصهم بي، إذ كنت لما غضبت عليك ما غيرك ذلك عن محبتي، والرغبة في خدمتي، وطلب الحيل في الرجوع إلي وانكشف لي أنك ما أعددت لنفسك - بعد الله - سواي، ولا عرفت وجهاً تلجأ إليه في الدنيا غيري، فما ترى بعد هذا إلا كل ما تحب، وسأعلي منزلتك، وأبلغ بك أعلى مراتب نظرائك، ولعل الله سبحانه استجاب فيك دعاء هذا الرجل الصالح، ونفعك بالآيات، فبأي شيء كافأت الرجل؟

فقلت: ما أعطيته غير ذلك الدينار.

فقال: سبحانه الله، قم إلى الخزانة، فخذ منها ما تريد، وأعطه.

فأخذت منها هذا القرطاس، وجنتك به، فحذه، وأعطاني أيضاً خمسمائة درهم، وقال لي: الزمني، فإنني أحسن إليك. فجنته بعد مديدة، فإذا هو قائد جليل، وقد بلغ به نازوك تلك المنزلة، فوصلني بصلة جلييلة، وصار لي عدة على الدهر وذخيرة.

الدهليز

الدهليز: الممر الذي بين باب الدار ووسطها، ويسمى الآن ببغداد، الحجاز، والكلمفة فصيحة، لأنه موضع الجواز إلى داخل الدار، وجمعه دهاليز، قال يحيى بن خالد: ينبغي للإنسان أن يتأنق في دهليزه لأنه وجه الدار، ومنزل الضيف، وموقف الصديق حتى يؤذن له، وموضع المعلم، ومقبل الخدم، ومنتهى حد المستأذن.

ومن لطيف الكلام: القبر دهليز الآخرة.

وقال ابن سكرة:

قلت للنزلة لما ... أن ألمت بلهاتي

بجياتي خلّ حلقي ... فهو دهليز حياتي

وفيات الأعيان ٧ - ٩٢ والغيث المسجم للصفدي ١ - ١٨٥ وشفاء الغليل ٨٦.

وكانت دهاليز دور الوزراء، والقادة، والأمراء، تشتمل على حجر عدة، برسم الخدم، والأتباع، والوكلاء، والحراس، والرجالة، وفيها مواضع للجلوس والطعام، راجع القصة ١ - ٥ و ٢ - ١٦٤ من كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي. ويحدثنا أبو جعفر بن شيرزاد عن دهليز داره، أنه كان محصناً بباين، باب على الطريق العام، وباب على صحن الدار، فإذا دخل الداخلون من الباب الأول، ظل الثاني مغلقاً، حتى إذا استتم دخولهم، واستقروا في الدهليز، أغلق الأول، وفتح الثاني، لينفثوا منه إلى داخل الدار، راجع القصة ٣٧٨ من هذا الكتاب.

ولما عزل الوزير أبو شجاع من وزارة الخليفة، خرج إلى الجامع يوم الجمعة، فانتالت العامة عليه تصافحه وتدعو له، فأنكر الخليفة ذلك، فبنى في دهليز داره مسجداً، وكان يؤذن ويصلي فيه المنتظم ٩ - ٩٣. وكان بيت الطاحون في كل دار يقع في الدهليز، راجع في الملح والواد ص ٢٨٣ قصة العاشق الذي حل محل الحمار في الطاحون.

### جور أبي عبد الله الكوفي

حدثني محمد بن محمد المهندس، قال: حدثني أبو مروان الجهمدي، قال: ظلمني أحمد بن علي بن سعيد الكوفي، وهو يتقلد واسط لناصر الدولة، وقد تقلد أمرة الأمراء ببغداد، وكنت أحد من ظلم، فظلمني، وأخذ من ضيعتي بالجمادة نيفاً وأربعين كراً أرزاً، بالنصف من حق الرقبة، بغير تأويل ولا شبهة، سوى ما أخذه بحق بيت المال، وظلم فيه أيضاً، فتظلمت إليه، وكلمته، فلم ينفعي معه شيء، وكان الكر الأرز بالنصف - إذ ذاك - بثلاثين ديناراً. فقلت له: قد أخذ مني سيدي ما أخذ، ووالله، ما أهتدي أنا وعيالي، إلى ما سوى ذلك، وما لي ما أقومهم به باقي سنتي، ولا ما أعمر به ضيعتي، وقد طابت نفسي أن تطلق لي من حملته عشرة أكرار، وجعلتك من الباقي في حل.

فقال: ما إلى هذا سبيل.

فقلت: فخمسة أكرار.

فقال: لا أفعال.

فبكيت، وقبلت يده، ورقفته، وقلت: هب لي ثلاثة أكرار، وتصدق عليه بها، وأنت من الجميع في حل.

فقال: لا والله، ولا أرزة واحدة.

فسحرت، وقلت: فإني أتظلم منك إلى الله تعالى.



فقال لي: كن على الظلّامة، يكررها دفعات، ويكسر الميم، بلسان أهل الكوفة.

فانصرفت منكسر القلب، منقطع الرجاء، فجمعت عيالي، وما زلنا ندعو عليه ليالي كثيرة، فهرب من واسط في الليلة الحادية عشرة من أخذه الأرز، فجتت إلى البيدر، والأرز مطروح، فأخذته، وحملته إلى منزلي، وما عاد الكوفي بعدها إلى واسط، ولا أفلح. من طريق ما اتفق لابن مقلة في نكته التي أدته إلى الوزارة وحدثني غير واحد من الكتاب، عن سمع أبا علي بن مقلة، لما عاد من فارس وزيراً، يحدث، قال: من طريق ما اتفق لي في نكته هذه التي أدتني إلى الوزارة، أنني أصبحت وأنا محبوس مقيد في حجرة من دار ياقوت، أمير فارس، وقد لحقني من اليأس من الفرج وضيق الصدر ما أقنطني وكاد يذهب بعقلي، وكنا، أنا وفلان محبوسين، مقيدين، في بيت واحد من الحجرة، إلا أنا على سبيل ترفيه وإكرام.

فدخل علينا كاتب ياقوت، وكان كثيراً ما يجيئنا برسالته، فقال: الأمير يقرئكما السلام، ويعرف أخباركما، ويعرض عليكما قضاء حاجة إن كانت لكما.

فقلت له: تقرأ عليه السلام، وتقول له: قد - والله - ضاق صدري، واشتهيت أن أشرب على غناء طيب، فإن جاز أن يسامحنا بذلك سراً، ويتخذ به منة علي ويداً، تفضل بذلك. فقال لي المحبوس الذي كان معي: يا هذا، ما في قلوبنا فضل لذلك. فقلت للكاتب: أدعني ما قلت لك.

قال: السمع والطاعة ومضى، وعاد فقال: الأمير يقول لك: نعم، وكرامة وعزارة، أي وقت شئت. فقلت: الساعة.

فلم تمض إلا ساعة، حتى جاءوا بالطعام، فأكلنا، وبللشام والفواكه والنيذ، وصف المجلس، فجلست أنا والمحبوس الذي معي في القيد.

وقلت له: تعال، حتى نشرب، ونتفاءل بأول صوت تغنيه المغنية، في سرعة الفرج مما نحن فيه فلعله يصح الفأل.

فقال: أما أنا فلا أشرب، فلم أزل أرفق به حتى شرب، فكان أول صوت غنته المغنية:

تواعد للين الخليط لينتوا ... وقالوا لراعي الذود موعذك السبت  
ولكنهم بانوا ولم أدر بغتة ... وأقطع شيء حين يفجؤك البغت

قال أبو علي: ذكر المبرد في كتابه المعروف بالكامل، البيت الأول، ورواه محمد بن يسير.

فقال لي: ما هذا مما يتفاءل به، وأي معنى فيه، مما يدل على فرجنا؟ فقلت: ما هو إلا قال مبارك، وأنا أرجو أن يفرق الله بيننا وبين هذه الحالة التي نحن عليها، ويبين الفرج والصلاح، يوم السبت.

قال: وأخذنا في شربنا يومنا، وسكرنا، وانصرفت المغنية، ومضت الأيام.

فلما كان يوم السبت، وقد مضى من النهار ساعتان، إذا بياقوت قد دخل علينا، فارتعنا، وقمت إليه، فقال: أيها الوزير، الله، الله، في أمري، وأقبل إلي مسرعاً، وعانقني، وأجلسني، وأخذ يهنيني بالوزارة، فبهت، ولم يكن عندي علم بشيء من الأمر، ولا مقدمة له.

فأخرج إلي كتاباً ورد عليه من القاهر بالله، يعلمه فيه بما جرى على المقتدر، ومبايعة الناس له بالخلافة، ويأمره بأخذ البيعة على من بفارس من الأولياء، وفيه تقليده إياي الوزارة، ويأمره بطاعتي، وسلم إلي أيضاً، كتاباً من القاهر، يأمرني فيه بالنظر في أموال فارس، والأولياء بها، واستصحاب ما يمكنني من المال، وتدبير أمر البلد بما أراه، والبدار إلى حضرته، وأنه استخلف لي - إلى أن أحضر - الكلوداني فحمدت الله كثيراً، وشكرته، وإذا الحداد واقف،

فتقدمت إليه بفك قيودي وقيود الرجل، ودخلت الحمام، وأصلحت أمري وأمر الرجل، وخرجت، فنظرت في الأعمال والأموال، وجمعت مالا جليلاً في أيام يسيرة، وقررت أمور البلد، وسرت، واستصحبت الرجل معي إلى الحضرة، حتى جلس هذا المجلس، وفرح الله عنا.

### أبو أيوب يرفع شكواه إلى الله تعالى برقعة يعلقها في الخراب

قال محمد بن عبدوس، في كتابه كتاب الوزراء: وجدت بخط أبي علي أحمد بن إسماعيل الكاتب، حدثني أحمد بن أبي الأصغ، قال: وجهني عبيد الله بن يحيى، إلى أبي أيوب، ابن أخت أبي الوزير، أيام تقلد أبي صالح عبد الله بن محمد بن يزيد الوزارة، وكان ابن يزيد، يقصد أبا أيوب ويعاديه. فقال لي عبيد الله: وسهل عليه الأمر، وقل له: أرجو أن يكفيك الله شره. فوصلت إليه وهو يصلي، وقد علق في محرابه رقعة، فأنكرتها، وأدبت إليه الرسالة. فقال لي: قل له: جعلت فداك، لست أغمم بشيء، لأن أمره قريب، وقد رفعت فيه إلى الله تعالى قصة إذ أعجزني المخلوقون، أما تراها معلقة في القبلة؟ فكاد يغلبني الضحك، فضبطت نفسي، وانصرفت إلى عبيد الله، فحدثته الحديث، فضحك منه. قال: فوالله، ما مضت بآب يزيد إلا أيام يسيرة، حتى سخط عليه وصرف. فاتفق لأبي أيوب القرج، ونزل بآب يزيد المكروه، في مثل المدة التي تخرج فيها التوقيعات في القصص.

### أبو نصر الواسطي يتظلم إلى الإمام موسى الكاظم برقعة علقها على قبره

قال مؤلف الكتاب: وأنا شاهدت مثل هذا، وذلك أن أبا الفرج محمد بن العباس بن فسانجس، لما ولي الوزارة أظهر من الشر على الناس، والظلم لهم، بخلاف ما كان يقدر فيه، وكنت أحد من ظلمه، فإنه أخذ ضيعتي بالأهواز، وأقطعها بالحقين، وأخرجها عن يدي. فأصعدت إلى بغداد متظلماً إليه من الحال، فما أنصفتني، على حرمان كانت بيني وبينه، وكنت أتردد إلى مجلسه، فرأيت فيه شيخاً من شيوخ العمال، يعرف بأبي نصر محمد بن محمد الواسطي، أحد من كان يتصرف في عمالات بنواحي الأهواز، وكان صديقاً لي، فسألته عن أمره، فذكر أن الحسن بن بختيار، أحد قواد الديلم، ضمن أعمال الخراج والضياح بنهر تيرى، وبها منزل أبي نصر هذا، وأنه طالبه بظلم لا يلزمه، فبعد عن البلد، فكيس داره، وأخذ جميع ما كان فيها، وكان فيما أخذ، عهد ضياعه كلها، وأنه حضر للوزير محمد بن العباس متظلماً منه، فلما عرف الحسن بن بختيار ذلك، أنفذ بالعهد إلى الوزير، وقال له: قد أهديت إليك هذه الضياح، فقبل الوزير منه ذلك، وكتب إلى وكيله في ضيعته بالأهواز، فأدخل يده في ضياعي، وقد تظلمت إليه، فلم ينصفني. فلما كان بعد أيام، دخلت المشهد بمقابر قريش، فزرت موسى بن جعفر، وعدلت إلى موضع الصلاة لأصلي، فإذا بقصة معلقة، بخط أبي نصر هذا، وقد كتبها إلى موسى بن جعفر، يتظلم فيها من محمد بن العباس، ويشرح أمره، ويتوسل في القصة، بمحمد، وعلي، وفاطمة، والحسن والحسين، وباقي الأئمة عليهم السلام، أن يأخذ له بحقه من محمد بن العباس، ويخلص له ضياعه.

فلما قرأت الورقة، عجبت من ذلك عجباً شديداً، ووقع علي الضحك، لأنها قصة إلى رجل ميت، وقد علقها عند رأسه، وكنت عرفت أبا نصر بمذهب الإمامية الاثني عشرية، فظننت أنه مع هذا الاعتقاد كان أكبر قصده أن يشنع على الوزير بالقصة عند قبر موسى بن جعفر عليه السلام، وكان كثير الزيارة له، أيام وزارته، وقبلها، وبعدها، ليعلم أن الرجل على مذهبه، فیتنم من ظلمه، ويرهب الدعاء في ذلك المكان، فانصرفت.

فلما كان بعد أيام، كنت في المشهد، وجاء الوزير، فرأيت يلاحظ الرقعة، فعلمت أنه قد قرأها، ومضى على هذا الحديث مدة، وما رهب القصة، ولا أنصف الرجل.

وامتدت محنة الرجل مشهوراً، ورحل محمد بن العباس إلى الأهواز، للنظر في أبواب المال، وتقدير أمر العمال، وأقمت أنا ببغداد، لأنه لم يكن أنصفي، ولا طمعت في إنصافه إياي لو صحبته، وانحدر أبو نصر في جملة من انحدر معه.

فلما صار بالمأمونية قرية حيال سوق الأهواز، وهو يريد دخولها من غد ورد من بغداد كتاب إلى بختكين التركي مولى معز الدولة، المعروف بأزذرويه، وكان يتقلد الحرب والخراج، بالأهواز وكورها، فقبض عليه، وقبض على أمواله، وقيده، ومضى أبو نصر إلى ضياعه، فأدخل يده فيها، وكفي ما كان من أمر الوزير، واستقرت ضياعه في يده إلى الآن.

وأقمت أنا سنين أتظلم من تلك المحنة التي ظلمني فيها محمد بن العباس، فما أنصفي أحد، وأيست، وخرجت تلك الضيعة من يدي، فما عادت إلى الآن.

وصح لأبي نصر، بقصته، ما لم يصح لي، وكانت محنته ومحنتي واحد، ففاز هو بتعجيل القرح بها، من حيث لم يغلب على ظني أن أطلب القرح منه.

#### أحمد بن أبي خالد يبلغه أن جارية له توطيء فراشه غيره

قال محمد بن عبدوس في كتاب الوزراء: إن إبراهيم بن العباس الصولي، قال: كنت أكتب لأحمد بن أبي خالد، فدخلت عليه يوماً، فرأيتته مطرقاً، مفكراً، مغموماً، فسألته عن الخبر.

فأخرج إلي رقعة، فإذا فيها أن حظية من أعز جواريه عنده، يخالف إليها، وتوطيء فراشه غيره، ويستشهد في الرقعة، بخادمين كانا تفتين عنده.

وقال لي: دعوت الخادمين، فسألتهما عن ذلك، فأنكرا، فتهددهما، فأقاما على الإنكار، فضربتهما، وأحضرت لها آلة العذاب، فاعترفا بكل ما في الرقعة على الجارية، وإني لم أذق أمس ولا اليوم طعاماً، وقد همت بقتل الجارية. فوجدت بين يديه مصحفاً، ففتحته لأتفاءل بما يخرج فيه، فكان أول ما وقعت عيني عليه: يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا.... الآية، فشككت في صحة الحديث، وأرئيت ما خرج به الفأل.

وقلت: دعني أتلف في كشف هذا.

قال: افعل.

فخلوت بالخادمين منفردين، ورفقت بأحدهما، فقال: النار ولا العار، وذكر أن امرأة ابن أبي خالد، أعطته ألف دينار، وسألته الشهادة على الجارية، وأحضرتني الكيس محتوماً بخاتم المرأة، وأمرته أن لا يذكر شيئاً إلا بعد أن يوقع به المكروه، ليكون أثبت للخبر، ودعوت الآخر، فاعترف بمثل ذلك أيضاً.

فبادرت إلى أحمد بالبيشارة، فما وصلت إليه، حتى جاءت رقيقة الحرة، تعلمه أن الرقعة الأولى كانت من فعلها، غيرة

عليه من الجارية، وأن جميع ما فيها باطل، وأما حملت الخادمين على ذلك، وأنها تاتية إلى الله تعالى من هذا الفعل وأمثاله.

فجاءته براءة الجارية من كل وجه فسر بذلك، وزال عنه ما كان فيه، وأحسن إلى الجارية.

## الحرّة

الحرّ في اللغة، الذي يملك أن يتصرف كما يريد من دون أي قيد يحد من تصرفاته، مادياً كان القيد أو معنوياً، واتسع مفهوم الكلمة، فأصبحت تدل على الشريف الكريم.

والحرّ من كل شيء: خياره، ومنه: الطير الحرّ، أي الصقر والبازي، والطين الحرّ، أي الذي لا رمل فيه، ويسمونه في العراق: الطين الحري.

أما في الاصطلاح فإن كلمة الحرّة، تعني خلاف الأمة، وسبب هذه التسمية غلبة الجوارى والإماء، وقد كان ابن أبي عسرون يعرف بزواج الحرّة، لأنه تزوج بامرأة كانت زوجة المقنن القصبة ٥ - ٢ من كتاب نشوار المحاضرة.

وكان الأمويون يتحرون أن يكون من تقلد الخلافة منهم، من أم عربية، وكان أبو سعيد مسلمة بن عبد الملك من رجاهم المعلودين، إلا أن كونه ابن أمة، حال بينه وبين الخلافة، وعرض مسلمة على عمرة بنت الحارس، أن يتزوج منها، فقالت: يا ابن النبي تعلم، وإنك هناك؟ تعني أن أمة أمة بلاغات النساء ١٩٠. ولما تنقص هشام بن عبد الملك، الإمام زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام، لم يجد ما يعيره به، إلا قوله: أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة، وأنت ابن أمة مروج الذهب ٢ - ١٦٢، والعقد الفريد ٤ - ٣٢ و ٤٨٢.

ثم اختلف الحال في آخر أيام الأمويين، فإن آخر من تقلد الخلافة منهم، إبراهيم ابن الوليد، ومروان بن محمد، كانا من أبناء الإماء خلاصة الذهب المسبوك ٤٦ و ٤٧.

أما الخلفاء في الدولة العباسية، وعددهم سبعة وثلاثون، فلم يكن فيهم من هو عربي الأم، إلا ثلاثة، الأول: أبو العباس السفاح، أمه ربيعة بنت عبد المدان الحارثي خلاصة الذهب ٥٣ وكان يدعى: ابن الحارثية، وكانت عروبة أمه، السبب في تقدمه على أخيه المنصور الذي كان يكبره في السن، فإن أم المنصور بربرية، اسمها سلامة خلاصة الذهب المسبوك ٥٩، والثاني: المهدي بن المنصور، وأمّه أم موسى بنت منصور ابن عبد الله الحميري خلاصة الذهب ٩٠، والثالث: محمد الأمين بن هارون الرشيد، أمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور، قالوا: لم يل الخلافة هاشمي من هاشميين، إلا ثلاثة: الإمام علي بن أبي طالب، وابنه الحسن، ومحمد الأمين خلاصة الذهب ١٧١ أما بقية الخلفاء العباسيين، فكلهم أبناء أمهات أولاد، للفصيح ومعرفة أسماء أمهات الخلفاء، راجع خلاصة الذهب المسبوك ٥٩ - ٢٨٩.

هذا وإن غلبة الجوارى على الخلفاء والأمراء لم تقتصر على المشرق، وإنما تجاوزته إلى المغرب والأندلس، وقد وجدت في قرطبة، في السنة ١٩٦٠، قنطرة على نهرها، شادتها زوجة أحد الخلفاء الأمويين، فسميت: قنطرة الحرّة، وكان الدليل أسبانياً، لم يدرك سبب هذه التسمية، فقال: إن كلمة الحرّة تعني النبيلة الشريفة.

سبب خروج أحمد بن محمد بن المدبر إلى الشام

حدثني أبو القاسم طلحة بن محمد بن جعفر، الشاهد، المقرئ، المعروف بـغلام ابن مجاهد، قال: حدثني أبو الحسين الخصبي، قال: حدثني أبو خازم القاضي، قال: حدثني أبو الحسن أحمد بن محمد بن المدبر، قال: كان بدء خروجي إلى الشام، أن المتوكل خرج يتنزه بالحمدية، فخلا به الكتاب هناك، فأحكموا علي القصة وأنا لا أعلم، ثم بعثوا إلي، وأنا لا أدري، فحضرت وهم مجتمعون فقالوا لي: وكان المخاطب لي موسى بن عبد الملك.

فقال لي: قد جرت أسباب أوجبت أن أمير المؤمنين أمر أن تخرج إلى الرقة، فكم تحتاج لنفقتك؟ فقلت: أما خروجي، فالسمع والطاعة لأمر المؤمنين، وأما الذي أحتاج إليه للنفقة، فهو ثلاثون ألف درهم. فما برحت، حتى دفعت إلي، وقالوا: اخرج الساعة.

فقلت: أودع أمير المؤمنين.

فقالوا: ما إلى ذلك سبيل.

فقلت: أصلح من شأني.

فقالوا: ولا هذا، وأخذ موسى يعرض لي، أن السلطان قد سخط علي، وأن الصواب الخروج، وترك الخلاف. وأقبل يقول: إن السلطان إذا سخط على الرجل، فالصواب لذلك الرجل أن ينتهي إلى أمره كله، وأن لا يراجعه في شيء، وينبغي أن يعلم أن التباعد عن السلطان، له فيه الحظ. فقلت: يكفي الله ويلطف.

فوكلوا بي جماعة، حتى خرجت من البلد، وأنا في حالة، الأسر عندي أحسن منها وأطيب، وحنوا بي السير.

فلما قاربت الرقة، وأردت الدخول إليها، أدركنا الليل، فإذا بأعرابي في ناحية عني، ومعه إبل يحدوها، ويقول:

كم مرة حفت بك المكاره... خار لك الله وأنت كاره

قال: ولم يزل يكرر ذلك، فحفظته، وتبركت بالفأل، ودخلت الرقة، فلم أقم بها إلا أياماً يسيرة، حتى ورد كتاب أمير المؤمنين بالخروج إلى الشام للتعديل، وأجرى علي مائة ألف درهم، وذكر أن هذا عمل جليل، كان المأمون خرج فيه بنفسه، لجلالته وعظم خطره، وأنه رأي أهلاً له.

فخرجت، فرأيت ل ما أحب، حتى لو بذلت لي العراق بأسرها، على فراق تلك الناحية، ما سمحت نفساً بذلك، فله الحمد والمنة.

وذكر هذا الخبر محمد بن عبدوس في كتاب الوزراء، فقال: حدثني أبو الحسين عبد الواحد بن محمد الخصبي، قال: حدثني أبو خازم القاضي، قال: حدثني جدك أحمد بن حمد بن مدبر، وكان جده لأمه، وحدثني أنه لم يره قط - أن المتوكل خرج إلى الحمدية سنة إحدى وأربعين ومائتين متنزهاً، فأتاني رسوله، وأحضرني، فحضرت، فوجدت عبيد الله بن يحيى، والحسن بن مخلد، وأحمد بن الخصيب، وجماعة من الكتاب حضوراً.

فقال لي عبيد الله بن يحيى: إن أمير المؤمنين يقول لك: قد فسد علينا أمر الرقة، ثم ذكر نحوه من الحديث الأول، إلا أنه لم يكن فيه إطلاق ثلاثين ألف درهم، بل قال: فخرجت وما أقدر على نفقة، ففكرت فيمن أقصده، وأستعين بماله، فما ذكرت غير المعلى بن أيوب، وكانت بيني وبينه وحشة، فكتبت إليه رقعة حملت نفسي على الصعب فيها، فوجه إلي خمس آلاف دينار، فتحملت بها... ثم ذكر باقي الحديث، على سياقة الخبر الأول، إلا أنه قال: إن الذي أجرين عليه، لما أمر بالخروج للتعديل، في كل شهر مائة ألف وعشرين ألف درهم.

قال: فشخصت إليها، ولو أعطيت الآن بقصري فيها، سر من رأى كلها، ما سمحت نفساً بذلك.

وكان قصره بالرملة، وكان جليلاً.

## بين الحسن بن علي عليهما السلام ومعاوية بن أبي سفيان

أخبرني أبو طالب محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول، فيما أجاز لي روايته عنه، بعد ما سمعته منه من حديث، قال: حدثني أبو سعيد أحمد بن الصقر بن ثوبان، مستملي بندار، وكتبه لنا بخطه، ونقلته أنا من أصل أبي طالب، الذي ذكر أنه بخط أبي سعيد، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، قال: حدثنا محمد بن علي بن الحسين بن علي، قال: بعث معاوية إلى الحسن بن علي، أو الحسين بن علي عليهما السلام، ودعا بضاربة سياط، فوضعها بين يديه، فلما دخل الحسن عليه السلام أخذ السياط فرمى بها، ومد يده إليه، وقال: مرحباً بسيد شباب قريش ودعا بعشرة آلاف دينار، وقال: استعن بما على زمانك، فلما خرج تبعه الحاجب، فقال له: يا ابن رسول الله، إنا نخدم هذا السلطان، ولسنا نأمن بادرته، وقد رأيتك تحرك شفتيك بشيء، فما هو؟ فقال: أعلمك، على أن لا تعلم أحداً من آل معاوية.

قال: نعم.

قال: إذا وقعت في شدة أو مكروه، أو خفت من سلطان، فقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله الكبير المتعال، سبحان الله رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين، اللهم جل ثناؤك، وعز جارك، ولا إله غيرك، اللهم إني أعوذ بك من شر فلان، وأتباعه، وأشياعه، من الجن والإنس، أن يفرطوا علي، أو أن يطغوا.

## لا إله إلا الله الحليم الكريم

أخبرني القاضي أبو طالب إجازة، قال: حدثنا أبو سعيد، قال: حدثني سهل بن محمد، قال: حدثنا أبو هشام الرفاعي، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا مسعر، عن أبي بكر بن حفص عن الحسن بن أبي الحسن: أن عبد الله بن جعفر، لما أراد أن يهدي ابنته إلى زوجها، خلا بها، فقال لها: إذا نزل بك أمر فطيع من أمور الدنيا، أو الموت، فاستقبله بقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين. قال الحسن: فبعث إلي الحجاج، فقلتهن، فلما مثلت بين يديه، قال: لقد بعثت إليك وأنا أريد قتلك، واليوم ما أحد أكرم علي منك، فسل حوائجك.

## دعاء يعقوب الذي نال به الفرج

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني المشي بن عبد الكريم، قال: حدثني زافر بن سليمان، عن يحيى بن سليم، قال: بلغني أن ملك الموت، استأذن ربه عز وجل، أن يسلم على يعقوب، فأذن له، فأتاه، فسلم عليه. فقال له يعقوب: بالذي خلقك، أقبضت روح يوسف؟ قال: لا، ولكني أعلمك كلمات لا تسأل الله بها شيئاً إلا أعطاك.

قال: ما هي؟ قال: قل يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصيه غيره. فقالمها، فما طلع الفجر من غده، حتى أتاه البشير بالقيص.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني الحسين بن عبد الرحمن، قال: حدثني أبو غسان مالك ابن ضيغم، عن إبراهيم بن خلاد الأزدي، قال:

نزل جبريل على يعقوب عليه السلام فشكى إليه ما هو عليه من الشوق إلى يوسف، فقال: ألا أعلمك دعاءً، إن دعوت به فرج الله عنك؟ قال: بلى.

قال: قل، يا من لا يعلم كيف هو، إلا هو، ويا من لا يبلغ قدرته غيره، فرج عني. فقأها، فأتاه البشير بالقميص.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا هارون بن عبد الله، قال: حدثنا سعيد بن عامر الضبيعي، عن المعمر بن سليمان، قال: لقي يعقوب رجل، فقال له: يا يعقوب، ما لي لا أراك كما كنت؟ قال: طول الزمان، وكثرة الأحران.

قال: قل: ألهم اجعل لي من كل هم همي وكرهني من أمري، في ديني، ودنياي، وآخرتي، فرجاً ومخرجاً، واغفر لي ذنوبي، وثبت رجاءك في قلبي، واقطعه عن سواك، حتى لا يكون لي رجاء إلا إليك.

قال داود بن رشيد، حدثني الوليد بن مسلم، عن خليد بن دعلج، عن الحسن بن أبي الحسن، قال: لو عري من البلاد أحد، لعري منه آل يعقوب، مسهم البلاء ثمانون سنة.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثني ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني مداح بن عبد العزيز، عن شيخ من قریش: أن جبريل عليه السلام هبط على يعقوب صلى الله عليه، فقال له: يا يعقوب، تملق إلى ربك. فقال: يا جبريل، كيف أقول؟ فقال: قل: يا كثير الخير، يا دائم المعروف.

فأوحى الله إليه، لقد دعوتني بدعاء، لو كان ابنك ميتين، لأنشرتهما لك.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني الحسن بن عمرو بن محمد القرشي، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا زافر بن سليمان، عن يحيى بن عبد الملك، عن رجل، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: كان ليعقوب عليه السلام، أخ مؤاخ في الله عز وجل، فقال ليعقوب: ما الذي أذهب بصرك، وقوس ظهرك؟ فقال: أما الذي قوس ظهري، فالخزن على بنيامين، وأما الذي أذهب بصري، فالبكاء على يوسف.

فأوحى الله تعالى إليه: أما تستحي، تشكوني إلى عبدي.

قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، ثم قال: يا رب، ارحم الشيخ الكبير، أذهب بصري، وقوس ظهري، أردد علي ریحانتي يوسف، أشمه، ثم افعلي ما شئت.

فقال له جبريل عليه السلام: إن ربك يقرؤك السلام، ويقول لك: أبشر، وليفرح قلبك، فوعزتي لو كانا ميتين، لأنشرتهما لك، فاصنع طعاماً للمساكين وادعهم إليه، فإن أحب عبادي إلي، الأنبياء والمساكين، وإن الذي ذهب ببصرك، وقوس ظهرك، وسبب صنع إخوة يوسف به ما صنعوا، أنكم ذبحتم شاة، فأتاكم رجل صائم، فلم تطعموه. فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغداء، أمر مناديه، فنادى: من كان يريد الغداء من المساكين فليتغد مع يعقوب، وإن كان صائماً أمر مناديه، فنادى: من كان صائماً من المساكين فليفطر مع يعقوب.

كلمات الفرج التي دعا بها يوسف

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا القاسم بن هاشم، قال: حدثنا الخطاب بن عثمان، قال: حدثنا محمود بن عمر، عن رجل من أهل الكوفة: أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف السجن، فقال له: يا طيب! ما الذي أدخلك ها هنا؟ قال: أنت أعلم.

قال: أفلا أعلمك كلمات الفرج؟ قال: بلى.

قال: قل: اللهم، يا شاهداً غير غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالباً غير مغلوب، اجعل لي من أمري هذا فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث لا أحتسب.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني أزهر بن مروان الرقاشي، قال: حدثني قزعة بن سويد، عن أبي سعيد مؤذن الطائف: أن جبريل عليه السلام، أتى يوسف، فقال: يا يوسف، اشتد عليك الحبس؟ قال: نعم.

قال: قل: اللهم اجعل لي من كل ما أهمني، وحزبني، من أمر دنياي وآخرتي، فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث لا أحتسب، واغفر لي ذنوبي، وثبت رجاءك في قلبي، واقطعه عن سواك، حتى لا أرجو أحداً غيرك.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني محمد بن عباد بن موسى، قال: حدثني عبد العزيز القرشي، عن جعفر بن سليمان، عن غالب القطان قال:

لم اشتد كرب يوسف، وطال سجنه، واتسخت ثيابه، وشعث رأسه، وجفاه الناس، دعا عند ذلك، فقال: اللهم إني أشكو إليك ما لقيت من ودي وعدوي، أما ودي، فباعوني، وأما عدوي، فحبسني، اللهم اجعل لي فرجاً ومخرجاً، فأعطاه الله عز وجل ذلك.

#### إبراهيم التيمي الزاهد في حبس الحجاج ابن يوسف الثقفي

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني الحسن بن محبوب، قال: قال الفيض بن إسحاق، قال القليل بن عياض، قال إبراهيم التيمي: لما حبست الحبسة المشهورة، أدخلت السجن، فأنزلت على أناس في قيد واحد، ومكان ضيق، لا يجد الرجل إلا موضع مجلسه، وفيه يأكلون، وفيه يتغوطون، وفيه يصلون.

قال: فجيء برجل من أهل البحرين، فأدخل علينا، فلم نجد مكاناً، فجعلوا يتبرمون به، فقال: اصبروا، فإنما هي الليلة.

فلما دخل الليل، قام يصلي، فقال: يا رب، مننت علي بدينك، وعلمتني كتابك، ثم سلطت علي شر خلقك، يا رب، الليلة، الليلة، لا أصبح فيه.

فما أصبحنا حتى ضربت أبواب السجن: أين البحراني، أين البحراني؟ فقال كل منا: ما دعي الساعة، إلا ليقتل، فخلي سبيله.

فجاء، فقام على باب السجن، فسلم علينا، وقال: أطيعوا الله لا يضيعكم.

#### أبو سعد البقال في حبس الحجاج ابن يوسف الثقفي



حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني أبو نصر المؤدب، عن أبي عبد الرحمن الطائي، قال: أخبرنا أبو سعد البقال، قال: كنت محوساً في ديماس الحجاج، ومعنا إبراهيم التيمي، فبات في السجن، فأتى رجل، فقال له: يا أبا إسحاق، في أي شيء حبست؟ فقال: جاء العريف، ف تبرأ مني، وقال: إن هذا كثير الصوم والصلاة، وأخاف أنه يرى رأي الخوارج.

فإننا لتحدث مع مغيب الشمس، ومعنا إبراهيم التيمي، إذ دخل علينا رجل السجن، فقلنا: يا عبد الله، ما قصتك، وأمرك؟ فقال: لا أدري، ولكني أخذت في رأي الخوارج، ووالله، إنه لرأي ما رأيته قط، ولا أحببته، ولا أحببت أهله، يا هؤلاء، ادعوا لي بوضوء، فدعونا له به، ثم قام فصلى أربع ركعات، ثم قال: اللهم إنك نعلم، أي كنت على إساءتي وظلمي، وإسرافي على نفسي، لم أجعل لك ولداً، ولا شريكاً، ولا نداً، ولا كفواً، فإن تعذب فعذل، وإن تعف، فإنك أنت العزيز الحكيم، اللهم إني أسألك يا من لا تغلظه المسائل، ولا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا يرمه إلحاح الملحين، أن تجعل لي في ساعتى هذه، فرجاً ومخرجاً مما أنا فيه، من حيث أرجو، ومن حيث لا أرجو، وخذ لي بقلب عبدك الحجاج، وسمعه، وبصره، ويده، ورجله، حتى تخرجني في ساعتى هذه، فإن قلبه، وناصيته، بيدك، يا رب، يا رب.

قال: وأكثر، فوالذي لا إله غيره، ما انقطع دعاؤه، حتى ضرب باب السجن وقيل أين فلان؟ فقام صاحبا، فقال: يا هؤلاء، إن تكن العافية، فوالله، لا أدع الدعاء لكم، وإن تكن الأخرى، فجمع الله بيننا وبينكم، في مستقر رحمته. قال: فبلغنا من الغد، أن خلى سبيله.

#### سبحان الله وبحمده

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني محمد بن عباد بن موسى، قال: حدثنا كثير بن هشام، عن الحكم بن هشام الثقفي، قال: أخبرت أن رجلاً، أخذ أسيراً، فألقي في جب، وألقي على رأس الجب صخرة، فتلقن فيه: قل: سبحان الله الحي القدوس، سبحان الله وبحمده، فأخرج من غير أن يكون أخرجه إنسان.

#### يا عزيز يا حميد يا ذا العرش الجيد

قال مؤلف هذا الكتاب، وقد ذكر القاضي هذا الخبر في كتابه، قال: حدثني إبراهيم بن سعيد قال: حدثنا أبو سفيان الحميري، قال: سمعت أبا بلج الفزاري، قال: أتى الحجاج بن يوسف، برجل كان جعل على نفسه، إن ظفر به، أن يقتله، قال: فلما دخل عليه، تكلم بكلام، فخلى سبيله. فقيل له: أي شيء قلت؟ فقال: قلت: يا عزيز، يا حميد، يا ذا العرش الجيد، اصرف عني ما أطيق، وما لا أطيق، واكفني شر كل جبار عنيد.

#### دعاء النبي صلوات الله عليه في كل هم

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني، قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الكوفي، عن صالح بن حسان، عن محمد بن علي:

أن النبي صلى الله عليه وسلم علم علياً عليه السلام، دعاء يدعو به في كل هم، وكان علي يعلمه الناس، وهو: يا كائناً قبل كل شيء، يا مكن كل شيء، ويا كائناً بعد كل شيء، افعل بي كذا وكذا.

### الدعاء الذي خلص عمرو السرايا من العليج

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني إسحاق بن البهلول التتوخي، قال: حدثني إسحاق بن عيسى، ابن بنت داود بن أبي هند، عن الحارث البصري، عن عمرو السرايا، قال: كنت أغير في بلاد الروم وحدي، فبينما أنا ذات يوم نائم، إذ ورد علي عليج، فحركني برجله، فانتبهت. فقال لي: يا عربي، اختر، إن شئت مسابقة، وإن شئت مطاعنة، وإن شئت مصارعة. فقلت: أما المسابقة والمطاعنة، فلا بقيا لهما، ولكن مصارعة، فلن، فلم يتهنهي أن صرعتني، وجلس علي صدري، وقال: أي قتلة تريد أن أقتلك؟ فذكرت الدعاء، فرفعت رأسي إلى السماء، فقلت: أشهد أن كل معبود ما دون عرشك، إلى قرار الأرضين، باطل غير وجهك الكريم، فقد ترى ما أنا فيه، ففرج عني، وأغمي علي، فأفقت، فرأيت الرومي قتيلاً إلى جانبي.

قال إسحاق بن بنت داود، فسألت الحارث البصري، عن الدعاء، فقال: سألت عنه عمرو السرايا، فقلت له: بالله يا عمرو ما قلت؟ قالت: قلت: اللهم رب إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ورب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ومنزل التوراة والإنجيل، والزبور، والقرآن العظيم، ادراً عني شره، فدرأ عني شره. قال إسحاق بن بنت داود: فحفظته وقلت أعلمه الناس، فوجدته نافذاً، وهو الإخلاص بعينه.

### تخلص من القتل بدعاء دعا به

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، قال: حدثنا جرير بن حفص، عن الشعبي قال: كنت جالساً عند زياد، فأقْبى برجل يحمل، ما يشك في قتله، فحرك الرجل شفتيه بشيء ما ندري ما هو، فخطى سبيله.

فقلت للرجل: ما قلت؟ قال: قلت: اللهم رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ورب جبريل وميكائيل وإسرافيل، ومنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم، ادراً عني شر زياد، فدرأه عني.

### زياد بن أبيه

من دهاة العرب وأذكائهم، عمل في خدمة الدولة، منذ نعومة أظفاره، فقد ولي قسمة الغنائم، بأجر درهمين في اليوم، وهو ابن ١٤ سنة معجم البلدان ١ - ٦٤٠، ثم كتب لأبي موسى الأشعري، أيام ولايته البصرة، ثم ولي فارس للإمام علي بن أبي طالب الأعلام ٣ - ٨٩، ولما قتل الإمام بايع زياد معاوية، فولاه البصرة والكوفة، وارتفع أجره إلى خمسة وعشرين ألف درهم تاريخ يعقوبي ٢ - ٢٣٤. وبالغ زياد في التعصب على شيعة علي، فقتلهم، وشردهم، ودفن بعضهم أحياء الأغاني ١٧ - ١٥٣ والحاسن والأضداد ٢٧ وكان يجمع الناس ويحرضهم على البراءة من علي، ومن أبي ذلك، عرضه على السيف الحاسن والمسأوى ١ - ٣٩ ومروج الذهب ٢ - ٢٠، وكان شعور زياد بنشأته المواضعة، قد كون فيه مركب نقص سعى جاهداً للتخلص منه، فأدى ذلك به إلى سقطة شنيعة،

وهي موافقته على إعلانه أحد أولاد أبي سفيان الأموي، بحجة واضحة الخزي، وهي أن أبا سفيان، في السنة الأولى من الهجرة، زنى بأم زياد سمية، وكانت من البغايا بالطائف مروج الذهب ٢ - ٥، وتاريخ اليعقوبي ٢ - ٢١٩ والتهجري ١٠٩ و ١١٠ فأكسبه ذلك خزيًا وشناعةً، وقال فيه أخوه أبو بكر: هذا زنى أمه، وانفى من أبيه وفيات الأعيان ٦ - ٣٥٨ وقد كان له من حصافته، ودهائه، ما يغنيه عن هذا الاستطحاك الذي جعله، وذريته من بعده، موضع هزء وسخرية بلاغات النساء ١٤٣ والحاسن والمساويء ٢ - ١٤٨ حتى أصبحوا مضرب المثل في الادعاء الكاذب، قال الشاعر يهجو كاتبًا:

حمار في الكتابة يدعيها ... كدعى آل حرب في زياد

راجع أخبار زياد في الأغاني ١٨ - ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٧ و ١٨ - ٢٨٥ و ٢٠ - ٧٧ والعقد الفريد ٤ - ٢٦ و ٦ - ١٠٠ وأدب الكتاب ١٧٠ والطبري ٨ - ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩.

### هارون الرشيد يأمر بقتل فتى علوي فينجيه الله تعالى

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أخبرني عيسى بن عبد العزيز الظاهري، قال: أخبرني أبو عبد الله قال:

أمر الرشيد بعض خدمه، فقال: إذا كان الليلة، فصر إلى الحجرة القلانية، فافتحها، وخذ من رأيت فيها، فأت به موضع كذا وكذا، من الصحراء القلانية، فإن ثم قليلاً محفوراً، فارم به، وطمه بالتراب، وليكن معك فلان الحاجب. قال: فجاء الغلام إلى باب الحجرة، ففتحه، فإذا فيها غلام كالشمس الطالعة، فجدبناه جذباً عنيفاً. فقال له: اتق الله، فإني ابن رسول الله، فالله، الله، أن تلقى الله بلمي، فلم يلتفت إلى قوله، وأخرجه إلى الموضع. فلما أشرف الفتى على التلف، وشاهد القلب، قال له: يا هذا، إنك على رد ما لم تفعل، أقدر منك على رد ما فعلت، فدعني أصلي ركعتين، وامض لما أمرت به. فقال له: شأنك وما تريد.

فقام الفتى، صلى ركعتين، قال فيهما: يا خفي اللطف، أغنني في وقتي هذا، والطف بي بلطفك الخفي. فلا والله ما استتم دعاءه، حتى هبت ريح وغبرة، حتى لم ير بعضهم بعضاً، فوقعوا لوجوههم، واشتغلوا بأنفسهم عن الفتى، ثم سكنت الريح والغبرة، وطلبنا الفتى، فلم يوجد، وقيوده مرمية. فقال الحاجب لمن معه: هل كنا والله، سيقع لأمر المؤمنين أنا أطلقناه، فماذا نقول له؟ إن كذبناه لم نأمن أن يبلغه خبر الفتى فيقتلنا، ولئن صدقناه، ليعجلن لنا المكروه. فقال له الآخر: يقول الحكيم: إن كان الكذب ينجي، فالصدق أرجى وأنجى.

فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما فعلتم فيما تقدمت به إليكم؟ فقال له الحاجب: يا أمير المؤمنين، الصدق أولى ما اتبع في جميع الأمور، ومظلي لا يجترىء أن يكذب بحضرتك، وإنه كان من الخبر كيت وكيت. فقال الرشيد: لقد تداركه اللطف الخفي، والله، لأجعلنها في مقدمات دعائي، امض لشأنك، واكتم ما جرى.

### يا سامع كل صوت ويا باريء النفوس بعد الموت

حدثني محمد بن الحسن، قال: حدثني محمد بن عمرو بن البحترى البزاز، في جامع المنصور، في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، قال: حدثنا الفضل بن إسحاق الدوري، عن محمد بن الحسن، عن أبي سلمة عبد الله ابن منصور، قال:

حزن رجل حزناً شديداً، على شيء لحقه، وأمر أهله وأقربيه، فألح في الدعاء، فهتف به هاتف: يا هذا، قل: يا سامع كل صوت، ويا بارئ النفوس بعد الموت، ويا من لا تغشاه الظلمات، ويا من لا يشغله شيء عن شيء. قال: فدعا بما، ففرج الله عنه، ولم يسأل الله تلك الليلة حجة، إلا أعطاه.

### لا حول ولا قوة إلا بالله

حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني القاسم بن هاشم، قال: حدثنا أبو اليمان، قال: حدثنا صفوان بن عمرو، عن أبي يحيى إسحاق العلواني، قال: كنا بإزاء أزمهر، عند مدينة الكرج، وقد زحف إلينا في ثمانين فيلاً، فكادت تقض الصفوف، وتشتت الخيول، وكان أميرنا محمد بن القاسم، فنادى عمران بن النعمان أمير أهل حمص، وأمراء الأجناد، فنهضوا، فما استطاعوا، فلما أعيته الأمور، نادى مراراً: لا حول ولا قوة إلا بالله، فكشف الله القبيلة، وسلط عليها الحر، فأنضحها، ففزعت إلى الماء، فما استطاع سواها، ولا أصحابها، حسبها، وحملت خيلنا، وكان الفتح بإذن الله تعالى.

حدثنا علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا القاسم بن هاشم، قال: حدثنا أبو اليمان قال: حدثنا صفوان بن عمرو، عن الأشياخ: أن حبيب بن مسلمة كان يستحب إذا لقي العدو، أو ناهض حصناً، أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم إنه ناهض يوماً حصناً، فانهزم الروم، وتحصنوا في حصن آخر لهم، أعجزه، فقالها، فانصدع الحصن.

### الذي كفك الأمس يكفيك غدك

حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني الحسين بن عبد الرحمن، قال: بلغني أن بعض الملوك، نفى وزيراً له، لموجدة وجدها عليه، فاغتم لذلك غماً شديداً، فبينما هو يسير، إذ أنشده رجل هذين البيتين:

أحسن الظنّ بربّ عودك ... حسناً أمس وسوى أودك  
إنّ ربّاً كان يكفيك الذي ... كان بالأمس سيكفيك غدك  
فسري عن الوزير، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

### لا تيأسن كأن قد فرج الله

حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن السراج، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا محمد بن أبي رجاء، مولى بني هاشم قال:

أصابني هم شديد، لم كنت فيه، فرفعت مقعداً لي، كنت جالساً عليه، فإذا برقعة مكتوبة فنظرت فيها، فإذا فيها مكتوب:

يا صاحب الهمّ إنّ الهمّ منقطعٌ ... لا تيأسنّ كأن قد فرّج الله  
قال: فذهب عني ما كنت فيه من الغم، ولم ألبث أن فرج الله عني، فله الحمد والشكر.

## كن للمكاره بالعزاء مقطعا

حدثني أبو بكر الثقفي، قال: قال بعضهم: أصابني هم ضقت به ذرعاً، فمنت، فرأيت كأن قاتلاً يقول:  
كن للمكاره بالعزاء مقطعا... فلعل يوماً لا ترى ما تكره  
ولربما ابتسم الوقور من الأذى... وضميره من حره يتأوه

### الوزير محمد بن القاسم يلاقي عاقبة ظلمه

حدثني أبو الحسن علي بن الحسن، الشاهد المعروف بالجراحي، من حفظه، قال: حدثني أبو الحسن بن أبي الطاهر محمد بن الحسن الكاتب، صاحب الجيش، قال: قبض علي أبو جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، في أيام وزارته للقاهر بالله، وعلى أبي، فحبسنا في حجرة ضيقة، وأجلسنا على التراب، وشدد علينا، وكان يخرجنا في كل يوم، فيطالب أبي بمال المصادرة، وأضرب أنا بحضرة أبي، ولا يضرب هو، فلاقينا من ذلك أمراً شديداً صعباً.  
فلما كان بعد أيام، قال لي أبي: إن هؤلاء الموكلين، قد صارت لهم بنا حزمة، فتوصل إلى مكاتبه أبي بكر الصيرفي - وكان صديقاً لأبي - حتى ينفذ إلينا بثلاثة آلاف درهم، نفرقها فيهم، ففعلت ذلك، فأنفذ إلينا بالمال من يومه. فقلت للموكلين، في عشي ذلك اليوم: قد وجبت لكم علينا حقوق، فخذوا هذه الدراهم، فانتفخوا بها، فامتنعوا. فقلت: ما سبب امتناعكم؟، فوروا عن ذلك.  
فقلت: إما قبلتم، وإما عرفتمونا السبب الذي لأجله امتناعكم.  
فقالوا: نشفق عليكم، ونستحي من ذلك.  
فقال لهم أبي: اذكروه علي كل حال.  
قالوا: قد عزم الوزير على قتلكما الليلة، ولا نستحسن أخذ شيء منكما مع هذا.  
فقلقت، ودخلت إلى أبي بغير تلك الصورة، فقال: ما لك؟ فأخبرته بالخبر، وقلت لأبي: ما أصنع بالدراهم؟ فقال: ردها علي أبي بكر، فرددتها عليه.  
وكان أبي يصوم تلك الأيام كلها، فلما غابت الشمس، تطهر، وصلى المغرب، فصليت معه، ولم يفطر، ثم أقبل علي الصلاة الدعاء، إلى أن صلى العشاء الآخرة، ثم دعاني.  
فقال: اجلس يا بني إلى جانبي، جاثياً على ركبتيك، ففعلت، وجلس هو كذلك.  
ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: يا رب، محمد بن القاسم ظلمني، وحبسني علي ما ترى، وأنا بين يديك، وقد استعديت إليك، وأنت أحكم الحاكمين، فاحكم بيننا؛ لا يزيد عن ذلك.  
ثم صاح بها إلى أن ارتفع صوته، ولم يزل يكررها بصياح ونداء واستغاثة، إلى أن ظننت أنه قد مضى ربع الليل. فوالله ما قطعها حتى سمعت الباب يدق، فذهب علي أمرى، ولم أشك في أنه القتل.  
وفتحت الأبواب، فدخل قوم بشموع، فتأملت، وإذا فيهم سابور، خادم القاهر، فقال: أين أبو طاهر؟، فقال إليه أبي، فقال: ها أنذا.  
فقال: أين ابنك؟ فقال: هو ذا.

فقال: انصرفا إلى منزلكما، فخرجنا، فإذا هو قد قبض على محمد بن القاسم، وحدره إلى دار القاهر.  
وعاش محمد بن القاسم في الاعتقال ثلاثة أيام، ومات.

## الظلم

الظلم، في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه، وفي الاصطلاح: إيذاء الناس، وانتقاص حقوقهم، وهو خلاف التقوى التي هي مخافة الله، والعمل بطاعته، وكف الأذى، قال الله تعالى: فقطع دابر القوم الذين ظلموا، وقال النبي صلوات الله عليه: الظلم ظلمات يوم القيامة محاضرات الأدباء ١ - ٢١٥ وقال: من أعان ظالماً سلطه الله عليه محاضرات الأدباء ١ - ٢١٨. والتاريخ عامر بأخبار قوم آذوا وظلموا، فمنهم من عوجل، كما في هذه القصة، ومنهم من أمهل، غير أن عاقبة ظلمه، أصابت أولاده وأحفاده وأهل بيته، مصداقاً لقول النبي صلوات الله عليه: من خاف على عقبه، وعقب عقبه، فليتنق الله، وقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي من الظالمين، ولم يعاجل، لما استخلف سليمان بن عبد الملك، أمر بجميع الرجال من آل أبي عقيل، عائلة الحجاج، فاعتقلوا بواسطة، وعذبوا، حتى ماتوا جميعاً ابن الأثير ٣ - ٥٨٨، ٥٨٩، ولما استخلف الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز، بعث الباقيين من أهل بيت الحجاج، إلى الحارث بن عمر الطائي، عامله على البلقاء، وكتب إليه: أما بعد، فقد بعثت إليك بآل أبي عقيل، وبئس - والله - أهل البيت في دين الله، وهلاك المسلمين، فأنزلهم بقدر هوانهم على الله تعالى، وعلى أمير المؤمنين البصائر والذخائر ٢ ق ٢ ص ٥٨٦، وكانت عاقبة ظلم بعض الخلفاء في العهد الأموي للناس، أن العباسيين لما انتصروا عليهم، قتلوا أولادهم، وأحفادهم، حتى النساء، قتلاً ذريعاً، فلم يفلت منهم إلا الرضيع، أو من هرب إلى الأماكن القاصية كالأندلس ابن الأثير ٥ - ٤٢٩ - ٤٣١ وأخبار مجموعة في فتح الأندلس ٤٨ و ٤٩ ثم تجاوزوا الأحياء منهم إلى الأموات، فنبشوا قبورهم، وأخرجوا رمهم وضربوها بالسياط، ثم أحرقوها بالنار، ونادى منادي عبد الله بن علي، بالأمان لمن بقي، فلما اجتمعوا، أمر الجند فشدخوهم بالأعمدة حتى قتلوهم القحري ٢٥٢ والعيون والحدائق ٣ - ٢٠٦ - ٢١١ وابن الأثير ٥ - ٤٢٩ والعقد الفريد ٤ - ٤٨٣ - ٤٨٧، والأغاني ٤ - ٣٤٣ - ٣٥٥ ومحاضرات الأدباء ٤ - ٥٣٥ وأخبار مجموعة في فتح الأندلس ٤٨ و ٤٩، وروى ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ٨ - ٣٨١ و ٣٨٢ فصلاً في مظالم البريديين، ثم قال: إنه ذكر هذا الفصل ليعلم الظلمة أن أخبارهم تنقل، وتبقى على وجه الدهر، فربما تركوا الظلم لهذا، إن لم يتركوه لله سبحانه وتعالى.

## طاهر بن الحسين يحمل الدراهم في كفه ويفرقها على الفقراء

لما خرج طاهر بن الحسين إلى محاربة علي بن عيسى بن ماهان، جعل ذات يوم في كفه دراهم، يفرقها في الفقراء، ثم سها عنها، فأرسلها، فتبددت، فتطير بذلك، واغتم غمماً شديداً، حتى تبين في وجهه، فأنشده شاعر كان في عسكره:  
هذا تفرق جمعهم لا غيره ... وذهابه منكم ذهاب الهم  
شيء يكون الهم بعض حروفه ... لا خير في إمساكه في الكم  
قال: فسلا طاهر، وأمر له بثلاثين ألف درهم.

## الهادي يتهدد يحيى البرمكي ويتوعده بكل عظمة

انصرف يحيى بن خالد البرمكي، من عند الهادي، وقد ناظره في تسهيل خلع العهد على هارون، فحلف له يحيى أنه فعل، وجهد فيه، فامتنع عليه هارون.

فقال له الهادي: كذبت، ووالله لأفعلن بك وأصنعن، وتوعده بكل عزيمة، وصرفه.

فجاء إلى بيته، فكلّم بعض غلمانته بشيء، فأجابته بما غاظه، فلطمه يحيى، فانقطعت حلقة خاتمه، وطاح الفص، فاشتد ذلك على يحيى، وتطير منه، واغتم، فدخل عليه السيارى الشاعر، وقد أخبر بالقصة، فأنشده في الحال:

أحلاك من كلّ الهموم سقوطه ... وأتاك بالفرج انفراج الخاتم

قد كان ضاق ففكّ حلقة ضيقه ... فاصبر فما ضيق الزمان بدائم

قال: فما أمسى حتى ارتفعت الواعية بموت موسى الهادي، وصار الأمر إلى هارون الرشيد، فأعطاه مائة ألف درهم.

### موسى بن عبد الملك صاحب ديوان الخراج يموت وهو على صهوه جواده

قال أبو علي القنائي، قال لي جدي: بكرت يوماً إلى موسى بن عبد الملك، وحضر داود بن الجراح، فوقف إلى جانبي، فقال لي: كان لي أمس خبر طريف، انصرفت من عند موسى ابن عبد الملك، فوجدت في منزلي امرأة من شرائف النساء، فشكته إلي، وقالت: قد حاول أن يأخذ ضيعتي القلالية، وأنت تعلم أنّها عمدتي في معيشتي، وأن في عنقي صببية أيتاماً، فأى شيء تدبر في أمري، أو تشير علي؟.

فقلت: من معك وراء الستر؟

فقلت: ما معي أحد.

فقلت: أما التدبير في أمرك، فما لي فيه حيلة، وأما المشورة، فقد قال النبطي: لا تبع أرضك من إقدام الرجل السوء، فإن الرجل السوء يموت، والأرض تبقى، فدعت لي، وانصرفت.

فما انقضى كلامه، حتى خرج موسى، فقال لداود: يا أبا سليمان، لأتبع أرضك من إقدام الرجل الرديء، فإنه يموت، والأرض تبقى.

فقال لي داود: أسمعت؟ هذا والله الموت، أين أهرب؟ أين أمضي؟ ما آمنه والله على نفسي، ولا على نعمتي، فأشر علي بما أصنع، قبل نفاذ طريقنا، ونزولنا معه إلى الديوان.

فقلت: والله، ما أدري.

فرفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم اكفني أمره، وشره، وضره، فإنك تعلم قصتي، وأني ما أردت بما قلت إلا الخير، واشتد قلقه وبكاؤه ودعاؤه.

وقربنا من الديوان، فقال موسى، وهو على دابته: متى حدث هذا الجبل الأسود في طريقنا؟ ومال على سرجه حتى سقط، وأسكت.

فحمل إلى منزله، وكان آخر العهد به.

### يا ذا العرش اصنع كيف شئت فإن أرزاقنا عليك

ذكر المدائني في كتابه: قال أبو سعيد، وأنا أحسبه يعني الأصمعي: نزلت بحى من كلب مجدين، قد توالى عليهم السنون، فماتت المواشي، ومنعت الأرض من أخراج النبات، وأمسكت السماء قطرها، فجعلت أنظر إلى السحابة

ترتفع من ناحية القبلة سوداء متقاربة، حتى تطبق الأرض، فيتشوف لها أهل الحي ويرفعون أصواتهم بالتكبير، ثم يعدلها الله عنهم مراراً.

فلما كثر ذلك، خرجت عجوز منهم، فعلت نشزاً من الأرض، ثم نادت بأعلى صوتها: يا ذا العرش، اصنع كيف شئت فإن أرزاقنا عليك.

فما نزلت من موضعها، حتى تغيبت السماء غيماً شديداً، وأمطروا مطراً كاد أن يغرقهم، وأنا حاضر.

### يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج وخليفته في الظلم والبغي

وذكر المدائني في كتابه، قال: وجه سليمان بن عبد الملك، حين ولي الخلافة، محمد بن يزيد إلى العراق، فأطلق أهل السجون، وقسم الأموال، وضيق على يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فظفر به يزيد بأفريقية لما وليها في شهر رمضان عند المغرب، وفي يده عنقود عنب.

فجعل محمد يقول: اللهم احفظ لي إطلاقي الأسرى، وإعطائي الفقراء.

فقال له يزيد حين دنا منه: محمد بن يزيد؟ ما زلت أسأل الله أن يظفرني بك.

قال له: وما زلت أسأل الله، أن يجيرني منك.

قال: والله، ما أجارك، ولا أعاذك مني، والله لأقتلنك قبل أن آكل هذه الحبة العنب، والله لو رأيت ملك الموت يريد قبض روحك، لسقته إليها.

فأقيمت الصلاة، فوضع يزيد الحبة العنب من يده، وتقدم، فصلى بهم.

وكان أهل أفريقية قد أجمعوا على قتله، فلما ركع، ضربه رجل منهم على رأسه بعمود حديد، فقتله.

وقيل لحمد: اذهب حيث شئت، فمضى سالماً.

ذكره القاضي أبو الحسين في كتابه بغير إسناد، ولم يعزه إلى المدائني، وجاء به على خلاف هذا اللفظ، والمعنى واحد، إلا أنه جعل بدل محمد بن يزيد، وضاحاً، صاحب عمر بن عبد العزيز، وبدلاً من سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، ولم يذكر الدعاء في خبره.

ووقع إلي هذا الخبر، على غير هذا، حدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا،

قال: حدثنا يعقوب بن إسحاق ابن زياد، قال: حدثنا أبو همام الصلت بن محمد الخاركي، قال: حدثنا مسلمة بن

علقمة، عن داود بن أبي هند، قال: حدثني محمد بن يزيد، قال: إن سليمان بن عبد الملك، أنفذ محمد بن يزيد إلى

ديماس الحجاج، وفيه يزيد الرقاشي، ويزيد الضبي، وعابدة من أهل البصرة، فأطلق كل من فيه، غير يزيد بن أبي

مسلم.

فلما مات سليمان، قال محمد: كنت مستعملاً على أفريقية، إذ قدم يزيد بن أبي مسلم، أميراً، في خلافة يزيد بن عبد الملك.

قال محمد: فعذبني عذاباً شديداً، حتى كسر عظامي، فأقي بي يوماً في كساء، أحمل عند المغرب.

فقلت له: ارحمني.

فقال: التمس الرحمة من عند غيري، ولو رأيت ملك الموت عند رأسك، لبادرته إلى نفسك، اذهب حتى أصبح لك.

فدعوت الله، وقلت: اللهم اذكر ما كان مني في أهل الديماس، اذكر يزيد الرقاشي، وفلاتاً، وفلاتاً، واكفني شر يزيد

بن أبي مسلم، وسلط عليه من لا يرحمه، واجعل ذلك من قبل أن يرتد إلي طرفي، وجعلت أحبس طرفي رجاء



الإجابة.

فدخل عليه ناس من البربر، فقتلوه، ثم أطلقوني، فقالوا لي: اذهب حيث شئت.

فقلت لهم: اذهبوا واتركوني، فإني أخاف إن انصرفت، أن يظن أن هذا من عملي.

فذهبوا، وتركوني.

حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني عمر بن شبة، قال: حدثني محدث عن أمية بن خالد عن وضاح بن خيثمة، قال: أمرني عمر بن عبد العزيز بإخراج من في السجن، فأخرجتهم إلا يزيد بن أبي مسلم، فنذر دمي، فإني ليافرقية، إذ قيل لي: قد قدم يزيد ابن أبي مسلم، فهربت منه، فأرسل في طلي، فأخذت، وأتى بي إليه.

فقال: وضاح؟ قلت: وضاح.

فقال: أما والله، طالما سألت الله أن يمكنني منك.

فقلت: وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك.

فقال: والله، ما أعاذك مني، ووالله، لأقتلنك، ولو سابقني إليك ملك الموت، لسبقته.

ثم استدعى بالسيف والنطع، فجيء بهما، وكنفت، وأقعدت فيه، لتضرب عقي، وقام قائم على رأسي بالسيف مشهوراً، فأقيمت الصلاة فخرج يزيد وصلى بهم، فلما خر ساجداً، أخذته سيوف الجند، وأطلقت. حدثني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أخبرني أحمد بن محمد السرخسي أبو بكر، قال: أخبرنا أبو العباس ثعلب، عن الزبير بن بكار، قال: كان وضاح حاجباً لعمر بن عبد العزيز، فلما حضرت عمر الوفاة أمر بإخراج كل من في الحبس، إلا يزيد بن أبي مسلم. وذكر الحديث.

### عواقب مكروه الأمور خيار

حدثني أبو طالب عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن الفضل بن أحمد ابن محمد بن حماد دنقش، مولى المنصور وصاحب حرسه، وكان محمد ابن حماد يحجب الرشيد والمعتمد، وأحمد بن محمد أحد القواد بسر من رأى مع صالح بن وصيف، وولي الشرطة بها للمهتدي، وأحمد بن محمد بن الفضل، يكنى أبا عيسى، وكان أحد أمناء القضاة ببغداد، قال: قال لي القاضي أبو القاسم علي بن محمد التتوخي، قال: حدثني القاضي أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التتوخي الأنباري، قال: حدثني أبو عبد الله بن أبي عوف البرزوري، قال: دخلت على أبي العباس بن ثوابة، وكان محبوباً، فقال لي: احفظ عني.

قلت: نعم.

فقال:

عواقب مكروه الأمور خيار ... وأيام سوء لا تدوم قصار

وليس بباق بؤسها ونعيمها ... إذا كرّ ليلٌ ثم كرّ نهار

قال: فلم تمض إلا أيام يسيرة، حتى أطلق من حبسه.

وقد ذكر أبو الحسين القاضي، في كتابه، هذين البيتين، بغير إسناد، ولم يذكر القصة، ولا سبب الشعر.

لا تيأس فإن اليأس كفر

حدثني أحمد بن عبد الله بن أحمد الوراق، قال: حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله العلاف، المعروف بالمستعيني، قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد، قال: حدثني محمد بن الحسين الأنصاري، قال: حدثني إبراهيم ابن مسعود، عن بعض تجار المدينة، قال: كنت أختلف إلى جعفر بن محمد، وكنت له خليطاً، وكان يعرفني بحسن حال، فتغيرت حالي، فأتيته، فجعلت أشكو إليه، فأنشأ يقول:

فلا تجزع وإن أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الزمن الطويل  
قال: فخرجت من عنده، وأنا أغنى الناس.

حدثني أحمد بن عبد الله بن أحمد الوراق، قال: حدثنا أبو الفضل أحمد بن سليمان القاضي، قال: حدثنا طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن علي بن جعفر بن محمد، قال: جاء رجل إلى جعفر بن محمد، فشكا إليه الإضافة، فأنشده جعفر بن محمد:

فلا تجزع إذا أعسرت يوماً ... فكم أرضاك باليسر الطويل  
ولا تياس فإن اليأس كفر ... لعل الله يغني عن قليل  
ولا تظن بربك غير خير ... فإن الله أولى بالجميل  
قال الرجل: فذهب عني ما كنت أجد.

وروى القاضي أبو الحسين في كتابه كتاب الفرج بعد الشدة هذا الشعر بغير خبر، ولا إسناد، ونسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وروى البيت الأول كما رواه ابن أبي سعد في الخبر الذي رويت قبل هذا، وقال بعده:

فإن العسر يتبعه يساراً ... وقيل الله أصدق كل قيل  
ثم جاء بالبيتين الثاني والثالث، كما جاء في هذين البيتين، وزاد بعد ذلك بيتاً خامساً، وهو:  
ولو أن العقول تسوق رزقاً ... لكان المال عند ذوي العقول  
عبيد الله بن زياد يشتم رجلاً من القراء ويتهدده

وذكر القاضي أبو الحسين، في كتابه: أن المدائني روى عن محمد بن الزبير التميمي، أن عبيد الله بن زياد، أتى برجل من القراء فشتمه، وقال له: أحروري أنت؟  
فقال الرجل: لا والله، ما أنا بحروري.

فقال: والله، لأفعلن بك، ولأصنعن، انطلقوا به إلى السجن، فانطلقوا به.

فسمعه ابن زياد يهمهم، فرده، وقال له: ما قلت؟ فقال: عن لي بيتان من الشعر قلتهما.

فقال: إنك لفارغ القلب، أنت قلتهما، أم شيء سمعته؟ قال: بلى قلتهما، وهما:

عسى فرج يأتي به الله إته ... له كل يوم في خليقته أمر

إذا اشتد عسر فارج يسراً فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه يسر

فسكت ابن زياد ساعة، ثم قال: قد أتاك الفرج، خلوا سبيله.

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أخبرنا محمد بن عبد الواحد، قال: أخبرني علي بن ديبس الكاتب، عن أحمد بن الحاث الخراز، عن علي بن محمد المدائني، عن محمد بن الزبير التميمي، فذكر نحوه.

علي بن يزيد كاتب العباس بن المأمون يتحدث عن أيام فاقته

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: حدثني أبي، قال: حدثني أبو يوسف يعقوب بن بيان، قال: حدثني علي بن الحسين بن محمد بن موسى ابن الفرات، قال: كنت أتولى ماسبذان، وكان صاحب البريد بها علي بن يزيد، وكان قديماً يكتب للعباس بن المأمون، فحدثني: أن العباس غضب عليه وأخذ جميع ما كان يملكه، حتى إنه بقي بسر من رأى لا يملك شيئاً إلا بردونه، بسرجه ولجامه، ومبطنه، وطيلساناً، وقميصاً، وشاشية، وأنه كان يركب في أول النهار، فيلقى من يريد لقاءه، ثم يتصرف، فيبعث بردونه إلى الكراء، فيكسب عليه ما يعلقه، وما ينفقه هو وغلامه. فاتفق في بعض الأيام أن الدابة لم تكسب شيئاً، فبات هو وغلامه طاويين، قال: ونالنا من الغد مثل ذلك.

فقال غلامي: يا مولاي، نحن نصبر، ولكن الشأن في الدابة، فإني أخاف أن تعطب.  
قلت: فأني شيء أعمل؟ ليس إلا السرج، واللجام، وثيابي، وإن بعث من ذلك شيئاً، تعطلت عن الحركة، وطلب التصرف.

قال: فانظر في أمرك.

ف نظرت، فإذا بحصيري خلق، ومخدي لبنة مغطاة بخرقة، أدعها تحت رأسي، ومطهرة خزف للطهور، فلم أجد غير منديل ديبقي خلق، قد بقي منه الرسم.

فقلت للغلام: خذ هذا المنديل، فبعه، واشتر علفاً للدابة، ولحماً بدرهم، واشوه، وحجى به، فقد قرمت إلى أكل اللحم.

فأخذ المنديل، ومضى، وبقيت في الدار وحدي، وفيها شاهرج قد جاع لجوعنا، فلم أشعر إلا بعصفور قد سقط في المطهرة التي فيها الماء للطهور، عطشاً، فشرب، فنهض إليه الشاهرج، فناهضه، فلضعفه ما قصر عنه، وطار العصفور، ووقف الشاهرج، فعاد العصفور إلى المطهرة، فبادره الشاهرج فأخذه بحمية، فابتلعه، فلما صار في حوصلته، عاد إلى المطهرة، فتغسل، ونشر جناحيه وصاح، فبكيت، ورفعت رأسي إلى السماء، وقلت: اللهم، كما فرجت عن هذا الشاهرج، فرج عنا، وارزقنا من حيث لا نحسب.

فما رددت طرفي، حتى دق بابي، فقلت: من أنت؟ قال: أنا إبراهيم بن يوحنا، وكيل العباس بن المأمون.

فقلت: ادخل، فدخل، فلما نظر إلى صورتي، قال: ما لي أراك على هذه الصورة، فكتمته خبري.

فقال لي: الأمير يقرأ عليك السلام، وقد اصطحب اليوم، وذكرك وقد أمر لك بخمسمائة دينار، وأخرج الكيس فوضعه بين يدي.

فحمدت الله تعالى، ودعوت للعباس، ثم شرحت له قصتي، وأطقته في داري وبيوتي، وحدثته بحديث الدابة، وما تقاسيه من الضر، والمنديل، والشاهرج، والدعاء، فتوجع لي، وانصرف.

ولم يلبث أن عاد، فقال لي: صرت إلى الأمير، وحدثته بحديثك كله، فاغتم لذلك، وأمر لك بخمسمائة دينار أخرى، قال: تأثت بتلك، وأنفق هذه، إلى أن يفرج الله.

وعاد غلامي، وقد باع المنديل، واشترى منه ما أردته، فأرسته الدنانير، وحدثته الحديث، ففرح حتى كاد أن تنشق مرارته.

وما زال صنع الله يتعاهدنا.

صاحب البريد

اختلف المؤرخون في أصل كلمة البريد، فقليل إن أصلها فارسي من: بريدن، أي العبور المعجم الذهبي، فارسي - عربي، وقيل، من: بريده دم، أي محذوف الذنب، لأن دواب البريد كانت كذلك شفاء الغليل ٣٩ وقيل من: بردن، أي نقل وحمل الألفاظ الفارسية المعربة ١٨، وقيل: إن أصلها لاتيني، ومعناها: دابة البريد، ثم صرفت إلى نقل البريد، ثم أطلقت بعد ذلك على نظام البريد دائرة المعارف الإسلامية ٣ - ٦٠٩، والألفاظ الفارسية المعربة ١٨. والبريد: ولاية جلييلة خطيرة، ومتقلدها يحتاج إلى جماعة كثيرة، وإلى مواد غزيرة، ومن جملة أعماله حفظ الطريق، وبذرفتها، وصيانتها من القطاع والسراق، وطروق الأعداء، وانسداد الجواسيس في البر والبحر، وإليه ترد كتب أصحاب الثغور، وولاية الأطراف، وهو يوصلها بأسرع ما يمكن من اختصار الطرق، واختيار المراكب والراكب آثار الدول ٨٦، وأصحاب البريد للملوك، بمنزلة العيون الباصرة، والآذان السامعة، فإن أهمل الملك ذلك، ولم يكشف له حال أوليائه وأعدائه، انطوت عنه الأخبار، ولم تستقم له السياسة، بل لا يحس بالشر حتى يقع فيه آثار الدول ٨٣.

وأول من وضع البريد، معاوية بن أبي سفيان القحري ١٠٦ ولم يكن البريد، عندئذ، مثل ما نعرفه الآن في نقل الرسائل، وإنما كان مقصوراً على نقل ما يهم الدولة ورجالها، كما كان صاحب البريد، في كل كورة، بمثابة عين للخليفة يكتب إليه بكل ما يقع عليه بصره، أو يصل إلى أذنه من أخبار تاريخ بغداد لابن طيفور ٦٤. وقال المنصور يوماً: ما كان أحوجني إلى أن يكون علي بابي أربعة نفر، لا يكون علي بابي أعف منهم، وهم أركان الملك لا يصلح إلا بهم، أولهم: قاض لا تأخذه في الله لومة لائم، وثانيهم: صاب شرطة ينصف الضعيف من القوي، وثالثهم: صاحب خراج يستقضي لي، ولا يظلم الرعية، أما الرابع: فصاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء، على وجه الصحة لطف التدبير ١٣، ابن الأثير ٦ - ٢٦، الطبري ٨ - ٦٦.

ومن مشاهير من ولي البريد، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، الشاعر المشهور، فإن الحسن بن وهب وولاه بريد الموصل، فأقام بها أقل من سنتين، ومات سنة ٢٣١ فبنى على قبره أبو نهمشل بن حميد الطوسي قبة وفيات الأعيان ٢ - ١٥ - ١٧، وأحسب أن ذلك جزاء رثائه محمد بن حميد الطوسي بقصيدته العجيبة، التي مطلعها: كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر... فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عندر وكذلك مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر، وولاه الفضل بن سهل بريد جرجان القصة ٢٧٦ من هذا الكتاب وعلي بن بسام، وولاه القاسم بن عبيد الله البريد بمجد قنسرين مروج الذهب ٢ - ٥٤٦ وابن خردادبه، وولاه المعتمد العباسي البريد والخبر بنواحي الجبل الأعلام ٤ - ٣٤٣ وكان أول أمر ابن عبدكان، شيخ الكتاب بمصر، أنه ولي البردي بدمشق وحمص، ثم كتب للطلولونية بمصر، وتوفي سنة ٢٧٠ الوافي بالوفيات ٣ - ٣١٥ والأعلام ٧ - ٩٥، وأبو محمد عبد الرزاق بن الحسن الشاعر المعروف بابن أبي الثياب، ولي البريد ببخارى أخلاق الوزيرين ٢٤٧ و ٣٤٨ و ٤٢٥.

ولا ينبغي أن تكون بين صاحب البريد، وبين الملك، واسطة، كما أنه ليس لأحد من الولاة، أو العمال، أو القادة، على صاحب البريد حكم، ولا سلطة، ورسائله ترد إلى الحضرة بأعجل السبل، وليس لأحد أن يفتحها، أو أن يؤخرها، أو أن يتعرض لها بكل وسيلة. وللبريد، في الحضرة، ديوان خاص، يليه الثقة المؤمن، يجمع صاحبه جميع الرسائل التي ترد من الأطراف، ويطالع بها فور وصولها.

والمقتضي أن يكون صاحب البريد مطلعاً على جميع الأخبار، في جميع الجهات، بحيث لا تخفى عليه خافية، قال

الشاعر يهجو صاحب ديوان البريد ديوان البحري: ٧٩٢  
دهتك بعلة الحمّام خود ... ومالت في الطريق: إلى سعيد  
أرى أخبار بيتك عنك تخفى ... فكيف وليت ديوان البريد

### ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا

قال المدائني في كتابه، وجاء به القاضي أبو القاسم الحسين في كتابه عن المدائني بغير إسناد، واللفظان متقاربان: إن أعرابية كانت تخدم نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت كثيراً ما تتمثل:  
ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا ... ألا آتته من ظلمة الكفر نجاني  
فقليل لها: إنك تكثرين من التمثل بهذا البيت، وإنا نظنه لأمر، فما هو؟ قالت: أجل، كنت عسيقة على قوم بالبادية.

قال مؤلف هذا الكتاب: العسيف: الأجير.

فوضعت جارية منهم وشاحاً، فمرت عقاب، فاخبطفته ونحن لا ندري، ففقدته، وقلن أين هو؟ أنت صاحبتة، فحلفت، واعتذرت، فأين قبول قولي وعذري، واستعدين بالرجال، فجاجوا ففتشوني، فلم يجولوا شيئاً.  
فقال بعضهم: احتملته في فرجها.

فأرادوا أن يفتشوا فرجي، فما ظنكم بامرأة تخاف ذلك.

فلما خفت الشر، رفعت رأسي إلى السماء فقلت: يا ربا، أغني، فمرت العقاب فطرحته بيننا، فندموا، وقالوا:  
ظلمنا المسكينة، وجعلوا يعتذرون إلي، فما وقعت في كربة إلا ذكرت ذلك، وهو يوم الوشاح، فرجوت الفرج.  
حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني محمد بن الحجاج الضبي، قال: حدثنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت امرأة تعشاننا، تتمثل بهذا البيت:

ويوم السّخاب من تعاجيب ربنا ... على آتته من ظلمة الكفر نجاني

فقالت لها أم سلمة: وذكر نحو ذلك.. إلا أنه قال فيه: فقالت عجوز منهم لارعة لها فتشوا مالها، أي فرجها، فأشرفت على القضيحة، فرفعت رأسي إلى السماء، فقلت: يا غياث المستغيثين، فما أتممتها، حتى جاء غراب فرمى السخاب بيننا، فلو رأيتهم يا أم المؤمنين وهم حوالي، يقولون: اجعلينا في حل، فنظمت ذلك في بيت، فأنا أنشده لئلا أنسى النعمة، فأترك شكرها.

### بين يحيى البرمكي والفضل بن الربيع

ذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: حدثني أبو الحسن محمد بن عبد الله بن الحسين بن سعد، عن أبيه عبد الله بن الحسين، قال: حدثني الحسين بن نمير الخزاعي، قال: صار الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي في حاجة له، فلم يرفع له رأساً، ولا قضى حاجته، فقام مغضباً، فلم يدع بدابته، ولا أكثر له، ثم أتبعه رجلاً، فقال: انظر ما يقول، فإن الرجل يبيء عما في نفسه في ثلاثة مواضع إذا اضطجع على فراشه، وإذا خلا بعرضه، وإذا استوى على سرجه، قال الرجل: فاتبعته، فلما استوى على سرجه، عض على شفتيه، وقال:

عسى وعسى يشي الزمان عنانه ... بلور زمان والزمان يلور

فيعقب روعات سروراً وغبطة ... وتحدث من بعد الأمور أمور  
فلم يكن بين ذلك، وبين أن سخط الرشيد على البرامكة، واستوزر الفضل بن الربيع، إلا أياماً يسيرة.  
وحدثني بهذا الخبر، أبي، على مثل هذا الإسناد، ولم أحفظه، لأني لم أكتبه عنه في الحال، فقال في البيت الأول:  
عسى وعسى يشي الزمان عنانه ... بعثرة دهر والزمان عثور  
وقال في البيت الثاني:

فتدرك حاجات وتقضى مآرب ... وتحدث من بعد الأمور أمور  
وزاد فيه أن الفضل بن يحيى بن خالد رده فقضى حوائجه.  
وأخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: حدثني أبو بكر الصولي، عن ميمون بن هارون قال: حدثني الحسين بن  
نمير الخراعي، وذكره، وقد دخل فيما أجازه لي الصولي.  
وقرىء على أبي بكر الصولي بالبصرة، في كتابه كتاب الوزراء سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، وأنا حاضر أسمع، قال:  
حدثنا أحمد بن يزيد بن محمد، يعني المهلي، قال: حدثني أبي، عن إسحاق، قال: دخل الفضل بن الربيع على يحيى بن  
خالد، فلم يوسع له، ولا هش به، ثم قال: ما جاء بك يا أبا العباس؟ قال: رقا ع معي. فرده عن جميعها، فوثب  
الفضل وهو يقول:  
عسى وعسى يشي الزمان عنانه ... بعثرة دهر والزمان عثور  
فتدرك آمال وتحوى رغائب ... وتحدث من بعد الأمور أمور  
فردده يحيى، ووقع له بجميع ما أراد.

### دعاء للشفاء من العلل

وأخبرني علي بن عبد الله الوراق، المعروف بابن أبي لؤلؤ، قال: حدثنا محمد بن جرير الطبري، قال: حدثنا يونس بن  
عبد الأعلى، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب، عن عبد الرحمن بن علي، عن عبد الله بن  
جعفر: أن رجلاً أصابه مرض شديد، منعه من الطعام والشراب والنوم، فبينما هو ذات ليل ساهراً، إذ سمع وجبة  
شديدة في حجرته، فإذا هو كلام، فوعاه، فتكلم به، فبرأ مكنه، وهو: اللهم أنا عبدك، وبك أملي، فاجعل الشفاء  
في جسدي، واليقين في قلبي، والنور في بصري، والشكر في صدري، وذكرك بالليل والنهار - ما بقيت - على  
لساني، وارزقني منك، رزقاً غير محظور ولا ممنوع.

### الباب الرابع

من استعطف غضب السلطان بصادق لفظ

واستوقف مكروهه بموقف بيان أو وعظ

بين المأمون وعمرو بن مسعدة

قريء على أبي بكر محمد بن يحيى الصولي بالبصرة، وأنا حاضر أسمع، في كتابه الوزراء سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، قال: حدثني علي بن محمد النوفلي: أن المأمون ذكر عمر بن مسعدة، فاستبطأه في أشياء، وقال: أيحسب عمرو أني لا أعرف أخباره، وما يحيى إليه، وما يعامل به الناس، بلى والله، ثم يظن أنه لا يسقط علي منه شيء؟، وكان أحمد بن أبي خالد حاضراً لذلك، فمضى إلى عمرو، فأخبره بما قال المأمون.

فنهض من ساعته، ودخل إلى المأمون، فرمى بسيفه، وقال: أنا عائد بالله من سخط أمير المؤمنين، وأنا أقل من أن يشكوني إلى أحد، أو يسر علي ضغناً يظهر منه بكلامه ما ظهر.

فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه.

فقال: لم يكن الأمر كذلك، وإنما جرى معنى أوجب ذكر ما ذكرت، فقدمته قبل أن أخبرك به، وكان ذلك عزمي، وما لك عندي إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، وسكن منه حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور في وجهه.

فلما دخل أحمد بن أبي خالد إلى المأمون، قال له: أشكو إليك من بحضرتي من خدمي وأهلي، أما لمجلسي حق ولا حرمة ليكنتم ما يجري فيه، حتى يؤدي إلى عمرو بن مسعدة؟ فإنه قد أبلغ أشياء قتلها فيه، وأتممت فيها بعض بني هاشم ممن كان حاضراً، وذلك أن عمراً دخل علي، وأعاد ما كان، فاعتذرت له بعذر لم بين الحق نسجه، ولم يتسق القول مني فيه، وإن لسان الباطل، لعبي الظاهر والباطن، وما نعش الباطل أحداً قال له أحمد: لا يتهم أمير المؤمنين أحداً، أنا أخبرت عمراً، قال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: الشكر لله، ولك لاصطناعك، والنصح لك، والحببة لتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمت أن أمير المؤمنين يجب استصلاح الأعداء والبعداء، فكيف بالأولياء والقرباء، ولا سيما مثل عمرو، في موضعه من الدولة، وموقعه من الخدمة، ومكانه من رأي أمير المؤمنين، فخبرته بما أنكره عليه، ليقوم أود نفسه، ويتلافى ما فرط منه، وإنما العيب لو أفضيت كلاماً فيه لأمر المؤمنين سر، أو قدح على السلطان، أو نقض تدبير له.

فقال له: أحسنت والله يا أحمد، إذ كفتني مخاضة الظن، وصدقني عن نفسك، وأزلت التهمة عن غيرك.

المنصور العباسي يحشر العلويين جميعاً إلى الكوفة ويتهددهم

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: حدثني الحسن بن علي السلولي، قال: حدثني أحمد بن رشيد، قال: حدثني أبو معمر سعيد بن خيثم، قال: حدثني يونس بن أبي يعفور، قال: حدثني جعفر بن محمد، من فيه إلى أذني، قال: لما قتل إبراهيم بن عبد الله عليه السلام، بإخمرى، حشرنا من المدينة، فلم يترك منا فيها محتلم، حتى قدمنا الكوفة، فمكثنا فيها شهراً نتوقع القتل.

ثم خرج إلينا الربيع الحاجب، فقال: أين هؤلاء العلوية؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم.

قال: فدخلت أنا إليه، والحسن بن زيد، فلما صرت بين يديه، قال لي: أنت الذي تعلم الغيب؟ قلت: لا أعلم

الغيب إلا الله.

قال: أنت الذي يجي إليك هذا الخراج؟ قلت: إليك يجي يا أمير المؤمنين الخراج.

قال: أتدرون لم دعوتكم؟ قلت: لا.

قال: أردت أن أهدم رباعكم، وأغور قلبكم، وأعقر نخلكم، وأنزلكم بالسراة، فلا يجيئكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق، فإنهم لكم مفسدة.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن سليمان عليه السلام أعطي فشكر، وإن أيوب عليه السلام ابتلي فصبر، وإن يوسف

عليه السلام ظلم فغفر، وأنت من ذلك النسخ.

قال: فتبسم، وقال: أعد، فأعدت.

فقال: مثلك فليكن زعيم القوم، قد عفوت عنكم، ووهبت لكم جرم أهل البصرة، حدثني الحديث الذي حدثني به عن أبيك، عن آباءه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: حدثني أبي، عن آباءه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: صلة الرحم، تعمير الديار، وتطيل الأعمار، وتكثر العمار، وإن كانوا كفاراً.  
قال: ليس هذا.

فقلت: حدثني أبي، عن آباءه، عن علي، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: الأرحام معلقة بالعرش، تقول: صل من وصلني، واقطع من قطعني.  
قال: ليس هذا.

قلت: حدثني أبي، عن علي، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته.  
قال: ليس هذا الحديث.

قلت: حدثني أبي، عن آباءه، عن علي عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: إن ملكاً من ملوك الأرض، كان بقي من عمره ثلاث سنين، فوصل رحمه، فجعلها الله عز وجل، ثلاثين سنة.  
قال: هذا الحديث أردت، أي البلاد أحب إليكم؟ فوالله، لأصلن رحمه اليوم.  
قلنا: المدينة.

قال: فسرحنا إلى المدينة، وكفانا الله عز وجل، مؤونته.

### بين الإمام جعفر الصادق والمنصور العباسي

ووقع إلي هذا الخبر، على خلاف هذه السياقة، وجدته في بعض الكتب بغير إسناد: إن معاذاً، مولى إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس رحمه الله، قال: كنت قائماً على رأس محمد بن إسماعيل، مولاي، ورزام، مولى محمد بن خالد بن عبد الله القسري، يحدثه، وكان كاتبه إذ ذاك، قال: وجهني محمد بن خالد القسري، لآتيه بجعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، من المدينة، إلى المنصور.

فلما صرنا بالجحف، نزل عن راحلته، وأسبغ الوضوء، واستقبل القبلة، وصلى ركعتين، ثم رفع يديه إلى السماء، وأنا بالقرب منه، فسمعته يقول: اللهم بك أستفتح، وبك أستجرح، وبمحمد عبدك ورسولك أتوجه، اللهم إني أدرأ بك في نحري، وأعوذ بك من شره اللهم سهل لي حزونته، وذل لي صعوبته، وأعطني من الخير أكثر مما أرجو، واكفني من الشر أكثر مما أخاف، ثم جاء فركب ومضى.

فلما قيل لأبي جعفر: إنه بالباب، أمر بالستور فرفعت، وبالأبواب ففتحت، ثم خرج إليه، فلقيه في منتصف الدار فعانقه أبو جعفر، وأخذ بيده يماشيه مقبلاً عليه، حتى انتهى إلى مجلسه، فأجلسه فيه، ثم أقبل عليه المنصور يسأله، وأقبل جعفر يدعو له ويفديه.

ثم إن المنصور قال له: عرفت ما كان من أمر هذين الرجلين، يعني محمداً وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، وما كان



من بري بهما، وقد استترا، وخفت أن يشقا العصا، ويلقيا بين أهل هذا البيت شراً لا يصلح أبداً، فأخبرني بخبرهما، ودلني عليهما.

فقال له جعفر: قد والله هيتهما فلم يقبلا، وكرهت أن أطلع على شيء من أمورهما، وما زلت مائلاً إليك، وحاطباً في حبلك، ومواظباً على طاعتك.

فقال له المنصور: صدقت، ولكنك تعلم، أي أعلم، أن علم أمرهما عندك، ولم أقنع إلا أن تخبرني بخبرهما وأمرهما. فقال: يا أمير المؤمنين، أتلو عليك آية من كتاب الله عز وجل، فيها منتهى علمي بهما. قال: هات، على اسم الله.

فتلا عليه: " لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصروهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار، ثم لا ينصرون ".

فخر المنصور ساجداً، وقال: حسبك. ولم يسأله بعد ذلك عن شيء من أمرهما.

وروي لي هذا الخبر على وجه آخر، حدثنا به علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني عيسى بن أبي حرب الصفار، والمغيرة بن محمد، قالوا: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، قال: حدثني الحسن بن الفضل بن الربيع، قال: حدثني عبد الله بن الفضل بن الربيع عن الفضل بن الربيع، قال: حدثني أبي، قال: حج أبو جعفر المنصور سنة سبع وأربعين ومائة، فلما قدم المدينة، قال لي: ابعث إلى جعفر بن محمد من يأتيني به بغتة، قتلني الله إن لم أقتله، فأمسكت عنه، رجاء أن ينساه، فأغلظ لي في الثانية.

فقلت: جعفر بن محمد بالباب يا أمير المؤمنين، قال: ائذن له، فأذنت له.

فلما دخل، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال: لا سلم الله عليك، يا عدو الله، تلحد في سلطاني، وتبغيني الفوائل في ملكي، قتلني الله إن لم أقتلك.

فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت من ذلك السنخ ففكر طويلاً. ثم رفع رأسه، فقال: أنت عندي، يا أبا عبد الله، البريء الساحية، السليم الناحية، القليل العائلة، جزاك الله عن ذي رحمك، أفضل ما يجزي ذوي الأرحام عن أرحامهم. ثم تناول يده، فأجلسه على مفرشه، واستدعى بالمنفحة، والمنفحة مدهن كبير فيه غالية، فغلفه بيده، حتى قطرت لحيته.

ثم قال له: في حفظ الله وفي كلاءته، يا ربيع، ألحق أبا عبد الله جائزته وكسوته.

قال الربيع: فتبعته، فلما لحقته، قلت له: إني رأيت ما لم تر، وسمعت ما لم تسمع، ورأيت بعد ذلك ما قد رأيت، وقد رأيتك تحرك شفتيك بشيء، فما الذي قلت؟ فقال: نعم، إنك رجل منا أهل البيت، ولك محبة ومودة، اعلم أنني قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركتك الذي لا يرام، وأدركني برحمتك، واعف عني بقدرتك، لا أهلك وأنت رجائي، رب، كم من نعمة أنعمت بها علي، قل لك عندها شكري فلم تحرمني، وكم من بلية ابتليتني بها، قل لك عندها صبري فلم تحذلني، فيا من قل عند نعمه شكري فلم يحرمي، ويا من قل عند بيته صبري فلم يحذلني، يا من رأني على الخطايا فلم يهتكني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضني أبداً، ويا ذا النعماء التي لا تحصى عدداً، صل على محمد وعلى آل محمد، بك أدراً في نحره، وأعوذ بك من شره، اللهم أعني على ديني بدنياي، وعلى آخرتي بتقواي، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلفني إلى نفسي طرفة عين، يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه

المغفرة، اغفر لي ما لا يضرك، وأعطني ما لا ينقصك، إنك أنت الوهاب، أسألك فرجاً قريباً، وصبراً جميلاً، ورزقاً واسعاً، والعافية من جميع البالاي، وشكر العافية.

### بين موسى الهادي وأحد كتابه

وذكر محمد بن عبدوس الجهشياري، في كتابه الوزراء: أن موسى الهادي سخط على بعض كتابه، ولم يسمه، فجعل يقرعه، ويؤنبه، ويتهدده، ويتوعده.

فقال له الكاتب: يا أمير المؤمنين، إن اعتذاري إليك فيما تقرعني به رد عليك، وإقراري بما بلغك عني، يوجب ذنباً لم أجنه، ولكني أقول كما قال الشاعر:

إذا كنت ترجو في العقاب تشفياً... فلا تزهدن عند التجاوز في الأجر  
فصفح عنه، وأمر بترك العرض له، وأحسن إليه، وصرفه مكرماً.

### ابن مقله ينفذ من سجنه رقعة إلى الوزير ابن الفرات

حدثني علي بن هشام بن عبد الله الكاتب، عن أبي عبد الله زنجي الكاتب، قال: لما نكب أبو الحسن بن الفرات، أبا علي بن مقله، في وزارته الثالثة، لم أدخل إليه في الحبس، ولا كاتبه متوجعاً له، ولا راسلته بحرف، خوفاً من أن يرقى ذلك إلى ابن الفرات.

وكانت بيني وبين ابن مقله مودة، فلما طال مكثه في الحبس، كتب إلي رقعة لطيفة، أولها:

تري حرمت كتب الأخلاء بينهم... أين لي، أم القرطاس أصبح غالباً؟

فما كان لو ساء لتنا كيف حالنا... وقد دهمتنا نكبة هي ما هيا

صديق من راعاك عنه شديدة... وكل تراه في الرخاء مراعي

فهيك عدوي، لا صديقي، فربما... يكاد الأعادي يرحمون الأعدايا

ثم أتبع ذلك بكلام عاتيني فيه، ويذكر أنه أنفذ إلي، في طي رقعته، رقعة إلى الوزير، وسألني عرضها عليه، في وقت خلوة لا يكون فيها ابنه أبو أحمد الحسن.

فقرأت الرقعة التي للوزير، فكان فيها: أقصرت أطال الله بقاء الوزير، وفعل به وصنع، عن الاستعطاف وعن

الشكوى، حتى تناهت بي الحنة والبلوى، في النفس والمال، والجسم والحال، إلى ما فيه شفاء للمنتقم، وتقويم

للمجترم، حتى أفضت بي، إلى الحيرة والتبلد، وبعيالي إلى الهتكة والتلدد، وما أقول إن حالاً أتاها الوزير - أيده الله

- في أمري، إلا بحق واجب، وظن صادق غير كاذب، إلا أن القدرة تنهب الحفيظة، والاعتراف يزيل الاقتراف،

ورب المعروف يؤثره أهل الفضل والدين، والإحسان إلى المسيء، من أفعال المتقين، وعلى كل حال، فلي ذمام

وحرمة، وتأميل وخدمة، إن كانت الإساءة تضيعها، فرعاية الوزير - أيده الله - تحفظها، فإن رأى الوزير - أطال

الله بقاءه - أن يلحظ عبده بعين رأفته، ويعم بإحياء مهجته، ويتخلصها من العذاب الشديد، والجهد الجهد،

ويجعل له من معرفته نصيباً، ومن البلوى فرجاً قريباً، فعل، إن شاء الله.

فأقامت الرقعة في كمي أياماً، لا أتمكن من عرضها، إلى أن رسم لي الوزير ابن الفرات، كتب رقعة إلى جعفر بن

القاسم، عامله على فارس، في مهم، وأن أحررها بين يديه، وأعرضها عليه، فأمرني بتحريرها وقد خلا، فاغتنمت

خلوته من كل أحد، فقلت له: قد عرف الوزير - أيده الله - ما بيني وبين ابن مقله، من العشرة والإلفة التي جمعنا عليها خدمته، ووالله، ما كاتبته ولا راسلته، ولا قضيت له حقاً بمعونه ولا غيرها، منذ سخط الوزير - أيده الله - عليه، وهذه رقعته إلي تدل على ذلك، ويسأل عرض رقعة له على الوزير - أيده الله - وهي معي، فإن أذن عرضتها عليه.

فقال: هاهاها.

فناولته إياها، قال: فقرأ رقعته إلي، ثم قال: هاهاها رقعته إلي.

فقلت: أسأل الوزير - أيده الله - أن يكتب ذلك عن سيدي أبي أحمد - يعني المحسن ابنه - فإني أخافه.

فقال: أفعل.

فلما قرأ رقعة ابن مقل إليه قال: والله، يا أبا عبد الله، لقد تناهى هذا الرجل في السعاية على دمي، ومالي، وأهلي، ولقد صح عندي أنه قال لما أسلم إلي حامد: لو علمت أن ابن القرات سيقى بعد صرفه يوماً واحداً ما سمعت عليه، ووالله، لقد كنت أدعو الله في حبسي، أن لا يمكنني منه، ولا من الباقطائي، أما هو فلا حساني العظيم - كان إليه، فلم أحب أن أتمكن منه فأسفي غيظي وأفسد إحساني إليه وأما الباقطائي، فلقيب إسائه إلي، ولأنه شيخ من شيوخ الكتاب، وخفت العار بما لعلي كنت أعامله به لو حصل في يدي، فلم تجب دعوتي فيه، وأجيب في الباقطائي، والآن فوحق محمد وآله عليهم السلام، لا جرى على ابن مقله مكروه بعد هذا، وأنا أتقدم اليوم بأخذه من المحسن، وإنفاذه مع سليمان بن الحسن إلى فارس، وأجره مجراه في الأمر بحراسة نفسه، وباقي حاله، وأزيدك - يا أبا عبد الله - ما لا أحسبك فهمته.

فقلت: وما هو؟ فإني لم أزل أستفيد الفوائد من الوزير - أيده الله - تعلماً وإنعاماً.

فقال: قد بقيت له بقية وافر من حاله، لولاها، لكان لا يقدر أن يقول قولاً سديداً، ولا يتفرغ قلبه لنظم شعر، وبلاغة تثر.

قال: فلما كان من الغد، أخرجته من الحيس، وأفذه إلى فارس، هو وسليمان بن الحسن، فسلما.

### كيف تخلص طريح بن إسماعيل الثقفي من المنصور

أخبرني أبو الفرج علي بن الحسين الأموي، المعروف بالأصبهاني، قال: أخبرني حبيب بن نصر المهلبي، قال: حدثنا عبد الله بن شبيب، قال: حدثني محمد بن عبد الله بن حمزة بن أبي عيينة المهلبي، عن أبيه، عن طريح بن إسماعيل الثقفي، أنه دخل على أبي جعفر، في الشعراء، فقال له: لا حياك الله، ولا بياك، أما اتقيت الله حيث تقول في الوليد:

لو قلت للسيل دع طريقتك والمو... ج عليه كالهضب يعتلج

لساخ وارتد أو لكان له... إلى طريق سواه منعرج

فقال طريح: قد علم الله أنني أردت الله بهذا وعنيته، وقلت ذلك، ويدي ممدودة إليه عز وجل.

فقال أبو جعفر: يا ربيع، أما ترى ها التخلص؟

### المأمون يعفو عن الحسين بن الضحاك ويمتنع عن استخدامه

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني، إجازة، قال: أخبرني محمد بن مزيد بن أبي الأزهر، ومحمد بن خلف بن المرزبان، وألفاظهم تزيد وتقص.

وأخبرني ببعضه محمد بن خلف، وكيع، من آخره، وقصة وصوله إلى المأمون، ولم يذكر ما قبل ذلك، قالوا: حدثنا حماد بن إسحاق، عن أبيه، ولم يقل وكيع عن أبيه، واللفظ في الخبر لابن أبي الأزهر، وحديثه، ثم قال: كنت بين يدي المأمون قائماً فدخّل ابن البواب الحاجب، برقعة فيها أبيات، فقال له: أتأذن في إنشادها؟ قال: هات، فأنشد:

أجرني فإني قد ظممت إلى الوعد ... متى ينجز الوعد المؤكّد بالعهد  
أعيذك من خلف الملول وقد ترى ... تقطع أنفاسي عليك من الوجد  
رأى الله عبد الله خير عباده ... فملكه والله أعلم بالعهد  
ألا إنّما المأمون للناس عصمة ... مميّزة بين الضلالة والرشد  
فقال له المأمون: أحسن يا عبد الله، وظنها له.  
فقال: بل أحس قائلها يا أمير المؤمنين.  
قال: ومن هو قائلها؟ قال: عبدك الحسين بن الضحاك.  
فقطب، وقال: لا حيا الله من ذكرت، ولا بياه، ولا قربه، أليس هو القائل:

أعينيّ جوداً وابتكيا لي محمّداً ... ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعدا  
فلا تمّت الأشياء بعد محمّدٍ ... ولا زال شمل الملك فيه مبدّداً  
ولا فرح المأمون بالعيش بعده ... ولا زال في الدنيا طريداً مشرّداً  
هذا بذاك، ولا شيء له عندنا.  
فقال ابن البواب: فأين فضل أمير المؤمنين، وسعة حلمه، وعادته في العفو؟ فأمر بإحضاره.  
فلما حضر، سلم، فرد عليه السلام رداً خفياً، ثم قال: أخبرني عنك، هل عرفت - يوم قتل أخي - هاشميةً قتلت، أو هتكت؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك؟  
ومما شجى قلبي وكفكف عبرتي ... محارم من آل النبي استحلّت  
ومهتوكة بالخلد عنها سجوفها ... كعاب كقرن الشمس حين تبدّت  
إذا خفرتما روعة من منازع ... لها المرط عاذت بالخضوع ورّت  
وسرب ظباء من ذؤابة هاشم ... هتفن بدعوى خير حيٍّ وميّت  
أردّ يداً منّي إذا ما ذكرته ... على كبدٍ حرّى وقل مفتّت  
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ... ولا بلغت آمالها من تمّت  
فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني.  
فدمعت عيننا المأمون، وقال: قد عفوت عنك وأمرت لك بإدراار أرزاقك عليك، وإعطائك ما فات منها، وجعلت عقوبة ذنبك، امتاعي عن استخدامك.

### بين المعتصم والحسين بن الضحاك

أخبرني محمد بن يحيى الصولي، إجازة، وقد ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الكبير، كتاب الأغاني، الذي أجازه لي في جملة ما أجاز، في أخبار الحسين بن الضحاك، قال: غضب علي المعتصم في شيء جرى على النبيذ، وقال: والله لأؤدبته، وحجني، فكثبت إليه:

غضب الإمام أشدّ من أدبه ... وقد استجرت وعذت من غضبه  
أصبحت معتصماً بمعتصم ... أثنى عليه الله في كتبه  
لا والذي لم يبق لي سبباً ... أرجو التجاة به سوى سببه  
ما لي شفيع غير رحمته ... ولكل من أشفى على عطبه  
إلا كريم طباعه وبه ... أرجو الذي أرجوه في نسبه  
فلما قرئت عليه، التفت إلى الواثق، وقال: بمثل هذا الكلام يستعطف الكرام، ما هو إلا أن سمعت أبيات حسين  
هذه، حتى زال ما في نفسي عليه.

فقال الواثق: هو حقيق أن يهب له أمير المؤمنين ذنبه، ويتجاوز عنه، فرضي عني، وأمر بإحضاري.  
قال الصولي: فحدثني الحسين بن يحيى، أن هذه الأبيات إنما كتب بها إلى المعتصم لأنه بلغه عنه أنه مدح العباس بن  
المأمون، وتمنى له الخلافة، فطلب، فاستتر، وكتب بهذه الأبيات إلى المعتصم على يدي الواثق، فأوصلها، وشفع له،  
فرضي عنه، وأمنه، فظهر، ثم استدعاه، فدخل عليه، وهجا العباس بن المأمون، فقال:

خلّ اللعين وما اكتسب ... لا زال منقطع السبب  
يا عرّة الثقلين لا ... ديناً رعيت ولا حسب  
حسد الإمام مكانه ... جهلاً هداك على العطب  
وأبوك قدّمه لها ... لما تحيّر وانتخب  
ما تستطيع سوى التنفّ ... س والتجرّع للكرب  
لا زلت عند أبيك من ... تقص المروءة والأدب

### الشعبي يروي قصة دخوله على الحجاج

وجدت بخط القاضي أبي جعفر أحمد بن البهلول الأنباري، قال الشعبي: كنت فيمن خرج مع ابن الأشعث، على  
الحجاج، فلما هزم، هربت، فأتيت يزيد بن أبي مسلم، وكان لي صديقاً، وذكرت له أمري.  
فقال: يا عامر، أنا أخوك الذي تعرف، ووالله، ما أستطيع نفعك عند الحجاج، وما أرى لك إلا أن تمثل بين يديه،  
فتقر بذنبك، فإن الحجاج ليس ممن يكذب، فاصدقه، واستشهدني على ما بدا لك.  
قال الشعبي: فما شعر الحجاج، إلا وأنا قائم بين يديه، فقال: عامر؟ قلت: نعم أصلح الله الأمير.  
قال: ألم أقدم العراق، فوجدتك حاملاً، فشرفتك، وأوفدتك إلى أمير المؤمنين، وأثبتك عريف قومك، واستشرتك؟  
قلت: بلى.

قال: فما الذي أخرجك علي، وأين كنت في هذه الفتنة؟

قلت: أصلح الله الأمير، أوحش الجناب، وأحزن بنا المنزل، فاستشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر، واستحللنا  
البلاء، وفقدنا صالح الإخوان، وشملتنا فتنة، لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، وما أعتذر ألا أكون سعيت،  
وهذا يزيد بن أبي مسلم، يشهد لي بذلك، وأني كنت أكتب إليه بعذري.  
فقال ابن أبي مسلم: صدق، أعز الله الأمير.

فقال الحجاج: هذا عامر، ضرب وجوهنا بسيفه، وأتانا يعتذر بالباطل، ردوا عليه عطاءه. وعفا عنه.

### من قصص ملوك الفرس

#### بين كسرى أبرويز ومغنيه

وجدت في بعض الكتب، عن ابن خرداذبه، قال: غضب أبرويز الملك، على بعض أصحابه، من جرم عظيم، فحبسه زماناً، ثم ذكره، فقال للسجان: هل يتعاهده أحد؟.

فقال: أيها الملك، الفلهند المغني وحده، فإنه كان يوجه إليه في كل يوم بسلة من طعام. فقال كسرى أبرويز للفلهند، غضبت على فلان، وحبسته، فقطعه الناس غيرك، فإنك كنت تتعاهده بالبر في كل يوم.

فقال: أيها الملك، إن البقية التي بقيت له عندك، فأبقت روحه في جسده، أبقت له عندي مقدار سلة من طعام. فقال له: أحسنت، وقد وهبت لك ذنبه، وأطلقه للوقت.

#### الفلهند يحرم الملك أبرويز من شطر لذته

حدثني الحسن بن محمد الجنائني، قال: قرأت في بعض كتب الفرس أن أبرويز الملك كان معجباً بغناء الفلهند مغنيه، فشفأ للفلهند غلام أحسن غناء منه، فأدخله إلى أبرويز يتحفه به، ويتقرب إليه بذلك، فاستطابه أبرويز وغلب على قلبه حتى قدمه على الفلهند، فحسده الفلهند، فقتله. وبلغ أبرويز ذلك، فغضب عليه غضباً شديداً، واستدعى الفلهند، فقال له: يا كلب، علمت أن شطر لذتي في الغناء كان فيك، وشطرها كان في غلامك فقتلته لتذهب شطر لذتي، والله لأقتلنك، وأمر به، فاجر ليقتل. فقال: أيها الملك، اسمع مني كلمة، ثم اعمل ما شئت. قال: قل.

قال: إذا كانت لذتك شطرين، وقد أبطلت أنا بالجهل أحدهما، وتبطل أنت على نفسك الشطر الثاني بطاعة الغضب، فإن جنائتك على نفسك، أعظم من جنائتي عليك. فقال أبرويز: ما نطق بهذا الكلام، في مثل هذا المقام، إلا لما في أجلك من تأخير، ولما يريد الله تعالى إسعادي به من الالتذاذ بغنائك، وقد عفوت عنك. وأطلقه.

#### صاحب المائدة يصب ما في الغضارة على رأس الملك

حدثني الحسن بن محمد الجنائني، قال: قرأت في بعض كتب الفرس المنقولة إلى العربية، أن ملكاً من ملوكهم قدم إليه صاحب مائدته غضارة إسفيد باج فنقطت منها نقطة على ساعد الملك، فأمر بقتله. فقال له الرجل: أعيد الملك بالله أن يقتلني ظلماً بغير ذنب قصده.

فقال له الملك: قتلك واجب، ليعتظ بك غيرك، فلا تمهل الحرمة.  
فأخذ الرجل الغضارة، فصبها بأسرها على رأس الملك، وقال: أيها الملك، كرهت أن يشيع عنك أن قتلتني ظلماً،  
ففعلت هذا لأستحق القتل، فيزول عنك قبح الأحدثوة بظلم الخدم، فشأنك الآن وما تريد.  
فقال الملك: ما أحسن الأجل! وعفا عنه.

### الغلط الذي لا يتلافى

وجدت في بعض الكتب: أن رجلين أتى بهما إلى بعض الولاة، وقد ثبت على أحدهما الزندقة، وعلى الآخر شرب  
الخمير، فسلم الوالي الرجلين إلى بعض أصحابه، وقال له: اضرب عنق هذا، وأومى إلى الزنديق، وحد هذا، وأومى  
إلى الشارب.  
وقال: خذهما.  
فلما ذهب بهما ليخرجوا، قال شارب الخمر: أيها الأمير، سلمني إلى غير هذا ليحدثني، فليست آمن أن يغلط فيضرب  
عنقي، ويجد صاحبي، والغلط في هذا لا يتلافى.  
فضحك منه الأمير، وخلق سبيله، وضرب رقبة الزنديق.

### الأمير عبد الله بن طاهر يعفو عن الحصني ويحسن إليه

وجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي، عن أبي محمد الحسن بن طالب، كاتب عيسى بن فرخان شاه، قال: حدثني  
عيسى بن فرخان شاه، قال: لما وليت ديار مصر، لم يزل وجوهها يصفون لي محمد بن يزيد الأموي الحصني بالفضل،  
وينشدوني قصيدته التي أجاب بها عبد الله بن طاهر، لما فخر بأبيه، ويذكرون قصته معه لما دخل عبد الله الشام،  
وأشرف الحصني على المهلاك خوفاً منه، وكيف كفي أمره بلا سب، وكيف أحسن إليه، وأقره في حصنه، فكنت  
أنتفقد أمره في ضيعته، وأحسن إليه في معاملته، وكانت كتبه ترد علي بالشكر بأحسن عبارة.

فلما خرجت لتصفح كور عملي، وأحوال الرعية والعمال بالتواحي، وردت الكورة التي فيها حصن محمد بن يزيد  
في ناحية منها، فخرج مستقبلاً لي، وراغباً إلي في النزول عليه.  
فلما التقينا، قال لي: لم أشك - مع فضلك - أنك لا تتجاوزني، ولم آمن أن يعارضك ظن، يصور لك أن عدوك  
عني، إبقاء علي، وإشفاق من نسبة السلطان إياك إلى إيثار لذتك في لقائي، فتطويني، فحملت نفسي على خلاف ما  
كنت أحب أن يشيع لك، من ابتدائي بالقصد قبل رغبتك إليك فيه، فالحمد لله الذي جعل لك السبق إلى المكرمة.  
وسرنا إلى حصنه، وأوقفني على المواضع المذكورة في الخبر والشعر إلى أن دخلنا حصنه، فلم أجد فيه أهبة للنزول  
به، ورأيت أدباً ومروعة، وسبق بما حضر من القرى، ولم ينقبض من إحضار ما أعددت في سفرتنا، ووجدت خدمته  
كلها تدور على جارية سوداء اللون، خفيفة الحركة، يدل نشاطها على اعتيادها الطراق، إلى أن رفع الطعام،  
وحضر الشراب، فحضرت السوداء في غير الزي الأول وجلست تغني، فأنكرتها، حتى استثبتت فيها، فوصف لي  
قديم حرمتها، وقال: هي كانت طليعتي يوم قصديني عبد الله بن طاهر.  
فاستفتحتني لمسألته عن الخبر، فسألته.

فقال: لما بلغني إجماع عبد الله بن طاهر على الخروج لطلب نصر بن شيث - الخارجي كان في ذلك الوقت -

بنفسه، أيقنت بالهلاك، وخفت أن يقرب مني، فتناثرت منه بادرة مكروه، ولم أشك في ذهاب النعمة، وإن سلمت

النفس لما بلغه من إجابتي إياه، عن قصيدته التي فخر بها، وأنشدنيها:

مدمن الإغضاء موصول ... ومديم العتب مملول

ومدين البيض في تعب ... وغريم البيض ممطول

وأخو الوجهين حيث رمى ... بهواه فهو مدخول

وقليل من يبرزه ... في يد التهذيب تحصيل

فاتتد تلق النجاح به ... واعتساف الأمر تضليل

واغض عن عيب أخيك يدم ... لك حبل منه موصول

من يرد حوض الردى صرداً ... لا يسعه الريّ تعليل

من بنات الروم لي سكن ... وجهها للشمس إكليل

عتبت والعتب من سكن ... فيه تكثير وتقليل

أقصري عمّا لهجت به ... ففراغ عنك مشغول

سائلي عمّا تسألني ... قد يردّ الخبر مسؤول

أنا من تعرفن نسبته ... سلفي الغرّ البهاليل

مصعب جدّي نقيب بني ... هاشم والأمر مجهول

وحسين رأس دعوتهم ... ودعاء الحقّ مقبول

سل بهم تنييك نجدتهم ... مشرفيات مصاقيل

كلّ غضب مشرب عللاً ... وجراز الحدّ مفلول

وأبي من لا كفاء له ... من يسامي مجده؟ قولوا!

صاحب الرأي الذي حصلت ... رأيه القوم الخاصيل

حلّ منهم بالذرى شرفاً ... دونه عزّ وتبجيل

تفصح الأنباء عنه إذا ... أسكت الأنباء مجهول

سل به، والخيل ساهمة ... حوله جرد أبايل

إذ علت من فوقه يده ... نوطها أبيض مصقول

وبربات الخدور وقد ... جعلت تبدو الخلاخيل

من ثنى عنه الخيول بأك ... نافها الخطيّة الشول

أبطن المخلوع كلكله ... وحواليه المغاويل

فتنوى والترب مضجعه ... غال عنه ملكه غول

قاد جيشاً نحو قاتله ... ضاق عنه العرض والطول

من خراسان مصمّمهم ... كليوث ضمّمها غيل

وهبوا لله أنفسهم ... لا معازيل ولا ميل

ملكٌ تجتاح سطوته ... ونداه الدهر مبنول



قطعت عنه تئامه ... وهو مرهوب ومأمول  
وتره يسعى إليه به ... ودمّ يجنيه مطلول

قال: وكنت لما بلغتني القصيدة، امتعضت للعربية، وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم، لأنه قتل ملكاً من  
ملوكها بسيف أخيه، لا بسيفه، فيفخر عليها هذا الفخر، ويضع منها هذا الوضع، فرددت على قصيدته، ولم أعلم  
أن الأيام تجمعنا، ولا أن الزمان يضطرني إلى الخوف منه، فقلت:

لا يرعك القال والقييل ... كلما بلغت تمويل  
ما هوى لي حيث أعرفه ... بهوى غيرك موصول  
أين لي عدل إلى بدل ... أبديل منك مقبول  
إذ عدمت العدل منك وإذ ... أنا فيك اللّهر معدول  
تحليلني كلّ لائمة ... كلّ ما تحملت مقبول  
واحكمي ما شئت واحكمي ... فحرامي فيك تحليل  
والذي أرجو النجاة به ... ما لقلبي عنك تحويل  
ما لداري منك مقفورة ... وضميري منك مأهول  
أيخون العهد ذو ثقة ... لا يخون العهد مسؤول  
وأخو حبيبك في تعب ... مطلق مرّاً ومغلول  
ما فراغي عنك مشغل ... بل فراغي بك مشغول  
وبدت يوم الوداع لنا ... غادة عطاء عطبول  
حاسراً أو ذات مقنعة ... ذات تاج فيه إكليل  
أيّ عطفيها به انصرفت ... أرخّ بالمسك معلول  
تتعاطى شدّ معجرها ... ونطاق الخصر محلول  
بأدليل لها قتل ... حينذا تلك الأدليل  
فينفسي دمع مشطبتها ... ومثانيها المراسيل  
سبقت بالدمع مقاتنها ... فلها بالدمع تفصيل  
ورمت بالسحر من كذب ... فدفين الداء مقتول  
لاحظت بالسحر عابثة ... فحسام الصبر مفلول  
شملنا إذ ذاك مجتمع ... وجناح اليبين مشكول  
ثمّ ولت كي توذّعنا ... كحلها بالدمع مغسول  
لا تخاف الدّهر طائره ... فأذاه عنك معقول  
أيها النازي مطيته ... لأغاليطك تحصيل  
قد تأولتم على جهة ... ولنا في ذاك تأويل  
إنّ دليلاك يوم غدا ... بك في الحين لضليل  
قاتل المخلوع مقتول ... ودم القاتل مطلول  
قد يخون الرّمح عامله ... وسان الرّمح مصقول

وينال الوتر طالبه ... بعدما تسلو المئاكيل  
سار أو حلّ فمتّبع ... بالتي يكبو لها القيل  
لا تنجّيه مذهبه ... نهر بوشنج ولا التيل  
ومدين القتل مرهّن ... بدماء القوم مقتول  
بأخي المخلوع طلت يداً ... لم يكن في باعها طول  
وبنعماه التي سلفت ... فعلت تلك الأفاعيل  
وبراع غير ذي شفق ... جالت الخيل الأبايل  
يا ابن بيت التار موقدها ... ما لحاديه سراويل  
أيّ مجد فيك نعرفه ... أيّ جدّ لك بهلول  
من حسين أو أبوك ومن ... مصعب غالتهم غول  
وزريق إذ تخلّفه ... نسب عمرك مجهول  
تلك دعوى لا نقاشها ... وأبوات مراديل  
أسرة ليست مباركة ... غيرها الشّم البهايل  
ما جرى في عود أثلتكم ... ماء مجد فهو مدخول  
قدحت فيه أسافله ... وأعالیه مجاهيل  
إنّ خير القول أصدقه ... حين تصطك الأقاويل  
كن على منهاج معرفة ... لا تغرنك الأباطيل  
إنّ للإصعاد منحدرأ ... فيه للهاوي أهويل

ولريب الذّهر عن عرض ... بالرّدي علّ وتهيل  
يعسف الصعبة رائضها ... ولها بالعسف تدليل  
ويخون الرّمح حامله ... وسنان الرّمح مصقول  
وينال الثّار طالبه ... بعدما تسلو المئاكيل  
مضمر حقداً ومنصله ... مغمّد في الجفن مسلول

قال: فلما قرب عبد الله بن طاهر مني، استوحشت من المقام خوفاً على نفسي، ورأيت بعدي وتسليمي حرمي عاراً  
باقياً، ولم يكن لي إلى هربي بالحرم سبيل، فأقمت على أتم خوف مستسلماً للاتفاق، حتى إذا كان اليوم الذي قيل إنه  
ينزل فيه العسكر بهذه النواحي أغلقت باب حصني، وأقمت هذه الجارية السوداء ربيّة تنظر لي على مرقب من  
شرف الحصن، وأمرتها أن تعرفني الموضع الذي ينزل فيه العسكر قبل أن يفجأني، ولبست ثياب الموت أكفاناً،  
وتطيبت، وتحنّطت.

فلما رأّت الجارية العسكر يقصد حصني، نزلت فعرفتني، فلم يرعني إلاّ دق باب الحصن فخرجت، فإذا عبد الله بن  
طاهر، واقف وحده، منفرد عن أصحابه، فسلمت عليه سلام خائف، فرد علي غير مستوحش، فأومات إلى تقبيل  
رجله في الركاب، فمنع ألطف منع وأحسنه، ونزل على دكان على باب الحصن.

ثم قال: ليسكن روعك، فقد أسأت الظن بنا، ولو علمنا أنا بزيارتنا لك نروعك ما قصدناك.

ثم أطال المسألة، حتى رأى الثقة مني قد ظهرت، فسألني عن سبب مقامي في البر، وإيثاري إياه على الحاضرة،

ورفاهة عيشها، وعن حال ضيعتي ومعاملتي في ناحيتي، فأجبتته بما حضر لي.  
حتى إذا لم يبق من التأنيس شيء أفضى إلى مساءلتي عن حديث نصر بن شيبث، وكيف الطريق إلى الظفر به،  
فأخبرته بما حضرني.

ثم أقبل علي وقد انبسطت في محادثته كل الانبساط، فقال: أحب أن تشدني القصيدة التي فيها:

يا ابن بيت النار موقدها ... ما لحاديه سراويل

فقلت: أصلح الله الأمير، قد أريت نعمتك على مقدار همتي، فلا تكدرها بما ينغصها.

فقال: إنما أريد الزيادة في تأنيسك، بأن لا تراني متحفظاً مما خفت، وعزم علي في إنشادها، عزم مجد فقلت: يريد أن  
تطراً على سمعه، فيثور ما في نفسه، فيوقع بي. ولم أجد من إنشادها بدأ، فأنشدته القصيدة، فلما فرغت منها، عاتبني  
عتاباً سهلاً، فكان منه أن قال: يا هذا، ما حملك على تكلف إجابتي؟ فقلت: الأمير أصلحه الله، حملني على ذلك  
بقوله:

وأبي من لا كفاء له ... من يسامي مجده؟ قولوا!

فقلت كما تقول العرب، وتفتخر السوقة على الملوك، وكنت لما بلغت إلى قولي:

يا ابن بيت النار موقدها ... ما لحاديه سراويل

قال لي: يا ابن مسلمة، لقد أحصينا في خزائن ذي اليمينين بعد موته، ألفين وثلثمائة سراويل من صنوف الثياب، ما  
أصلح في أحدها تكة، سوى ما استعمل في اللبس، على أن الناس يقلون اتخاذ السراويلات في كساهم.  
فاعتذرت إليه بما حضرني من القول في هذا، وفي جميع ما ما تضمنته القصيدة، فقبل القول، وبسط العذر، وأظهر  
الصفح.

وقال: قد دللتنا على ما احتجنا إليه، من معرفة أمر نصر بن شيبث، أفستحسن القعود عنا في حربه. ولا يكون لك  
في الظفر به أثر يشاكلنا إرشادك لوجوه مطالبه؟ فاعتذرت إليه بلزوم ضيعتي ومنزلي، وعجزني عن السفر للقصور  
عن آلته.

فقال: نكفيك ذلك، وتقبله منا، ودعا بصاحب دوابه، فأمره بإحضار خمسة مراكب من الخيل الهماليج بسروجها  
ولجمها الخلاة، وبنال دواب من دواب الشاكرية، وخمسة أبغل من بغال الثقل، وأمر صاحب كسوته بإحضار  
خمسة نخوت من أصناف الثياب الفاخرة، وأمر خازنه بإحضار خمس بدر دراهم، فأحضر جميع ذلك، ووضع على  
الدكان الذي كان عليه جالساً بباب الحصن.

ثم قال لي: كم مدة تأخرنا عننا إلى أن تلحق بنا؟ فقربت الموعد، فقام ليركب، فابتدرت إلى يده لأقبلها، فمنعني،  
وركب، وسار الجيش معه، وما ترك أحداً ينزل، وكفى الله مؤونتهم، وخرجت السوداء، فنقلت الثياب والبدر،  
وأخذ الغلمان الكراع، وما لقيت عبد الله بعلمها.

قال عيسى بن فرخان شاه: فأقمت عند محمد بن يزيد يومي وليلي، فأضافني أحسن ضيافة، وكانت مذاكرته لي،  
وأدبه، ألد إلي من كل شيء، فأسقطت عنه جميع خراجه في تلك السنة، وانصرفت.

ووقع إلي هذا الخبر، بخلاف هذا، فأخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: حدثني عمي الحسن بن محمد، قال: حدثني ابن  
الدهقانة النديم، قال: حدثني محمد بن الفضل الخراساني، وكان من وجوه قواد طاهر، وابنه عبد الله، وكان أديباً،  
عاقلاً، فاضلاً، لما قال عبد الله، قصديته التي فخر فيها بماثر أبيه وأهله، وبقتل المخلوع، عارضه محمد بن يزيد  
الأموي الحصري، وهو رجل من ولد مسلمة بن عبد الملك، فأفرط في السب، وتجاوز الحد في قبح الرد، فكان فيما

قال:

يا ابن بيت النار موقدها ... ما لحاده سراويل  
من حسين وأبوك ومن ... مصعبٌ غالتهم غول  
نسب في الفخر مؤتشب ... وأبوات أراذيل  
قاتل المخلوع مقول ... ودم المقول مطلول  
وهي قصيدة طويلة.

فلما ولي عبد الله مصر، ورد إليه تدبير الشام، علم الحصني أنه لا يفلت منه إن هرب، ولا ينجو من يده حيث حل، فثبت مكانه، وأحرز حرمه، وترك أمواله وكل ما يملكه في موضعه، وفتح باب حصنه، وهو يتوقع من عبد الله أن يوقع به.

قال: فلما شارفنا بلده، وكنا على أن نصبحه، دعاني عبد الله في الليل، فقال: بت عندي، وليكن فرسك معداً، ففعلت، فلما كان في الحسر، أمر غلمان وأصحابه أن لا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب هو وأنا وخمسة من خواص غلماننا، وسار حتى صبح الحصني، فرأى بابه مفتوحاً، ورآه جالساً مسترسلاً، فقصده وسلم عليه، ونزل عنده.

وقال: ما أجلسك ها هنا، وحملك على أن تفتح بابك، ولم تحصن من هذا الجيش المقبل، ولم تتتح عن عبد الله بن طاهر، مع علمك بما في نفسه منك، وما بلغه عنك؟ فقال: إن الذي قلت لم يذهب عني، ولكني تأملت أمري، وعلمت أني قد أخطأت عليه خطيئة حملي عليها نرق الشباب، وغرة الحداثة، وأني إن هربت منه لم أفته، فباعدت الحرم، واستسلمت بنفسي وبكل ما أملك، فإننا أهل بيت قد أسرع فينا القتل، ولي بمن مضى من أهلي أسوة، وأنا واثق بأن الرجل إذا قتلني، وأخذ مالي، شفى غيظه، فلم يتجاوز ذلك إلى الحرم، ولا له فيهن أرب، ولا يوجب جرمي إليه أكثر مما بذلته.

فوالله، ما أجابه عبد الله بدموعه تجري على لحيته، ثم قال له: أتعرفني؟

قال: لا والله.

قال: أنا عبد الله بن طاهر، وقد أمن الله روعك، وحقن دمك، وصان حرمك، وحرس نعمتك، وعفا عن ذنبك، وما تعجلت إليك وحدي، إلا لتأمن، قبل هجوم الجيش، ولنا لخالط عفوي عنك، روعة تلحقك. فبكى الحصني، وقام فقبل يده، فضمه عبد الله إليه، وأذناه، ثم قال له: أما إنه لا بد من العتاب، يا أخي، جعلني الله فداك، قلت شعراً في قومي أفخر بهم، ولم أظعن فيه على نسبك، ولا ادعيت فضلاً عليك، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك، فهو من الذين تارك عندهم، وقد كان يسعك السكوت، وإن لم يسعك، أن لا تعرق ولا تسرف.

فقال: أيها الأمير، قد عفوت فاجعله عفواً لا يخالطه تريب، ولا يكدر صفوه تأنيب.

قال: قد فعلت، فقم بنا تدخل إلى منزلك، حتى توجب علينا حقاً ودماماً بالضيافة.

فقام مسروراً فأدخلنا منزله، وأتانا بالطعام فأكلنا، وجلسنا نشرب في مستشرف له، وأقبل الجيش، فأمرني أن أتلقاهم فأرحلهم، ولا ينزل أحد منهم إلا في المنزل، وكان على ثلاثة فراسخ من الحصن، فنزلت، فرحلتهم، وأقام عنده إلى العصر، ثم دعا بلواة، فكتب له بتسويغه خواجه ثلاث سنين.

ثم قال له: إن نشطت، فالحق بنا إلى مصر، وإلا فأقم بمكانك.

فقال: أتجهز، وألحق بالأمير.

ففعل، ولحق بنا، فلم يزل مع عبد الله، لا يفارقه، حتى رحل إلى العراق، فودعه، وأقام ببلده. وحدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، بهذا الخبر، من لفظه وحفظه، بخلاف هذا، قال: أخبرني أبو دلف هاشم بن محمد الخزاعي، قال: حدثني أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، قال: لما قال أبي قصيدته التي يقول فيها:

وأبي من لا نظير له ... من يسامي مجده؟ قولوا

وذكر أبياتاً من القصيدة، قال الحصني الأموي قصيدة أولها:

لا يرعك القال والقييل ... كلما بلغت تمجيل

وذكر أبياتاً من القصيدة يشتمه فيها، فلما ولي تلك النواحي، علم المسلمي أنه لا يفوته، فأقام ببلده، فلما قرب أبي من حصن مسلمة، أمر الجيش فنزلوا على فرسخ منه، ونزع من موضعه، مع عدة من غلمانته، فجاء إلى الحصن، فابتدأه وهو على باب داره، فسلم، ونزل.

فقال له: من أنت؟ قال: أنا محمد بن مسلمة القرشي الحصني.

قال: الذي هجوت آل طاهر.

قال: نعم أعزك الله.

قال: فلم فعلت ذلك، فوالله ما فخر القوم إلا بقتلهم رجلاً من قبيل قتلهم وأفناكم، فما دخولك في هذا؟ قال:

أطت الرحم وإن كانت مقطوعة، ولحقتني الرحمة والحمية، وهو أمرني أن أقول، إذ قال:

من يسامي مجده قولوا

قال: فذكرنا ما عندنا.

قال: فلم لم تستتر من عبد الله بن طاهر وقد أظلك؟ قال: علمت أنني لا أفوته، فجدت بنفسي، وصنت حرمي.

قال: أتعرفني؟ قال: أما في الحقيقة، فلا، ولكني أظنك من قواده.

قال: لا، بل أنا هو، وإنما سبقت إليك لئلا تراع، وقد أمنك الله، وأمن حرمك، فسلني حاجاتك.

قال: أما أنا أيها الأمير، فقد أجبتي عن قولي بفعلك، وأكدبت شعري بفضلك، وما لي بعدها حاجة، فإني في كفاف

من معيشتي.

فاحتمل له خراجه، وقال له: إن شئت فأقم ببلدك، وإن شئت فكن معي.

قال: بل أقيم ببلدي، وأزور الأمير إذا نشط لي.

فأجابه إلى ذلك.

### الباب الذي بين الله والناس لا يغلق

وحدثني عبد الله بن أحمد بن داسة، المقرئ البصري، قال: سمعت أن بعض الجند، اغتصب امرأة نفسها من الطريق، فعرض له الجيران يمنونه منها، فقاتلهم هو وغلمانته حتى تفرقوا، وأدخل المرأة إلى داره، وغلق الأبواب، ثم راودها عن نفسها، فامتنعت، فأكرهها، ولحقها منه شدة، حتى جلس منها مجلس الرجل من المرأة.

فقالت له: يا هذا، اصبر حتى تغلق الباب الذي بقي عليك أن تغلقه.

قال: أي باب هو؟ قالت: الباب الذي بينك وبين الله.

فقام عنها، وقال: اخرجني، قد فرج الله عنك.  
فخرجت، ولم يتعرض لها.

### بين الوليد بن يزيد وطريح الثقفي

أخبرنا أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، عن المدائني، قال: كان الوليد بن يزيد، وهو ولي العهد، يكرم طريح بن إسماعيل الثقفي، ويدين مجلسه، وجعله أول داخل وآخر خارج من عنده، فاستفرغ مديحه كله فيه، فحسده الناس من أهل بيت الوليد، وقدم حماد الراوية، في تلك الأيام إلى الشام.  
فقالوا له: قد ذهب طريح بالأمير كل مذهب، فما لنا معه ليل ولا نهار.  
فقال حماد: اطلبوا لي من ينشده بيتين من الشعر في خلوة لأسقط منزلته عنده.  
فطلبوا إلى الخصي الذي كان يقوم على رأس الوليد، وجعلوا له عشرة آلاف درهم، على أن ينشد بيتين من الشعر، على خلوة، فإذا سأله عنهما وعن قائلهما، قال له: طريح، فأجابهم الخصي إلى ذلك، وتعلم البيتين.  
فلما كان ذات يوم دخل طريح على الوليد، ودخل الناس، وجلسوا طويلاً، ثم نهضوا، وبقي طريح مع الوليد، فدعا بغدائه فتغديا، ثم إن طريحاً خرج، فركب إلى منزله، وبقي الوليد وحده في مجلسه ليس معه أحد فاستلقى على فراشه، فاغتم الخصي خلوته، فأنشده البيتين، وهما:  
سيري ركابي إلى من تسعدين به ... فقد أقمت بدار الهون ما صلحا  
سيري إلى سيّد سمح خلانقه ... ضخم الدسيعة قرم يحمل المدحا  
فأصغى الوليد إليه، ثم قال: من يقول هذا يا غلام؟ قال: يقوله طريح.  
فامتلاً غيظاً وغضباً، ثم قال: والهف أم لم تلدني، قد جعله أول داخل علي، وآخر خارج عني، ويزعم أن هشاماً يحمل المدح، وأني لا أحملها.  
ثم قال: علي بالحاجب.  
فجاء، فقال له: لا أعلم أنك أذنت لطريح، ولا أراه في بسيط الأرض، فإذا جادلك في ذلك، فاخبطه بالسيف.  
فلما صليت العصر، جاء طريح في الساعة التي كان يؤذن له فيها، فدنا من الباب ليدخل، فقال له الحاجب:  
وراءك.  
فقال: ما لك، هل دخل علي ولي العهد أحد بعدي؟ قال: لا، ولكن ساع وليت من عنده، دعاني، فأمرني أن لا آذن لك، وإن جادلني في الإذن خبطتك بالسيف.  
فقال له: لك عشرة آلاف درهم، وأدخلني.  
فقال له الحاجب: والله، لو أعطيتني خراج العراق ما أذنت لك، وما لك خير في الدخول عليه، فارجع.  
فقال: ويحك، هل تعلم من دهاني عنده؟ قال: لا والله، لقد دخلت عليه، وما عنده أحد، ولكن الله تعالى يحدث ما يشاء، في الليل والنهار.

## كتاب : الفرج بعد الشدة

المؤلف : القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي

فرجع طريح، وأقام بباب الوليد سنة، لا يخلص إليه، ولا يقدر على الدخول عليه، وأراد الرجوع إلى وطنه وقومه. ثم قال: والله، إن هذا مني لعجز، أرجع من غير أن ألقى ولي العهد، فأعلم من دهاني عنده؟ ورأى أناساً كانوا أعداء له، قد فرحوا بما كان من أمره، ولم يزل يُلطف بالحاجب، حتى قال له: أما إذ أطلت المقام، فأنا أكره أن تنصرف علي حالك هذه، ولكن الأمير، إذا كان يوم كذا وكذا، دخل الحمام، ثم أمر بسريره فأبرز، وليس عليه يومئذ حجاب، فإذا كان ذلك اليوم حضرت، فدخلت عليه، وظفرت بحاجتك، ويكون لي أنا عذر. فلما كان ذلك اليوم دخل الحمام، وأبرز سريره، وجلس عليه، وأذن للناس فدخلوا، وبعث الحاجب إلى طريح، فأقبل. فلما رآه الوليد من بعيد، صرف وجهه عنه، وكره أن يرده من بين الناس، فسلم، فلم يرد عليه، فأنشأ طريح يقول:

نام الخليلي من المموم وبتي في ... ليل أكابده وهم مضجع  
وسهرت لا أسري ولا في لذة ... أرقى وأعقد ما لقيت المضجع  
أبغى وجوه مخارجي من هممة ... أزميت عليّ وسدّ منها المطلع  
جزعاً لغضبة الوليد ولم أكن ... من قبل ذاك من الحوادث أجزع  
يا ابن الخلائف إن سخطك لامرئ ... أمسيت عصمته بلاء مفضع  
فلأنزعن عن الذي لم قهوه ... إن كان لي ورأيت ذلك مترع  
فاعطف فداك أي عليّ تعطفاً ... وفضيلة فعسى الفضيلة تنفع  
فلقد كفاك، وزاد ما قد نالني ... إن كنت لي بلاء ضرّ تقنع  
سمةً لذاك عليّ جسم شاحب ... باد تحسّره ولون أسفع  
إن كنت في ذنب عتبت فإني ... عما كرهت لنازع متضرّع  
ويئست منك فكلّ عسر باسط ... يده إليّ وكلّ يسر أقطع  
من بعد أحذي من حبالك بالذي ... قد كنت أحسب أنه لا يقطع  
أرمتني حتى انقطعت وسدّدت ... عني الوجوه ولم يكن لي مدفع  
ودخلت في حرم الذمام وحاطني ... خفر أخذت به وعهد مولع  
أفهادم ما قد بنيت وخافض ... شرفي وأنت بغير ذلك أوسع  
أفلا خشيت شمات قوم فيهم ... شنف وأنفسهم عليّ تقطع  
وفضلت في الحسب الأشمّ عليهم ... وصنعت في الأقوام ما لم يصنع  
فكانّ أنفهم بكلّ صنيعه ... أسديتها وجميل فعل يجده  
ودوا لو أنهم ينال أكفهم ... شلل وأنتك عن صنيعك تنزع  
أو تستلهم فيجعلونك أسوة ... وأبي الملام لك الندى والمصنع  
فقال له: زعمت أن هشاماً يحمل المدح، وأنا لا أحملها؟ فأنكر.

فدعا الخصي، وكشف عن الصورة، فاعترف الخصي، بما كان قد رشى، حتى أنشد البيتين بحضرة الوليد، فرضي عنه، وأجزل عطاءه، وعوضه ما فاتته، ورده إلى ما كان عليه.

### بين الجاحظ وأحمد بن أبي دؤاد

وجدت في بعض الكتب: أتي بالجاحظ، إلى أحمد بن أبي دؤاد، بعد نكبة محمد بن عبد الملك الزيات مقيداً في جبة صوف.  
فقال له ابن أبي دؤاد: والله يا عمرو ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، جاحداً للصنعة، معدداً للمثالب، مخفياً للمناقب، وإن الأيام لا تصلح مثلك، لفساد طويتك، وسوء اختيارك.  
فقال له الجاحظ: خفض عليك، فوالله، لأن تكون المنة لك علي، خير من أن تكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن، أحسن في الأحلوثة من أن أسيء وتسيء، ولأن تعفو في حال قدرتك، أجمل بك من أن تنتقم.  
فقال له ابن أبي دؤاد: ما علمتك إلا كثير تزويق اللسان، قد جعلت لسانك أمام قلبك، ثم اضطغنت فيه النفاق، اغرب قبحك الله.

فأنهض في قيوده، ثم قال: يا غلام، الحقه، فخذ قيوده، وصر به إلى الحمام، واحمل إليه خلعة يلبسها، واحمله إلى منزل فيه فرش وآلة وقماش تراح فيه علله، وادفع إليه عشرة آلاف درهم لنفقته، إلى أن أصلح من خلته، ففعل ذلك كله.

فلما كان من الغد، روي الجاحظ متصدراً في مجلس ابن أبي دؤاد، وعليه خلعة من ثيابه، وطويلة من قلاتسه، وهو مقبل عليه بوجهه، يقول: هات يا أبا عثمان.  
الرشيد يمضي ما تعهد به وزيره جعفر البرمكي في مجلس أنس

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: حدثني يحيى بن علي المنجم، قال حدثني أبي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: لم أرق قط مثل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، كانت له فتوة، وظرف، وأدب، وحسن غناء، وضرب بالطلبل، وكان يأخذ بأجزل حظ، من كل فن.

إنه نائم، فرجع، وقال: سر بنا إلى المنزل، حتى نخلو جميعاً بقية يومنا، فأغنيك، وتعيني، ونأخذ في شأننا، من وقتنا هذا.

فقلت: نعم.

فسرنا إلى مجلسه، فطرحنا ثيابنا، ودعا بالطعام، فأكلنا، وأمر بإخراج الجوارى، وقال: ليرزن، فليس عندنا من نحتشمه.

فلما رفع الطعام، وجيء بالشراب، دعا بقميص حرير فلبسه، ودعا لي بمثله، ودعا بخلوق، فنخلق، وخلفني، وجعل يغني، وأغنيه.

وكان قد دعا بالحاجب، فتقدم إليه أن لا يأذن لأحد من الناس كلهم، وإن جاء رسول أمير المؤمنين، فأعلمه أني مشغول، واحتاط في ذلك، وتقدم فيه إلى جميع الحجاب والخدم.

ثم قال: إن جاء عبد الملك، فأذنوا له، يعني رجلاً كان يأنس به، ويمارحه، ويحضره خلواته، ثم أخذنا في شأننا. فبينما نحن على حالة سارة، إذ رفع الستر، فإذا عبد الملك بن صالح الهاشمي قد أقبل، وغلط الحاجب، فلم يفرق بينه



وبين عبد الملك الذي يأنس به جعفر.

وكان عبد الملك هذا من جلاله القدر والتكشف، على حالة معروفة، حتى إنه كان يمتنع من مناداة الخليفة، على اجتهاد من الخليفة أن يشرف معه قدحاً واحداً، فلم يفعل، ترفعاً.

فلما رأيناه مقبلاً، أقبل كل واحد منا ينظر إلى صاحبه، وكاد جعفر أن تنشق مرارته غيظاً. وفهم الرجل حالنا، فأقبل نحونا، حتى صار إلى الرواق الذي نحن فيه، فترع قلنسوته، فرمى بها مع طيلسانه جانباً، ثم قال: أطعمونا شيئاً.

فدعا له جعفر بطعام، وهو منفوخ غيظاً وغضباً، فأكل، ثم دعا برطل فشربه.

ثم أقبل إلى المجلس الذي كنا فيه، فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال: أشركونا فيما أنتم فيه.

فقال له جعفر: ادخل، فدخل فدعا له بقميص حرير وخلوق، فلبس، وتخلق، ثم دعا برطل، ورطل حتى شرب ثلاثة أرطال، ثم اندفع يغنينا، فكان - والله - أحسننا غناءً.

فلما طابت نفس جعفر، وسري عنه ما كان به، التفت إليه، وقال: ارفع حوائجك.

فقال: ليس هذا موضع حوائج.

فقال: أقسم عليك، لتفعلن.

ولم يزل يلح عليه حتى قال له: أمير المؤمنين واجد علي كما قد علمت، فأحب أن ترضاه.

قال: فإن أمير المؤمنين قد رضي عنك، فهات حوائجك، كما أقول لك.

قال: علي دين فادح.

قال: كم مبلغه؟ قال: أربعة آلاف ألف درهم.

قال: هذه أربعة آلاف ألف درهم، فإن أحببت قبضها، قبضتها الساعة، فإنه لا يمنعني من أعطائك إياها، إلا أن

قدرك يجمل عندي أن يصلك مثلي، ولكني ضامن لها، حتى تحمل لك في غد، من مال أمير المؤمنين، فسل أيضاً.

قال: تكلم أمير المؤمنين حتى ينوه باسم ابني.

قال: وياه أمير المؤمنين مصر، وزجه ابنته الغالية، ومهرها عنه ألفي ألف درهم.

قال إسحاق: فقلت في نفسي، قد سكر الرجل - يعني جعفر - .

فلما أصبحنا، حضرت دار الرشيد، فإذا بجعفر بين يديه، ووجدت في الدار جلبة، فإذا بأبي يوسف القاضي ونظرائه،

وقد دعي بهم، ثم دعي بعبد الملك وابنه، فدخلا على الرشيد.

فقال الرشيد لعبد الملك: إن أمير المؤمنين كان واجداً عليك، وقد رضي عنك، وأمر لك بأربعة آلاف ألف درهم،

فخذها من جعفر الساعة.

ثم دعا بابنه، وقال: اشهلوا علي أنني قد زوجته ابنتي الغالية، ومهرتها عنه ألفي ألف درهم، ووليته مصر.

فلما خرج جعفر سألته عن الخبر، فقال: بكرت إلى دار الرشيد، فحكيت له جميع ما جرى حرفاً حرفاً، ووصفت له

دخول عبد الملك وما صنع، فعجب منه، وسر به.

فقلت له: وقد ضمننت له عن أمير المؤمنين ضماناً.

فقال: ما هو؟ فأعلمته.

فقال: نفي له بضمانك، وأمر بإحضاره، فكان ما رأيت؟.

جعفر البرمكي

أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ١٥٠ - ١٨٧: وزير الرشيد، أحد مشهوري البرامكة ومقدميهم، كان الرشيد يدعوه: أخي، واستوزره، وألق إليه أزمة الملك، فانقادت له الدولة، ثم قتله وأحرق جثته. وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق، وبلاغة القول، وكرم اليد والنفس، وكان كاتباً بليغاً، يتدارس الكتاب تواقيعه الأعلام ٢ - ١٢٦.

حلف إسحاق الموصلبي بالله الذي لا إله إلا هو، ما رأيت أذكى من جعفر بن يحيى قط، ولا أظن، ولا أعلم بكل شيء، ولا أفصح لساناً، ولا أبلغ في المكاتبة الأغاني ٤ - ٣٢٥ وقال ثمامة بن أشرس: ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى البرمكي تاريخ الخلفاء ٣٢٦ وقال إبراهيم بن المهدي: ما رأيت أكمل من جعفر قط الأوراق للصولي، أشعار أولاد الخلفاء ٣٤ والعقد الفريد ٢ - ٤٢٥.

قتل الرشيد جعفرًا في السنة ٢٨٧ بالأندلس، وهما قادمان من مكة في آخر شهر محرم، أمر، فأحيط بجعفر ليلاً، ودخل عليه مسرور وهو في هوه، فأخرجه إخراجاً عنيفاً، يقوده، حتى أتى به المنزل الذي فيه الرشيد، وقيد به قيد حمار، ثم ضرب عنقه الطبري ٨ - ٢٩٥، وكان قتله وهو ابن ٣٧ سنة، بعد أن استمرت وزارة البرامكة للرشيد ١٧ سنة الطبري ٨ - ٣٠٠.

وذكر الصولي في كتابه الأوراق، أشعار أولاد الخلفاء ص ٥٧: أن علياً، أخت الرشيد، قالت له، بعد إيقاعه بالبرامكة: ما رأيت لك يوم سرور تاماً، منذ قتلت جعفرًا، فلا شيء قتلته؟ فقال: يا حياتي، لو علمت أن قميصي يعلم السبب الذي قتلت له جعفرًا، لأحرقته.

وفي العقد الفريد، لابن عبد ربه ٥ - ٦١: إن الرشيد، لما قتل جعفرًا، أمر بجثته ففصلت على ثلاثة جنوع، رأسه في جذع على الجسر، مستقبل الصراة، وبعض جسده على جذع بالجزيرة، وسائر جسده على جذع على آخر الجسر الثاني مما يلي باب بغداد، فلما دنا الرشيد من باب بغداد، استقبله وجه جعفر مستقبلاً الشمس، فأربد وجه الرشيد، وأغضى بصره، وأمر بالنضاحات، فنضح عليه، حتى احترق عن آخره.

### الرشيد يرضى عن فرج الرخجي ويعيده إلى عمالة الأهواز

ذكر ابن عبلوس في كتابه الوزراء، قال: كان الرشيد قد قلد فرجاً الرخجي الأهواز، فاتصلت السعديات به عنده، وكثرت الشكايات منه، وتظلم الرعية، وادعي عليه أنه اقتطع مالا عظيماً، فصرفه بمحمد بن أبان الأنباري وقبض عليه.

وحدث للرشيد سفر، فأشخصه معه، فلما كان في بعض الطريق دعا به، فقال مطر بن سعيد، كاتب فرج: فلما أمر بإحضاره، حضر وأنا معه، ولست أشك في الإيقاع به، وإزالة نعمته، فوقفت بباب مضرب الرشيد، ودخل فرج، ونحن نتوقعه أن يخرج منكوباً، إذ خرج وعليه الخلع، فتضاعفت النعمة عندي، وسرت معه إلى منزله.

فلما خلا سألته عن خبره، فقال: دخلت عليه ووجهه إلى الحائط، وظهره إلي، فلما أحس بي، شتمني أقبح شتم، وتوعدني أشد توعد.

ثم قال: يا ابن الفاعلة، رفعتك فوق قدرك، وائتمتلك، فحنتني، وسرقت مالي، وفعلت، وصنعت، والله، لأفعلن بك، ولأصنعن.

فلما سكت، قلت: القول ما قاله أمير المؤمنين في إنعامه، وأكثر منه، وحلفت له بأيمان البيعة وغيرها، أي ناصحت

وما سرقت، ووفرت وما خنت، واستقصيت حقوقه من غير ظلم، ولكني كنت إذا حضر وقت الغلات، جمعت النجار وناديت عليها، فإذا تقررت العطايا أفذت البيع، وجعلت لي مع التجار حصّة، فرمما رجحت، وربما وضعت، إلى أن اجتمع لي من ذلك وغيره، في عدة سنين، عشرون ألف ألف درهم، فاتخذت أزجاً كبيراً، وأودعته المال، وسدته عليه فخذها، وحول وجهك إلى عبدك، وكررت عليه الأيمان، بأيمان البيعة على صدقي.

فقال لي: بارك الله لك في مالك، ارجع إلى عملك.

بين ثمامة بن أشرس والفضل بن سهل وزير المأمون

وذكر ابن عبدوس أيضاً في كتاب الوزراء، عن ثمامة بن أشرس، أنه قال: اجتمع الناس، وجلس لهم الفضل بن سهل، على فرش مرتفعة، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبي فصلى عليه، ثم ابتداءً بالوقية في عبد الله بن مالك الخزاعي، وذكر أنه كان يدعي على الرشيد - في حكاية حكاها - دخول بيت القيان، وهو كاذب في ذلك، وهو الذي كان يفعل هذا الفعل، ويدخل المواخير والساكر، ولا يرفع نفسه عن ذلك، ولا يصون عرضه. قال ثمامة: ثم أقبل علي، فقال: وإن أبا معن، ليعلم ذلك، ويعرف صحة ما أقول، فتركت تشييع كلامه بالتصديق، وأطرت إلى الأرض، ودخلتني عصبية العربية لابن مالك.

ثم عاد إلى تمجيد عبد الله، والتوسع في الدعوى عليه، ثم أقبل علي ثانية، وقال: إن ثمامة ليعرف ذلك، فسكت، وأطرت، وإنما كان يريد مني تشييع كلامه بالتصديق.

فلما رأى إعراضي عن مساعدته ترك الإقبال علي، وأخذ في خطبته، حتى فرغ من أربه في أمر عبد الله بن مالك.

فلما تفرق الناس عنه، وانصرفت، علمت أنني قد تعرضت لموجدة الفضل، وهو الوزير، وحالي عنده حالي.

فلما حصلت في منزلي، جاءني بعض إخواني ممن كان في ناحية الفضل، فأخبرني أن يحيى بن عبد الله، وغيره، قالوا: ماذا صنع أبو معن، يخاطبه الوزير، فيعرض عنه مرة بعد أخرى.

فقلت: أنا والله، بالموجدة عليه - أعزه الله - أحق، لأنه قام في ذلك الجمع، وقد حضر كل شريف ومشروف، فلم يستشهد بي في خطبته، وما أجراه في كلامه، إلا في موضع ريبة، أو ذكر نبوة، ودار مقين ومغنية، وما أقدر أن أشهد إلا أن أكون مع القوم ثالثاً.

فقالوا: صدقت - والله - يا أبا معن، بتس الموضوع وضعك.

فرجع كلامي إليه، فقال: صدق والله ثمامة، وهو بالمعينة أحق.

واندفعت عني موجدته، وما كان بي إلا ما داخلني من الحمية لعبد الله بن مالك.

### بين الأمين وإبراهيم بن المهدي

أخبرني أبو الفرج الأموي الأصبهاني، قال: أخبرني محمد بن خلف ابن المرزبان، قال: حدثنا حماد بن إسحاق، عن أبيه، ووجدت في بعض الكتب بإسناد غير هذا، ليس لي بسماع، فجمعت بني الخبرين، على أتم اللفظ، قال: جرى بين الأمين، وبين عمه إبراهيم بن المهدي، كلام، وهما على النييد، فوجد الأمين على إبراهيم، وبانت لإبراهيم الوحشة منه، فانصرف إبراهيم إلى منزله قلقاً، وحجبه الأمين عنه.

وبلغ إبراهيم ذلك، فبعث إلى الأمين بالطفاف، ورقعة يعتذر فيها، فرد الأمين الهدية، ولم يجب إبراهيم عن الرقعة. فوجه إبراهيم إليه وصيفة مليحة مغنية، كان رباها، وعلمها الغناء، وبعث معها عوداً معمولاً من العود الهندي،

مكلاً بالجوهر، وألبسها حلة منسوجة بالذهب، وقال أبياتاً، وغنى فيها، وألقى عليها الأبيات حتى حفظتها، وأخذت الصوت، وأحكمت الصنعة فيه.

فوقفت الجارية بين يدي الأمين، وقالت: عمك وعبدك، يقول.. واندفعت تعني:

هتكت الضمير برد اللطف... وكشفت هجرتك لي فانكشف

فإن كنت تنكر شيئاً جرى... فهب للعمومة ما قد سلف

وجد لي بالصّح عن زلّتي... فبالفضل يأخذ أهل الشرف

فقال لها الأمين: أحسنت يا صبية، ما اسمك؟ قالت: هدية.

قال: أفأنت كاسمك، أم عارية؟ قال: أنا كاسمي، وبه سماني آنفاً، لما أهداني إلى أمير المؤمنين.

فسر بها الأمين، وبعث إلى إبراهيم، فأحضره، ورضي عنه، وأمر له بخمسين ألف دينار.

وال مستعطف خير من وال مستأنف

ووقف أحمد بن عروة بين يدي المأمون، لما عزله عن الأهواز، فقال له: أخرجت البلاد، وقتلت العباد، لأفعلن بك وأصنعن.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما تحب أن يفعله الله بك إذا وقفت بين يديه، وقد قرعك بذنوبك؟

قال: العفو، والصفح.

قال: فافعل بعبدك، ما تحب أن يفعله الله بك.

قال: قد فعلت، ارجع إلى عملك، فول مستعطف، خير من وال مستأنف.

والله يحب المحسنين

روي أن غلاماً للحسن بن علي عليهما السلام، جنى جناية توجب العقاب، فقال: اضربوه.

فقال: يا مولاي، والكاذمين الغيظ، قال: خلوا عنه، قال: يا مولاي، والعافين عن الناس.

قال: قد عفوت عنك.

قال: والله يحب المحسنين.

قال: أنت حر لوجه الله تعالى، ولك ضعف ما كنت أعطيك.

عبد الملك بن مروان يسقط حداً من حدود الله تعالى

حكى الأصمعي، قال: أتى عبد الملك بن مروان، برجل قد قامت عليه البينة بسرقة يقطع في مثلها، فأمر بقطع يده.

فأنشأ الرجل يقول:

يدي يا أمير المؤمنين أعيدها... بعفوك من عار عليها يشينها

فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها... إذا ما شمال فارقتها يمينها

فقال: هذا حد من حدود الله تعالى، ولا بد من إقامته عليك.

فقال: أم له كبيرة السن: يا أمير المؤمنين، كادي، وكاسبي، وابني، وواحدي، فهبه لي.

فقال لها: بنس الكاد كادك، وبنس الكاسب كاسبك، لا بد من إقامة حدود الله عز وجل.

فقال: يا أمير المؤمنين، اجعله من ذنوبك التي تستغفر الله منها.

فقال: خلوه، فأطلق.

ومن العناء رياضة الهرم

وذكر ابن عبلوس في كتاب الوزراء، أن عاملاً للمنصور على فلسطين كتب إليه: أن بعض أهلها وثب عليه، واستغوى جماعة منهم، وعاث في العمل. فكتب إليه المنصور: أن قيده، وأنفذه إلي، فأفذه.

فلما مثل بين يديه، قال المنصور: أنت الموثب على عامل أمير المؤمنين، لأبرين لحمك من عظمك، وكان شيخاً كبيراً، ضئيل الصوت، فقال:

أتروض عرسك بعدما هرمت ... ومن العناء رياضة الهرم  
فلم يفهم المنصور ما قال، فقال: ما يقول يا ربيع؟ قال: إنه يقول:  
العبد عبدكم والمال مالكم ... فهل عذابك عني اليوم مصروف  
قال: يا ربيع قد عفوت عنه، خلوا سبيله، وأحسن إليه.

### أول مائة ألف أعطيها شاعر في أيام بني العباس

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني قال: أخبرني حبيب بن نصر المهلبي، قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد، قال: حدثني عبد الله بن محمد بن موسى، قال: حدثني محمد بن موسى بن حمزة، قال: أخبرني الفضل بن الربيع، قال: رأيت مروان بن أبي حفصة، وقد دخل على المهدي، بعد وفاة معن بن زائدة، في جماعة من الشعراء منهم سلم الخاسر، وغيره، فأنشده مديحاً فيه.

فقال له: من أنت؟ قال: شاعرك يا أمير المؤمنين، وعبدك، مروان بن أبي حفصة.  
فقال له المهدي: ألسنت القائل في معن بن زائدة:  
أقمنا باليمامة بعد معن ... مقاماً لا نريد به زوالاً  
وقلنا أين نذهب بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالاً  
فقد ذهب النوال كما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا، جروا برجله، فجروا برجله حتى أخرج.

فلما كان في العام المقبل، تلتطف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء، تدخل على الخلفاء في كل عام مرة، فمثل بين يديه، فأنشده، رابع أو خامس شاعر، قصيدته التي أولها:  
طرقتك زائرة فحيّ خيالها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالها  
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوب إلى الصبا فأمالها  
قال: فأنصت المهدي يستمع منه، إلى أن بلغ منها إلى قوله:  
هل تطمسون من المساء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها  
أو تجحدون مقالة عن ربّه ... جبريل بلغها النبي فقأها  
شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتم إبطالها  
قال: فرأيت المهدي، وقد زحف من صدر مصلاه، حتى صار على البساط، إعجاباً منه بما سمع.  
ثم قال: كم بيت هي؟ قال: مائة بيت.  
فأمر له بمائة ألف درهم، فكانت أول مائة ألف أعطيها شاعر في أيام بني العباس.

ومضت الأيام، ولي هارون الخلافة، فرأيت مروان وقد دخل في جملة الشعراء، فأنشده قصيدة امتدحه بها.

فقال له: من أنت؟ قال: عبدك، وشاعرك، مروان بن أبي حفصة.

فقال: ألسنت القائل في معنى؟ وأنشده البيتين اللذين أنشدهما المهدي.

ثم قال: خلوا بيده فأخرجوه، فلا شيء له عندنا، فأخرج أقيح إخراج.

فلما كان بعد أيام، تلتطف حتى دخل، فأنشده:

لعمرك ما أنسى غداة المحصّب ... إشارة سلمى بالبنان المخضّب

وقد صدر الحجاج إلّا أقلّهم ... مصادر شتّى موكباً بعد موكب

قال: فأعجبت القصيدة، فقال: كم هي؟ قال: سبعون بيتاً، فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً.

فصار ذلك رسماً له عندهم إلى أن مات.

الرشيد يرضى عن العتابي الشاعر

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: أخبرني الحسن بن علي، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه، قال: حدثنا عبد

الله بن أبي سعد، قال: غضب الرشيد على العتابي، وحجبه، فدخل سراً مع المتظلمين، بغير إذن، فمثل بين يدي

الرشيد، فقال له: يا أمير المؤمنين، قد أدبني الناس لك، ولنفسى فيك، وردني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع ذكرك

قناعة بأحد غيرك، ولعمري لنعم الصائن كنت لنفسى، لو أعانني الصبر عليك، ولذلك أقول:

أحضني المقام الغمر إن كان غرّني ... سنا خلّب أو زلّت القدمان

أتركني جذب المعيشة مقترراً ... وكفّاك من ماء التدى يكفان

وتجعلني سهم المطامع بعدما ... بللت يميني بالتدى ولساني

قال: فرضي عنه، وخلع عليه، وأمر له بجائزة سنوية، فما رأيت العتابي أنشط منه في ذلك اليوم، ولا أفرح، ولا

أبسط لساناً منه يومئذ.

قال أبو الفرج الأصبهاني: في البيتين الأولين غناء لمخارق، ثاني تهليل بالوسطى، وقيل إن فيه للواتق ثاني تهليل آخر.

المأمون يصفح عن دعبل الخراعي الشاعر ويصله

قرىء على أبي بكر الصولي، سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، بالبصرة، وأنا أسمع: حدثكم هرون بن عبد الله المهلبى،

سنة ثمانين ومائتين، قال: لما هجا دعبل، المأمون، قال لهم: أسمعوني ما قال، فأنشده هذين البيتين من أبيات، وهما:

إني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول حمولة ... واستنقنوك من الحضيض الأوهده.

فقال المأمون: قبحه الله، ما أبهته، متى كنت حامل الذكر، وفي حجر الخلافة ربيت، وبدرها غذيت، خليفة، وأخو

خليفة، وابن خليفة.

ثم جد في طلب دعبل، حتى ظفر به، فلم يشك أحد في أنه قاتله.

فلما دخل عليه، قال له: يا دعبل، واستنقنوك من الحضيض الأوهده.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد عفوت عمن هو أعظم مني جرماً.

فقال: صدقت، لا بأس عليك، أنشدني مدارس آيات.

فقال: أنسلها وأنا آمن؟ قال: نعم.

فأنشده إياها، فجعل المأمون يبكي، لما بلغ قوله:

بنات زياد في القصور مصونة ... و بنت رسول الله في الفلوات  
ثم وصله وأمنه.

المأمون يهب عمرو بن مسعدة ستة آلاف ألف درهم فيهبها عمرو لأحد أتباعه

قرىء على أبي بكر الصولي، وأنا أسمع، في كتابه كتاب الوزراء، حدثكم أحمد بن إسماعيل، قال: حدثني سعد بن يعقوب النصراني، قال: أمر المأمون محمد بن يزيد، وأحمد بن أبي خالد، أن يناظرا عمرو ابن مسعدة، في مال الأهواز، فناظراه، فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم، فأعلمنا المأمون بذلك. فقال: اقبلا منه كل حجة، وكل تعلق، وكل ادعاء. فقالا: قد فعلنا.

فقال: عودا. فعادا، فتعلق عمرو بن مسعدة بأشياء لا أصل لها، فسقط من المال عشرة آلاف ألف درهم، وبقي ستة آلاف ألف درهم واجبة عليه، لا حجة له فيها، وأخذ خطه بذلك. فأحضر المأمون عمراً، بعد خروجهما، فقال له: هذه رقعتك؟ قال: نعم. قال: وهذا المال واجب عليك؟ قال: نعم. قال: خذ رقعتك، فقد وهبته لك.

فقال: أما إذ تفضل أمير المؤمنين علي به، فإنه واجب على أحمد بن عروة، وأشهدك أني قد وهبته له. فاغتاظ المأمون، وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون، وعلم خطأه في عمله، فلجأ إلى أحمد بن أبي خالد، فأعلمه بذلك، وكان يختصه.

فقال: لا عليك، ودخل إلى المأمون.

فلما رآه المأمون، قال: ألا تعجب يا أحمد من عمرو، وهبنا له ستة آلاف ألف درهم، بعد أن تجاوزنا له عن أضعافها، فوهبها بين يدي لأحمد بن عروة، كأنه أراد أن يباريني، ويصغر معروفي؟ فقال له أحمد: أو قد فعل ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم. قال: لو لم يفعل هذا، لوجب أن يسقط حاله.

قال: وكيف؟ قال: لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة، وأخذ أحمد بأداء هذا المال، لكان قد أخرج من معروفك صفراً، ولما كانت نعمتك على عمرو، ونعمة على أحمد، وهما خادمك، فكان الأجل أن يتضاعف معروفك عندهما، فقصد عمرو ذلك، فصار المال تفضلاً منك على عمرو، وعلى أحمد بن عروة، ومع ذلك، فأنت سيد عمرو لا يعرف سيداً غيرك، وعمرو سيد أحمد، فاقتدى في أمر أحمد بما فعلت في أمره، وأراد أيضاً أن ينتشر في ملوك الأمم، أن خادماً من خدمك اتسع قلبه هبة هذا المال، من فضل إحسانك إليه، فيزيد في جلالته الدولة، وجماله قيمتها، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك.

فسري عن المأمون، وزال ما بقلبه على عمرو.

المأمون يصفح عن الفضل بن الربيع

وقرىء على أبي بكر الصولي، بالبصرة، وأنا أسمع، في كتاب الوزراء، خبر فيه ذكر الفضل بن الربيع، وظفر المأمون به، وعفوه عنه، وقرىء بعقبه: حدثكم عون بن محمد، قال: حدثنا سعيد بن هريم، قال: لما ظفر المأمون بالفضل بن الربيع، ومثل بين يديه، قال له: يا فضل، أكان من حقي عليك، وحق آباتي، ونعمتهم عندك، وعند أبيك، أن

تذليبي، وتشتمني، وتحرض على دمي؟ أتحب أن أفعل بك مع القدرة، ما أردته بي؟  
فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين، إن عذري يحقدك إذا كان واضحاً جميلاً، فكيف إذا عففته العيوب، وقبحته الذنوب، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منه، فأنت - والله - يا أمير المؤمنين، كما قال الشاعر:  
صفوح عن الإجمام حتى كأنه ... من العفو لم يعرف من الناس مجرماً

وليس يبالي أن يكون به الأذى ... إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلماً  
قال الصولي: والشعر للحسن بن رجاء.

### جعفر بن محمد بن الأشعث يهدئ من غضب الرشيد

غضب الرشيد على جعفر بن محمد بن الأشعث، غضباً شديداً، من كلام جرى بينهما، فخاف جعفر أن يستفزه الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما تغضب لله عز وجل، فلا تغضب له بما لا يغضب به لنفسه، فانعطف له الرشيد. بين هشام بن عبد الملك وإبراهيم بن أبي عبلة  
أحضر هشام بن عبد الملك، إبراهيم بن أبي عبلة، الذي تقلد ديوان الخاتم لمروان بن محمد، فقال له: إنا قد عرفناك صغيراً، وخبرناك كبيراً، وأريد أن أحطك بحاشيتي، وقد وليتك خراج مصر، فاخرج إليها.  
فأبى إبراهيم عليه، وقال له: ليس الخراج من عملي، ولا لي به معرفة.  
فغضب هشام عليه غضباً شديداً، حتى خاف إبراهيم بادرته، فقال له: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في الكلام.  
فقال: قل.

قال: إن الله تعالى، قال: إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، فوالله ما أكرهها، ولا غضب عليها في إبانها، ولقد ذم الإنسان لما قبلها.

فقال له هشام: أبيت إلا رفقا، وأعفاه، ورضي عنه.

صاحب ديوان الخراج يسرق توقيع الخليفة من يد الرسول

استسلف موسى بن عبد الملك من بيت مال الخاصة، مالا، إلى أجل قريب، وضمن للمتوكل أن يرده في الأجل. فجاء الأجل ولم يحمل المال، فغضب المتوكل من مدافعته، وقال لعبيد الله ابن يحيى بن خاقان، وقع إليه عني برد المال اليوم، وضيق عليه في المطالبة، وأنفذ التوقيع مع عتاب بن عتاب، ومره أن يطالبه، فإن أصر أداء المال، طالبه، وضربه بالمقارع في ديوان الخراج بحضرة الناس، وأن لا يرفع عنه المقارع، حتى يصحح المال.  
فبادر بعض الخدم إلى موسى، فأخبره بذلك، فجلس ينظر في وجوه يرد منها المال.

وصار إليه عتاب بالتوقيع محتوماً، وكان يوماً شديداً الحر، وقد انتصف النهار، وموسى في خيش، في حجرة من ديوانه، وفيه مروحة، يتناولها فراشان يروحانه، فدخل عتاب، وفي يد موسى كتاب طويل يقرأه، فجلس، وأكب موسى على الكتاب يتشاغل به عن خطاب عتاب، وأصاب عتاب برد المروحة والخيش، فنام واستقل.  
وكان عتاب قد أخرج التوقيع حين جلس، فوضعه على دواة موسى، فغمز موسى بعض غلمانة فأخذ الكتاب فغيبه.

وما زال عتاب ينام مرة وينتبه أخرى، وموسى يعمل، إلى أن انقضت الهاجرة، وقد توجه لموسى بعض المال، وأنفذ أصحابه لقبضه.



فقال له عتاب: انظر فيما جننا له.

قال: قل أصلحك الله فيم جئت؟ قال: فيما تضمن التوقيع.

قال: وأي توقيع؟ قال: الذي أوصلته إليك من أمير المؤمنين.

قال: متى؟ قال: الساعة وضعته على اللواة.

فقال له: قد نمت نومات، وأظن أنك رأيت في نومك شيئاً.

فطلب عتاب التوقيع، فلم يجده، فقال: سرق والله التوقيع، يا أصحاب الأخبار، اكتبوا.

فقال موسى: يا أصحاب الأخبار، اكتبوا، كذب فيما ادعاه، ما أوصل إلي توقيعاً، وأنتم حاضرون، فهل رأيتموه

أوصل إلي توقيعاً؟ قم فانظر لعلك يا أبا محمد ضيعت التوقيع في طريقك.

فانصرف عتاب إلى عبيد الله فأخبره بذلك.

فدخل عبيد الله إلى المتوكل، فحدثه، فضحك، وقال: أحضروا موسى الساعة، فحضر.

فقال له المتوكل: يا موسى، سرقت التوقيع من عتاب؟ قال: إي والله يا سيدي خمنت أن فيه مكروهاً، ونام عتاب

من قبل أن يوصله إلي، فأمرت من سرقه، وقد أعددت نصف المال، والساعة أهمله إلى صاحب بيت مال الخاصة،

وأحمل الباقي بعد خمسة أيام، وأتبع ذلك بتضرع.

فأنفذ المتوكل معه من قبض منه ذلك، وانصرف وقد رضي عنه.

صاحب الشرطة لا يصلح أن يكون نديماً للخليفة

دعا الواثق إسحاق بن إبراهيم المصعبي إلى منادته، فامتنع، فتلاحيا في ذلك، إلى أن تغير الواثق على إسحاق بن

إبراهيم، فأمر بحجبه عنه.

فكتب إليه إسحاق: يا أمير المؤمنين، لو أطلقتني الحشمة التي عقد بها لساني عن الانبساط لتغيره علي، لقلت: ما لي

فيما عقده علي قلب أمير المؤمنين ذنب، إذ كان يوقيني من امتهان العامة إياي.

فرمى الواثق كتابه إلى ابن أبي دؤاد.

فقال له ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين، ما علي من كانت هذه همته فيما يرد علي أمير المؤمنين عيب، وهو يجد من

إسحاق عوضاً في المنادمة، ولا يجد منه عوضاً في شرطته.

فرضي عنه الواثق، وأعفاه من المنادمة، ومنع من حجبه، وأجراه على رسمه، وعاد إلى ما كان عليه.

### الرشيد يرضى عن نصر بن مالك

لما عزل الرشيد نصر بن مالك، بسعي البرامكة، أمره أن يلزم بيته، ولا يخرج منه، فكتب إلى الرشيد: قد قبضني

سوء رأي أمير المؤمنين في، عن الاعتذار بحجة، أو نشر دلالة تنبئ بخلاف ما قرفت به عنده، فما أهندي إلى وجه

طلب الاعتذار، وما يجزأني على الإبانة عما لا أعلمه إلا حسن رأيه أعزه الله، واطلاعه على قلقي بضميره، فإني عبد

نعمته، وغذي إحسانه، إن أسبغا علي، وفي شكري لهما، وإن أزيلا عني، اعتضت منهما الرجوع إلى الحرمة، ولزوم

فائدة يتطول بها علي، من تطول علي أمير المؤمنين برد ميراثه من الخلافة عليه.

فوقع الرشيد على ظهر رقعته: نصر بن مالك، أولى من ردت عليه النعمة، إذ كان معترفاً بسمتها، وبالغاً بالشكر

حق قيمتها، فما شكركني أحد من أوليائي كشكره، فليهنه ما أوليناه من رأينا، ومنحناه من برنا. وأظهر الرضا عنه،

وولاه ولاية أخرجته إليها.

بين الحجاج ويوسف بن عبد الله بن عثمان

ذكر أبو الحسن المدائني في كتابه، عن ابن أبي عقبة، عن أبيه، قال: لما أمن الحجاج الناس، أتاه يوسف بن عبد الله بن عثمان، وكان عبد الملك ابن مروان قد كتب له أماناً.

فقال له الحجاج: ثكلتك أمك.

قال: وأبي مع أمي.

قال: أين ألتفتك الأرض بعدي؟ قال: ما قمت مقاماً، منذ لم ترني، أوسع من مقام قمته الساعة، إن الله استعملك علينا، فأبيننا، فأبي علينا، فعضاً عنه.

فقال الفرزدق في ذلك:

ولو لم ينل جبل الخليفة يوسفاً ... لمجّ نجيعاً من دم الجوف أحر

بين زياد وأحد قعدة الخوارج

وذكر المدائني في كتابه، قال: أرسل زياد إلى رجل من قعدة الخوارج، من بني تميم، فاستدعاه، فأناه خائفاً.

فقال له زياد: ما منعك من إتياني؟ فقال له: قدمت علينا، فقلت: لا أعدكم خيراً ولا شراً إلا وفيت به وأنجزته،

وقلت: من كف يده ولسانه لم أعرض له، فكففت يدي ولساني، وجلست في بيتي، فأمر له بصلة، فخرج والناس لا يشكون في أنه يقتله.

فقالوا له: ما قال لك الأمير؟ فقال: ما كلكم أستطيع أن أخبره بما كان بيننا، ولكني وصلت إلى رجل لا يملك

لنفسه ضراً ولا نفعاً، فرزق الله منه خيراً.

الحجاج يجس رجالاً لأنه شكاً إليه أخاه محمداً عامل اليمن

وذكر المدائني في كتابه، قال: قدم رجل من أهل اليمن، على الحجاج، يشكو أخاه، محمد بن يوسف، فصادف

الحجاج على المنبر، فقام إليه، فشكا أخاه محمداً، فأمر به الحجاج فحس.

فلما نزل عن المنبر، استدعاه وهو متغيظ عليه، فقال له: ما جرأك على أن ترفع على أخي؟ فقال له: أنا بالله، أعز من أخيك بك.

فقال الحجاج: خلوا سبيله.

الحجاج يأمر بتعذيب آزاد مرد

وذكر المدائني في كتابه، عن أبي المصرحي، وقد وجدته أنا، في غير موضع، عن المدائني، بما يقرب من هذه العبارة:

أخبرني محمد بن الحسن ابن المظفر، قال: أخبرني الحرمي، عن الزبير، قال: أمر الحجاج محمد بن المنتشر بن الأجدع

الهمداني، ابن أخي مسروق، أن يعذب آزاد مرد بن الفرند، فأخذه محمد.

فقال له آزاد مرد: أرى لك يا محمد، شرفاً، وديناً، وأنا من أهل بيت لا نعطي على الذل شيئاً، فارق بي، واستأن في.

فقال: أفعل.

فرفهه محمد، وأكرمه، فكان يؤدي إليه، في كل جمعة، ثلاثمائة ألف درهم.

فغضب الحجاج، وأمر معد، صاحب العذاب، أن يأخذه من محمد، فأخذه معد من محمد، فعذبه، ودق يديه ورجليه،

فلم يعطه شيئاً.

فقال محمد: فإني لأسير، بعد ثلاثة أيام، إذا به معترضاً على بغل، مدقوق اليد والرجل.  
فصاح بي: يا محمد.

فكرهت أن آتية، فيبلغ الحجاج، فأقع معه في مكروه، ثم تدمت أن لا أدنو منه، فدنوت.  
فقلت: حاجتك؟ فقال: إنك وليت مني مثل هذا، فأحسنت، ولي عند فلان مائة ألف درهم، فخذها منه برسالتني إليه.

فقلت: والله، لا أخذت منك شيئاً، وأنت على هذه الحال.

فقال: أما إذ أبيت، فاستمع مني، أحدثك حديثاً سمعته من أهل دينك، عن نبيك، سمعتهم يقولون، إنه قال: إذا أراد الله تعالى بالعباد خيراً، أمطرهم المطر في أوامه، واستعمل عليهم خيارهم، وجعل المال في سمحائهم، وإذا أراد بهم شراً، أمطرهم المطر في غير أوامه واستعمل عليهم شرارهم، ومول بخلائهم، ثم مضى.  
وأتيت منزلي، فما وضعت ثيابي حتى أتاني رسول الحجاج، وقد بلغه ما جرى. فخفته خوفاً شديداً، ووقعت في أمر عظيم، فأتيته وقد اخترط سيفه، وهو في حجره منتضى. فقال لي: ادن.  
فقلت: ما بي دنو، وفي حجر الأمير السيف.

فضحك، وقال: ما قال لك الخبيث؟ فقلت له: والله ما غششتك منذ استصحتني، ولا خبتك منذ ائتمنتني، ولا كذبتك منذ صدقتني، وأخبرته بما قال.

فلما أردت ذكر الرجل الذي عنده المال، صرف وجهه عني، وقال: لا تسمه، لقد سمع عدو الله الأحاديث، انصرف راشداً.

فانصرفت آمناً، وقد زال خوفي.

### قسوة الحجاج وظلمه

كان الحجاج بن يوسف الثقفي، قد جمع خلالاً قبيحة، ظاهرة، وباطنة، من دمامة الصورة، وقبح المنظر، وقساوة القلب، وشراسة الأخلاق، وغلظ الطبع، وقلة الدين، والإقدام على انتهاك حرمة الله تعالى، حتى حاصر مكة، وهزم الكعبة، ورمها بالمنجنيق، والنفط، والنار، وأباح الحرم، وسفك، وهتك، وقتل في مدة ولايته ألف ألف وستمائة ألف مسلم، ومات في حيوسه ثمانية عشر ألف إنسان، وكان لا يرجو عفو الله، ولا يتوقع خيره، وكأنه قد ضرب بينه وبين الرحمة والرأفة، بسور من فظاظة، وغلاظة، وقسوة العقد القريد للملك السعيد ١١٨.

وقد أوردنا في ترجمة الحجاج، في حاشية القصة ٦٧، العاهات التي ابتلي بها، فأدت به إلى السادية، ولذلك، فقد كان يتفنن في ابتكار أنواع العذاب، ويتلذذ بمشاهدة ضحاياه عند تعذيبهم، وكان يعذب بعضهم ويقتلهم بيده. فقد جيء له بابن القرية، فأمر به، فأمسكه رجال أربعة، حتى لا يستطيع حراكاً، ثم وضع الحجاج حربة في تندوعه، ودفعها، حتى خالطت جوفه، ثم خضخصها، وأخرجها، فأتبعها دم أسود، فقال الحجاج: هكذا تشخب أوداج الإبل، وفحص ابن القرية برجله، وشخص ببصره، وجعل الحجاج ينظر إليه، حتى قضى الأخبار الطوال ٢٢٢، ٢٢٣.

وأمر بأحد أسراه، فشد عليه القصب الفارسي، ثم سل عنه، حتى شرح بدنه، ثم نضح بالخل والملح، حتى مات الكامل للمبرد ٢ - ٢٠٧.

وجيء إليه بمحمد بن سعد بن أبي وقاص أسيراً، فظل يضرب رأسه بعضا كانت في يده، حتى أدماه، ثم أطعمه في أن يطلقه، وأطرق ملياً، كأنه يفكر، ثم قال لرجل من أهل الشام: اضرب لي مفرق رأسه، فضربه، فمال نصفه ها هنا، ونصفه ها هنا الطبري ٦ - ٣٧٩ والإمامة والسياسة ٢ - ٤١ و ٤٢ .

وحبس إبراهيم بن يزيد التيمي الزاهد، ومنع عنه الطعام، ثم أرسل عليه الكلاب تهشبه، حتى مات اللباب ١ - ١٩٠، ولما مات، رمى بجثته في الخندق، ولم يجراً أحد أن يدفنه، حتى مزقته الكلاب البصائر والذخائر م ٣ ق ١ ص ٣٠٤ .

وفي معركة الزاوية، إحدى المعارك مع ابن الأشعث، قتل الحجاج أحد عشر ألفاً، بالخديفة والمكر، فقد أمر مناديه: فصاح: لا أمان لقلان بن فلان، وسمى رجلاً، فقال العامة: قد آمن الناس، وحضروا، فأمر بهم فقتلوا ابن الأثير ٤ - ٤٦٩ .

ولما دخل البصرة، دخل الجامع، وجلس على المنبر، وأمر جنده بأخذ الأبواب وقال لهم: إذا رأيتوني وضعت عماتي عن رأسي، فضعوا سيوفكم، ثم بدأ خطبته، فحصبه الناس، فخلع عمته، ووضعها على ركبته، فجعلت السيف، تبری الرقاب وسالت الدماء إلى أبواب المسجد، وإلى السكك الإمامة والسياسة ٢ - ٢٥ و ٢٦ . وكان صغيراً في تصرفاته، حبس مالك بن أسماء بن خارجة، وضيع عليه كل أحواله، حتى كان يشاب له الماء الذي كان يشربه، بالرماد والملح، قال: لا، هات ماء السجن، فأتي به، وقد خلط بالملح والرماد، فسقيه الأغاني ١٧ - ٢٣١ .

وقبض على يزيد بن المهلب وعذبه، فكان يزيد يصير على العذاب، فقبل له: إنه رمي بنشابة، فثبت أصلها في ساقه، فلا يمسه شيء إلا صاح، فأمر أن يعذب بذلك، وأن يدهق ساقه، فلما فعل به ذلك، صاح، وسمعته أخته هند، وكانت عند الحجاج، فصاحت، فطلقها الحجاج وفيات الأعيان ٦ - ٢٩١ .

وبقدر ما كان الحجاج، قاسياً، متغطساً على الناس، كان ذليلاً أمام عبد الملك بن مروان، كتب إليه مرة: إن خليفة الله في أرضه، أكرم من رسوله إليهم.

وبلغه أن عبد الملك، عطس يوماً، فشتمته أصحابه، فرد عليهم، ودعا لهم، فكتب إليه: بلغني ما كان من عطاس أمير المؤمنين، ومن تشميت أصحابه له، وردده عليهم، فيا ليتني كنت معهم، فأفوز فوزاً عظيماً العقد الفريد ٥ - ٥٣ ، راجع ترجمة الحجاج في حاشية القصة ٦٧، ومبحثاً عن سياسته المالية المخربة في حاشية القصة ١٨٢ .

#### المأمون يرضى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلية

حدثني أبو الفرج الأصبهاني، قال: أخبرني محمد بن يزيد بن أبي الأزهر، والحسين بن يحيى، عن حماد بن إسحاق الموصلية، عن أبيه، قال أبو الفرج، وأخبرني يحيى بن علي بن يحيى المنجم، عن أبيه، عن إسحاق، قال: أقام المأمون بعد دخوله بغداد عشرين شهراً، ولم يسمع حرفاً من الأغاني، ثم كان أول من تغنى بحضرة أبو عيسى بن الرشيد أول مرة، ثم واطب على السماع مستتراً، متشبهاً بالرشيد في أول أمره، فأقام المأمون كذلك أربع سنين، ثم ظهر للندماء والمغنين.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلية: وكان حين أحب السماع، سألت عني، فخرجت بحضرتي، وقال الطاعن علي: ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلفاء، ما بقى هذا من التيه شيئاً إلا استعمله.

فأمسك عن ذكري، وجفاني من كان يصلني لسوء رأيه فيّ، فأضر ذلك بي، حتى جاءني علويه يوماً، فقال لي: أتأذن لي في ذكرك بحضرة المأمون، فإننا قد دعينا اليوم.

فقلت: لا، ولكن غنه بهذا الشعر، فإنه يبعثه على أن يسألك لمن هو؟ فإذا سألك انفتح لك ما تريده، وكان الجواب أسهل عليك من الابتداء.

قال: هات، فألقيت عليه لخي في شعري:

يا سرحة الماء قد سدّت موارده ... أما إليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتّى لا حيام به ... مشرّد عن طريق الماء مطرود

قال أبو الفرج الأصبهاني: والغناء فيه لإسحاق الموصلي، رمل بالوسطى، عنه، وعن عمرو بن بانه.

رجع الحديث، قال: فمضى علويه، فلما استقر به المجلس، غناه بالشعر، الذي أمره به إسحاق.

فقال المأمون: ويلك يا علويه، لمن هذا الشعر؟

فقال: يا سيدي لعبد من عبيدك، جفوته، واطرحته، من غير ذنب.

فقال: إسحاق تعني؟ قال: نعم.

فقال: يحضر الساعة.

قال إسحاق: فجاءني رسول المأمون، فصرت إليه، فلما دخلت إليه استدناني، فدنوت منه، فرفع يديه إلي مادهما،

فانكببت عليه، فاحتضني بيديه، وأظهر من بري وإكرامي، ما لو أظهره صديق مؤانس لصديق، لسر به.

وقد ذكر القاضي أبو الحسين هذا الخبر، في كتابه بغير إسناد، وبأقل من هذا الشرح، والمعنى متقارب.

/الباب الخامس

من خرج من حبس أو أسر

أو اعتقال إلى سراح وسلامة وصلاح حال

رسول الله يمين على هوازن

ويطلق له أسراهم ويرد عليهم ما غنم منهم

حدثنا الأمير أبو بكر محمد بن بدر، قال: حدثنا الأمير أبو النجم بدر الكبير المعروف بالحمامي، قال: حدثنا محمد بن

عبد الله العبسي الجشمي من قواد فلسطين، قال: حدثنا أبو عمر زياد بن طارق، قال: قال لي ابن الرماحي، وكانت

قد أتت عليه عشرون ومائة سنة، وهو يصعد بلقط التين، قال: سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمي، يقول:

أسرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ويوم هوازن، وذهب يفرق السبي، فقمتم، فأنشدته:

امن علينا رسول الله في كرم ... فإتلك المرء نرجوه وننتظر

امن على بيضة، قد عاقها قدر ... مفرّق شملها في دارها غير

أبقت لنا الحرب هيئاً على حزن ... على قلوبهم الغمّاء والغمر

إن لم تداركهم نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلماً حين يختبر

امن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها الدرر

إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يريك ما تأتي وما تذر

لا تجعلنا كمن شالت نعمته ... واستبق منا فإننا معشر زهر  
إننا لنشكر للنعماء إذ كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدّخر  
يا خير من مرحت كمت الجياد به ... عند الهياج إذا ما استوقد الشرر  
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمّهاتك إنّ العفو مشتهر

إنّا نؤمّل عفواً منك تلبسه ... هذي البريّة إذ تعفو وتتصر  
عفواً عفا الله عمّا أنت راهبه ... يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر  
قال: فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشعر، قال: ما كان لي ولبي عبد المطلب، فهو لكم.  
فقال قريش: ما كان لنا فهو لله ولرسوله.  
وقالت الأنصار: ما كان لنا فه لله ولرسوله.  
فأطلقهم جميعاً.

وحدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المعروف بالأثرم، المقرئ الحياط البغدادي، بالبصرة، قال: حدثنا أبو عمر أحمد بن  
عبد الجبار العطاردي، قال: حدثنا يونس بن بكير الشيباني، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني عمرو بن شعيب،  
عن أبيه، عن جده، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجنين، فلما أصاب من هوازن ما أصاب من  
أمواهم وسيايهم، أدركته هوازن بالجعرانة، وقد أسلموا.  
فقالوا: يا رسول الله، لنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامن علينا من الله عليك.  
وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إن ما في الحظائر من النساء، خالاتك، وعماتك، وحواضك  
اللاتي تكفلنك، ولو أنا مالخنا ابن أبي شمر، أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا مثل الذي أصابنا منك، رجونا عائدتكما،  
وعطفهما، وأنشد أبياتاً قالها.  
وذكر من الأبيات ثمانية، فقال في الأول: وندخر، وقال في الثاني: ممزق، وقال في الثالث، نهماً، وقال في السادس:  
نعامتهم، وقال في السابع: إنا لنشكر آلاء وإن كفرت.

#### الوزير القاسم يعتقل ثلاثة أمراء عباسيين

أخبرنا أبو بكر الصولي، قال: كان القاسم بن عبيد الله، قد تقدم عند وفاة المعتضد، إلى صاحب الشرطة مؤنس  
الخازن، أن يوجه إلى قصي بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتضد، وعبد الله بن المعتز، فيحبسهم في دار، ويوكل بهم،  
ففعل ذلك، وكانوا محبوسين خائفين، إلى أن قدم المكتفي ببغداد فعرّف خبرهم، فأمر بإطلاقهم، ووصل كل واحد  
منهم بألف دينار.  
قال: فحدثني عبد الله بن المعتز، قال: سهرت في الليلة التي في صبيحتها دخل المكتفي إلى بغداد، فلم أتم، خوفاً على  
نفسي، وقلقاً لوروده، فمرت بي في السحر طير، فصاحت، فتمنيت أن أكون مخلي مثلها، لما جرى علي من  
النكبات.

ثم فكرت في نعم الله تعالى علي، وما خارّه لي من الإسلام والقراية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أوّمله  
من البقاء الدائم في الآخرة فقلت:

يا نفس صبراً لعلّ الخير عقباك ... خاتك من بعد طول الأمان دنياك

مرّت بنا سحراً طيراً فقلت لها: ... طوباك يا ليتني إياك طوباك  
لكن هو الدهر فالقيه على حذر ... فربّ مثلك ينزو تحت أشراك  
البحثري وأبو معشر يؤصلان عند المعتز أصلاً

حدثني علي بن هشام بن عبد الله الكاتب، قال: حدثني أبو القاسم سليمان ابن الحسن بن مخلد، قال: لما أنفذ أبي إلى  
مصر، اجتذبت أبا عبادة البحتري، وأبا معشر المنجم، وكنت آنس بهما في وحدتي، وملازمتي البيت، فكانا أكثر  
الأوقات عندي، يجادثاني ويعاشراني.

فحدثاني يوماً: إنهما أضاقا إضاقاً شديدة، وكانا مصطحبين، فعن لهما أن يلقيا المعتز بالله، وهو محبوس، فيتوددان إليه  
ويؤصلان عنده أصلاً، فتوصلا إليه، حتى لقيه في حبسه.  
قال البحتري: فأنشدته أبياتي التي كنت قلتها في محمد بن يوسف الثغري، لما حبس، وخاطبت بها المعتز، كأني  
عملتها له في الحال، وهي:

جعلت فداك الدهر ليس بمفكّ ... من الحادث المشكّو والتّازل المشكي  
وما هذه الأيام إلا منازل ... فمن منزل رحب ومن منزل صنك  
وقد هدّبتك الحادثات وإتما ... صفا الذهب الإبريز قبلك بالسّيك  
أما في رسول الله يوسف أسوة ... لمثلك محبوساً على الظلم والإفك  
أقام جميل الصبر في السّجن برهة ... قال به الصّبر الجميل إلى الملك  
على أنه قد ضيم في حبسك العلي ... وأصبح عزّ الدّين في قبضة الشرك  
قال: فأخذ الرقعة التي فيها الأبيات، فدفعها إلى خادم كان واقفاً على رأسه، وقال له: احتفظ بهذه الرقعة، فإن فرج  
الله عني، فأذكرني بها، لأقضي حق هذا الرجل الحر.

وقال لي أبو معشر: وقد كنت أنا أخذت مولده، ووقت عقد له العهد، ووقت عقدت البيعة للمستعين بالخلافة،  
فظفرت في ذلك، وصححت الحكم للمعتز بالخلافة بعد فتنة تجري وحروب، وحكمت على المستعين بالقتل،  
فسلمت ذلك إلى المعتز، وانصرفنا.  
و ضرب الزمان ضربه، وصح الحكم بأسره.

قال أبو معشر: فدخلت أنا والبحتري جميعاً إلى المعتز، وهو خليفة، بعد خلع المستعين وتغريقه، فقال لي: لم أنسك،  
وقد صح حكمك، وقد أجريت لك في كل شهر مائة دينار، وثلاثين ديناراً نزلًا، وجعلتك رئيس المنجمين في دار  
الخلافة، وأمرت لك عاجلاً بإطلاق ألف دينار صلة، فقبضت ذلك كله في يومي.

وقال لي البحتري: وتقدمت أنا، فأنشدت المعتز قصيدة مدحته بها، وهنأته بالخلافة، وهجوت المستعين، أولها:  
يجانبا في الحبّ من لا نجانبه ... ويبعد عنا في الهوى من نقاربه  
فلما بلغت فيها إلى قولي، والمعتز يستمع:

فكيف رأيت الحقّ قرّ قراره ... وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه  
ولم يكن المغتّر بالله إذ سرى ... ليعجز والمعتزّ بالله طالبه  
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر ... وعري من برد التّبي مناكبه  
وقد سرّني أن قيل وجه غادياً ... إلى الشّرق تحدّى سفنه وركائبه

إلى واسط حيث الدجاج ولم تكن ... لتتشب إلا في الدجاج مخالبه  
فاستعادي هذه الأبيات مراراً، فأعلتُها عليه، فدعا الخادم الذي كان معه الحبس، وطلب منه الرقعة التي كت  
أنشدته الشعر الذي كان فيها، في حبسه، فأحضره إياها بعينها.  
فقال: قد أمرت لك بكل بيت منها بألف دينار، وكانت ستة أبيات، فأخذت ستة آلاف دينار.  
ثم قال لي: كأني بك، وقد بادرت، فاشتريت منها جارية، وغلاماً، وفرساً، وأتلفت المال، لا تفعل، فإن لك فيما  
تستأنفه معنا من أيامك، ومع وزرائنا وأسبابنا، إذا عرفوا موضعك عندنا، غناء عن ذلك، ولكن افعَل بهذا المال كما  
فعل ابن قيس الرقيات بالمال الذي أعطاه عبد الله بن جعفر، واشترى به ضيعة، فاشتر أنت أيضاً به ضيعة تنتفع  
بغلتها، ويبقى عليك وعلى ولدك أصلها.  
فقلت: السمع والطاعة، وخرجت فاشترت بالمال ضيعة جلييلة بمبنيح، ثم ارتفعت حالي معه وزادت.

### أبو سعيد النخري يعتقل ويعذب

قال مؤلف هذا الكتاب: وللبحتري في هذه الأبيات الكافية، خبر آخر حسن، نذكره لأنه أيضاً يدخل في هذا  
الباب، أخبرني أبو بكر الصولي إجازة، ونقلته من خطه، قال: حدثني أحمد بن إبراهيم القنوي، قال: طول أبو سعيد  
النخري، بمال، بعد غزواته المشهورة، وسلم إلى أبي الحسين النصراني الجهبذ ليستخرج منه المال، فجعل يعذبه فشق  
ذلك على المسلمين، وقالوا: يأخذ بثأر النصرانية.  
فقال البحتري:

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها ... والمسلمين وضيعة الإسلام  
طلبت ذحول الشرك في دار الهدى ... بين المداد وألسن الأقلام  
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه ... يجزى على الأيام بالأيام  
نامت بنو العباس عنه ولم تكن ... عنه أمية لو رعت بنيام  
فقرىء هذا الشعر على المتوكل، فأمر بإطلاق أبي سعيد، وتوليت، وأمر بإحضار قاتل الأبيات، فأحضر البحتري،  
واتصل به، فكان أول شعر أنشده، قوله في أبي سعيد:

جعلت فداك اللّهر ليس بمفكّ

وذكر الأبيات، إلا أنه قال في البيت الثالث، بدل الحادثات: النائبات، وقال في البيت الذي أوله:

على أنه قد ضيم في حبسك العلى ... وأضحى بك الإسلام في قبضة الشّرك

البحتري يهنيء إبراهيم بن المدبر

ومن محاسن شعر البحتري الذي يتعلق بهذا الباب، وإن كان تعلقاً ضعيفاً، إلا أن الشيء بالشيء يذكر، ولا سيما  
إذا قاربه، ما أخبرني به الصولي، إجازة، قال: ذكر إبراهيم بن المدبر، يوماً، البحتري، فقال: ما رأيت أتم طبعاً منه، ولا  
أحضر خاطراً، فقد مدحني حين تخلصت من الأسر، يعني أسر صاحب الزنج بالبصرة وذكر الضربة التي في وجهي،  
وتخلصني، ومدح المأسور شيء ما راعاه قبله أحد.

قال الصولي: والأبيات من قصيدة أولها:

قد كان طيفك مرّة يغرى بي



قال فيها:

لو آتته استقام التجارة لنفسه ... وجد التجارة رخيصة الأسباب

ومدينة شهد المنازل رسمها ... والحيل تكبو في العجاج الكبي  
كانت بوجهك دون عرضك دراة ... إن الوجوه تصان بالأحساب  
ولئن أسرت فما الإسار على امرئ ... لم يأل صدقاً في اللقاء بعاب  
نام المصلل عن سراك ولم يخف ... حرس الرقيب وقسوة البواب  
ورأى بأن الباب مذهبك الذي ... يخشى وهمك كان غير الباب  
قال ذلك لأنه نقب نقباً، وخرج منه.

فركبتها هولاً متى تخبر بما ... يقل الجبان أنيت غير صواب  
ما راعهم إلا امترائك مصلتاً ... عن مثل يرد الأرقم المنساب  
تحمي أغيلمة وطائشة الخطى ... تصل التلفت خشية الطلاب  
قال ذلك لأنه أخرج معه من الحبس امرأة، وأخرج ابن أخيه  
ما زال يوم ندى بطولك زاهراً ... حتى أضفت إليه يوم ضراب  
ذكر من البأس استعدت إلى الذي ... أعطيت في الأخلاق والآداب  
وروى غير الصولي، في البيت الذي قبل هذا الآخر:  
لم ترض يوم ندى بطولك...

يمنع ابن أبي سبرة علناً ويجيزه سراً

حدثنا أحمد بن عبد الله الوراق، من كتاب نسب قريش للزبير بن بكار، قال: حدثنا أحمد بن سليمان الطوسي، قال:  
حدثنا الزبير بن بكار، قال: أخبرني عمي مصعب بن عبد الله، وحدثني سعيد بن عمرو، جاء بهما الزبير خبرني  
مفردين فيهما تكرير وزيادة في أحدهما على الآخر، وأنا هنا أجمع بينهما، وأجعلهما سياقة واحدة، وأسقط التكرير،  
قال: كان أبو بكر محمد بن أبي سبرة بن أبي ريم بن عبد العزيز بن أبي قيس ابن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل  
بن عامر بن لؤي بن غالب بن نصر بن مالك بن النضر بن كنانة عاملاً لرياح بن عثمان، على مسعاة أسد وطبيء.  
فلما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام جاء بما صدق من المال إليه،  
ومبلغه أربعة وعشرون ألف دينار، فدفع ذلك إليه، فكانت قوة لمحمد.

فلما قتل عيسى بن موسى محمداً بالمدينة، قيل لأبي بكر: اهرب، قال: ليس مني يهرب، فأخذ أسيراً، فطرح في  
حبس المدينة، ولم يحدث عيسى بن موسى في أمره شيئاً غير حبسه، فأمر المنصور بتقييده، فقيده.

فقدم المدينة بعدما شخص عيسى بن موسى، عبد الله بن الربيع المدني ومعه جند، فعاثوا في المدينة وأفسلوا، فوثب  
عليه سودان المدينة والرعاع، فقتلوا جنده، وطردوهم، وانتهوهم، وانتهبوا عبد الله بن الربيع، فخرج حتى نزل  
بئر المطلب، يريد العراق، على خمسة أميال من المدينة.

وكبس السودان السجن، فأخرجوا أبا بكر.

وقال سعيد: فأخرج القرشيون أبا بكر، فحملوه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهى عن معصية أمير  
المؤمنين، وحث على طاعته.

وقيل له: صل بالناس.

فقال: إن الأسير لا يؤم، ورجع إلى محبسه.

فلما ولي المنصور، جعفر بن سليمان، على المدينة، قال له: بيننا وبين أبي بكر رحم، وقد أساء وأحسن، فإذا قلت المدينة، فأطلقه، وأحسن جواره.

وقال سعيد: فأمره بإطلاق ابن أبي سبرة، وأوصاه به، وقال: إن كان قد أساء فقد أحسن. فأطلقه جعفر.

فسأل جعفر أن يكتب له بوصاة إلى معن بن زائدة، وهو إذ ذاك على اليمن، فكتب له بوصاة إليه.

فلقي الربيعي، فقال: هل لك في الخروج معي إلى العمرة؟ فقال: أما والله، ما أخرجني من منزلي إلا طلب شيء لأهلي، فما تركت عندهم شيئاً، فأمر له ابن أبي سبرة بنفقة أنفذهما إلى عياله، وخرج معه.

فلما قضيا عمرتهما، قال للربيعي: هل لك أن تأتي معن بن زائدة؟ قال: نعم.

فأمر له بنفقة أنفذهما إلى عياله، وأخرجه معه، حتى قدما على معن بن زائدة.

فدخل عليه ابن أبي سبرة وحده، فدفع إليه كتاب جعفر بالرضا عنه، فلما قرأه، قال: كان جعفر أقدر على صلتك مني، انصرف، فليس لك عندي شيء، فانصرف مغموماً.

فلما انتصف النهار، أرسل إليه، فجاءه، فقال له: يا ابن أبي سبرة ما حملك على أن قدمت علي، وأمير المؤمنين عليك واجد؟ ثم سأله: كم دينك؟ قال: أربعة آلاف دينار.

فأعطاه أربعة آلاف دينار، وأعطاه ألفي دينار أخرى، وقال: أصلح بهذه أمرك.

فانصرف إلى منزله، فأخبر الربيعي، بما صنع معن معه، فراح الربيعي إلى معن، فأنشده:

الربيعي يقول في مدح ... لأبي الوليد أخي التدي الغمر

ملك بصنعاء الملوك له ... ما بين بيت الله والشحر

لو جاودته الريح مرسله ... لجرى بجود فوق ما تجري

حملت به أم مباركة ... وكأثها بالحمل لا تدري

فقال له معن: فكان ماذا ويحك؟ فقال:

حتى إذا ما تمّ تاسعها ... ولدته مولد ليلة القدر

فقال له معن: ثم ماذا ويحك؟ فقال:

فأتت به ييضاً أسرتة ... يرجي لحمل نواب الله

مسح القوابل وجهه فبدا ... كالبدل بل أهي من البدر

فنذرن حين رأين غرّته ... إن عاش أن يوفين بالتندر

لله صوماً شكر أنعمه ... والله أهل الحمد والشكر

فقال له معن: ثم ماذا؟ فقال:

فنشا بحمد الله حين نشا ... حسن المروءة نابه الذكر

فقال معن: ثم ماذا؟ فقال:

حتى إذا ما طرّ شاربه ... خضع الملوك لسيد بهر

فإذا وهي ثغر يقال له: ... يا معن أنت سداد ذا الثغر

فقال معن: أنا أبو الوليد، أعطوه ألف دينار.

فأخذها ورجع إلى ابن أبي سبرة، فخرجا جميعاً إلى مكة.

فقال ابن أبي سبرة: أما الأربعة آلاف دينار، فلقضاء ديني، وأما الألفان الفاضلة، فلك منها ألف.

قال الراعي: قد أعطاني ألف دينار، وهي تجزييني، فلا تضيق علي نفسك، في الألفي الدينار.

فقال له: أقسمت عليك لتأخذها، فأخذها، وأنفق عليه، حتى أتى المدينة.

ونعى الخبر إلى المنصور، فكتب إلى معن: ما حملك على أن أعطيت ابن أبي سبرة ما أعطيته، وقد علمت ما صنع؟

فكتب إليه معن: إن جعفر بن سليمان كتب إلي بوصيني به، ولم أظن أن جعفرًا يكتب في رجل لم يرض عنه أمير

المؤمنين.

فكتب المنصور إلى جعفر، يكتبه بذلك.

فكتب إليه جعفر: أنت، يا أمير المؤمنين أوصيتني به، ولم يكن في استيصائي به شيء أيسر من كتاب وصاة إلى معن.

بال في ثيابه خوفاً منه ثم بال على قبره

وجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي الخطي، عن أبي طالب الجعفري، أنه سمع رجلاً يحدث عن محمد بن الفضل

الجزرائي في وزارته للمعصم، قال: كنت أتولى ضياع عجيف، بكسكرك، فرفع علي أني خنته، وأخربت الضياع،

فأنفذ إلي من قيدي، وأدخلت عليه في داره بسر من رأى، على تلك الحال، فإذا هو يطوف على صناع فيها.

فلما نظر إلي شتمني، وقال: أخربت الضياع، ونهبت الارتفاع، والله لأقتلنك، هاتوا السياط.

فأحضرت، وشلحت للضرب.

فلما رأيت ذلك، ذهب علي أمري، وبلت على ساقبي.

فرآني كاتبه، فقال لعجيف: أعز الله الأمير، أنت مشغول القلب بهذا البناء، وضرب هذا وقتله في أيدينا، ليس

يفوت، فتأمر بحبسه، وانظر في أمره، فإن كانت الرفيعة صحيحة، فليس يفوتك عقابه، وإن كانت باطلة، لم تعجل

الإثم، وتنقطع عما أنت مهتم به.

فأمر بي إلى الحبس، فمكنت فيه أياماً.

وغزا أمير المؤمنين المعصم، عمورية، وكان من أمر عجيف ما كان، فقتله، واتصل الخبر بكاتبه، فأطلقني.

فخرجت من الحبس، وما أهتدي إلى حبة فضة، فما فوقها.

فقصدت صاحب الديوان بسر من رأى، وكان صديقي، فلما رأني سر بإطلاقي وتوجع لي من سوء حالي، وعرض

علي مالاً.

فقلت: بل تفضل بتصرفي في شيء أستتر بجاريه.

فقلدني عملاً بنواحي ديار ربيعة، فافترضت من التجار لما سمعوا بخبر ولايتي، ما تحملت به إلى العمل، وخرجت.

وكان في ضياع عملي، ضيعة تعرف بكرات، فنزلت بها في بعض طوافي بالعمل، وحصلت في دار منها، فلما كان

السحر، وجدت المستحم ضيقاً غير نظيف، فخرجت من الدار إلى تل في الصحراء، فجلست أبول عليه.

فخرج إلي صاحب الدار، فقال لي: أتدري على أي شيء تبول؟ قلت: على تل تراب.

فضحك، وقال: هذا قبر رجل يعرف بعجيف، قائد من قواد السلطان، كان قد سخط عليه، وحمله معه مقيداً، فلما

بلغ إلى ها هنا قتل، فطرح في هذا المكان تحت حائط، فلما انصرف العسكر، طرحنا عليه الحائط، لنواريه من

الكلاب، فهو - والله - تحت هذا التل التراب.

فعجبت من بولي خوفاً منه، ومن بولي على قبره.

## لقاء بين الجند الرومي النصراني والخفيد العربي المسلم

وروى ابن دريد عن أبي حاتم، عن أبي معمر، عن رجل من أهل الكوفة، قال: كنا مع مسلمة بن عبد الملك، ببلاد الروم، فسبا سبائاً كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعرض السبي على السيف، فقتل خلقاً، حتى عرض عليه شيخ كبير ضعيف، فأمر بقتله.

فقال له: ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلي؟ إن تركني حياً، جئتك بأسيرين من المسلمين شابين.

قال له: ومن لي بذلك؟ قال: إني إذا وعدت وفيت.

قال: لست أتق بك.

فقال له: دعني حتى أطوف في عسكرك، لعلني أعرف من يتكفل بي إلى أن أمضي وأعود أجيء بالأسيرين.

فوكل به من يطوف به، وأمره بالاحتفاظ به، فما زال الشيخ يطوف، ويتصفح الوجوه، حتى مر بفتى من بني كلاب، قائماً يحس فرسه.

فقال له: يا فتى، اضمني للأمير، وقص عليه قصته.

فقال: أفعل، وجاء الفتى إلى مسلمة، فضمنه، فأطلقه مسلمة.

فلما مضى، قال للفتى: أتعرفه؟ قال: لا، والله.

قال: فلم ضمنته؟ قال: رأيت يتصفح الوجوه، فاختراني من بينهم، فكرهت أن أخلف ظنه في.

فلما كان من الغد، عاد الشيخ، ومعه أسيران شابان من المسلمين، فسلمهما إلى مسلمة، وقال: إن رأى الأمير أن يأذن لهذا الفتى أن يصير معي إلى حصني لأكافئه على فعله.

فقال مسلمة للفتى الكلابي: إن شئت فامض معي.

فلما صار إلى حصنه، قال له: يا فتى، تعلم - والله - أنك ابني قال له: وكيف أكون ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت رجل من الروم نصراني.

فقال له: أخبرني عن أمك، ما هي؟ قال: رومية.

قال: فإني أصفها لك، فبالله إن صدقت، إلا صدقتني.

قال: أفعل.

فأقبل الرومي، يصف أم الفتى، ما حرم من صفتها شيئاً.

فقال له الفتى: هي كذلك، فكيف عرفت أبي ابنها؟ قال: بالشبه، وتعارف الأرواح، وصدق القراصة.

ثم أخرج إليه امرأة، فلما رآها الفتى لم يشك فيها أنها أمه، لتقارب الشبه، وخرجت معها عجوز كأنها هي، فأقبلتا تقبلان رأس الفتى، ويديه، وتترشفانه.

فقال له: هذه جدتك، وهذه خالتك.

ثم اطلع من حصنه، فدعا بشباب في الصحراء، فأقبلوا، بكلمهم بالرومية، فأقبلوا يقبلون رأس الفتى ويديه، فقال: هؤلاء أخوالك، وبنو خالاتك، وبنو عم والدتك.

ثم أخرج إليه حلياً كثيراً، وثياباً فاخرة، وقال: هذا لوالدتك منذ سبيت، فخذ معك، وادفعه إليها، فإنها ستعرفه، ثم أعطاه لنفسه ما لا كثيراً، وثياباً، وحلياً، وحمله على عدة دواب، وألحقه بعسكر مسلمة، وانصرف.

وأقبل الفتى قافلاً حتى دخل إلى منزله فأقبل يخرج الشيء بعد الشيء مما عرفه الشيخ أنه لأمه، وتراه أمه، فتيكي، فيقول لها: قد وهبته لك.

فلما كثر عليها، قالت له: يا بني، أسألك بالله، من أي بلد صارت إليكم هذه الثياب، وهل تصف لي أهل هذا الحصن الذي كان فيه هذا؟ فوصف لها الفتى صفة البلد والحصن، ووصف لها أمها وأختها، والرجال الذين رأهم، وهي تبكي وتقلق.

فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: الشيخ والله والدي، والعجوز أمي، وتلك أختي.

فقص عليها الخبر، وأخرج بقية ما كان أئذده معه أبوها إليها، فدفعه إليها.

### يحتال لإخراج أحد أصحابه من الحيس

حدثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق التنوخي، قال: كان إسماعيل الصفار البصري، أحد شيوخ المعتزلة الأجلاد، وكان الناس - إذ ذاك - يتشددون على المعتزلة، وينالونهم بالكاره. فتقلد البصرة نزار بن محمد الضبي، فرفع إليه عن رجل أنه معتزلي، فحبسه، فاستغاث الرجل بإسماعيل، فكلم غير واحد من رؤساء البلد، أن يكلم نزاراً فيه، فجنوا ذلك بسبب المذهب، فبات إسماعيل قلقاً. ثم بكر من غد، فطاف على كل معتزلي بالبصرة، وقال لهم: إن تم هذا عليكم هلتكم متفرقين، وحبستم، وأتي على أموالكم ونفوسكم، فاقبلوا مني، واجتمعوا، وتدبروا برأيي، فإن الرجل يتخلص وتعززون. فقالوا: لا نخالف عليك.

فوعدهم ليوم بعينه، ووعد معهم كل من يعرفه من العوام، وأصحاب المذاهب ممن يتبع قصاص المعتزلة، ومن يميل إليهم.

فلما كان ذلك اليوم، اجتمع له منهم أكثر من ألف رجل، فصار بهم إلى نزار، واستأذن عليه، فأذن له ولهم.

فقال: أعز الله الأمير، بلغنا أنك حبست فلاناً، لأنه قال: إن القرآن مخلوق، وقد جنناك، وكلنا نقول: إن القرآن مخلوق، وخلفنا ألوف يقولون كما نقول، فإما حبستنا جميعاً، وإما أطلقت صاحبنا، وإذا كان السلطان - أطال الله بقاءه - قد ترك الخنة، وقد أقر الناس على مذاهبهم، فلم نؤاخذن بمذاهبنا، من بين سائر المقالات؟ فنظر نزار فإذا فتنة تنور، لم يؤذن له فيها، ولم يدر ما تجر، فأطلق الرجل، وسلمه إليهم. فشكره إسماعيل، وانصرف والجماعة.

### شامي عظيم الجاه من بقايا بني أمية

وجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي الحنطي، عن أبي أمية الهشامي، عن أبي سليمان داود بن الفضل العبيدي، قال: أخبرني أبي، عن محمد بن الحسن بن بشر الأدمي، قال: حدثني منارة، خادم الخلفاء، قال: رفع إلى هارون الرشيد، أن رجلاً بدمشق، من بقايا بني أمية، عظيم الجاه واسع الدنيا، كثير المال والأموال، مطاعاً في البلد، له جماعة أولاد ومماليك وموالي، يركبون الخيل، ويحملون السلام، ويغزون الروم، وأنه سمح جواد، كثير البذل والضيافة، وأنه لا يؤمن منه فتق لا يمكن رتقه، فعظم ذلك على الرشيد.

قال منارة: وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة، في بعض خرجاته إلى الحج سنة ست وثمانين ومائة، وقد عاد من الموسم، وقد بايع للأمين ثم المأمون ثم المؤمن.

فدعاني وهو خال، فقال لي: دعوتك لأمر أهمني وقد منعي النوم، فانظر كيف تكون؟ ثم قص علي خبر الأموي.

وقال: أخرج الساعة، فقد أعددت لك الجمازات، وأزحت علتك في الراد والنفقة والآلات، وضممت إليك مائة غلام، فاسلك البرية، وهذا كتابي إلى أمير دمشق، وهذه قيود، فادخل، وابدأ بالرجل، فإن سمع وأطاع، فقيده، وجني به إلا فتوكل به أنت ومن معك حتى لا يهرب، وأنفذ الكتاب إلى أمير دمشق، ليركب في جيشه فيقبض عليه، وتجيئني به، وقد أجتلك لنهابك ستاً، ولعودك ستاً، ويوماً لمقامك، وهذا محمل، تجعله - إذا قيدته - في شقه، وتجلس أنت في الشق الآخر، ولا تكل حفظه إلى غيرك، حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك، وإذا دخلت داره فثقلها، وجميع ما فيها، وأهله، وولده، وحاشيته، وغلماؤه، وقدر النعمة، والحال، والحل، واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف، بجميع ألفاظه، منذ وقوع طرفك عليه، إلى أن تأتيني به، وإياك أن يشذ عليك شيء من أمره، انطلق مصاحباً.

قال منارة: فودعته وخرجت، فركبنا الإبل، وطوبنا المنازل، أسير الليل والنهار، ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين، والبول، وتنفيس الناس قليلاً.

إلى أن دخلت دمشق في أول الليلة السابعة، وأبواب البلد مغلقة، فكرهت طرقها، فتمت بظاهر البلد، إلى أن فتح بابه في الغد، فدخلت على هيأتي، حتى أتيت باب دار الرجل، وعليه صنف عظيمة، وحاشية كثيرة، فلم أستأذن، ودخلت بغير إذن.

فلما رأى القوم ذلك، سألوا بعض أصحابي عني، فقالوا لهم: هذا منارة، رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم، فأمسكوا.

فلما صرت في صحن الدار، نزلت، ودخلت مجلساً، رأيت فيه قوماً جلوساً، فظننت أن الرجل فيهم، فقاموا إلي، ورحبوا بي، وأكرموني.

فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: لا، نحن أولاده، وهو في الحمام، فقلت: استعجلوه.

فمضى بعضهم يستعجله، وأنا أتفقد الدار، والأحوال، والحاشية، فوجدت الدار قد ماجت بأهلها موجاً شديداً.

فلم أزل كذلك، حتى خرج الرجل، بعد أن أطال، واستربت به، واشتد قلقي وخوفي من أن يوارى.

إلى أن رأيت شيخاً قد أقبل بزي الحمام، يمشي في الصحن، وحواله جماعة كهول، وأحداث، وصبيان، هم أولاده، وغلماؤه كثيرة، فعلمت أنه الرجل.

فجاء حتى جلس، وسلم علي سلاماً خفيفاً، وسألني عن أمير المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب.

فما انقضى كلامه حتى جاؤوه بأطباق الفاكهة، فقال لي: تقدم يا منارة فكل معنا.

فقلت: ما بي إلى ذلك حاجة.

فلم يعاودني، وأقبل يأكل هو والحاضرون معه، ثم غسل يديه، ودعا بالطعام، فجاؤوه بمائدة حسنة جميلة، لم أر مثلها

إلا للخليفة، فقال: تقدم يا منارة فساعدنا على الأكل، لا يزيد على أن يدعوني باسمي، كما يدعوني الخليفة.

فامتنعت، فلم يعاودني، وأكل هو وأولاده، وكانوا تسعة، عددتهم، وجماعة كثيرة من أصحابه، وحاشيته، وجماعة من أولاده وأولاد أولاده.

فنامت أكله في نفسه، فرأيت أنه أكل الملوك، ووجدت جأشه رابطاً، وذلك الاضطراب الذي كان في داره قد سكن،

ووجدته لا يرفع من بين يديه شيء، كان على المائدة، إلا وهب.

وقد كان غلماؤه، لما نزلت الدار، أخذوا جمالي، وجميع غلمائي، فعدلوا بهم إلى دار له، فما أطاقوا ممانعتهم، وبقيت

وحدي، ليس بين يدي إلا خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسي.

فقلت في نفسي: هذا جبار عنيد، فإن امتنع علي من الشخص، لم أطق إشخاصه بنفسي، ولا بمن معي، ولا حفظه إلى أن يلحقني أمير البلد، وجزعت جزعاً شديداً، ورأيت منه استخفافه بي، وتهاونه بأمره، وأن يدعوني باسمي، وقلة اكترائه بامتناعي من الأكل والشرب، ولا يسألني عما جئت له، ويأكل مطمئناً.

وأنا أفكر في ذلك، إذ فرغ من طعامه، وغسل يديه، واستدعى بالبخور، فتيخر، وقام إلى الصلاة، فصلى الظهر صلاة حسنة، وأكثر من الدعاء والابتهاال.

فلما انفتل من محرابه، أقبل علي، وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فقلت: أمر لك من أمير المؤمنين، وأخرجت الكتاب، فدفعته إليه، ففضه، وقرأه، فلما استتم قراءته، دعا أولاده، وحاشيته، فاجتمعوا، فلم أشك أنه يريد أن يوقع بي. فلما تكاملوا، ابتداءً فحلف أيماناً غليظةً، فيها الطلاق، والعناق، والحج، والصدقة، والوقف، والحبس، إن اجتمع اثنان منهم في موضع، وأن يفرقوا، ويدخلوا منازلهم، ولا يظهر منهم أحد، إلى أن ينكشف له أمر يعمل عليه. ثم قال: هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالمصير إلى بابه، ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة.

وقال لغلمانه، وأولاده: استوصوا بمن ورائي من الحرم خيراً، وما بي حاجة أن يصحني غلام، هات آقيادك يا منارة. فدعوت بها، وكانت في سفط، فأحضر حداداً، ومد ساقيه، فقيدته، وأمرت غلماني بحمله حتى حصل في الحمل، وركبت في الشق الآخر، وسرت من وقتي، ولم ألق أمير البلد، ولا غيره. وسرت بالرجل، ليس معه أحد، إلى أن صرنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدثني بانبساط، حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة، فقال: ترى هذا؟ فقلت: نعم.

قال: هو لي، وفيه من غرائب الأشجار كيت وكيت، ثم انتهى إلى آخر، فقال مثل ذلك، ثم انتهى إلى مزارع حسان، وقرى سرية، فأقبل يقول: هذا لي، ويصف كل شيء فيها.

فاشدد غيظي منه، فقلت له: هل علمت أي شديد العجب منك؟ قال: ولم؟ قلت: أأست تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمله أمرك، حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك، وولئك، ومالك، وأخرجك عن جميع حالك، وحيداً، فريداً، مقيداً، لا تدري ما يصير إليه أمرك، ولا كيف تكون، وأنت مع هذا، فارغ القلب، تصف بساتينك وضيعتك، هذا وقد رأيتك، وقد جئت، وأنت لا تعلم فيم جئت، وأنت ساكن القلب، قليل الفكر، وقد كنت عندي شيخاً عاقلاً.

فقال مجيباً لي: إنا لله وإنا إليه راجعون، أخطأت فراستي فيك يا منارة، قدرتك رجلاً كامل العقل، وأنت ما حلت من الخلفاء هذا الخل، إلا بعد أن عرفوك بذلك، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم، فإله المستعان. أما قولك في أمير المؤمنين، وإزعاجه لي من داري، وإخراجه إلي بابه على هذه الصورة، فأنا على ثقة بالله عز وجل، الذي بيده ناصية أمير المؤمنين، فلا يملك معه لنفسه، ولا لغيره، ضراً ولا نفعاً، إلا بإذن الله ومشيئته، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه، وبعد، فإذا عرف أمير المؤمنين أمره، وعلم سلامة جاني، وصلاح ناحيتي، وأن الأعداء والحسدة، رموني عنده بما لست في طريقه، وتقولوا علي الأباطيل الكاذبة، لم يستحل دمي، وتخرج من أذاي وإزعاجي، فردي مكرماً، أو أقامني ببابه معظماً، وإن كان سقى في قضاء الله تعالى، أنه يدر إلي ببادرة سوء، وقد حضر أجلي، وحن سفك دمي على يده، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل السموات والأرض، على صرف ذلك عني، ما استطاعوا، فلم أتعجل لهم، وأتسلف الفكرة والغم، فيما قد فرغ الله منه، وأنا حسن الظن بالله الذي خلق ورزق، وأحيا وأمات وفطر وجبل، وأحسن وأجمل، وأين الصبر والرضا، والتفويض والتسليم إلى من يملك

الدنيا والآخرة وكنت أحسب أنك تعرف هذا، فإذا قد عرفت مبلغ فهمك، فأني لا أكلمك بكلمة، حتى تفرق بيننا حضرة أمير المؤمنين.

ثم أعرض عني، فما سمعت له لفظة بغير القرآن والتسبيح، أو طلب ماء أو حاجة تجري مجراه، حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر، فإذا النجب قد استقبلتنا على فراسخ من الكوفة، يتجسسون خيري. فلما رأوني رجعوا بخبري إلى أمير المؤمنين، فأنتهيت إلى الباب آخر النهار، فدخلت على الرشيد، فقبلت الأرض، ووقفت بين يديه.

فقال: هات ما عندك، وإياك أن تغفل منه لفظة واحدة.

فسقت إليه الحديث من أوله، حتى انتهيت إلى ذكر القاكهة والطعام والغسل والطهور والبخور، وما حدثت به نفسي من امتناعه مني، والغضب يظهر في وجهه ويترايد، حتى انتهيت إلى فراغ الأموي من الصلاة، وانفتاله، وسؤاله عن سبب مقدمي، ودفعي الكتاب إليه، ومبادرته إلى إحضار ولده وأسبابه، ويمينه أن لا يتبعه أحد منهم، وصرفه إياهم، ومد رجليه حتى قيده، فما زال وجه الرشيد يسفر.

فلما انتهيت إلى ما خاطبني به في الخمل، عند تويخي إياه، قال: صدق والله، ما هذا إلا رجل محسود على النعمة، مكنوب عليه، ولقد آذينا، ولعمري لقد أزعجناه، وروعناه، وروعنا أهله، فبادر بنزع قيوده عنه، وائتني به. فخرجت، فنزعت قيوده، وأدخلته على الرشيد، فما هو إلا أن رآه، حتى رأيت ماء الحياء يدور في وجه الرشيد، ودنا الأموي، فسلم بالخلافة، ووقف، فرد عليه الرشيد رداً جميلاً، وأمره بالجلوس، فجلس. وأقبل عليه الرشيد، ثم قال له: إنه بلغنا عنك فضل همة، وأمور، أحببنا معها أن نراك، ونسمع كلامك، ونحسن إليك، فاذكر حوائجك.

فأجاب الأموي جواباً جميلاً، وشكر، ودعا ثم قال: أما حاجتي، فما لي إلا حاجة واحدة.

فقال: مقضية، فما هي؟ قال: يا أمير المؤمنين، تردني إلى بلدي، وأهلي، وولدي.

فقال: نحن نفعل ذلك، ولكن سل ما تحتاج إليه من صلاح جاهك ومعاشك، فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شيء من هذا.

فقال: عمال أمير المؤمنين منصفون، وقد استغنيت بعدله عن مسألته، وأموري منتظمة، وأحوالي مستقيمة، وكذلك أمور أهل بلدي بالعدل الشامل في دولة أمير المؤمنين.

فقال له الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك، واكتب إلينا بأمر إن عرض لك، فودعه الأموي.

فلما ولى خارجاً، قال لي الرشيد: يا منارة، احمله من وقتك، وسر به راجعاً كما أتيت به، حتى إذا أوصلته إلى المجلس الذي أخذته منه، فارجع وخله.

ففعلت ذلك.

### ابن القرات يتحدث عن اعتقاله وتعذيبه

حدثني علي بن هشام بن عبد الله الكاتب، ويعرف هشام بأبي قيراط، قال: كنت حاضراً مع أبي رحمه الله، في مجلس أبي الحسن بن القرات، في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثمائة، في وزارته الثانية، فسمعتة يتحدث، قال: دخل علي أبو الهيثم العباس بن محمد بن ثوابة الأنباري، في محبسي بدار المقتدر، فطالني بكتب خطي بثلاثة عشر ألف ألف



دينار.

فقلت: والله، ما جرى قدر هذا المال، على يدي للسلطان، في طول وزارتي، فكيف أصادر على مثله؟ فقال: قد حلفت بالطلاق أنه لا بد من أنك تكتب خطك بذلك، فكتبت ثلاثة عشر ألف ألف، من غير ما أذكر ما هي، أو ضمناً فيها.

قال: فاكتب ديناراً، لتبريني من يميني.

فكتبت ديناراً، ثم ضربت عليه، وأكلت الرقعة، وقلت له: قد برئت من يمينك، ولا سبيل لك إلى غير هذا مني. فاجتهد بي، فلم أجهه إلى شيء، فحبسني.

فلما كان من الغد، دخل إلى الحبس، ومعه أم موسى، فطالني بذلك، وأسرف في سبي وشتمي، ورماني بالزنا. فحلفت بالطلاق، والعتاق، والأيمان المغلظة، أي ما دخلت في محذور من هذا الجنس، من نيف وثلاثين سنة، وسمته أن يحلف بمثل تلك اليمين أن غلامه القائم على رأسه، لم يأت في ليلته تلك، فأنكرت أم موسى هذا الحال، وغطت وجهها حياء منه.

فقال ابن ثوبة: إن هذا إنما تبطره الأموال التي وراءه، ومثله في ذلك، كمثله المزين مع كسرى، والحجج مع الحجاج، فتستأمرين السادة، في إنزال المكروه به، حتى يذعن بالأموال.

قال أبو الحسين: ويعني بالسادة: المقتدر، ووالدته، وخالته خاطف، ودستويه أم ولد المعتضد، لأنهم كانوا - إذ ذاك - يدبرون الأمور، لحداثة سن المقتدر.

قال ابن الفرات: فمضت أم موسى، ثم عادت، فقالت لابن ثوبة: السادة يقولون لك: صدقت فيما ذكرت، ويدك مطلقة فيه.

وكنت في دار ضيقة، في حر شديد فأمر بكشف البواري حتى صرت في الشمس، ونحي الحصير من تحتي، وأغلق أبواب البيوت، حتى حصلت في الصحن، ثم قيدني بقيد ثقيل، وألبسني جبة صوف قد نعتت في ماء الأكارع، وغلني بغل، وأقفل باب الحجره وانصرف، فأشرفت على التلف.

وعددت على نفسي ذنوبي، فوجدتني قد عوملت بما عاملت به الناس، من المصادرة، ونهب المنازل، وقبض الضياع، وتسليم الناس إلى أعدائهم، وحبسهم، وتقييدهم، وإلباسهم جباب الصوف، وهتك حريمهم، وإقامتهم في الشموس، وإفراهم في الحبوس.

ثم قلت: ما غللت أحداً، فكيف غللت؟ ثم تذكرت أن النرسي، كاتب الطائي، كان سلمه إلي عبيد الله بن سليمان، لمال عليه، فسلمته إلى الحسن، المعروف بالمعلوف، المستخرج، وكان عسوفاً، وأمرته بتقييده، وتعذيبه، ومطالبتة بمال ذكرته له، فألظ به، فأمرت به أن يغل، ثم تحويت بعد أن غل مقدار ساعتين من النهار، فأمرت بأخذ الغل عنه.

فلما جازت الساعتان، تذكرت شيئاً آخر، وهو أنه لما قرب سبكرى من الجبل، مع رسول صاحب خراسان، مأسوراً، كتبت إلى بعض عمال المشرق، بمطالبتة بأمواله وودائعها، فكتب إلي يالطاطه، فكتبت بأن يغل، وكنت أتغدى، فلما غسلت يدي، تنلمت، وتحوت، فكتبت بأن يحل الغل عنه إن كان قد غل، فوصل الكتاب الأول فغل، ووصل الكتاب الثاني بعد ساعتين، فحل عنه، على ما كتبت به.

فلما مضت أربع ساعات، إذا بصوت غلمان مجتازين في الممر الذي فيه الحجره التي أنا محبوس فيها، فقال لي الخدم الموكلون بي: هذا بدر الحرمي وهو لك صنيعه.

فاستغثت به، وصحت: يا أبا الخير، الله، الله، فيّ، لي عليك حقوق، وقد ترى حالي، الموت أسهل مما أنا فيه،  
فتخاطب السادة في أمري، وتذكرهم حرمتي، وخدمتي في تثبيت دولتهم، إذ خذلهم الناس، وافتتاحي البلدان  
المنغلقة وإثارتني الأموال المنكسرة، فإن كان ذنبي يوجب القتل، فالسيف أروح لي، فرجع، فدخل إليهم، فخطبهم  
ورققهم، ولم يرح حتى أمروا بأخذ حديدي، وإدخالي الحمام، وأخذ شعري، وتغيير لباسي، وتسليمي إلى زيدان،  
وترفيهي.  
فجاءني بذلك، وقال: يقولون لك، لن ترى بعدها بأساً، وأقمت عند زيدان، إلى أن رددت إلى هذا المجلس.

## ماء الأكرع

الكرع، في الدواب ما دون الكعب، وفي الإنسان، ما دون الركبة من مقدم الساق، ويطلق الكراع كذلك، على  
مستدق الساق من ذوات الظلف، وفي بغداد، يكون عن النساء، بقولهم: أمهات كراع، وربما كان ذلك، لدقة  
ساق المرأة ورقته، وماء الكراع: الماء الذي يطبخ به الكراع، وهو طعام يستطيبه العرب قديماً وحديثاً، وقد روي  
عن النبي صلوات الله عليه، أنه قال: لو دعيت إلى كراع لأجبت، والكرع يؤكل في جميع البلاد العربية، ويسمى  
في مصر: كوارع، وفي الشام: مقادم، وفي لبنان: غمي، محرف: غنمة، بالإمالة، وأما في بغداد، فيسمى: باجه، بالباء  
والجيم الفارسيين، والكلمة فارسية، بمعنى كراع الماشية المعجم الذهبي، والبغداديون يتألقون في صنع الباجه، وهي  
عندهم تشتمل على الكراع، والرأس، واللسان، والكرش، وهم يقطعون الكرش قطعاً، ويحشون كل قطعة بمخلوط  
من الأرز واللحم واللوز والتوابل، ثم يخيطونها، ويسمونها: كيبايات، مفرداً: كيبايه، وفي بغداد دكاكين عديدة،  
عمل أصحابها مقصور على صنع الباجه، ويسمى صاحبها: باجه جي، وجي، فارسية تفيد النسبة، ويقصد الناس  
هذه الدكاكين، ويأكلون الباجه في داخل الدكان، وقد استعد صاحبه لذلك، بمناضد، وصواني، وصحون،  
وكراسي، ومغاسل، ومناديل، والمتعارف أن يكون بجانب كل باجه جي، طرشجي، أي باع الطرشي، والطرشي،  
هو الكبيس، أصل الكلمة فارسية، ترش بمعنى الحامض، أو ما فيه خل، وإذا طلب القاصد الباجه، أحضر له  
الطرشجي الجاور، كأساً من الطرشي، يشتمل على أنواع الكبيس، كالشلغم اللفت، والبادنجان، والخيار، وثوم  
العجم، وأنواع أخرى يطول ذكرها، وأهل الكرخ من بغداد، أكثر رغبة في الباجه، وإقبالاً عليها، وكان في الكرخ  
عدد كبير من الباججية، أشهرهم: ابن طوبان، وبجواره طرشجي، يعرف بحنانش، وكان الناس يقصدونها من  
أطراف بغداد، وفي السنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠، عندما كنت كاتباً في مجلس النواب العراقي، وكان المجلس في جانب  
الكرخ، في البناء الذي شاده مدحت باشا رحمه الله، على شاطئ دجلة، واتخذة مستشفى، كنت أنا وأصحابي من  
الكتاب، مولعين بباجه ابن طوبان، وطرشي حنانش، أما في أيامنا هذه فقد انتقل سوق الباجه، إلى جانب الرصافة،  
فاتخذ لها أصحابها دكاكين في منطقة الشيخ عمر، وضعت شهرة ابن طوبان، وحنانش، وجميع باججية الكرخ.

## كتاب ابن ثوابة باستيزار ابن القرات

وحدثني أبو محمد القاسم بن هشام بن أبي قيراط، أن أباه حدثه، أنه سمع أبا الحسن بن القرات.... فذكر نحو هذا  
الحديث، إلا أنه زاد: أن ابن القرات لما خرج من هذه الشدائد الهائلة، إلى الوزارة الثانية، أمر أبا الحسن محمد بن  
جعفر بن ثوابة، صحب ديوان الرسائل، أن يكتب عن المقتدر بالله، إلى أصحاب الأطراف، برده إياه إلى الوزارة،  
فكتب إلى جميعهم كتاباً بنسخة واحدة، ما سمعوا في معناه أحسن منه، فأعطانيه أي، وأمرني بحفظه، وتلاه علي

القاسم، فحفظت منه فصلاً، وهو: لما لم يجد أمير المؤمنين بداً منه، ولم يكن بالملك غنى عنه، انتضاه أمير المؤمنين من غمده، فعاود ما عرف من حده، ودبر الأمور كأن لم يخل منها، وأمضاها كأن لم يزل عنها، إذ كان الحول القلب، الخنك المدرب، العالم بكرة المال كيف تحلب، ووجوهه من أين تطلب، وكان الكتاب على اختلاف طبقاتهم، وتباين مراتبهم، يقفون عنده إذا استبقوا، وينتهون إليه إذا احتكموا، وكان هذا الاسم حقاً من حقوقه، استعبر منه، ثم رد إليه.

خرج من حبس المقتدر ونصب مستشاراً لوزير ابن مقله

حدثني علي بن هشام أبي قيراط الكاتب، من حفظه، وكتبت بإملائه، قال: تطاول الحبس بأبي الحسن علي بن عيسى في دار المقتدر، حتى آيس منه، فلما اجتمع أبو الهيجاء، ونازوك، والطبقة الذين تجمعوا وخلعوا المقتدر وأجلسوا القاهر، وحصلوا المقتدر في دار مؤنس، كسرت الحبوس، ونهب بعض دار المقتدر، فأقلت علي بن عيسى من الموضوع الذي كان فيه محبوساً، فخر، فاستتر تلك الأيام الثلاثة التي كان فيها المقتدر محبوساً عند مؤنس، والقاهر متمسك بالخلافة.

فلما جاءت الرجالة، بغير مراسلة من المقتدر لهم، ولا حيلة منه في أمر نفسه، وإنما كان بصنع طريف، وسوء تدبير نازوك في خطابهم بما كرهوا، فثاروا، وقتلوا أبا الهيجاء، ونازوك، وكبسوا دار مؤنس، وأخلوا المقتدر من يده، وأعادوه للخلافة، وردوا القاهر إلى دار ابن طاهر، وظهر ابن مقله، وكان وزير المقتدر، وكان قد استتر. قال: فحدثني أبو عبد الله محمد بن عبلوس الجهشياري، وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل زنجي الكاتب، وأبو الحسين محمد بن عبد الرحمن الروذباري، صاحب الفضل بن جعفر، قالوا: كنا في دار مؤنس، والناس يهتونه، وعلي ابن عيسى مستتر، فلم يشعر إلا وقد جاء علي بن عيسى بطيلسان، وأحفى المأسلة أن يرد إلى الحبس، خوفاً من عواقب الاستتار، وأن يولد عليه أكثر من الحبس.

فبلغه مؤنس أحسن لقاء وأجمله، واستصوب رأيه في الظهور، وراسل المقتدر في الحال، فعاد الجواب من المقتدر، بأجمل قول وأحسنه، وأنه قد رد إلى علي بن عيسى الإشراف على ابن مقله، والاجتماع معه على سائر أمور المملكة، وأمر أن يصل بوصول، وأن لا ينفرد ابن مقله بتدبير أمر دونه، وأفرد علي بن عيسى بالمظالم، من غير أن يكون لابن مقله فيها نظر.

فقال له مؤنس: ليس يجوز مع هذا أن تلبس الطيلسان، وعليك أن تتلقى هذا الإنعام بالشكر.

فانصرف علي بن عيسى، وعاد عشياً وعليه دراعة، وجلس في دار مؤنس، منتظراً مجيء الوزير ابن مقله، إلى أن جاء، فاجتمعوا يتفوضان في أمور الأموال والأعمال.

فقال له ابن مقله: إن أبا بكر محمد بن علي المادرائي يطيعك، وهو من أكبر صنائعك، فاكتب إليه بحمل مال. فقال علي بن عيسى: إن مصر مع الاضطراب الواقع، ستفور ناراً، لكثرة الجيش بها، وعظم مال صلة البيعة، والوجه أن يكتب الوزير أعزه الله.

فقال مؤنس لابن مقله: افعل ما أشار به أبو الحسن.

فقال: رضي الله عنه يحسن أن أكتب في شيء من هذا، وهذا الشيخ حاضر.

فقال أبو الحسن: فأنا أكتب بخطي عنك، إلى محمد بن علي، فإنك أنت الوزير، وكلنا أعوانك وأتباعك، فسر بذلك ابن مقله جداً، وصارت له عند الناس جميعاً منزلة.

ودعا علي بن عيسى بثلاث قرطاس، وكتب فيه، في الحال، بغير نسخة، كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم، أعزك الله، وأطال بقاءك، وأكرمك، وأتم نعمته عليك، وزاد في إحسانه إليك، قد عود الله أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - في تصاريح أحواله، ومعقبات أعماله، وعند الخطوب إذا ألت، والحوادث إذا أظلت، أن لا يخليه من نظر يتيحه له، ونعم يجددها عنده، ومنح يضاعفها لديه، لما يعرفه من صفاء نيته، وخلوص طويته، وحسن سريره، لسائر رعيتيه، عادة في الصلاح والإصلاح، هو - عز وجل - متممها، وموزع الشكر عليها، وكان جماعة من الأولياء، وجمهور الرجال والأصفياء، عدلوا عن طريق السلامة، وزالوا عن مذهب الاستقامة، وحادوا ما توالى عليهم من النعمة، ووصل إليهم من الإحسان في طول المدة، وحملهم الحين المتاح لأمتهم، وما قرب الله من آجالهم، على الخروج عن مدينة السلام، بغير تدبير ولا نظام، والمطالبة بما لا يستحقون من الأرزاق، على سبيل السطوة والافتقار، غير مفكرين في ذم المذاهب، ووخيم العواقب، مترددين في بغيتهم، متسكعين في جهلهم وبغيتهم، وأمير المؤمنين - أدام الله عزه - يعدهم بنظره الذي لا يخلفه، والعطاء الذي لا يؤخره، ويوخاهم بالموعظة الحسنة، وينهاهم عن الأفعال القبيحة المنكرة، وهم يأبون ما يدعوهم إليه، ويسرفون في التحكم والبغي عليه، إلى أن أدهم الجهل والطغيان، والتسرد والعصيان، إلى إحضارهم دار المملكة من لقبه بالخلافة يوماً واحداً، ثم صرف عنها، وأمير المؤمنين - أيده الله تعالى - يعمل فكره ورويته في حل نظامهم، وحسم مواد اجتماعهم، وتشيت كلمتهم، وتفريق جماعتهم، حتى يتمكن منهم تمكناً يفت في أعضادهم، ويوهن من عنادهم، ثم يعفو عن من يرى العفو عنه، ويوقع القصاص على من يوجب الحق القصاص منه، فلم تكن إلا وقعة من الوقعات، وساعة من الساعات، حتى أخلف الله آمالهم، وأكذب أطماعهم وبدد شملهم، وخيب سعيهم، وأكبي زندهم، وافضوا بعد أن استلحم من كان مضرماً للفتنة، وملهباً للنائرة، وعاد أمير المؤمنين - أيده الله - على الباقي بالصفح الشامل، والإنعام الكامل، وتغمد هفوتهم، وأقال عشرهم، وأحسن صلتهم، واستأنف أفضل الأحوال بهم، وعادت الأمور كما كانت، وتكشفت الخطوب وزالت، وخلصت النيات وصلحت، وهدأت الرعية وسكنت، وقد تكفل الله - عز وجل - بنصر أمير المؤمنين، وتشبيد أركان عزه، والله يحق الحق، ويطل الباطل، ولو كره الجرمون، فأجر أعمالك - أعزك الله - على أجمل ما تجريها عليه، وأحسن سيرتك فيها، مستعملاً فيها أجد الجدد، وأبلغ الشتمير، حتى تسهل صعابها، وتدر أحلابها، وتجري على أحسن مجاريها، وأجمل تأنيها، واحذر أن ترخص لنفسك في تأخير الحمل، فتخرج إلى التأنيف والعدل، وبادر الجواب عن هاذ الكتاب، لأعرضه على أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - فإنه يتوكفه، ويراعيه، ويتشوفه، والدعاء له، وكتب يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من الحرم سنة سبع عشرة وثلثمائة.

#### دار مؤنس

كانت دار مؤنس على شاطئ دجلة، مجاورة لدار الخلافة رسوم الدار الخلافة ١٣٦ وكان الجسر بحضرتها المنتظم ٧ - ١٧١ وكانت بسوق الثلاثاء المنتظم ٦ - ٢٠٦ والتكملة ١١٠ وهو سوق البرازين معجم البلدان ٣ - ١٩٣ ومن دار مؤنس اقتطعت المدرسة النظامية التكملة ١٤٨ وكانت في وسط سوق الثلاثاء ابن بطوطة ١٧٥ واقتطعت كذلك المدرسة المستنصرية، وكانت في آخر سوق الثلاثاء ابن بطوطة ١٧٥، ويبدو من هذه الدلالات أن دار مؤنس كانت واقعة على دجلة شمالي دار الخلافة، يفصلها عنها السوق الذي ينزل من دجلة من قهوة الشط ماراً بخان دلة والممتد إلى الشورجة، أما طرفها الثاني فقد كان مطلاً على الجرس، وقد كان في موضعه الذي هو فيه الآن، ولا يستغرب أن تكون دار مؤنس بهذه السعة، فقد كان القائد العام للجيش، وكانت سلطته تزيد على سلطة

الخليفة، وكانت داره تشتمل على كتابه وعماله وحرسه وغلماؤه مع دوابهم وما يقتضي إعداده لإيوائهم وإطعامهم، وأصبحت هذه الدار من بعد مقتل مؤنس، مقراً للحكام المتسلطين على بغداد، فنزلها ابن رائق لما أصبح أميراً للأمرء في السنة ٣٢٤، ونزلها من بعده بجكم في السنة ٣٢٦ التكملة ١١٠ ونزلها من بعدهما أبو الحسين البريدي لما استولى على بغداد في السنة ٣٣٠ في عهد المتقي التكملة ١٢٧ كما نزلها توزون لما نصب أميراً للأمرء في السنة ٣٣١ التكملة ١٣٤ وأقام بها من بعده سيف الدولة الحمداني في السنة ٣٣١ التكملة ١٣٤ وأقام بها كذلك معز الدولة البويهبي لما استولى على بغداد في السنة ٣٣٤ التكملة ١٤٨ إلى أن بنى داره بالشامسية فانتقل إليها في السنة ٣٥٠ قبل أن يتم بناءها تجارب الأمم ٢ - ١٨٣ والتكملة ١٧٩، وبعد أن تركها معز الدولة، أصبحت مقراً للأمرء من أولاده التكملة ٢١٤، إن المدرسة المستنصرية ما تزال ماثلة تحدد لنا الجانب الشمالي من دار مؤنس، أما المدرسة النظامية وسوقها الملاصق لها، فيبدو أنها كانت على قطعة الأرض المستطيلة المنتظمة التي يحدها من الشرق سوق الجوخجية باعة الجوخ ومن الغرب سوق المصبغة، ومن الشمال: سوق اليمينجية، وهم صناع الأحذية الحمراء الصرارة المسماة باليمينيات، مفردها: يميني، ومن الجنوب: السوق النازل من دجلة، من قهوة الشط، ماراً بخان دلة، والممتد إلى سوق العطارين، وعلى هذا فإن المدرسة النظامية التي كانت الأمثال تضرب بحسنها ابن بطوطة ١٧٥ لم يبق منها الآن إلا قطعة صغيرة من الأرض، بين الدكاكين، لعلها لا تريد في المساحة على حجرة واحدة من حجراتها الماضية، اتخذت كتاباً للصبيان، كان فيه مؤدب يعلمهم الكتابة وقراءة القرآن اسمه الملا أحمد، لم أدركه، وأدركت ولده للملا إبراهيم، توفي، وخلفه أخوه الملا مسلم، ولما مات أغلق بابها، وظلت سنين مهجورة، ثم أقدم بعض البزازين من أصحاب الدكاكين المحيطة بهذه القطعة، ففتحوا بابها، ورموا شعنتها، وفرشوها بالحصر والبواري، وجهزوها بالماء والنور، واتخذوها مصلى لأهل سوقهم.

أقول: ورد في البحث ذكر سوق اليمينجية: نسبة إلى اليميني، وهو حذاء أحمر صرار، ينسب إلى اليمن، معروف من القديم بهذا الاسم، وقد أدركت هذا السوق، وجميع دكاكينه عامرة ببائعي هذا الصنف من الأحذية، أما الآن فقد انقرض هذا الصنف، ولم يبق من بائعيه أحد، وحل محلهم في الأسواق الخياطون والسقطيون، ولحمد بن دانيال الموصلي في وصف اليميني فوات الوفيات ٢ - ٣٨٤:

من اليمينيات التي حرّ وجهها ... يفوق صقالاً صفحة الصارم الهندي  
ومن عجيبي أنني إذا ما وطنتها ... تتنّ أنيناً دونه أنه الوجد  
ولم أر وجهاً قبلها كل ساعة ... على التراب ألقاها معفرة الخدّ

من مكارم القاضي أحمد بن أبي دؤاد

سيد العرب أحمد بن أبي دؤاد

أخبرني محمد بن الحسن، قال: أخبرني أبو بكر الصولي، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن خلاد، قال: رفع بعض العمال إلى المعتصم، وكان يلي الخراج بموضع يلي فيه خالد بن يزيد الحرب، أن خالد بن يزيد اقتطع الأموال واحتجج بعضها.

فغضب المعتصم، وحلف ليأخذن أموال خالد، ويعاقبه.

فلجأ خالد إلى أحمد بن أبي دؤاد القاضي، فاحتال حتى جمع بينه وبين خصمه، فلم تقم على خالد حجة. فعرف ابن أبي دؤاد المعتصم ذلك، وشفع إليه في خالد، فلم يشفعه.

وأحضر خالدًا، وأحضر آلات العقوبة، وقد كان قبل ذلك، قبض أمواله، وضياعه، وصرفه عن العمل. وحضر ابن أبي دؤاد المجلس، فجلس دون الناس. فقال له المعتصم: ارتفع إلى مكانك.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما أستحق إلا دون هذا المجلس.

قال: وكيف؟ قال: الناس يزعمون أن ليس محلي محل من شفيع في رجل قرف بما لم يصح عليه فلم يشفع. قال: ارتفع إلى موضعك.

قال: مشفعاً أو غير مشفع؟ قال: مشفعاً، قد وهبت لك خالدًا، ورضيت عنه. قال: الناس لا يعلمون بهذا.

قال: وقد رددت عليه العمالة، والضياع، والأموال التي له.

قال: ويشرفه أمير المؤمنين بخلع تظهر للعمامة.

فأمر أن تفك قيوده ويخلع عليه، ففعل به ذلك، ورد إلى حضرته.

فقال ابن أبي دؤاد: قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر، فإن رأى أمير المؤمنين، أن يجعلها صلة له. قال: لتحمل معه.

فخرج خالد، والناس منتظرون الإيقاع به، فلما رأوه على تلك الحال، سروا، وصاح به رجل: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب.

فقال: مه، سيد العرب - والله - ابن أبي دؤاد، الذي طوقني هذه المكربة التي لا تنفك من عنقي أبداً لا أنا. وفي هذه القضية، يقول أبو تمام الطائي:

يا سائلي عن خالد وفعاله ... رد فاغترف علماً بغير رشاء

قد كان خطب عاثر فأقاله ... رأي الخليفة كوكب الخلفاء

فخرجت منه كالشهاب ولم تزل ... مذ كنت خراجاً من الغمماء

ما سرّني بخروجه من حجة ... ما بين أندلس إلى صنعاء

### إطلاق الكتاب من حبس الواثق

حدثني علي بن هشام، قال: سمعت أبا الحسن علي بن عيسى، يتحدث، قال: سمعت عبيد الله بن سليمان بن وهب، يقول: حدثني أبي، قال: كنت وأبو العباس أحمد بن الخصيب، مع خلق من العمال والكتاب، معتقلين في يدي محمد بن عبد الملك الزيات، في آخر وزارته للواثق، تطالب ببقايا مصادراتنا، ونحن آيس ما كنا من القرج، إذ اشتدت علة الواثق، وحجب ستة أيام عن الناس، فدخل عليه أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد القاضي.

فقال له الواثق: يا أبا عبد الله - وكان يكنيه - ذهبت مني الدنيا والآخرة.

قال: كلا يا أمير المؤمنين.

قال: بلي، أما الدنيا، فقد ذهبت مني بما ترى من حضور الموت وذهبت مني الآخرة، بما أسلفت من عمل القبيح،

فهل عندك من دواء ؟.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، قد غرك محمد بن عبد الملك الزيات في الكتاب والعمال، ومالأهم الحبوس، ولم يحصل من جهتهم على كبير شيء، وهم عدد كثير، ووراءهم ألف يد ترفع إلى الله تعالى بالدعاء عليك، فتأمر بإطلاقهم، لترتفع تلك الأيدي بالدعاء لك، فلعل الله أن يهب لك العافية، وعلى كل حال، فأنت محتاج إلى أن تقل خصومك. فقال: نعم ما أشرت به، وقع عني إليه بإطلاقهم.

فقال: إن رأى خطي، عاند ولج، ولكن يغتنم أمير المؤمنين الثواب، ويتساند، ويحمل على نفسه، ويوقع بخطه. فوقع الواثق، بخط مضطرب إلى ابن الزيات بإطلاقهم، وإطلاق كل من في الحبوس، من غير استثمار ولا مراجعة. فقال ابن أبي دؤاد: يتقدم أمير المؤمنين إلى إيتاخ أن يمضي بالتوقيع، ولا يدعه يعمل شيئاً، أو يطلقهم، وأن يحول بينه وبين الوصول إليك، أو كتب رقعة، أو اشتغاله بشيء البتة، إلا بعد إطلاقهم، وإن لقيه في الطريق أنزله عن دابته، وأجلسه على غاشيته في الطريق، حتى يفرغ من ذلك. فتوجه إيتاخ، فلقى ابن الزيات راكباً يريد دار الخليفة. فقال له: تنزل عن دابتك، وتجلس على غاشيتك.

فارتاع وظن أنه قد وقع به الحال، فنزل، وجلس على غاشيته، فأوصل إليه التوقيع، فامتنع، وقال: إذا أطلقت هؤلاء فمن أين أنفق الأموال، وأقيم الأتزال؟ فقال له: لا بد من ذلك.

فقال: أركب إليه وأستأذنه.

فقال: ما إلى ذلك سبيل.

قال: فدعني أكتبه.

قال: ولا هذا.

قال: فما تركه يبرح من موضعه، حتى وقع بإطلاق الناس.

فصار إيتاخ إلينا، ونحن في الحبس، آيس ما كنا من الفرج، وقد بلغنا شدة علة الواثق، وأن قد أرجف لابنه بالخلافة، وكان صيباً، فحفظنا أن يتم ذلك، فيجعل ابن الزيات الصبي شبحاً، ويتولى التدبير فيتلفنا، وقد امتنعنا لفرط الغم من الأكل.

فلما دخل علينا إيتاخ، لم نشك أنه قد حضر لبلية، فأطلقنا، وعرفنا الصورة، فدعونا للخليفة، ولأحمد بن أبي دؤاد، وانصرفنا إلى منازلنا لحظة، ثم خرجنا فوقفنا لأبي عبد الله بن أبي دؤاد على الطريق، ننتظر عوده من دار الخليفة عشيّاً.

فحين رأيناه ترجلنا له، فقال: لا تفعلوا، وأكبر ذلك، ومنعنا من الترجل، فلم نمتنع، ودعونا له وشكرناه. فوقف حتى ركبنا وسائرنا، وأخذ يجبرنا بالخبر، ونحن نشكره، وهو يستصغر ما فعل، ويقول: هذا أقل حقوقكم، وكان الذي لقيه أنا وأحمد بن الحصب. وقال لنا: ستعلمان ما أفعله مستأنفاً.

ثم رجع ابن أبي دؤاد إلى دار الخليفة عشيّاً، فقال له الواثق: قد تبركت برأيك يا أبا عبد الله، ووجدت خفة من العلة، ونشطت للأكل، فأكلت وزن خمسة دراهم خبزاً بصدور دراج.

فقال له أبو عبد الله: يا أمير المؤمنين، تلك الأيدي التي كانت تدعو عليك غدوة، صارت تدعو لك عشية، ويدعو لك بسبهم خلق كثير من رعيتك، إلا أنهم قد صاروا إلى دور خراب، وأحوال قبيحة، بلا فرش، ولا كسوة، ولا

دواب، ولا ضياع، موتى جوعاً وهزالاً.

قال: فما ترى؟ قال: في الخزائن والاصطبلات بقايا ما أخذ منهم، فلو أمرت أن ينظر في ذلك، فكل من وجد له شيء باق من هذا رد عليه، وأطلقت لهم ضياعهم، لعاشوا، وخف الأثم، وتضاعف الدعاء، وقويت العافية.

قال: فوقع عني بذلك، فوقع عنه أحمد بن أبي دؤاد.

فما شعرنا من الغد، إلا وقد رجعت علينا نعمتنا، ومات الواثق بعد ثلاثة أيام.

وفرّج الله عنا بآبى دؤاد، وبقيت له هذه المكرمة العظيمة في أعناقنا.

وقد ذكر محمد بن عبدوس، هذا الخبر، في كتاب الوزراء، عن محمد بن داود بن الجراح، عن عبيد الله بن سليمان، بما يقرب من هذه الالفاظ، والمعنى واحد، إلا أنه لم يذكر أنه كان معهم في الحبس أحمد بن الحصب.

### انقاذ أبي دلف من موت محقق

حدثني أبي رضي الله عنه، في المذاكرة، بإسناد لست أقوم عليه، لأني لم أكتبه في الحال، قال: كان ابتداء العداوة بين أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، وبين الإفشين، أن الإفشين كان أغرى المعتصم بأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، لعداوة كانت بينهما، فسلمه إليه المعتصم، فأجمع على قتله من يومه ذاك.

وبلغ الخبر أبا دلف، فارتحل إلى ابن أبي دؤاد، فاستجار به، وعرفه ما قد أشرف عليه.

فجاء ابن أبي دؤاد إلى المعتصم ليسأله عن أمره، فوجده نائماً، فكره أن يقيمه وينبهه، وخاف أن يشرع الإفشين في قتل أبي دلف، فجاء إلى الإفشين فقال له: يقول لك أمير المؤمنين، بلغني أنك تريد أن تحدث على القاسم بن عيسى حادثة، ووالله لئن فعلت لأقتلنك، ولم يكن المعتصم أرسله، ولا قال له شيئاً.

فرهب الإفشين أن يقتل أبا دلف.

وعاد ابن أبي دؤاد إلى المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس الكذاب من أصلح بين الناس، فقال خيراً، ومنى خيراً، وقد أديت عنك رسالة أحييت بها أهل بيت من المسلمين، وكففت بها أسياف خلق من العرب، بلغني أن الإفشين عزم على قتل القاسم بن عيسى العجلي، فأديت إليه عنك رسالة هي كذا وكذا، فحقت دم الرجل، ونعشت عياله، وكففت عنك عصيان عجل ومن يتبعها ممن يتعصب له فيتفق عليك من ذلك ما تغتم به، والرجل في يده مشف على القتل.

فقال له المعتصم: قد أحسنت.

ووجه الإفشين إلى ابن أبي دؤاد: لا تأتي، ولا تقربني.

فقال للرسول: أتؤدي عني كما أديت إلي؟ قال: قل.

قال: قل له: ما آتيتك تعزراً من ذلة، ولا تكثراً من قلة، وإنما أنت رجل ساعدك زمان، ورفعك سلطان، فإن جنتك فله، وإن تأخرت عنك فلنفسك.

أخبرني القاضي أبو طالب محمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي، فيما أجاز لي روايته عنه، بعدما سمعته منه، قال: حدثنا محمد بن خلف، وكيع القاضي، قال: أخبرنا موسى بن جعفر، أخو لعس الكاتب، قال: كان أحمد بن أبي دؤاد حين ولي المعتصم الخلافة، عادى الإفشين وحرص عليه المعتصم، وذكر حديثاً طويلاً، ليس هذا موضعه.



ثم قال فيه: وكان سبب العداوة بين أحمد بن أبي دؤاد، وبين الإفشين، أن الإفشين أراد قتل أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، فاستجار بابن أبي دؤاد، ثم ذكر نحواً مما ذكرته عن أبي رضي الله عنه، إلا أنه لم يقل في خبره أن ابن أبي دؤاد جاء إلى المعتصم فوجده نائماً، ثم عاد فوجده قد انتبه، وقال في آخر حديثه: وإنما أنت رجل رفعتك دولة، فإن جنت فلها، وإن قعدت فعنك.

وأخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، قال: قال أحمد بن أبي طاهر: كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، في جملة من كان مع الإفشين خيذر بن كاوس لما خرج لخاربة بابل، ثم تنكر له، فوجه من جاءه به ليقنته. وبلغ المعتصم الخبر، فبعث إليه بأحمد بن أبي دؤاد، وقال له: أدركه، وما أراك تدركه، واحتمل في خلاصه منه كيف شئت.

قال أحمد: فمضيت ركضاً، حتى وافيته، فإذا أبو دلف واقف بين يديه، وقد أخذ بيده غلامان له تركيان، فرميت بنفسي على البساط، وكنت إذا جنته دعا لي بمصلي.

فقال: سبحان الله، ما حملك على هذا؟ قلت: أنت أجلسني هذا المجلس، ثم كلمته في القاسم بن عيسى، وسألته فيه، وخضعت له، فجعل لا يزداد إلا غلظة.

فلما رأيت ذلك منه، قلت، هذا عبد، وقد أغرقت في الرقة معه فلم تنفع، وليس إلا أخذه بالرهبة. فقممت، وقلت: كم تراك قدرت في نفسك تقتل أولياء أمير المؤمنين واحداً بعد واحد، وتخالف أمره في قائد بعد قائد؟ قد حملت إليك هذه الرسالة عن أمير المؤمنين، فما تقول؟ فقل، وذل، حتى لصق بالأرض، وبان لي الاضطراب فيه.

فلما رأيت ذلك، نهضت إلى أبي دلف، فأخذت بيده، وقلت: قد أخذته بأمر أمير المؤمنين. فقال: لا تفعل، يا أبا عبد الله.

فقلت: قد فعلت، وأخرجت القاسم، وحملته على دابة، ووافيت المعتصم.

فلما بصر بي، قال: بك يا أبا عبد الله وريت زنادي، ثم سرد علي خبري مع الإفشين، حديثاً ما أخطأ فيه حرفاً. ثم سألتني: هل هو كما قال؟ فأخبرته أنه لم يخطيء حرفاً واحداً.

وأخبرني أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، المعروف بالحائمي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني جدك المظفر بن الحسن، قال: حدثني أبو العباس ابن القرات قال: حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن ثوبة، قال: كان الإفشين نقم على أبي دلف العجلي، وهو مضموم إليه في حرب بابل، أشياء، فلما ظفر بابل، وقدم سر من رأى، شكاه إلى المعتصم، وسأله ليأمره به، ففعل، ثم سأله أن يطلق يده عليه، فلم يفعل، وكان أحمد بن أبي دؤاد متعصباً لأبي دلف، يقول للمعتصم: إن الإفشين ظالم له، وإنما نقم عليه نصيحته في محاربة بابل، وجده فيها، ودفعه ما كان الإفشين ينهب إليه من مطاولة الأيام، وإنفاق الأموال، وانبساط اليد في الأعمال، وتركه متابعتها على ذلك.

فألح الإفشين على المعتصم بالله في إطلاق يده عليه، وكان للإفشين قدر جليل عند المعتصم، يدخل عليه بغير إذن. قال أبو إسحاق، وأنبأنا أبو عبد الله بن أبي دؤاد، قال: دخلت على المعتصم يوماً، فقال: يا أبا عبد الله، لم يدعني اليوم أبو الحسن الإفشين حتى أطلقت يده على القاسم بن عيسى.

فقممت من بين يديه، وما أبصر شيئاً خوفاً على أبي دلف، ودخلني أمر عظيم، وخرجت فركبت دابتي، وسرت أشيد سير من الجوسق إلى دار الإفشين بقرب المطيرة، أوئل أن أدرك أبا دلف قبل أن يحدث الإفشين عليه حادثة. فلما وقفت ببابه، كرهت أن أستأذن فيعلم أنني قد حضرت بسبب أبي دلف، فيعجل عليه، فدخلت على دابتي إلى

الموضع الذي كنت أنزل فيه، وأوهمت حاجبه أني قد جئت برسالة المعتصم، ثم نزلت، فرفع الستر، فدخلت، فوجدت الإفشين في موضعه، وأبو دلف مقيد بالحديد بين يديه في نطع، وهو يقرعه، ويخاطبه بأشد غضب وأعظم مخاطبة.

فحين قربت منه أمسك، فسلمت، وأخذت مجلسي، ثم قلت للإفشين: قد عرفت حرمتي بأمر المؤمنين، وخدمتي إياه، وموضعي عنده، وموقعي من رأيه، وتفردته بالصنيعة عندي والإحسان، وعلمت مع ذلك ميلي إليك، ومحبي لك، وقد رغبت إليك فيما يرغب فيه مثلي إلى مثلك، ممن رفع الله قدره، وأجل خطره، وأعلى همته. فقال: كل ما قلت كما قلت، وكل ما أردت فهو مبذول لك، خلا هذا الجالس، فإني لا أشفعك فيه.

فقلت: ما جئتك إلا في أمره، ولا ألتمس منك غيره، ولولا شدة غضبك، وما تتوعده به من القتل، لكان في جميل عفوك ما يغني عن كلامك، ولكني لما عرفت غيظك، وما تنقمه عليه، احتجت - مع موقعه مني - إلى كلمة في أمره، واستيهاب عظيم جرمه، إذ كان مثلك في جلالك إنما يسأل جلال الأمور.

فقال: يا أبا عبد الله، هذا رجل طلب دمي، ولم تقنعه إزالة نعمتي، ولا سبيل إلى تشفيك فيه، ولكن هذا بيت مالي، وهذه ضياعي، وكل ما أملك بين يديك، فخذ من ذلك كله ما أردت.

فقلت: بارك الله لك في أموالك وثمرتك، لم آتك في هذا، وإنما أتيتك في مكرمة يبقى لك فضلها، وحسن أحوالها، وتعتقد بما منة في عنقي، ولا أزال مرتعناً في شكرها.

فقال: ما عندي في هذا شيء البتة.

فقلت له: القاسم بن عيسى فارس العرب وشريفها، فاستبقه، وأنعم عليه، فإن لم تره لهذا أهلاً، فهبه للعرب كلها، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تنزل تفضل على ملوك العرب، ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملكه، وأنت الآن بقية العجم وشريفها، والقاسم شريف العرب، فكن اليوم شريفاً من العجم أنعم على شريف من العرب، وعفا عنه.

فقال: ما عندي في هذا جواب إلا ما سمعت، وتنكر، وتبينت الشر في وجهه.

فقلت في نفسي: أنصرف، وأدع هذا يقتل أبا دلف؟ لا والله، ولكن أمثل بين يديه قائماً، وأكلمه، فلعله أن يستحي، فقامت، وتوهمني أريد الانصراف، فحفز لي.

فقلت: لست أريد الانصراف، وإنما مثلت بين يديك قائماً، صابراً، راغباً، ضارعاً، سائلاً، مستوهباً هذا الرجل منك.

فكان جوابه أغلظ.

فتحيرت، وقلت في نفسي: أنكب على رأسه، فأقبله. فدخلني من ذلك أنف شديد، وقلت في نفسي: أقبل راس هذا الأقف؟ لا يكون هذا أبداً.

ثم راجعتني الشفقة على أبي دلف، فقبلت رأسه، وضرعت إليه، فلم يجني، فأخذني ما قدم وما حدث.

فجلست، وقلت له: يا أبا الحسن، قد طلبت منك، وضرعت إليك، ووضعت خدي لك، ومثلت بين يديك، وقبلت رأسك، فشفعني، واصرفني شاكراً، فهو أجمل بك.

فقال: لا والله، ما عندي غير الذي قلته لك.

فقلت له: أنا رسول أمير المؤمنين إليك، وهو يقول لك: لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً، فإنك إن قتلته قتلت به.

قال: أمير المؤمنين يقول هذا بعد أن أطلق يدي عليه؟ قلت: نعم، أنا رسوله إليك بما قتلته لك، فإن كنت في الطاعة فاسمع وأطع، وإن كنت قد خلعت، فقل: لا طاعة، ونفضت في وجهه يدي، ونهضت. فاضطرب حتى لم يقدر أن يدعو لي بدابتي.

وركبت، فأغذت السير إلى المعتصم، لأخبره الخبر، وبما اضطرت إليه من تأدية رسالته، لأني علمت أنه لم يقل لي ما قلته، إلا وهو يجب استبقاء أبي دلف. فانتهيت إلى الجوسق في وقت حار، والحجاب جميعاً نيام، والدار خالية، فدخلت حتى انتهيت إلى ستر الدار التي فيها المعتصم، فجلست، وقلت: إن جاء الإفشين دخلت معه وتكلمت، وإن سأل الوصول، أخبرت أمير المؤمنين الخبر كله.

فبينما أنا كذلك، إذ خرج خادم من وراء الستر، فعرفته، ثم دخل وخرج فقال: ادخل. فدخلت، وقلت: يا أمير المؤمنين، أما لي حرمة؟ أما لي ذمام؟ أما لي حق؟ أما في فضل أمير المؤمنين علي، ونعمته عيدي، ما تجب رعايته؟ فقال: ما لك يا أبا عبد الله؟ ما قصتك؟ اجلس، فجلست. ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قلت لي اليوم في القاسم بن عيسى قولاً علمت معه أنك أردت استبقائه وحقن دمه، فمضيت من فوري إلى أبي الحسن الإفشين، ثم قصصت عليه القصة إلى موضع الرسالة التي أديتها عنه إليه، وهو في كل ذلك يتغيظ، ويفتل سباله، حتى إذا أردت أن أعرفه الرسالة التي أديتها عنه، قطع، وقال: يمضي قاضي، وصنيعي أحمد بن أبي دؤاد إلى خيذر، فيخضع له، ويقف بين يديه، ويقبل رأسه، فلا يشفعه؟ قتلي الله إن لم أقتله، يكررها.

فما استوفى كلامه، حتى رفع الستر ودخل الإفشين، فلقية بأكبر البر والإكرام، وأجلسه بقربه، وقال: في هذا الوقت الحار يا أبا الحسن؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رجل قد عرفت ما نالني منه، وأنه طلب دمي، وقد أطلقت يدي عليه، يجيئني هذا، ويقول لي إنك بعثت إلي تأمرني أن لا أحدث فيه حدثاً، وأني إن قتلته قتلت به؟ قال: فغضب، وقال: أنا أرسلته إليك، فلا تحدث على القاسم بن عيسى حدثاً.

فنهض الإفشين مغضباً يلطم، واتبعته لأتلافاه، فصاح بي المعتصم: ارجع يا أبا عبد الله، فرجعت، وقلت: يا أمير المؤمنين، إنه كان بقي شيء ما جرى مني قطعني بكلامك عن ذكره لك. قال: تعني الرسالة؟ قلت: نعم.

قال: قد فهمتها، والقاسم يوافيك العشية، فاحذر أن تفوه بشيء مما جرى. ومضى الإفشين، فأطلق القاسم، وخلع عليه، وحمله، فجاءني القاسم من العشية. وما أخبرت بالحديث حتى قتل الإفشين ومات المعتصم.

### الصريفيني الكاتب يعلم العمال حسن الصرف

حدثني أبو الحسين علي بن هشام، قال: سمعت أبا الحسن علي بن عيسى، وأبا الحسن الإيادي الكاتب، يقولان: إنهما سمعا عبيد الله بن سليمان، يقول: كنت بحضرة أبي، في ديوان الخراج يسر من رأى، وهو يتولاه - إذ ذاك - إذ دخل علينا أحمد بن خالد الصريفيني الكاتب، فقام له أبي قائماً في مجلسه، وأقعدته في صدره، وتشاغل به، ولم ينظر في عمل حتى نهض، ثم قام معه، وأمر غلمانته بالخروج بين يديه.

فاستعظمت أنا، وكل من في الديوان ذلك، لأن رسم أصحاب الدواوين، صغارهم وكبارهم، أن لا يقوموا في الديوان لأحد من خلق الله عز وجل، ممن يدخل إليهم.

وتبين ذلك أبي في وجهي، فقال لي: يا بني، إذا خلونا، فسلي عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل.

قال: وكان أبي يأكل في الديوان، وينام فيه، ويعمل عشياً.

فلما جلسنا نأكل، لم أذكره، إلى أن رأيت الطعام قد كاد يتقضي، فقال لي: يا بني شغلك الطعام عن إذكاري بما قلت لك أن تذكرني به؟.

فقلت: لا، ولكن أردت أن يكون ذلك على خلوة.

فقال: يا بني، هذا وقت خلوة، ثم قال: أليس قد أنكرت، أنت والحاضرون، قيامي لأحمد بن خالد، في دخوله وخروجه، وما عاملته به؟.

فقلت: بلى.

قال: كان هذا يتقلد مصر، فصرفته عنها، وقد كانت طالت مدته فيها، فتبعته، فوطئت آثار رجل لم أجد أجمل منه آثاراً، ولا أعف عن أموال السلطان والرعية، ولا رأيت رعية لعامل أشكر من رعيته له.

وكان الحسين الخادم المعروف بعرق الموت صاحب البريد بمصر، من أصدق الناس له، وكان مع هذا من أبغض الناس، وأشدهم اضطراباً في أخلاقه، فلم أتعلق عليه بحجة.

ووجدته قد أخرج رفع الحساب لسنة متقدمة ولسنته التي هو فيها، ولم يستتمها لصر في له عنها، ولم ينفذه إلى الديوان، فسمته أن يحط من الدخل، وأن يزيد في النفقات والأرزاق، ويكسر من البقايا، في كل سنة مائة ألف دينار، لآخذها لنفسه، فامتنع من ذلك، فأغلظت له، وتوعدته ونزلت معه إلى مائة ألف واحدة للستين، وحلفت بأيمان مؤكدة، أي لا أقنع منه بأقل منها.

فأقام على امتناعه، وقال: أنا لا أخون لنفسه، فكيف أخون لغيري، وأزيل ما قام به جاهي من العفاف؟ فقيدته وحبسته، فلم يجب، وأقام مقيداً في الحبس شهوراً.

وكتب عرق الموت، صاحب البريد، إلى المتوكل يضرب علي ويحلف أن أموال مصر لا تفي بنفقتي ومؤنني، ويصف أحمد بن خالد، ويذكر ميل الرعية إليه، وعفته.

فبينما أنا ذات يوم على المائدة آكل، إذ وردت علي رقعة أحمد بن خالد، يسألني استدعاه لمهم يلقيه إلي، فلم أشك أنه قد غرض بالقييد والحبس، وقد عزم على الاستجابة لمرادي.

فلما غسلت يدي دعوته، فاستخالني، فأخليته، فقال: أما آن لك يا سيدي أن ترق لي مما أنا فيه، من غير ذنب أذنبته إليك، ولا جرم، ولا قديم ذحل، ولا عداوة.

فقلت: أنت اخترت لنفسك هذا، ولو أجبني إلى ما قد سمعت يميني عليه، لتخلصت، فاستجب لما أريد منك.

فأخذ يستعطفني، فجاءني ضد ما قدرته فيه، وغاطني، فشتمته، وقلت: هذا الأمر المهم الذي ذكرت في رقعتك أنك تريد أن تلقه إلي هو أن تستعطفني، وتسخر مني، وتخدعني.

فقال: يا سيدي، فليس عندك الآن غير هذا؟ فقلت: لا.

فقال: إذا كان ليس غير هذا، فافراً يا سيدي هذا.

وأخرج إلي كتاباً لطيفاً مختوماً في ربيع قرطاس، ففضضته، فإذا هو بخط المتوكل الذي أعرفه، إلي، بالانصراف، وتسليم ما أتولاه إلى أحمد بن خالد، والخروج إليه مما يلزمي، ورفع الحساب إليه، والامتثال لأمره.

فورد علي ذلك أقبح مورد، لقرب عهد الرجل بشتمني له، وأنه في الحال تحت مكارهي وحديدي، فأمسكت مبهوتاً.

ولم ألبث أن دخل أمير البلد في أصحابه وغلماؤه، فوكل بداري، وجميع ما أملكه، وبأصحابي، وغلماي، وجهابذتي، وكتابي، وجعلت أزحف من الصدر، حتى صرت بين يدي أحمد بن خالد وهو في قيوده. فدعا أمير البلد بمجداد، ففك قيوده، فمددت رجلي، ليوضع فيهما القيد، فقال لي: يا أبا أيوب، ضم أقدامك ووثب قائماً، وقال لي: يا أبا أيوب: أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد، ولا منزل لك فيه، ولا صديق، ومعك حرم وحاشية كبيرة، وليس تسعك إلا هذه الدار - وكانت دار العمالة - وأنا أجد عدة مواضع، وليس لي كبير حاشية، ومن نكبة خرجت، فأقم بمكانك.

وخرج، وصرف التوكيل عني، وعن الدار، وأخذ كتابي وأسبابي إليه. فلما انصرف، قلت لغلماي: هذا الذي نراه في النوم، انظروا من وكل بنا؟ فقالوا: ما وكل بنا أحد. فعجبت من ذلك عجباً شديداً، وما صليت العصر حتى عاد إلي جميع من حملة معه من المتصرفين والكتاب والجهابذة، وقالوا: أخذ خطوطنا برفع الحساب، وأمرنا باللازمة، وأطلقنا، فزاد عجيبي. فلما كان من الغد، باكرني مسلماً، ورحت إليه في عشية ذلك اليوم مسلماً عليه. فأقمت على ذلك ثلاثين يوماً، يغدو إلي، وأروح إليه، وربما غدوت أنا، وراح هو، وهدايا وأطافه تأتيني في كل يوم من الفاكهة، والطح، والحيوان، والحلوى. فلما كان بعد ثلاثين يوماً، جاءني، فقال لي: قد عشقت مصر يا أبا أيوب، والله ما هي طيبة الهواء. ولا عذبة الماء، وإنما تطيب بالولاية والاكتساب، ولو دخلت إلى سر من رأى، لما أقمت إلا شهراً حتى تنقلد أجل الأعمال. فقلت له: والله، ما أقمت إلا توقعاً لأمرك في الخروج. فقال: أعطني خط كاتبك، بأن عليه القيام بالحساب، وأخرج في حفظ الله، فأحضرت كتابي، وأخذ خطه كما أراد، وتسلمه، وقال: اخرج في أي وقت شئت. فخرجت من غد، فخرج هو وأمير البلد وخاصته، ووجه أهله، فشيعوني إلى ظاهر البلد، وقال لي: تقيم في أول منزل على خمسة فراسخ، إلى أن أزيح علة قائد يصحبك إلى الرملة، فإن الطريق فاسد. فاستوحشت من ذلك، وقلت: هذا إنما غربي حتى أخرج كل ما أملكه، فيتمكن منه في ظاهر البلد، فيقبضه، ثم يردني إلى الحبس والتوكيل والمطالبة، ويحج علي بكاتب يذكر أنه ورد عليه ثانياً. فخرجت، وأقمت بالمرحلة التي أمر بها، مستسلماً، متوقفاً للشر، إلى أن رأيت أوائل عسكر مقبل من مصر. فقلت: لعلة القائد الذي يريد أن يصحبي، أو لعلة الذي يريد أن يقبض علي به، فأمرت غلماي بمعرفة الخبر. فقالوا: قد جاء أحمد بن خالد العامل بنفسه.

فلم أشك إلا أن البلاء قد ورد بوروده، فخرجت من مضري، فلقيته وسلمت عليه، فلما جلس، قال: أخلوننا، فلم أشك أنه للقبض علي، فطار عقلي، فقام من كان عندي، ولم يبق غيري وغيره.

فقال: أعلم أن أيامك لم تطل بمصر، ولا حظيت بكبير فائدة، وذلك الباب الذي سألتني في ولايتك فلم استجب إليه، إنما أخرت الإذن لك في الانصراف من أول الأمر إلى الآن، لأني تشاغلته بالفراغ لك منه، وقد حطت من الارتفاع، وزدت في النفقات، في كل سنة خمسة عشر ألف دينار، تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار، وهو يقرب ولا يظهر، ويكون أيسر مما أردته مني ذلك الوقت، وقد تشاغلته به حتى جمعتك لك، وهذا المال على البغال قد جئتك

به، فتقدم إلى من يتسلمه.

فتقدمت بقبضه، وقبلت يده، وقلت: والله، قد فعلت يا سيدي ما لم تفعله البرامكة، فأنكر ذلك، وتقبض منه، وقبل يدي.

وقال: ها هنا شيء آخر أريد أن تقبله.

فقلت: وما هو؟ قال: خمسة آلاف دينار قد استحققتها من أرزافي، فامتنعت من ذلك، وقلت: فيما تفضلت به كفاية.

ثم قال: وها هنا أُلطاف من هدايا مصر، أحببت أن أصحبك إليها، فإنك تمضي إلى كتاب الدواوين ورؤساء الحضرة، فيقولون لك: وليت مصر، فأين نصيبنا من هداياها؟ ولم تطل أيامك، فبعد لهم ذلك، وقد جمعت لك منه ما يشتمل عليه هذا الثبت. وأخرج إلي درجاً فيه ثبت جامع لكل شيء في الدنيا حسن طريف، جليل القدر، من ثياب ديبقي، وقصب، وخدم، وبغال، ودواب، وحمير، وفرش، وطيب، وجوهر، حتى أقلام ومداد، ما يكون قيمته مالاَ كثيراً. فأمرت بتسلمه، وزدت في شكره.

فقال لي: يا سيدي، أنا مغرى بحب الفرش، وقد استعمل لي فرش بيت أرمني، وهو عشر مصليات بمخادها، ومساندها، ومساورها، ومطارحها، وبسطها، وهو مذهب، بطرز منبهة، قد قام علي بخمسة آلاف دينار، على شدة احتياطي، وقد أهديته لك، فإن أهديته للوزير عبدك، وإن أهديته للخليفة ملكته به، وإن أبقيته لنفسك وتجملت به، كان أحب إلي. قال: وحمله، فما رأيت مثله قط، ولا سمحت نفسي بإهدائه إلى أحد، ولا استعماله، وما ابتذلت منه شيئاً غير هذا الصدر ومسنده ومساوره، يوم إعدارك، أفتلومني على أن أقوم لهذا الرجل، يا بني؟ فقلت: لا والله يا أبت، ولا على ما هو أكثر من القيام، لو كان مستطاعاً. فكان أبي بعد ذلك، إذا صرف رجلاً، عامله بكل جميل، ويقول: علمنا أحمد بن خالد، حسن الصرف، أحسن الله جزاءه.

#### الخليفة المعتضد يتخير علي وزيره

حدثنا أبو علي الحسن بن محمد بن علي بن موسى الكاتب، الذي كان زوج ابنة أبي محمد المهلبي، وخليفته علي الوزارة، وكان جده محدثاً، قال: حدثني شيوخ الكتاب: أن القاسم بن عبيد الله الوزير، لما انفرد بالوزارة بعد موت أبيه، كان يحب الشرب، واللعب، ويخاف أن يتصل ذلك بالمعتضد، فيستنقصه، وينسبه إلى الصبيانية، والتهوك في اللذات، والنشاعل عن الأعمال، وكان لا يشرب إلا في الأحيين، على أخفى وأستر ما يمكنه. وأنه خلا يوماً مع جواريه، ولبس من ثيابن المصبغات، وأحضر فواكه كثيرة، وشرب، ولعب، من نصف النهار إلى نصف الليل، ونام بقية ليلته، وبكر إلى المعتضد على رسمه للخدمة، فما أنكر شيئاً. وبكر في اليوم الثاني، فحين وقعت عين المعتضد عليه، قال له: يا قاسم، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خلوتك، وألبستنا معك من ثيابك المصبغات.

قال: فقبل الأرض، وورى عن الصدق، وأظهر الشكر على هذا البسط، وخرج وقد كاد أن يتلف غماً لوقوف

المعتضد على هذا السر، وكيف رقى إليه، وأنه إذا لم يخف عليه هذا القدر من أمره، فكيف تخفى عليه مرافقه، فجاء إلى داره كئيباً.

وكان له في داره صاحب خبر جلد يرفع إليه الأمور، فأحضره، وعرفه ما جرى بينه وبين المعتضد، وقال له: ابحت لي عمن أخرج هذا الخبر، فإن فعلت، زدت في رزقك وأجزتك بكذا وكذا، وإن لم تخرجه، نفيتك إلى عمان، وحلف له على الأمرين.

فخرج صاحب الخبر من حضرته متحيراً كئيباً، لا يدري ما يعمل في يومه ذلك، مفكراً كيف يجتهد ويحتال، فما وقع له رأي يعمل عليه.

قال صاحب الخبر: فلما كان من الغد، بكرت إلى دار القاسم، زيادة بكور على ما جرى به رسمي، لقرط قلقي وسهري تلك الليلة، ومحيتي للبحث.

فجئت، ولم يفتح باب دار القاسم بعد، فجلست، فإذا برجل زمن يزحف، في ثياب المكدين، ومه مخلاة، كما تكون مع المكدين.

فلما جاء إلى الباب، جلس إلى أن فتح، فسابقتي إلى الدخول، فولع به البوابون، وقالوا له: أي شيء خبرك يا فلان؟، وصفوه، ومازحوه، ومازحهم، وطايهم، وشتموه، وشتمهم، وجلس في الدهليز.

فقال: الوزير يركب اليوم؟ قالوا: نعم، الساعة يركب.

قال: وأي وقت نام البارحة؟ قالوا: وقت كذا وكذا.

قالوا: وقت كذا وكذا.

فلما رأيته يسأل عن هذا، خنت عليه أنه صاحب خبر، فأصغيت إليه، ولم أره أني حافل بأمره وهو يسأل، إلى أن لم يبق شيئاً يجوز أن يعمل البوابون، عمن وصل إلى الوزير، ومن لم يصل، ومتى خرجوا، إلا سأهم عنه، وحدثه هم، أحاديث آخر، على سبيل القبول.

ثم زحف فدخل إلى حيث أصحاب الستور، فأخذ معهم في مثل ذلك، وأخذوا معه في مثله.

ثم زحف فدخل إلى دار العامة.

فقلت لأصحاب الستور: من هذا؟ فقالوا: رجل زمن فقير أبله طيب، يدخل الدار يتصدق ويتطايب، فيهب له الغلمان والمتصرفون.

فتبعته إلى أن دخل المطبخ، فسأل عما أكل الوزير، ومن كان معه على المائدة، وكل واحد يخبره بشيء، ثم خرج يزحف، حتى دخل حجرة الشراب، فلم يزل يبحث عن كل شيء، فيحدث به، ثم خرج إلى خزانة الكسوة، فكانت صورته كذلك، ثم جاء إلى مجلس الكتاب في الديوان، فتصدق، وأقبل يسمع ما يجري، ويسأل الصبي بعد الصبي، والحدث بعد الحدث، عن الشيء بعد الشيء، ويستخبر الخبر، في كل موضع من تلك المواضع، ويستقيه، ويخلط الجد بالمزح والتطايب بكلامه، والأخبار تنجز إليه، وتتساقط عليه، والقطع والزلات تحينه، وهو يملأ المخلاة، فلما فرغ من هذا، أقبل راجعاً يريد الباب.

إلى هنا باتفاق الروائتين، ثم قال أحدهما في حديثه فلما بلغ الباب، قبضت عليه، وأدخلته بيتاً، وأقفلت عليه،

وجلست على بابه، فلما خلا الوزير أعلمته به، فقال: أحضري الرجل.

وقال الآخر: فلما بلغ الباب تبعته، فخرج حتى جاء إلى موضع من الخلد، فدخل إليه، فوقفت أنظره، فإذا هو بعد ساعة، قد خرج شاباً بتياب حسان، ماشياً، بغير قلبة، فتبعته حتى جاء إلى دار بقرب دار الخادم الموكل بحفظ دار

ابن طاهر، فدخلها.

فسألت عنها، فقالوا: هذه دار فلان الهاشمي، رجل متجمل.

فرصدته إلى وقت المغرب: فجاء خادم من دار ابن طاهر، فذكر الباب، فكلمه من خوخة له، ففتح له ورمى إليه برقعة لطيفة، فأخذها الخادم وانصرف.

فجئت، فطلبت من الوزير غلماناً، فسلم إلي ما طلبت، فبكرت في السحر إلى الدار التي في الخلد، فإذا بالرجل قد جاء بزبه الذي دخل به داره بقرب دار ابن طاهر، فكبسته في الموضع، فإذا هو قد نزع تلك الثياب، ولبس ثياب المكدين التي رأيتها عليه أولاً.

فحملته، وغطيت وجهه، وكنمت أمره، حتى أدخلته دار القاسم، ودخلت إليه، فقصصت عليه الخبر.

اتفقت الآن الروايان فلما فرغ القاسم من شغله، استدعاه، فقال له: اصدقني عن أمرك، أو لا ترى ضوء الدنيا، ولا تخرج من هذه الحجره - والله - أبداً.

قال: وتؤمنني؟ قال: أنت آمن، فنهض لا قلبه به.

فتحير القاسم، وقال له: خبرك؟ فقال: أنا فلان الهاشمي، وأنا رجل متجمل، وأنا أتخبر عليك للمعتضد، منذ كذا وكذا، وأنزل في درب يعقوب، بقرب دار ابن طاهر، ويجري علي المعتضد في كل شهر خمسين ديناراً، فأخرج كل يوم من بيتي، بالزبي الذي لا ينكره جيراني فأدخل داراً في الخلد، بيدي منها بيت بأجرة، فيظن أهلها أنني منهم، ولا ينكرون تغيير الزبي.

فأخرج من هناك بمذه الثياب، وأتزامن من الموضع وألبس لحية فوق لحيتي، مخالفة للون لحيتي، حتى إذا لقيتني في الطريق - بالاتفاق - بعض من يعرفني، أنكرني.

فأمشي زحفاً من الخلد إلى دارك، فأعمل جميع ما حكاه صاحب خبرك، وأستقي أخبارك من غلمانك، وهم لا يعرفون غرضي فيخرجون إلي من الأسرار - بالاسترسال - ما لو بذل لهم فيه الأموال ما خرجوا به.

ثم أخرج فأجيء إلى موضعي من الخلد، فأغير ثيابي، وأعطي ذلك الذي اجتمع لي في المخلاة للمكدين، وألبس ثيابي التي يعرفني بها جيراني، وأعود إلى منزلي، فأكل، وأشرب، وألعب، بقية يومي.

فإذا كان المغرب جاءني خادم من خدم دار ابن طاهر، مندوب لهذا، فأرمني إليه من روزنة لي، رقعة فيها خبر ذلك اليوم، ولا أفتح له بابي.

فإذا كان بعد تسعة وعشرين يوماً، جاءني الخادم، فأنزل إليه، فأعطيه رقعة ذلك اليوم، ويعطيني جاري ذلك الشهر.

ولولا أنني لم أر صاحب خبرك، ولا فطنت له، لما تم علي هذا، ولو كنت لحظته لحظة واحدة، ما خفي علي أنه صاحب خبر، ولكنت أرجع من الموضع الذي أراه فيه، فلا يعرف خبري، وبعد ذلك، فإنما تم علي هذا، لأن أجلي قد حضر، فالله، الله، في دمي.

فقال له: اصدقني عما رفعتني إلى المعتضد عني، فحدثه بأشياء رفعها، منها خبر الثياب المصبغة.

قال: فحبسه القاسم أياماً، وأخفى أمره، وأنفذني إلى منزله، وقال: راع أمرهم، وأنظر ما يجري.

فمضيت إلى داره التي وصفها بدرب يعقوب، فجلست إلى المغرب، فجاء الخادم، فصاح به.

فقال له الجارية: ما رجعت اليوم، وهذه لم تكن عادته قط، وقد - والله - أشفقنا أن يكون قد حدثت عليه حادث لا نعرفه، وقامت قيامتنا، فانصرف الخادم، وانصرفت.



وعدت أيضاً المغرب من الغد، وجاء الخادم، فقالوا له: قد - والله - أيسنا منه، ولا نشك في أنه قد هلك، والمآتم قد أقيم عليه في منزل أبيه وعمومته.

فانصرف الخادم، وجئت إلى القاسم بالخبر.

فلما كان من الغد، ركب القاسم إلى المعتضد، فحين رآه استدناه، وساره، وقال له: يا قاسم، بحياتي، أطلق الهاشمي المتزامن، وأحسن إليه، وأنت آمن بعدها أن أنصب عليك صاحب خبر، ووالله لئن حدثت به حادثة، لا عرفت في دمه غيرك.

فقبل الأرض، وتلجلج، وانصرف، فعاد إلى منزله، وحمد الله إذ لم يعجل عليه بسوء، وأخبرنا الخبر، وجاء بالهاشمي، فخلع عليه، ووصله بمال له قدر، وصرفه. وانقطعت أخباره عن المعتضد.

### الوزير عبيد الله بن سليمان

حدثني أبو القاسم علي بن شهران، المتكلم، القاص، من أهالي عسكر مكرم، بما، قال: أخبرني أبو الحسين الحنصلي، ابن بنت ابنا المدبر، ببغداد، قال: قال لي أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح: جلس عبيد الله بن سليمان، يوماً، للمظالم، في دار المعتضد، وهو وزير، فتقدم إليه عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات، يتظلم من أحمد بن إسرائيل بسبب الضيعة المعروفة بتاصيت، فنظر في أمره، وقال له: أنت عمر بن محمد؟ قال: نعم.

قال: وأين كنت؟، فقص عليه أمره وخبره.

فقال له: أنت ابن سكران؟ فقال: نعم.

قال: فلما كان عشية يومنا ذلك، خلا، وكنت أنا وابناه بين يديه، فتحدث، وقال: سبحان الله، ما أعجب ما كنت فيه اليوم، فلم نسأله عن ذلك إجلالاً له.

فقال: قال لي أبو أيوب رحمه الله إنه كان في أيام الواثق، في تلك الملازمة والبلاء والضرب وليس الصوف والتقيد، وإنه حمل إلى محمد ابن عبد الملك الزيات لينظره ويرده إلى محبسه.

فوضع بين يديه على تلك الحال، فجعل ينظره، والحسن بن وهب، كاتبه حيثنذ، فرمما تكلم بالكلمة يرققه بما عليه، وربما أمسك، ومحمد نائب في الغلظة على أبي أيوب، والتشفي منه، إذ مر بعض الخدم بصبي يحمله، مترين، محضوب وعليه لبوس مثله من أولاد الملوك.

فقال محمد للخادم: هاته، فقربه إليه، فقبله، وترشفه، وضمه إليه، وجعل يلاعبه، فحانت منه التفاتة إلى أبي أيوب، فإذا دمعته قد سبقته، وهو يمسخها بالجبة الصوف التي كانت عليه.

فقال له محمد: ما الذي أبكاك؟ فقال: خير، أصلحك الله.

فقال: والله، لا ترح، أو تخبرني بالأمر على حقيقته.

فلما رأى ذلك أبو علي الحسن بن وهب، قال له: أنا أصلحك، إنه لما رأى عمر، متعك الله به، وجعلنا جميعاً فداه، ذكر ابناً له في مثل سنه.

قال: وما اسمه؟ قال: عبيد الله.

قال: وكانا ولداً في شهر واحد.

فالتفت إليه كالمهزىء، فقال له: أترأه يقدر أن يكون ابنه هذا وزيراً.

قال الحسن: فلما أمر بحمله إلى محبسه، التفت إلي، وقال: لولا أن هذا الأمر من أمور السلطان الذي لا سبيل إلى التقصير في مثله، لما سؤتك فيه، ولو أعانني على نفسه لخلصته.

فقال له الحسن: والله، ما رأيته منذ حبس، فإن رأيت أن تأمر بالعدول به إلى بعض المجالس، والإذن في القيام إليه، والخلوة به، لأشير عليه بامتنال أمرك.

فقال: افعل.

فقمتم إلى أبي أيوب، وتعانقنا، وبكىنا طويلاً.

فقال لي: قبل كل شيء، رأيت أعجب من بغيه علي، وقوله بالتطانز والهزء: أترأه يقدر أن ابنه هذا يكون وزيراً، فكيف يأمن أن يكون هذا؟ والله إني لأرجو أن يبلغ الله ابن الوزارة، ويتقدم إليه عمر متظلماً.

فلما كان اليوم، تقدم إلي عمر متظلماً، وما كنت رأيته قبل ذلك، ولا عرفت له خبراً.

ووقع إلي هذا الخبر، من وجه آخر، فحدثني به أبو الحسن أحمد بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول التتوخي، قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن الفتح المعروف بالمطوق، منوالةً، من كتابه: كتاب مناقب الوزراء، ومحاسن أخبارهم، قال: حدثني أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن عمر بن حفص الكاتب، عن أبيه، أبي القاسم عبد الله، أو عن أبي القاسم ميمون بن إبراهيم بن يزيد - الشك من المطوق - قال: كنا في مجلس أبي القاسم عبيد الله بن سليمان، وهو وزير، في يوم من أيام جلوسه للمظالم، فوقع بيده قصة، فقرأها، وتوقف ساعة كالمفكر، ثم قال: عمر بن محمد بن عبد الملك، فأدخل إليه.

فقال: أنت عمر؟ قال: نعم، أعز الله الوزير، أنا عمر بن محمد بن عبد الملك.

فتوقف أياض ساعة، ثم قام إلى خلوته، ولم يطل، وعاد إلى موضعه، فوقع له بجار، ونزل، وصلة، ولم يزل مفكراً، إلى أن تقوض الناس، وخلا المجلس ممن يحتشم.

فقال لنا: وقفتم على خبر هذا الرجل؟ قلنا: وقفنا على ما كان من أمر الوزير بیره، ولم نقف على السبب.

فقال: أخبركم بحديثه، حدثني أبو أيوب رحمه الله، قال: كنت في يد محمد بن عبد الملك الزيات، يطالني، وأنا منكوب، وكان يحضرنني في كل يوم، بغير سبب، ولا مطالبة، إلا ليكيدي، وأنا في قيودي، وعلي جبة صوف، وكان أحي الحسن يكتب بين يديه، ولم يكن ينتهياً له شيء في أمري، إلا أنه كان إذا رأي مقبلاً استقبلني فإذا رجعت إلى موضعي، شيعني، إذ أقبل في يوم من الأيام خادم لحمد، ومعه ابن له صغير، فوثب كل من في المجلس، إلى الصبي، يقبلونه، ويدعون له سواي، فإني كنت مشغولاً بنفسي، فلم أتحرك، وأخذ الصبي، وضمه إليه وقال لي: يا سليمان لم لم تفعل بهذا الصبي، ما فعله من في المجلس؟ فقلت: شغلني ما أنا فيه.

فقال: لا، ولكنك لم تطق ذلك عداوة لأبيه وله، وكأني بك، وقد ذكرت عبيد الله، وأملت فيه الآمال، والله، لا رأيت شيئاً مما تؤمله فيه، وأسرف بعد ذلك في الإسماع، فعلمت أنه قد بغي، ووثقت بجميل عادة الله تعالى، وأنه سيبلغني ما آمله فيك عناداً لبغيه.

قال: ولم تمض إلا مدة يسيرة، حتى سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك، وقلدني مناظرته، وإحصاء متاعه، فوافيت داره، فرأيت ذلك الخادم بعينه، ومعه ذلك الصبي يبكي.

فقلت: ما خبر هذا الصبي يبكي؟..

فقيل: قد منع من كل ماله، وأدخل في الإحصاء.

فقلت: لا بأس عليه، وسلمت إليه جميع ما كان باسمه.

فينبغي، يا بني، إن تهيات لك حال، ورأيت الصبي عمر بن محمد بن عبد الملك، أن تحسن إليه، وأن تقابل نعمة الله فيه وفيك، بما يجب لها.

فلما رأيته هذا الوقت، ذكرت ما قاله أبي، فامتثلت ما أشار به، وأنا أتقدم بعد الذي فعلت به، إلى أبي الحسين بتصريفه.

وكانت لعمر حركة قويت بما حاله عند أبي الحسين، إلى أن استخلفه في دار أبي النجم بدر، وبين يديه. حدثني أبو الحسين علي بن هشام بن عبد الله الكاتب، قال: حدثني أبو علي بن مقلة، قال: حدثني محمد بن سعيد الديناري.

قال أبو الحسين، وحدثني أبو عبد الله زنجي، قال: حدثني أبو العباس ابن الفرات، قال: وحدثني أبو عبد الله الباقر، قالوا كلهم: كنا بحضرة عبيد الله بن سليمان، أول وزارته للمعتضد، وقد حضر رجل رث الهيئة، بشياب غلاظ، فعرض عليه رقعة، وكان جالساً للمظالم، فقرأها قراءة متأمل لها، مفكراً، متعجباً، ثم قال: نعم، وكرامة - ثلاث مرات - أفعل ما قال أبي، لا ما قال أبوك، وكرر هذا القول ثلاث مرات.

ثم قال له: عد إلي وقت العصر، لأنظر في أمرك.

وقال لبدر العداامي حاجبه: إذا حضر، فأوصله إلي.

ثم قال: إذا خلونا، فذكروني خبر هذا، لأحدثكم بحديث عجيب، وأتم المجلس.

ثم قام، واستراح، ودعانا للطعام، فلما حضرنا، وأكلنا أكثر الأكل، قال: ما أراكم أذكرتموني حديث صاحب الرقعة؟ فقلنا: أنسينا.

قال: حدثني أبي، قال: كنت في مجلس محمد بن عبد الملك، في أيام الواثق، لما صادرني عن كتابة إيتاخ، على أربع مائة ألف دينار، وقد أدت منها مائتين ألفاً ونيماً وأربعين ألفاً فأحضرني يوماً، وطالني بالباقي، وجد بي، وأرهقني، ولم يرض مني إلى أن أجبت إلى أن أؤدي خمسين ألف دينار، قاطعة للمصادرة، على أن يطلق ضياعي.

قال: ونحن في ذلك، ولم يأخذ خطي بعد، إذ خرج إليه خادم من دار الحرم برقعة، فقرأها، ونهض، وكان بحضرته أخي أبو علي الحسن بن وهب، وهو غالب على أمره، إلا أنه يخافه أن يكلمه في أمري.

فلما قام الوزير، رمى إلي أخي برقعة لطيفة، فوقعت في حجري، فإذا فيها: جاءني الخبر الساعة من دارك، أن قد رزقت ابناً، خلقاً سوياً، وهو جسم بغير اسم، فما تحب أن يسمى ويكنى؟ فقلت: عبيد الله، أبو القاسم.

فكتب بذلك في الحال إلى منزلي.

قال: وتداخلني سرور بذلك، وقوة نفس، وحدثت نفسي، بأنك تعيش، وتبلغ، وأنتفع بك.

قال: وعاد محمد إلى مجلسه، وأعاد خطي، فلم أستجب له، إلى ما كنت أجبت إليه، وأخذت أذافع.

فقال لي: يا أبا أيوب، ما الذي ورد عليك بعدي؟ أرى عينيك ووجهك، بخلاف ما فارقك عليه منذ ساعة. فقلت: ما ورد علي شيء.

فقال: والله، لئن لم تصدقني، لأفعلن بك، ولأصنعن.

فقلت: ما عندي ما أصدق عنه.

فأقبل علي أخي، فقال له: أخبرني ما شأنه؟ فخافه أخي فصدقه عن الصورة، فسكن.

ثم قال: أتعرف لأي شيء قمت أنا؟

قلت: لا.

قال: كوتبت بأن ولدًا ذكراً سوياً قد ولد لي، فدخلت، ورأيت، وسميته باسم أبي، وكنيته بأبي مروان. قال سليمان: فممت إليه، فهنأته، وقبلت يديه، ورجليه، وقلت: أيها الوزير، هذا يوم مبارك، وقد رزقنا الله جميعاً، ولدين، فارحمي، وارع لي حق سالف خدمتي لك، واجعل ابني موسوماً بخدمة ابنك، يسلم معه في المكتب، يتعلم معه، وينشوان في دولتك، فيكون كاتباً له، فحملته الكرزاة، والقسوة التي فيه، على أن قال: يا أبا أيوب، أعلي تجوز ولي تستفتز وتحتال؟ قد حدثك نفسك، أن ابنك هذا سيبلغ المبالغ، ويؤهل للوزارة، ورجوت في نواب الزمان، وقلت: أرجو أن يحتاج ابنه إلى ابني، حتى يطلب منه الإحسان والفضل، وأنا استحلفك بالله، وأحرج عليك، إن بلغ ابنك هذه المنزلة، إلا وصيته، إن جاءه ابني لشيء من هذا، أن لا يحسن إليه. قال: فأعظمت هذا الخطاب، وتنصت، واعتذرت، ووقع في قلبي، في الحال، أن هذا غاية البغي، وأن الله - سبحانه وتعالى - سيحوج ابنه إلى ابني، ويتحقق ما قاله، فما مضت مديدة، حتى فرج الله عني. ثم قال لي: يا بني، إن رفعت الزمان، ووضع ابنه، حتى يحتاج إليك، فأحسن إليه. قال: وضرب الدهر ضربه، فما عرفت لأبي مروان خبراً، حتى رأيت اليوم فكان ما شاهدتم، ثم أمر بطلب أبي مروان، فأحضر، فوهب له مالاً، وخلع عليه، وحمله، وقلده ديوان البريد والخرايط. قال أبو الحسن: فما زال يتقلده منذ ذلك الوقت، إلى آخر وزارة ابن الفرات الثالثة، فإنه مات فيها، وقد تقلده ثلاثين سنة أو أكثر.

وكان يكتب عيد الله، أول ما كاتبه، بعد تقليده الديوان، عبد الوزير وخادمه، عبد الملك بن محمد، فأراد عيد الله أن يتكرم عليه، فقال له: أنت ابن وزير، وما أحب أن تتعبد لي، فاكتب اسمك فقط على الكتب. فقال: لا تسمح نفسي بذلك، ولكن أكتب: عبد الملك بن محمد، عبد الوزير وخادمه. فقال: افعل، فكتب ذلك، فصارت عاد له يكتب بها إلى جميع الوزراء من بعده، إلى أن مات في وزارة ابن الفرات الثالثة، فصار كالترتب عليهم بما عامله به من ذلك عيد الله، وغلب عليه أن عرف بأبي مروان الخرائطي، ونسبته إلى ابن الزيات، إلا من كان يعرفه من الكتاب وغيرهم، أخبرني بذلك جماعة من الشيوخ.

### أسد كالح وكبش ناطح وكلب نابح

وجدت في بعض الكتب، بغير أسانيد: أن عبيد الله بن زياد، لما بنى داره البيضاء بالبصرة، بعد قتل الحسين عليه السلام، صور على بابها رؤساً مقطعة، وصور في دهليزها، أسداً، وكبشاً، وكلباً، وقال: أسد كالح، وكبش ناطح، وكلب نابح.

فمر بالباب أعراي، فرأى ذلك، فقال: أما إن صاحبها لا يسكنها إلا ليلة واحدة لا تتم.

فرفع الخبر إلى ابن زياد، فأمر بالأعراي، فضرب، وحبس.

فما أمسى حتى قدم رسول ابن الزبير، إلى قيس بن السكون، ووجوه أهل البصرة، في أخذ البيعة له، ودعا الناس إلى طاعته، فأجابوه، وراسل بعضهم بعضاً في الوثوب عليه من ليلتهم، فأندره قوم كانت له صنائع عندهم، فهرب من داره في ليلته تلك، واستجار بالأزد، فأجاروه، ووقعت الحرب المشهورة بينهم وبين بني تميم بسببه، حتى أخرجوه، فألقوه بالشام، وكسر الحبس، فخرج الأعراي.

ولم يعد ابن زياد إلى داره، وقتل في وقعة الحازر.  
عبيد الله بن زياد

عبيد الله بن زياد ٢٨ - ٦٧: والي العراقين معاوية بن أبي سفيان، ولولده يزيد من بعده، وكانت أمه مرجانة جارية ولدته على فراش زياد، ثم تركها لمولى له أعجمي، اسمه شيرويه الأسواري، فنشأ عبيد الله في بيت الأسواري، فشب يرتضخ لكنة فارسية البيان والتبيين ١ - ٥٣ و ٥٤ و ٢ - ١٦٧ وكان الحسن البصري يسميه: الشاب المترف الفاسق، وقال فيه: ما رأينا شراً من ابن زياد أنساب الأشراف ٥ - ٨٣ و ٨٦، وقال الأعمش فيه: كان مملوءاً شراً ونغلاً أنساب الأشراف ٥ - ٨٣، وكان شديد القسوة في معاملة الناس، يتلذذ بعذيب ضحايه بيده، جيء إليه بسيد من سادات العراق، فأذناه منه، ثم ضرب وجهه بقضيب كان في يده، حتى كسر أنفه، وشق حاجبيه، ونثر لحم وجنته، وكسر القضيب على وجهه ورأسه مروج الذهب ٢ - ٤٤ وغضب على رجل، تمثل بآية من القرآن، فأمر أن يبني عليه ركن من أركان قصره الخاسن والمساويء ٢ - ١٦٥، وكان يقتل النساء في مجلسه، ويتشفى بمشاهدتهن يعذب، وتقطع أطرافهن بلاغات النساء ١٣٤ وأنساب الأشراف ٥ - ٨٩، فعاش مكروهاً عند أهل العراق الإمامة والسياسة ٢ - ١٦ سطر ١٣، ومروج الذهب ٢ - ٤٣ مهيناً عند أهل الحجاز الأغاني ١٨ - ٢٧٢ و ٢٨٢، وشر ما صنع قتله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب، في كربلاء، ولما مات يزيد بن معاوية، أغرى بعض البصريين أن يبايعوه، ثم جبن عن مواجهة الناس، فاستتر، ثم هرب إلى الشام، وعاد إلى العراق صحبة جيش، فحاربه إبراهيم بن مالك الأشتر، قائد جيش المختار بن أبي عبيد الثقفي، رأس المطالبين بتأر الحسين، فسقط قتيلاً في المعركة، فقال فيه الشاعر: معجم البلدان ٢ - ٩٠٣

إنّ الذي عاش ختاراً بدمته ... ومات عبداً، قتيل الله بالزباب  
أقول لما أتاني ثمّ مصرعه ... لابن الخبيثة وابن الكودن الكباي  
العبد للعبد لا أصل ولا ورق ... ألوت به ذات أظفار وأنياب  
ما شقّ جيب ولا ناحتك نائحة ... ولا بكنتك جباد عند أسلاب  
إنّ النايا إذا حاولن طاغية ... ولجن من دون أستار وأبواب

وكان عبيد الله بن زياد من الأكلة، كان يأكل جدياً، أو عناقاً يتخير له في كل يوم، فيأتي عليه، وأكر مرة عشر بطات وزيبلاً من عنب، ثم عاد فأكل عشر بطات، وزيبلاً من عنب، وجدياً أنساب الأشراف ٥ - ٨٦ وكان يأكل بعد الشبع أربع جرادق أصهبانية، وجبنة، ورتلاً عسلاً معجم الأدباء ٦ - ٩٥، قال عبيد الله، لقيس بن عباد: ما تقول فيّ، وفي الحسين؟ قال: اعفني، عافاك الله، قال: لا بد أن تقول، قال: يجيء أبوه يوم القيامة، فيشفع له، ويجيء أبوك، فيشفع لك، فقال عبيد الله: قد علمت غشك، وخبتك، لأضعن يوماً أكثرك شعراً بالأرض العقد القريرد ٢ - ١٧٥، راجع ترجمة عبيد الله المفصلة في أنساب الأشراف ٣ - ٧٧ - ١٢٣، وراجع كذلك صبح الأغشى ١ - ٤١٤ و ٤٢٥ و ٤٥٥ والأغاني ١٨ - ٢٠٤، ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٨٧ ومعجم الأدباء ٢ - ٩٠٣ ورسائل الجاحظ ص ١٨.

القرمطي يبعث رسولاً إلى المعتضد

حدثني القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي، قال: سمعت العباس بن عمرو الغنوي، يقول: لما أسرنى أبو سعيد الجنابي القرمطي، وكسر العسكر الذي كان أفضده المعتضد معي لقتاله، وحصلت في يده أسيراً، أيست من الحياة.

فإني يوماً على تلك الصورة، إذ جاءني رسوله، فأخذ قيودي، وغير ثيابي، وأدخلني إليه، فسلمت، وجلست.  
فقال لي: أتدري لم استدعيتك؟ قلت: لا.

قال: أنت رجل عربي، ومن الخيال أن أستودعك أمانة فتخفها، ولا سيما مع مني عليك بنفسك.  
فقلت: هو ذاك.

فقال: إني فكرت، فإذا لا طائل في قتلك، وأنا في نفسي رسالة إلى المعتضد، لا يجوز أن يؤديها غيرك، فرأيت  
إطلاقك، وتحميلك إياها، فإن حلفت لي أنك تؤديها، سيرتك إليه.  
فحلفت له.

فقال: تقول له: يا هذا لم تحرق هيبتك، وتقتل رجالك، وتطمع أعداءك في نفسك، وتتبعها في طلي، وإنفاذ الجيوش  
إلي، وإنما أنا رجل مقيم في فلاة، لا زرع فيها ولا ضرع، ولا غلة، ولا بلد، وقد رضيت لنفسي بحشونة العيش،  
والأمن على المهجة، والعز بأطراف الرماح، وما اغصبتك بلداً كان في يدك، ولا أزلت سلطانك عن عمل جليل،  
ومع هذا، فوالله لو أنفذت إلي جيشك كله، ما جاز أن تظفر بي، ولا تنالني، لأني رجل نشأت في هذا القشف،  
واعتدته أنا ورجالي، ولا مشقة علينا فيه، ونحن في أوطاننا مستريحون، وأنت تنفذ جيشك من الخيول والظبح،  
والريحان والند، فيجئون من المسافة البعيدة، والطريق الشاسع، وقد قتله السفر وشدة الجهد، أكبر أعواننا عليهم،  
عذراً في موافقتنا ساعة، ثم يهربون، وإن ثبتوا فإن ما يلحقهم من وعناء السفر وشدة الجهد، أكبر أعواننا عليهم،  
فما هو إلا أن أحقق عليهم حتى ينهزمون، وإن استراحوا، فأقاموا، وكانوا عدداً لا قبل لنا به، فيهزمونا، لا يقدر  
جيشك على أكثر من هذا، فأهزم عنهم مقدار عشرين فرسخاً، وأجول في الصحراء شهراً، ثم أكبهم على غرة،  
فأقتلهم، وإن لم يستو لي هذا، وكانوا متحززين، فما بمكهم الطواف خلفي في البراري والصحاري، ثم لا يحملهم  
البلد في المقام، ولا الزاد، إن كانوا كثيرين، فإن انصرف الجمهور منهم، وبقي الأقل، فهم قتلى سيوفي، في أول يوم  
ينصرف الجيش، ويبقى من يتخلف، هذا إن سلموا من وباء هذا البلد، ورداءة مائه وهوائه الذي لا طاقة لهم به،  
لأنهم نشأوا في ضده، وربوا في غيره، ولا عادة لأجسامهم بالصبر عليه، ففكر في هذا، وانظر، هل يفني تعبك،  
وتغريك بجيشك وعسكرك، وإنفاقك الأموال، وتجهيزك الرجال، وتكلفتك هذه الأخطار، وتحملك هذه المشاق،  
بطلبي، وأنا مع هذا خالي الذرع منها، سليم النفس والأصحاب من جميعها، وهيبتك تنحرق في الأطراف عند  
ملوكها، كلما جرى عليك من هذا شيء، ثم لا تظفر من بلدي بطائل، ولا تصل منه إلى مال ولا حال، فإن اخترت  
بعد هذا محاربتني، فاستخر الله عز وجل وأنفذ من شئت، وإن أمسكت، فذاك إليك.

قال: ثم جهزني، وأنفذني مع عشرة من أصحابه إلى الكوفة، فسرت منها إلى الحضرة.  
ودخلت على المعتضد، فتعجب من سلامتي، وقال: ما خبرك؟ فقلت: شيء أذكره سراً لأمير المؤمنين.  
فتشوف إليه، وخلا بي، فقصصت عليه القصة بأسرها، فرأيته يتمعظ في جلده غيظاً، حتى ظننت أنه سيسير إليه  
بنفسه.

وخرجت من بين يديه، فما رأيته ذكره بعد ذلك بحرف.

كفى بالأجل حارساً

حدثني أبو محمد يحيى بن محمد بن سليمان بن فهد الأزدي الموصلية، قال: حدثني بعض المواصلة، من ثقات أهل الموصل: أن فاطمة بنت أحمد بن علي الهزارمردى الكردي، زوجة ناصر الدولة، أم أبي تغلب ابنه، اهتمت عاملاً كان لها، يقال له ابن أبي قبيصة، من أهل الموصل، بخيانة في مالها، فقبضت عليه، وحسنته في قلعتها. ثم رأت أن تقتله، فكتبت إلى المتوكل بالقلعة، بقتله، فورد عليه الكتاب، وكان لا يحسن أن يقرأ ولا أن يكتب، وليس عنده من يقرأ ويكتب، إلا ابن أبي قبيصة، فدفع الموكل به الكتاب إليه وقال له: اقرأه علي. فلما رأى فيه الأمر بقتله. قرأ الكتاب بأسره، إلا حديث القتل، ورد الكتاب عليه. قال ابن أبي قبيصة: ففكرت، وقلت أنا مقتول، ولا آمن أن يرد كتاب آخر في هذا المعنى، ويتفق حضور من يقرأ ويكتب غيري فينفذ في الأمر، وسبيلي أن أحتال بحيلة، فإن تمت سلمت، وإن لم تتم، فليس يلحقني أكثر من القتل الذي أنا حاصل فيه.

قال: فتأملت القلعة، فإذا فيها موضع يمكنني أن أطرح نفسي منه إلى أسفلها، إلا أن بينه وبين الأرض أكثر من ثلاثة آلاف ذراع، وفيه صخر لا يجوز أن يسلم معه من يقع عليه. قال: فلم أجسر، ثم ولد لي الفكر أن تأملت الثلج قد سقط عدة ليال، وقد غطى تلك الصخور، وصار فوقها منه أمر عظيم، يجوز إن سقطت عليه وكان في أجلي تأخير، أن تنكسر يدي أو رجلي وأسلم.

قال: وكنت مقيداً، فممت لما نام الناس، وطرحت نفسي من الموضع، قائماً على رجلي، فحين حصلت في الهواء، ندمت وأقبلت أستغفر الله، وأتشهد، وأغمضت عيني حتى لا أرى كيف أموت، وجمعت رجلي بعض الجمع لأني كنت سمعت قديماً أن من اتفق له أن يسقط قائماً من مكان عال، إذا جمع رجليه، ثم أرسلهما إذا بقي بينه وبين الأرض ذراع أو أكثر قليلاً، فإنه يسلم، وتنكسر حدة السقطة، ويصير كأنه بمنزلة من سقط من ذراعين. قال: ففعلت ذلك، فلما سقطت إلى الأرض، ذهب عني أمرى، وزال عقلي، ثم تاب إلي عقلي، فلم أجد ما كان ينبغي أن يلحقني من ألم السقطة من ذلك المكان، فأقبلت أجس أعضائي شيئاً فشيئاً، فأجلها سالمة، وقمت وقعدت، وحركت يدي ورجلي، فوجدت ذلك سليماً كله، فحمدت الله تعالى على هذه الحال. وأخذت صخرة، وكان الحديد الذي في رجلي قد صار كالزجاج لشدة البرد، قال: فضربته ضرباً شديداً، فانكسر، وطن الجبل حتى ظننت أن سيسمعه من في القلعة لعظمه، فيتنبهون على صوته، فسلم الله عز وجل من هذا أيضاً، وقطعت تكتي، فشددت بعضها القيد على ساقي، وقمت أمشي في الثلج.

فمشيت طويلاً، ثم خفت أن يرى أثري من غد في الثلج على الحججة، فيطلبوني، ويتبعوني، فلا أفوقهم، فعدلت عن الحججة، إلى نهر يقال له: الخابور، فلما صرت على شاطئه، نزلت في الماء إلى ركبتي، وأقبلت أمشي كذلك فرسخاً، حتى انقطع أثري، وخفي مكان رجلي، ثم خرجت لما كادت أطرافى تسقط من البرد، فمشيت على شاطئه، ثم عدت أمشي فيه، وربما حصلت في موضع لا أقدر على المشي فيه، لأنه يكون جرفاً، فأسبح.

فأمشي على ذلك أربع فراسخ، حتى حصلت في خيم فيها قوم، فأنكروني، وهوا بي، فإذا هم أكراد، فقصصت عليهم قصتي، واستجرت بهم، فرحموني وغطوني، وأوقدوا بين يدي ناراً، وأطعموني، وستروني، وانتهى الطلب من غد إليهم، فما أعطوا خبري أحداً.

الطلب، سيروني، فدخلت الموصل مستتراً.

الدولة ببغداد - إذ ذاك - فأنحدرت إليه، فأخبرته بخبري كله، فعصمني من زوجته، وأحسن إلي، وصرفتني.

## يرتجع من مال مصادرتة مائة ألف دينار

حدثني أبو علي بن أبي عبد الله الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص الجوهري، قال: سمعت أبي يحدث، قال: لما نكبني المقتدر، وأخذ مني تلك الأموال العظيمة، أصبحت يوماً في الحيس آيس ما كنت من الفرج. فأتاني خادم، فقال: البشري.

فقلت: ما الخبر؟ قال: قم، فقد أطلقت.

فقمتم معه، فاجتاز بي في بعض الطرق في دار الخلافة، يريد إخراجي إلى دار السيدة، لتكون هي التي تطلقني، لأنها هي التي شفعت في، فوقعت عيني في جوازي على أعدال خيش لي أعرفها، وكان مبلغها مائة عدل. فقلت للخادم: أليس هذا من الخيش الذي حمل من داري؟ قال: بلى.

فتأملته، فإذا هو بشده وعلاماته، وكانت هذه الأعدال قد حملت إلي من مصر، وفي كل عدل منها ألف دينار، من مال كان لي بمصر، كتبت بحمله، فخافوا عليه من الطريق، فجعلوه في أعدال الخيش، لأنها مما لا يكاد يحمله اللصوص، لو وقعوا عليه، فلا يفتنون لما فيه، فوصلت سالمة، ولا استغنائي عن المال، لم أخرج من الأعدال، وتركته بحاله في بيت من داري، واقفلت عليه، وتوخيت أيضاً بذلك ستر حديثه، فتركته شهوراً على حاله لأنقله في وقت آخر كما أريد.

وكبست، فأخذ الخيش في جملة ما أخذ من داري، ولخسته عندهم تماونوا به، ولم يعرف أحد ما فيه، فطرح في تلك الدار.

فلما رأيته بشده، طمعت في خلاصه، والحيلة في ارتجاعه فسكت.

فلما كان بعد أيام من خروجي، راسلت السيدة، ورققتها، وشكوت حالي إليها، وسألته أن تدفع إلي ذلك الخيش، لأنه لا قدر له عندهم، وأنا أنتفع بثمنه.

قال: فاستحمتني، وقالت: أي شيء قدر الخيش؟ ردوه عليه، فسلم إلي بأسره.

ففتحته، وأخذت منه المائة ألف دينار، ما ضاع لي منها دينار واحد، وأخذت من الخيش ما أحاج إليه، وبعث باقيه بجملة وافرة.

فقلت في نفسي: قد بقيت لي بقية إقبال جيدة.

قد ينتفع الإنسان في نكبته بالرجل الصغير

حدثني علي بن هشام، قال: سمعت حامد بن العباس، يقول: ربما انتفع الإنسان في نكبته بالرجل الصغير، أكثر من منفعته بالكبير، فمن ذلك: أن إسماعيل بن بلبل، لما حبسني، جعلني في يد بواب كان يخدمه قديماً.

قال: وكان رجلاً حراً، فأحسن إلي، وبررتة، وكنت أعتمد على عناية أبي العباس بن القرات بي، وكان ذلك

البواب، لتقديم خدمته لإسماعيل، يدخل إلى مجالسه الخاصة، ويقف بين يديه، ولا ينكر عليه ذلك، لسالف خدمته.

فصار إلي في بعض الليالي، فقال: قد حرد الوزير على ابن القرات بسبيك، وقال له: ما يكسر المال على حامد

غيرك، ولا بد من الجد في مطالبته بباقي مصادرتة، وسيدعوك الوزير في غد إلى حضرته ويهددك.

فشغل ذلك قلبي، فقلت له: هل عندك من رأي؟ قال: نعم، تكتب رقعة إلى رجل من معامليك تعرف شحه وضيق

نفسه، تلتمس منه لعيالك ألف درهم، يقرضك إياها، وتلتمس منه أن يجيبك على ظهر رقعتك، لترجع إليك، فإنه

لشحه، يردك بعدر، وتحفظ بالرقعة، فإذا طالبك الوزير أخرجتها له على غير موطأة، وقلت له: قد أفضت حالي إلى



هذا، ففعل ذلك ينفعك.

قال: ففعلت ما قاله، وجاءني الجواب بالرد كما حننا، فشددت الرقعة معي. فلما كان من الغد، أخرجني الوزير، وطالبي، فأخرجت الرقعة، وأقرأته إياها، ورققته، وتكلمت بما أمكن، فاستحيا، وكان ذلك سبب خفة أمري، وزوال محنتي.

فلما تقلدت في أيام عبيد الله بن سليمان ما تقلدت، سألت عن الجواب، فاجذبتني إلى خدمتي، وكنت أجري عليه خمسين ديناراً في كل شهر، وهو باق إلى الآن.

### أبو العتاهية يجبس لامتناعه عن قول الشعر

أخبرني أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، قال: حدثني عمي الحسن ابن محمد، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه، قال: حدثني محمد ابن أبي العتاهية، قال حدثني أبي، قال: لما امتنعت من قول الشعر، وتركته، أمر المهدي بجبسي في سجن الجرائم، فأخرجت من بين يديه إلى الحبس. فلما أدخلته دهشت، وذهل عقلي، ورأيت منظرًا هالني.

فرميت بطرفي أطلب موضعاً آوي فيه، أو رجلاً آنس بمجالسته، فإذا أنا بكهل حسن السميت نظيف الثوب، تبين عليه سيماء الخير، فقصدته، فجلست إليه من غير أن أسلم عليه، أو أسأله عن شيء من أمره، لما أنا فيه من الجزع والحيرة.

فمكنت كذلك ملياً، وأنا مطرق مفكر في حالي، فأنشد الرجل:

تعودت مسّ الضرّ حتى ألفتة ... وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر

وصيرني يأسى من الناس واثقاً ... بحسن صنيع الله من حيث لا أدري

قال: فاستحسنيت البيتين، وتبركت بهما، وثاب إلي عقلي، فأقبلت على الرجل، فقلت له: تفضل، أعزك الله، بإعادة هذين البيتين.

فقال لي: ويحك يا إسماعيل - ولم يكني - ما أسوأ أدبك، وأقل عقلك ومروءتك، دخلت، فلم تسلم علي تسليم المسلم على المسلم، ولا توجهت لي توجع المبتلى للمبتلى، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم، حتى إذا سمعت مني بيتين من الشعر الذي لم يجعل الله فيك فضلاً ولا أدباً، ولا جعل لك معاشاً غيره، لم تذكر ما سلف منك فتتلافاه، ولا اعتذرت مما قدمته، وفرطت فيه من الحق، حتى استشدتني مبتدئاً، كأن بيننا أنساً قديماً، أو معرفة سالفة، أو صحبة تبسط المنقبض.

فقلت له: تعذرني مفضلاً، فإن دون ما أنا فيه ما يدهش.

فقال: وفي أي شيء أنت؟ أنت إنما تركت قول الشعر الذي كان به قوام جاهك عندهم، وسببك إليهم، فحبسوك حتى تقول، وأنت لا بد أن تقول، فتطلق، وأنا يدعى بي الساعة، فأطالب بإحضار عيسى بن زيد، وهو ابن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإن دلت عليه، لقيت الله عز وجل بدمه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، خصمي فيه، وإن لم أفعل، قتلت، فأنا أولى بالدهش والحيرة منك، وأنت ترى احسائي وصبري.

فقلت: يكفيك الله عز وجل، وأطرقت خجلاً منه.

فقال لي: لا أجمع عليك التوبيخ والمنع، اسمع البيتين واحفظهما، فأعادهما علي مراراً حتى حفظتهما.

ثم دعي به وبي، فلما قمنا، قلت له: من أنت أعزك الله؟ قال: أنا حاضر، صاحب عيسى بن زيد.

فأدخلنا على المهدي، فلما وقفنا بين يديه، قال له: أين عيسى بن زيد؟ قال: ما يدريني أين عيسى بن زيد، طلبته، وأخفته، فهرب منك في البلاد، وأخذتني، فحبستني، فمن أين أقف على موضع هارب منك وأنا محبوس؟ قال له: فأين كان متوارياً، ومتى آخر عهدك به، وعند من لقيته؟ قال: ما لقيته منذ توارى، ولا أعرف عنه خبراً. قال: والله، لتدلني عليه، أو لأضربن عنقك الساعة.

فقال: اصنع ما بدا لك، أنا أدلك على ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتقتله، وألقى الله عز وجل، ورسوله، وهما مطالبنا لي بدمه؟، والله لو كان بين جلدي، وثوبي، ما كشفت عنه. فقال: اضربوا عنقه.

فقدم، فضربت عنقه من ساعته.

ثم دعاني، فقال: أتقول الشعر، أو ألحقتك به؟ فقلت: بل أقول الشعر. قال: أطلقوه.

قال محمد بن القاسم بن مهرويه: والبيتان اللذان سمعهما أبو العنابية، من حاضر، هما في شعره الآن.

قال القاضي أبو علي: وأنشدني بعض أصحابنا، بيتاً آخر، زيادة:

إذا أنا لم أقنع من الدهر بالذي... تكرّهت منه طال عتبي على الدهر  
ووجد على مسطرة علي بن أحمد، رحمه الله تعالى، بيت رابع لهذا، وهو:  
ووسّع صدري للأذى كثرة الأذى... وقد كنت أحياناً يضيق به صدري

### الفيض بن أبي صالح ومروءته

وجدت في كتاب أعطانيه أبو الحسين عبد العزيز بن إبراهيم، ابن حاجب النعمان، وهو يومئذ كاتب الوزير المهلي، على ديوان السواد، وذكر أنه نسخه من كتاب أعطاه إياه أبو الحسين عبد الواحد بن محمد الخصيبي، وكان فيه إصلاحات بخط أبي الحسين بن ما بن دناد: قال أبو الحسن علي بن الحسين ابن عبد الأعلى الإسكافي: كان داود، كاتب أم جعفر، قد حبس وكيلاً لها، وجب لها عليه في حسابه مائتا ألف درهم، فكتب الرجل إلى عيسى بن فلان، وإلى سهل بن الصباح، وكانا صديقين له، يسألهما الركوب إلى داود في أمره، فركبا إليه. فلقبها الفيض بن أبي صالح، فسألها عن خبرهما، فأخبراه، فقال لهما: أتجبان أن أكون معكما. قالوا: نعم.

فصاروا إلى داود، فكلموه في إطلاق الرجل، فقال: أكتب إلى أم جعفر، فكتب إليها، يعلمها خبر القوم وحضورهم، ومسألتهم إطلاق الوكيل.

فوقعت في الرقعة أن يعرفهم ما وجب لها عليه من المال، ويعلمهم أنه لا سبيل إلى إطلاقه دون أداء المال.

قال: فأقرأهم التوقيع، فقال عيسى وسهل بن الصباح: قد قضينا حق الرجل، وقد أبت أم جعفر أن تطلقه إلا بالمال، فقوموا نصرف.

فقال لهما الفيض بن أبي صالح: كأننا إنما جئنا لنؤكد حبس الرجل.

قالا له: فماذا نصنع؟ قال: تودي المال عنه.

قال: ثم أخذ الدواة، فكتب إلى وكيله في حمل المال عن الرجل كتاباً دفعه إلى داود كاتب أم جعفر، وقال: قد أزحنا

علتك في المال، فادفع إلينا صاحبنا.  
قال: لا سبيل إلى ذلك، حتى أعرفها الخبر.  
قال: فكتب إليها بالخبر، فوقعت في رقعة: أنا أولى بهذه المكرمة من الفيض بن أبي صالح، فردد عليه كتابه بالمال،  
وادفع إليه الرجل، وقل له لا يعاود مثل ما كان منه.  
قال: ولم يكن الفيض يعرف الرجل، وإنما ساعد عيسى وسهلاً على الكلام في أمره.  
كيف تخلص أعشى همدان من أسر الديلم  
أخبرني أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، قال: أخبرني الحسن ابن علي، قال: حدثنا الحسن بن عليل العنزي،  
عن محمد بن معاوية الأسدي، عن ابن كناسة.  
وحدثني مسعود بن بشر، عن أبي عبيدة، والأصمعي.  
ووافق روايتهم الهيثم بن عدي، عن حماد الراوية، قال: كان أعشى همدان، أبو المصباح، ممن أغراه الحجاج بلد  
الديلم، ونواحي دستي، فأسر، فلم يزل أسيراً في أيدي الديلم مدة.  
ثم إن بنتاً للعلاج الذي كان أسره، رآته، فهويته، فصارت إليه ليلاً، وأمكنته من نفسها، فأصبح، وقد وقعها ثمانى  
مرات.  
فقلت له الديلمية: يا معشر المسلمين، هكذا تفعلون بنسائكم؟ فقال لها: هكذا نفعل كلنا بنسائنا.  
فقال له: بهذا العمل نصرتم، أفرايت إن خلصتك، أن تصطفييني لنفسك؟ فقال لها: نعم، وعاهدها.  
فلما كان الليل، حلت قيوده، وأخذت به طريقاً تعرفه، حتى خلصته.  
فقال شاعر من أسراء المسلمين:  
ومن كان يفديه من الأسر ماله ... فهمدان تغديها الغداة أيورها  
وقال الأعشى، يذكر ما لحقه من أسر الديلم له:  
لمن الطعائن سيرهنّ ترخّف ... عوم السفين إذا تقاعس مجذف  
وذكر أبو الفرج الأصبهاني القصيدة، وهي طويلة، اخترت منها ما تعلق بالفرج بعد الشدة، وهو قوله:  
أصبحت رهناً للعداة مكبلاً ... أمسي وأصبح في الأدهم أرسف  
ولقد أراي قبل ذلك ناعماً ... جدلان آبي أن أضام وآنف  
واستكرت ساقى الوثاق وساعدي ... وأنا امرؤ بادي الأشاجع أعجف  
وأصابني قوم وكنت أصيهم ... فالآن أصبر للزمان وأعرف  
وإذا تصبك من الحوادث نكبة ... فاصبر لها فلعلها تتكشّف  
ويروى: فكل مصيبة ستكشف.

### يحتال للخلاص من حبس نجاح بن سلمة

وذكر ابن عبوس في أخبار الوزراء: أن نجاح بن سلمة، حبس إبراهيم بن المدبر مكابدة لأخيه، وذلك في أيام  
المتوكل.  
فلما طال حبس إبراهيم، ولم يجد حيلة في الخلاص، عمل أبياتاً، وأنفلها إلى المسدود الطنبوري، وسأله أن يعمل فيه

لحناً، ويعني بها المتوكل، فإذا سأل عن قاتلها، عرفه أنها له.  
ففعل المسلود ذلك، وسأله المتوكل، فقال: لعبدك إبراهيم بن المدبر، فذكره، وأمر بإطلاقه.  
والأبيات هي:

بأبي من بات عندي ... طارقاً من غير وعد  
بات يشكو ألم الشو ... ق وأشكو فرط وجدي  
وتجنّي فبكي فان ... هل درّ فوق ورد  
فيدّ تحت يدٍ طو ... رأ وخذّ فوق خدّ  
يهب أحد أتباعه خمسة آلاف ألف درهم

وذكر أيضاً أن إسحاق بن سعد، قال: حدثني أبو عبد الله محمد بن عيسى المروزي صاحب يحيى بن خاقان، عنه،  
قال: كان المأمون الزماني خمسة آلاف ألف درهم، فأعلمته أنني لا أملك إلا سبعمائة ألف درهم، وحلفت له على  
ذلك، بأيمان مغلظة، اجهدت فيها، فلم يقبل مني، وحبسني عند أحمد بن هشام، وكان بيني وبينه شر قد اشتهر  
وعرف، وكان يتقلد الحرس.

فقال أحمد للموكلين بي: احفظوه، واحذروا أن يسم نفسه.

ففظن المأمون المراده، فقال: لا يأكل يحيى بن خاقان، ولا يشرب إلا ما يؤتى به من منزله.

قال: فأقمت على ذلك مدة، فوجه إلي الحسن بن سهل بألف ألف درهم، ووجه إلي فرج الرخجي بألف ألف  
درهم، ووجه إلي حميد الطوسي بألف ألف درهم، وأضفت ذلك إلى ما كان عندي، واضطربت حتى جمعت خمسة  
آلاف ألف درهم.

فلما اجتمعت، كتبت إلى المأمون بحضور المال الذي أزماني إياه، فأمر بإحضاري، فدخلت إليه وبين يديه أحمد بن أبي  
خالد، وعمرو بن مسعدة، وعلي بن هشام.

فلما رأيته، قال لي: أولم تخبرني وتحلف لي أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف درهم، فمن أين لك هذا المال؟ فصدقته عن  
أمره، وقصصت القصة عليه.

فأطرق طويلاً، ثم قال لي: قد وهبته لك.

فقال له الحضور: أئب له خمسة آلاف ألف، وليس في بيت المال درهم واحد، وأنت محتاج إلى ما دون ذلك بكثير  
؟ فلو أخذته منه قرضاً، فإذا جاءك مال رددته عليه.

فقال لهم: أنا على المال أقدر من يحيى، وقد وهبته له.

فرددت إلى القوم ما كانوا حملوه، وتخلصت.

يتنازل لأحد أتباعه عن عشرة آلاف ألف درهم

قال محمد بن عبدوس في كتابه أخبار الوزراء: ذكر الفضل بن مروان، أن محمد بن يزيد سعى إلى المأمون بعمر بن  
بهنوي.

فقال له المأمون: يا فضل، خذ عمراً إليك، وقيدة، وضييق عليه، ليصدق عما صار إليه من مال الفياء، فقد اختان  
مالاً عظيماً، وطالبه به.

فقلت: نعم، وأمرت بإحضار عمرو، فأحضر، فأخليت له حجرة في داري، وأقمت له ما يصلحه، وتشاغلته عنه  
بأمور السلطان، في يومي وفي الغد.

فلما كان في اليوم الثالث، أرسل إلي عمرو يسألني الدخول عليه، فدخلت، فأخرج إلي رقعة، قد أثبت فيها كل ما يملكه من الدور، والضياع، والعقار، والأموال، والقرش، والكسوة، والجوهر، والقماش، والكراع، وما يجوز بيعه من الرقيق، وكان قيمة ذلك عشرون ألف ألف درهم، وسألني أن أوصل رقعته إلى المأمون، وأعلمه أن عمراً قد جعله من ذلك كله في حل وسعة.

فقلت له: مهلاً، فإن أمير المؤمنين أكبر قدراً من أن يسلبك مالك كله، ونعمتك عن آخرها. فقال عمرو: إنه لكما وصفت، في كرمه، ولكن الساعي لا ينام عني ولا عنك، وقد بلغني ما أمرت به في أمري من الغلظة، وما عاملتني بضد ذلك، وقد طبت نفساً بأن اشتري عدل أمير المؤمنين في أمري، ورضاه عني، بجميع مالي. فلم أزل أنزله، حتى وافقته على عشرة آلاف ألف درهم، وقلت له: هذا شطر مالك، وهو صالح للفريقين، وأخذت خطه بالتزام ذلك صلحاً عن جميع ما جرى على يده. وصرت إلى المأمون فوجدت محمد بن يزيد وقد سبقني إليه وهو يكلمه، فلما رأي قطع الكلام وخرج فقال لي المأمون: يا فضل.

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: ما هذه الجرأة منك علينا؟

قلت: يا أمير المؤمنين، أنا عبد طاعتك وغرسك.

فقال: أمرتك بالتضييق على النبطي عمرو بن مهنوي، فقابلت أمري بالضد، ووسعت عليه، وأقمت له الأنزال. فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن عمراً يطالب بأموال عظيمة، ولم آمن أن أجعل محبسه في بعض الدواوين فيبذل مالاً يرغب في مثله، فيتخلص، فجعلت محبسه في داري، وأشرفت على طعامه وشرابه، لأحرس لك نفسه، فإن كثيراً من الناس خانوا السلطان، وتمتعوا بالأموال، ثم طولبوا بها، فاحتيل عليهم أن يتلقوا، ويفوز بالأموال غيرهم. قال الفضل: وإنما أردت بذلك تسكين غضب المأمون علي، ولم أعرض الرقعة عليه، ولا أعلمته ما جرى بيني وبين عمرو، لأني لم آمن سورته في ذلك الوقت، لاشتداد غضبه.

فقال لي: سلم عمراً إلى محمد بن يزيد، قال: فوجهت من ساعتني، من سلم عمراً إلى محمد بن يزيد، فلم يزل يعذبه بأنواع العذاب، ليبذل له شيئاً، فلم يفعل.

فلما رأى أصحابه وعماله، ما قد ناله، جمعوا له بينهم ثلاثة آلاف ألف درهم، وسألوا عمراً أن يبذلها لمحمد بن يزيد، فبذلها، فصار محمد إلى المأمون متبجحاً بها، فأوصل الخط بها إلى المأمون، وأنا واقف.

فقال المأمون: يا فضل، ألم أعلمك، أن غيرك أقوم بأمرنا منك، وأطوع لما نأمره به؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أرجو أن أكون في حال استبطاء أمير المؤمنين أعزه الله، أبلغ في طاعته من غيري.

فقال المأمون: هذه رقعة عمرو بن مهنوي بثلاثة آلاف ألف درهم.

فقلت، وما اجترأت عليه قط، جرأتني عليه في ذلك اليوم، فإني خرجت إلى إضبارة كانت مع غلامي، فأخذت الرقعة منها مسرعاً، وقلت: والله، لأعلمن أمير المؤمنين، أي مع رفيقي، أبلغ في حياطة أمواله من غيري مع غلظته، وأريته رقعة عمرو التي كان كتبها لي، وحدثته بحديثه عن آخره.

فلما تبين المأمون الخطين، وعلم أنهما جميعاً خط عمرو، قال: ما أدري أيكما أكرم، عمرو حين شكر برك، وطاب نفساً بالخروج عن ملكه بهذا السبب، أم أنت، ومحافظتك على أهل النعم، وسترك عليه في ذلك الوقت، والله، لا كنتما يا نبطيان، أكرم مني.

ودفع الرقعة التي أخذها محمد بن يزيد من عمرو إلي، وأمرني بتخريقها، وتخريق الأولة، وأنفذ من سلم عمراً من محبسه إلي، وأمرني بإطلاقه.  
فخرجت من بين يديه، وفعلت ذلك من وقتي.

### أبو عمر القاضي يشيب في ليلة واحدة

حدث أبو الحسين عبد الله بن أحمد بن الحارث بن عياش الحرزي البغدادي، وكان خليفة أبي رحمه الله على القضاء بسوق الأهواز، المشهور الذي كان صاهر أبا عمر القاضي، قال: حدثني القاضي أبو عمر رحمه الله، قال: لما جرى في أمر ابن المعتز ما جرى، حبست وما في لحيتي طاقة بيضاء، وحبس معي أبو المثنى القاضي ومحمد بن داود الجراح في دار واحدة، في ثلاثة آيات متلاصقة، وكان بيئي في الوسط.

وكنا آيسين من الحياة، فكنت، إذا جننا الليل، حدثت أبا المثنى تارة، ومحمد بن داود تارة، وحدثاني من وراء الأبواب، ويوصي كل منا إلى صاحبه، ونحن نتوقع القتل ساعة بساعة.  
فلما كان ذات ليلة، وقد غلقت الأبواب، ونام الموكلون بنا، ونحن نتحدث في بيوتنا، إذ حسسنا بصوت الأقفال تفتح، فارتعنا، ورجع كل واحد منا إلى صدر بيته.

فما شعرنا إلا وقد فتح الباب عن محمد بن داود، فأخرج، وأضجع ليذبح، فقال: يا قوم، ذبحاً كما تذبح الشاة، أين المصادرات، أين أنتم عن أموال أفندي بما نفسي؟ علي كذا وكذا.

قال: فما التفتوا إلى كلامه، وذبحوه، وأنا أراه من شق الباب، وقد أضاء الصحن، وصار كأنه نهار من كثرة الشموع، واحترقوا رأسه، وأخرجوه معهم، وجروا جنته، فطرح في بئر الدار، وغلقت الأبواب، وانصرفوا.  
قال: فأيقنت بالقتل، وأقبلت على الصلاة، والدعاء، والبكاء.

فما مضت إلا ساعات يسيرة، حتى سمعت أصوات الأقفال تفتح، فعاودني الجزع، وإذا هم قد جاؤوا إلى بيت أبي المثنى القاضي، ففتحوه، وأخرجوه، وقالوا له: يقول لك أمير المؤمنين، يا عدو الله، يا فاسق، بم استحلت نكث بيعتي، وخلع طاعتي؟ فقال: لأبي علمت، أنه لا يصلح للإمامة.

فقالوا له: إن أمير المؤمنين، قد أمرنا باستتابتك من هذا الكفر، فإن تبت رددناك إلى محبسك، وإلا قتلناك.  
فقال: أعوذ بالله من الكفر، ما أتيت ما يوجب الكفر.

قال: وأخذ يتهوس معهم بهذا الكلام وشبهه، ولا يرجع عنه.

فلما أيسوا منه، مضى بعضهم وعاد، فظننت أنه يستبث في الاستئذان، قال: ثم أضجعوه، فذبحوه، وأنا أراه، وحملوا رأسه، وطرحوا جنته في البئر.

قال: فذهب علي أمرني، وأقبلت على البكاء، والدعاء، والتضرع إلى الله جل وعز.

فلما كان وجه السحر، وقد سمعت صوت الدباب، وإذا صوت الأقفال، فقلت: لم يبق غيري، وأنا مقتول، فاستسلمت، وفتحوا الأبواب عني، وأقاموني إلى الصحن، وقالوا: يقول لك أمير المؤمنين، يا فاعل، يا صانع، ما حملك على نكث بيعتي؟

فقلت: الخطأ، وشقوة الجد، وأنا تائب إلى الله عز وجل من هذا الذنب.

قال: وأقبلت أتكلم بهذا وشبهه، فمضى بعضهم، وعاد فقال: أجب، ثم أسر إلي، فقال: لا بأس عليك، فقد تكلم

فيك الوزير - يعنون ابن الفرات - وأنت مسلم إليه، فسكنت قليلاً، وجاؤوني بحفي، وطيلسانى، وعمامتي، فلبست ذلك، وأخرجت، فجيء بي إلى الدار التي كانت برسم ابن الفرات في دار الخليفة، فلما رأني، يخاطبني بعظم جنائتي وخطأي، وأنا أقر بذلك، وأستقيل، وأتصل.

ثم قال لي: قد وهب لي أمير المؤمنين ذنبك، وابتعت منه جرمك بمائة ألف دينار، ألزمتك إياها.

فقلت: أيها الوزير، ما رأيت بعضها قط مجتمعاً.

فغمزني بأن أسكت، وجذبتني قوم من وجوه الكتاب، كانوا ورائي، فسكتوني، فعلمت أن الوزير ابن الفرات، أراد تخليصي، وحقن دمي.

فقلت: علي كل ما يأمر الوزير أعزه الله.

فقال: احمלוه إلى داري.

قال: فأخذت، وحملت إلى داره، فقرر أمري على مائة ألف دينار، على أن أؤدي منها النصف عاجلاً، ويصبر

النصف في حكم الباطل على رسم المصادرات.

فلما صرت في دار ابن الفرات، وسع علي في المطعم، والمشرب، والملبس، وأدخلت الحمام، ورفهت، وأكرمت. فرأيت، لما خرجت من الحمام، وجهي في المرأة، فإذا طاقات شعر قد ابيضت في مقدم لحيتي، فإذا أنا قد شبت في تلك الليلة الواحدة.

قال: وأديت من المال نيفاً وثلاثين ألف دينار، ثم نظر لي ابن الفرات بالباقي وصرمني إلى منزلي، وتخلص دمي. وأقمت في بيتي سنين، وبابي مسدود، لا أرى أحداً، إلا في الشاذ، وتوفرت على دراسة الفقه، والنظر في العلم، إلى أن من الله بالفرج، فكشف ما بي، وأخرجت من بيتي إلى ولاية الأعمال.

قضى ليلته معلقاً في بادهنج

ويشبه هذا الحديث، ويقاربه، وإن لم يكن في الحقيقة من باب من خرج من حبس، إلا أنه من أخبار الفرج في الجملة، ما حدثني به أبو علي الحسن بن محمد بن علي بن موسى الأنباري الكاتب، صهر أبي محمد المهلبى الوزير، قال: سمعت دلويه، كاتب صافي الحرمي، يتحدث، قال: كان في دار المقتدر بالله، عريف على بعض الفراشين، يخدمني وصافياً إذا أقمنا في دار الخليفة، ففقدته في الدار، وظننته عليلاً، فلما كان بعد شهور، رأيتني في بعض الطرق، بزي التجار، وقد شاب.

فقلت: فلان؟ قال: نعم، عبدك يا سيدي.

فقلت: ما هذا الشيب في هذه الشهور اليسيرة، وما هذا الزي؟ وأين كنت؟ فلجلج.

فقلت لغلماني: احملوه إلى داري، وقلت: حدثني حديثك.

فقال: على أن لي الأمان والكتمان.

فقلت: نعم.

فقال: كان الرسم الذي تعرفه على كل عريف في الدار من الفراشين، أن يدخل يوماً من الأيام، هو ومن معه في عرفته، إلى دور الحرم، لرش الخيول التي فيها.

فبلغت النبوة إلي، في يوم كنت فيه مخموراً، فدخلت، ومعى رجالي، إلى دار فلانة - وذكر حظية جلييلة من حظايا المقتدر بالله - لرش الخيش.

فلعظم ما كنت فيه من الخمار، ما رششت قربتي، ولم أخرج بخروج الرجال، وقلت لهم: امضوا، فهاتوا قربكم

لإتمام الرش، فإذا رششتموها فأنبهوني، فإني نائم هنا.

ودخلت خلف الخيش، إلى باب بادهنج تخرج منه ريح طيبة، فتمت، وغلب علي النوم، إلى أن جاء الفراشون، وفرغوا من رش الخيش، وخرجوا، ولم ينبهوني. وتمادى بي النوم، فما انتبهت إلا بجرعة في الخيش، فقممت، فإذا أنا قد أمسيت، وإذا صوت نساء في الخيش، فعلمت أنني مقتول إن أحس بي، وتحيرت فلم أدر ما أعمل، فدخلت البادهنج، وكان ضيقاً، فجعلت رجلي على حائطي البادهنج وتسلفت فيه، ووقفت معلقاً، أترقب أن يفطن لي، فأقتل. وإذا بنسوة فراشات يكنسن الخيش، فلما فرغن من ذلك فرشنه، وعبي فيه مجلس الشراب.

ولم يكن بأسرع من أن جاء المقتدر بالله، وعدة جوارى، فجلس وجلسن، وأخذ الجوارى في الغناء، وأنا أسمع ذلك كله، وروحي تكاد تخرج، فإذا أعييت، نزلت فجلست في أرض البادهنج، فإذا استرحت، وخفت أن يفطن بي، عدت فتسلقت، إلى أن مضت قطعة من الليل، ثم عن للمقتدر أن جذب إليه حظيته التي هي صاحبة تلك الدار، فانصرف باقي الجوارى، وخلا الموضع، فواقع المقتدر بالله الجارية، وأنا أسمع حركتهما وكلامهما، ثم ناما في مكانهما، ولا سبيل لي إلى النوم لحظة واحدة، لما أقاسي من الخوف. ففكرت في أن أخرج وأصعد إلى بعض السطوح، ثم علمت أنني إن فعلت ذلك، تعجلت القتل، ولم يجز أن أنجو. فلم تنزل حالي تلك إلى أن انتبه المقتدر بالله في السحر، وخرج من الموضع. فلما كان من غد نصف النهار، جاء عريف آخر من الفراشين، ومعه رجاله، فرشوا الخيش، فخرجت فاختلطت بهم.

فقالوا: أيش تعمل ها هنا؟ فأومأت إليهم بالسكوت، وقلت: الله، الله، في دمي، فإن حديشي طويل، فتذموا أن يفضحوني.

وقال بعضهم: ما بال حيتك قد شابت؟ فقلت: لا أعلم، وأخذت ماء من قربة بعضهم، فرطبت به قريني، وخرجت بخروجهم.

فلما صرت في موضع من دار الخليفة، وقعت مغشياً علي، وركبني حمى عظيمة وذهب عقلي، فحملني الفراشون إلى منزلي، وأنا لا أعقل، فأقمت مبرسماً مدة طويلة. وقد كنت عاهدت الله تعالى، وأنا في البادهنج، إن هو خلصني، أن لا أخدم أحداً أبداً، ولا أشرب النبيذ، وأقلعت عن أشياء تبت منها.

فلما تفضل الله تعالى بالعافية، وفيت بالنذر، وبعث أشياء كانت لي، وضممتها إلى دراهم كانت عندي، ولزمت دكاناً لحمي أتعلم فيه التجارة معه، وأتجر، وتركت الدار، فما عدت إليها إلى الآن، ولا أعود أبداً إلى خدمة الناس، ولا أقص ما تبت منه. قال: ورأيت لحيته وقد كثر فيها الشيب.

ابن القرات يصفح عن أساء إليه

حدثني أبو الحسين علي بن هشام، قال: كان أبو الحسن بن القرات، لما ولي الوزارة الأولى، وجد سليمان بن الحسن يتقلد مجلس المقابلة في ديوان الخاصة، من قبل علي بن عيسى، والديوان كله - إذ ذاك - إلى علي بن عيسى، فقلد



أبو الحسن بن الفرات، سليمان، الديوان بأسره فأقام يتقلده نحو سنتين.  
فقام ليلة في دار ابن الفرات يصلي المغرب، فسقطت من كفه رقعة، فرآها بعض من حضر، فأخذها، ولم يفتن لها  
سليمان، وقرأها، فوجدتها سعاية، بخطه، بابن الفرات وأسبابه، إلى المقنن بالله، وسعيًا لابن عبد الحميد، كاتب  
السيدة، في الوزارة، فتقرب بها إلى ابن الفرات، فقبض على سليمان في الوقت، وأخذها في زورق مطبق إلى واسط،  
فحبسه بها، وصادره، وعذبه، فكان في العذاب دهرًا، وأيس منه.

فبلغ ابن الفرات، أن أم سليمان بن الحسن قد ماتت ببغداد، وأنها كانت تتمنى رؤيته قبل موته، فاغتم لذلك،  
وتذكر المودة بينه وبين أبيه الحسن ابن مخلد، فبدأ، وكتب إليه بخطه كتاباً أقرأه سليمان بن الحسن بعد سنين كثيرة  
من تلك الحال، فحفظته، ونسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، ميزت - أكرمك الله - بين حقتك وجرمك، فوجدت  
الحق يوفي على الجرم، وتذكرت من سالف حرمك، في المنازل التي فيها ربيت، وبين أهلها غذيت، ما ثناني إليك،  
وعطفني عليك، وأعادني لك إلى أفضل ما عهدت، وأجمل ما ألفت، فتق - أكرمك الله - بذلك، وأسكن إليه،  
وعول في صلاح ما اختل من أمرك عليه، وأعلم أي أراعي فيك، حقوق أليك، التي تقوم بتوكيد السبب، مقام  
اللحمة والنسب، وتسهل ما عظم من جنائتك، وتقلل ما كثر من إساءتك، ولن أدع مراعاتك، والحفاظة عليها  
بمشيئة الله تعالى، وقد قللتك أعمال دستميسان لسنة ثمان وتسعين ومائتين، وبقايا ما قبلها، وكتبت إلى أحمد بن  
محمد بن حبش، بحمل عشرة آلاف درهم إليك، فتقلد هذه الأعمال، وأثر فيها أثراً جميلاً يبين عن كفايتك ويؤدي  
إلى ما أبعيه من زيادتك، إن شاء الله تعالى.

قال أبو الحسين: أحمد بن حبش هذا، كان وكيل ابن الفرات في ضياعه بواسط.

أراد أن يسير بسيرة الحجاج فقتلوه

وجدت في بعض الكتب: أن عمر بن عبد العزيز، ولى محمد بن يزيد، مولى الأنصار، إفريقية، فكان حسن السيرة  
فيها، فلما مات عمر بن عبد العزيز، وولى يزيد بن عبد الملك الأمر، صرفه، وولى يزيد ابن أبي مسلم كاتب  
الحجاج ابن يوسف.

فلما ورد يزيد إفريقية، حبس محمد بن يزيد، وتسلط عليه، وطالبه بأموال لم تكن عنده.

ثم إن يزيد بن أبي مسلم أجمع أن يصنع بأهل إفريقية، مثل ما صنع الحجاج بن يوسف بأهل العراق، في رده من من  
الله عليه بالإسلام، إلى بلده ورستاقه، وأخذهم بالخراج، فبلغ ذلك أهل إفريقية، فتراسلوا في قتله، وتساعوا فيه سراً  
حتى تم لهم أمرهم، فوثبوا عليه وهو يصلي، فقتلوه وقد سجد، وجاؤوا إلى حبسه، فأخرجوا محمد بن يزيد، فردوه  
إلى الإمارة، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنا لم نخلع يداً من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به  
الله عز وجل، ولا المسلمون، من كيت وكيت، فقتلناه، وولينا محمد بن يزيد، ووصفوا جميل سيرته.

فكتب إليهم يزيد: إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم، وقد أمرت محمداً عليكم.

وقد مضى هذا الخبر بروايات غير هذه الرواية، وسياقة غير هذه السياقة، فيما تقدم من هذا الكتاب.

### سياسة الحجاج المخربة

تشير الفقرة ٥ إلى لون من ألوان السياسة المخربة التي اتبعها الحجاج خلال مدة حكمه، تلك السياسة التي كانت  
من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة بني مروان السيادة العربية، فان فلوتن ٤٤ وخربت العراق تحريماً تاماً.

فقد فرض على أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد، من أهل الذمة فأسلم، بالعراق، أن ردهم إلى قراهم ورسابقيهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم على كفرهم وفيات الأعيان ٦ - ٣١١ إذ أن هؤلاء لما أسلموا، كتب عمال الحجاج إليه، بأن الخراج قد انكسر، وأن أهل الذمة قد أسلموا، ولحقوا بالأمصار، فأمر بإخراج أهل القرى إلى قراهم، وأن تؤخذ منهم الجزية، على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار ابن الأثير ٤ - ٤٦٤ و ٥ - ١٠١.

فاجتمع إلى ابن الأشعث، أهل الكوفة، وأهل البصرة، والقراء، وأهل الثغور، والمسالح، وتضافروا على حرب الحجاج ابن الأثير ٤ - ٤٦٩ وكان من جملة كتبهم كتيبة تضم حملة القرآن، وتسمى كتيبة القراء ابن الأثير ٤ - ٤٧٢.

ولما ثار أهل العراق على الحجاج، واحتشدوا لحره، استجد بعبد الملك، فأمده بجند من أهل الشام بلاغات النساء ١٢٥ فأنزلهم في بيوت أهل الكوفة، وهو أول من أنزل الجند في بيوت الناس ابن الأثير ٤ - ٤٨٢.

ولما قتل ابن الأشعث، قال الحجاج: الآن فرغت لأهل السواد، فعمد إلى رؤسائهم، وأهل بيوتاتهم من الدهاقين، فقتلهم صبراً، وجعل كلما قتل من الدهاقين رجلاً، أخذ أمواله، وأضر بمن بقي منهم إضراراً شديداً، فخربت الأرض أدب الكتاب للصولي ٢ - ٢٢٠.

وانبثقت في زمن الحجاج، بثوق، أغرقت الأراضي، فلم يعن الحجاج بسدها، مضارة للدهاقين، لأنه كان أتمهم بممالة ابن الأشعث حين خرج عليه فتوح البلدان ٢٩١.

وكانت عاقبة هذه السياسة الخرقاء، أن جباية سواد العراق، وكانت على عهد الخليفة عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف درهم، نزلت في عهد الحجاج إلى ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط، ثم ارتفعت في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم أحسن التقاسيم للمقدسي ١٣٣ فقال عمر بن عبد العزيز: لعن الله الحجاج، فإنه ما كان يصلح للدنيا، ولا للأخرة، فإن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، جبي العراق، بالعدل والنصفة، مائة ألف ألف، وثمانية وعشرين ألف ألف درهم، وجباه الحجاج مع عسفه وجبروته ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط، قال عمر: وها أنا قد رجعت إلي على خرابه، فجبيته مائة ألف ألف درهم وأربعة وعشرين ألف ألف درهم، بالعدل والنصفة معجم البلدان ٣ - ١٧٨.

ومما يدل على عقلية الحجاج القاسدة، أنه لما حرب السواد من جراء إفراطه في الظلم وفي سوء الجباية، تخيل أن الانقطاع عن الزراعة، إنما كان لقللة الماشية التي تعين الفلاحين على حوث الأرض، فأصدر أمره بتحريم ذبح البقر، فقال الشاعر: الأغاني ١٦ - ٣٧٨

شكونا إليه خراب السواد ... فحرّم فينا حوم البقر  
فكنا كمن قال من قبلنا ... أريها السها وتريني القمر

وقد سمى الناس سليمان بن عبد الملك، مفتاح الخير، لانه أذهب عنهم سنة الحجاج، وأخلى السجون، وأطلق الأسرى وفيات الأعيان ٢ - ٢٤٠، ولما تولى يزيد بن المهلب العراق، نظر في نفسه، وقال: إن العراق قد أخرجها الحجاج، وأنا اليوم رجاء أهل العراق، ومتى أخذت الناس بالخراج، وعذبتهم عليه، صرت مثل الحجاج، أدخل على الناس الخراب، وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها، وفيات الأعيان ٦ - ٢٩٦ و ٢٩٧، ولما خرج يزيد بن المهلب، بالعراق، بايعه الناس، على كتاب الله، وسنة نبيه، وأن لا تعاد عليهم سيرة القاسق الحجاج وفيات الأعيان ٦ - ٣٠٤.

وليس الحجاج هو الملولم وحده على سياسته المخربة، فإن عبد الملك بن مروان الذي سلطه على العراق، هو الملولم الأول على ذلك، فالحجاج سيئة من سيئات عبد الملك واسطة السلوك ٢٠٩، ويحق لعبد الملك أن يجذر من الله تعالى لأن من يكن الحجاج بعض سيئاته، يعلم أي شيء يقدم عليه ابن الأثير ٤ - ٥٢١.

وقد كان عبد الملك مطلعاً تمام الاطلاع على سياسة الحجاج المخربة، وقد كتب إليه مرة يقول: إن رأيك الذي يسول لك أن الناس عبيد العصا، هو الذي أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك، وإذا أخرجت العامة بعنف السياسة، كانوا أوشك وثوباً عليك عند الفرصة، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي، ولا هداه، إذا رجوا بذلك إدراك التار منك، وقد ولي العراق قبلك ساسة، وهم يومئذ أحمى أنوفاً، وأقرب من عمياء الجاهلية، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم العقد القريد ٥ - ٤٥.

وظلت سيرة الحجاج في الظلم والعسف، تلور مع التاريخ، ويتذاكرها الناس خلفاً عن سلف، حتى حيكت حولها الروايات، ورتبت بشائها القصص، فذكروا أن أعرابياً سأله الحجاج: كيف سيرة أميركم الحجاج؟ فقال: غشوم ظلوم، لا حياه الله، ولا بياه، فقال له: لو شكوتموه إلى أمير المؤمنين، فقال الأعرابي: هو أظلم منه وأغشم، عليه لعنة الله الملح والنوادر للحصري ١٥.

وذكروا أن رجلاً رأى في منامه الحجاج بن يوسف، فقال له: ما حالك؟ فقال: ما أنت وذاك، لا أم لك، فقال: سفيه في الدنيا، سفيه في الآخرة المحاسن والمساوىء ٢ - ١٤.

راجع ترجمة الحجاج في حاشية القصة ٦٧ من هذا الكتاب، وبجئاً عن ساديته في حاشية القصة ١٤٩ من الكتاب، وراجع بقية أخبار الحجاج في الطبري ٦ - ٢٠٢ و ٣٢٠ و ٣٨٠ - ٣٨٨ و ٤٨١ و ٤٨٢ و ٤٨٨ و ٨ - ٦٩ وابن الأثير ١ - ٤٨١ و ٤ - ٣٥٩ و ٤٣٤ و ٤٦٢ و ٥٠٤ و ٥ - ٣٧ و ٥١ والأغاني ٦ - ٦٧ و ٦٨ و ١٤٥ و ١٩٢، ٢٠١ و ٢٠٦ و ٢٤٦ و ٨ - ٧٥ والعقد القريد ٢ - ١٧٤ و ١٧٥ و ٣٢٤ و ٣٥٤ و ٣ - ٤٧٧ و ٤ - ١١٩ و ٥ - ٣٧ و ٣٨، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٥، ٥٧، ٥٩ والعيون والحدائق ١٩ والبيان والتبيين ١ - ٢١ و ٢٢ و ١٩٣ و ٢ - ٢٩، ٨٤ وشذرات الذهب ١ - ١٠٦ - ١٠٨ ومروج الذهب ٢ - ١١٢، ١١٢، ١٩٤، ولطائف المعارف ١٤١ والإمامة والسياسة ٢ - ٤٧ و ٤٨ وتاريخ يعقوبي ٢ - ٢٧٤، ٢٩١، ٢٩٥ والامتناع والمؤانسة ٣ - ١٧٨ و ١٨٢ والمحاسن والمساوىء ١ - ١٠٠، ٢٢٠ والمعارف لابن قتيبة ٥٤٨ والفهرست ٢٠٢ وتاريخ الخلفاء ١٧٩.

#### فتنة تنور ببغداد فتفرج عن بريء محبوس

حدثني البهلول بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي، قال: حدثني أبو علي، الوكيل على أبواب القضاة ببغداد، ويعرف بالناقذ، قال: كنت أقيم خبر الحسبين في المطبق بمدينة السلام، في أيام المقتدر بالله، فرأيت في المطبق رجلاً مغلولاً، على ظهره لبنة من حديد، فيها ستون رطلاً، فسألته عن قصته، فقال: أنا والله مظلوم. فقلت له: كيف كان أمرك؟ قال: كنت ليلة من الليالي، في دعوة صديق لي بسوق يجي، فخرجت من عنده مغلساً، وفي الوقت فضل وأنا لا أعلم، فلما صرت في قطعة من الشارع، فإذا مشاعل الطائف، فرهبت، ولم أدر ما أعمل، فرأيت شريحة مشوشة، ففتحتها، ودخلت، ورددتها كما كانت، وقمت في الدكان، ليجوز الطائف وأخرج.

وبلغ الطائف الموضع، فرأى الشريحة مشوشة، فقال: فتشوا هذا الدكان.

فدخلت الرجالة بمشعل، رأيت ضوته رجلاً في أرض الدكان مذبوحاً، على صدره سكين، فجذعت.

فأرى الرجالة ذلك الرجل، ورأوني قائماً، فلم يشكوا في أبي القاتل.  
فأخذني صاحب الشرطة فحسني، ثم عرضت فضربت ضرباً شديداً، وعوقبت أصنافاً من العقوبات، وأنا أنكر،  
وعندهم أبي أتجد، وهم يزيدوني.

فاجتمع أهلي، وكانت لهم شعب بأسباب السلطان، فتكلموا فيّ واستشهدوا خلقاً كثيراً على سيرتي، فبعد شذائد  
ألوان، أعفيت من القتل، ونقلت إلى المطبق وثقلت بهذا الحديد، وتركت على هذه الصورة، منذ ست عشرة سنة.  
قال: فاستعظمت محنته، وبهت من حديثه، فقال: ما لك، والله ما آيس مع هذا من فضل الله عز وجل، فإن من ساعة  
إلى ساعة فرجاً.

قال: فوالله، ما خرج كلامه من فيه، حتى ارتفعت ضجة عظيمة، وكسر الحيس، ووصلت العامة إلى المطبق  
ومطاميره وأخرجوا كل من هناك، وخرج الرجل في جملتهم.  
وانصرف وأنا أريد منزلي، وإذا نازوك قد قتل، والفتنة قد ثارت، وفرج الله عن الرجل، وعن جميع أهل الحبوس.

### الصدفة تنجي عامل كوئي من القتل

وبلغني عن رجل من أهل كوئي، قال: كان يتقلد بلدنا رجل عامل من قبل أبي الحسن بن الفرات، في بعض وزاراته،  
فافتتح الخراج واشتد في المطالبة.

وكان في أطراف البلد قوم من العرب قد زرعوا من الأرض ما لا يتجاسر الأكرة على زراعته، وكان العمال  
يسامحونهم ببعض ما يجب عليهم من الخراج.

فطالبهم هذا العامل بالخراج على التمام أسوة بالأكرة، وأحضر أحدهم فحقق عليه المطالبة، وهو ممتنع، فأمر  
بصفعه، فصفع حتى أدى الخراج، وانصرف، فشكا إلى بني عمه، فتوافقوا على كبس العامل ليلاً، وقتله، وراسلوا  
في ذلك غيرهم من العرب، واتعلوا لليلة بعينها.

فلما كان اليوم الذي تليه تلك الليلة، ورد إلى الناحية عامل آخر، صارفاً للأول، فقبض عليه، وصفعه، وضربه  
بالمقارع، وأخذ خطه بمال، وقيده، وأمر بأن يحمل إلى قرية أخرى على فراسخ من البلد، فحبس فيها، ووكل به  
عشرة من الرجالة، وسيره مرة ماشياً، ومرة على حمار من حمير الشوك، فكاد مما لحقه أن يتلف، وحصل في تلك  
القرية.

وكان له غلام قد رباه، وهو خصيص به، عارف بجميع أموره، فهرب عند ورود الصارف، فلما كان من الغد، لم  
يشعر المصروف الحبوس إلا بغلامه الذي رباه قد دخل عليه، وكان مجيئه إليه أشد عليه من جميع ما لحقه إشفافاً على  
الغلام، وعلى نفسه مما يعرفه الغلام، أن يكون قد دل عليه.

فقال له: ويحك، وقعت في أيديهم؟ فقال له الغلام: من هم؟ هات رجلك حتى أكسر قيودك، وتقوم فتدخل  
بغداد.

فقال له: وأين الرجالة الموكلون بي؟ فقال: يا مولاي قد فرج الله عز وجل عنك، وهربت الرجالة.  
قال: فما السبب؟ قال: إن الأعراب الذين كنت صفعت منهم واحداً، وطالبتهم بالخراج، كبسوا البارحة دار  
العمالة، وعندهم أنك أنت العامل، وكانوا قد عملوا على قتلك، ولم يكن عندهم خير صرفك، ولا خير ورود هذا  
العامل، فقتلوه على أنه أنت، وقد هرب أصحابه، وأهل البلد كافة، فقم حتى نمشي إلى بغداد، لا يبلغهم خبر

كونك هنا، فيقصدوك، ويقتلونك.

فكسر القيد، وقام هو وعلامه، يميشيان على غير جادة، إلى أن بعدا، ودخلا قرية، واستأجرا منها ما ركبا إلى بغداد. ولقي المصروف الوزير، وشنع على المقتول، وقال: قد أفسد الناحية، وأثار فتنة مع العرب، فأقره الوزير على الناحية، وضم إليه جيشاً.

فعاد إلى كوثى، وتحصن بالجيش، وساس أمره مع العرب، إلى أن صالحهم، وحط لهم من الخراج عما كان طالبهم به، وأجرى أمرهم على رسومهم، وسكنوا إليه وسكن إليهم، وزال خوفه واستقام له أمر عمله.

الأمين يغاضب عمه إبراهيم بن المهدي ثم يرضى عنه

أخبرني أبو الفرج الأموي، المعروف بالأصبهاني، قال: أخبرني عمي الحسن بن محمد، قال: أنبأنا عبد الله بن أبي سعد، قال: حدثني هبة الله ابن إبراهيم بن المهدي، عن أبيه، قال: غضب علي الأمين في بعض هناته، فسلمني إلى كوثر الخادم، فحبسني في سرداب، وأغلقه علي، فمكثت فيه ليلتي.

فلما أصبحت، إذا أنا بشيخ قد خرج علي من زاوية السرداب، فدفع إلي وسطاً، فأكلت، ثم أخرج إلي قنينة شراب، فشربت، وقال غنّ لي:

لي مدّة لا بدّ أبلغها ... فإذا انقضت أيامها متّ

لو ساورتني الأسد ضارية ... لغلبتها ما لم يجي الوقت

فغنيتته، وسمعتي كوثر، فصار إلى محمد الأمين، فقال له: قد جن عمك، هو جالس يغني بكيت وكيت.

فأمر بإحضاري، فحضرت، وأخبرته بالقصة، فرضي عني، وأمر لي بسبعمئة ألف درهم.

يتخلصون من الخنة بأيسر الأسباب

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أنبأنا أبو عمر محمد بن عبد الواحد، قال: أخبرني النوري الصوفي، قال: لما كانت الخنة، ورميت أنا وجماعة من الصوفية بالكفر، أخذنا، فأودعنا المطبق أياماً، ثم عرضنا على ابن الشاه، وكان الوالي، وأغري بسفك دماننا، فعمل على ذلك، وأخرجنا للمسائلة، وترديد العذاب، وإمراره علينا قبل القتل، وكنا تعاقدا أن لا نتكلم حتى يكفيننا صاحب الأمر.

فقال للرقام: أنت القاتل: إن قولي بسم الله، لجة من نور؟ قال: فسكت، على العقدة.

وحضر من ذوي الأقدار والمنزلة من استعطف ابن الشاه علينا، وأشار عليه بالتوقف في أمرنا، والزيادة في استيضاح ما قرفنا به.

فقال ابن الشاه للرقام: أنت صوفي، ولعلك تأولت قولك بسم الله نوراً، وقولك الحمد لله، بعد فراغك، نوراً.

فصاح الرقام صيحة عظيمة: لخت أيها الأمير.

قال النوري: فوالله لقد أضحكني على ما بي.

فقال له الأمير: قد صرت تنظر في النحو بعدي، حتى صرت تعرف اللحن من الصواب؟

فقال له: حاشاك أيها الأمير من اللحن الذي هو الخطأ، وإنما عنيت بقولي لخت، أي فطنت، بمعنى الصوفية.

فقال ابن الشاه: في الدنيا أحد يرمي مثل هذا وأضرابه بالزندقة؟ وأمر بتخليئة سبيلنا.

فتخلصنا مما كنا فيه، ومما نحاذره، وكفيننا بأضعف الأسباب وأيسرها.

عبد الله بن طاهر يطلق الطوسي من حبسه

حبس عبد الله بن طاهر، محمد بن أسلم الطوسي، فكتب إليه بعض إخوانه يعزيه عن مكانه.  
فأجابه: كتبت إلي تعزيني، وإنما كان يجب أن تمنيني، أريت العجائب، وعرضت علي المصائب، إني رأيت الله تعالى  
يتحبب إلي من يؤذيه، فكيف من يؤذى فيه، إني نزلت بيتاً سقطت فيه عني فروض وحقوق، منها الجمعة، والأمر  
بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعبادة المريض، وقضاء حقوق الإخوان، وما نزلت بيتاً خيراً لي في ديني منه.  
فأخبر بذلك ابن طاهر، فقال: نحن في حاجة إلى ابن أسلم، أطلقوه.  
فأفرج عنه.

المأمون يغضب على فرج الرخجي ثم يرضى عنه ويقلده فارس والأهواز  
وكان المأمون قد غضب على فرج الرخجي، فكلمه عبد الله بن طاهر، ومسرور الخادم، في إطلاقه.  
قال فرج: فبت ليلتي، فأتاني آت في منامي، فقال لي:  
لما أتى فرجاً من ربه فرج ... جئنا إلى فرج نغي به الفرجا  
فلما كان من الغد، لم أشعر إلا واللواء قد عقد لي على ولاية فارس والأهواز، وأطلق لي خمسمائة ألف درهم معونة.  
فإذا أبو الينبغي الشاعر على الباب، وقد كتب هذا البيت في رقعة.  
فقلت له: متى قلته؟ قال لي: البارحة، في الوقت الذي رضي عنك فيه.  
فأمرت له بعشرة آلاف درهم.

محبوس يتحدث عن هلاك الحجاج  
قال عمارة بن عقبة، من آل سلمى بن المهير، حدثني ملازم بن حرام الحنفي، عن عمه ملازم بن قريب الحنفي، قال:  
كنت في حبس الحجاج بسبب الحرورية، فحبس معنا رجل، فأقام حيناً لا نسمعه يتكلم بكلمة.  
حتى كان اليوم الذي مات الحجاج في الليلة التي تليه، أقبل غراب في عشية ذلك اليوم، فوقع على حائط السجن،  
فنطق.

فقال له الرجل: ومن يقدر على ما تقدر عليه يا غراب؟ ثم نعق الثانية، فقال: مثلك من بشر بخير، يا غراب.  
ونعق الثالثة، فقال له: من فيك إلى السماء يا غراب.  
فقلنا له: ما سمعناك تكلمت منذ حبست إلى الساعة، فما دعاك إلى ما قلت؟ فقال: إنه نعق الأولى فقال: وقعت  
على سترة الحجاج.

فقلت: ومن يقدر على ما تقدر عليه؟ ثم قال في الثانية: إن الحجاج وجع.  
فقلت: مثلك من بشر بخير.  
ثم نعق الثالثة، فقال: الليلة يموت الحجاج.  
فقلت: من فيك إلى السماء.  
ثم قال: إن انبلج الصبح قبل أن أخرج، فليس علي بأس، وإن دعيت قبل الصبح، فستضرب عني، ثم تلبثون ثلاثاً  
لا يدخل عليكم أحد، ثم يستدعى بكم في اليوم الرابع فنتطالون بالكفلاء، فمن وجد له كفيلاً، خلي سبيله، ومن لم  
يوجد له كفيلاً، فله ويل طويل.  
فلما دخل الليل سمعنا الصراخ على الحجاج، وأخذ الرجل قبل الصبح فضرب عنقه، ثم لم يدخل علينا أحد ثلاثة  
أيام.

فلما كان في اليوم الرابع استدعينا، فطلب منا الكفلاء، حتى صار الأمر إلي، فلم يكن لي كفيلاً.

فمكنت طويلاً حتى خفت أن أرد إلى الحبس، فتقدم رجل فضمنني.  
فقلت له: من أنت يا عبد الله، حتى أشكرك.  
فقال: اذهب، فلست بمسؤول عنك أبداً.

فانطلقت.

يحسن إلى كاتب بغا الكبير على غير معرفة منه له

وقال علي بن الحسين بن عبد الأعلى الإسكافي: كنت أكتب لبغا الكبير، فصرفني، ونكني، وأخذ مالي وضياعي،  
وحبسي بعد ذلك، وتهددني، ونالني منه كل مكروه.  
فإني لفي حبسه، إذ سمعت حركة، فسألت عنها، فقيل لي: قد وافى إسحاق بن إبراهيم الطاهري، صاحب الشرطة.  
فقلت: إنما حضر لعقوبي، فطارت نفسي جزعاً.  
فلم ألبث أن دعيت، فحملت إليه في قيودي، وعلي ثياب في نهاية الوسخ، فأدخلت عليه كالميت لما بي ولعظيم  
الخوف، فلما وقعت عين إسحاق علي، تبسم، فسكنت نفسي.  
فقال لي بغا: إن أخي أبا العباس - يعني عبد الله بن طاهر - كتب إلي يشفع في أمرك، وقد شفعتني، وأزلت عنك  
المطالبة، ورضيت عنك، ورددت عليك ضياعك، فانصرف إلى منزلك.  
فبكيت بكاء شديداً، لعظم ما ورد علي قلبي من السرور، ففكت قيودي، وغيّرت حالي، وانصرفت.  
فبت ليلتي، وبكرت في السحر إلى إسحاق لأشكره، وأسأله عما أوجب ما جرى، لأنه شيء ما طمعت فيه، ولا  
كانت لي وسيلة إلى أبي العباس ولا إسحاق، فلقيته، وشكرته، ودعوت له ولأبي العباس، وسألته عن سبب ذلك.  
فقال: ورد علي كتاب الأمير أبي العباس يقول: قد كانت كتب أبي موسى بغا ترد علي بمخاطبات توجب الأُنس  
والخلطة، وتلزم الشكر والمنة، ثم تغيرت، فبحثت عن السبب، فعلمت أن ذلك الكاتب صرف، وأنه منكوب، وحق  
لن أحسن عشرتنا، ووكد المحبة بيننا وبين إخواننا، حتى بان لنا موقعه، وعرفنا موضعه لما صرف، أن نرعى حقه،  
فصر - أبقاك الله - إلى أخي أبي موسى، وسله في أمر كاتبه المصروف، عني، واستصفححه عما في نفسه منه،  
واستطلقه، وسله رده إلى كتبه، وإن كان ما يطالبه به مما لا ينزل عنه، فأده عنه من مالنا، كائناً ما كان.  
فلقيته، ففعل ما رأيت، وأنا أعاود الخطاب في استكتابك، وقد أمر لك الأمير بكذا وكذا، من المال، فخذ.  
فأخذته، وشكرته، ودعوت للأميرين، وانصرفت.

فما مضت إلا أيام، حتى ردي إسحاق إلى كتابة بغا بشفاعة أبي العباس، ورجعت حالي ونعمتي.

كيف تخلص عمر بن هبيرة من السجن

حدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني سليمان بن أبي شيخ،  
قال: حدثنا سليمان بن زياد، قال: كان عمر بن هبيرة، والياً على العراق، ولاه يزيد بن عبد الملك، فلما مات يزيد  
بن عبد الملك، واستخلف هشام، قال عمر بن هبيرة، سيولي هشام العراق، أحد الرجلين، سعيداً الحرشي، أو خالد  
بن عبد الله القسري، فإن ولي ابن النصرانية، خالداً، فهو البلاء.  
فولى هشام خالداً العراق، فدخل واسطاً، وقد أذن عمر بالصلاة، وقد تمياً، واعتم، ويده المرأة يسوي عمامته، إذ  
قيل له: هذا خالد قد دخل.

فقال عمر: هكذا تقوم الساعة، تأتي بغتة.

فتقدم خالد، وأخذ عمر بن هبيرة، وفقيده، وألبسه مدرعة صوف، فقال له: يا خالد، بئس ما سننت على أهل العراق، أما تخاف أن تصرف فتبتلى بمثل هذا؟ فلما طال حبسه، جاء مواليه، واكثروا داراً بجانب الحبس، ثم تقبوا منها سرباً إلى الحبس، واكثروا داراً إلى جانب سور المدينة، ومدينة واسط، فلما جاءت الليلة التي أرادوا أن يخرجوه فيها من الحبس، وقد أفضى النقب إلى الحبس، فأخرج في السرب، ثم خرج من الدار يمشي، حتى بلغ الدار التي إلى جانب السور، وقد نقب في السور نقب إلى خارج المدينة، وقد هيأت له خيل، فركب وسار، وعلم به بعد ما أصبحوا، وقد كان أظهر علة قبل ذلك ليمسكوا عن تفقده في كل وقت.

فأتبعه خالد، سعيد الحرشى، فلحقه، وبينه وبين الفرات شيء يسير، فتعصب له وتركه.

فقال الفرزدق في ذلك:

ولما رأيت الأرض قد سدّ ظهرها ... ولم يبق إلا بطنها لك مخرجا

دعوت الذي ناداه يونس بعلما ... ثوى في ثلاثٍ مظلماتٍ ففرّجا

خرجت ولم يمن عليك سفاهة ... سوى زائد التقريب من آل أعوجا

فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة ... وما سار سارٍ مثلها حين أدجا

قال سليمان بن أبي شيخ: فحدثني ابن أبي خيرة، عن أبي الحبحاب، قال: حدثني خازم، مولى ابن هبيرة، قال:

كنت مع عمر بن هبيرة حين هرب من السجن، فسرنا حتى بلغنا دمشق، بعد العتمة، فأتى مسلمة بن عبد الملك،

فأجاره، وأنزله معه في بيته، وصلى مسلمة خلف هشام الصباح.

فلما دخل هشام داره، استأذن عليه مسلمة، فأذن له، فدخل.

فقال له هشام: يا أبا سعيد، أظن ابن هبيرة قد طرقت الليلة.

قال: أجل يا أمير المؤمنين، وقد أجرته، فهبه لي.

قال: قد وهبته لك.

### كيف تخلص قيسية بن كلثوم من أسره

أخبرني أبو الفرج القرشي، المعروف بالأصبهاني، قال: ذكر ابن الكلبي عن أبيه، قال: خرج قيسية بن كلثوم

السكوني، وكان ملكاً، يريد الحج، وكانت العرب تحج في الجاهلية، فلا يعرض بعضها لبعض.

فمر ببني عامر بن عقيل، فوثبوا عليه، وأسروه، وأخذوا ماله، وكل ما كان معه، وألقوه في القدر، فمكث فيه ثلاث

سنين، وشاع في اليمن، أن الجن استطارته.

فبينما هو في يوم شديد البرد، في بيت عجوز منهم، آيس من القرح، إذ قال لها: أتأذنين لي أن آتي الأكمة، فأتشرق

عليها؟ فقد أضر بي البرد.

فقلت له: نعم، وكانت عليه جبة حبرة، لم يترك عليه غيرها.

فمشى في قيوده حتى صعد الأكمة، ثم أقبل يضرب ببصره نحو اليمن، وتغشاها عبرة، فبكى، ثم رفع طرفه إلى

السماء، فقال: اللهم فاطر السماء، فرج لي مما أصبحت فيه.

فبينما هو كذلك، إذ عرض له راكب يسير، فأشار إليه أن أقبل، فأقبل عليه الراكب، فقال له: ما حاجتك؟ قال:



أين تريد؟ قال: أريد اليمن.

قال: ومن أنت؟ قال: أبو الطمحان القيني، فاستعبر قيسية.

فقال أبو الطمحان: من أنت؟ فإني أرى عليك سيما الخير ولباس الملوك، وأنت بدار ليس فيها ملك.

فقال: أنا قيسية بن كلثوم السكوني، خرجت عام كذا وكذا حاجاً، فوثب علي أهل هذا الحلي، وصنعوا بي مات

تري وكشف له عن أغلاله وقيوده، فاستعبر له أبو الطمحان.

فقال له قيسية: هل لك في مائة ناقة حمراء؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك.

قال: أنخ، فأناخ.

ثم قال: أمعك سكين؟ قال: نعم.

قال: ارفع لي عن رحلك، فرفع له عن رحله، حتى بدا خشب مؤخر الرحل.

فكتب عليه بالمسند، وليس يكتب به غير أهل اليمن:

بَلَّغْنِ كِنْدَةَ الْمَلُوكِ جَمِيعاً ... حَيْثُ سَارَتْ بِالْأَكْرَمِينَ الْجَمَالَ

أَنْ رَدُوا الْخَيْلَ بِالْخَمِيسِ عَجَلاً ... وَاصْدُرُوا عَنْهُ وَالرُّوَايَا تَقَالَ

هَزَنْتُ جَارِيَّ وَقَالَتْ عَجِيباً ... إِذَا رَأَيْتَنِي فِي جَيْدِي الْأَغْلالِ

إِنْ تَرَيْتَنِي عَارِي الْعِظَامِ أُسِيراً ... قَدْ بَرَأْتَنِي تَضَعُّعٍ وَاحْتِلَالِ

فَلَقَدْ أَقْدَمَ الْكَتِيبَةَ بِالْسِي ... فَعَلِيَّ السِّلَاحَ وَالسَّرِبَالَ

وكتب تحت الشعر إلى أخيه، أن يدفع لأبي الطمحان مائة ناقة حمراء، ثم قال له: أقرىء هذا قومي، فإنهم سيعطونك

مائة ناقة حمراء.

فخرج تسير به ناقه، حتى أتى حضرموت فتشاغل بما ورد له، ونسي أمر قيسية، حتى فرغ من حوائجه.

ثم سمع نسوة من عجائز اليمن، يتذاكرن قيسية، ويبيكين، فذكر أمره، فأتى أخاه الجون بن مالك، وهو أخوه لأبيه

وأمه، فقال له: يا هذا، أنا أدلك على قيسية، وقد جعل لي مائة ناقة حمراء.

فقال: هي لك.

فكشف له عن الرحل، فلما قرأه الجون بن مالك، أمر له بمائة ناقة حمراء.

ثم أتى قيس بن معدي كرب الكندي، أبا الأشعث بن قيس، فقال له: يا هذا إن أخي في بني عامر بن عقيل أسيراً،

فسر معي بقومك لتخلصه.

فقال له قيس: تسير تحت لوائي، حتى أطلب ثارك وأنجدك، وإلا فامض راشداً.

فقال له الجون: مس السماء أيسر من ذلك، وأهون علي مما جئت به.

فجئت السكون ثم فاءوا، ورجعوا، وقالوا له: وما عليك من هذا؟ هو ابن عمك، ويطلب لك بئارك، فأنعم له

بذلك.

وسار قيس، وسار معه الجون تحت لوائه، وكدة والسكون معه، فهو أول يوم اجتمعت فيه السكون وكدة لقيس

وبه أدرك الشرف، فسار حتى أوقع ببني عامر بن عقيل، فقتل منهم مقتلة عظيمة، واستنقذ قيسية، فقال في ذلك

سلامة بن صبيح الكندي:

لا تشتمونا إذ جلبنا لكم ... ألهي كميت كلها سلهبه

نحن أبلنا الخيل في أرضكم ... حتى ثأرنا منكم قيسبه

واعترضت من دونها مذبح ... فصادفوا من خيلنا مشعبه

جاءه القرح من حيث لم يحتسب

حدثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق الكاتب، ابن يعقوب بن إسحاق بن البهلول التنوخي قال:

كنت، وأنا حدث، أتعلم في ديوان زمام السواد، بين يدي كاتب فيه، يقال له أبو الحسن علي بن الفتح، ويعرف بالمطوق، عاش إلى بعد سنة عشرين وثلثمائة، وأخرج إلينا كتاباً قد عمله في أخبار الوزراء، منذ وفاة عبيد الله بن خاقان، إلى آخر أيام القاهرة بالله، أو بعدها - الشك من أبي الحسن أحمد بن يوسف - وسماه: كتاب مناقب الوزراء ومحاسن أخبارهم، فقرأ علينا بعضه، وأخبرنا بالباقي منأولة.

قال مؤلف هذا الكتاب: وأعطاني أبو الحسن أحمد بن يوسف، هذا الكتاب، منأولة، فوجدت فيه: أن القاسم بن عبيد الله اعتقل أبا العباس أحمد بن محمد بن بسطام في داره أياماً، لأشياء كانت في نفسه عليه، وأراد أن يوقع به فلم يزل ابن بسطام، يداريه، ويلطف به، إلى أن أطلقه، وقلده أمد، وما يتصل بها من الأعمال، وأخرجه إليها، وفي نفسه ما فيها، ثم ندم على ذلك، فوجه إليه في آخر أيام وزارته بقائد يقال له علي بن حبش، ابن أخي قوصرة، ووكله به، فكان يأمر وينهى في عمله، وهو موكل به في داره، خائف على نفسه، لما ظهر من إقدام القاسم على القتل.

قال ابن بسطام: فأنا أخوف ما كنت على حالي ونفسي، وليس عندي خبر، حتى ورد علي كتاب عنوانه: لأبي

العباس أطال الله بقاءه، من العباس بن الحسن.

فلما رأيت العنوان ناقص الدعاء، علمت أن القاسم بن عبيد الله قد مات، وأن العباس بن الحسن قد تقلد الوزارة، فلم أتمالك نفسي فرحاً وسروراً بالسلامة في نفسي، وزوال الخوف مني.

وقرأت الكتاب، فإذا هو بصحة الخبر، ويأمرني بالخروج إلى مصر، وتقلد الأمانة على الحسين بن أحمد المادرائي.

قال علي بن الفتح: فخرج ابن بسطام إلى مصر، ولم يزل يتقلد الأمانة على الحسين بن أحمد إلى أن تقلد علي بن

محمد بن القرات الوزارة، فقلده مصر وأعمالها، قال: فلم يزل بها إلى أن مات.

### العلوي الصوفي يحتال للخلاص من سجن المعتصم

حدثنا أبو محمد عبد الرحمن الوراق المعروف بالصيرفي، ابن أبي العباس محمد بن أحمد الأثرم، المقرئ البغدادي، بالبصرة، في المحرم سنة خمس وأربعين وثلثمائة، بكتاب المبيضة، لأبي العباس أحمد بن عبد الله بن عمار، في خبر العلوي الصوفي، الخارج بالجوزجان، على المعتصم، وهو محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكان عبد الله بن طاهر حاربه، وأسره، وبعث به إلى المعتصم، وهو ببغداد، قال:

حدثنا أبو العباس بن عمار، قال: حدثنا أبو الحسن النوفلي، وهو علي بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: حدثت أن المعتصم أمر أن يبني حبس في بستان موسى، كان القيم به مسرور مولى الرشيد.

قال: وكنت أرى أعلى هذا البناء من دجلة إذا ركبتها، إذ كان كالبئر العظيمة، قد حفرت إلى الماء، أو قريب منه، ثم بني فيها بناء على هيئة المنارة، مجوف من باطنه، وهو من داخله مدرج، قد حفر فيه، في مواضع من التدرج، مستراحات، وبني في كل مستراح شبيهاً بالبيت، يجلس فيه رجل واحد، كأنه على مقداره، يكون مكتوباً على وجهه، لا يمكنه أن يجلس فيه، ولا يمد رجله، فلما قدم محمد، حبس في بيت في أسفل ذلك الحبس، فلما استقر فيه

أصابه من الجهد لضيقه، وظلمته، ومن البرد أمر عظيم، لنداوة، الموضع ورطوبته، فكاد أن يتلف من ساعته. فتكلم بكلام دقيق سمعه من كان في أعالي البئر ممن وكل بالموضع، فقال: إن كان أمير المؤمنين يريد قتلي، فالساعة أموت، وإن لم يكن يريد قتلي فقد أشفيت عليه.

فأخبر المعتصم بذلك، فقال: ما أريد قتله، وأمر بإخراجه.

فأخرج وقد زال عقله، وأغمي عليه، فطرح في الشمس، وطرح عليه اللحف، وأمر بحبسه في بيت كان قد بني في البستان، فوفاه غرفة، وكان في البيت خلاء إلى الغرفة التي فوفاه، وفي الغرفة أيضاً خلاء آخر إلى سطحها، فلم يزل محبوساً فيه حتى تهيأ له الخروج في ليلة الفطر سنة تسع عشرة ومائتين.

قال: فحدثني علي بن الحسين بن عمر بن علي بن الحسين، وهو ابن عم أبيه، قال: أصبحت يوم الفطر، وأنا أتياً للركوب إلى المصلى، فأنا أشد منطقتي في وسطي، وقد لبست ثيابي أبادر الركوب إلى المصلى. فما راعني إلا محمد بن القاسم، قد دخل إلى منزلي، فمالأني رعباً وذعراً. وقلت له: كيف تخلصت؟

فقال: أنا أدبر أمري في التخلص منذ حبست، ووصف لي الخلاء الذي كان في البيت الذي حبس فيه إلى الغرفة التي فوفاه، والخلاء الذي كان في الغرفة إلى سطحها.

قال: وأدخل معي يوم حبست، لبد، فكان وطائي وفراشي.

قال: وكنت أرى بغرش، وهي قرية من قرى خراسان، حبالاً تعمل من لبود، وتضفر كما يفعل بالسيور، فتجيء أحكم شيء، فسولت لي نفسي أن أعمل من اللبد الذي تحتي حبالاً وكان على باب البيت، قوم موكلون بي يحفظوني لا يدخل علي أحد منهم، إنما يكلموني من خلف الباب ويناولوني من تحته ما أتقوت به. فقلت لهم: إن أطفالاً قد طالت جداً، وقد احتجت إلى مقرض، فجاءني رجل يميل إلى مذهب الزيدية، بمقراض أحد جانبيه منقوش كأنه مبرد.

وقلت لهم: إن في هذا البيت فاراً قد آذوني، ويقذروني إذا قربوا مني، فاقطعوا لي جريدة من النخل أطردهم بها. فقطعوا لي من بعض نخل البستان، جريدة، فرموا بها إليه، وكنت لا أزال أضرب بها في البيت، أريهم أني أطرد الفار، وأسبغهم صوتها أياماً، ثم قشرت الخوص عنها، وقطعتها على مقدار ما ظننت أنه يعترض في ذلك الخلاء إذا رميت بها، فضممت ما قطعته منها بعضه إلى بعض، وقصصت اللبد، وفتلت منه حبالاً، على ما كنت يعمل بغرش، ثم شددت ما قطعته من الجريدة في رأس الجبل، ثم رميت به في الكوة، وعالجته مراراً حتى اعترض فيها، ثم اعتمدت عليها وصعدت إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى السطح، ففعلت ذلك مراراً، في أيام كثيرة، وتمكنت من الحركة لأني بردت بجانب المقرض إحدى حلقتي القيد، ولم يمكنني أن أبرد الأخرى، فكنت إذا أردت الحركة، شددت القيد مع ساقي، وأتحرك، وقد صرت مطلقاً.

فلما كان في هذه الليلة وقد شغل الناس بالعيد وانصرف من كان على الباب من الموكلين، فلم أحس منهم أحداً إلا شيخاً واحداً كنت أسمع كلامه وحركته، وأطلع فأراه.

فصعدت بين العشائين إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى السطح، فأشرفت، فإذا المعتصم يفطر والناس بين يديه، والشموع تزهو، فرجعت.

فلما كان في جوف الليل صعدت والناس نيام، ونزلت إلى البستان، فإذا فيه قائد ومعه جماعة، فصاح بي بعضهم: من أنت؟ قلت: مديني من أصحاب الحمام، وكان في البستان منهم جماعة يشرفون على أمر الحمام.

فقال لي: إلى أين تخرج الساعة، إطرح نفسك حتى تصبح، وتفتح الأبواب، فطرحت نفسي بينهم، حتى فتح باب البستان في الغلس، وقد تحرك الناس. فصرت إلى دجلة لأعبر، فوجدت الشيخ الذي كان بقي من الموكلين بي يريد العبور، فنزلت لأعبر، فطلب مني الملاح قطعة، فقلت له: ما معي شيء، أنا رجل غريب ضعيف الحال. فقال لي الشيخ: اعبر، فأنا أعطيه عنك، وأعطاه الشيخ عني قطعة، وعبرت حتى جئتك. قال علي بن الحسين: فقلت له: والله، ما منزلي لك بموضع، فأخرج عني من ساعتك، ولا تقم فيه لحظة، وركبت إلى المصلى. فصار إلى منزل رجل من الشيعة، فأخفاه.

### حسن سيرته كانت سبب اعتقاله

وحدثنا أبو محمد الأثرم، في كتاب الميضة، قال: حدثنا أبو العباس ابن عمار، قال: حدثني هشام بن أحمد بن الأشهب البغوي، قال: حدثني أبو عبد الله جعفر بن محمد بن إسماعيل، قال: حدثني أبو إسحاق إبراهيم ابن رباح الجوهري، قال: حدثني المفضل بن حماد الكوفي، من أصحاب الحسن بن صالح بن حي، بوفاة عيسى بن زيد بن علي، بالكوفة، وكيف ستر ذلك عنا لمهدي، فذكر حديثاً طويلاً، قال فيه: لما تواترت الأخبار على الرشيد، بحسن طريقة أحمد بن عيسى بن زيد، وميل الناس إليه، أمر بحمله، فحمل إلى بغداد، ومعه القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، وهو والد محمد بن القاسم الصوفي الخارج بخراسان في أيام المعتصم، فحسبوا عند الفضل بن الربيع، فكانا في حبسه في داره الشارع على دجلة، قرب رأس الجسر، بمشرفة الصخر. وكان حسن الصنيع إليهما، يؤتيان بمائدة كمائدتته التي توضع بين يديه، ويواصلان من الحلوى، والفاكهة، والثلج في الصيف، بمثل ما يكون على مائدته، فإذا أكلا، رفعت من بين أيديهما، ووضعت بين أيدي الموكلين بهما.

فأكلا يوماً من الأيام، ورفعت المائدة فجعلت بين يدي الموكلين بهما، فأكلوا، وأكثروا، ودخل وقت القائلة فناموا، فخرج أحمد بن عيسى إلى حب في ناحية الدهليز، فرأى القوم نياماً، فغرف من الحب، بالكوز الذي معه، ثم رجع، فقال للقاسم: يا هذا اعلم أي قدر رأيت فرصة بينة، وهؤلاء نيام، والباب غير مقفل، لم يحكموا - كما كانوا يفعلون - إغلاقه، فأخرج بنا.

فقال له القاسم: أنشدك الله، فإنك تعلم، أنا في عافية من كثير مما فيه أهل الجوس، والفضل محسن إلينا. فقال له أحمد: دعني منك، واعلم أن العلامة بيني وبينك، أن أعرف من الحب، فإن تحرك القوم رجعت إليك، وكانت علي ظاهرة بسبب الكوز، وإن لم يتحركوا، فأنا - والله - خارج، وتاركك بموضعك، واعلم أنك لا تسلم بعدي.

ثم خرج، فغرف من الحب بالكوز، ثم طرحه من قامته، قال: وكان أطول مني ومنك، فما تحرك أحد منهم، ثم انثنى علي، وقال: قد رأيت ما استطهرت به لك ولنفسى، وأنا - والله - خارج، ثم مضى، واتبعه القاسم، ففتحا الباب، وخرجا، فقالا: لا نجتمع في طريق، ولكن موعداً، موضع كذا.

فلما جازا العتبة بخمسين ذراعاً، لقيهما غلام للفضل بن الربيع، مدني، أعرف بهما من أنفسهما، فبهت الغلام لما رآهما، فأوماً إليه أحمد، بكمه، كالآمر بغضب: تنح، فما ملك الغلام نفسه أو تنحى، ثم كان عزمه أن يستقيم في

طريقه ذلك، فلما لي من الغلام بما لي، عدل عن تلك الطريق، وسار في طريق أخرى للاستظهار على الغلام، وأسرع حتى نجاً... وذكر بقية الحديث.

## الكوز

إناء من الفخار، شائع الاستعمال في بغداد، يشبه الإبريق، إلا أنه من دون البلبلة، أي القناة الصغيرة التي يصب منها الماء، وتسميه العامة: تنكه، بالكاف الفارسية، معربة عن الفارسية: تنك، أي الكوز، والفخار الذي يجهز لتصفية الماء وشربه ببغداد، على أشكال مختلفة، فالزير، ويسمونه الحب، وهي فصيحة، يصب فيه الماء الكدر، فيقطر الماء الصافي من أسفله إلى إناء من الفخار، يسمونه: بواق، تلفظ القاف كافاً فارسية على طريقة البغداديين، والكلمة فصيحة، من باق: أي سرق، كأنها تسرق الماء من الحب، نقطة نقطة، فإذا امتلأت البواق، صب ماؤها في الحرة ليرد، ومنها إلى الكوز حيث يكون معداً للشرب، فإما أن يشرب من الكوز، أو يصب في كأس يسمى شربة الغيث المسجم في شرح لامية العجم ٢ - ٢٦١، أو حبانة، يختلف اسمه باختلاف شكله، وصانعو الفخار يجتهدون في اختيار التراب المناسب لصنعه، ويغالون فيه، إذ ليس كل تراب صالحاً ليكون فخاراً جيداً، فإن وجدوا التراب المناسب، سلطوا عليه الماء، وأجادوا مرسه بأيديهم، كيلا يبقى فيه أي أثر للمواد المألحة، حتى أن بعضهم كان يرمي بخاتمه في الطين، ويطلب من عماله أن يحثوا عنه، وأن يعيدوه إليه، فيكلفهم هذا البحث، أن يرسوا بأصابعهم كل حفنة من الطين، فإذا تم تنظيفه، وتخميره، صنع على مختلف الأشكال، وأودع في موقد يشوى فيه، وهذا الموقد يسميه البغداديون: الكورة، فصيحة وهو اسم المحجرة من الطين، فإذا تم شويه، أصبح صالحاً للاستعمال، واستعمال الكوز، إذا كان جيد الطين، حسن الصنع، من طيبات الدنيا، وخاصة إذا رش عليه، قبل استعماله، قطرات من ماء الورد، فإن شرب الماء في الكوز، يكسبه طعماً لذيقاً، لا يقدره إلا من ذاقه، ومما يعيب على الأسف أن استعمال الكوز، يكاد أن ينقرض، لشيوخ الكهرباء والثلاجات، قال أبو إسحاق الصابي يتشوق إلى شرب ماء الكوز ببغداد معجم البلدان ١ - ٦٤٨:

لهف، نفس على المقام ببغدا... د وشربي من ماء كوز بطلع  
نحن بالبصرة الذميمة نسقى... شرّ سقيا من مائها الأترجي  
أصفر منكرٌ ثقيل غليظ... خائر مثل حقنة القولنج  
كيف نرضى بشربه وبخبر... منه في كنف أرضنا نستتجي  
محمد الحمداي يحل محل أخيه في إمارة الموصل

ومن طريق ما شاهدناه في هذا الباب: أن أبا تغلب، فضل الله، عدة اللولة، بن ناصر الدولة أبي أحمد، استوحش من أخيه محمد، بعد موت أبيهما، فقبض عليه، واستصفى ماله، وقبض عقاره وضياعه، ونعمته، وثقله بالحديد، وأنفذه إلى القلعة المعروفة بأردمشت، وهي مشهورة حصينة، من أعمال الموصل، فحبسه بها في مطمورة، ووكل بحفظه عجزواً يتق بها، جلدة ضابطة، يقال لها: نازبانو وأمرها أن لا توصل إليه أحداً، ولا تعرفه خيراً، وأن تخفي موضعه عن جميع شحنة القلعة وحفظتها، ففعلت ذلك.

فأقام على حاله تلك نحو ثمان سنين.

ثم اتفق أن الحدر أبو تغلب معاوناً لعز الدولة أبي منصور بختيار بن معز الدولة أبي الحسين، ومعهما العساكر،

يقصدان بغداد خرابة عضد الدولة، وتاج الملة أبي شجاع، وخرج للقائهما، فكانت بينهما الواقعة العظيمة بقصر الحص، وقتل فيها عز الدولة بختيار، وهزم أبو تغلب، فدخل الموصل، وخاف من تخلص أخيه محمد، فكتب إلى غلام له، كانت القلعة مسلمة إليه يقال له: طاشتم، أن يمكن صالح بن بانويه، رئيس الأكراد، - وكان كالشريك لطاشتم في حفظ القلعة - من أخيه محمد بن ناصر الدولة، ليمضي فيه ما أمره به، وكتب إلى صالح، يأمره بقتل محمد، فمكن طاشتم صالحاً منه.

فلما أراد الدخول على محمد، ليقنته، منعت نازبانو من ذلك، وقالت: لا أمكن منه، إلا بكتاب يرد علي من أبي تغلب.

وشارف عضد الدولة الموصل، وأجفل عنها أبو تغلب، وكردته العساكر، فاشتد عليه الطلب، وورد عليه كتاب من القلعة بما قالت نازبانو، فإلى أن يجيب عنه، أحاط عساكر عضد الدولة بالقلعة، ونازلوها، فانقطع ما بين أبي تغلب وبينها، فلم يصل إليها كتاب، وفتحها عضد الدولة بعد شهر، بأن واطأه صالح، بالقبض على طاشتم، وكتب إليه يعرفه بما عمله، ويستأمره فيما يعمله.

وكان لمحمد خصي أسود مملوك، يلي أمر داره، اسمه ناصح، وكان بعد القبض على محمد، قد وقع إلى عضد الدولة، وهو بفارس، فصار من وجوه خدمه، وحضر معه وقعة قصر الحص، فلما ورد خبر فتح القلعة، أذكره ناصح بوعد كان له عليه في إطلاق مولاه محمد، إذا فتح القلعة، فكتب بأن يطلب محمد في القلعة، فإن وجد حياً، أطلق، وأنفذ به إليه مكرماً.

فحين دخل صالح، ومعه من صعد إلى القلعة من أصحاب عضد الدولة، إلى محمد في محبسه، جزع جزعاً شديداً، ولم يشك أنهم يريدون قتله، بأمر أبي تغلب، فأخذ يتضرع، ويقول: ما يدعوا أخي إلى قتلي.

فقال له صالح: لا خوف عليك إنما أمرنا الملك أن نطلقك، وتمضي إليه مكرماً، فقد ملك هذه البلاد.

فقال: أغلب ملك الروم على هذه النواحي، وفتح القلعة؟ قالوا: لا، ولكن الملك عضد الدولة.

قال: الذي كان بشيراز؟ قالوا: نعم، وقد جاء إلى بغداد.

قال: وأين بختيار؟ قالوا: قتل.

قال: وأبو تغلب؟ قالوا: انهزم ودخل إلى بلاد الروم.

قال: وأين عضد الدولة؟ قالوا: بالموصل، وهوذا نحملك إليه مكرماً.

فسجد حينئذ، وبكى بكاءً شديداً، ثم حمد الله، فأرادوا فك قيوده فقال: لا أمكن من ذلك، إلا أن يشاهد حالي الملك.

فحمل إلى الموصل إلى عضد الدولة، فرأيته وقعد أصعد به مقيداً من المعبر الذي عبر فيه دجلة، إلى دار أبي تغلب التي نزل بها عضد الدولة بالموصل، وكنت أنا - إذ ذاك - أتقلدها له وجميع ما فتحه مما كان في يد أبي تغلب مضافاً إلى حلوان، وقطعة من طريق خراسان، فرأيت محمداً يمشي في قيوده، حتى دخل إليه فقبل الأرض بين يدي عضد الدولة، ودعا له، وشكره، فأخرج إلى حجرة من الدار، فأخذ حديده، وحمل على فرس فاره بمركب ذهب، وقيد بين يديه خمس دواب بمراكب فضلة مذهبة، وخمس بجلاها، وثلاثون بغلاً محملة مالا صامتاً، ومن صفوف الثياب الفاخرة، والفرش السري، والطيب، والآلات المرتفعة القدر، ونقل إلى دار قد فرغت له، وفرشت بفرش حسن، وملئت بما يحتاج إليه من الصفر، والآلات، والعلوفات، والحويان، والحلوى، وأطعمة نقلت إليه من المطبخ، وأنبذة،

وغير ذلك.

ثم أقطعه بعد أيام، إقطاعاً بثلاثمائة ألف درهم، وولاه إمارة بلده وأعماله، وجميع ما كان يتولاه أبو تغلب.

### طريق خراسان

طريق خراسان، هو الخجعة، أو الطريق السلطاني بين الحضرة بغداد، وبين خراسان، ومن جملة أعماله: البندنجين، وبرزالروز الوزراء ١٨٧ ويعقوبا بن الأثير ١١ - ٢١٥، فالبندنجين: بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل، من أعمال بغداد، أصلها وندنيكان، وعربت، فأصبحت بندنجين معجم البلدان ١ - ٧٤٥ أقول: وقد خفف الاسم العرب، فأصبح الآن: مندلي، وهي بلدة على حدود العراق الشرقية، وقد وليت القضاء بها في السنة ١٩٣٤، وأهلها طيون، وهم خليط من الأكراد، والتركمان، والعرب، وأرضها عظيمة الخصب، تكثر فيها الأرتاب والحمضيات، تمرها من أفخر تمور العراق، لا سيما المسمى المبرحاج، وأزرق الأزرق، وبرتقالها لا مثيل له، رقيق القشرة، قوي العطر، كثير الماء، قليل النوى، لذيد الطعم جداً، وتكثر فيها الزنابير، لكثرة التمر، وفيها الجرار المشهور، وهو نوع من العقارب، أصفر اللون، سمي بالجرار، لأنه يجرد ذنبه على الأرض وراءه، ويقال أن لدغته قتالة، ويوجد منه في الأهواز المسالك والممالك للأصطخري ٦٤ ويوجد منه أيضاً في شهرزور نهاية الأرب ١٠ - ١٤٨، والجرار كثير في مندلي، وقد كلفت خادمي، مرة، أن يحضروا لي جراراً لأراه، فقال: هل تريده ذكراً أو أنثى، يريد أنه متوفر إلى درجة أن له أن يختار وينتقي ما يريد منها، أما برزالروز، فقد ذكر ياقوت في معجمه ١ - ٥٣٤ أنها من طساسيج السواد ببغداد، من الجانب الشرقي من أستان شاه قباد، وكان للمعتضد به أبنية جميلة، أقول: اسمها الآن: بلدروز، وهي ناحية تابعة لمندلي، أرضها عظيمة الخصوبة، وقد زرعتها أكثر من مرة، عندما كنت قاضياً في مندلي، لأنها تابعة لها، وكانت في العهد العثماني من الأملاك السنية، أي من أملاك السلطان عبد الحميد العثماني، إختارها لخصوبة أرضها، وتنازل عنها لمتمول يوناني، فأقام بها قصراً، ونصب لإدارتها موظفين عدة، يقومون بزراعتها، واستيفاء ارتفاعها، وموقع برزالروز، من أطيب المواقع، وهوؤها عذب لطيف رائق.

### أسرة الروم في أيام معاوية وأطلقوه في أيام عبد الملك

روى حميد، كاتب إبراهيم بن المهدي، أن إبراهيم حدثه، أن مخلداً الطبري، كاتب المهدي على ديوان السر، حدثه، أن سالماً مولى هشام بن عبد الملك، وكاتبه على ديوان الرسائل، أخبره، أنه كان في ديوان عبد الملك يتعلم كما يتعلم الأحداث في اللوايين، إذ ورد كتاب صاحب بريد الثغور الشامية، على عبد الملك، يخبره فيه أن خيلاً من الروم تراءت للمسلمين، فنفروا إليها، ثم عادوا ومعهم رجل كان قد أسر في أيام معاوية بن أبي سفيان، فذكر أن الروم لما توافقوا مع المسلمين، أخبروهم أنهم لم يأتوا لحرب، وإنما جاؤوا بهذا المسلم ليسلموه إلى المسلمين، لأن عظيم الروم أمرهم بذلك.

وذكر صاحب البريد، أن النافرين ذكروا، أنهم سألوا المسلم عما قال الروم، فوافق قوله قولهم، وذكر أن الروم قد أحسنوا إليه، فانصرفوا عنهم، وإني سألته عن سبب محرجه، فذكر أنه لا يخبر بذلك أحداً دون أمير المؤمنين. فأمر عبد الملك بإشخاص المسلم إليه، فأشخص إلى دمشق.

فلما دخل على عبد الملك، قال له: من أنت؟ قال: قنات بن رزين اللخمي.

قال مؤلف هذا الكتاب، كذا كان في الأصل الذي نقلت منه: قنات، وأظنه خطأ، لأن المشهور قنات بن رزين

اللخمي، وقد روى الحديث عن علي بن رباح اللخمي، عن عقبة بن عامر الجهني، أو لعله غيره والله أعلم.  
رجع الحديث: أسكن فسطاط مصر في الموضع المعروف بالحمر، أسرت في زمن معاوية، وطاغية الروم - إذ ذاك -  
توما بن مرزوق.

فقال له عبد الملك: فكيف كان فعله بكم؟ قال: لم أجد أحداً أشد عداوة للإسلام وأهله منه، إلا أنه كان حليماً،  
فكان المسلمون في أيامه أحسن أحوالاً منهم في أيام غيره، إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون، فقال - في أول ما ملك  
- إن الأسرى إذا طال أسرهم في بلد، أنسوا به، ولو كان على غاية الرداءة، وليس شيء أنكأ لقلوبهم من نقلهم  
من بلد إلى بلد، فأمر باثني عشر قدحاً، فكتب على رأس كل قدح اسم بطريق من بطارقة البلدان، ويضرب  
بالقدح في كل سنة أربع مرات، فمن خرج اسمه في القدح الأول، حول إليه المسلمون، فاحتبسهم عنده شهراً، ثم  
إلى الثاني، ثم إلى الثالث، ثم تعاد القداح بعد ذلك.

فكنا لا نصير عند أحد من البطارقة، إلا قال لنا: احمداوا الله حيث لم يبتلكم ببطريق البرجان، فنا نرتاع لذكره،  
ونحمد ربنا إذ لم يبتلنا به، فمكثنا على ذلك سنتين.

ثم ضربت القداح، فخرج الأول والثاني لبطريقين، والثالث لبطريق البرجان، فمر بنا في الشهرين غم كبير، نترقب  
المكروه.

ثم انقضى الشهران، فحملنا إليه، فرأينا على بابه من الجمع خلاف ما كنا نعين، ورأينا من زبانيته من الغلظة خلاف  
ما كنا نرى، ثم وصلنا إليه، فبين لنا من فظاظته وغلظته، ما أيقنا معه بالهلكة، ثم دعا بالحدادين، فأمر بتقييد  
المسلمين بأمتال ما كان يقيدهم به غيره، فلم يزل الحديد يعمل في رجل واحد واحد، حتى صار الحداد إلي، فنظرت  
إلى وجه البطريق فرأيته قد نظر إلي نظراً بخلاف العين التي كان ينظر بها إلى غيري، ثم كلمني بلسان عربي، فسألني  
عن اسمي ونسبي ومسكني، بمثل ما سألتني عنه أمير المؤمنين، فصدقته عما سألتني عنه.  
ثم قال لي: كيف حفظك لكتابكم؟ فأعملته أبي حافظ.

قال: اقرأ آل عمران، فقرأت منها خمسين آية.

فقال: إنك لقارئ فصيح، ثم سألتني عن روايتي للشعر، فأعلمته أبي راوية.

فاستشديت لجماعة من الشعراء، فقال: إنك لحسن الرواية.

ثم قال لخليفته: إني قد ومقت هذا الرجل، فلا تحده.

ثم قال: وليس من الإنصاف أن أسوءه في أصحابه فكك الحديد عن جماعتهم، وأحسن مشواهم، ولا تقصر في قراهم.  
ثم دعا صاحب مطبخه، فقال له: لست أطعم طعاماً، ما دام هذا العربي عندي، إلا معه، فاحذر أن تدخل مطبخي ما  
لا يحل للمسلمين أكله، وأن تجعل الخمر في شيء من طبيخك، ثم دعا بمائدته، واستنداني حتى قعدت إلى جانبه.  
فقلت له: فدتك نفسي وبأبي أنت، أحب أن تجربني من أي العرب أنت؟ فضحك وقال: لست أعرف لمسألتك  
جواباً، لأني لست عربياً فأجيبك على سؤالك.

فقلت له: مع هذه الفصاحة بالعربية؟ فقال: إن كان العلم باللسان ينقل الإنسان من جنسه إلى جنس من حفظ  
لسانه، فأنت إذا رومي، فإن فصاحتك بلسان الروم، ليست بدون فصاحتي بلسان العرب، فعلى قياس قولك ينبغي  
أن تكون رومياً، وأكون أنا عربياً.

فصدقت قوله: وأقمت عنده خمس عشرة ليلة، لم أكن منذ خلقت، في نعمة، أكبر منها.

فلما كانت ليلة ست عشرة، فكرت أن الشهر قد مضى نصفه، وأن الليالي تقربني من الانتقال إلى غيره، فبت



مغموماً.

وصار رسوله إلي، في اليوم السادس عشر، يدعوني إلى طعامه، فلما حضر الطعام بين أيدينا، رأى أكلي مقصراً عما كان يعهد، فضحك، ثم قال لي: أحسبك يا عربي، لما مضى نصف الشهر، فكرت في أن الأيام تقربك من الانتقال عني إلى غيري ممن لا يعاملك بمثل معاملتي، ولا يكون عيشك معه مثل عيشك معي، فسهرت، واعتراك لذلك غم غير طعامك، فأعلمته أنه قد صدق.

فقال: ما أنا إن لم أحسن الاختيار لصديقي بحر، وقد أمنك الله مما حذرت، ولم ألبث في اليوم الذي وصلت إلي فيه، حتى سألت الملك، فصيرك عندي، ما كنت في أرض الروم، فلست تنقل عن يدي، ولا تخرج منها إلا إلى بلدك، وأرجو أن يسبب الله ذلك على يدي، فطابت نفسي، ولم أزل مقيماً عنده، إلى أن انقضى الشهر. فلما انقضى، ضرب بالقداح، فخرج الأول، والثاني، والثالث، لبطارقة غير الذي نحن عنده، فحول أصحابي، وبقيت وحدي.

وتغديت في ذلك اليوم مع البطريق، وكان من عادتي أن أنصرف من عنده بعد غدائي إلى إخواني من المسلمين، فتحدثت، ونأنتس، ونقرأ القرآن، ونجمع الصلوات، ونذاكر الفرائض، ويسمع بعضنا من بعض ما حفظ من العلم وغيره، فانصرفت ذلك اليوم بعد غدائي إلى الموضع الذي كنت أصير إليه وفيه المسلمون، فلم أر فيه أحداً إلا الكفرة، فضاقت صدري ضيقاً تمنيت معه أي كنت مع أصحابي، فبت ليلة صعبة لم أطعم فيها الغمض، وأصبحت أكسف خلق الله بالاً، وأسوأهم حالاً.

وصار إلي الرسول في وقت الغداء، فصرت إليه، فتبين الغم في أسرة وجهي، ومددت يدي إلى الطعام، فرأى مد يدي إليه، خلاف الذي كان يعرف، فضحك، ثم قال: أحسبك اغتممت لفراق أصحابك؟ فأعلمته أنه صدق، وسألته: هل عنده حيلة في ردهم إلى يده.

فقال: إن الملك لم ير أن ينقل أصحابك من يدي إلى يد غيري إلا ليغهمم بما يفعل، ومن الخال أن يدع تدبيره في الاضرار بهم، لميلي إليك ومحبي لك، وليس عندي في هذا الباب حيلة، فسألته أن يسأل الملك إخراجي عن يده، وضمي إلى أصحابي أكون معهم حيث كانوا.

فقال: ولا في هذا أيضاً حيلة، لأني لا أستجيز أن أنقلك من سعة إلى ضيق، ومن كرامة إلى هوان، ومن نعمة إلى شقاء.

فلما قال ذلك، تبين في الانكسار وغلبة الغم، فقال لي: بلغ بك الغم إلى النهاية؟ فأخبرته: أنه قد بلغ بي الغم، أن اخترت الموت على الحياة، لعلمي أنه لا راحة لي بغيره. فقال لي: إن كنت صادقاً، فقد دنا فرجك.

فسألته عما دلّه على ذلك، فقال لي: إني وقعت في نكبات أشد هولاً مما أنت فيه، وكان عاقبتها الفرج. وأعلمني أن بطرقة بلده لم تنزل في آبائه يوارثونها، وأن عددهم كان كثيراً، ولم يبق غير أبيه وعمه، وكانت البطرقة إلى عمه دون أبيه، فأبطأ على أبيه وعمه الولد، فبدلاً للمتطينين، الكثير من الأموال لعلاجهما بما يصلح الرجال للنساء، إلى ابن بطل الغم، وينس من الانتشار، فصرف بعض الأطباء عنايته إلى معالجة أبي البطريق، فعلمت أمه به. فلما علم الغم أنه قد علقت أمه به، جمع عدة من الحبال، من السنة مختلفة، منها العربي، والرومي، والافرنجي، والصقلاي، والخزري، وغير ذلك، فوضعن في داره.

فلما وضعت البطريق أمه، أمر بتصيير أولئك النساء كلهن معه، وتقدم إلى كل واحدة منهن، ألا تكلمه إلا بلسانها.

فلم تستتم له أربع سنين، حتى تكلم بكل الألسنة التي لأمهاته اللاتي أَرْضَعْنَهُ.  
ثم أمر بتصيير ملاعبيه ومؤدبيه من جميع أجناس النساء اللواتي ربيته، فكانوا يعلمونه الكتابة، وقراءة كتبهم فلم تمر  
عليه تسع سنين، حتى عرف ذلك كله.

ثم أمر عمه أن يضم إليه جماعة من الفرسان يعلمونه الثقافة والمناولة، وجميع ما يتعلمه الفرسان، وتقدم بمنعه من  
سكنى المنازل، وأمر أن ينزل في المضارب، وأن يمنع من أكل اللحم إلا ما يصيده طائر يحمله على يديه، أو كلب  
يسعى بين يديه، أو صيد بسهمه، فكانت تلك حاله حتى استوفى عشر سنين، ثم مات عمه، وولي أبوه البطريقة بعد  
عمه، وأمره بالقدوم عليه، فلما رآه، ورأى فهمه، وأدبه، وشمائله، اشتد عجب به، فسمح له بما لم تكن الملوك تسمح  
به لأولادها، وأعد له المضارب والقساطيط الديداج، وضم إليه جماعة كثيفة من الفرسان، ووسع على الجميع في كل  
ما يحتاجون إليه، وورده إلى سكنى المضارب، وأخذ به بالاستيعاد عن منازل أبيه.

قال البطريق: فلما تمت لي خمس عشرة سنة، ركبت يوماً لارتياح مكان أكون فيه، فبصرت بغدير ماء قدرت طولها  
ألف ذراع وعرضه ما بين ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة ذراع، فأمرت بضرب مضاربي عليه، وتوجهت إلى الصيد،  
فرزقت منه في ذلك اليوم، ما لم أطمع في مثله كثرة، ونزلت في بعض المضارب فأمرت الطباخين، فطبخوا لي ما  
اشتبهت من الطعام، ثم نصبت المائدة بين يدي.

فإني لأنظر إلى الطيخ يعرف، إذ سمعت ضجة عظيمة، فما فهمت خبرها حتى رأيت رؤوس أصحابي تتساقط عن  
أبدانهم، فتنحيت عن مكاني الذي كنت فيه، وخلعت الثياب التي كانت علي، ولبست ثياب بعض عبيدي، ثم  
ضربت بيسري يمنة ويسرة، فلم أر حولي إلا مقتولاً، وإذا فاعل ذلك بأصحابي منس من مناسر البرجان.  
ثم أسرت كما يؤسر العبيد، واحتل جميع ما كان معنا، من مضرب وغيره، وصاروا بي إلى ملك البرجان.  
فلما رأيته، ولم يكن له ولد ذكر، أمر بالتوسعة علي، وأن أكون واقفاً عند رأسه، وسماني ابنه.  
وكان للملك بنت، وكان بها مغرم، وكان قد علمها القروسية، ومسورة الفرسان، ومساهمتهم ومراكتهم.  
فقال - وأنا حاضر - لجماعة من بطارقه: من منكم يتوجه إلى ملك الروم فيجئني بكاتب من بلده، ليعلم ابنتي  
الكتابة.

فأعلمته أن رسوله لا يأتيه بأكتب مني.

فأمرني أن أكتب بين يديه، فكُتبت، فاستحسن خطي، وقرنه بكتب كانت ترد عليه من والدي، فرأى خطي أجود  
منها، فدفع إليه ابنته، وأمرني أن أعلمها الكتابة، فهويتها، وهويتني.

فمكنت معي حتى استوفت ثلاث عشرة سنة، ثم عدت إلي يوماً وهي باكية، فقلت لها: ما يبكيك يا سيدتي؟  
فقال: دعني، يحق لي البكاء، فسألته عن السبب.

فقال: كنت جالسة بين يدي أبي وأمي في هذه الليلة، فغلبتني عيني، فممت، فسمعت أبي يقول لأمي: أرى نديي  
ابتتك قد تفلكا، وأرى هذا الرومي قد غلظ كلامه، وليس ينبغي أن يجتمعا بعد هذا الوقت، فإذا جلست غداً معه،  
فابعثي إليهما من يفرق بينهما، حتى لا يراها، ولا تراه.

قال البطريق: ومن سنة البرجان، أن يكون الرجل يخطب لابنته زوجاً، حتى يزوجهما، ولا يخطب لها إلا من تختاره  
البيت.

قال البطريق: فقلت لابنة الملك، إذا سألك أبوك، من تحبين أن أحطب لك من الرجال، فقولي: لست أريد إلا هذا  
الرومي.

فغضبت، وقالت: كيف يجوز أن أسأل أبي أن يزوجني بعد؟ قال: فقلت لها: ما جعلني الله عبداً، وأنا ابن ملك، وأبي ملك الروم.

قال البطريق: وأهل البرجان، يسمون البطريق الرومي الذي يتولى حد برجان: ملك الروم. فسألني: هل أخبرتها بحق؟ فأعلمتها أنه حق.

فما انقضى كلامنا، حتى جاء رسول الملك، ففرقوا بيننا، ولم يمض بعد ذلك، إلا ثلاثة أيام حتى دعاني الملك، فدخلت عليه، فرأيت أمارات الشر مستحكمة في وجهه.

فقال لي: يا شقي، ما حملك على الكذب في نسبك؟ وأنا أحكم على من انتسب إلى غير أبيه بالقتل. فقلت له: ما انتسبت إلى غير أبي.

فقال لي: أتقول إنك ابن ملك الروم؟ فأعلمته أنني أقول ذلك، ودعوته إلى الكشف عنه. فقال: لست أحتاج إلى كشف أمرك برسول أرسله ليعرف خبرك، ولكن لي أشياء أمتحنك بها، فأعرف صدقك من كذبك، فدعوته إلى كشفها بما شاء.

فدعا بدابة، ولبد، وسرج، وجام، فأمرني بتناول الدابة، فأخذت الدابة من يد السائس، ثم أمرني بأخذ اللبد، فأخذته، ثم أمرني بإلقائه على الدابة، ففعلت ما أمرني به، ثم أمرني بتناول السرج، فأخذته، ثم أمرني بشد الحزام، والنفر، واللبب، وأخذ اللجام وإلجام الدابة، ففعلت ذلك، ثم أمرني بركوب الدابة، فركبت، وأمرني بالسير فسرت، وأمرني بالإقبال والإدبار، ففعلت، ثم أمرني بالنزول، فنزلت. فقال، عند ذلك: أشهد أنه ابن ملك الروم، لأنه أخذ الدابة أخذ ملك، وعمل سائر الأشياء مثلما تعمله الملوك، فاشهدوا أنني قد زوجته ابنتي.

فلما قالوا شهدنا، قال: لا تشهدوا.

فلما سمعت قوله: لا تشهدوا، تخوفت أن يأتي على نفسي.

ثم قال لي: لم أتوقف عن الشهادة رغبة عنك، ولكننا لنا شرط لا نقدر أن نخالفه، ولم نأمن أن تضطر إليه، فحملك على شرطنا، وهو ما لم نخبرك به، ونوقمك عليه، فنكون قد ظلمناك، أو ندع لك سنة بلدنا، فنكون قد فارقنا سنتنا، إن سنتنا يا رومي، أن لا نفرق بين الزوجين إذا مات أحدهما، فإن مات الرجل قبل المرأة، نومناها معه في نعشه، وحملناها معاً، حتى ننزلهما إلى بئر هي مأوى موتانا، وجعلنا معهما طعاماً وشراباً لثلاثة أيام، ثم أنزلناهما إلى البئر، فإذا صارا إلى قرارها سينا الحبال عليهما، وكذلك إن ماتت المرأة قبل الرجل، جعلناها في سريرها، وجعلنا زوجها معها، وصيرناهما جميعاً في البئر، فإن رضيك بهذه السنة فبارك الله لك في زوجك، وإن لم ترض أقلناك، فلسنا نزوجك، ولا تستقيم لنا على خلاف سنتنا، فأحوجتني الصباية بها، أن قلت: قد رضيت بهذه السنة.

فأمر بتجهيزها وتسليمها إلي، وجمع بيننا، فأقمت معها أربعين يوماً، لا نرى إلا أنا قد فرنا بملك الدنيا.

ثم اعتلت علة كانت معها غشبية، لم يشك كل من رآها إلا أنها قبضت، فجهزت بأفخر ثيابها، وجهزت معها بمثل ذلك، وحملنا على نعش واحد، وركب الملك، وأهل المملكة، فشيعونا حتى وافوا بنا شفير البئر، ثم شلوا أسافل السرير بالحبال، وجعلوا معنا في النعش طعاماً وشراباً لثلاثة أيام، ثم حطونا حتى صرنا إلى قرارة البئر.

ثم أرخيت علينا الحبال، فسقط جبل منها على وجه الجارية، فأزال الوجود ما كان بها من الغشي، فانتبهت، فلما انتبهت، رأيت أن الدنيا قد جمعت لي.

واستمرت عيني على الظلمة، فرأيت في الموضع الذي أنا فيه، من الخبز اليابس والخمر ما له دهر كثير، فأخذنا

نتغذى به جميعاً.

وكنا لا نعدم في يوم من الأيام، إلا النادر، سريراً يدلى فيه زوجان، أحدهما ميت، والآخر حي، فإن كان النازل رجلاً حياً، توليت أنا قتله، لنلا يكون مع زوجتي غيري، وكذلك إن كانت الحية امرأة، تولت زوجتي قتلها، لنلا يكون مع زوجها غيرها.

فمكثنا في البئر هذه الحال أكثر من سنة، ثم دلي في البئر دلو، فعلمت أن مدلي الدلو غير برجاني، وأنه لا يدخل ذلك الموضع غير برجاني، إلا رومي، ووقع لي أن أقدم الجارية قبلي، لتخلص، ثم تعرفهم حالي، فبردوا الدلو إلي، فأصعد.

فحملت بنت الملك فجعلتها في الدلو بكسوتها، وحليها، وجواهرها، واجتذب القوم الدلو، فخرجت إليهم الجارية. فإذا القوم ممالك لأبي، ولم يتبهاوا للسؤال عني، وهابتهم الجارية، أن تقول لهم شيئاً، وقد كانوا رأوا ما فيه أمي وأبي وما غلب عليهما من الحزن لفقدي، فصاروا إليهما بالجارية ليتسلون بها، فسرا بها، وسكنا إليها. واستمرت الهيبة لهما بالجارية، فحصلت شر محصل.

وقد كان لوالدي صديق، له أدب وحكمة، وعلم بالتصوير، صور لهما صورتني في خشبة، وزورقها، وجعلها في بيت، وقال لأبوي: إذا ذكرتما ابنكما، واشتد غمكما، فادخلا فانظرا إلى هذه الصورة، فإنكما ستبكيان بكاء كثيراً يعقبكما سلوة.

فلما صارت الجارية إلى أبوي، ورأتهما يدخلان ذلك البيت كثيراً، ويجرجان، وقد بكيا، استفتقتهما يوماً، وهما داخلان، فبصرت بالصورة، فلما رأتهما لطمت وجهها، ونبفت شعرها، ومزقت ثيابها. فسألاها عن السبب فيما صنعت بنفسها، فقالت: هذه صورة زوجي، فسألاها عن اسمه، واسم أبيه وأمه، فأسميتهما جميعاً.

فقالا لها: فأين زوجك؟ قالت: في البئر التي أخرجت منها، فركب أبي وأمي في أكثر أهل البلد، ومعهم الغلمان الذين أخرجوا الجارية من البئر، حتى وافوا البئر، فدلوا الدلو، وكنت قد سللت سيفي الذي كان أنزل معي من غمده، وجعلت ذبابه بين تديبي لأتكيء عليه، فأخرجه من ظهري، فأستريح من الدنيا، لغلبة الغم علي، فوثبت، فقعدت في الدلو، واجتذبوني حتى خرجت، فوجدت أبي، وأمي، وامرأتي، على شفير البئر، وقد أحضروا لي الدواب لأركب وأنصرف إلى بلادي، وكان أبي قد صار ملك تلك البلاد، فلم أطمعها، وأعلمتهما أن الأصوب البعثة إلى أبي الجارية، وأمها، حتى يريا ابنتهما مثلما رأيتما.

ففعلاً ذلك، ووجهها إلى أبي الجارية، وهو صاحب البرجا، فخرج في أهل مملكته، حتى عاينها، وأقاموا عرساً جديداً، وحدثت مهادنة بين الروم والبرجان جرت فيها أيمان مؤكدة أن لا يعدوا أحدها على صاحبه ثلاثين سنة، وصار القوم إلى بلادهم، وصرنا إلى منازلنا.

قال: ومات أبي، فورثت البطرقة عنه، ورزقت من بنت ملك البرجان الولد، وأنت يا عربي، فإن كان الغم قد بلغ منك إلى ما ذكرت فقد جاءك الفرج.

فما انقضى كلام البطريق، حتى دخل عليه رسول ملك الروم يدعوه، فمضى إليه، ثم عاد إلي، فقال: يا عربي، قد جاءك الفرج، كنت عند الملك، وقد جرى ذكر العرب، ورمتهم البطارقة عن قوس واحدة، فذكروا أنهم لا عقول لهم ولا آداب، وأن قهرهم الروم بالغلبة والاتفاق، لا بحسن التدبير.

فأعلمت الملك أن الأمر بخلاف ما قالوا، فإن للعرب آداباً، وأذهاناً، وتدبيراً جيداً.

فقال لي الملك: أنت نخبتك لضيفك العربي تفرط في إعطاء العرب ما ليس لها، وتصنفها بما ليس فيها.  
فقلت: إن رأى الملك أن يأذن في إحضار هذا العربي، ليجمع بينه وبين هؤلاء المتكلمين، ليعرف فضيلته، فأمرني بحملك إليه.

فقلت: بئس ما صنعت بي، لأني أخاف إن غلبتني أصحابه أن يستخف بي، وإن غلبتهم أن يضطغن علي.  
فقال: هذه صفة العامة، والملوك على خلافها، وأنا أخبرك أنك إن غلبتهم جللت في عين الملك، وكنت عنده بمكان يقضي لك فيه حاجة، وإن غلبوك سره غلبة أهل دينه لك، فأوجب لك أيضاً بذاك ذماماً، وإن أقل ما يرى أن يقضي لك حاجة، فإن غلبت أو غلبت فسله إخراجك من بلده، وردك إلى بلادك، فإنه سوف يفعل ذلك.  
قال قباث: فلما دخلت على الملك، استدناني، وقريني، وأكرمني، وقال لي: ناظر هؤلاء البطارقة.  
فأعلمته، أنني لا أرضى لنفسي بمنظرهم، وأني لا أناظر إلا البطريق الأكبر، فأمر بإحضاره.  
فلما دخل، سلمت عليه، وقلت له: مرحباً أيها الشيخ الكبير القدر.  
ثم قلت له: يا شيخ، كيف أنت؟ قال: في عافية.  
قلت: فكيف أحوالك كلها؟ قال: كما تحب.  
فقلت له: فكيف ابنك؟ فتضاحكت البطارقة كلها، وقالوا: زعم البطريق يعنون الذي هو صديقي أن هذا أديب، وأن له عقلاً، وهو لا يعلم بجعله، أن الله تعالى قد صان هذا البطريق عن أن يكون له ابن.  
فقلت: كأنكم ترفعونه عن أن يكون له ابن؟

قالوا: إي والله، إنا لرفعوه، إذ كان الله رفعه عن ذلك.  
فقلت: واعجباً، أيجل عبد من عبيد الله، أن يكون له ابن، ولا يجلب الله تعالى، وهو خالق الخلائق كلها، عن أن يكون له ابن.

قال: فنخر البطريق نخرةً أفزعني، ثم قال: أيها الملك، أخرج هذا الساعة من بلدك، لا يفسد عليك أهله.  
فدعا الملك بالقرسان، فضمني إليهم، وأحضر لي دواب البريد، وأمر بحملي عليها، وتسليمي إلى من يلقانا في أرض الإسلام من المسلمين، فسلموني إلى من تسلمني من أهل الثغر.  
ثم ذكر حديثاً لعبد الملك، مع الرجل، لا يتعلق بهذا الباب فأذكره، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

#### استنقذ المذحجين من أسر بني مازن

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه الفرج بعد الشدة، قال: بلغني أن عمرو بن معدي كرب الزبيدي، قال: خرجت في خيل من بني زيد، أريد غطفان، فبينما أنا أسير، وقد انفردت عن أصحابي، إذ سمعت صوت رجل يشد شعراً، فحفظت منه قوله:

أما من فتى لا يخاف العطب ... يبلغ عمرو بن معدي كرب  
بأنا نوط في مازن ... بأرجلنا اليوم نوط القرب  
فإن هو لم يأتنا عاجلاً ... فيكشف عنا ظلام الكرب  
وإلا استغتنا بعبد المدان ... وعبد المدان لها إن طلب

قال: فعلمت أنه أسير في بني مازن بن صعصعة، فقلت لخليتي: قفوا حتى آتيكم، فاقبحت على القوم وحدي، فإذا

هم يصطلون.

فقلت: أنا أبو ثور، أين أسرى بني مذحج؟

فنادى الأسرى من الرجال، وبادر القوم إلي يطلبوني، فلم أزل أقاتلهم وأقتل منهم حتى استعفوني، وقالوا: إنا والله لنعلم، أنك لم تأتنا وحدك إلا وأنت لا تبالي بنا، فلك الأسرى فاكفف عنا خيلك.  
فنزلت، وأطلقت بعضهم، وقلت: ليحل بعضكم بعضاً، وليركب كل واحد منكم ما وجد من الخيل، وأقبلت خيل فركيوها.

فقلت للأسرى: هل علمتم بموضعي، حين أنشدتم ما سمعت.

قالوا: لا والله، وما أصبحنا يوماً، منذ حبسنا، آيس من الفرج من يومنا هذا، فلذلك أقول:

ألم ترني إذ ضمّني البلد الفقير ... سمعت نداءً يصدع القلب يا عمرو

أعشنا فإنا عصبة مذحجية ... نناط على وفر وليس لنا وفر

فقلت لخيلي أنطروني فإني ... سريع إليكم حين يصدع الفجر

وأقحمت مهري حين صادفت غرّة ... على الطفّ حتى قيل قد قتل المهر

فأنجيت أسرى مذحج من هوازن ... ولم ينجهم إلا السكينة والصبر

ونادوا جميعاً حلّ منا وثاقنا ... أخوا البطش ضارباً عنهم فتر

يزيد وعمر والحصين ومالك ... ووهبّ وسفيان وسابعهم وبر

تكلفنا يا عمرو ما ليس عندنا ... هوازن فانظر ما الذي فعل الدهر

قال مؤلف هذا الكتاب: أنشدنا أبو الفرج الأصبهاني البيهقي الأولين، أولهما: ألم تر لما ضمّني البلد الفقير. وفي الثاني:

نراد على وتر وليس لنا وفر، قال: فيهما خفيف رمل بالوسطى محمد بن الحارث بن بسنخر عن عمرو، قال: وذكر

أنه لابن بانه وفيهما ثاني ثقيل عن..

أخبرني بهذا الخبر، محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أخبرني أبو القاسم الزينبي، قال: أخبرنا أبو خليفة الجمحي، عن

محمد بن سلام، وذكر نحوه.

الباب السادس

من فارق شدة إلى رخاء

بعد بشري منام لم يشب صدق تأويله بكذب الأحلام

ما عرض المعتضد في أيامه للعلوين ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً

أخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، قال: حدثنا محمد بن يحيى ابن أبي عباد الحسني، قال: رأى المعتضد، وهو في حبس أبيه، كأن شيخاً جالساً على دجلة، يمد يده إلى مائها فيصير في يده تحفة دجلة، ثم يرده من يده، فتعود دجلة كما كانت.

قال: فسألت عنه، فقبل لي: هذا علي بن أبي طالب عليه السلام.

فقلت إليه، وسلمت عليه، فقال لي: يا أحمد، إن هذا الأمر صائر إليك، فلا تتعرض لولدي، وصنهم، ولا تؤذهم.  
فقلت: السمع والطاعة لك يا أمير المؤمنين.

وحدثني أبي رحمه الله بهذا الحديث، على أتم من هذا، بإسناد ذكره عن ابن حمدون النديم، قال: حدثني أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمدون، أو قال: حدثني من قال حدثني أبو محمد - أنا أشك - لأني لم أكتبه، وإنما حفظته في المذاكرة، ولعل الألفاظ تزيد أو تنقص، قال: قال لي المعتضد بالله وهو خليفة: لما قدم أبي، وهو عليل العلة التي مات فيها، وأنا في حبسه، ازداد خوفي على نفسي، ولم أشك في أن إسماعيل بن بلبل، سيحمله على قتلي، أو يحتال بحيلة يسفك بها دمي، إذا وجد أبي قد قتل، وأيس منه.

فتمت ليلة من تلك الليالي، وأنا من الخوف على أمر عظيم، وقد صليت صلاة كثيرة ودعوت الله عز وجل، فرأيت في منامي كأنني قد خرجت إلى شاطئ دجلة، فرأيت رجلاً جالساً على الشاطئ، يدخل يده في الماء، فيقبض عليه، فيقف دجلة، ولا يخرج من تحت يده قطرة من الماء، حتى يجف ما تحت يده، ويتزايد الماء فوق يده ويقف كالطود العظيم، ثم يخرج يده من الماء فيجري، يفعل ذلك مراراً، فهالني ما رأيت.

فدنوت منه، وسلمت عليه، وقلت له: من أنت يا عبد الله الصالح؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب.  
فقلت: يا أمير المؤمنين، ادع الله لي.

فقال: إن هذا الأمر صائر إليك، فاعتضد بالله، واحفظني في ولدي، فانتبهت وكأني أسمع كلامه لسرعة المنام.  
فوثقت بأني أتقلد الخلافة، وقويت نفسي، وزال خوفي، فقلت للغلام لم يكن معي في الحبس غيره، إذا أصبحنا فامض فاتبع لي خاتماً، وانقش على فسه أحمد المعتضد بالله، وجئني به.

فمضى، وفعل، وأتاني به، فلبسته، وقلت: إذا وليت الخلافة، جعلت لقي المعتضد بالله.  
ثم أخذت أقطع ضيق صدري في الحبس، بتصفح أحوال الدنيا، والفكر في تدبير عمارة الخراب منها، ووجه فتح المنغلق، وتعيين العمال للنواحي، والأمراء في البلاد.

ثم أخذت رقعة، فكتبت، بدر: الحاجب، عبيد الله بن سليمان؛ الوزير، فلان: أمير البلد الفلاني، فلان؛ عامل البلد الفلاني؛ فلان: للديوان الفلاني، إلى أن أتيت على ما في نفسي من ذلك، ثم دفعتها للغلام، وقلت له: احتفظ بهذه، فإن دمي ودمك مرتنان بما فيها، فحفظها.

فما مضى إلا أيام يسيرة، حتى لحقت الموفق غشبية، لم يشك الغلمان معها أنه قد مات، فأخرجوني، فأتوا بي إلى بيت فيه الموفق، فلما رأته علمت أنه غير ميت، فجلست عنده، وأخذت يده أقبلها وأترشفتها، فأفاق، فلما رأني أفعل ذلك، أظهر التقبل لي، وأوماً إلى الغلمان، أن قد أحسستم فيما فعلتم.

ثم مات الموفق في ليله تلك، ووليت مكانه، فابتدأت بتقرير الأمور، على ما كنت قررت في الرقعة، ثم وليت الخلافة، فأمضيت بقايا تلك التدبيرات كلها.

قال لي أبي: قال لي ابن حمدون: ما عرض المعتضد في أيامه للعلويين، ولا آذهم، ولا قتل منهم أحداً.

**سليمان بن وهب يتفائل بمنام رآه وهو محبوس**

حدثني علي بن هشام بن عبد الله الكاتب، قال: حدثنا أبو الحسين عبد الواحد بن محمد الخصب، ابن بنت ابن المدير، قال: حدثني أبو الفضل ميمون بن هارون بن مخلد بن أبان الكاتب - قال علي بن هشام: وميمون هذا، هو

جد أبي الحسين بن ميمون الأفطس، كاتب المتقي في أيام أبيه، ووزيره لما استخلف - قال: كانت بيني وبين أبي أيوب سليمان بن وهب، مودة وكيدة، فلما تسهلت محنته بعد قتل إيتاخ، صرت إليه وهو محبوس مقيد، إلا أنه مرفه في الكسوة، وكبر الدار، والفرش، وحسن الخدمة، وقد صلحت حاله بالإضافة إلى ما كان عليه أول نكته من الضرب والتضييق.

فحدثني: أنه رأى في ليلته تلك، في منامه، كأن قائلاً يقول له:

اصبر وربّ البيت لا يقتادها ... أحد سواك وحظّك الموفور

قال: فصرت إلى أخيه أبي علي الحسن بن وهب، فحدثته بذلك، فسر به، وكان كالمستتر الممتنع عن لقاء السلطان،

فعمل شعراً ضمنه البيت، وسألني إيصاله إلى أخيه أبي أيوب سليمان، فأخذته، وأدخلته إليه، وهو:

الدّمع من عيني أخيك غزير ... في ليله وفناره محدود

بأبي وأمّي خطوك المقصور ... أمقيد، ومصفد، وأسير؟

وزادني غيره، في غير هذه الرواية:

ماذا بقلب أخيك مذ فارقته ... ليكاد من شوق إليك يطير

فكأنما هو قرحة مقروفة ... منها الבלابل والموم تنور

فكرّ يجول بها الصّمير كأنما ... يذكو بها حول الشغاف سكير

وجوى دخيلٍ ليس يعلم كنهه ... فما يلاقيه أخ وعشير

فيظنه أجدانه متسلّياً ... والبثّ في أحشائه مسور

رجع إلى الرواية الأولى:

ما كنت أحسبني أعيش ومهجتي ... تحت الخطوب تلور حيث تلور

قلقاً، فإنك بالعزاء جدير ... وعلى النوائب منذ كنت صبور

عشرات مثلك في الزّمان كثيرة ... ولهنّ بعد مثابة وحوور

إن تمس في حلق الحديد فحشوها ... منك السماحة والتّدى والخير

والفصل للشبهات رأيك ثاقبٌ ... فيه يضيء سداده وينير

وزادني غيره أيضاً:

وتحمّل العبء الثقيل بثقله ... منك انجرب عزمه المخجور

رجع إلى الرواية الأولى:

فاصبر وربّ البيت لا يقتادها ... أحد سواك وحظّك الموفور

والله مرجوٌ لكربتنا معاً ... وعلى الذي نرجوه من قدير

قال: فما مضت إلا أيام يسيرة، حتى أطلق سليمان بن وهب، ثم انتهى بعد سنين إلى الوزارة.

وذكر هذا الخبر محمد بن عبدوس في كتابه: كتاب الوزراء، على قريب من هذا، إلا أنه أتى من الشعر بيتين فقط.

لم يقصد النهاية دار الحسن بن مخلد لأنه كان متعطلا



حدثني علي بن هشام، قال: حدثني أبو الفرج محمد بن جعفر بن حفص الكاتب، قال: حدثني أبو القاسم عبيد الله بن سليمان، قال: كان أبو محمد الحسن بن مخلد، أول من رفعني، واستخلفني على ديوان الضياع، فكنت أخلفه عليه، إلى أن ولي شجاع بن القاسم الوزارة، مع كتبة أوتامش في أيام المستعين، فاشتد جزع أبي محمد منه. فسألته عن سبب ذلك، فقال: هذا رجل حمار، لا يغار على صناعته، وهو مع هذا من أشد الناس حيلة وشرًا، وهو يعرف كبر نفسي، وصغر نفسه، وقد بدأ بأبي جعفر أحمد بن إسرائيل، فصرفه عن ديوان الخراج، ونكبه، ونفاه إلى أنطاكية، ولست آمن أن يجعلني في أثره.

قال: فما مضى إلا أسبوع، حتى ظهر أن أبا موسى عيسى بن فرخان شاه القناني الكاتب قد سعى مع شجاع في تقلد ديوان الضياع، ثم تقلده صارفًا للحسن بن مخلد، وخلع عليه، فازداد جزع الحسن، وأغلق بابه، وقطع الركوب.

فبينما أنا عنده في بعض العشيات، إذ أتت رقعة من شجاع، يستدعيه، ويؤكد عليه في البدار، فارتاع، وهض، وتعلق قلبي به، فقعدت أنتظر، إلى أن عاد وهو مغموم مكروب.

فقلت: ما خبرك؟ قال: قد فرغ شجاع من التدبير علي، وذلك أنه قد صح عندي بعد افتراقنا، أن أوتامش قال البارحة لبعض خواصه: قد ثقلنا على شجاع، وحملناه ما لا يطيق من كتبي والوزارة، وتركنا هذا الشيخ الحسن بن مخلد، متعطلاً، ولا بد أن يفرج له شجاع عن كتبي، أو الوزارة، لأقلده أحدها، فلما بلغ ذلك شجاعاً، أنفذ إلي في الوقت.

فلما لقيته الساعة، قال لي: يا أبا محمد، أنت شيخخي، ورئيسي، وأنت اصطعنتني، وأنا معترف بالحق لك، وآخر ما لك عندي من الإنعام أن قلدتني عمالة همذان، فانتقلت منها إلى هذه المرتبة، والأمير يحدرك الحذر كله وقد أقام على أنه لا بد من نكبتك وإفقارك، فللحال التي بيننا، ما أقيمت على الامتناع عليه من هذا، وسألته في أمرك، وبعد أن جرت خطوب، تقرر أن لا تجاوره، وتشخص إلى بغداد، ورضيته بذلك، وصرفت عنك النكبة، وقد أمرني بإخراجك من ساعتك، وما زلت معه حتى استنظرته لك ثلاثة أيام، أولها يومنا هذا، فاعمل على هذا، وأنتك تمضي إلى بلد الأمر والنهي فيه إلى أبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر، وهو صديقك، ويخلمك الناس كلهم، ولا تخدم أحداً، وتقرب من ضيعتك.

فأظهرت له الشكر، وضمنت له الخروج، وأنا خائف منه أن يدعني حتى أخرج آلي وحرمي ثم يقبض على ذلك كله، وينكبني.

فقلت: الوجه أن تفرق جميع مالك وحرملك والأمتعة والدواب، وتودعه ثقافتك، وإخوانك، من وجوه قواد الأتراك وكتابهم، وتطرح القفل الذي لا قيمة له من خيش وستائر وأسرة وآلة المطبخ في الزواريق، وتجلس في الحراقة العجائز اللواتي لا تفكر فيهن، ليظن أنهن الحرم، وتجهد أن يكون خروجك ظاهراً، ولا تكاشف بالاستتار، بل على سبيل تروق ومراوغة، فإذا حصلت ببغداد، دبرت أمرك حيثنذ بما ترى. فقال: هذا رأي صحيح، وأخذ يصلح أمره على هذا.

فلما كان في ليلة اليوم الثالث، لم أتم أكثر الليل، فكراً فيه، وغماً بأمره، ثم نمت لما غلبتني عيني، فرأيت في السحر كأن قائلاً يقول لي: لا نغتم، فقد ركب الأتراك من أصحاب وصيف وبغا، إلى أوتامش وكتابه شجاع، وقد هجموا عليهما، وقتلوهما، واسترحم منهما.

فانتبهت مروعاً، ووجدت الوقت حين انفجار الصباح، فصليت، وركبت إلى الحسن بن مخلد، فدخلت إليه من باب له غامض، لأنه كان قد أغلق أبوابه المعروفة، فسألته عن خبره.

فقال: هذا آخر الأجل، وقد خفت أن يعاجلني شجاع بالقبض علي، وقد أغلقت أبوابي، واستظهرت بغلمان يراعون رسله، فإن جاؤوا ورأوا أمارات الشر منهم، خرجت من هذا الباب الغامض، وأن يسألوا عن شجاع، فإن كان في داره قالوا لمن جاء يطلبني إنه في دار الأمير، وإن كان في دار الأمير، قالوا للرسول إنه في دار شجاع، مدافعة عني حتى أهرب.

قال: فقصصت عليه الرؤيا، فتضحك، وقال: ما ظننتك بهذه الغفلة، نحن في اليقظة على ما ترى، كيف يصح لنا خبرك في منامك؟ هذا إنما نمت وأنت تتمنى خلاصي، فرأيت ذلك في منامك. فخرجت من عنده أريد داري، فلقيني جماعة في الطريق، فعرفوني أن الأتراك قد ركبوا بالسلاح، فعدت إلى منزلي، وأغلقت بابي، ووصيت عيالي بحفظ الدار، ثم عدت، فدخلت إلى الحسن، فأخبرته بالخبر، فأمر بمراعاة الأمر. فما زلنا نعرف الأخبار، ساعة بساعة، إلى أن جاء الناس فعرفونا أن الأتراك قتلوا شجاعاً، ثم دخل رجل، فقال: أنا رأيت الساعة رأس أوتامش، وصح الخبر بقتلهما جميعاً.

ونميت سامراء كلها، فما أفلت أحد من النهب أحسن من إفلات الحسن ابن مخلد، لأن ماله كله كان قد حصل عند القواد وكتابهم، فلم يضع منه شيء، وكان متعطلاً، فلم يقصد النهاية داره، وما أمسينا إلا في أتم سرور وفرح، لأنه فرج عنا بما لم يكن في حسابنا.

اتخذ من رؤيا ادعى أنه رآها سبباً للتخلص من حبس سيف الدولة حدثني أبو الفرج المخزومي، المعروف بالبيغاء الشاعر، قال: كان بجلب بزاز يعرف بأبي العباس بن الموصول، اعتقله سيف الدولة، بخراج كان عليه، مدة، وكان الرجل حاذقاً بالتعبير للرؤيا. فلما كان في بعض الأيام، كنت بحضرة سيف الدولة، وقد وصلت إليه رقعة البزاز، يسأله فيها حضور مجلسه، فأمر بإحضاره.

وقال: لأي شيء سألت الحضور؟ فقال: لعلمي أنه لا بد أن يطلقني الأمير سيف الدولة من الاعتقال، في هذا اليوم.

قال: ومن أين علمت ذلك؟ قال: إني رأيت البارحة في منامي، في آخر الليل، رجلاً قد سلم إلي مشطاً، وقال لي: سرح لحيتك، ففعلت ذلك، فتأولت التسريح، سراحاً من شدة واعتقال، ولكون المنام في آخر الليل، حكمت أن تأويله يصح سريعاً، ووثقت بذلك، فجعلت الطريق إليه مسألة الحضور، لأستعطف الأمير. فقال له: أحسنت التأويل، والأمر على ما ذكرت، وقد أطلقتك، وسوغتك خراجك في هذه السنة. فخرج الرجل يشكره ويدعو له.

### خراساني يودع بدره من المال لدى أبي حسان الزياتي فيسارع إلى إنفاقها

أخبرني القاضي أبو طالب محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التوخي، فيما أجاز لي روايته عنه، بعدما سمعته منه، قال: حدثنا محمد بن خلف وكيع القاضي قال: حدثني أبو سهل الرازي القاضي، قال: حدثنا أبو حسان الزياتي القاضي، قال: جاءني رجل من أهل خراسان فأودعني بدره دراهم، فأخذتها مضمونة، وكنت مضيقاً، فأسرعت في إنفاقها، وكان قد عزم المودع على الحج، ثم بدا له، فعاد يطلبها، فاغتممت، وقلت له: تعود إلي من غد.

ثم فرغت إلى الله تعالى، وركبت بغلتي في الغلس، وأنا لا أدري إلى أين أتوجه، وعبرت الجسر وأخذت نحو المحرم، وما في نفسي أحد أقصده، فاستقبلني رجل راكب، فقال: إليك بعثت.  
فقلت: من بعثك؟ فقال: دينار بن عبد الله، فأتيته وهو جالس.  
فقال لي: ما حالك؟ قلت: وما ذاك؟ فقال: ما نمت الليلة إلا أتاني آت، فقال: أدرك أبا حسان.  
فحدثته بحديثي، فدعا بعشرين ألف درهم، فدفعها إلي، فرجعت، فصليت في مسجدي الغداة، وجاء الرجل، فدفعت إليه ماله، وأنفقت الباقي.

## كتاب : الفرج بعد الشدة

المؤلف : القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي

ووقع إلي هذا الخبر، من طريق آخر، فحدثني طلحة بن محمد بن جعفر الشاهد، وقرأته بالإجازة عن طلحة، قال: حدثني أبو الحسين عبد الواحد بن محمد الخصيبي، قال: حدثني أبو علي أحمد بن إسماعيل نطاحة، قال: حدثني أبو سهل الرازي القاضي، قال: حدثنا أبو حسان الزياتي القاضي، قال: أضقت إضاقاً بلغت بها إلى الغاية، حتى ألح علي الخباز، والقصاب، والبقال، وسائر المعاملين، ولم تبق لي حيلة. فإني يوماً من الأيام على تلك الحال، مفكراً في أمري، كيف أعمل، وكيف أحتال، إذ دخل علي غلامي، فقال: بالباب حاج يستأذن عليك.

فقلت: أدخله.

فدخل علي رجل خراساني، فسلم، وقال: أنت أبو حسان؟ قلت: نعم، فما حاجتك؟ قال: أنا رجل غريب، أريد الحج، ومعني جملة مالي، وهو عشرة آلاف درهم، وقد أحضرته في بدرة معي أسألك أن تقبضها وتدعها قبلك، إلى أن قضى حاجي، وأرجع، فإني غريب، وما أعرف أحداً في هذا البلد. فقلت: هات البدرة.

فسلمها إلي، وخرج بعد أن وزن ما فيها.

فلما خرج، فتحتها على الفور، وأحضرت المعاملين، فقضيت جميع ديوني، واتسعت بالباقي، وقلت: أضمنتها في مالي إلى أن يعود من الحج، وإلى أن يجيء، يأتي الله بفرج من عنده. فكنت في يومي ذاك، في سعة، وأنا فرح، لست أشك في خروج الخراساني. فلما أصبحت من الغد، دخل علي الغلام، فقال: الخراساني الذي أودعك البدرة، بالباب. فقلت: أدخله.

فدخل، وقال: اعلم أبي كنت عازماً على الحج، ثم ورد علي خبر وفاة أبي، وقد عزمتم علي الرجوع إلى بلدي فتفضل علي بإعادة البدرة التي أعطيتك أمس.

فورد علي أمر عظيم، لم يرد علي مثله قط، وتحيرت، ولم أدر بما أجيبه، ثم فكرت، فقلت: ماذا أقول له؟ إن جحدته، قدمني إلى القاضي، واستحلفني فكانت القضيحة في الدنيا والآخرة والهلك، وإن دافعته، صاح وهتكني. فقلت له: نعم، عافاك الله، إن منزلي هذا ليس بالحريز، ولما أخذت منك البدرة، أنفذتها إلى موضع أحرز منه، فتعود إلي غداً، لأسلمها إليك.

فانصرف، وبقيت متحيراً، لا أدري ما أعمل، وعظم علي الأمر جداً، فأدركني الليل، وفكرت في بكور الخراساني، فلم يأخذني النوم، ولا قدرت على الغمض.

فقمت إلى الغلام، فقلت: أسرج البغلة.

فقال: يا مولاي، هذا أول الليل، إلى أين تمضي؟ فرجعت إلى فراشي، فإذا النوم ممنوع علي، فلم أزل أقوم إلى الغلام، وهو يردني، حتى فعلت ذلك مرات، وأنا لا يأخذني القرار.

وطلع الفجر، فأسرج الغلام البغلة، فركبت، وأنا لا أدري إلى أين أتوجه، فطرحت عنان البغلة، وأقبلت أفكر وهي تسير، حتى بلغت الجسر فعدلت بي إليه، فتركتها، فعبرت.

ثم قلت: إلى أين أعبّر، إلى أين أتوجه؟ ولكن إن رجعت، رأيت الخراساني على بابي، ولكن أذعأ تمضي حيث شئت، فمضت البغلة.

فلما عبرت البغلة الجسر، أخذت بي يمنة، ناحية دار المأمون، وتركتها، ومرت، فلم أزل كذلك إلى أن قربت من دار المأمون، والدنيا بعد مظلمة.

فإذا فارس قد تلقاني، فنظر في وجهي، ثم سار وتركني، ثم رجعت، وقال: أأستأذن من أبا حسان الزياتي؟ فقلت: بلى. قال: إليك بعثت.

فقلت: ما تريد، رحمك الله، ومن بعث بك؟ فقال: الأمير الحسن بن سهل.

فقلت: وما يريد مني الحسن بن سهل؟، ثم قلت: امض بنا، فمضى حتى استأذن على الحسن بن سهل، فدخلت إليه.

فقال: يا أبا حسان، ما خبرك، وكيف حالك، ولم انقطعت عنا؟ فقلت: لأسباب، وذهبت لأعذر عن التخلف.

فقال: دع هذا عنك، أنت في لوثة، وفي أمر ما هو، فإني رأيتك في النوم، في تخليط كثير.

فشرحت له قصتي، من أولها إلى أن لقيني صاحبه، ودخلت عليه.

فقال: لا يغمك الله يا أبا حسان، هذه بدرة للخراساني، مكان بدرته، وهذه بدرة أخرى تتسع بها، فإذا نفذت، أعلمنا.

فرجعت من ساعتني، فدفعت للخراساني بدرته، واتسعت بالباقي، وفرج الله عني، فله الحمد.

وحدثني بهذا الحديث أيضاً، أبو الفرج محمد بن جعفر، من ولد صالح صاحب المصلي قال: حدثنا أبو القاسم علي بن محمد بن أبي حسان الزياتي، وكان محدثاً ببغداد، ثقة، مشهوراً، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال:

كنت وليت القضاء من قبل أبي يوسف القاضي رحمه الله، ثم صرفت، وتعطلت، وأضقت إضاقة شديدة، وركبني دين فادح، خباز، وبقال، وقصاب، وعطار، وبرزاز، وغيرهم، حتى قطعوا معاملتي لكثرة ما لهم علي، وإياسهم من أن أقضيهم، فتنضاعفت إضاقتي، واشتدت حيرتي.

فإني يوماً بمسجدي، قد صليت بأهله الغداة، ثم انفتلت أدرس أصحابي الفقه إذ جاءني رجل خراساني، وذكر الحديث على نحو ما ذكره طلحة، إلا أنه لم يقل فيه جملة: فأبى... .

وقال أبو الفرج في حديثه: فلما بلغت مربعة الخرسى، استقبلني موكب فيه شموع ونفاطات، قد أضاء منه الطريق، فصار كالنهار، فطلبت زقافاً أستخفي فيه، حتى يجوز الموكب، فلم أجد، فإذا برجل من الموكب، يقول: أبو حسان والله، فتأملته، فإذا هو دينار بن عبد الله، فسلمت عليه.

فقال: إليك جنت، أرسل إلي أمير المؤمنين الساعة، وأمرني أن أركب إليك بنفسي، وأحضره إياك.

فمضيت معه، حتى أدخلني على المأمون.

فقال لي المأمون: ما قصتك؟ فإني رأيتك في النوم البارحة، والنبي صلى الله عليه وسلم، يأمرني بإغاثتك.

فحدثته بحديثي.

فقال المأمون: أعطوا أبا حسان ثلاث بدر، وولاني الري، وأمرني بالخروج إليها.

قال: فعدت إلى بيتي وما طلع القمر، فلما كان وقت صلاتي في مسجدي، خرجت، وإذا بالخراساني، فلما قضيت الصلاة، أدخلته إلى البيت، فأخرجت إليه البدر.

فلما رآها، قال: ما هذا؟ فقصصت عليه القصة، وأعطيته بدرة منها، فأخذها وانصرف.

وذكر محمد بن عبدوس، في كتاب الوزراء، في أخبار دينار بن عبد الله: أن رسوله لقي أبا حسان في الطريق، فقال له: قسمت شيئاً على عيالنا، فذكرت عيالك، فأهدت إليك عشرة آلاف درهم، فأخذها، ورجع من الطريق، وباكره الخراساني، فأعطاه إياها كلها، لأنه كان قد أنفق جميع مال الخراساني، ثم عاد من غد إلى دينار، فعرفه، وشكره، وعرفه الحديث.

فقال: فكأنما قضينا الخراساني في ماله، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم أخرى، ولم يذكر ابن عبدوس في خبره ذكر المنام.

وحدثني أبي هذا الحديث في المذاكرة، قال: حدثني شيخ - ذكره أبي وأنسيته أنا، عن أبي حسان الزياتي، بنحو ما ذكره محمد بن جعفر في حديثه، إلا أنه قال فيه: إن الخراساني قال في حديثه لأبي حسان: إن رجوع الحجاج ولم ترني قد رجعت إليك، فاعلم أي هلكت، والبدره هبة مني إليك، وإن رجعت فهي لي، ثم يقارب لفظ الحديثين، إلى أن لقيه في الجانب الشرقي قوم فلما رأهم تنحى عن طريقهم، فلما رأوه بطيلسان، بادروا إليه، وقالوا له: أتعرف منزل رجل يقال له أبو حسان الزياتي؟ فقال: أنا هو.

فقالوا له: أجب أمير المؤمنين، وحمل فأدخل إلى المأمون.

فقال له: من أنت؟ فقال: رجل من أصحاب أبي يوسف القاضي من الفقهاء وأصحاب الحديث.

قال: بأي شيء تكني؟ فقال: بأبي حسان.

فقال: بماذا تعرف؟ فقال: بالزيادي، ولست منهم، وإنما نزلت فيهم، فنسبت إليهم.

فقال: قصتك، فشرحت له قصتي.

فبكى بكاء شديداً، وقال: ويحك، ما تركني رسول الله أن أنام بسبيك، أتاني في أول الليل فقال: أغث أبا حسان الزياتي، فانتبهت ولم أعرفك، واعتمدت السؤال عنك، وأثبت اسمك ونسبك ومنت، فأتاني، فقال كمقالته، فانتبهت منزعجاً، ثم نمت، فأتاني، وقال: ويحك، أغث أبا حسان، فما تجاسرت على النوم، وأنا ساهر، وقد بثت في طلبك، ثم أعطاني عشرة آلاف درهم، وقال: هذه للخراساني، ثم أعطاني عشرة آلاف درهم أخرى، وقال: اتسع بهذه، وأصلح أمرك، وعمر دارك، واشترى مركوباً سريعاً، وثياباً حسنة، وعبداً يمشي بين يدي دابتك، ثم أعطاني ثلاثين ألف درهم، وقال: جهز بها بناتك، وزوجهن، فإذا كان يوم الموكب، فصر إلي، حتى أفلدك عملاً جليلاً، وأحسن إليك.

فخرجت والمال بين يدي محمول، حتى أتيت مسجدي، فصليت الغداة، والتفت فإذا الخراساني بالباب، فأدخلته إلى البيت، وأخرجت بدره فدفعها إليه.

فقال: ليس هذه بدرتي، أريد مالي بعينه.

فقصصت عليه قصتي، فبكى، وقال: والله لو صدقتني في أول الأمر عن خبرك لما طالبتك، وأما الآن، فوالله لا دخل مالي شيء من مال هؤلاء، وأنت في حل، وانصرف.

فأصلحت أمري، وبكرت يوم الموكب إلى باب المأمون، فدخلت، وهو جالس جلوساً عاماً.

فلما مثلت بين يديه استدانني، ثم أخرج عهداً من تحت مصلاه، وقال: هذا عهدك على قضاء المدينة الشرقية من الجانب الغربي من مدينة السلام، وقد أجريت عليك في كل شهر كذا وكذا، فائق الله تدم عليك عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعبج الناس من كلام المأمون وسألوني عن معناه، فأخبرتهم الخبر، فانتشر.  
فما زال أبو حسان قاضي الشرقية، إلى آخر أيام المأمون.

### حبسه المهدي وأطلقه الرشيد

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: حدثني أبو عمر محمد ابن عبد الواحد، قال: حدثني بشر بن موسى الأسدني، قال: أخبرني بعض الهاشميين، قال: حبس المهدي يعقوب بن داود وزيره، فطال حبسه، فرأى في منامه، كأن قائلاً يقول له: قل: يا رفيق، يا شفيق، أنت ربي الحقيقي، ادفع عني الضيق، إنك على كل شيء قدير. قال: فقلت لها، فما شعرت إلا بالأبواب تفتح، ثم أدخلت على الرشيد، فقال: أتاني الذي أتاك، فاحمد الله عز وجل. وخلي سبيلي.

وقد روي هذا الخبر، على خلاف هذا، فحدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثني خالد بن يزيد الأزدي.

وأخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أنبأنا أبو بكر محمد بن محمد السرخسي، قال: حدثنا أبو عبد الله المقدمي القاضي، قال: حدثنا أبو محمد المعني، قال: حدثنا خالد بن يزيد، قال: حدثنا عبد الله بن يعقوب بن داود، قال: قال لي أبي: حبسني المهدي في بئر بنيت عليها قبة، فكنيت فيها خمس عشرة سنة، حتى مضى صدر من خلافة الرشيد، وكان يدلي لي في كل يوم رغيف وكوز ماء، وأؤذن بأوقات الصلاة، فلما كان رأس ثلاث عشرة سنة، أتاني آت في منامي، فقال:

حننا على يوسف رب فأخرجه ... من قعر جبّ وبئر حولها غمم  
فحمدت الله تعالى، وقلت: أتاني الفرج، ثم مكنت حولاً لا أرى شيئاً، فلما كان رأس الحول، أتاني ذلك الآتي، فقال:

عسى فرج يأتي به الله إته ... له كل يوم في خليقته أمر  
ثم أقمت حولاً لا أرى شيئاً، ثم أتاني ذلك الآتي، بعد الحول، فقال:  
عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب  
فيأمن خائف ويفكّ عانٍ ... ويأتي أهله النائي الغريب  
فلما أصبحت، نوديت، فظننت أني أؤذن بالصلاة، فدلي إلي جبل وقيل لي: شد به وسطك، ففعلت، فأخرجوني، فلما تأملت الضوء، غشي بصري، فأخذ من شعري، وألبست ثياباً، وأدخلت إلى مجلس، فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدي، ورحمة الله وبركاته.  
فقال: لست به.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادي، ورحمة الله وبركاته.  
فقال: لست به.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد، ورحمة الله وبركاته.  
فقال: وعليك السلام، يا يعقوب بن داود، والله ما شفع أحد فيك إلي، غير أني حملت الليلة صببية لي على عنقي، فذكرت حملك إياي على عنقك، فرثيت لك من الحبل الذي كنت فيه، فأخرجتك، ثم أكرمني، وقرب مجلسي.

ثم إن يحيى بن خالد تنكر لي، كأنه خاف أن أغلب على الرشيد دونه، فخفته، فاستأذنت في الحج، فأذن لي. فلم يزل مقيماً بمكة، حتى مات بها.

حدثني أبي في الذاكرة بإسناد له، وكان في الخبر: أن المهدي حبسه في بئر، ووكل أمره إلى خادم له، واستحلفه أن لا يخبر بخبره أحداً من الخلق كلهم، فكان الخادم الموكل به، يزل إليه في كل يوم رغيفين، ودورق ماء، منه شرابه وطهوره، وفي البئر موضع يتطهر فيه، فكان كذلك خمس عشرة سنة.

فلما كان بعد خمس عشرة سنة سأل عنه الرشيد فقيل له: سلم إلى فلان الخادم، وذكر أنه مات. فأحضر الخادم، وسأله عنه، فقال: إنه مات.

فاستتبته، فرأى كلاماً مختلفاً، فجد به، فقال: لا أعرف غير موته، فهده، فأقام على الإنكار، إلى أن استحضر الرشيد المقارع.

فقال: أنا أصدق، استحلفني أمير المؤمنين المهدي، ألا أخبر بخبره أحداً من الخلق أبداً.

فأكرهه الرشيد، فدل على البئر التي هو فيها، ثم تتفق الروايات.

قال: فلما وقف بين يدي الرشيد، وسلم، قال له الرشيد - مخفياً كلامه - من أمير المؤمنين؟ فقال: المهدي.

قال: قد مضى لخال سبيله، فسلم على أمير المؤمنين، فسلم.

فقال: قولوا له من أمير المؤمنين؟ قال: الهادي

قال: قد مضى لخال سبيله، فسلم على أمير المؤمنين، فسلم.

فقال: قولوا له، من أمير المؤمنين؟ فقال: هارون، ثم تتفق الروايات.

وروي لي هذا الخبر على وجه آخر، وهو أضعف عندي، غير أنني أجيء به كما بلغني، فحدثت بروايات مختلفة،

قالوا حدث عبد الله بن أيوب، قال: رأيت يعقوب بن داود في الطواف، فقلت له: كيف كان سبب خروجك؟

قال: كنت في المطبق حتى خفت على بصري، فأتاني آت في منامي، فقال لي: يا يعقوب كيف ترى مكانك؟ فقلت:

وما سؤالك؟ أما ترى ما أنا فيه، أليس يكفيك هذا؟ فقال: أسبغ الوضوء، وصل أربع ركعات، وقل: يا حسن، يا

مجمل، يا منعم، يا مفضل، يا ذا الفضل والنعم، يا عظيم، يا ذا العرش العظيم، اجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً.

فانتهيت، وقلت في نفسي: هذا في النوم، ورجعت إلى نفسي، فحفظت الدعاء، وقمت، فتوضأت، واصلت،

ودعوت به، فلما أسفر الصبح، جاؤوني، فأخرجوني.

فقلت: ما دعائي إلا ليقتلني.

فلما رأيته، أوماً إليهم، اذهبوا به إلى الحمام، فنظفوه، وأتوني به، فطابت نفسي، وسجدت شكراً لله تعالى، فأطلت

السجود.

فقالوا لي: قم.

فقال لهم الرشيد: دعوه ما دام ساجداً، ثم رفعت رأسي، ثم مضى بي إلى الحمام.

فلما خرجت خلع علي، ثم ضرب بيده على ظهري، وقال لي: يا يعقوب، لا يمن عليك أحد بمنة، فما زلت منذ

الليلة قلقاً بأمرك.

المهدي يطلق علوياً من حبسه لنام رآه

وجدت في بعض الكتب: أن المهدي استحضر صاحب شرطته ليلاً، وقد انتبه من نومه فرعاً، فقال له: ضع يدك

على رأسي، واحلف بما استحلفك به.



قال: فقلت: يدي تقصر عن رأس أمير المؤمنين، ولكن علي وعلي، وحلفت بأيمان البيعة أبي أمثل ما تأمر به.  
فقال: صر إلى المطبق، واطلب فلاناً العلوي الحسيني، فإذا وجدته فأخرجه وخيره بين الإقامة عندنا مطلقاً مكرماً  
مجبوراً، وبين الخروج إلى أهله، فإن اختار الخروج قدت إليه كذا وكذا، وأعطيته كذا وكذا، وإن اختار المقام  
أعطيته كذا وكذا، وهذه توقيعات بذلك.

فأخذتها وصرت إلى من أراح عني في الجميع، وجئت إلى المطبق، فطلبت الفتى، فأخرج إلي وهو كالشن البالي،  
فعرفته أمر أمير المؤمنين، وعرضت عليه الحالين، فاختار الخروج إلى أهله بالمدينة، فسلمت إليه الصلة والحملان.  
فلما جاء ليركب ويمضي، قلت: بالذي فرج عنك، هل تعلم ما دعا أمير المؤمنين إلى إطلاقك؟ قال: إني والله، كنت  
الليلة نائماً، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم، في منامي، وقد أيقظني، وقال: يا بني ظلموك؟ قلت: نعم، يا رسول  
الله.

قال: قم، فصل ركعتين، وقل بعد الفراغ: يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا ناشز العظام بعد الموت، صل  
علي محمد وعلي آل محمد، واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام  
الغيوب، يا أرحم الراحمين.

قال: فقلت، وصليت، وجعلت أكرر الكلمات، حتى دعوتني.

قال: فحمدت الله على توفيقه لمسألته، وعدت إلى المهدي، فحدثته بالحديث.

فقال: صدق والله، لقد أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم، فأمرني بإطلاقه.

وفي خير آخر: لقد أتاني زنجي في فراشي، بعمود حديد، قال لي: أطلق فلاناً العلوي الحسيني وإلا قتلتك، فانتبهت  
فرعاً، فما جسرت على النوم، حتى جتني، فأمرت بإطلاقه.

### المعتمد يطلق بريتين من حبسه لمنام رآه

حدثني أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، فيما أجاز لي روايته عنه، بعدما سمعته منه، قال: حدثني أحمد بن يزيد المهلي،

قال: كنا ليلة بين يدي المعتمد على الله، فحمل عليه النييد فجعل يخفق برأسه نعاساً.

فقال: لا يرحن أحد، ثم نام مقدار نصف ساعة، وانتبه، وكأنه ما شرب شيئاً.

فقال: أحضروا لي من الحبس رجلاً يعرف بمنصور الجمال، فأحضر.

فقال له: منذ كم أنت محبوس؟ فقال: منذ ثلاث سنين.

قال: فأصدقني عن خبرك؟ قال: أنا رجل من أهل الموصل، كان لي جمل أعمل عليه وأعود بكرائه على عيالي،

فضاق الكسب علي بالموصل، فقلت: أخرج إلى سر من رأى فإن العمل ثم أكثر، فخرجت.

فلما قربت منها، إذا جماعة من الجنود قد ظفروا بقوم يقطعون الطريق، وكتب صاحب البريد بعددهم، وكانوا

عشرة، فأعطاهم واحد من العشرة مالا على أن يطلقوه، فأطلقوه وأخذوني مكانه، وأخذوا جملي، فسألهم بالله عز

وجل، وعرفتهم خبري، فأبوا، ثم حبسوني، فمات بعض القوم، وأطلق بعضهم، وبقيت وحدي.

فقال المعتمد: أحضروني خمسمائة دينار، فجأؤوه بها.

فقال: ادفعوها إليه، وأجرى عليه ثلاثين ديناراً في كل شهر، وقال: اجعلوا أمر جمالنا إليه.

ثم أقبل علينا، فقال: رأيت الساعة النبي صلى الله عليه وسلم، في النوم، فقال: يا أحمد، وجه الساعة إلى الحبس،

وأخرج منصوراً الجمال، فإنه مظلوم، وأحسن إليه، ففعلت ما رأيتم.  
قال: ثم نام من وقته، وانصرفنا.

ووقع إلي هذا الخبر، بطريق آخر، بآتم من هذه الرواية، فحدثني أبو محمد الحسن بن محمد الصلحي، الذي كان كاتب أبي بكر بن رائق، ثم كتب لسيف الدولة، ثم كان آخر تصرف تصرفه، أن كتب للمطيع لله، رحمه الله، على ضياع الخدمة، وخاص أمره، في وزارة أبي محمد المهلب لمعز الدولة، قال: حدثني أبو علي الأوراجي الكاتب، قال: حدثني أبو محمد عبد الله بن حمدون النديم، قال: كان المعتمد مع سماحة أخلاقه، وكثرة جوده وسخائه، شديد العريضة على ندمائه إذا سكر، لا يكاد يسلم له من العريضة مجلس إلا في الأقل، فاشتبه يوماً أن يصطحب علي أترج، فاتخذ له منه شيء كثير، مفرط العدد، وعبي، وحزم بعضه، فاصطحب عليه، ولم يدع شيئاً من الخلع والصلوات والحمالان، إلا وعمله مع ندمائه في ذلك اليوم، وخصني منه بالكثير، وكان كثير الشرب، وكانت علامته إذا أراد أن ينهض جلساؤه، أن يلتفت إلى سرير لطيف، كان إذا جلس يستند إليه، ويشيل رجله، كأنه يريد أن يصعد، فيقوم جلساؤه، فإذا كان يريد النوم صعده، فنام، وإن لم يرد النوم، رد رجله، إذا قمنا، وأتم شربه مع بعض خدمه، أو حرمة.

فلما كان ذلك اليوم، جلسنا بحضورته فمارنا أجمع، وقطعة من الليل، ثم رد رجله إلى السرير في أول الليل، فقمنا، وانصرف الجلساء إلى حجرة مرسومة بهم، وانصرفت إلى حجرة مرسومة بي من بينهم.  
فلما انتصف الليل، إذا بالخدم يدقون باب حجرتي، فانتبهت مرعوباً، فقالوا: أجب أمير المؤمنين.  
فقلت: وإنا لله وإنا إليه راجعون، مضى يومنا وبعض ليلتنا، أحسن مضى، وقدرت أي أفلت من عريضة، فقد عن له أن يعربد علي، فاستدعاني في هذا الوقت.

فأتيته وأنا في نهاية الجرع، أفكر كيف أشاغله عن العريضة، إلى أن صرت بحضورته.  
فلما رأي قاتماً لم يستجلسني، وقال لخدمه: علي بصاحب الشرطة الساعة.  
فمت جزعاً، وقلت في نفسي وأنا واقف بين يديه: لم تجر عاداته في العريضة باستدعاء صاحب الشرطة، وما هذا إلا ليلية قد احتيل بها علي عنده.

فأقبلت أنظر إليه طمعاً في أن يفتحن بكلمة، فأداريه في الجواب، وهو لا يرفع رأسه عن الأرض، إلى أن جاء صاحب الشرطة، فرفع رأسه إليه، وقال له: في حبسك رجل يعرف بفلان بن فلان الجمال؟ وفي رواية: يعرف بمنصور الجمال؟ قال: نعم.

قال: أحضرنيه الساعة.

فمضى ليحضره، فسهل علي الأمر قليلاً، ووقفت، وهو لا يخاطبني بشيء، إلى أن أحضر الرجل.  
فقال له المعتمد: من أنت؟ قال: أنا منصور بن فلان الجمال.

قال: وما قصتك؟ قال: أنا مظلوم، حبست منذ كذا وكذا سنة، وأنا رجل من أهل الجبال، كان لي جمال أعيش من فضل أجرهما.

وكان يتقلد بلدنا فلان العامل، فاستدعي إلى الحضرة، فأخذ جمالي غصباً يستعين بها في جهل متاعه.  
فنتظمت إليه وصحت، فلم ينفعني ذلك، وقال: إذا صرت بالحضرة رددتها عليك.

فخرجت معه لئلا تذهب الجمال أصلاً، فكنت مع جمالي أخدمها في الطريق.

فلما قربنا من حلوان سل الأكراد منها حملاً محملاً، فبلغه الخبر، فأحضرني، وقال: أنت سرقت الحمل بما عليه،

فقلت: غلمانك يعلمون أن الأكراد سلوه.

فقال: الأكراد إنما جاءوا بمواطأة منك، ثم أمر بضربي، وتقييدي، وطرحي علي بعض جمالي. فلما وردنا الحضرة، أنفذت إلى الحبس، وأخذ الجمال، ولم يكن لي متظلم، ولا مذكر ولا متكلم، فطال حبسي، وطالت بي المحنة إلى الآن.

فقال لبعض الخدم: امض الساعة إلى فلان العامل، واقعد على دماغه، ولا تبرح، أو يرد عليه جماله أو قيمتها على ما يريد، فإذا قبض ذلك، فاحمله إلى الخزانة، واكسه كسوة حسنة، وادفع إليه كذا وكذا ديناراً، واصرفه مصاحباً. ثم قال لصاحب الشرطة: في حبسك رجل يعرف بفلان بن فلان الحداد؟ قال: نعم، قال: أحضرنه الساعة، فأحضره.

فقال له: ما قصتك؟ قال: أنا رجل حبست بظلم، أنا رجل من أهل الشام، وكانت لي نعمة فزالت، فهربت من بلدي واتصلت محنتي إلى أن وافيت الحضرة طلباً للتصرف، فتعذر علي حتى كدت أتلّف جوعاً. فسألت عن عمل أعمله ليلاً لأتوفر نهاراً على طلب التصرف، وأنفق في النهار ما أكسبه ليلاً، فأرشدت إلى حداد يعمل ليلاً، فقصدته، فاستأجرني بدرهم في كل ليلة، وكنت أعمل معه، وكان معه غلام آخر يضرب بالمطرقه، فأفسد ذلك الغلام على الحداد نعلماً كان يضربها، فاغتاظ عليه، ورماه بالنعل الحديد على قلته، فتلف للوقت، فهرب الحداد، وبقيت أنا في الموضع متحيراً لا أدري إلى أين أمضي، وأحس الحارس في الحال بما رابه في الدكان، فهجم علي فوجدي قائماً، والغلام ميتاً فلم يشك أي القاتل، فقبض علي ورفعني، فحبست إلى الآن، فقال لصاحب الشرطة: حل عنه.

وقال لخدام آخر: خذه فغير حاله، وادفع إليه خمسمائة دينار، ودعه ينصرف مصاحباً.

ثم رفع رأسه إلي، وقال: يا ابن حمدون، الحمد لله الذي وفقني لهذا الفعل.

ففرج عني، فقلت: كيف تكلف أمير المؤمنين النظر في هذا بنفسه، في مثل هذا الوقت؟ فقل: ويحك إني رأيت في منامي رجلاً يقول لي: في حبسك رجلان مظلومان، يقال لأحدهما: منصور الجمال، والآخر: فلان بن فلان الحداد، فأطلقهما الساعة وأحسن إليهما وأنصفهما، فانتبهت مذعوراً، ثم نمت.

فما استثقلت حتى رأيت الشخص بعينه، يقول لي: ويلك أمرك أن تطلق رجلين مظلومين في حبسك، قد طال مكثهما، وأن تنصفهما وتحسن إليهما، فلا تفعل، وترجع تنام؟ لقد هممت أن أوجعك، فكاد يمد يده إلي.

فقلت له: يا هذا من أنت؟ فقال: أنا محمد رسول الله، فكأنني قبلت يده، وقلت: يا رسول الله، ما عرفتك، ولو عرفتك ما تجاسرت علي تأخير أمرك.

قال: قم، فاعمل في أمرهما الساعة، بما أمرتك به، فانتبهت مذعوراً، فاستدعيتك لتشاهد ما يجري.

فقلت: هذه عناية من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر المؤمنين، واهتمام بما يصلح دينه، ويثبت ملكه، ومنة عظيمة عليه، لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

فقال: امض فقد أزعجتك، فعدت إلى حجرتي.

فلما كان من الغد عشياً، دخلت إليه وهو جالس على الرسم فأحبيت أن أعرف الجلساء ما جرى البارحة، ليسر هو بذلك، وكنت أعرف من طبعه أنه يحب الإطراء والمدح، ونشر ما هذا سبيله، فإنه إذا عمل شيئاً أكثر من ذكره، وتبجح به، وإن كان صغيراً.

فقلت له: إن رأى أمير المؤمنين أن يخبر خدمه، بما كان من المعجزة البارحة، وعناية رسول الله، صلى الله عليه

وسلم، بخلافته.

فقال: وما ذاك؟ فقلت: إحضاري البارحة، وإحضار صاحب الشرطة، والجمال، والحداد، ورؤياه النبي صلى الله عليه وسلم، وما أمره به فيهما، وما تقدم به إلى أمير المؤمنين من إنصافهما.

فقال: والله ما أذكر من هذا شيئاً، وما كنت إلا سكران، نائماً طول ليلتي، وما انتهت.

فقلت: بلى يا سيدي.

ففتكر، وقال: يا ابن حمدون قد صرت تغالطني وتخادعني بالكذب؟ فقلت: أعيد أمير المؤمنين بالله، هذا أمر مشهور في الدار عند الخدم الخاصة وصاحب الشرطة نفسه، وقصصت عليه القصة، وشرحتها.

فاستدعى الخدم، فتحدثوا بمثل ما ذكرته، فأظهر تعجباً شديداً، وحلف بالله العظيم، وبالبراءة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالنفي من العباس، أنه لا يذكر شيئاً من ذلك، ولا يعلم إلا أنه كان نائماً، ولا رأى مناماً، ولا انتبه، ولا جلس، ولا استدعى أحداً، ولا أمر بأمر.

فما رأيت أعجب من هذا المنام والحال، ولا أطرف من هذا الاتفاق في نسيانه بعد ذلك.

ووجدت في خبر آخر، قريب من هذا، ولا يذكر فيه حديث الأترج، وذكر فيه أن اسم الجمال، كان نصراً، وأنه كان من نھاوند، وله جمال يكرها، وأن صاحب المعونة، أكثرى منه عشرين جملاً، وحمل عليها عشرين رجلاً من الأكراد أسرى، ليحملهم إلى الحضرة، فسار الجمال معهم، فهرب منهم في بعض الطريق، واحداً، فوقع لصاحب المعونة أن نصراً الجمال هربه، فقيده، وحمله مكانه، فلما دخلوا الحضرة، أفخذ الجمال مع القوم، إلى الحبس، وأخذ صاحب المعونة جماله.

## السكر

السكر، في اللغة: حالة تعترض بين المرء وعقله المنجد، والسكر من الخمر عند أبي حنيفة، أن لا يعلم الأرض من السماء، وعند الشافعي وأبي يوسف ومحمد، أن يختلط كلامه، وعند آخرين، أن يختلط في مشيته إذا تحرك التعريفات ٨١.

والسكر موجب للحد، أي العقوبة المقررة، ويعتبر حقاً من حقوق الله تعالى التعريفات ٥٧، وقد جلد رسول الله صلوات الله عليه في الخمر أربعين جلدة، وكذلك فعل أبو بكر الصديق، أما الفاروق عمر، فجلد ولده عبد الرحمن، حد الخمر، ثمانين جلدة، وأقيم الحد في عهد عثمان على الوليد بن عقبة، أمير العراق، وأخي عثمان لأمه، فجلد أربعين جلدة ابن الأثير ٣ - ١٠٧ ومروج الذهب للمسعودي ١ - ٥٣٣، ٥٤٦.

أما في عهد الأمويين، فإن يزيد بن معاوية كان يدمن شرب الخمر، فلا يمي إلا سكران، ولا يصبح إلا مخموراً، وكان عبد الملك يسكر في كل شهر مرة، حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً، ويدع يوماً، وكان سليمان ابن عبد الملك، يشرب في كل ثلاث ليال ليلة، وكان هشام يكسر في كل جمعة، وكان يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد يدمنان الشرب والهوى، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت.

أما العباسيون، فقد كان أبو العباس يشرب عشية الثلاثاء وحدها، وكان المهدي، والهادي يشربان يوماً، ويدعان يوماً، وكان الرشيد يشرب في كل جمعة مرتين، وكان المأمون في أول أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة، ثم أدمن

الشراب عند خروجه إلى الشام في السنة ٢١٥ إلى أن توفي، وكان المعتصم لا يشرب يوم الخميس ولا يوم الجمعة، وكان الواثق ربما أدمن الشراب وتابعه، غير أنه لم يكن يشرب ليلة الجمعة، ولا في يومها التاج في أخلاق الملوك ١٥١ - ١٥٣.

أقول: الذي قرأته في الأغاني ٦ - ٧٧ أن هشام بن عبد الملك لم يكن يشرب، ولا يسقي أحداً بحضرته مسكراً، وكان ينكر ذلك ويعاقب عليه، وأن أبا جعفر المنصور لم يكن يشرب غير الماء التاج ٣٣ ومحاضرات الأدباء ٢ - ٦٩٤، وكان المهدي لا يشرب الأغاني ٥ - ١٦٠ لا تحرجاً ولكن كان لا يشتهي الطبري ٨ - ١٦٠، وأن موسى الهادي وهارون الرشيد كانا مستهترين بالنيذ نهاية الأرب ٤ - ٣٣٠، وأن الأمين كان لا يبالي مع من قعد ولا أين قعد التاج ٤٢، أما المتوكل، فكان منهمكاً في اللذات والشراب تاريخ الخلفاء ٣٤٩ وكان يعربد على جلسائه إذا سكر الطبري ٩ - ١٦٧ أما المهدي، محمد بن الواثق، فقد كان زاهداً ورعاً تاريخ الخلفاء ٣٦١، وكان المعتمد منهمكاً في اللهو واللذات تاريخ الخلفاء ٣٦٣ وكان المقنن مؤثراً للشهوات والشراب تاريخ الخلفاء ٣٨٤ أما القاهر فكان لا يصحو من السكر تاريخ الخلفاء ٣٨٦ أما المقضي فلم يشرب النيذ قط تاريخ الخلفاء ٣٩٤ وكذلك القادر بالله تاريخ الخلفاء ٤١٢ والقائم ابنه تاريخ الخلفاء ٤١٧ والمقتدي حفيد القائم تاريخ الخلفاء ٤٢٣.

أما بشأن رجال الدولة، فقد ذكر أن الفضل بن يحيى البرمكي، لم يكن يشرب الخمر، وعتب عليه الرشيد، وتقل عليه مكانه لتركه الشرب معه، وكان الفضل يقول: لو علمت أن الماء يقص من مروءتي ما شربته الطبري ٨ - ٢٩٣، وكان سيف الدولة الحمداني لا يشرب النيذ الملح للحصري ٢٦٦، وكذلك كان سيف الدولة الأسدي صدقة بن دبيس، فإنه لم يشرب مسكراً المنتظم ٩ - ١٥٩.

أبو بكر المدائني يولي عاملاً وهو على صهوة جواده وحدثني أبو محمد الصلحي، قال: حدثني أبو بكر محمد بن علي المدائني بمصر، وكان شيخاً جليلاً، عظيم الحال والنعمة والجاه، قديم الرياسة والولايات الكبار للأعمال، وقد وزر لخمارويه بن أحمد بن طولون، وتقلد مصر مرات، وعاش ستاً وتسعين سنة، ومات في سنة نيف وأربعين وثلثمائة، قال:

كنت أكتب لخمارويه بن أحمد بن طولون، في حديثي، فركبني الأشغال وقطعتي ترادف الأعمال، عن تصفح أحوال المتعطلين.

وكان ببالي شيخ من شيوخ الكتاب قد طالت عطلته، وقد غفلت عن تصريفه. فرأيت ليلة في منامي، أبي، وكأنه يقول لي: ويحك يا بني أما تستحي من الله، أن تتشاغل بأعمالك والناس ببابك يتلفون ضراً وهزلاً؟ هوذا فلان، شيخ من شيوخ الكتاب، قد أفضى أمره إلى أن تقطع سراويله، فما أمكنه أن يشتري بدله، أحب أن لا تغفل أمره أكثر من هذا. فانتهت معجباً، واعتقدت الإحسان إلى الشيخ من غد، ونمت، فأصبحت وقد أنسيت أمره. فركبت إلى دار خمارويه بن أحمد، فإني لأسير إذ تراءى لي الشيخ على دويبة له ضعيفة، فأهوى لي ليرجل لي، فأنكشف فخذه، فإذا هو لابس خفاً بلا سراويل.

فحين وقعت عيني على ذلك، ذكرت المنام، فقامت قيامتي، فوقف في موضعي، واستدعيت، فقلت له: يا هذا، ما حل لك ما صنعت بنفسك من تركت إذكاري بأمرك، أما كان في الدنيا من يوصل لك رقعة، أو يخاطب في أمرك؟ الآن قد قلدتك الناحية القلانية، ورزقتك رزقها وهو في كل شهر مائتا دينار، وأطلقت لك من خزانتي ألف دينار

معوثة، وأمرت لك من الثياب والحملان بكذا وكذا، فاقبض ذلك واخرج، فإن حسن أترك في عملك، زدتك، وفعلت بك وصنعت.  
وضممت إليه من يتنجز له ذلك.

### أدرك أبو محمد الأزرق الأنباري

حدثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول الأنباري التنوخي، قال: خرج أخي أبو محمد الحسن بن يوسف، يقصد أخانا أبا يعقوب إسحاق ابن يوسف وهو حينئذ بمصر، ومعه زوجة كانت لأبي يعقوب إسحاق ببغداد، وبنية له منها، ومضى.

فلما عاد حدثني أنه سلك في قافلة كبيرة، من هيت على طريق السماوة، يريد دمشق، قال: فلما حصلنا في أعماق السماوة، أخفرتنا خفراؤنا، وجاء قوم من الأعراب، فظاهروهم علينا، وأظهروا أنهم من غيرهم، وقطعوا علينا، فاستاقوا ركائبنا، فبقيت أنا والناس مطرحين على الماء الذي كنا نزلنا عليه بلا جمل، ولا زاد، ولا دليل، فأيسنا من الحياة.

فقلت للناس: إن الموت لا بد منه على كل حال، أقمنا في أماكننا أم سرنا، فلأن نسير طلب الخلاص ففعل الله أن يرحمنا ويخلصنا، أولى من أن نموت ها هنا، وإن متنا في سيرنا كان أعذر.  
فساعدوني، وسرنا يومنا وليلتنا، وأنا أحمل الصبية ابنة أخي، لأن أمها عجزت عن حملها، وكلما طال علينا الطريق، ولم نر إنساناً ولا محجة، أحسسنا بالهلاك، ومات منا قوم، وأنا خلال ذلك، قد بدأت بقراءة ختمة، وأنا متشاغل بها، وبالبدعاء.

إلى أن وقعنا في اليوم الثاني، على حلة أعراب، فأنكرونا، فلم أعمل عملاً، حتى ولجت بيت امرأة منهم، فأمسكت ذيلها، وكنت سمعت أن الإنسان إذا عمل ذلك أمن شرهم، ووجب حقه عليهم، ثم تفرقنا في البيوت.  
واختلفت أحوال الناس، فأما أنا، فإن صاحب البيت الذي نزلت عليه، لما رأى هيبتي ودرسي للقرآن، أكرمني، ولم أزل أحادثه وأرفق به.

فقال لي: ما تشاء؟ فقلت: تركبني وهذه المرأة، وهذه الصبية، راحلة، وتسير معنا إلى دمشق على راحلة أخرى، بزاد وماء، حتى أعطيك ثمن راحلتك وأهبها لك، وأقضي حقتك بعد هذا.

قال: فتذمم واستحيا، وقدرت أي إذا دخلت دمشق، وجدت بها من أصدقاء أخي، من آخذ منه ما أريد.  
فكساني الأعرابي، وكسا المرأة والصبية، ووطأ لي راحلة، وحمل معنا من الماء والزاد كفايتنا، وركب هو راحلة أخرى، وكان أكثر من وصل معنا إلى ذلك الموضع، قد تأتي له مثل ما تأتي لي، فصرنا رفقة صالحة العدد.  
فلما كان بعد أيام، شارفنا دمشق مع طلوع الشمس، فإذا بأهلها قد خرجوا يستقبلوننا، وكل من له صديق أو معرفة، يسأل عنه، وقد بلغهم خبر القطع، فما شعرت إلا يأنسان يسأل عني، بكينيتي ونسبي.  
فقلت: ها أنا ذا.

فعدل إلي، وقال: أنت أبو محمد الأزرق الأنباري؟ فقلت: نعم.

فقال: إلي، وأذ بخطام راحلتي، وتبعني الأعرابي براحلته، حتى دخلنا مع الرجل دمشق.  
فجاء بنا الرجل، إلى دار حسنة سرية، تدل على نعمة حسنة، فأنزلنا، ولم أشك أنه صديق لأخي.

فنزلت، وأنزلت الأعرابي معي، وأخذت جمالنا، وأدخلنا الحمام وألبست خلعة نظيفة، وفعل بالمرأة والصبية مثل ذلك، وأقامت عنده يومين في خفض عيش، لا أسأله عن شيء، ولا يسألني.

فلما كان في اليوم الثالث، قال: ما صورة هذا الأعرابي معك؟ فأخبرته بما أخذنا منه.

فقال لي: خذ ما تريد من المال.

فقلت: أريد كذا وكذا ديناراً، فأعطاني ذلك، فدفعتني إلى الأعرابي، وسلمت إليه جمليه.

وسألت الرجل أن يزوده زاداً كثيراً لا يكون مثله في البادية، فأخرج له شيئاً كثيراً، وخرج الأعرابي شاكراً.

فقال لي الرجل: إلى أين تريد من البلاد، وكم يكفيك من النفقة؟ فلما قال لي ذلك، ارتبت به، وقلت: لو كان هذا من أصدقاء أخي الذين كاتبهم بتفقيدي، لكان يعرف مقصدي.

فقلت له: كم كاتبك أخي أن تدفع إلي؟ قال: ومن أخوك؟ قلت: أبو يعقوب الأزرق الأنباري، الكاتب بمصر.

فقال: والله، ما سمعت بهذا الاسم قط، ولا أعرفه.

فورد علي أعجب مورد، وقلت له: يا هذا، إني ظننتك صديقاً لأخي، وأن ما عاملتني به من الجميل من أجله،

فانيسطت إليك بالطلب، ولو لم أعتقد هذا لانبضت فما السبب فيما عاملتني به؟ فقال: أمر هو أوكد من أمر أخيك، يجب أن يكون انيساطك إليه أتم.

فقلت: ما هو؟

قال: إن خبر الواقعة بالقافلة التي كنت فيها، بلغنا في يوم كذا وكذا، فما بقي كبير أحد بلمشق، إلا وردت عليه مصيبة عظيمة، إما بذهاب مال، أو بغم على صديق، غيري، فإني لم يكن لي شيء من ذلك يتعلق قلبي به، واتعد الناس للخروج، لتلقي المنقطعين، وإصلاح أحوالهم، ولم أعزم أنا.

فلما كان في الليل، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، وهو يقول لي: أدرك أبا محمد الأزرق الأنباري،

وأعته، وأصلح شأنه بما يبلغه مقصده، فلما أصبحت، خرجت مع الناس، فسألت عنك، فكان ما رأيت، والآن اذكر ما تريده.

فبكيت بكاء شديداً، لم أقدر معه على خطابه مدة، ثم نظرت إلى ما يبلغني مصر، فطلبته منه، فأخذته، وأصلحت

أمري، وسألت الرجل عن اسمه، فقال: أنا فلان بن فلان الصابوني ذكره أبو محمد، وأنسيه أبو الحسن.

قال: فلما بلغت إلى مصر، حدثت أخي بالحديث، فعجب منه، وبكى.

قال أبو الحسن: وضرب الدهر ضربه، وورد أبو يعقوب أخي إلى بغداد بعد سنين، فنذاكرنا هذا الحديث.

فقال أخي: لما عرفني أخي أبو محمد، ما عامله به ابن الصابوني اللمشقي هذا، جعلته صديقاً لي، فكنت أكتبه.

فلما وردت إلى دمشق، وجدت حاله قد اختلت، نحن لحقته، فوهبت له ضيعتي بلمشق، وكانت جليلة الغلة

والقيمة، فسلمتها إليه، مكافأة لما عامل به أبا محمد أخي.

### اعتقلهم الوزير ابن الزيات وأطلقوا الموت الواثق

قال محمد بن عبدوس، في كتاب الوزراء، حدثني الحسين بن علي الباقر، قال: حدثني أبي، قال: قال لي أحمد بن

المدير: لما أمر محمد بن عبد الملك بجبسي، أدخلت محبساً فيه أحمد بن إسرائيل، وسليمان بن وهب، وهما يطلبان،

فجعلت في بيت ثالث، فكنا نتحدث ونأكل جميعاً، وربما أدخل إلينا النبيذ، فنشرب.

وكان أحمد بن إسرائيل شديد الجبن، وكان ينكر علينا، ويمنعنا أن نتحدث بشيء، أو نرجو لأنفسنا. فجاءني يوماً سليمان بن وهب، فقال لي: رأيت البارحة في نومي، كأن قائلاً يقول لي: يموت الواثق إلى ثلاثين يوماً، فقم بنا إلى أبي جعفر محدثه.

فقلت: والله، إن سمع بهذا أبو جعفر، ليشقن ثوبه، وليسدن أذنه خوفاً.

فقال لي: قم على كل حال، فقمنا فدخلنا عليه، فأخبره سليمان بما رأى.

فقال له: يا هذا، أنت أجسر الناس، وأشلمهم جناية على نفسك وعلينا، إنما تريد أن يسمع هذا فنقتل.

فقال له: فتكتب هذه الرؤيا عندك، لتمتحن صدقها.

ففر، وقال: أنا لا أكتب مثل هذا، فكتبته أنا في رقعة صغيرة. فلما كان يوم الثلاثين، دخل علي أحمد بن إسرائيل فقال لي: يا أبا الحسن، هذا يوم الثلاثين، فأخرجت الرقعة، فإذا هو قد حفظ اليوم، ومضى يومنا إلى آخره.

فلما كان الليل، لم نشعر إلا والباب يدق دقاً شديداً، وصاح بنا صائح: البشري، قد مات الواثق، اخرجوا.

فقال أحمد بن إسرائيل: قوموا بنا، فقد حقق الله الرؤيا، وأتانا بالفرج، وصدقت الرؤيا.

فقال سليمان بن وهب: كيف تمشي مع بعد منازلنا؟ ولكن نوجه من يجيئنا بما نركب.

فاغتاز أحمد بن إسرائيل، وقال: نعم، نقعد، حتى يجلس خليفة آخر، فيقال له: إن في الحبس جماعة من الكتاب عليهم أموال، فيأمر بالوثق منا، إلى أن ينظر في أمرنا، قم عافاك الله، حتى نمر.

فخرج، وخرجنا على أثره.

فقبل أن نخرج من باب الماروني، سمعنا رجلين يقول أحدهما للآخر: سأل الخليفة جعفر المتوكل عمن في الحبس، فقيل: فيه جماعة من الكتاب، فقال: يكونون فيه إلى أن ينظر في أمورهم.

فجلدنا في المشي وقصدنا غير منازلنا، واستترنا.

وبحثنا عن الأخبار، فبلغنا إقرار الخليفة محمد بن عبد الملك، فكتبته إليه رقعة عن جماعتنا، نعرفه خبرنا، واتسع آماننا فيه، ونستأذنه فيما نعمل.

فلما وصلت إليه الرقعة، وقع على ظهرها: لم استخفيتم؟ وليس منكم إلا من عنايتي تخصه، ورأي فيه جميل، أما أبو أيوب فقد تكلم في حقه أبو منصور إيتاخ، واستوهبه، فوهب له، وأمرت باحضاره ليخلع عليه، فليحضر، وأما أبو جعفر فإنه طوب بما لا يلزمه، وقد وضحت حجته في بطلانه، فليصر إلي، وأما أبو الحسن فإن كذف باطل، فاطهروا جميعاً، واثقين بما عندي من حياطتكم ورعايتكم.

فصرنا إليه جميعاً، وزال عنا ما كنا فيه، فخلع على سليمان خاصة.

## النبذ

النبذ: الخمر المعتصر من التمر، أو العنب، أو العسل، وسمي نبذاً، لأن الذي يتخذه يأخذ تمراً أو زيباً، فيلقبه في وعاء ويصب عليه الماء، وينبذه حتى يفور، ويصير مسكراً، والمطبوخ منه هو الذي يعرض على النار، وخير أنواع النبيذ هو القطريلي، من نتاج قطر بل إحدى ضواحي بغداد، وهي مشهورة بخمرها معجم البلدان ٤ - ١٣٣.

وللاطلاع على أنواع النبيذ راجع ما كتبه أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي المتطبب المعروف بابن النفيس في مطالع البلور ١ - ١٤٠، ولزيادة التفصيل راجع كتاب الأشربة لابن قتيبة.



ومما يلاحظ أن العراقيين كانوا لا يرون بشرب النبيذ بأساً، أما الآن فهم يرون حرمة، والقليل منهم من يشربه، وقد كان عند أهل العراق لشرب النبيذ آيين، وصفه القاضي التنوخي في القصة ٨ - ١٠٩ من كتاب نشوار الحاضرة، فيما يتعلق بترتيب مجلس الشراب، وما فيه من تماثيل العنبر، وأجاجين ماء الورد، والصواني، والمغاسل، والمراكن، والخرداذيات، والمدافات التي تشتمل على الأنبذة، وكيف يختار النبيذ، ومن يختاره، وكيف يتم السقي، ومن يكون الساقى.

وفي القصة ٣ - ٦٩ أورد التنوخي قصة أشار فيها إلى آيين المنادمة الذي يفرض على النديم أن يقبل يد الملك أولاً، ثم يقبل القدر ثانياً، ويشرب، وإذا قدم للملك شرباً، أو ما كلاً، فإن عليه أن يتناول منه قبل الملك. كما أورد التنوخي في نشواره وصفاً لأحد مجالس شرب المتوكل القصة ١ - ١٦٢ ولأحد مجالس شرب الرضا القصة ١ - ١٥٩ ولأحد مجالس شرب المتوكل القصة ١ - ١٦٢ ولأحد مجالس شرب عضد الدولة القصة ٤ - ٤٤ ولأحد مجالس شرب أبي القاسم البريدي القصة ١ - ١٦٤ ولأحد مجالس شرب الوزير المهلبى، وزير معز الدولة القصة ١ - ١٦٣، وفي معجم الأدباء ٥ - ٣٣٤ وصف مجلس من مجالس شرب الوزير المهلبى، كان يجتمع فيها بأصحابه من شيوخ القضاة، في كل أسبوع مرتين، فيلبسون المصبغات، ويوضع أمام كل واحد منهم طاس من الذهب وزنه ألف مثقال، مملوء شرباً قطربلياً عكبرياً، فيشربون، ويظربون، ويرقصون، وإلى هذا المجلس أشار السري الرفاء في قوله ديوان السري الرفاء ٢٤٦:

إذا سقى الله منزلاً فسقى ... بغداد ما حاولت من الدميم  
يا حَبذاً صحبة العلوم بما ... والعيش بين اليسار والعلم  
كيف خلاصي من العراق وقد ... أثرت فيها معادن الكرم  
رأيت فيها خلاعة وصلت ... أطرافها بالعلوم والحكم  
مجالس يرقص القضاة بما ... إذا انتشوا في مخانق البرم  
كأنهم من ملوك حمير ما ... أوفت أكاليهم على اللمم  
وصاحب يخلط الجون لنا ... بشيمة حلوة من الشميم  
تخضب بالراح شبيه عبثاً ... أنامل مثل حمرة العنم  
راجع في كتاب مطالع البلور ما ورد في الراح، وفي آيتها، واستعمالها، وما يجب على شاربيها، ومستهدبيها، ووصافها، والمتنادمين عليها، ومسامراتهم، وغنائهم ١ - ١٢٨ - ٢٢٩.

ومن أراد التوسع في الاطلاع على مجالس شرب الخلفاء والأمراء والشعراء، فعليه بكتاب الديارات للشابشتي تحقيق كوركيس عواد، وكتاب قطب السرور في أوصاف الخمور للرقيق النديم، فهما جامعان للكثير من هذه الأخبار، وفي العقد الفريد ٦ - ٣٥٢ - ٣٧٣ بحث عن النبيذ، وتحليله، وتحريمه، وعن الفرق بين النبيذ والخمر.

### من شعر سليمان بن وهب لما حبس

قال: وفي هذه الحبسة كتب سليمان بن وهب إلى أخيه الحسن بن وهب فيما حكاه محمد بن عبلوس:

هل رسولٌ وكيف لي برسول ... إن ليلى ليل السقيم العليل  
هل رسول إلى أخي وشقيقي ... ليت أتى مكان ذاك الرسول

يا أخي لو ترى مكاني في الحب ... س وحالي وزفرتي وعويلي  
وعشاري إذا أردت قيماً ... وقعودي في مقفات الكبول  
لرأيت الذي يغمك في الأع ... داء أن يسلكوا جميعاً سبيلي  
هذه جملة أراي غنياً ... معها عن أذاك بالتفصيل  
ولعل الإله يأتي بصنع ... وخلص وفرجة عن قليل

وذكر أياتاً أخر، تماماً لهذه الأيات، لم أذكرها، لأنها ليست من هذا المعنى، ثم قال: وقد ذكر محمد بن داود، في كتابه المسمى كتاب الوزراء من خروج سليمان بن وهب من حبس الواثق غير هذا، قال في كتابه: حدثني أبو القاسم عبيد الله بن سليمان، واقتص محمد بن عبدوس، قصة طويلة، ليس فيها ذكر منام، فذكرتها أنا في كتابي هذا، في باب من خرج من حبس أو أسر أو اعتقال، إلى سراح وسلامة وصلاح حال، ورويتها عن علي بن عيسى، عن عبيد الله بن سليمان، بألفاظ قوية، أقوى من الألفاظ التي أوردها ابن عبدوس، ولم أذكرها هنا، لأن هذا الخبر، مختص بالمنامات، فجعلته في بابه، وأوردت تلك القصة في الباب المفرد لأمثالها.

بين الوزير المهلي والحسين السمري

حدثني علي بن محمد الأنصاري الخطمي، قال: حدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد السمري كاتب الديوان بالبصرة، قال: كان أبو محمد المهلي، في وزارته، قبض علي بالبصرة، وطالبني بمال، وحبسني حتى يست من الفرج، فرأيت ليلة في المنام، كأن قاتلاً يقول لي: اطلب من ابن راهبوني دفترًا خلقاً عنده، على ظهره دعاء، فادع الله به، فإنه يفرج عنك، وكان ابن راهبوني هذا، صديقاً لي من تناء أهل واسط، مقيماً بالبصرة. فلما كان من غد، جاءني، فقلت له: عندك دفتر علي ظهره دعاء. فقال لي: نعم.

قلت: جئني به، فجاءني به، فرأيت مكتوباً على ظهره: اللهم أنت أنت، انقطع الرجاء إلا منك، وخابت الآمال إلا فيك، صل على محمد وعلى آل محمد، ولا تقطع اللهم منك رجائي؛ ولا رجاء من يرجوك في شرق الأرض وغربها، يا قريباً غير بعيد، يا شاهداً لا يغيب، يا غالباً غير مغلوب، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وارزقني رزقاً واسعاً من حيث لا أحتسب، إنك على كل شيء قدير.

قال: فواصلت الدعاء بذلك، فما مضت إلا أيام يسيرة، حتى أخرجني المهلي من الحبس، وقلدني الإشراف على أحمد الطويل، في أعماله بأسافل الأهواز.

قال لي أبو الحسن الأنصاري: قال لي أبو علي زكريا بن يحيى الكاتب النصراني، حدثني بهذا الحديث أبو عبد الله السمري، وكتبت عنه الدعاء، ونقلته، وحفظته، وتقلبت بي الأحوال، فكتبت لأبي جعفر مملته، صاحب مائدة معز الدولة، فاعتقلني بعد مدة، ونكيتني، فواصلت الدعاء به، فأطلقني بعد أيام يسيرة.

رأى في المنام أن غناه بمصر

حدثني أبو الربيع سليمان بن داود البغدادي، صاحب كان لأبي، وكان قديماً يخدم القاضيين أبا عمر محمد بن يوسف، وابنه أبا الحسين في دورهما، وكانت جدته تعرف بسمسة، قهرمانة كانت في دار القاضي أبي عمر محمد بن يوسف رحمه الله، قال: كان في جوار القاضي قديماً، رجل انتشرت عنه حكاية، وظهر في يده مال جليل، بعد فقر طويل، وكنت أسمع أن أبا عمر حماه من السلطان، فسألت عن الحكاية، فدافعي طويلاً، ثم حدثني، قال: ورثت عن أبي مالاً جليلاً، فأسرعت فيه، وأتلفته، حتى أفضيت إلى بيع أبواب داري وسقوفها، ولم يبق لي من الدنيا حيلة،

وبقيت مدة بلا قوت إلا من غزل أمي، فتمنيت الموت.  
فأريت ليلة في النوم، كأن قاتلاً يقول لي: غناك بمصر، فاخرج إليها.

فبكرت إلى أبي عمر القاضي، وتوسلت إليه بالجوار، وبخدمة كانت من أبي لأبيه، وسألته أن يزودني كتاباً إلى مصر،  
لأتصرف بها، ففعل، وخرجت.  
فلما حصلت بمصر، أوصلت الكتاب، وسألت التصرف، فسد الله علي الوجوه حتى لم أظفر بتصرف، ولا لاح لي  
شغل.

ونفدت نفقتي، فبقيت متحيراً، وفكرت في أن أسأل الناس، وأمد يدي على الطريق، فلم تسمح نفسي، فقلت:  
أخرج ليلاً، وأسأل، فخرجت بين العشاءين، فما زلت أمشي في الطريق، وتأبى نفسي المسألة، ويحملني الجوع عليها،  
وأنا ممتنع، إلى أن مضى صدر من الليل.  
فلقيني الطائف، فقبض علي، ووجدني غريباً، فأنكر حالي، فسألني عن خبري، فقلت: رجل ضعيف، فلم يصدقني،  
وبطحنني، وضربني مقارع.  
فصحت: أنا أصدقك.  
فقال: هات.

فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها، وحديث المنام.  
فقال لي: أنت رجل ما رأيت أحق منك، والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة، في النوم، كأن رجلاً يقول لي: ببغداد  
في الشارع القلاني، في الخلة الفلانية - فذكر شارعي، ومحلي، فسكت، وأصغيت إليه - وأتم الشرطي الحديث  
فقال: دار يقال لها: دار فلان - فذكر داري، واسمي - فيها بستان، وفيه سدر، وكان في بستان داري سدر،  
وتحت السدر مدفون ثلاثون ألف دينار، فامض، فخذها، فما فكرت في هذا الحديث، ولا النفث إليه، وأنت يا  
أحمق، فارقت وطنك، وجات إلى مصر بسبب منام.  
قال: فقوي بذلك قلبي، وأطلقني الطائف، فبت في بعض المساجد، وخرجت مع السحر من مصر، فقدمت ببغداد،  
فقطعت السدر، وأثرت تحتها، فوجدت قممماً فيه ثلاثون ألف دينار، فأخذته، وأمسكت يدي، ودبرت أمري، فأنا  
أعيش من تلك الدنانير، من فضل ما ابتعت منها من ضيعة وعقار إلى اليوم.

### خزيمة بن هازم يصرف الحرايين ويعقد له على طريق القررات

وجدت في كتاب أبي الفرج عبد الواحد للخزومي الحنطلي، عن علي ابن العباس النوبختي، قال: حدثني أحمد بن عبد  
الله التغلبي، قال: كان من بقايا شيوخ خراسان، ممن يلزم دار العامة بسر من رأى، شيخ يكنى أبا عصمة، وكان  
يحدثنا كثيراً، بأخبار اللولة وأهلها فحدثنا يوماً: أن خزيمة بن خازم، كان يجلس في داره للناس، في كل يوم ثلاثاء،  
فلا يحجب عنه أحد، ولا يستأذن لمن يدخل، إنما يدخلون أرسالاً، بغير إذن، فمن كان من الأشراف ووجوه الناس،  
سلم وانصرف، ومن كان من طلاب الحوائج، أو خطاب التصرف، دفع رقعته إلى الحاجب، فيجتمع الناس  
ويدخلون، فيعرض رقايعهم عليه.

وكان قد أفرد لهذا كاتباً حصيفاً يقال له: الحسن بن مسلمة، يتصفح الرقاع قبل عرضها عليه، فما كان يجوز أن  
يوقع عنه فيه بخطه، وقع وسلمه إلى أربابه، وما كان لا بد من وقوفه عليه، وتوقيعه فيه بخطه، أو قفه عليه، ومن كان

من الناس زائراً، أو مستترفاً، عرضت رقعته عليه، فيكون هو الموقع فيها بما يراه فلا يكاد ينصرف أحد من ذلك الجمع العظيم المفرط، إلا وهو مسرور بقضاء حاجته.

قال أبو عصمة: وكان ممن يتصرف في الأعمال، رجل من الأعراب، ذو لسان وفصاحة، يقال له: حامد بن عمرو الحرائي، وكان فيه إلحاح شديد، وملازمة تامة إذا تعطل، فيؤذي بذلك ويبرم.

وكان يخاطب خزيمة في أيام الثلاثاء، ولا يقنع بذلك، حتى يلازم بابه كل يوم، وإذا ركب خاطبه على الطريق، وربما تعرض له في دار الخليفة فخاطبه، ولم يكن في طبع خزيمة احتمال مثل ذلك.

قال أبو عصمة: فحدثني الحسن بن مسلمة، كاتب خزيمة، قال: نظر خزيمة إلى هذا الرجل في داره، وكان قد لقيه في الطريق، فخاطبه قبل ذلك بيوم، وأضجره، ووافق من خزيمة ضجراً بشيء حدث من أمور المملكة، مع ما فيه من الجبروتية والكبر.

فحين خاطبه الرجل، صاح فيه، وأمر بإخراجه من داره إخراجاً عنيفاً، ثم دعاني، فقال: والله، لئن دخل هذا داري، لأضرب عنقه، ولئن وقف لي على طريق، أو كلمني في دار السلطان، لأضرب عنقه، فأخبره بذلك، وحذره، وتقدم إلى البوابين والحجاب بمنعه، وكان خزيمة إذا وعد أو توعد، فليس إلا الوفاء.

فخرجت إلى الحجاب والبوابين وأصحاب المقارع، فبالغت في تحذيرهم، وتهديدهم، وعرفتهم ما قال، وأنه حلف أن تضرب أعناقهم إذا خالفوا، وأكدت الوصية بجهدتي، مستظهراً لنفسي.

وخرجت إلى خارج الدار، فوجدت الرجل قائماً، فأعلمته أن دمه مرتمن بنظرة ينظرها إليه خزيمة في دار السلطان، أو على بابه، أو في الطريق، وحذرتة تحذيراً شديداً، وخوفته من سفك دمه، وأن لا يجعل عليه سيلاً، فشكرني على تحذيره، وانصرف كئيباً.

فلما أصبحنا من الغد، غدوت إلى دار خزيمة على رسمي، للملازمة، فلما دنوت من الباب، إذا بالرجل واقفاً كما كان يقف منتظراً لركوبه.

فعظم ذلك علي، وقلت: يا هذا، أما تخاف الله؟ أتحب أن تقتل نفسك؟ أما تعرف الرجل؟ فقال: والله، ما أتيت هذا عن جهل مني ولا اغترار، بل أتيت على أصل قوي، وسبب وثيق، وسترى من لطف الله ما يسرك، وتعجب منه.

قال الحسن: فزاد عجبني منه، ودخلت الدار، فصادفت خزيمة في صحن الدار يريد الركوب، فحين نظر إلي، قال: ما فعل حامد بن عمرو؟ قلت: رأيت الساعة بالباب، وقد تهدتته، فلما رأيت اليوم بالباب تعجبت من جهله وعوده، مع ما أعدت إليه من الوعيد، وأمرته بالانصراف، فأجابني بجواب لا أدري ما هو، فأنا بريء من فعله.

فقال: بأي شيء أجابك؟ فأخبرته، فسكت خزيمة، وخرج فركب، فحين رآه حامد ترجل له.

فصاح به: لا تفعل، والحقني إلى دار أمير المؤمنين وسار خزيمة، فدخل دار الرشيد، ودخلنا معه إلى حيث جرت عادتنا أن نبلغه من الدار، فجلسنا فيه، ومضى خزيمة يريد الخليفة، وجاء حامد فجلس إلى جانبي.

فقلت له: أصدقني عن خبرك، والسبب في جسارتك على خزيمة، ولينه لك بعد الغلظة، وعرفته ما جرى بيني وبين خزيمة ثانياً.

فقال: طب نفساً، فما أبدي لك شيئاً إلا بعد بلوغ آخر الأمر.

فبينما نحن كذلك، إذ دعي حامد إلى حيث كان مرسوماً بأن يدخله من يخلع عليه، فتحيرت فلم يكن بأسرع من أن خرج وعليه الخلع، وبين يديه لواء قد عقد له على طريق الفرات بأسره، فقامت إليه وهنأته.

وقلت: ولا الساعة تخبرني الخبر؟ فقال: ما فات شيء، وودعني ومضى، فأقمت بمكاني إلى أن خرج خزيمة، فسرت معه إلى داره، فلما استقر، دعاني، فسألني عن أمور جرت.

وقال: أظنك أنكرت ما جرى من أمر حامد؟ قلت: إي والله، أيها الأمير.

قال: فاسمع الخبر، اعلم أي كنت في نهاية الغيظ عليه، وأمرت فيه بما علمته أمس، فلما كن البارحة، رأيته في النوم، كأنه قائم يصلي، وقد رفع يديه إلى الله يدعو علي.

فصحت به: لا تفعل، لا تفعل، وادن مني، فانفتل من صلاته، وجاء حتى وقف بين يدي.

فقلت له: ما يملكك على أن تدعو علي؟ فقال: لأنك أهنتني، واستخففت بي، وهددتني بالقتل ظلماً، وقطعت أمني من طلب رزقي وقوتي، وأنا أشكوك إلى الله، وأستعينه عليك.

وكأني أقول له: طب نفساً، ولا تدع علي، فإني أحسن إليك غداً، وأوليك عملاً، واستيقظت.

فعجبت من المنام، وعلمت أي قد ظلمت الرجل، وقلت في نفسي: شيخ من العرب، له سن وشرف، أسأت إليه بغير جرم، وأرعبته، وماذا عليه إذا لج في طلب الرزق؟ وعلمت أن الذي رأيته في منامي موعظة في أمره، وحث على حفظ النعم، وأن لا أنفرها بقلة الشكر، واستعمال الظلم.

فاعتقدت أن أوليه، كما وعدته في النوم، فكان ما رأيت.

قال الحسن بن مسلمة: فقويت رأيه في هذا، ودعوت له، وانصرفت، فجاءني من العشي حامد، مسلماً، ومودعاً، ليخرج إلى عمله.

فقلت له: هات الآن خبرك.

فقال: نعم، انصرفت من باب خزيمة موجه القلب، قلقاً، مرتاعاً، فأخبرت عيالي، فصار في داري مآثم، وبكاء عظيم، ولم أطعم أنا، ولا هم، شيئاً، يومنا وليلتنا، وأمست كذلك.

فلم هدأت العيون، توضأت، واستقبلت القبلة، فصليت ما شاء الله، وتضرعت إلى الله، ودعوته بإخلاص نية، وصدق طوية، وأطلت، فحملتني عيني، فنمت وأنا ساجد في القبلة.

فرايت في منامي، كأني على حالي في الصلاة والدعاء، وكان خزيمة قد وقف علي، وأنا أدعو، فصاح بي: لا تفعل، لا تفعل، وأغد علي، فإني أحسن إليك، وأوليك، فانتبهت مذعوراً، وقد قويت نفسي، فقلت: أبكر إليه، فلعل الله أن يطرح في قلبه الرقة، فغلوت إليه، فكان ما رأيت.

قال الحسن: فكثير تعجبي لاتفاق المنامين، فقلت لحامد: لقد أخبرني الأمير بمثل ما ذكرته، لم يخرج منه حرفاً، وبكرت إلى خزيمة، فحدثته بالحديث، فعجب منه، وأحضر حامداً حتى سمع منه ذلك، وأمر له بكسوة وصلية وجمالان، ولم يزل بعد ذلك يتعمد إكرامه.

### بين الوزير علي بن عيسى والعمار الكرخي

ويقارب هذا حديثان، حدثني بأحدهما بعض أهل بغداد.

أن عطاراً من أهل الكرخ، كان مشهوراً بالستر والأمانة، فركبه دين، وقام من دكانه، ولزم بيته مستتراً، وأقبل على الدعاء والصلاة، إلى أن صلى ليلة الجمعة صلاة كثيرة، ودعا، ونام، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه، وهو يقول له: اقصد علي بن عيسى، وكان إذ ذاك وزيراً، فقد أمرته أن يدفع إليك أربعمئة دينار، فخذها وأصلح بها أمرك.

قال الرجل: وكان علي ستمائة دينار ديناً، فلما كان من الغد، قلت: قد قال النبي صلى الله عليه وسلم، من رآني في منامه فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي، فلم لا أقصد الوزير.

فلما صرت ببابه، منعت من الوصول إليه، فجلست إلى أن ضاق صدري، وهممت بالانصراف، فخرج الشافعي صاحبه، وكان يعرفني معرفة ضعيفة، فأخبرته الخبر.

فقال: يا هذا، الوزير والله في طلبك منذ السحر إلى الآن، وقد سألتني عنك فأنتسيتك، وما عرفك أحد، والرسول ميثوثة في طلبك، فكن بمكانك، ثم رجعت فدخلت، فلم يكن بأسرع من أن دعيت بي، فدخلت إلى علي بن عيسى.

فقال لي: ما اسمك؟ قلت: فلان بن فلان العطار.

قال: من أهل الكرخ؟ قلت: نعم.

قال: أحسن الله إليك في قصدي إياي، فوالله ما تهنت بعيش منذ البارحة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءني البارحة في منامي، فقال: أعط فلان بن فلان العطار من أهل الكرخ أربعمئة دينار يصلح بها شأنه، فكنت اليوم في طلبك، وما عرفك أحد.

فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءني البارحة، فقال لي كيت وكيت.

قال: فبكى علي بن عيسى، وقال: أرجو أن تكون هذه عناية من رسول الله صلى الله عليه وسلم بي.

ثم قال: هاتوا ألف دينار، فجاءوه بما عينا.

فقال: خذ منها أربعمئة دينار، امتثالاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وستمئة دينار هبة مني لك.

فقلت: أيها الوزير ما أحب أن أزداد على عطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، فإني أرجو البركة فيه، لا فيما عداه.

فبكى علي بن عيسى، وقال: هذا هو اليقين، خذ ما بدا لك.

فأخذت أربعمئة دينار، وانصرفت، فقصصت قصتي على صديق لي، وأرئته الدنانير، وسألته أن يقصد غرمائي، ويتوسط بيني وبينهم، ففعل.

وقالوا: غمله بالمال ثلاث سنين.

فقلت: لا، ولكن يأخذون مني الثلث عاجلاً، والثلثين في سنتين، في كل سنة ثلثاً، فرضوا بذلك، وأعطيتهم مائتي دينار، وفتحت دكاني بالمائتي دينار الباقية.

فما حال الحول إلا ومعى ألف دينار، فقصيت ديني، وما زال مالي يزيد، وحالي يصلح، والحمد لله.

### طاهر بن يحيى العلوي وجرايته من الحاج الخراساني

والخبر الآخر، ما حدثني به أحمد بن يوسف الأزرق، عن أبي القاسم ابن أماجور المنجم، قال: كنت إذا حججت،

دخلت على طاهر بن يحيى العلوي، فرأيت عنده خراسانياً، كان يحج في كل سنة، فإذا دخل المدينة، جاء إلى طاهر بن يحيى فأعطاه مائتي دينار، فكانت كالجراية له منه.

فلما كان في بعض السنين، جاء يريد داره، ليعطيه المائتي دينار، فاعترضه رجل من أهل المدينة، فشنع بطاهر عنده، وقال له: تصعب دنائرك التي تدفعها إلى طاهر، وهو يأخذها منك ومن غيرك، فيصرفها فيما يكرهه الله تعالى، ويفعل

ويصنع، وتكلم فيه بقيح.

قال الخراساني: فانصرفت عنه، وتصدقت بالدنانير، وخرجت من المدينة، ولم ألق طاهراً.

فلما كان في العام الثاني، دخلت المدينة، فتصلقت بالمال، وطويت طاهراً.  
فلما كان في العام الثالث، تأهيت للحج، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي، يقول لي: ويحك قبلت في ابني طاهر قول أعدائه، وقطعت عنه ما كنت تبه به؟ لا تفعل، فاقصده، وأعطه ما فاتته، ولا تقطعه عنه ما استطعت.  
قال: فانتبهت فزعاً، ونويت ذلك، وأخذت صرةً فيها ستمائة دينار، وحملتها معي، فلما صرت بالمدينة، بدأت بدار طاهر، فدخلت عليه وجلست، ومجلسه حفل.  
فحين رأي، قال: يا فلان، لو لم يبعث بك إلينا ما جئنا، فقلت: كلمة وافقت أمراً، ليس إلا أن أتغافل، فقلت: ما معنى هذا الكلام أصلحك الله؟ فقال: قبلت في قول عدو الله، وعدو رسوله، وقطعت عادتك عني، حتى لامك رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامك وأمرك أن تعطيني الستمائة دينار، هاها، ومد يده إلي.

فتدخلي من الدهش ما ذهلت معه، فقلت: أصلحك الله، هكذا والله كانت القضية، فمن أعلمك بذلك؟ فقال لي: بلغني خبر دخولك المدينة في السنة الأولى، فلما رحل الحاج ولم تأتني، أثر ذلك في حالي، وسألت عن القصة، فعرفت أن بعض أعدائنا لقيك، فشنع بي عندك، فألني ذلك.  
فلما كان في الحول الثاني، بلغني دخولك، وخروجك، وأنت قد عملت على قوله في، فازددت غمماً لذلك.  
فلما كان منذ شهر، ازدادت إضاقتي، وامتنع مني النوم غمماً لما دفعت إليه، ففزعته إلى الصلاة، فصليت ما شاء الله، وأقبلت أدعو بالفرج، فحملتني عيني في الحراب، فمنت، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي وهو يقول لي: لا تهتم، فقد لقيت فلاناً الخراساني، وعاتبته على قبوله فيك قول أعدائك، وأمرته أن يحمل إليك ما فاتك، ولا يقطع عنك بعدها ذلك، ويرك ما استطاع، وانتبهت، فحمدت الله وشكرته، فلما رأيتك، علمت أن المنام جاء بك.  
قال: فأخرجت الصرة التي فيها ستمائة دينار، فدفعتها إليه، وقبلت يده، وسألته أن يجلي من قبول قول ذلك الرجل فيه.

### قصة العلوية الزمنة

حدثني أبو محمد يحيى بن محمد بن سليمان بن فهد الأزدي، قال: كان في شارع دار الرقيق، جارية علوية، أقامت زمناً خمس عشرة سنة، وكان أبي في جوارها أيام نزولنا بدرج المعرج من هذا الشارع، في دار شفيح المقتدر، التي كان اشتراها، يتفقلها، ويرها، وكانت مسجاة، لا يمكنها أن تنقلب من جنب إلى جنب، أو تقلب، ولا تقعد، أو تقعد، وكان لها من يخدمها في ذلك، وفي الإنجاء، والأكل، لقصور أطرافها، وأعضائها، وكانت فقيرة، إنما قوتها وقوت خادماتها من بر الناس.  
فلما مات أبي اختل أمرها، وبلغ تحني، أم ولد الوزير المهلبي خبرها، فكانت تقوم بأمرها، وأجرت عليها جارية في كل شهر، وكسوة في كل سنة.  
فبات ليلة من الليالي على حالها، وأصبحت من الغد، وقد برأت، ومشيت، وقامت، وقعدت.  
وكنت مجاوراً له، وكنت أرى الناس يأتون باب دارها، فأفدت امرأة من داري، ثقة، حتى شاهدتها، وسمعتها تقول: إني ضجرت بنفسي ضجراً شديداً، فدعوت الله تعالى بالفرج مما أنا فيه، أو الموت، وبكيت بكاء شديداً متصلاً، وبت، وأنا متألمة، قلقة، ضجرة، وكان سبب ذلك، أن الجارية التي كانت تخدمني، تضجرت بي، وخاطبتني بما ضاق

صدرني معه.

فلما استنقلت في نومي، رأيت كأن رجلاً دخل علي، فارتعت منه، وقلت له: يا هذا، كيف تستحل أن تراني؟ فقال: أنا أبوك، فظننته أمير المؤمنين.

فقلت: يا أمير المؤمنين، هوذا ترى ما أنا فيه.

فقال: أنا محمد رسول الله.

فبكيت، وقلت: يا رسول الله، ادع لي بالفرج والعافية.

فحرك شفتيه بشيء لا أفهمه، ثم قال: هاتي يديك، فأعطيته يدي، وأخذهما، وجذبني بهما، فقمتم.

فقال: امشي على اسم الله.

فقلت: كيف أمشي؟ فقال: هاتي يديك، فأخذهما، وما زال يمشي بي، وهما في يديه ساعة، ثم أجلسني، حتى فعل ذلك ثلاث مرات.

ثم قال لي: قد وهب الله لك العافية، فاحمديه واتقيه، وتركني ومضى.

فانتبهت، وأنا لا أشك أنه واقف، لسرعة المنام، فصحت بالخدام، فظنت أنني أريد البول، فتناقلت.

فقلت لها: ويحك، أسرحي، فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتبهت، فوجدتني مسجاة، فشرحت لها المنام.

فقالت: أرجو أن يكون الله تعالى قد وهب لك العافية، هاتي يدك، فأعطيتها يدي، فأجسنتني.

ثم قالت لي: قومي، فقمتم معها، ومشيت متوكئة عليها، ثم جلست، ففعلت ذلك ثلاث مرات، الأخيرة فيهن مشيت وحدي.

فصاحت الخادمة سروراً بالخال، وإعظاماً لها، فقدر الجيران أي قد مت، فجاؤوا، فقمتم أمشي بين أيديهم.

قال أبو محمد: وما زالت قوتها تزيد، إلى أن رأيتها قد جاءت إلى والدتي في خوف وإزار، بعد أيام، ولا داء بها، فبررناها، وهي إلى الآن باقية، وهي من أصلح وأورع أهل زماننا، وقد تزوجت برجل علوي موسر، وصلحت حالها، ولا تعرف إلى الآن، إلا بالعلوية الزمنة.

فمضى على هذا الحديث، سنون كثيرة، وجرى بيني وبين القاضي أبي بكر محمد بن عبد الرحمن، المعروف بابن قريعة، مذاكرة بالمناجات، فحدثني بحديث منام هذه العلوية، وقصتها، وعلتها، على مثل ما حدثني به أبو محمد، وقال: وأنا كنت أعمل إليها جرايتها من عند تجني، جارية الوزير أبي محمد المهلي، وكسوتها على طول السنين،

وسمعت منها هذا المنام، ورأيتها تمشي بعد ذلك صحيحة، بلا قلبية، وتجيء إلى تجني، وتجيء زوجها بالعلوي، وأعطتني مالاً، فقمتم بتجهيزها، وأمرها، حتى أعرس بها زوجها، وهي إلى الآن من خيار النساء.

قال مؤلف الكتاب: وحدثني بعد هذا، جماعة أسكن إليهم من أهل شارع دار الرقيق، بخبر هذه العلوية، على قريب من هذا، وهي باقية إلى حين معرفتي بخبرها في سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة.

ثم كنت في سنة سبع وسبعين وثلثمائة عند أبي الفتح أحمد بن علي بن هارون المنجم، فرأيت في داره بدر بن سليمان من شارع دار الرقيق، وأنا عنده، امرأة عجوزاً، قد دخلت، فأعظمها.

فقلت: من هذه؟ فقال: العلوية الزمنة، صاحبة المنام، وكانت تمشي بخفها وإزارها.

فسألتهما أن تجلس: ففعلت، واستخبرتهما، فحدثتني، فقالت: اعتللت من برسام، وأنا في حدود عشرين سنة من

عمري، ثم انجلى عني، وقد لحق حقوي شيء أزممني، فكنت مطروحة على الفراش سبعاً وعشرين سنة، لا أقدر أن



أقعده، ولا أقوم أصلاً، وأنجو في موضعي، وأغسل، وكنت مع ذلك، لا أجد أماً.  
ثم بعد سنين كثيرة من عتي، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، في منامي وأنا أقول له: يا جدي، ادع الله عز وجل  
أن يفرج عني.

فقال: ليس هذا وقتك.

ثم رأيت أمير المؤمنين رضي الله عنه، فقلت له: أما ترى ما أنا فيه، فاسأل رسول الله أن يدعو لي، أو ادع لي أنت،  
فكأنه قد دافعني.

ثم توات علي بعد ذلك، رؤيتي لهما في النوم، فجرى بيني وبينهما قريب من هذا، ورأيت الحسن والحسين رضي الله  
عنهما، وكأني أسأل كل واحد منهما الدعاء بالعافية، فلا يفعل.

فلما مضت سبع وعشرون سنة، لحقني ألم شديد، أياماً في حقوي، فقاسيت منه شدة شديدة، فأقبلت أبكي، وأدعو  
الله بالفرج.

فرأيت ليلة في منامي، النبي صلى الله عليه وسلم، فعرفته، لأني كنت أراه طول تلك السنين على صورة واحدة،  
وكأني أقول له: يا جدي، متى يفرج الله عني؟ فكأنه أدخل يده في طرف كمي، وجس بليني، من أوله إلى آخره،  
حتى بلغ حقوي، فوضع يده عليه، وتكلم بكلام لا أفهمه، ثم ردني على قفائي، كما كنت نائمة، وقال: قد فرج الله  
عنك، فقومي.

فقلت: كيف أقوم؟ فقال: هاتي يدك، فأعطيته يدي، فأقعدي.

ثم قال: قومي على اسم الله.

فقممت، ثم خطا بي خطوات يسيرة، وقال: قد عوفيت.

فانتبهت، وأنا مستلقية على ظهري، كما كنت نائمة، إلا أنني فرحانة، فرمت القعود، فقعدت لنفسي وحدي،  
ودلت رجلي من السرير، فتدلنا، فرمت القيام عليهما، فقممت، ومشيت، فقلت للمرأة التي تخدمني: لست آمن أن  
يشيع خبري، فيتكاثر الناس علي، فيؤذوني، وأنا ضعيفة من الألم الذي لحقني، إلا أنني كنت لما انتبهت، لم أحس  
بشيء من الألم، ولم أجد غير ضعف يسير.

فقلت: اكنمي أمري يومين، إلى أن صلحت قوتي فيهما، وزادت قدرتي على المشي والحركة، وفشا خبري، وكثر  
الناس علي، فلا أعرف إلى الآن، إلا بالعلوية الزمنة.

فسألته عن نسبها، فقالت: أنا فاطمة بنت علي بن الحسن بن القاسم ابن عبد الله بن موسى بن جعفر بن محمد بن  
علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، لم تذكر لي غير هذا، ولا سألتها عنه.

أبو القاسم السعدي يرى مناماً فيتوب عن فعل المنكر

حدثني أبو محمد يحيى بن محمد بن سليمان بن فهد الأزدي الموصلي، قال: سمعت أبا القاسم السعدي، يحدثني  
ببغداد، قال: كنت وأنا حدث السن، مشغولاً بغلام لي شغفاً شديداً، منهمكاً معه في القساد، فكان ربما هجرني،  
فأترضاه بكل ما أقدر عليه، حتى يرضى.

قال: وإنه غضب علي مرة غضباً شديداً، فهرب، واستتر عني خبره، فلحقتني من الحيرة والوله، ما قطعني عن النظر  
في أمري، وصيرني كالجنون، واجتهدت في صرف ذلك عني فما انصرف.

وحضر وقت خروج الناس إلى الحائر، على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، فكتبت رقعة أسأل الله عز وجل فيها  
الفرج مما أنا فيه، وأتوسل إلى الله تعالى بالحسين ابن علي رضي الله عنهما، ودفعتهما إلى بعض من خرج، وسألته أن

يدفعها في ناحية من القبر.

وكانت ليلة النصف من شعبان، ففزعت إلى الله، في كشف ما بي، وتفردت بالصلاة والدعاء، قطعة من الليل، ثم حملني النوم.

فرأيت في منامي كأني في مقابر قريش، والناس مجتمعون فيها، إذ قيل: قد جاء الحسين بن علي، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، للزيارة.

فتشوفت لرؤيتهما، فإذا بالحسين في صورة كهل، حسن الوجه، بدراعة، وعمامة، وخف، قد أقبل، ومعه فاطمة عليهما السلام، متنقبة بنقاب أبيض، وملحفة بيضاء.

فاعترضت الحسين، وقلت: يا ابن رسول الله، كتبت إليك رقعة في حاجة لي، فإن رأيت أن تعمل فيها؟ فلم يجبي، ودخل إلى القبة التي فيها محمد بن علي بن موسى رضي الله عنهم، ودخلت فاطمة عليها السلام معه، وكأن قوماً قد وقفوا يمنعون الناس من الدخول إليها، فلم أزل أكابس وأتوصل، إلى أن دخلت، فأعدت عليه الخطاب، فلم يجبي. فقلت لفاطمة: يا سيدة النساء، إن رأيت أن تعلمي في أمري.

فقالت: على أن تتوب؟ فقلت: نعم.

فقالت: الله؟ فقلت: الله.

فكررت ذلك علي ثلاثاً، ثم أوامت إلى جماعة ممن كانوا قياماً، فقالت: خذوه، فأخذوني، ونزعت خاتماً من يدها فدفعته إليهم، وخاطبتهم بما لم أفهمه، فحملوني حتى غبت عن عينها، وأضجعوني وحلوا سراويلي وشدوا ذكري بحيط حلبي، ووضعوا على الشد طيناً، وختموه بالخاتم، فورد علي من الألم أمر عظيم، أنهيني، فانتهت وقد أثر الحيط في الموضع، وصار أثر الخاتم كأنه الجديري، مستديراً حول الموضع.

ثم قال لأبي: إن شئت كشفت لك فأريتك، فقد أريته لجماعة.

فقال: لا أستحل النظر إلى ذلك.

قال السعدي: فأصحت من غد، وما في قلبي البتة من الغلام شيء، وابتعت الجواري، فكنت أطأهن، لا أنكر من جماعي شيئاً.

ثم طالبني بالغلمان، فدافعتها مدة، ثم غلبتني الشهوة، فاستدعيت غلاماً، فلم أقدر عليه، واسترخى العضو، وبطل، فلما فارقت، أنعظت، فعاودته، فاسترخى، فجربت ذلك على عدة غلمان، فكانت صورتي واحدة.

فجددت توبة ثانية، وما نقصتها بعد ذلك.

قال أبو محمد: وكان أبو علي القاري الضير، قد سمع معي هذا الخبر من السعدي، فأخبرني بعد مدة طويلة - وحلف لي على ذلك - أنه رأى فاطمة رضي الله عنها، في النوم، فقلت لها يا سيدتي، منام السعدي الذي حكاه صحيح؟ فقالت: نعم.

### أبو جعفر بن بسطام له قصة في رغي

حدثنا أبو علي الحسن بن محمد الأنباري الكاتب، قال: كان ابن الفرات، يتبع أبا جعفر بن بسطام بالأذية،

ويقصده بالكاره، فلقي منه في ذلك شذائد كثيرة.

وكانت أم أبي جعفر قد عودته منذ كان طفلاً، أن تجعل له في كل ليلة، تحت مخدته التي ينام عليها، رغيماً من الخبز، فإذا كان في غد، تصدقت به، عنه.

فلما كان بعد مدة من أذية ابن الفرات له، دخل إلى ابن الفرات في شيء أحثاج إلى ذلك فيه، فقال له ابن الفرات: لك مع أمك خبر في رغيغ؟ قال: لا. فقال: لا بد أن تصدقني.

فذكر أبو جعفر الحديث، فحدثه به على سبيل التظايب بذلك من أفعال النساء. فقال ابن الفرات: لا تفعل، فإني بت البارحة، وأنا أدبر عليك تديراً لو تم لاستأصلتك، فتمت، فرأيت في منامي، كأن بيدي سيفاً مسلولاً، وقد قصدتك لأقتلك به، فاعترضتني أمك بيدها رغيغ تترسك به مني، فما وصلت إليك، وانتبهت.

فغابته أبو جعفر على ما كان بينهما، وجعل ذلك طريقاً إلى استصلاحه، وبذل له من نفسه ما يريد من حسن الطاعة، ولم يرح حتى أراضاه، وصارا صديقين. وقال له ابن الفرات: والله، لا رأيت مني بعدها سوءاً أبداً. بينما كان يترقب القتل وافته القرح في مثل ملح البصر

ذكر محمد بن عبدوس في كتابه، كتاب الوزراء، عن أبي العباس ابن الفرات، عن محمد بن علي بن يونس، عن أبيه، أنه كان يكتب لرجاء ابن أبي الضحاك، وهو بدمشق، وأن علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ، كان يتقلد خلافة صول أرتكين على المعونة بدمشق، فوثب على رجاء، فقتله، وقبض على جماعة من أسبابه، وأمر بجبسي، فحبست في يدي سجان كان جاراً لي، فكان يأتيني بالخبر ساعةً بساعة.

فدخل إلي، وقال: قد أخرج راس صاحبك رجاء على قنائة. ثم جاءني وقال: قد قتل مطببه، ثم جاءني فقال: قد قتل ابن عمه، ثم جاءني فقال: قد قتل كاتبه الآخر. ثم قال: الساعة، والله، يدعى بك لتقتل، فقد سمعت نبأ ذلك، فنانلي جزع شديد، وخرج السجنان، فأقفل الباب علي.

فدعني بي، فدافع عني، وقال: البيت الذي هو فيه مقفل، والمفتاح مع شريك، والساعة يجيء، وبعث في طلبه. فنانلي في تلك الساعة نعاس، فرأيت في منامي، كأنني ارتطمت في طين كثير، وكأنني قد خرجت، وما بل قدمي منه شيء، فاستيقظت، وتأولت الفرج، وسمعت حركة شديدة، فلم أشك أنها لطلبي، فعاودني الجزع. فخل السجنان، فقال: أبشر فقد أخذ الجند علي بن إسحاق فحبسوه.

فلم ألث حتى جاءني الجند، فأخرجوني، وجاؤوا بي إلى مجلس علي بن إسحاق الذي كان فيه جالساً، وقدامه دواة وكتاب قد كان كتبه إلى المعتصم في تلك الساعة، يخبره بخبر قتله رجاء، وجعل له ذنوباً، ولنفسه معاذير، وسماه رجاء المجوسي، والكافر، فخرقت الكتاب، وكتبت بالخبر كما يجب إلى المعتصم. فحبس طويلاً، ثم أظهر الوسواس، وتكلم فيه أحمد بن أبي دؤاد، فأطلق.

المنصور يرى مناماً فيرفع الظلامه عن محبوس وجدت في بعض الكتب: أن المنصور استيقظ من منامه ليلة من الليالي، وهو مذعور لرؤيا رآها، فصاح بالربيع، وقال له: صر الساعة إلى الباب الثاني الذي يلي باب الشام فإنك ستصادف هناك رجلاً مجوسياً مستنداً إلى الباب الحديد، فجنني به، فمضى الربيع مبادراً، وعاد والمجوسي معه.

فلما رآه المنصور، قال: نعم، هو هذا، ما ظلامتك؟ قال: إن عاملك بالأنبار، جاورني في ضيعة لي، فسامني أن أبيعها إياها، فامتنعت، لأنها معيشتي، ومنها أقوت عيالي، فغصني إياها.

فقال له المنصور: فبأي شيء دعوت قبل أن يصير إليك رسولي؟ قال: قلت: اللهم إنك حلِيم ذو أناة، ولا صبر لي على أناتك.

فقال المنصور للربيع: أشخص هذا العامل، وأحسن أدبه، وانتزع ضيعة هذا الجوسي من يده، وسلمها إلى هذا الجوسي، وابتع من العامل ضيعة، وسلمها إليه أيضاً.

ففعل الربيع ذلك كله في بعض نهار يوم، وانصرف الجوسي، وقد فرح الله عنه، وزاده، وأحسن إليه.

صاحب الشرطة ببغداد يرى مناماً يرشده إلى القاتل ويرى فيجاً مظلوماً

وجدت في كتاب: حدث القاسم بن كرسوع، صاحب أبي جعفر محبرة، قال: كان ابن أبي عون، صاحب الشرطة، قد وعد محبرة أنه يجيئه للإقامة عنده، والشرب مصطحباً على ستارته في يوم الثلاثاء، فأبطأ عليه، وتعلق قلب محبرة بتأخره، فبعث غلاماً له يطلبه ويعرف خبره في تأخره.

فعاد إلى محبرة، وقال: وجدته في مجلس الشرطة، يضرب رجلاً بالسياط، وذكر أنه يجيء الساعة، فلما كان بعد ساعة، جاء ابن أبي عون.

فقال له أبو جعفر: أفسدت صوحنا، وشغلت قلبي بتأخرك، فما سبب ذلك؟ فقال: إني رأيت البارحة في منامي، كأنني بكرت بلبل لأجيك، وليس بين يدي إلا غلام واحد، فسرت في خراب إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، لأجيء إلى رحبة الجسر، فإني لأسير في القمر، إذ رأيت شيخاً هيباً، نظيف الثوب، على رأسه قلنسوة لاطية، وفي يده عكاز، فسلم علي، وقال: إني أرشدك إلى ما فيه مثوبة: في حبسك فيج مظلوم، وافي من المدائن، في وقت ضيق، فاتهم بأنه قتل رجلاً، وهو بريء من دمه، وقد ضرب وحبس، وقاتل الرجل غيره، وهو في غرفة وسطى من ثلاث غرف مبنية على طاق العكي بالكرخ، واسمه فلان بن فلان، ابعت من يأخذه، فإنك ستجده سكران، عريان، بسر اويل، وفي يده سكين مخضبة بالدم، فاصنع به ما ترى، وأطلق الفيح البائس.

قلت: أفعل، وانتبهت، فركبت، وسرت، حتى وافيت رحبة الجسر.

فقلت: ما حدث في هذه الليلة؟ فقالوا: وجدنا هذا القليل، وهذا الفيح معه، فضر بناه، ولم يقر.

فرايت به أثر ضرب عظيم، فسألته عن خبره، فقال: أنا معروف بالمدائن بسلامة الطريقة، ومعاشي التفيح، أنفذي فلان بن فلان من المدائن، إلى فلان بن فلان من أهل بغداد، بهذه الكتب، وأخرج إضبارة، فدخلت أوائل بغداد وقت العتمة، فوجدت في الطريق رجلاً مقتولاً، فجزعت، ولم أدر أين آخذ، فأنا على حالي إذ أدركني الأعوان، فظنوني قتلته، ووالله ما أعرفه، ولا رأيته قط، وقد حبسوني وضربوني، فالله، الله، في دمي.

فقلت: قد فرح الله عنك، انطلق حيث شئت، ثم أخذت الرجالة، ومضيت إلى طاق العكي، فإذا الثلاث غرف مصطفة، فهجمت على الوسطى، فإذا فيها رجل سكران عليه سراويل فقط، وفي يده سكين مخضب بالدم، وهو يقول: أخ عليك، واللك، نعم يا سيدي، أنا جرحته، أخو القحبة، وأن مات فأنا قتلته، فأنزله مكتوفاً، وبعثت به إلى الحبس، والحدرت إلى الموفق، فأعلمته بالحديث، فعجب، وتقدم إلي أن أضرب القاتل بالسياط إلى أن يتلف، وأصلبه في موضع جنايته، فتشاغلت بذلك إلى أن فرغت منه، ثم جئتك.

الرحبة

الرحبة: الأرض الواسعة، وكانت الكلمة تطلق على المدينة أو القرية، أو الفضاء الكائن بين الأبنية، مما يسمى الآن ساحة، أو ميداناً.

وذكر ياقوت في كتابه المشترك وضعاً والمفترق صقماً ص ٢٠٣ ستة مواضع تسمى الرحبة، بضم الراء، وتسعة مواضع تسمى الرحبة، بفتح الراء.

فمن المدن: رحبة مالك بن طوق، بناها مالك، ونسبت إلى بانيها، وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات على بعد ٨ أيام من دمشق معجم البلدان ٢ - ٧٦٤.

ومن القرى: الرحبة، قرية بجذاء القادسية، على مرحلة من الكوفة، قال عنها ياقوت إنها على يسار الحاج الموجهين إلى مكة، وقد خربت الآن لكثرة طروق العرب، لأنها على ضفة البرية، ليس بعدها عمارة معجم البلدان ٢ - ٧٦٢ والمفترق صقماً ص ٢٠٣.

أقول: مررت على الرحبة في السنة ١٩٣٥ لما كنت قاضياً في منطقة أبي صخير الجاورة للنجف، وكانت الحيرة، ورحبة القادسية تابعة لحكمة أبي صخير، وقد أبصرت أهالي الرحبة يقيمون في حصن، وقد أخذوا في باطنه مساكن لهم، وهم يزرعون الخضر والبطيخ الأحمر المعروف ببغداد بالرقى، وماؤهم من عين ثرة هناك، تسمى عين الرحبة. وأما الرحبة بمعنى الساحة، أو الميدان، أو الفضاء الكائن بين الأبنية، فقد كان لكل جامع رحبة، وفي كل رأس جسر رحبة، هذا ما عدا الرحبات الأخرى الكائنة في داخل المدينة، وقد سميت إحدى رحبات مسجد المدينة، رحبة القضاء، إذ كانت داراً لعبد الرحمن بن عوف، قضى فيها لعثمان بالخلافة الطبري ٤ - ٢٣٧، ورحبة القضاين بالبصرة، وقعت فيه معركة بين أنصار يزيد بن المهلب، وبين أتباع الأمويين في السنة ١٠١ العيون والحدائق ٣ - ٥٧، وكان لمسجد البصرة رحبة الطبري ٥ - ٥١٨ ولجامع المنصور بالمدينة المدورة رحبة الطبري ٩ - ٣٥٨، وكانت إحدى الرحبات في سامراء، اسمها رحبة زيرك وهي بالقرب من باب الفراعنة تاريخ بغداد للخطيب ٦ - ٣٦٨.

وكان لجامع القصر ببغداد رحبة، وهو الجامع الذي كان الخلفاء العباسيون يقيمون فيه ببغداد صلاة الجمعة، ينفذون إليه من قصر الخلافة، عبر ممرات تحت الأرض، وهذا الجامع، تعاورته أيدي الغصب فلم يبق منه إلا متنته، واسمها الآن منارة سوق الغزل.

أما رحبة جامع القصر، فهي واقعة خارج الجامع، مما يلي المتدنة، في شرقيها، وما تزال إلى الآن رحبة يجتليها القضايون الذين يبيعون لحم البقر، وتفصل هذه الرحبة الآن بين سوق الشورجة حيث تباع الغلال، وبين سوق الدهانة، حيث دكاكين العطارين، والبقالين، والحلوانيين، ويسميهم البغداديون الشكرجية. وكانت رحبة الجسر من أنزه المواضع ببغداد، بحيث أن الناس كانوا يجتمعون فيها للفرجة، وفي بغداد أغنية شائعة نظمها بغدادى أضاق، فقال يسلي نفسه:

لا بدّ ما تنقضي ... والفقر ما هو عيب

وأقف برأس الجسر ... وأخر خشك يا جيب

وحدثوا أن أعرابياً قدم ببغداد، فأطعم اللوزينج اسمه الآن ببغداد: بقلأوه، فارسية: باقلأوا، فاستطابه، وقال: سمعت الأشياخ من أهلي، يذكر أن من طبيبات بغداد: الحمام، ورأس الجسر، وهذا الذي أكلته، لا بد أن يكون واحداً منهما.

عزم على قتله ثم من عليه وأطلقه ثم يمن عليه ويطلقه

حدثني علي بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن موسى، وكان ابن أخي موسى بن إسحاق القاضي الأنصاري، قال: كنت خرجت مع أبي وهو يكتب لأبي جعفر الكرخي محمد بن القاسم، لما تقلد الموصل والديارات، وكان قد ضم إلى أبي جعفر من قواد السلطان، فلما صرنا بنصيين كان أبي قد مضى وأنا معه إلى أبي العباس أحمد ابن كشمرد مسلماً عليه، فتحدثنا، فسمعته يحدثه، قال:

لما أسرني أبو طاهر القرمطي، فيمن أسره بالهجير، حبسني وأبا الهيجاء، والغمر، في ثلاث حجر متقاربة، ومكنا أن نتزاور، ونجتمع على الحديث.

فمكن أبا الهيجاء خاصة، واختص به، وعمل على إطلاقه، وشفعه على أشياء.

فسألت أبا الهيجاء أن يسأله إطلاقي، فوعدني، واستدعاه القرمطي، فمضى إليه وعاد إلى حجرته، فجئت وسألته: هل خاطبه؟ فدافعني.

فقلت: لعلك أنسيته؟ فقال: لا والله، ولوددت أني ما ذكرتك له، إني وجدته متغيظاً عليك، فقال: والله، لأضربن عنقه عند طلوع الشمس في غد.

ورحل أبو الهيجاء، فورد علي أمر عظيم، وعدت إلى حجرتي وقد ينست من الحياة، فلما كان في الليل، رأيت في منامي كأن قاتلاً يقول لي: اكتب في رقعة: بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد الذليل، إلى المولى الجليل، مسني الضر والخوف، وأنت أرحم الراحمين، فبحق محمد وآل محمد، اكشف همي وحزني، وفرج عني، واطرح هذه الرقعة في هذا النهر، وأوماً إلى ساقية كانت تجري هناك في المطبخ.

فانتبهت من نومي، وكتبت الرقعة، وطرحتها في الساقية.

فلما كان السحر استدعاني القرمطي، فلم أشك أنه القتل، فلما دخلت إليه أدناني وأجلسني، وقال: قد كان رأيي فيك غير هذا، إلا أني قد رأيت تخليتك.

فخرجت، فإذا على الباب راحلة، ورجل يصحبي، فربكت، ودخلت البصرة سالماً، ولحقت أبا الهيجاء بها، فدخلنا معاً إلى بغداد

محمد بن سليمان الكاتب دخل مصر أجيراً ثم دخلها أميراً

قال أبو الحسن علي بن زكي: كنت مع صاحبي عيسى النوشري، وكان مضافاً لحمد بن سليمان الكاتب على حرب الطولونية، إلى أن افتتحت مصر، فتقلدها عيسى.

قال: قال عيسى: خرج يوماً محمد بن سليمان إلى ظاهر القسطنطينية، فأنتهى به السير إلى قبة كانت لأحمد بن طولون، يقال لها: قبة الهواء، مطلة على النيل وعلى البر، فجلس فيها ومعه الحسين بن حمدان وجماعة من القواد، ثم قال: الحمد لله الذي بيده الأمر كله يفعل ما يشاء.

فقال له الحسين بن حمدان: لا شك أن تجديك الحمد لأمر.

قال: نعم، وهو عجيب طريف ذكرته الساعة، وهو أني نزعته إلى مصر وأنا في حال رثة، في زي صغار الأتباع، فضاق علي المعاش بما؟ فاتصلت بلؤلؤ الطولوني، فأجرى علي دينارين في كل شهر، وصيرني مشرفاً في إصطبله على كراعته، فكنت هناك من حيث لا يعرف وجهي جيداً، ولا أقدم على الوقوف بين يديه.

فلما كان في بعض الأيام أحضرتني، فقال: ويحك، من أين يعرفك الأمير؟ يعني أحمد بن طولون.

فقلت: والله، ما رأي قط، ولا وقعت عينه علي إلا في الطريق، ولا محلي محل من يتصدى للقائه.

فقال: دعاني الساعة، وهو في قبة الهواء، فقال: معك رجل أشقر أشهل، يقال له: محمد بن سليمان.

فقلت: ما أعرفه.

فقال: بل هو في جنبتك، فأبعده عنك، فإني رأيتك البارحة وفي يده مكنسة يكس داري بها، فوق ويحك، ولا تتعرف إلى أحد من حاشيته، وأقربني على أمري، فامتثلت أمره.

ومضت لهذا الحديث شهوور، ثم دعاني ثانية، فقال: ويحك، ماذا بليت به منك، وبليت أنت به من هذا الأمير؟ دعاني بعدة من أصحاب الرسائل، فوافيته وأنا في غاية الوجع، فقال: أليس أمرتك بصرف محمد بن سليمان الأزرق الأشقر؟ فقلت: قد عرفتك يا سيدي أي ما استخدمت من هذه سبيله، ولا وقعت لي عليه عين.

فقال: كذبت، هو معك في إصطبلك، فأخرجه الساعة عن البلد، فإني قد رأيتك البارحة في النوم، وفي يده مكنسة، وهو يكس بها ساتر حجري وداري، ونسأل الله الكفاية.

فقلت للؤلؤ: وأي ذنب لي يا سيدي في الأحلام؟ فقال لي: صدقت، فاستتر إلى أن يتناسى الأمير ذكرك، ففعلت، وكان يجري علي ذلك الرزق، وأنا لا أعمل شيئاً.

فلما تمياً من إنفاذ لؤلؤ إلى الشام ما تمياً، فمضت معه، وتخلف عنه كتابه، لما كانوا علموه من تغير حاله عند صاحبه، فأدناي، وقربني، وأجرى علي في كل شهر عشرة دنانير، وجملي علي دابة وبغل، فلزمت خدمته، وكفيته، واستخدمت إليه، فزادني من رأيه، ولم ينته إلى العريش، حتى تنبه أحمد بن طولون علي استيحاش لؤلؤ، فكتب إليه بالرجوع إلى مصر، فشاورني، فأشرت عليه بالانحدار إلى نواحي ديار مصر، وأخذ ما يستهدف له من المال، ولم أترك غاية إلا أتيتها في تضريبه وتأليه، حتى أوردته مدينة السلام.

ثم تقلبت بي الأحوال في خدمة السلطان، وخدمة الدول، وتوفي أحمد بن طولون، وقتل أبو الجيش، وجيش ابنه، وتولى بعدهم هارون بن حمارويه، فاختصت أنا بالقاسم بن عبيد الله، فقلدني ديوان الجيش. ثم ندبني نحارية هارون، وضم إلي القواد والرجال، وكان فيهم لؤلؤ صاحبني، وكان أصغر الجماعة حالاً، وأحقرهم شأنًا، خالياً من الرجال والكراع، فلم أقصر في إصلاح حاله، والإحسان إليه، ومعرفة حقه.

فلم أذن من الشام حتى تلقاني بدر الحمامي، وتلاه طغج بن جف مسرعاً، وصرت إلى مصر، فلما شارفتها وثب شيبان بن أحمد بن طولون ومن تابعه من جند مصر، فقتلوا هارون، وتولى شيبان الأمر بعده، وانثال إلي القواد في الأمان، ولحق بهم شيبان، وتخلف الرجال وقطعة من الفرسان، وأظهروا الخلاف، فأوقعت بهم، وأفنيتهم قتلاً وأسراً، ودخلت فسطاط مصر عنوة، وحويت النعم والمهج، وأشخصت الطولونية عن البلد إلى الحضرة، حتى لم يبق منهم أحد.

وصح بذلك منام أحمد بن طولون، فسبحان الذي ما شاء فعل، وإياه نسأل خير ما تجري به أقداره، وأن يجتم لنا بخير برحمته.

شفاه منام رآه أحد أصحابه

حدثني أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الكاتب المعروف بالبغاء، قال: اعتلتت بحلب علة، جف منها بدني كله، فكنت كالخشية، لا أقدر على أن أتحرك أو أحرك، ونحل جسمي، وتقلبت بي أعلال متصلة متضادة صعبة، فمكثت حليف الفراش سنين، وآيسني الأطباء من البرء، وقطعوا مداواتي.

وكان لي صديق شيخ يعرف بأبي الفرج بن دارم، من أهل بلدي - يعني نصيبين - مقيم بحلب، مواظب علي

عيادتي، وملازم لي، وكان لفرط اغتمامه بي، وأن الأطباء قد آيسوه مني، يظهر لي من الجزع علي أمراً يؤلم قلبي، ويؤيسني من نفسي، ثم تجاوز ذلك إلى التصريح باليأس، وتوطيبي عليه، ثم تعدى هذا إلى أن صار لا يملك دمعته إذا خاطبني.

فضعفت عن تحمل هذا، وتضاعفت به علي، وخارت معه قوتي، فاعتقدت أن أقول لغلامي أن يترصده، فإذا جاء الرجل إلي قال له عني: إني لا أستحسن حجابي، وإن علي تضاعفت مما أشاهده، وأسمعه منه، ويسأله أن ينقطع عني، أو يقطع مخاطبتي بما فيه إياس لي، وقررت عزمي على هذا في ليلة من الليالي، ولم أخاطب به غلامي.

فلما كان في صيحة تلك الليلة، باكربي ابن دارم، فحين وقعت عيني عليه، تناقلت به خوفاً من أن يسلك معي مذهبه، وهمت أن أفتتح خطابه بما كنت عزمته على مراسلته به، فسبقني بأن قال لي: جنتك مبشراً.

فقلت: بماذا؟ قال: رأيت البارحة في منامي، كأني بالرقعة، والناس يهرعون إلى زيارة قبور الشهداء.

قال أبو الفرج: وهم جماعة ممن قتل بصفين، مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، منهم عمار بن ياسر، حملوا إلى ظاهر الرقة، فدفنوا بها، والحال في ذلك مشهور، والقبور إلى الآن مغطية معمورة.

قال لي ابن دارم: ورأيت كأن أكثر الناس مطيفون بقبة، فسألت عنها، فقيل لي: هي على قبر عمار بن ياسر رضي الله عنه، فقصدها، وطفت بها، فإذا القبر مكشوف، وفيه رجل شيخ، بثياب بيض، وفي رأسه ضربات بينة دامية، وعلى لحيته دم، والناس يسألونه فيجيهم، فلحقتني حيرة، ولم أدر عما أسأله.

فقلت له: يا سيدي، لعلك عارف بأبي الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالبيغاء.

فقال: نعم، أنا عارف به.

فقلت: أيعيش أم لا؟ فقال: نعم، يعيش، ويرأ، ولكن أنت لك ابن فاحذر عليه من علة تلحقه قريباً، واستيقظت.

وأخذ يهينني بالعافية، ويقول: سرني ما جرى، ولكن قد أوحشني في أمر ابني، وأسأل الله تعالى الكفاية.

قال أبو الفرج: وكان للرجل ابن، له نحو الثلاثين سنة، وهو في الحال معافي، فلما مضت خمسة أيام من الرؤيا حم الفتى، وتزايدت علته، فمات في اليوم الرابع عشر من يوم حم، فقويت نفسي في صحة المنام، وما مضى على موت الفتى إلا أيام يسيرة، حتى أدبر مرضي، ولم تنزل العافية تقوى إلى أن عوفيت، وعادت صحتي كما كانت بعد مدة يسيرة.

رأى الإسكندر رؤيا تبعها انتصاره على دارا ملك القرس

وجدت في بعض الكتب: أنه لما اشتدت الحرب بين الإسكندر، وبين دارا بن دارا، استظهر دارا عليه، وأشرف الإسكندر على الهلاك، وأيس من النصر، وحال الشتاء بينهما، فانصرف الإسكندر إلى معسكره، مغموماً مهموماً ليلته، ثم نام.

فرأى في منامه، كأنه صرع دارا، فصرعه دارا، فانتبه وقد كربه ذلك، وزاد في همه وغمه.

فقص رؤياه على بعض فلاسفته، فقال: أبشر أيها الملك بالغلبة والنصر، فإنك تغلب دارا على الأرض، لأنك كنت تليها لما صرعتك.

فلما كان بعد أيام يسيرة، انهزم دارا، وقتل، وجاؤوا برأسه إلى الإسكندر.

رؤيا عبد الله بن الزبير وتعبيرها



قال مؤلف هذا الكتاب: ومثل هذا ما هو مشهور في روايات أصحاب الأخبار والسير، أن عبد الله ابن الزبير رأى في منامه، كأنه صار عبد الملك بن مروان، فصارع عبد الملك، وسمره على الأرض بأربعة أوتاد. فأرسل ركباً إلى البصرة، وأمره أن يلقي محمد بن سيرين، ويقص الرؤيا عليه، ولا يذكر له من أنفذه. فأتاه وقص عليه المنام، فقال له ابن سيرين: من رأى هذا؟ قال: أنا رأيته في رجل بيني وبينه عداوة. فقال: ليس هذه رؤياك، هذه رؤيا ابن الزبير أو عبد الملك، أحدهما في الآخر. فسأله الجواب، فقال: ما أفسرها أو تصدقني، فلم يصدقني، فامتنع من التفسير، فانصرف الراكب إلى ابن الزبير، فأخبره بما جرى.

فقال له: ارجع إليه، واصدقه، أني رأيته في عبد الملك.

فرجع الراكب إلى ابن سيرين، وصدقته، فقال له: قل له يا أمير المؤمنين، إن عبد الملك يغلبك على الأرض، ويولي هذا الأمر من ولده لظهوره أربعة، بعدد الأوتاد التي سمرته بها على الأرض. رأى في منامه أنه قد صرع خصمه فكان تعبير رؤياه أن الخصم هو المنتصر حدثني أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الكاتب، المقيم - كان - بالبصرة، إلى أن مات، قال: لما سعى أبو أحمد طلحة بن الحسن بن المتني، مع جيش أبي القاسم بن أبي عبد الله البريدي، في أن يقبضوا عليه، ويجسوه عند أبي أحمد، إلى أن يرد المطيع لله، أو جيش له إلى البصرة، فيملكوها، ويتسلمون منه أبا القاسم البريدي، وكانت القصة المشهورة في ذلك.

فبلغني ذلك، فخلوت بأبي أحمد، وكنت أكتب له حينئذ، وكان لا يحتشمي في أموره، وثبتته عن هذا الرأي، وعرفته وجوه الغلط فيه، والمخاطرة بدمه ونعمته، وهو غير قابل لمشورتي، إلى أن أكثرت عليه. فقال لي: اعلم أنني قد رأيت رؤيا أنا بها واثق في تمام ما قد شرعت فيه من القبض على هذا الرجل. فعجبت في نفسي من رجل يخالف الحزم الظاهر، والرأي الواضح، من أجل منام، ثم قلت له: ما الرؤيا؟ فقال: رأيت كأن حية عظيمة، قد خرجت علي من حائط هذا العرضي.

قال: وكان جالساً في عرضي داره، قال: فكأنني قد رميتها، فأثبتها في الحائط.

فحين قال أبو أحمد: أثبتها في الحائط، ذكرت تأويل منام ابن الزبير، وقص المنام الذي ذكرته، فسبق إلى قلبي، أن تأويل منام أبي أحمد، أنه قد أثبت عدوه في حائطه، وأن عدوه سيغلبه على البلد.

قال: فأمسكت، وقطعت الكلام، فما مضت إلا مدة يسيرة، حتى شاع التدبير، وصح الخبر به عند أبي القاسم البريدي، فبادر إلى القبض على فائق الأعسر، وكان هو الذي ندبه أبو أحمد للقبض على البريدي، وأن يكون أمير البلد، إلى أن يرد جيش الخليفة، فأقر بالخبر على شرحه، فقبض أبو القاسم على أبي أحمد بعد قبضه على فائق بيومين أو ثلاثة، فاستصفاه، وأهله، وولده، ثم قتله بعد ذلك بأيام.

الرشيد يولي أخاه إبراهيم بن المهدي دمشق

بلغني عن إبراهيم بن المهدي، قال: كنت في جفوة شديدة من أخي الرشيد، أثرت في جاهي، ونقصت حالي، وأفضيت معها إلى الإضافة بتأخير أرزاقني، وظهور اطراحه إياي، فاختلفت لذلك أحوالي، وركبني دين فادح، فبلغني القلق والتفكير فيه ليلة من الليالي، مبلغاً شديداً، ونمت فرأيت في النوم كأني واقف بين يدي أبي المهدي، وهو يسألني عن حالي، وأنا أشكو إليه ما نكبت به الرشيد، وأهيت إليه حالي، وأنا أقول: ادع الله عليه يا أمير المؤمنين. فكانه يقول: اللهم أصلح ابني هارون، يكررها ثلاثاً.

فكأنني أقول: يا أمير المؤمنين أشكو إليك ظلم هارون لي، وأسألك أن تدعو عليه، فتدعو له.  
فقال: وما عليك، إن أصلحه الله لك ولكافة، أن يبقى على حاله، هوذا أمضي إليه الساعة، وأمره أن يرجع لك،  
ويقضي دينك، ويوليكَ جند دمشق.

فكأنني أومي إليه بسبايتي، وأقول له: دمشق، دمشق، استقلالاً لها.  
فيقول لي: حركت مسبحتك استقلالاً لدمشق، فكلما خف منها حظك، كان في العاقبة أجود لك.

فانتبهت، وأحضرت رجلاً كان مؤدبي في أيام المهدي، فسألته عن المسبحة، فقال: كان عبد الله بن العباس، يسمي  
السبابة: المسبحة، فما سؤال الأمير لي عنها؟ فقصصت عليه الرؤيا، وامتنع النوم عني، فأخذ يحدثني وأنا جالس في  
فراشي، إذ جاءني رسول الرشيد، فارتعت له ارتباعاً شديداً، ولم أعبأ بالمنام، وخفت أن يريدني لسوء يوقعه بي.  
فقلت: أذافعه إلى أن تطلع الشمس، ثم يكون دخولي الدار فهاراً، فإن كان أرادني لغيللة لم تتم.  
فبتقاطرت رسله حتى أعجلوني عن الرأي، واضطروني إلى الركوب في الحال، فدخلت إليه وأنا شديد الجزع، وهو  
جالس في فراشه ينتحب.

فلما رأيته، قال: سألتك بالله يا أخي هل رأيت الليلة في منامك شيئاً؟ فقلت: نعم، الساعة رأيت أمير المؤمنين  
المهدي.

فلما قلت له ذلك ازداد بكأوه، ثم قال لي: ويحك، بالله، شكوتني إليه وسألته أن يدعو علي؟ فقلت: قد كان ذلك،  
ولكنه قال كذا وكذا، وشرحت له ما قال.

فقال: الساعة والله، جاءني في منامي، فقصص علي جميع ما ذكرت، وقد وفي بوعد، والله لأمتثلن أمره، ولأصلن  
رحمك، كم دينك؟ قلت: كذا وكذا، فأمر بقضائه.

وقال: لا تبرح، حتى أصلي وأخرج، فأعقد لك على دمشق، فانظرت حتى وجبت الصلاة، فصلى، وجاء وقت  
جلوسه، فجلس، واستدعاني فأظهر تكرمي، وعقد لي لواء على دمشق، وأمر الناس، فساروا معي إلى منزلي، فعاد  
جاهي، وصلحت حالي.

## المسبحة

التسييح، في اللغة: الصلاة، والدعاء، وفي الاصطلاح: قول سبحان الله، تمجيهاً وتنزيهاً له، والمسبحة: الإصبع التي  
تلي الإبهام، لأنها يشار بها عند التسييح لسان العرب، مادة: سبح.  
وكان التسييح يجري باليد، ثم بالخصي، وكانت ساحات المساجد في الكوفة والبصرة والموصل، مفروشة بالخصي،  
يسبح به المصلون، ويحصبون به الولاية والخطباء، إذا سمعوا منهم ما لا يرضيهم الطبري ٥ - ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٦ -  
٢٠٣ والأغاني ١٧ - ١٣٥ و ١٣٦ والإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢ - ١٦ و ٢٥ و ٢٦ والعقد الفريد ٤ -  
٨ والهفوات النادرة ١٠٠ و ١٠١.

وكان عبد الملك بن هلال، عنده زنبيل حصي ملآن، فكان يسبح بواحدة، واحدة، فإذا مل شيئاً، طرح اثنتين،  
اثنتين، فإذا مل، قبض قبضةً، وقال: سبحان الله بعدد هذا، فإذا ضجر، أخذ بعروتي الزنبيل، وقلبه، وقال: سبحان  
الله بعدد هذا كله، وإذا بكر لحاجة، وكان مستعجلاً، لحظ الزنبيل، لحظة، وقال: سبحان الله عدد ما فيه البيان  
والتبيين ٣ - ٢٢٨.

ثم اتخذت السبحة بضم السين، أو المسبحة بكسر الميم، وهي خرزات منظومة في سلك، يجري التسييح بها، وكان حمل السبحة، دلالة على التقوى، قال ابن أبي عتيق، لسلامة: احملي معك سبحة، وتحشعي القصة ٢٢٧ من هذا الكتاب، والأغاني ٨ - ٣٤٢.

ثم تعدى الأمر إلى اتخاذ السبحة للتسلية، وأصبح للسبحة هواة، يجمعون أصنافاً منها، ويغالون في أثمانها، وكانت سبحة زبيدة، قد اشترتها بجمسين ألف دينار البصائر والذخائر م ١ - ق ٣ - ص ١٤٥ و ١٤٦. وكان للمقتدر العباسي، سبحة قومت بمائة ألف دينار، حدثنا عنها الأمير أبو محمد الحسن بن عيسى بن المقتدر، وذكر أن والدته عمرة، جارية المقتدر، أخبرته، بأن المقتدر استدعى بجواهر، فاختار منها مائة حبة، ونظمها سبحة يسبح بها، وأن هذه السبحة عرضت على الجوهريين، فقوموا كل حبة منها بألف دينار وأكثر القصة ٧ - ١٤٧ من نشوار المخاضرة. وأعطى المقتدر، قهرمانته زيدان، سبحة لم ير مثلاً تاريخ الخلفاء ٣٨٤ وكان يضرب بها المثل، فيقال: سبحة زيدان المنتظم ٦ - ٧٠.

ولما وزر علي بن عيسى للمقتدر، قال: ما فعلت سبحة جوهر، قيمتها ثلثمائة ألف دينار، أخذت من ابن الجصاص؟ قال: في الخزانة، فقال: تطلب، فطلبت، فلم توجد، فأخرجها الوزير من كفه، وقال: عرضت علي، فاشتريتها، فإذا كانت الجوهر لا تحفظ، فما الذي يحفظ؟ فاشتد ذلك على المقتدر المنتظم ٦ - ٧٠.

ولما عاد الخليفة القائم في السنة ٤٥١ من منفاه في الحديثة، إلى بغداد، بعث إليه زوجته أرسلان خاتون، اثني عشرة حبة لؤلؤ كبراً مثمناً، وسألته أن يتخذ منها سبحة يسبح بها المنتظم ٨ - ٢٠٧. ولما سمل توزون، الخليفة المقي، في السنة ٣٣٣، ونصب المستكفي خليفة بدلاً منه، وجه المستكفي إلى توزون سبحة جوهر في قد واحد، خاتمها ياقوتة حمراء، لم ير مثل ذلك الدر والخاتمة، وقومت بجمسين ألف دينار تجارب الأمم ٢ - ٧٥.

وكان لأبي الحسن محمد بن عمر العلوي الكوفي ٣١٥ - ٣٩٠ سبحة جوهر، قيمتها مائة ألف دينار، طوق بها قنينة بلور للشراب المنتظم ٧ - ٢١٢.

وكانت سبحة نصر الدولة، صاحب ميفارقين ت ٤٥٣ من اللؤلؤ، عدد حبلها مائة وأربعون لؤلؤة، وزن كل حبة مثقال، وفي وسطها الجبل الياقوت، وقطع بلخش، قدرت قيمتها بثلثمائة ألف دينار الوافي بالوفيات ١ - ١٢٢. ولما استولى أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين، على غرناطة في السنة ٤٧٩، وجد لصاحبها سبحة جوهر، من أربعمائة حبة، وقومت كل حبة بمائة دينار ابن الأثير ١٠ - ١٥٥.

أقول: وقد زرت في السنة ١٩٦٨ عندما كنت في طهران، متحف الجواهر، في قبو عمارة البنك الملي الإيراني، فوجدت من جملة الجواهر المعروضة فيها، سبحة من اللؤلؤ، عدد حبلها قليل، إلا أن كل حبة منها، كانت بقدر الجوزة، ولم تكن الحبات تامة التكوين، وسألته عنها، فقالوا: إنها سبحة فتح علي شاه.

وفي أيامنا هذه، تتخذ المسابح المعدة للتسييح، من الطين أو الخشب، أما التي تتخذ للتسلية، فلا حصر لها، فهي تتخذ من أنواع المعادن، والحجارة، والزجاج، والعظام، والجواهر، واللآلئ، ولعل أكثرها استعمالاً، التي تتخذ من معدن الكهرمان، ويسمى ببغداد: الكهرب.

ومن أطرف ما سمعناه عن أصناف المسابح، مسبحة من الباقلاء، اتخذها أحد طلبة الفقه في النجف، ليغيب بها أهالي الحلة، وتفصيل القصة: أن الحلبيين، يكثرون من زرع الباقلاء وأكلها، وهم يعيرون بذلك، ويغضبون إذا ذكرت في مجالسهم، لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم، وكان الشيخ محمد طه نجف، أحد كبار علماء الشيعة، يقضي شهرين من

فصل الصيف في قرية الجمجمة من ضواحي الحلة، وكان موكبه يشق الحلة ليصل إلى تلك القرية، فكان إذا مر بسوق الحلة، يسمع من خلفه الشتائم، فيعجب، ثم تبين له أن أحد تلاميذه يتحرش بأهل الحلة، ويعيرهم بالبقلاء، فيسبونه، فأذمر الشيخ تلميذه بأن لا يصحبه في رحلة الصيف، فاعتذر هذا وأظهر التوبة، وحلف لشيخ أنه سوف لا يفتح فمه، ولا يبنس بحرف عند مروره بالحلة، ولكن ما إن مر موكب الشيخ إلا وأخذت الشتائم تترى، فالتفت، فود تلميذه صامتاً كما وعد، ولكنه كان قد رفع كفه حاملاً مسبحة من البقلاء يسبح بها أمام الناس. يرى مناماً وهو محبوس فيطلق من حبسه

حدثني أبو القاسم طلحة بن محمد بن جعفر، المقرئ، الشاهد، قال: حدثني أبو الحسين عبد الواحد بن محمد الخصبي، قال: حدثني أبو الفضل ميمون بن هارون، قال: حدثني موسى بن عبد الملك، قال: رأيت وأنا في الحبس، كأن قائلاً يقول لي:

لا زلت تعلقو بك الجدود ... نعم وحنّت بك السعدود

أبشر فقد نلت ما تريد ... يبید أعداءك الميبد

لم يمهلوا ثم لم يقالوا ... بل يفعل الله ما يريد

فاصبر فصبر الفتى حميداً ... واشكر ففي شكرك المزيد

فانتبهت، وقد طفئ السراج، فطلبت شيئاً، حتى كتبت الأبيات على الحائط، وأصبحت وقد قويت نفسي.

قال: فما مضى على ذلك إلا أيام يسيرة، حتى أطلقت.

يكره شخصاً على العمل ثم يحبسه ويعذبه

وذكر المدائني في كتابه، كتاب الفرج بعد الشدة والضيقة، قال: قال توبة العنبري: أكرهني يوسف بن عمر على

العمل، فلما رجعت حبسني حتى لم يبق في رأسي شعرة سوداء.

فأتاني آت في منامي فقال لي: يا توبة أطالوا حبسك؟ قلت: أجل.

فقال: سل الله عز وجل العفو والعافية، في الدنيا والآخرة، ثلاثاً، فاستيقظت، فكتبتها، وتوضأت، وصليت ما شاء

الله، ثم جعلت أدعو، حتى وجبت صلاة الصبح، فصليتها.

فجاء حرسني، فقال: أين توبة العنبري، فحملني في قيودي، فأدخلني عليه وأنا أتكلم بمن، فلما رأي ياطلاقني.

قال توبة: فعلمتها في السجن رجلاً، فقال: إني لم أدع إلى عذاب قط، فقلتهن، إلا خلوا عني، فجيء بي يوماً

العذاب، فجعلت أتذكرهن، فلا أذكرهن، حتى جلدت مائة سوط، فذكرتهن بعد، فدعوت بمن، فخلوا عني.

حدثنا علي بن الحسن، بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجرح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا حاتم بن عبد

الله أنه حدث عن سيار بن حاتم، قال: حدثنا عثمان بن مطر، قال: حدثنا توبة العنبري، فذكر مثله، وزاد فيه،

فقيدي، فما زلت في السجن، حتى لم يبق في رأسي شعرة سوداء.

رأى في منامه أن قد أخرجت من داره اثنا عشرة جنازة

وروى المدائني في كتابه أيضاً، عن معمر بن المثنى، عن علي بن القاسم، قال: حدثني رجل قال: رأيت في المنام، أيام

الطاعون، أنهم أخرجوا من داري اثني عشرة جنازة، وأنا وعيالي اثنا عشر نفساً، فمات عيالي، وبقيت وحدي،

فاغتيمت، وضاق صدري.

فخرجت من الدار ثم رجعت في الغد، فإذا لص قد دخل ليسرق، فطعن في الدار، فمات، وأخرجت منها جنازته.

وسري عني ما كنت فيه، ووهب الله العافية والسلامة.  
وهب بن منبه يصاب بالإملاق ثم يعطيه الله من فضله  
ذكر القاضي أبو الحسين، في كتابه الفرج بعد الشدة: أن وهب بن منبه، قال: أملت، حتى قنطت، أو كدت،  
فأتاني آت في منامي، ومعه شبيهة بالفستقة، فدفعها إلي.  
وقال: اففض، ففضضتها فإذا حريرة.  
فقال: انشر، فشرتها، فإذا فيها ثلاثة أسطر بياض: لا ينبغي لمن عرف عن الله عدله، أو عقل عن الله أمره، أن  
يستطيع الله في رزقه.  
قال: فأعطاني الله بعدها، فأكثر.

درس في الإيثار  
وذكر أيضاً عن الواقدي، أنه قال: أضقت إضاقة شديدة، وهجم شهر رمضان، وأنا بغير نفقة، فضاقت ذرعي بذلك،  
فكتبت إلى صديق لي علوي، أسأله أن يقرضني ألف درهم، فبعث إلي بها في كيس مختوم، فتركها عندي.  
فلما كان عشي ذلك اليوم، وردت علي رقعة صديق لي، يسألني إسعافه لنفقة شهر رمضان، بألف درهم، فوجهت  
إليه بالكيس بخاتمه.  
فلما كان في الغد، جاءني صديق الذي اقترض مني، والعلوي الذي اقترضت منه، فسألني العلوي عن خبر الدراهم،  
فقلت: صرفتها في مهم.

فأخرج الكيس بختمه، وضحك، وقال: والله لقد قرب هذا الشهر وما عندي إلا هذه الدراهم، فلما كتبت إلي،  
وجهت بها إليك، وكتبت إلى صديقنا هذا، أقترض منه ألف درهم، فوجه إلي بالكيس، فسألته عن القصة، فشرحها،  
وقد جئناك لنقتسمها، وإلى أن نفقها يأتي الله بالفرج.  
قال الواقدي: فقلت لهما، لست أدري أينما أكرم، فقسمنها، ودخل شهر رمضان، فأنفقت أكثر ما حصل منها،  
وضاقت صدري، وجعلت أفكر في أمري.

فبينما أنا كذلك، إذ بعث إلي يحيى بن خالد البرمكي في سحرة يوم، فصرت إليه.  
فقال: يا واقدي، رأيتك البارحة فيما يرى النائم، وأنت على حال دلتني على أنك في غم شديد وأذى، فاشرح لي  
أمرك.

فشرحت، إلى أن بلغت حديث العلوي، وصديقي والألف درهم، فقال: ما أدري أيكم أكرم، وأمر لي بثلاثين ألف  
درهم، ولهما بعشرين ألف، وقلدني القضاء.

الباب السابع

من استنقذ من كرب وضيق خناق

ياحدي حالي عمد أو اتفاق

محمد بن زيد العلوي يضرب مثلاً عالياً في النيل  
حدثنا أبو الفرج علي بن الحسين المعروف بالأصبهاني الكاتب، قال: كان محمد بن زيد العلوي، الداعي بطبرستان،  
إذا افتتح الخراج نظر ما في بيت المال من خراج السنة التي قبلها، ففرق في قبائل قريش قسطاً، على دعوتهم، وفي

الأنصار، وفي الفقهاء، وأهل القراءات، وسائر طبقات الناس، حتى يفرق جميع ما بقي.  
فجلس سنة من السنين، يفرق المال، على ما كان يفعل، فلما فرغ من بني هاشم، دعا بسائر بني عبد مناف، فقام  
رجل، فقال له: من أي بني عبد مناف أنت؟ فسكت.

قال: لعلك من ولد معاوية؟ قال: نعم.

قال: فمن أي ولده أنت؟ فسكت.

قال: لعلك من ولد يزيد؟ قال: نعم.

قال: بس الاختيار لنفسك، من قصدك بلداً من ولايته لآل أبي طالب، وعندك ثأرهم في سيدهم وإخوته وبني عمه،  
وقد كانت لك منلوحة عنهم بالشام والعراق، عند من يتولى جدك، ويجب رفدك، فإن كنت جئت عن جهل بهذا  
منك، فما يكون بعد جهلك شيء، وإن كنت جئت متمرياً بهم، فقد خاطرت بنفسك.  
فنظر إليه العلويون نظراً شديداً، فصاح بهم محمد وقال: كفوا عافاكم الله، كأنكم تظنون أن في قتل هذا دركاً أو  
ثأراً بالحسين بن علي رضي الله عنهما، وأي جرم لهذا؟ إن الله عز وجل قد حرم أن تطالب نفس بغير ما  
اكتسبت، والله، لا يعرض له أحد إلا أقدمته به، واسمعوا حديثاً أحدثكم به، يكون قنوة لكم فيما تستأنفون من  
أموركم.

حدثني أبي، عن أبيه، قال: عرض على المنصور، سنة حج، جوهر فاخر، فعرفه، وقال: هذا كان لهشام بن عبد  
الملك، وهذا بعينه، قد بلغني خبره، عند ابنه محمد، وما بقي منهم أحد غيره.

ثم قال للربيع: إذا كان غداً، وصليت بالناس في المسجد الحرام، وحصل الناس فيه، فأغلق الأبواب كلها، ووكل به  
ثقاتك من الشيعة، واقفلها، وافتح للناس باباً واحداً، وقف عليه، فلا يخرج إلا من عرفته.  
فلما كان من الغد، فعل الربيع ما أمره به، وتبين محمد بن هشام القصة، فعلم أنه هو المطلوب، وأنه مأخوذ، فحير.  
وأقبل محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام على أثر ذلك، فرآه متحيراً، وهو لا  
يعرفه، فقال له: يا هذا، أراك متحيراً فمن أنت؟ ولك أمان الله التام العام، وأنت في ذمتي حتى أخلصك.  
فقال: أنا محمد بن هشام بن عبد الملك، فمن أنت؟ قال: أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي  
طالب.

فقال محمد بن هشام: عند الله احتسب نفسي.

قال: لا بأس عليك، فإنك لست قاتل زيد، ولا في قتلك إدراك ثأره، وأنا الآن بخلاصك، أولى مني بإسلامك، ولكن  
تعذرني في مكروه أتناولك به، وقبيح أحاطبك به، يكون فيه خلاصك بمشيئة الله تعالى.  
قال: أنت وذاك.

قال: فطرح رداءه على رأسه ووجهه، ولبيه به، وأقبل يجره.

فلما وقعت عين الربيع عليه، لطمه لطمات، وجاء به إلى الربيع، وقال: يا أبا القفضل، إن هذا الخبيث جمال من أهل  
الكوفة، أكراني جماله ذاهباً وراجعاً، وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى بعض القواد الخراسانية، ولي عليه بذلك  
بينة، فتضم إلي حرسيين بصيران به معي إلى القاضي، ويمنعان الخراساني من عراره.

فضم إليه حرسيين، وقال: امضيا معه.

فلما بعد عن المسجد، قال له: يا خبيث، تؤدي إلي حقي؟ قال: نعم يا ابن رسول الله.

فقال للحرسيين: انصرفا، وأطلقه محمد.

فقبل محمد بن هشام رأسه، وقال: بأبي أنت وأمي، الله أعلم حيث يجعل رسالته، ثم أخرج جوهراً له قدر، فدفعه إليه، وقال: تشرفني يا سيدي بقبول هذا مني.  
فقال: يا ابن عم، إنا أهل بيت، لا نقبل على المعروف مكافأة، وقد تكررت لك دم زيد، وهو أعظم من متاعك، فانصرف راشداً، ووار شخصك، حتى يخرج هذا الرجل، فإنه مجد في طلبك، فمضى، وتواری.  
قال: ثم أمر محمد بن زيد، الداعي بطبرستان، للأموي، بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف، وضم إليه جماعة من مواليه، وأمرهم أن يخرجوا معه إلى الري، ويأتوه بكتاب بسلامته.  
فقام الأموي، فقبل رأسه، ومضى ومعه القوم، حتى وصل إلى مأمنه، وجاءوه بكتاب بسلامته.

### يزيد بن معاوية

أبو خالد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي ٢٥ - ٦٤: ثاني ملوك الدولة الأموية بالشام، فرضه أبوه على الناس فرضاً، وشدد في بيعته بالرغبة والرغبة، ففتح بذلك على المسلمين باباً من أبواب الفتنة، راجع خبر ذلك في الأغاني ١٦ - ١٩٧ وفي مروج الذهب ٢ - ٢١ وفي ترجمة معاوية القصص ٣٠٩ من هذا الكتاب.

ولد يزيد بالشام ونشأ بها في ظل والده الذي حكم الشام حكماً مستمراً دام ما يزيد على أربعين سنة، فنشأ نشأة الأمراء الأرسقراطيين، يشرب الخمر، ويسمع الغناء، ويمارس الصيد، ويتخذ القيان، وينفك بما يلهو به المترفون من اللعب بالقروود، والمعاورة بالكلاب والديكة الأغاني ١٧ - ٣٠٠ و ٣٠١ والبصائر والذخائر م ٤ - ٢٦٦ وأنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ١ و ٣ حتى وصفه أبو حمزة الخارجي، بأنه: يزيد الحمور، ويزيد الصقور، ويزيد الفهود، ويزيد الصيود، ويزيد القروود السيادة العربية ١٤٣.  
وكان تصرفه وهو ولي عهد، يستره لين أبيه مع الناس، فلما مات انكشفت أعماله للناس فلم يحتلمها أحد منهم، لقرب عهدهم بأيام الخلفاء الراشدين ١١ - ٤٠ فاضطروا إلى قتاله.

وكانت أيام حكمه ثلاث سنوات لم تخل واحدة منها، من عظمة من العظام، ففي السنة الأولى قتل الحسين عليه السلام وأهل بيت رسول الله صلوات الله عليه، فضحى بالدين يوم الطف الأغاني ٩ - ٢٢ وفي السنة الثانية استباح مدينة رسول الله صلوات الله عليه وانتهاك حرمت أهلها ذبحاً ونهباً وانتهاك حرمت اليعقوبي ٢ - ٢٥٣ فشفى بذلك غيظه من الأنصار الذين عاونوا في انتصار المسلمين في موقعة بدر حيث قتل في مبارزة واحدة أبو جدته هند، وعمها، وأخوها الأغاني ٤ - ١٨٩ ذلك الغيظ الذي لم يطق كتمانته وهو أمير، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فأبى وأشار عليه بالأخطال العقد الفريد ٥ - ٣٢١ فهجاهم، ووصفهم باللؤم، وعيرهم بأنهم يهود، فلما ذبح أهل المدينة، كان جند يزيد يقاتلونهم ويقولون لهم: يا يهود أنساب الأشراف ٤ - ٢ - ٣٧ ولما عرضت على يزيد جريدة بأسماء قتلى أهل المدينة، تملكه العجب من كثرتهم، وقال: يا عجباً، قاتلني كل أحد، حتى ابن خالتي، وقال: ما أرى أنه بقي بالمدينة أحد الأغاني ٨ - ٣٢٥ و ١٤ - ٢٤٠، ثم تمثل بقول ابن الزبيري، الذي شتم بقتل المسلمين في يوم أحد، فقال: رسائل الجاحظ ١٩ - ٢٠:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخرج من وقع الأسل

لاستظالموا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا: يا يزيد لا تشل

قد قتلنا الغرّ من ساداتهم ... وعدلناه بيدر فانعدل

وفي السنة الثالثة، استباح الكعبة، حرم الله سبحانه وتعالى، وسفك فيها الدماء، وأحرقها اليعقوبي ٢ - ٢٥٣ وأنساب الأشراف ج ٤ ق ٢ ص ١ والفخري ١٢٣، وقضى في سنة حكمه الثالثة، فحتم بهلاكه صحيفة سوداء ملوثة، حتى أن رجلاً ذكره في مجلس الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز، فقال: أمير المؤمنين يزيد، فقال له عمر: تقول أمير المؤمنين، وأمر به، فضرب عشرين سوطاً تاريخ الخلفاء ٢٠٩.

### بين الإسكندر وملك الصين

حدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، إملاء من حفظه، قال: قرأت في بعض الأخبار للأوائل، أن الإسكندر لما انتهى إلى الصين، وحاصر ملكها، أتاه حاجبه، وقد مضى من الليل شطره، فقال له: هذا رسول ملك الصين بالباب، يستأذن عليك.

فقال: أدخله.

فوقف بين يدي الإسكندر، وسلم، وقال: إن رأى الملك أن يخليني، فعل.

فأمر الإسكندر من بحضوره بالانصراف، وبقي حاجبه، فقال: إن الذي جئت له لا يحتمل أن يسمعه غيرك.

فقال: فتشوه، فلم يوجد معه شيء من السلاح.

فوضع الإسكندر بين يديه سيفاً مسلولاً، وأخرج حاجبه، وكل من كان عنده، وقال له: قف بمكانك، وقل ما شئت.

فقال له: إني أنا ملك الصين، لا رسوله، وقد جئت أسألك عما تريده، فإن كان مما يمكن الانقياد إليه، ولو على أشق الوجوه، قبلته، وغنيت أنا وأنت على الحرب.

قال الإسكندر: وما آمنك مني؟ قال: علمي بأنك رجل عاقل، وليس بيننا عداوة، ولا مطالبة بذحل، وأنت تعلم أنك إن قتلتني لم يكن ذلك سبباً لأن يسلم إليك أهل الصين ملكهم، ولم يمنعهم قتلي من أن ينصوا ملكاً غيري، ثم تنسب أنت إلى غير الجميل، وضد الحزم.

فأطرق الإسكندر، وعلم أنه رجل عاقل، فقال: الذي أريده منك، ارتفاع مملكتك لثلاث سنين عاجلاً، ونصف ارتفاعها في كل سنة.

قال: هل غير ذلك شيء؟ قال: لا.

قال: قد أجبته.

قال: فكيف يكون حالك حينئذ؟ قال: أكون قتيلاً أو محارباً، وأكلة أول مفترس.

قال: فإن قنعت منك بارتفاع ثلاث سنين، كيف يكون حالك؟ قال: أصلح مما كانت، وأفسح مدة.

قال: فإن قنعت منك بارتفاع سنة؟ قال: يكون ذلك كمالاً لأمر ملكي، وموفياً لجميع لذاتي.

قال: فإن اقتصرت منك على ارتفاع السدس؟ قال: يكون السدس موفراً، ويكون الباقي للجيش ولسائر الأسباب.

قال: قد اقتصرت منك على هذا، فشكره، وانصرف.

فلم طلعت الشمس، أقبل جيش ملك الصين حين طبق الأرض، وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلاك، وتوالت أصحابه فركبوا، واستعدوا للحرب.



فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين، وعليه التاج، وهو راكب، فلما رأى الاسكندر، ترجل.  
فقال له الاسكندر: غدرت؟ قال: لا والله.  
قال: فما هذا الجيش؟

قال: إني أردت أن أريك أنني لم أطعك من قلة ولا من ضعف، وأنت ترى هذا الجيش، وما غاب عنك منه أكثر،  
ولكني رأيت العالم الأكبر مقبلاً عليك، ممكناً لك ممن هو أقوى منك، وأكثر عدداً، ومن حار العالم الأكبر غلب،  
فأردت طاعته بطاعتك والذلة لأمره بالذلة لك.  
فقال الإسكندر: ليس مثلك من يؤخذ منه شيء، فما رأيت بيني وبينك أحداً يستحق التفضيل، والوصف بالعقل،  
غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك.  
فقال ملك الصين: أما إذ فعلت ذلك، فلست تخسر.  
فلما انصرف الإسكندر، أتبعه ملك الصين، من الهدايا، بضعف ما كان قرره معه.

### بين إسحاق الموصلي وغلّامه فتح

أخبرني أبو بكر محمد بن يحيى الصولي - فيما أجاز لي روايته عنه، بعد ما سمعته منه - قال: حدثني الحسن بن يحيى،  
قال: كان لإسحاق الموصلي غلام يقال له: فتح، يسقي الماء لأهل داره على بغلين من بغاله دائماً.  
قال إسحاق: فقلت له يوماً: أيش خورك يا فتح؟ قال: خبري أن ليس في هذه الدار أشقى مني ومنك، أنت تطعم  
أهل الدار الخبز، وأنا أسقيهم الماء.  
فاستظرفت قوله، وضحكت منه، وقلت له: فأي شيء تحب؟ قال: تعتقني، وتب لي البغلين، لأستقي عليهما  
لنفسي.  
ففعلت.

أنسب بيت قالته العرب

أخبرني أبو الفرج، قال: حدثني خلف بن وضاح، قال: حدثني عبد الأعلى بن عبد الله بن محمد بن صفوان  
الجمحي، قال: حملت ديناً بعسكر المهدي، فركب المهدي يوماً بين أبي عبيد الله، وعمر بن بزيع، وأنا وراءه في  
موكبه على بردون قطوف، فقال: ما أنسب بيت قالته العرب؟ فقال أبو عبيد الله: قول امرئ القيس:  
وما ذرفت عينك إلا لتضربي... بسهميك في أعشار قلبٍ مقتل  
فقال: هذا أعرابي قح.

فقال عمر بن بزيع: قول كثير يا أمير المؤمنين:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما... تمثّل لي ليلي بكلّ سبيل

فقال: ما هذا بشي، وما له يريد أن ينسى ذكرها، حتى تمثّل له؟ فقلت: عندي حاجتك يا أمير المؤمنين.  
قال: الحق بي.

فقلت: لا لحاق بي، ليس ذلك في دابتي.

فقال: احمّلوه على دابة.

قلت: هذا أول الفتح، فحملت على دابة، فلحقته.

فقال: ما عندك؟ فقلت: قول الأحوص يا أمير المؤمنين:

إذا قلت إني مشتفٍ بلقائها... فحمّ التلاقي بيتنا زادني سقما

فقال: أحسنت، حاجتك؟ قلت: علي دين.

قال: اقضوا دينه.

فقضي ديني.

تقلد الإنفاق على عسكريين فأفاد في أقل من شهر سبعمائة ألف درهم

ذكر ابن عبدوس في كتابه، كتاب الوزراء: حدث أحمد بن محمد بن زياد، قال: قال لي الريان بن الصلت: كنت في خدمة الفضل بن سهل، فيما كنت فيه، من ثقته واستنابته، علي ما كنت عليه.

فدعاني في وقت من الأوقات، إلى أن يضم إلي أربعة آلاف من الشاكزية والجد، ويقودني عليهم، ويجريني مجرى قواده، فامتنت عليه من ذلك، وأعلمته أنني لا أقوم بذلك، ولا آمن أن أتقلد منه ما يقع فيه التقصير، فيسقط حظي عنده، ومنتزعتي لده.

فأنكر ذلك علي أشد الإنكار، وعاودني فيه مراراً، فلم أجبه إليه، فلما رأى إقامتي على الإمتناع، جفاني، وأعرض عني، وامتدت الأيام على هذا، حتى أداني ذلك إلى الاختلال الشديد الذي أضربني.

فدخل إلي غلامي يوماً، فأعلمني أنه لا نفقة عنده، ولا مضطرب له في احتياها، لا امتناع التجار عن إعطائه، لتأخر ما لهم علينا عنهم، وأنه لا علف للوابنا، ولا قوت لنا.

فأومأت إلى عمامة ملحم كانت بحضرتي، وأمرته ببيعها، وصرف ثمنها فيما يحتاج إليه، فباعها بثمانية دراهم.

وورد علي في ذلك اليوم كتاب وكيلي على أهلي، بمدينة لاسلام، يعلمني ضيق الأمر عليه فيما يحتاج إلى إقامته للعيال، وإنه التمس من التجار مقدار ألفي درهم، فلم يجيبوه إليها، فعظم علي ما ورد من ذلك، وضافت بي المذاهب.

فبينما أنا قاعد في عشية يومي ذلك، إذ أتاني رسول الفضل يأمرني بحضور الدار، والمقام فيها، إلى عند خروجه من دار المأمون، فحضرتها بعد صلاة العتمة، فأقمت، إلى أن خرج الفضل في وقت السحر، فلقيته، وبين يديه خرائط كثيرة محمولة.

فقال: صليت صلاة الليل؟ قلت: نعم.

فقال: لكني ما صليت، فكن ها هنا إلى أن أصلي، فصلي، ثم انفتل من صلاته، فدعاني.

فقال: أتدري ما هذه الخرائط؟ قلت: لا.

قال: هذه ثمان وستون خريطة وردت، وقرأتها، وأجبت عنها بخطي، فدعوت الله له بحسن المعونة والتوفيق.

ثم قال لي: يا ريان، إن أبا محمد الحسن بن سهل قد دفع إلي واسط، ورأى أمير المؤمنين أن يمده بدينار بن عبد الله ونعيم بن خازم في عشرة آلاف رجل، وأن يقلدك الإنفاق عليهم في عسكريهما، وأن يجري لك في كل شهر عشرة آلاف درهم، ولكاتبك ثلاثة آلاف درهم، وقراطيسك ألف درهم، وأن يوظف لك على كل عسكر عشرة أجمال لحملك، أو مائة دينار عوضاً عنها، ثم أمر لي في ذلك الوقت، أن تحمل إلي أرزاق ثلاثة أشهر، فما صليت الصبح حتى حمل إلي اثنان وأربعون ألف درهم، وأخذ في تجهيز العسكريين.

قال: وبعث إلي الفضل بفرس من دوابه وأمرني أن أبعث به إلى نعيم بن خازم، وأعمله أنه خصه به، وأنه من خيله التي يركبها، فوجهت به إلى نعيم بن خازم، فأظهر السرور والابتهاج بذلك، والتعظيم له، ووهب لغلامي عشرة

آلاف درهم، وبعث إلي بخمسين ألف درهم.  
فكتبت بذلك إلى الفضل، فكتب علي رقعتي: أردد على نعيم ما بعث به إليك، وما وهب لغلأمك، واقبض لنفسك عوضاً منه، مائة وعشرين ألف درهم.  
ثم أمر بعد أيام لدينار، بسبعمئة ألف درهم صلة ومعونة، ولنعيم بن خازم بخمسمائة ألف درهم، فبعثت بها إليهما، فبعث إلي كل واحد منهما بخمسين ألف درهم.  
فكتبت إلى الفضل رقعة، فأعلمته فيها بما فعلاه، فوقع علي ظهرها: إقبل من دينار ما بعث به إليك، واردد إلي نعيم ما بعث به، واقبض لنفسك عوضاً من ذلك مائة ألف درهم.  
قال: وسرنا عن مرو، فلما صرنا في الطريق، ورد علي كتاب الفضل، يأمرني فيه، أن أحمل إلى دينار ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وإلى نعيم ألف ألف درهم، ففعلت، فحمل إلي دينار مائة ألف درهم، وخمسين ألف درهم، وبعث إلي نعيم مائة ألف درهم، فقبلت من دينار ما بعث به، ورددت علي نعيم ما بعث به، حسبما حد لي في رقعتي الأولى والثانية، ولم أكتب بالخبر في ذلك إلى الفضل، لئلا يتوهم علي استدعاء العوض، وكتب له بذلك صاحب خبر، كان له في السر علينا، فوقع علي ظهر كتابه إلي، قد علمت أنك أمسكت عن الكتابة إلي بما فعله نعيم ودينار، وما كان من ردك علي نعيم ما بعث به، لئلا أتوهم عليك الاستدعاء للصلة، وقد رأيت أن تقبض لنفسك عوضاً عن ذلك مائتي ألف درهم.  
قال الريان: فلم تمض سبعة وعشرون يوماً، حتى حصل عندي سبعمئة ألف درهم.

#### المأمون بخراسان ينقلب حاله من أشد الضيق إلى أفصح الفرج

وذكر في كتابه عن جبريل بن بختيشوع، في خبر طويل، أنه سمع المأمون يقول: كان لي بخراسان يوم عجيب، فأولى الله فيه إحسانه جميلاً، لما توجه طاهر بن الحسين إلى علي بن عيسى بن ماهان، كما قد عرفتموه من ضعف طاهر وقوة علي، وقر في نفوس عسكري جميعاً، أن طاهراً ذاهب، ولحق أصحابي إضاقه شديدة، وظهرت فيهم خلة عظيمة، ونفذ ما كان معي، فلم يبق منه لا قليل ولا كثير، وأفضيت إلى حال كان أصلح ما فيها الهرب، فلم أدر إلى أين أهرب، ولا كيف آخذ، وبقيت حائرًا متفكرًا.  
فأنا - والله - كذلك وكنت نازلاً في دار أباهما حديد، ولي مستشفيات أجلس فيها إذا شئت، وعدد غلماني ستة عشر غلاماً، لا أملك غيرهم، وإذا بالقواد والجيش جميعاً قد شغبوا، وطلبوا أرزاقهم، ووافوا جميعاً يشتموني، ويتكلمون بكل قبيح.  
فكان الفضل بن سهل بين يدي، فأمر بإغلاق الأبواب، وقال لي: قم فاصعد إلى المجلس الذي يستشرف فيه، إشفافاً علي من دخولهم، وسرعة أخلهم إياي، وتعليلاً لي بالصعود.  
فقلت: القوم يدخلون الساعة، فيأخذوني، فلأن أكون بموضعي، أصلح.  
فقال لي: يا سيدي اصعد، فوالله، ما تنزل إلا خليفة.  
فجعلت أهنأ به، وأعجب منه، وأحسب أنه إنما قال ما قال، ليسمعني، وأركنت للهرب من بعض أبواب الدار، فلم يكن إلى ذلك سبيل، لإحاطة القوم بالدار والأبواب كلها.  
فالخ علي أن أصعد، فصعدت وأنا وجل، فجلست في المستشرف، وأنا أرى العسكر.

فلما علموا بصعودي اشتد كلبهم، وشتهم، وضجيجهم، وبادروني بالوعيد والشتيم، فأغلظت على الفضل بن سهل وقلت له: أنت جاهل، غررتني، لوم تدعني أعمل برأيي، وليس العجب إلا ممن قبل منك، وهو في هذا كله، يحلف أنني لا أنزل إلا خليفة، وغيظي عليه، وتعجبي من حقه، ومواصلة الأيمان أنني لا أنزل إلا خليفة، مع ما أشاهده، والحال يزيد، أشد علي مما أقاسيه من الجند.

ثم وضع القوم النار في شوك جمعوه، وأذنوه من الدار، وقيموا في سورها عدة نقوب، وتلموا منه قطعة، فذهبت نفسي خوفاً وجزعاً، وعلمت أني بين أن أحترق، وبين أن يصلوا إلي فيقتلونني، فهممت بأن ألقى نفسي إليهم، وقدرت أنهم إذا رأوني استحياوا مني، وأقصروا.

وجعل الفضل بن سهل يقبل يدي ورجلي، ويناشدني أن لا أفعل، ويحلف لي أني لا أنزل إلا خليفة، وفي يده الإسطرلاب، ينظر فيه في الوقت بعد الوقت.

فلما اشتد علي الأمر، واستحكمت اليأس، قال لي: يا سيدي، قد - والله - أتاك الفرج، أرى شيئاً في الصحراء قد أقبل، ومعه فرجنا، فازددت من قوله غيظاً، وأمرت غلماني بتأمل الصحراء، فلم أر، ولم يروا شيئاً.

وجد القوم في الهدم والحريق، حتى هممت - لما داخلني - أن أرمي بالفضل إليهم. فقال الغلمان: إنا نرى في الصحراء شيئاً يلوح، فنظرت فإذا شبح، وجعل يزيد تبياناً، إلى أن تبينوا رجلاً على بغلة، ثم قرب، فإذا هو يلوح، وقرب من العسكر، وقويت له قلوبنا، ورأى الجند ذلك فتوقفوا، وخالطهم، فإذا هو يقول: البشري، هذا رأس علي بن عيسى بن ماهان معي في المخلاة، فلما رأوا ذلك أمسكوا عنا، وانقلبوا بالدعاء، والسرور بالظفر والفتح.

فقال لي الفضل بن سهل: يا سيدي، إئذن لي في إدخال بعضهم، فأذنت له، فشرط عليهم أن لا يدخل إلا من يريد، فأجابوا إلى ذلك، وسمى قوماً من القوم، فأدخلهم.

فكان أول من دخل علي، عبد الله بن مالك الخراعي، فقبل يدي، وسلم علي بالخلافة، ثم أدخل القواد بعده، واحداً واحداً، ففعلوا مثل ذلك، فأطفاً الله - عز وجل - النائرة، وهب السلامة، وقلدني الخلافة، فظفرت من أموال علي بن عيسى بن ماهان، وما في عسكره، بما أصلحنا به أمور جندنا. ثم ذكر تمام الحديث.

وحدثني بهذا الخبر، أبو محمد الحسن بن محمد الصلحي، قال: حدثني أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة، قال: قال الفضل بن مروان: كنت مع المأمون، وقد خرج إلى نواحي الإسحاق ليصيد في جماعة من عسكره قليلة، فذكر هذا الخبر بطوله، وصدرة وعجزه على ما في كتاب ابن عبلوس، مما لم أذكره، فذكر فيه هذه القطعة من الخبر، على قريب مما هي مذكورة ها هنا.

### طلب الولاية على بزبندات البحر وصدقات الوحش

وذكر أيضاً في كتابه، قال: حدثني محمد بن مخلد، وكان يلقب لبد، لطول عمره، وروى عنه المدائني الكاتب، عن أبيه مخلد بن يزيد أن المأمون، أول ما قدم العراق، خطر له أن يقلد الأعمال، الشيعة الذين قدموا معه من خراسان، فطالت عظة كتاب السواد وعماله، وكانوا يحضرون داره في كل يوم، حتى ساءت أحوالهم.

فخرج يوماً بعض مشايخ الشيعة، وكان مغفلاً، فتأمل وجوههم، فلم ير فيهم أسن من مخلد بن يزيد، فجلس إليه، وقال له: إن أمير المؤمنين أمرني أن أتخير ناحية من نواحي الخراج، صالحة المرفق، ليوثق بتقليدي إياها، فاختر لي

ناحية.

فقال: لا أعرف لك عملاً أولى بك من بزندات البحر، وصدقات الوحش.

فقال له: أكتبه لي، فكتبه له مخلد، فعرض الشيعي الرقعة على المأمون، وسأل تقليده ذلك العمل.

فقال له: من كتب لك هذه الرقعة؟ فقال: شيخ من الكتاب، يحضر الدار في كل يوم.

فقال: هلمه.

فلما دخل، قال له المأمون: ما هذا يا جاهل؟ تفرغت لأصحابي؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، أصحابنا هؤلاء ثقات يصلحون لحفظ ما يصل إلى أيديهم من الخزائن والأموال، وأما شروط الخراج، وحكمه، وما يجب تعجيل استخراجها، وما يجب تأخيرها، وما يجب إطلاقه، وما يجب منعه، وما يجب إنفاقه، وما يجب الإحتساب به، فلا يعرفونه، وتقليدهم يعود بذهاب الإرتفاع، فإن كنت يا أمير المؤمنين لا تتق بنا، فضم إلى كل واحد منهم رجلاً منا، فيكون الشيعي يحفظ المال، ونحن نجمعه.

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه، وأمر بتقليد عمال السواد وكتابه، وأن يضم إلى كل واحد منهم، واحداً من

الشيعية، وضم مخلد إلى ذلك الشيخ، وقلده ناحية جلييلة.

### المنصور يقتل مؤدب ولده جعفر ظلماً

وذكر في كتابه: أن المنصور ضم رجلاً يقال له فضيل بن عمران الكوفي إلى جعفر ابنه، يكتب له، ويقوم بأمره. وكانت لجعفر حاضنة تعرف بأمة عبيدة، فتقل عليها مكان فضيل، فسعت به إلى أبي جعفر، وادعت عنده أنه يلعب بجعفر، فبعث المنصور، مولاه الريان، وهارون بن غزوان، ومولى عثمان بن نهيك، إلى الفضيل، وأمرهما بقتله، وكتب لهما منشوراً بذلك، فصارا إليه فقتلاه.

وكان الفضيل دينياً، عفيفاً، فقيل للمنصور في ذلك، وأنه أبرأ الناس مما قرف به، فأحضر المنصور غلاماً من غلمانهم وجعل له عشرة آلاف درهم، إن أدركه قبل أن يقتل، فصار إليه، فوجده قد قتل، ولم يحف دمه.

واتصل خبر قتله بجعفر بن أبي جعفر، فطلب الريان، فلما جيء به، قال له: ويلك، ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل مسلم بغير جرم؟ فقال له الريان: هو أمير المؤمنين، يفعل ما يشاء.

فقال له جعفر: يا ماص بظر أمه، أكلمك بكلام الخاصة، فتكلمني بكلام العامة؟ جروا برجله، فألقوه في دجلة.

قال الريان: فأخذوا - والله - برجلي، فقلت: أكلمك بكلمة، ثم اعمل ما شئت.

فقال: ردوه، فرددت، فقال: قل.

فقلت له: أبوك إنما يسأل عن قتل فضيل بن عمران وحده؟ ومتى يسأل عنه، وقد قتل عمه عبد الله بن علي، وقتل

عبد الله بن الحسن، وعشرات من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قتل من أهل الدنيا ما لا يحصى ولا

يعد، هو إلى أن يسأل عن فضيل بن عمران جوشانة تحت خصي فرعون.

قال: فضحك، وقال: خلوا عنه، لعنه الله، فأقلت منه.

مالك بن طوق يتزوج المهناة بنت الهيثم الشيباني

وجدت في كتاب أبي الفرج الحنطبي المخزومي الكاتب: أن محمد بن عبد الحميد الجشمي قال: حججت سنة ثلاث

وأربعين ومائتين، فأنا في بعض المنازل راجعاً، إذ رأيت فقراء بالبادية يستميحون، فوقف منهم علي جارية تصدق،

بوجه كأنه القمر حين استدار، أو كقرن الشمس حين أثار، فرددت طرفي عنها، واستعدت بالله من الفتنة بما، فلم  
ترل تذهب وتجيء، فيما بين رجال الحج، وتعود إلى رحلي، فوقفت.  
فقلت لها: أما تستحين أن تبدين هذا الوجه في مثل هذا الموضع، بحضرة الخلائق.  
فلطمت وجهها، وقالت:

لم أبده حتى تقصت حيلتي ... فبدلته وهو الأعز الأكرم  
ويعز ذلك عليّ إلا أنه ... دهرٌ يجور كما تراه ويظلم  
قد صنته وحجته حتى إذا ... لم يبق لي طمع ومات الهيثم  
أبرزته من حجبه مقهوراً ... والله يشهد لي بذاك ويعلم  
كشف الزمان قناعه في بلدة ... قلّ الصديق بما وعزّ الدرهم  
أصبحت في أرض الحجاز غريبة ... وأبو ربيعة أسرتي ومحلم

قال: فأعجبني ما رأيت من جمالها، وفصاحتها، وأدبها، وشعرها، فبررتما، وقلت لها: ما اسمك؟ قالت: أنا المهناة بنت  
الهيثم الشيباني، وكان أبي جاراً لبني فزارة، فاعتل، واستنفد ماله، وتوفي، وتركتني فقيرة، فاحتجت إلى التكفف.  
قال: ورحلنا، فلما صرنا بالرحبة، دخلت إلى مالك بن طوق مسلماً، فسألني عن طريقي وسفري، وما رأيت من  
الأعاجيب فيه، فحدثته بحديث الجارية، فأعجب به، واستطرف الأبيات، وكتبها مني، ورحلت إلى منزلي بالشام.  
فلما كان بعد أيام من اجتماعنا، أتاني رسوله يستزيري، فصرت إليه، فبينما أنا جالس عنده يوماً، فإذا خادمان قد  
جاءا معهما أكياس محتومة، وتخوت ثياب مشلودة، فوضعاها بين يدي.

فقلت لمالك: ما هذا؟ قال: هذا حق دلالتك على المهناة بنت الهيثم الشيباني، التي أظفرتني الله منها بما كانت أمي  
تقصر عنه، وهي أنفذت إليك بهذا من مالها، ولك من مالي ضعفه.

فقلت: كيف كان خبرها؟ فقال: إنك لما انصرفت، أنفذت رسلاً إلى البادية، أتق بعقولهم وأمانتهم، فما زالوا  
يسألون عنها، حتى ظفروا بها، فحملوها، ووليتها معها، فتزوجتها، فرأيت منها ما زاد على ما كان زرعه حديثك  
عنها في نفسي، وقد افضت عليها من دنياي، بحسب تمكها من قلبي، فسألني عن سبب طلبي إياها، فأخبرتها بخبرك،  
وكتبت أستزيرك لأعرفك هذا، وأقضى حقلك، وقد أمرت لك بعشرين ألف درهم، وعشر تخوت ثياب.  
قال عبد الحميد: وكانت أم عدة من أولاده.

بين ابن أبي البغل عامل أصبهان وأحد طلاب التصوف

حدثني أبو القاسم سعد بن عبد الرحمن الأصبهاني، قال: كان أبو الحسين بن أبي البغل يتقلد بلدنا، فقدم عليه شيخ  
من الكتاب يطلب التصوف، وأورد عليه كتباً من الحضرة، يذكرون فيها طول عطلته، ومحله من الصناعة،  
ويسألونه تصريفه، فسلم إليه الكتب، فتركها ابن أبي البغل بين يديه، وكانت كثيرة، وكان فيه حدة وضجرة،  
فاستكثرها، وفض منها واحداً، فقرأه، وأقبل على شغله، من غير أن يقرأ باقي الكتب.  
فقال له الرجل: إن رأيت أن تقف على باقي الكتب.

فضجر، وتغيظ، وقال: أليس كلها في معنى واحد؟ قد - والله - بلينا بكم يا متعطلين، كل يوم يصير إلينا منكم  
واحد يريد تصرفاً، لو كانت خزائن الأرض لي، لكانت قد نفذت، يا هذا، مالك عندي تصرف، ولا عمل شاغر  
فأرده إليك، ولا في مالي فضل فأبرك، فدبر أمرك بحسب ذلك، هذا والرجل ساكت.

فلما سكن ابن أبي البغل، قام الرجل، وقال: أحسن الله جزاءك وفعل بك وصنع، وأسرف في الشكر والدعاء له،

وولى منصرفاً.

فقال ابن أبي البغلة، ردوه، فرجع.

فقال له: يا هذا، هوذا تسخر مني، على أي شيء تشكرني؟ على إياسي لك من التصرف، أو على قطع رجائك من الصلة، أو قبيح ردي لك، أو ضجري عليك؟ أم تريد خدعتي بهذا الفعل؟.

فقال: والله، ما أريد خداعك، وما كان منك من قبيح الرد فغير منك، لأنك سلطان، ولحقك ضجر، ولعل الأمر كما ذكرته من كثرة الواردين عليك، وقد بعلت بهم، واتفق لقوه نحسي، أن كان هذا الرد القبيح وقع في باي، ولم أشكرك إلا في موضع الشكر، لأنك صدقتني عما في نفسك من أول وهلة، وأعتقت عنقي من رق الطمع، وأرحتني من التعب بالغدو والرواح إليك، وخدمة قوم أستشفع بهم إليك، وكشفت لي ما أدبر به نفسي، وكسوتني جديدة، وبقية نفقتي معي، ولعلي أتحمّل بها إلى بلد آخر، في وجه أحد سواك.

قال: فأطرق ابن أبي البغلة، ومضى الرجل، فرفع رأسه، فاستدعاه، واعتذر إليه، وأمر له بصلة، وقال له: خذ هذه، إلى أن قلدك ما يصلح لك، فإني أرى فيك مصطنعاً.

فلما كان بعد أيام قلده عملاً جليلاً، وصلحت حال الرجل معه.

### بين جحظة اليرمكي ومحبرة بن أبي عباد الكاتب

حدثني أبو الفرج الأصبهاني، عن جحظة، أنه قال: اتصلت علي إضاقة، حتى بعث فيها كل ما أملك، وبقيت وليس في داري غير البواري، فأصبحت يوماً أفلس من طنبور الأوتار، ففكرت في الحيلة، فوقع لي أن أكتب إلى محبرة الكاتب، وكنت أجاوره بالبصرة، وكان منقرساً، يلزم بيته، حتى صار لا يمكنه الحركة، إلا أن يحمل في محفة، وكان ظريفاً، عظيم النعمة، كثير الشرب والقصف، فأتطايب عليه، ليدعوني، أو يبرني بشيء، فكتبت إليه:

ماذا ترى في جديّ ... وبرمة وبوراد

وقهوة ذات لون ... يحكي خلود الخرائد

ومُسمع يتغنى ... من آل يحيى بن خالد

إنّ المضيق لهذا ... نزر المروعة بارد

قال: فما شعرت إلا بمحفة محبرة، يحملها غلمانها، إلى داري، وأنا جالس على باهما.

فقلت: لم جئت، ومن دعاك؟ قال: أنت.

قلت: إنما قلت ماذا ترى، وعانيت في منزلك، ولم أقل أنه عندي، وبيتي - والله - أفرع من فؤاد أم موسى.

فقال: قد جئت الآن، ولا أرجع، ولكن أحضر من داري، ما أريد.

فقلت: ذاك إليك، فدخل الدار، فلم ير فيها إلا بارية.

فقال: يا أبا الحسن، هذا والله فقر مدقع.

فقلت: هو ما ترى.

فانفذ إلى داره، فجاءوه بفرش حسنة، وآلة، وقماش، وآنية، وطعام كثيرة من مطبخه، وألوان الأشرطة، والفواكه،

والمشام، وعبي المجلس، وفرش الفرش، وجلس يومه يشرب على غنائي وغناء مغنية دعوتها له كانت تألفني.

فلما كان من الغد، سلم إلي غلامه كيساً فيه ألفاً درهم، ورزمة ثياب صحاحاً ومقطوعة، من فاخر الثياب،

واستدعى محفته فجلس فيها، وشيعته.

فلما بلغ آخر الصحن، قال: مكانك يا أبا الحسن، فكل ما في دارك هو لك، فلا تدع أحداً يأخذ منه شيئاً.  
وقال للغلمان: اخرجوا بين يدي، فخرجوا، وأغلقت بابي على قماش يساوي ألوفاً كثيرة.  
تاجر خراساني يجد الفرج عند صاحبه الكرخي  
حدثني عبيد الله بن محمد العيقسي، عن بعض تجار الكرخ ببغداد، قال: كنت أعامل رجلاً من الخراسانية، أبيع له في كل موسم متاعاً، فأنتفع من سمسرتة بألوف دراهم.

فلما كان سنة من السنين تأخر عني، فأثر ذلك في حالي، وتواترت علي محن، فأغلقت دكاني وجلست في بيتي، مستتراً من دين لحقتي، أربع سنين.

فلما كان في وقت الحاج، تتبعت نفسي خبر الخراساني، طمعاً في إصلاح أمري به، فمضيت إلى سوق يجي، فلم أعط له خبراً، فرجعت، فنزلت الجزيرة وأنا تعب مغموم.  
وكان يوماً حاراً، فنزلت إلى دجلة، فتغسلت، وصعدت، فابتل موضع قدمي، فقلعت رجلي قطعة من الرمل، انكشفت عن سير.

فلبست ثيابي، وجلست مفكراً أولع بالسير، فلم أزل أجره حتى ظهر لي هميان موصول به، فأخذته، فإذا هو مملوء دنابر، فأخفيت تحت ثيابي، ووافيت منزلي، فإذا فيه ألف دينار.  
فقويت نفسي قوة شديدة، وعاهدت الله عز وجل، أنه متى صلحت حالي، وعادت، أن أعرف الهميان، فمن أعطاني صفته، رددته عليه.

واحتفظت بالهميان، وأصلحت أمري مع غرمائي، وفتحت دكاني، وعدت إلى رسمي من التجارة والسمسرة، فما مضت إلا ثلاث سنين حتى حصل في ملكي ألوف دنابر.

وجاء الحج، فاتبعتهم لأعرف الهميان، فلم أجد من يعطيني صفته، فعدت إلى دكاني.  
فبينما أنا جالس، إذا رجل قائم حيال دكاني، أشعث، أغبر، وافي السبال، في حلقة سؤال الخراسانية وزبيهم فظنته سائلاً، فأومأت إلى دريهمات لأعطيه، فاسرع الإنصراف، فارتبت به، فقمت، ولحقته، وتأملمته، فإذا هو صاحبي الذي كنت أنتفع بسمسرتة في السنة بألوف دراهم.  
فقلت له: يا هذا، ما الذي أصابك؟ وبكيت رحمة له.  
فبكي، وقال: حديثي طويل.

فقلت: البيت، وحملة إلى منزلي، فأدخلته الحمام، وألبسته ثياباً نظافاً، وأطعمته، وسألته عن خبره.  
فقال: أنت تعرف حالي ونعمتي، وإني أردت الخروج إلى الحج في آخر سنة جئت إلى بغداد، فقال لي أمير البلد: عندي قطعة ياقوت أحمر كالكف، لا قيمة لها عظماً وجلالةً، ولا تصلح إلا للخليفة، فخذها معك، فبعها لي ببغداد، واشتر لي من ثمنها متاعاً طلبه، من عطر، وطرف، بكذا وكذا، وأهل الباقي مالاً.  
فأخذت القطعة ياقوت، وهي كما قال، فجعلتها في هميان جلد، من صفته كيت وكيت، ووصف الهميان الذي وجدته، وجعلت في الهميان ألف دينار عيناً من مالي، وحملة في وسطي.  
فلما جئت إلى بغداد، نزلت أسبح عشياً في الجزيرة التي بسوق يجي، وتركت الهميان وثيابي بحيث ألا حظها.  
فلما صعدت من دجلة، لبست ثيابي عند غروب الشمس، وأنسيت الهميان، فلم أذكره إلى أن أصبحت، فعدت أطلبه، فكأن الأرض ابتلعتة.

فهونت علي نفسي المصيبة، وقلت: لعل قيمة الحجر ثلاثة آلاف دينار، أغرمها له.



فخرجت إلى الحج، فلما رجعت، حاسبتك على ثمن متاعي، واشتريت للأمير ما أراه، ورجعت إلى بلدي، فأنفذت إلى الأمير ما اشتريته، وأتيت، فأخبرته بخبري.

وقلت له: خذ مني تمام ثلاثة آلاف دينار، عوضاً عن الحجر.

فقطع فيّ، وقال: قيمته خمسون ألف دينار، وقبض علي، وعلى جميع ما أملكه من مال ومتاع، وأنزل بي صنوف المكاره، حتى أشهد علي في جميع أملاكي، وحسني سبع سنين، كنت يردد علي فيها العذاب. فلما كان في هذه السنة، سأله الناس في أمري، فأطلقني.

فلم يمكنني المقام ببلدي، وتحمل شماتة الأعداء، فخرجت على وجهي، أعالج الفقر، بحيث لا أعرف، وجمت مع الحج الخراساني، أمشي أكثر الطريق، ولا أدري ما أعمل، فجئت إليك لأشاورك في معاش أتعلق به. فقلت: قد رد الله عليك بعض ضالتك، هذا الهميان الذي وصفته، عندي، وكان فيه ألف دينار أخذتها، وعاهدت الله تعالى، أنني ضامن لها لمن يعطيني صفة الهميان، وقد أعطيتني أنت وصفته، وعلمت أنه لك، وقمت، فجنته بكيس فيه ألف دينار.

وقلت له: تعيش بهذا في بغداد، فإنك لا تعلم خيراً إن شاء الله.

فقال لي: يا سيدي الهميان بعينه عندك، لم يخرج عن يدك؟ قلت: نعم.

فشهق شهقة، ظننت أنه قد مات معها، وغشي عليه، فلما أفاق بعد ساعة، قال لي: أين الهميان؟ فجنته به، فطلب سكيناً، فأتيت بهما، فخرق أسفل الهميان، وأخرج منه حجر ياقوت أحمر، أشرق منه البيت، وكاد يأخذ بصري شعاعه، وأقبل يشكرني، ويدعو لي.

فقلت له: خذ دنائرك.

فحلف بكل يمين، لا يأخذ منها إلا ثمن ناقه، ومحمل، ونفقة تبلغه، فبعد كل جهد أخذ ثلثمائة دينار، وأحلي من الباقي، وأقام عندي، إلى أن عاد الحاج، فخرج معهم. فلما كان العام المقبل، جاءني بقریب مما كان يجيئني به سابقاً من المتاع.

فقلت له: أخبرني خبرك.

فقال: مضيت، فشرحت لأهل البلد خبري، وأريتهم الحجر، فجاء معي وجوههم إلى الأمير، وأعلموه القصة، وخاطبوه في إنصافي.

فأخذ الحجر، ورد علي جميع ما كان أخذه مني، من متاع، وعقار، وغير ذلك، ووهب لي من عنده مالاً. وقال: اجعلني في حل مما عذبتك وأذيتك، فأحللته.

وعادت نعمتي إلى ما كانت عليه، وعدت إلى تجارتي ومعاشي، وكل هذا بفضل الله تعالى وبركته، ودعا لي. وكان يجيئني بعد ذلك، حتى مات.

أضاع هميانه في طريق الحج ووجده أحوج ما يكون إليه

حدثني عبيد الله بن محمد الصروي: قال حدثني أبي: أن رجلاً حج، وفي وسطه هميان فيه دنائير وجواهر، قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار، وكان الهميان ديباج أسود.

فلما كان في بعض الطريق، جلس يبول، فانحل الهميان من وسطه وسقط، ولم يعلم بذلك غلا بعد أن سار من

الموضع فراسخ.

واتفق أن رجلاً جاء على أثره، فجلس يبول مكانه، فرأى الهميان، فأخذه، وكان له دين، فحفظه.

قال الرجل: فلم يؤثر في قلبي ذهابه، لكثرة مالي، فاحتسبته عند الله تعالى، وتغافلت.

وكان معي تجارة بأموال عظيمة، فقضيت حجي، وعدت إلى بلدي.

فلما كان بعد سنين، افتقرت لحن تواليت علي، حتى لم يبق لي شيء، فهربت على وجهي من بلدي، وقد أفضيت إلى

الصدقة علي، وزوجتي معي، فأويت إلى بعض القرى، فنزلت في خان خراب.

فأصاب زوجتي الطلق، وما أملك غير دائق ونصف فضة، وكانت ليلة مطيرة، فولدت.

فقال: يا هذا، الساعة أموت، فأخرج، وخذ لي شيئاً أتقوى به.

فخرجت أتخطب في الظلمة والمطر، حتى جئت إلى بقال فوقفت عليه، فكلمني بعد كل جهد، فشرحت له حالي،

فرحني، وأعطاني بتلك القطعة حلبة، وزيتاً، أغلاهما عنده، وأعارني غضارة جعلته فيهان فمشيت أريد موضعي،

فرلقت، فانكسرت الغضارة، وذهب ما فيها.

فورد علي أمر عظيم، ما ورد علي مثله قط، وأقبلت ألطم، وأبكي، وأصيح، فإذا برجل قد أخرج رأسه من شبك

في دار، وقال: ويلك، مالك تبكي، ما تدعنا ننام، فشرحت له قصتي.

فقال: هذا البكاء كله بسبب دائق ونصف؟ فتداخلي من الغم أكثر من الأول، فقلت: يا هذا، والله، ما لما ذهب

عندي محل، ولكن بكائي رحمة لنفسي مما دفعت إليه، وإن زوجتي وولدي الساعة يموتان جوعاً، ووالله، وإلا فعلي

وعلي، وحلفت بأيمان مغلظة، لقد حججت في سنة كذا، وأنا أملك من المال، ما ذهب مني هميان فيه دنانير

وجواهر بثلاثة آلاف دينار، ما فكرت فيه، وهو ذا تراني الآن أبكي بسبب دائق ونصف فضة، فاسأل الله العافية

والسلامة، ولا تعيرني فتبتلي بمثل بلواي.

فقال لي: بالله عليك، ما كان صفة هميانك؟ فلطمت رأسي، وقلت: ما يقنعك ما خاطبتني به وما تراه من صورتي،

وقيامي في الطين والمطر، حتى تتلهي بي، وأي شيء ينفعني وينفعك من صفة همياني، وقد ضاع من كذا وكذا سنة،

ومشيت.

وإذا هوة قد خرج بصيح بي: تعال خذ هذا، فقدرته يتصدق علي، فجنته.

فقال: أيش صفة هميانك؟ وقبض على يدي، فلم أقدر أتخلص منه، فوصفت له همياني.

فقال لي: أدخل، فدخلت منزله.

فقل: أين زوجتك؟ فقلت: في الخان القلاني.

فأنفذ غلماناً، فأقراهما، فأدخلها إلى حرمه، فأصلحوا أمرها، وأطعموها ما احتاجت إليه، وكساني كسوة حسنة،

وأدخلني الحمام، وأصبحت عنده في عيشة طيبة.

فقال لي: أقم عندي أياماً لأضيفك، فأقمت عنده عشرة أيام، فكان يعطيني في كل يوم عشرين ديناراً، وأنا متحير

من عظيم بره، بعد شدة جفائه.

فلما كان بعد ذلك، قال لي: أي شيء تنصرف فيه؟ فقلت: كنت تاجرأ.

فقال: أقم عندي، وأنا أعطيك رأس مال فتجدر في شركتي.

فقلت: أأفعل.

فدفع إلي مائتي دينار، وقال لي: أتجر بها ما هنا.

فقلت: هذا معاش، قد أغنايني الله تعالى به، يجب أن ألزمه، فلزمته.

فلما كان بعد شهر، رجنا، فجننته، فقلت له: خذ ربحك.

فقال لي: اجلس، فجلست.

فأخرج إلي همياني، وقال: أتعرف هذا؟ فحين رأيته، شهقت شهقة غشي علي منها.

ثم أفقت بعد ساعة، فقلت له يا هذا، أملك أنت أم نبي؟

فقال: لا، ولكني ممتحن بحفظ هميانك منذ كذا وكذا سنة، فلما سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته، وأعطيتني علامته،

أردت أن أعطيك هو، فخشيت أن تنشق مرارتك من الفرح، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهمتك أنها هبة لك، وإنما

أعطيتك ذلك كله من هميانك، والدنانير المائتان، قرض، فخذ هميانك واجعلني في حل.

فأخذته، ودعوت له، ورددت عليه القرض، ورجعت إلى بلدي، وبعث الجوهر وأضفت ثمنه إلى الدنانير، واتجرت

بها، فما مضت إلا سنيت، حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار، واصلحت حالي، فأنا في فضل الله تعالى، أعيش

إلى الآن.

### الوزير علي بن عيسى يقول ليتني تمنيت المغفرة

حدثني أبو سهل بن زياد القطان، صاحب علي بن عيسى، قال: كنت مع علي بن عيسى بمكة، حين نفي إليها،

فدخلنا في حر شديد، وقد كدنا نتلّف، فطاف علي بن عيسى، وسعى، وجاء فألقى نفسه كالميت من الحر والعب،

وقلق قلقاً شديداً.

وقال: أشتهي على الله عز وجل، شربة ماء بثلج.

فقلت له: يا سيدنا، تعلم أن هذا ما لا يوجد بهذا المكان.

فقال: هو كما قلت، ولكن نفسي ضاقت عن ستر هذا، فاستروحت إلى المنى.

قال: وخرجت من عنده، فرجعت إلى المسجد الحرام، فما استقررت فيه، حتى نشأت سحابة، فأبرقت، وأرعدت

رعداً متصلاً شديداً، ثم جاءت بمطر يسير، وبرد كثير.

فبادرت إلى الغلمان، فقلت: اجمعوا، فجمعنا شيئاً كثيراً، وكان علي بن عيسى نائماً.

فلما كان وقت المغرب، خرج إلى الصلاة، فقلت له: أنت والله مقبل، والنكبة زائلة، وهذه علامات الإقبال،

فاشرب الثلج كما طلبت.

وجئته إلى المسجد الحرام بأقداح مملوءة بالأشربة والأسوفة، مكبوسة بالبرد، فأقبل يسقي ذلك من كان بقربه من

الصوفية والجاورين والضعفاء، ويستزيد، ونحن نأتيه بما عندنا من ذلك، وكلما قلت له: اشرب، يقول: حتى يشرب

الناس.

فخبأت من البرد مقدار خمسة أرتال، وقلت له: لم يبق شيء.

فقال: الحمد لله، ليتني كنت تمنيت المغفرة، بدلاً من تمنّي الثلج، فلعلني كنت أجاب.

فلما رجع إلى بيته حلفت عليه أن يشرب، فما زلت أداريه حتى شرب منه بقليل ماء وسويق، وتقوت به باقي ليلته.

المسجد الحرام

المسجد الحرام: المسجد، بفتح الجيم: ما يمس الأرض من الأعضاء عند السجود، وبكسر الجيم: الموضع الذي يسجد فيه، والجمع في كليهما: مساجد المنجد، والحرام: المقدس، ومنه سميت مكة والمدينة: المنطقة الحرام، والحرمين دائرة المعارف الإسلامية ٧ - ٣٦١ والمسجد الحرام هو الكعبة، سميت الكعبة، لتربيعها معجم البلدان ٤ - ٦١٦ - ٦٢٦.

ولم يكن للمسجد الحرام في أيام النبي صلوات الله عليه وأبي بكر سور يحيط به، فضيق الناس على الكعبة، وألصقوا دورهم بها، فاشترى عمر تلك الدور، وهدمها، وزادها في المسجد، وأخذ للمسجد جداراً دون القامة، كانت المصاييح توضع عليه، ولما استخلف عثمان زاد في سعة المسجد، وأخذ فيه الأروقة حين وسعه معجم البلدان ٤ - ٥٢٥ - ٥٢٦ ثم وسعه المنصور أحسن التقاسيم ٧٥.

وأقصى ما وصلت إليه سعة المسجد الحرام ثلاثين ألف متراً مربعاً، فأقدمت الحكومة العربية السعودية على عمل من أشرف الأعمال وأكرمها عند الله والناس، إذ زادت في سعة المسجد إلى خمسة أضعاف مساحته الأولى، فبلغت مساحته مائة وخمسين ألف متر مربع، وشيدت حوله أروقة محيطة بالمسجد على طابقين بلغ من علوها أن سقف الطابق الثاني منها، قارب في علوه رؤوس المآذن القديمة في المسجد، وسقفت المسعى بين الصفا والمروة، وشادت عليه طابقين، وكان البناء جميعه بالرخام البديع، فاكتمت المسجد الحرام رداء من الجمال والبهاء، لم أشاهد مثله في أي مكان من أماكن العبادة الأخرى، فإني شاهدت الفاتيكان، وكنائس روما، والإسكوريال، وجامع قرطبة، وجامع دمشق، وجامع القسطنطينية، وجامع أصبهان، والمرقد المقدسة في العراق وإيران وفي جميعها ما يهر الناظر، ولكنها لا تماثل بناء المسجد الحرام ولا تقاربه، وأدارت بسور المسجد الحرام، رحبة عظيمة السعة أحاطت به من جميع جهاته، تنفذ منها طرق إلى خارج مكة، اضطرت لانفاذ بعضها أن نحتت الصخور، فصح في ذلك المثل القائل: همم الرجال، تقلع الجبال.

فتى ورث مالا فأتلفه ثم آل أمره إلى صلاح  
حدثني عبيد الله بن محمد الصروي، أيضاً، عن أبيه، قال:

كان يجاورنا ببغداد فتى من أولاد الكتاب، ورث مالا جليلاً، فأتلفه في القيان، وأكله إسرافاً، حتى لم يبق منه شيء، واحتاج إلى نقض داره، فلم يبق منها غير بيت يكتنه.

فحدثني بعض من كان يعاشره وانقطع عنه لما افتقر، قال: قصدته يوماً بعد انقطاعي عنه نحو سنة، لأعرف خبره، فدخلت إليه، فوجدته نائماً في ذلك البيت، في يوم بارد، على حصير خلق، قد توطأ قطناً كأنه حشو فراش، وتغطي بقطن كان في لحاف، فهو بين ذلك القطن كأنه السفرجل.

فقلت له: ويحك، بلغت إلى هذا الحد.

فقال: هو ما ترى.

فقلت: فهل لك حاجة.

قال: أو تقضيها؟ فظننت أنه يطلب مني شيئاً أسعفه به، فقلت: إي والله.

فقال: أشتهي أن تحملني إلى بيت فلانة المغنية، حتى أراها، وهي التي كان يعشقها، وأتلف ماله عليها.

وبكى، فرحمته، فمضيت إلى منزلي، فأتيته من ثيابي بما لبسه، وأدخلته الحمام، وحملته إلى بيتي، فأطعمته، وبخرته، وذهبنا إلى دار المغنية.

فلما رأتنا، لم تشك أن حاله قد صلحت، وأنه قد جاءها بدراهم، فبشت في وجهه، وسألته عن حاله، فصدقها عن

حاله، حتى انتهى إلى ذكر الثياب، وأنها لي.

فقالت له في الحال: قم، قم.

فقال: لم؟ فقالت: لثلاثي ستي، فتراك، وليس معك شيء، فتردد علي، لم أدخلتك، فأخرج برا، حتى أصعد فأكلمك من فوق، فخرج، وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة في الدار، إلى الطريق، فأقبلت عليه مرقعة سكباج، فصيرته آية، ونكالا.

فبكي، وقال لي: بلغ أمري إلى هذا؟ أشهد الله، وأشهدك، أي تائب.

فضحكت منه، وقلت: أي شيء تنفعك التوبة الآن وقد افتقرت؟ فرددته إلى بيته، ونزعت ثيابي عنه، وتركته بين القطن، كما كان أولاً، وحملت ثيابي فغسلتها وانقطعت عنه، فما عرفت له خبراً.

وبعد نحو ثلاث سنين، بينما أنا ذات يوم بباب الطاق، إذا أنا بغلام يطرق لرجل راكب، فرفعت رأسي، فإذا به علي بردون فاره، بمركب فضة، خفيف، مليح، وثياب حسنة، وكان أولاً يركب من اللواب أفخرها، ومن المراكب أثقلها.

فلما رأي، قال لي: يا فلان، فعلمت أن حاله قد صلحت، فقبلت فخده.

وقلت: سيدي أبو فلان.

قال: نعم، قد صنع الله تعالى، وله الحمد، البيت، البيت، فنتبعته إلى منزله، فإذا بالدار الأولى، قد رمها، وحصصها، من غير بياض، وطبقها، وبنى فيها مجلسين متقابلين، وخزائن، ومستراح، وجعل باقي ما كان فيها، صحناً كبيراً، وقد صارت حسنة، غير أنها ليست بذلك الأمر الأول.

فأدخلني إلى حجرة منها، كان يخلو فيها قديماً، قد أعادها كأحسن ما كانت، وفيها فرش حسنة، وفي داره ثلاثة غلمان، قد جعل كل خدمتين إلى واحد منهم، وقد أقام علي حرمة خادماً كان لأبيه، وله سائس هو شاكريه، وشيخ بواب كان يصحبه قديماً، ووكيل يتسوق له.

فجلس، وأجلسني، وأحضر فاكهة قليلة، في آلة مقتصدة مليحة، وجاءوا بعدها بطعام نظيف، كاف، غير مسرف ولا مقصر، فأكلنا، ثم نام، ولم تكن تلك عادته، ومدت ستارة، وأحضرت مشام ورياحين، في صواني وزبديات، والجميع متوسط مليح، غير مسرف، فانتبه، فصلى، وتبحر بقطعة ند، وبخري بقطعة عود مطرى، وقدم بين يديه صينية فيها من مطبوخ العنب شيء حسن، وقدم بين يدي صينية فيها نبيذ التمر، جيد.

فقلت: يا سيدي ما هذه الترتيبات التي لست أعرفها.

فقال: دع ما مضى، فإن الحال لا تحتل الإسراف، فأقبل يشرب، وأنا أساعده، فتغنى من وراء الستارة، ثلاث جوارى في نهاية طيب الغناء، كل واحدة منهن أطيب من التي أنفق عليها ماله.

فلما طابت أنفسنا، قال لي: تذكر أيامنا الأولى؟ قلت: نعم.

قال: أنا الآن في نعمة متوسطة، وما قد أفدته من العقل، والعلم بأمر الدنيا وأهلها، يسليني عما ذهب مني، وهوذا ترى فرشي، وآتي، ومركوبي، وإن لم يكن ذلك بالعظيم المفرط، ففيه جمال، وبلاغ، وتنعم، وكفاية، وهو مغن عن الإسراف، والتخرق، والتبذير، وقد تخلصت من تلك الشدة، تذكر يوم عالمتني فلانة المغنية، بما عاملتني؟ قلت: نعم والحمد لله الذي كشف ذلك عنك، فمن أين هذه النعمة؟

قال: مات مولى لأبي، وابن عم لي، في يوم واحد بمصر، فحصل لي من تكرهما أربعون ألف دينار، فوصل أكثرها إلي، وأنا بين القطن كما رأيتني، فحمدت الله، واعتقدت التوبة من التبذير، وأن أدبر ما رزقته، فعمرت هذه الدار

بألف دينار، واشترت الفرش، والآلة، والجواري بتسعة آلاف دينار، وسلمت إلى بعض التجار الثقات، ألفي دينار، يتجر لي بها، وأودعت بطن الأرض عشرة آلاف دينار، للحوادث، وابتعت بالباقي ضيعة تغل لي في كل سنة نفقتي هذه التي شاهلتما، فما أحتاج إلى قرض، ولا استزادة، ولا تقبل غلة، إلا وعندي بقية من الغلة الأولية، فأنا أتقلب في نعمة الله، عز وجل، كما ترى، ومن تمام النعمة، إني لا أعاشرك، ولا أحداً ممن كان يحسن لي السرف، يا غلمان، أخرجوه.

قال: فأخرجت، فوالله ما أذن لي بعدها في الدخول عليه.

### أبو يوسف القاضي يأكل اللوزينج بالفسق

وحدثني أبي، قال: بلغني أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة، ليتعلم العلم، على فقر وشدة، وكانت أمه تحتال له فيما يتقوته يوماً بيوم، فطلب يوماً ما يأكل، فجاءته بغضارة مغطاة، فكشفها، فإذا فيها دفاتر. فقال: ما هذا؟

فقالت: هذا الذي أنت مشغول به فمأرك أجمع، فكل منه.

فبكى، وبات جائعاً، وتأخر عن المجلس من الغد، حتى احتال فيما أكله، ثم مضى إلى أبي حنيفة، فسأله عن سبب تأخره، فصدقته.

فقال له: ألا عرفتي فكنت أمدك؟ ولا يجب أن تغتم، فإنه إن طال عمرك، فستأكل اللوزينج بالفسق.

قال: فلما خدمت الرشيد، واختصت به، قدم بمحضته يوماً، جام فيه لوزينج بفسق، فدعاني إليه، فحين أكلت منه، ذكرت أبا حنيفة، فبكيت، وحمدت الله تعالى، فسألني الرشيد عن قصتي، فأخبرته.

الشيخ الحياط وأذانه في غير وقت الأذان

حدثني أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي: أن شيخاً من التجار، كان له على بعض القواد، مال جليل ببغداد، فمأطله به، وجحده إياه، واستخف به.

قال: فعزمت على التظلم إلى المعتضد، لأني كنت تظلمت إلى عبيد الله بن سليمان الوزير، فلم ينفعني ذلك.

فقال لي بعض إخواني: علي أن آخذ لك المال، ولا تحتاج إلى أن تتظلم إلى الخليفة، قم معي الساعة، فقمتم معه.

فجاء بي إلى خياط في سوق الثلاثاء، يحيط، ويقريء القرآن في مسجد، فقص عليه قصتي، فقام معنا.

فلما مشينا، تأخرت، وقلت لصديقي: لقد عرضت هذا الشيخ، وإيانا، لمكروه عظيم، هذا إذا حصل على باب الرجل، صفع، وصفعنا معه، هذا لم يلتفت إلى شفاعة فلان، وفلان، ولم يفكر في الوزير، فكيف يفكر في هذا الفقير؟ فضحك، وقال: لا عليك، إمش، واسكت.

فجئنا إلى باب القائد، فحين رأى غلمانته الخياط، أعظموه وأهووا التقبيل يده، فمنعهم من ذلك، وقالوا: ما جاء بك أيها الشيخ، فإن صاحبنا راكب، فإن كان لك أمر يتم بنا بادرنا إليه وإلا فادخل، واجلس إلى أن يجيء، فقويت نفسي بذلك، ودخلنا وجلسنا.

وجاء القائد، فلما رأى الشيخ أعظمه إعظاماً تاماً، وقال: لست أنزع ثيابي، أو تأمرني بأمرك.

فخاطبه في أمري، فقال: والله، ما عندي إلا خمسة آلاف درهم تسأله أن يأخذها، وأعطيه رهناً في باقي ماله.

فبادرت إلى الإجابة، فأحضر الدراهم، وحلياً بقيمة الباقي، فقبضت ذلك منه، وأشهدت عليه الرجل، وصديقي، أن الرهن عندي إلى أجل، فإن حل الأجل ولم يعطني، فقد وكلني في بيعه، وقبض مالي من ثمنه، فخرجنا، وقد أجاب إلى

ذلك.

فلما بلغنا مسجد الخياط، قلت له: قد رد الله تعالى علي هذا المال بسبيك، فأحب أن تأخذ منه ما أحببت، بطيبة من قلبي.

فقال: ما أسرع ما كافأني على الجميل بالقبيح، إنصرف، بارك الله لك في مالك.  
فقلت: قد بقيت لي حاجة.

قال: قل.

قلت: تخبرني عن سبب طاعته لك، مع تماونه بأكثر أهل الدولة.

فقال: قد بلغت مرادك، فلا تقطعني عن شغلي، وما أعيش به.

فألححت عليه، فقال: أنا رجل أصلي بالناس في هذا المسجد، وأقرأ القرآن، منذ أربعين سنة، ومعاشي من هذه الخياطة، لا أعرف غيرها.

وكنت منذ دهر، قد صليت المغرب، وخرجت أريد منزلي، فاجترت بتركي كان في هذه الدار، وامرأة جميلة مجتازة، وقد تعلق بها وهو سكران، ليدخلها داره، وهي ممتنعة تستغيث، وليس من أحد يغيثها، أو يمنعه منها، وتقول في جملة كلامها: إن زوجي قد حلف علي بالطلاق، أن لا أبيت برا، فإن بيتي، خرب بيتي، مع ما يرتكبه مني من الفاحشة.  
قال: فرفقت به وسألته تركها، فضرب رأسي بدبوس كان في يده، فشجنني، ولكمني، وأدخل المرأة بيته.

فصرت إلى منزلي، وغسلت الدم، وشدت الشجة، واسترحت، وخرجت لصلاة العشاء الآخرة.

فلما صلينا، قلت لمن معي في المسجد: قوموا بنا إلى عدو الله، هذا التركي، لننكر عليه، ولا نبرح، أو نخرج المرأة.  
فقاموا، وجئنا فضججنا على بابه، فخرج إلينا في عدة غلمان، فأوقع بنا، وقصدي من بين الجماعة، فضربني ضرباً عظيماً كدت أتلف منه، فحملني الجيران إلى منزلي كالتالف، فعالجني أهلي، ونمت نوماً قليلاً، وقمت نصف الليل، فما حملني النوم، للآلم، والفكر في القصة.

فقلت: هذا قد شرب طول ليلته، ولا يعرف الأوقات، فلو أذنت، لوقع له أن القجر قد طلع، وأطلق المرأة، فلحقت بيته قبل الفجر، فسلمت من أحد المكروهين.

فخرجت إلى المسجد متحاملماً، وصعدت المنارة، فأذنت، وجلست أطلع منها إلى الطريق، أترقب خروج المرأة، فإن خرجت، وإلا أقمت الصلاة، لئلا يشك في الصباح، فيخرجها.

فما مضت إلا ساعة، والمرأة عنده، حتى رأيت الشارع قد امتلأ خيلاً، ورجالاً، ومشاعل، وهم يقولون: من أذن الساعة؟ ففزعت، وسكت.

ثم قلت: أحاطبهم، لعلي أستعين بهم على إخراج المرأة، فصحت من المنارة: أنا أذنت.

فقالوا لي: إنزل، وأجب أمير المؤمنين.

فقلت: دنا القرح، فترلت، فإذا بدر، وعدة غلمان، فحملني، وأدخلني على المعتضد، فلما رأيته، هبتته، وارتعت، فسكن مني.

وقال: ما حملك على أن تغر المسلمين بأذائك في غير وقته، فيخرج ذو الحاجة في غير وقتها، ويمسك المرید للصوم، في وقت قد أباح الله له الأكل فيه، وينقطع العسس والحرس عن الطواف؟ فقلت: يؤمني أمير المؤمنين، لأصدقته.  
فقال: أنت آمن.

فقصصت عليه قصة التركي، وأرأته الآثار.

فقال: يا بدر، علي بالغلام الساعة والمرأة، وعزلت في موضع.  
فمضى بدر، وأحضر الغلام والمرأة، فسألها المعتضد عن الصورة، فأخبرته بمثل ما أخبرته.  
فقال لبدر: بادر بها الساعة إلى زوجها، مع ثقة يدخلها دارها، ويشرح لزوجها القصة، وبأمره عني بالتمسك بها،  
والإحسان إليها.  
ثم استدعاني، فوقفت بازائه، فجعل يخاطب الغلام، وأنا واقف أسمع.  
فقال له: كم جرايتك؟ قال: كذا وكذا.  
قال: وكم عادتك؟ قال: كذا وكذا.  
قال: وكم صلاتك؟ قال: كذا وكذا.  
قال: وكم جارية لك؟ قال: كذا وكذا، فذكر عدة جوارِي.  
قال: أفما كان فيهن، وفي هذه النعمة العريضة، كفاية عن ارتكاب معصية الله تعالى، وخرق هيبة السلطان، حتى  
استعملت ذلك، وجاوزته إلى الوثوب بمن أمرك بالمعروف؟ فأسقط الغلام في يده، ولم يجر جواباً.  
فقال: هاتوا جوالقاً، ومداق الجص، وأدخلوه الجوالق، ففعلوا ذلك به.  
وقال للفراشين، دقوه، فدقوه، وأنا أسمع صياحه، إلى أن مات، فأمر به، فطرح في دجلة، وتقدم إلى بدر، أن يحمل ما  
في داره.

ثم قال لي: يا شيخ، أي شيء رأيت من أجناس المنكر، كبيراً كان أو صغيراً، أو أي أمر عن لك، فمر به، وأنكر  
المنكر، ولو على هذا - وأوماً إلى بدر - فإن جرى عليك شيء، أو لم يقبل منك، فالعلامة بيننا أن تؤذن في مثل  
الوقت الذي أذنت فيه، فإني أسمع صوتك، وأستدعيك، وأفعل هذا بمن لا يقبل منك.  
فدعوت له، وانصرفت.

وانتشر الخبر في الأولياء والعلماء، فما خاطبت أحداً بعدها في إنصاف أحداً، أو كف عن قبيح إلا أطاعني كما  
رأيت، خوفاً من المعتضد.  
وما احتجت إلى الأذان في مثل ذلك الوقت.

### أحيحة بن الجلاح أكب على إصلاح ضيعته

وجدت في بعض الكتب: أن أحيحة بن الجلاح، أسرع في ماله فأتلفه مع إخوان له، حتى افتقر، فهجروه وقطعوه،  
واحتاج إليهم في الشيء اليسير فمنعوه، فلحقته شدة، وضر وجهه.

فمات بعض أهله، فورثه مالا، وضيعة خراباً، تعرف بالزوراء، فأخذ المال، وخرج إلى الضيعة يعمرها به، فطمع فيه  
القوم الذين أنفق ماله عليهم، فكتبوا إليه يعتذرون مما جرى، ويرغبونه في مواصلتهم، ومعاشرتهم، وكان أديباً،  
فكتب إليهم:

إني مكب على الزوراء أعمرها ... إن الكريم على الإخوان ذو المال  
كل النداء إذا ناديت يخذلني ... إلا ندائي إذا ناديت يا مالي  
فأيسوا منه، وكفوا عنه، وثابت حاله، وحسنت ضيعته.



وروى حماد، عن أبي صدقة، وكان يحضر مجلس الرشيد مع المغنين، فرمما غنى، وربما لم يغن، قال: فدعانا الرشيد يوماً، فدخلنا، والستارة دونه، وهو من خلفها جالس، فقال خادم من خلفها: غنّ يا ابن جامع، فاندفع يغني بهذا الصوت:

قف بالنازل ساعة فتأمل ... هل بالديار لزائر من منزل  
أولا فقيم توقّي وتلددي ... وسط الديار كأنني لم أعقل  
ما بالديار من البلى ولقد أرى ... أن سوف يحملني الهوى في محمل  
وأحقّ بمن يكي بكلّ محلّة ... عرضت له في منزل للمعول  
عانٍ بكلّ حمامة سجمت له ... وغمامة برقت بنوء الأعرل  
يكي ففضحه الدموع فعينه ... ما عاش مخضلة كفيض الجدول  
فقال الخادم: ليغن هذا الصوت منكم من كان يحسنه، فغنى كل من أحسنه منهم، فكأنه لم يطرب له.  
فأقبل الخادم علي، فقال: إن كنت تحسن أن تغنيه، فغنه.

فقلت: نعم، فعجبوا من إقدامي على صوت لم يستطع من جماعتهم، فغنيته.  
فقال الخادم: أحسنت، والله، فأعده، فأعدته، وأعاد الاستحسان، والأمر بإعادته على ذلك سبع مرات.  
ثم قال لي الخادم: قم يا أبا صدقة، فادخل، حتى تغني أمير المؤمنين بحيث يراك، فدخلت، والمغنون كلهم محبوبون، فغنيته إياه، ثلاث مرات، فطرب في جميعهن.  
وقال: أحسنت يا أبا صدقة.

فلما سمعت ما خصني به من استحسانه، قلت: يا أمير المؤمنين، إن لهذا الصوت حديثاً عجيباً، أفلا أحدثك به يا أمير المؤمنين، لعله يزداد حسناً.  
فقال: بلى، هات.

فقلت: كنت يا سيدي، عبداً لبعض آل الزبير، وكنت خياطاً مجيداً، أخط القميص بدرهمين، والسرراويل بدرهم، وأؤدي ضريبي إلى سيدي في كل يوم درهمين، وأخذ ما فضل عن ذلك، فبينما أنا ذات يوم منصرفاً، وقد خطت قميصاً لبعض الطالبين، وقد أخذت منه درهمين، وانصرفت إلى موضع يجتمع فيه المغنون، كنت أقصده إذا فرغت من شغلي، لشغفي بالغناء، فلما صرت بحذاء بركة المهدي، إذا أنا بسوداء على رقبته جرة، تريد أن تملأها من ماء العقيق، وهي تغني بهذا الصوت، أحسن غناء يكون، فأصابني من الطرب بغنائها ما أذهلني عن كل شيء.

فقلت لها: فداك أبي وأمين ألقى علي هذا الصوت.  
فقالت: استحسنته؟ فقلت: إي والله.

فقالت: وحق القبر ومن فيه، لا أعدته إلا بدرهمين.

فدفعت الدرهمين إليها، فأحدرت جرتها عن رقبته فارغة، فوضعتها على الأرض، وجلست عليها، وكأني أنظر إلى فقحتها وقد برزت عن الجرة نحو ذراع، وأقبلت تلقيه علي، وتوقع على الجرة، حتى أخذته، ثم أخذت الجرة على رقبته، وانصرفت.

فحين انصرفت، أنسيت الصوت ولحنه، حتى كأني لم أسمع قط، فبقيت متحيراً لا أدري ما أصنع، وانصرفت إلى سيدي بأسوء حال، وأكسف بال.  
فلما رأيته، قال: هات ضريبتك.

فلجلجت في كلامي، وقلت: يا سيدي، اسمع حديثي.

فقال: يا ابن اللخناء، أبي تتعرض؟ فبطحني، وضربني مائة مفرعة، وحلق رأسي ولحيتي، ومنعني قوتي، وكان أربعة أرغفة، فلم يكن شيء من ذلك، أشد علي، من ذهاب الصوت مني، وبت ليلتي أسوء خلق الله حالاً، وأنا لا أعرف الجارية، ولا موضعها، ولا لمن هي.

فلما أصبحنا، خرجت ولما أطلبها في الموضع الذي لقيتها فيه، وأسأل الله أن يجوج أهلها إلى الماء، حتى تخرج لتأتيهم به، فأراها، فلم أزل أطلبها، لا أعمل شيئاً إلى العصر.

فبينما أنا كذلك، وإذا بها قد أقبلت، فلما رأيتني، وما بي من الوله، قالت لي: مالك، أنسييت الصوت؟ فقلت: إي والله، وضربت مائة مفرعة، ومنعت قوتي ليلتي، وحلقت رأسي ولحيتي.

فقلت: دع هذا عن، فرب الكعبة، لاسمعته مني، فضلاً عن أخذه، إلا بدرهمين.

فقلت: الله، الله، في، فيمرون علي الليلة مثل ما مر علي البارحة، فارحميني.

فقلت: قد سمعت اليمين، وذهبت لتمضي.

فقلت: اصبري، وجئت إلى يقال كان يعاملني، فرهنت عنده الجلمين، علي درهمين، وجئت بهما إليها، فأخذتهما، وجعلتهما في فيها.

فلما بدأت بالصوت، ذكرته، فقلت: الله، الله، ردي علي الدرهمين، فلا حاجة بي إلى غناتك.

فقلت: أنت أحمق، ولست تعرف هذا الأمر، لئن لم أردده عليك مائة مرة ما حصل لك منه شيء، وجلست علي الجرة، فغننته مائة مرة، أعددها عليها حتى فهمته، وصرت به أمهر منها، وانصرفت.

فساعة فارقتها، لحقتني الندامة، وقلت: سيلحقتني الليلة أكثر مما لحقتني البارحة، لفقد الجلمين.

فرجعت إلى مولاي، فحين رأني، قال: هات ضربيتك.

فقلت له: اسمع مني.

قال: أي شيء أسمع، يا ابن الفاجرة، أما كفاك ما مر بك أمس، ووثب إلى السوط.

فقلت له: اسمع، واصنع ما شئت.

فقال: هات، فغنيتته الصوت.

فقال: أحسنت، والله، يعز علي ما أصابك، أما الضرب فقد مضى، ولا حيلة فيه، وأما قوتك فمردود، وأما

ضربيتك، فساقطة عنك ما عشنا ولو مت أنا وعيالي جوعاً، فأنت اليوم واحداً منا أبداً ما بقينا، فهذا خبر الصوت.

وكان المغنون الذين حضروا، إبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وابن جامع، ومسلم بن سلام.

فأمر لكل واحد منهم بألف دينار، وأمر لي بعشرة آلاف دينار، مثل ما أمر لجماعتهم، ثم استدعى ألف دينار، فقال:

خذ هذه بدل المائة مفرعة التي ضربت.

فانصرفت، والمغنون يعجبون مما جرى.

**الوليد بن يزيد يستقبل البريد بموت هشام**

وحدث المنذر بن عمرو، وكان كاتباً للوليد بن يزيد بن عبد الملك، قال: أرسل إلي الوليد صبيحة اليوم الذي أتته

فيه الخلافة، فقال لي: يا أبا الزبير، ما أتت علي ليلة أطول من البارحة، وعرضت لي أمور حدثت نفسي فيها بأمر،

وهذا الرجل قد جد بنا، فاركب بنا.

فركبنا جميعاً، وسرنا نحو ميلين، فوقف على تل، فجعل يشكو إلي هشاماً، إذ نظر إلى رهج قد أقبل، وقعقة البريد. فتعود بالله من شر هشام، وقال: إن هذا البريد، قد أقبل، بموت حي، أو هلك عاجل. فقلت: لا يسؤك الله أيها الأمير، بل يسرك وينفعك، إذ بدا رجلان على البريد مقبلان، أحدهما مولى لآل أبي سفيان بن حرب، فلما رأيا الوليد نزلا، وسلموا عليه بالخلافة، فوجم، فجعلوا يكرران عليه السلام بالخلافة. فقال لهما: ويحكما ما الخبر، أمات هشام؟.

قالا: نعم.

قال: فمرحباً بكما، ما معكما؟.

قالا: كتاب مولاك سالم بن عبد الرحمن، فقرأ الكتاب، وانصرفنا.

وسأل عن عياض بن سالم، كاتبه الذي كان هشام قد حبسه، وضربه، فقالا، لم يزل محبوساً حتى نزلت بهشام مصيبة الموت، فلما بلغ إلى حال لا يرجى معها الحياة له، أرسل عياض إلى الخزان: احتفظوا بما في أيديكم، ولا يصل أحد إلى شيء منه، فأفاق هشام إفاقة، فطلب شيئاً، فمنعه الخزان، فقال: أرانا كنا خزناً للوليد، وقضى من ساعته. فخرج عياض لوقته من السجن عندما قضى هشام، فغلق الأبواب، وختمها، وأمر بهشام، فأنزل عن فراشه، ومنعهم أن يكفوه من الخزان، فكفنه غالب مولاة، ولم يجدوا قمقماً يسخن فيه الماء، حتى استعاروه. وذكر باقي الحديث مما لا يتعلق بهذا الباب.

/ابن جامع المغني يأخذ صوتاً بثلاثة دراهم فيفيد منه ثلاثة آلاف دينار حدث محمد بن صلصال، عن إسماعيل بن جامع، أنه قال: ضامني الدهر ضيماً شديداً بمكة، فأقبلت منها بعيالي إلى المدينة، فأصبحت يوماً، وما معي إلا ثلاثة دراهم، لا أملك غيرها، وإذا بجارية على رقبتها جرة، تريد الركي، وهي تتغنى بهذا الصوت:  
شكونا إلى أحبنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا  
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ... سريعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا  
إذا ما دنا الليل المضرّ بذي الهوى ... قلقنا وهم يستبشرون إذا دنا  
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلنا ... نالقي لكانوا في المضاجع مثلنا  
قال: فأخذ الغناء بقلبي، ولم يدر لي منه حرف.

فقلت: يا جارية ما أدري أوجهك أحسن، أم غناؤك، فلو شئت، لأعدت.

فقلت: جاً وكرامة، ثم أسندت ظهرها إلى جدار قريب منها، ورفعت إحدى رجليها، فوضعتها على الأخرى، ووضعت الجرة على ساقها، ثم انبعثت، فغنته، فوالله ما دار لي منه حرف. فقلت: قد أحسنت، فلو تفضلت، وأعدته مرة أخرى. ففطنت، وكلحت.

وقالت: ما أعجب أمركم، لا يزال أحدكم يجيء إلى الجارية عليها الضريبة، فيحبسها.

فضربت يدي إلى الثلاثة دراهم، فدفعتها إليها، وقلت: أقيمي بهذه وجهك اليوم، إلى أن نلتقي.

فأخذتها كالكارهة، وقالت: أنت الآن تريد أن تأخذ مني صوتاً، أحسبك ستأخذ به ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار، وانبعثت تغني.

فأعملت فكري في غنائها، حتى دار لي الصوت، وفهمته، فانصرفت مسروراً إلى منزلي، وأنا أردده، حتى خف على

لساني.

ثم إني خرجت إلى بغداد، فدخلتها، فطرحني المكارى بباب محول، لا أدري أين أتوجه، فلم أزل أمشي مع الناس، حتى أتيت الجسر، فعبرته، ثم انتهيت إلى شارع الميدان، فرأيت مسجداً بالقرب من دار الفضل بن الربيع مرتفعاً، فقلت: هذا مسجد قوم سراة، فدخلته، وحضرت صلاة المغرب، فصليت، وأقمت بمكاني إلى أن صليت العشاء، وبي من الجوع والنعب أمر عظيم.

فانصرف أهل المسجد، وبقي رجل يصلي، وخلفه جماعة خدام وفحول، ينتظرون فراغه، فصلى ملياً، ثم انصرف إلي بوجهه، وقال: أحسبك غريباً.

قلت: أجل.

قال: فمتى كنت في هذه المدينة؟ قلت: دخلتها آتياً، وليس لي بها منزل ولا معرفة، وليست صناعتني من الصنائع التي يمت بها إلى أهل الخير.

فقال: وما صناعتك؟ قلت: أغني.

فقام، وركب مبادراً، ووكل بي بعض من كان معه، فسألت الموكل بي عنه، فقال لي: هذا سلام الأبرش، ثم عاد، فأخذ ييدي، فأنهني بي إلى قصر من قصور الخليفة، فأدخلني مقصورة في آخر الدهليز، ودعا بطعام من طعام الملوك على مائدة، فأكلت، فإني لكذلك، إذ سمعت ركضاً في الدهليز، وقائلاً يقول: أين الرجل؟ فقيل: هوذا. فدعي لي بغسول، وطيب، وخلعة، فلبست، وتطييت، وحملت إلى دار الخليفة على دابة، فعرفتها بالحرس، والتكبير، والنيران، فجاوزت مقاصير عدة، حتى صرت إلى دار قوراء، وسطها أسرة، قد أضيف بعضها إلى بعض، فأمرت بالصعود، فإذا رجل جالس، وعن يمينه ثلاث جوارى، وإذا حياله مجالس خالية، قد كان فيها قوم قاموا عنها.

فلم ألبث أن خرج خدام من وراء الستر، فقال للرجل: تغن، فغنى صوتاً لي وهو:

لم تمش ميلاً، ولم تركب على جمل ... ولم تر الشمس إلاً دوهاً الكلل

تمشي الهوينا كأن الشمس بهجتها ... مشي اليعافير في جياتها الوهل

فغنى بغير إصاصة، وأوتار مختلفة الدساتين، وعاد الخادم إلى الجارية التي تليه، فقال لها: غني، فغنت أيضاً، صوتاً لي، كانت فيه أحسن حالاً، وهو:

يا دار أمست خلاً لا أنيس بما ... إلاً الأطباء وإلاً الناشط الفرد

أين الذين إذا ما زرقهم جدلوا ... وطار عن قلبي التشواق والكمد

قال: ثم عاد إلى الثانية، فغنت صوتاً لحكم الوادي، وهو:

فو الله ما أدري أيعليني الهوى ... إذا جدَّ جدَّ البين أم أنا غالبه

فإن أستطع أغلب، وإن يغلب الهوى ... فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه

ثم عاد إلى الثالثة، فقال لها غني، فغنت بصوت حنين، وهو:

مررنا على قيسيّة عامريّة ... لها بشرٌ صافي الأديم هجان

فقال: وألقت جانب الستر دوهاً ... لأية أرض أو لأيّ مكان

فقلت لها إماماً تميم فأسرتني ... هديت، وإماماً صاحبي فيماني

رفيقان ضمّ السفر بيني وبينه ... وقد يلتقي الشتيّ فيأتلفان

ثم عاد إلى الرجل، فغنى صوتاً لي، فشبهه فيه، من شعر عمر بن أبي ربيعة:  
أمسى بأسماء هذا القلب معمودا ... إذا أقول صحا يعتاده عيدا  
كأنّ أحور من غزلان ذي رشاً ... أعارها سنة العينين والجيدا  
ومشرقاً كشعاع الشمس بهجته ... ومسطراً على لباته سودا  
ثم عاد إلى الجارية الأولى، فغنت صوتاً لحكم الوادي، وهو:  
تعيّرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إنّ الكرام قليل  
وما ضرّنا أنا قليل وجارنا ... عزيزٌ وجار الأكرمين ذليل

وإنّ أناس لا نرى القتل سبّة ... إذا ما رأته عامر وسلول  
يقربّ حبّ الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول  
ثم عاد إلى الثانية، فغنت صوتاً، تقول فيه:  
وددتك لّما كان ودكّ خالصاً ... وأعرضت لما صار فنبأ مقسماً  
ولا يلبث الحوض الحديد بناؤه ... إذا كثر الوراد أن يتهدّما  
ثم عاد إلى الجارية الثالثة، فغنت بشعر الخنساء وهو:  
وما كرّ إلاّ كان أولّ طاعن ... وما أبصرته العين إلاّ اقشعرت  
فيدرك ثاراً وهو لم يخطه الغنى ... فمثل أخي يوماً به العين قرّت  
فلست أرزى بعده برزية ... فأذكره إلاّ سلت وتجلّت  
وغنى الرجل في الدور الثالث، بهذه الأبيات:

لحى الله صلوكاً مناه وهمّه ... من اللّهر أن يلقي لبوساً ومطمعا  
ينام الضحى حتّى إذا ليله بدا ... تبيّه مسلوب الفؤاد متيماً  
ولكنّ صلوكاً يساور همّه ... ويمضي إلى الهيجاء ليثاً مصمماً  
فذلك إن يلقى المنية يلقها ... حميداً وإن يستغن يوماً فربّما  
قال: وتغنت الجارية:

إذا كنت ربّاً للقلوص فلا يكن ... رفيقك يمشي خلفها غير راكب  
أنّحها فأردفه فإن حملتكما ... فذاك وإن كان العقاب فعاقب  
قال: وغنت الجارية، بشعر عمرو بن معدي كرب، وهو:  
ألم ترني إذ ضمّني البلد القفر ... سمعت نداء يصدع القلب يا عمرو  
أعشنا فإنا عصابة مذحجية ... نراد على وفر وليس لنا وفر  
وأظنه أغفل الثانية، فغنت الثالثة، بهذه الأبيات:

فلما وقفنا للحديث وأسفرت ... وجوه زهاها الحسن أن تقتنعا  
تباهن بالعرفان لما عرفني ... وقلن امرؤ باغ أضلّ وأوضعا  
فلما تواضعن الأحاديث قلن لي ... أخفت علينا أن نغرّ ونخذعا

قال: فتوقعت مجيء الخادم، فقلت للرجل: بأي أنت، خذ العود، وشد وتر كذا، وارفع الطبقة، وحط دساتن كذا،  
ففعل ما أمرته.

وخرج الخادم، فقال لي: تغن عافاك الله.

فغنيت بصوت الرجل الأول، على غير ما غنى، فإذا جماعة من الخدم يحضرون حتى استمدوا إلى الأسرة، فقالوا: ويحك لمن هذا الغناء؟ فقلت: لي.

فانصرفوا وعاد إلي خادم، فقال: كذبت، هذا لابن جامع، فسكت.

ودار الدور الثاني، فلما انتهى إلي، قلت للجارية التي تلي الرجل، خذي العود، فعلمت ما أريد، فأصلحته على غنائها، فغنيت به، فخرج الخدم، وقالوا: ويحك، لمن هذا الغناء؟ فقلت: لي.

فرجعوا، ثم عاد ذلك الخادم من بينهم، فقال: كذبت، هذا لابن جامع.

ودار الدور، فلما انتهى إلي الغناء، قلت للجارية الأخرى، سوي العود على كذا، فعلمت ما أريد، وخرج الخادم فقال لي تغن، فغنيت هذا الصوت، وهو لا يعرف إلا بي، وهو:

عوجي عليّ فسلمني جبر... فيم الوقوف وأنتم سفر  
ما نلتقي إلا ثلاث منى... حتى يفرق بيننا التفر

فتزلزلت عليهم الدار، وخرج الخادم، فقال: ويحك، لمن هذا الغناء؟ فقلت: لي.

فمضى، ثم عاد، فقال: كذبت، هذا لابن جامع.

قلت: فأنا ابن جامع.

فما شعرت إلا وأمير المؤمنين، وجعفر بن يحيى، قد أقبلوا من وراء الستر الذي كان يخرج منه الخادم.

فقال لي الفضل بن الربيع: هذا أمير المؤمنين، قد أقبل إليك، فلما صعد السرير، وثبت قائماً.

فقال: ابن جامع؟ فقلت: ابن جامع، جعلت فداك، يا أمير المؤمنين.

فقال: متى كنت في هذه المدينة؟ فقلت: دخلتها في الوقت الذي علم بي فيه أمير المؤمنين.

فقال: اجلس، ومضى هو وجعفر، فجلسا في تلك المجالس.

فقال: ابشر، وابسط أملك، فدعوت له.

فقال: غن يا ابن جامع، فخطر ببالي صوت الجارية السوداء، فأمرت الرجل بإصلاح العود على ما أردت من الطبقة، فعرف ما أريد، فوزنه وزناً.

فلما أخذت الأوتار والدساتين مواضعها، وتعاهدتها، ابتدأت أغني بصوت الجارية، فنظر الرشيد إلى جعفر، فقال: هل سمعت كذا قط؟ قال: لا والله، ولا خرق مسامعي مثله قط.

فرفع الرشيد رأسه إلى خادم كان بالقرب منه، فأتى بكيس فيه ألف دينار، فرمى به إلي، فصيرته تحت فخذي، ودعوت له.

فقال: يا ابن جامع، رد علي هذا الصوت، فرددته عليه، وتريدت في غنائي.

فقال له جعفر: أما ترى كيف تزيد في الغناء، وهذا خلاف الأول، وإن كان اللحن واحداً.

فرفع الرشيد رأسه إلى الخادم، فأتى بكيس فيه ألف دينار، فرمى به إلي، فجعلته تحت فخذي الآخر.

ثم قال: تغن يا إسماعيل بما حضرك.

فجعلت أقصد الصوت بعد الصوت، بما كان يبلغني أنه يشتري عليه الجواري، فأغنيه، فلم أزل كذلك، إلى أن عسعس الليل.

فقال: أتعبتك يا إسماعيل هذه الليلة، فأعد علي الصوت، يعني صوت الجارية، فغنيت به، فرفع رأسه إلى الخادم،

فوافي بكيس ثالث فيه ألف دينار.

فذكرت قول الجارية، فتبسمت، فلحظني، وقال: يا ابن الفاعلة، فيم تبسمت؟ فجثيت على ركبتي، وقلت: يا أمير المؤمنين، الصدق منجاة.

قال: قل.

فقصصت عليه خبر الجارية، فلما استوفيته، قال: صدقت، قد يكون مثل هذا، وقام. ونزلت من وراء الستر، لا أدري أين أمضي، فابتدرني فراشان، فصارا بي إلى دار قد أمر لي أمير المؤمنين بها، فيها من الفرش، والآلة، والخدم، جميع ما أريد، فدخلت فقيراً، وأصبحت من المياسير.

ذكر الأصبهاني: أن صوت إسماعيل الذي غناه، لا يعرف إلا به، وهو:

فلو كان لي قلبان عشت بواحدٍ ... وخلّفت قلباً في هواك يعذب

ولكنني أحيأ بقلب معذبٍ ... فلا العيش يصفو لي ولا الموت يقرب

تعلمت أسباب الرضا خوف سخطها ... وعلمها حبي لها كيف تغضب

ولي ألف وجه قد عرفت مكانه ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

ابن هرمة يتحدث عن أفضال عبد الواحد بن سليمان عليه

قال: قال رجل لابن هرمة: بما استحق منك عبد الواحد بن سليمان أن تقول فيه؟:

أعبد الواحد المأمول إتي ... أغصّ حذار سخطك بالقراح

وجدنا غالباً كانت جناحاً ... وكان أبوك قادمة الجناح

فقال: إن ذهبت أعداد صنائعه التي استحق بها مني هذا القول، طالت، ولكن أخبرك بأصغر صنيعه له عندي.

كنت منقطعاً إليه بالمدينة أيام كان يولاهها، فأغنائي عن سواه، ثم عزل، فظننت أن الوالي سيحسن إلي، فلم يبرني بشيء، فأنفقت ما كان معي، حتى لم يبق لي شيء.

فقلت لأختي: ويحك، أما ترين ما أنا فيه من الشدة، وتعذر القوت؟ قالت: بسوء اختيارك.

قلت: فبمن تشيرين؟ فقالت: ما أعرف لك غير عبد الواحد بن سليمان.

فقلت: ومن لي به، وهو بدمشق، وأنا بالمدينة؟ فقالت: أنا أعينك على قصدك إليه.

فقلت: افعلي.

فباعت حلياً كان لها، واشترت لي راحلة، وزودتني، فوافيت دمشق بعد اثنتي عشرة ليلة، فأنخت عشاءً على باب

عبد الواحد، وعقلت راحلتي، ودخلت المسجد، فحططت فيه رحلي.

فلما صلى عبد الواحد، وجلس يسبح، حول وجهه إلى جلسائه، فنظر إلى رحلي، فقال: لمن هذا؟ فوثبت، وقبلت

يده، وقلت: أنا يا سيدي، عبدك ابن هرمة.

فقال: ما خبرك يا أبا إسحاق؟ فقلت: شر خبر، بعدك - أيها الأمير - تلاعبت بي الخن، وجفاني الصديق، ونبا بي

الوطن، فلم أجد معولاً إلا عليك.

فوالله، ما أجابني إلا بدموعه، ثم قال: ويحك، أبلغ بك الجهد إلى ما ذكرت؟ فقلت: إي والله، وما أخفيه عنك

أكثر.

فقال: اسكن، ولا ترع.

ثم إنه نظر إلى فتية بين يديه، كأنهم الصقور، فوثبوا، فاستدعى أحدهم، وهمس إليه بشيء، فمضى مسرعاً، ثم أوماً إلى الثاني، فهمس إليه بشيء، وكذلك الثالث، فمضى.  
ثم أقبل الأول، ومعه خادم على رأسه كيس، فصبه في حجري، فقال له أبوه: كم هذا؟ فقال: ألف دينار وسبعمائة دينار، والله ما في خزانك غيرها.  
ثم أقبل الثاني، وبين يديه عبد على كتفه كارة، فصبها بين يديه، فإذا فيها حلي مخلع من بناته ونسائه.  
فقال: والله، ما تركت لمن شيئاً، إلا أخذته.  
وأقبل الثالث، ومعه غلامان، معهما كارتان عظيمتان من فاخر ثيابه، فوضع ذلك بين يدي.

ثم قال: يا ابن هرمه، أنا أعتذر إليك من قلة ما جبتك به، مع بعد العهد، وطول الشقة، وسعة الأمل، ولكنك جئتنا في آخر السنة، وقد تقسمت أموالنا الحقوق، ونهبتنا أيدي المؤمنين، فلم يبق عندنا غير هذه الصباية، آثرناك بها على أنفسنا، وسللناها لك من أفواهنا، ولم قدمت قبل هذا الإعسار، لأعطيناك ما يكفيك، ولو علمنا بك، لأتاك عفواً، ولم تتجشم المشقة، ولم نوحجك إلى سوانا، وذلك منا لك أبداً، ما بقيت، فأقسم عليك، لما أصبحت إلا على ظهر راحلتك، وتداركت أهلك، فخلصتهم من هذه الخنة، فقممت إلى ناقتي، فإذا هي قد ضعفت.  
فقال: ما أرى في ناقتك خيراً، يا غلام، أعطه ناقتي الفلانية، فجئ بها برحلتها، فكانت - والله - أحب إلي من جميع ما أعطاني، ثقة ببلوغها، ثم دعا بناقتين أخريين، وأوقرهما من المال، والثياب، وزاداً يكفيني لطريقي، ووهب لي عبيدين.

وقال: هذان يخدمانك في السقي والرعي، فإن شئت بعتهما، وإن شئت أبقيتهما، أفتلومني أي أغص حذار سخطه بريقي؟ قال: لا والله.

#### القائد هرثمة بن أعين يتحدث عما أمره به الهادي في ليلة موته

حدثني علي بن هشام، عن محمد بن الفضل: أن هرثمة بن أعين، قال: كنت اختصمت بموسى الهادي، وكنت - مع ذلك - شديد الحذر منه، لإقدامه على سفك الدماء.

فاستدعاني نصف نهار، في يوم شديد الحر، قبل أكلتي، فنداخلني منه رعب، وبادرت فدخلت عليه، وهو في حجرة من دور حرمه، فصرف جميع من كان بحضرتة، وقال لي: اخرج وأغلق الباب، وعد إلي، فإزداد جزعي، ففعلت، وعدت إليه.

فقال لي: قد تأذيت بهذا الكلب الملحد، يحيى بن خالد، ليس له فكر غير تضريب الجيش، واجتذأهم إلى صاحبه هارون، يريد أن يقتلني، ويسوق إليه الخلافة، وأريد أن تمضي الليلة إلى هارون، وتقبض عليه، وتذبحه، وتجيئني برأسه، إما في داره، وإما أن تخرجه برسالتي تستدعيه إلى حضرتي، ثم تعدل به إلى دارك، فتقتله، وتجيئني برأسه.

فورد علي أعظم وارد، فقلت: تأذن يا أمير المؤمنين في الكلام؟ فقال: قل.  
فقلت: أخوك، وابن أبيك، وله بعدك العهد، فكيف تكون صورتنا، أولاً عند الله، ثم عند الجيش؟ فقال: إنك إن فعلت هذا، وإلا ضربت عنقك الساعة.

فقلت: السمع والطاعة.

فقال: وأريد إذا فرغت منه هذه الليلة، أن تخرج من في الحبس من الطالبين، فنضرب رقاب أكثرهم، وتغرق



الباقيين.

فقلت: السمع والطاعة.

قال: ثم ترحل إلى الكوفة، فتجمع من تقدر عليه من الجيش، فتخرج من بها من العباسيين، وشيعتهم، وعمالنا، والمتصرفين، ثم تضرمها بالنار، حتى لا يبقى فيها جدار.

فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا أمر عظيم.

فقال: هؤلاء أعداؤنا، وشيعة آل أبي طالب، وكل آفة ترد علينا، فهي من جهتهم، ولا بد من هذا.

فقلت: السمع والطاعة.

فقال: لا تبرح من مكانك إلى نصف الليل، لتمضي إلى هارون.

فقلت: السمع والطاعة.

ونفض عن موضعه، ودخل إلى دور النساء، وجلست مكاني، لا أشك أنه قد قبض علي ليقتلني، ويدبر هذه الأمور علي يد غيبي، لما أظهرت له من الجرع عند كل باب منها، والتخطفة لرأيه، والامتناع عليه، ثم الإجابة، وقد علم الله تعالى، أي ما أجبته إلا على أن أخرج من حضرته، فأركب فرسي من بابه، وألحق بطرف من الأرض، وأفارق جميع نعمتي، فأكون بحيث لا يصل إلي، حتى أموت، أو يموت.

فلما اعتقلني، ودخل دار الحرم، لم أشك في أنه قد فطن لغرضي، وأنه سيقتلني، لئلا يفشو السر، فوردت علي شدة شديدة، وغلبت علي، فطرح نفسي في الحر مغموماً، جائعاً، على عتبة المجلس، ونمت.

فما انتهت إلا بخادم قد أيقظني، وقال: أجب أمير المؤمنين، فنظرت الوقت، فإذا هو نصف الليل.

فقلت: إنا لله، عزم والله علي قتلي، فمشيت معه، وأنا أتشاهد، إلى ممرات سمعت منها كلام النساء.

فقلت: عزم علي قتلي بحجة، يقول: من أذن لك في الدخول إلى حرمي، ويعجل علي بذلك، فوقفت.

فقال لي الخادم: ادخل.

فقلت: لا أدخل.

فقال لي: ادخل، وبحك.

فقلت: هوذا أسمع صوت الحرم، ولا يجوز لي أن أدخل.

فجذبني، فصحت: والله، لا دخلت، ولو ضربت عنقي، أو أسمع كلام أمير المؤمنين، بالإذن لي.

وإذا امرأة تصيح: ويلك يا هرثمة، أنا الخيزران، وقد حدث أمر عظيم، استدعيتك له، فادخل.

فتحيرت، ودخلت، وإذا ستارة مملودة، فقبل لي من ورائها: إن موسى قد مات، وأراحك الله منه، وجميع المسلمين، فانظر إليه، فأتيته، فإذا هو مسجى على فراشه، فمسست قلبه، ومجسه، ومناخره، فإذا هو ميت بلا شك.

فقلت: ما كان خبره؟ فقالت لي الخيزران: كنت بحيث أسمع خطابه لك في أمر ابني هارون، وأمر الطالبيين، وأهل

الكوفة، فلما دخل علي، استعطفته، وسألته أن لا يفعل شيئاً من ذلك، فصاح علي، فلم أزل أرفق به، إلى أن

كشفت له ثديي، وشعري، وبكيت، وتمرغت بين يديه، وناشدته الله أن لا يفعل، فانتهرني، وقال: والله، لئن لم

تمسكي، لأضربني عنقك الساعة، فخفته، وقمت، فصففت قلبي في الخراب، أصلي، وأبكي، وأدعو عليه.

فلما كان منذ ساعة، طرح نفسه على فرشه لينام، فشرق، فتداركناه بكوز ماء، فازداد شرقه، إلى أن تلف، فامض

إلى يحيى بن خالد، وعرفه ما جرى، وامضيا إلى هارون، وجينا به قبل انتشار الخبر، وجددا له البيعة على الناس.

فخرجت وجئت بالرشيد، فما أصبحنا إلا وقد فرغنا من بيعته، واستقام أمره، وتوطأت الخلافة له، وكفاني الله

تعالى، والناس، ما كان أظننا من مكروه موسى، وكان ذلك سبب اختصاصي العظيم بالرشيد، وتضاعف نعمتي ومحلي عنده.

### دهاء عبدون أخي صاعد بن مخلد

حدثني علي بن هشام قال: كان في يد صاعد بن مخلد ضمانات كثيرة، وكانت معاملته مع أبي نوح عيسى بن إبراهيم، وكان صاعد من وجوه الناس.

فحضر صاعد بين يدي أبي نوح، يحاسبه في أموال وجبت عليه، فجرت بينهما مناظرات، فشم فيها أبو نوح صاعداً، فرد عليه صاعد، مثل ما قاله له.

فاستعظم الحاضرون ذلك، واستخفوا بصاعد، وقالوا له: يا مجنون، ما هذا الفعل؟ قتلت نفسك، ثم أقاموه، وخلصوه من أبي نوح، وقالوا: هذا مجنون، لم يدر ما خرج من رأسه.

فانصرف إلى منزله، متحيراً، لا يدري ما يصنع فيما نزل به، فحدث أخاه عبدون بما جرى.

فقال له: إن لم تطعني، قبض عليك في غد، وطالبك من المصادرة بما لا يفي به حالك، ولا حال جميع أهلك، وقتلك - بلا شك - تشفياً.

قال له صاعد: فما الرأي؟ قال: كم عندك من المال، واصدقني؟.

قال: خمسون ألف دينار.

قال: أنطيب نفسك أن تعرى عنها، وتحرس دمك، وما يبقى من حالك وضياعك؟ أم لا تسمح بذلك، فتؤخذ منك تحت المقارع، وتذهب النفس والنعمة كلها؟.

فقال له: قد تعريت عنها، كي تبقى نفسي.

قال: فادفع إلي منها ثلاثين ألف درهم، ففعل.

فحملها عبدون، وأتى حاجب موسى بن بغا، فقال له: خذ هذه العشرة آلاف درهم، وأوصلني إلى فلان الخادم، وكان هذا خادمه الذي يتعشقه موسى، ويطيعه في كل أموره، وموسى إذ ذاك هو الخليفة، وكتبته كالوزارة، والأمور في يده، والخليفة في حجره.

قال: فأخذ الحاجب ذلك، وأوصله إلى الخادم، فأحضره العشرين ألف درهم، وقال: خذ هذه، وأوصلني إلى الأمير الساعة، وأعني عليه في حاجة أريد أن أسأله إياها، ومشورة أشير بها عليه، فأوصله الخادم إليه.

فلما مثل بين يديه، سعى إليه بكتابه، وقال له: قد هبوك، وأخذوا مالك، وأخربوا ضياعك، وأخي يجعل كتابتك أجل من الوزارة، ويغلب لك على الأمور، ويوفر عليك كذا، ويحمل إليك الليلة، من قبل أن ينتصف الليل، خمسين ألف دينار عيناً، هدية لك، لا يريد عنها مكافأة، ولا يرتجعها من مالك، وتستكتبه، وتخلع عليه.

فقال موسى: أفكر في هذا؟.

فقال: ليس في هذا فكر، وألح عليه.

فقال الخادم: في الدنيا أحد جاءه مثل هذا المال، فرده؟ وكاتب بكتاب، فأجابه موسى، وأنعم له.

فقال له عبدون: فتستدعي أخي الساعة، وتشافهه بذلك، فأنفذ إليه، فأحضره، وقرر عليه ذلك، وبات عبدون في الدار لتصحيح المال، فوفاه.

وبكر صاعد، فخلع عليه لكتابته، وأركب الجيش كله في خدمته، وانقلبت سامراء، بظهور الخبر.

فبكر بعض المتصرفين إلى الحسن بن مخلد، وكان صديقاً لأبي نوح، فقال له: قد خلعت على صاعد.  
فقال: لأي شيء؟ فقال: تقلد كتابة موسى بن بغا، فاستعظم ذلك.  
وركب في الحال، إلى أبي نوح، وقال له: عرفت خبر صاعد؟  
فقال: نعم، الكلب، قد بلغك ما عاملني به، والله لأفعلن به، ولأصنعن.  
فقال له: أنت نائم؟ ليس هذا أردت، قد ولي الرجل كتابة الأمير موسى بن بغا، وخلص عليه، وركب معه الجيش  
بأسرهم إلى داره.

فقال أبو نوح: ليس هذا ما ظننته، بات خائفاً منا، فأصبحنا خائفين منه، فما الرأي عندك؟ قال: أن أصلح بينكما  
الساعة.

فركب الحسن بن مخلد إلى صاعد، فهنأه، وأشار عليه أن يصلح أبا نوح، وقال له: أنت بلا زوجة، وأنا أجعلك  
صهره، وتعتضد به، وإن كنت قد نصرت عليه، فهو من تعلم موضعه، ومحله، ومحل مصاهرته ومودته، ولم يدعه،  
حتى أجاب إلى الصلح والمصاهرة.

فقال له: فتركب معي إليه، فإنه أبو البنت، والزوج يقصد المرأة، ولولا ذاك لجاءك.  
فحمله من يومه إلى أبي نوح، واصطلحا، ووقع العقد في الحال بينهما في ذلك المجلس، وزوج أبو نوح ابنته الأخرى  
بالعباس بن الحسن بن مخلد، فولدت له أبا عيسى المعروف بابن بنت أبي نوح، صاحب بيت مال الإقطاع، ثم تقلد  
زمام ديوان الجيش لعمه سليمان بن الحسن، فكانت كتابة صاعد لموسى، ومصاهرته لأبي نوح، أول مرتبة عظيمة  
بلغها، وتقلبت به الأحوال، حتى بلغ الوزارة.

زور مناماً فجاء مطابقاً للحقيقة

قال رجل من شيوخ الكتاب، يقال له عباد بن الحرير: صحبت علي بن المرزبان، وهو يتقلد شيراز، من قبل عمرو  
بن الليث الصفار، فصادر المتصرفين على أموال ألزمهم إياها، فكنت ممن أخذ خطه عن العمل الذي توليته، بثمانين  
ألف درهم، فأديت منها أربعين ألفاً، ودرجت حالي، حتى لم يبق لي شيء في الدنيا غير داري التي أسكنها، ولا قدر  
لثمنها فيما بقي علي، فلم أدر ما أصنع.

وفكرت، فوجدت علي بن المرزبان، رجلاً حراً سليم الصدر، فرويت له رؤيا، أجمعت على أن ألقاه بها، وأجعلها  
سبباً لشكوى حالي إليه، والتوصل إلى الخلاص، وكنت قد حفظت الرؤيا.

فاحتلت خمسين درهماً، وبكرت إليه قبل طلوع الفجر، فدققت بابه.

فقال حاجبه، من خلف الباب: من أنت؟

فقلت: عباد بن الحرير.

فقال: في هذا الوقت؟ قلت: مهم، ففتح الباب.

فشكوت إليه حالي، وقلت: هذه خمسون درهماً، لا أملك غيرها، خذها، وأدخلني عليه، قبل أن يتكاثر الناس عليه.  
فدخل، فاستأذن لي، وتلطف، إلى أن أوصلني إليه، وهو يستاك.

فقال: ما جاء بك في هذا الوقت؟ فدعوت له، وقلت: بشارة رأيتها البارحة.

فقال: ما هي؟ فقلت: رأيتك في النوم، كأنك تجيء إلى شيراز، من حضرة الأمير، وتحتك فرس أشهب عال، لم تر  
عيني قط أحسن منه، وعليك السواد، وقلنسوة الأمير، وفي يدك خاتمه، وحولك مائة ألف إنسان، ما بين فارس  
وراجل، وقد تلقوك، وأنا فيهم، إلى العقبة القلانية، وقد لقيك أمير البلد، فترجل لك وأنت تجوز، وطريقك كله

أحضر، مزهر بالنور، والناس يقولون: إن الأمير، قد استخلفك على جميع أمره.  
فقال: خيراً رأيت، وخيراً يكون، فما تريد؟ فشكوت إليه حالي، وذكرت له أمري.  
فقال: أنظر لك بعشرين ألف، وتؤدي عشرين ألف درهم.  
فحلفت له بأيمان البيعة، أنه لم يبق لي إلا مسكني، وثمنه شيء يسير، وبكيت، وقبلت يده، واضطربت بمحضرتة،  
فرحمي، وكتب إلى الديوان إسقاط ما علي، وانصرفت.  
فلم تمض إلا شهور، حتى كتب عمرو بن الليث، إلى علي بن المرزبان، يستدعيه، ويأمره بحمل ما اجتمع له من المال  
صحته.  
وكان قد جمع من الأموال، ما لم يسمع أنه اجتمع قط لأحد من مال فارس، مبلغه ستون ألف ألف، فحملها معه إلى  
نيسابور، وخرج عمرو، فتلقاه، وجميع قواده.  
فأعظم الأموال، واستخلفه على فارس وأعمالها، حرباً، وخراجاً، وخلع عليه سواداً، وحمله على فرس أشهب عال،  
ودفع إليه خاتمه، وردده إلى فارس.  
فوافي في وقت الربيع، ولم يجل الحول على رؤيائي، وخرج أمير البلد، يستقبله على ثلاثين فرسخاً، وخرجت فلقيته  
على العقبة التي ذكرتها في المنام الموضوع، والدنيا على الحقيقة خضراء بأنوار الربيع، وحوله أكثر من مائة ألف  
فارس ورجال، وعليه قنسوة عمرو بن الليث، وفي يده خاتمه، وعليه السواد، فدعوت له.  
فلما رأيته تبسم، وأخذ بيدي، وأحفى بي السؤال، ثم فرق الجيش بيننا، فلحقته إلى داره، فلم أستطع القرب منه  
لكثرة الدواب، فانصرفت، وباكرته في السحر.  
فقال لي الحاجب: من أنت؟  
فقلت: عباد بن الحريش، فأدخلني عليه، وهو يستاك.  
فضحك لي، وقال: قد صحت رؤياك.  
فقلت: الحمد لله.  
فقال: لا تبرح من الدار حتى أنظر في أمرك.  
وكان باراً بأهله، ورسمه إذا ولي عملاً، أن لا ينظر في شيء من أمر نفسه، حتى ينظر في أمر أهله، فيصرف من صلح  
منهم للتصرف، فإذا فرغ، عدل إلى الأخص، فالأخص من حاشيته، فإذا فرغ من ذلك، نظر في أمر نفسه.  
فجلست في الدار إلى العصر، وهو ينظر في أمر أهله، والتوقيعات تخرج بالصلوات والأرزاق، وكتب التقليدات، إلى  
أن صاح الحاجب: عباد بن الحريش، فقمتم إليه، فأدخلني عليه.  
فقال: إني ما نظرت في أمر أحد غير أهلي، فلما فرغت منهم، بدأت بك قبل الناس كلهم، فاحتكم ما تريد؟  
فقلت: ترد علي ما أخذت مني، وتولييني العمل الذي كان بيدي.  
فوقع لي بذلك، وقال: امض، فقد أوغرت لك العمل، فخذ ارتفاعه كله.  
فكان يستدعيني كل مدة، ولا يأخذ مني شيئاً، وإنما يكتب لي روزات من مال العمل، ويصلح لي حسابات يجلدها  
الديوان، فأرجع إلى العمل.  
فكنت على ذلك إلى أن زالت أيامه، فرجعت إلى شيراز وقد اجتمع لي مال عظيم، صودرت على بعضه، وجلست  
في بيتي، وعقدت نعمة ضخمة، ولم أتصرف إلى الآن.

## شر السلطان يدفع بالساعات

حدثني ابن أبي علان، وقد جرى حديث السلطان، وأن شره يدفع بالساعات، قال: ورد علينا أبو يوسف البريدي، كاتب السيدة، يطالبي، أنا وأبا يحيى الرامهرمزي، أن نضمن منه ضياع السيدة، وشدد علينا، ونحن ممتنعون. إلى أن أخلى لنا مجلسه يوم خميس، وناظرنا مناظرة طويلة، وشدد علينا، حتى كدنا أن نجيبه، وكان علينا في ذلك ضرر كبير، وخسران ظاهر، لو أجبناه.

فقلت لأبي يحيى: اجتهد أن تدفع المجلس اليوم، لنفكر إذا انصرفنا، كيف نعمل. وكان أبو يوسف محدثاً طيب الحديث، فجره أبو يحيى إلى المحادثة، وسكت له يستمع. وكانت عادة أبي يوسف في كلامه، أن يقول في كل قطعة من حديثه: أفهمت؟ فكان كلما قال ذلك لأبي يحيى، قال له: لا، فأعاد أبو يوسف الحديث، ويخرج منه إلى حديث آخر.

فلم يزل كذلك إلى أن حميت الشمس، وقربت من موضعنا، فرجع أبو يوسف إلى ذكر الضمان، وطالبنا بالعقد. فقلت: إنه قد حمي الوقت، وهذا لا يقرر في ساعة، ولكن نعود غداً، ورفقنا به، فقال: انصرفا، فانصرفنا. واستدعانا من غد، فكتبنا إليه: هذا يوم جمعة، يوم ضيق، ويحتاج فيه إلى دخول الحمام، والصلاة، وقل أمر يتم قبل الصلاة، ولكننا نكر يوم السبت.

فلما كان يوم السبت، صرنا إليه، وقد وضعنا في أنفسنا الإجابة، فحين دخلنا عليه، ورد عليه كتاب فقراه، وشغل قلبه، فقال: انصرفا اليوم.

فانصرفنا، ورحل من الغد عن الأهواز، لأن الكتاب، كان يتضمن صرفه، فبادر قبل ورود الصارف، وكفينا أمره. كيفية إغراء العمال بأخذ المراتق وقال: ورد علينا في وقت من الأوقات، بعض العمال متقلداً للأهواز، من قبل السلطان، فتنبع رسومنا، ورام نقض شيء منها.

فكنت أنا وجماعة من التناء في المطالبة، وكان فيها ذهاب غلاتنا في تلك السنة، لو تم علينا، وذهاب أكثر قيمة ضياعنا.

فقال لي الجماعة: ليس لنا غيرك، تخلو به، وتبذل له مرفقاً، وتكفيناه. فجتته، وخلوت به، وبذلت له مرفقاً جليلاً، فلم يقبله، ودخلت عليه بالكلام من غير وجه، فما لان، ولا أجاب. فلما يئست منه، وكدت أن أقوم، قلت له: يا هذا الرجل، أنت مقيم من هذا الأمر، على خطأ شديد، لأنك تظلمنا، وتزيل رسومنا، من حيث لا يحمدك السلطان، ولا تنتفع أنت أيضاً بذلك.

ومع هذا فأخبرني، هل تأمن أن تكون قد صرفت، وكتاب صرفك في الطريق، يرد عليك بعد يومين أو ثلاثة، فتكون قد أهلكنا، وأثمت في أمورنا، وفاتك هذا المرفق الجليل، ولعلنا نحن نكفي، ويحيى غيرك، فلا يطالبنا، أو يطالبنا فنبذل له نحن هذا المرفق، فيقبله، ويكون الضرر يدخل عليك. فحين سمع هذا وافق، كأنه قد علم من أمره ضعفاً ببغداد، وتلونا، وأني قد أحسست بالخلال أمره، وأن لي ببغداد من يكاتبني بالأخبار.

فأخذ يخاطبني مخاطبة من أين وقع إلي هذا، فقويت في نفسه، فأجاب إلى أخذ المرفق، وإزالة المطالبة. فسلمت إليه رقاعاً إلى الصيارف بالمال، وأخذت منه حجة بزوال المطالبة، فانصرفت وقد بلغت ما أردت. فلما كان بعد خمسة أيام، ورد عليه كتاب الصرف، فدخلت إليه، فأخذ يشكرني ويخبرني بما ورد عليه، فأوهمته أنني

كنت قلت له ذلك عن أصل، وكفيناه.

الصوفي المتوكل وجام فالودج حار

حدثني ابن سيار، عن شيخ من الصوفية، قال:

صحبت شيخاً من الصوفية، وجماعة منهم، في سفر، فجرى ذكر التوكل، والأرزاق، وضعف النفس.  
فقال ذلك الشيخ: علي، وعلي، وحلف بأيمان مغلظة، لا ذقت شيئاً، أو يبعث الله عز وجل، إلي، جام فالودج حار،  
ولا أكله إلا بعد أن يحلف علي، أو يجري علي مكروه، وكنا نمشي في الصحراء.  
فقالت الجماعة: أنت جاهل، ونحن نمشي، حتى انتهينا إلى القرية، وقد مضى عليه يومان وليلتان، ولم يطعم شيئاً،  
ففارقتهم الجماعة، غيري.

فطرح نفسه في مسجد في القرية، وقد ضعفت قوته، وأشرف على الموت، فأقمت عنده.  
فلما كان في ليلة اليوم الثالث، وقد انتصف الليل، وكاد يتلف، دق علينا باب المسجد، ففتحته، فإذا بجارية سوداء  
ومعها طبق مغطى، فلما رأتنا، قالت: أنتم من أهل القرية، أم غرباء؟  
فقلنا: غرباء.

فكشفت عن جام فالودج حار.

فقالت: كلوا.

فقلت له: كل.

فقال: لا أفعل.

فقلت: والله، لا أأكل أو تأكل، والله لتأكلن، لأبر قسمه.

فقال: لا أفعل.

فشالت الجارية يدها، فصعته صفة عظيمة، وقالت: والله، لنن لم تأكل، لأصنعك هكذا، إلى أن تأكل.

فقال: كل معي، فأكلت معه، فنظفنا الجام.

فلما أخذته لتمضي، قلت لها: بالله، حدثينا بخبر هذا الجام.

قالت: نعم، أنا جارية رئيس هذه القرية، وهو رجل حديد، طلب منا منذ ساعة، فالودج حار، فقمنا لنصلحه، وهو  
شتاء وبرد، فيلى أن نخرج الحوائج، ونعقد الفالودج، تأخر عليه، فطلبه، فقلنا: نعم، فحلف بالطلاق، أنه لا يأكله،  
ولا أحد من أهل داره، ولا أحد من أهل القرية، إلا غريب.

فأخذته، وجعلت أدور في المساجد، إلى أن وجدتكما، ولو لم يأكل هذا الشيخ، لقتلته صفعاً، ولا تطلق ستي.

فقال لي الشيخ: كيف ترى، إذا أراد أن يفرج؟

### سخاء الأمير سيف الدولة

وحدثني عبد الله بن معروف، قال: دخلت حلب إلى أبي محمد الصلحي، وأبي الحسن المغربي، أسلم عليهما، وكانا في  
صحبة سيف الدولة، وهما في دار واحدة نازلان لضيق الدور.

وكان وكيل كل واحد منهما يبكر فيقيم لهما جميع ما يحتاجان إليه من المائدة والوظائف، فإذا كان من الغد، بكر  
وكيل الآخر، فأقام لهما، ولغلمانهما، من المائدة والوظائف ما يحتاجون إليه على هذا.

فلما دخلت إليهما، وجلست، دخل شيخ ضرير، فسلم، وجلس، ثم قال: إن لي بالأمر سيف الدولة، حرمة واختصاص، أيام مقامه بالموصل، وقد لحقتني محن وشدائد، أملت لكشفها، وقد قصدته، وهذه رقعتي إليه، فإن رأيتما أن تفضلا بإيصالها إليه، فعلتما، وأخرج رقعة طويلة جداً.

فلما رأياها، قالوا له: هذه عظيمة، ولا ينشط الأمير لقراءتها، فغيرها، واختصرها، وعد في وقت آخر، فإننا نعرضها عليه.

فقال: الذي أحب، أن تفضلا بعرض هذه الرقعة.

فدفعاه عن ذلك، فقام يجر رجله، منكسر القلب، فتداخلتني رحمة له، وركبت، ودخلت على سيف الدولة، وهو جالس.

وكان رسمه أن لا يصل إليه أحد، إلا برقعة يكتبها الحاجب، باسم من حضر، فإذا قرأ الرقعة، إن شاء أذن له، وإن شاء صرفه.

فلما أستقرت عرض الحاجب عليه رقعة فيها: فلان بن فلان، الموصلية الضرير.

فقال له: هذا في الدنيا؟ أين هو؟

فقيل: بالباب.

فقال: يدخل، فما أظنه - مع ما أعرفه من زهده في الطلب، وقصد الملوك - قصدنا إلا من شدة، فدخل الشيخ الذي رأيته عند الصلحي والمغربي.

فلما رآه استنداه، وبش له، وقال له: يا هذا، أما سمعت بأنا في الدنيا؟ أما علمت مكاننا على وجه الأرض؟ أما حان لك أن تزورنا إلى الآن، مع ما لك بنا من الحرمة والسبب الوكيد؟ لقد أسأت إلى نفسك، وأسأت الظن بنا. فجعلى يدعو له، ويشكره، ويعتذر، فقربه، وجلس ساعة، ثم سلم إليه تلك الرقعة بعينها، فأخذها من يده، وقرأها. ثم استدعى يونس بن بابا، وكان خازنه، فحضر، فأسر إليه شيئاً.

ثم استدعى رئيس الفرائشين، فخاطبه سراً.

واستدعى خادماً له، فخاطبه بشيء.

واستدعى صاحب الإصطبل، فأمره بشيء، فانصرفت الجماعة.

وعاد ابن بابا، فوضع بين يديه صرتين فيهما خمسمائة دينار، وثياباً كثيرة صحاحاً، من ثياب الشتاء والصيف، وطيباً كثيراً.

ثم جاء عريف الفرائشين ببسط وآلة وفرش تساوي ألوف دراهم، فصار ذلك كائيل بين يديه.

وكان يعجبه إذا أمر لإنسان بشيء أن يكون بمحضته مجتمعاً، فيراه بين يديه، ثم يهبه له.

فاجتمع ذلك، والضرير لا يعلم، وعنده أنه قد تغافل عنه، فهو في الريب.

ثم حضر صاحب الكراع، ومعه بغلة تساوي ثلاثة آلاف درهم، ومركب ثقيل.

وجاء غلام أسود عليه ثياب جدد، فسلمت إليه البغلة، فأمسكها في الميدان أسفل الدكة التي عليها الأمير.

فقال للغلام: كم جرايتك في السنة؟

قال: عشرون ديناراً.

فقال: قد جعلتها ثلاثين، وخدمة هذا الشيخ خدمة لنا، فلا تقصر فيها، ولا ينكسر قلبك بخروجك عنا من دارنا،

وأعطوه سلفاً لسنة، فدفع إليه ذلك في الحال.

ثم قال: فرغوا الدار القلانية، له، ويحدر زورق من تل فافان إلى الموصل، فيه كران حنطة، وكر شعير، وفواكه الشام وماكلها، فعملوا بهذا ثبثاً، ففعل ذلك.

ثم استدعى أبا إسحاق بن شهرام، كاتبه، المعروف بابن ظلوم المغنية، وكان يكتب له، ويترسل إلى ملك الروم، ويبعثه في صغير أموره وكبيرها فساره بشيء، وكان صاحب سره.

فابتدأ ابن شهرام يعتذر إلى الضير، عن سيف اللولة، باعتذار طويل، وأنك قصدتنا في آخر وقت، وقد نفدت غلاتنا وتقسمت أموالنا الحقوق، والزوار، والجوش، وبيبنا خلق من الرؤساء، ونحتاج أن نواسيهم، ولولا ذلك لأوفينا على أملك، وقد أمرنا لك بكذا وكذا، وجعل ابن شهرام يقرأ عليه ما في الثبت، وسيف اللولة يسمع.

فقلت له: لا توردد على الشيخ هذه الجائزة جملة، عقيب اليأس الذي لحقه، فتنشق مرارته.

فلما استوفى، بكى الشيخ بكاءً شديداً، وقال: أيها الأمير، لقد زدت - والله - على أمني بطبقات، وأوفيت على غناي بدرجات، وقضيت حقي، وما هو أعظم من حقي، وما أحسن أن أشكرك، ولكن الله تعالى، يتولى مكافأتك، فمن علي بتقبيل يدك، فأذن له، فقبلها.

فجذبه سيف اللولة، وساره بشيء، فضحك، وقال: إي والله، أيها الأمير.

فاستدعى خادماً للحرم، وساره بشيء، وقام الشيخ إلى داره التي أخلاها له، وقال له: أقم فيها إلى أن أنظر في أمرك، وتخرج إلى عيالك.

فسألت الخادم عما ساره به، فقال: أمرني أن أخرج إليه جارية، من وصائف أخته، في نهاية الحسن، في ثياب وآلة قيمتها عشرة آلاف درهم، قال: فحملتها إليه.

قال ابن معروف: فقمتم قائماً، وقلت: أيها الأمير، ما سمع بهذا الفعل عن أحد من أهل الأرض قديماً، ولا حديثاً.

فقال: دعني من هذا، ما معنى قولك لابن شهرام، لا توردد عليه هذا كله مع اليأس، فتنشق مرارته؟.

فقلت: نعم، كنت منذ ساعة عند أبي محمد الصلحي وأبي الحسن المغربي، فجرى كذا وكذا، وقصصت عليه قصة الضير معهم، وأنه انصرف أخزى منصرف، ثم جاء بعد اليأس، فعاملته بهذا الفعل العظيم.

فقال: أحضروا الصلحي والمغربي، فأحضرا.

فقال لهما: ويحكما، ألم أحسن إليكما؟ وأنوه باسمكما؟، وأرفع منكما؟، وأصطنعكما؟ وعدد أياديه عليهما.

فقالا: بلى، وأخذنا يشكرانه.

فقال: ما أريد هذا، أفمن حقي عليكما، أن تقطعا عني رجاء مؤملي وقاصدي، وتسباني عندهم إلى الضجر برقاعهم

؟ ما كان عليكما لو أخذتما رقعة الضير، فأوصلتماها إلي؟ فإن جرى على يدي شيء، كنتما شريكاي فيه، وإن

ضجرت، كان الضجر منسوباً إلي دونكما، وكنتما بريئين منه، وقد قضيتما حق قصده، فلا حقه قضيتما، ولا حق

الله فيما أخذه على ذوي الجاه، وأسرف في تويخهما، كأنهما قد أذنا ذنباً.

فجعلنا يعتذران إليه، ويقولان: ما أردنا إلا التخفيف عنه من قراءة شيء طويل، لينقلها إلى أخف منها، ولو علمنا

أنه أيسر، لأخذنا رقعته وعرضناها.

فدعت الجماعة له، وحلفت أن هذا التأنيب في الجود، أحسن من الجود، ورفقوا به حتى انبسط في الحديث.

ألمعية المأمون وذكاؤه



قال: دعا المأمون يوماً بأبي عباد، فدفع إليه كتاباً مختوماً، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة، فيناظره على ما فيه باباً، باباً، ويأخذ تحت كل باب خطه فيه، ويختمه بخاتمه، وخاتم عمرو، ويحتفظ به إلى أن يسأله عنه، ولا يذكره ابتداءً، وأكد على ذلك.

قال: فعلمت أنما وقبعة. وقد كنت شاركت عمراً في أشياء، فصارت إلينا منها أموال، فخفت أن تكون مذكورة في الكتاب.

فقصدت عمراً، فوجدته في بستان أحمد بن يوسف، يلعب بالشطرنج مع بعض أصحابه، فعرفته أني محتاج إلى الخلوة معه.

فقال: دعني الساعة، فقد استوى لي هذا الدست.

فضاق صدري، وقلبت الشطرنج، وقلت: قد سال السيل، وهلكنا وأنت غافل، إقرأ هذا الكتاب، فقراه، فطالبت أن يكتب خطه، تحت كل فصل منه، بحجته.

فضحك، وقال: ويحك، أما تستحي، تخدم رجلاً طول هذه المدة، ولا تعرف أخلاقه، ولا مذهبه؟.

فقلت: يا هذا، أخبرني عنك، إن أقدمت على جحد ما في هذا الكتاب، لتعذر حجة ما شاركتك فيه، أما أنا فوالله أجحد، ولكن أصبر لأمر الله تعالى.

قال: فتحب أن اطلعك على ما هو أشد عليك من هذا؟.

قلت: وما هو؟.

فقال: كتاب دفعه إلي أمير المؤمنين منذ سنة، وأمرني فيه بمثل ما أمرك في هذا، فعرفت ضيق صدرك، فلم أذكره لك.

فكدت أموت إلى أن فرغ من كلامه، فقلت له: أرني إياه، فأحضره، وقرأته، وأنا أنفض، وعمرو يضحك. فلما فرغت منه، قلت: عند الله أحسب نفسي ونعمتي.

فقال: أنت والله مجنون.

فقلت: دعنا من هذا، ووقع تحت كل فصل.

فنظر إلى جملة ما نسب إليه في الكتاب، فوجده أربعين ألف ألف درهم، فوقع في آخره: لو قصرت همتنا في هذا القدر وأضعافه، لوسعتنا منازلنا، وما يفي هذا، بدجلة في برد، أو روحة في حر، وأرجو أن يطيل الله بقاء أمير المؤمنين، ويبلغنا فيه ما نؤمله به، وعلى يده.

وكان جملة ما رفع علي، سبعة وعشرون ألف ألف درهم.

فقال: يا هذا، إن صاحبنا ليس ببخيل، ولكنه رجل يكره أن يطوى معروفه، وإنما أراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار إلينا، فأمسك عنه على علم.

ثم ختم الكتاب بخاتمه، وخاتمي، وانصرفت وأنا في الموت، فلم ألبث أن كتبت وصيتي، وأحكمت أمري، وكنت سنة مغموماً، وذاب جسمي.

فقال لي المأمون يوماً: يا أبا عباد، قد أنكرت حالك، أتشكو علة؟ فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، ولكني منذ سنة، حي كمي، لأجل الكتاب الذي دفعه إلي أمير المؤمنين، لأنظر عليه عمرو بن مسعدة.

فقال: أمسك عني، حتى أعيد عليك جميع ما جرى بينكما، فحدثني بجميع ما دار بيننا، كأنه كان ثالثنا.

فقلت: لقد استقصى لك الذي وكلته بخبرنا، والله، ما حرم منه حرفاً.

فقال: والله، ما وكلت بكما أحداً، ولكن ظناً ظننته، وعلمت أنه لا يدور بينكما غيره، ولقد عجبت من غير عجب، لأن عقول الرجال يدرك بعضها بعضاً، وهذا عمرو بن مسعدة، أعرف بنا منك، وأوسع صدراً، وأبعد همة، وما أردت بما فعلت، إلا أن تعلموا أنني قد عرفت ما صار إليكما، وتستكثرانه، فأحببت أن أزيل عنكما غم المساترة، وتقل المراقبة، وأني لمتلنم لكما، خجل من ضعف أثري عليكما. فسرت، وصرت كأني أطلقت من عقال، فشكرته ودعوت له. ثم قلت: ما أصنع بذلك الكتاب؟ قال: خرقة إلى لعنة الله، وامض مصاحباً، آمناً، في ستر الله عز وجل.

## الشطرنج

الشطرنج: لعبة مشهورة، تشحذ اللب، وتدريب على الفكر، وتعلم شدة البصيرة، وهي معرب: شطرنك، بالفارسية، أي ستة ألوان، لأن القطع في اللعب هي ست، وهي: الشاه، والفرزان ويسمى في بغداد الوزير أو الفرز، والقييل، والفرس، والرخ، والبيدق. وقد اختلف المؤرخون فيمن وضع الشطرنج، فاليونان ينسونه إلى يوناني، والهنود ينسونه إلى هندي، والفرس إلى فارسي، ويروى أن ملوك الهند كانوا إذا تنازعوا على كورة أو مملكة، لعبوا الشطرنج، فيأخذها الغالب من دون قتال. وكانت لعبة الشطرنج في العصور الوسطى، لعبة الأشراف، في الشرق والغرب، وقد جاء في التاريخ، أن هارون الرشيد أهدى إلى شارلمان رقعة شطرنج، وكان المأمون يحب لعب الشطرنج حباً شديداً، ويقول إنه يشحذ الذهن تاريخ الخلفاء ٣٢٤. ومن الذين اشتهروا بإتقان لعب الشطرنج أبو بكر الصولي، وقد أعجب به من الخلفاء المكتفي، والراض، وأصبح مضرب المثل في الشطرنج، وكان لفرط إتقانه، يلعب بالشطرنج، وهو مستدبر الرقعة، راجع ما قاله فيه ابن الرومي في الغيث المسجم ٢ - ٥٠ و ٥١. وكذلك كان سعيد بن جبير، أحد أعلام التابعين، يلعب الشطرنج إستدباراً وفيات الأعيان ٢ - ٣٧٤. وللعبة الشطرنج اليوم ببغداد سوق رائجة، ولها هواة كثيرون، وأحدق من شاهدت من البغداديين فيها، القاضي محمود خالص، الذي كان رئيساً لمحكمة التمييز في العراق، وهو شخص نادر المثل في الفضل والخلق الكريم، جامع لجميع الصفات الحسنة، وقد تعدت شهرته في لعب الشطرنج حدود العراق، فكان زوار العراق، من علية القوم، يجتمعون به، ويلعبون معه الشطرنج.

ومن لطيف الإشارات إلى لعب الشطرنج قول الخباز البلدي، في فتية أسكرتهم الخمر الديارات ١٨٤، ١٨٥: مشوا إلى الراح مشي الرخ وانصرفوا... والراح تمشي بهم مشي القرازين وسئل أبو الطيب الصعلوكي ت ٤٠٤ عن الشطرنج، فقال: إذا سلم المال من الخسران، والصلاة من النسيان، فذاك أنس بين الإخوان شذرات الذهب ٣ - ١٧٣ وخالفه في ذلك ابن تيمية ت ٧٢٨ فقال: اللعب بالنرد خير من اللعب بالشطرنج، لأن لاعب النرد يعترف بالقضاء والقدر، والشطرنج لاعبه يفتي ذلك الغيث المسجم ٢ - ٥٢.

وحكي أن بعضهم كان إذا لعب الشطرنج، تضارب مع خصمه، فوصف أمره لبعض الطرفاء، فقال: أنا التزم ألب معه، وما تحصل بيننا مضاربة، ولعبا، فقال له أثناء اللعب: شاه أستر، فقال له: أنت قواد، فعجب منه، وقال: يا أخي، ما الذي قلت لك حتى تغضب؟ فقال: قلت: أستر، وتصحيفها: أشرت، وهي بالفارسية، تعني الجمل، وتصحيف الجمل، حمل، والحمل نجم في السماء، يقارنه الجدي، والجدي الكيش، والكيش له قرون، وذو القرون هو القواد، فقال له: يا أخي، ما رأيت أحداً قبلك يخاصم ويضارب بتصحيف وتفسير تحفة المجالس ٣٤٥. وجاء في مطالع البدور ١ - ٧٧: سأل بعض الأكابر إنساناً: هل تعرف اللعب بالشطرنج؟، فقال: لا والله يا مولانا، ولكن لي أخ اسمه عز الدولة، وهو أخي لأمي، أكبر مني بسنتين، أو أكثر بشيء يسير، وكان قد حصل بيني وبينه خصومة غاظته، فسافر من مدة عشرة أعوام، وسكن مدينة قوص، وبلغني أنه فتح دكان عطارة، وإلى الآن ما ورد على المملوك منه كتاب، وهو أيضاً مثلي ما يعرف يلعب بالشطرنج. للتفصيل راجع دائرة المعارف الإسلامية ١٣ - ٢٩٤ - ٢٩٦ ومطالع البدور ١ - ٧٥ - ٨١ ووفيات الأعيان ٤ - ٣٥٦ - ٣٦١ ونشوار المحاضرة القصيدة ٢ - ١٣٦ ومروج الذهب ٢ - ٥٦٢ - ٥٦٤ والغيث المسجم للصفدي ٢ - ٥١ ومحاضرات الأدباء ٢ - ٧٢٥ - ٧٢٨.

#### الحسين بن الضحاك يعيش ببقايا هبات الأمين

أخبرني الصولي، قال: حدثني أبو أحمد، قال: كان أبي صديقاً للحسين بن الضحاك، وكان يعاشره، فحملني معه يوماً، وجعل يجادته، إلى أن قال: يا أبا علي، قد تأخرت أرزاقك، وانقطعت موادك، ونفقتك كبيرة، فكيف تمشي أمورك؟ فقال له: والله يا أخي، ما قوام أمري، إلا ببقايا هبات الأمين، وهبات جاريته، فإني حظيت منهما، بأمر طريف، على غير تعمد. وذلك أن الأمين دعاني يوماً، فقال لي: يا حسين، إن جليس الرجل، عشيره، ووقتته، وموضع سره وأنسه، وإن جاريقي فلاتة، أحسن الناس وجهاً وغناءً، وهي مني بمحل نفسي، وقد كدرت علي صفو الحياة، ونغصتها علي، بعجبها بنفسها، وتتجنّبها علي وإدلالها، لما تعلمه من حبي لها، وإني محضرها، ومحضر صاحبة لها ليست منها في شيء، لتغني معها، فإذا غنت، أو مات إليك، علي أن أمرها أبين من أن يخفي عليك، فلا تستحسن غناها، ولا تشرب عليه، وإذا غنت الأخرى، فاشرب، واطرب، واستحسن، وشق ثيابك، وعلي، بكل ثوب، مائة ثوب. فقلت: السمع والطاعة، لأمر المؤمنين. فجلس في حجرة خلوته، وأحضرني، وسقاني أرطالاً، فغنت الحسنة، وقد أخذ مني الشراب، فما ملكت نفسي أن استحسن، وطربت، فأومأ إلي، وقطب في وجهي. ثم غنت الأخرى، فجعلت أتكلف القول، وأفعله. ثم غنت الحسنة ثانية، فأتت بما لم أسمع مثله حسناً قط، فما ملكت نفسي أن صحت، وطربت، وشربت، وهو ينظر إلي، وبعض شفثيه غيظاً علي، وقد زال عقلي، فما أفكر فيه، حتى فعلت ذلك مراراً، وكلما زاد شربي، ذهب عقلي.

فأمر بجر رجلي، وصرفي، وأمر أن لا أدخل عليه، فجاءني الناس يتوجعون لي، ويسألون عن قصتي، فقلت: حمل علي النبيذ، فأسأت أدبي، فمنعني من الدخول إليه.

ومضى لما أنا فيه شهر، وقد استمرت علي الخنة.  
فبينما أنا كذلك، إذ جاءني البشارة، بأنه قد رضي عني، وأمر باحضاري، فحضرت، وأنا خائف، فلما وصلت إليه، أعطاني يده فقبلتها، فضحك لي، ثم قام وقال: اتبعني.  
فتبعته، فدخل تلك الحجرة بعينها، ولم يحضر غيري، وغيره، وغير المحسنة التي نالني من أجلها ما نالني، وأحضر الشراب، فغنت، فسكت.  
فقال: قل ما شئت، ولا تحف، فلقد خار الله لك في خلافي، وجرى القدر بما تحب.

إعلم أن هذه الجارية، عادت إلى الحال التي أحبها منها، وأرضتني في أفعالها، واصطلحنا، فأذكرتني بك، وسألني الرضا عنك، والإحسان إليك، وقد فعلت، وأمرت لك بعشرة آلاف دينار، ووصلتك هي بدون ذلك، ولو كنت فعلت ما أمرتك، حتى تعود إلى مثل هذه الحال، ثم تحقد عليك، فتسألني أن لا تصل إلي قط، لأجبتها.  
فدعوت له، وشكرته، وحمدت الله على توفيقه إياي، وزدت في الاستحسان والسرور إلى أن انصرفت، وحمل معي المال.

فما كان يمضي أسبوع إلا أتتني ألفتها، وصلاتها، من الجوهر والثياب، بغير علم الأمين. وما جالسته يوماً، إلا سألته أن يصلني بشيء.  
فجميع ما أنفقه إلى الساعة، من فضل ما وصلني منها.

### من مكارم البرامكة

ذكر سعيد بن سليمان الباهلي، قال: أضقت إضافة شديدة، وكثر علي الغرماء، فاستترت مدة، ثم صرت إلى عبد الله بن مالك، فشكوت إليه حالي، وشاورته في أمري.  
فقال: لست أعرف لك غير قصد البرامكة، ومسألتهم في إصلاح ما اختل من أمرك.  
فقلت: ومن يحتمل تيههم وصلفهم؟  
قال: تحتمله، في جنب ما تقدر من صلاح حالك.  
قال: فصرت إلى جعفر والفضل ابني يحيى، فشكوت إليهما أمري.  
فقالا: نكفيك، إن شاء الله.  
فانصرفت إلى عبد الله بن مالك، فعرفته ما جرى.  
فقال: أقم عندي، ولا ترجع إلى منزلك، وتقاسي غرماءك، فأقمت عنده.  
فصار إلي غلام لي، فقال: يا مولاي، رحبتنا مملوءة بالجمال عليها المال، ورجل مع الجمال، معه رقعة يزعم أنها من الفضل وجعفر، وأنه رسولهما.  
فقال لي عبد الله: أرجو أن يكون قد فرج الله عنك.  
فصرت إلى منزلي، وإذا رسول جعفر والفضل، ومعه رقعة يذكران فيها: أنهما عرفا أمير المؤمنين خبري، وأن علي ثمانمائة ألف درهم، ديناً، فأمر بحملها إلي.  
ثم قالوا له: فإذا قضى دينه، يرجع إلى الدين؟ - فأمر لي بثمانمائة ألف درهم أخرى، لنفقتي.  
وأنهما أضافا إليها من أموالهما، ألقى ألف درهم، فحملها مع ذلك.

فاستوفيت من رسولهما، ثلاثة آلاف ألف، وستمائة ألف درهم.  
وقد ذكر أبو الحسين القاضي، هذا الخبر في كتابه، على قريب من هذا اللفظ والمعنى، بغير إسناد، ولم يذكر فيه مبلغ المال، ولا حال الاستتار.

المأمون يهب أحد كتابه اثني عشر ألف ألف درهم  
وجدت في كتاب عتيق فيه أخبار جمعها يعقوب بن بيان الكاتب: حدثني أبو القاسم علي بن داود بن الجعد، قال: حدثني يزيد بن دينار بن عبد الله، قال: حدثني أبي، عن يحيى بن خاقان، قال: كنت كاتب الحسن بن سهل، فقدم المأمون مدينة السلام، فقال لي: يا يحيى، خلوت بالسواد، ولعبت بالأموال التي لي، واحتجتها، واقتطعتها. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما أنا كاتب الرجل، والمناظرة في الأموال، والأعمال، مع صاحبي، لا معي. فقال: ما أطلب غيرك، ولا أعرف سواك، فصالحني على مائة ألف ألف درهم.  
قال: فضحكت.

فقال: يا يحيى، أجد وتمزل؟  
فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، إنما ضحكت تعجباً، وبالله، ما أملك إلا سبعمائة ألف درهم.  
فقال: دع هذا عنك، واعطني خمسين ألف ألف درهم.  
قال: فما زلت أجادبه، ويجاذبي، إلى أن بلغ اثنا عشر ألف ألف درهم، فلما بلغ إليها، قال: نفيت من الرشيد، إن نقصتك شيئاً منها.

فقلت: السمع والطاعة.  
قال: أقم لي ضمينا، إن لم تف لي بما، طالبته.  
قلت: صاحبي يا أمير المؤمنين يضمنني.  
فقال: أتراني إن دافعت الاداء، أطلب الحسن بن سهل عنك؟ هذا ما لا يكون.  
فقلت: عبد الله بن طاهر.  
فقال: عبد الله بن طاهر، سبيله سبيل صاحبك.  
قلت: فحميد.

قال: وهذه سبيله.  
قلت: ففرج مولاك يا أمير المؤمنين.  
قال: مليء - والله - وثقة، ثم التفت إلى فرج، فقال: أتضمنه يا فرج؟  
قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قد ضمنته.

فقال: أنا والله محرجه بالإلحاح في المطالبة، حتى يهرب، أو يستتر، ثم آخذك بالمال، فتؤديه، فإنك ملي به.  
فقال فرج: صاحبي ثقة، وهو لا يخفني، إن شاء الله.  
قال يحيى: فكتبت إلى الحسن بن سهل، وعبد الله بن طاهر، وحميد، ودينار بن عبد الله، وغسان، ورجال المأمون، أسأهم إعانتني في المال.

قال: فحملوا لي ذلك عن آخره، حمل كل إنسان منهم، على قدره، قال يحيى: فكتبت رقعة إلى المأمون، أعرفه أن المال قد حضر، وأسأله أن يأمر من يقبضه.

قال: فأحضرتني، فلما وقعت عينه علي، قال لي: يا خائن، الحمد لله الذي بين لي خيانتك، وأظهر لي كذبك، ألم تذكر أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف درهم؟ فكيف تمياً لك أن حملت في عشرة أيام إثني عشر ألف ألف درهم؟ قال: فقلت: حملت، يا أمير المؤمنين من هذه الجريدة، ودفعت إليه جريدة بأسماء من حمل إلي المال، ومبلغ ما حمل كل واحد منهم.

قال: فقرأ الجريدة، ثم أطرق ملياً، ورفع رأسه، فقال: لا يكون أصحابنا، أجود منا، هذا المال قد وهبناه لك، وأبرأنا ضميناك.

قال يحيى: فانصرفت، فرددت المال إلى أصحابه، فأبوا أن يقبلوه، وقالوا: قد وهبناه لك، فاصنع به ما أحببت. قال: فحلقت، أن لا أقبل منه درهماً، وقلت لهم: أخذته في وقت حاجتي، ورددته عند استغنائي عنه، وقبولي إياه في هذا الوقت ضرب من النغم. فرددته عليهم.

### ما بقي له غير درهين ثم جاءه الفرج

ووجدت في هذا الكتاب، عن يعقوب بن بيان: حدثني بعض أصحابنا، وهو عندي ثقة، وقد تجارينا لزوم المتعطلين، أبواب المشاغلين، وتعذر الشغل عليهم، بعد أن قلنا جميعاً: إن الأرزاق مقسومة، وإن الله تعالى إذا أذن فيها سهلها، قال: فحدثني عمرو بن حفص، عن أبيه، قال: كان أبي حفص، قد صحب بعض عمال فارس، إلى فارس، فأقام على بابه ستة أشهر، يلقاه كل يوم فيها، فلا يكلمه العامل فيها بشيء، وينصرف أبي إلى منزله.

قال: فنفدت نفقته، وباع كل ما كان معه، حتى قال له غلامه يوماً: ما بقي إلا الدابة، والبغل، ودرهمان. قال: فقال له: اشتر لنا بالدرهين خوفاً، فإنه أرخص من الخبز، لتنقوته، إلى أن يفرج الله - عز وجل - عنا. قال: ففعل الغلام ذلك، وأكل حفص من الخوخ شيئاً ونام، فما استيقظ إلا بدق الباب، وإذا رسول العامل يأمره بالحضور، فركب، فوجد العامل قاعداً في داره على كرسي ينتظره. فلما دخل، قال العامل: لا جزاك الله خيراً عني، ولا عن نفسك. قال: ولم ذاك، أصلحك الله؟.

قال: أتستقيم على بابي ستة أشهر، لم تر على نفسك أن تريني وجهك يوماً واحداً؟ فقال: أعزك الله، أنا في مجلسك كل يوم.

قال: والله، ما وقعت لي عليك عين، ولا خطرت ببالي إلا الساعة، فإني ذكرتك، فعلمت طول مقامك في العطلة والغربة.

ودعا بكاتبه، فكتب كتيبي على فسا ودرابجرد، وخرجت من يومي إلى العمل، فحصلت منه، في مدينة قرية، سوى نفقتي، ستمائة ألف درهم.

سبب توبته عن النبيذ

حدثني علي بن محمد الأنصاري، وعبيد الله بن محمد العباسي، واللفظ له، قالوا: حدثنا أبو الفتح القطان: أن رجلاً من أولاد التجار، زالت نعمته، وصار بواباً لأبي أحمد الحسين بن موسى الموسوي العلوي، نقيب الطالبين، أيده الله، ببغداد، قال: حدثني خالي، وكان صيرفياً، قال: كنت وجماعة من إخواني، عند بعضنا مجتمعين نشرب، وعندنا غلام أمرد، ونحن نأكل بطيخاً، وفي يد كل واحد منا سكيناً.

فأخذ الغلام يمزح مع واحد منا في يده سكين ليأخذها منه، فرمى بالسكين، كالضجر من مجاذبته إياها، فوقع في قلب الغلام، فتلف في الحال، فقمنا لنهرب.

فقال صاحب البيت: ما هذه فتوة، إما أن نبطى كلنا، أو نتخلص كلنا.

فأغلقتنا باب الدار، وشققنا بطن الغلام، فألقينا ما فيه في المستراح، وفصلنا أعضائه، فأخذ كل منا عضواً، وخرجنا متفرقين، لتلقي ذلك بحيث يخفى خبره.

فوقع معي الرأس، فلففته في فوطة، وجعلته في كمي.

فلما مشيت، استقبلني رجالة الختسب، فقبضوا على كمي، وقالوا: قد أمرنا الختسب بختم كل كيس نجده، حتى يفتح بحضوره، ويخرج ما فيه، وتؤخذ منه الزائفة.

فرقت بهم، وبذلت لهم دراهم كثيرة، فلم يجيبوا، ومشوا بي معهم، وأمسكوني يريدون الختسب.

فنظرت، فإذا أنا هالك، وفكرت في الحيلة والخلص، فلم تنجح، حتى رأيت درباً ضيقاً لطيف الباب، كأنه باب دار، وأنا أعرفه مفذاً.

فقلت لهم: أنتم تريدون ختم كيسي، فما معنى تشبثكم بيدي وكمي كأنني لص؟ أنا معكم إلى الختسب، فخلوا عن يدي، ففعلوا، وأطافوا بي.

فلما صرت على باب الدرب، سعيت، فدخلته، وأغلقت بابه، واستوثقت منه، وسعيت إلى آخره، فإذا بئر كيف قد فتحت لتنقى، وتركت مفتوحة، فألقيت الفوطة بما فيها في البئر، وخرجت أسعى من طرف الدرب الآخر، حتى بلغت منزلي، وحمدت الله تعالى على الخلاص من الهلكة.

وتبت عن النبيذ.

### حلف بالطلاق لا يحضر دعوة ولا يشيع جنازة

حدثني عبيد الله بن محمد، قال: حدثنا أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي العلوي النقيب، قال: حدثني شيخ كان يخدمني، وقد تجارينا أحاديث الناس، فقال: إنه حلف بالطلاق، ألا يحضر دعوة، ولا يشيع جنازة، ولا يودع وديعة، فسألته عن ذلك.

فقال: كنت انحدرت إلى البصرة من بغداد، فصعدت إلى بعض مشارع البصرة عشاءً، فاستقبلني رجل، فكناني بغير كنتي، وبش في وجهي، وأحفى، وجعل يسألني عن قوم لا أعرفهم، ويحلف علي في النزول عنده.

وكنت غريباً، لا أعرف مكاناً، فقلت: أبيت عنده الليلة إلى غد، فأطلب موضعاً.

فموهت عليه في القول، فجدبني إلى منزله، وكان معي رجل صالح، وفي كمي دراهم كثيرة.

فدخلت إليه، فإذا عنده دعوة، والقوم على نبيذ، وقد خرج لحاجة، فشبهني بصديق له، وتموه عليه أمري لسكره.

وكان فيمن عنده، رجل له غلام أمرد، فلما أخلوا مضاجعهم للنوم، أرقت من بينهم.

فلما كان بعد ساعة، رأيت واحداً من الجماعة، قد قام إلى الغلام الأمرد، ففسق به، ورجع إلى موضعه، وكان قريباً من صاحب الغلام.

واستيقظ في الحال صاحب الغلام، فتقدم إلى غلامه ليفسق به.

فقال له: ما تريد؟ ألم تكن الساعة عندي، وفعلت بي كذا وكذا؟ فقال: لا.

فقال: قد جاءني الساعة من فعل بي، ووطنته إياك، فلم أتحرك، ولم أظن أن أحداً يجسر عليك.

فخبر الرجل، ووجد سكيناً من وسطه، وقام، وأنا أرعد، فلو كان دنا مني، حتى يجديني أرعد، لقتلني، وظن أني صاحب القصة.

فلما أراد الله عز وجل، من بقاء حياتي ما أراد، بدأ بصاحبه، فوضع يده على قلبه، فوجده يخفق، وقد تناوم عليه، يرجو بذلك السلامة، فوضع السكين في قلبه، وأمسك فاه، فاضطرب الرجل، وتلف. فأخذ الرجل بيد غلامه، وفتح الباب، وانصرف. فورد علي أمر عظيم.

وقلت: أنا غريب، وبيتته صاحب البيت، فلا يعرفني، ولا يشك في إني صاحب الجناية، فأقتل. فتركت رحلي، وأخذت ردائي، ونعلي، وطلبت الباب، فلم أزل أمشي، لا أدري أين أقصد، والليل منتصف، وخفت العسس، فرأيت أتون حمام لم يوقد بعد. فقلت: أختبئ فيه، إلى أن يفتح الحمام، فأدخله، فجلست في كسر الأتون. فما لبثت حيناً، حتى سمعت وقع حافر، وإذا برجل يقول: قد رأيتك يا ابن الفاعلة، ودخل الاتون، وأنا كالميت من الفرع، لا أتحرك، فلما لم يجد حساً، أدخل رأسه، ويده، يومئ بسيف معه في الأتون، وأنا بعيد عن أن ينالني السيف، صابر، مستسلم.

فلما لم يحس أحداً، خرج إلى بابه، وإذا معه جارية، فأدخلها الأتون، فذبحها، وتركها ومضى. فرأيت بريق خلخالين في رجليها، فانترعتهما منها، وخرجت، وما زلت أمشي في الطريق متحيراً، إلى أن صرت إلى باب حمام قد فتح، فدخلته، وخبأت ما معي في ثيابي، عند الحمامي. وخرجت وقد أصبحت، فضممت الخلخالين إلى ما معي، وطلبت الطريق، فعرفت أني بالقرب من دار صديق لي، فطلبتها، فدفقت بابه، ففتح لي، وسر بمقلمي، وأدخلني. فدفعت إليه منديلي الذي كان فيه دراهمي والخلخالين، ليخبتهما، فلما نظر إليهما تغير وجهه. فقلت: مالك؟

فقال: من أين لك هذان الخلخالان؟ فأخبرته بخبري كله في ليلتي، فدخل مسرعاً إلى دار حرمه، وخرج إلي. فقال: أتعرف الرجل الذي رأيتته قتل الجارية؟

قلت: أما بوجهه فلا، لأن الليل والظلمة كانت حائلة بيننا، ولكن إن سمعت كلامه عرفته. فأعد طعاماً، وغدا في أمره، وعاد بعد ساعة، ومعه رجل شاب من الجند، فكلمه، وغمزني عليه. فقلت: نعم، هذا هو الرجل.

ثم أكلنا، وحضر الشراب، فحمل عليه بالنبيذ، فسكر، ونام موضعه، فأغلق باب الدار، وذبح الرجل. وقال لي: إن المقتولة أختي، وكان هذا قد أفسدها، ونفى الخبر إلي منذ أيام فلم أصدق، إلا أني طردت أختي، وأبعدتها عني، فمضت إليه، ولست أدري ما كان بينهما، حتى قتلها، وإنما عرفت الخلخالين ودخلت فسألت عنها. فقيل لي: هي عند فلان.

فقلت: قد رضيت عنها، فوجهوا، فردوها، فلجلجوا في القول، فعلمت أن الرجل قد قتلها كما ذكرت، فقتلته، فقم حتى ندفنه.

فخرجنا ليلاً، أنا والرجل، حتى دفناه، وعدت إلى المشرعة، هارباً من البصرة، حتى دخلت بغداد. وحلفت ألا أحضر دعوة أبداً، ولا أودع وديعة أبداً.



وأما الجنازة، فإني خرجت ببغداد، نصف النهار، في يوم حار، لحاجة فاستقبلتني جنازة يحملها نفسان.  
فقلت: غريب، فقير، أحملها معهما فأثاب، فدخلت تحتها، بدلاً من أحد الحمالين.  
فحين استقرت على كتفي، افتقدت الحمال، فلم أجده، فصحت: يا حمال، يا حمال.  
فقال الآخر: إمش، واسكت، قد انصرف الحمال.  
فقلت: الساعة، والله، أرمي بها.  
فقال الحمال: والله، لن فعلت لأصيحن.  
فاستحييت، وقلت: ثواب، فحملناها إلى مسجد الجنائز، فلما حططنا الجنازة في مسجد الجنائز، هرب الحمال الآخر.  
فقلت: ما لهؤلاء الملاعين، والله، لأتمن الثواب، فأخرجت من كمي دراهم، وصحت: يا حفار، أين قرب هذه الجنازة؟  
فقال: لا أدري.  
فقلت: أحفر، فأخذ مني درهمن، وحفر قبراً.  
فلما صوبت عليه الجنازة، ليأخذ الميت فيدفنه، وثب الحفار من القبر فلطمني، وجعل عمامتي في رقبتي، وصاح: يا قوم قتيل، فاجتمع الناس، فسألوه.  
فقال: هذا الرجل، جاء بهذا الميت، بلا رأس، لأدفنه، وحل الكفن، فوجدوا الأمر على ما قاله الحفار.  
فدهشت، وتحيرت، وجرى علي من مكروه العامة، ما كادت نفسي تتلف معه.  
ثم حملت إلى صاحب الشرطة، وأخبر الخبر، فلم يرد شاهداً علي، فجردت للسياط، وأنا ساكت باهت.  
وكان له كاتب عاقل، فحين رأي، ورأى حيرتي، قال له: أنظري، حتى أكشف حال هذا الرجل، فإني أحسبه مظلوماً، فأمهله.  
فقام، وخلا بي، وسألني، فأخبرته خبري، ولم أزد فيه ولم أنقص.  
فحى الميت عن الجنازة، وفتشها، فوجد عليها مكتوباً: أنها للمسجد القلاني، في الناحية القلانية.  
فأخذ معه رجاله ومضى، فدخل المسجد متكرراً، فوجد فيه خياطاً، فسأله عن جنازة هناك، كأنه يريد أن يحمل عليها ميتاً له.  
فقال الخياط: للمسجد جنازة، إلا أنها قد أخذت منه الغداة، لحمل ميت، ولم ترد.  
قال: من أخذها؟  
قال: أهل تلك الدار، وأوماً إليها.  
فكبسها الكاتب برجالة الشرطة، فوجد رجالاً عزاباً، فقبض عليهم، وحملهم إلى الشرطة، وأخبر صاحب الشرطة بالخبر.  
وقرر القوم، فأقروا أنهم تغايروا على غلام أمرد كان معهم، فقتلوه، وطرحوا رأسه في بئر حفروها في الدار، وحملوه على تلك الصورة، وأن الحمالين كانا من جملة القوم، وعلى أصل هربا.  
فضربت أعناق القوم، وخلي سبيلي.  
فهذا سبب يميني في ألا أحضر جنازة.

ابن قمبر الموصلية وقع في ورطة وتخلص منها

وحدثني عبيد الله بن محمد الصروي، قال: حدثني ابن قميم، مجلد الكتب - كان - بالموصل، قال: أعطاني أبو عبد الله بن أبي العلاء بن حمدان، دفترًا، أجلده، وأكد علي الوصية في حفظه، فأخذته منه، ومضيت إلى دكاني. وكان طريقي على دجلة، فنزلت إلى مشرعة أتوضأ، فسقط الدفتر من كمي في الماء، فتناولته عجلًا قبل أن يغرق، وقد ابتل، فقامت قيامتي، ولم أشك أنه سيجري علي مكروه شديد من أبي عبد الله، من ضرب، وحبس، وأخذ مال، فعملت على الهرب من الموصل.

ثم قلت: أجفنه، وأجلده، وأجتهد في أن أسلمه إلى غلام له، وهو لا يعلم، واستتر، فإن ظهر الحديث، هربت، وإن كفى الله تعالى ذلك، وتمت عليه الحيلة ظهرت.

فحللته، وجففته، وثقلته، حتى رجع واستوى، أكثر ما يمكن من مثله، وجلدته، وتأنقت في التجليد.

فلما فرغت منه، جئت إلى الحاجب لأسلمه إليه من باب الدار وأمضي، فصادفت الحاجب جالسًا في الدهليز، فسلمت إليه الدفتر.

فقال: ادخل إليه، وادفعه من يدك إلى يده، فلعله يتوقعك، ولعله يأمر لك بشيء.

فقلت: لا أريد، فأني مستعجل.

فقال: لا يجوز، ولم يدعني حتى دخلت إليه، فلم أشك أن ذلك من سوء الاتفاق علي، المؤدي إلى المكروه، ومشيت في الصحن وأنا في صورة عظيمة من المهم.

فوجدت أبا عبد الله جالسًا على بركة ماء في صحن داره، والغلمان قيام على رأسه، فأخرجت الدفتر من كمي. فقال لأحد غلمانه: خذه من يده، وهاته.

فجاء الغلام من جانب البركة، وأنا من الجانب الآخر، ومد يده ليأخذه، فأعطيته إياه، فلم يتمكن في يده، حتى سقط الدفتر في البركة، وغاص إلى قعرها.

فجن أبو عبد الله، وشتم الغلام، وقال: مقارع، مقارع.

فحمدت الله عز وجل، على استتار أمري من حيث لا أحتسب، وكفايتي ما كنت أخافه.

وخرجت، والغلام يضرب.

واسطي أتلّف ماله وافتقر ثم صلح حاله بعد أهوال

حدثني عبيد الله بن محمد الصروي، قال: حدثني أبي، قال: كان في جوارنا بواسط، شاب أتلّف ماله في اللعب،

فافتقر فقراً شديداً، ثم رأيت بعد ذلك بمدة، وقد أثرى، وصلحت حاله، وأقبل على شأنه.

فقلت له: ما سبب هذا؟، فدافعني.

ثم قال: أحدثك، وتكتم علي؟.

فقلت: نعم.

فقال: إن الفقر بلغ بي إلى حال تمنيت معها الموت، وولدت امرأتي ذات ليلة، وكانت ليلة العيد، فلم يكن معي ما

أشترى لها ما يمسك رفقها، فخرجت على وجهي، أطلب من أتصدق منه شيئاً أعود به إلى امرأتي.

فأفضيت إلى زقاق طويل لا أعرفه، فدخلت، فإذا هو لا ينفذ، وإذا فيه باب دار مفتوح، ومستراح.

فدخلت الدار بغير إذن، فإذا برجل يطبخ قدرًا، فصاح علي، وقال: من أنت، ويلك؟، فقصصت عليه خبري.

فقال: إمض إلى ذلك البيت، واجلس إلى أن أفرغ من القدر، فأعطيك منها مع الخبز شيئاً تحمله إلى امرأتك، ونفقة تكفيك أياماً.

فدخلت البيت، فرمى إلي كساءً، وقال: تغط به، ونم ساعة.  
وكانت ليلة باردة، وكنت بقميص واحد، فتغطيت بالكساء، وانضجعت، ولم يدخل عيني النوم، لما بي من الجوع  
والنوم.  
فما لبثت أن جاء رجل عريان، فدخل وعلى رأسه شيء ثقيل، فقام الذي يطبخ، فأغلق الباب، وأنزل ما كان على  
رأسه.  
وقال له: ويلك، غبت، حتى أيست منك.  
فقال: كنت يومي وليلي، محتبناً خلف حطب لهم، حتى تمكنت من أخذ هذه البدرة، وما أدري أدنانير هي أم دراهم  
؟، وأنا ميت جوعاً، فأطعمني شيئاً.  
قال: فأخذ الرجل يغرف من القدر، ومضى العريان فلبس شيئاً، وجاء إلى الآخر، وقد غرف، فجعلنا يأكلان، وقد  
خرجت نفسي فرعاً.  
فلما أكلا، أخرجنا شرباً، وجعلنا يشربان، وأنا متحير لا أدري ما أصنع، ولست أجتريء أطلب من الرجل شيئاً.  
وأقبل العريان يشرب أكثر من الآخر الذي كان يطبخ، وجعل الذي كان يطبخ، يقول له: استكثر من الشرب  
لتدفاً، إلى أن سكر العريان، ونام.  
فقام الأول، فطاف في الدار، ثم جاءني، فكلمني، فسكت، خوفاً من أن يعلم أنني قد علمت بقصتهما، فيقتلني، فظن  
أنني قد نمت.  
فمضى إلى النائم، فدبحه، ثم أمسكه حتى مات، ثم لفه في كساء، وحمله على عاتقه، وخرج من الدار.  
فقلت لنفسي: لأي شيء قعودي؟  
فقممت، فجئت إلى البدرة، فجعلتها في الكساء الذي كان علي، وخرجت أسعى سعياً شديداً.  
فلم أزل كذلك، حتى رأيت مسجداً قد فتحه إنسان، وخرج منه، وجلس يبول، فدخلته، وجاء الرجل الذي كان  
يبول، فدخله، وأغلق بابه.  
وقال لي: أي شيء أنت؟  
فقلت: غريب، جئت الساعة من السواد، ولم أجسر أن أتجاوز هذا الموضع، فأجرتني، أجازك الله.  
فقال: نم مكانك، فتركت البدرة تحت جنبي واتكأت عليها.  
فلم ألبث حتى سمعت في الطريق صوت رجل يسعى سعياً شديداً، وإذا كلام صاحبي بعينه، وهو يقول: عملها ابن  
الزانية، ويلى على دمه.  
فأبصرته من شباك المسجد، وإذا في يده خنجر مجرد، وهو يتردد ذاهباً وجائياً، وأعماه الله عن دخول المسجد، إلى  
أن مضى.  
ولم أزل ساهراً لا يحملني النوم، خوفاً منه، وإشفاقاً على ما معي، إلى أن أضاء الصبح، وأذن في المسجد.  
وخرجت كأني أتوضأ، وحملت ما معي، ومشيت، والناس قد كثروا في الطريق، حتى انتهيت إلى بيتي، فأخفيت ما  
جئت به، وأصلحت حالي، وحال زوجتي.  
ثم خرجت إلى ضيعة - كانت لأبي - خراب، فأقمت بها مدة، حتى عمرتها بأكثر ذلك المال، وعلمت أنه لا يتفق  
مثل هذا الاتفاق أبداً، ولزمت شأني، وصلحت حالي.  
قال: فقال أبي: ما حدثت بهذا الحديث حتى مات الرجل، ولا أسميه أبداً.

## اللجاج شؤم

حدثني أبو الحسن محمد بن محمد بن جعفر الأنباري الشاهد ببغداد، أحد كتاب قضاةنا، وخلفائهم، ويعرف أيضاً بصهر القاضي ابن سيار، الذي كان يخلف القاضي أبا القاسم التنوخي، رحمه الله، على أعمال نواحي واسط، وكور الأهواز، وخلف بعده عدة قضاة رؤساء، وكان من شيوخ علمان أبي الحسن الكرخي، وقد رأيت أنا أبا الحسن هذا كثيراً عند أبي رضي الله عنه، ولم أسمع هذا الحديث منه، قال: حدثني شيخ من البصريين، أتق به، قال: عادت فلاناً القاضي - ذكره ابن مرغول رحمه الله، وأنسيه محمد بن محمد - إلى الحج. قال: وتشاجر رجلاً، في الرفقة التي كنا فيها من القافلة.

قال: وجذبنا ذلك القاضي إليه، ولم يزل يتوسط بينهما ويتفرق بهما، وقد استعمل كل واحد منهما اللجاج والمشاحنة، وأقاما عليها، وهو يصبر عليهما، ويقول: اللجاج شؤم، فلا تستعملانه ويكرر هذه اللفظة، إلى أن فصل بينهما.

فقال لي: أذكرني حديثاً في اللجاج، جرى على يدي، لك فيه، ولكل من سمعه، أدب.

قال: فأذكرته بعد وقت.

فقال: كنت أتولى القضاء، في البلد القلاني، فقدم إلي رجلاً، فادعى أحدهما على الآخر عشرين ديناراً. فقلت للمدعى عليه: ما تقول؟

فقال: له علي ذلك، إلا أبي عبد لآل فلان، مكاتب، مأذون لي في التصرف، واتجرت، فخسرت، وليس معي ما أعطيه، وقد عاملني هذا الرجل سنين كثيرة، وربح علي أضعاف هذه الدنانير مراراً، فإن رأى القاضي أن يسأله الرفق بي، فإني عبد، وضعيف، ولا حيلة لي.

فسألته أن يرفق به، ويؤخره، فامتنع.

فقلت: قد سمعت.

فقال: ما لي حيلة.

فقال الرجل: احبسه لي.

فعاد العبد يسألني، فسألته أن لا يفعل، وبكى العبد، فرفقت له، وسألت خصمه أن لا يحبسه، وأن ينظره.

فقال: لا أفعل.

فقال العبد: إن حبسني أهلكني، ووالله ما أرجع إلى شيء، وإنه ليضايقني، ويلج في أمري، وقد انتفع مني بأضعاف هذه الدنانير، وورث منذ أيام من أخي أليف دنانير، فأشير علي بمنازعتي إلى القاضي في الميراث، فلم أفعل.

قال: فحين قال ذلك، توجه لي وجه طمع في خلاصه من لجاح ذلك الغريم، وقد كان غاظني بلجاجه ومحكه.

فقلت: كيف ورث أخاك، وأردت منازعتي؟

فقال: إن أخي كان عبداً له، مأذوناً له في التصرف، وكان يتجر ويتصرف، ويؤدي إليه ضريبته، وجمع مالاً وأمتعةً،

بأكثر من ثلاثة آلاف دينار، ثم مات، ولم يخلف أحداً غيري، وأنا رجل ضعيف، مملوك، ولي ابنان طفلان من امرأة

حرة، وهما حران، فأنا أعولهما، وأعول نفسي، وزوجتي، وأؤدي إلى مولاي ضريبته فطمعت في أن أنازعه في

الميراث، وأخذ شيئاً أعود به على نفسي، وأولادي، وعيالي، فقيل لي: إنك لا تترث، فلم أحب منازعتي، صيانة له،

وهو الآن يضايقني.

قال: فقلت للرجل: هو كما قال، إن أخاه كان عبدك، ومات، وخلف عليك تركة قيمتها ثلاثة آلاف دينار؟  
قال: نعم.

فقلت له: ولهذا العبد طفلان حران؟

قال: نعم.

فقلت: قم، فأخره بالدنانير ولا تطالبه بها.

فقال: ما أبرح إلا بالدنانير، أو بحبسه.

فقلت: اقبل رأبي، ولا تلج.

فقال: لا أفعل.

فقلت: إنك متى لم تفعل، خرج من يدك مال جليل.

فقال: لا أفعل.

قال: فقلت للعبد: قد أذنت لك أن تتكلم عن ابنيك الطفلين، وهما - على مذهب عبد الله بن مسعود، وهو مذهبي - أحق بالميراث من مولاه، وإن كنت أنت حياً، فإنك بمنزلة الميت للعبودية، فطالبه عن ابنيك الحرين الطفلين بالتركة.

قال: فطالبه بها.

فأحضرت الشهود، فأعاد الخصومة، والدعوى، ولم أزل بالمولى، حتى أسمعت الشهود إقراره بما كان أقر به عندي، ثم حكمت للإبنين الطفلين بالتركة، وانتزعت جميعها من يده، وسلمت إليه منها عشرين ديناراً، لما أقر له العبد به، وجعلت ذلك ديناً عليه لابنيه.

وسلمت مقدار ثمن العبد، من مال الطفلين، إلى أمين من أمناي، وقلت: اشتر أباهما من مولاه بهذه الدنانير، واعتقه عليهما، ففعل.

وجعلت باقي مال الطفلين في يد أبيهما، وأمين جعلته عليه مشرفاً، وأمرت الأب أن يتجر لهما بالمال، ويأخذ ثلث الربح، بحق قيامه، وحكمت بالجميع، وأشهدت على إنفاذي الحكم له الشهود.  
فقام العبد، وهو فرحان، وقد فرج الله عنه، وآمنه أن يجبس، وعتقت رقبتة، وصار موسراً.  
وقام اللجوج خاسراً حائراً، وقد أخذ عشرين ديناراً، وأعطى ثلاثة آلاف دينار.

ابن الجصاص الجوهرى يلتقط جواهره المبعثرة لم يفقد منها شيئاً

حدثني أبو علي بن أبي عبد الله بن الجصاص، قال: سمعت أبي يقول: إتفق أبي كنت يوم قبض علي المقتدر جالساً في دارى، وأنا ضيق الصدر، ضيقاً شديداً، لا أعرف سببه.

وكان من عادتي إذا لحقني مثل ذلك، أن أخرج جواهر عندي في درج معزولة لهذا، من ياقوت أحمر، وأزرق، وأصفر، وحياً كبيراً ودرراً فاخراً، يكون قيمة الجميع خمسين ألف دينار، وأكثر، وأستلعي صينية ذهب لطيفة، فأجعله فيها، وألعب به، وأقلبه، فيزول ضيق صدري.

فاستدعيت ذلك الدرج، فجاءوني به بلا صينية، فأنكرت ذلك، وأمرت بإحضارها، وفتحت الدرج، وفرغت ما فيه في حجري، ورددته على الخادم، وأنفذته بجيئي بالصينية، وأنا جالس في بستان، في صحن داري، في يوم بارد، طيب الشمس، وهو مزهر بصنوف الشقائق، والمناثير، وأنا ألعب بتلك الجواهر، إذ دخل الناس إلي بالصياح، والمكروه، والكيس، فقربوا مني.

فدهشت، ولم أحب أن يظهروا علي ما في حجري، فنفضت جميعه في ذلك الزهر في البستان، ولم ينتبهوا له. فأخذت، فحملت، وجرى علي ما جرى من المصادرة، وبقيت في الحبس المدة الطويلة، وتقلبت الفصول على البستان، فحجف ما فيه، ولم يفكر أحد في قلعه، أو زراعته، وإثارتها، وأغلقت الدار، فما قربها أحد من أصحابي، ولا أعدائي، بعد الذي أخذ منها، وفرغت، ووقع اليأس من وجود شيء فيها. ثم سهل الله إطلاقي، فأطلقت، فحين جئت إلى داري، ورأيت الموضع الذي كنت جالسا فيه ذلك اليوم، ذكرت حديث الجوهر الذي كان في حجري، ونفسي إياه في البستان. فقلت: ترى بقي منه شيء؟.

ثم قلت: هيهات، هيهات، وأمسكت.

فلما كان في الغد، أخليت الدار، وقمت بنفسي ومعني غلام يثير البستان بين يدي، وأنا أفتش شيئا، شيئا، مما يثيره، وأجد الواحدة بعد الواحدة، من ذلك الجوهر، وكلما وجدت شيئا، حرصت على الإثارة، وطلب الباقي، إلى أن أثرت جميع البستان، فوجدت جميع ذلك الجوهر، ما ضاع لي منه واحدة. فأخذته، وحمدت الله، وعلمت أنه قد بقيت لي بقية من الإقبال صالحة.

الوزير ابن مقله ينكب رجلاً ثم يحسن إليه

حدثني أبو محمد يحيى بن سليمان بن فهد رحمه الله، قال: حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد بن الحجاز، قال: كان أبو علي بن مقله، نكبي، وصادري، لشيء كان في نفسه علي، فأفقرني، حتى لم يدع لي شيئا علي وجه الأرض. وأطلقني من الحبس، فلزمت بيتي حزينا، فقيرا، يتعذر علي القوت. ثم لم أجد بدا من الاضطراب في معاشي، فأشير علي أن ألزم ابن مقله، وأستعطفه، وقيل لي إنه إذا نكب إنساناً فخدمه، رق عليه.

قال: فلزمته مديدة، لا أراه يرفع إلي رأساً، ولا يذكرني.

قال: وكان يعرفني بحسن الثياب ونظافتها، والتفقد في أمر نفسي، أيام يساري.

واتفق أي حضرت داره في يوم جمعة، غدوة، ولم أكن دخلت الحمام قبل ذلك بأسبوع، ولا حلقت شعري، ولا غيرت ثيابي، وأنا وسخ الجسد والثياب، طويل الشعر، وإنما أخرت ذلك لإضاقتي عن مقدار ما أحتاج إليه، ولشغل قلبي أيضاً، وغمي بالفقر المدقع الذي دفعت إليه، وهوان نفسي علي.

فخرج ابن مقله ليركب، فقمت إليه في جملة الناس، فدعوت له.

فحين رأي، تأملني طويلاً، ثم أوماً إلى خادم له بكلام لا أفهمه، وركب.

فجاءني الخادم، فقال: الوزير يأمرك أن لا تبرح من الدار، إلى أن يعود، وأخذني إلى حجرة، فأجلسني فيها.

فقامت قيامتي، وخفت أن يكون قدر أن تكون لي بقية حال، ويريد الرجوع علي بالمطالبة، وليس ورائي شيء، فأتلف.

فنداخني من الجزع أمر عظيم، وحصلت في شدة كانت أشد علي مما مر بي، فلم يكن بأسرع من أن عاد.

فجاءني الخادم، فقال: قم إلى الوزير، فقد طلبك.  
فجئت، حتى دخلت عليه، وهو خال وحده، وليس بين يديه غير أبي الحسين، ابنه، فرحب بي، وأكرمني، ورأيت من  
بره ما زال عني معه الخوف.

ثم قال: يا أبا علي، أعرفك نظيف الثوب، حسن القيام على نفسك، فلم أنت بهذه الصورة؟.

قال: ففطنت أنه لما رأي علي صورتي تلك، رق لي.

فقلت: أيها الوزير، لم يبق لي - والله - حال، وإنه ليتعذر علي ما أغير به هذا المقدار من أمري، وفتحت أبواب  
الشكاية، إلى أن بكيت.

فقال: إنا لله، إنا لله، ما ظننت أن حالك بلغت إلى هذا، ولقد أسأنا إليك.

قال: ثم مد يده إلى الدواة، فكتب لي على الجهبذ، بألف دينار صلة، ووقع توقيعاً آخر، بأن أبيع ضيعة من البيع  
بألفي دينار، بحيث أختار ذلك، ثم قال: خذ هذه الدنانير فاتجر بها، وأصلح منها حالك، وابتع بهذه الألفي دينار  
ضيعة من المبيع، تغل لك ألف دينار في السنة، واخترها، وشاور فيها، فإذا وقع اختيارك عليها، فأسمها لي، لأكتب  
بمبايعتك إيها، لتستكفي بعلتها ستتك، إلى أن أنظر لك بعد هذا، فأرد جاهك، فشكرته ودعوت له، ونهضت.  
فقال: قف، فوقف.

فقال لابنه أبي الحسين: بحياتي عليك، عاون أبا علي حتى يحصل له هذا كله في أسبوع، وفي دفعة واحدة، ولا ينمحن  
عليه.

قال: فوعدي أبو الحسين بذلك، وأمرني بالمصير إليه، فانصرفت.

ورحت إلى أبي الحسين، فأعاني، فحصل ذلك كله لي في أيام قليلة، وحصلت لي الضيعة، فاستغللتها في تلك السنة  
ألف دينار.

ولزمت أبا علي، فعوضني بمكاسب جليلة، عاد إلي منها أكثر مما خرج عن يدي بنكته.

#### ابن عبدون الأنباري الكاتب يكسب في ليلة واحدة مائة ألف دينار

قال محمد بن عبدوس في كتاب الوزراء: حكى عن محمد بن خلف، المعروف بابن عبدون الأنباري الكاتب، إنه  
قال: بينما أنا يوماً أدرج في بعض سكك المدينة، وكانت حينئذ لا يدخلها ركباً إلا من له نباهة، إذ سمعت خلفي  
وقع حوافر، فنظرت فإذا يوسف بن الوليد الأنباري، وكانت بيني وبينه مودة وقرابة، فلم أسلم عليه.  
فقال لي: من أين يا أبا عبد الله؟.

فقلت: إني كسرت هذه السنة ثلاثة آلاف فرسخ، وانصرفت وأنا سبروت.

فقال لي: ثلاثة آلاف فرسخ؟.

قلت: نعم، مضيت إلى مصر، فأخفقت، ثم مضيت إلى فارس، ثم إلى كرمان، ثم إلى خراسان، وانقلبت إلى  
أذربيجان، وانصرفت بغير شيء، وأنا أتمنى أن يهب الله تعالى قوتاً، فأتمونه في بلدي.  
فقال لي: كم يكفيك من الرزق؟.

فقلت: إن كان في بلدي، فخمسة عشر ديناراً في كل شهر، أتقوت بها أنا وعيالي، وهو ما لا فضل فيه لشهوة ولا  
ناية.

فقال: كن معي.

فاتبعته، فصار بي إلى ديوان فيه كتاب، وحجرة لطيفة، فدخلتها، فإذا في صدرها الفضل بن مروان، وهو يكتب حيثئذ للمعتصم، وهو أمير، فوصفني للفضل، ورغبه في استخدامي، فرمى إلي الفضل بكتاب. وقال: أجب عنه بما يجب.

فاستعلمت منه الدعاء، وأجبت الرجل عن الكتاب، وعرضته عليه، فرضي خطي، ولفظي. وقال لي: كم يكفيك في كل شهر من الرزق؟.

فقال له يوسف: الذي ذكر إنه يقنعه خمسة عشر ديناراً في كل شهر.

فقال: هذا قوت، ولا بد من استظهار لثابة، ولكن قد جعلتها ثلاثين ديناراً في كل شهر، فقبلت يده.

فقال: الزمي ليلك ونهارك، طلبتك أم لم أطلبك، فإن الملازمة رأس مال الكاتب.

قال: فلزمته كما رسم.

وكان صالح بن شيرزاد، يخلفه في دار المعتصم، وقد استولى على المعتصم بحيلته، وتلففه، على حمارية كانت فيه، وكره ذلك الفضل بن مروان، واجتهد في قلعه، فلم يتمكن.

فقال لي يوماً، ما في نفسه من ذلك، وقال: أنا أحب أن أجعلك مكانه، إلا أني أخوف أن تسلك مسلكه، فهل فيك خير؟.

فقلت: قد عرفت أخلاقي وطبعي، فإن كنت عندك ممن يصلح للخير، وإلا فلا تنق إلي.

فكان في هذا التدبير، حتى حدث أمر القبط بمصر، فندب المأمون أخاه أبا إسحاق، لخاربهم، في سنة اثني عشرة ومائتين.

فخرج أبو إسحاق إلى مصر، ومعه الفضل بن مروان، واستخلف صالح بن شيرزاد بحضرة المأمون، فيما لا يضره أن يغلب عليه، وسله عن المعتصم، وجعلني مكانه، وشخصنا.

فكسبت مع المعتصم، في ليلة واحدة، مائة ألف دينار حلالاً طيباً، وذلك إن القتل كثر في أهل مصر، وجلا الباقون، وأشرف البلد على الخراب.

وشق ذلك على المأمون، وأنكره على أبي إسحاق، إنكاراً شديداً، فكان فيما رآه، تسكين الناس، وردهم إلى مصر. فوردت علي في يوم واحد، كتب جماعة من رؤساء البلد، يسألون الأمان لهم.

فقلت للفضل في ذلك.

فقال: أجهم إلى ما التمسوا، وأجب كل من سأل مثل ذلك.

فكثبت في ليلة، لمائة رجل، أماناً، فظهروا، وبعث إلي كل واحد منهم، من ثلاثة آلاف دينار، إلى ألف دينار، إلى خمسمائة دينار، وبعضهم لم يبعث إلي شيئاً.

فحصلت ما اجتمع لي، فكان مائة ألف دينار، وأحييت مائة إنسان، وفرجت عنهم، وعن أتباعهم، ومن يلوذ بهم، وكشفت كربة عظيمة عن أبي إسحاق.

الفضل بن سهل ومسلم بن الوليد الأنصاري

أخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، قال: أخبرني حبيب ابن نصر المهلبي، قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد، قال:

حدثني محمد بن عبد الله بن سليمان، عن أبي الخطاب الأزدي، قال: كان مسلم بن الوليد، والفضل بن سهل،

متجاورين في قنطرة بردان، وكانا صديقين.



قال مسلم: فأعسرت إعساراً شديداً، ولحقتني محنة، وولي الفضل بن سهل الوزارة بمرو، فتحملت إليه على مشقة.  
فلما رأني رحب بي وأدناني، وقال: أأست القاتل؟

فأجر مع الدهر إلى غاية... ترفع فيها حالك الحال  
فقلت: نعم.

قال: صرنا إلى هذه الحال، وصرت بنا إليها، وأمر لي بثلاثين ألف درهم، وولاني عملاً اخترته.  
فانصرفت عني الخنة التي كنت أعانيها، وحصلت لي نعمة طائلة.  
قريء على أبي بكر الصولي وأنا أسمع، في كتابه، كتاب الوزراء، بالبصرة، في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، حدثكم  
أحمد بن يزيد المهلي، قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد، فذكر بإسناده نحوه، إلا أنه ذكر في الشعر زيادة أربعة  
أبيات، لا تتعلق بكتابي هذا فأذكرها، وذكر أن الفضل ولي مسلماً بريد جرجان.

### كيف طهر عثمان بن حيان المري المدينة من الغناء

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: أخبرني الحرمي بن أبي العلاء، قال: حدثنا الزبير بن بكار، قال: حدثني عمي  
مصعب، عن عبد الرحمن بن المغيرة الحرامي الأكبر، قال: لما قدم عثمان بن حيان المري المدينة والياً عليها، قال له  
قوم من وجوه الناس: قد وليت المدينة على كثرة من الفساد، فإن كنت تريد أن تصلح، فطهرها من الغناء والزناء.  
فصاح في ذلك، وأجل أهله ثلاثاً، يخرجون فيها من المدينة.

وكان ابن أبي عتيق غائباً، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح، فلما كان في آخر ليلة من الأجل، قدم.  
فقال: لا أدخل منزلي حتى أدخل على سلامة القس.

فقال لها، وقد دخل عليها: ما دخلت منزلي، حتى جئتكم أسلم عليكم.

قالوا: ما أغفلك عن أمورنا، فأخبروه الخبر.

فقال: اصبروا لي الليلة.

فقالوا: نخاف أن لا يمكنك شيء، وتوذي.

فقال: إن خفتم شيئاً، فاخرجوا في السحر.

ثم خرج، واستأذن على عثمان بن حيان، فأذن له، فسلم عليه، وذكر غيبته، وأنه جاء ليقضي حقه، ثم جزاه خيراً  
على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزناء.

وقال: أرجو أن لا تكون عملت عملاً، هو خير لك من ذلك.

قال عثمان: قد فعلت ما بلغك، وأشار علي به أصحابك.

قال: قد وفقت، ولكن ما تقول يرحمك الله في امرأة كانت هذه صناعتها، ثم تركتها، وأقبلت على الصيام والصدقة  
والخير، وإني رسولها إليك تقول: أتوجه إليك، وأعوذ بك أن تحرجني من جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم،  
ومن مسجده.

فقال: إني أدعها لك ولكلامك.

فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس، ولكن تأتيك، وتسمع كلامها، وتنظر إليها، فإن رأيت أن مثلها يسع أن تترك،  
تركتها.

قال: نعم.

فجاءه بها، وقال لها: احلمي معك سبحة، وتخشي، ففعلت.  
فلما دخلت على عثمان، حدثته، فإذا هي من أعلم الناس بأمر الناس، فأعجب بها، وحدثته عن آباءه وأموالهم  
ففكك لذلك.

فقال لها ابن أبي عتيق: اقرئي للأمير، فقرأت.

فقال لها: احدي له، ففعلت، فكثير عجبها بها.

فقال: كيف لو سمعتها في صناعتها، فلم يزل ينزله شيئاً شيئاً، حتى أمرها بالغناء، فقال لها ابن أبي عتيق، غني:

سددن خصاص البيت لما دخلته ... بكلّ لبان واضح وجين

فغنته، فقام عثمان بن حيان، فقعده بين يديها، ثم قال: لا والله، ما مثل هذه تخرج.

فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس، يقولون أقر سلامة، وأخرج غيرها.

فقال: دعوهم جميعاً، فتركوهم.

وأصبح الناس يتحدثون بذلك، يقولون: كلم ابن أبي عتيق الأمير في سلامة القس، فتركوا جميعاً.

أضاع كيسه واستعاده بعد سنة

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، الكاتب اللغوي، المعروف بالحتمي، قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن عبد الواحد،

قال: أخبرنا ثعلب، قال: أخبرنا عمر بن شبيه، قال: حدثني سعيد بن عامر، قال: حدثنا هشام بن خالد الربيعي، قال:

دخلت المسجد، ومعني كيس فيه ألف درهم، لا أملك غيره، فوضعت على ركن سارية، وصليت، ثم ذهبت ونسيته.

فكرني أمره، وفدحت حالي لفقده، فما حدثت بذلك أحداً سنة، وجهدي الضر.

قال: فصليت من بعد ذلك، إلى تلك السارية، ودعوت الله، وسألته رده علي، وعجز إلى جانبي تسمع قولي.

فقلت: يا عبد الله ما الذي أسمعك تذكر؟

قلت: كيساً أنسيته على هذه السارية عام أول.

قالت: هوذا عندي، وأنا منذ سنة أراقبك، فجاءت به بخاتمه.

عبد الله بن الزبير يطالب بني هاشم بالبيعة أو يضرب أعناقهم

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، المعروف بالحتمي، قال: أخبرني عيسى بن عبد العزيز الطاهري، قال: أخبرني

الدمشقي، عن الزبير بن بكار، قال:

جمع عبد الله بن الزبير بني هاشم بمكة، وقال: لا تمضي الجمعة حتى تبايعوا، أو أمر بضرب أعناقكم.

فنهض إليهم قبل الجمعة يريد قتلهم، فناشده المسور بن مخزوم الزهري أن يدعهم إلى الوقت الذي وقت لهم، وهو

يوم الجمعة، ففعل.

فلما كان يوم الجمعة، دعا محمد بن الحنفية رضي الله عنه خادماً له بغسل وثياب، وهو لا يشك في القتل.

وقد كان المختار بن أبي عبيد بعث أبا عبد الله وأصحابه إليهم، فجاءهم الخبر بحال محمد بن الحنفية، وما دفع إليه

من ابن الزبير، وقد نزلوا ذات عرق، فدخل منهم سبعون رجلاً حتى وافوا مكة صبيحة يوم الجمعة، فشهبوا

السلاح، ونادوا يا محمد.

فبلغ الخبر ابن الزبير، فراعته، وتخلص محمد رضي الله عنه، ومن كان معه، وأرسل محمد، علي بن الحسين بن علي بن

أبي طالب رضي الله عنه، فنادى في القوم الذين أنفذهم المختار: من كان يرى لله تعالى عليه حقاً، فليستأمر نفسه،

فإنه لا حاجة لي بأمر الناس له كارهون، وأنا إن أعطيتها عفواً قبلتها، وإن كرهوا ذلك لم أختبره.  
فبعث ابن الزبير إلى محمد: إني أصالحك على أن تتسحى عني، فتلحق بأيلة، فأجابه إلى ذلك، ولحق بأيلة.  
وكف الله تعالى ابن الزبير، وقبض يده عما حاوله من قتله، وقتل أهل بيته.

### عاقبة الظلم

وجدت في بعض الكتب: حدث علي بن المعلی، عن الزهري البصري، قال: كنا جلوساً عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام، وذكر حديثاً فيه: أن أبا عبد الله قال: إن قوم سدوم، هلكوا بمجوسي.  
قيل: ما سبب ذلك؟

قال: أما تعرفون بالبصرة عندكم جسراً، يقال له: جسر الخشب؟  
قلنا: بلى.

قال: ذاك جسر سدوم، جاءه رجل مجوسي، ومعه زوجته حاملاً، راكبة حمراً، تريد العبور، فمنعوا إلا أن يأخذوا خمسة دراهم، فأبى أن يعطيا ذلك، فطلبوا منهما عشرة دراهم، فأبى أن يعطيا ذلك، فشمصوا الحمارة، وقطعوا ذنبه، فاضطربت المرأة، فأسقطت جنينها، فاشتدت بالمجوسي محنته.  
وقال: إلى من نتظلم فيما فعل بنا؟

فقيل: إلى صاحب هذا القصر.

فدخل إليه، وقال: فعل بي كيت وكيت.

قال: لا بأس، ادفع إليهم حمارك، يعملوا عليه إلى أن ينبت ذنبه، وادفع إليهم زوجتك، حتى يطؤها إلى أن تحمل.  
فرفع المجوسي رأسه إلى السماء، وقال: اللهم، إن كان هذا حكم من عندك، وأنت به راض، فأنا به أرضى، وأرضى.

فبعث الله إليه ملكاً من الملائكة، فأخذ بعضده، وعضد زوجته، فعبر بهما الجسر.

فقال له: يا عبد الله من أنت؟ فلقد مننت علي.

قال: أنا ملك من الملائكة، لما أن قلت: اللهم إن كان هذا حكم من عندك، وأنت به راض، فأنا أرضى وأرضى، بعثني الله لأخلصك، فالتفت إلى القوم، وانظر ما أصابهم.

فالتفت المجوسي، فإذا القوم قد خسف بهم.

دواء عجيب وضعه الطبيب للكاتب زنجي

أخبرني علي بن نصر بن فنن، الكاتب النصراني: أن أبا عبد الله زنجي الكاتب، سرق منه مال جليل، وكان شديد البخل، فنال غم شديد، حتى أحل جسمه، واجتهد في صرف الهم والغم عنه، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً.  
فشاور الأطباء في ذلك، وعملوا له أشياء وصفوها له، فما نجعت، إلى أن استشار علي بن نصر، الطبيب النصراني، جده، وكان يطب زنجي ويلزمه، فأشار عليه أن يصوغ إهليلجة من ذهب، ويمسكها في فيه.  
ففعل ذلك، فلم تمض إلا أيام، حتى زال غمه، وعاد إلى صحة جسمه.

يا غياث المستغيثين أعني

وجدت في بعض الكتب: حكى أن رجلاً خرج في وجه شتاء، فابتاع بأربعمائة درهم، كان لا يملك غيرها، فراخ الزرياب للتجارة.

فلما ورد دكانه ببغداد، هبت ريح باردة، فأماتتها كلها إلا فرخاً واحداً، كان أضعفها وأصغرهما، فأيقن بالفقر.  
فلم يزل يتهلل إلى الله تعالى ليلته أجمع بالدعاء والاستغاثة، ويسأله الفرخ مما لحقه، وكان قوله: يا غياث المستغيثين،  
أعثنى.

فلما انحلى الصبح، زال البرد، وجعل ذلك الفرخ الباقي ينفش ريشه، ويقول: يا غياث المستغيثين، أعثنى.  
فاجتمع الناس على دكان الرجل، يرون الفرخ، ويسمعون الصوت.  
فاجتازت جارية راكبة، من جوارى أم المقتدر، فسمعت صوت الطائر، ورأته، واستامته، وتقاعد الرجل، فاشتريته  
بألفي درهم، وأعطته الدراهم، وأخذت الطائر.

قصة سلمة الأنباري النصراني

وجدت في بعض الكتب:

## كتاب : الفرج بعد الشدة

المؤلف : القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي

كان بسر من رأى، ثلاثة إخوة نصارى أنباريون، أحلهم موسر، ولم يسم، والثاني متجمل، يقال له عون، والثالث، يقال له سلمة، فقير، قال أمر سلمة فيما يكابده من شدة الفقر، إلى أن تعذر عليه قوت يومه.

فمضى إلى أخيه عون، وسأله أن يتلطف إلى أخيه الموسر، في أن يشغله فيما يعود عليه نفعه، ويخدمه فيه، بدلاً من الغريب.

فامتنع الأخ الموسر من ذلك، وعاوده دفعات، واستعطفه، وضره يترايد.

فقال الموسر، على سبيل الولوج: إن شاء أن أصيره مكان الشاكري، وصبر على العدو، فعلت.

فعرض عون على سلمة ذلك، فقال سلمة: ما عرض أخونا علي هذا إلا لأمتنع، ويجعله حجة، وأنا أستجيب إليه وأصبر، وأرجع إلى الله تعالى، في كشف الحال التي أكون فيها معه، وأرجو الفرج ببغيه علي، ولا أضع نفسي بمسألة الناس، ففعل ذلك.

فكان أخوه يركب، وهو يمشي في أثره بطليسان ونعل، حتى لا يظهر أنه غلامه، وإذا نزل في موضع، لحقه، وأخذ ركابه، وتسلم المركوب، وحفظه إلى أن يخرج.

فلم يزل على هذا، إلى أن طلب وصيف الكبير، رفيق بغا، من يجلسه بباب داره، فيكتب ما يدخل إلى المطبخ، من الحيوان، والحوائح، ليقايس به ما يحتسب عليه.

فوصف عون، أخاه سلمة، لذلك، ووجه إليه فأحضره، فامتنع، وذكر أنه لا درية له به، ولا فيه آلة له.

فضمن له عون معاونته، وإجمال الحساب في كل عشية، وأجري عليه رزق يسير.

وجلس بالباب، وصار يدعو بالحمالين، فيثبت ما يحضرونه، ويرفع في كل يوم مدرجاً بفضيل ذلك.

فلما انقضى الشهر جمع وصيف المدارج، وأحضر كاتباً غريباً، وتقدم إليه أن يؤرجحها على أصنافها.

وعمل كاتب ديوانه عملاً بما رفعه الوكلاء في ذلك الشهر، فظهرت فيه زيادة عظيمة، فحطت وتوفر ماها.

وحسن موقع ذلك من وصيف، وأحضر سلمة، وما كان رآه قبل ذلك، وصرف المتصرفين في المطبخ به، وأسنى جاتوته.

فتوفر على يده في الشهر الثاني، مما كان حط من الأسعار، ما حسن موقعه.

فرد إليه قهرمة داره، فتتابعت التوفيرات، واتصلت جواتره إياه، وزيادته في جاريه.

وطالت مدة خدمته لوصيف، وغلب على حاله، واتفق له خلوة المتوكل، وحضور وصيف.

فقال لوصيف: قد كثر ولدي، وأريد لهم شيخاً، عفيفاً، ثقة، ليس فيه بأو، ولا مخرفة، لأفرد لهم على يده إقطاعات أجعلها لهم، فلست أحب أن أوسط كتابي أمره.

فوقع في نفس وصيف، أن يصف سلمة، ويحل به، فلم يزل يتردد ذلك في قلبه.

ثم قال: أعلم يا مولاي، إن الله قد رزقني هذه الصفة التي تريدها مني، والرجل عندي، فإذا فكرت في حقوقك، وأن نعمتي منك، لم أستحسن أن أكتمك، وإذا فكرت فيما أفقده منه، توقفت، والآن، فقد أنطقني إقبالك بذكره، وهو

سلمة بن سعيد النصراني.

فقال: أحضرنيه الساعة.

فأحضره في الوقت، فحين عاينه المتوكل وقع في نفسه صحة ما وصفه، فوقع لكل ابن ياقطع ثلثمائة ألف درهم، ولكل ابنة بمائة وخمسين ألف درهم، وقيل أن المتوكل مات عن خمسين ابناً، وخمس وخمسين ابنة، ودفع إليه التوقيع. وقال له: نجز هذا، واختر من الضياع ما ترى، وانصب لها ديواناً، ووصله، وجعل له منزلة كبيرة، بكتابة الولد. فلما فرغ من ذلك، وقام به، جرى أمر آخر، أوجب أن رد إليه أيضاً أمر سائر الحرم، وجعل له قبض جراياقهن، وأرزاقهن، وإنفاق ذلك عليهن، وصرف وكلاءهن، وأسبابهن عنهن، وزادت منزلته بذلك لكثرة الحرم. فبينما سلمة يتردد في دار المتوكل، إلى مقاصير الولد والحرم، وقعت عين المتوكل عليه، فاستدعاه. وقال له: يا سلمة، ما أكثر ما يذهب على الملوك، حفظت بك ولدي، وحرمني، وأضعت نفسي، وليس لي منك عوض، قد رددت إليك بيت المال، وخزائن الفرش، والكسوة، والطيب، وسائر أمر الدار، فتسلم ذلك، واستخلف عليه من تتق به.

وكان قد أنكر عليه، في بعض خدمته، شيئاً فأمر باعتقاله، ففرشت له حجرة، وترك خلفاؤه يعملون. ثم ذكره في الليل، وهو يشرب، فقال لخدمته: امض إلى الحجرة التي فيها سلمة، فاطلع عليه، وعرفني الصورة التي تجده عليها.

فعاد وذكر أنه وجده يسود، ثم أعاده بعد وقت آخر، فوجده على ذلك، وأعاده الثالثة، فكانت الصورة واحدة. فاستحضره، وقال: أنت شيخ كبير، تسود ليجود خطك في الآخرة، أو لتصل به في الدنيا إلى أكثر مما وصلت إليه.؟

قال: لا هذا ولا هذا، ولكنك لما اعتقلتي، وأقررت أصحابي، وثقت بحسن رأيك، فلم أقطع التأهب لخدمتك، لأني أكاتبتك كثيراً، فيما أستأمرك به، فأنا أحب أن لا تقع عينك على ما تستقبحه من الخط. فحسن موقع هذا القول من المتوكل، وأمر بإحضار حقة، فيها خاتم الخاصة، فدفعه إليه. وقال: هذا خاتمي، وقد رددت إليك ختم ما كنت أختمه بيدي، من غير أن تستأمرني فيه، ليعلم الخاص والعام، أي رفعت منك، وزدت في محلك، ولا يخلقك عندهم الاعتقال، ثم رآه المتوكل بعد ذلك، في وقت من الأوقات، ماشياً في الدار، فقال: سلمة شيخ كبير، هوذا يهرم ويتلف بهذا المشي، لأنه يريد أن يطوف في كل يوم، على الحرم والولد، وقد رأيت أن أجره مجرى نفسي، في إطلاق الركوب له في داري. وكان المتوكل يركب حماراً يتخطى به في الممرات، ويركب سلمة حماراً أيضاً، ولم يكن في الدار من يركب غيرهما.

## الحرم

الحرم: النساء لرجل واحد، وحریم الرجل: ما يدافع عنه ويحميه، ولذلك سميت نساء الرجل: الحرم. وكان حریم المتوكل يشتمل على أربعة آلاف سرية تاريخ الخلفاء ٣٥٠ منهم خمسمائة لفراسه شنرات الذهب ٢ - ١١٤ وقد أهدى إليه عبید الله بن عبد الله بن طاهر، أربعمائة جارية، مرة واحدة، للمستطرف من أخبار الجوارى للسيوطي ٦٣.

أما المعصم، والد المتوكل، فإنه لما توفي سنة ٢٢٧ كان من جملة ما ترك ثمانية آلاف جارية شنرات الذهب ٢ - ٦٣.

وأما المأمون، حكيم بني العباس، فقد كان حريمه يشتمل على مائتي جارية فقط المستطرف من أخبار الجوارى ٦٩. أما الرشيد، فقد كان حريمه يشتمل على أكثر من ألفي جارية، سوى ما كان لزوجته زبيدة من الجوارى ويزيد عددهن عن ألفي جارية أيضاً الأغاني ١٠ - ١٧٢ ونهاية الأرب ٤ - ٢١٤ و ٢١٥ ونشوار المحاضرة رقم القصة ٥ - ٦٤.

وكان في دار المقتدر، أربعة آلاف امرأة، بين حرة ومملوكة رسوم دار الخلافة ٨. ولم يكن الإكثار من الجوارى مقصوراً على الخلفاء وحدهم، وإنما تعدى ذلك إلى أتباعهم، والمترفين من الأمراء، والرعية.

وعلى سبيل المثال، لا الحصر، نورد أن عتابة، أم جعفر البرمكي، كانت تخدمها أربع مائة وصيفة وفيات الأعيان ١ - ٣٤١.

وأن عمر بن فرج الرخجي، أحد العمال الأشرار، كانت لديه مائة جارية الطبري ٩ - ١٦١. وأن زوجة يعقوب بن الليث الصفار، كانت لديها ألف وسبع مائة جارية وفيات الأعيان ٦ - ٤٢٩. وأن بلكين الصنهاجي، خليفة المعز الفاطمي على أفريقية ت ٣٧٣ كانت لديه أربع مائة حظية وفيات ١ - ٢٨٧. وأن العزيز الفاطمي توفي سنة ٣٨٦ عن عشرة آلاف جارية إتعاظ الحنفا ٢٩٥. وأن ست النصر، أخت الحاكم الفاطمي ت ٤١٥، تركت أربعة آلاف جارية بين بيضاء وسوداء ومولدة بدائع الزهور ١ - ٥٨.

وأن نصر الدولة الحميدي، صاحب ميافارقين ت ٤٥٣، كانت لديه ثلاث مائة وستون جارية، بعدد أيام السنة وفيات الأعيان ١ - ١٧٧ والوفاي بالوفيات ٨ - ١٧٦. وكان للمعتمد بن عباد اللخمي، صاحب أشبيلية ت ٤٨٨ ثمان مائة سرية شذرات الذهب ٣ - ٣٨٦ ومراة الجنان ٣ - ١٤٧.

وكان لأبي زبور، الوزير بمصر ت ٣١٤ سبع مائة جارية شذرات الذهب ٦ - ١٧٣. وكان عند الوزير يعقوب بن كلس، وزير العزيز الفاطمي ت ٣٨٠ ثمان مائة حظية، سوى جوارى الخدمة خطط المقريري ٢ - ٨.

وكان في دار ابن نجية الواعظ ت ٥٩٩ عشرون جارية للفراش، تساوي كل جارية ألف دينار الذيل على الروضتين ٣٥ فأعجب لواعظ يرتبط لقراشه عشرون جارية. ومات السلطان الناصر محمد بن قلاوون ت ٧٤١، عن ألف ومائتي وصيفة مولدة، سوى من عداهن من بقية الأجناس خطط المقريري ٢ - ٢١٢ وماتت زوجته الخوندة طغاي سنة ٧٤٩ عن ألف جارية خطط المقريري ٢ - ٤٢٦، أما الخوندة أردوتكين، زوجة الملك الأشرف خليل، وزوجة الملك الناصر محمد بن قلاوون من بعده، ت ٧٢٤، فقد كان لها من المماليك أكثر من ألف، ما بين جارية وخادم خطط المقريري ٢ - ٦٣. وكان مقبول خان وزير فيروز شاه ملك الهند ٧٥٢ - ٧٩٠ يملك ألفي جارية، من بينهن الرومية، والصينية، والفارسية الاسلام واللؤلؤ الاسلامية في الهند ص ٢٢.

وفي مقابل من ذكرنا، نورد أن الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز لما استخلف، خير جواريه، وأعتق من رغبت في العتق، واقتصر على زوجته ابنة عمه، فاطمة بنت عبد الملك تاريخ الخلفاء ٢٣٥.

أما أبو العباس السفاح، أول الخلفاء العباسيين، فإنه تزوج أم سلمة المخزومية، قبل الخلافة، فلم يتزوج عليها، ولم يتسر، ولما استخلف ظل على وفائه لها، فلم يذن إلى امرأة غيرها، حرة ولا أمة، إلى أن مات راجع التفصيل في مروج الذهب للمسعودي ٢ - ٢٠٦ - ٢٠٨.

وكذلك كان المتقي، إبراهيم بن المقتدر ت ٣٥٧، فإنه لما استخلف لم يتسر على جاريتته التي كانت له تاريخ الخلفاء ٣٩٤.

وتابعهم في ذلك ملك العرب سيف الدولة، صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي ت ٥٠١، فإنه اكتفى بزوجة واحدة، لم يتزوج عليها، ولم يتسر المنتظم ٩ - ١٥٩.

وكذلك كان المستعصم، آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ت ٦٥٦ فقد كانت له - وهو أمير - جاريتان، فلما استخلف لم يتغير عليهما خلاصة الذهب المسوك ٢٩١.

### الحمار

قسم صاحب معجم الحيوان، الحمير، إلى أربعة أنواع، حمار البيت، وحمار قبان، وحمار الزرد، والحمار العتايي معجم الحيوان ٢١، ٩٨، ١٧٥، ٢٦٥، ٢٧٠ وفي دائرة المعارف الإسلامية ٨ - ٦٥ قسم الحمارة إلى أهلي ووحشي، والأهلي إلى دابة ركوب، ودابة حمل، ووصف حمار الركوب، بأنه سريع العدو، يهتدي إلى الطريق، ولو سلكه مرة واحدة، وأنه حاد السمع، قليل المرض، وذكر أن العرب لا يركبون الحمير استكفاً.

أقول: إن العرب في صدر الإسلام، لم يكونوا يستكفون من ركوب الحمارة، فإن النبي صلوات الله عليه كان يركب الحمارة للمخلاة للبهائي ٢٩٢ والخليفة عمر بن الخطاب، وهو قدوة، ركب حماراً أرسنه بجبل أسود العقد الفريد ٤ - ٢٧١ ولما قدم الشام، قدمها على حمار العقد الفريد ٤ - ٣٦٥ و ١ - ١٤ والبصائر والذخائر ٤ - ٣٠.

ثم تغير الحال، فأصبحت الخيل مركب الخلفاء، والأمراء، والأميرات، والوزراء، والقواد، وقد روى ياقوت في معجم الأدباء ٥ - ٤٨٥ و ٤٨٦ قصة عن جمال الدين بن القفطي ذكر فيها أن والده قدم مصر، لم تكن دوابه معه، فأبى أن يركب حماراً.

واستمر على ركوب الحمارة، التجار البغداديون القصة ٢ - ٥٤ و ٣ - ٥٦ من نشوار الخاضرة والشعراء ومتوسطو الحال نهاية الأرب ٤ - ٧١ و ١٠ - ٩٩ و ١٠٠ وفوات الوفيات ٣ - ١٤٠ والفقهاء والقضاة القصة ٣ - ٤٠ من نشوار الخاضرة، وشذرات الذهب ٢ - ٢٢٠ وكذلك عقيلات النساء القصة ٣١٧ من هذا الكتاب.

ومن عرف بركوب الحمارة خالد بن صفوان البصائر والذخائر م ٢ ق ٢ ص ٥٨٨ و ٥٨٩، وأبو عبيدة معمر بن المشني مرآة الجنان ٢ - ٤٥، وابن جامع القرشي المغني الأغاني ٦ - ٢٩١ ونهاية الأرب ٤ - ٣٠٦، وعيسى بن مسكين فقيه المغرب وقاضي القيروان مرآة الجنان ٢ - ٢٢٤، وأبو يزيد النكاري، الخارج بالمغرب على القاطمين اتعاط الخفناص ٧٠. وأبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد الملح والواد للحصري ص ٢٣٠.

ومن الطريف أن نذكر أن أبا القاسم الضحاك بن مزاحم البلخي المفسر ت ١٠٥ كان مؤدباً، وكان في مكتبته ثلاثة آلاف صبي، وكان يطوف عليهم على حمار ميزان الاعتدال ٢ - ٣٢٥.

وكان الخلفاء، يركبون الحمير، في أوقات التخفف، وفي بيوتهم، وفي بساتينهم، وخرج الوليد بن يزيد مرة على المغنين، وهو راكب على حمار الأغاني ١٣ - ٢٧٨، وكان الهادي يركب حماراً فارهاً تاريخ الخلفاء ٢٧٩، وخرج



مرة ليعزي أحد أفراد حاشيته وهو على حمار أشهب الطبري ٨ - ٢٩١، وزار عبد الله بن مالك، وهو على حمار الطبري ٨ - ٢١٦، وكان الرشيد يركب حماراً مصرياً أسود اللون، قريباً من الأرض، يطوف به على جواريه الخاسن والأضداد ١٧٤ ومطالع البلور ١ - ٢٣٨ ويخرج به لعيادة من يريد عيادته الأغاني ٥ - ٢٥٣ ونهاية الأرب ٤ - ٣٤١ وزيارة من يزوره الأغاني ١٠ - ١٧٥، وانتبه مرة في نصف الليل، فقال: هاتوا حماري، وركبه، وخرج الأغاني ١٠ - ١٧٦، وعاد المعتصم ولده الواثق، ثم رجع ركباً حماراً الأغاني ٨ - ٢٥١ و٢٥٢ ونهاية الأرب ٤ - ٢٣٢ وكان يركب الحمار عند خروجه من داره متخففاً القصة ٧ - ١٢٥ من نشوار المحاضرة، وكان العزيز الفاطمي يركب الحمار إتعاض الحنفا ٢٩٤، وكان الحاكم الفاطمي، يركب الحمار، ويلور في الأسواق شنرات الذهب ٣ - ١٩٣ وخطط المقريري ٢ - ٢٨٨ ومات الحطيئة الشاعر، وهو على حمار فوات الوفيات ١ - ٢٧٩.

ومما يجدر ذكره أن الرشيد، لما أمر بقتل جعفر البرمكي، دخل عليه مسرور، وأخرجه إخراجاً عنيفاً، وقيده بقيد حمار، ثم ضرب عنقه الطبري ٨ - ٢٩٥.

وكان الحمار مركب المتحابين إذا خرجوا الموعد الأغاني ١ - ٣٩٥ ومركب القهرمانات إذا بارحن القصور من أجل أشغال السادة القصة ٤٧٨ من هذا الكتاب، ومركب المغنين والمغنيات والجواري القصة ٤٧٩ من هذا الكتاب، ونهاية الأرب ٥ - ٣١ و ١١٠ ومركب رجال الدولة إذا خرجوا متكرين القصة ٤٧١ من هذا الكتاب، والقصة ٢ - ٢ من نشوار المحاضرة.

وكان المتوكل يركب الحمار في داره كما في هذه القصة، وكان يصعد إلى أعلى منارة سامراء، وهو على حمار مريسي لطائف المعارف ١٦١، أقول: هذه المنارة، ما زالت شاحخة في لجو، يسميها الناس: الملوية، والطريق إلى أعلاها، يتلوى حولها، من خارجها.

ولما بنى المكتفي قصر الناج، بنى قبة على أساطين رخام، عرفت بقبة الحمار، لأنه كان يصعد إليها، في مدرج حولها، كمنارة جامع سامراء، على حمار صغير الجرم، وكانت عالية مثل نصف دائرة كتاب دليل خارطة بغداد ص ١٢٦.

أقول: لما زرت بلاد الأندلس في السنة ١٩٦٠، أبصرت في أشبيلية، من آثار المسلمين الباقية، مأذنة، يسمونها: الجير الدا، ذات علو شاهق، يصعد إليها من باطنها، في طريق يتسع لستة أشخاص، يسرون جنباً إلى جنب، وذكروا لنا أن المؤذن كان يصعد إلى أعلى هذه المأذنة، ركباً حماراً، ووجدت أهالي أشبيلية، يفتخرون بهذه المأذنة، ويقولون: إن من صعد إلى أعلى برج إيفل بباريس، أبصر باريس كلها، أما من صعد إلى أعلى الجير الدا، فإنه يرى الدنيا كلها.

وكان الناس يغالون في حمير مصر، وهي موصوفة بحسن المنظر، وكرم المخبر لطائف المعارف ١٦١ ونهاية الأرب ١٠ - ٩٣، وأهل مصر يعنون بتربية الحمير، والقيام عليها، لما يجلوونه فيها من الفراهة، وسرعة الحضر، والنجابة، ويبالغون في أثمانها، حتى يبيع في بعض السنين، حمار، بمائة دينار وعشرة دنانير، وكان صاحبه يسمع أذان المغرب بالقاهرة، فيركب، ويسوقه، فيلحقها بمصر، وبينهما ثلاثة أميال مطالع البلور ٢ - ١٨٢.

وذكر ابن سعيد: أن المغاربة كانوا يأنفون من ركوب الحمار، خلافاً لأهالي مصر، فإن أعيان مصر، والفقهاء، والسادة، يركبون الحمير خطط المقريري ١ - ٣٤١ ونفح الطيب ٢ - ٣٣٩ حتى إن ابنة الإخشيد محمد بن طغج، كانت تقطع الأزقة في القاهرة وهي على ظهر حمار خطط المقريري ١ - ٣٥٣.

أقول: لم تقتصر الأنفة من ركوب الحمار على المغاربة المسلمين، وإنما تعدتهم إلى إفرنج أسبانيا، فإن الملك الفونس، لما انكسر في السنة ٥٩١ في المعركة بينه وبين السلطان أبي يوسف الموحد، حلق ألفونس رأسه، وركب حماراً،

وأقسم لا يركب فرساً حتى ينتصر ابن الأثير ١٢ - ١١٥، وكذلك صنع علاء الدين الغوري، في السنة ٦٠٢، فإن أهالي غزنة هبوا جميع ما كان لديه، فلما وصل إلى باميان، لبس ثياب سوادى، وركب حماراً، وقال: أريد أن يراي الناس وما صنع بي أهل غزنة، حتى إذا عدت إليها وأخربتني لا يلومني أحد ابن الأثير ١٢ - ٢٢٠. وذكر القزويني، في آثار البلاد ٢٦٢: أن الحمير المريسية، نسبة إلى المريسة في ناحية الصعيد بمصر، من أجود حمير مصر، وأمساها، وأحسنها صورة، وأكبرها، تحمل إلى سائر البلاد للتحف، وليس في شيء من البلاد مثلها، والبلاد الباردة لا توافقها، فتموت فيها سريعاً. وخرج توقيع عبد الله بن طاهر: إذا وجدتم البرذون الطخاري، والبغل البرذعي، والحمير المصري، والرقيق السمرقندي، فاشتروها، ولا تستطلعوا رأينا فيها، لطائف المعارف ٢١٩.

وروى صاحب مطالع البلور ٢ - ١٨٣ طريفتين عن الحمير، الأولى: ذكر إنه ركب حماراً، من مصر إلى القاهرة، فلما كان في أثناء الطريق، حاد به عن السكة، وجهد أن يرده، فلم يطق، حتى انتهى إلى جدار بستان، فوقف، وبال، وعاد إلى الطريق، وكذلك جرى له مع حمارين آخرين، والطريقة الثانية: إن حماراً كان بمصر، يجتمع عليه الناس، ويجمعون له مناديل، تلقى على ظهره، ثم يأمره صاحبه بإعادة كل منديل إلى صاحبه، فيدور في الحلقة، ولا يقف إلا على من له في ظهره منديل، فإن أخذه، ذهب عنه، وإن أخذ غيره، لا يذهب، ولو ضرب مائة ضربة، ويأخذ الخاتم من إصبع الرجل، ويسأله عن وزنه، فيقول: كم وزن الخاتم؟ فإن كان وزنه درهماً، مشى خطوة واحدة، وإن كان درهماً ونصفاً، مشى خطوة ونصفاً، وهكذا، وبينما هو واقف، يقول له شخص: الوالي يسخر الحمير، فما يتم كلامه، إلا ويلقي الحمير نفسه على الأرض، وينفخ بطنه، ويقطع نفسه، كأنه ميت من زمان، فإذا قيل له، بعد ذلك، ما بقيت سخرة، ينهض قائماً.

وكان القاضي، أو الوالي، إذا أمر بإشهار شخص، داروا به على حمير المنتظم ٨ - ٢٩٤ و ١٠ - ٢٣٧ ومهذب رحلة ابن بطوطة ٢ - ١٤٧، ومن طريف ما يذكر أن شخصاً حجرة القاضي للسفه، وأمر بإشهاره في البلد، ليمنع الناس من التعامل معه، فحمل على حمير، وداروا به في الأسواق، فلما انتهى النهار، طالبه المكاري بالأجر، فالتفت إليه، وقال له: في أي شيء كنا منذ الصباح؟

وكان الشماخ الشاعر، أو صف الناس للحمير، أنشد الوليد بن عبد الملك، شيئاً من شعره في وصف الحمير، فقال: ما أو صفه لها، إني لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً الأغاني ٩ - ١٦١.

راجع في الملح للحميري ص ٢٨٣ قصة العاشق الذي حل محل الحمير في الطاحون.

وقيل لمزبد، وقد اشترى حماراً: ما في حمارك عيب، إلا أنه ناقص الجسم، يحتاج إلى عصا، فقال: إني كنت أغتم، لو كان يحتاج إلى بزماورد، فأما العصا، فأمرها هين البصائر والذخائر م ٢ ق ٢ ص ٦٨٩.

وقيل لمخنت عليل، كان يشرب لبن الأتان: كيف أصبحت؟ قال: لا تسلم عنم أصبح أخوا الحمير البصائر والذخائر م ٢ ق ١ ص ٢٩.

ومن مشهوري الحمير: يعفور، حمير النبي صلوات الله عليه، أهده له المقوقس، صاحب مصر، ونفق منصرف النبي صلوات الله عليه من حجة الوداع الطبري ٣ - ١٧٤.

ومن مشهوري الحمير: حمير بشار بن برد، وقد زعم بشار أن حماره هنا كان شاعراً غزلاً، وروى أبياتاً من شعره، راجع القصة في الأغاني ٣ - ٢٣١ و ٢٣٢.

ومن مشهوري الحمير، الحمير الذي كان يركبه الحاكم الفاطمي، وكان يسميه: القمر النجوم الزاهرة ٥٤٩.

ومن مشهوري الحمير: حمار الحكيم توما، الذي قال فيه الشاعر:

قال حمار الحكيم توما ... لو أنصفوني لكنت أركب

لأنني جاهل بسيط ... وصاحبي جاله مركب

ومن مشهوري الحمير، حمار أبي الحسين الجزار، جمال الدين يحيى بن عبد العظيم، وهو من عائلة جزارين، تكسب

بالشعر مدة، ثم عاد إلى الجزارة، واحتج لعدوله عن الشعر إلى الجزارة، بقوله:

لا تلمني يا سيدي شرف الذي ... ن إذا ما رأيتني قصّابا

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت ... ت حفاظاً وأترك الآدابا

وبها صارت الكلاب ترجّي ... ني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكان الجزار، كثير الشكوى من حماره، قال فيه:

هذا حماري في الحمير حمار ... في كلّ خطو كبوة وعثار

قنطار تبّ في حشاه شعيرة ... وشعيرة في ظهره قنطار

ولما مات حمار هذا الشاعر، داعبه شعراء عصره، بمرث وهزليات، فقال بعضهم:

قولوا ليحيى لا تكن جازعاً ... لا يرجع الذاهب بالليت

طامن أحشاءك فقدانه ... وكنت فيه عالي الصوت

وكنت لا تنزل عن ظهره ... ولو من الحشّ إلى البيت

ما مات من داءٍ ولكنته ... مات من الشوق إلى الموت

وقال آخر:

مات حمار الأديب، قلت قضى ... وفات من أمره الذي فاتا

مات وقد خلف الأديب ومن ... خلف مثل الأديب ما ماتا

فأجابه أبو الحسين قائلاً:

كم من جهولٍ رأيتني ... أمشي لأطلب رزقا

وقال لي: صرت تمشي ... وكلّ ماشٍ ملقى

فقلت: مات حماري ... تعيش أنت وتبقى

ومات لابن عنين اللمشقي ٥٤٩ - ٦٣٠ حمار، بالموصل، فرتاه بقصيدة مثبتة في ديوانه ١٤٠ - ١٤٢، منها:

لا تبعدن تربةً ضمّت شمائله ... ولا عدا جانيها العارض المطل

قد كان إن ساقته الريح غادرها ... كأنّ أخصها بالشوك يننعل

لا عاجزاً عند حمل المقالات ولا ... يمشي الهويّنا كما يمشي الوجي الوجل

وإنّ لي بنظام الدين تعزية ... عنه وفي النجب من أبنائه بدل

وقرأت في كتاب من تأليف أديب مغربي، أن مغربياً باع حماره من آخر، وشرط عليه المشتري، أن يسلمه الحمار في

حلته، وخرجا إليها معاً، ولما دخلا بين البيوت، أبصر البائع حماراً أدبر، قد أهمله أصحابه، فالتفت إلى صاحبه،

وقال: أهكذا يعامل الحيوان الأعجم؟ أنتم قوم سوء، وأعاد إلى المشتري ماله، وكر عائداً بالحمار.

وعرض محمد بن واسع الأزدي، بسوق مرو، حماراً، فقال له رجل: يا عبد الله، أترضاه لي؟ فقال: لو رضيت لما بعته

نشوار المحاضرة، القصة ٤ - ٦١.

ولزيادة التفصيل في هذا الموضوع راجع نهاية الأرب ١٠ - ٩٣ - ١٠٢ والغيث المسجم في شرح لامية العجم ٢ - ١٣٧ و ١٣٨، وكتاب الحيوان للجاحظ.

أقول: أدركت الناس ببغداد، قبل انتشار استعمال السيارات، يركب الوجهاء منهم، الحمير، ويختارونها بيضاء، عالية، ويسموها: الحساوية، لأنها تجلب من الأحساء، وكانوا يتألقون في اختيار الجمل، ويسمونه: المعركة تلفظ القاف كافاً فارسية.

وقد وصف حمير بغداد البيض، سائح أمريكي اسمه بيري فوك، مر ببغداد في السنة ١٨٧٢، في عهد الوالي محمد رديف باشا، الذي خلف مدحت باشا، فقال: إن الحمير البيض في بغداد مشهورة في أنحاء الشرق، وأثامها عالية، وقسم منها كبير الحجم، وتزين بصبغها بالحناء، فتبدو آذانها وأذناها حمراء اللون، وأبدانها منقطة بالحناء، وهي ما زالت - كما كانت في قديم الزمان - مركب رجال الدين وكبار الحكام، كما أن السيدات يفضلنها على بقية الدواب، وهم يشرحون منخر الحمير، ويشقونه شقاً مسطلياً، ويقولون إن هذا الشق يجعل الحمير أطول نفساً، ولكني كلما سمعت حميراً يهتق، أيقنت أنه لا ضرورة لهذا التصرف، ولا محل له كتاب عربستان أو بلاد ألف ليلة وليلة.

والبغداديون يسمون الحمير: زمال، من الزمل بكسر الزاي وميم ساكنة أي الحمل، ويقال: زمل بفتح، أي حمل، والزاملة، مؤنث الزامل: الدابة من الإبل وغيرها يحمل عليها المجد، قالت السيدة أسماء بنت أبي بكر: كانت زمالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزمالة أبي بكر، واحدة، أي مركوبهما لسان العرب، راجع ما كتبه الدكتور سليم النعيمي في مجلة الجمع العلمي العراقي م ٢٥ ص ٢٥ و ٢٦.

وكانت زمالة الزهاوي الشاعر جميل صلفي الزهاوي ت ١٩٣٦ مضرب المثل في جمال الهيئة والنظافة، وكانت بيضاء، عالية الظهر، حساوية، وكان الزهاوي يعنى عناية فائقة، بعلفها، ونظافتها، وكان - رحمه الله - مصاباً بارتحاء في عضلات ساقيه لا يمكنه من المشي إلا بمعونة، فكان يركبها في روحاته وغدواته.

وللبغداديين أمثال تتعلق بالحمير، أذكر منها ثلاثة: أولها: مثل يضرب لمن يكذب ليله وهماره، من دون راحة، فيقولون: مثل زمال الطمة، يروح محملاً، ويعود محملاً، والطمة: فصيحة، ما طم من الجمر في الرماد، ويطلق البغداديون هذه الكلمة على موقد الحمام، وكان يوقد فيه النفايات والقمامة، وكل ما يحترق، فكان زمال الطمة يروح إليها حاملاً الوقود، ويعود منها حاملاً الرماد المتخلف.

وثانيها: مثل يضرب لمن ورت نفسه في ورطة يصعب التخلص منها، فيقولون: تعال طلع هذا الزمال من هذي الوحلة.

وثالثها: مثل يضرب لمن يتحایل بحيلة مكشوفة، فيقولون: إحنا دافيه سوا، وأصل المثل: إن بغداديين تعطلا، وحوالا أن يجدا عملاً، فلم يوفقا، ثم وجدا حميراً نافقاً، فأخذاه، ودفناه، ووضعنا على قبره شاهداً، وأدعيا إنه قبر ولي من أولياء الله، وأصبح أحدهما سادناً للقبر، والثاني واعظاً وإماماً للجماعة فيه، وظلاً على ذلك حيناً، ثم أحس أحدهما أن صاحبه يغتال قسماً من الواردات، ويستأثر بها، فخاصمه، فبادر صاحبه وضرب بيده على القبر، يخلف على براءته من التهمة، فصاح به صاحبه: ويحك، إحنا دافيه سوا.

وللبغداديين نوادر، فيها ذكر للحمير، يتدرون بها، أذكر منها نادرتين: الأولى: نادرة يتندر بها البغداديون على أهل الموصل، والمعروف عن أهل الموصل تعصبهم لبعضهم، بحيث لا يتسنى للغريب أن يجد فيها رزقاً، وخالصتها: أن سقاءً بغدادياً هاجر إلى الموصل، واستقر فيها، وأراد أن يمارس فيها مهنته، فاشترى حميراً وقربة، وياشر بحمل الماء

من النهر إلى المدينة، وفي اليوم الأول لم يتعامل معه أحد، وكذلك في اليوم الثاني، وجاع السقاء، وجاع حماره، فأخذه في اليوم الثالث، وذهب إلى سوق المدينة، وقال: يا جماعة، إن حرمانكم إياي من الرزق أمر مفهوم، لأنني ببغداد، ولكن هذا الحمار موصلني، وهو يكاد يموت جوعاً، فإن لم ترفقوا بي، فارقوا به.

والثانية: نادرة يتندر بها البغداديون على أحد القضاة، وخلاصتها: أن اثنين اختصما على حمار، كل واحد منهما يدعي ملكيته، وتداخيا عند القاضي، وقدم المدعي للقاضي عشرة مجديات رشوة، وبلغ المدعى عليه ما صنعه خصمه، فذهب إلى القاضي وأعطاه عشرة مجديات أيضاً، ونظر القاضي في الدعوى، وأراد أن يرضي الطرفين، فحكم بأن يباع الحمار ويقسم ثمنه بين المتداعيين، ويبيع الحمار بعشرين مجدياً، وتسلم كل واحد من المتداعيين عشرة مجديات، فوجهها إلى القاضي، وقال له: يا أفندينا، تبين أن الحمار لا يعود لواحد منا، وإنما يعود لك، لأنك استوفيت ثمنه كاملاً.

ودخل أحمد بن محمد القزويني إلى سوق النخاسين في الكوفة، وطلب حماراً، لا بالصغير المخقر، ولا بالكبير المشتهر، إن أقللت علفه صبر، وإن أكثرت علفه شكر، لا يدخل تحت البواري، ولا يزاحم براكبه السواري، إذا خلا الطريق تدفق، وإذا كثر الزحام ترفق، فقال النخاس: أصبر حتى يمسح القاضي حماراً، وأشتره لك، أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٢٦.

ونهب الحمير، يسمى: الزر البصائر والذخائر ٤ - ٢٩٧، راجع أخلاق الوزيرين ١٤٩ وفي بغداد، يلفظونها: زعر، وإذا صبح بها أمام الحمار، نهب.

وذكر الجبرتي في تاريخه ٢ - ٥٣٩ و ٣ - ١٥٥ أن العسكر العثماني، بالقاهرة، باسروا في السنة ١٢١٧ بخطف حمير الناس من أولاد البلد، فأخفى الناس حميرهم، فكان الجماعة من العسكر ينصتون بأذانهم على أبواب الدور، ويقف بعضهم على الدار، ويقول زر، ويكررها، فينهب الحمار، فيؤخذ.

وكان إبراهيم بن الخصيب المديني، أحمق، وكان له حمار أعرج، وكان إذا علق الناس المخالي بالعشي، أخذ مخللة حماره، وقرأ عليها " قل هو الله أحد " ، وعلقها عليه فارغة، وقال: لعن الله من يرى كيلجة شعيرة، أنفع من " قل هو الله أحد " ، فما زال هكذا حتى نفق الحمار، فقال: إن " قل هو الله أحد " ، تقتل الحمير، فهي للناس أقتل، لا قرأها ما عشت البصائر والذخائر أمير المؤمنين ٤ - ١١٨ و ١١٩، وراجع كتاب أدب الغرباء للأصبهاني ٤٦.

ومما يروى عن السيد عبد الحسين الغريفي، من علماء البحرين، وكان فقيهاً من العلماء الأتقياء، أنه هجم عليه يوماً، وهو في حلقة درسه، معيدي، أوسع إزعاجاً، وألح عليه أن يستخير له، فإنه بصدد عمل يريد أن يقوم به، فعمد السيد إلى كتاب الله، وفتح، ثم النفث إليه وقال: أنت تريد أن تشتري حماراً، فقال له: إي والله يا سيدنا، فقال له: امض فاشتره، ولما بارح المعيدي المكان، سأله تلامذته: كيف عرف مراد المعيدي؟ فقال له: استفتحت له، فظهرت الآية: سنشد عضدك بأخيك.

أقول: أنا في شك من صحة هذه الحكاية، لأن السيد عبد الحسين، وهو من الفقهاء الزهاد، أتقى لله من أن يتخذ من آيات القرآن مورداً للتملح.

وقال عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ شذرات الذهب ٣ - ٣٤١:

تكبير على العقل لا ترضه ... ومل إلى الجهل ميل هائم

وعش حماراً تعش سعيداً ... فالسعد في طالع البهائم

وصديقنا المصور أرشاك ببغداد، يخالف الناس في وصف الحمار بالبلادة، وهو يقول: إن الحمار عاقل حكيم، وإن

النظرة التي نراها في عينه ونحسب أنها نظرة بلادة، إنما هي نظرة استهانة بنا ولا مبالاة، وكأنه يقول لنا: أنتم تقولون عني أي حمار، وفي الحقيقة، إنكم أنتم الحمير.

للتوسع في البحث، راجع الطبري ٥ - ٥٢٢ و ٦ - ٤٠ - ٤٢ و ٧ - ٥٢ و ٢٤٠ و ٥٥٥ و ٨ - ١٢٢ و ١٩٤ و ٨ - ٣٠٠ - ٣٠٢ و ١٠ - ٨، والولاية للكندي ٤٦٩ و ٤٧١، والأغاني ١٢ - ١٥٧ و ١٨ - ٣٠٣ و ٣٤٧ و ٢٠ - ٦٩ و ٢٢ - ١٨٢، والعقد الفريد ٦ - ٤٤٢، والأغاني ط بولاق ٢٠ - ٣١.

### ابن الطبري الكاتب النصراني تجلب له التوفيق رفسة حصان

وجدت في بعض الكتب: أن عبد الله المعروف بابن الطبري النصراني الكاتب، قدم سر من رأى يلتمس التصرف، فلزم الدواوين مدة، إلى أن نفذت نفقته، وانقطعت حيلته، ولم يبق إلا ما عليه من كسوته، فعدم القوت ثلاثة أيام بلياليها، وهو صابر خوفاً من أن يبيع ما عليه، فيتعطل عن الحركة، فلما كان في اليوم الرابع عمل على بيع ما عليه ليأكل بعضه، وليشتري ببعض الآخر تاسومة، ومرقعة، وركوة، ويخرج في زي فيج إلى بلد آخر، لأنه بقي ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً.

ثم شرهت نفسه إلى الرجوع إلى الديوان، مؤملاً فرجاً يستغني به عن هذا، من تصرف أو غيره. فمشى يريد الديوان، وهو مغموم مفكر، إذ سمع صوت حافر من ورائه، وقوم يصيحون: الطريق، الطريق. فلشدة ما به، غفل عن التنحي عن الطريق، فكسبه شهري كان راكبه المؤيد بالله بن المتوكل على الله، وهو إذ ذاك أحد أولياء العهود، فداسه، وسقط على وجهه. فصعب ذلك على المؤيد، ولم يكن يعرفه، فاغتم أن يجري منه على إنسان مثل ذلك، فأمر أن يحمل إلى داره، ففعل ذلك، وأفردت له حجرة، ومن يخدمه، وعود ليج بالدواء، والطعام، والشراب، والطيب، والفرش، حتى برئ بعد أيام، فأنفذ إليه ألفي درهم، وسأله إحلاله مما جرى عليه. فقال: لا أقبلها، أو تقع عيني على المؤيد، فأشافهه بالدعاء. فأوصل إليه، فشكره، ودعا له، وقص عليه قصته، وسأله استخدامه. فخفف على قلب المؤيد، واستكتبه، وأمر أن يصرف في داره، وفي دار والدته إسحاق، جارية المتوكل، فنصرف فيها مدة، وصلحت حاله.

وكان الموفق، أخو المؤيد من أمه، قد رأى ابن الطبري، فاجتذبه إلى خدمته، ونفق عليه، وانتهى أمره معه إلى أن جعل إليه تربية المعتمد، وأكسبه الأموال الجليلة.

أبو بكر محمد بن طغج ينتقل من ضعف الحال إلى ملك مصر ووجدت في بعض الكتب: حدث أبو الطيب بن الجنيد، الذي كان صاحباً لأبي جعفر محمد بن يحيى بن زكريا بن شيرزاد، وكان قبل ذلك جاراً لأبيه أبي القاسم قال: كان أبو بكر محمد بن طغج بن جف ينزل قديماً بالقرب من منازلنا ببغداد، بقصر فرج، وكان رقيق الحال، ضعيفاً جداً.

وكان له على باب دويرته دكان يجلس عليها دائماً، ودابته مشلودة إلى جانبها، وهو يراعيها بالعلف والماء بنفسه. وكان له رزق سلطاني يسير، يتأخر عنه أبداً، فلا يقبضه إلا في الأحيان.

وكان شديد الاختلال، ظاهر الفقر، وكان له عدة بنات لا ذكر فيهن.

وكان يجتاز به أبو القاسم يحيى بن زكريا بن شيرزاد، أو أحد أبنيه، أبو الحسن، وأبو جعفر، فيقوم قائماً، ويظهر

التعبد لهما، ولا يزال واقفاً إلى أن يبعدها عنه.

وكنت ربما جلست إليه، فيأنس بي ويحدثني، ويشكو بته، وما يقاسيه من كثرة العائلة، وضيق الحال. ويقول: ليت كان لي فيما رزقته من الولد، ذكر واحد، فكنت أتعزى به قليلاً، ويخف بالرجاء له، والسرور به، بعض كربى وهمي هؤلاء البنات.

قال أبو الطيب: وضرب الدهر من ضربه، وتقلب من تقلبه، وطال العهد بابن طعج، وخرج في جملة تجريد جرد إلى الشام، وأنسيناه، وترجمت به الظنون، وترامت به الأحوال، حتى بلغ أن يقلد مصر وأعمالها، وكان من علو شأنه، وارتفاع ملكه، وحصول الأمر له، ولولده من بعده، ما كان، مما هو مشهور.

وكان قد طرأ إلى تلك الناحية أحد التجار الواسعي الأحوال، من جوارنا، ممن كان يعرف ابن طعج على تلك الأحوال الأول، فلما كان بعد سنين، عاد الرجل إلى الحضرة، فحدثنا بعظم أمر ابن طعج، واتساع ملكه. وقال: رأيت غير الرجل الذي كنا نعرفه، مكانة، ورجاحة، وحين رأني، قربني، وأكرمني، وما زال مستبشراً بي، يحدثني، وأحادثه، ويسألني عن واحد واحد، من بني شيرزاد، وغيرهم من الجيران، وأنا أخبره.

حتى قال في بعض قوله: الحمد لله الذي بيده الأمور، ما شاء فعل، يا فلان، أأست ذاكراً ما كنت فيه ببغداد، من تلك الأحوال الخسيسة وما كنت ألقى من الشدة، والفقر، والفاقة، والغرض بالعيش، والهمل بأولئك البنات؟.

قلت: نعم يا سيدي.

قال: والله لقد كنت أتمنى وأسأل الله أن يرزقني ابناً، فكلما اجتهدت في ذلك جاءني ابنة، حتى تكاملن في بيتي عشرًا.

وكنت أتمنى منذ سن الحداثة أن أرزق دابة أبلق، واستشعر أني إذا ركبت ذلك، فقد حصلت لي كل فائدة ونعمة، لشدة شهوتي لها، فما سهل الله لي ما طلبته من هذا الباب أيضاً شيئاً. وتكهلت، وعلت سني، وأنا على تلك الأحوال.

وضرب الدهر ضربه، وخرجت من بغداد، فابتدأ الإقبال يأتي، والإدبار ينصرف.

وكان الله تعالى يرزقني في كل سنة ابناً، ويقبض عني ابنة، حتى مات البنات كلهن، ونشأ لي هؤلاء البنون، وأوماً إلى أحداث بين يديه كأنهم الطواويس حسناً وجمالاً.

ثم قال: وملكت من الخيل العتاق، والبراذين، والبغال، والحمير البلق، ما لم يملك أحد مثله، ولا اجتمع لأحد ما يقاربه، وأكثر من أن يحصى، وصار لغللمان غلماي، الكراع الكثير، فقم بنا حتى ندخل الاصطبلات، فتشاهدها، وتعجب.

فأخذ بيدي، ومشينا حتى دخلنا إلى اصطبل البلق، فما أشك، أنا عددنا من صنوف اللواب البلق أكثر من خمسمائة رأس، ثم ضجرنا، وما زلنا نجتاز في الاصطبل، سنة، سنة.

فيقول: هذا اصطبل القلانبات، وهو يسأل صاحب كراعه، كم في هذا؟.

فيقول: في هذا خمسمائة، وفي هذا أربعمائة، ونحو ذلك.

ثم عدنا إلى المجلس، وقد أبهجني ما رأيت، وهو يحمد الله على تفضله وإحسانه، ولازمته، وما فارقت داره حتى قضيت حوائجي، ونفعي، وأحسن إلي، وما قصر، وعدت إلى الشام مكرماً.

غريب الدار ليس له صديق

ذكر عن رجل كان بالبصرة، أنه كان ذا يسار، وتغيرت حاله، فخرج عن البصرة، ثم عاد إليها وقد أثرى، فجعل يحدث بألوان لقيها إلى أن قال: تغيرت حالي، إلى أن دخلت بغداد، غريباً، سلباً، لا أهتدي إلى مذهب ولا حيلة. قال: فجعلت أسأل: أين السوق، أين الطريق، إلى أن ضجرت، فقلت وأنا مكروب:

غريب الدار ليس له صديق ... جميع سؤاله أين الطريق  
تعلق بالسؤال بكل صقع ... كما يتعلق الرجل الغريق  
وجعلت أردد ذلك وأمشي، وإذا برجل مشرف من منظر، فقال لي:  
ترفق يا غريب فكلّ عبد ... تطيف بحاله ساعة وضيق  
وكلّ مصيبة تأتي ستمضي ... وإن الصبر مسلكه وثيق  
فخف ما بي، ورفعت رأسي إليه، وسألته عن خبره.  
فقال: اصعد إلي أحدثك، فصعدت إليه.

فقال: وردت هذا البلد، وأنا غريب، فحيرت - والله - كنتحريك، إلى أن مررت بهذه الغرفة، فأشرف علي رجل كان فيها، لا أعرفه، فقال لي: اصعد.

فصعدت، فأسكننيها، ثم تقلبت بي الأحوال، فابعت الدار، وأثريت، وأنا أتبرك بها، وأجلس فيها كثيراً، فلعلها أن تكون مباركة عليك أيضاً، فإن لي فيما سواها من الدور، مساكن تجذبي.  
فعلت، وأقبلت أحوالي، واحتجت إلى الاتساع، فانتقلت عنها،  
عبد الله بن مالك الخزاعي يتسلم كتاباً من الرشيد يخبره بمقتل جعفر البرمكي  
وجدت في بعض الكتب: أن البرامكة، قصدت عبد الله بن مالك الخزاعي، بالعداوة، وكان الرشيد حسن الرأي فيه، فكانوا يغرونه به، حتى قالوا له: لا بد من نكته.  
فقال: ما كنت لأفعل هذا، ولكن أبعده عنكم.  
فقالوا: ينفي.

فقال: لا، ولكن أوليه ولاية دون قدره، وأخرجه إليها.  
فرضوا بذلك، فكتبوا له على حران والرها فقط، وأمروه بالخروج، عن الخليفة.  
قال عبد الله: فودعتهم واحداً، واحداً، حتى صرت إلى جعفر لأودعه.  
فقال لي: ما على الأرض عربي أنبل منك يا أبا العباس، يغضب عليك الخليفة، فيوليك حران والرها؟  
فقلت: فما ذنبي حتى غضب علي، وأي شيء جرى مني حتى أوجب الذي أن يفعل بي هذا؟  
قال جزأوك أن: يضرب وسطك، وتصلب نصفاً في جانب، ونصفاً في جانب.  
فقلت: العجب مني حيث صرت إليك، ونهضت، وخرجت.  
وقطعت طريقي بالهم، والغم، مما دفعت إليه، وأني لا آمنهم، مع غيبي، على السعاية علي.  
فبينما أنا في عشية يوم، على باب الدار التي نزلتها، جالسا على كرسي، إذ أقبل إلي مولى لي، فقال لي سراً: قد قتل جعفر بن يحيى البرمكي.  
فتوهمت أنه هو أمره بذلك ليجد علي حجة ينكبي بها، فبطحته، وضربته ثلاثمائة مقرعة، وحجسته، وبت بليلة طويلة على السطح في داري.



فلما كان في السحر، إذا صوت حلق البريد، فارتعت، ونزلت عن السطح.  
وقلت في نفسي: إن هجم علي صاحب البريد فهي بلية، وإن ترجل لي ففرج.

فلما بصر بي صاحب البريد ترجل لي، فطابت نفسي، ودفع إلي كتاباً من الرشيد، يخبرني فيه بقتله جعفر، وقبضه على البرامكة، ويأمرني بالشخص إلى حضرته.  
فشخصت، فلما وصلت إليه، عاملني من الإكرام والإنعام بما زاد علي أمنيقي.  
وخرجت، فأتيت الجسر، فوجدت جعفرأ، قد ضرب وسطه، وصلب نصفه في جانب، ونصفه في الجانب الآخر.

### نجاح بن سلمة ينصح سليمان بن وهب برغم ما بينهما من عداوة

حكى أن الواثق سخط على سليمان بن وهب، فرده إلى محمد بن أبي إسحاق، وأمره أن يأخذ خطه بثلاثة آلاف ألف درهم، يؤديها بعد خمسة عشر يوماً، فإن أذعن لذلك، وإلا ضربه خمسمائة سوط.  
فطالبه محمد بكتب الخط، فامتنع، فدعا له بالسياط، وجرده لضربه.  
ودخل نجاح بن سلمة، فلما رآه سليمان أيقن بالموت، واستغاث به سليمان.  
فقال نجاح لمحمد: خلّه، وأخطني وإياه، ففعل.  
فقال نجاح لسليمان: أتعلم أن في الدنيا أحداً أعدى لك مني؟  
قال: لا.

قال: فهوذا أحامي عنك اليوم لأجل الصناعة، أيما أحب إليك وآثر في نفسك، أن تموت الساعة بلا شك، أو يكون ذلك إلى خمسة عشر يوماً، قد يفرج الله فيها عنك؟ قال: بل أكون إلى خمسة عشر يوماً بين الأمرين.  
قال: فاكتب خطك بما طولبت به، فكتب خطه.  
قال سليمان: فما مضت ستة أيام، حتى مات الخليفة، وبطل ذلك المال. وصار نجاح بن سلمة بمشورته تلك على سليمان، أحب إليه من أخيه وولده، وزالت العداوة من بينهما.  
قال مؤلف الكتاب: هذا الخبر عندي أنه مضطرب، لأشياء كثيرة، ولكني كتبتّه، كما وجدته، وقد مضى فيما تقدم من هذا الكتاب خبر نكبة الواثق لسليمان بن وهب، بما هو أصح من هذه الحكاية.  
المعتمد يأمر بقطع يد غلام من غلمانه

### ثم يعفو عنه

بلغني أن أبا محمد بن حمدون، قال: إشتهى المعتمد أن يتخذ له فرش دياج، بسوره، وجميع آلاته، على صورة صورها، وألوان اقترحها.  
فعمل ذلك بتئيس، وحمل إليه، فسر به غاية السرور، وتقدم، فوجد، ونضد، ونصب، وأحضرني والندماء، وهو يأكل فيه، فما منا إلا من وصفه واستحسنه، ثم قام لينام وينتبه، فيشرب فيه، وصرنا.  
فما شعرنا إلا وقد امتلأت الدار ضجة وصياحاً، ودعا بنا، فوجدناه يزأر كالأسد.  
وإذا نصف ستر من تلك الستور قد قطع، وهو يقول: ليس بي قطعه، ولا قيمته، لأنه يمكنني أن أستعمل مكانه، وإنما بي أنه نغص علي السرور به أول يوم، واجترأ علي بمثل هذا الفعل، وأصعب من هذا أنه قطعه وأنا أراه،

وغاص الذي قطعه عن عيني فلم أثبتته.

ثم دعا بنحير الخادم وحلف له بأيمان مغلظة، أنه إن لم يبحث إلى أن يحضر الجاني، ليضرب عنقه، وجلس على حاله مغضباً.

ومضى نحير، فما أبعد حتى أحضر صبياً من الفراشين، كأنه البدر حسناً، والقطعة الديقاج معه، وقد أقر بقطعها، واعتذر، وبذل التوبة، وهو يبكي، ويسأل الإقالة.

فلم يسمع المعتمد منه ذلك، وأمر نحير أن يخرجه، فيقطع يده، فأخرج، وما منا إلا من آلم قلبه عليه، لملاحة وجهه، وصغر سنه، وليس منا من يجسر على مسألة المعتمد فيه ونحن قيام سكوت. حتى صرخ المعتمد على الله من يده صراخاً عظيماً، وتأوه، وقال: قد دخل شيء في أصبعي الساعة، وزاد الألم عليه، وجيء بمن رآها، فأحضر مناقشاً، فأخرجت من إصبغه شظية من قصب كالشعرة، فما ندري مم يتعجب، من صغرها؟ أو من دخولها في لحمه مع ضعفها؟، أو من شدة إيلاها إياه؟ ومن كونها فوق الديقاج ساعة طرح ونفض. فلما استراح، قال: يا قوم، إن كان هذا القدر اليسير قد آلمني هذا الألم الكثير، فما حال هذا الصبي الذي أمرنا بقطع يده؟.

قلنا: أسوأ حال وأشدّها، فيجب أن تجعل العفو عنه شكراً لما كفيته.

فقال: ابعثوا إلى نحير من يلحقه، فإن كان لم يقطعه، منع من قطعه.

فتسابق الغلمان، فلحقوه، والزيت يغلي، وقد مدت يده لقطع، فخلوه، وسلم.

مروءة عدي بن الرقاع العاملي

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان، قال: حدثنا أحمد بن جري، عن محمد بن سلام، قال: عزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الله بن عبد الرحمان عن الأردن، وضربه، وحلقه، وأقامه للناس.

وقال للموكلين به: من أتاه متوجعاً، وأثنى عليه، فأتوني به.

فأتاه عدي بن الرقاع العاملي، وكان عبيدة محسناً إليه، فوقف عليه، وأنشأ يقول:

وما عز لوك مسبوفاً ولكن ... إلى الغايات سبباً جوادا

وكنت أخي وما ولدتك أمي ... وصولاً باذلاً لا مستزادا

فقد هيضت بنكبتك القدامى ... كذاك الله يفعل ما أرا

فوثب الموكلون به، فأدخلوه إلى الوليد، وأخبروه بما جرى.

فتغيظ عليه الوليد، وقال له: أتمدح رجلاً قد فعلت به ما فعلت؟.

قال: يا أمير المؤمنين، إنه كان إلي محسناً، ولي مؤثراً، ففي أي وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم؟.

قال: صدقت، وكرمت، وقد عفوت عنك، وعنه لك، فخذه وانصرف.

فانصرف به إلى منزله.

غدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية

أخبرني محمد بن الحسن، قال: حدثنا ابن أبي غسان البصري، قال: حدثنا أبو خليفة، قال: أخبرنا محمد بن سلام. قال محمد بن الحسن، وأخبرني علي بن الحسين الأصهباني، قال: أخبرني عبد العزيز بن أحمد، عم أبي، قال: حدثنا الربير بن بكار، قال: حدثني كلما بنت عبد العزيز بن موله، قالت: كان عامر بن الطفيل، فارس قيس، وكان عقيماً، وكان أعور.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم، قد رمي منه، ومن أريد، أخي لييد بن ربيعة، بما أحمه عليه السلام. وذلك إنهما أتياه، فلقيهما، فوسد عامراً وسادة، وقال: اسلم يا عامر.

قال: على أن تجعل لي الوبر، ولك المدر، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فعلى أن تجعلني الخليفة بعدك، إن أنا أسلمت.

قال: لا.

قال: فما الذي تجعل لي؟ قال: أعنة الخيل، تقاتل عليها في سبيل الله.

قال: أو ليست أعنة الخيل بيدي اليوم؟، وولى عامر مغضباً وهو يقول: لأملأهما عليك خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً، ولأربطن على كل نخلة فرساً.

وقال عامر لأريد: إما أن تقتله، وأكفيكه، وإما أن أقتله، وأكفنيه.

قال أريد: اكفنيه، وأنا أقتله.

فانصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عامر: إن لي إليك حاجة.

قال: اقترب.

فاقترب، حتى حنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسل أريد سيفه، وأبصر رسول الله بريقه، فتعود منه بآية

من كتاب الله تعالى، فأعاده الله منه، وييسر يده على السيف، فلم يقدر على شيء.

فلما رأى عامر أريد لا يصنع شيئاً، انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال لأريد: ما منعك منه؟

قال: إني لما سللت بعض سيفي، ييسر يدي، فوالله ما قدرت على سله.

قال ابن سلام: وذكر بعضهم أنه قال: لما أردت سل سيفي، نظرت فإذا فحل من الإبل، قطم، فاغرفاه. بين يديه،

يهوي إلي، فوالله، لو سللته، لحفت أن يتلع رأسي.

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: اللهم أرحني منهما، واكفنيهما.

فأما أريد، فأرسل الله تعالى عليه صاعقة، فأحرقته.

وأما عامر فطعن في عنقه، فأخذته غدة كغدة الجمل، فلجأ إلى بيت امرأة من سلول.

فلما غشيه الموت، جعل يقول: غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية؟ ثم مات.

وفي أريد، نزل قوله تعالى: "ويرسل الصواعق، فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون في الله، وهو شديد الخال".

وفي أريد يقول لبيد أخوه:

أخشى على أريد الختوف ولا... أرهب نوء السماء والأسل

أفجعني الرعد والصواعق بال... فارس يوم الكريهة النجل

خرج ليغير فوقع على زيد الخيل

أخبرني محمد بن الحسن، قال: أخبرني عبد الله بن أحمد، قال: حدثنا ابن دريد، بإسناد ذكره عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، قال: أخبرني شيخ من بني شيبان، قال: أصابت بني شيبان سنة ذهبت بالأموال فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة.

وقال لهم: كونوا قريباً من الملك يصيكم من خيره، إلى أن أرجع إليكم. وخرج على وجهه لما قد حل به، يؤمل أن يكسب ما يعود به على عياله، وقد جهده الفقر، وبلغ به الطوى. فحدث، قال: مشيت يوماً وليلة، بحيث لا أدري إلى أين أتوجه، غير أنني أجوب في البلاد. فلما كان من الغد عشاءً، إذا بمهر مقيد حول خباء، فقلت: هذا أول الغنيمة. فحللتها، فلم أذهب إلا قليلاً، حتى نوديت: خل عن المهر، وإلا اختلجت مهجتك. قال: فنزلت عنه، وتركته، ومضيت وقد تحيرت في أمري، واغتممت غماً شديداً. فسرت سبعة أيام، حتى انتهيت إلى موضع عطن أباعر، مع تطفيل الشمس، فإذا خباء عظيم، وقبة من آدم.

فقلت: ما لهذا الخباء بد من أهل، وما لهذه القبة بد من رب، وما لهذا العطن بد من إبل. فنظرت في الخباء فإذا شيخ قد اختلفت ترقوتاه، وكأنه نسر. قال: فجلست خلفه، فلما وجبت الشمس، إذا أنا بفارس قد أقبل، لم أر قط فارساً أجمل منه، ولا أجسم، على فرس عظيم، ومعه أسودان يمشيان إلى جنبه، وإذا مائة من الإبل مع فحلها، فبرك الفحل، وبركن حوله. ونزل الفارس، وقال لأحد عبديه: احلب فلانة، ثم اسق الشيخ. قال: فحلب في عس حتى ملأه، ثم جاء به فوضعه بين يدي الشيخ، وتحى. فكرع منه مرة، أو مرتين، ثم نزع، فثرت، فشربته. فرجع العبد، فأخذ العس، فقال: يا مولاي، قد أتى على آخره. قال: ففرح بذلك، وقال: احلب فلانة، فحلبها، ثم جاء بالعس، فوضعه بين يدي الشيخ. فكرع منه كرعة واحدة، ثم نزع فثرت إليه، فشربت نصفه، وكرهت أن أقم، إن أتيت على آخره. ثم جاء العبد، وأخذ العس، وقال: يا مولاي، قد شرب. قال: دعه، ثم أمر بشاة، فذبحت، وشوى للشيخ منها، وأكل هو وعبده. فأمهلت حتى ناموا، وسمعت الغيط، فثرت إلى الفحل، فحللت عقاله، ثم ركبته، فاندفع بي، واتبعته الإبل، فسللتها ليلتي كلها حتى أصبحت.

فلما أسفر الصبح، نظرت فلم أر أحداً، فسللتها سلا عنيماً، حتى تعالي النهار، فالتفت التفاتة، فإذا بشيء كأنه طائر، فما زال يدنو حتى تبينته، فإذا هو فارس على فرس، وإذا هو صاحبي البارحة. فعقلت الفحل، وثلث كنانتي، ووقفت بينه وبين الإبل.

فدنا مني، وقال: حل عقاله. فقلت: كلا - والله - لقد أضرب الجهد، وخلقت نسيات، وصيبة بالحيرة، وآليت أن لا أرجع إليهن إلا بعد أن أفيدهن خيراً، أو أموت. قال: فإنك ميت، حل عقاله. قلت: هو ذاك.

قال: إنك لمغرور، أنصب لي خطامه، وفي خطامه خمس عجر، فنصبت.

قال: أين تريد أن أضع سهمي؟.

قلت: في هذا الموضع.

قال: فكأثما وضعه بيده، حتى والى بين خمسة أسهم.

قال: فرددت نبلي، ودنا هو، فأخذ القوس والسيف.

وقال: ارتد فخلقي، ففعلت.

فقال لي، وقد عرف أني الذي شربت اللبن عند الشيخ: ما ظنك بي؟ قلت: أحسن الظن، مع ما لقيت مني من

تعب ليلتك، وقد أظفرك الله بي.

فقال: أترى كنا يلحقك منا سوء، وقد بت تنادم مهلهلاً ليلتك.

قلت: زيد الخيل أنت؟.

قال: نعم، أنا زيد الخيل.

قلت: كن خير آخذ.

قال: ليس عليك بأس.

فمضى إلى موضعه الذي كان به، ثم قال: أما لو كانت هذه الإبل لي لسلمتها إليك، ولكنها لابنة مهلهل، فأقم

عندي، فإني على شرف غارة.

فأقمت أياماً، ثم أغار على بني نمير بالملح، فأصاب مائة بعير.

فقال: هذه أحب إليك، أم تلك؟ فقلت: هذه، فأعطانيها.

قال: فقلت: ابعث معي خفراء، ففعل.

وعدت إلى وطني، وفرج الله بكرمه عني، وأصلح حالي.

منع الله سواراً من الطعام والشراب وجاء به حتى أقعده بين يديك

ذكر محمد بن إسحاق بن أبي العشير، عن إسحاق بن يحيى بن معاذ، وقال: حدثني سوار، صاحب رحبة سوار، قال:

انصرفت من دار المهدي، فلما دخلت منزلي، دعوت بالغداء، فحاشت نفسي، فأمرت به فرد.

ثم دعوت بالنرد، ودعوت جارية لي ألعبها، فلم تطب نفسي بذلك، ودخلت القائلة، فلم يأخذني النوم.

فنهضت، وأمرت ببغلة لي شهباء، فأسرجت، فركبتها، فلما خرجت استقبلني وكيل لي ومعه ألفا درهم.

فقلت له: ما هذا؟.

فقال: ألفا درهم، جيبتها من مستغلك الجديد.

قال: قلت: أمسكها معك، واتبعني.

قال: ومضيت، وخليت رأس البغلة، حتى عبرت الجسر، ثم مضت بي في شارع دار الرقيق، حتى انتهيت إلى

الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار، فطوفت، فلما صرت في شارع باب الأنبار، انتهيت إلى باب دار لطيف، عنده

شجرة، وعلى الباب خادم، فوقف، وقد عطشت.

فقلت للخادم: أعمدك ما تسقينيه؟.

قال: نعم فأخرج قلة نظيفة طيبة الريح، عليها منديل، فناولنيها، فشربت.

وحضر وقت العصر، فدخلت مسجداً، فصليت فيه، فلما قضيت صلاتي، إذا أنا بأعمى يتلمس.

قلت: ما تريد يا هذا؟.

قال: إياك أريد.

قلت: وما حاجتك؟

فجاء، حتى قعد إلي، فقال: شمت منك رائحة الطيب فتخيلت أنك من أهل النعمة، فأردت أن ألقى إليك شيئاً.  
فقلت: قل.

قال: أترى هذا القصر؟

قلت: نعم.

قال: هذا قصر كان لأبي، فباعه، وخرج إلى خراسان، وخرجت معه، فرالت عنا النعمة التي كنا فيها، فأتيت صاحب الدار، لأسأله شيئاً يصلني به فأني في ضنك شديد، وضغطة عظيمة، ورزوح حال قبيح، وأصير إلى سوار، فإنه كان صديقاً لأبي.  
قلت: ومن أبوك؟

قال: فلان بن فلان، فإذا أصدق الناس - كان - لي.

فقلت: يا هذا، إن الله قد أتك بسوار، منعه الطعام والشراب والنوم، حتى جاء به فأقعه بين يديك.  
ثم دعوت الوكيل، وأخذت منه الألفي درهم، فدفعتها إليه، وقلت له: إذا كان غداً، فصر لي، إلى المنزل.  
ثم مضيت، فقلت: ما أحدث المهدي، بشيء أطرف من هذا، فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فحدثته بالحديث، فأعجب به، وأمر لي بألفي دينار، فأحضرت.  
فقال لي: ادفعها إليه.

قال: فنهضت، فقال لي: اجلس، أعليك دين؟

قلت: نعم.

قال: كم مبلغه؟

قلت: خمسون ألف دينار.

فقال: تحمل إليك، فاقض بما دينك، فقبضتها.

فلما كان من الغد، أبطأ علي المكفوف، وأتاني رسول المهدي، يدعوني، فجتته.

فقال: فكرت في أمرك، فقلت: يقضي دينه، ثم يحتاج إلى الحيلة والقرض، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى.  
قال: فقبضتها، وانصرفت، فجاءني المكفوف، فدفعت إليه الألفي دينار، وقلت له: قد رزق الله خيراً كثيراً، وأعطيته من مالي ألفي دينار أخرى، فقبض أربعة آلاف دينار، ودعا لي، وقال: والله، ما ظننت أني أصل منك، ولا من أحد من أهل هذه البلاد، إلى عشر هذا المال، فجزاك الله خيراً.

### عروة بن أذينة يفد على هشام بن عبد الملك

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: حدثنا محمد بن جرير الطبري، عن يحيى بن عروة بن أذينة، قال: أضاقت أبي، إضافة شديدة، وتعدرت عليه الأمور، فعمل شعراً امتدح به هشام بن عبد الملك.  
ودخل عليه في جملة الشعراء، فلما دخلوا عليه، نسبهم، فعرّفهم جميعاً وقال لأبي: أنشدني قولك: لقد علمت ....،  
فأنشده:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني  
أسعى له فيعتبني تطلبه ... ولو جلست أتاني لا يعتني  
وأني حظّ امرئ لا بدّ يبلغه ... يوماً ولا بدّ أن يجتازه دويني  
لا خير في طمع يهدي إلى طبع ... وعلقة من قليل العيش تكفني  
لا أركب الأمر تزري بي عواقبه ... ولا يعاب به عرضي ولا ديني  
أقوم بالأمر إما كان من أربي ... وأكثر الصمت فيما ليس يعني  
كم من فقير غنيّ النفس تعرفه ... ومن غنيّ فقير النفس مسكين  
وكم عدوّ رماي لو قصدت له ... لم يأخذ البعض مني حين يرميني  
وكم أخ لي طوي كشحاً فقلت له ... إن انطواءك عني سوف يطويني  
لا أبغي وصل من يبغي مفارقتي ... ولا ألين لمن لا يبغي ليني  
فقال هشام: ألا جلست في بيتك، حتى يأتيك رزقك؟

قال: وغفل عنه هشام، فخرج من وقته، وركب راحلته، ومضى منصرفاً.  
فافتقده هشام، فسأل عنه، فعرف خبره، فأتبعه بجائزة.

فمضى الرسول، فلحقه على ثلاثة فراسخ، وقد نزل على ماء يتعدى عليه.

فقال له: يقول لك أمير المؤمنين: أردت أن تكذبنا، وتصدق نفسك؟ هذه جائزتك.

فقال: قل له: قد صدقني الله، وأتاني برزقي بحمده.

قال يحيى: وفرض له فريضتين، كت في إحداهما.

أبو أيوب المورياني يميز ابن شرملة بخمسين ألف درهم

قريء على أبي بكر الصولي، وأنا أسمع، في المسجد الجامع بالبصرة، حدثكم الغلابي، قال: حدثنا عمر بن شبة، قال:

حدثنا علي بن ميثم، وقد كان جاز المائة سنة، قال: سمعت ابن شرملة، يقول: زوجت ابني على ألفي درهم، وما هي

عندي، فطلوبت بها، فصرت إلى أبي أيوب المورياني، فقلت له: إني اخترتك حاجتي، وعرفته خبري، فأمر لي بألفي

درهم، فشكرته وقمت.

فقال: اجلس، ألا تريد خادماً؟

قال: فقلت: إن رزق الله.

قال: وهذه ألفتان لخادمك، ألا تريد نفقة؟ ألا تريد كذا؟، وجعل يعدد ويعطيني.

حتى قمت على خمسين ألف درهم، وصلني بها.

ذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، هذا الخبر، بلا إسناد، على قريب من هذا.

الواثق يطرد أحمد بن الخصيب من حضرته ثم يعفو عنه

حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن رجاء بن أبي الضحاك الكاتب، وكان يعرف بالديناري، لما بين أبيه الحسن

بن رجاء، وبين دينار بن عبد الله، من القرابة، فإنهما كانا ابني خالة، على ما أخبرني، قال: حدثني أبو عيسى محمد

بن سعيد الديناري الكاتب، جد أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن مقلدة لأمه، قال: لما تخلص أبو أيوب سليمان

بن وهب، من نكبة المعتمد، وكنت أكتب له، وجلس في منزله، أمرني أن أكتب إلى العمال الذين ضياعه في

أعمالهم، كتباً أعرفهم فيها رجوع الخليفة له، وتبينه باطل ما أمهي إليه، وحمل به عليه، وأخاطبهم عنه في أمر ضياعه

وأسبابه.

فكُتبت نسخة، قلت فيها: إن أمير المؤمنين - أعزه الله - لما وقف على تمويه من موه عليه في أمرنا، فعل وصنع. فلما وقف على هذا الفصل، خط على هذا الحرف، وأبدله بغيره، ولم يغير في النسخة سواه. وقال لي: إذا فرغت من تحرير الكتب، فأذكرني بالتمويه، أحدثك بما كرهته له. قال: فحررت الكتب، فلما خلا، سألته: لم ضرب على التمويه؟، فقال: نعم لما غضب علي الوائق، وعلى أحمد بن الخصيب، بسبب إيتاخ، وأشناس، كانت موجودته علينا بسبب واحد، وحبسه لنا في معنى واحد، فمكثنا في الحبس والقيد، إلى أن كلم فينا، فأمر بإحضارنا.

فقلت لأحمد بن الخصيب: قد دعانا، وأظن أنه سيوبخنا، ويعدد علينا ما قرفنا به عنده، ليخرج ما في نفسه، فيعظم منته علينا، بما يأتيه من إطلاقنا، وأعرف عجلتك، وتسرعك إلى ما يضرك، وكأني بك حين يبتدئ بتقريعنا، قد قطعت كلامه، وأنجيت عليه بلسانك ويديك، فأنشأت لنا استئناف غضب وموجدة، وأكسبتنا شراً مما قد أملنا الخلاص منه.

فقال لي: فما أعمل؟.

قلت: لست أحسبك تهمني على نفسي ولا عليك، ولا تشك أننا حبسنا لقضية واحدة، فولني جوابه، وأعربي سكوتك، ودعني أرفق به، وأخذعه بما تخدع به الملوك، فلعلنا نتخلص من المكروه الذي نحن فيه. قال: أفعل.

فاستحلفته على ذلك، فحلف لي.

فلما دخلنا الصحن، وجدنا الخليفة يستاك، وبين يديه طست ذهب، وإبريق ذهب، بيد فراش قائم، وبيد الخليفة مسواك طوله ذراعان.

فلما رأنا، قال: أحسنت إليكما، واصطنعتكما، فختمتاني، وكفرتما نعمتي، وفعلتما، وصنعتما.

فكأني - والله - إنما أوصيت أحمد بن الخصيب، ألا يدعه ينطق.

فقال له، وقد رفع يديه في وجهه: لا والله يا أمير المؤمنين، ما بلغك عنا الحق، ولا فعلنا شيئاً مما سعي بنا، ولقد موه عليك في أمرنا.

فقال: إنما يموه على غبي مثلك، فأومأت إليه بعيني، فأمسك بعض الإمساك.

وعاد الوائق يتمم كلامه، ويعدد علينا نعمه ومننه، فما ملك أحمد نفسه، أن رفع يده، وقال: والله يا أمير المؤمنين، ما كفرنا نعمتك، ولا فعلنا، ولا صنعنا، إنما موه على أمير المؤمنين في أمرنا.

فقال: يا جاهل، قد عدت لها، إنما يجوز التمويه على أحق مثلك، وأومأت إليه بعيني، فأمسك.

وعاد الوائق في كلامه، فما انضبط أحمد أن رد قوله، وجاء بالتمويه.

فحين سمعها الوائق، انقلبت عيناه في أم رأسه، واستشطا غضباً، وأغلظ له في الشتم، وحذفه بالمسواك، فلولا أنه زاغ عنه، لهشم وجهه، وأعمى عينه.

ثم قال: يا غلمان، أخرجوه إلى لعنة الله، فأخرج أخزى خلق الله.

ونالني من الجزع، والغم، والخيرة في أمره، أمر عظيم، ولم أدر، أفق، أم أمضي، وخفت إن وقفت، أن يقول: ما وقوفك بين يدي، وقضيتكما واحدة، وإن مضيت أن نرد جميعاً إلى الحبس، فرجعت أتقهقر عن موضعي قليلاً، كأني أريد الخروج.



فقال لي: مكانك أنت يا سليمان، هب هذا على ما هو عليه، أنت أيضاً، تنكر أنك فعلت كذا، وصنعت كذا؟. فوجدت السبيل إلى ما أردت، فلم أزل أعترف، وألزم نفسي الجناية، وأديم الخضوع والاستعطاف، وأسأل الصفح والإقالة، إلى أن قال: قد عفوت عنك، فقبلت الأرض، وبكيت. فقال: إخلعوا عليه، وأصرفوه إلى منزله، وليلزم الدار على عادته ورسمه. فلما وليت، قال: وذلك الكلب، قد كنت أردت العفو عنه، فأخرجني عن حلمي سوء أدبه، فاخلعوا عليه أيضاً. فخرجت، وإذا بأحمد في بعض الممرات، فعرفته الخبر، ثم قلت له: يا هذا كدت أن تأتي علينا، أرايت أحداً يكرر على الخليفة لفظة قد كرهها، وأنكرها، ثلاث مرات؟ أو ما علمت أن التمويه في الحقيقة ضرب من السخرية؟ قال: فلم يخرج من قلبي فرع التمويه، من ذلك الوقت، إلى الآن.

### غضب الرشيد على مروان بن أبي حفصة لمدحه معن بن زائدة وضربه مائة سوط

حدثني عبد الله بن عمر بن الحارث الواسطي السراج، المكفوف المعروف بأبي أحمد الحارثي، قال: حدثنا ابن دريد، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أخي الأصمعي، عن عمه، قال: بعث إلي الرشيد في وقت لم تكن عادته أن يستدعيني في مثله، وجاءني الرسول بوجه منكر، فأحضرتني إحضاراً عنيفاً منكراً مسعجلاً، فوجلت ورجلاً شديداً، وخفت، وجزعت.

فدخلت، فإذا الرشيد على بساط عظيم، وإلى جانبه كرسي خيزران، عليه جويرية خماسية، فسلمت، فلم يرد علي، ولا رفع رأسه إلي، وجعل ينكت الأرض بإصبعه.

فقلت: سعي بي عنده بباطل، يهلكني قبل كشفه، وأيست من الحياة.

فرفع رأسه، وقال: يا أصمعي، ألا ترى الدعي بن الدعي، اليهودي، عبد بني حيفة، مروان بن أبي حفصة، يقول لمعن بن زائدة، وإنما هو عبد من عبيدنا:

أقمنا باليمامة بعد معن... مقاماً لا نريد به زيالا

وقلنا أين نذهب بعد معن... وقد ذهب النوال فلا نوالا

وكان الناس كلهم لمعن... إلى أن زار حفرتة عيالا

فقال: إن النوال قد ذهب، مع بقائنا، فما يصنع بنا إذن؟، ولم يرض حتى جعلني وخاصتي، عيالا لمعن، والله، لأفعلن به ولأصنعن.

فقلت: يا أمير المؤمنين، عبد من عبيدك، أنت أولى بأدبه، أو العفو عنه.

فقال: علي بمروان، فدخل عليه.

فقال: السياط، فأخذ الخدم يضربونه بها، وهو يصيح: يا أمير المؤمنين، ما ذنبي؟ يا أمير المؤمنين، استبقني، إلى أن ضرب أكثر من مائة سوط.

فقال: يا أمير المؤمنين، اعف عني، واذكر قولي فيك، وفي آباءك.

فقال: يا غلام، كف عنه، ثم قال: ما قلت، يا كلب؟.

فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

هل تطمسون من السماء نجومها... بأكفكم أم تسترون هلالها

أم تدفعون مقالة عن ربّه... جبريل بلغها النبي فقلها

شهدت من الأفعال آخر آية ... بتراثهم فأردتم إبطاها  
فدعوا الأسود خوادراً في غيلها ... لا تولعنّ دماءكم أشبالها  
قال: فأمر بإطلاقه، وأن يدفع إليه ثلاثون ألف درهم.  
فلما خرج، قال: يا أصمعي تدري من هذه الصبية؟  
قلت: لا أدري.  
قال: هذه مؤنسة بنت أمير المؤمنين، فدعوت له ولها، وتأملته، فإذا هو شارب ثمل.  
قال: قم فقبل رأسها.  
فقلت: أفلت من واحدة، ودفعت إلى أخرى أشد منها، إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني، وإن عصيته قتلني بمعصيتي  
له، فلما أحب الله عز وجل من تأخير أجلي، ألهمني أن وضعت كمي على رأسها، وقبلت كمي.  
فقال: والله يا أصمعي، لو أخطأتما لقتلتك، أعطوه عشرة آلاف درهم، والحق بدارك.  
فخرجت وأنا ما أصدق بالسلامة، فكيف بالحباء والكرامة.  
أمدح بيت قائلته العرب  
قال المفضل بن محمد الضبي: أصبحت يوماً ببغداد، في خلافة المهدي، وأنا من أشد الناس إضاقاة وضراً، لا أدري ما  
أعمل، حيرة وفكراً.  
فخرجت، فجلست على باب منزلي بالصرافة، أفكر فيما أصنع، فإذا أنا برسول المهدي، قد وقف علي.  
فقال: أجب أمير المؤمنين، فراغني، وساء ظني.  
فقلت: أدخل، فألبس ثيابي.  
فقال: ما إلى ذلك سبيل.  
فاشتمد جزعي، وخشيت أن يأخذني بما كان بيني وبين إبراهيم بن عبد الله ابن حسن بن حسن رضي الله عنهم.  
فاستدعيت ثيابي، وجددت وضوءاً على الباب، ولم أخبر أهلي بقصتي، ولا بما هجم من الغم علي.  
وقلت: إن كان خيراً أو شراً، فسيبلغهم، فما معنى تعجيل المهم لهم.  
ومضيت مع الرسول، حتى دخلت على المهدي، وأنا في نهاية الجزع، فسلمت، فرد علي السلام.  
فقلت في نفسي: ليس إلا خيراً.  
فقال: اجلس يا مفضل، فجلست.  
فقال: أخبرني عن أمدح بيت قائلته العرب.  
فتبلدت ساعة، لا أذكر شيئاً، ثم أجرى الله علي لساني، أن قلت: قول الخنساء.  
فأشرق وجهه، وقال: حيث تقول ماذا؟  
فقلت: حيث تقول:  
وإنّ صخرًا لوالينا وسيدنا ... وإنّ صخرًا إذا نشتو لنحار  
وإنّ صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار  
فاستبشر به، وقال: قد أخبرت هؤلاء بهذا، وأوماً إلى جماعة بين يديه، فلم يقبلوا مني.  
قلت: كان أمير المؤمنين، أحق بالصواب منهم.  
قال: يا مفضل، حدثني الآن.

قلت: أي الأحاديث؟

قال: أحاديث الأعراب فلم أزل أحدثه، بأحسن ما أحفظ منها، إلى أن كاد المناادي بالظهر أن ينادي.

ثم قال لي: كيف حالك يا مفضل؟

قلت: ما يكون حال رجل عليه عشرون ألف درهم ديناً حلالاً، وليس في رزقه فضل لقضائها، وقصصت عليه قصة حالي ويومي في الإضافة.

فقال: يا عمر بن بزيع، ادفع إليه الساعة، عشرين ألف درهم يقضي بها دينه، وعشرين ألف درهم يصلح بها حاله، وعشرين ألف درهم يجهز بها بناته، ويوسع بها على عياله.

ثم قال: يا مفضل، ما أحسن ما قال ابن مطير، في مثل حالك:

وقد تغدر الدنيا فيضحى غنيها... فقيراً ويغنى بعد بؤس فقيرها

وكم قد رأينا من تكدر عيشة... وأخرى صفا بعد اكدرار غديرها

فأخذت المال، وانصرفت إلى بيتي بستين ألف درهم، بعد الإياس، وتوطين النفس على ضرب الرقبة.

### بين الأصمعي والبقال الذي على باب الزقاق

وجدت في بعض الكتب عن الأصمعي، قال: كنت بالبصرة، أطلب العلم، وأنا مقل، وكان على باب زقاقنا بقال، إذا خرجت باكراً يقول لي: إلى أين؟ فأقول: إلى فلان المحدث، وإذا عدت مساءً، يقول لي: من أين؟ فأقول: من عند فلان الأخباري، أو اللغوي.

فيقول: يا هذا، اقبل وصيتي، أنت شاب، فلا تضيع نفسك، واطلب معاشاً يعود عليك نفعه، وأعطني جميع ما عندك من الكتب، حتى أطحها في الدن، وأصب عليها من الماء للعشرة أربعة، وأنبذه، وأنظر ما يكون منه، والله، لو طلبت مني، بجميع كتبك، جزرة بقل، ما أعطيتك.

فيضيق صدري بمداومته هذا الكلام، حتى كنت أخرج من بيتي ليلاً، وأدخله ليلاً، وحالي - في خلال ذلك - تزداد ضيقاً، حتى أفضيت إلى بيع آجر أساسات داري، وبقيت لا أهتدي إلى نفقة يومي، وطال شعري، وأحلق وبني، واتسخ بدني.

فأنا كذلك، متحيراً في أمري، إذ جاءني خادم للأمير محمد بن سليمان الهاشمي، فقال: أجب الأمير.

فقلت: ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى؟

فلما رأى سوء حالي، وقبح منظري، رجع فأخبر محمد بن سليمان بخبري، وعاد إلي، ومعه تخوت ثياب، ودرج فيه بخور، وكيس فيه ألف دينار.

وقال: قد أمرني الأمير، أن أدخلك الحمام، وألبسك من هذه الثياب، وأدع باقيها عندك، وأطعمك من هذا الطعام، وإذا بخوان كبير فيه صنوف الطعمة، وأبخرك، لترجع إليك نفسك، ثم أحملك إليه.

فسررت سروراً شديداً، ودعوت له، وعملت ما قال، ومضيت معه، حتى دخلت على محمد بن سليمان، فسلمت عليه، فقربني، ورفعني.

ثم قال: يا عبد الملك، قد اخترتك لتأديب ابن أمير المؤمنين، فاعمل على الخروج إلى بابه، وانظر كيف تكون؟

فشكرته، ودعوت له، وقلت: سمعاً وطاعة، سأخرج شيئاً من كتبي وأتوجه.

فقال: ودعني، وكن على الطريق غداً.

فقبلت يده، وقمت، فأخذت ما احتجت إليه من كتيبي، وجعلت باقيها في بيت، وسددت بابه، وأقعدت في الدار عجوزاً من أهلنا، تحفظها.

وباكرني رسول الأمير محمد بن سليمان، وأخني، وجاء بي إلى زلال قد اتخذ لي، وفيه جميع ما أحتاج إليه، وجلس معي، ينفق علي، حتى وصلت إلى بغداد.

ودخلت على أمير المؤمنين الرشيد، فسلمت عليه، فرد علي السلام.

وقال: أنت عبد الملك بن قريب الأصمعي.

قلت: نعم، أنا عبد أمير المؤمنين بن قريب الأصمعي.

قال: أعلم، أن ولد الرجل مهجة قلبه، وثمره فؤاده، وهوذا أسلم إليك ابني محمداً بأمانة الله، فلا تعلمه ما يفسد عليه دينه، فلعله أن يكون للمسلمين إماماً.

قلت: السمع والطاعة.

فأخرجه إلي، وحولت معه إلى دار، قد أخليت لتأديبه، وأخدم فيها من أصناف الخدم، والقرش، وأجرى علي في كل شهر عشرة آلاف درهم، وأمر أن تخرج إلي في كل يوم مائدة، فلزمته.

وكنت مع ذلك، أقضي حوائج الناس، وأخذ عليها الرغائب، وأنفذ جميع ما يجتمع لي، أولاً، فأولاً، إلى البصرة، فأبني داري، وأشتري عقاراً، وضياعاً.

فأقمت معه، حتى قرأ القرآن، وتفقه في الدين، وروى الشعر واللغة، وعلم أيام الناس وأخبارهم.

واستعرضه الرشيد، فأعجب به، وقال: يا عبد الملك، أريد أن يصلي بالناس، في يوم الجمعة، فاختر له خطبة، فحفظه إياها.

فحفظته عشراً، وخرج، فصلى بالناس، وأنا معه، فأعجب الرشيد به، وأخذته نثار الدنانير والدراهم من الخاصة والعامة، وأتتني الجوائز والصلوات من كل ناحية، فجمعت مالاً عظيماً.

ثم استدعاني الرشيد، فقال: يا عبد الملك، قد أحسنت الخدمة، فتمن.

قلت: ما عسى أن أتمنى، وقد حزت أماني.

فأمر لي بمال عظيم، وكسوة كثيرة، وطيب فاخر، وعبيد، وإماء، وظهر، وفرش، وآلة.

فقلت: إن رأى أمير المؤمنين، أن يأذن لي في الإلمام بالبصرة، والكتاب إلى عامله بها، أن يطالب الخاصة والعامة، بالسلام علي ثلاثة أيام، وإكرامي بعد ذلك.

فكتب إليه بما أردت، وانحدرت إلى البصرة، وداري قد عمرت، وضياعي قد كثرت، ونعمتي قد فشئت، فما تأخر عني أحد.

فلما كان في اليوم الثالث، تأملت أصاغر من جاءني، فإذا البقال، وعليه عمامة وسنخة، ورداء لطيف، وجبة قصيرة، وقميص طويل، وفي رجله جرموقان، وهو بلا سراويل.

فقال: كيف أنت يا عبد الملك؟

فاستضحكت من حماقته، وخطابه لي بما كان يخاطبني به الرشيد.

وقلت: بخير، وقد قبلت وصيتك، وجمعت ما عندي من الكتب، وطرحتها في الدن، كما أمرت، وصيبت عليها من الماء للعشرة أربعة، فخرج ما ترى.

ثم أحسنت إليه بعد ذلك، وجعلته وكيلي.

المنذر بن المغيرة الدمشقي أحد صنائع البرامكة قال مسرور الكبير: استدعاني المأمون، فقال لي: قد أكثر علي أصحاب أخبار السر، أن شيخاً يأتي خرائب البرامكة، فيبكي وينتحب طويلاً، ثم ينشد شعراً يرثيهم به، وينصرف، فاركب أنت وأيوب الخادم، والأصمعي، ودينار بن عبد الله، واستترا بالجدران، فإذا جاء الشيخ، فأمهلاه، حتى تشاهدان ما يفعل، وتسمعان ما يقول، فإذا أراد الانصراف، فاقبضا عليه، وأتياي به.

قال مسرور: فركبت أنا ودينار وأيوب الخادم مغلشين، فأتينا الموضع، فاختمنا فيه، وأبعدنا اللواب. فلما كان آخر الليل، إذا بخادم أسود قد أقبل، ومعه كرسي حديد، فطرحه، وجاء على أثره كهيل، فجلس على الكرسي، وتلفت يميناً وشمالاً، فلم ير أحداً، فبكى وانتحب، حتى قلت: قد فارق الدنيا، وأنشأ يقول:

أما والله لولا خوف واش... وعين للخليفة لا تنم  
لطفنا حول جذعك واستلمنا... كما للناس بالحجر استلام  
ثم بكى طويلاً، وأنشأ يقول:

ولما رأيت جلال جعفرًا... ونادى منادٍ للخليفة في يجي  
بكيث على الدنيا وزاد تأسفي... عليها وقلت الآن لا تنفع الدنيا  
وذكر أياتاً طويلة، لا تدخل في كتابي هذا، فأرويه.

قال: فلما فرغ من إنشاده وقام، قبضنا عليه، فقال: ما تريدون؟

قلت: هذا دينار بن عبد الله، وهذا أيوب الخادم بالحرم، وهذا عبد الملك بن قريب الأصمعي، وأنا مسرور خادم أمير المؤمنين، وهو يستدعيك.

فأبلس، ثم قال: إني لا آمنه على نفسي فامهلاني حتى أوصي.

فقلت: شأنك وما تريد، فقام، وسار، ونحن معه، حتى أتى بعض دكاكين العلافين، بفرضة الفيل. فاستدعى دواةً وبياضاً، وكتب فيها وصيته، ودفعها إلى الخادم الذي كان معه، وأنفذه إلى منزله، وسرنا به، حتى أدخلناه على المأمون، فلما مثل بين يديه، زبره، وانتهره.

ثم قال له: من أنت؟ وجم استحق منك البرامكة ما تصنع في دورهم وخرابكم؟

فقال: غير هائب، ولا محتشم: يا أمير المؤمنين، إن للبرامكة عندي أباد، فإن أمر أمير المؤمنين حدثته يا حذاها.  
فقال: هات.

قال: أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي، من ذوي الحسب، نشأت في ظل نعم قديمة، فرالت عني، كما تزول النعم عن الناس، حتى أفضيت إلى بيع مسقط رأسي وروس آبائي، وأملقت حتى لا غاية، فأشير علي بقصد البرامكة. فخرجت من الشام إلى بغداد، ومعني نيف وعشرون امرأةً وصبياً وصبية، فدخلت بهم مدينة السلام، فأنزلتهم في مسجد.

ثم عمدت إلى ثوبيات كنت قد أعددتها للقاء الناس، والنذرع بما للبرامكة، فلبستها، وسلكت الطريق، لا أدري أين أقصد، وكنت كما قيل:

وأصبح لا يدري وإن كان حازماً... أقدامه خير له أم وراءه

فلما قال ذلك، بكى المأمون، فقال له مسرور: أقصر يا رجل، فقد أتعبت أمير المؤمنين بوصفك.

فقال له المأمون: دعه يتحدث بما يريد.

قال: نعم، وتركت عيالي جوعاً لا نفقة لهم، ولا معهم ما يباع، فأفضيت إلى مسجد مزخرف، فيه جمع شيوخ، بأحسن زي، وأجمل هيئة، فطمعت في مخاطبتهم، فصعدت إلى المسجد، فجلست معهم، لم أزد على السلام، وجعلت أردد في صدري كلاماً أحاطهم به، فيحصرني التشور، ويخجلني ذل المسألة، ويجسني عن الكلام، وأتصب عرقاً، حياءً وخوفاً من أن يقال لي: من أنت، وما تريد؟ وما يمكنني الجواب، ولا أدري ما أحاطهم به، إذ لم تكن لي عادة بالخوض في مثله.

فأنا كذلك، إذ جاء خادم فاستدعى القوم، فقاموا، وقمت معهم، ومضينا، فأدخلوا داراً ذات دهليز طويل، فدخلت معهم، وأفضينا إلى صحن واسع، وإذا شيخ بهي، فإذا هو يحيى بن خالد، على دكة أبوس في صحن الدار، في وسط البستان، وله ميدان عنده بركة، وقد نصب عليها كراسي أبوس.

وأقبل القوم، فجلسوا، وجلست معهم، وتأمل الخدم القوم وعددهم، فإذا نحن مائة رجل ورجل، فدخل الخدم وغابوا، ثم خرج مائة خادم وخدام، في يد كل واحد منهم مجرة من ذهب، فيها قطعة كالفهر من عنبر، والخدم بأفخر الثياب، عليهم مناطق الذهب المرصعة بالجوهر، وهم يطيفون بغلام، حين اخضر شاربه، حسن الوجه، فسجروا العنبر.

وأقبل يحيى على الرزيقي القاضي، وقال: زوج ابن أخي هذا، بابنتي عائشة على صداق قدره مائة ألف درهم. فخطب، وعقد النكاح، وأخذنا النار من فتات المسك، وبنادق العنبر، وتماثيل الند الصغار، والتقطت الناس، والتقطت.

ثم جاء مائة خادم وخدام، في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها ألف دينار، مخلوطة بالمسك، فوضع بين يدي كل رجل منا صينية.

فأقبلت الجماعة تكور الدنانير في أكمامها، وتأخذ الصواني تحت آباطها، وتنصرف، الأول، فالأول، حتى بقيت وحدي، لا أجسر على أخذ الصينية وما فيها، والأسف، والحاجة، يمنعي أن أقوم وأدعها، وأنا مطرق، مفكر. حتى ضاق صدري، فرفعت رأسي، فغمزني بعض الخدم على أخذها والقيام، فأخذتُما وقمت، وأنا لا أصدق، وجعلت أمشي وأتلفت، خوفاً من أن يتبعني من يأخذها، ويحيى يلاحظني من حيث لا أعلم. فلما قاربت الستر، رددت، فأيست من الصينية، فجئت - وهي معي - حتى قربت منه، فأمرني بالجلوس، فجلست.

فسألني عن حالي، وقصتي، ومن أنا، فصدقته، حتى إذا بلغت إلى تركي عيالي في المسجد، بكى.

ثم قال: علي بموسى، فجاء.

فقال: يا بني، هذا رجل من أبناء النعم، قد رمته الأيام بصروفها، والنوائب بحتوفها، فخذ، واخبطه بنفسك، واصطنعه.

فأخذني موسى إلى داره، فخلع علي من أفخر ثيابه، وأمر بحفظ الصينية لي، وقضيت على ذلك يومي وليلي. ثم استدعى أخاه العباس من الغد، وقال له: إن الوزير سلم إلي هذا الفتى، وأمرني فيه بكذا وكذا، وأريد أن أركب اليوم إلى دار أمير المؤمنين، فليكن عندك اليوم حتى أرتجعه غداً، فكان يومي عنده مثل أمسي. وأقبلوا يتداولوني كل يوم، واحداً بعد واحد، وأنا قلق بأمر عيالي، إلا أنني لا أذكرهم إجلالاً لهم. فلما كان في اليوم العاشر، أدخلت إلى الفضل بن يحيى، فأقمت في داره يومي وليلي. فلما أصبحت، جاءني خادم من خدمه، فقال: يا هذا قم إلى عيالك وصبيانك.

فقلت: إنا لله، لم أحصل هؤلاء الصبيان على الأكل والشرب، والصينية وما فيها، وما حصلته من النثار، ذهب، فليت هذا كان من أول يوم، وكيف أتوصل الآن إلى يحيى، وأي طريق له إليه.

وتلاعبت بي الأفكار مخافة اليأس، وأظلمت الدنيا في عيني، وقمت أجر رجلي، والخدام يمشي بين يدي، حتى أخرجني من الدار، فازداد إياسي، وما زال يمشي بين يدي حتى أدخلني إلى دار كأن الشمس تطلع من جوانبها، وفيها من صنوف الفرش والأثاث والآلات، ما يكون في مثلها.

فلما توسطتها، رأيت عيالي أجمعين فيها، يرتعون في الديباج والشفوف، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم، وعشرة آلاف دينار، والصينية والنتار، وسلم إلي الخادم، صك ضيعتين جليلتين.

وقال: هذه الدار، وما فيها، والضياح بغلاهما، لك.

فأقمت مع البرامكة في أخفض عيش، وأجل حال، حتى نزلت بهم النازلة.

ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين، فالزمني في خراجهما، ما لا يفي به دخلهما.

فلحقتني شدة عظيمة، فكلما لحقتني نائبة واشتدت بي بلية، قصدت دورهم ومنازلهم، فبكيهم، ورثيتهم، وشكرتهم، ودعوت لهم، على ما كان منهم إلي، وشكوت ما حل بي بعلمهم، فأجد لذلك راحة.

قال: فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة، فلما أتى به، قال له: أتعرف هذا الرجل؟

قال: يا أمير المؤمنين، هو بعض صنائع البرامكة.

فأمره ان يرد على الرجل، كلما استخرج منه، وأن يقرر خراجه على ما كان عليه أيام البرامكة وأن يجعل له ضيعة أخرى من جملة الإيغارات يكون دخلها له ويتخذ به سجلاً وأن يقضي حقه ويكرمه، فبكى الشيخ بكاءً شديداً.

فقال له المأمون: ألم أستأنف إليك جيلاً فما بكؤوك؟

فقال: بلى والله يا أمير المؤمنين، وزدت على كل فضل وإحسان، ولكن هذا من بركة الله، وبركة البرامكة علي، وبقية إحسانهم إلي، فلو لم آت خراباتهم، فأبكيهم، وأنلجهم، حتى اتصل خبري بأمر المؤمنين، ففعل بي ما فعل، من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين.

فقال له المأمون: إمض مصاحباً، فإن الوفاء مبارك، وحسن العهد من الإيمان.

### البرامكة

جاء في الفخري ١٩٧: إن دولة آل برمك، كانت غرة في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، فان يحيى وبنوه، كالجوهر زاهرة، والبحار زاخرة، والسيول دافقة، والغيوث ماطرة، أسواق الأدب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأهمة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ الضعيف، ومعصم الطريد، وفيهم يقول أبو نؤاس:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم ... بني برمكٍ من رائحين وغاد

وقال الجاحظ: البرامكة محض الأنام، ولباب الكرام، وملح الأيام، عتق منظر، وجودة مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، واكتمال خصال، العقد الفريد ٥ - ٢٨، وقال عنهم أيضاً: إن أيامهم كانت رياض الأزمنة وفيات الأعيان ٣ - ٤٧٤.

وقال محمد بن جميل الكاتب: كان البرامكة شفاء سقام دهرهم، وغيث جذب عصرهم، وما زالوا كهفاً لللاجئين،

ومفزعاً للملهوفين قطب السرور ٦٣.

وقال القاضي التنوخي، في امتداح مجلس من مجالس الوزير المهلي: كأنه من مجالس البرامكة نشوار المحاضرة القصة رقم ١ - ٢٨.

وقال سليمان بن وهب، لشخص أحسن إليه: إنك قد فعلت ما لم تفعله البرامكة القصة ١٦٥ من هذا الكتاب. وقال صالح، صاحب المصلي: إن الدهر لا يخلف مثل يجي أبداً القصة ٣٧١ من هذا الكتاب. وقال إسحاق الموصلي، في الفضل بن يحيى البرمكي، سبحان الذي خلق هذا الرجل، وجبله على كرم بذه من مضى ومن غير المحاسن والمساوي ٢ - ٢٢.

وحلف إسحاق الموصلي، بالله الذي لا إله إلا هو: ما رأيت أذكى من جعفر بن يحيى قط، ولا أفطن، ولا أعلم بكل شيء، ولا أفصح لساناً، ولا أبلغ في المكاتبه الأغباني ٤ - ٣٢٥.

وقال ثمامة بن أشرس: ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى البرمكي والمأمون تاريخ الخلفاء ٣٢٦.

وقال إبراهيم بن المهدي: ما رأيت أكمل من جعفر قط الأوراق للصولي، أشعار أولاد الخلفاء ٣٤.

وأبو حيان التوحدي، الذي كان كثير الغرام، بثلب الكرام معجم الأدباء ٢ - ٢٨٢ إذ لم يترك أحداً من رؤساء زمانه، إلا وشتمه، أثنى على البرامكة في كتابه أخلاق الوزيرين، فذكر أن معروفهم كان يسع الصغير والكبير، ويعم الغني والفقير أخلاق الوزيرين ٤٨٩، ونقل في كتابه كذلك ما أورده محمد بن داود الجراح، في كتابه أخبار الوزراء، في الثناء عليهم، فقال: كان آل برمك أندى من السحاب أخلاق الوزيرين ٣٨٠.

وفي محاضرات الأدباء ٣ - ١٩٨: إن امرأة بجعفر بن يحيى، وقد صلب، فقالت: لئن صرت اليوم راية، لقد كنت بالأمس غاية.

وفي تحفة المجالس ١٧٩: إن البرامكة كانوا يقصدون من آفاق الأرض، وقال أعرابي فصلهم من اليمن: قصدت هؤلاء الأجماد، الذين انتشر صيتهم في البلاد.

وكان للبرامكة من السخاء والكرم، ما لم يكن لأحد من الناس، وكانوا يخرجون بالليل سراً، ومعهم الأموال يتصدقون بها، وربما دقوا على الناس أبوابهم، فيدفعون إليهم الصرة، بين الثلاثة آلاف إلى الخمسة آلاف، أو الأكثر من ذلك، والأقل، وربما طرحوا ما معهم في عتب الأبواب، فكان الناس - لاعتيادهم ذلك - يعدون إلى العتب، إذا أصبحوا، يطلبون ما القى فيها الخاسن والمساوي ١ - ١٥٠.

وقال فيهم الشاعر: وفيات الأعيان ٤ - ٣٥.

عند الملوك مضرّة ومنافع ... وأرى البرامك لا تنصّر وتنفع  
إن كان شرّ كان غيرهم له ... والخير منسوب إليهم أجمع

وقال أبو نؤاس: وفيات الأعيان ٥ - ٥٩

إنّ البرامكة الكرام تعلّموا ... فعل الجميل فعلموه الناسا

كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا ... لم يهدموا مما بنوه أساسا

وإذا هم صنعوا الصنائع في الورى ... جعلوا لها طول البقاء لباسا

وقال أشجع السلمي، يذكر أيامهم: وفيات الأعيان ١ - ٣٣٦

كأنّ أيامهم من حسن بمجتها ... مواسم الحجّ والأعياد والجمع

وأصبح جود البرامكة، على تمادي الأيام، مضرب المثل، قال الجماز: جلهنا فلان، بمائدة، كأنها زمن البرامكة على



العفاة زهر الأداب ٢ - ٣ والملح والنوادر ٢٣٦.

والبغداديون، إلى وقتنا هذا، يذكرون البرامكة، ويصفون الرجل الكريم النفس، السخي اليد، بأنه: برمكي. وعمت شهرة البرامكة بالجدود، جميع أنحاء الدنيا، بحيث أن المقرئ في نصح الطيب ٣ - ١٠٩ أمتدح أحد أمراء الموحدون بالأندلس، فوصفه بأن له حكايات في الجدود برمكية. وقد أنكر صاعد، وزير الموفق، ما يذكر عن البرامكة، وقال: هذه أقاصيص من صنع الوراقين، فقال له أبو العيناء: لم لا يكذب على الوزير - أعزه الله - مثل هذا الكذب، وهو حي، يرحى ويخاف، وأولئك موتى، ما يوس من خيرهم وشرهم، القصة ١ - ١ من نشوار الحاضرة.

وبالنظر لعدم وجود سبب واضح عن نكبتهم، فقد خبط المؤرخون خبطاً في الاستنتاج، وذكر كل واحد منهم سبباً، أو أكثر من سبب، فادعى بعضهم أن السبب سياسي، وأنهم أرادوا قلب الدولة، وقال بعضهم: أن ثمة سبباً يتعلق بزواج جعفر، زواجاً لم يرضه الخليفة، وهذا كله لا أصل له، فإن البرامكة، لو أرادوا قلب الدولة، لحاولوا ذلك عندما كانت خراسان في قبضتهم، وأما قضية الزواج، فهي أقصوصة لا تعلق بقبول، ولا تدخل في معقول، والذي يظهر للمتأمل، أن استئثار البرامكة بالحكم، وانقياد الناس لهم، ولهجتهم بالثناء عليهم، والتعلق بهم، أثار غيرة الرشيد، وأشعل نار هواجسه، وصادف وجود دسائين، من رجال الحاشية، ممن يرغب في انتقال السلطة من البرامكة إليهم، مثل الفضل بن الربيع، وعلي بن عيسى بن ماهان، وأحمد بن صبيح، فتظافروا، وأغروا الرشيد بهم، فوجدوا منه أذناً سامعة، وكانت الخيزران، أم الرشيد، حامية البرامكة، قد توفيت في السنة ١٧٣، فلم يكد الرشيد يودعها قبرها، حتى دعى الفضل بن الربيع، وأمره بأخذ الخاتم من جعفر، وحلف له إنه كان يهيم بأن يوليئه، فتمنعه أمه، فيطيع أمرها الطبري ٨ - ٢٣٨.

ولعل أصح ما ورد في هذا الباب، ما ذكره ابن خلكان في كتاب وفيات الأعيان ١ - ٣٣٥، قال: سئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد، فقال: والله، ما كان منهم ما يوجب بعض ما عمل الرشيد بهم، ولكن طالت أيامهم، وكل طويل مملول، ووالله، لقد استطال الناس، الذين هم خير الناس، أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما رأوا مثلها عدلاً، وأمناً، وسعة أموال، وفروح، وأيام عثمان رضي الله عنه، حتى قتلوهما، ورأى الرشيد - مع ذلك - أنس النعمة بهم، وكثرة حمد الناس لهم، ورميهم بآمالهم دونه، والملوك تتنافس بأقل من هذا، فتعنت عليهم، وتجنى، وطلب مساويهم، ووقع منهم بعض الإدلال، خاصة جعفر والفضل، دون يحيى، فإنه كان أحكم خبرة، وأكثر ممارسة للأمور، ولاذ من إعدائهم قوم بالرشيد، كالفضل بن الربيع، وغيره، فستروا الحسن، وأظهروا القبائح، حتى كان ما كان.

ويؤيد هذا الرأي، ما روي عن هرون الرشيد أنه قال: إن الدالة تفسد الحرمة، وتنقص الذمة، ومنها أتى البرامكة كتاب الآداب لنجد الملك جعفر بن شمس الخلافة ص ٢٠.

وقد ذهب المؤرخ ابن خلدون، إلى هذا الرأي، قال: إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجاجهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم، وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها، بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عن سواهم، من وزارة، وكتابة، وقيادة، وحجابه، وسيف، وقلم، ويقال إنه كان بدار الرشيد، من ولد يحيى بن خالد، خمسة وعشرون رئيساً، من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحوا فيها أهل الدولة بالمناكب، ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون، ولي عهد، وخليفة،

حتى شب في حجره، ودرج من عشه، وغلب على أمره، وكان يدعو: يا أبت، فتوجه الإيتار من السلطان إليهم، وعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وتخطت إليهم من أقصى التخوم، هدايا الملوك، وتحف الأمراء، وسيرت إلى خزائهم، في سبيل التزلف والإستمالة، أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة يريد شيعة بني العباس وعظماء القراة، العطاء، وطوقهم المنن، وكسوا من بيوتات الأشراف، المعدم، وفكوا العاني، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، وأسنوا لعفاهم الجوائز والصلوات، واستولوا على القرى والضياح، حتى آسفوا البطانة، وأحقدوا الخاصة، وأغصوا أهل الولاية تاريخ ابن خلدون ١ - ١٣ - ١٤. وذكر صاحب الأغاني ١٨ - ٣٠٣: أن الرشيد ندم على قتله البرامكة، وربما بكى عليهم في بعض المجالس. وذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ٦ - ٢٢٨ و ٢٢٩ نقلاً عن الجهشيارى: أن الرشيد ندم على ما كان منه في أمر البرامكة، وتحسر على ما فرط منه في أمرهم، وخاطب جماعة من إخوانه، بأنه لو وثق منهم بصفاء النية، لأعادهم إلى حالهم، وكان الرشيد كثيراً ما يقول: حملونا على نصحاننا وكفاننا، وأوهونا أنهم يقومون مقامهم، فلما صرنا إلى ما أرادوا، لم يغنوا عنا، وأنشد:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم ... من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

راجع بعض أخبار البرامكة في المحاسن والمساوى ١ - ١٤٠ و ١٤١ و ١٥١ - ١٦٢ وراجع في العقد القريد ٥ - ٦٢ - ٦٥ الحوار الذي جرى بين هارون الرشيد وبين فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة، أم جعفر البرمكي. وهي أم الرشيد بالرضاعة، وراجع بشأن النشاء على البرامكة، القصة ١ - ٢ و ١ - ٣ من كتاب نشوار المحاضرة للتوخي، وراجع كذلك في كتاب الأوراق للصولي أشعار أولاد الخلفاء ص ٤٧ الحوار الذي جرى بين الرشيد وبين أخته علية حول مقتل جعفر البرمكي، وراجع في كتاب جواهر الأدب من خزائن العرب ص ١٨ قصة عن الفضل وجعفر، رواها محمد بن عبد الرحمن الهاشمي، صاحب صلاة الكوفة، وراجع الطبري ٨ - ٣٠٠ - ٣٠٢ والأغاني ط بولاق ٢٠ - ٣١.

## هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

بلغني أنه كان بالكوفة رجل من أهل الأدب والظرف، يعاشر الناس، وتأتيه أطفافهم، فيعيش بما. ثم انقلب الدهر عليه، فأمسك الناس عنه، وجفوه حتى قعد في بيته، والتجأ إلى عياله، فشاركهن في فضل مغازلهن، واستمر ذلك عليه، حتى نسيه الناس، ولزمه الفقر. قال: فبينما أنا ذات ليلة في منزلي، على أسوء حال، إذا وقع حافر دابة، ورجل يدق بابي، فكلمته من وراء الباب. فقلت: ما حاجتك؟ فقال: إن أحاً لك لا أسميه، يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إني رجل مستتر، ولست آنس بكل أحد، فإن رأيت أن تصير إلي، لتحدث ليلتنا. فقلت في نفسي: لعل جدي أن يكون قد تحرك؟ ثم لم أجد لي ما ألبسه، فاشتملت بأزار امرأتي، وخرجت، فقدم إلي فرساً مجنوباً كان معه، فركبته. إلى أن أدخلني إلى فتى من أجل الناس وأجلهم وجهاً، فقام إلي، وعانقني، ودعا بطعام فأكلنا، وبشراب فشربنا، وأخذنا في الحديث، فما خضت في شيء إلا سبقني إليه. حتى إذا صار وقت السحر، قال: إن رأيت أن لا تسألني عن شيء من أمري، وتجعل هذه الزيارة بيني وبينك، إذا

أرسلت إليك فعلت، وها هنا دراهم تقبلها، ولا تردها، ولا يضيق بعدها عنك شيء، فهضمت، فأخرج إلي جراباً مملوءاً دراهم.

فدخلتني أريحية الشراب، فقلت: اخترتني على الناس للمنادمة، ولسرك، وآخذ على ذلك أجراً؟ لا حاجة لي في المال.

فجهد بي، فلم آخذه، وقدم إلي الفرس، فركبته، وعدت إلى منزلي، وعيالي متطلعون لما آجىء به، فأخبرتهم بخبري. وأصبحت نادماً على فعلي، وقد ورد علي وعلى عيالي، ما لم يكن في حسابنا.

فمكثت حيناً، لا يأتي إلي رسول الرجل، إلى أن جاءني بعد مدة، فصرت إليه، فعادني بمثل ذلك الفعل، فعادته بالامتناع، وانصرفت مخففاً، فأقبلت امرأتي علي باللوم والتوبيخ.

فقلت لها: أنت طالق ثلاثاً إن عاودني ولم آخذ ما يعطيني.

فمكثت مدة أطول من الأولى، ثم جاءني رسوله، فلما أردت الركوب، قالت لي امرأتي: يا ميشوم اذكر يمينك، وبكاء بناتك، وسوء حالك.

فصرت إلى الرجل، فلما أفضينا إلى الشراب، قلت له: إني أجد علة تمنعني منه، وإنما أردت أن يكون رأيي معي. فأقبل الرجل يشرب، وأنا أحادثه، إلى أن انبلج الفجر، فأخرج الجراب، وعاودني، فأخذته، فقبل رأسي، وشكرني على قبول بره، وقدم إلي الفرس، فانصرفت عليه، حتى انتهيت إلى منزلي، فألقيت الجراب.

فلما رآه عيالي، سجدن لله شكراً، وفتحاه، فإذا هو مملوء دنانير.

فأصلحت منه حالي، واشتريت مراكباً، وثياباً حسنة، وأثاثاً، وضيعة قدرت أن غلتها بقيتي، وبيعتي بعدي، واستظهرت على زماني ببقية الدنانير.

وانتال الناس علي، يظهرهم السرور بما تجدد لي، وظنوا أنني كنت غائباً في انتجاع ملك، فقدمت مشرباً، واقطع رسل الرجل عني.

فبينما أنا أسير يوماً بالقرب من منزلي، فإذا ضواء عظيمة، وجماعة مجتمعة.

فقلت: ما هذا؟

قالوا: رجل من بني فلان، كان يقطع الطريق، فطلبه السلطان، إلى أن عرف خبره ها هنا، فهجم عليه، وقد خرج على الناس بالسيف، يمنع نفسه.

فقربت من الجمع، وتأملت الرجل، فإذا هو صاحبي بعينه، وهو يقاتل العامة، والشرط، ويكشف الناس، فيبعدون عنه، ثم يتكاثرون عليه ويضايقونه.

فنزلت عن فرسي، وأقبلت أقوده، حتى دنوت منه، وقد انكشف الناس عنه.

فقلت: بأبي أنت وأمي، شأنك والفرس، والنجاة، فاستوى علي ظهره، فلم يلحق.

فقبض علي الشرط، وأقبلوا علي، يلهزونني، ويشتموني، حتى جاءوا بي إلى عيسى بن موسى، وهو والي الكوفة، وكان بي عارفاً.

فقالوا: أيها الأمير، كدنا أن نأخذ الرجل، فجاء هذا، فأعطاه فرساً نجاً عليه.

فاشتد غضب عيسى بن موسى، وكاد أن يوقع بي، وأنا منكر لذلك.

فلما رأيت المصدوقة، قلت: أيها الأمير، أدني إليك، أصدقك.

فاستدانني، فشرحت له ما كان أقضت بي الحال إليه، وما عاملني به الرجل، وأني كافأته بجميل فعله.

فقال لي سرّاً: أحسنت، لا بأس عليك.  
ثم التفت إلى الناس فقال: يا حقي، هذا يتهم؟ إنما لفظ حافر فرسه حصاة، فقاده ليربحه، فغشيه رجل مستقتل،  
بسيف ماض، قد نكلتم عنه بأجمعكم، فكيف كان هو يدفعه عن فرسه؟ انصرفوا، ثم خلى سبيلي.  
فانصرفت إلى منزلي، وقد قضيت ذمام الفتى، وحصلت النعمة بعد الشدة، وأمنت عواقب الحال، وكان آخر  
عهدي به.

### جعفر بن سليمان أمير البصرة يصفح عن سرق منه جوهرًا

سرق لجعفر بن سليمان الهاشمي جوهر فاخر بالبصرة، وهو أميرها، فجهد أن يعرف له خبراً، فخفي عليه، فأقلقه  
ذلك، وغازله، وجد بالشرط وضربهم، وألزمهم إظهاره، فجدوا في الطلب.  
فلما كان بعد شهر، أتاه بعضهم برجل وجده في ساباط اللؤلؤ، يبيع درة فاخرة من ذلك الجوهر، قد قبض عليه،  
وضربه ضرباً عظيماً إلى أن أقر، فأخبر جعفر بخبره، فأذن بدخوله.  
فلما رأى الرجل جعفرًا، استغاث به، وبكى، ورققه، فرحمه جعفر، وقال: ألم تكن طلبت مني هذه الدرّة في وقت  
كذا، فوهبتها لك؟

فقال: بلى.

فقال للشرط: خلوا عنه، واطلبوا اللص.

أخذ الصينية من لا يردها ورآه من لا ينم عليه

وروت الفرس قريباً من هذا، فذكروا أن بعض ملوكهم، سخط على حاجب له سخطاً شديداً، وألزمه بيته، وكان  
فيه كاحبوس، وقطع عنه أرزاقه وجراياته، فأقام على ذلك سنين، حتى تمّت له، ولم تبق له حال.  
ثم بلغه أن الملك قد أخذ سماطاً عظيماً، يحضره الناس في غد يومه ذلك، فراسل أصدقائه، وأعلمهم أن له حقاً  
يحضره لبعض ولده، واستعار منهم دابة بسرجه ولجامه، وغلماً يسعى بين يديه، وخلعة يلبسها، وسيفاً، ومنطقة،  
فأعير ذلك، فلبسه، وركب الدابة، وخرج من منزله، إلى أن جاء إلى دار الملك.

فلما رآه البوابون لم يشكوا في أنه ما أقدم على ذلك إلا بأمر الملك، وتذموا لقديم رئاسته عليهم، فأشفقوا من  
عودها أن يحجوه إلى أن يستثبوا.

ودخل هو مظهرًا القوة بأمر نفسه، ولم تزل تلك حاله، مع طائفة، حتى وصل إلى الملك، وقد أكل، وهو جالس  
يشرف.

فلما رآه الملك قطب، وأنكر حضوره، وهم بأن يأمر به، وبالْحِجَابِ، والبوابين، فكره أن ينغص يوماً قد أفرده  
بالسرور على نفسه.

وأقبل الرجل يخدم، فيما كان يخدم فيه قديماً، فازدادت الحال تمويهاً على الحجاب والحاشية، إلى أن كاد المجلس  
ينصرم، وغفل أكثر من كان حاضراً عنه.

فتقدم إلى صينية ذهب زنتها ألف مثقال، مملوءة مسكاً، فأخذها بخفة، وجعل المسك في كفه، والصينية في خفه،  
والمملك يراه.

وخرج، وعاد إلى منزله، ورد العواري إلى أهلها، وباع المسك، وكسر الصينية، وجعلها دنانير، واتسع بها حاله. وأفاق الملك - من غد - من سكره، وسمع من يخدم في الشراب يطلب الصينية، وقهرمان الدار يضرب قوماً في طلبها، فذكر حديث الحاجب، وعلم أنه ما حمل نفسه على الغرر الشديد في ذلك، إلا من وراء شدة وضرب. فقال لقهرمانه: لا تطلب الصينية، فما لأحد في ضياعها ذنب، فقد أخذها من لا يردّها، ورآه من لا ينم عليه. فلما كان بعد سنة، عاد ذلك الحاجب، إلى شدة الإضاقة، بنفاد الدنانير، وبلغه خبر سباط يكون عند الملك، في غد يومه، فاحتال بحيلة أخرى، حتى دخل إلى حضرة الملك، وهو يشرب. فلما رآه الملك، قال: يا فلان، نفذت تلك الدنانير؟

فقبل الأرض بين يديه، وبكى، ومرغ خديه، وقال: أيها الملك، قد احتلت مرتين، على أن تقتلني فأستريح مما أنا فيه، من عظم الضر الذي أعانيه، أو تعفو عني كما يليق بك، وتذكر خدمتي، فأعيش في ظلك، وليست لي بعد هذا اليوم حيلة. فرق له الملك، وعفا عنه، وأمر برد أرزاقه عليه ونعمته، ورده إلى حالته الأولى في خدمته.

### سفتجة بثلاث صفعات يفتديها الخال عليه بخمسائة وخمسين ديناراً

بلغني عن رجل من أهل ديار ربيعة، كانت له حال صالحة، فزالت، قال: فلزمتني الخنة والإضاقة، مدة طويلة، فتحيرت، ولم أدر ما أعمل. وكان أمير الناحية إذ ذاك، العباس بن عمرو الغنوي، وكانت بيني وبين كاتبه معرفة قديمة، فأشير علي بأن ألقاه، وأخذ كتاباً عن العباس إلى بعض أصدقائه من أمراء النواحي وأخرج إليه، فلعلني أتصرف معه، وأعود من جهته بفائدة أجعلها أصل معيشة. فلقيت الكاتب، فقال لي: صر في غد إلى دار الأمير، حتى أكتب لك. فمضيت إليه، فكتب لي عنه كتاباً مؤكداً إلى بعض أمراء الأطراف من أصدقاء العباس، فخرجت أريد منزلي. فلما صرت في بعض الممرات وأنا رجل طويل مبدن، وكنت قد حلقت رأسي، وعليه منديل خفيف، قد أطارته الريح، فانكشف، ولعلة انشغال قلبي بأمر لم أزد المنديل. وإذا بصفعة قد جاءت، كادت تكبني على وجهي، وتوالت بعدها اثنتان. فالتفت، فإذا العباس بن عمرو، وقد خرج إلى موضع من مواضع الدار، وكان مشتهراً بالمصافعة، مكاشفاً بها، هو، وجماعة من قواد المعتضد، أصدقاء، أخلاء، يستعملون ذلك، ويكاشفون به.

فقبضت على يده، وقلت: ما هذا أيها الأمير؟ ما أفارقك، أو تعطيني شيئاً أنتفع به عوضاً عن هذا الفعل. فدافعني، وأنا متشبث به، وسقط الكتاب من كمي، فقال: ما هذا الكتاب. قلت: كتاب، كتب لي عنك إلى فلان، لأخرج إليه، فلعلني أتصرف معه، أو يبرني بشيء. فقال: هوذا، أكتب لك عليه سفتجة بالصفع، فإنه يفتديها منك بما تنتفع به. واستدعى دواة، وكتب لي إلى الرجل سفتجة، كما يكتب التجار، بثلاث مكوبات، كناية عن ثلاث صفعات. فأخذت الكتاب، وانصرفت معجباً مما جرى علي، ومن حرفتي في أن العباس لم يسمح لي بشيء، مع جوده، وتحملت، وخرجت إلى ذلك البلد، فأوصلت الكتاب الذي كتبه لي الكاتب عنه.

فردني ذلك الأمير أبقح رد، وآيسني، وقال: قد بلينا بمؤلاء الشحاذين، يميئوننا في كل يوم بكتب لا تساوي مدادها، ويقطعوننا عن أشغالنا، انصرف، فمالك عندي تصرف، ولا بر.

فورد علي ما لم أر مثله، وما هالني وقطع بي، وكنت قد سافرت إليه، وقطعت شقة بعيدة، فانصرفت أسوء الناس حالاً.

وفكرت ليلتي، فقلت: ليس إلا العود إليه، ومداراته، فلعل أن يعطيني قدر نفقة الطريق، فأتحمل بما.

فعدت إليه، وخاطبته بكل رفق وخضوع وسؤال وهو يخشن علي، ويؤيسني، إلى أن قال لحاجبه: أخرج عني، ولا تدعه بعلمها يدخل إلي.

فورد علي أعظم من الأول، وخرجت أخزى خروج، وأقمت أياماً لا أعود إليه، ولا أدري ما أصنع، إلا أن بقالاً في الخلة التي نزلتها يعطيني خبزاً وإداماً بنسيئة.

فجلست إليه يوماً وأنا متحير، والغم بين علي، فسمعت قاتلاً يقول: إن الأمير قد جلس للمظالم، جلوساً ارتفع عنه الحجاب فيه، ففكرت كيف أعمل؟.

وذكرت الكتاب بالسفينة، فقلت: أمشي وأجعلها نادرة كالظلامه، فإن أعطاني شيئاً، وإلا فضحته بين رعيتي، وانصرفت.

فأخذت السفينة، وجنت، فلم أصادف بالباب من يمني، فدخلت إليه.

فحين رأني اغتاض علي، وقال لحاجبه: ألم أمرك أن لا تدخل هذا إلي.

فقال: كان الإذن عاماً، ولم يميز.

فأقبل الأمير علي، فقال: ألم أقل لك، وأويسك مني؟ فما هذه الملازمة، كأن لك علي ديناً أو سفينة؟.

فقلت: نعم، لي على الأمير - أعزه الله - سفينة.

فازداد غيظه، وقال كالمعجب: سفينة، سفينة؟.

فأخرجتها، فدفعها إليه، فلما قرأها عرف الخط والخطاب، فنكس رأسه ساعة، خجلاً، ثم قال لكاتب كان بين يديه، شيئاً لا أعلمه.

فجذبني الكاتب، وقال: إن الأمير قد تنعم مما عاملك به، وأمرني بدفع مائة دينار إليك، فقم معي لتأخذها.

فقلت: ما قصدت الأمير ليبرني، أنا رجل أوصلت إليه سفينة بجمال، فيما قبلها فأعطانيه، فما أريد غيره، ولا أستريد عليه، ولا أنقص منه شيئاً، وإما كتب لي على السفينة: راجعة، فأخذتها، وانصرفت.

فساره الكاتب بما قلت، وقوي طمعي في الصنع، فالفتت إلي الكاتب، وقال: قد جعلها لك الأمير مائتي دينار، فأنهض لتأخذها.

فقلت، لمن يقول هذا: ما عندي غير ما سمعت، ولان الأمير، وتشددت، ولم يزل الكاتب يوسط بيننا، إلى أن بذل خمسمائة دينار.

فقلت: على شرط أي لا أبرح من هذا المجلس حتى أقبضها وأسلمها إلى يد تاجر، وأخذ منه سفينة بها، ويدفع إلي نفقة تكفييني إلى أن أعرف صحة السفينة، ثم أتحمّل بباقي ذلك.

فأجبت إلى ذلك، وأحضر التاجر، والمال، وأخذت منه سفينة، ودفعوا لي خمسين ديناراً للنفقة، وأقمت مدة، إلى أن عرفت خبر صحة السفينة، وتحملت ببقية النفقة إلى بلدي.

وحصل لي المال، فجعلته بضاعة في متجر، صلحت به حالي، إلى الآن.

الصفع: ضرب القفا بالكف مبسوطة، والمصافعة: تبادل الصفعات، والصفعان: الذي يصفع كثيراً. والأصل في الصفع أن يكون للعقوبة والتأديب. كأن يأمر القاضي بصفع من أحل بالحرمة الواجبة نحو مجلس الحكم القصص ٢ - ١٠ - ٦ و ١٧٨ من نشوار الخاضرة للتسخي. وقد يصفع المشدق المتعمر في كلامه الامتاع والمؤانسة ٢ - ٥٢. وقد أمر الوزير علي بن عيسى بصفع رجل ادعى النبوة صلة الطبري ٢٦. و صفع بعض العامة في البصرة، القاضي أبا خليفة وصحبه، لما حسبوهم يقرأون القرآن بلغة الدجاج مروج الذهب ٢ - ٥٠١.

وصفع أبو محمد المافروخي القافاء، عامل البصرة، ابن أحد خلفائه، لما فأفأ له، حاسباً أنه يحاكيه نشوار الخاضرة، رقم القصة ٤ - ١٤.

وقد يجري الصفع لإجبار المكلف على أداء الضريبة المتحققة عليه القصة ١٨٤ من هذا الكتاب أو لإجبار العامل المصروف على سداد ما بذمته من الأموال الأميرية القصة ٨ - ٢١ من كتاب نشوار الخاضرة أو لإجبار من صودر على أداء ما صودر عليه القصة ١ - ٣٥ - ٣ و ١٢٢ من كتاب نشوار الخاضرة، والكامل لابن الأثير ٨ - ١٤٢، وتجارب الأمم ١ - ١١٠ وصلة الطبري ٣٩، أو لاستخراج الودائع تجارب الأمم ١ - ٦٥ أو لتقرير مبلغ المصادرة تجارب الأمم ١ - ٦٥ أو لإجبار المصفوع على ترك عناده القصة ٢٦١ من هذا الكتاب، والقصة ٣ - ٥٤ من نشوار الخاضرة.

وقد يرد الصفع عقاباً للمدعي الذي عجز عن القيام بما ادعى، كما حصل لابن المغازلي الذي شرط على نفسه إن لم يضحك المعتضد، أن يصفع عشر صفعات، وعجز عن إضحاكه مروج الذهب ٢ - ٥١٠ و ٥١١. ولما أراد المكفي الخروج لقتال القرامطة، منعه المنجم أبو الحسن العاصمي، بحجة أن طالعها يدل على أن خروجه هذا، يؤدي إلى زوال دولته، وخرج المكفي، واستأصل القرامطة، وعاد مظفراً سالماً، فأمر بالعاصمي فأحضر، و صفع صفعاً عظيماً القلاكة والمفلوكون ٣٧.

وقد يحصل الصفع للإهانة والايذاء، فقد ذكر أن المتوكل غضب على عمر بن فرج الرخجي، أحد كبار العمال في الدولة، فأمر بأن يصفع في كل يوم، فأحصي ما صفع، فكان ستة آلاف صفقة مروج الذهب ٢ - ٤٠٣، وغضب المتوكل على ولده المنتصر، ولي عهده، فأمر بأن يصفع في مجلسه تجارب الأمم ٦ - ٥٥٥ والكامل لابن الأثير ٧ - ٩٧، ولزيادة التفصيل راجع تاريخ الطبري ٩ - ١٧٥، وصلة تاريخ الطبري ص ٥٢ و ٥٨ و ٨٦ والتكملة ٣٧ - ٤١، وتجارب الأمم ١ - ١٠٣ والقصة ١ - ١١٩ و ٤ - ٧ من كتاب نشوار الخاضرة للتسخي، والقصة ٢٥٠ و ٣٠٤ من هذا الكتاب، والمستطرف من أخبار الجوارى للسيوطي ٢٩ والوزراء للصابي ٤٦ و ٢٦٤ ووفيات الأعيان ٤ - ١٥٩ و ٦ - ٥٨ و حكاية أبي القاسم البغدادي ١٣٨ و امرأة الجنان لليافعي ٤ - ١٨. وقد يقع الصفع على المقامر إذا قمر، كما وقع لأمير البصرة إسحاق بن العباس بن محمد العباسي، لما قمر، فتحقق عليه حسب الشرط أن يصفع عشر صفعات، فأحالها هذا على صاحب شرطته، وطلب هذا أن يكون الصفع، صفع المداعبة والإخوان، لا صفع العقوبة والسلطان الهفوات النادرة ٢٣١.

وأغرب ما أثر عن الصفع، وروده لإيقاع الحججة على الخصم في المناظرة معجم الأدباء ٥ - ٢٣٧.

والذي يتضح من هذه القصة، ومن غيرها من القصص، أن المصافعة، كان لها من يستحسنها، ويستطيبها، ويتملح  
بذكر فوائدها البصائر والذخائر ٤ - ١٨٠، وكان لها سوق رائجة.

وكان العباس بن عمرو الغنوي، وهو أحد كبار القواد والولاة العباسيين، من المستهترين بالمصافعة، المكاشفين بها،  
هو وجماعة من قواد المعتضد، أصدقاء، أخلاء، يستعملون ذلك، ويكاشفون به، وأن المصافعة تجري بينهم للمطايبة،  
القصة ١١٦ من هذا الكتاب، والقصة ٨ - ١١٩ من نشوار المحاضرة وأما تقع على سبيل المباشطة القصة ١ -  
٥١ و١٦٦ من نشوار المحاضرة، ومعجم دوزي لأسماء الألبسة ٢٧١.

وكان زيادة الله بن الأغلب، أمير أفريقية ١٧٢ - ٢٢٣ قد اتخذ ندامى يتصافعون في حضوره فوات الوفيات ٢ -  
٣٤ و٣٥.

وكان القاضي محمد بن الخصيب، قاضي مصر ت ٣٤٨، وهو ممدوح النبي، من يمازح في المصافعة أخبار القضاة  
للكندي ٥٧٩ و٥٨٠.

وكان للصفاعنة أرزاق في اللولة، ولما وزر أبو الحسن علي بن عيسى في السنة ٣١٤ كان من جملة ما صنعه أن  
أسقط أرزاق الصفاعنة الكامل لابن الأثير ٨ - ١٦٥.

وسئل القاضي ابن قريعة، عن حد القفا، فقال للسانل: هو ما اشتمل عليه جربانك، وشرطك فيه حجامك،  
وداعبك فيه إخوانك، وباسطك فيه غلمانك، وأدبك فيه سلطانك اليتيمة ٢ - ٢٣٨ وتاريخ بغداد للخطيب ٢ -  
٣٢٠.

وداعب ابن المرزبان، أبا العيلاء، فقال له: لم لبست جباعة؟ فقال: وما الجباعة؟ قال: التي بين الجبة والدراعة،  
فقال: ولم أنت صفديم؟ قال: وما صفديم؟ قال: الذي هو بين الصفعان والنديم الملح للحصري ١٨٣.  
وكان حذاء ماجن بباب الطاق اسمها الآن الصرافية يسمى النعال، بأسماء من جنس الصفعة، فعل راسكية، ونعل  
صعلكية، ونعل قفوية القصة ٢ - ٩٨ من نشوار المحاضرة.  
وأفرد ابن النديم في الفهرست ص ١٥٧ بحثاً في أخبار الصفادمة والصفاعنة، كما ذكر أن الكتجي ألف كتاباً سماه:  
كتاب الصفاعنة الفهرست ١٧٠.

والأصل في الصفع أن يحصل، بالكف على القفا، وربما حصل بجراب فارغ أو محشو مروج الذهب ٢ - ٥٠٩ -  
٥١١، وقد يحصل بالنعال وفيات الأعيان ٤ - ٤٥٥، أو بقشور القرع اليتيمة ٢ - ٣٤٠، أو بقشور البطيخ  
الأحمر المسمى في بغداد بالرقفي، نسبة إلى الرقة راجع سبب هذه التسمية في حاشية القصة ٢٦٨ من هذا الكتاب،  
ولا يوجد الآن ببغداد من يمارس هذا اللون من المباشطة السمجة، وقد أدركت بعض باعة الرقي الأحداث كانوا  
يتصافعون بقشور الرقي المق فصيحة، والبغداديون يلفظون قافها كافاً فارسية.

ومن أحسن في الإشارة إلى المصافعة، ابن الحلاوي الموصلية ت ٦٥٦ قال: الوافي بالوفيات ٨ - ١٠٨

فطّبّ طرطبّ فوق راسي ... وطاق طرطاق في قدالي

وقال الشاعر الأندلسي، أبو عبد الله بن الأزرق: نفع الطيب ٣ - ٢٢٩

أفدي صديقاً كان لي ... بنفسه يسعدي

فرّبما أصفعه ... وربّما يصفعي

طقطق طق طقطق طق ... أصخ بسمع الأذن



ولأبن الحجاج شعر كثير في المصافعة، أورد بعضه صاحب اليتيمة ٣ - ٨٦ - ٨٨، وللأحنف العكبري في المصافعة اليتيمة ٣ - ٧٠٤؛

لقد بتّ بماخور ... على دفّ وطبور  
وصوت الطبل كردم طع ... وصوت الناي طلّير  
فصرنا من حمى البيت ... كأننا وسط تنور  
وصرنا من أذى الصفع ... كمثل العمي والعور  
ومن أحسن في وصف الصفع، جمال الدين بن شيث، الموفى سنة ٦٢٥ وقد أورد له صاحب فوات الوفيات ٢ - ٣١٣ أبياتاً، اخترت منها هذين البيتين:  
وتخالفت بيض الأكف كأنها ال ... تصفيق عند مجامع الأعراس  
وتطابقت سود الخفاف كأنها ... وقد المطارق في يد النحاس  
ولأبي الرقعمق، أبي حامد أحمد بن محمد الانطاكي، مقطوعات في المصافعة، راجعها في يتيمة الدهر للتعالي ١ - ٣٣٤ - ٣٤٠.

ولزيادة التفصيل، راجع كتاب الغيث المسجم للصفدي ١ - ٢٠٣ - ٢٠٥ وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ٢ - ٦٩٩ و٧٠٠.

## السبب في خلع المقتدر الخلع الثاني

### وعودته إلى الحكم

ذكر أصحاب التواريخ، ومصنفو الكتب، وأبو الحسن علي بن الفتح الكاتب المعروف بالمطوق، على ما أخبرني به أحمد بن يوسف بن يعقوب التنوخي عنه في كتابه مناقب الوزراء ومحاسن أخبارهم، وما شاهده أحمد بن يوسف من ذلك، وجماعة حدثوني به، ممن شاهد الحال، منهم أيوب بن العباس بن الحسن، وعلي، والقاسم، ابنا هشام بن عبد الله الكاتب، وأبو الحسين بن عياش الخرزى، خليفة أبي رحمة الله على الحكم بسوق الأهواز، ومن لا أحصي من شيوخنا كثرة، بالسبب في خلع المقتدر عن الخلافة، الخلع الثاني، بعبارة مختلفة، معنى جميعها أن الجيش كله، الفرسان، والرجالة، شعوا يطلبون الزيادات، ويتسطنون في التماس الخالات، وملوا أيام المقتدر وبغوا عليه بأشياء. واتفق أن سائساً هارون بن غريب الخال، علق بغلام في الطريق، للفساد، فرفع إلى أبي الجود، خليفة عجيب، غلام نازوك، على مجلس الجسر بالجانب الغربي، فجاء غلمان هارون يخلصونه ومانعهم، إلى أن لحقه بعض أصحاب نازوك فصارت بينهم حرب، وانتهت الحال إلى قصص يطول شرحها.

إلى أن أطبق الجيش بأسرهم على خلع المقتدر، فزحفوا إلى داره، بمواطأة من مؤنس المظفر، فقبضوا عليه، وحملوه إلى دار مؤنس، في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فحبس فيها، وخلع نفسه، وأشهد عليه بالخلع.

وكان رأس الفتنة، والقائم بها، عبد الله بن حمدان، أبو الهيجاء، ونازوك المعتضدي، على مساعدة لهما من مؤنس، وإطابق من الجيش كلهم، وجاعوا بأبي منصور محمد بن المعتضد بالله، فأجلسوه في دار الخلافة، وسلموا عليه بها، ولقبوه القاهر بالله، فقلد نازوك الحجابة، مضافاً إلى ما كان إليه من الشرطة، وجعله صاحب داره.

فلما كان في يوم الإثنين لسبع عشرة ليلة خلت منه، بكر الناس إلى دار الخليفة للبيعة، وجاءت إلى فناء الدار، مما يلي دجلة، جماعة من الرجال، يطالبون بمال البيعة والزيادة.  
فجاء نازوك وأشرف عليهم من الرواق، ومعه خادم من رؤوس غلمانة يقال له عجيب، فقال لهم: ما تريدون؟ نعطيكم ثلاث نوايب. فقالوا: لا، إلا أرزاق سنة، وزيادة دينار، وزادوا في القول.  
فقال لهم: يصعد إلي منكم جماعة، أفهم عنهم، وأكلمهم، فصعد إليه جماعة منهم، من باب الخاصة، وتسلق إلى الرواق جماعة منهم كبيرة، وثاروا على غير مواطاة، ولا رأي منقرر.  
فقال لهم نازوك: اخرجوا إلى مجلس الإعطاء، حتى نخرج المال إلى الكتاب، فيقبضونكم.  
فقالوا: لا نقبض إلا ها هنا، وهجموا على التسعيني، يوقون، ويشتمون نازوك.  
فمضى نازوك من بين أيديهم، يريد الممر في الطريق الذي ينفذ إلى دجلة، وكان قد سد آخره بالأمس، إحياءاً لحفظ من في الدار، وتحزناً من هربهم، فلما رآه مسدوداً رجع، فاستقبله جماعة من الرجال يطلبونه.  
فوثب عليه رجل أصفر منهم، فضربه بكلاب، وثناه آخر يكون في مطبخ أم المقتدر، وله رزق في الرجالة، يقال له: سعيد، ويلقب: ضفدعاً، فقتلوه، وقتلوا عجيباً، وقالوا: لا نريد إلا خليفتنا جعفر المقتدر، وقتل الخدم في الدار أبا الهيجاء، واختبأ القاهر في بعض الحجر، عند بعض الخدم.  
وأقبلوا برأس نازوك على رمح قد خرج طرفه من وسط الرأس، إلى دار مؤنس، وهم يقولون: مقتدر، يا منصور.

فطالبوا مؤنساً بالمقتدر، فخافهم على نفسه، فأخرجهم إليهم، والمقتدر يستغني من الخروج، ويظهر الزهد في الخلافة، ويظن أن ما سمعه حيلة على قتله.

إلى أن سمع صياح الناس: مقتدر، يا منصور، وأعلم بقتل نازوك وأبي الهيجاء، فسكن.  
وقعد في طياره، ونحدر إلى داره، والرجالة يعدون على الشط بأزائه، إلى أن خرج من الطيار، فالتحقوا به يقبلون يديه ورجليه، حتى دخل داره.

وأحضر جماعة من الهاشميين وغيرهم، فبايعوه بيعة ثانية، وظهر ابن مقله وزيره، وكان مستتراً تلك الأيام، فأقره على الوزارة، ودبر أمره، وزال عنه ما كان فيه من الخنة والنكية، ولم ير خليفة أزيل عن سريرته، وأخرج من دار ملكه، وأجلس آخر في موضعه، ولقب لقباً من ألقاب الخلفاء، وتسمى بأمر المؤمنين، وأجمع على بيعته أهل المملكة والجيش كله، وعلى خلع الأول وحبسه، ثم رجع إلى أمره، ونهيه، وملكه، وداره، في مدة خمسة أيام، بلا سبب ممهد، ولا مواطاة لأحد، ولا مشاوره، ولا مراسلة، إلا ما اتفق في أمر المقتدر، وأخيه القاهر.

### خلع الأمين وعودته إلى الحكم

قال مؤلف هذا الكتاب: وعلى أنه قد كان جرى على محمد الأمين قريب من هذا، لما قبض عليه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، وخلعه، وحبسه، وعزم على أن ينفذه إلى المأمون، ثم أن الجيش طالبوه بأرزاقهم، فلم يكن معه، ما يعجله لهم، فوعدهم، فشغبوا، ولم يرضوا بالوعد، واستخرجوا الأمين من حبسه، فبايعوه ثانياً، وردوه، وهرب الحسين بن علي، وزالت عن الأمين تلك الشدة، والقصة في ذلك مشهورة، رواها أصحاب التواريخ، بما يطول اقتصاصه هنا، إلا أنه لم يجلس على سريرته خليفة آخر.

كيف خلع المقتدر الخلع الأول

قال القاضي أبو علي الحسن بن القاضي أبي القاسم علي بن محمد التنوخي رحمه الله تعالى: وقد جرت على المقتدر بالله شدة أخرى، وفرج الله عنه، في قصة تشبه قصة الأمين، سواء بسواء، لما أجمع جميع القواد والحاشية، على أن قتلوا العباس بن الحسن، الوزير، وخلعوا المقتدر من الخلافة، الخلع الأول، وبايعوا ابن المعتز، وأحضره من داره إلى دار سليمان بن وهب، المرسومة - إذ ذاك - بالوزراء، وجلس يأخذ البيعة على القضاة، والأشراف، والكافة، ويدبر الأمور، ووزيره محمد بن داود، ابن الجراح، ي كاتب أهل الأطراف، والعمال، والأكتاف، بخبر تقلدهما، وقد تلقب بالمتنصر بالله، وخوطف بالخلافة، وأمره في نهاية القوة، وهو على أن يسير إلى دار الخلافة، فيجلس بها، ويقبض على المقتدر، إلا أنه آخر ذلك، لتكامل البيعة، وتنفيذ الكتب، ويسير من غد.

وكان سوسن حاجب المقتدر، والمتولي لأموار داره، والغلمان المرسومين بحمايتها، ممن وافق ابن المعتز، ودخل مع القواد فيما دخلوا فيه، وشرط عليه، أن يقر على ما إليه، ويزاد شرطة بغداد.

فلما جلس ابن المعتز في اليوم الأول، كان المتولي لإيصال الناس إليه، والخدام بحضرته فيما يخدم فيه الحاجب، أحد الخدم غيره.

فبلغ ذلك سوسناً، فشق عليه، وتوهم أن ذلك غدر به، ورجوع عما شرط، ووقوف عليه، فدعا الخدم، وغلمان الدار، إلى نصرته المقتدر، فأجابوه، فأغلق الأبواب، وأخذ أهبة الحرب.

وأصبح ابن المعتز، في اليوم الثاني من بيعته، وهو يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين، عامداً على المسير إلى الدار، فثبطه محمد بن داود، وعرفه رجوع رأي سوسن، عما كان وافق عليه.

وصغر القواد ذلك في نفسه، فلم يتشاغل بتلافيه، وأشاروا عليه بالركوب إلى دار الخلافة، وهم لا يشكون في تمام الأمر، فركب وهم معه.

وانقلبت العامة مع المقتدر، ورموا ابن المعتز بالستر، وحاربوه مع شزيمة أفذهم سوسن لحربه من أطاعه على نصرته المقتدر.

ولما شاهد ابن المعتز الصورة، انهزم، وهرب، وانحل ذلك الأمر العظيم كله، وتفرق القواد، وسار بعضهم خارجاً عن بغداد، وروسل باقيهم عن المقتدر، بالتلافي، فسكوا، وعادوا إلى طاعته.

وطلب ابن المعتز، فوجد، وجيء به إلى دار الخلافة، فحبس فيها، ثم قتل، وكانت مدته منذ ظهر يوم السبت، إلى قريب من الظهر من يوم الأحد.

وعاد الأمر مستقيماً للمقتدر بالله، وانفرجت له تلك الشدة، عن ثبات الملك له.

وقد شرح هذا أصحاب التاريخ، بما لا وجه لإعادته ها هنا.

بعث الفضل بن سهل خدابود لقتال خارجي فجاء برأسه

وذكر عبد الله بن بشر، قرابة الفضل بن سهل، قال: كان الفضل إذا دخل مدينة السلام، من السيب - موضع قرية - لحوائجه، وهو - إذ ذاك - صغير الحال، نزل على فامي بها، يقال له: خدابود، فيخدمه هو وأهل بيته، ويقضي حوائجه إلى أن يعود.

وتقضت الأيام، وبلغ الفضل مع المأمون ما بلغ، بخراسان، وقضي أن الفامي ألح عليه الزمان بنكبات متصلة، حتى افتقر، فنهض إلى الفضل بن سهل.

وقدم مرو، فبدأ بي، فسررت به، وأكرمته، وأصلحت من شأنه ما يجب أن يصلح لدخوله على الفضل، وقمت فدخلت إلى الفضل وقد جلس على مائدته.

فقلت له: أتذكر الشيخ الفامي، الذي كنا نزل عليه ببغداد؟.

فقال لي: سبحان الله، تقول لي تذكره، وله علينا من الحقوق ما قد علمت؟ فكيف ذكرته؟ أظن إنساناً أخبرك بموته.

فقلت: هوذا في منزلي.

فاستطير فرحاً، وقال: هاته الساعة، ثم رفع يده، وقال: لا آكل أو يجيء.

فقممت، وجئت به، فحين قرب منه، تطاول له، وأجلسه بين يديه، فيما بيني وبينه، وأقبل عليه، وقال: يا هذا، ما حبسك عنا طول هذه المدة؟.

فقال: محن عاقبتني، ونكبات أصابتنني.

فاقبل يسائله عن واحدة واحدة من بناته وأهله.

فقال له: لم يبق لي بعدك ولد، ولا أهل، ولا مال إلا تلف، وما تحملت إليك، إلا من قرض ومسألة، فكاد الفضل يبيكي.

فلما استتم غداه، أمر له بثياب فاخرة، ومركوب، ومال لنفقته، وأن يدفع إليه منزل، وأثاث، واعتذر إليه، ووعدته النظر في أمره.

فلما كان من غد، حضر عنده وكلاء تجار بغداد، وكانوا قد قدموا عليه، يتغون ببيع غلات السواد منه، وأعطوه عطايا لم يجب إليها.

فأحضرني، وقال: قد علمت ما دار بيني وبين هؤلاء، فأخرج إليهم، وأعلمهم أني قد أنفذت البيع لهم، بما التمسوا، على أن يجعلوا لخدايود معهم الربع.

ففعلت ذلك، وأجاب التجار، وفرحوا بما تسهل لهم.

ثم قال لخدايود: إنهم سيهلون عليك بكثرة المؤن، ويبدلون لك مائة ألف درهم على أن تخرج من الشركة، فأحذر أن تفعل، ولا تخرج بأقل من خمسين ألف دينار.

ثم قال: أخرج معه، وتوسط فيما بينهم وبينه، ففعلت ذلك، ولم أقع حتى قدم التجار لخدايود خمسين ألف دينار، ودخل، فعرف الفضل ما جرى، وشكره، وأقام معنا مدة.

ثم دخل إليه يوماً، والفضل مغموم مفكر، فقال له: أيها الأمير ما الذي قد بلغ بك إلى ما أرى من الفكر والغم؟ قال: أمر لا أحسب لك فيه عملاً يا خدايود.

قال: فأخبرني به، فإن كان عندي فيه ما يفرجه عنك، وإلا ففي الشكوى راحة.

فقال له الفضل: إن خارجياً قد خرج علينا بعض كور خراسان، ونحن على إضاقة من المال، وأكثر عساكرنا قد جردوا إلى بغداد، والخارجي يقوى في كل يوم وأنا مرتبك في هذا الأمر.

فقال: أيها الأمير، ما ظننت الأمر، إلا أصعب من هذا، وما هذا حتى تفكر فيه؟ أنت قد فنحت العراق، وقتلت المخلوع، وأزلت مثل تلك الدولة، وتهتم بهذا اللص الذي لا مادة له؟ أنفذي إليه أيها الأمير، فإن أتيتك به، أو برأسه، بإقبالك، فهو الذي تريد، وإن قتلت، لم تنتلم الدولة بفقدي، على أني أعلم أن بختك لا يخطئ في هذا المقدار اليسير.

قال: ففكر الفضل ساعة، ثم التفت إلي، فقال: لعل الله يريد أن يعرفنا قدرته بخدايود.

ثم لفق رجالاً، واحتال مალًا، ففرقه عليهم، وخلع على خدايود، وقلده حرب الخارجي، والبلد الذي هو فيه.

فسار خدابود بالعسكر، فلما شارف عسكر الخارجي، جمع وجوه عسكره وقال لهم: إني لست من أهل الحرب، وأعول على نصره الله تعالى لخليفته على العباد، وعلى إقبال الأمير، وليس هذا الخارجي من أهل المدد، وإنما هو لص لا شوكة له، فاعملوا عمل واثق بالظفر، ولا تقنعوا بدون الوصول إليه، ولكم إن جتتم به، أو برأسه، كذا وكذا.

قال: فحملوا، وحققوا، فانجلى الحرب عن الخارجي قتيلاً، فاحتز رأسه. وكتب خدابود إلى الفضل، لست ممن يحسن كتب الفتوح، ولا غيرها، ولكن الله جلت عظمته قد أظفرونا بالخارجي، وحصل رأسه معي، وتفرق أصحابه، وأنا أستخلف على الناحية، وأسير برأسه. قال: وتلا الكتاب مجيء خدابود بالرأس، فعجبنا مما تم له، وعلت حاله مع الفضل.

### موت زياد يفرج عن ابن أبي ليلى

وذكر أبو الحسن المدائني، في كتابه كتاب الفرج بعد الشدة والضيقة عن محمد بن الحجاج، عن عبد الملك بن عمير، قال:

كتب معاوية، إلى زياد: إنه قد تلجلج في صدري شيء من أمر حجر بن عدي، فابعث لي رجلاً من أهل مصر، له فضل، ودين، وعلم، فدعا عبد الرحمن بن أبي ليلى، فقال له: إن أمير المؤمنين كتب إلي يأمرني أن أوجه إليه رجلاً من أهل مصر، له دين وفضل وعلم، ليسأله عن حجر بن عدي، فكنت عندي ذلك الرجل، فإياك أن تقبح له رأيه في حجر، فأقتلك، وأمر له بألفي درهم، وكساه حلتين، وحمله على راحلتين. قال عبد الرحمن: فسرت، وما في الأرض خطوة، أشد علي، من خطوة تدنيني إلى معاوية. فقدمت بابه، فاستأذنت، فأذن لي، فدخلت، فسألني عن سفري، ومن خلفت من أهل مصر، وعن خبر العامة والخاصة.

ثم قال لي: انطلق فضع ثياب سفرك، والبس الثياب التي لحضرك، وعد. فانصرفت إلى منزلي، ثم رجعت إليه، فذكر حجراً، ثم قال: أما والله، لقد تلجلج في صدري منه شيء، ووددت أني لم أكن قتلته.

قلت: وأنا والله يا معاوية، وددت أنك لم تقتله، فبكي.

فقلت: والله، لو ددت أنك حبسته.

فقال لي: وددت أني كنت فرقتهم في كور الشام، فتكفينهم الطواعين.

قلت: وددت ذلك.

فقال لي: كم أعطاك زياد؟ قلت: ألفين، وكساني حلتين، وحملني على راحلتين.

قال: فلك مثل ما أعطاك، أخرج إلى بلدك.

فخرجت وما في الأرض شيء أشد علي من أمر يدنيني من زياد، مخافة منه.

فقلت: آتي اليمن، ثم فكرت، فقلت: لا أخفى بها.

فأجمعت على أن آتي بعض عجائز الحي، فأتوارى عندها، إلى أن يأتي الله بالفرج من عنده.

قال: وقدمت الكوفة، فأمر بجهينة الظاهرة، حين طلع الفجر، ومؤذنهم يؤذن.

فقلت: لو صليت، فزلت، فصرت في المسجد، حتى أقام المؤذن.  
فلما قضينا الصلاة، إذا رجل في مؤخر الصف، يقول: هل علمتم ما حدث البارحة؟ قالوا: وما حدث؟ قال: مات  
الأمير زياد.

قال: فما سررت بشيء، كسروري بذلك.

### معاوية بن أبي سفيان

أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ٢٠ ق - ٦٠: مؤسس الدولة الأموية بالشام، وأحد  
دهاة العرب المتميزين الكبار، حكم الشام حكماً مستمراً، دام ما يزيد على الأربعين سنة، قضى بعضها ١٨ - ٣٥  
أميراً، وقضى الباقي متغلباً، ولاه على الشام الخليفة عمر، ولما ولي عثمان جمع له الديار الشامية كلها، ولما ولي علي  
عزله، فخرج علي بن أبي طالب بحجة المطالبة بدم عثمان الأعلام ٨ - ١٧٢ حتى إذا قتل علي، وتمكن من السيطرة ترك  
المطالبة بدم عثمان البصائر والذخائر ٢ - ٥٨٦.

وهو أول من لعن المسلمين على المنابر العقد الفريد ٤ - ٣٦٦ و ٥ - ٩١ وأول من حبس النساء بجرائم الرجال،  
إذ طلب عمرو بن الحمق الخزاعي، لمولاته علياً، وحبس امرأته بدمشق، حتى إذا قطع عنقه، بعث بالرأس إلى امرأته  
وهي في السجن، وأمر الحرس أن يطرح الرأس في حجرها بلاغات النساء ٦٤ واليعقوبي ٢ - ٢٣٢ والديارات  
١٧٩ و ١٨٠.

وكان يفرض على الناس لعن علي والبراءة منه، ومن أبي، قتله، أو بعث به إلى عامله زياد ليدفنه حياً العقد الفريد ٣  
- ٢٣٤ و ٤ - ٣٤ والأغاني ١٨ - ١٥٠ وابن الأثير ٣ - ٤٨٥ والأغاني ١٧ - ١٥٣.

وهو أول من سخر الناس، واستصفى أمواهم، وأخذها لنفسه اليعقوبي ٢ - ٢٣٢ وهو أول من حبس علي  
معارضيه أعطيتهم أدب الكتاب للصولي ٢ - ٢٢٤ محتجاً بأن العطاء ينزل من خزائن الله، فقال له الأحنف: إنا لا  
نلومك على ما في خزائن الله، ولكن على ما أتره الله من خزائنه، فجعلته في خزائنك، وحلت بيننا وبينه البصائر  
والذخائر م ٢ ق ٢ ص ٦٨٩.

وقيل لشريك بن عبد الله، إن معاوية كان حليماً، فقال: كلا، لو كان حليماً ما سفه الحق ولا قاتل علياً كتاب  
الآداب لجعفر ٢٢ و ٢٣.

وروى ابن الجوزي، عن الحسن البصري، إنه قال: أربع خصال كن في معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة، لكانت  
موبقة، وهي: أخذه الخلافة بالسيف، من غير مشاورة، وفي الناس بقايا الصحابة، وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه  
يزيد، وكان سكيراً هجيراً، يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياد أحمأ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم: الولد للفراش، وللعاهر الحجر، وقتله حجر بن عدي وأصحابه، فيا ويلاً له من حجر، وأصحاب حجر  
خزانة الأدب للبيدادي ٢ - ٥١٨ و ٥١٩.

وقال نيكلسون: اعتبر المسلمون انتصار بني أمية، وعلى رأسهم معاوية، انتصاراً للأرستقراطية الوثنية، التي ناصبت  
الرسول وأصحابه العداء، والتي جاهدها رسول الله حتى قضى عليها، وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها  
حتى نصرهم الله، ففوضوا عليها. وأقاموا على أنقاضها دعائم الإسلام، لذلك، لا نهش إذا كره المسلمون بني أمية،  
وغرستهم، لا سيما أن جمهور المسلمين كانوا يرون بين الأمويين رجالاً كثيرين، لم يعتنقوا الإسلام إلا سعياً وراء

مصالحهم الشخصية، ولا غرو، فقد كان معاوية يرمي إلى جعل الخلافة ملكاً كسروياً، وليس أدل على ذلك من قوله: أنا أول الملوك تاريخ الإسلام ١ - ٢٧٨ و ٢٧٩.

وكان مصروف المهمة إلى تدبير أمر الدنيا، يهون عليه كل شيء إذا انتظم أمر الملك الفخري ١٠٧ ولما استولى على الملك، استبد على جميع المسلمين، وقلب الخلافة ملكاً رسائل الجاحظ ١٤ - ١٦ وكان يقول: إنا لا نحول بين الناس وألستهم، ما لم يحولوا بيننا وبين السلطان محاضرات الأدباء ١ - ٢٢٦.

وختم معاوية أعماله، بإرادته أن يظهر العهد ليزيد، فقال لأهل الشام: إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه، ورق جلده، ودق عظمه، واقترب أجله ويريد أن يستخلف عليكم، فمن ترون؟ فقالوا: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فسكت وأضرها، ودس ابن أثال الطيب إلى عبد الرحمن، فسقاه سماً، فمات الأغابي ١٦ - ١٩٧.

ثم فرض ولده يزيد على الناس فرضاً، وهملهم على بيعته قسراً، وأوعز إلى رجل من الأزدي، اسمه يزيد بن المقفع، فقام خطيباً وقال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، فإذا مات فهذا وأشار إلى يزيد، ومن أبي فهذا وأشار إلى السيف، فقال له معاوية: أقعد، فأنت سيد الخطباء العقد الفريد ٤ - ٣٧٠ ومروج الذهب ٢ - ٢١.

إقرأ بعض أخبار معاوية في تاريخ يعقوبي ٢ - ٢١٧ وفي الامتاع والمؤانسة ٢ - ٧٥ و ٣ - ١٧٨ وفي محاضرات الأدباء ١ - ٣٥٣ وفي كتاب التاج للجاحظ ٢٠٥ وفي الخاسن والمسائى ٢ - ١٤٨ وفي البيان والتبيين للجاحظ ٢ - ٨٧ و ١١٠ و ٤ - ١٣٣ وفي الأغابي ٤ - ١٨٩ و ٦ - ٢٦٦ و ١٥ - ١٦٨، ١٩٧ و ١٩٨ و ١٧ - ١٤٤ وفي وفيات الأعيان ٢ - ١٦٩ وفي الفخري ١٠٦ - ١١٠ وفي البصائر والذخائر ٢م ق ٢ ص ٦٧١ و ٧٠٢ وفي نفع الطيب ٢ - ٥٤٢ وفي خزانة الأدب للبغدادى ٢ - ٥١٨ و ٥١٩.

خرج يريد خالداً القسري فأعطاه الحكم فأغناه وقد أخبرني علي بن ديس، عن الخزاعي المدائني، عن أبي عمر الزاهد وقد لقيت أبا عمر، وحملت منه شيئاً من علومه ورواياته، وأجاز لي كل ما صح منها، فدخل هذا في إجازته.

وحدثنا أحمد بن عبد الله بن أحمد الوراق، في كتاب نسب قريش، قال: حدثنا أحمد بن سليمان الطوسي، قال: حدثنا الزبير بن بكار، قال: أخبرني عمي مصعب، عن نوفل بن عمارة: أن رجلاً من قريش، من بني أمية، له قدر وخطر، لحقه دين، وكان له مال من نخل وزرع، فخاف أن يباع عليه، فشخص من المدينة يريد الكوفة، يقصد خالد بن عبد الله القسري، وكان والياً لهشام بن عبد الملك على العراق، وكان يير من قدم عليه من قريش.

فخرج الرجل يريده، وأعد له من طرف المدينة، حتى قدم فيد، فأصبح بها.

فرأى فسطاطاً عنده جماعة، فسأل عنه، فقيل: للحكم بن عبد المطلب، يعني أبا عبد الله بن عبد المطلب بن حنظلة بن الحارث بن عبيد بن عمرو بن مخزوم، وكان يلي المشاعر، فلبس نعليه، وخرج حتى دخل عليه.

فلما رآه، قام إليه فتلقاه، وسلم عليه وأجلسه في صدر فراشه، ثم سأله عن مخرجه، فأخبره بدينه، وما أراد من إتيان خالد بن عبد الله.

فقال الحكم: انطلق بنا إلى منزلك، فلو علمت بمقدمك لسبقتك إلى إتيانك، فمضى معه، حتى أتى منزله، فرأى الهدايا التي أعدها خالد، فتحدث ساعة معه.

ثم قال: إن منزلنا أحضر عدة، وأنتم مسافرون، ونحن مقيمون، فأقسمت عليك إلا قمت معي إلى المنزل، وجعلت لنا من هذه الهدايا نصيباً.

فقام الرجل معه، وقال: خذ منها ما أحببت، فأمر بها، فحملت كلها إلى منزله، وجعل الرجل يستحي أن يمنعه شيئاً،

حتى صار إلى المنزل.

فدعا بالعداء، وأمر بالهدايا، ففتحت، فأكل منها، ومن حضره، ثم أمر ببقيتها فرفعت إلى خزانته، وقام الناس.

ثم أقبل على الرجل، وقال له: أنا أولى بك من خالد، وأقرب منه رحماً ومنزلاً، وها هنا مال للغارمين، أنت أولى الناس به، وأقرب، وليس لأحد عليك فيه منة، إلا الله تعالى، تقضي به دينك، ثم دعا له بكيس فيه ثلاثة آلاف دينار، فدفعت إليه.

ثم قال: قد قرب الله - جلت عظمته - عليك الخطوة، فانصرف إلى أهلِكَ مصاحباً، محفوظاً.

فقام الرجل من عنده، يدعو له ويشكره، ولم يكن له همة إلا الرجوع إلى أهله، وانطلق الحكم يشيعه.

ثم قال: كأني بزوجتك، قد قالت: أين طرائف العراق، خزها، وبزها، وعروضها، أما كان لنا منها نصيب؟ ثم أخرج صرة قد كان حملها معه، فيها خمسمائة دينار، فقال له: أقسمت عليك، إلا جعلت هذه عوضاً عن هدايا العراق، وانصرف.

وذكر أبو الحسين القاضي، هذا الخبر، في كتابه، كتاب الفرج بعد الشدة، بغير إسناد، على قريب من هذه العبارة.

### لا بارك الله في مال بعد عثمان

وذكر أيضاً في كتابه، بغير إسناد: أن عثمان بن طلحة، ركب دين فادح، مبلغه ألفا دينار، فأراد الخروج إلى العراق، لمسألة السلطان قضاءه عنه.

فلما عزم على السفر، اتصل خبره بأخيه جعفر بن طلحة، فقال: لا بارك الله في مال بعد عثمان.

فدخل على نسائه، فجعل يخلع حليهن، حتى جمع له أكثر من ألفي دينار، فدفعها إليه.

فقضى دينه، وأقام.

رفع صوته بالتلبية فحملت إليه أربعة آلاف دينار

وحدثنا أحمد بن عبد الله، في هذا الكتاب، كتاب نسب قريش، قال: حدثنا أحمد بن سليمان، قال: حدثنا الزبير،

قال: حدثني مفضل بن غسان، عن أبيه، عن رجل من قريش، قال: حج محمد بن المنكدر، من بني تميم بن مرة، قال: وكان معطاءً، فأعطى حتى بقي في إزار واحد، وحج معه أصحابه.

فلما نزل الروحاء، أتاه وكيله، فقال: ما معنا نفقة، وما بقي معنا درهم.

فرفع محمد صوته بالتلبية، فلبى، ولبي أصحابه، ولبي الناس، وبالماء محمد بن هشام.

فقال: والله، إني لأظن أن محمد بن المنكدر بالماء، فانظروا.

فنظروا، وأتوه فقالوا: هو بالماء.

فقال: ما أظن معه درهماً، احموا إليه أربعة آلاف درهم.

يزيد بن عبد الملك بن مروان يصف عمر بن هبيرة بالرجلة ويوليه العراق

قال: وذكر أبو الحسين القاضي، في كتابه، قال: نالت عمر بن هبيرة، إضافة شديدة، فأصبح ذات يوم، في نهاية الكسل، وضيق الصدر، والضجر مما هو فيه.

فقال له أهله ومواليه: لو ركبت فلقيت أمير المؤمنين، فلعله - إذا رآك - أن يجري لك شيئاً فيه محبة، أو يسألك عن حالك، فتخبره.



فركب، فدخل على يزيد بن عبد الملك، فوقف بين يديه ساعة، وخاطبه.

ثم نظر يزيد بن عبد الملك إلى وجه عمر، وقد تغير تغيراً شديداً، أنكره، فقال: أتريد الخلاء؟ قال: لا. قال: إن لك لشأناً.

قال: يا أمير المؤمنين، أجد بين كفي أذى لا أدري ما هو.

قال يزيد بن عبد الملك: انظروا ما هو.

فنظروا، فإذا بين كفيه عقرب، قد ضربته عدة ضربات.

فلم يبرح حتى كتب عهده على العراق، وجعل يزيد بن عبد الملك يصفه بالرجلة، وشدة القلب.

كان خالد القسري لا يملك إلا ثوبه فجاءه الفرج بولاية العراق

وذكر أبو الحسين في كتابه: أن خالد بن عبد الله القسري، أصابته إصاقة شديدة، فبينما هو ذات يوم في منزله، إذ

أتاه رسول هشام بن عبد الملك يدعوه لولاية العراق، فتلوم، فاستحنته الرسول.

فقال له خالد: رويداً حتى يجف قميصي، وقد كان غسله قبل موافاة الرسول، ولم يكن بقي له غيره.

فقال له الرسول: يا هذا، أسرع في الإجابة، فإنك تدعى إلى قمصان كثيرة.

فجاء إلى هشام، فولاه العراق.

يهلك ملوكاً ويستخلف آخرين

قال: ومن الأعجوبات، ما ذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، عن علي بن الهيثم، قال: رأيت شيئاً قلماً رئي مثله،

رأيت ثقل الفضل بن الربيع، على ألف بعير، ثم رأيت ثقله في زنبيل، ونحن مسترون، وفيه أدوية لعلته، وهو ينقله

من موضع إلى موضع.

ورأيت الحسن بن سهل، وكان مع طريف خادمي في بيت الدهليز، وثقله في زنبيل، فيه نعلان، وقميصان، وإزار،

وإسطراب، وما أشبه ذلك، ثم رأيت ثقله على ألف بعير.

باع من إصاقتة لجام دابته في الصباح وحلت له عشرون ألف دينار وقت الظهر

قال: وذكر أبو الحسين القاضي في كتابه، قال: حدثنا أبو القاسم ميمون بن موسى قال:

خرج رجل من الكتاب في عسكر المعتصم إلى مصر، يريد التصرف، فلم يحظ بشيء مما أمل، ودخل المعتصم بالله

مصر.

قال: فحدثني بعض المنصرفين عنه، قال: نزلت في دار بالقرب منه، فحدثني الرجل بما كنت وقفت على بعضه.

قال: أصبحت ذات يوم، وقد نفذت نفقتي، وتقطعت ثيابي، وأنا من الهم، والغم، على ما لا يوصف عظماً.

فقال لي غلامي: يا مولاي، أي شيء نعمل اليوم؟ فقلت له: خذ لجام الدابة، فبعه، فإنه محلي، وابتع مكانه لجاماً

حديداً، واشتر لنا خبزاً سميداً، وجدياً سميناً، فقد قرمت إلى أكلهما، وعجل، ولا تدع أن تبتاع فيما تبتاعه كوز نبيذ

شبيروي.

فمضى الغلام، وجلست أفكر في أمري، ومن ألقى، وكيف أعمل، وإذا بباب الدار قد دق دقاً عنيماً، حتى كاد أن

يكسر، وإذا رهج شديد.

فقلت للغلام كان واقفاً بين يدي: بادر، فانظر ما هذا.

فإلى أن يفتح الباب، كسر، وامتألت الدار بالغللمان الأتراك وغيرهم، وإذا بأشناس، وهو حاجب المعتصم، ومحمد

بن عبد الملك الزيات، وهو الوزير، قد دخلا.

فطرح لهم زلية، فجلسا عليها، وإذا معهما حفارون.

قال: فلما رأيت ذلك، بادرت فقبلت أيديهما، فسألاني عن خبري، فخيرتهما إياه، وأني قد خرجت في جملة أهل العسكر، طلباً للتصرف، وذكرت حالي وما قد آلت إليه، فوعداًني جميلاً، والحفارون يجفرون في وسط الدار، حتى ترجل النهار، وأنا واقف بين أيديهما، وربما حدثتهما.

فالتفت أشناس إلى محمد بن عبد الملك فقال: أنا والله جائع.

فقال له محمد: وأنا - والله - كذلك.

فقلت عند ذلك: يا سيدي، عند خادمكما شيء قد اتخذ له، فإن أذنتما في إحضاره أحضره.

فقالا: هات.

فقدمت الجدي، وما كان ابتيع لنا، فأكلا، واستوفيا، وغسلا أيديهما.

ثم قال لي أشناس: عندك شيء من ذلك الفن؟ قلت: نعم، فسقيتهما ثلاثة أقذاح.

وجعل أحدهما يقول للآخر: ظريف، وما ينبغي لنا أن نضيعه البائس.

فبينما الحال على ذلك، إذ ارتفع تكبير الحفارين، وإذا هم قد كشفوا عن عشرين رجلاً دنانير، فوجهوا بالبشارة إلى المعتصم، وأخرجت المراحل.

فلما فهمنا، قال أحدهما للآخر: فهذا الشقي الذي أكلنا طعامه، وشربنا شرابه، ندعه هكذا؟ فقال له الآخر: فنعمل ماذا؟ قال: نحفن له من كل رجل حفنة، لا تؤثر فيه، فنكون قد أغنيناه، ونصدق أمير المؤمنين عن الحديث.

ثم قالوا: افتح حجرك، وجعل كل واحد، يحفن لي حفنة، من كل رجل، وأخذنا المال، وانصرفا.

فظفرت، فإذا قد حصل لي عشرون ألف دينار، فانصرفت بها إلى العراق، وابتعت بها ضياعاً ولزمت منزلي، وتركت التصرف.

### سبحان خالقك يا أبا قلابة فقد تنوق في قبح وجهك

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: حدثني أبي، عن أبي قلابة المحدث، قال: ضقت ضيقة شديدة، فأصبحت ذات يوم، والمطر يجيء كأفواه القرب، والصبيان يتضورون جوعاً، وما معي حبة واحدة فما فوقها، فبقيت متحيراً في أمري.

فخرجت، وجلست في دهليزي، وفتحت بابي، وجعلت أفكر في أمري، ونفسي تكاد تخرج غمماً لما ألقىه، وليس يسلك الطريق أحد من شدة المطر.

فإذا بامرأة نبيلة، على حمار فاره، وخادم أسود أخذ بلجام الحمار، يخوض في الوحل، فلما صار بإزاء داري، سلم، وقال: أين منزل أبي قلابة؟ فقلت له: هذا منزله، وأنا هو.

فسألني عن مسألة، فأفتيتها فيها، فصادف ذلك ما أحببت، فأخرجت من خفيها خريطة، فدفعت إلي منها ثلاثين ديناراً.

ثم قالت: يا أبا قلابة، سبحان خالقك، فقد تنوق في قبح وجهك، وانصرفت.

المنصور العباسي يتذكر ما ارتكب من العظائم فيكي ويتحجب

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: دخل عمرو بن عبيد، على أبي جعفر المنصور قبل دولة بني العباس، وكان صديقه، وبين يديه طبق عليه رغيف، وغضارة فيها فضلة سكباج، وهو يغدى، وقد كاد يفرغ، فلما بصر بعمرو،

قال: يا جارية، زدينا من هذا السكباج، وهاتي خبزاً.

قالت: ليس عندنا خبز، وما بقي من السكباج شيء.

قال: فارفعي الطبق، ثم قال: " عسى ربكم أن يهلك عدوكم، ويستخلفكم في الأرض، فينظر كيف تعملون ".  
فلما أفضى الأمر إلى أبي جعفر، وارتكب العظام، دخل عليه عمرو بن عبيد، فوعظه، ثم قال: أتذكر يوماً دخلت عليك ... وأعاد الحديث، وقد استخلفك، فماذا عملت؟ فجعل المنصور يبكي ويتحبب، وفيه حديث طويل.

ارتكب المنصور فظائع من قتل، وتعذيب، ودفن الناس أحياء، ودق الأوتاد في الأعين، وبناء الحيطان على الأحياء، وكان يشهد تعذيب من يأمر بتعذيبه، حتى أنه كان يشهد تعذيب النساء أيضاً.

راجع في الفخري ١٦٥ سبب حبس آل الحسن، وقتلهم، وقد حبسهم المنصور في سرداب تحت الأرض، لا يفرقون فيه بين ضياء النهار، وسواد الليل، وهدم الحبس على قسم منهم، وكانوا يتوضؤون أي يقضون حاجتهم في مواضعهم، فاشتدت عليهم الرائحة، وكان الورم يبدو في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ القلب، فيموت صاحبه، ومات إسماعيل بن الحسن، فترك عندهم حتى جيف، فصعق داود بن الحسن، ومات مروج الذهب ٢ - ٢٣٦.

وبلغ المنصور أن عبد الله بن محمد النفس الزكية، فر منه إلى السند، فبعث وراءه من قتله مقاتل الطالبين ٣١٠ - ٣١٣، وأمر المنصور بمحمد بن إبراهيم بن الحسن، فبنيت عليه أسطوانة، وهو حي الفخري ١٦٤، ومقاتل الطالبين ٢٠٠، والطبري ٧ - ٥٤٦ وابن الأثير ٥ - ٥٢٦ وأمر بعبد الله بن الحسن بن الحسن فطرح عليه بيت فقتله مقاتل الطالبين ٢٢٨ أما الباقيون فما زالوا في الحبس حتى ماتوا، وقيل إنهم وجلوا مسمرين في الحيطان اليقوي ٢ - ٣٧٠.

وأمر المنصور بإبراهيم بن الحسن بن الحسن، فدفن حياً مقاتل الطالبين ٢٨ وجرى محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وأمه فاطمة بنت الحسين، فضرب ألف سوط مروج الذهب ٢ - ٢٣٦ وأمر بأن يدق وجهه بالجرز، وهو العمود من الحديد الطبري ٧ - ٥٤٣ وبلغ من شدة الضرب أن أخرج وكأنه زنجي مقاتل الطالبين ٢٢٠ وابن الأثير ٥ - ٥٢٥ وجاءت إحدى الضربات على عينه، فسالت مقاتل الطالبين ٢٢٠ والطبري ٧ - ٥٤٢ ثم قتله، وقطع عنقه مقاتل الطالبين ٢٢٦.

ولما حمل رأس محمد بن عبد الله إلى المنصور، قال لمطير بن عبد الله: أما تشهد أن محمداً بايعني؟ فقال: أشهد بالله لقد أخبرني بأن محمداً خير بني هاشم، وأنتك بايعت له، فشتمه، وأمر به، فوتد في عينيه الخاسن والمساوي ٢ - ١٣٨.  
ولما قتل إبراهيم بن عبد الله في باخري، بعث المنصور برأسه إلى أبيه عبد الله فوضعه بين يديه مروج الذهب ٢ - ٢٣٦ و٢٣٧ وأمر بسديف بن ميمون الشاعر، فدفن حياً العقد القريد ٥ - ٨٧ - ٨٩.

ومن بعد وفاة المنصور عثر المهدي، وزوجته ربيعة، على أزج في قصر المنصور، فيه جماعة من قتلى الطالبين، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وإذا فيهم أطفال، ورجال، شباب ومشايخ، عدة كثيرة، فلما رأى المهدي ذلك، ارتاع لما رأى، وأمر فحفرت لهم حفرة دفنوا فيها الطبري ٨ - ١٠٥.

ولما طال حبس عبد الله بن الحسن، وأهل بيته، جلست إحدى بناته للمنصور، فتوسلت إليه بالقرابة، وطلبت منه الرحمة، فقال لها: أذكرتني، وأمر به فحدر إلى المطبق وكان آخر العهد به تاريخ بغداد للخطيب ٩ - ٤٣٢.  
ومما يبعث على العجب أن المنصور، الذي ضرب أسوء الأمثال في القسوة، أوصى ولده المهدي، فقال: أحفظ محمداً

في أمته، وإياك والدم الحرام، فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، وافتتح عملك بصلة الرحم، وبر  
القرابة الطبري ٨ - ١٠٥ و ١٠٦.

### إن قرح الفؤاد يجرح جرحاً

وذكر القاضي أبو الحسين، قال: روي لنا عن خالد بن أحمد البطحاوي، مولى آل جعفر بن أبي طالب، قال:  
تزوجت امرأة، فبينما أنا ذات ليلة من ليالي العرس، وليس عندنا قليل ولا كثير، وأنا أهم الناس بذلك، إذ جلهتني  
امراتان، فطرفنا باب منزلي، فخرجت إليهما، فإذا بجارية شابة، وأخرى نصف.  
فقالت: أنت خالد البطحاوي؟

قلت: نعم.

قالت: أحب أن تنشدا قولك: خلفوني ببطن حام، فأنشدتهما:

خلفوني ببطن حام صريعاً ... ثم ولّوا وغادروني صباحاً

جمع الله بين كلِّ محبٍّ ... ذبحوه بشفرة الحبِّ ذبحاً

غادر الحبِّ في فؤادي قرحاً ... إن قرح الفؤاد يجرح جرحاً

قال: فرمت إلي الشابة بدملج ذهب، وانصرفنا، فبعته بجملة دراهم، واتسعت بما.

أبو عمر القاضي يصبح وليس عنده درهم واحد فيجئته الفرج في وقت قريب

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: حدثني أبي، قال: أضقت إضاقاً شديدة، في نكيتي، وأصبحت يوماً، وما  
عندي درهم واحد فما فوقه، وكان الوقت شتاءً، والمطر يجيء.

فجلست ضيق الصدر، مفكراً في أمري، إذ جاءني صديق لي، فقال: قد جئت لأقيم عندك اليوم، فازداد ضيق

صدري، وقلت له: بالرحم والسعة، وأظهرت له السرور بمجيئه.

ودخلت إلى النساء، فقلت لمن: احتلن فيما نفق في هذا اليوم، على رهن أو بيع شيء من البيت، فقد طرفنا ضيف.

وخرجت، فجلست مع الرجل، وأنا على نهاية من شغل القلب، خوفاً أن لا يتفق قرض، ولا بيع، لأجل المطر.

فأنا كذلك، إذ دخل الغلام، فقال: خليفة أبي الأغر السلمي بالباب.

فقلت: أي وقت هذا لخليفة أبي الأغر؟ وأمرته أن يجرح فيصرفه، ثم تدمت من صرفه، وقد قصدني في مثل هذا  
اليوم.

فقلت: قل له يدخل.

فدخل، وحادثني قليلاً، ثم قرب مني، وأخرج صرة فيها مائة دينار.

وقال: يقول لك أخوك: وجهت إليك بهذه الصرة، فتأمر بصرفها في مثل هذا اليوم، في بعض ما يصلح حالك.

فامتنت من قبولها، فلم يزل خليفته يلطف بي، حتى قبلتها.

بين أحمد بن أبي خالد وصالح الأضجم

حدثني أبي، أبو القاسم التنوخي، في المذاكرة، بإسناد ذهب عن حفطي، قال: كان أحمد بن أبي خالد، بغيضاً، قبيح اللهجة، وكان مع ذلك حراً، وكان يلزمه رجل متعطل من طلاب التصرف يقال له: صالح بن علي الأضجم، من وجوه الكتاب، فحدث، قال: طالت بي العطلة في أيام المأمون، والوزير - إذ ذاك - أحمد بن أبي خالد، وضافت حالي، حتى خشيت التكشف.

فبكرت يوماً إلى أحمد بن أبي خالد مغلساً، لأكلمه في أمري، فرأيت بابه قد فتح، وخرج بين يديه شعبة، يريد دار المأمون.

فلما نظر إلي، أنكر علي بكوري، وعبس في وجهي، وقال: في الدنيا أحد بكر هذا البكور ليشغلنا عن أمرنا. فلم تصبر نفسي أن قلت: ليس العجب منك - أصلحك الله - فيما استقبلتني به، وإنما العجب مني، وقد سهرت ليلتي، وأسهرت من في داري تأمياً لك، وتوقفاً للصبح، لأصير إليك، فأبثك أمري، وأستعين بك على صلاح حالي، وإلا فعلي، وعلي، وحلفت يمناً غليظة، لا وقفت ببابك، ولا سألتك حاجة، حتى تصير إلي معتذراً مما كلمتني به.

وانصرفت مغموماً، مكروباً بما لقيني به، متدماً على ما فرط مني، غير شاك في العطب، إذ كنت لا أقدر على الحنث، وكان ابن أبي خالد، لا يلتفت إلى إبرار قسمي. فإني لكذلك، وقد طلعت الشمس، إذ طلع بعض غلماني، فقال: أحمد بن أبي خالد، مقبل في الشارع، ثم دخل آخر، فقال: قد دخل دربنا، ثم دخل آخر، فقال: قد وقف على الباب، ثم تبادر الغلمان بدخوله الدهليز، فخرجت مستقبلاً له.

فلما استقر به مجلسه في داري، ابتدأت أشكره على إبراره قسمي، فقال: إن أمير المؤمنين، كان أمرني بالبكور إليه في بعض مهماته، فدخلت إليه، وقد غلبني الفكر، لما فرط مني إليك، حتى أنكرك ذلك، فقصصت عليه قصتي معك. فقال: قد أسأت بالرجل، قم، فامض إليه، فاعتذر مما قلت له.

قلت: فأمضي إليه فارغ اليد؟ قال: فتريد ماذا؟ قلت: يقضي دينه.

قال: كم هو؟

قلت: ثلثمائة ألف درهم.

قال: وقع له بذلك.

قلت: فيرجع بعد إلى الدين؟ قال: وقع له بثلثمائة ألف درهم أخرى.

قلت: فولاية يشرف بها.

قال: وله مصر، أو غيرها، مما يشبهها.

قلت: ومعونة على سفره؟ قال: وقع له بثلثمائة ألف درهم ثالثة.

قال: وأخرج التوقيع من خفه، بالولاية، وبتسعمائة ألف درهم، فدفعت ذلك إلي، وانصرف.

وقد ذكر محمد بن عبدوس، في كتاب الوزراء، الخبر على قريب من هذا.

جندي تركي تشدد إضافته ثم يأتيه الفرج

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: حدثنا إبراهيم بن القاسم، قال: كان في جبراني، بالجانب الشرقي، من مدينة السلام، رجل من الأتراك، له رزق في الجند، فتأخر رزقه في أيام المكتفي، ووزارة العباس بن الحسن، فسألت حاله، ورثت هيأته، حتى أدمن الجلوس عند خباز كان بالقرب منا، وكان يستسعه، فيعطيه في كل يوم خمسة أرتال

خبزاً، يتقوت بها هو وعياله.

فاجتمع عليه للخباز شيء، ضاق به صدر الخباز معه أن يعطيه سواه، فمنعه، فخرج ذات يوم، فجلس، وهو عظيم الهم، ثم كشف لي حديثه.

وقال: قد عملت على مسألة كل من يشتري من الخباز شيئاً، أن يتصدق علي، فقد حملني الجوع على هذا، وكلما أردت فعله، منعتني نفسي منه.

فبينما هو معي في هذا، إذ جاء رجل بزي نقيب، يسأل عنه، فدل عليه، فوجده جالساً عند الخباز. فقال له: قم.

فقال: إلى أين؟

قال: إلى الديوان، حتى تقبض رزقك، فقد خرج لك ولأصحابك رزق شهرين، فمضى معه.

فلما كان بعد ساعة، جاءني، وقد قبض مائتين وأربعين ديناراً.

فرم منزله، وأصلح حاله، وحال عياله، وأبتاع دابةً وسرجاً وسلاحاً، وقضى دينه، وخرج مع قائد كان برسمه، وحسنت حالته.

### أحمد بن مسروق عامل الأهواز يتحدث عن الفرج الذي وجده في قانصة البطة

وذكر أبو الحسين في كتابه عن الحسين بن موسى، أخي إبراهيم بن موسى، قال: خرجت إلى فارس، في أيام المعتمد على الله، فمررت بالأهواز، والمتقلد لخراجها أحمد بن مسروق، فاجتمعنا، وتذاكرنا حديث الغم والفرج، وما ينال الناس منهما، ومن المرض والصحة.

فحدثني: أنه كان في ناحية إسحاق بن إبراهيم، فلما توفي، وقدم محمد بن عبد الله بن طاهر، تعطل، وافتقر، حتى لم يبق له شيء، وحالته أمراض كثيرة، فكان لا يصح له بدن يوماً واحداً.

قال: وكان له رفيق، فخرج إلى سر من رأى، فتعلق بالفتح بن خاقان، فحسنت حاله.

قال: فكان يكتب إلي في الخروج إليه، فيمنعني من ذلك عوز النفقة.

فإني لمغموم، مفكر في الحال التي أنا عليها، إذ دخل بعض نساتنا، فلامني على طول الهم والغم، وقالت: كن اليوم عندي، حتى أذبح لك مخلقة بطة سمنت لنا، وتجتمع مع جورايك، فيغنين لك وتفرج.

فقلت: نعم، وجات إلى منزلنا، وذبحت البطة، فإذا قد خرجت إلي، ومعها حجر أحمر، لم تدر ما هو.

فقلت: خرج هذا من قانصة البطة، فما هو؟ قلت: لا أدري، ولكن هببه لي حتى أريه لمن يعرفه.

فقلت: خذه، فأريت شيئاً لم أعرفه، إلا أني بعثت به إلى صديق لي بباب الطاق، وسألته أن يبيعه لي.

فقال: نعم، ثم إنه غسله بماء حار، وباعه بمائة وثلاثين ديناراً.

فأخذت الدنانير، واشترت مركوباً، وتجهزت إلى سر من رأى، فلزمت أبا نوح، وباب الفتح بن خاقان، فنقدت نفقتي، وجعل رفيقي ينفق علي، ويقرضني.

فدعاني الفتح بن خاقان يوماً، وقد ينست منه، وإذا بين يديه أبو نوح، فقال: هذا أحمد بن مسروق؟ قال: نعم.

قال: كيف أنت إن أنفذتك في أمر، واصطنعتك؟ قلت: إني كنت مع الخراسانية كاتباً أعرف جميع الأعمال.

فأدخلني إلى المتوكل، فلما وقفت بين يديه، قال: إنا ننفذك في أمر هو محنتك، وبه ارتفاعك أو سقوطك، فانظر

كيف تكون؟ قال: فقبلت الأرض، ووعدت الكفاية به من نفسي.

وخرج الفتح، ومعه عبيد الله بن يحيى، فوقع لي عبيد الله بأجر ثلاثة آلاف درهم، مع الشاكرية الذين يقبضون عشرة أشهر من السنة، والإستقبال في أول شهر يوضع لهم، ووقع إلى خازن بيت المال بأن يدفع إلي ثلاثين ألف درهم معونة.

وكتب كتبي بالنظر في مصالح الأهواز، وأشياء هناك بالستر والأمانة، احتيج إلى كشفها، فسرت إليها، وبلغت في الأمور ما أحمد.

فصار رسمي أن أقلد أعمالها، فمرة المعونة، ومرة الخراج، ومرة يجمعان لي جميعاً.

فراحت تلك العلل والأمراض التي كانت قد حالتني، ولا أعرف لذلك سبباً غير القرح.

فقال الحسين بن موسى، لأحمد بن مسروق: على ذكر وجود الحجر في قانصة البطة: أخبرك أبي لما سرت في سفرتي هذه، إلى الموضع المعروف باصطربند، رأيت بستاناً حسناً، فيه باقلى وخضرة، بعقب مطرة، فاستحسنته، فعدلت إليه.

فقال: عساه البستان الذي فيه الصخرة التي كأنها نابذة.

قلت: هو.

قال: هيه.

قلت: فتغدنا فيه، وشربنا أقداحاً، وكنيت مستدداً إلى الصخرة. فلما تمضنا، رأيت في وسط الصخرة نقرة، قد اجتمع فيها ماء المطر، فهو في غاية الصفاء.

فوضعت فمي لأشرب منه، فبحرك فيه شيء، فنحيت فمي عنه، وتأملمته، فبدت لي خرقة، فجدبتها، فإذا صرة.

فقال أحمد بن مسروق: صرتي، والله، كان فيها ثلثمائة دينار.

قلت: نعم، فمن أين صارت لك؟.

قال: مررت بهذا الموضع، آخر خرقة خرجتها إلى الأهواز، فملت إلى الموضع، كما ملت، وكانت هذه الصرة في يدي، فوضعتها في الحجر، وأنسيتها وركبت، ثم طلبتها، فلم أجدها، ولا علمت أين وضعتها، إلا الساعة، فذكرتها بحديثك.

قلت: فالدانير مع غلامي.

قال: خنّها، بارك الله لك فيها، وأبرأت ذمتك منها.

أصلح بين متخاصمين بدرهم فوهب الله له درة بمائة وعشرين ألفاً

قال: وذكر أبو الحسين القاضي، في كتابه، بإسناد، قال: حدثتني بن إبراهيم بن عمر البرقي، قال: حدثنا العباس بن محمد البرقي، ل: حدثنا أبو زيد، عن الفضيل بن عياض، قال: حدثني رجل: أن رجلاً خرج بغزل، فباعه بدرهم ليشتري به دقيقاً، فمر على رجلين، كل واحد منهما أخذ برأس صاحبه.

فقال: ما هذا؟ فقيل: يقتلان في درهم، فأعطاهما ذلك الدرهم، وليس له شيء غيره.

فأتى إلى امرأته، فأخبرها بما جرى له، فجمعت له أشياء من البيت، فذهب ليبيعه، فكسدت عليه، فمر على رجل ومعه سمكة قد أروحت.

فقال له: إن معك شيئاً قد كسد، ومعى شيء قد كسد، فهل لك أن تبيني هذا بهذا؟ فباعه.

وجاء الرجل بالسمكة إلى البيت، وقال لزوجته: قومي فأصلحي أمر هذه السمكة، فقد هلكنا من الجوع. فقامت المرأة تصلحها، فشقت جوف السمكة، فإذا هي بلؤلؤة، قد خرجت من جوفها. فقالت المرأة: يا سيدي، قد خرج من جوف السمكة شيء أصغر من بيض الدجاج، وهو يقارب بيض الحمام. فقال: أريني، فنظر إلى شيء ما رأى في عمره مثله، فطار عقله، وحرأليه. فقال لزوجته: هذه أظنها لؤلؤة. فقالت: أتعرف قدر اللؤلؤة. قال: لا، ولكني أعرف من يعرف ذلك، ثم أخذها، وانطلق بها إلى أصحاب اللؤلؤ، إلى صديق له جوهرى، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وجلس إلى جانبه يتحدث، وأخرج تلك البيضة. وقال: أنظر كم قيمة هذه؟ قال: فنظر زماناً طويلاً، ثم قال: لك بها علي أربعون ألفاً، فإن شئت أقبضتك المال الساعة، وإن طلبت الزيادة، فإذهب بها إلى فلان، فإنه أثنى بها لك مني. فذهب بها إليه، فنظر إليها واستحسنها، وقال: لك بها علي ثمانون ألفاً، وإن شئت الزيادة، فإذهب بها إلى فلان، فإني أراه أثنى بها لك مني. فذهب بها إليه، فقال: لك بها علي مائة وعشرون ألفاً، ولا أرى أحداً يزيدك فوق ذلك شيئاً. فقال: نعم، فوزن له المال، فحمل الرجل في ذلك اليوم اثنتي عشرة بدرة، في كل بدرة عشرة آلاف درهم، فذهب بها إلى منزله، ليضعها فيه، فإذا فقير واقف بالباب، يسأل. فقال: هذه قصتي التي كنت عليها، أدخل، فدخل الرجل. فقال: خذ نصف هذا المال، فأخذ الرجل الفقير، ست بدر، فحملها، ثم تباعد غير بعيد، ورجع إليه. وقال: ما أنا بمسكين، ولا فقير، وإنما أرسلني إليك ربك عز وجل، الذي أعطاك بالدرهم عشرين قيراطاً، فهذا الذي أعطاك، قيراط منه، وذخر لك تسعة عشر قيراطاً.

#### يحيى البرمكي يتحدث عن عارفة في عنقه ليعقوب بن داود

وذكر أبو الحسين القاضي، في كتابه، قال: روي أن خالد بن برمك، قال لابنه يحيى، في إضافة نالته: قد ترى ما نحن فيه، فلو لقيت يعقوب بن داود، وشكوت إليه ما نحن فيه. فأتى يعقوب بن داود، فذكر له ذلك، فسكت عنه، فانصرف يحيى، وهو مكروب، آيس من خير، فأخبره أباه. فقال: افتضحنا، فيأليت أنا لم نكن كشفنا له خبرنا. قال: فركب يحيى بن خالد من غد، فلقية بعض إخوانه، فقال: ما زال يعقوب بن داود يطلبك طلباً شديداً، فمضى إليه. فقال له يعقوب: أين كنت؟ والله، إنك أوردت على قلبي ما شغله بالفكر في إصلاحه، وقد عن لي أمر رجوت به صلاح حالك، إمض بنا إلى الديوان، فسار معه إليه. فقال يعقوب: علي بتجار السواد، فأحضروا. فقال: أشركوا أبا علي معكم بالثلث فيما تبتاعونه من غلة السلطان، ففعلوا. فقال: لعل ذلك يشق عليكم؟ فقالوا: أجل. فقال: أخرجوه، بربح تجعلونه له.



فأخر جوه بربح ستين ألف دينار، فصلحت حاله، وحال أبيه، ومضى إليه بالمال.

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

وذكر محمد بن عبدوس، في كتاب الوزراء، هذا الخبر بخلاف هذا، فقال: حكى يحيى بن خاقان، قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد، وبحضرتة ابنه الفضل، إذ دخل عليه أحمد بن يزيد، المعروف بابن أبي خالد، فسلم وخرج. فقال يحيى للفضل: في أمر هذا الرجل، خير، فإذا فرغنا من شغلنا فأذكرني به، حتى أعرفك، فلما فرغ من عمله، أذكره.

فقال: نعم، كانت العطلة، قد بلغت مني، ومن أبي، وتوالت الحن علينا، حتى لم نهند إلى ما نفقه. فلبست ثيابي يوماً، لأركب، فقال لي أهلي: إن هؤلاء الصبيان باتوا البارحة بأسوء حال، وأنا ما زلت أعللهم بما لا علالة فيه، وأصبحت، وما لهم شيء، وما لدابتك علف.

فقرعت قلبي، وقطعتني عن الحركة، ورميت بفكري، فلم يقع إلا على منديل طبري، كان بعض البزازين أهدها إلي. فقلت: ما فعل المنديل الطبري؟ فقالت: ها هو.

فأخرجته إلى الغلام وقلت له: اخرج إلى الشارع، فبع هذا المنديل، فمضى، وعاد من ساعته، فقال: خرجت إلى البقال الذي يعاملنا، وعنده رجل، فأعطاني بالمنديل إثني عشر درهماً صحاحاً، وقد بعته بشرط، فإن أمضيت البيع، وإلا أخرجت المنديل إلى سوق قنطرة البردان، واستقصيت فيه، كما تحب.

فأمرته بامضاء البيع للحال التي خبرتني بها المرأة، وأن يشتري ما يحتاج إليه الصبيان، وعلفاً للدابة، وركبت، لا أدري إلى أين أقصد.

فأنا في الشارع، وإذا أنا بأبي خالد، والد هذا، ومعه موكب عظيم ضخم، وهو يومئذ يكتب لأبي عيد الله، كاتب المهدي، فملت إليه، ورميت نفسي عليه.

وقلت له: قد تناهت العطلة بأخيك، وبى، إلى ما لا نهاية وراءه، وعلي، وعلي، إن لم تكن قصتي في يومي هذا، كيت وكيت، وقصصت عليه الخبر، وهو مستمع لذلك، ماض في سيره، فلما بلغ مقصده، انصرفت عنه، ولم يقل لي حرفاً.

فانصرفت منكسف البال، منكراً على نفسي إسرافي في الشكوى، وإطاعي إياه على ما أطلعت عليه.

وقلت: ما زدت على أن فضحت نفسي، وقللتها في عينه من غير نفع.

ووافيت منزلي على حال أنكرتها أهلي، فسألتنى.

فقلت: جنيت اليوم على نفسي جناية كنت عنها غنياً، وقصصت عليها قصتي مع يزيد.

فأقبلت توبخني، وقالت: ما حملك على أن أظهرت للرجل حالك؟ فإن أقل ما في ذلك، أن لا يأتمنك على أمر، فإن من تناهت به الحال إلى ما ذكرت، كان غير مؤتمن، فنالني من تويخها، أضعاف ما نالني أولاً.

وأصبحنا في اليوم الثاني، فوجهت بأحد ثوبي، فبيع، وتبلغنا بشمنه وأصبحنا في اليوم الثالث، ونحن في غاية الضيقة، فطوينا يومنا وليلتنا.

فلما كان اليوم الرابع، ضاقت نفسي، وقل صبري، وضعفت قوتي، واختبرت الموت على الحالة التي أنا فيها.

فقال لي أهلي: أنا خائفة عليك من الوسواس، فيكون ما نحتاج لعلاجك، أضعاف ما نحتاج لمؤونتنا، فسهل الأمر عليك، ولا تضجر، ولا تقنط من رحمة الله، فإن الله عز وجل، الصانع، المدبر، الحكيم.

قال: فركبت، لا أدري أين أقصد، فلما صرت إلى قنطرة البردان، لقبني رسول أبي خالد يطلبنى، فدخلت داره.

فقال لي حاجبه: اجلس، فأقمت، وخرج مع الزوال، فدنوت منه.

فقال: يا ابن أخي، شكوت إلي بالأمس، شكوى، لم يكن في جوابها إلا الفعل، وأمر يا حضار حميد، وداهر، تاجرين كانا يبيعان الطعام.

فقال لهما: قد علمتما أي إنما بعنكما البارحة، ثلاثين ألف كر، على أن ابن أخي هذا شريككما فيها بالسعر.

ثم قال: لك في هذه عشرة آلاف كر بالسعر، فإن دفعا إليك ثلاثين ألف دينار ربحك، وآثرت أن تخرج إليهما من حصتك، فعلت، وإن آثرت أن تقيم على ابتياعك، فعلت.

قال: ففتحنا ناحية، وقالوا: إنك رجل شريف، وابن شريف، وليست التجارة من شأنك، ومتى أقمت على ألا بتياع، احتجت إلى كفاة وأعوان، ولكن خذ منا ثلاثين ألف دينار، واخلنا والطعام.

فقلت: قد فعلت، وقلت إلى أبي خالد، فقلت: قد أحببتهما إلى أخذ المال، وتركهما والطعام.

فقال: هذا أروح لك، فخذ المال، وتبلغ به، والزمن، فإننا لا نقصر في أمرك بكل ما يمكننا.

فأخذت من الرجلين ثلاثين ألف دينار، وما كان بين ذلك، وبين بيع المنديل والثوب، إلا أربعة أيام.

فسرت إلى أبي، وخبرته الخبر، وقلت له: جعلت فداك تأمر في المال بأمرك؟ فقال: نعم، أحكم عليك فيه، بمنزل ما حكم أبو خالد به على التاجرين، أي أن الثلث لي.

فحملت إليه عشرة آلاف دينار، واشترت بعشرة آلاف دينار ضيعة، ولم أزل أنفق الباقي، إلى أن أداني ذلك إلى هذه الحال، وإنما حدثتكم بهذا، لتعرف - يا بني - للرجل حقه.

فقلت ليحيى بن خاقان: فما الذي كان من يحيى بن خالد إلى أحمد بن أبي خالد؟ قال: ما زال هو وولده، على نهاية البر به، حتى نال ما نال من الوزارة، بذلك الأساس الذي أسسناه.

وقرى على أبي بكر الصولي، بالبصرة، سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، بإسناد، وأنا حاضر، في كتابه كتاب الوزراء حدثكم عون بن محمد الكندي، عن إبراهيم بن الحسن بن سهل، قال: سمعت أهلي يتحدثون:

أن يحيى بن خالد البرمكي، قال: نالني خلة في أيام المهدي، فجنحت إلى يزيد الأحول، أي خالد، وكان يكتب لأبي عبيد الله، فأبشثه حالي، فما أجابني، ولا أقبل علي، فتأخرت نادماً، ثم جاءني رسوله من الغد، فصرت إليه.

فقال لي: إنك شكوت إلي شكوى لم يكن جوابها الكلام والتوجه، وقد بعث جماعة من التجار، ثلاثين ألف كر، من غلات السواد، واشترطت لك ربع الربح، فخذ كتابي هذا إليهم، فإن أحببت أن تصبر إلى أن تباع الغلة، توفر ربحك، وإن ناظرت التجار، وخرجت من حصتك بربح عاجل، فأقبل ما يذلونه لك ثلاثون ألف دينار، فدعوت له.

ولقيت القوم، فقالوا: أنت رجل سلطان، ولا يتهيأ لك ما نفعل نحن من الصبر على الغلة، وانتظار الأسعار، فهل لك أن تخرج منها بربح ثلاثين ألف دينار معجلة؟ فقلت: نعم، فقبضتها في يوم واحد، وانصرفت.

وذكر أبو الحسين في كتابه، قال: حدث محمد بن أحمد بن الخصيب، قال: حدثني من سمع أحمد بن أبي خالد الأحول، يحدث، قال: كان السلطان قد جفا خالد بن برمك، واطرحه، حتى نالته إضاقة شديدة، وكاد أن ينكشف.

فحدثت أن يحيى بن خالد أصبح يوماً، فخرجت إليه امرأته، أم الفضل ابنة، فقالت له: ما أصبح اليوم في منزلك دقيق، ولا علف للدابة، ولا نفقة لشيء.

فقال لها: بيعوا شيئاً من البيت.

قالت: ما بقي في البيت ما له قدر، ولا ما يمكن بيعه.

فقال: قد كان فلان، أهدى إلينا منديلاً فيه ثياب، فبعنا الثياب، فما فعل المنديل؟ قالت: باق.  
قال: فبيعوه.

فبعثت به إلى سوق قنطرة البردان، فبيع بنيف وعشرين درهماً، فأنفقوها أياماً.  
ثم خرجت إليه، فقالت: ما تعودك؟ ما عندنا نفقة، ولا دقيق، ولا علف للدابة.  
فركب يحمي، فكان أول من لقيه أبو خالد الأحول، فشكا إليه ما هو فيه، فأمسك، ثم أجابه بجواب ضعيف.  
وانصرف يحمي إلى منزله، وقد كاد يتلف غماً وندماً، ولام زوجته، وأقام أياماً لا يركب، وزوجته تحتال فيما تنفق.  
ثم حركته على الركوب، وشكت إليه انقطاع الحيلة، وتعذر القوت، فركب، فلما صار في بعض الطريق، لقيه أبو  
خالد.

فقال له: صرت إلي، وسألني أمراً، حتى إذا أحكمته لك، تركت تنجزه.  
فقال: كرهت الشئيل عليك.

فقال: إنك شكوت إلي أمرك، فغمي، وذكرته لأبي عبيد الله، فقدم إلي فيه بأمر، ثم لم تصر إلي، فتعال معي الآن إلى  
الديوان.

قال يحمي: فمضيت معه إلى الديوان، فأحضر التجار المبتاعين لغلات الأهواز، فقال لهم: هذا الرجل الذي جعل له  
الوزير سهماً معكم فيما ابتموه فحاسوه على ما بينكم وبينه.

قال يحمي: فأخذ التجار بيدي إلى ناحية، فواقفوني، على ربح خمسين ألف دينار، وأن أدعهم والغلة، فما برحت،  
حتى راج لي المال، وحملته إلى منزلي.

وعرفت أبي الحال، فأخذ من المال عشرين ألفاً، وقال: هذه تكفيني لنفقتي، إلى أن يفرج الله تعالى عني، والباقي لك،  
فإن عيالك كثير.

قال أحمد بن أبي خالد: فرعى لي القوم ذلك، يعني البرامكة، فلما صار الأمر إليهم، أشركوني في نعمتهم، وكان آخر  
ما وليت لهم جند الأردن.

وانصرفت إلى مدينة السلام، وقد سخط الرشيد على يحمي، ومعني من المال ستة آلاف دينار، فتوصلت إلى أن  
دخلت إليه في الحبس، فتوجعت له، وعرضت عليه المال.

فقال: لست أجحف بك، أحمل إلينا منه ثلاثة آلاف دينار، وكتب رقعة، بخط لا أعرفه، ثم أترها، ثم قطعها نصفين،  
فجعل أحدهما تحت مصلاه، ودفع إلي الآخر.

وقال: أمرنا قد ولى، ودولتنا قد انقضت، وهذا الخليفة سيموت، وستقع فتنة يطول فيها الأمر بين خليفتين، يكون  
الظاهر منهما صاحب المشرق، وسيكون لغلام، يقال له الفضل بن سهل، معه حال، فإذا بلغك ذلك، فادفع إليه  
هذا النصف من الرقعة، فإنك ستبلغ بما ما تحب عنده.

قال أحمد بن أبي خالد: فخرجت من عنده، وأنا أندم الناس على إخراجي من يدي ثلاثة آلاف دينار، إلى رجل قد  
نعى نفسه إلي، فاحتفظت بنصف الرقعة.

ومضت الأيام، وولي محمد المخلوع، ووقعت الفتنة، ولزمتني عطلة، ودامت، حتى رقت حالي، واشتد إختلائي.

ودخل طاهر مدينة السلام، فإني ذات يوم متفكر في أمري، متحير فيما أعمله، سمعت قرع الباب علي.  
فقلت لزوجتي: أخرجي إلى الدهليز، وأعر في الخبر، ولا تتكلمي، ولا تفتحي، فمضت، وجاءت مدعورة.

وقالت: ما أدري، على الباب جماعة من الشرط والمسودة ونفطات.

فخرجت، ووقفت خلف الباب، وقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا منزل أحمد بن أبي خالد الأحول؟ فقلت: نعم. فقالوا: نحن رسل الأمير طاهر بن الحسين إليه.

فقلت: لعلكم غلطتم، ما يريد الأمير من مثله؟ فقال بعضهم: يا هذا، إنا جئنا في أمر يسره، فأعلمه إياه، وأنه لا بأس عليه.

قال: وظني غلاماً في الدار، فسكنت إلى هذا القول، ورجعت إلى مجلسي من الدار، وأنفذت جارية سوداء كانت لي، حتى تفتح الباب.

فدخل قائد جليل، وبرك بين يدي، وقال: أنت - أعزك الله تعالى أحمد بن أبي خالد؟ قلت: نعم.

قال: الأمير يسألك أن تصير إليه الساعة.

قال: فأردت أن أسير الأمر الذي دعيت إليه، أخير هو أم شر.

فقلت: أدخل، وألبس ثيابي.

قال: افعل.

قال: فدخلت، وأوصيت زوجتي فيما أحتاج إليه، وعلمت أنه لا بأس علي، ولبست مبطنتي، وطيلساني، وشاشيتي، وخفي، ثم خرجت.

فقلت: ليس لي مركوب.

قال: فاركب من جنائبي، فركبت دابة قدمها إلي، وصرت إلى طاهر، فسلمت عليه، فساعة رأي، قال: أنت أحمد بن أبي خالد الأحول؟ قلت: نعم.

فألقي إلي كتاباً في نصف قرطاس، بخط الفضل بن سهل، وكان أول كتاب رأيته، لأبي فلان، من فلان، فإذا عنوانه: لأبي الطيب أعزه الله تعالى، من ذي الرياستين، الفضل بن سهل، وصدرة: أعزك الله، وأطال بقاءك، أمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، بأن تتقدم ساعة وصول كتابي هذا، بطلب أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتب، حيثما كان من أقطار الأرض، فتحضره مجلسك، وتصله بخمسين ألف درهم، وتحمله على عشرين دابة من دواب البريد، إلى باب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، مصوناً، ولا ترخص له في التأخر، فأريك - أعزك الله - في العمل بذلك، موقفاً، إن شاء الله تعالى، وكتب في يوم كذا من شهر كذا.

قال: فلما قرأت الكتاب، اشتد سروري، وقلت: آخذ فيما أحتاج إليه، وأمض.

فقال: ما إلى تأخرك سبيل، هذا المال، وهذه اللواب، وتخرج الساعة.

فقلت: أكتب إلى منزلي بما أحتاج إليه، وأخذت المال، وحملت أكثره إليهم، وكاتبهم بما أحتاج إليه.

وذكرت الرقعة التي من يحيى بن خالد، فأمرتهم بإنفاذها إلي، وطلبت قماشاً قليلاً مما لا بد منه.

فعاد الجواب بوصول المال، وأنفلوا النصف من الرقعة، وما طلبت من القماش، وشخصت من دار طاهر، سحر تلك الليلة.

فما مررت بمدينة إلا خدمت فيها أتم خدمة، إلى أن وافيت الري، فلقيني رجل ذكر لي أن ذا الرياستين أهدته لتلقي، والقيام بمصالحني إلى أن أوافي حضرته، فلم يزل قائماً بما أحتاج إليه، ويحض كل من أجتاز به على تفقدي وخدمتي إلى أن وافيت باب الفضل بمرو، ومعني صاحبه، وصاحب طاهر.

فوقفت بباب الفضل طويلاً إلى أن تفرغ، ودعاني، فدخلت، وهو في قبة آدم، وعليه سواد، وحوله السلاح كله، وبين يديه جحفة فيها كتب.

فلما مثلت بين يديه، قال لي: أنت أحمد بن أبي خالد الكاتب؟ فقلت: نعم.  
قال: انصرف إلى منزلك، وارجع إلينا بعد ثلاثة أيام في سواد، لأدخلك على أمير المؤمنين.  
فوليت من بين يديه، وأنا لا أدري إلى أين أمضي، وإذا خادم قد لحقني، وأخذ بيدي، وخرج معي، حتى سار إلى دار  
قد أعدت لي، وفيها كل ما احتاج إليه من فرش، وآلة، وكسوة، وغللمان، ودواب، وقماش، وغير ذلك من  
الأطعمة والأشربة، فجعل يعرفني ما تحت يد كل غلام، ثم قال: هذا كله لك، وانصرف، فأقمت في كل نعمة  
وسرور، ثلاثة أيام.  
ثم غدوت في اليوم الرابع في سواد، فألفيت ذا الرياستين خارجاً من داره، فترجلت، ودنوت، فأعطاني طرف كمه  
فقبلته، ثم أمرني بالركوب، فركبت، وسرت في موكبه، حتى وافى دار المأمون، فثنى رجله، ونزل في محفة معدة له،  
فجلس فيها، وحمله القواد على أعناقهم، حتى أجلسوه مع المأمون على السرير، فمكثت غير بعيد.  
فجاء خادم فدعاني، فدخلت، والفضل والمأمون على السرير، وكل واحد منهما مقبل على صاحبه.  
فقال الفضل: يا أمير المؤمنين، هذا أحمد بن أبي خالد، كانت كتبه ترد علينا من مدينة السلام بأخبار المخلوع، في  
وقت كذا، وفي وقت كذا، وقد وفد على أمير المؤمنين وهو من اليسار، وحسن الحال، على أمر يقصر عنه  
الوصف، وهو يعرض نفسه، وماله، على أمير المؤمنين، يريد أنه متى خلا بي، فسألني عن شيء، كنت قد عرفته.  
قال أحمد: فشيعت كلامه بما حضرني.

فقال المأمون: بل، قد وفر الله تعالى عليه ماله، ونضيف إليه أمثاله.  
فقال: يا أمير المؤمنين، ويشرك بينه وبين خادم أمير المؤمنين، في تقلد الأعمال.

قال: نعم.

قال: ويولى ديوان التوقيع، وديوان القرض والخاتم.

قال: أفعلم.

قال: ويخلع عليه خلعة هذه الأعمال.

قال: نعم.

قال: وصلة يعرف بها موقعه من أمير المؤمنين.

قال: نعم.

قال أحمد: فما برحت، حتى أنجز لي كل ذلك، وانصرفت.

فلما كان بعد عشرين يوماً بعث إلي في الليل، فعلمت أنه لم يحضرني في هذا الوقت، إلا ليسألني عن الرقعة، فجعلتها  
في خفي، وصرت إليه، وإذا هو جالس، والحسن أخوه إلى جانبه.

فقال لي: يا أبا العباس، كانت بينك وبين شيخنا أبي علي رضي الله عنه حرمة؟ قلت: نعم، وأي حرمة.

فقال: ما هي؟ فقصصت عليه كيف كانت قصة أبي معه، ثم وصلت ذلك بخبري، إلى أن أنهيت إلى حديث الدنانير  
ونصف الرقعة.

فقال: أين هي؟ فأخرجتها من خفي، فدفعتها إليه، فرفع مصلاه، فإذا النصف الذي كان يجيى بن خالد رحمه الله،

جعله تحت مصلاه، فقرن بينهما، والنفت إلى أخيه وقد دمعت عيناه.

فقال: هذا خط أبي علي رضي الله عنه، ثم قال: أفأرأت ما فيها؟ قلت: لا.

قال: فيها أمتعي الله بك - يا بني - طويلاً، وأحسن الخلافة عليك، قد وجب علي من حق أبي العباس أحمد بن أبي

خالد الأحول الكاتب، في الحال التي أنا عليها، ما قد أتقلني، وأعجزني عن مكافأته، إلى غير ذلك مما أعتد به سلفه، ونجمننا قد أقل، وأمرنا قد انقضى، ودولتك قد حضرت، وجدك قد علا، فأحب أن تقضي عني حق هذا الفتى، إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبي خالد: فلم أزل مع الفضل، تترقى حالي، واختص بخدمة المأمون، إلى أن دارت الأيام، واستكتني المأمون، وزادت النعمة، وامتت، والحمد لله على ذلك.

وذكر محمد بن عبدوس في كتابه كتاب الوزراء في أخبار أحمد بن أبي خالد، قال: كان سبب اتصاله بالمأمون، أن الرشيد لما سخط على البرامكة، واتصل خبرهم، وما هم فيه من الضيق، بأحمد بن أبي خالد، شخص نحو الرقة، فوافاها وقد أمر الرشيد بمنع حاشيتهم من الدخول إليهم.

فلم يزل يحتال حتى وصل إلى يحيى، فانتسب له، وعرفه أنه قصده لخدمته.

فرحب به يحيى وأعلمه أنه كان يجب أن يقصده في وقت إمكان الأمور، ليبلغ من مكافأته وتحقيق ظنه حسب رغبته. فشكره أحمد، وسأله قبول شيء حمله معه، وإن كان يسيراً، وضرع إليه.

فدفعه يحيى عنه، وقال: نحن في كفاية.

فأخ أحمد عليه، وأعلمه أنه لا يتق بقبول انقطاعه إليه إلا بإجابته إلى ما سأل.

فسأله يحيى عن مقدار ذلك، فقال: عشرة آلاف درهم.

فقال: أدفعها إلى السجنان.

وقال لأحمد: إن حالنا حال لا نرجو معها بلوغ مكافأتك، ولكني سأكتب لك كتاباً إلى رجل سيقوم بأمر الخليفة الذي يملك خراسان، فأوصل إليه كتابي، فسيقوم بقضاء حقك.

ثم كتب له في قريطيس كتاباً، وطواه، ووضع عليه خاتمه، فانصرف أحمد إلى منزله.

فلما قلد الفضل بن سهل أمر المأمون، قصده أحمد بن أبي خالد، فوصل إليه في دار المأمون.

فلما فرغ من أعماله، أوصل إليه الكتاب، فأنكر وجهه، وسأله عن صاحب الكتاب، فقال: يقرأه الأمير - أطال الله بقاءه - فإنه سيعرفه.

فلما فضه، ونظر إلى الخط استبشر، ثم استدنى أحمد بن أبي خالد، وأعلمه إنه من أعظم خلق الله منةً عليه، وأوجبهم حقاً، وأمره بالمصير إلى منزله.

فصار أحمد بن أبي خالد إلى دار الفضل، فلما وصل إليه فيها، عانقه، وقبله، وقال: أوجبت - والله - علي حقاً.

وسأله عن خير الكتاب، فذكره له، فوعده ببلوغ المحبة، وأمر بإنزاله منزلاً يتخذ له، ويفرش بما يحتاج إليه، ووجه بحاجبه، وبعض خدمه، ومعهم نخوت ثياب، وخمسون ألف درهم، واعتذر إليه، وأمره بالاستعداد للوصول إلى المأمون، ثم أوصله إليه، ووصفه له، وقرظه.

ولم يزل يقوم بحاله عنده، حتى أمر المأمون بتصريف أحمد بن أبي خالد، وأجرى له الأرزاق والأنزال، وأجراه في الوصول إليه مجرى الخاصة، وقلده من أعمال خراسان، وما وراء النهر، أعمالاً جلييلة، وتمكنت حاله عنده.

قال محمد بن عبدوس: وحدثني علي بن أبي عون، قال: حدثني أبو العباس بن الفرات، قال: حدثني علي بن الحسن، قال: حدثني محمد بن عمر الجرجاني الكاتب: وذكر من خير أحمد بن أبي خالد ويحيى بن خالد مثل الذي ذكره يحيى بن خاقان، وزاد فيه: إن أحمد بن أبي خالد لم يحظ من أيام يحيى بن خالد بشيء، وإنه لزمه عند حبسه، فلما حضرته الوفاة زوده كتاباً إلى الفضل بن سهل يعتذر إليه فيه من ولاية ما أولاه، ويسأله مكافأته عنه، وأنه احتفظ بالكتاب

مدة أيام الرشيد، وصدراً من أيام محمد، وسلأت حال أحمد بن أبي خالد، وعظم فقره جداً، واشتدت عليه العطلة والخلّة، فلما أنفذ محمد الأمين علي بن عيسى بن ماهان، لخاربة طاهر، عمل أحمد على اتباع عسكره. قال محمد بن عمر الجرجاني: فجاءني يذكر ما عزم عليه، ويصف إفراط خلته، وقصور حيلته، وسألني أن أسأل سلاماً الأبرش، لمودة كانت بينه وبين أبيه، أن يعينه بمركوب وبألقي درهم. فقصدت سلاماً، وسألته في ذلك، فقال: والله! لو كان لي بعدد الذباب دواب، ما أعطيته شعرة من ذنب واحد منها، ولو كان عندي بقدر رمل عاج عين وورق، ما أعطيته منها حبة. فانصرفت إليه - وقد كان أقام في منزلي، ينتظر ما يجري - فأخبرته بما قال، وحلفت له أي ما أملك إلا دابة، وبغلة، وأربعمائة درهم، فليأخذ منها ما شاء.

فقال: أنت إلى الدابة في الحضر أحوج، وأنا إلى البغلة في السفر أحوج، فأعطينها، وأنت مقيم، وأنا مسافر، وتقدر - أنت - أن تحتال لنفسك نفقة، وأنا لا أقدر، فأعطني أربعمائة الدرهم كلها. فدفعتها إليه مع البغلة، وصحب عسكر علي بن عيسى.

فلما حدث على علي ما حدث، صار إلى الفضل، فأوصل إليه الكتاب، فقراه، وسر نهاية السرور، وأكرمه غاية الإكرام، وأنكر عليه تأخره إلى ذلك الوقت.

وقال: ما أعرف شيئاً أقضي به حقك، إلا أن أشركك في أمري، وأقلدك العرض على أمير المؤمنين خلافة لي. فقلده ذلك، وكبر أمره.

ولم يزل أحمد بن أبي خالد، يضرب على سلام الأبرش، ويعري به المأمون، إلى أن قال له: قد وهبت لك دمه، وجميع ما يملكه.

فقبض عليه، وقبض منه ما قيمته أربعة آلاف ألف درهم، ودعا بالسيف والنطع، وأمر بضرب عنقه، بعد أن قرعه بما كان منه عند مسألة محمد بن عمر الجرجاني في أمره.

ثم أعرض عن قتله، وأمر بحبس، وقال للمأمون: إني كرهت أن أتجاوز مذهب أمير المؤمنين في العفو، فاستصوب رأيه.

وترقت أحوال أحمد بن أبي خالد، إلى أن تقلد وزارة المأمون.

قال محمد بن عمر الجرجاني: وحدثت الفتن بعد ذلك ببغداد، وتشرد أهلها عنها، فهربت إلى إخوان كانوا لي بالكوفة، فأقمت عندهم، واستطبت البلد، فسكنته، وأبتعت بجميع ما أملكه ضيعة هناك، وولينا عامل أحسن إلينا، فشكرناه، وانعقدت بيننا وبينه مودة وكيدة.

ثم صرف بعامل آخر، فحقد علينا المودة التي كانت بيننا وبين المصروف، فأساء معاشرتنا، واضطرننا إلى قصد أحمد بن أبي خالد للتظلم، فدخلت بغداد، فلما رأني أكرمني، واستبطاني، وذكر تطلعه إلى لقائي، وطلبه إلي، وغموض خبري عليه، وسألني عن أموري، فشرحتها له، فكتب بخطه بصرف العامل، وتقليد المصروف الذي كان صديقي. وأعلمني بما جرى عليه أمر سلام الأبرش، وقال: قد كنت جعلت لك فيما قبضت منه الربع، وهو معزول لك، فتسلمه، وكان قيمته ألف ألف درهم.

قصة أبي عبيد الله وزير المهدي وكيف ارتقت به الحال حتى نال الوزارة

وذكر أبو الحسين القاضي، في كتابه، قال: حدثني محمد بن أحمد بن الخصيب، قال: حدثني من سمع أحمد بن أبي خالد الأحول، يقول: كان أبي صديقاً لأبي عبيد الله وزير المهدي، وهو إذ ذاك معلم، وأبي متخلي، فكانا يتعاشران، ويألفهما أحمد بن أيوب.

قال أبو خالد: وكنا نتبين في أبي عبيد الله شمائل الرئاسة، ونصدره إذا اجتمعنا، ونرجع إلى رأيه فيما يعرض لنا. فقلت له ليلة، ونحن نشرب: نحسبك سترأس، وتبلغ مبلغاً عظيماً، فإن كان ذلك، فما أنت صانع بنا؟ فقال: أما أنت يا أبا خالد، فأصيرك خليفتي على أمري، وأما أنت يا ابن أيوب، فقل ما أردت. فقال: أريد أن توليني أعمال مصر سبع سنين متوالية، ولا تسألني بعد الصرف عن حساب. قال: ذلك لك.

قال أبو خالد: فلم يمض لهذا الأمر إلا مديدة، حتى أمسكت السماء، وخرج الناس يستسقون، وكان عليهم - إذ ذاك - ثعلبة بن قيس، عاملاً من قبل صالح بن علي، فما انصرف الناس، حتى أتت السماء بمطر غزير. فقال ثعلبة لكاتبه: اكتب إلى الأمير بما كان من القحط، وما حدث بعده من الاستسقاء، وما تفضل الله به من الغيث.

فكتب كتاباً، لم يرضه ثعلبة، فقال لمن حوله: ألا يصاب لي رجل، يخاطب السلطان عني، بخطاب حسن. فقال له بعضهم: ها هنا رجل مؤدب، معه بلاغة، وأدب كثير، وفيه - مع ذلك - عقل. فقال: أحضره.

فأحضر أبا عبيد الله، وأمره بأن يكتب عنه إلى صالح بن علي، في ذلك المعنى، فكتب كتاباً استحسنته ثعلبة، وأنفذه إلى صالح بن علي.

فلما قرأه أعجبه، وكتب إلى ثعلبة: أن أحمل إلي كاتبك على البريد، فحمله إليه، فلما وافاه، امتحنه، فوجده كافياً في كل ما أراه، فاستكتبه.

فلما تتابعت كتبه عن صالح بن علي، إلى المنصور، قال المنصور: كنت أرى كتب صالح بن علي ترد ملحونةً، وأراها الآن ترد بغير ذلك الخط، وهي محكمة، سديدة، حسنة.

فخبر بخبر أبي عبيد الله، فأحضره، فلما فاتشه، وجده كما أراد، فاستكتبه لابنه المهدي.

قال أبو خالد: وطعن الربيع على أبي عبيد الله، عند المنصور، مراراً.

فقال: ويلك، أتلومني في اصطناع معاوية، وقد كنت أجهد بأبي عبد الله - يعني المهدي - أن ينزع عنه لباس

العجم، فلا يفعل، فلما صحبه معاوية، لبس لباس الفقهاء.

قال أبو خالد: ثم أشخصني أبو عبيد الله إليه، لما كتب للمهدي، فقلدني خلافته على الديوان، فلما مات المنصور، وولي المهدي الخلافة، أنفذت الكتب إلى أحمد بن أيوب بولاية مصر، فلم يزل بمصر، والياً عليها، إلى أن توفي بها.

### القاضي التنوخي يتحدث عن قصته مع أبي علي أحمد بن محمد الصولي

قال مؤلف هذا الكتاب: كنت بالبصرة في المكتب سنة خمس وثلاثين، وأنا مترعرع، أفهم، وأحفظ ما أسمع، وأضبط ما يجري.

وكان أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، قد مات بها في شهر رمضان من هذه السنة، وأوصى إلى أبي في تركته، وذكر



في وصيته أنه لا وارث له.

فحضر إلى أبي ثلاثة إخوة شباب، فقراء، بأسوء حال، يقال لأكبرهم: أبو علي أحمد، والأوسط: أبو الحسن محمد، والأصغر أبو القاسم، بنو محمد التمار.

وذكروا لأبي، أن أمهم تقرب إلى أبي بكر الصولي، وأنهم يرثونه برحمها منه، وذكروا الرحم واتصالها. فسامهم أبي، أن يبينوا ذلك عنده بشهادة شاهدين من العلول، ليعطيهم ما يفضل - بعد الدين من التركة - عن الثلث، فاضطربوا في ذلك، وكانوا يعكسون في إقامة الشهادة شهوراً، ويلازمون باب أبي.

وكان مكتبي في بيت قد أخرج من داره إلى سكة الإثنين التي ينزلها، وجعل بينه، وبين باب داره، دكاناً ممتداً.

فكنت، ومعلمي، والصببان، نجلس طر في النهار على الدكان، وفي انتصافه في البيت.

فكان هؤلاء الإخوة يجلسون عندي في المكتب كثيراً، ويؤانسون معلمي، ويلاعبون، ويتقربون إلي، ويسألوني أن أعرض لهم على أبي، الرقعة، بعد الرقعة، يعطوني إياها.

فقال لي يوماً، الأكبر منهم، وهو أبو علي أحمد بن محمد: إن أعطاك الله تعالى، الحياة، حتى تتقلد القضاء، وتصير مثل القاضي أبيك في الجلالة والنعمة، وجتتك، أي شيء تعطيني؟ فقلت له، بالصبا، وكما جرى عليه لساني:

خمسائة دينار.

قال: فأعطني خطك بها، فاستحييت، وسكت.

فقال لمعلمي: قل له يكتب لي.

فقال لي: اكتب له، وأمل على المعلم، وأبو علي، رقعة في هذا المعنى، وأخذها أبو علي.

فما مضت إلا أياماً حتى استدت لهم الشهادة عند أبي، على صحة ما ادعوه من الرحم، واستحقاق الميراث بها. وكان أبي قد باع التركة، وقضى الدين، وفرق قدر الثلث، وترك الباقي مالاً عنده، فأمر بتسليمه إليهم، وأشهد بقبضه عليهم، وانصرفوا.

فما وقعت لي عين على أحد منهم، إلا في سنة ست وخمسين وثلثمائة، فإني كنت أتقلد القضاء والوقوف بسوق الأهواز، ونهر تيرى، والأنهار، والأسافل، وسوق رامهرمز، سهلها وجبلها، وأعمال ذلك، وأنا في داري بالأهواز، وأمرني في ضيعتي مستقيم.

فدخل إلي بوابي، فقال: بالباب رجل يقول: أنا من قرابة الصولي، قدمت من بغداد بكتب إليك، وذكره لي، فلم أذكره.

وقلت: أدخله.

فدخل رجل شيخ لم أعرفه، فسلم، وجلس، وقال: أنا خادم القاضي منذ كان في المكتب، أنا قرابة الصولي، فعرفته، ولم أذكر الخط، ولا القضية.

فأخرج إلي كتباً من جماعة رؤساء بغداد، يذكرون أنه قد كان مقيماً منذ سنين، ببغداد، وراقاً بقصر وضاح بالشرقية، بحالة حسنة، فلحقته محن أفقرته، ويسألوني تصريفه، ومنفعته، فوعدته جميعاً.

فقال: إنما جعلت هذه الكتب، طريفاً يعرفني القاضي بها، وما أعول الآن عليها، إذ قد أحياني الله عز وجل، إلى أن رأيت قاضياً في بعض عمل أبيه رضي الله عنه، وجاهه ونعمته، كجاهه ونعمته، أو قريب من ذلك، وقد حل لي بذلك دين عليه، واجب في ذمته، وما أفنع إلا به.

فقلت: ما معنى هذا الكلام.

فقال: أينسى القاضي ديني؟ ثم أخرج رقعتي التي كان أخذها مني في المكتب.

فحين رأيته، ذكرت الحديث، وحمدت الله كثيراً، وقلت: دين واجب حال، وحق مرعي وكيد، ولكن تعرف صعوبة الزمان، والله، ما يحضرني اليوم مائة دينار منها، ولو حضرت، ما صلح أن أشتهر بصلتك بها، فيصير لي حديث يعود بضرر علي، ولكن ارض مني، بأخذ دينك متفرقاً.

فقال: قدر ضيقت، وما جئت إلا لأقيم في فئاتك، إلى أن أموت.

وجاء لينهض، فقلت: إلى أين؟ اجلس، فجلس، فوقع له في الحال، إلى بزاز كان يعاملني، أن يعطيه ثياباً بثلاثمائة درهم، وإلى جهنذ الوقوف، أن يعطيه من أبواب البر، عشرة دانانير، واستدعيت كيس نفقي، وأعطيته منه مائتي درهم.

وقلت له: قم، فاستأجر داراً، وتأث بما قد حضر الآن، واكتس، وعد إلي، لأصرفك فيما أرجو أن أوصله إليك، منه، ومن مالي، الجملة التي في الرقعة.

فقبل يدي، ورجلي، وبكى، وقال: الحمد لله الذي أراني هذا القرض منك، وحقق فراستي فيك، وقام.

وجاءني بعد يومين، في ثياب جدد، فأمرت بوابي ألا يحجبه علي، وخلطته بنفسي، وأجريت عليه من أبواب البر بالوقوف، بالضعف والمسكنة، دينارين في الشهر، وقلدته الإشراف على المنفقين في ديوان الوقوف، وأجريت عليه لهذا ثلاثة دانانير أخرى في الشهر، ووليته جباية عقار الأيتام، ووليته عليهم، وأذنت له في أخذ أعشار الارتفاع، وجعلته مشرفاً على أوصياء في وصايا في أيديهم، إلى أن يخرجوها في وجوها، وجعلت له على ذلك أجراً، وركبت إلى عامل البلد، فسألته له، فأجرى عليه في كل سنة، من مال أثمان فرائض الصدقات، ستين ديناراً، وكان رسم أهل ديوان الصدقات بكور الأهواز، في ذلك الحين، أن يسبب لهم بنصف أرزاقهم، ويرتفق العمال من ذلك النصف بقطعة منه، ويصل إليهم الباقي تحقفاً، أو يسبب أخذه مستأنفاً، لضيق المال، وقلته عن أصول أرزاق المرتزقة، فكنت أقدم إلى من يقوم له في المطالبة، أن يلازم العمال، حتى يصل إليه كاملاً.

وكنت أعطيه، في كل شهر أو شهرين، شيئاً من مالي، وشيئاً من كسوتي، وثياباً صحيحة من بزازي، فوالله الذي لا إله إلا هو، ما صرفت عن عملي - وكانت صحبته لي نحو ثلاثين شهراً - إلا وقد وصل إليه من هذا الوجه، ومن غيره، أكثر من خمسمائة دينار، حتى أنه تزوج فيها بوساطتي، وبجاه خدمتي، إلى امرأة موسرة، من أهل الأهواز، وصار الرجل من المتوسطين بالأهواز، وصار ينسب إلى الصولي، وشهر نفسه بأبي علي الصولي.

ثم صرفت عن تلك الولاية في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، لما ولي الوزارة محمد بن العباس، فقصدني، وصرفي، وقبض ضيعتي، وأشخصني إلى بغداد، بعد حقوق كانت لي عليه، وآمال لي فيه.

فتجرد أبو علي هذا، المعروف بالصولي، لسبي في الجالس، وشتمي في الخافل، والطعن علي بالعظام، والسعاية علي في مكارهي.

فكشف الله تعالى تلك الحن عني، وأجراني على تفضله، بغير كثير سعي مني، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعدت بعد ثلاث سنين وشهور، إلى الأهواز، والياً بها، وللأعمال التي كنت عليها معها، وأضيف إلي واسط وأعمالها، وقد استخلفت عليها، ورجعت إلى داري، فجاءني هذا الرجل معتذراً.

فقلت له: أتحب أن أقبل عذرك؟ قال: نعم.

قلت: أخبرني ما السبب الذي أحوجك إلى ما عملت بي من القبيح، بعدما عملته معك من الجميل؟ فجمعهم في

القول.

فقلت له: ما إلى الرضا سييل.

فقال: أنا أصدقك، دخلت عليك يوماً، وعلى رأسك قلنسوة باذان جديدة من خرقة حسنة، فاستمليتها، فسألتك هبتها لي، فرددتني، فلما كان بعد أيام، رأيتها على رأس ابن نظيف المتكلم، المعروف بشهدانه. فسألته: من أين لك هذه؟ فقال: وهبتها لي القاضي.

فوقر ذلك في نفسي منك، وتزايد، فلما حدثت تلك النكبة، كان مني بعض ما بلغك، وأكثره كذب، وأنت ولي العفو، وجعل يقبل يدي ورجلي، ويبكي.

فحجبت من لؤم طبعه، ومن كثرة شره، وقبح كفره للنعم، واختلاف أحكام الأزمنة وأهلها، وجعلت أكثر من قول: الحمد لله على تفضله، ولم أكافه بقيق البتة.

واقنصرت به على الحال التي كنت وليته إياه، لأن القاضي الذي ولي القضاء بعدي، أقره على ما كنت وليته، فكان قد استمر له أخذ الدنانير من الصدقات، والجاري من الوقوف، وأبواب البر، وقبضت يدي عن نفعه بما فوق ذلك. فرهارباً من الضائقة فوافاه الفرج في النهروان

وذكر أبو الحسين القاضي في كتابه، قال: حدثني أبو علي أحمد بن جعفر بن عبد ربه البرقي، قال: حدثني أبو سعيد الحسين بن سعيد القطريلي.

قال مؤلف هذا الكتاب: وحدثني صاحب لي من ولد إبراهيم بن إسحاق، أخي موسى بن إسحاق القاضي الأنصاري الخطمي، وهو علي بن محمد بن إسحاق، أخي موسى بن إسحاق، قال: سمعت أبا الحسين بن أبي عمر القاضي، يحدث أبا القاسم علي بن يعقوب كاتب بكم، وكاتب الترجمان بهذا الحديث، ويقول: إنني ألفت كتاباً وسميته كتاب الفرج بعد الشدة، وذكرت فيه هذا الخبر، وعدة أخبار تجري مجراه، قال: وأخذ يقرظ كتابه، ويشوق علي بن يعقوب إليه، قال: حدثني أبو سعيد الحسين القطريلي، قال: كان في جيران رجل من أهل البيوتات، وكانت له نعمة، فزالت عنه، وساءت حاله جداً، وكانت له زوجة وأربع بنات، فحبلت زوجته، وأخذها المخاض في الليل. قال: ولم تكن لي حيلة في الدنيا، فخرجت ليلاً، هارباً على وجهي، أمشي، حتى أتيت جسر النهروان، وأملت أن ألقى عاملها، وكان يعرفني، وأسأله تصريفي في شيء، وتعجيل رزق شهر، لأنفذه إلى زوجتي.

فوصلت إلى الموضع، وقد ارتفع النهار، فقعدت أستريح بالقرب من بقال.

فإذا فيج - وهو الساعي - قد جاء، فوضع مخلاته وعصاه، ثم قال للبقال: أعطني كذا وكذا، من خبز، وتمر، وإدام، فأعطاه، فأكل، ووزن له الثمن.

ثم فتح مخلاته، فميز ما فيها من الكتب، فرأيت فيها كتاباً إلي، وعليه اسم منزلي، واسمي، وكنييتي، ولا أعرف كاتبه. فقلت للفيج: هذا الكتاب إلي.

فقال: أتدري ما تقول؟

فقلت له: قد قلت الصحيح، فإن مضيت إلى بغداد، لم تجد صاحب الكتاب.

فقال: أهاهنا إنسان يعرفك؟ قلت: نعم، العامل.

قال: قم بنا إليه.

فجئت، فلما دخلت على العامل، قال: ما أقدمك علينا يا فلان؟ فقلت له: قبل كل شيء - أعزك الله - من أنا؟ وأين منزلي ببغداد؟ فقال: أنت فلان بن فلان، ومنزلك بمدينة السلام، في مدينة المنصور منها، في سكة كذا وكذا.

فقلت للفيج: عرفت صدقي؟ قال: نعم.

قال: فحدثت العامل بحديثي، وأخذت الكتاب من الفيج، فإذا هو من بعض المستورين بالدينور، يذكر أن ابن عم كان لي قد توفي، بعد أن أوصى إليه أبي وارثه، وسماي له، ووصف منزلي ببغداد.  
قال: وقد كتب الرجل يذكر أن ابن عمي أوصى بالثلث من ماله في وجوه من أبواب القرب، وأن يسلم باقي ثلثيه إلي، وأنه باع من أثاثه ومنقوله، ما خاف فساده من تركته، وصرف الثلث منه في بعض ما كان أوصى به، وأنفذ إلي سفتجة بالثلثين من ذلك، مبلغها سبعمائة ديناراً وكذا وكذا ديناراً، تحل بعد أربعين يوماً، على تاجر في دار القطن بالكرخ.

وقال: الوجه أن تبادر إلى الدينور، وتبيع العقار والضياع، أو أبيع الثلث منها ليصرف في وجوهه، وتتمسك بالثلثين إذا شئت.

قال: فورد علي من السرور ما لا عهد لي بمثله، وحمدت الله عز وجل.

فقلت للفيج: قد وجب حقلك، وسأحسن إليك، وشرحت له قصتي، وأنه لا حبة معي فضة فما فوقها.  
فجاء إلى البقال، فقال: زن لأستاذي بكذا وكذا خبزاً، وبكذا وكذا إداماً، وما يريد غيرهما.  
فتغديت، ووزن الفيج ثمن ذلك من عنده، واستأجر حمارين، أركبني أحدهما، وركب هو الآخر، ووزن الأجرة من عنده.

وجئنا في بقية يومنا إلى بغداد، وقصدنا دار القطن، وفي النهار بقية صالحة، فأوصلت السفتجة إلى التاجر، فنظرها، وقال: صحيحة، إذا حل الأجل، فاحضر للقبض.

فقلت له: خذ حديثي، وافعل بعد ذلك ما يوفقك الله تعالى له، وقصصت عليه قصتي.

فقال لي: والله الذي لا إله إلا هو، إنك صادق؟، فحلفت.

فأخرج كيساً كان بقربه، فوزن لي منه مال السفتجة.

وصرت من وقتي إلى السوق، فاشتريت سويقاً، وسكراً، وعسلأً، وشيرجاً، وخبزاً عظيماً، وخروفاً مشويماً، وحلوى، مما يصلح للنساء في النفاس، ومهداً، وفرشاً حسناً، وعطراً صالحاً، وشيئاً من ثياب.

وصرت إلى منزلي، وقد قرب العشاء الآخرة، فوجدت كل من فيه من النساء يلعني، ويدعو علي.

فقدمت الحمالين، ودخلت وراءهم، فانقلبت الدار بالدعاء لي، وصار الغم سروراً، ووجدت زوجتي قد ولدت غلاماً.

فعرفت الصبيان خبر السفتجة، والميراث، والفيج، وأعطيت الزوجة، والقابلة، من الدنانير شيئاً.

وأقمت الفيج عندي أياماً، حتى أصلحت من أمري، وأمر عيالي، ما وجب صلاحه، وخلفت لهم نفقة، وأخذت من

الدنانير نفقة، وأعطيت الفيج منها، فأجزلت له، واكترت حمارين، لي وله، واستصحبته إلى الدينور.

فوجدت فيها ما تحصل لي مما خلفه ابن عمي نحو عشرة آلاف دينار، فبعت ذلك كله، وأخذت بحصتي سفاتيح إلى بغداد.

وعدت وقد فرج الله عني، وقد صلح حالي، وأنا أعيش في بقية تلك الحال إلى الآن.

خرج مملقاً وعاد قائداً

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: أملق بعض الكتاب، وتعطل، وافتقر، حتى لم يبق له شيء، وكاد يسأل،

وخرج علي وجهه في الحالة التي كان عليها.

ثم إنه ورد بعد قليل من سفرته، فدخلت عليه، وقلت: ما خبرك يا فلان؟ فقال: متمثلاً بهذين البيتين:

فإبنا سالمين كما ترانا... وما خابت غنيمة سالمينا  
وما تدرين أيّ الأمر خير... أما تهبين أم ما تكرهينا  
فطبيت نفسه، وجعلت أسليه.

فأقام أياماً، وتأت له نفقة، فخرج إلى خراسان، فما سمعنا له خيراً سنين، فإذا هو قد جاءنا بزي قائد عظيم، لكثرة  
الدواب، والبغال، والجمال، والغلمان، والمال العظيم، والقماش.

فدخلت إليه، وهنأته، فقال: تضايقي تنفرجي، وما تراني بعد هذا أطلب تصرفاً.

فباع تلك الأشياء، وترك منها ما يصلح لذي المروعة، واشترى من المال ضيعة بعشرين ألف دينار، ولزم منزله  
وضيعته.

عودة المرء سالماً غنيمة حسنة

قال مؤلف هذا الكتاب: أرجف لبعض رؤساء دولة شاهدناها، بالوزارة، واحند أمره، وبرد، وأرجف لعدو له  
بالوزارة.

فلقيت بعض أصدقاء الأول، فسألته عن حقيقة الحال، فقال لي: أمس لقيته، فسألته عن سبب وقوف أمره، واحتداد  
أمر عدوه، فرد علي جواب آيس من الأمر.

ثم قال لي: وقد جعلت في نفسي، أن انصراف هذا الأمر خير لي، فإن فيما ألي من أمور المملكة كفاية، ثم أنشدني  
كالمستريح إلى ذلك، يقول:

إذا نحن إبنا سالمين بأنفس... كرام رجت أمراً فخاب رجاؤها

فأنفسنا خير الغنيمة إنهما... تئوب وفيها ماؤها وحيائها

فلما كان بعد بضعة عشر يوماً، أمر، وولي الوزارة، وبطل أمر عدوه.

وكان هذا الخبر، أجدر بأن يجعل في باب من بشر بفرج من نطق أو قال، ولكنني جئت به هاهنا، لاشتباك معنى  
الشعر في الخبرين المتجاورين.

قضى الله للهيري رزقاً على يد الوزير ابن الزيات فاستوفاه على رغم أنفه

وذكر أبو الحسين القاضي، بإسناد، قال: حدثني أبو الحسن علي بن أحمد الكاتب، عن أحمد بن إسرائيل، قال: كنت  
كاتباً لحمد بن عبد الملك الزيات، فقدم عليه رجل من ولد عمر بن هبيرة، يقال له: إبراهيم بن عبد الله الهبيري،  
فلازمه يطلب تصرفاً.

وكان ابن الزيات قليل الخير، لا يرعى ذماماً، ولا يوجب حرمة، ولا يجب أن يصطع أحداً، فأضجره الهبيري من  
طول ترده عليه.

فدعاني ابن الزيات يوماً، وهو راكب، وقال: قد تبرمت بملازمة هذا الرجل، فقل له: إني لست أوليه شيئاً، ولا له  
عندي تصرف، ومره بالانصراف عني.

قال: فقلت: أنا والله أستحي أن ألقى مؤملاً لك، عنك، بمنزل هذا.

قال: لا بد أن تفعل.

قلت: نعم.

فلما صرت إلى منزلي، وجهت إلى الهبيري، فجاءني، فقلت له: ما كنت تؤمل أن تنال بصحبة أبي جعفر محمد بن عبد الملك الزيات، خذه من مالي، ولا تقربه، وهذه ثلاثة آلاف درهم.  
فقال متعجباً: من مالك؟.

قلت: نعم.

قال: أنا أؤمل أن أكسب معه أكثر من ذلك.

فقلت: إنه قد حملني إليك رسالة، استحييت من أدائها، فعدلت عنها إلى هذا.

قال: فهات ما حملك.

قال: فأعدت عليه ما قال ابن الزيات.

فقال: قد سمعت منك، فهل أنت مؤد عني ما أقول؟ قلت: نعم.

قال: قل له، قد كنت آتيك في صبيحة كل يوم مرة، ووالله لآتينك منذ الآن في كل غدوة وعشية، فإن قضى الله عز وجل على يدك رزقاً، أخذته على رغمك.

فرجعت إلى ابن الزيات، فأعلمته قوله.

فقال: دعه، فوالله، لا يرى مني خيراً أبداً.

قال: ولازمه الرجل، غدوة وعشية، فكان إذا رآه، التفت إلي، وقال: قد جاء البغيض، فمكث كذلك مدة.

وركب ابن الزيات يوماً إلى الواثق، وهو بالهاروني، بسر من رأى، وكنت معه.

فدخل إلى الخليفة، وجلس في بعض الدور، أنتظر خروجه، فخرج، وهو يكثر العجب.

فسألته، فقال: أنت تعرف مذهبي، قال: وكان يرى رأي المعتزلة، ويقول: إن الأرزاق، تأتي بالاكتساب.

فقلت له: وماذا تقياً عليك؟ فقال: دخلت إلى الخليفة، فقال: على الباب أحد نصطنعه؟ فلم يخطر ببالي غير الهبيري، فأمسكت.

فقال: ويحك أكلمك فلا تحبيني، وأعجلني عن الفكر.

فقلت: على باب أمير المؤمنين، رجل من أعداء دولته، وأعداء سلفه، ومن صنائع بني أمية، من ولد عمر بن هبيرة.

قال: فنصطنعه فيشكرنا، كما اصطنع أباه بنو أمية فشكرهم.

قلت: إنه معدم.

قال: نغنيه، فراودته.

فقال: كم تدفعني عنه؟ أعطه الساعة ثلاثين ألف درهم.

ثم قال: من أهل الدرايع هو، أم من أهل الأقيية؟.

قلت: صاحب قباء.

قال: قلدوه الساعة عملاً يصلح له، وأثبت له من ولده، وغلما، وأهله، مائة رجل.

فلما فرغ من كلامه، قال: قل للهيري ما عرفتك، وادفع إليه ما أمر له الخليفة به، وسله ألا يشكرني، فقد جهدت

في دفع الواثق عنه، فما اندفع، قال أحمد بن إسرائيل: فلما خرجت إلى الشاعر، إذا بالهبيري ينتظر خروج ابن

الزيات، فعرفته ما جرى، فقال: لا بد من شكره على كل حال، وجاء ابن الزيات فترجل له الهبيري، فشكره.

فقال له: ألم أقل لأحمد يقول لك: لا تشكرني.

فقال: لا بد من ذلك، لأن الله تعالى قد أجرى رزقي على يديك.

قال: أحمد بن إسرائيل: فوالله، ما مضى اليوم، حتى قبض المال، وولي بعض كور فارس. وذكر هذا الخبر محمد بن عبدوس الجهشياري، في كتابه كتاب الوزراء عن حدثه به، عن أحمد بن إسرائيل، فذكر أن الرجل، يقال له: أحمد بن عبد الله الهبيري، وذكر قريباً من هذا، وذكر أن الذي خوطب في أمره من الخلفاء، كان المتوكل، وأن الذي أمر له به، كان خمسة آلاف درهم، وأن يضم إليه ثلاثمائة رجل، وأن حاله بعد ذلك علت عند المتوكل، ولم يقل أنه قلده بعض كور فارس.

وحدثني أبي رحمه الله تعالى، هذا الحديث، وذكر أن تردد الهبيري - ولم يسمه - إلى ابن أبي خالد الأحمول، وأن الذي حمل الرسالة إلى الهبيري، قصده إلى منزله، وحمل معه ثلاثة آلاف درهم، وقال: إن الوزير يقول لك، ليس لك عندي تصرف، فخذ هذه النفقة، وانصرف عني إلى حيث شئت.

فغضب الهبيري، وقال: جعلني شحاذاً، والله لا أخذتها. قال الرسول: فغاطني ذلك، فقلت له: والله، ما المال إلا من عندي، لأني استحييت أن أعيد عليك رسالته، فأثرت أن أغرم مالاً في الوسط، أجمل به صاحبي، وأؤجر فيك، وأرفع نفسي عن قبيح الوسط الذي ارتكبته. فقال: أما أنت، فأحسن الله جزاءك، وأما مالك، فأنا لا أقبله، ولو مصصت الثماد، ولكن تؤدي إلي الرسالة بعينها، فأديتها.

فقال: تفضل، وتحمل عني حرفين.

فقلت: هات.

قال: تقول له: والله، ما لزومي لك في نفسك، ولو تعطلت، ما مررت بك، ولكن الله تعالى، يقول: وأتوا البيوت من أبوابها، وأنت باب رزق مثلي، لأني لا أحسن إلا هذه الصناعة، ولا بد من أن آتيك طالباً رزقي من بابه، وليس يعني ذلك استقبالك إياي بالرد، فإن قسم الله تعالى لي على يديك شيئاً، أخذته منك، وإلا، فلا أقل من أن أؤذيك برويتي، كما تؤذيني بتعطيلي.

وقال فيه عن ابن أبي خالد: فصرت في الوقت إلى المأمون، فقال: هاتم شخصاً أوله مصراً.

قال: فأراد أن يذكر له رجلاً يعني به، يعرف بالزبيري، لتولي ذلك العمل، فلغيظه من الهبيري، وقرب عهده به وبمديته، غلط، فقال: الهبيري.

فقال الخليفة: أو يعيش؟ وعرفه، وذكر له خدمة قديمة.

وأراد ابن أبي خالد أن يزهده فيه، قال: قطعنت عليه بكل شيء، وهو يقول: لا أريد غيره، أنا أعرفه بالجلادة. إلى أن قلت له: أنا غلطت، وإنما أردت أن أقول فلان الزبيري.

قال: وإن غلطت، فالهبيري، أقوم بهذا من الزبيري، وأنا أعرفهما، فلما رأني قد أقمت على الدفع عنه، قال: له معك قصة، فاصدقني عنها، فصدقته.

فقال: قد والله، أجرى رزقه على يديك، وأنت راغم، أخرج فوله مصر.

فقلت: إنه ضعيف، ولا حالة له، ولا مروعة، فكيف يخرج في مثل هذه الحال إلى عمله؟ قال: وهذا من رزقه الذي يجري على يديك وأنت راغم، أطلق له مائة ألف درهم فأخرجه.

فخرجت، وامثلت أمره راغماً.

تضايقي تنفرجي

وذكر القاضي أبو الحسين رحمه الله تعالى، عن رجل، قال: حدثني أم أبي، قالت: كان زوجي قد نهض إلى مصر، وتصرف بما، وعمل، ونكب، وتعطل، فأقام هناك. وأضقنا إضاقة شديدة، وعرضنا بيع ضيعة لنا، فلم نجد لها ثمنًا، وتأخر كتابه عنا، وانقطع خبره، حتى توهمنا أن حادثًا قد حدث عليه.

وكان أولادي أصاغر، فجعلت أحتال وأنفق عليهم، حتى لم يبق في المنزل شيء. وحضر وقت عمارة الضيعة، واحتجنا إلى بذار ونفقة، فبعذر ذلك علينا، حتى كادت تتعطل، ويفوت وقت الزراعة.

فأصبحت يوماً، وبني من الغم لاجتماع هذه الأحوال أمر عظيم، فوجهت إلى بعض من كنت أثق به، وأتوهم أنني لو سألتهم إسعافاً بالكثير من ماله لا يجالفتنا، لأقترض منه شيئاً لذلك، فرد رسولني، واعتذر. وعرفني الرسول الذي بعثت به إليه، أنه قال: إذا بعثت إليهم ما طلبوا، والضيعة لم تعمر، ولم تحصل لهم غلة، وزوجها لم يعرف له خبر، فمن أين يردون علي؟ فلما رجع الرسول بذلك، كدت أموت غماً، وامتنعت من الطعام يومي وليليتي.

وأصبحت، فما انتصف النهار، حتى ورد كتاب زوجي بسلامته، وذكر السبب في تأخير كتابه، وأرسل إلي في كتابه سفتجة بمائة دينار، ونحوت ثياب قد أفدها مع تاجر من أهل مصر، قيمتها خمسون ديناراً، فقبضت ذلك، وعمرنا الضيعة، ورزعت تلك السنة، وصلحت حالنا.

من مكارم سعيد بن العاص أمير الكوفة  
وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه: حكى أن سعيد بن العاص، قدم الكوفة عاملاً لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكان ممن يتعشى عنده، رجل من الفقراء، قد ساءت حاله. فقالت امرأته: ويحك، أنه قد بلغنا عن أميرنا كرم، فاذا ذكر له حالك، وحاجتك، لعله أن ينيلنا شيئاً، فلم يبق للصبر فينا بقية.

فقال: ويحك لا تخلقي وجهي.  
قالت: فاذا ذكر له ما نحن فيه على كل حال.  
فلما كان بالعشي، أكل عنده، فلما انصرف الناس، ثبت الرجل.  
فقال سعيد: حاجتك؟ فسكت.

فقال سعيد لغلمانه: تحوا، ثم قال: إنما نحن أنا وأنت، فاذا ذكر حاجتك، فتعقد، وتعصر، ففخ سعيد المصباح فأطفأه. ثم قال له: يرحمك الله، لست ترى وجهي، فاذا ذكر حاجتك.  
فقال: أصلح الله الأمير، أصابتنا حاجة، فأحيت أن أذكرها لك.  
فقال: إذا أصبحت فالتق فلاناً وكيلي.

فلما أصبح الرجل، لقي الوكيل، فقال: إن الأمير قد أمر لك بشيء، فهات من يحمله معك، قال: ما عندي من يحمل، فانصرف إلى امرأته، فجعل يلومها، ويقول: قال لي وكيله هات من يحمل معك، وما أظنه أمر لي إلا بقوصرة تمر، أو قفيز بر، وذهب ماء وجهي، ولو كانت دراهم أو دنانير لأعطانيها في يدي.  
فلما كان بعد أيام، قالت له امرأته: يا هذا، قد بلغ بنا الأمر إلى ما ترى، ومهما أعطاك الأمير، يقوتنا أياماً، فالتق وكيله، فلقية.



فقال: أين تكون؟ إني قد أخبرت الأمير أنه ليس لك من يحمل ما أمر به لك معك، فأمرني أن أوجه من يحمل معك ما أمر به لك.

ثم أخرج إليه ثلاثة من السودان، على راس كل واحد منهم بدرة دراهم، ثم قال: امضوا معه. فلما بلغ الرجل باب منزله، فتح بدرة، فأخرج منها دراهم، فدفعتها إلى السودان، وقال: امضوا. فقالوا: أين نمضي، نحن عبيدك، ما حمل مملوك للأمير هدية قط، فرجع إلى ملكه. قال: فصلحت حاله، واستظهر على دنياه. ألقاه الحاجة إلى بيع مقنعة أمه ثم ملك مصر

وذكر أبو الحسين القاضي، في كتابه، بإسناد ذكره، قال: حدثني عمي أبو الطيب محمد بن يوسف بن يعقوب، قال: حدثني بعض إخواني، قال: كنت أحضر طعام عبيد الله بن السري، بمصر، فكان إذا وضع الخوان، وضع رغيفاً، وعزل بيده من كل شيء، فإذا فرغ تصدق به.

فقدمت إليه ذات يوم عناق سمينة، في أول الطعام، فضرب بإصبعه في جنبها، فشخب حتى ملأت الخوان دسماً فأمسك يده، وقال: الحمد لله، ذكرت بهذا شيئاً أحدثكم به.

كنت ببغداد، نازلاً بسوق الهيشم، فأصابني حاجة شديدة، وبقيت بلا حبة فضة فما فوقها، ولا في منزلي ما يبيعه. فإني لكذلك، وما عندي طعام، ولا ما أشتري به قوت يومي، إلا أن عندي نبيذ قد أدرك، وأنا جالس على باب دارى ضيق الصدر، أفكر فيما أعمله.

إذ أجتاز بي صديق لي، فجلس إلي، فتحدثنا، فعرضت عليه المقام عندي، عرض معذر، كما جرى على لساني، فأجابني، وقعد.

فانقطع بي، وتمتيت أبي خروست، فلم أجد بداً من إدخاله منزلي، فأدخلته.

وقمت إلى أمي فعرفتها الخبر، فأعطتني مقنعتها، وقالت: بعها، وقم بأمرك اليوم، فبعتها بثلاثة دراهم، واشترت بها خبزاً وسمكاً وبقلاً، وريحاناً، وجئت به.

فبينما نحن كذلك، إذ مرت بي سنور لبعض الجيران، فمددت يدي إليها، فإذا هي ذلول، فقبضت عليها، وذبحتها، وسلختها، ودفعتها إلى أمي، فقلت: اشويها، ففعلت، وقدمتها إلى صديقي، مع ما اشتريته، فأكلنا. فذكرت لما وقعت يدي على هذه العناق، حالي تلك، وحالنا اليوم من السعة والنعمة، ونفاذ الأمر، فالحمد لله على ما أنعم.

ودعا جمال عظيم، وأمر أن يتصدق بنصفه بمصر، وبعث نصفه إلى مكة والمدينة، يتصدق به هناك.

وأمر بالخوان وما عليه أن يطعم للمساكين، ودعا بخوان آخر.

أبي أن يعطيه ديناراً ثم أعطاه ألفي دينار

حدثني أبو بكر محمد بن عبيد الله بن محمد الرازي، المعروف بابن حمدون، عن الحسن بن محمد الأنباري الكاتب، قال: كان لي أيام مقامي بأرجان جار تاجر، يعرف بجعفر بن محمد، وكنت آنس به، فحدثني، قال: كنت أحد دائماً، وأنزل على رجل علوي، حسيني فقير، مستور، فألطفه، وأتفقده.

فتأخرت عن الحج سنة، ثم عاودت، فوجدته مشرباً، فسرت، وسألته عن سبب ذلك.

فقال: كان قد اجتمع معي دريهمات على وجه الدهر، ففكرت، عام أول، في أن أتزوج، فإني كنت عزباً، كما قد علمت.

ثم علمت أن فرض الحج قد تعين علي، فرأيت أن أقدم أداء الفرض، وأتوكل على الله عز وجل، في أن يسهل لي - بعد ذلك - ما أتزوج به.

فلما حججت، طفت طواف الدخول، وأودعت رحلي، وما كان معي، في بيت من خان، وأقفلت بابه، وخرجت إلى منى.

فلما عدت، وجدت البيت مفتوحاً، فارغاً، فحيرت، ونزلت بي شدة ما مر بي قط مثلها. فقلت: هذا أعظم للغاب، فما وجه الغم، فاستسلمت لأمر الله عز وجل.

فجلست في البيت، لا حيلة لي، ولا تسمح نفسي بالسألة، فاتصل مقامي ثلاثة أيام، ما طعمت فيها شيئاً. فلما كان في اليوم الرابع، بدأ في الضعف سحراً، وخفت على نفسي، وذكرت قول جدي رسول الله صلى الله عليه وآله: ماء زمزم لما شرب له، فخرجت أريدها حتى شربت منها، ورجعت أريد باب إبراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام لأستريح فيه.

فبينما أنا أسير، إذ عثرت في الطريق بشيء أوجع إصبعي، فأكببت عليه لأمسكه، فوقع يدي على هميان آدم أحمر كبير، فأخذته.

فلما حصل في يدي، ندمت، وعلمت أن اللقطة - ما لم تعرف - حرام.

وقلت: إن تركته الآن، كنت أنا المضيع له، وقد لزمني أن أعرفه، ولعل صاحبه، إذا رجع إليه، أن يهب لي شيئاً أقتاته حلالاً.

فجئت إلى بيتي، وفتحت الهميان، فإذا فيه دنانير صفر، تريد على ألفي دينار.

فسدنته، ورجعت إلى المسجد، فجلست عند الحجر، وناديت: من ضاع له شيء، فيأتيني بعلمته، ويأخذه.

فانقضى يومي، وأنا أنادي، وما جاءني أحد، وأنا على حالي من الجوع.

وبت في بيتي، ليلتي كذلك، وعدت إلى الصفا والمروة، فعرفته عندهما يومي، حتى كاد يقضي، فلم يأتي أحد.

فضعفت ضعفاً شديداً، وخشيت على نفسي، فرجعت متحاملاً، ثقيلاً، حتى جلست على باب إبراهيم الخليل، على نبينا وعليه السلام، وقلت قبل انصرافي: إني قد ضعفت عن الصياح وأنا ماض أجلس على باب إبراهيم، فمن رأيتموه يطلب شيئاً ضاع منه، فأرشدوه إلي.

فلما قرب المغرب، وأنا في الموضع، إذا أنا بخراساني ينشد ضالة، فصحت به، وقلت له: صف لي ما ضاع منك، فأعطاني صفة الهميان بعينه، وذكر وزن الدنانير وعددها.

فقلت: إن أرشدتك إلى من يردده عليك، تعطيني منه مائة دينار؟

قال: لا.

قلت: فخمسين ديناراً؟ قال: لا.

قلت: فعشرة دنانير؟ قال: لا.

فلم أزل أنزل معه، حتى بلغت إلى دينار واحد.

فقال: لا، إن رأى من هو عنده، أن يرده إيماناً واحتساباً، وإلا فهو أبصر، وولى لينصرف.

فورد علي أعظم وارد، وهممت بالسكوت، ثم خفت الله سبحانه وتعالى، وأشفقت أن يفوتني الخراساني.

فصحت به، إرجع، إرجع، وأخرجت الهميان، فدفعته إليه، فأخذه، ومضى، وجلست، ليس لي قوة على المشي إلى بيتي.

فما غاب عني إلا قليلاً، حتى عاد، فقال لي: من أي البلاد أنت، ومن أي الناس؟  
قال: فاعتظت منه غيظاً شديداً، وقلت: ما عليك، هل بقي لك عندي شيء؟ قال: لا، ولكني أسألك بالله العظيم،  
من أي الناس والبلاد أنت؟ فعرفني، ولا تضجر.  
فقلت: رجل من العرب، من أهل الكوفة.

فقال: من أيهم أنت، واختصر؟ فقلت: رجل من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم.  
فقال: ما حالك ومالك؟ قلت: لا أملك في هذه الدنيا كلها إلا ما تراه، وقصصت عليه حال محنتي وما كنت  
طمعت فيه أن يعطينيه من الهميان، وما قد انتهيت إليه من الضعف من الجوع.  
فقال: أريد من يعرفني صحة نسبك وحالك، حتى أقوم بجميع أمرك كله.  
فقلت: ما أقدر على المشي للضعف، ولكن إئت الطواف، وصح بالكوفيين، وقل: رجل من بلدكم، علوي، بباب  
إبراهيم، يريد أن يجيئه منكم من ينشط لحال هو فيها، فمن جاء معك فهاته.  
فغاب غير بعيد، ثم جاء ومعه من الكوفيين جماعة اتفق أنهم كلهم كانوا يعرفون باطن حالي.  
فقالوا: ما تريد أيها الشريف؟ فقلت: هذا رجل يريد أن يعرف حالي، ونسبي، لشيء بيني وبينه، فعرفوه ما تعرفون  
من ذلك.

قال: فعرفوه صحة نسبي، ووصفوا له طريقي، وعدمي.  
فمضى، وجاء فأخرج الهميان بعينه، كما سلمته إليه، فقال: خذ هذا بأسره، بارك الله لك فيه.  
فقلت: يا هذا، ما كفك ما عاملتني به، حتى تقرأ بي، وأنا في حال الموت.  
قال: معاذ الله، هو لك، والله.

فقلت: فلم يخلت علي بدينار منه، ثم وهبت لي الجميع؟ فقال: ليس الهميان لي، وما كان يجوز لي أن أعطيك منه  
شيئاً، قل أو كثر، وإنما أعطانيه رجل من بلدي، وسألني أن أطلب في العراق، أو في الحجاز، رجلاً علوياً، حسينياً،  
فقيراً، مستوراً، فإذا علمت هذا من حاله، أغنيته، بأن أسلم إليه هذا المال كله، ليصير أصلاً لنعمة تنعقد له، فلم  
تجتمع لي هذه الصفات قبلك في أحد، فلما اجتمعت فيك، بما شاهدته من أمانتك، وفقرك، وعفتك، وصبرك،  
وصح عندي نسبك، أعطيتك.

فقلت له: يرحمك الله، إن كنت تحب استكمال الأجر، فخذ منه ديناراً، وابتع لي به دراهم، واشتر بها ما أكله،  
وصربه إلي الساعة ها هنا.

فقال: لي إليك حاجة.

قلت: قل.

قال: أنا رجل موسر، والذي أعطيتك ليس لي فيه شيء، كما عرفتك، وأنا أسألك أن تقوم معي إلى رحلي، فتكون  
في ضيافتي إلى الكوفة، وتتوفر عليك دنائرك.

فقلت: ما في حركة، فأحتمل في حملي، كيف شئت.

فغاب عني ساعة، وجاء بمركوب، وأركبني به إلى رحله، وأطعمني في الحال ما كان عنده، وقطع لي من الغد ثياباً وكان  
يخدمني بنفسه، وعادلني في عماريته إلى الكوفة، فلما بلغتها، أعطاني من عنده دنائير آخر، وقال لي: تزود بها بضاعة،  
وفارقته، وأنا أدعو له، وأشكره، ولم أمس الهميان.

وأخذت أنفق من الدنانير التي أعطانيها الرجل، باقتصاد، إلى أن اتفقت لي ضيعة رخيصة، فابتعتها بالهميان، فأغلت، وأثمرت، وأنا، من الله عز وجل، في نعمة جزيلة، وخير كثير، والحمد لله على ذلك.

### سافر إلى الموصل ثم إلى نصيبين في طلب التصرف حتى إذا أيس جاءه القرج

وذكر القاضي أبو الحسين، في كتابه، قال: قال بعضهم: لحقتني نكبة في بعض الأوقات، وتطاولت علي الأيام في العطلة، وركبني دين فادح، وبعث آخر ما كان في ملكي. فصار إلي صديق لي، حاله مثل حالي في العطلة، فقال: هل لك أن نخرج إلى الموصل، فإن عاملها فلان، ولي به حرمة، فنتطلب منه تصرفاً. فقلت: أفعال.

فاحتلت نفقة، وخرجنا، حتى دخلنا الموصل، فوجدنا العامل يريد الرحيل إلى ديار ربيعة. قال: فلقية الرجل، ولم يتهيأ لي لقاءه، وخرجنا إلى ناحية، فلقيته أنا هناك، فوعدتني جليلاً، وسرت إلى نصيبين، وقد نفذت نفقتي.

وكشف لنا العامل هناك، أنه قد قلد مصر، مضافاً إلى أعماله، وأنه يريد الخروج إليها. فقلت لصديقي: إنه لم تبق معي نفقة، ولا في فضل للخروج إلى مصر، فأعطيني من نفقتي. وقد كان صديقي تقلد من قبل العامل عملاً جليلاً، وخرج إليه، وأقامت أنا بنصيبين، وأقام العامل بها، ليصلح أمره ويخرج إلى مصر، وعملت أنا على أن أتحمّل بما أعطانيه صديقي، وأرجع إلى بغداد. فغلب علي ضيق الصدر، والههم، واستدعيت المزين ليصلح شعري، فهو بين يدي، إذ دخل علي غلام العامل، فقال: صاحبي يطلبك، وقد قلبنا عليك الدنيا منذ أمس، فلم نعرف منزلك إلا الساعة. ففرغت من شغلي مع المزين، وتوضأت، وركبت، وكان يوم الجمعة، فلما صرت في دار العامل، لقيني غلامه، وكان حاجبه، فقال: نحن في طلبك منذ أمس، فلم توجد، وقد قام الآن عن مجلسه، وأخذ في التشاغل بأمر الصلاة، ولكن بكر في غد.

قال: فضعف في نفسي، وقلت: إنه ما أرادني لخير، وعملت على أن أنحدر تلك العشية إلى بغداد. فلم يدعني غلامي، وقال: أقل ما في الأمر، أن يكون الرجل قد تدمم من أتباعك إياه إلى هاهنا، فيطلق لك نفقة، ونحن مضيقون.

فعلمت أن الصواب في لقائه، فأقمت، وبكرت من غد، فدخلت عليه، فعاتبني على انقطاعي عنه. وقال: أنا مفكر في أمرك، وقد غمني طول تعطلك، مع قصدك إياي من بغداد، ومسيرك معي إلى هاهنا، ثم التفت إلى كاتب بين يديه، فقال: أكتب له كتاب التقليد، للإشراف على الضياع بديار مصر، وأحل النفقة على الثغور الجزرية، واستقبل برزقه، وهو مائة وخمسون ديناراً، في كل شهر، الوقت الذي جاءنا فيه إلى الموصل. قال: فشكرته، واضطربت من قلة الرزق.

فقال: إقبل هذا، ولا تخالفني، إلى أن يسهل الله - جلّت عظمتة - غيره، فقمت مفكراً، من أين أصلح أمري، وأتحمّل إلى العمل، وأنفق إلى أن أصل إليه.

قال: فما خرجت من الدار حتى ردي، فقال: بالبواب قوم يحتاج إلى إثباتهم، فاجلس، وأثبتهم، واعمل لهم جرائد

بأسمائهم، وحلاهم، وأرزاقهم، واستقبالهم، وجنتي بما.  
فشاعلت بذلك يومين، وثلاثة، وجئت بالجرائد، فلما وقف عليها أعجبت، وقال: أرى عملك، عمل فهم بالجيش.  
فقلت: ما عملته قط إلا مرة واحدة.  
فقال: لم أقل هذا لأنك تقصر في نفسي عن غيره، ولكن ينبغي للكاتب، والعامل، أن يحسنا كل شيء يقع عليه اسم  
كتابة وعمالة.  
ثم قال: خذ هذا الصك، وأقبض ما فيه من الجهد، واجلس في المسجد الحادي لداري، وأنفق في الصنف القلاني من  
أهل هذه الجريدة.  
قال: فأخذت الصك وكان بألوف دنانير، فأخذت ماله، وأنفقت في القوم، وتفرقوا وهم شاكرون، وفضل مال من  
ذلك، وكتبت إليه بخبره، واستأمرته فيما أعمل به.  
فقال: خذه من رزقك.  
وأعطيني مالاً ثانياً، وقال: أنفقه في الصنف الآخر، إلى أن انفقت في جميع أهل الجريدة، فحصل لي من ذلك، زيادة  
على ألف دينار، فجعلتها في طريقي لنفقتي.  
وشخصت قبله إلى ديار مصر، فنظرت في العمل، وسار هو مجتازاً إلى مصر.  
واستأذنته في المسير إليها معه، فقال: لا أحب أن أعجل لك الصرف، ونحن نمضي إلى أعمال فيها قوم، ولعلي أقف  
من حالهم على ما لا يجوز معه صرفهم، فنحصل أنت على الصرف المعجل، ولكن أقم بمكانك وعملك، وأسير أنا،  
فإن احتجت إلى متصرفين، كنت أول من استدعيت.  
فشكرته، وأقامت في عملي سنتين، أثريت فيهما، وعظمت حالي، ولم يتفق استدعاؤه إلي إلى مصر، إلى أن صرفت،  
وانسلت من الرقة، ودخلت بغداد، موفراً، ومعني مال جليل، فابتعت به ضيعة، ولزمتها، وتركت التصرف.

### للذين أحسنوا الحسنى وزيادة

وذكر أبو الحسين القاضي، قال: حدثني أبي، عن بعض إخوانه، أحسبه أبا يوسف يعقوب بن بيان، أنه قال: أملك  
بعض الكتاب في أيام الرشيد حتى أفضى إلى بيع أفاض داره، وتقض ما فيها، فلم يبق فيها إلا بيتاً واحداً، كان  
يأوي إليه وولده، وانقطع عن الناس، وانقطعوا عنه دهرًا.  
وكان الرشيد يولي على أذربيجان في كل سنتين أو ثلاثة، رجلاً من بني هاشم.  
فولاه سنة من السنين، رجلاً منهم كان متعطلاً، فطلب كاتباً فارهاً يصطنعه، وشاور فيه صديقاً له من الكتاب،  
فوصف له هذا الرجل المتعطل، ووعدته بإحضاره، وصار إليه، وطرق الباب عليه، ودخل، فوجده من الفقر على  
حال لا يتنهيأ له معها لقاء أحد.  
فبعث إليه من منزله بخلعة من ثيابه، ودابة، وغلاماً، وخنزيراً، ودرهم، فركب معه إلى الهاشمي، فلقبه.  
وامتحنه الهاشمي، فوجده بارعاً في صناعته، فاستكتبه، وقرر جاريه، وأمر له بمال معجل معونة له على سفره، وأمره  
بأن يتقدمه إلى أذربيجان.  
فعاد الرجل إلى منزله، وأصلح من حاله، وخلف نفقة لعياله، وشخص.  
فلما بلغ المصروف الخبر، رحل عن البلد، وأخذ غير الطريق الذي بلغه أن الكاتب قد سلكتها، وخلف كاتبه لرفع

الحساب.

فلما شارف كاتب الوالي الناحية، خرج إليه كاتب المعزول ولقيه، فسأله عن صاحبه، فأعلمه شخوصه إلى مدينة السلام، فأنكر ذلك.

فقال له كاتب المعزول: مل بنا إلى موضع مجلس فيه، وتحدث، وتري رأيك، فمالا، ونزلا، وطرح لهما ما جلسا عليه.

فقال: أعزك الله لا تنكر انصراف صاحبي، فإنه رجل كبير المقدار، وفي مقامه إلى أن تصيروا إلى العمل، مهانة تلحقه، وقد خلف قبلي، خمسين ومائة ألف درهم لصاحبك، ودواياً ورقيقاً بقيمة ثلاثة آلاف درهم، فأقبض ذلك، وأكتب لنا كتاباً يزاخه علتك، وانفصال ما بيننا وبينك، ونحن نصب لك من يرفع الحساب، رفع من لا يستقصى عليه، ولا يعنت.

فقبل كاتب الوالي ذلك، وركبا، وقد زال الخلاف فيما بينهما، وخرج الكاتب لاحقاً بصاحبه، وخلف من يسلم الحساب.

واتصل ظاهر الخبر بالهاشمي الوالي، وكتب إليه كاتبه: إني قد بلغت من الأمر مبلغاً مرضياً، إذا وقفت عليه. فلما ساروا إلى الناحية، عرف ما جرى، فحسن موقعه، وترك بالكاتب، وغلب على قلبه، فكسب مالا عظيماً. فلما مضت ثلاث سنين، صرف الهاشمي بالرجل الذي كان والياً قبله، وبلغ الهاشمي الخبر. فقال لكاتبه: ما الرأي؟ قال: نفعل به مثلما فعل بنا، وترحل أنت، وأقيم أنا، ومعني مثل ما أعطانا، فأعطيه إياه، وآخذ كتابه بانفصال ما بيننا وبينه، وألحق بك، ففعل.

ووافي كاتب الصارف، الذي كان معروفاً، فتلقاه الكاتب في الموضوع الذي لقيه فيه، لما كان معزولاً مصروفاً، فسلم عليه، وعدلا فنزلا، وعرض عليه ما خلفه صاحبه، له، ولصاحبه، وسأله قبول ذلك، والكتاب بمثل ما كان كتب إلى الرشيد، فامتنع من قبول ذلك، وكتب له بانفصال ما بينهما، إلى الرشيد، كتاباً وكيداً. وقال له: أراك فاضلاً، فطناً، وأرى صاحبك عاقلاً، وقبول ذلك، لا يكون منكما مكافأة، بل كأنه بيع وشراء، وقد فكرت في أمر، هو أنفع - لنا ولكم - من هذا.

قال: ما هو؟ فقال: أعقد بين صاحبك وصاحبي صهراً، وبينك صهراً، ونكون إخوة وأصدقاء. فقال: فعل الله بك وصنع، ما في الدنيا أكرم ولاية، ولا صرفاً منك.

فعددا بينهما الصهرين، وسارا إلى مقصدهما، ودخل الكاتب بغداد، وقد حصل الهاشمي صاحبه، فأخبره الخبر، فأحمد رأيه، وأمضى عقده في المصاهرة.

فصار الكاتب من أرباب الأحوال، وعاد إلى أفضل ما كان عليه.

**هاك يا هذا الذي لا أعرفه**

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: روي عن شيخ من أهل الكوفة، قال: أملت وبلغت بي الحال أن تقضت منزلي، فلما اشتد علي الأمر، وتجرد عيالي من الكسوة، جاءتني الخادمة، فقالت: ما لنا دقيق، ولا معنا ثمنه، فما نعمل؟

فقلت: أسرجي حماري، وقد كان بقي لي حمار.

فقالت: ما أكل شعيراً منذ ثلاث، فكيف تركبه؟ فقلت: أسرجيه على كل حال، فأسرجته، فركبته، أدب عليه،

هارباً مما أنا فيه، حتى انتهيت إلى البصرة.  
فلما شارفتها إذا أنا بموكب مقبل، فلما انتهوا إلي، دخلت في جملتهم، فرجعت الخيل تريد البصرة، فسرت معهم حتى دخلتها، وانتهى صاحب الموكب إلى منزله، فنزل، ونزل الناس معه، ونزلت معهم.  
ودخلنا، فإذا الدهليز مفروش، والناس جلوس مع الرجل، فدعا بغداء، فجاءوا بأحسن غداء، فتغديت مع الناس، ثم وضأتا، ودعا بالغالية، فغلفنا بها.  
ثم قال: يا غلمان، هاتوا سفظاً، فجاءوا بسفظ أبيض مشلود، ففتح فإذا فيه أكياس، في كل كيس ألف درهم، فبدأ يعطي من على يمينه، فأمرها عليهم، ثم انتهى إلي وأعطاني كيساً، ثم ثنى وأعطاني آخر، ثم ثلث وأعطاني آخر، وأخذت الجماعة.

وبقي في السفظ كيس واحد، فأخذه بيده، وقال: هاك يا هذا الذي لا أعرفه.  
فأخذت أربعة أكياس، وخرجت، فقلت لأنسان: من هذا؟ قال: عبيد الله بن أبي بكر.

### أول دخول الأصمعي إلى الرشيد

وذكر أبو الحسين في كتابه أيضاً، أن الأصمعي قال: لزمت باب الرشيد، فكنيت أقيم عليه طول فماري، وأبيت بالليل مع الحراس أسامرهم، وأتوقع طالع سعد، حتى كدت أموت ضراً وهزالاً، وأن أصير إلى ملالة، ثم أتذكر ما في عاقبة الصبر من الفرج، فأؤمل صلاح حالي باتفاق محمود، فأصبر.  
فبينما أنا ذات ليلة، وقد قاسيت فيها السهاد والأرق، إذ خرج بعض الحجاب، فقال: هل بالباب أحد يحسن الشعر؟ فقلت: الله أكبر، رب مضيق فكه التيسير، أنا ذلك الرجل.

فأخذ بيدي، وقال: ادخل، فإن ختم لك بالسعادة، فلعلها أن تكون ليلة تفر عينك فيها بالغنى.  
فقلت: بشرك الله بخير، ودخلت، فواجهت الرشيد في البهو جالساً، والخدم قيام على رأسه، وجعفر بن يحيى البرمكي، جالس إلى جنبه.

فوقف بي الحاجب حيث يسمع تسليمي، فسلمت، ثم قال: تنح قليلاً حتى تسكن، إن كنت وجدت روعة.  
فقلت في نفسي: فرصة تفوتني آخر الدهر، إن شغلت بعارض، فلا أعتاض منها إلا كمداً، حتى يصفق علي الضريح، فقلت: إضاءة كرم أمير المؤمنين، وبهاء جده، يجردان من نظر إليه من أذية النفس، يسألني - أيده الله - فأجيب، أو أبتدئ فأصيب؟ فتبسم إلي جعفر، وقال: ما أحسن ما استدعى الإحسان، وحرى به أن يكون محسناً.  
ثم قال لي: أشاعر أنت، أم راوية للشعر؟ قلت: راوية.  
قال: لمن؟ قلت: لكل ذي جد وهزل، بعد أن يكون محسناً.  
فقال: أنصف القارة من رامها.

ثم قال: ما معنى هذه الكلمة؟ قلت: لها وجهان، زعمت التبابعة، أنه كان لها رامة لا تقع سهامها في غير الحدق، فكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك، فخرج فارس معلم بعذبات سمور في قلنسوته، فنادى: أين رامة الحدق؟ فقالت العرب: أنصف القارة من رامها.

والوجه الآخر: الموضع المرتفع من الأرض، والجيل الشاهق، فمن ضاهاه بفعاله فقد راماه، وما أحسب هذا هو المعنى، لأن المرامية، كالمعاطاة، وكما أن المعاطاة للنديم، هي أن يأخذ كاساً، ويعطي كأساً، كذلك المرامية، أن يرميها

وترميه.

فقال: أصبت، فهل رويت للعجاج بن رؤبة شيئاً؟ قلت: الأكثر.

قال: أنشدني قوله:

أرقي طارق هم طرقا

فمضيت فيها مضي الجواد، تندر أشد اقي، فلما بلغت مدحه لبني أمية، ثنيت عنان اللسان، لامتداحه المنصور.

فقال: أعن عمد، أو غير عمد؟ فقلت: عن عمد، تركت كذبه إلى صدقه، بما وصف فيه المنصور من مجده.

فقال جعفر: بارك الله عليك، مذك يؤهل لمثل هذا الموقف.

ثم التفت إلي الرشيد، فقال: أرويت لعدي بن الرقاع، شيئاً؟ قلت: الأكثر، قال: أنشدني قوله:

بانت سعاد وأخلفت ميعادها

فابتدأت تندر أشد اقي، فقال جعفر: يا هذا أنشد على مهل، فلن تنصرف إلا غائماً.

فقال الرشيد: أما إذ قطعت علي، فأقسم، لتشركني في الجائزة.

قال: فطابت نفسي، فقلت: أفلا ألبس أردية التيه على العرب، وأنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران لي المواهب،

فتبسّم، ومضيت فيها.

ثم قال: أرويت لذي الرمة شيئاً؟ قلت: الأكثر، قال أنشدني قوله:

أمن حذر الهجران قلبك يطمح

فقلت: عروس شعره.

قال: فأيه الختن؟ قلت: قوله، يا أمير المؤمنين:

ما بال عينك منها الماء ينسكب

فقال: امض فيها، فمضيت فيها، حتى انتهيت إلى وصفه جملة.

فقال جعفر: ضيق علينا ما اتسع من مسامرة السهر، بجمل أجرب.

فقال الرشيد: أسكت، فهي التي سلبتك تاج ملكك، وأزعجتك عن قرارك، ثم جعلت جلودها سياتاً، تضرب بها

أنت وقومك عند الغضب.

فقال جعفر: الحمد لله، عوقبت من غير ذنب.

فقال الرشيد: أخطأت في كلامك، لو قلت: أستعين بالله، قلت صواباً، إنما يحمد الله تعالى على النعم، ويستعان على

الشدائد.

ثم قال لي: إني لأجد مللاً، وهذا جعفر، ضيف عندنا، فسامره باقي ليلتك، فإذا أصبحت، فإن وضاء الخادم، يلقاك

بثلاثين ألف درهم.

قال: ثم قربت إليه النعل، فجعل الخادم يصلح عقب النعل في رجله، فقال: ارفق ويحك، أحسبك قد عقرتني.

فقال جعفر: قاتل الله العجم، لو كانت سنديّة، ما احتاج أمير المؤمنين إلى هذه الكلفة.

فقال: هذه نعلي ونعل آبائي، ما تدع نفسك والتعرض لما تكره.

ثم قال لي جعفر: لولا أن المجلس مجلس أمير المؤمنين، ولا يجوز لي فيه أن آمر بمثل ما أمر به، لأمرت لك بثلاثين ألف

درهم، ولكنني أمر لك بتسعة وعشرين ألف درهم، فإذا أصبحت فاقبضها والزم الباب.



قال: فما صليت من غد الصبح، إلا وفي منزلي ما أمر لي به، فأيسرت ولزمتهما، وزال ما كنت فيه من الضر، وأتى الإقبال، والنعمة والسلامة، وأفلحت، والله الحمد.

### قصة حائك الكلام

وذكر أبو الحسين القاضي، في كتابه، قال: بلغني عن عمرو بن مسعدة، أنه قال: كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم، حتى إذا نزل الرقة، قال لي: يا عمرو، أما ترى الرخحي، قد احتوى على الأهواز، وهي سلة الخبز، وجميع الأموال قبله، وقد طمع فيها، وكتبي متصلة في حملها، وهو يتعلل، ويربص بنا اللواتر. فقلت: أنا أكهي أمير المؤمنين هذا، وأنفذ من يضطره إلى حمل ما عليه.

فقال: ما يقنعني هذا.

قلت: فيأمر أمير المؤمنين بأمره.

قال: تخرج إليه بنفسك، حتى تصفده بالحديد، وتحمله إلي، بعد أن تقبض جميع ما في يده من أموالنا، وتنظر في ذلك، وترتب فيه عمالاً.

فقلت: السمع والطاعة، فلما كان من غد، دخلت إليه.

فقال: ما فعلت فيما أمرتك به؟ قلت: أنا على ذلك.

قال: أريد أن تحييني في غد مودعاً.

قلت: السمع والطاعة، فلما كان من غد، جئت مودعاً.

فقال: أريد أن تحلف لي، أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً، فاضطربت من ذلك، إلى أن حظر علي واستحلفني أن لا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت، وأنا مضطرب مغموم.

وقلت في نفسي: أنا في موضع الوزارة، وقد جعلني مستحناً إلى عامل، ومستخرجاً، ولكن أمر الخليفة لا بد من سماعه، وأمثال مرسومه.

وسرت حتى قدمت بغداد، ولم أقم بها إلا ثلاثة أيام، وانحدرت منها في زلال، أريد البصرة، وجعل لي فيه خيش، واستكثرت من الطحج لشدة الحر.

فلما صرت بين جرجرايا، وجبل، سمعت صائحاً من الشاطي، يصيح: يا ملاح، فرفعت سجف الزلال، فإذا بشيخ كبير السن حاسر الرأس، حافي القدمين، خلق القميص.

فقلت للغلام: أجه، فأجابه.

فقال: أنا شيخ كبير السن، على هذه الصورة التي ترى، وقد أحرقتني الشمس، وكادت تتلفني، وأنا أريد جبل، فأحملوني معكم، فإن الله عز وجل يحسن أجر صاحبكم.

قال: فشتمه الملاح، وانتهره.

فأدركتني عليه رقة، وقلت للغلام: خذه معنا، فقدم إلى الشط، وصحنا به، وحملناه.

فلما صار معنا في الزلال، وانحدرتنا، تقلمت، فدفع إلي قميص، ومنديل، وغسل وجهه، واستراح، فكأنه كان ميتاً عاد إلى الدنيا.

وحضر وقت الغداء، فتذمت وقلت للغلام: هاته يأكل معنا.

فجاء وقعد على الطعام، فأكل أكل أديب، نظيف، غير أن الجوع قد أثر فيه.

فلما رفعت المائدة، أردت أن قوم ويغسل يده ناحية، كما يفعل العامة، في مجالس الخاصة، فلم يفعل، فغسلت يدي. وتذمت أن آمر بقيامه، فقلت: قدموا له الطست، فغسل يده، وأردت بعدها أن يقوم لأنام، فلم يفعل.

فقلت: يا شيخ، أيش صناعتك؟ قال: حائك، أصلحك الله.

فقلت في نفسي: هذه الحياكة علمته سوء الأدب، فتناومت عليه، ومددت رجلي.

فقال: قد سألتني عن صناعتني، فأجبتك، فأنت - أعزك الله - ما صناعتك؟ فأكبرت ذلك، وقلت: أنا جنيت على نفسي هذه الجناية، ولا بد من احتماله، أتراه - الأحمق - لا يرى زلالي، وغلماي، ونعمتي، وأن مثلي لا يقال له مثل هذا؟ ثم قلت: أنا كاتب.

فقال: كاتب كامل، أم كاتب ناقص؟ فإن الكتاب خمسة، فمن أيهم أنت؟ فورد علي من قول الحائك، مورد عظيم، وسمعت كلاماً أكبرته، وكنت متكناً، فجلست.

ثم قلت له: فصل الخمسة.

قال: نعم، كاتب خراج، يقتضي أن يكون عالماً بالشروط، والطرشوق، والحساب، والمساحة، والبثوق، والفتوق، والرتوق.

وكاتب أحكام، يحتاج أن يكون عالماً بالحلل، والحرام، والاختلاف، والاحتجاج، والإجماع، والأصول، والقروع. وكاتب معونة، يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص، والخلود، والجراحات، والمراتب، والسياسات.

وكاتب جيش، يحتاج أن يكون عالماً بحلي الرجال، وشيات اللواب، ومدارة الأولياء، وشيء من العلم بالنسب والحساب.

وكاتب رسائل، يحتاج إلى أن يكون عالماً بالصدور، والفصول، والإطالة، والإيجاز، وحسن البلاغة، والخط.

قال: فقلت: أنا كاتب رسائل.

قال: فأسألك عن بعضها؟ قلت: سل.

قال: أصلحك الله، لو أن رجلاً من إخوانك تزوجت أمه، فأردت أن تكاتبه مهتاً، فماذا كنت تكتب إليه؟ ففكرت في الحال، فلم يخطر ببالي شيء، فقلت: اعفني.

قال: قد فعلت، ولكنك، لست بكاتب رسائل.

قلت: أنا كاتب خراج.

قال: لا بأس، لو أن أمير المؤمنين ولاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف، وتقضي حق السلطان، فتظلم إليك بعضهم من مساحك، وأحضرهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف للمساح بالله العظيم، لقد أنصفوا، وما ظلموا، وحلف الرعية بالله العظيم، أنهم قد جاروا وظلموا، وقالوا لك: قف معنا على ما مسحوه، وأنظر من الصادق من الكاذب، فنخرج لتقف عليه، فوقفوا على قراح شكله: قاتل قنا، كيف كنت تمسحه؟ فقلت: كنت آخذ طوله على انعواجه، وآخذ عرضه، ثم أضربه في مثله.

قال: إن شكل قاتل قنا، يكون رأساه محدودان، وفي تحديده تقويس.

قلت: فأخذ الوسط فأضربه بالعمود.

قال: إذاً ينثني عليك العمود، فأسكتني.

فقلت: أنا لست كاتب خراج.

قال: فإذاً ماذا؟ قلت: أنا كاتب قاض.

قال: لا تبال، أفرايت لو أن رجلاً توفي، وخلف امرأتين حاملتين، إحداهما حرة، والأخرى سرية، وولدت السرية غلاماً، والحرة جارية، فعمدت الحرة إلى ولد السرية فأخذته، وتركت بدله الجارية، فاختصمتا في ذلك، كيف الحكم بينهما؟ قلت: لا أدري.

قال: فلست كاتب قاض.

قلت: أنا كاتب جيش.

قال: لا بأس، أرايت، لو أن رجلين جاءا إليك لتخليهما، وكل واحد منهما، اسمه، واسم أبيه، كأسم الآخر، واسم أبيه، إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا، والآخر مشقوق الشفة السفلى، كيف كنت تخليهما؟ قلت: أقول فلان الأعلم، وفلان الأعمى.

قال: إن رزقيهما مختلفان، وكل واحد منهما يجيء في دعوة الآخر.

قلت: لا أدري.

قال: فلست بكاتب جيش.

قلت: أنا كاتب معونة.

قال: لا تبال، لو أن رجلين رفعوا إليك شج أحدهما شجرة موضحة، وشج الآخر صاحبه شجرة مأمومة، كيف تفصل بينهما؟ قلت: لا أدري.

قال: إذن، لست كاتب معونة، فاطلب لنفسك - أيها الرجل - شغلاً غير هذا.

قال: فقصرت إلى نفسي، وغاظني، فقلت: قد سألت عن هذه الأمور، ويجوز أن لا يكون عندك جوابها، كما لم يكن عندي، فإن كنت عالماً بالجواب، فقل.

فقال: نعم، أما الذي تزوجت أمه، فنكتب إليه: أما بعد، فإن الأمور، تجري من عند الله، بغير محبة عباده، ولا اختيارهم، بل هو تعالى، يختار لهم ما أحب، وقد بلغني تزويج الوالدة، خار الله لك في قبضها، فإن القبر أكرم الأزواج، وأستر للعيوب، والسلام.

وأما قراح قاتل قنأ، فيمسح العمود، حتى إذا صار عدداً في يدك ضربته في مثله، ومثل ثلثه، فما خرج فهو مساحته. وأما الجارية والغلام، فيوزن اللبنان، فأيهما أخف، فالجارية له. وأما المرتزقان المتوافقان في الاسمين فإن كان الشق في الشفة العليا، كتبت فلان الأعلم، وإذا كان في الشفة السفلى، كتبت فلان الأفلح.

وأما أصحاب الشجتين، فلصاحب الموضحة ثلث الدية، ولصاحب المأمومة نصف الدية.

قال: فلما أجاب في هذه المسائل، تعجبت منه، وامتحنته في أشياء غيرها كثيرة، فوجدته ماهراً في جميعها، حاذقاً، بليغاً.

فقلت: ألسنت زعمت أنك حائك؟ فقال: أنا - أصلحك الله - حائك كلام، ولست بحائك نساجة، ثم أنشأ يقول:

ما مرّ بؤس ولا نعيم ... إلا ولي فيهما نصيب

نوائب الدهر أدبني ... وإنما يوعظ الأديب

قد ذقت حلواً وذقت مرّاً ... كذاك عيش الفتى ضروب

قلت: فما سبب الذي بك من سوء الحال؟ قال: أنا راجل كاتب، دامت عطفتي، وكثرت عيلتي وتواصلت محنتي، وقلت حيلتي، فخرجت أطلب تصرفاً، فقطع علي الطريق، فتركت كما ترى، فمشيت على وجهي، فلما لاح لي

الزلال، استغثت بك.

قلت: فإني قد خرجت إلى تصرف جليل، أحتاج فيه إلى جماعة مثلك، وقد أمرت لك بخلعة حسنة، تصلح لمثلك، وخمسة آلاف درهم، تصلح بها أمرك، وتنفذ منها إلى عيالك، وتتقوى نفسك بباقيها، وتصير معي إلى عملي، فأوليك أجله، إن شاء الله تعالى.

فقال: أحسن الله جزاءك، إذن تجديني بحيث يسرك، ولا أقوم مقام معذر إن شاء الله.

فأمرت بتقبضه ما رسمت له، فقبضه، وانحدر إلى الأهواز معي، فجعلته المناظر للرخجي، وانحدر له بحضرتي، والمستخرج لما عليه، فقام بذلك أحسن قيام وأوفاه.

وعظمت حاله معي، وعادت نعمته إلى أحسن ما كانت عليه.

أنا أبوك

قال مؤلف هذا الكتاب: وقد بلغني حديث لعمر بن مسعدة في زلاله، بخلاف هذا، حدثني به عبيد الله بن محمد بن الحسن بن الحفا العقبسي، وهو يذكر أن أهله أقرباء لبني مارية الذين كانوا تناء الصراة، وأهل النعم بها، قال: حدثني أبي، قال: سمعت شيوخنا بالصراة، وأهلنا، يتحدثون: أن عمرو بن مسعدة، كان مصعداً من واسط إلى بغداد، في حر شديد، وهو جالس في زلال، فناده رجل: يا صاحب الزلال بنعمة الله عليك إلا نظرت إلي. قال: فكشف سجف الزلال، فإذا بشيخ ضعيف حاسر الرأس.

فقال له: قد ترى ما أنا عليه، ولست أجد من يحملي، فابتغ الأجر في، وتقدم إلى ملاحيك يطرحوني بين مجاديفهم، إلى أن أصل بلداً يطرحوني فيه.

قال عمرو بن مسعدة: فرحمته، وقلت خذوه، فأخذوه، فغشي عليه، وكاد يموت لما لحقه من المشي في الشمس. فلما أفاق، قلت له: يا شيخ، ما حالك، وما قصتك؟ فقال: قصة طويلة.

فسكنته وطرحته عليه قميصاً ومنديلاً، وأمرت له بدرهم وشمشك، فشكرني.

فقلت: لا بد أن تحدثني بحديثك.

فقال: أنا رجل كانت لله عز وجل علي نعمة جليلة، وكنت صيرفياً، فابتعت جارية بخمسمائة دينار، فعشقتها عشقاً عظيماً، وكنت لا أقدر أن أفارقها ساعة واحدة، فإذا خرجت إلى الدكان، أخذني كالجنون والهيمان، حتى أعود فأجلس معها يومي كله.

فدام ذلك حتى تعطل دكاني، وتعطل كسبي، وأقبلت أنفق من رأس المال، حتى لم يبق منه قليل ولا كثير، وأنا مع ذلك لا أطيق أن أفارقها.

فحبلت الجارية، وأقبلت أقض داري، وأبيع نقضها، حتى فرغت من ذلك، فلم تنق لي حيلة.

فصبرها الطلق، فقالت: يا هذا، هوذا أموت، فاحمل فيما تبتاع به عسلاً، ودقيقاً، وشيرجاً، ولحماً، وإلا مت.

فبكيت، وحزنت، وخرجت على وجهي، وجات لأغرق نفسي في دجلة، فذكرت حلاوة النفس، وخوف العقاب في الآخرة، فامتنعت.

ثم خرجت هاتماً على وجهي إلى النهروان، وما زلت أمشي من قرية إلى قرية، حتى بلغت خراسان، فصادت بها من عرفني، وتصرفت في ضياعه، ورزقني الله عز وجل مالاً عظيماً، فأثريت، واتسعت حالي، ومكثت سنين، لا أعرف خبر منزلي، فلم أشك أن الجارية قد ماتت.

وتراخت السنون حتى حصل لي ما قيمته عشرون ألف دينار.

فقلت: قد صارت لي نعمة، فلو رجعت إلى وطني.

فابتعت بالمال كله، متاعاً من خراسان، وأقبلت أريد العراق، من طريق فارس والأهواز. فلما حصلت بينهما، خرج على القافلة لصوص، فأخذوا جميع ما فيها، ونجوت بشيبي، وعدت فقيراً. ودخلت الأهواز، فبقيت بها متحيراً، حتى كشفت خبري لبعض أهلها ممن أعرفه، فأعطاني ما تحملت به إلى واسط. ونفدت نفقتي، فمشيت إلى هذا الموضع، قود كدت أتلف، فاستعنت بك، ولي منذ فارقت بغداد، ثمان وعشرون سنة.

فعجبت من ذلك، وقلت له: اذهب، فاعرف خبر أهلك، وصر إلي، فإني أقدم بتصرفك فيما يصلح لملكك، فشكر، ودعا، ودخلنا بغداد.

ومضت على ذلك مدة طويلة، أنسيته فيها، فبينما أنا يوماً، قد ركبت، أريد دار المأمون، وإذا بالشيخ على بابي، راكباً بغلاً فارهاً، بمركب محلى ثقيل، وغلام أسود بين يديه، وثياب حسنة، فلما رأيته رحبت به، وقلت: ما الخبر؟ فقال: طويل، وها أنا آتي إليك في غد، وأحدثك بالخبر.

فلما كان من الغد، جاءني، فقلت له: عرفني خبرك، فقد سررت بسلامتك، وبظاهر حالك. فقال: إني صعدت من زلالك، فقصدت داري، فوجدت حائطها الذي يلي الطريق كما خلفته، غير أن باب الدار كان مجلواً، نظيفاً، وعليه دكاكين، وبواب، وبغال مع شاكرية.

فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ماتت جاريتي، وملك الدار بعض الجيران، فباعها من رجل من أصحاب السلطان. ثم تقدمت إلى بقال كنت أعرفه في المحلة، فوجدت في دكانه غلاماً حدثاً.

فقلت له: من تكون من فلان البقال؟ فقال: أنا ابنه.

فقلت: ومتى مات؟ قال: منذ عشرين سنة.

قلت: لمن هذه الدار؟ قال: لابن داية أمير المؤمنين، وهو الآن صاحب بيت ماله.

قلت: بمن يعرف؟ قال: بابن فلان الصيرفي، فأسماني.

قلت: فهذه الدار من باعها إليه.

قال: هذه دار أبيه.

قلت: وأبوه يعيش؟ قال: لا.

قلت: أتعرف من حديثهم شيئاً؟ قال: نعم، حدثني أبي، أن والد هذا الرجل كان صيرفياً جليلاً، فافتقر، وأن أم هذا الرجل ضربها الطلق، فخرج أبوه يطلب لها شيئاً، ففقد، وهلك.

وقال أبي: جاءني رسول أم هذا، يطلب لها شيئاً، وهي تستغيث بي، فقمت لها بجوانح الولادة، ودفعت لها عشرة دراهم، فما أنفقتها، حتى قيل: قد ولد لأمر المؤمنين الرشيد، مولود ذكر، وقد عرض عليه جميع الدايات، فلم يقبل تديهن، وقد طلب له الحرائر، فجاءوه بغير واحدة، فما أخذ ثدي واحدة منهن، وهم في طلب مريض.

فأرشدت الذي طلب الداية إلى أم هذا، فحملت إلى دار الرشيد، فحين وضع فم الصبي على ثديها، قبله، فأرضعته، وكان الصبي المأمون، وصارت عندهم في حال جلييلة، ووصل إليها منهم خير كثير.

ثم خرج المأمون إلى خراسان، وخرجت هذه المرأة وابنها هذا معها، ولم نعرف أخبارهم إلا منذ قريب، لما عاد المأمون، وعادت حاشيته، رأينا هذا قد صار رجلاً، ولم أكن رأيته قبل قط، وقد كان أبي مات.

فقالوا: هذا ابن فلان الصيرفي، وابن داية الخليفة المأمون، فبني هذه الدار وسواها.

فقلت: فعندك علم من أمه أهي حية أم ميتة؟ قال: هي حية، تمضي إلى دار الخليفة أياماً، وتكون عند ابنها أياماً هنا.

فحمدت الله تعالى على هذه الحال، ووجت، حتى دخلت الدار مع الناس، فرأيت الصحن في نهاية العمارة والحسن، وفيه مجلس كبير مفروش بفرش فاخرة، وفي صدره رجل شاب بين يديه كتاب وجهابذة، وحساب يستوفيه عليهم، وفي صفاق الدار وبعض مجالسها، جهابذة بين أيديهم الأموال والنخوت والشواهين، يقبضون ويقبضون، وبصرت بالفتى، فرأيت شبيهي فيه، فعلمت أنه ابني، فجلست في غمار الناس، إلى أن لم يبق في المجلس غيري، فأقبل علي.

فقال: يا شيخ، هل من حاجة تقولها؟ فقلت: نعم، ولكنه أمر لا يجوز أن يسمعه غيرك.

فأوماً إلى غلمان كانوا قياماً حوله، فانصرفوا، وقال: قل، أعزك الله.

قلت: أنا أبوك.

فلما سمع ذلك تغير وجهه، ثم وثب مسرعاً، وتركني مكاني.

فلم أشعر إلا بخادم جاءني، فقال: قم يا سيدي، فقمتم أسير معه، حتى بلغت ستارة منصوبة، في دار لطيفة، وكرسي بين يديها، والفتى جالس على كرسي آخر.

فقال: اجلس أيها الشيخ.

فجلست على الكرسي، ودخل الخادم، فإذا بحركة خلف الستارة.

فقلت: أظنك تريد أن تختبر صدق ما قلت لك من جهة فلانة، وذكرت اسم جاريتي، أمه.

قال: فإذا بالستارة قد كشفت، والجارية قد خرجت إلي، فوقعت علي تقبلي وتبكي، وتقول: مولاي والله.

قال: فرأيت الفتى، قد تشوش، وبهت، وتحني.

فقلت للجارية: وبحك ما خبرك؟ فقالت: دع خبري، ففي مشاهدتك، مما تفضل الله عز وجل بذلك، كفاية، إلى أن أخبرك، فقل ما كان من خبرك أنت؟ فقصصت عليها خبري، منذ يوم خروجي من عندها، إلى يومي ذاك، وقصت هي، علي قصتها، مثل ما قال ابن البقال، وأعجب، وأشرح، وكل ذلك بمرأى من الفتى ومسمع، فلما استوفى الحديث، خرج وتركني في مكاني.

قال: وإذا أنا بخادم، قال: يا مولاي، يسألك ولدك أن تخرج إليه.

قال: فخرجت إليه، فلما رأي من بعيد، قام قائماً على رجليه، وقال: معذرة إلى الله، وإليك يا أبة، من تقصيري في حقلك، فإنه فجأني من أمرك، ما لم أظن أنه يكون، والآن، فهذه النعمة لك، وأنا ولدك، وأمير المؤمنين مجتهد بي منذ دهر، أن أدع هذه الجهبذة، وأتوفر على خدمته في الدار، فلا أفعل، طلباً للتمسك بصنعتي، والآن، فأنا أسأله أن يرد إليك عملي، وأخدمه أنا في غيرها، فقم عاجلاً، وأصلح أمرك.

فأخذت إلى الحمام ونظفت، وجاءوني بخلعة، فألبستها، وخرجت إلى حجرة والدته، فجلست فيها.

ثم أدخلني على أمير المؤمنين، وحدثته بحدثي، وخلع علي، ورد إلي العمل الذي كان إلى ولدي، وأجرى علي من الرزق، في كل شهر كذا، وقلد ابني أعمالاً هي من أجل عمله، وأضعف له أرزاقه، وأمره بلزم حضرته في أشياء استعمله فيها من خاص أمره.

فجئت لأشكرك على ما عاملتني به من الجميل، وأعرفك بتجدد النعمة.

قال عمرو بن مسعدة: فلما أسمى الفتى، علمت أنه ابن داية المأمون، كما قال.

سقط عليه حائط ونهض سالماً

حدثني عمر بن عبد الملك بن الحسن بن يوسف السقطي، وكان خليفتي على القضاء بحران ونواح من ديار مصر، ثم خلفني على قطعة من سقي الفرات، قال: حدثني أبو الخطاب محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، الشاهد بالبصرة، قال: غلست يوماً أريد مسجد الزياديين، بشارع المريد، لوعده كان علي فيه، وكانت الرياح قوية، وإذا بين يدي بأذرع رجل يمشي.

فلما بلغنا دار رياح، قلعت الريح سترة آجر وجص على رأس حائط، فرمت بما على ذلك الرجل، فلم أشك في هلاكه، وارتفعت غبرة عظيمة أفرعتني، فرجعت.

فلما سكنت، عدت أسلك الطريق، حتى إذا دست بعض السترة، لم أجد الرجل، فعجبت. وتمت طريقي، حتى دخلت مسجد الزياديين، فرأيت أهل المسجد مجتمعين، فحدثتهم بما رأيت في طريقي، موجعاً للرجل، وشاكراً لله عز وجل على سلامتي.

فقال رجل منهم: يا أبا الخطاب، أنا الذي وقعت عليه السترة، وذلك أني قصدت هذا المسجد لمثل ما وعدت له، فلما سقطت السترة لم أحس بضرر لحقني، ووجدت نفسي قائماً سالماً، فحمدت الله تعالى، وتحيرت، ووقفت حتى انجلت الغبرة، فتأملت الصورة، فاذا في السترة موضع باب كبير، وقد سقط بقي السترة حوالي، وسائر جسدي في موضع ذلك الباب، فخرجت منه إلى ها هنا.

### نفاه الواثق وأعادته المتوكل

ووجدت بخط جحظة: حدثني عبيد الله بن عمر البازيار، نديم المتوكل، قال: لما نفاني الواثق، من سر من رأى، إلى البحر، من أجل خدمتي لجعفر، لحقتني إضاقاة شديدة، وغموم متصلة، واستبعدت الفرج. فكنت أبكر في كل يوم، بباشق على يدي، إلى الصحراء، فأرجع بالدراجة والدراجتين، فيكون ذلك قوتي، لإضاقتي.

فدخلت يوم الجمعة، إلى الجامع، لأصلي قريباً من المنبر، وليس معي خب، فإذا الخطيب، يخطب: اللهم أصلح عبدك وخليفتك عبد الله جعفر، الإمام المتوكل على الله، أمير المؤمنين.

فداخل قلبي من السرور، حال، لم أدر معه، في أي مكان أنا. قال: وسقطت مغشياً علي، فظن الناس أني قد صرعت، فأخرجوني، فمشيت إلى الموضع الذي أسكنه، فإذا البرد على باي، يطلبوني.

فركبت معهم إلى المتوكل، فكان من أمري معه ما كان، وزادني على الغنى درجات عظيمة، وعدت إلى حالي من اليسار.

### البحثري يهني الفتح بنجاحته من الفرق

وحدثت: أن الفتح بن خاقان، اجتاز على بعض القناطر، وهو يتصيد، وقد انقطع من عسكره، فانخسفت القنطرة من تحته، فغرق.

فراه أكار، وهو لا يعرفه، فطرح نفسه وراءه، وخلصه، وقد كاد أن يتلف، ولحقه أصحابه، فأمر للأكار بمال عظيم، وصدق بمثله.

فدخل إليه البحري، فأنشده قصيدته التي أولها:  
مضى لاج برق أو بدا طلل قفر ... جرى مستهلاً لا بكى ولا نزر  
وفيها يقول:  
لقد كان يوم النهر يوم عظيمة ... أطلت ونعماء جرى بهما النهر  
أجزت عليه عابراً فتشعبت ... أوأذيه لما أن طما فوقه البحر  
وزالت أواحي الجسر وانهدمت به ... قواعده العظمى وما ظلم الجسر  
تحمل حلاً مثل قدس وهمة ... كرضوى وقدرأ ليس يعدله قدر  
فما كان ذاك الهول إلا غيابة ... بدا طالعاً من تحت ظلمتها البدر  
فإن ننس نعمى الله فيك فحظنا ... أضعنا وإن نشكر فقد وجب الشكر  
فقال له الفتى: الناس يهنؤنا بنشر، وأنت بنظم، وبراحة، وأنت بتعب، وأجزل صلته  
الباب الثامن

فيمن أشقى على أن يقتل

فكان الخلاص من القتل إليه أعجل

بدأ المهادي خلافته بتسحية الربيع عن الوزارة واستيزار إبراهيم الحرائي

ذكر محمد بن عبدوس في كتاب الوزراء: أن إبراهيم بن ذكوان الحرائي الأعور الكاتب، صاحب طاق الحرائي ببغداد، كان خاصاً بالمهدي.  
قال: وإن المهدي أنفذ موسى ابنه إلى جرجان، وأنفذ معه إبراهيم الحرائي، فخص إبراهيم بموسى ولطف موضعه منه. فالتصل بالمهدي عنه أشياء تزيد فيها عليه أعداؤه وكثروا، فكتب المهدي إلى موسى في حمله إليه، فضع به، ودافع عنه.  
فكتب إليه المهدي: إن لم تحمله، خلعتك من العهد، وأسقطت منزلتك.

فلم يجد موسى من حمله بدأ، وحمله مع بعض خدمه، مرفهاً، مكرماً، وقال للخادم: إذا دنوت من محل المهدي، فقيد إبراهيم، واحمله في محمل، بغير وطاء ولا غطاء، وألبسه جبة صوف، وأدخله إليه بهذه الصورة، فامتثل الخادم ما أمر به في ذلك.

واتفق أنه ورد إلى العسكر، والمهدي يريد الركوب إلى الصيد، وهو - إذ ذاك - بالروذبار، فبصر بالموكب، فسأل عنه فقيل خادم لموسى ومعه إبراهيم الحرائي.

فقال: وما حاجتي إلى الصيد، وهل صيد أطيب من صيد إبراهيم الحرائي؟ قال: فأذيت منه، وهو علي ظهر فرسه.  
فقال: إبراهيم؟ قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

فقال: لا لبيك، والله لأقتلنك، ثم والله لأقتلنك، ثم والله لأقتلنك، إمض يا خادم به إلى المضرب.

فحملت، وقد يئست من الفرج، ومن نفسي، ففرغت إلى الله تعالى بالدعاء والإبتهاال.

وانصرف المهدي، فأكل اللوزينج المسموم المشهور خبره، فمات من وقته، وتخلصت.



وذكر محمد بن عبدوس - بعد هذا - أن الهادي لما بلغه موت المهدي، نجا من جرجان إلى بغداد، على دواب الريد، وما سمع بخليفة ركب دواب الريد غيره، فدخل بغداد والريبع مولى المنصور على الوزارة، كما كان يتقلدها للمهدي، فصرفه وقلد إبراهيم بن ذكوان الحراني.

### لما اعتقل إبراهيم بن المهدي حبسه المأمون عند أحمد بن أبي خالد الأحول

قال محمد بن عبدوس، في كتاب الوزراء: لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي، حبسه عند أحمد بن أبي خالد، ولم يزل في أوجه.

فحكى يوسف بن إبراهيم، مولى إبراهيم بن المهدي، قال: لما وجه المأمون، إبراهيم بن المهدي، إلى أحمد بن أبي خالد ليحبسه عنده، دخل إبراهيم إلى أحمد.

فقال له إبراهيم: الحمد لله الذي من علي بمصيري إليك وحصولي في دارك، وتحت يدك، ولم يبتلني بغيرك.

قال إبراهيم: فقطب أحمد، وبسر في وجهي، وقال: يا إبراهيم، لقد حسن ظنك بي، إذ تتوهم أن أمير المؤمنين لو أمرني بضرب عنقك، أني أتعدى ذلك إلى غير ما أمرني به فيك.

قال: فأدرت عيني في مجلسه، فتبينت فيمن حضر من أهل خراسان، إنكاراً لقوله.

فقلت: صدقت يا ابن أبي خالد، إن قتلني بأمر أمير المؤمنين، كنت غير ملوم، وكذلك لو أمرني بالشق عن قلبك وكبدك، فعلت ذلك، وكنت غير ملوم.

ولم أحمد ربي - وإن كان حمده واجباً في كل حال - لحسن ظني بك، ولكنني علمت، أن لأمر المؤمنين خزنة سيوف، وخزنة أقلام، وأنه متى أراد قتل إنسان، دفعه إلى خزنة السيوف، ومتى أراد مناظرته، دفعه إلى خزنة الأقلام.

فحمدت الله تعالى، على ما من به علي، من إحلاله إياي، محل من يسأل، لا محل من يعاجل.

قال: فرأيت وجوه كل من حوله قد أشرقت، وأسفرت، وأعجبوا بما كان مني.

فقال أحمد بن أبي خالد: الناس يتكلمون على قدر أنفسهم وآبائهم، وكلامك على قدر المهدي، وقدر نفسك، وكلامي على قدر خلقي، وقدر يزيد الأحول، وأنا أستقبلك مما سبق مني، فأقيني، أقال الله عثرتك، وسهل أمرك، وعجل خلاصك.

فقلت: قد أقال الله عثرتك.

قال: وما مضت لي في داره، خمسون ليلة، حتى سار إلي في نصف الليل، فأخرجني، وألقى علي درعاً، وظاهر

بدراعة، وحملني على دابة، وهو يركض إلى الجانب الغربي، فوقفني بين الجسر والخلد.

فوقع في نفسي أن إلقاءه علي الدرع، إنما هو لإيراده إياي على سكران، فأراد أن يقيني بادرته، وعلمت أنه أراد أنه إذا ورد علي أمر، أن أتماوت.

فخلفني مع أصحابه، ومضى يركض، ثم عاد إلي.

ثم قال: يقول لك أمير المؤمنين: يا فاسق، ألم يكن لك في السابق القديم من فعلك، كفاية تحولك عما كان منك في

هذه الليلة التي وثب فيها علي ابن عائشة وابن الأفرقي، ومن يتابعهما، وأضرأهم، حتى اضطرروني إلى أن ركبت إلى المطبق خاربتهم، حتى أظفرتني الله جل وعز بهم، فقتلتهم، وأنا ملحقك بهم، فاحتج لنفسك، إن كانت لك حجة، وإلا فإنك لاحق بهم.

فعلمت أن الرسالة ممن غلب عليه النييد، وأني أحتاج إلى إغضابه، حتى يغلب غضبه السكر.

فقلت: يا أبا العباس، دمي في عنقك، فائق الله، ولا تقتلني.

فقال لي: يا هذا، ما الذي يتهبأ لي أن أعمل، وهل يمكنني دفع شيء يأمرني به؟

فقلت: لا، وإني أريد أن أحقن دمي، بأن تؤدي عني ما تسمعه مني، وإنما تقتلني، إذا أجبتة بجواب، فأديت عني

غيره، تقديراً منك، أنه أصلح وأدعى إلى سلامتي، فلا يتلقى قولك بالقبول، فأد قولي كما أقول.

فقال أحمد بن أبي خالد: علي عهد الله، أن أؤدي ما تقول.

قال: فقلت، تقول له: يا أمير المؤمنين إن كنت تعقل، فأنت تعلم أي أعقل، فما أشك أنه سيسعيد منك هذا القول،

فأعده.

وتقول له: يقول لك: يا أمير المؤمنين استتريت منك، وأنت خارج عن البلد، وأنا نافذ الأمر فيه، ومعني عالم من

الناس، وأثب بك في مدينتك، ومدينة آباتك، وأنا أسير في سرب ابن أبي خالد، مع نفر محبسين، مثقلين بالحديد؟

هذا ما لا يقبله عاقل.

فأدى أحمد رسالته إلى المأمون، فقال: صدق، فأردده إلى موضعه.

فركض أحمد إلي، وهو ينادي: سلامة سلامة، والحمد لله رب العالمين، وانصرف إلى منزله.

قال ابن عبدوس: فأقام فيه، إلى أن انصرف المأمون، لنكاح بوران، فأشخصه معه إلى فم الصلح، وسألته بوران بنت

الحسن بن سهل، فرضي عنه.

### جيء إبراهيم بن المهدي وهو مذنب وخرج وهو مثاب

وحدثني أبو العلاء الدلال البصري، بها، قال: حدثني أبو نصر بن أبي داؤد، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال: كنت

يوماً عند المأمون، وقد جاءه إبراهيم بن المهدي، وفي عنقه ساجور، وفي رجله قيدان، فوقف بين يدي المأمون.

فقال له: هيه، يا إبراهيم، إني استشرت في أمرك، فأشير علي بقتلك، فرأيت ذنبك يقصر عن واجب حق عمومتك.

فقال: يا أمير المؤمنين، أبيت أن تأخذ حقك إلا من حيث عودك الله تعالى، وهو العفو عن قدرة.

فقال المأمون: مات - والله - الحقد، عند هذا العذر، يا غلام، لا يتخلف أحد من أهل المملكة عن الركوب بين

يديه، ويحمل بين يديه عشر بدر، وعشرة تحوت ثياب.

قال: ما رأيت إنساناً جيء به وهو مذنب، فخرج وهو مثاب، وأهل المملكة بين يديه، إلا هو.

قبض على إبراهيم بن المهدي وهو بزوي امرأة

وجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي الخطي: أن إبراهيم بن المهدي، لما طال استتاره من المأمون، ضاق صدره،

فخرج ليلة من موضع كان فيه مستخفياً، يريد موضعاً آخر، في زي امرأة، وكان عطراً.

فعرض له حارس، فلما شم منه رائحة الطيب، ارتاب به، فكلمه، فلم يجب، فعلم أنه رجل، فضبطه.

فقال له: خذ خاتمي، فثمنه ثلاثون ألف درهم وخلي، فأبى، وعلق به، وحمله إلى صاحب الشرطة، فأتى به المأمون.

فلما أدخله داره، وعرف خبره، أمر بأن يدخل إليه، إذا دعى، على الحال التي أخذ عليها.

ثم جلس مجلساً عاماً، وقام خطيب بحضرة المأمون، يخطب بفضله، وما رزقه الله، جلت عظمته، من الظفر بإبراهيم.

وأدخل إبراهيم بزويه، فسلم على المأمون، وقال: يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب

للتقوى، ومن تناولته يد الاغترار، بما مد له من أسباب الرجاء، لم يأمن عادية الدهر، ولست أخلو عندك من أن أكون عاقلاً أو جاهلاً، فإن كنت جاهلاً فقد سقط عني اللوم من الله تعالى، وإن كنت عاقلاً، فيجب أن تعلم أن الله عز وجل، قد جعلت فوق كل ذي عفو، كما جعل كل ذي ذنب دوبي، فإن تَوَاحَد، فبحقك، وإن تعف، فبفضلك، ثم قال:

ذنبى إليك عظيم ... وأنت أعظم منه  
فخذ بحقك أو لا ... فاصفح بحلمك عنه  
إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكته  
وقال:

أذنبت ذنباً عظيماً ... وأنت للعفو أهل  
فإن عفوت فمن ... وإن جزيت فعدل  
قال: فرق له المأمون، وأقبل على أخيه أبي إسحاق وابنه العباس والقواد، وقال: ما ترون في أمره؟ فقال بعضهم: يضرب عنقه.

وقال البعض: تقطع أطرافه، ويترك إلى أن يموت، وكل أشار بقتله، وإن اختلفوا في القتلة.  
فقال المأمون، لأحمد بن أبي خالد: ما تقول أنت يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن قتلته، وجدت مثلك قد قتل مثله، وإن عفوت عنه، لم تجد مثلك قد عفا عن مثله، فأبي أحب إليك، أن تفعل فعلاً تجد لك فيه شريكاً، أو أن تنفرد بالفضل؟ فأطرق المأمون طويلاً، ثم رفع رأسه، فقال: أعد علي ما قلت يا أحمد، فأعاد.  
فقال المأمون: بل ننفرد بالفضل، ولا رأي لنا في الشراكة.

فكشف إبراهيم المنعنة عن رأسه، وكبر تكبيرة عالية، وقال: عفا - والله - أمير المؤمنين عني، بصوت كاد الإيوان أن يتزعزع منه، وكان طويلاً، آدم، جعد الشعر، جهوري الصوت.  
فقال له المأمون: لا بأس عليك يا عم، وأمر بحبسه في دار أحمد بن أبي خالد.  
فلما كان بعد شهر، أحضره المأمون، وقال له: اعتذر عن ذنبك.  
فقال: يا أمير المؤمنين، ذنبي أجل من أن أتفوه معه بعذر، وعفو أمير المؤمنين، أعظم من أن أنطق معه بشكر، ولكني أقول:

تفديك نفسي أن تضيق بصالح ... والعفو منك بفضل جود واسع  
إن الذي خلق المكارم حازها ... في صلب آدم للإمام السابع  
ملئت قلوب الناس منك مهابة ... وتظلّ تكلؤهم بقلب خاشع  
فعفوت عمّن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع  
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وحنين والدة بقلب جازع  
ردّ الحياة إليّ بعد ذهابها ... كرم المليك العادل المواضع

فقال له المأمون: لا تتريب عليك يا عم، قد عفوت عنك، فاستأنف الطاعة متحرزاً من الظنة، يصف عيشك، وأمر بإطلاقه، ورد عليه ماله وضياعه، فقال إبراهيم يشكره في ذلك:  
رددت مالي ولم تبخل عليّ به ... وقبل ردك مالي قد حققت دمي  
فأبت عنك وقد خوّلتنى نعماً ... هما الحياتان من موت ومن عدم

فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ... والمال، حتى أسلّ النعل من قدمي  
ما كان ذاك سوى عارية رجعت ... إليك لو لم تعرها كنت لم تلم  
وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متّهم  
فإن جحدتك ما أوليت من نعم ... إني لباللؤم أولى منك بالكرم  
فقال المأمون: إن من الكلام، كلاماً كالدّر، وهذا منه، وأمر لإبراهيم بخلع ومال، قيل أنه ألف ألف درهم.  
وقال له: يا إبراهيم، إن أبا إسحاق، وأبا عيسى، أشارا علي بقتلك.  
فقال إبراهيم: ما الذي قتل لهما يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت لهما: إن قرابته قريبة، ورحمه ماسة، وقد بدأنا بأمر،  
وينبغي أن نستتمه، فإن نكث فالله مغير ما به.  
قال إبراهيم: قد نصحا لك، ولكنك أبيت إلا ما أنت أهله يا أمير المؤمنين، ودفعت ما خفت، بما رجوت.  
فقال المأمون: قد مات حقدي بحياة عذرك، وقد عفوت عنك، وأعظم من عفوي عنك أنني لم أجرك مرارة امتنان  
الشافعين.

إن من أعظم الخنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة  
وحدثني أبو الفرج الأصبهاني، قال: حدثني علي بن سليمان الأخفش، ومحمد بن خلف بن المرزبان قالوا: حدثنا محمد  
بن يزيد النحوي، يعنينا أبا العباس المبرد، قال: حدثنا القفضل بن مروان، قال: لما دخل إبراهيم بن المهدي على  
المأمون وقد ظفر به، كلمه بكلام كان سعيد بن العاص كلم به معاوية بن أبي سفيان في سخطه سخطها عليه،  
واستعطفه به، وكان المأمون يحفظ الكلام.  
فقال له المأمون: هيهات يا إبراهيم، هذا كلام قد سبقك به فحل بني العاص، وقارحهم، سعيد بن العاص، خاطب  
به معاوية.  
فقال له إبراهيم: وأنت إن عفوت عني، فقد سبقك فحل بني حرب، وقارحهم، إلى العفو، ولم تكن حالي في ذلك،  
أبعد من حال سعيد عند معاوية، فإنك أشرف منه، وأنا أشرف من سعيد، وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية،  
وإن من أعظم الخنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة.  
فقال له: صدقت يا عم، وقد عفوت عنك.

### لما قدم للقتل تماسك فلما عفي عنه بكى

وجدت في بعض الكتب: أنه لما حصل إبراهيم بن المهدي في قبضة المأمون، لم يشك هو وغيره في أنه مقول، فأطال  
حبسه في مطمورة، بأسوأ حال وأقبحها.  
قال إبراهيم: فأيست من نفسي ووطنها على القتل، وتعزيزت عن الحياة، حتى صرت أتمني القتل، للراحة من  
العذاب، وما أوّله في الآخرة، من حصول الثواب.  
فبينما أنا كذلك، إذ دخل علي أحمد بن أبي خالد مبادراً، فقال: أعهد، فقد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك.  
فقلت: أعطني دواة وقرطاساً، فكتبت وصية ذكرت فيها كلما احتجت إليه، وأسندتها إلى المأمون، وشكّلة والدي،  
وتوضّأت، فتنطّعت ركعات، ومضى أحمد



وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَ الْعَمَلَ بِالْحَدِيثِ إِلَّا لِأَمْرٍ أَوْجَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فَكَانَ الْعَمَلُ عِنْدَ مَا لِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْوَى ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُ كَالِإِجْمَاعِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ اشْتِرَاطِ الصَّحَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالرُّجُوعُ إِلَى الْعَمَلِ أَرْجَحُ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ قَدْ شَرَعَ الْجَزَاءُ فِي الصَّيْدِ فِي حَرَمِ مَكَّةَ وَلَمْ يَشْرَعْ ذَلِكَ فِي حَرَمِ الْمَدِينَةِ .  
فَالْجَوَابُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ اِخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ .

فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ بوجوب الجزاء فلا فرق وعلى القول الثاني بعدم الجزاء .  
فَالْجَوَابُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْبَرَهُمْ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ بِهِ مِنْ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ عَمَلًا ؛ لِأَنَّ تَكْلِيفَ الْعَمَلِ قَدْ يَقَعُ بَعْضُهُمْ ، أَوْ أَكْثَرُهُمْ فِي تَرْكِهِ فَيَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ إِلَى الْخُسْرَانِ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ فَرَفَعَ عَنْهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا يَقَعُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ التَّقْصِيرِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَزَلْ يَسْأَلُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّخْفِيفِ عَنْ أُمَّتِهِ حَتَّى رَدَّ الْخَمْسِينَ إِلَى خَمْسٍ بِبِرَّةٍ شَفَاعَتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَسُؤَالِهِ فِي الرَّفْقِ بِهِمْ ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَالْوُفُودُ تَسِيرُ إِلَى مَكَّةَ لِأَدَاءِ فَرَضِ الْحَجِّ بِخِلَافِ زِيَارَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَالْجَوَابُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْظُرُ أَبَدًا مَا فِيهِ الْأَفْضَلُ لِأُمَّتِهِ فَيُرْسِدُهُمْ إِلَيْهِ وَمَا كَانَ فِيهِ تَكْلِيفٌ يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ مُكْتَفِيًا بِالِإِشَارَةِ إِلَيْهِ فَتَجِدُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كُلِّ مَا يَخْصُ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ يُخَفِّفُهُ عَنْ أُمَّتِهِ .  
نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يَحْرِمَنَا مِنْ بَرَكَاتِ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَى رَبِّهِ وَشَمُولِ عِنَايَتِهِ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ

وَمِمَّا

يُرِيدُ مَا ذَكَرَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ { وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى } فَكُلُّ مَقَامٍ ، أَوْ مَكَانٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ أَقِيمَ فِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَوَّلِ وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فِي الْفَضِيلَةِ بِحَيْثُ الْمُنْتَهَى ثُمَّ كَذَلِكَ إِلَى مَا لَا نِهَآيَةَ لَهُ وَلَا يَشْكُ وَلَا يُرْتَابُ أَنَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ انْتِقَالِهِ إِلَى رَبِّهِ مِنْ أَعْلَى مَقَامَاتِهِ وَأَتَمَّهَا إِذْ هُوَ الْخِتَامُ وَالْخِتَامُ يَكُونُ أَعْلَى مِمَّا قَبْلَهُ وَأَعْظَمَ مِنْهُ فَلَيْنَ كَانَتْ مَكَّةَ مَوْضِعَ شَمْسٍ مَشْرِقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَالْمَدِينَةُ مَوْضِعَ شَمْسٍ مَغْرِبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَفِيهَا حَلٌّ وَأَقَامٌ .  
ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام { الْإِيمَانُ يَأْرُزُ مَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ } يُرِيدُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا بَيْنَ مَطْلَعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَغْرِبِهِ .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِثْلَهُ أَعْنِي بِذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ وَمَا وَقَعَ فِي شَهْرِ مَوْلِدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ ظُهُورِ آيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَةِ الْبَيِّنَةِ مِنْ إِخْمَادِ نَارِ فَارِسَ وَأَنْشِقَاقِ إِيوَانَ كِسْرَى وَمَنْعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ وَنُزُولِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ .

عَلَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَقَعْ شَيْءٌ مِمَّا تَقَدَّمَ لَأَكْتَفَى فِي فَضِيلَتِهِ بِوُجُودِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهِ وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ } وَمَعْنَى لَعَمْرُكَ لِحَيَاتِكَ فَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَيَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا تَنْعَقِدُ الْيَمِينُ بِمَخْلُوقٍ إِلَّا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ تَعَالَى {

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ { قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ لَا بِمَعْنَى التَّأْكِيدِ .

وَكَانَ سَيِّدِي أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَرْجَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ إِنَّمَا تُكُونُ لَا لِلتَّأْكِيدِ إِذَا عُدِمَتِ الْفَائِدَةُ الَّتِي يُحْمَلُ عَلَيْهَا لَفْظَةُ لَا وَالْفَائِدَةُ مَوْجُودَةٌ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } مَعْنَاهُ أَيُّ قَدْرٍ وَأَيُّ خَطَرٍ لِهَذَا الْبَلَدِ حَتَّى يُقْسَمَ بِهِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهِ ، وَإِنَّمَا الْقَدْرُ وَالْخَطَرُ لَكَ فَأَنْتَ الَّذِي يُقْسَمُ بِكَ لِعَظِيمِ جَاهِكَ وَحُرْمَتِكَ عِنْدَنَا .

فَأَنْظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ إِلَى سِرِّ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَى آيَةِ الْكَرِيمَةِ إِذْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَلَدِ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ مَكَّةُ اتِّفَاقًا ، وَمَكَّةُ قَدْ تَضَافَرَتْ النُّصُوصُ عَلَى تَفْضِيلِهَا . فَإِذَا كَانَتْ مَكَّةُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ مِنَ الْفَضِيلَةِ الْعَظْمَى وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُقْسَمُ بِهَا مَعَ وُجُودِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهَا إِذْ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَالشَّمْسِ لَا تَظْهَرُ الْكَوَاكِبُ مَعَهَا بَلْ هُوَ الَّذِي كَسَيْتِ الْأَكْوَانُ مِنْ بَهَاءِ نُورِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ مِنْ مَدْحِهِ بَعْضَ صِفَاتِهِ الْجَمِيلَةِ حَيْثُ يَقُولُ إِلَى الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ أَحْمَدُ قَدْ دَنَا وَنُورُهُمَا مِنْ نُورِهِ يَتَلَأَأُ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَمَوْضِعُ مَقَامِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَائِمًا لَا يُوَازِيهِ غَيْرُهُ وَإِنْ شَهِدْتَ لَهُ الْأَدِلَّةَ بِالْفَضِيلَةِ الْعَظْمَى عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

وَبِهَذَا الْمَعْنَى وَمَا شَابَهَهُ يُعْلَمُ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا هُوَ فَاضِلٌ وَبَيْنَ مَا هُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا الشَّمْسُ أَكْثَرُ ضَوْءًا مِنَ الْبَدْرِ السَّالِمِ مِنْ كُلِّ مَا يَعْتَرِيهِ فَهُوَ كَلَامٌ صَحِيحٌ إِذْ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ شَارَكَهَا الْبَدْرُ فِي بَعْضِ الضِّيَاءِ لَكِنْ لِلشَّمْسِ زِيَادَةٌ ضِيَاءٍ أضعفُ

ذَلِكَ فَظَهَرَتْ فَضِيلَةُ الشَّمْسِ عَلَى الْبَدْرِ بِتِلْكَ الزِّيَادَةِ وَإِذَا فَضَلَتْ عَلَى الْبَدْرِ فَعَلَى غَيْرِهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَالْبَدْرُ يُفْضَلُ عَلَى مَا دُونَهُ فِي الضِّيَاءِ وَالْجُرْمِ .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالْمَدِينَةُ الَّتِي هِيَ مَوْضِعُ مَقَامِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيًّا وَمَيِّتًا الَّتِي قَدْ حُصِّتْ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَكْرَمُ مِنْ غَيْرِهَا بِوُجُودِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهَا .

أَلَا تَرَى أَنَّ مَكَّةَ مَعَ عَظِيمِ قَدْرِهَا لَمْ يُقْسَمَ بِهَا لِأَجْلِ حُلُولِهِ إِذْ ذَاكَ بِهَا فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَفْضَلَ مَوْضِعًا حَلَّ فِيهِ وَأَقَامَ بِهِ حَيًّا وَمَيِّتًا فَكَيْفَ يُفْضَلُهُ غَيْرُهُ وَكُلُّ مَا ذَكَرَ ظَاهِرٌ بَيْنَ فِي وُجُودِ الْفَضِيلَةِ إِذْ لَا فَرْقَ فِي الْإِحْتِرَامِ لِرَفِيعِ جَنَابِهِ الْعَزِيزِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْنَ حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ .

وَقَدْ رَأَيْتُ لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ مِنْ فَضَائِلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ { مَا مِنْ نَبِيٍّ دُفِنَ إِلَّا وَقَدْ رُفِعَ بَعْدَ ثَلَاثِ غَيْرِي فَإِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } ثُمَّ أَنْظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { مَنْ مَاتَ بِأَحَدِ

الْحَرَمَيْنِ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ { فَسَوَى عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ بَيْنَهُمَا فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ ثُمَّ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَصَّصَ الْمَدِينَةَ بِالذِّكْرِ وَحَصَّ عَلَى مُحَاوَلَةِ ذَلِكَ بِالِاسْتِطَاعَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ مَاتَ بِهَا } وَالِاسْتِطَاعَةُ هِيَ بَدَلُ الْمَجْهُودِ فِي ذَلِكَ فَرِيَادَةُ عِنَايَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ بِإِفْرَادِ الْمَدِينَةَ بِالذِّكْرِ دَلِيلٌ عَلَى تَمْيِيزِهَا

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ { حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَمَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ } فَجَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ حَيَاتَهُ وَمَمَاتَهُ كِلَيْهِمَا سَبَابًا فِي الْفَضِيلَةِ فِي تَعَدِّي نَفْعِهِ وَبَرَكَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ لِأُمَّتِهِ أَوْلَاهَا وَوَسَطِهَا وَآخِرِهَا فَنَصَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى عُمُومِ نَفْعِهِ فِي الْحَالَتَيْنِ مَعًا .  
كَيْفَ لَمْ ، وَهُوَ سَيِّدُ الْأَوْلَى وَالْآخِرِينَ وَسَيِّدُ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى وَكَانَ مِنْ رَبِّهِ فِي الْقُرْبِ وَالتَّوَدُّانِي مَعَ التَّنْزِيهِ وَالتَّقْدِيسِ كَقَابِ قَوْسَيْنِ ، أَوْ أَدْنَى .

ثُمَّ تَرَجَعَ إِلَى مَعْنَى كَلَامِ سَيِّدِي الشَّيْخِ الْجَلِيلِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْمَرْجَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ ثُمَّ أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَبِأُمَّتِهِ فَقَالَ تَعَالَى { وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ } ؛ لِأَنَّ الْوَالِدَ فِي حَقِيقَةِ الْمَعْنَى هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَأُمَّتُهُ أَوْلَادُهُ .

إِذْ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ كَانَ سَبَبًا لِلْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ بِالْحَيَاةِ السَّرْمَدِيَّةِ وَالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَسَلَامَتِهِمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ .

وَقَدْ وَرَدَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أَنَّهُ قَالَ { إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَثَابَةِ الْوَالِدِ } انْتَهَى ، وَهَذَا ظَاهِرٌ قَالَ تَعَالَى { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ } فَحَقُّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أَعْظَمُ مِنْ حُقُوقِ الْوَالِدِينَ .  
قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ { ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ } فَقَدَّمَ نَفْسَهُ عَلَى غَيْرِهِ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَدَّمَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِ كُلِّ مُؤْمِنٍ .

وَمَعْنَى ذَلِكَ إِذَا تَعَارَضَ لَهُ حَقٌّ لِنَفْسِهِ وَحَقٌّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآكَدْهُمَا عَلَيْهِ وَأَوْجِبْ .  
حَقُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ يَجْعَلُ حَقَّ نَفْسِهِ تَبَعًا لِلْحَقِّ

الْأَوَّلِ ثُمَّ كَذَلِكَ فِي تَتَبُعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ .

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْأَمْرَ فِي الشَّاهِدِ وَجَدْتَ نَفْعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ لَكَ أَعْظَمَ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَسَائِرِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ إِذْ أَنَّ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أَنَّهُ وَجَدَكَ غَرِيبًا فِي بَحَارِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا الْمُوجِبَةِ لِعِضَابِ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَأَنْقَذَكَ وَأَنْقَذَ آبَاءَكَ وَأَبْنَاءَكَ وَمَنْ مَشَى عَلَى مَشْيِكَ ، وَغَايَةُ أَمْرِ أَبِيكَ أَنَّهُمَا أَوْجَدَاكَ فِي الْحَسِّ فَكَانَا سَبَبًا لِإِخْرَاجِكَ إِلَى دَارِ التَّكْلِيفِ وَمَحَلِّ الْبَلَايَا وَالْمَحَنِّ فَأَوْلُ ذَنْبٍ يُوقِعُهُ الْمَرْءُ فِيهَا اسْتِحْقَاقُ بِهِ النَّارِ وَبَقِي بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَشِيئَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَخَذَ بِالْعَدْلِ وَإِنْ شَاءَ عَفَا بِالْفَضْلِ .

فَبِرَكَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِرَكَّةِ اتِّبَاعِهِ أَنْقَذَكَ اللَّهُ الْكَرِيمُ مِمَّا قَدْ كَانَ حَلَّ بِكَ وَنَزَلَ بِسَاحَتِكَ مِمَّا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ فَتَنَّبَهُ لِعَظِيمِ قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مِقْدَارِهِ عِنْدَ رَبِّهِ وَعَظِيمِ إِحْسَانِهِ وَجُودِهِ عَلَيْكَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي صِفَتِهِ : { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ { حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَمَاتِي



خَيْرٌ لَكُمْ { انْتَهَى فَخَيْرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَيَاتِهِ بَيْنَ جَدًّا .

أَلَا تَرَى أَنْ مَنْ رَأَاهُ ، أَوْ أَدْرَكَهُ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ لَا يَفُوقُهُ غَيْرُهُ أَبَدًا فِي فَضِيلَةِ مَرِيَّةِ رُؤْيَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
وَوُفُوعِ ذَلِكَ النَّظَرِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَمَّا مَوْتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَبَّانَ أَعْمَالَ أُمَّتِهِ تُعْرَضُ عَلَيْهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَلِكَ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَقْرَابِ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ فَمَا رَأَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
مِنَ الْأَعْمَالِ حَسَنًا سُرَّ بِهِ وَدَعَا لِصَاحِبِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ

غَيْرِ ذَلِكَ اسْتَعْفَرَ لِصَاحِبِهِ ، وَهَذَا مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زِيَادَةٌ فِي التَّلَطُّفِ بِكَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِخِلَافِ  
الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ فَإِنَّهُمْ يُسْرُونَ ، أَوْ يَحْزَنُونَ لَيْسَ إِلَّا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

اللَّهُمَّ بِحُرْمَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَكَ عَرَفْنَا قَدْرَ هَذِهِ النُّعْمَةِ الَّتِي مَنَنْتَ عَلَيْنَا بِدَوَامِهَا وَلَا تُعْرِفْهَا لَنَا بِزَوَالِهَا  
عَنَّا إِنَّكَ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ آمِينَ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو يَعْقُوبَ يُونُسُ بْنُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ الشَّيْخِ أَبِي مَرْوَانَ عَبْدَ الْمَلِكِ  
الْبَكْرِيَّ عَرَفَ بِابْنِ السَّمَاطِ ، وَهُوَ أَخُو الشَّيْخِ الْأَجَلِّ أَبِي عَلِيِّ بْنِ السَّمَاطِ شَيْخِ سَيِّدِي أَبِي مُحَمَّدٍ الْمَرْجَانِيِّ  
وَغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ فِي وَقْتِهِ مِنَ الْأَكَابِرِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ أَعْلِمْتُ أَنَّكَ يَا رَبِيعَ الْأَوَّلِ تَأَجَّ عَلَى هَامِ الزَّمَانِ  
مُكَلَّلٌ مُسْتَعْدَبُ الْإِلْمَامِ مُرْتَقِبُ اللَّقَا كُلِّ الْفَضَائِلِ حِينَ تُقْبَلُ تُقْبَلُ مَا عُدْتُ إِلَّا كُنْتُ عَيْدًا ثَالِثًا بَلْ أَنْتَ أَحْلَى  
فِي الْعُيُونِ وَأَجْمَلُ شَرَفًا بِمَوْلِدِ مُصْطَفَى لَمَّا بَدَأَ أَخْفَى الْأَهْلَةَ وَجْهَهُ الْمُتَهَلَّلُ وَحَوَيْتَ مَنْ أَصْبَحَتْ ظَرْفَ زَمَانِهِ  
ظَرْفًا بِهِ فِي بُرْدِ حُسْنِكَ تَرْفُلُ وَمَلَكَتْ أَنْفُسَهَا بِلُطْفِ شَمَائِلِ بِنَسِيمِهَا نَفْسُ الْعَلِيلِ تُعَلُّ وَإِذَا حَدَا الْحَادِي  
بِمَنْزِلَةِ الْحِمَى فَالْقَصْدُ سَكَّانُ الْحِمَى لَا الْمَنْزِلُ فَضُلُّ الشُّهُورِ عَلَا ففَاخَرَهَا فَإِنْ فَخَرَتْ بِأَطُولِهَا فَأَنْتَ الْأَطْوَلُ  
وَاسْتَشْنِ مِنْهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ الَّتِي أَتْنَاهَا نَزَلَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ وَاصْغِ لِقَوْلِ اللَّهِ فِيهَا إِنَّهَا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ فِي الْبَابَةِ  
أَفْضَلُ وَاسْتَكْمِلِ الْبُشْرَى فَإِنَّكَ لَمْ تَنْزَلْ لَكَ فِي الْقُلُوبِ مَكَانَةً لَا تُجْهَلُ لِمَ لَا وَعَشْرُكَ وَأَنْتَ تَأْكُ أَرَيْنَا قَمْرًا بِهِ  
شَمْسُ الضُّحَى لَا تُعْدَلُ وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ بَدْرًا يَسْتَوِي لِتَمَامِ عَشْرِ وَاثْنَتَيْنِ وَيَكْمُلُ وَيَفُوقُ أَقْمَارَ السَّمَاءِ لِأَنَّهَا  
لِلنَّقْصِ مِنْ بَعْدِ الزِّيَادَةِ تُنْقَلُ وَكَمَالُ هَذَا الْبَدْرِ لَا يُعْزَى إِلَى نَقْصٍ وَلَا عَنْ حَالِهِ يَتَحَوَّلُ بَلْ نُورُهُ يَزْدَادُ ضَعْفًا  
كَلِمًا طَفِقَ الْمَحَاقُ سَنَا الْبُدُورِ

يُبْدَلُ فَإِنْ قَالَ قَائِلُ فَهَذَا الشَّهْرُ لَمْ نَجِدْ فِيهِ زِيَادَةً فِي الْأَعْمَالِ كَمَا نَجِدُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ وَاللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ  
الْفَاضِلَةِ .

فَالْجَوَابُ أَنْ تِلْكَ الْأَزْمِنَةُ حَصَلَتْ لَهَا الْفَضِيلَةُ بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ فِيهَا ، وَهَذَا الشَّهْرُ حَصَلَ لَهُ التَّشْرِيفُ  
بِظُهُورِ مَنْ جَاءَتْ الْأَعْمَالُ وَالْخَيْرَاتُ الَّتِي حَصَلَتْ بِهَا الْفَضِيلَةُ لِتِلْكَ الْأَوْقَاتِ عَلَى يَدَيْهِ وَبِسَبَبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ هَذَا وَجْهٌ ظَاهِرٌ بَيْنَ لَنَا يَرْتَابُ فِيهِ .

وَوَجْهٌ ثَانٍ ، وَهُوَ أَنَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ كَمَا وَصَفَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَتِهِ {  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ} فَكَانَ دَأْبُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَبَ التَّخْفِيفِ عَنْ أُمَّتِهِ مَهْمًا قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ وَوَجَدَ  
السَّبِيلَ إِلَيْهِ فَعَلَهُ فَلَمَّا أَنْ كَانَ هَذَا الشَّهْرُ أُخْتُصَّ بِظُهُورِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهِ لَمْ يُكَلِّفْ أُمَّتَهُ زِيَادَةَ عَمَلٍ  
فِيهِ بَلْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِالتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ .

وَوَجْهٌ ثَالِثٌ ، وَهُوَ أَنَّ أَهْلَ الْآفَاقِ قَدْ حَرُمَ عَلَيْهِمُ الصَّوْمُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ الْحَاجَّ ضَيْفُ اللَّهِ تَعَالَى فَرَوَعَتْ الضِّيَافَةُ لِأَهْلِ الْأَقَالِيمِ كُلِّهَا كَرَامَةً لَهُمْ فَكَيْفَ بِالزَّمَنِ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ مَنْ شَرَعَ ذَلِكَ عَلَى يَدَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُخَاطَبُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَوْلَا أَنْتَ مَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا وَلَا حَجَّجْنَا بَيْتَ رَبِّنَا أَنْتَهَى فَكَانَ عَدَمُ تَكْلِيفِ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ غَالِبًا وَعَدَمُ الزِّيَادَةِ عَلَى الْمُعْتَادِ مِنَ الْعِبَادَاتِ ؛ لِأَنَّ أُمَّتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشَّهْرِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ فِي ضِيَافَةٍ وَجُودِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .  
وَلَمَّا أَنْ كَانَ تَحْرِيمُ الصَّوْمِ عَلَى أَهْلِ الْآفَاقِ كَرَامَةً

لِلْحُجَّاجِ الَّذِينَ هُمْ أَضْيَافُ اللَّهِ تَعَالَى وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ الْخَلِيلِ وَوَلَدِهِ الْكَرِيمِ إِسْمَاعِيلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُمُ وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ وَلَمَّا أَنْ كَانَ شَهْرُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلْوُجُودِ .

كَانَتْ الضِّيَافَةُ الشَّهْرَ كُلَّهُ لَكِنْ تَرَكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُمَّتَهُ رَحْمَةً بِهِمْ فِي عَدَمِ التَّكْلِيفِ لَهُمْ بِتَحْرِيمِ الصَّوْمِ عَلَيْهِمْ وَالْفِطْرِ ؛ لِأَنَّهُ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ خُصُوصًا لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا سَبَقَ وَشَأْنُ الرَّحْمَةِ التَّوَسُّعُ أَلَا تَرَى إِلَى عَدَمِ وَجُوبِ جَزَاءِ الصَّيْدِ بِالْمَدِينَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ فَلْيَفْهَمْ مَنْ يَفْهَمُ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّفُ

( فَصَلِّ ) فِي ذِكْرِ بَعْضِ مَوَاسِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَهَذَا بَعْضُ الْكَلَامِ عَلَى الْمَوَاسِمِ الَّتِي يَنْسُبُونَهَا إِلَى الشَّرْعِ وَكَانَتْ مِنْهُ وَبَقِيَ الْكَلَامُ عَلَى الْمَوَاسِمِ الَّتِي اعْتَادَهَا أَكْثَرُهُمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا مَوَاسِمٌ مُخْتَصَّةٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فَشَبَّهَ بَعْضُ أَهْلِ الْوَقْتِ بِهِمْ فِيهَا وَشَارَكُوهُمْ فِي تَعْظِيمِهَا يَا لَيْتَ ذَلِكَ لَوْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ خُصُوصًا وَلَكِنَّكَ تَرَى بَعْضَ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْعِلْمِ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي بَيْتِهِ وَيُعِينُهُمْ عَلَيْهِ وَيُعْجِبُهُ مِنْهُمْ وَيَدْخُلُ السُّرُورَ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ بِتَوْسِعَةِ التَّفَقُّهِ وَالْكَسُوفَةِ عَلَى زَعْمِهِ بَلْ زَادَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ يُهَادُونَ بَعْضَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي مَوَاسِمِهِمْ وَيُرْسِلُونَ إِلَيْهِمْ مَا يَحْتَاجُونَ لِمَوَاسِمِهِمْ فَيَسْتَعِينُونَ بِذَلِكَ عَلَى زِيَادَةِ كُفْرِهِمْ وَيُرْسِلُ بَعْضُهُمُ الْخِرْقَانَ وَبَعْضُهُمُ الْبَطِيخَ الْأَخْضَرَ وَبَعْضُهُمُ الْبَلْحَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ فِي وَقْتِهِمْ وَقَدْ يَجْمَعُ ذَلِكَ أَكْثَرُهُمْ ، وَهَذَا كُلُّهُ مُخَالَفٌ لِلشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَمِنْ الْعُنْيَةِ قَالَ أَشْهَبُ قِيلَ لِمَالِكٍ أَتَرَى بَأْسًا أَنْ يُهْدِيَ الرَّجُلُ لِحَارِهِ النَّصْرَانِيَّ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى هَدْيَةِ أَهْدَاهَا إِلَيْهِ قَالَ مَا يُعْجِبُنِي ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ } الْآيَةَ قَالَ ابْنُ رُشْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلُهُ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى هَدْيَةِ أَهْدَاهَا إِلَيْهِ إِذْ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ هَدْيَةٌ ؛ لِأَنَّ الْمُقْصُودَ مِنَ الْهَدَايَا التَّوَدُّدُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { تَهَادَوْا تَحَابُّوا وَتَذَهَبَ الشُّحْنَاءُ } ، فَإِنْ أَخْطَأَ وَقَبِلَ مِنْهُ هَدْيَتَهُ وَفَاتَتْ عِنْدَهُ فَالْحَسَنُ أَنْ يُكَافِئَهُ عَلَيْهَا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ عَلَيْهِ فَضْلٌ فِي مَعْرُوفٍ صَنَعَهُ مَعَهُ .

وَسُئِلَ مَالِكٌ رَحِمَهُ

اللَّهُ عَنْ مَوْكَلَةِ النَّصْرَانِيِّ فِي إِنَاءِ وَاحِدٍ قَالَ تَرَكُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا يُصَادِقُ نَصْرَانِيًّا قَالَ ابْنُ رُشْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ الْوَجْهَ فِي كَرَاهَةِ مُصَادَقَةِ النَّصْرَانِيِّ بَيْنَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ

مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ { الْآيَةَ .

فَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُعْضَ فِي اللَّهِ مَنْ يَكْفُرُ بِهِ وَيَجْعَلُ مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ وَيُكْذِبُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمُواكَلَّتُهُ فِي إِتَاءِ وَاحِدٍ تَقْتَضِي الْأُلْفَةَ بَيْنَهُمَا وَالْمُودَّةَ فَهِيَ تُكْرَهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِنْ عَلِمْتَ طَهَارَةَ يَدِهِ

وَمِنْ مُخْتَصِرِ الْوَاضِحَةِ سُئِلَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنِ الرُّكُوبِ فِي السُّفْنِ الَّتِي يَرْكَبُ فِيهَا النَّصَارَى لِأَعْيَادِهِمْ فَكَرِهَ ذَلِكَ مَخَافَةَ نَزُولِ السُّخْطِ عَلَيْهِمْ لِكُفْرِهِمْ الَّذِي اجْتَمَعُوا لَهُ .

قَالَ وَكَرِهَ ابْنُ الْقَاسِمِ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُهْدِيَ إِلَى النَّصْرَانِيَّ فِي عِيدِهِ مُكَافَأَةً لَهُ .

وَرَأَاهُ مِنْ تَعْظِيمِ عِيدِهِ وَعَوْنًا لَهُ عَلَى مَصْلَحَةِ كُفْرِهِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبِيعُوا لِلنَّصَارَى شَيْئًا مِنْ مَصْلَحَةِ عِيدِهِمْ لَا لَحْمًا وَلَا إِدَامًا وَلَا ثَوْبًا وَلَا يُعَارُونَ دَابَّةً وَلَا يُعَاثُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّعْظِيمِ لِشِرْكِهِمْ وَعَوْنِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَيَنْبَغِي لِلسَّلَاطِينِ أَنْ يَنْهَوْا الْمُسْلِمِينَ عَنِ ذَلِكَ ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ لَمْ أَعْلَمْ أَحَدًا اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ انْتَهَى .

وَيَنْتَعِ التَّشْبِيهُ بِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ لِمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ { مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ } وَمَعْنَى ذَلِكَ تَنْفِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ مُوَافَقَةِ الْكُفَّارِ فِي كُلِّ مَا اخْتَصَمُوا بِهِ .

وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَكْرَهُ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ حَتَّى قَالَتْ الْيَهُودُ إِنَّ مُحَمَّدًا يُرِيدُ أَنْ لَا يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا

إِلَّا خَالَفْنَا فِيهِ .

وَقَدْ جَمَعَ هَؤُلَاءِ بَيْنَ التَّشْبِيهِ بِهِمْ فِيمَا ذُكِرَ وَالْإِعَانَةَ لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ فَيَرْدَاؤُنَ بِهِ طُغْيَانًا إِذْ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا الْمُسْلِمِينَ يُؤَافِقُونَهُمْ أَوْ يُسَاعِدُونَهُمْ ، أَوْ هُمَا مَعًا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِعِبْطِهِمْ بِدِينِهِمْ وَيَطْنُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَكَثُرَ هَذَا بَيْنَهُمْ .

أَعْنِي الْمَهَادَاةَ حَتَّى إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْكِتَابِ لِيَهَادُونَ بَعْضَ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي مَوَاسِمِهِمْ لِبَعْضِ مَنْ لَهُ رِيَاسَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَقْبَلُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَيَشْكُرُونَهُمْ وَيُكَافِئُونَهُمْ .

وَكَثُرَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْطِبُونَ بِدِينِهِمْ وَيُسْرُونَ عِنْدَ قُبُولِ الْمُسْلِمِ ذَلِكَ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ صُورٍ وَزَخَارِفٍ فَيَطْنُونَ أَنَّ أَرْبَابَ الرِّيَاسَةِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالْمُشَارَةِ إِلَيْهِمْ فِي الدِّينِ وَتَعْدَى هَذَا السُّمُّ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَسَرَى فِيهِمْ فَعَظُمُوا مَوَاسِمَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَكَلَّفُوا فِيهَا التَّفَقَّهَ .

وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ فَقِيرًا لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّفَقُّهِ فَيَكْلِفُهُ أَهْلُهُ وَأَوْلَادُهُ ذَلِكَ حَتَّى يَتَدَايِنَ لِفِعْلِهِ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَفْعَلُ إِلَّا ضَحِيَّةً لِجَهْلِهِ وَجَهْلِ أَهْلِهِ بِفَضِيلَتِهَا ، أَوْ قِلَّةَ مَا بِيَدِهِ فَلَا يَتَكَلَّفُ هُوَ وَلَا هُمْ يُكَلِّفُونَهُ ذَلِكَ .

مَعَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالُوا يَتَدَايِنُ لِلْأَضْحِيَّةِ حَتَّى إِنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ ثَوْبَانِ بَاعَ أَحَدَهُمَا وَأَخَذَ بِهِ الْأَضْحِيَّةَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا إِلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ لِتَأْكِيدِ أَمْرِهَا فِي الشَّرْعِ .

فَأَوَّلُ مَا أَحْدَثُوهُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا طَعَامًا يَخْتَصُّ بِذَلِكَ الْيَوْمِ فَتَشَبَّهُوا بِهِمْ فِي فِعْلِ التَّيْرُوزِ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْهُ مِنْهُمْ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لَوْفُوعِ التَّشْوِيْشِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الزَّلَابِيَّةِ وَالْهَرِيْسَةِ وَغَيْرِهِمَا

كُلٌّ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ .  
فَمِنْهُمْ

مَنْ يَأْتِي بِالصَّانِعِ بَيْتٍ عِنْدَهُ فَيَقْلِبُهَا لَيْلًا حَتَّى لَا تَطْلُعَ الشَّمْسُ إِلَّا وَهِيَ مُتَيَسِّرَةٌ فَيُرْسِلُونَ مِنْهَا لِمَنْ يَخْتَارُونَ وَيَجْمَعُونَ الْأَقَارِبَ وَالْأَصْحَابَ وَغَيْرَ ذَلِكَ كَأَنَّهُ عِيدٌ بَيْنَهُمْ .  
ثُمَّ يَأْكُلُونَ فِيهِ الْبَطِيخَ الْأَخْضَرَ وَالْخَوْخَ وَالْبَلَحَ إِذَا وَجَدُوهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُلْزِمُهُ النِّسَاءُ لِأَزْوَاجِهِنَّ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ كَأَنَّهُ فَرَضٌ عَلَيْهِنَّ ؛ لِأَنَّهُنَّ اكْتَسَبْنَ ذَلِكَ مِنْ مُجَاوَرَةِ الْقَبْطِ وَمُخَالَطَتِهِنَّ بِهِمْ فَأَنْسَنَ بِعَوَائِدِهِمُ الرَّدِيئَةَ .  
ثُمَّ إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَفْعَالًا قَبِيحَةً مُسْتَهْجَنَةً شَرَعًا وَطَبَعًا .  
فَمِنْ ذَلِكَ مُضَارَبَتُهُمْ بِالْجُلُودِ وَغَيْرَهَا بَعْدَ أَكْلِهِمْ كُلِّ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ .  
فَبَعْضٌ مِنْ لَهُ رِيَّاسَةٌ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي بُيُوتِهِمْ ، أَوْ فِي بَسَاتِينِهِمْ .  
وَبَعْضٌ مِنْ لَا يَسْتَحْيِي ، أَوْ لَيْسَ لَهُ رِيَّاسَةٌ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي الطَّرِيقِ وَالْأَزْقَةِ وَالْأَسْوَاقِ وَعَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ بِمَا يَفْعَلُونَهُ مِنَ الْمُرُورِ فِيهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَلْ صَارَ ذَلِكَ أَمْرًا مَعْمُولًا بِهِ عِنْدَهُمْ حَتَّى إِنَّ الْوَالِيَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَحْكُمُ لِأَحَدٍ مِمَّنْ زَهَقَتْ نَفْسُهُ بِضَرْبِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، أَوْ سَلَبَ مَا مَعَهُ كَأَنَّهُ أُبِيحَ لَهُمْ فِيهِ نَهَبُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِبَاحَةُ دِمَائِهِمْ أَعْنِي مِنْ وَجَدُوهُ فِي غَيْرِ بَيْتِهِ .  
وَهَذَا الْيَوْمُ شَبِيهٌ بِمَا يَفْعَلُونَهُ فِي يَوْمِ كَسْرِ الْخَلِيجِ وَهُمَا خَصَلَتَانِ مِنْ خِصَالِ فِرْعَوْنَ بَقِيَّتَا فِي آلِهِ وَهُمْ الْقَبْطُ فَسَرَى ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ .

ثُمَّ جَرَّ ذَلِكَ إِلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَهُوَ أَنَّ بَعْضَ السَّفَلَةِ إِذَا كَانَ لَهُ عَدُوٌّ يَحْبِيُّ لَهُ ذَلِكَ لِأَحَدِ الْيَوْمِينَ الْمَذْكُورَيْنِ فَيَأْخُذُ جِلْدَةً ، أَوْ غَيْرَهَا فَيَجْعَلُ فِيهَا حَجْرًا ، أَوْ شَيْئًا مِمَّا يُمَكِّنُ الْقَتْلَ بِهِ فَيَضْرِبُ بِهِ عَدُوَّهُ عَلَى جِهَةِ اللَّعْبِ فَيَهْلِكُ فَيَذْهَبُ

دَمُهُ هَدْرًا لَا يُؤْخَذُ لَهُ بِنَارٍ لِأَجْلِ هَذِهِ الْخِصْلَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ وَلَيْتَ ذَلِكَ لَوْ كَانَ فِي عَامَّةِ النَّاسِ بَلْ سَرَى ذَلِكَ إِلَى بَعْضٍ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ فَتَرَى الْمَدَارِسَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تُؤْخَذُ فِيهَا الدُّرُوسُ أَلْبَتَّةَ .  
وَلَا يَتَكَلَّمُونَ فِي مَسْأَلَةٍ بَلْ تَجِدُ بَعْضَ الْمَدَارِسِ مُغْلَقَةً فَيَلْعَبُونَ فِيهَا حَتَّى لَوْ جَاءَهُمُ الْمُدْرَسُ ، أَوْ غَيْرُهُ وَتَبَوَّأَ عَلَيْهِ وَأَسَاءُوا الْأَدَبَ فِي حَقِّهِ وَرُبَّمَا أَخْرَقُوا الْحُرْمَةَ وَالْقُوَّةَ فِي الْفَسَقِيَّةِ أَوْ قَارَبُوا ذَلِكَ ، أَوْ صَالَحَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْإِحْرَاقِ بِهِ بَدْرَاهِمٍ يَأْخُذُونَهَا مِنْهُ تَقَرُّبٌ مِنَ الْغَضَبِ الَّذِي يَبْحَثُونَ فِيهِ فِي مَجَالِسِهِمْ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ إِجْمَاعًا فَيَأْكُلُونَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ تَلْفَاءِ أَنْفُسِهِمْ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا فَرْعَ ، وَهَذِهِ خِصَالٌ مُسْتَهْجَنَةٌ مِنَ الْعَوَامِّ فَكَيْفَ يَفْعَلُهَا مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ ، أَوْ مَنْ يَزْعُمُ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ مِمَّنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْمُشَارَ إِلَيْهِ حَصَلَتْ لَهُ غَيْرَةُ أَهْلِ الدِّينِ كَمَا يَزْعُمُ لَعَيَّرَ عَلَيْهِمْ مَا فَعَلُوهُ مِنْ ذَلِكَ وَرَجَرَهُمْ عَنْهُ إِذْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ مَا فَلَوْ قَالَ امْنَعُوا هَذَا أَنْ يَدْخُلَ الْمُدْرَسَةَ ، أَوْ أَخْرِجُوهُ مِنْهَا ، أَوْ لَا يَحْضُرُ فِي مَجْلِسِي ، أَوْ قَالَ لِأَحَدِهِمْ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ فِيكَ قَلَّةَ هَذَا الْأَدَبِ ، أَوْ أَنْتُمْ لَا تَتَأَدَّبُونَ بِأَدَابِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْمُرُوءَةِ مِنَ الْعَوَامِّ ، أَوْ مَنْ لَهُ حَسَبٌ وَنَسَبٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، أَوْ مِثْلَكُمْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ ، أَوْ لَا كَثَرَ اللَّهُ مِنْكُمْ ، أَوْ أَدَبَ بَعْضَ أَكَابِرِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ لِأَنْزَجَرَ مَنْ دُونَهُ عَنْ تِلْكَ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ وَأَقْبَحَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَحُسْنِ التَّنَائِي وَالتَّوَاضُعِ فِي الْعِشْرَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الرِّيَّاسَةِ

وَيَحْصُلُ بِذَلِكَ الشَّاءُ عَلَيْهِ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لَيْسَتْ الرِّيَاسَةُ بِمَا تُسَوَّلُ التُّفُوسُ ، وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّبَاعِ لِلشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ وَآدَابِهَا الْحَسَنَةِ وَأَخْلَاقِهَا الْجَمِيلَةِ .

وَلَوْ تَأَمَّلَ هَذَا مَنْ وَقَعَ فِيهِ لَحَقَّ لَهُ الْبُكَاءُ عَلَى مَا أَتَى بِهِ مِنْ قَبِيحِ فِعْلِهِ إِذْ أَنَّهُ خَرَجَ بِذَلِكَ عَنْ أَقْلٍ مَرَاتِبِ الْإِنكَارِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَهُوَ التَّغْيِيرُ بِالْقَلْبِ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ التَّغْيِيرَ بِالْيَدِ لِلْأَمْرَاءِ وَمَنْ شَابَهُمْ وَبِاللِّسَانِ لِلْعُلَمَاءِ وَمَنْ شَابَهُمْ وَبِالْقَلْبِ لِلْعَوَامِّ .

وَهَذَا قَدْ نَزَلَ عَنْ رُتْبَتِهِ الَّتِي هِيَ التَّغْيِيرُ بِاللِّسَانِ بَلْ تَرَكَ رُتْبَةَ الْعَوَامِّ الَّتِي هِيَ التَّغْيِيرُ بِالْقَلْبِ وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ } انْتَهَى .

فَانظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى بَلِيَّةِ هَذِهِ الْعَوَانِدِ الرَّدِيئَةِ وَقُوَّةِ سَرِيَانِ سُمِّهَا فِي الْقُلُوبِ كَيْفَ أَوْقَعَتْ هَذَا الْعَالَمَ فِي هَذِهِ الْوَرُطَةِ الْعَظِيمَةِ فَتَرَكَ التَّغْيِيرَ وَكَانَ سَهْلًا عَلَيْهِ بِأَذْنَى إِشَارَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ وَهَذِهِ خِصَالُ ذَمِيمَةٍ كَمَا تَرَى .

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { لَعِبَ الْمُؤْمِنُ فِي ثَلَاثٍ } ، وَهَذَا عَرِيٌّ عَنْهَا كُلِّهَا .

ثُمَّ إِنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنَ الْعَوَامِّ جَمَعُوا فِيْمَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ مَفَاسِدَ جُمْلَةً مُسْتَهْجَنَةً .

فَمِنْهَا إِخْرَاقُ حُرْمَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِإِدْخَالِ التَّشْوِيشِ عَلَيْهِمْ وَوُقُوعِ الضَّرَرِ بِهِمْ وَمَنْعِهِمْ مِنْ قَضَاءِ ضُرُورَاتِهِمْ وَحَوَائِجِهِمْ سِيِّمًا إِنْ كَانَ عِنْدَ أَحَدِهِمْ مَرِيضٌ يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ يُلَاطِفُهُ بِهِ ، أَوْ مَيِّتٌ يَحْتَاجُ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى تَجْهِيزِهِ ، أَوْ غَرِيبٌ لَا يَعْرِفُ عَادَتَهُمُ الذَّمِيمَةَ ، أَوْ نَاسٍ لِمَا يَفْعَلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَمَا شَعَرَ بِنَفْسِهِ حَتَّى حَصَلَ بَيْنَهُمْ فَأَوْقَعُوا

بِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ .

فَانظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ إِلَى الْخِصَالِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ لَا يَنْتَجُ مِنْهَا إِلَّا مِثْلُ هَذِهِ الْقَبَاحِ .

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى ذَلِكَ مَفْسَدَتَانِ عَظِيمَتَانِ يَأْبَاهُمَا اللَّهُ تَعَالَى وَالْمُسْلِمُونَ إِحْدَاهُمَا شَرْبُ الْخَمْرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِلنَّصَارَى لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ وَبَعْضُهُمْ يَفْعَلُهُ جَهَارًا وَتَعَدَّى ذَلِكَ لِبَعْضِ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَبَعْضُهُمْ لَا يَسْتَحْيُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ .

الثَّانِيَةُ : أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النِّسَاءِ يَلْعَبْنَ فِي يُبُوتِهِنَّ مُخْتَلِطِينَ نِسَاءً وَرِجَالًا وَشَبَابًا وَبَنَاتٍ أَبْكَارًا وَيَلُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَإِذَا ابْتَلَّ تَوْبُ أَحَدِهِمْ بَقِيَ بَدَنُهُ مُتَّصِفًا يَحْكِي النَّاطِرُ أَكْثَرَهُ فَيَقَعُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَا لَا يُحْصَى وَلَا يُعَدُّ مِنَ الْقَبَاحِ الرَّدِيئَةِ .

وَهَذَا وَمَا شَاكَلَهُ أَعْظَمُ فَسَادًا وَفِتْنَةً مِمَّا يَفْعَلُونَهُ فِي الْمَوْلِدِ مِمَّا ذُكِرَ ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الْمَوْلِدِ يَخْتَلِطُونَ لَكِنْ بِشَابِهِمْ مُسْتَتِرِينَ بِخِلَافِ فِعْلِهِمْ فِي يَوْمِ التَّيْرُوزِ فَإِنَّهُمْ فِيهِ مَنْتَهَكُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ نَزَعُوا فِيهِ ثِيَابَهُمْ وَخَلَعُوا فِيهِ جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْهُمْ فَتَجَدُّ بَعْضُهُمْ غُرِيَانًا عَدَا الْمُنْزَرِ وَآخَرَ عَلَيْهِ خَلْقَةً أَوْ قَمِيصٌ رَفِيعٌ لِلْمُحْتَشِمِ أَوْ الْمُحْتَشِمَةِ مِنْهُمْ فَإِذَا أَتَى عَلَيْهِ الْمَاءُ صَارَ كَأَنَّهُ غُرِيَانًا وَالْغَالِبُ مِنْ عَادَتِهِمُ الذَّمِيمَةَ أَنَّ الْجَارَةَ لَا تَسْتَحِي مِنَ الْجَارِ ، وَأَنَّ الشَّابَّ إِذَا تَرَبَّى بَيْنَهُمْ لَا يَسْتَحِينَ مِنْهُ وَإِنْ صَارَ رَجُلًا وَلَا يَسْتَحِينَ مِنْ ابْنِ الْعَمِّ وَلَا مِمَّنْ شَابَهُهُ مِنَ الْأَقَارِبِ وَكَذَلِكَ أَصْدِقَاءُ الزَّوْجِ وَأَصْدِقَاءُ الْأَبِ وَالْأَصْهَارُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ عَادَتِهِمُ الذَّمِيمَةَ هَذِهِ أَحْوَالُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْيَوْمِ وَزَادُوا فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ رَفْعِ بُرْقُعِ الْحَيَاءِ عَنْهُمْ مَا هُوَ شَنِيعٌ فِي ذِكْرِهِ

فَكَيْفَ بَرُّوْهُ فَكَيْفَ بَعْلِهِ ، وَهُوَ أَنَّ تِيَابَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا لَا تَمْنَعُ النَّظَرَ لِأَكْثَرِ الْبَدَنِ وَلَا تَمْنَعُ نُعُومَةَ الْبَدَنِ  
ثُمَّ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى جِهَةٍ أَنَّهُ يَلْعَبُ مَعَهُ وَيُيَاسِطُهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ فَيَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَيَتَلَذَّذُونَ بِذَلِكَ  
كَأَنَّهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كُلُّهُمْ نِسَاءٌ لِعَدَمِ حَيَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَصَارَعُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فَمَا أَفْحَحَ هَذَا وَأَشْنَعَهُ  
عِنْدَ مَنْ يَعْتَقِدُ الْإِسْلَامَ وَيَدِينُ بِهِ كَأَنَّ مَا كَانَ فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا فَلْيَبْكِ عَلَى غُرْبَةِ الْإِسْلَامِ وَغُرْبَةِ أَهْلِهِ وَذُثُورِ أَكْثَرِ  
مَعَالِمِهِ .

أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ عِنْدَ بَعْضٍ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ أَوْ الدِّينِ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْغَالِبِ إِلَّا كَمَا قَالَ الْإِمَامُ  
رَزِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءٌ وَضِعَتْ عَلَى غَيْرِ مُسَمِّيَاتٍ .

فَإِنَّا لِلَّهِ ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ( فَصْلٌ ) وَانظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى هَذَا الْفِعْلِ الْقَبِيحِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا  
الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ مِنْ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ إِنْسَانًا مِنْهُمْ فَيُخَالِفُونَ فِيهِ السُّنَّةَ أَعْنِي فِي تَغْيِيرِ ظَاهِرِ صُورَتِهِ وَخَلْقَتِهِ فَيَدْخُلُونَ  
بِذَلِكَ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { لَعَنَ اللَّهُ الْمُغْيِرَاتِ وَالْمُغْيِرِينَ لِخَلْقِ اللَّهِ } ، أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَغْيِرُونَ وَجْهَهُ بِجِرِّ ، أَوْ دَقِيقٍ ثُمَّ يَجْعَلُونَ لَهُ لَحِيَّةً مِنْ فَرُورَةٍ ، أَوْ غَيْرِهَا وَيُلْبِسُونَهُ ثَوْبًا أَحْمَرَ ،  
أَوْ أَصْفَرَ لِيُشْهَرُوهُ بِذَلِكَ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ { مَنْ لَبَسَ ثَوْبَ شَهْرَةَ كَسَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبٌ ذُلٌّ وَصَغَارٌ ثُمَّ أَشْعَلَهُ عَلَيْهِ نَارًا }  
انْتَهَى ثُمَّ يَجْعَلُونَ عَلَى رَأْسِهِ طُرْطُورًا طَوِيلًا ثُمَّ يُرْكَبُونَهُ عَلَى حِمَارٍ دَمِيمٍ فِي نَفْسِهِ وَيَجْعَلُونَ حَوْلَهُ الْجَرِيدَ  
الْأَخْضَرَ وَشَمَارِيخَ الْبَلَحِ

وَيَجْعَلُونَ فِي يَدِهِ شَيْئًا يُشْبِهُ الدَّفْئَرَ كَأَنَّهُ يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَى مَا يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْهُمْ مِنَ السُّحْتِ وَالْحَرَامِ  
فَيَطُوفُونَ بِهِ فِي أَرْقَةِ الْبَلَدِ وَشَوَارِعِهَا عَلَى الْأَبْوَابِ وَفِي الْأَسْوَاقِ عَلَى أَكْثَرِ الدَّكَائِنِ وَالْبُيُوتِ فَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ  
مَا يَأْخُذُونَ عَلَى شِبْهِ الظُّلْمِ وَالْغَضَبِ وَالتَّعَسُّفِ وَيَأْكُلُونَهُ وَمَنْ امْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ آذَوْهُ بِصَبِّ الْمَاءِ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا  
كَانَ فِيهِ الثَّرَابُ فَيَهَيِّئُونَهُ بِالضَّرْبِ وَالْكَلَامِ الْفَاحِشِ الْمَذْمُومِ شَرْعًا وَإِنْ رَضِيَهِ بَعْضُهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْبَسْطِ  
وَالْمِزَاحِ فَهُوَ مَذْمُومٌ شَرْعًا .

إِذْ شَرَطَ الْمِزَاحُ وَالْبَسْطُ أَنْ يَكُونَ حَقًّا وَمِزَاحُهُمْ قَلَمًا يَسْلَمُ مِنَ الْكُذْبِ وَذِكْرُ الْفَوَاحِشِ وَمَنْ تَحَصَّنَ مِنْ أَهْلِ  
الْبُيُوتِ فَاعْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ لَيْسَلَمَ مِنْ أَذَاهُمْ عَظُمَتْ بِلَيْتِهِمْ عَلَيْهِ فَرُبَّمَا كَسَرُوا بَعْضَ الْأَبْوَابِ الضَّعِيفَةِ وَرُبَّمَا صَبُّوا  
الْمِيَاءَ الْكَثِيرَةَ فِي الْبَابِ حَتَّى قَدْ يُمْنَعُ الدَّاخِلُ وَالْخَارِجُ وَرُبَّمَا أَخْرَجُوا صَاحِبَ الْبَيْتِ ، فَإِنْ لَمْ يَدْفَعْ لَهُمْ مَا  
يَخْتَارُونَهُ وَإِلَّا أَخْرَفُوا حُرْمَتَهُ وَزَادُوا فِي أَدْبَتِهِ وَيَحْتَجُونَ بِالتَّيْرُوزِ وَيَقُولُونَ لَيْسَ فِيهِ حَرَجٌ وَلَا أَحْكَامٌ تَقَعُ ، وَأَمَّا  
الْمُشَالِقُونَ فَأَكْثَرُ فَبِحَا وَشِنَاعَةٍ مِنْ ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ فَلَا حَاجَةَ لِذِكْرِهِ لِشَهْرَتِهِ وَمُعَايِنَةٍ مَا فِيهِ مِنَ الْمَثَالِبِ  
وَالْمَفَاسِدِ ، وَهَذَا كُلُّهُ فِيهِ مِنَ الرِّذَائِلِ وَالْأَفْعَالِ الْخَسِيسَةِ مَا لَا يَلِيقُ بِذَوِي الْعُقُولِ فَكَيْفَ بِأَهْلِ الشَّرِيعَةِ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ : وَكُلُّ هَذَا فِي ذِمَّةِ الْعَالِمِ إِذَا لَمْ يُنْبَهْ عَلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ وَبَيْنَهُ وَعَنْهَا وَيُقْبَحُهَا وَيُكْثِرُ التَّشْنِيعَ عَلَى  
فَاعِلِهَا وَلَا يَخْتَصُّ هَذَا بِالْعَالِمِ وَحْدَهُ بَلْ فِي أَرْبَابِ الْأُمُورِ أَشَدُّ كَالْمُحْتَسِبِ وَالْحَاكِمِ وَمَنْ لَهُ أَمْرٌ نَافِذٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ  
رَأَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَعَجَزَ

عَنْ التَّغْيِيرِ فَالْوَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْفَعَ ذَلِكَ لَوْلَاةِ الْأُمُورِ ، فَإِنْ غَيَّرُوا وَقَامُوا بِالْوَجِبِ عَلَيْهِمْ أُجِرُوا عَلَيْهِ وَإِنْ  
تَرَكَوا ذَلِكَ أَثَمُوا وَقَدْ بَرَّتْ ذِمَّةُ مَنْ بَلَغَهُمْ وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ تَغْيِيرَ غَيْرِ الْحَاكِمِ إِنَّمَا هُوَ بِالْكَلَامِ الْحَسَنِ

وَالرَّذَعِ الْجَمِيلِ ، أَوْ يُوصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ أَعْنِي وُلاةَ الْأُمُورِ .

فَانظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَوْسِمُ الَّذِي تَشَبَّهُوا فِيهِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْقَبَائِحِ الْمُسْتَهْجَنَةِ وَالرَّذَائِلِ الْقَطِيعَةِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ قَتْلِ النَّفُوسِ وَنَهْبِ الْأَمْوَالِ لَكَانَ فِيهِ مَا فِيهِ فَكَيْفَ وَالْأَمْرُ عَلَى مَا تَرَى ، وَمَا بَقِيَ أَكْثَرُ مِمَّا وَصِفَ فَلَوْ كَانَ مِنْ مَعَهُ عِلْمٌ يَتَكَلَّمُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَوْ يَحْفَظُ مِنْهُ لَأَسَدَّتْ هَذِهِ الْمَثَالِمُ .

وَقَدْ كَانَ سَيِّدِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى اشْتَهَى عَلَيْهِ بَعْضُ أَوْلَادِهِ شَهْوَةً وَكَانَتْ تِلْكَ الشَّهْوَةُ مِمَّا يُفْعَلُ فِي الْمَوَاسِمِ الَّتِي لِأَهْلِ الْكِتَابِ فَاَمْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا بِشَهْوَتِهِمْ امْتِثَالًا لِلْسُنَّةِ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ بِشَهْوَةِ عِيَالِهِ } وَذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا يَجُوزُ شَرْعًا أَعْنِي بِذَلِكَ أَنْ يُتَحَرَّرَ مِنْ عَوَائِدِ الْوَقْتِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُمَاكَسَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا لَا يَجُوزُ بِيَعُهُ شَرْعًا وَذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَوْسِمَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا مَا يُفْعَلُ فِيهِ فَلَمْ يُجِبْهُمْ فِي ذَلِكَ لِمَا أَرَادُوهُ فَعَزَمُوا عَلَيْهِ فَلَمْ يَفْعَلْ وَتَرَكَ إِجَابَتَهُمْ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مُوَافَقَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ .

وَالثَّانِي : رَبَّمَا يَرَاهُ أَحَدٌ فَيَقْتَدِي بِهِ فِي فِعْلِهِ فَحُسِمَ الْبَابُ بِالْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ .  
فَلَوْ كَانَ

مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ يَمْتَشُونَ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ لَمْ يَقَعْ شَيْءٌ مِنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ إِلَّا نَادِرًا إِذْ أَنَّ الْعَالِمَ هُوَ الْقُدْوَةُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ جَيِّدُهُمْ وَرَدِيئُهُمْ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ إِمَّا بِالطَّوَاعِيَةِ ، أَوْ بِالْجَبْرِ وَقَفْنَا اللَّهُ تَعَالَى لِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ بِمَنْهَ وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

فَصَلِّ فِي خَمِيْسِ الْعَدَسِ ، وَهُوَ الْمَوْسِمُ الثَّانِي مِنْ مَوَاسِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّتِي شَارَكَهُمْ فِيهَا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ أُتَّخِذَتْ فِيهِ أَشْيَاءٌ لَا تَنْبَغِي .

فَمِنْهَا خُرُوجُ النِّسَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِشِرَاءِ الْبُخُورِ وَالْخَوَاتِمِ وَغَيْرِهِمَا فَتَجِدُهُنَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي الْأَسْوَاقِ أَكْثَرَ مِنْ الرِّجَالِ فَمَنْ يَمُرُّ بِالسُّوقِ مِنَ الرِّجَالِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ فِيهِ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ لِزَحْمَةِ النِّسَاءِ وَقَدْ يَزَاحِمُهُنَّ مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مَا فِي خُرُوجِهِنَّ وَاجْتِمَاعِهِنَّ بِالرِّجَالِ مِنَ الْمَقَاسِدِ الَّتِي لَا دَوَاءَ لَهَا فِي الْغَالِبِ .  
وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مَنَعَ أَهْلَهُ مِنَ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَوَقَعَ التَّشْوِيْشُ بَيْنَهُمَا وَقَدْ يَتَوَلَّى الْأَمْرُ إِلَى الْفِرَاقِ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ إِلَى السُّلْطَانِ أَمْرٌ مَا أَحَدَثَهُ النِّسَاءُ مِنْ جُلُوسِهِنَّ عِنْدَ الصَّوَاغِينِ حَتَّى يَمْتَنِعَنَّ مِنْ ذَلِكَ انْتَهَى وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الصَّوَاغِينِ دُونَ غَيْرِهِمْ ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ الصَّوَاغِينِ مَعَ أَنَّهُنَّ كُنَّ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ عَلَى مَا يَنْبَغِي مِنَ السِّتْرِ

الشَّرْعِيِّ وَالِدِّينِ الْمَتِينِ وَكَذَلِكَ الصَّوَاغُونَ إِذْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي خَيْرِ الْقُرُونِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْخَيْرِيَّةِ مِنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَنَحْنُ الْيَوْمَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِضِدِّ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الصَّوَاغِينَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْبَيَّاعِينَ فِي كُلِّ مَا يَتَعَاطَوْنَهُ الْغَالِبُ أَنَّ النِّسَاءَ هُنَّ اللَّاتِي يَبَاشِرْنَ ذَلِكَ كُلَّهُ بَلْ تَجِدُ الْمَرْأَةَ فِي الْغَالِبِ تَشْتَرِي لِرُزُوجِهَا مَا يَحْتَاجُ

إِلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ لِنَفْسِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ لِأَرْبَابِ الْأُمُورِ حَتَّى يَمْنَعُوهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ ، وَمَا أَحَدَثُوهُ فِيهِ

اسْتِعْمَالُ الْبُخُورِ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ مِنَ الرِّجَالِ فَيَبْحَثُونَ بِهِ ثُمَّ يَتَخَطَّوْنَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَلَيْهِ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَيَنْفُضُونَ عَلَيْهِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَصْرِفُ عَنْهُمْ الْعَيْنَ وَالْكَسَلَ وَالْوَعَكَةَ مِنَ الْجَسَدِ وَيَتَكَلَّمُ مِنْ يَرْقِي الْبُخُورَ بِكَلَامٍ لَا يُعْرَفُ وَلَعَلَّهُ كُفْرٌ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِعْمَالُهُمْ فِيهِ الْعَدَسَ الْمُصْفَى وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فَالْبِدْعَةُ تَحْرِيهِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَعِينِ مُوَافَقَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي مَوَاسِمِهِمْ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْهُ مِنْهُمْ تَشَوُّشٌ هُوَ وَأَهْلُهُ كَمَا تَقَدَّمَ .  
وَمِنْ ذَلِكَ صَبْغُهُمْ فِيهِ الْبَيْضَ أَلْوَانًا لِأَوْلَادِهِمْ وَغَيْرِهِمْ وَتَعَدَّى ذَلِكَ فِي الْكثَرَةِ إِلَى أَنْ صَارَ الْمُقَامِرُونَ وَغَيْرُهُمْ يَلْعَبُونَ بِهِ جِهَارًا وَلَا أَحَدٌ فِيهَا أَعْلَمُ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ .

وَمِنْ ذَلِكَ شِرَاؤُهُمْ فِيهِ السَّلَاحَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَطْرُدُ الشَّيْطَانَ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الشَّيْطَانُ لَا يُطْرَدُ بِالْإِبْتِدَاعِ ، وَإِنَّمَا يُطْرَدُ بِالِاتِّبَاعِ فَكُلُّ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا أَشْبَهَهُ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْبِدْعِ الْمُسْتَهْجَنَةِ وَالْعَوَائِدِ الذَّمِيمَةِ وَفِيهِ تَعْظِيمٌ مَوَاسِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَعْظِيمٌ بِدِينِهِمُ الْبَاطِلِ ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا الْمُسْلِمِينَ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ أَغْنَى فِي تَعْظِيمِ مَوَاسِمِهِمْ يَقُولُ ظَنُّهُمْ بِأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ .  
فَانظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى هَذِهِ الظُّلْمَةِ مَا أَشَدَّ قُبْحَهَا .

وَقَدْ تَقَدَّمَ قُبْحُ مَا أَحَدَثُوهُ فِي النَّيْرُوزِ مَا أَغْنَى عَنْ ذِكْرِ مِثْلِهِ هُنَا إِذِ الْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ ، وَهُوَ تَعْظِيمُ مَوَاسِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَارْتِكَابُ الْبِدْعِ وَمُخَالَفَةُ السُّنَنِ .  
نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ بِمَنِّهِ

فَصَلِّ فِي ذِكْرِ الْيَوْمِ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ سَبَتْ الثُّورِ .

وَهُوَ لَعْمَرُ اللَّهِ بِضِدِّ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ أَلْيَقُ لَيْتَ ذَلِكَ لَوْ كَانَ فِي عَوَامِّ النَّاسِ لَكِنْ تَجَدَّدَ بَعْضُ الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَى طَرَفِ عِلْمٍ ، أَوْ صِلَاحٍ ، أَوْ هُمَا مَعًا يُسَمُّونَهُ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ وَذَلِكَ تَعْظِيمٌ مِنْهُمْ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَيُشَارِكُونَهُمْ فِي أَفْعَالِهِمُ الذَّمِيمَةِ الْمُتَقَدَّمَ ذِكْرُهَا وَفِي تَشَبُّهِهِمْ بِهِمْ فِي ذَلِكَ تَعْظِيمٌ لِمَوَاسِمِهِمْ وَتَعْظِيمٌ لَهُمْ بِدِينِهِمْ فَيَطْنُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ بِسَبَبِ تَعْظِيمِ الْمُسْلِمِينَ لِمَوَاسِمِهِمْ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ بِمُشَارَكَتِهِمْ لَهُمْ فِي أَفْعَالِهِمْ فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي يَوْمِ النَّيْرُوزِ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْقَبَائِحِ وَالرَّذَائِلِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَفِي ذَلِكَ غَنِيَةٌ عَنْ إِعَادَةِ مِثْلِهِ هُنَا

لَكِنْ نُشِيرُ إِلَى بَعْضِ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْخَاصِّ ، وَمَا يُظْهِرُونَ فِيهِ مِنَ الْعَوْرَاتِ الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرْعِ الشَّرِيفِ

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي سَحَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ فِي أَمْسِهِ وَرَقَ الشَّجَرِ عَلَى أَنْوَاعِهَا حَتَّى الرِّيحَانَ وَغَيْرَهُ فَيَبِيئُونَهُ فِي إِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ وَيَعْتَسِلُونَ بِهِ ثُمَّ يَأْخُذُونَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ غَسَلِهِمْ وَيُلْقُونَهُ فِي طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وَفِي مَفْرَقِ الطَّرِيقِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُمْ الْأَمْرَاضَ وَالْأَسْقَامَ وَالْكَسَلَ وَالْعَيْنَ وَالسَّحَرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ مَنْ يَمُرُّ بِهِ تُصِيبُهُ تِلْكَ الْعِلَلُ وَيَنْتَقِلُ مَا كَانَ عَلَيْهِ إِلَى مَنْ تَخَطَّاهُ مِنَ الْمَرَّانِ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ



في يَوْمِ التَّيْرُوزِ .

وهَذَا لَوْ كَانَ صَحِيحًا لَكَانَ قَصْدُهُمْ لِذَلِكَ مُحَرَّمًا إِذْ فِيهِ قَصْدُ أَذِيَةِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ { الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ } وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ حُفْرَةً أَوْقَعَهُ اللَّهُ فِيهَا } وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { مَنْ عَشَنَّا فَلَيْسَ مِنَّا } انْتَهَى فَأَوْلُ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَصْدُهُمُ الْمُحَرَّمُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ } انْتَهَى وَهَؤُلَاءِ قَدْ قَصَدُوا الضَّرَرَ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَمُرُّ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَدْ أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَهَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ فِي ذَلِكَ أَذَى وَمَعَ ذَلِكَ يَرْمُونَهُ فِي طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ لِيُصِيبَهُمْ وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ { سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّشْرَةِ فَقَالَ هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } انْتَهَى عَلَى أَنَّهُ نُقِلَ عَنْ مَالِكِ رَحِمَهُ اللَّهُ الرَّخِصَةَ فِي النَّشْرَةِ بِوَرَقِ الْأَشْجَارِ لَمَّا أَنْ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ لَا بَأْسَ بِهِ فَمَعْنَاهُ أَنْ يَجْعَلَ الْوَرَقَ فِي مَاءٍ يَغْمُرُهُ فَإِذَا أَصْبَحَ أَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ قَبْلَ يَدِهِ مِنْهُ وَمَشَاهَا عَلَى بَدَنِهِ هَذَا هُوَ النَّشْرَةُ الْمَعْرُوفَةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ ، وَأَمَّا الْغُسْلُ بِهِ فَلَا سِيَّمَا مَعَ مَا أَضَافُوا إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَهِيَ لَا تَجُوزُ فِي الشَّرْعِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْمُرُوءَاتِ وَمِنْ ذَلِكَ اكْتِحَالُهُمْ فِي صَبِيحَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالسَّدَابِ أَوْ الْكُحْلِ الْأَسْوَدِ ، أَوْ غَيْرِهِمَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ اكْتَحَلَ مِنْ ذَلِكَ يَكْتَسِبُ نُورًا زَائِدًا فِي بَصَرِهِ يَرَى بِهِ الْخِشَاشَ فِي طُولِ سَنَتِهِ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ وَذَلِكَ تَحَكُّمٌ مِنْهُمْ وَالشَّاهِدُ يَكْذِبُ ذَلِكَ حِسًّا وَمَعْنَى .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ شُرْبِ الدَّوَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ شُرْبَ الدَّوَاءِ فِيهِ لَيْسَ كَثِيرُهُ مِنَ الْأَيَّامِ وَفِي ذَلِكَ تَعْظِيمٌ لَهُ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَمِنْ

ذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَشْتَكِي بِحِكَّةٍ فَإِنَّهُمْ يَخْرُجُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى ظَاهِرِ الْبَلَدِ عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ وَيَفْعَلُونَ أَفْعَالًا قَبِيحَةً يَسْتَحْيِي مِنْ فِعْلِهَا أَهْلُ الْأَذْيَانِ الْبَاطِلَةِ وَيَعْيُونَ عَلَى فَاعِلِهَا وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى عَدَمِ الْحَيَاءِ وَالْغَيْبَةِ وَالْمُرُوءَةِ وَذَلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ يَتَعَرِّينَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ حَتَّى إِنَّهُنَّ لَا يُقْبِلْنَ عَلَيْهِنَّ مِنَ السُّتْرَةِ بِالشَّيْبِ شَيْئًا لَا مِزْرًا وَلَا سَرَاوِيلَ ثُمَّ يَدَهِنَّ بِالْكَبْرِيتِ وَيَقْعُدْنَ فِي الشَّمْسِ أَكْثَرَ يَوْمِهِنَّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ وَالنَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَيْهِنَّ بَرًّا وَبَحْرًا وَلَا يَسْتَحِينُ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ بَعْضُ الرِّجَالِ أَيْضًا بِمَكَانٍ آخَرَ ، فَإِنْ كَانَ آخِرُ النَّهَارِ دَخَلُوا فِي الْبَحْرِ وَاعْتَسَلُوا فِيهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَلْبَسُونَ ثِيَابَهُمْ وَيَسْتَتِرُونَ كَأَنَّ كَشْفَ الْعَوْرَةِ وَالنَّظَرَ إِلَيْهَا مِنْ كِلَيْهِمَا مُبَاحٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَمَنْ يَخْرُجُ إِلَى ظَاهِرِ الْبَلَدِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ دَخَلَ الْحَمَّامَ فِي الْغَالِبِ فَاغْتَسَلَ فِيهِ ، أَوْ اغْتَسَلَ فِي بَيْتِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْغُسْلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نُشْرَةٌ حَيْثُ كَانَ وَكُلُّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ مَوَاسِمِهِمُ الْمُسْتَهْجَنَةِ لَيْسَ فِيهَا أَقْبَحُ وَلَا أَشْنَعُ مِنْ هَذَا الْمَوْسِمِ الْمَذْكُورِ إِذْ كُلُّ مَا ذَكَرَ لَيْسَ فِيهِ كَشْفُ الْعَوْرَةِ وَلَا عَدَمُ الْحَيَاءِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا ، فَإِنْ كَانَ قَدْ جَرَى فِي يَوْمِ التَّيْرُوزِ مَا جَرَى لَكِنْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ شَيْءٌ مِنَ السُّتْرَةِ بِخِلَافِ كَشْفِهِمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ .

وَقَرِيبٌ مِمَّا يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا الْمَوْسِمِ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي الْمَنَاشِرِ أَعْنِي الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَغْسِلُونَ فِيهَا الثِّيَابَ فَيَجْتَمِعُ فِيهَا نِسَاءٌ وَرِجَالٌ وَأَجَانِبٌ .

والتَّسَاءُ عَلَى مَا يُعْلَمُ مِنْ قِصْرِ الثِّيَابِ فَكَأَنَّ الْمَرْأَةَ هُنَاكَ مَعَ زَوْجِهَا بَلْ هَذَا أَشَدُّ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ؛ لِأَنَّ هَذَا يُفَعَّلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ

، وَمَا تَقَدَّمَ يُفَعَّلُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ .

وَأَمَّا اجْتِمَاعُهُمْ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُسْمَوْنَهُ بِالطَّمِيَّةِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِ حَالِهَا وَتَفْصِيلِ أَمْرِهَا إِذْ أَنَّ الْأَقْلَامَ تُنَزَّهُ عَنْ كِتَابِ ذَلِكَ .

وَيُنَزَّهُ أَهْلُ الْعِلْمِ عَنْ ذِكْرِ مَا يُفَعَّلُ فِيهَا بَيْنَهُمْ .

ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ تَعَدَّدَتْ مَوَاضِعُهَا وَكَثُرَتْ .

وَقَالَ مَنْ تَحْصُلُ لَهُ حَمِيَّةُ الْإِسْلَامِ فَيَغَيِّرُ لِمَا تَدَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَلَوْ بِالْكَلامِ وَإِشَاعَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُبْحِ وَالرَّذَائِلِ لَعَلَّ أَنْ يَتَّبِعَهُ لِذَلِكَ بَعْضُ مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَغَيِّرُونَ ذَلِكَ أَوْ بَعْضُهُ إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ كَأَنَّ الْجَمِيعَ شَرِبُوا مِنْ مَنْهَلٍ وَاحِدٍ .

فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا فَلْيَبْكِ عَلَى ذَهَابِ أَكْثَرِ أَغْلامِ الْإِسْلَامِ لِكَثْرَةِ مَا يَحْدُثُ فِيهِ وَمَنْ يَسْكُتُ عَمَّا أُحْدِثَ فَإِنَّا لِلَّهِ ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

فَصَلِّ فِي مَوْلِدِ عَيْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ فِي مُوَاظِقَةِ النَّصَارَى فِي مَوْلِدِ عَيْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَنَّهُ أَخْفَى مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

لَكِنَّ اتِّخَاذَ ذَلِكَ عَادَةً بَدْعَةٌ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَعْمَلْنَ صَبِيحَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَصِيدَةً لَا بُدَّ مِنْ فِعْلِهَا لِكَثِيرِ مَنْهَنٍّ وَيَزْعُمْنَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَفْعَلْهَا ، أَوْ يَأْكُلْ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ الْبُرْدُ فِي سَنَتِهِ تِلْكَ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ فِيهَا دَفْءٌ وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الثِّيَابِ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ وَمَعَ كَوْنِ فِعْلِهَا بَدْعَةً فَالشَّاهِدُ يُكَذِّبُ مَا افْتَرَيْنَهُ مِنْ قَوْلِهِنَّ الْبَاطِلَ وَالزُّورَ فَكَأَنَّهُنَّ يَشْرَعْنَ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِنَّ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَالِ

فَصَلِّ فِي مَوْسِمِ الْغَطَّاسِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي مَوْسِمِ الْغَطَّاسِ .

وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي تَزْعُمُ النَّصَارَى أَنَّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ اغْتَسَلَتْ فِيهِ مِنَ النَّفَّاسِ .

فَاتَّخَذَ النَّصَارَى ذَلِكَ سُنَّةً لَهُمْ فِي كَوْنِهِمْ يَغْتَسِلُونَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَبِيرُهُمْ وَصَغِيرُهُمْ وَذَكَرَهُمْ وَأُنْثَاهُمْ حَتَّى الرِّضِيعِ فَتَشْبَهَ بِهِمْ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ فِي كَوْنِهِمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ مَوْسِمًا .

أَعْنِي أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ فِيهِ التَّقَفَةَ وَيُدْخِلُونَ فِيهِ السُّرُورَ عَلَى أَوْلَادِهِمْ بِأَشْيَاءَ يَفْعَلُونَهَا فِيهِ .

، وَهَذَا فِيهِ مِنَ التَّعْظِيمِ لِمَوَاسِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا سَبَقَ فِي غَيْرِهِ فَأَعْنَى عَنْ ذِكْرِهِ وَبَعْضُ مَنْ انْعَمَسَ فِي الْجَهْلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَغْطَسُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَمَا يَغْطَسُونَ .

وَمِنْ أَشْئَعِ مَا فِيهِ أَنَّهُمْ يَرْفُونَ فِيهِ بَعْضَ عِيدَانِ الْقَصَبِ وَعَلَيْهَا الشُّمُوعُ الْمُوقُودَةُ وَالْفَاكِهَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ .

وَبَعْضُهُمْ يُهْدِي ذَلِكَ لِلْقَابِلَةِ وَيَتَهَادُونَ فِيهِ بِأَطْنَانِ الْقَصَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

فَصَلُّ فِي عِيدِ الزِّيْتُونَةِ وَمِنْ ذَلِكَ بَعْضُ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدِ أَعْيَادِ الْقَيْطِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ عِيدَ الزِّيْتُونَةِ فَتَخْرُجُ النَّصَارَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ الْمَطْرِيَّةُ إِلَى بَيْتٍ هُنَاكَ تُسَمَّى بَيْتَ الْبَلْسَمِ وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ .

فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي الْعَالِبِ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْقَيْطِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ بِلَادٍ كَثِيرَةٍ يَأْتُونَ إِلَيْهَا لِلْغُسْلِ مِنْ مَائِهَا .

ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَيُهْرَعُونَ إِلَيْهِ كَمَا تَفْعَلُ النَّصَارَى وَيَغْتَسِلُونَ كَغُسْلِهِمْ وَيَنْكَشِفُونَ لِذَلِكَ فِي الْعَالِبِ .

وَهَذَا فِيهِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ كَشْفِ الْعُورَاتِ وَتَعْظِيمِ مَوَاسِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَيَزِيدُ هَذَا أَنَّهُمْ يُسَافِرُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَوَاضِعِ الْبَعِيدَةِ نِسَاءً وَرِجَالًا وَشَبَابًا وَيَجْتَمِعُونَ هُنَاكَ وَيَنْهَتُونَ فِيهِ كَعَبْرِهِ .

وَفِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْمَفَاسِدِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . لَكِنْ فِي هَذَا زِيَادَةٌ مَفْسَدَةٌ أُخْرَى وَهِيَ نَظَرُ الدَّمِيَّةِ إِلَى جَسَدِ الْمُسْلِمَةِ ، وَهُوَ حَرَامٌ وَقَدْ مَنَعَهُ الْعُلَمَاءُ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

هَذَا وَإِنْ كَانَ الْغُسْلُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ مَبَاحًا فَعَلُهُ لَكِنْ فِي غَيْرِ وَقْتِ اجْتِمَاعِهِمْ وَفِي التَّلْوِيحِ مَا يُعْنِي عَنْ التَّضْرِيحِ .

فَصَلُّ فِي بَعْضِ عَوَائِدِ اتَّخَذَهَا بَعْضُ النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ آلَ الْأَمْرِ فِيهَا إِلَى الْإِخْلَالِ بِبَعْضِ الْفَرَائِضِ فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّسَوَةِ مِنْ إِفْطَارِهِنَّ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ قَدْرَهُ لِغَيْرِ عَذْرِ شَرْعِيٍّ .

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ مُبْدِنَةً وَتَخَافُ أَنَّهَا إِنْ صَامَتْ اخْتَلَّ عَلَيْهَا حَالُ سَمْنِهَا فَتَفْطُرُ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ بَعْضُ الْبَنَاتِ الْأَبْكَارِ يُفْطِرُهُنَّ أَهْلُهُنَّ خِيفَةً عَلَى تَغْيِيرِ أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الْحُسْنِ وَالسَّمَنِ وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَتْ مِنْهُنَّ قَدْ عَقَدَ عَلَيْهَا زَوْجُهَا وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا بَعْدَ فَتْرَتِكَ الصَّوْمِ خِيفَةً عَلَى بَدَنِهَا أَنْ يَنْقُصَ وَكُلُّ هَذَا مُحَرَّمٌ اتِّفَاقًا بَيْنَ الْأُمَّةِ لَا يُخْتَلَفُ فِيهِ وَعَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءُ الْقَضَاءِ وَالْكَفَّارَةِ لِكُلِّ يَوْمٍ أَفْطَرَهُ وَالْإِثْمُ وَالْكَفَّارَةُ فِي ذَلِكَ عِنُقُ رَقَبَةٍ مُؤَمَّنَةٍ أَوْ صِيَامِ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ أَوْ إِطْعَامِ سِتِّينَ مَسْكِينًا .

وَهَذَا الْفِعْلُ الْقَبِيحُ مَشْهُورٌ بَيْنَهُنَّ لَا جَرَمَ أَنَّهُنَّ لَمَّا خَالَفْنَ الشَّرْعَ وَارْتَكَبْنَ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمُتَنَقِّحَ عَلَيْهَا لَمْ يَخْلُقَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ تَوْفِيقًا فِي الْعَالِبِ إِذِ التَّوْفِيقُ إِذَا تَوَفَّقَ إِذًا يَنْتَجِعُ عَنِ الْإِمْتِنَالِ وَذَلِكَ بَعِيدٌ مِنْهُنَّ فِي الْعَالِبِ فَتَجِدُ أَكْثَرَهُنَّ يَشْتَكِينَ وَيَبْكِينَ وَيَكَابِدْنَ الْهَمُومَ وَكَذَلِكَ أَرْوَاجُهُنَّ وَيَأْكُلْنَ بِالْفَرَضِ بَعْدَ الْمَشَاجِرَةِ أَوْ الْوُقُوفِ إِلَى الْحُكَّامِ أَوْ هُمَا مَعًا وَكَشَفَ السِّتْرَ عَنْهُنَّ بِدُخُولِ الْأَجَانِبِ بَيْنَهُمَا مِنْ جُنْدَارٍ وَوَكِيلٍ وَأَبٍ وَقَرِيبٍ وَجَارٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّ الْعَالِبَ مِنْهُنَّ يَقَعُ الطَّلَاقُ عَلَيْهَا إِلَى مُنْتَهَاهَا ثُمَّ يَتَعَلَّقُ خَاطِرُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ وَيَفْعَلُونَ مَا هُوَ مَشْهُورٌ الْيَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْإِسْتِحْلَالِ الْمُحَرَّمِ الْبَيْنِ التَّحْرِيمِ الَّذِي يَسْتَحْيِي الْمَرْءَ أَنْ يَحْكِيَهُ فَكَيْفَ يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُونَ ثُمَّ

يُرُدُّهَا إِلَى الْعِصْمَةِ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ ثُمَّ يَرْجِعْنَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا اعْتَدَنَّهُ مِنَ الْمُضَارَرَةِ وَالْمُضَارَبَةِ وَسُوءِ الْعِشْرَةِ وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّ ذَلِكَ لَا يُحِلُّهَا لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ وَهِيَ آثِمَانٍ مَا دَامَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ وَكَذَلِكَ مَنْ عَقَدَ لَهُمَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ انْتَهَى كَلَامُهُ بَعْضُهُ بِاللَّفْظِ وَبَعْضُهُ بِالْمَعْنَى جَزَاءً وَفَاقًا وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الْقُبْحِ

وَالرَّدَالَةَ إِلَّا شَيْءٌ وَاحِدٌ لَكَانَ يَنْبَغِي لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَهْرَبَ مِنْهُ إِذْ أَنَّ ذَلِكَ عُقُوبَةٌ مُعَجَّلَةٌ لَا مُؤَخَّرَةٌ وَهُوَ أَنَّ  
التَّجْرِبَةَ قَدْ مَضَتْ عَلَى أَنْ كُلُّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ سَلَطَ عَلَيْهِ الْفَقْرُ الْمُدْفِعُ فِي الْوَقْتِ وَفِي ذَلِكَ مَقْنَعٌ لِمَنْ خَافَ  
عُقُوبَةَ الدُّنْيَا وَأَمَّا خَوْفُ الْآخِرَةِ فَذَلِكَ لِلْمُفْلِحِينَ وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ مِنَ الْمَفَاسِدِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا وَأَنَّهَا لَا تَحِلُّ بِذَلِكَ  
إِجْمَاعًا وَذَلِكَ أَنَّ الْعَالِبَ عِنْدَهُنَّ أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي يَتَحَلَّلَنَّ بِهِ رَجُلٌ مَعْلُومٌ فَتَجِيءُ الْمَرْأَةُ تَتَحَلَّلُ بِهِ ثُمَّ تَأْتِي  
ابْنَتَهَا تَتَحَلَّلُ بِهِ ، وَكَذَلِكَ أُمُّهَا وَجَدَّتُهَا وَهِيَ لَا تَحِلُّ بِذَلِكَ إِجْمَاعًا وَلَا يَحِلُّ لِلْمُحَلَّلِ وَطءُ ابْنَةِ مَنْ تَحَلَّلَتْ بِهِ  
وَلَا أُمُّهَا وَلَا جَدَّتُهَا وَلَا خِلَافٌ فِي ذَلِكَ .

فَلَوْ كَانَ الْعَالِمُ يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَمَا أَشْبَهَهُ وَيُشْنَعُ عَلَى فَاعِلِ ذَلِكَ وَيُبْعَثُ فِعْلُهُ وَيُشْنَعُ ذِكْرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ  
وَيَأْمُرُ مَنْ حَضَرَهُ بِإِسَاعَتِهَا لِأَنَّهُ حَسَمَتْ هَذِهِ الْمَادَّةُ وَقَالَ فَاعِلُهَا

فَصَلُّ فِي صَوْمِ أَيَّامِ الْحَيْضِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا اتَّخَذَهُ بَعْضُهُنَّ مِنْ أَنَّهَا إِذَا حَاضَتْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ تَصُومُ وَلَا تُفْطِرُ  
ثُمَّ لَا تَقْضِي تِلْكَ الْأَيَّامَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا حَائِضًا وَيُعَلَّلُ بَعْضُهُنَّ ذَلِكَ بِأَنَّ الصَّوْمَ يَصْعَبُ عَلَيْهِنَّ فِي حَالِ كَوْنِ  
النَّاسِ مُفْطِرِينَ .

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ أَنَّهَا آثِمَةٌ وَأَنَّ قِضَاءَ مُدَّةِ الْحَيْضِ عَلَيْهَا وَاجِبَةٌ وَأَنَّ التَّوْبَةَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهَا .  
وَمِنْهُنَّ مَنْ تُفْطِرُ إِذَا جَاءَهَا الْحَيْضُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَتَصُومُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ وُجُودِ تَمَادِي الدَّمِ بِهَا وَيَزْعُمْنَ أَنَّ الدَّمِ  
الَّذِي لَا يُصَامُ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ الثَّلَاثَةُ الْأَيَّامِ الْأُولَى وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَالِصِّيَامُ فِيهِ وَاجِبٌ وَيُجْزِي .  
وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ وَأَنَّ الْقِضَاءَ عَلَيْهَا وَاجِبٌ وَالتَّوْبَةَ وَاجِبَةٌ .

وَمِنْهُنَّ مَنْ تَصُومُ مُدَّةَ الْحَيْضِ وَتَقْضِيهَا بَعْدَهُ وَفَاعِلَةٌ ذَلِكَ مِنْهُنَّ آثِمَةٌ فِي صَوْمِهَا فِي أَيَّامِ حَيْضِهَا مُصِيبَةٌ فِي  
الْقِضَاءِ بَعْدَهُ وَمِنْهُنَّ مَنْ تُفْطِرُ فِي أَيَّامِ الْحَيْضِ لَكِنَّهُنَّ يُجَوِّعْنَ أَنْفُسَهُنَّ فِيهِ فَتُفْطِرُ إِحْدَاهُنَّ عَلَى التَّمَرَةِ وَنَحْوِهَا  
وَيَزْعُمْنَ أَنَّ لَهُنَّ فِي ذَلِكَ الثَّوَابَ ، وَهَذَا بَدْعَةٌ وَهِيَ آثِمَةٌ فِي التَّدْبِيرِ بِذَلِكَ وَإِنَّمَا حَالُهَا فِي أَيَّامِ حَيْضِهَا فِي  
رَمَضَانَ كَحَالِهَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ وَالْعَجَبُ الْعَجِيبُ فِي صَوْمِ بَعْضِهِنَّ فِي أَيَّامِ حَيْضِهَا مُحَافَظَةٌ مِنْهَا عَلَى  
صَوْمِ رَمَضَانَ عَلَى زَعْمِهِنَّ ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْعَالِبِ مِنْهُنَّ يَتْرُكُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ بَغَيْرِ عُدْرٍ  
شَرْعِيٍّ إِلَّا أَنَّهُنَّ اتَّخَذْنَ ذَلِكَ عَادَةً حَتَّى لَوْ أَمَرَتْ إِحْدَاهُنَّ بِالصَّلَاةِ يَعْزُّ عَلَيْهَا ذَلِكَ وَتَقُولُ أَعْجُوزًا رَأَيْتِنِي فَكَأَنَّ  
الصَّلَاةَ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ عَلَى الشَّابَّةِ وَالْفَرْضُ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ طَعَنَ مِنْهُنَّ فِي السِّنِّ .  
فَانظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى

وَأَيَّكَ أَيَّ نَسَبَةٍ بَيْنَ الْإِحْتِيَاظِ فِي الصَّوْمِ حَتَّى صَامَتْ أَيَّامَ حَيْضِهَا وَبَيْنَ تَرْكِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الَّتِي هِيَ عِمَادُ  
الدِّينِ وَبِهَا قِوَامُهُ .

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { مَوْضِعُ الصَّلَاةِ مِنَ الدِّينِ مَوْضِعُ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ } وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي  
تَارِكِ الصَّلَاةِ مُتَعَمِّدًا وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ فَأَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

فَصَلُّ فِي الْوِطْءِ فِي مُدَّةِ الْحَيْضِ وَمِنْهُنَّ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الدَّمِ الَّذِي يَمْنَعُ الرَّجُلَ مِنَ الْوِطْءِ مَعَهُ إِنَّمَا هُوَ الثَّلَاثَةُ  
الْأَيَّامِ الْأُولَى وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَجَائِزٌ لَهُ أَنْ يَطَأَ فِيهِ .  
وَهَذَا أَفْتِرَاءٌ وَكَذِبٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ .

وَمِنْهُنَّ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الصُّفْرَةَ وَالْكُدْرَةَ وَالْغَبْرَةَ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ وَطَهُ الْمَرْأَةَ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، وَهَذَا مُخَالَفٌ لِلْإِجْمَاعِ أَيْضًا .

وَمِنْهُنَّ مَنْ يَزْعُمُ جَوَازَ وَطْءِ الْمَرْأَةِ إِذَا انْقَطَعَ عَنْهَا الدَّمُّ وَقَبْلَ أَنْ تَغْتَسِلَ ، وَهَذَا شَنِيعٌ مُخَالَفٌ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَجُوبِ الْغُسْلِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى { حَتَّى يَطْهَرْنَ } أَي يَنْقَطِعَ عَنْهُنَّ الدَّمُّ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ أَي اغْتَسَلْنَ بِالْمَاءِ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَبَاحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَطْأَهَا فَقَالَ تَعَالَى { فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ }

فَصَلُّ فِيمَا يَتَعَاطَاهُ بَعْضُ النَّسْوَةِ مِنْ أَسْبَابِ السَّمَنِ وَمِنْهُنَّ مَنْ يَفْعَلُ فِعْلًا مُسْتَهْجَنًا فَيَجْمَعُ بَيْنَ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ مِنْ الرَّدَائِلِ : أَحَدُهُمَا : مُخَالَفَةُ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

الثَّانِي : إِضَاعَةُ الْمَالِ .

الثَّلَاثُ : الصَّلَاةُ بِالتَّجَاسَةِ .

الرَّابِعُ : كَشْفُ الْعَوْرَةِ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ شَرْعِيَّةٍ وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَهُنَّ اتَّخَذَتْ عَادَةً مَذْمُومَةً وَهِيَ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَتَتْ إِلَى فِرَاشِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَعَشَّتْ وَمَلَأَتْ جَوْفَهَا فَتَأْخُذُ عِنْدَ دُخُولِهَا الْفِرَاشِ لُبَّابَ الْخُبْرِ فَتُفْتَتِهُ مَعَ جُمْلَةِ حَوَاجِحِ أُخْرٍ فَتَبْلُغُ ذَلِكَ بِالْمَاءِ إِذْ أَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى أَكْلِهِ لِكثْرَةِ شَبْعِهَا الْمُتَقَدِّمِ وَرُبَّمَا تُعِيدُ ذَلِكَ بَعْدَ جُزْءٍ مِنَ اللَّيْلِ يَمْضِي عَلَيْهَا وَقَدْ وَقَعَ النَّهْيُ عَنِ الزِّيَادَةِ فِي الْأَكْلِ عَلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَرْءُ وَهِيَ قَدْ زَادَتْ فِي عَشَائِهَا حَتَّى لَمْ تَتْرُكْ مَوْضِعًا لِسُلُوكِ الْمَاءِ فِي الْعَالِبِ مِمَّنْ يُرِيدُ السَّمْنَ مِنْهُنَّ ، وَهَذَا زِيَادَةٌ عَلَى زِيَادَةِ . وَذَلِكَ مِمَّا يُحْدِثُ الْأَمْرَاضَ وَالْعِلَالَ وَالْأَسْقَامَ صِدًّا مُرَادَهَا .

وَقَدْ نُقِلَ عَنِ بَعْضِ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ وَلَدَهُ أَكَلَ وَزَادَ عَلَى أَكْلِهِ الْمُعْتَادِ فَمَرِضَ لِأَجْلِ ذَلِكَ فَقَالَ وَالِدُهُ لَوْ مَاتَ مَا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى أَنَّهُ قَدْ تَسَبَّبَ فِي قَتْلِ نَفْسِهِ وَمَنْ لَهُ فَضْلٌ وَدِينٌ لَا يُصَلِّيَ عَلَى مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ فَهَذَانِ وَجْهَانِ أَعْنِي فِيمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مُخَالَفَةُ الشَّرْعِ وَإِضَاعَةُ الْمَالِ ، أَمَّا مُخَالَفَةُ الشَّرْعِ فَلَمَّا خَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي الَّذِي بُعِثَتْ فِيهِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَذْكَرَ الثَّلَاثِ أَمْ لَا ثُمَّ يَطْهَرُ فِيهِمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا

يُسْتَشْهَدُونَ وَيَنْدَرُونَ وَلَا يُوفُونَ وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَطْهَرُ فِيهِمُ السَّمْنَ } انْتَهَى .

وَأَمَّا إِضَاعَةُ الْمَالِ فَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الشَّبْعِ مِنْ بَابِ إِضَاعَةِ الْمَالِ إِذْ أَنَّهُ يُفْعَلُ لِغَيْرِ فَايِدَةٍ شَرْعِيَّةٍ .

وَقَدْ أَدَّى الْأَمْرُ بِسَبَبِ تَعَاطِيِ السَّمَنِ إِلَى أَمْرِ شَنِيعٍ فَطَبِيعَ وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَهُنَّ يَأْكُلْنَ مَرَارَةَ الْأَدْمِيِّ لِأَجْلِ أَنْ مَنْ اسْتَعْمَلَهَا مِنْهُنَّ يَكْثُرُ أَكْلُهَا وَقَالَ أَنْ تَشْبَعُ فَتَسْمَنُ بِسَبَبِ ذَلِكَ عَلَى رَعْمِهِنَّ .

وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْرِيمِهِ أَعَادَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَلَائِهِ بِمَنِّهِ .

الثَّلَاثُ : أَنَّ بَعْضَهُنَّ يَعْجَلْنَ بِكثْرَةِ السَّمَنِ وَالشَّحْمِ حَتَّى أَنْ يَدَّهَا لِقَصْرِ عَنْ الْوُصُولِ لِعَسَلِ مَا عَلَى الْمَحَلِّ مِنَ التَّجَاسَةِ لِأَجْلِ مَا تَسَبَّبَتْ فِيهِ مِنْ عِبَالَةِ الْبَدَنِ وَهِنَّ فِي ذَلِكَ عَلَى قِسْمَيْنِ : الْأَوَّلُ : أَنْ تَكُونَ فَقِيرَةً لَا تَقْدِرُ عَلَى شِرَاءِ مَنْ يُزِيلُ ذَلِكَ عَنْهَا فَتُصَلِّيَ بِالتَّجَاسَةِ إِذْ أَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى زَوَالِهَا كَمَا تَقَدَّمَ .

الْقِسْمُ الثَّانِي : وَهُوَ الْوَجْهُ الرَّابِعُ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى تَحْصِيلِ مَنْ يَبَاشِرُ ذَلِكَ مِنْهَا وَيُزِيلُهُ عَنْهَا فَتَقَعُ فِي كَشْفِ

الْعَوْرَةَ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ شَرْعِيَّةٍ .

وَقَدْ لَا تَكْفِيهَا الْجَارِيَةُ الْوَاحِدَةُ فَتَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةِ فَتَزِيدُ الْمُحْرَمَاتُ بِكَثْرَةِ مَنْ يَكْشِفُ عَوْرَتَهَا لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ شَرْعِيَّةٍ وَهِيَ لَوْ صَلَّتْ وَالنَّجَاسَةُ مَعَهَا لَكَانَ أَحْفَ مِنْ كَشْفِ عَوْرَتِهَا ؛ لِأَنَّ إِزَالََةَ النَّجَاسَةِ مُخْتَلَفٌ فِيهَا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَكَشَفُ الْعَوْرَةِ مُؤَكَّدٌ أَمْرُهُ ثُمَّ إِنَّهُنَّ يَرْتَكِبْنَ مَعَ ذَلِكَ أَمْرًا قَبِيحًا مُحْرَمًا أَقْبَحَ وَأَشْنَعَ مِمَّا تَقَدَّمَ وَذَلِكَ أَنََّّهُنَّ اعْتَدْنَ عَلَى مَا يَزْعُمْنَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَنْتَظِفُ مِنَ النَّجَاسَةِ حَتَّى تُدْخِلَ يَدَهَا فِي فَرْجِهَا فَتَنْظِفُ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ بِالْمَاءِ مَعَ يَدِهَا

وَذَلِكَ مُحْرَمٌ اِتِّفَاقًا ثُمَّ أَنَّهَا إِنْ عَجَزَتْ عَنْ ذَلِكَ لِقِصْرِ يَدِهَا كَمَا سَبَقَ وَتَوَلَّى غَيْرُهَا مِنْهَا ذَلِكَ احْتِجَاجٌ أَنْ يُدْخَلَ يَدُهَا فِي دَاخِلِ فَرْجِهَا لِيُغْسَلَ لَهَا مَا هُنَاكَ مِنَ الْأَذَى ، وَهَذَا قُبْحٌ عَلَى قُبْحٍ وَدَمٌّ عَلَى مَذْمُومَاتٍ وَهُوَ مِنْ فِعْلِ قَوْمٍ لُوطٍ وَهُوَ اشْتِغَالُ النِّسَاءِ بِالنِّسَاءِ وَلَوْ كَانَتْ صَانِمَةً أَفْطَرَتْ بِذَلِكَ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى سِوَاءَ كَانَتْ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهَا بِنَفْسِهَا أَوْ مِنْ فِعْلِ غَيْرِهَا بِهَا .

الْخَامِسُ : وَهُوَ أَشَدُّ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَذَلِكَ أَنَّهَا تَسَبَّبَتْ فِي إِسْقَاطِ فَرَضٍ مِنْ فُرُوضِ الصَّلَاةِ وَهُوَ الْقِيَامُ ؛ لِأَنَّ بَعْضَهُنَّ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ ، وَكَذَلِكَ الرُّكُوعُ فِي الْغَالِبِ فَتُصَلِّي جَالِسَةً وَهِيَ الَّتِي أَدْخَلَتْ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهَا .

أُنْظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى شِنَاعَةٍ مَا أَحَدَثْنَاهُ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ الْقَبِيحِ وَقَدْ تَقَدَّمَ مَنْ زَادَ فِي أَكْلِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَمَرَضَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ وَالِدُهُ لَوْ مَاتَ لَمْ أَصَلِّ عَلَيْهِ هَذَا حَالُهُ وَلَمْ يَتَعَمَّدْ ذَلِكَ وَلَمْ يَفْعَلْهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً كَمَا تَقَدَّمَ فَكَيْفَ الْحَالُ فِيمَنْ اتَّخَذَ ذَلِكَ عَادَةً مُسْتَمِرَّةً حَتَّى وَصَلَ بِهِ السَّمُّ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ سِيمًا وَهِيَ إِذَا وَقَعَ لَهَا مَرَضٌ أَوْ مَوْتُ فَالْغَالِبُ أَنَّهَا هِيَ الْمُتَسَبِّبَةُ فِي جَلْبِ ذَلِكَ لِنَفْسِهَا بِسَبَبِ زِيَادَةِ الْأَكْلِ الْكَثِيرِ عَلَى مَا مَضَى بَيَانُهُ وَلِأَنَّهُ قَدْ يَبْلُغُ بِهَا السَّمُّ إِلَى أَنْ يَصِلَ الشَّحْمُ إِلَى قَلْبِهَا فَيَطْعِمُهَا فَتَمُوتُ بِهِ وَقَدْ يَصْعَدُ إِلَى دِمَاعِهَا فَيَشْوِشُ عَلَى الدِّمَاغِ فَيَذْهَبَ عَقْلُهَا وَقَدْ يَصْعَدُ إِلَى عَيْنِهَا فَيُعْمِيهَا فَتَكُونُ هِيَ الْمُتَسَبِّبَةُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كَثِيرًا .

وَقَدْ وَرَدَ { مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } وَأَقْبَحُ مِنْ هَذَا تَعَاطِي مَا ذُكِرَ مِنْ بَعْضِ الرِّجَالِ إِذْ هُوَ

عَرَى مِنَ الْمَقَاصِدِ جُمْلَةً إِذْ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَفْعَلُ ذَلِكَ لِزَيْدٍ حُسْنِهَا فِي رَعْمِهَا وَيَغْتَبِطُ الرَّجُلُ بِهَا بِخِلَافِ الرَّجُلِ فَإِنَّ السَّمَّنَ فِيهِ يَقْبَحُ وَتَعَاطِي ذَلِكَ بِأَسْبَابِهِ مِنَ الرِّجَالِ أَقْبَحُ وَأَقْبَحُ .

وَقَدْ خَرَجَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ { إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِينُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ } فَلَا نَقِيمَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَنَا { أَنْتَهَى .

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ السَّمَّنُ فِيهِ خَلْقَةٌ لَمْ يَتَسَبَّبْ فِيهِ فَلَا حَرَجَ إِذَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَيْسَ مِنْ صُنْعِهِ فِي شَيْءٍ .

فَأُنْظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى مُوَافَقَةِ الشَّرْعِ مَا أَكْثَرَ بَرَكَتِهَا .

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَرْءَ إِذَا تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الْعِذَاءِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي لَا يَقُومُ الْبَدَنُ بِدُونِهِ إِلَّا وَيَتَضَرَّرُ وَيَضْعُفُ لِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ لَوْ زَادَ عَلَى الْعِذَاءِ الشَّرْعِيِّ زِيَادَةً بَيِّنَةً فَإِنَّ الْقُوَّةَ تَضْعُفُ بِحَسَبِ مَا زَادَ ، وَهَذَا مُشَاهِدٌ مُجَرَّبٌ فَالْخَيْرُ

لِلْقَلْبِ وَالْقَلْبِ وَلِلدِّينِ وَلِلْمُرُوءَةِ وَلِلْعَقْلِ وَلِلرُّوحِ وَلِلسَّرِّ إِنَّمَا يَحْسُنُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِاتِّبَاعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
وَمُؤَافَقَةُ سُنَّتِهِ وَضِدُّ ذَلِكَ كُلُّهُ أَعْنِي مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الشَّبَعِ وَالنَّقْصِ مِنْهُ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ يُحَدِّثُ ضِدًّا مَا ذَكَرَ مِنْ  
الْحُسْنِ وَهُوَ الْقُبْحُ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَكْثَرُ هَذَا الْمَعْنَى فِيمَا مَضَى .

ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْهُمْ فِي ارْتِكَابِهِنَّ لِلزِّيَادَةِ فِي الْأَكْلِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ لِمَا تَقَرَّرَ عِنْدَهُنَّ أَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي الْحُسْنِ  
وَتَعْتَبِطُ الرَّجَالُ بِهِنَّ ثُمَّ يَفْعَلْنَ مَا يَحَدِّثُ لَهُنَّ ضِدًّا ذَلِكَ وَهُوَ أَكْلُهُنَّ لِلطِّفْلِ وَالطَّيْنِ وَذَلِكَ يُحَدِّثُ عِلًّا فِي  
الْبَدَنِ مِنْهَا صَفْرَةُ الْوَجْهِ

وَتَفْتَحُ الْفُرَادِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي يَطُولُ تَتَبُّعُهَا وَهُوَ مِمَّا يَذْهَبُ لَوْنُ الْبَدَنِ وَعَافِيَتُهُ وَيُضْطَرُّ مَعَهَا إِلَى  
أَخِذِ الْأَدْوِيَةِ مَعَ أَنَّهُ اخْتَلَفَ فِي أَكْلِهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ .

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ مُحَرَّمٌ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ وَالْمَشْهُورُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ مَكْرُوهٌ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ مُبَاحٌ وَعَلَى الْقَوْلِ بِالِإِبَاحَةِ يُحَدِّثُ مَا ذَكَرَ .

وَمَنْ لَهُ عَقْلٌ لَا يَتَسَبَّبُ فِيمَا يَضُرُّ بَدَنَهُ أَوْ عَقْلُهُ نَقَلَ مَعْنَاهُ ابْنُ رُشْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْجَامِعِ مِنَ الْبَيَانِ  
وَالْتَحْصِيلِ أَعْنِي فِي تَحْلِيلِ ذَلِكَ وَكَرَاهِيَتِهِ .

وَنَقَلَ ابْنُ بَشِيرٍ وَغَيْرُهُ التَّحْرِيمَ وَهُوَ الْمَشْهُورُ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ إِفْطَارِهِمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ جَهَارًا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ مِثْلَ بَعْضِ التَّرَاسِينِ  
وَاغْيَرِهِمْ وَلَا أَحَدٌ يَنْكُرُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ }  
وَالنَّهْيُ عَنْ هَذَا آكَدٌ وَأَوْجَبٌ مِنَ النَّهْيِ عَنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ إِذْ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي الْغَالِبِ لَا يَتَحَقَّقُ تَرْكُهَا إِلَّا بِإِفْرَارٍ مِنْ  
فَاعِلِ ذَلِكَ بِخِلَافِ الْإِفْطَارِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ بَيْنَ لَيْسَ فِيهِ تَأْوِيلٌ إِذْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِأَحَدٍ  
أَمْرَيْنِ ، إِمَّا مَرَضٌ أَوْ سَفَرٌ وَهُؤُلَاءِ يُفْطِرُونَ وَلَيْسُوا بِمَرْضَى وَلَا مُسَافِرِينَ وَمِنْ ذَلِكَ مَا اعْتَادَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّهُ إِذَا  
كَانَ بِهِ أَلَمٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَهُ أَوْ يَتَوَضَّأَ تَرَكَوا الصَّلَاةَ لِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً وَلَا قَائِلَ بِهِ مِنْ  
الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ الْمَانِعَ إِذَا كَانَ فِي غُضُونٍ أَوْ أَكْثَرَ وَكَانَ الْوَأَجِبُ الْغُسْلُ أَوْ الْوُضُوءَ مَسَحَ مَا تَعَدَّرَ غَسَلَهُ  
بِالْمَاءِ ، وَهَذَا عَلَى مَذْهَبِ مَا لِكِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا يُعْرَفُ فِي مَذْهَبِهِ جَمْعُ بَيْنِ الْمَاءِ وَالتَّيْمُمِ وَأَمَّا عَلَى  
مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَيُجْمَعُ بَيْنَ غَسَلِ مَا صَحَّ وَالتَّيْمُمِ عَلَى مَا تَعَدَّرَ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَبْقَ إِلَّا عُضْوٌ  
وَاحِدٌ أَوْ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ أَلْتَبَتَ فَيَتَيَمَّمُ وَهُمْ يَتَرَكُونَ التَّيْمُمَ حَتَّى كَانَهُ لَا يُعْرَفُ لِقَلَّةِ إِشَاعَةِ ذَلِكَ  
بَيْنَ النَّاسِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا ؛ لِأَنَّ الْمُعْلَمَ فِي الْغَالِبِ مَحْجُوبٌ عَنْ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْبُؤَابِينَ وَالتَّقْبَاءِ عَلَى مَا سَيَأْتِي  
بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَمِمَّا أَحَدَثُوهُ مِنَ الْبِدَعِ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّهُمْ يَتَرَكُونَ تَنْظِيفَ الْبَيْتِ  
وَكَنْسَهُ عَقِيبَ سَفَرٍ مِنْ سَافِرٍ مِنْ أَهْلِهِ وَيَتَشَاءُمُونَ بِفِعْلِ ذَلِكَ

بَعْدَ خُرُوجِهِ وَيَقُولُونَ إِنَّ ذَلِكَ إِنْ فَعِلَ لَا يَرْجِعُ الْمُسَافِرُ .

وَكَذَلِكَ مَا يَفْعَلُونَهُ حِينَ خُرُوجِهِمْ مَعَهُ إِلَى تَوَدُّعِهِ فَيُؤَدُّونَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ ، وَهَذَا  
كُلُّهُ مُخَالَفٌ لِلسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ وَمِنْ الْعَوَائِدِ الَّتِي أَحَدَّتْ بَعْدَهَا .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ قَدْ تَوَجَّدُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَذْكُرُ النَّاسُ أَنَّهَا إِنْ فَعِلَتْ أَوْ لَمْ تُفْعَلْ يَجْرِي فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ مَا يُكْرَهُ

وَقُوعُهُ .

فَالْجَوَابُ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ لِأَجْلِ شَوْمِ مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ وَالتَّدْبِيرِ بِالْبِدْعَةِ فَعُومِلُوا بِالصَّرِّ الَّذِي هُمْ يَتَوَقَّعُونَهُ وَقَدْ شَاءَ الْحَكِيمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ الْمَكْرُوهَاتِ لَا تَنْدَفِعُ إِلَّا بِالْإِمْتِنَانِ فَكَانَ وَقُوعُ ذَلِكَ لَهُمْ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِمَا أُمِرُوا بِهِ جَزَاءً وَفَاقًا .

وَمِمَّا أَحَدَثَهُ بَعْضُ النِّسَاءِ أَنَّ الْمَرْأَةَ مِنْهُنَّ إِذَا كَانَتْ حَائِضًا لَا تَكْتَالُ الْقَمْحَ وَلَا غَيْرَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَلَا تَحْضُرُ مَوْضِعَهُ لِأَجْلِ حَيْضِهَا ، وَهَذَا مِنْ فِعْلِ الْيَهُودِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ مَنْ شَرِبَ الدَّوَاءَ لَا يَغْسِلُ الْأَنْيَةَ الَّتِي كَانَ فِيهَا الدَّوَاءُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ ، وَهَذَا كُلُّهُ مُخَالَفٌ لِلسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ وَبَدَعَ أَخْتَرَعَتْهَا مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِنَّ نَعُودٌ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَالِ

فَصَلَّ فِي خُرُوجِ الْعَالَمِ إِلَى قِضَاءِ حَاجَتِهِ فِي السُّوقِ وَاسْتِنَابَتِهِ لِغَيْرِهِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ تَرَجَّعَ لِذِكْرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَالَمِ فِي تَصَرُّفِهِ ، فَيَنْبَغِي لَهُ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا أُضْطُرَّ إِلَى قِضَاءِ حَاجَتِهِ فِي السُّوقِ أَنْ يُبَاشِرَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَتَى بِالسُّنَّةِ عَلَى وَجْهِهَا وَبَرَى مِنَ الْكِبَرِ فِي حَمْلِ سِلْعَتِهِ بِيَدِهِ إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ عَاقَهُ عَنْ ذَلِكَ عَاتِقٌ شَرْعِيٌّ فَلَهُ أَنْ يَسْتَنْبِغَ فِي ذَلِكَ مَنْ لَهُ الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ فِيمَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ ذَلِكَ .

وَلِيَحْذَرَ مِنْ هَذِهِ الْعَوَائِدِ الرَّدِيئَةِ الَّتِي يَفْعَلُهَا بَعْضُ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ وَغَيْرِهِمْ فَتَجِدُ بَعْضَهُمْ يَبْحَثُ فِي مَسَائِلِ الْبُيُوعِ وَالْأَحْكَامِ فِي الرَّبَوِيَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فِي الدُّرُوسِ وَيَسْتَدِيلُ وَيُجِيزُ وَيَمْنَعُ وَيَكْرَهُ فَإِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ أَرْسَلَ إِلَى السُّوقِ مَنْ يَقْضِي لَهُ الْحَاجَةَ صَبِيًّا صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا أَوْ عَبْدًا أَوْ جَارِيَةً أَوْ عَجُوزًا أَوْ غَيْرَهُمْ مِمَّنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ .

وَفِي السُّوقِ الْيَوْمَ مَا قَدْ عُهْدَ وَعَلِمَ مِنْ جَهْلِ أَكْثَرِ الْبِيَاعِينَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِيمَا يُحَاوِلُونَهُ فِي سِلْعَتِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ ذَلِكَ وَفِي الْأَسْوَاقِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَجُوزُ شِرَاؤها جُمْلَةً .

فَمِنْ ذَلِكَ بَيْعُ الْكَشَاكِ وَالْمَحَبَّبَةِ ؛ لِأَنَّ فِيهِمَا وَجُوهًا مِنَ الْمَوَانِعِ الشَّرْعِيَّةِ .

فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّحْمَ الَّذِي فِيهِمَا إِنْ كَانَ لَحْمَ الْبَقْرِ الْيَوْمَ فَهُوَ مُمَكَّسٌ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شِرَائِهِ إِلَّا مِنْ الْمَكَّاسِ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ لِإِعَانَةِ الْمَكَّاسِ بِالشَّرَاءِ مِنْهُ عَلَى مَا لَا يَجُوزُ شَرْعًا إِذْ أَنَّهُ لَوْ امْتَنَعَ النَّاسُ مِنَ الشَّرَاءِ مِنْهُ ضَمِنَ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ الْعَالَمُ يَتَحَرَّى ذَلِكَ لَأَقْتَدَى بِهِ غَيْرُهُ وَفَسَدَ عَلَى الْمَكَّاسِ مُرَادُهُ .

هَذَا إِنْ كَانَ شِرَاؤُهُ فِي غَيْرِ النَّيْرُوزِ .

وَأَمَّا فِي النَّيْرُوزِ فَيَتَأَكَّدُ الْمَنْعُ لِشِرَاءِ لَحْمِ الْبَقْرِ مُطْلَقًا لِزِيَادَةِ تَعْظِيمِ شَعِيرَةِ مِنْ شَعَائِرِ الْكُفَّارِ عَلَى زَعْمِهِمْ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ ذَلِكَ فِي فِعْلِهِمْ فِي النَّيْرُوزِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ هَذَا وَجْهًا .

الْوَجْهُ الثَّانِي مَا يَدْخُلُ عَلَى الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي مِنَ الْجَهَالَةِ وَالْمُغَابَنَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْتَرِيَّ يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ اللَّحْمَ وَاللَّذْنَ أَكْثَرَ مِنَ الْقَمْحِ وَالْبَائِعُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَ الْقَمْحَ أَكْثَرَ مِنَ اللَّحْمِ وَاللَّذْنِ .

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ : أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ عَلَى وَزْنِ مَعْلُومٍ وَالْجَهَالَةُ فِي ذَلِكَ حَاصِلَةٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي كَمْ وَزْنُ اللَّحْمِ وَاللَّذْنِ وَلَا كَمْ وَزْنُ الْقَمْحِ لِإِمْكَانِ إِعْطَاءِ أَحَدِهِمَا أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِ بِخِلَافِ الْهَرَبَسَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ فِيهَا إِذْ أَنَّ اللَّحْمَ



وَالْفَمَحَ صَارَا مَعًا كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْطَى أَحَدُهُمَا أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِ وَلَا أَقَلَّ فَذَلِكَ جَائِزٌ وَلَكِنَّهَا تُمْنَعُ مِنْ جِهَةِ اللَّحْمِ ؛ لِأَنَّهُ مُمَكِّسٌ كَمَا تَقَدَّمَ فَإِنْ سَلِمَ اللَّحْمُ مِنْ

الْمَكْسِ فَهِيَ جَائِزَةٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ التَّيْرُوزِ فَيُمنَعُ ؛ لِأَنَّهُ مُخْتَصُّ بِالنَّصَارَى فَيَحْذَرُ الْعَالِمُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِهِمْ إِذْ أَنَّهُ قُدْوَةٌ لِغَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنَّمَا ذُكِرَ الْعَالِمُ ذُونَ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ هَذَا لَا يَخْتَصُّ بِهِ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّهُ قُدْوَةٌ لِغَيْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَقَدْ صَارَ هَذَا الْأَمْرُ الْيَوْمَ بَيْنَ النَّاسِ كَأَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَتَرَاهُمْ يَوْمَ التَّيْرُوزِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنْهُمْ بِالزُّبْدِيَّةِ فِي يَدِهِ لِشِرَاءِ الْهَرِيَسَةِ وَمِنْ فَاتِنَتُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَكَأَنَّهُ فَاتَهُ خَيْرٌ عَظِيمٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ فَأَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَنَا اشْتَرَيْتُ الْكَشَاكَاكَ وَالْمُحَبَّبَةَ عَلَى الْوَصْفِ الْمُتَقَدَّمَ فَإِذَا حَصَلَ فِي الْوِعَاءِ وَعَايِنْتَهُ أَخَذْتَهُ مِنْهُ جِزَافًا إِذْ أَنَّهُ قَدْ تَعَيَّنَ .

فَالْجَوَابُ أَنَّ مِنْ شَرْطِ الْجِزَافِ أَنْ يَكُونَ مَجْهُولَ الْوِزْنِ وَالْكِيلِ عِنْدَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِيِّ وَلَمَّا أَنْ دَخَلَهُ الْوِزْنَ قَبْلَ شِرَائِهِ مِنْهُ جِزَافًا انْتَفَتِ الْجَهَالَةُ لِعِلْمِهِمَا بِحَمَلْتِهِ وَرَئَا وَبَقِيَتْ الْجَهَالَةُ وَالْمُعَابَنَةُ فِي كُلِّ جِزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ فَيُمنَعُ شِرَاؤُهُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ لَوْ قَدَرْنَا أَنَّهُ اشْتَرَاهُ مِنْهُ جِزَافًا ابْتِدَاءً فَيُمنَعُ ؛ لِأَنَّ الْبَائِعَ عَالِمًا بِذَلِكَ فِي الْعَالِبِ وَإِنْ لَمْ يَرَهُ ؛ لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي بِيَدِهِ يَعْلَمُ بِهَا مِقْدَارَهُ وَرَئَا فَعَلَى هَذَا لَا يَجُوزُ شِرَاؤُهُ جِزَافًا ابْتِدَاءً اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُعْرِفَ لَهُ بِغَيْرِهَا مِمَّا لَمْ يَعْلَمْ قَدْرَهُ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ

وَمِنْ ذَلِكَ بَيْعَ لَحْمِ السَّمِيطِ نَبِيًّا وَمَطْبُوحًا وَالشَّوَاءَ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ { قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا } قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ { أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا } لَتَسَبَّحَ النَّاسُ مَا فِي الْعُرُوقِ مِنَ الدَّمِ وَلَقَدْ كُنَّا نَطْبُخُ الْبُرْمَةَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ الصُّفْرَةَ لَتَعْلُوهَا مِنَ الدَّمِ انْتَهَى .

تَعْنِي بِتِلْكَ الصُّفْرَةَ فَضَلَّةَ مَا فِي الْعُرُوقِ مِنَ الدَّمِ وَهُوَ غَيْرُ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ وَهُمْ الْيَوْمَ يَذْبَحُونَ فَيَخْرُجُ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ فَتَخْبِطُ الذَّبِيحَةَ فِيهِ وَيَمْتَلِئُ رَأْسُهَا وَبَعْضُ جِلْدِهَا .

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ لَهُمْ ذَبَائِحُ جُمْلَةً أَلْقَوْا ذَلِكَ فِي دَسْتٍ وَاحِدٍ فِيهِ مَاءٌ يَغْلِي فَيَجْلُ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ فِيهِ فَيَصِيرُ الْمَاءُ كُلُّهُ كَأَنَّهُ دَمٌ عَبِيطٌ وَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِكَيْ يَنْتَفِ لَهُمُ الصُّوفُ وَهُوَ لَا يَزُولُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمْتَلِئَ الْأَعْضَاءُ الْبَاطِنَةُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ فَتَسْرِي النَّجَاسَةُ إِلَى بَاطِنِ الذَّبِيحَةِ مَعَ أَنَّ حَلْقَهَا مَفْتُوحٌ وَذُبْرَهَا فَتَدْخُلُ النَّجَاسَةُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَتَخْرُجُ مِنَ الْآخَرِ فَإِذَا أَخَذُوا الصُّوفَ وَعَلَقُوا الذَّبِيحَةَ فِي مَوْضِعٍ وَقَدْ تَمَكَّنَتِ النَّجَاسَةُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهَا مِنْهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فَيُطَهَّرُونَهَا عَلَى زَعْمِهِمْ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ فَتَمَسُّ النَّجَاسَةُ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ فَتَجْمَدُ فِي بَاطِنِ الذَّبِيحَةِ وَالْمَسَامُ فَيَبْقَى مُتَجَسِّسًا فِي الشَّاهِدِ الصَّرُورِيِّ الَّذِي لَا مَحِيصَ عَنْهُ ثُمَّ يُخْرِجُونَ ذَلِكَ إِلَى سُوقِ الْمُسْلِمِينَ فَيَبِيعُونَهُ فِيهِ بِنَاءٍ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهُ قَدْ طَهَّرَ مِنْ تِلْكَ النَّجَاسَاتِ وَلَوْ كَانَ الْمَاءُ الَّذِي يَغْسِلُونَهُ بِهِ مَاءً قَرَا حَا لَكَانَ فِيهِ شَبَهُ مَا فِي

التَّطْهِيرِ فَكَيْفَ وَالْمَاءُ الَّذِي يَغْسِلُونَهُ بِهِ فِي الْعَالِبِ تَرَاهُ مُتَغَيِّرًا مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الدِّمَاءِ وَعَیْرَهَا .  
وَالشَّوَاءُ مِثْلُهُ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ سَمِيطٌ فَكَيْفَ يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْتَرِيَ ذَلِكَ أَوْ يَبِيعَهُ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .  
عَلَى أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ عَوَامُ النَّاسِ لَكَانَ مَذْمُومًا وَلَكِنْ قَدْ عَمَّتِ الْبُلُوى حَتَّى إِنَّ بَعْضَ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ  
وَالْخَيْرِ يَجْلِسُ فِي بَيْتِهِ وَيُرْسِلُ مَنْ يَشْتَرِي لَهُ ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْفَظِيعِ بَلْ يُبَاشِرُ بَعْضُهُمْ شِرَاءَ ذَلِكَ  
بِنَفْسِهِ وَلَوْ وَقَعَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ مَعَ مَنْ لَهُ أَمْرٌ لَكَانَ يُعَيَّرُ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ إِذْ أَنَّهُمْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ كُفْلَةٌ فِي أَنْ يَغْسِلُوا  
الْمُنْحَرَّ وَعَیْرَهُ مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ أَوْ غَیْرِهِ مِنَ النَّجَاسَاتِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُدْلُونَهُ فِي الدَّسْتِ ، وَهَذَا  
لَيْسَ فِيهِ كَبِيرٌ مَشَقَّةٌ مَعَ أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْمَشَقَّةُ مُوجُودَةً لَوَجِبَ فِعْلُهَا لِكَيْ يَسْلَمَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمُحْرَمِ فَكَيْفَ  
وَلَا مَشَقَّةَ وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَى التَّسَاهُلِ فِي ارْتِكَابِ مَا يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمُكَلَّفِ تَرْكُهُ إِلَّا أَنَّهُا عَادَةٌ أُتُّخِذَتْ وَوَقَعَ  
التَّسَامُحُ فِيهَا لِغَفْلَةِ بَعْضِ مَنْ غَفَلَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَعَدِمِ السُّؤَالِ لَهُمْ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ  
بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ يَطْهَرُ بِالْغُسْلِ .

وَهَذَا بَعِيدٌ لِقَوْلِهِ هُوَ وَعَیْرُهُ مِنْ أَنَّ الْبَيْضَ الْكَثِيرَ إِذَا صَلَّقَ وَوُجِدَتْ فِيهِ بَيْضَةٌ فِيهَا فَرْخٌ فَإِنَّ الْبَيْضَ كُلَّهُ يَتَنَجَّسُ  
وَلَا يُؤْكَلُ إِذْ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ تَطْهِيرَهُ مَعَ أَنَّ قِشْرَةَ الْبَيْضِ لَيْسَ لَهَا مَسَامٌ حَتَّى يَدْخُلَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ فِيهَا شَيْءٌ أَوْ  
يَخْرُجَ فَمَا بَالُكَ بِاللَّحْمِ الَّذِي بَاشَرَ الدَّمُ الْعَبِيطَ .  
وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صِفَةِ غَسْلِهِمْ لَهُ أَنَّهُمْ يَغْسِلُونَهُ بِالْمَاءِ الْمُتَغَيِّرِ وَفِيهِ مَفْسَدَةٌ

أُخْرَى وَهِيَ مِمَّا تَعُمُّ فِي الْعَالِبِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَذْبُحُونَ فِيهِ مُسْتَدْبِرٌ فَالْقَلِيلُ مِنْهُمْ الَّذِي يَكُونُ ذَبْحُهُ  
إِلَى الْقِبْلَةِ وَمِنْ تَعَمُّدِ الذَّبْحِ إِلَى غَیْرِهَا فَقَدْ تَرَكَ سُنَّةَ مُؤَكَّدَةً يُكْرَهُ أَكْلُ الْمَذْبُوحِ بِسَبَبِ تَرْكِهَا ، وَسَبَبُ وُجُودِ  
هَذِهِ الْمَفَاسِدِ كُلِّهَا تَرْكُ السُّؤَالِ مِنَ الْعَامَّةِ وَتَرْكُ تَفَقُّدِ الْعُلَمَاءِ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى هَذِهِ الْمَفَاسِدِ عِنْدَ مَبْدَأِ أَمْرِهَا  
فَاسْتَحْكَمَتِ الْمَفَاسِدُ وَمَضَتْ عَلَيْهَا الْعَوَائِدُ الرَّدِيئَةُ فَيُطْعَمُونَ النَّاسَ الطَّعَامَ الْمُتَنَجَّسَ وَأَجَازُوا بَيْعَهُ بَيْنَهُمْ بِسَبَبِ  
مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْعَوَائِدِ الرَّدِيئَةِ وَالسُّكُوتِ عَنْ عِلْمِ ذَلِكَ وَلَا عُذْرَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ .  
أَمَّا الْعَامَّةُ فَبِالسُّؤَالِ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَبِالْكَلَامِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَلَيْسَ فِي هَذَا كَبِيرٌ أَمْرٌ .  
وَيَتَعَيَّنُ ذَلِكَ خُصُوصًا عَلَى أَرْبَابِ الْأُمُورِ وَعَلَى مَنْ لَهُ شَوْكَةٌ بِيَدِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِهِ .  
ثُمَّ إِنَّهُمْ يَزِيدُونَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ أَنَّهُمْ يَعْجَنُونَ التُّرَابَ الَّذِي يَسُدُّونَ بِهِ التَّنُورَ الَّذِي فِيهِ الذَّبَائِحُ بِالْمَاءِ الَّذِي  
صَارَ كَأَنَّهُ دَمٌ عَبِيطٌ فَيَتَنَجَّسُ التُّرَابُ بِهِ إِنْ كَانَ طَاهِرًا وَإِنْ كَانَ نَجِسًا فَيُضَيَّفُونَ نَجَاسَةً إِلَى مِثْلِهَا فَإِذَا أَحَسَّ  
بِحَرَارَةِ النَّارِ عَرِقَ وَقَطَرَ مِنْهُ عَلَى الشَّوَاءِ وَعَیْرِهِ مَا يُنَجِّسُهُ طَاهِرًا أَنْ لَوْ كَانَ طَاهِرًا فَكَيْفَ وَبَاطِنُهُ مُتَنَجَّسٌ كَمَا  
تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

وَكَذَلِكَ يَقَطُرُ فِي نَفْسِهِ هُوَ وَالشَّوَاءُ عَلَى الْجَدَابَةِ الَّتِي تَحْتَهُ فَتَتَنَجَّسُ بِذَلِكَ فَيَصِيرُ الْجَمِيعُ مُتَنَجَّسًا ، وَهَذَا  
مُشَاهِدٌ مَحْسُوسٌ مَرْتِيٌّ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُونَهُ إِلَى سُوقِ الْمُسْلِمِينَ يَبِيعُونَهُ وَالْحَالَةَ هَذِهِ .

وَكَذَلِكَ تَعَدَّتْ هَذِهِ النَّجَاسَةُ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ وَهُوَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَذْبُحُونَ الدَّجَاجَ وَعَیْرَهُ وَيَأْتُونَ بِهِ إِلَى

الْمَسْمُوطِ

فِيدُلُونَهَا فِي الْمَاءِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فَيَتَنَجَّسُ كُلُّ ذَلِكَ .

وهَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ انْضَمَّ إِلَيْهِ مُحَرَّمٌ آخَرٌ اتَّفَاقًا وَهُوَ إِضَاعَةُ الْمَالِ ؛ لِأَنَّ مَا تَنَجَّسَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ لَا يَجُوزُ أَكْلُهُ وَلَا بَيْعُهُ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا عَمِلَ بِتِلْكَ الدَّجَاجَةِ الْمَسْمُوطَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ وَغَيْرِهَا مِنَ السَّمِيطِ مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ فِي الْبُيُوتِ أَوْ عِنْدَ الشَّرَائِحِ أَوْ عِنْدَ الطَّبَّاخِينَ فَيَصِيرُ ذَلِكَ كُلُّهُ مُتَنَجِّسًا لَا يَجُوزُ أَكْلُهُ وَلَا بَيْعُهُ وَلَا شِرَاؤُهُ وَيَجِبُ غَسْلُ الْأَوْعِيَةِ الَّتِي جُعِلَ فِيهَا نَيْئًا كَانَ أَوْ مَطْبُوحًا وَيَغْسَلُ مَا أَصَابَ ذَلِكَ مِنْ بَدَنِ أَوْ ثَوْبٍ أَوْ مَكَانٍ أَوْ وَعَاءٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ النَّجَاسَةُ مِثْلُ السُّمِّ يَعْنِي فِي سُرْعَةِ سَرَيَانِهَا وَأَنْتَ تَرَى ذَلِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْتَبِيحَ شَيْئًا مِنْهُ إِلَّا بَعْدَ تَطْهِيرِهِ ، وَاللَّحْمُ وَالْأَطْعِمَةُ لَا يُمْكِنُ تَطْهِيرُهَا فَلَا يَجُوزُ أَكْلُهَا وَلَا بَيْعُهَا .

فَإِنْ قَالَ قَاتِلٌ إِنَّ اللَّحْمَ بَعْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ مِنْهُ لَا يَقْبَلُ شَيْئًا عَمِلَ فِيهِ وَلَا تَسْرِي النَّجَاسَةُ إِلَى بَاطِنِهِ فَجَوَابُهُ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ يَرُدُّهُ الشَّاهِدُ ؛ لِأَنَّكَ إِذَا عَمِلْتَ اللَّحْمَ فِي مَاءٍ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مِلْحٍ أَوْ غَيْرِهِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ فَإِنْ كَانَ فِي الْمَاءِ مِلْحٌ أَوْ زَغْفَرَانٌ أَوْ فُلْفُلٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ تَجِدُ طَعْمَهُ فِي اللَّحْمِ وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي قَلْبِ الْقِطْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ . فَإِنْ قِيلَ إِنَّ طَعْمَ ذَلِكَ لَا يُوجَدُ إِلَّا بَعْدَ التُّضْحِ .

فَالْجَوَابُ أَنَّ دُخُولَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي اللَّحْمِ لَمْ يَكُنْ مَرَّةً وَاحِدَةً وَإِنَّمَا يَقْبَلُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا وَهُوَ إِذَا أُلْقِيَ فِي الْمَاءِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ يَغْلِي فَقَدْ سَرَى إِلَى بَاطِنِهِ شَيْءٌ مِنَ النَّجَاسَةِ فِي الْقَلْبِ وَالْكَثْرَةَ سِوَا هَذَا دَلِيلٌ وَاصِحٌ مُشَاهِدٌ مَرَّتَيْنِ

عَلَى أَنَّهُ يَقْبَلُ مَا أُلْقِيَ فِيهِ .

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّحْمُ قَدْ وَقَعَتْ النَّجَاسَةُ فِيهِ بَعْدَ نُضْجِهِ وَطَبْخِهِ فَيَكْفِي فِيهِ التَّطْهِيرُ بِالْمَاءِ ؛ لِأَنَّ النَّجَاسَةَ لَمْ تَدْخُلْ فِي الْمَسَامِ عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ قِيَاسًا عَلَى مَا قَالَه سَخْنُونَ فِي زَيْتُونٍ مِلْحٌ ثُمَّ وَقَعَتْ فِيهِ نَجَاسَةٌ فَإِنْ كَانَ قَدْ نَضِجَ فِي الْمِلْحِ فَيَطْهَرُ بِالْغَسْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَنْضِجْ بَعْدَ فَهُوَ مُتَنَجِّسٌ لَا يَطْهَرُ بِالْغَسْلِ وَلَا يُؤْكَلُ ؛ لِأَنَّهُ يَقْبَلُ مَا وَقَعَ فِيهِ قَبْلَ نُضْجِهِ ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي اللَّحْمِ سِوَا مَا عُدْرَ لِمَنْ يَدْعِي الْإِضْطِرَّارَ إِلَى اسْتِعْمَالِ السَّمِيطِ وَالشَّوَاءِ لَوْ صَنَفَ طَيِّبٌ لِمَرِيضٍ أَوْ غَيْرِهِ إِذْ أَنْ لَحْمَ الْمَاعِزِ مَوْجُودٌ لِلْأَصْحَاءِ نَيْئًا وَمَشْوِيًا ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَهُ سَلِيخًا لَا سَمِيطًا اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ مِنَ السَّمِيطِ إِنْ جُعِلَ مَعَهُ فِي التَّنُّورِ أَوْ يَسْقُطُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التَّرَابِ أَوْ الطَّيْنِ الْمُتَنَجِّسِ الَّذِي يُسَدُّ بِهِ التَّنُّورُ كَمَا تَقَدَّمَ مَعَ أَنَّ لَحْمَ الضَّأْنِ الصَّغِيرِ السَّلِيخِ مَوْجُودٌ أَيْضًا .

وَأَمَّا لَحْمُ السَّمِيطِ الطَّاهِرِ فَمَوْجُودٌ لِلْمَرَضِيِّ وَلِمَنْ أَحْتَاغُهُ مِنَ الْأَصْحَاءِ فَمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ وَجَدَهُ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ فَإِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ الشَّوَاءَ سَالِمًا مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرَ مِمَّا يَعْتَرِي الْمُسْلِمِينَ فِي سَمِيطِ ذَلِكَ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَطْهِرُونَ ذَلِكَ أَجْدَرُ وَأَوْلَى فَمَا أَقْبَحَ هَذَا وَأَشْنَعَهُ أَنْ يَمْتَازَ الْيَهُودُ بِتَطْهِيرِ ذَلِكَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ لِلرِّشَادِ بِمَنِّهِ .

فَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ وَعَلِمَ فَلَا يُقْتَصَرُ بِهِ عَلَى مَا ذَكَرَ بَلْ هُوَ يَتَعَدَّى إِلَى كُلِّ مَنْ يَتَنَاوَلُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ غَسْلُ مَا تَنَاوَلَهُ بِهِ مِثْلُ الْجَزَارِ يَكُونُ عِنْدَهُ سَلِيخٌ أَوْ سَمِيطٌ فَإِنَّهُ إِذَا مَسَّ السَّمِيطُ بِيَدِهِ أَوْ سَكَّنِيهِ تَنَجَّسَ مَا أَصَابَهُ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ يَتَنَجَّسُ الْمَوْضِعُ

الَّذِي يَكُونُ فِيهِ وَاللَّحْمُ الَّذِي يَتَنَاوَلُهُ أَوْ سَكَيْنُهُ الَّتِي يَقْطَعُ بِهَا مِنَ السَّمِيطِ وَبَعْضُ مَنْ يَحْتَرِزُ مِنْ أَكْلِ لَحْمِ  
السَّمِيطِ قَدْ يَقَعُ فِي هَذَا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ثُمَّ تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَنْجِيسِ الْوِعَاءِ الَّذِي يُحْمَلُ فِيهِ إِلَى الْبُيُوتِ وَغَيْرِهَا ،  
وَكَذَلِكَ يَتَنَجَّسُ مَا يُطْبَخُ فِيهَا أَوْ يُؤْكَلُ فِيهَا فَظَهَرَ مَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّ النَّجَاسَةَ كَالسَّمِّ لِسُرْعَةِ سَرَيَانِهَا .  
وَأَمَّا الرُّءُوسُ فَهِيَ جَائِزَةٌ إِذَا سَلِمَتْ مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرَ فِي السَّمِيطِ وَقَدْ جُمِعَتْ الْمَفَاسِدُ الَّتِي فِي السَّمِيطِ  
وَزَادَتْ عَلَيْهِ الْمَكْسُ الَّذِي اخْتَصَّتْ بِهِ دُونَ السَّمِيطِ إِذْ أَنَّهُ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ عَلَى شِرَائِهَا مِنْ غَيْرِ الْمَكَّاسِ  
وَالْأَكَارِغِ كَذَلِكَ تَنْجِيسُهَا وَمَكْسُهَا كَمَا تَقَدَّمَ .

وَأَمَّا التَّفَانِقُ فَلَا يَجُوزُ بَيْعُهَا وَلَا شِرَاؤُهَا لِلْجَهَالَةِ بِمَا فِي بَاطِنِهَا .

هَذَا عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا أَنْ يَشُقَّ كُلُّ وَاحِدَةٍ وَيَرَى دَاخِلَهَا كُلَّهَا وَعَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ  
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَجُوزُ إِذَا رَأَى وَاحِدَةً مِنْهَا وَاطَّلَعَ عَلَى مَا فِي بَاطِنِهَا وَأَخَذَ الْبَاقِيَ عَلَى ذَلِكَ الْوَصْفِ كَمَا تَقَدَّمَ  
فِي بَيْعِ الْخُشْكِنَانِ .

هَذَا لَوْ سَلِمَتْ مِنَ الْمَكْسِ وَهِيَ الْآنَ مُمَكَّسَةٌ فَلَا يَجُوزُ بَيْعُهَا وَلَا شِرَاؤُهَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِهَا ، وَهَذَا إِنْ كَانَ  
بَيْعُهَا بَعْدَ نَضْحِهَا ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ يَبِيعُهَا نَيْبَةً وَيَزْنُهَا لِلْمُشْتَرِيِّ ثُمَّ يَأْخُذُهَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُ وَيَقْلِبُهَا لَهُ فَذَلِكَ لَا يَجُوزُ

وَكَذَلِكَ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي السَّمَكِ ؛ لِأَنَّ الْمُشْتَرِيَّ يَشْتَرِيهِ مِنْهُ وَزَنًا مَعْلُومًا وَإِنْ كَانَ مَقْلُوبًا بَعْضَ قَلْبِي فَإِنَّ ذَلِكَ لَا  
يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ نَيْبًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ كَذَلِكَ فَفِيهِمَا وَجُوهٌ مِنَ الْمَوَانِعِ الشَّرْعِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَلَاهُ لَهُ بَعْدَ وَزْنِهِ كَمَا  
تَقَدَّمَ لَا يَعْرِفُ كَمَّ وَزْنُهُ بَعْدَ الْقَلْبِ فَهُوَ مَجْهُولٌ هَذَا وَجْهٌ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ قَدْ اشْتَرَى مِنْهُ الدُّهْنَ الَّذِي قَلَاهُ لَهُ بِهِ وَهُوَ مَجْهُولٌ .

الثَّلَاثُ : مَا أَوْقَدَ بِهِ تَحْتَهُ كَذَلِكَ مَجْهُولٌ .

الرَّابِعُ : أَجْرَةٌ قَلْبِيَّةٌ مَجْهُولَةٌ .

الخَامِسُ : أَنَّهُ مَجْهُولٌ فِي الْأَصْلِ ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ عَمِلُوا عَلَيْهِ الدَّقِيقَ كَثِيرًا لَمْ يَعْلَمِ كَمَّ وَزْنُ الدَّقِيقِ وَلَا كَمَّ وَزْنُ  
السَّمَكِ الَّذِي يُؤْخَذُ فَعَلَى هَذَا لَا يَجُوزُ شِرَاؤُهُ وَلَوْ قَلَاهُ لَهُ قَبْلَ الْوَزْنِ إِذْ أَنَّ الْجَهَالََةَ مَوْجُودَةٌ فِيهِ قَبْلَ الْقَلْبِ  
وَبَعْدَهُ فَهَذِهِ خَمْسَةٌ وَجُوهٌ مِنَ الْمَوَانِعِ فَكَيْفَ يَرْتَكِبُ ذَلِكَ .

وَالْتَوَسَّلَ إِلَى أَكْلِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْجَائِزِ شَرْعًا سَهْلًا يَسِيرًا بِأَنْ يُنْضِجَهُ الْبَائِعُ بِالْقَلْبِ وَهُوَ عَلَى مَلِكِهِ ثُمَّ يَبِيعُهُ  
لِلْمُشْتَرِيِّ وَزَنًا أَوْ جِزَافًا بِشَرْطِ أَنْ

يَكُونَ الدَّقِيقُ الَّذِي عَلَيْهِ يَسِيرًا مُحْتَاجًا إِلَيْهِ .

وَأَمَّا الْكُبُودُ فَإِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْمَكْسِ لَكَانَتْ جَائِزَةً وَهِيَ الْآنَ مُمَكَّسَةٌ فَيُمنَعُ شِرَاؤُهَا .

وَكَذَلِكَ يُمنَعُ كُلُّ مَا هُوَ مُمَكَّسٌ وَيُسْتَعْنَى بِغَيْرِهِ عَنْهُ مِثْلَ النَّشَاءِ وَالسَّمْسِمِ الْمَقْشُورِ وَلَحْمِ الْجَمَلِ وَلَحْمِ النَّعَامِ  
وَأَمَّا اللِّسَانُ الْبَلْدِيُّ وَالْقُدُورُ الْبَلْدِيَّةُ وَالْكَيزَانُ الْبَيْضُ أَيْضًا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ عَلِمَ فَكَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الشَّرَاءَ  
مِنْهُمْ إِعَانَةٌ لَهُمْ عَلَى الْمُحَرَّمَ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ .

وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ مَنْ اشْتَرَى مِنْهُمْ فَقَدْ اتَّصَفَ بِتَرْكِ التَّغْيِيرِ بِالْقَلْبِ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ ذَلِكَ أضعفُ الْإِيمَانِ وَقَدْ  
سَمِعْتُ سَيِّدِي أَبَا مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَنْقُلُ عَنِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ صُورَةَ الْمَكْسِ أَنْ يَحْتَكِرَ شَخْصٌ وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ

منه سلعة أو سلعة لا يبيعها أحد غيره أو غيرهم أو من يختاره أو يختارونه وإن كثروا بشرط أن لا يأخذوا السلعة إلا من جهته فهذا هو الذي لا يجوز الشراء منه ، والظلم هو الذي تقرّر في بعض الأشياء أن من اشترى شيئاً أو باع فعليه كذا وكذا فهذا لا يمتنع من شرائه ولا بيعه ، إذ ليس فيه إغاة انتهى .  
وقفنا الله تعالى لما يرضيه بمنه لا رب سواه .

وأما المنفوش فبيعه جائز إذا اشترى الفطير على حدة بشمن معلوم واللطوخ مثله .  
وأما إن اشتراه على غير هذا الوجه فيمنع لما يدخله من الجهالة ؛ لأن غرض المشتري والبايع مختلفان في ذلك فالمشتري يريد أن يأخذ من اللطوخ أكثر من فطير المنفوش والبايع يريد أن يعطي من فطير المنفوش أكثر من اللطوخ ، وهذا من باب بيع المغابنة مع ما فيه من الجهالة بالوزن ؛ لأنه لا يعرف كم وزن الفطير ولا كم وزن اللطوخ .  
والبياعات تنقسم على ثلاثة أقسام : مكييل وموزون وجزاف ، وهذا غير مكييل وقد اشتراه على الوزن وأخذه مجهولاً ولو أخذه جزافاً من غير وزن بعد تعيين ذلك له لمنع ذلك أيضاً ؛ لأن البائع يعرف مقدار ما يأخذه من اللطوخ غالباً وإن لم يزنه كما تقدم في بيع المحببة والله الموفق .

وأما بيع الفقاع فهو جائز أيضاً وذلك إذا صب ما في الكوز في وعاء وعائنه المشتري وعلم قدره وصفته .  
وأما على ما يبيعونه اليوم فهو غير جائز لوجوه .  
الأول أن كوز الفقاع من الأواني التي تهي عن الانتباذ فيها مثل الدباء والمرقت والحتم والتقى لسرعة التخمير الذي يسري إليها بسبب سد مسامها وكوز الفقاع كذلك وقد يبت منها شيء عند البائع فبيعه للناس بعد ذلك ولا يتفقده وقد يسرع إليه التخمير فيشتريها المشتري وقد صارت حمراً هذا وجه .  
الوجه الثاني : أنه مجهول وذلك أنه يسد فم الكوز بعود أو غيره ثم يضعه على فمه فقد يكون فمه لم يسد كله فينزل ما في الكوز أو بعضه فإن أخذه المشتري لا يعلم مقدار ما فيه فيظنه ملأنا وقد يكون بعضه وذلك مجهول .

الوجه الثالث : أنه لا يجوز بيعه على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلا بعد الإيجاب والقبول ؛ لأنه أوجب ذلك في المحقرات ، وهذا منها فلا يصح بيعه إلا بعد أن يقول البائع بعثك والمشتري قد اشترى أو ما يقوم مقام ذلك مما نقلوه وذلك مفقود بينهما .  
وأما على مذهب مالك رحمه الله فيجوز على مقتضى قوله في بيع المعاطاة إذا فرغ ما في الكوز وعائنه كما تقدم .

الوجه الرابع : أن الشرب من موضع سؤر الكفار مكروه والفقاع يشربه النصراني وغيره ممن يكون فمه متنجساً فينجسه وقد لا يغسله بعد ذلك الغسل الشرعي قبل ملئه ثانياً ثم يأتي المسلم فيضع فاه موضع فم النصراني وغيره ممن لا يتحرز من النجاسة .

وليس هذا الوجه خاصاً بالفقاع وحده بل هو عام في كل ما يشبهه ، مثل السقاء وغيره ؛ لأن المجهود من بعضهم أنهم يستقون من لا يتحفظ من النجاسات ومن تعافه النفوس ، مثل الصبي الصغير والأبرص والمجدوم

وَالْيَهُودِيَّ وَالنَّصْرَانِيَّ ثُمَّ يَأْتِي غَيْرُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَصْحَاءَ فَيَضَعُ فَاهُ مَوْضِعَ فَمٍ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، وَهَذَا فِيهِ مِنْ الْقُبْحِ مَا فِيهِ ثُمَّ مَعَ هَذَا فَقَدْ عَرِيَ عَنْ أَقْسَامِ الْبِيَاعَاتِ الثَّلَاثِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا .  
 أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمَكِيلٍ وَلَا مَوْزُونٍ وَلَا جُزَافٍ إِذْ أَنَّ الْجُزَافَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مَرْتَبًا مَحْزُورًا يُحِيطُ الْبَائِعُ وَالْمُشْتَرِي بِقَدْرِهِ وَصِفَتِهِ ، وَهَذَا غَائِبٌ لَا يُعْرَفُ قَدْرُهُ وَلَا صِفَتُهُ وَلَا يَأْخُذُهُ حَزْرٌ فَهَذِهِ وُجُوهٌ عَدِيدَةٌ تَمْنَعُ صِحَّةَ بَيْعِهِ وَلَا عُذْرَ لِمَنْ يَقُولُ إِنَّهُ مِنَ الْمُحَقَّرَاتِ فَيَجُوزُ بَيْعُهُ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْمُحَقَّرَاتِ وَغَيْرَهَا فِي شَرْطِ صِحَّةِ الْبَيْعِ وَفَسَادِهِ سَوَاءٌ إِلَّا مَا أُعْتِفِرَ فِي ذَلِكَ مِنْ شَرْطِ الْإِيجَابِ وَالْقُبُولِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ فِيهَا وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى فِتْوَى مُفْتٍ يَطْرَأُ عَلَيْهِ مَا يَطْرَأُ عَلَى الْبَشَرِ فَيَأْتِسُ بِالْعَوَائِدِ الْمُتَّخِذَةِ فَيُخْرِجُ بِسَبَبِهَا عَنْ قَوَاعِدِ مَذْهَبِهِ بِسَبَبِ اسْتِمْرَارِ تِلْكَ الْعَوَائِدِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

وَمِنْ ذَلِكَ شِرَاءُ الْخُبْزِ وَغَيْرِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ أَنَّ الْبِيَاعَاتِ تَنْقَسِمُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ فَشِرَاءُ الْخُبْزِ يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ وَزْنًا أَوْ جُزَافًا .  
 وَكِلَاهُمَا جَائِزٌ وَأَنْتَ تَرَى بَعْضَهُمْ يُخْرِجُ ذَلِكَ عَنْهُمَا بِسَبَبِ أَنَّهُ يَزِنُ الْخُبْزَ فَيَجِدُهُ يَشِخُّ عَنْ الْوِزْنِ فَيُخْرِجُهُ مِنْ كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَيُعْطِيهِ لِلْمُشْتَرِي وَيَدْفَعُ لَهُ عِوَضًا عَمَّا تَقْصَ مِنْ وَزْنِهِ كِيسَرَةً جُزَافًا فَقَدْ خَرَجَ بِسَبَبِ ذَلِكَ عَنْ الْوِزْنِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ وَزْنِ الْأَوَّلِ الَّذِي دَفَعَهُ إِلَيْهِ نَاقِصًا وَلَا قَدْرَ الْكِيسَرَةِ الَّتِي دَفَعَهَا إِلَيْهِ جُزَافًا فَقَدْ دَخَلَ عَلَى وَزْنٍ مَعْلُومٍ وَأَخَذَ مَجْهُولًا وَذَلِكَ لَا يَحِلُّ فَلَوْ زَادَ الْكِيسَرَةَ أَوْ الْخُبْزَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَلَمْ يَبْرَحْ حَتَّى حَقَّقَ كَمَالَ الْوِزْنِ لَكَانَ جَائِزًا وَإِنْ رَجَحَ ؛ لِأَنَّ الزَّائِدَ هِبَةً مَجْهُولَةً وَهِيَ جَائِزَةٌ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَذَلِكَ لَوْ وَفَى لَهُ الْوِزْنُ وَدَفَعَ لَهُ الْكِيسَرَةَ جُزَافًا لَجَازَ وَلَيْسَ مَا ذُكِرَ فِي وَزْنِ الْخُبْزِ وَمَا يُفْعَلُ فِيهِ مِمَّا يَصِيرُ بِهِ مَجْهُولًا خَاصًّا بِهِ بَلْ ذَلِكَ عَامٌّ فِي أَكْثَرِ الْبِيَاعَاتِ كَالسَّمَنِ وَالزَّيْتِ وَاللَّحْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُفْعَلُ فِيهِ مَا يُفْعَلُ فِي الْخُبْزِ مِنَ الْمَحْذُورِ فَلْيُحَذَرْ مِنْ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ فَإِنَّهُ قَدْ يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ الثَّمَنَ مِنْ حِلِّهِ وَيَأْكُلُهُ حَرَامًا بِنَصْرِفِهِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

وَمِنْ ذَلِكَ الشِّرَاءُ مِنَ النَّصْرَانِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يَتَحَفَّظُ مِنَ النَّجَاسَةِ .  
 وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ شِرَاءِ الْمَائِعَاتِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِمَّنْ هَذَا حَالُهُ ؛ لِأَنَّ النَّصْرَانِيَّ يَتَدَيَّنُونَ بِأَنَّ النَّجَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ دَمُ الْحَيْضِ وَحَدَهُ وَكُلُّ مَا عَدَاهُ طَاهِرٌ عَلَى زَعْمِهِمْ فَتَجِدُ أَحَدَهُمْ يَبُولُ فِي دُكَّانِهِ وَيَتَنَاوَلُ الْمَائِعَ وَغَيْرَهُ بِيَدِهِ وَلَا يَطْهَرُهَا ، وَكَذَلِكَ الْجَبِينُ الْمَقْلُوبُ وَغَيْرُهُ مِمَّا يُكْثَرُ مِبَاشَرَتُهُ لَهُ حَتَّى قَدْ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَى تَعْيِينِ النَّجَاسَةِ يَقِينًا فَالشِّرَاءُ مِنْهُمْ عَلَى هَذَا مَكْرُوهٌ فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلَا يَأْكُلُهُ حَتَّى يَغْسِلَهُ إِنْ كَانَ مِمَّا يُمَكِّنُ غَسْلَهُ هَذَا وَجْهٌ .  
 الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ شِرَاءَهُ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ مَكْرُوهٌ لَوْ كَانَ طَاهِرًا بَلَا شَكٍّ ؛ لِأَنَّ فِي الشِّرَاءِ مِنْهُمْ مَنَفَعَةً لَهُمْ ، وَالْمُسْلِمُونَ أَحَقُّ بِالنَّفْعِ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ مَأْمُورٌ بِإِعَانَةِ أُخِيهِ الْمُسْلِمِ مَهْمَا أَمَكَّنَهُ .  
 وَمِنْ مُخْتَصِرِ الْوَاضِحَةِ أَنَّ مَالِكًا ذَكَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْبُلْدَانِ يَنْهَاهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَانِيُّ فِي أَسْوَاقِهِمْ صَيَّارِفَةً وَجَزَّارِينَ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَرَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ .

قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَرَى لِلْوَلَاةِ أَنْ يَفْعَلُوا فِي ذَلِكَ فِعْلَ عُمَرَ .  
 قَالَ : وَلَا بَأْسَ أَنْ يَنْصَبَ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَانِيُّ لِنَفْسِهِمْ وَلِأَهْلِ دِينِهِمْ مَجْرَرَةً عَلَى حِدَةٍ وَيُنْهَوْنَ أَنْ يَبِيعُوا مِنْ

الْمُسْلِمِينَ وَيُنْهَى الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَشْتَرُوا مِنْهُمْ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ رَجُلٌ سَوَاءٌ لَا يُفْسَخُ شِرَاؤُهُ وَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنَ الْيَهُودِيِّ مِثْلَ الطَّرِيفَةِ وَشِبْهَيْهَا مِمَّا لَا يَأْكُلُونَهُ فَيُفْسَخُ عَلَى كُلِّ حَالٍ انْتَهَى .  
وَالطَّرِيفَةُ هِيَ مَا يُوجَدُ مِنَ الرِّثَّةِ مَلْصُوقَةً بِالشَّحْمِ .  
وَقَدْ اِخْتَلَفَ فِي

تَذَكِّيهِمْ لَهُدِهِ وَكُلِّ ذِي ظُفْرِ وَالشُّحُومِ الَّتِي حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ .

فَحَكَى اللَّخْمِيُّ فِي ذَلِكَ أَقْوَالَ : قَوْلٌ بِالْجَوَازِ وَقَوْلٌ بِالْمَنْعِ وَقَوْلٌ بِالْكَرَاهَةِ وَقَوْلٌ بِالْفَرْقِ بَيْنَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَبَيْنَ مَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاخْتَلَفَ فِي هَذَا الْقَوْلِ عَلَى أَقْوَالٍ ثَلَاثَةٍ فَقِيلَ يُؤْكَلُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَمَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَقِيلَ لَا يُؤْكَلَانِ وَقِيلَ يُؤْكَلُ مَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَا يُؤْكَلُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ انْتَهَى .

فَإِذَا تَرَكَ أَهْلَ الذِّمَّةِ وَاشْتَرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحَرَّرَ مِنَ الشَّرَاءِ مِمَّنْ لَا يَتَحَفَّظُ مِنْهُمْ مِنَ النَّجَاسَةِ ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَشْتَرُونَ الْخِرْقَ مِمَّنْ يَجْمَعُهَا مِنَ الطَّرِيقِ وَالْكَيْمَانِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَوَاضِعِ الْمُسْتَقْدَرَةِ بِالنَّجَاسَةِ وَغَيْرِهَا سِوَاهَا كَأَنَّ مِنْ أَثَرِ الْحَيْضِ أَوْ مِنْ أَثَرٍ مِنْ يُعَافُ أَثَرُهُ مِنْ أَهْلِ الْبَلَاءِ فَيَمْسَحُونَ بِهَا أَيْدِيَهُمْ وَغَيْرِهَا مِنْ الْأَوْعِيَةِ وَذَلِكَ حَرَامٌ لِمَا فِيهِ مِنْ أَدَى الْمُسْلِمِينَ .

وَإِذَا اشْتَرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْهُمْ مَنْ يَظْهَرُ عَلَيْهِ سِيْمَا الصَّلَاحِ فَإِنْ عَجَزَ عَنْ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ فَيَخْتَارُ مَنْ يُصَلِّي مِنْهُمْ فَإِنْ عَجَزَ عَنْ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ فَيَخْتَارُ مَنْ هُوَ أَنْظَفُ وَجْهًا ؛ لِأَنَّ النِّظَافَةَ وَالرِّضَاءَةَ عَابِلًا لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ الْوُضُوءِ بِخِلَافِ غَيْرِ الْوُضُوءِ فَالْغَالِبُ فِيهِ عَدَمُ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

وَمِنْ ذَلِكَ الشَّرَاءِ مِنْ أَصْحَابِ الطَّبَلِيَّاتِ وَالدَّكَّكِ الْمُسْتَدِيمَةِ فِي طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ يَفْعُدُ فِي طَرِيقِهِمْ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ غَضَبٌ لَطَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِي طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَنْ يَمُرَّ فِي حَاجَتِهِ أَوْ يَقِفَ قَدْرَ ضَرُورَتِهِ وَلَا يَجْعَلُهُ كَأَنَّهُ دُكَّانٌ يَبِيعُ فِيهِ وَيَشْتَرِي ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ تَضْيِيقًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقَاتِهِمْ وَلَوْ كَانَتْ مُتَّسِعَةً فَذَلِكَ لَا يَجُوزُ لَأَنَّ سِيْمَا الطَّرِيقِ فِي هَذَا الْوَقْتِ قَدْ ضَاقَتْ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي شَرَعَتْ لِلنَّاسِ وَذَلِكَ عَلَى مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ أَنْ يَمُرَّ جَمَلَانِ مَعًا مُحْمَلَانِ تَبْنًا فِي الطَّرِيقِ لَا يَمَسُّ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ .

فَانْظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى حَدِّ الطَّرِيقِ الْمَشْرُوعِ وَإِلَى مَا عَلَيْهِ الطَّرِيقُ الْيَوْمَ فَكَيْفَ يَجُوزُ وَالْحَالَةَ هَذِهِ شَيْءٌ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ لَا سِيْمَا إِذَا انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ فِي وَقْتٍ مُنْصَرَفِ النَّاسِ إِلَى الْخَمْسِ صَلَوَاتٍ أَوْ إِلَى تَفْقُدِ أَحْوَالِهِمْ فِي الْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ ، وَأَشَدُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْجُلُوسِ بِالطَّبَلِيَّاتِ عَلَى أَبْوَابِ الْجَوَامِعِ فَيُضَيِّقُونَ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَهُمْ إِلَى بَيْتِ رَبِّهِمْ فَهُمْ غَاصِبُونَ لِذَلِكَ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ .

وَكَوْنُ مَنْ اشْتَرَى مِنْهُمْ فَقَدْ أَعَانَهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ مِنَ الْعَصَبِ فَهُوَ شَرِيكٌ مَعَهُمْ فِي الْإِثْمِ سِيْمَا إِنْ كَانَ فِيهَا الشَّيْءُ الَّذِي يُسْمُونَهُ بِالْحَبْلَقَةِ فَإِنَّهُ يَنْصَافُ إِلَى هَذِهِ الْمَفَاسِدِ مَفْسَدَةٌ أَكْبَرُ مِنْهَا تَقَدَّمَ مِثْلُهَا فِي السَّقَاءِ وَالْفَقَّاعِ وَهِيَ أَنْ تَلِكِ الْمَلْعَقَةَ الَّتِي يَعْطُهَا لِلنَّاسِ لَا يَرُدُّ عَنْهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ كَالْأَجْذَمِ وَالْأَبْرَصِ وَالصَّبِيِّ وَالصَّغِيرِ وَالنَّصْرَانِيِّ وَالْيَهُودِيِّ وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَشْتَرِيَ اللَّفْتَ وَاللُّوبِيَاءَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ فِيهِمَا التَّشَادِرَ

حَتَّى يَخْضُرًا بِذَلِكَ وَهُوَ نَجَسٌ عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْبَائِعِ غَيْرُهُمَا مِنَ الْمَائِنَاتِ فَكُلُّ مَا يُبَاشِرُهُ مِنْهَا تَنْجَسُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي السَّمِيطِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ سَيِّمًا إِنْ كَانَ الْبَائِعُ نَصْرَانِيًّا فَمِنْ بَابٍ أُخْرَى إِذْ أَنَّهُ لَا يُتَحَرَّزُ مِنْ بَوْلِ نَفْسِهِ فِي طَعَامِهِ فَضْلًا عَمَّا يَعْمَلُهُ لِلْمُسْلِمِينَ .

وَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَشْتَرِيَ مَنْ مَنَّ يَجْلِسُ فِي الْمَقَاعِدِ الَّتِي فِي طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ إِذْ أَنْ ذَلِكَ غَضَبٌ لَهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَقَدْ فَشَا هَذَا الْأَمْرُ وَاسْتَمَرَ الْحَالُ عَلَيْهِ حَتَّى قَدْ رَجَعَ بَعْضُهُمْ يُكْرِي تِلْكَ الْمَقَاعِدَ الَّتِي تَلِي بَيْتَهُ أَوْ مَلِكَهُ أَوْ مَا هُوَ حَاكِمٌ عَلَيْهِ وَبَعْضُهُمْ يَأْخُذُ أُجْرَةَ ذَلِكَ حَتَّى كَأَنَّهُ مَشْرُوعٌ بَيْنَهُمْ فَلَا يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَذَلِكَ حَرَامٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَإِنْ رَضِيََا مَعًا بِذَلِكَ فَالشَّرْعُ يَأْبَى ذَلِكَ كُلَّهُ لِمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ مَخْصُوصًا بِالْمَقَاعِدِ لَيْسَ إِلَّا بَلْ كُلٌّ مِنْ غَضَبٍ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ فَلَا يَنْبَغِي مُعَامَلَتُهُ إِلَّا مِنْ ضَرُورَةٍ دَاعِيَةٍ إِلَى ذَلِكَ وَلَمْ يَوْجَدْ مِنْهُ بُدٌّ كَهَذَا الدَّكَائِنِ الَّتِي يَعْمَلُونَ بِهَا مَسَاطِبَ يَقْطَعُونَهَا مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ خَارِجَةً عَنْ حَوَانِيَّتِهِمْ قَدْ ضَاقَ الطَّرِيقُ بِهَا مِنَ الْجَانِبِينَ وَسَبَبُ هَذَا كُلِّهِ عَدَمُ النَّظَرِ إِلَى مَا كُفِّلَهُ الْمَرْءُ مِنْ مُرَاعَاةِ الشَّرْعِ وَغَفْلَةٌ مِنْ غَفْلٍ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ وَتَرَكَ السُّؤَالَ مِنَ الْعَامَةِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ .

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي لِأَجْلِهِ مُنِعَ الشَّرَاءُ مِنَ الْمُكَّاسِ مَوْجُودٌ فِي الشَّرَاءِ مِمَّنْ اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ إِذْ أَنَّهُ لَوْ تَحَامَى الْمُسْلِمُونَ الشَّرَاءَ مِنْهُ لِأَجْلِ مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنْ غَضَبٍ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ لَنَزَعَ عَنْ ذَلِكَ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَالشَّرَاءُ مِنْهُمْ إِعَانَةٌ لَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ ،

وَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي ؛ لِأَنَّ الْمُشْتَرِيَ يَصِيرُ شَرِيكًا لَهُمْ فِي إِثْمِ غَضَبِهِمْ لَطَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ .

أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَقَلَهُ الْإِمَامُ أَبُو طَالِبِ الْمَكِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ شَيْخٌ مِنَ الصُّلَحَاءِ يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ وَكَانَ الْإِمَامُ يُعْظِمُهُ لِخَيْرِهِ وَبَرَكَتِهِ ثُمَّ بَلَغَهُ أَنَّ الشَّيْخَ لَيْسَ جِدَارٌ بَيْنَهُ بِالطَّيْنِ مِنَ الْخَارِجِ فَتَرَكَهُ الْإِمَامُ وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ إِلَيْهِ أَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ وَرَحَّبَ بِهِ فَلَمَّا أَنْ بَلَغَهُ عَنْهُ ذَلِكَ تَرَكَهُ وَلَمْ يَقْبَلْ عَلَيْهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ فَبَقِيَ كَذَلِكَ أَيَّامًا فَسَأَلَ الشَّيْخُ أَصْحَابَ الْإِمَامِ عَنْ سَبَبِ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّكَ لَيْسَتْ جِدَارٌ بَيْنَكَ بِالطَّيْنِ مِنْ خَارِجِ فَجَاءَ الشَّيْخُ إِلَى الْإِمَامِ فَسَأَلَهُ عَنْ مُوجِبِ هِجْرَانِهِ لَهُ فَأَخْبَرَهُ الْإِمَامُ بِذَلِكَ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ لِي ضَرُورَةٌ فِي تَلْيِيسِ الْجِدَارِ وَلَيْسَ فِيهِ كَبِيرٌ أَمْرٌ فِي حَقِّ الْمَارِينَ ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ : ذَلِكَ غَضَبٌ فِي طَرِيقِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : هُوَ نَزْرٌ يَسِيرٌ ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ الْيَسِيرُ وَالْكَثِيرُ سَوَاءٌ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ لَهُ كَيْفَ أَفْعَلُ ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ إِمَّا أَنْ تُزِيلَ التَّلْيِيسَ وَإِمَّا أَنْ تُنْقِصَ الْجِدَارَ وَتُدْخِلَهُ فِي مِلْكِكَ قَدَرَ التَّلْيِيسِ فَتَبْنِيهِ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ تَلْيِيسُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يُكَلِّمَهُ الْإِمَامُ حَتَّى امْتَثَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ أَوْ كَمَا قَالَ .

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْأَكْبَارِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّهُ مَرَّ هُوَ وَأَصْحَابُهُ بِجَانِبِ قَمَحٍ قَدْ سَنِبَلُ فَبَعَثَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ يَدُهُ عَلَى السَّنْبَلِ ثُمَّ نَزَعَهَا فِي الْوَقْتِ فَرَأَاهُ الشَّيْخُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ صَاحِبِ الْقَمَحِ وَيَسْتَجِلَّ مِنْهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ الْفَقِيرُ : يَا سَيِّدِي أَلَيْسَ السَّنْبَلُ قَدْ وَقَفَ

كَمَا هُوَ وَمَا ضَرَّهُ مَا فَعَلْتَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَّ بِهِ أَلْفُ رَجُلٍ أَوْ أَكْثَرُ فَفَعَلُوا مَا فَعَلْتَ أَكَانَ يَرْقُدُ قَالَ نَعَمْ ، فَقَالَ لَهُ لَكَ فِي ذَلِكَ حِصَّةٌ مِنَ الظُّلْمِ فَلَمْ يُكَلِّمَهُ ، وَلَمْ يَصْحَبْهُ حَتَّى اسْتَحَلَّ مِنْهُ ، فَانْظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى بَرَكَتِهِ تَفَقُّدِ الْعُلَمَاءِ لِلْحَوَادِثِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي زَمَانِهِمْ كَيْفَ يَتَلَقَّوْنَهَا بِهَذَا التَّلَقِّي الْحَسَنِ



الجميل .

فلو بقي العلماء على طرف من ذلك لكانت هذه الموائد تنحسّم أو يقل فاعلها ولكن السكوت من العلماء وعدم السؤال من العامة لهم أوجب ذلك وصار متزايدا وفقنا الله لمرصاته .

قال الشيخ الإمام أبو الحسن اللخمي رحمه الله تعالى في تبصرته : وأما ما يكون بين الديار من الرحاب والشوارع فيأخذ كل واحد منهم منها إلى داره فإن كان ذلك مما يضر بالمارين وبأهل المواضع منع ، وإن فعل هدم عليه واختلف إذا كان لا يضر .

فروي عن مالك الجوز والكراهة واحتج من قال يهدم بحديث النبي صلى الله عليه وسلم قال { من اقتطع من طريق المسلمين وأفيتهم قيد شبر من الأرض طوفه يوم القيامة من سبع أرضين } وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بكبر حداد بالسوق فأمر بهدمه وقال تضيئون على الناس .

واحتج من أجاز ذلك بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم { إذا تشاحوا في الطريق فسبعة أذرع } أخرجه البخاري انتهى .

فهذا الكلام على بعض ما في الأسواق من المفاسد وفي التلويح ما يعني عن التصريح .

فإذا كان ذلك كذلك فيتعين على العالم أن يتصرف بنفسه في قضاء مآربه إن قدر خيفة من المفاسد أن تدخل عليه ولو جوه أخرى نذكر بعضها ، وإن كانت بينة جلية لغير العالم فكيف للعالم .

فمنها إذا خرج من بيته لشيء مما ذكر فينوي بذلك اتباع السنة في الخروج إلى السوق ، واتباع السنة في قضاء حاجته بيده ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يباشر ذلك بنفسه الكريمة ثم يضيف إلى ذلك نية التواضع مع إخوانه المسلمين ونية الافتداء بهم وإرشادهم وتعليمهم وتهذيبهم ودفع المضار عنهم وسلامتهم من دخول الربا عليهم إذ أن ذلك دخل على أكثرهم في جُلّ بياعاتهم .

ألا ترى أن السلف لجر المنفعة غير جائز وأنت ترى كثرة ذلك بينهم فتجد أحدهم يعامل الآخر فيشتري منه السلع التي في دكانه ثم إن أعوزه شيء لم يكن عنده استقرض منه ثمن ذلك ، وذلك سلف جرّ منفعة ؛ لأن الغالب أنه لو لم يعامله ما أقرضه حتى إنه لو أراد أن يشتري من غيره السلعة التي هي عنده لتشوش من ذلك وقد لا يقرضه ثمن ذلك إلا بكره فقد تبين أنه سلف جرّ منفعة .

وكذلك ما يدخل عليهم من المفاسد مثل عدم الإيجاب والقبول على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ،

وكذلك على مذهب مالك رحمه الله من دخول البيع والصراف عليهم والسلف والصراف وغيرهما ، وهذه المعاني وغيرها كثيرة بينهم فإذا كان العالم يباشرهم في ذلك انحسمت مادة المفاسد وقل وقوعها ببركة العلم الذي يدور بينهم وينوي مع ذلك ترك

التكبر وترك التجبر وترك الفخر والخيلاء إذ أن من دخل الأسواق وحمل سلعته بيده فقد برئ من ذلك . وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل إلى السوق في خلافته فلم ير فيه في الغالب إلا التبط فاعتّم لذلك فلما أن اجتمع الناس به أخبرهم بذلك وعدهم في تركهم السوق ، فقال له إن الله عز وجل قد أغنانا عن الأسواق بما فتح به علينا ، فقال رضي الله عنه والله لئن فعلتم ليحتاجن رجالكم إلى رجالهم ونساؤكم إلى نسايتهم وقد كان بعض السلف رحمه الله إذا رأى التبط يقرعون العلم يبكي إذ ذاك وما ذاك إلا أن العلم

إِذَا وَقَعَ لِغَيْرِ أَهْلِهِ يَدْخُلُ مِنَ الْمَفَاسِدِ مَا أَنْتَ تَرَاهُ وَاللَّهُ يُرِيدُنَا لِمَا فِيهِ السَّدَادُ بِمَنَّةٍ .

وَيُنَوِّي مَعَ ذَلِكَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ مِنْ إِرْشَادِ الصَّالِّ وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ وَالسَّلَامِ عَلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَدَّ السَّلَامَ عَلَيْهِمْ وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي السُّوقِ إِنْ شَاءَ سِرًّا ، وَإِنْ شَاءَ جَهْرًا فَالَسُّورُ فِيهِ فَائِذَةٌ كُبْرَى وَهِيَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَوْضِعِ الْغَفْلَةِ وَالْجَهْرِ فِيهِ ذَلِكَ وَزِيَادَةٌ تَنْبِيهِ لِلنَّاسِ عَلَى ذِكْرِ رَبِّهِمْ وَحَدُّ الْجَهْرِ أَنْ يُسْمِعَ نَفْسَهُ وَمَنْ يَلِيهِ وَفَوْقَ ذَلِكَ قَلِيلًا وَلَا يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِحَيْثُ إِنَّهُ يَغْفَرُ حَلْقَهُ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ التَّلْحِينَ وَالتَّرَجِيعَ ، وَذَلِكَ مِنْ مُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِعْلِ السَّلْفِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَحَدُّ السَّرِّ تَحْرِيكُ اللِّسَانِ بِمَا يُرِيدُهُ وَهُوَ أَنْ يَتَشَهَّدَ فَيَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .  
ثُمَّ يُصَلِّي

عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ التَّامَّةَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذَا السُّوقِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ بِذَلِكَ وَرَدَّ الْحَدِيثُ فَيَعْتَنِمُ بِرَكَّةِ الْإِمْتِنَالِ ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّفُ .  
وَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَعْتَبِرُ فِيهِ ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَخْرُجُ إِلَى السُّوقِ وَيَسْأَلُ لَهُ حَاجَةً إِلَّا أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ وَيُسَلِّمَ عَلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَذَلِكَ سَأَلِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَغَيْرُهُمَا .  
وَالْخُرُوجُ إِلَى السُّوقِ مِنْ شِعَارِ الصُّلَحَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ رَحْمَةً اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .  
قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَانَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ يَخْرُجُونَ إِلَى السُّوقِ وَيَقْعُدُونَ فِيهِ ائْتَهَى .  
وَمَا سُمِّيَ السُّوقُ سُوقًا إِلَّا لِتَفَاقِ السَّلْعِ فِيهِ فِي الْغَالِبِ وَأَكْبَرُ سَلْعِ الْمُؤْمِنِ الَّتِي يَطْلُبُ رِبْحَهَا تَعَلُّمُهُ وَتَعْلِيمُهُ وَإِرْشَادُهُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ ، وَذَلِكَ فِي الْغَالِبِ مَوْجُودٌ فِي الْأَسْوَاقِ لِكثْرَةِ وُجُودِ إِخْوَانِهِ فِيهَا وَفِيهِمُ الْعَالِمُ بِمَا يُحَاوِلُهُ وَالْجَاهِلُ بِذَلِكَ .

أَلَا تَرَى أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا فِي الْأَسْوَاقِ يَتَجَرَّوْنَ وَفِي حَوَائِطِهِمْ يَعْمَلُونَ وَعَلَى هَذَا اسْتَمَرَّ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ وَسَلَفُهَا ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ كَيْفَ يُمَكِّنُ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَذَلِكَ ائْتِهَانٌ لِحَقِّ الْعِلْمِ وَنَقْصٌ لِحُرْمَةِ الْعَالِمِ وَاسْتِهَانَةٌ بِقَدْرِهِمَا وَأَهْلُ الْأَسْوَاقِ مَعَ ذَلِكَ لَا يَسْأَلُونَ فِي الْغَالِبِ وَبِذَلِكَ الْعِلْمِ إِنَّمَا يَجِبُ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } فَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْعَالِمَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا خَفَاءَ فِي أَنْ تَرَكَ السُّؤَالَ وَتَرَكَ التَّعْلِيمَ مِنَ الْمُنْكَرِ الْبَيِّنِ

فَيَتَعَيَّنُ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يَنْهَى عَنِ ذَلِكَ وَأَنْ يَنْصَحَ إِخْوَانَهُ الْمُسْلِمِينَ مَعَ التَّلَطُّفِ لَهُمْ وَامْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ تَعْلِيمُ جَاهِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمُ فِي الْأَسْوَاقِ أَكْثَرُ بَيِّنَاتٍ مِنْ غَيْرِهَا لَوْجُودِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مَعًا ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يَتَعَلَّمُهُ الْبَانِعُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْغَالِبِ فِي السَّلْعِ الَّتِي فِي ذِكَاغِهِ وَالْغَالِبُ أَنَّهُ لَا يَنْسَاهُ فَإِنْ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِحَدِيثِ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهِ { ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ } وَكَرَّرَ ذَلِكَ ثَلَاثًا حَتَّى قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحْسَنَ غَيْرُهُ فَعَلَّمَنِي فَعَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .  
فَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْعَالِمَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعَلِّمَ حَتَّى يُسْأَلَ .

فَالْجَوَابُ أَنَّ الْحَدِيثَ دَلِيلٌ لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ وَجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ { ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ } ؛ لِأَنَّ صَلَاتَهُ تَلْكَ لَا تَجُوزُ فَغَيْرَ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ .

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَ سَوَاءٌ فِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُعَيِّرَ عَلَى النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ فَإِذَا غَيَّرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ سَأَلُوهُ فَأَجَابَهُمْ وَإِنَّمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ مَعَ الْأَعْرَابِيِّ ثَلَاثًا لَوْجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَسْأَلَ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَالثَّانِي أَنْ يُثَبِّتَ لَهُ الْعِلْمُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَقَعَ التَّنْبِيهُ مِرَارًا قَبْلَ الْإِلْقَاءِ ثَبَتَ الْعِلْمُ بَعْدَهُ كَمَا { قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ يَا مُعَاذُ ثُمَّ سَكَتَ ثُمَّ قَالَ لَهُ يَا مُعَاذُ ثُمَّ سَكَتَ ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي الثَّلَاثَةِ يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَأَلْقَى إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَدِيثِ إِلَى آخِرِهِ { .

وَحِكْمَةُ تَنْبِيهِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثَيْنِ ثَلَاثًا أَعْنِي حَدِيثَ الْأَعْرَابِيِّ وَحَدِيثَ مُعَاذِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُمَا ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ إِذَا وَقَعَ لَهُ أَمْرٌ لَهُ قَدْرٌ وَبَالٌ كَرَّرَهُ ثَلَاثًا وَلَمَّا كَانَ حَدِيثَ مُعَاذٍ فِي الْإِعْتِقَادِ وَحَدِيثَ الْأَعْرَابِيِّ فِي الصَّلَاةِ وَمَحَلُّ الصَّلَاةِ مِنَ الدِّينِ مَحَلُّ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ كَرَّرَهُمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا ، وَكَذَلِكَ كَرَّرَ مَا نَاسِيَهُمَا وَمَا لَمْ يَتَأَكَّدْ أَمْرُهُ يَكْتَفِي فِيهِ مِنَ التَّنْبِيهِ مَرَّةً وَاحِدَةً لِمَنْ عَقَلَ وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ يَزِيدُ لَهُ فِي التَّنْبِيهِ حَتَّى يَعْقِلَ .

وَلَمْ يَزَلْ عَلَى هَذَا شَأْنُ الْعُلَمَاءِ وَالصُّلَحَاءِ إِذْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يُحِبُّ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَالْمُؤْمِنُ مِرَاةَ الْمُؤْمِنِ .

وَقَدْ وَرَدَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا أَكَّدَ هَذَا الْأَمْرَ وَبَيَّنَّهُ وَأَثَبَتْهُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحِمِهِمْ وَتَوَادِهِمْ كَالْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى بَعْضُهُمْ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى { وَعَلَى هَذَا اسْتَمَرَّتْ الْأُمَّةُ إِلَى هَلْمِ جَرًّا .

أَلَا تَرَى إِلَى مَا جَرَى لِلْإِمَامِ الطَّرُطُوشِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَكَانَ مِنَ الْمُتَأَخَّرِينَ لَمَّا أَنْ وَرَدَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ لِيُحِجَّ فَلَمَّا أَنْ حَجَّ وَرَجَعَ وَجَدَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ شَاغِرَةً مِنَ الْعِلْمِ وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ فِي مَسْأَلَةِ جِهَارًا وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُمْسِكَ فِي يَدِهِ كِتَابًا لِعَلْبَةِ الْأَمْرِ مِنَ السُّلْطَنَةِ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ لِبِدْعَةٍ كَانَتْ فِيهِمْ تَدَيَّنُوا بِهَا فَلَمَّا أَنْ رَأَى الْإِمَامُ الطَّرُطُوشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْحَالِ وَدَعَّ رَفِيقَهُ مِنَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَأَرْسَلَ السَّلَامَ إِلَى وَلَدِهِ بِالْمَغْرِبِ ، وَقَالَ : هَذِهِ بِلَادٌ لَا يَجِلُّ لِي أَنْ أَخْرُجَ مِنْهَا لِمَا غَلَبَ فِيهَا مِنْ

الْجَهْلِ فَجَعَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقْعُدُ عَلَى دُكَّانِ بِيَّاعٍ فَيَعْلَمُهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي عَقِيدَتِهِ وَفَرَائِضِ وَضَوْنِهِ وَسُنَنِهِ وَقَضَائِلِهِ ، وَكَذَلِكَ تَبِمُّهُ وَغُسْلُهُ وَصَلَاتُهُ ثُمَّ يَنْظُرُ لِمَا عِنْدَهُ مِنَ السَّلْعِ فَيَعْلَمُهُ مَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَلَزَمُهُ وَكَيْفِيَّةَ تَعَاطِيهِ بِنِعْمَتِهَا وَشِرَاءِهَا وَكَيْفِيَّةَ دُخُولِ الرَّبَا عَلَيْهِ وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِمَّا فِيهِ الرَّبَا فَإِذَا فَرَّغَ مِنْهُ يَقُولُ لَهُ عِلْمٌ جَارِكٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دُكَّانِ آخَرَ حَتَّى قَامَ الْعِلْمُ عَلَى مَنَارِهِ وَزَالَ الْجَهْلُ فِي حِكَايَةِ يَطُولُ ذِكْرُهَا ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا فَكَانَ السَّبَبُ لِانْتِشَارِ الْعِلْمِ وَظُهُورِهِ فِي الْأَسْوَاقِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى يُطَلَّبَ مِنْهُ التَّعْلِيمُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ أَحَدٌ مِمَّنْ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا غَيْرِهَا ، وَإِنَّمَا حَصَلَ ذَلِكَ الْخَيْرُ الْعَظِيمُ بِرُكَّةِ التَّوَاضُعِ وَامْتِنَالِ السُّنَّةِ وَسُلُوكِ طَرِيقِ السَّلَفِ فِي دُخُولِ الْأَسْوَاقِ وَمُرَاجَعَةِ الْعَوَامِّ فِيمَا يُحَاوِلُونَهُ مِمَّا لَا يَنْبَغِي .

فَعَلَى هَذَا يَتَّبَعِي لِلْعَالِمِ أَوْ يَتَّعِنُ عَلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا رَأَى النَّاسَ قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الْعِلْمِ عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ لِتَعْلِيمِهِمْ  
وَأِرْشَادِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا مُعْرِضِينَ ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .  
أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَانَ النَّاسُ مُعْرِضِينَ كَانَ يَعْزِضُ نَفْسَهُ الْمَكْرَمَةَ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ  
لِيَتَّبِعُوهُ وَيَنْصُرُوهُ إِذْ أَنَّ الْعَنِيمَةَ عِنْدَهُمْ إِرْشَادُ شَارِدٍ عَنِ بَابِ رَبِّهِ أَوْ ضَالٌّ لَا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ فَيُرْشِدُونَهُمْ إِلَى بَابِ  
مَوْلَاهُمْ وَيُوقِفُونَهُمْ عَلَى بَسَاطِ كَرَامَتِهِ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ .  
وَقَدْ كَانَ سَيِّدِي حَسَنُ الزُّبَيْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ إِنِّي لَا أُرِيدُ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَا مِنَ الْعُلَمَاءِ يَأْتِينِي إِذْ لَا

حَاجَةٌ لَهُمْ بِي وَلَا حَاجَةٌ لِي بِهِمْ وَإِنَّمَا أُرِيدُ مَنْ هُوَ شَارِدٌ عَنِ بَابِ رَبِّهِ فَأَرُدُّهُ إِلَيْهِ أَوْ كَلِمًا هَذَا مَعْنَاهُ وَلَا شَكَّ  
فِي أَنَّ مَنْ قَعَدَ فِي السُّوقِ ، وَلَمْ يَأْتِ الْعُلَمَاءَ وَالصَّالِحَاءَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ وَرَضِي لِنَفْسِهِ بِنِتْكَ الْحَالِ أَنَّهُ شَارِدٌ  
عَنِ بَابِ رَبِّهِ فَيَتَّعِنُ عَلَى الْعَالِمِ سِيَاسَةً مِنْ هَذَا حَالُهُ حَتَّى يُوقِفَهُ بِيَابِ رَبِّهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَانظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى  
وَإِيَّاكَ إِلَى نِيَّةِ الْعُلَمَاءِ إِذَا صَلَحَتْ كَيْفَ يَبْدُلُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْجُلُوسِ فِيهَا مَعَ الْبَاعَةِ وَمَنْ هُوَ مُتَّصِفٌ  
بِالْبُعْدِ وَالْجَهْلِ فَيُرْشِدُونَهُمْ بِالْعِلْمِ إِلَى أَسْنَى الْأَحْوَالِ وَأَرْفَعِهَا لَا جَرَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعُلَمَاءُ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ  
الْمُبَارَكِ انْتَفَعُوا وَتَفَعُّوا وَعَمَّتْ بَرَكَتُهُمْ لِأَهْلِ الْأَسْوَاقِ وَغَيْرِهِمْ بِخِلَافِ مَا يُعْهَدُ مِنْ أَحْوَالِنَا الْيَوْمَ مَعَ أَنَّهُ الْحَمْدُ  
لِلَّهِ لَمْ يَعْذَمْ ذَلِكَ الْبَيْتَةَ إِذْ أَنَّ عُلَمَاءَ الْمَغْرِبِ أَكْثَرُهُمْ عَلَى مَا وَصَفْنَا لَمْ يَغْيِرْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الزَّمَانِ وَلَا مُخَالَطَةُ غَيْرِ  
الْجِنْسِ مِنَ الْأَعَاجِمِ وَغَيْرِهِمْ فَانْتَفَعُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهِمْ وَعَمَّتْ بَرَكَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً مُلُوكِهِمْ  
وَأَمْرَانِهِمْ وَصَلْحَانِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ .

وَقَدْ نَصَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ { لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَائِمَةٌ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ  
خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ } وَفِي رِوَايَةٍ تَعَيَّنَ جِهَتُهُمْ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { طَائِفَةٌ بِالْمَغْرِبِ } .  
وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ { لَا يَزَالُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ } فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَقِيَ الْخَيْرُ مُتَّصِلًا وَبِسَبَبِ وُجُودِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ  
بِالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ارْتَدَعَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَقَلَّ ظُهُورُهَا وَأَهْلُهَا وَنَزَلَتْ

الْبَرَكَاتُ وَجَاءَتْ الْخَيْرَاتُ وَبَقِيَ النَّاسُ فِي خَفَارَتِهِمْ مَحْمُولِينَ فِي أَرْغَدِ عَيْشٍ عَكْسُ مَا هُوَ عَلَيْهِ الْحَالُ الْيَوْمَ  
فِي الْعَالِبِ فِي الْوَقْتِ فَتَجَدُّ بَعْضَ الْمُتَنَسِّينَ إِلَى الْعِلْمِ يَتَشَبَّهُ بِالْمُلُوكِ فِي الْبُؤَابِينَ وَالْحُجَابِ وَمَنْ يَمْشِي بَيْنَ  
يَدَيْهِ مِنَ الطَّرَادِينَ حَتَّى قَلَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُضْطَرِّينَ وَالْمُحْتَاجِينَ إِلَى مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْعِلْمِ فَيَتَحَيَّلُونَ فِي  
الْوُصُولِ إِلَيْهِ بِنِسَانِطٍ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ وَهَذَا الْحَالُ لَا يَلِيْقُ بِأَهْلِ الْعِلْمِ بَلْ هُوَ مِنْ فِعْلِ الْجَبَابِرَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ  
وَالْعَالِبِ مِنْ بَعْضِ الْعَوَامِّ الْيَوْمَ الشُّرُودُ عَنِ الْعِلْمِ وَالنُّفُورُ عَنِ أَهْلِ الْخَيْرِ لِعَلْبَةِ الْجَهْلِ وَقَلَّةِ الْأَهَمِّ لِغَيْرِ سَبَبٍ  
فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا وَجَدُوا السَّبَبَ وَيَعْسُرُ عَلَيْهِمْ أَمْرُ السُّؤَالِ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ فَيَقَعُ الْفِرَارُ وَالشُّرُودُ أَكْثَرَ فَكَانَ مَا  
يَتَعَاطَوْنَهُ جَمِيعُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ فِعْلُهُ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ فِي ذِمَّةٍ مَنْ اتَّصَفَ بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِمَّا مَنَعَهُمْ بِهِ عَنِ تَعَلُّمِ الْعِلْمِ

ثُمَّ تَرَجَّعَ إِلَى مَا كُنَّا بِسَبِيلِهِ مِنْ بَقِيَّةِ فِعْلِ الْعَالِمِ فِي السُّوقِ وَأَدْبِهِ فَإِذَا مَشَى فِي السُّوقِ فَيَضَعُ بَصْرَهُ حَيْثُ يُرِيدُ  
أَنْ يَضَعَ قَدَمَهُ وَيَتَحَفَّظُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ رَفْعِ بَصْرِهِ لِنَلَّا يَقَعُ عَلَى مَا لَا يَجِلُّ رُؤْيَتَهُ .  
وَقَدْ كَانَ سَيِّدِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَفَعَ بَصْرَهُ فِي الْأَسْوَاقِ أَوْ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي

بِالدَّيَّارِ الْمَصْرِيَّةِ مَا رَفَعَهُ إِلَّا وَيَنْظُرُ إِلَى حَرِيمِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ لَمْ يَنْوِهِ إِذْ أَنْ مِنْ عَادَةٍ بَعْضِ نَسَائِهِمُ الْجُلُوسُ فِي الطَّاقَاتِ وَأَبْوَابِ الرِّيحِ ، وَذَلِكَ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالطَّرِيقَاتِ فِي الْعَالِبِ .

وَقَدْ كَانَ السَّلْفُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - يَكْرَهُونَ فُضُولَ النَّظَرِ كَمَا يَكْرَهُونَ فُضُولَ الْكَلَامِ .

وَقَدْ دَخَلَ بَعْضُ النَّاسِ وَمَعَهُ وَلَدُهُ عَلَى بَعْضِ السَّلْفِ ، فَقَالَ الصَّبِيُّ لِصَاحِبِ الْمَنْزِلِ يَا سَيِّدِي أَمَا تَخَافُ أَنْ تَقْعُدَ فِي هَذَا الْبَيْتِ وَهُوَ عَلَى السُّقُوطِ ، فَقَالَ لَهُ مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ حَشْبَةٌ مَكْسُورَةٌ فِي سَقْفِهِ ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ مَا أَكْثَرَ فُضُولَكَ لِي الْيَوْمَ أَرْبَعُونَ سَنَةً فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا رَأَيْتُ سَقْفَهُ وَأَنْتَ مِنْ حِينِكَ رَأَيْتَهُ أَوْ كَمَا قَالَ وَقَدْ مَكَثَ بَعْضُهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَعَلَى مِنْوَالِهِمْ فَانْسَجَ إِنْ كُنْتَ لَهُمْ مُجِيبًا إِنَّ الْمُجِيبَ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ وَيُنَوِي مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ سَيِّمًا إِنْ كَانَ مِمَّا قَدْ عَمَّتْ بِهِ الْبَلْوَى فَيَتَأَكَّدُ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّشْبِيهَ عَلَيْهِ لِكُونِهِ صَارَ عِنْدَهُمْ مِنْ بَابِ الْقُرْبِ مِثْلَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الْأَسْوَاقِ وَمَوَاضِعِ اللَّغَطِ وَمَوَاضِعِ النَّجَاسَاتِ فَيَنْبَغِي الْعَالِمُ عَلَى هَذَا وَمَا شَاكَهُ ، إِذْ الْكَلَامُ قَدْ يَكُونُ فَرَضَ عَيْنٍ عَلَيْهِ فِي الْعَالِبِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَيُصَلِّحُ ذَاتَ الْبَيْنِ وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ طَرِيقِ

الْمُسْلِمِينَ كُلِّ ذَلِكَ مَعَ الرَّفْقِ بِهِمْ وَالتَّجَاوُزِ عَنْ مَسَاوِيهِمْ وَتَوْفِيرِ كَبِيرِهِمْ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ مِنْهُمْ وَزِيَارَةِ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَفَقُّدِ أَحْوَالِهِمْ بِالسُّؤَالِ وَغَيْرِهِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالدِّينِ أَهْمٌ .

وَيُنَوِي مَعَ ذَلِكَ عِيَادَةَ الْمَرْضَى عَلَى وَجْهَيْهَا إِنْ وَجَدَ لَذَلِكَ سَبِيلًا .

وَقَدْ يَجِدُ بَعْضُهُمْ فِي سُوقِهِ فَتَحْصُلُ لَهُ النَّيَّةُ وَالْعَمَلُ وَيُنَوِي مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى جَنَازَةٍ إِنْ وَجَدَهَا عَلَى

السُّنَّةِ وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْمَعَانِي يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ وَالْمُرِيدِ أَنْ يَكُونَ عَلَى وُضوءٍ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ

بِسِلَاحِهِ فَإِذَا وَجَدَ شَيْئًا لَا يُمَكِّنُ عَمَلَهُ إِلَّا بِطَهَارَةٍ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى ذَلِكَ فَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْبَاتِ غَالِبًا .

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يُفَارِقَ عِدَّةً تَكُونُ مَعَهُ إِذْ أَنَّهُ قَدْ يَجِدُ فِي السُّوقِ أَوْ فِي الطَّرِيقِ شَاةً أَوْ غَيْرَهَا تَرِيدُ أَنْ تَمُوتَ ،

وَلَمْ يَكُنْ مَعَ صَاحِبِهَا مَا يَذْبَحُهَا بِهِ فَيَجْبِرُهَا عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْعِدَّةِ الَّتِي خَرَجَ بِهَا .

وَقَدْ يَجِدُ دَابَّةً قَدْ انْحَنَقَتْ بِحَبْلِ فَيَقْطَعُهَا بِمَا مَعَهُ مِنْ تِلْكَ اللَّآلَةِ فَإِنْ وَجَدَ شَيْئًا مِنْ هَذَا حَصَلَ لَهُ أَجْرُ النَّيَّةِ

وَالْعَمَلِ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ حَصَلَ لَهُ أَجْرُ النَّيَّةِ .

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْرُجَ بِنِيَّةِ السُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ وَعَنْ جُيُوشِهِمْ وَمَا يَجْرِي لَهُمْ فَيَسْرُ لِحَيْرٍ

إِنْ سَمِعَهُ عَنْهُمْ وَيَحْزَنُ لِبُصْدِهِ فَيَكُونُ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِمْ .

وَكَذَلِكَ يَسْأَلُ عَمَّنْ غَابَ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ فَيَسْرُ وَيَحْزَنُ كَمَا تَقَدَّمَ فَيَكُونُ شَرِيكًا لِلْوَاقِعِ لَهُ ذَلِكَ فِي الْأَجْرِ

وَالثَّوَابِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا عَمَلٍ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

وَيَنْبَغِي لَهُ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى السُّوقِ أَوْ غَيْرِهِ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى أَهْلِهِ إِذَا خَرَجَ وَلَيْسَ السَّلَامُ الْأَوَّلُ أَوْ لَى مِنْ

الْآخِرِ .

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ مَنْ سَلَّمَ عَلَى قَوْمٍ فَكَانُوا مُسْتَعْلِبِينَ فِي خَيْرٍ كَانَ شَرِيكًا لَهُمْ فِيهِ ، وَإِنْ خَاضُوا فِي غَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ

عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَقْدَمُ رَجُلُهُ الْيَمْنَى فِي خَرْجِهِ وَيُؤَخِّرُ الْيُسْرَى ثُمَّ يَسْتَعِيدُ فَيَقُولُ ( اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزِلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ ثُمَّ يَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ حِينَ خُرُوجِهِ

فَإِنْ كَانَ لِلسُّوقِ طَرِيقَانِ فَلْيُحْتَرِ أَقْرَبَهُمَا يَمْشِي فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْخَطِيئَةَ الزَّائِدَةَ لَا صَرُورَةَ تَدْعُو إِلَيْهَا وَكَوْنُهُ فِي بَيْتِهِ

أَوْ فِي الْمَسْجِدِ لِلِقَاءِ الْعِلْمِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْقُرْبَاتِ أَفْضَلُ مِنْ تِلْكَ الْخُطَى الرَّائِدَةِ وَمَعَ ذَلِكَ يُرِيحُ بَدَنَهُ مِنْ زِيَادَةِ التَّعَبِ .

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنَ الْمَشْيِ فِي ثَنِيَاتِ الطَّرِيقِ ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ يَفْتَدِي بِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِهَلَاكِ بَعْضِهِمْ فِيهَا بَلْ يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ الْجَادَّةِ فَإِنَّ فِيهَا السَّلَامَةَ ، وَإِنْ بَعُدَتْ .

وَيَنْبَغِي لَهُ إِذَا خَرَجَ لِقَضَاءِ حَاجَةٍ أَنْ يَتَرَبَّصَ قَلِيلًا فِي الْبَيْتِ حَتَّى يُفَكِّرَ أَهْلَهُ فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لِكَيْ يَكُونَ مَشِيئُهُ إِلَى السُّوقِ مَرَّةً وَاحِدَةً لِنَلَا يَحْتَاجَ أَهْلُهُ إِلَى حَوَائِجٍ أُخَرَ فَيَحْتَاجُ أَنْ يَتَكَرَّرَ إِلَى السُّوقِ مِرَارًا فَيَكُونُ ذَلِكَ ضَيَاعًا لِلْعِلْمِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْقُرْبَاتِ الَّتِي هِيَ أَوْلَى مِنْ حُضُورِ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّ كَانَتْ الطَّرِيقُ إِلَى السُّوقِ بَعِيدَةً يَضَعُ عَلَيْهِ الْمَشْيُ لِبُعْدِهَا أَوْ كَانَ ضَعِيفًا يَشْقُ عَلَيْهِ الْمَشْيُ ، وَإِنْ قَرُبَ فَلَهُ أَنْ يَرْكَبَ وَلَا يُخْرِجُهُ ذَلِكَ عَنِ التَّوَاضُعِ ، فَإِذَا رَكِبَ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَمْتَثِلَ السُّنَّةَ فِي الذِّكْرِ الْوَارِدِ فِي الْحَدِيثِ وَهُوَ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ شَهِدْتُ عَلِيًّا أُتِيَ لَهُ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي

الرَّكَابِ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ قَالَ { سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ } ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ثُمَّ ضَحِكَ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ قَالَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ ، فَقَالَ { إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُهُ } انْتَهَى .

وَيَعْتَبَرُ عِنْدَ رُكُوبِهِ عَلَيْهَا إِذْ أَنَّ الدَّابَّةَ لَا تَحْمِلُ نَفْسَهَا فَكَيْفَ تَحْمِلُ غَيْرَهَا { إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا } فَالْأَرْضُ مُمَسَّكَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهَا عَاجِزَةٌ عَنْ إِمْسَاكِ نَفْسِهَا فَكَيْفَ تُمَسِّكُ غَيْرَهَا فَيَسْتَصْحِبُ هَذَا النَّظَرَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ فَيَشْهَدُ بِذَلِكَ رُؤْيَا أَعْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ وَاسِطَةِ فَيَقْوَى بِذَلِكَ إِيْمَانُهُ وَيَقِينُهُ وَيَرْجِعُ لَهُ الْإِيْمَانُ حَالًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَقَالًا ، لَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَمْشِيَ بِالِدَّابَّةِ عَلَى رِفْقٍ وَلَا يُزْعِجَهَا لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { مَا كَانَ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ } .

وَلِأَنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي إِبْصَالِ الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَتَوَصَّلُونَ بِذَلِكَ إِلَى سُؤَالِهِ وَجَوَابِهِ مَعَ تَعْلِيمِهِ وَإِرْشَادِهِ وَالْعَجَلَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ .

ثُمَّ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي رُجُوعِهِ فَإِنَّ كَانَتْ الدَّابَّةُ لِلْمُكَارِي فَيَشْتَرِطُ أَنْ لَا يُمَكِّنَ الْمُكَارِي مِنْ هَذَا الضَّرْبِ الْعَنِيفِ الَّذِي اعْتَادُوهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ بَلْ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَصَفُّهُ . وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْوِي إِذَا رَأَى قِرْطَاسًا فِي سِكَّةِ الطَّرِيقِ

رَفَعَهُ وَأَرَاهُ عَنْ مَوْضِعِ الْمَهْنَةِ إِلَى مَوْضِعِ طَاهِرٍ يَصُوْنُهُ فِيهِ وَلَا يُقْبَلُهُ وَلَا يَضَعُهُ عَلَى رَأْسِهِ إِذْ إِنَّ فِعْلَ ذَلِكَ بِدَعَاةٍ كَمَا تَقَدَّمَ وَسَوَاءٌ كَانَ مَكْتُوبًا أَوْ غَيْرَ مَكْتُوبٍ فَإِنَّ كَانَ مَكْتُوبًا فَقَدْ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَفِي ذَلِكَ مِنَ الثَّوَابِ مَا فِيهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مَكْتُوبٌ فَيَكُونُ أَخْذُهُ لِدَلَالَتِهِ تَوْقِيرًا وَتَعْظِيمًا لِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى إِذْ إِنَّ الْوَرَقَةَ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ

النِّسَاءَ ، وَإِنْ قُلَّ ، وَكَذَلِكَ يَنْوِي إِذَا وَجَدَ خُبْرًا أَوْ غَيْرَهُ مِمَّا لَهُ حُرْمَةٌ مِمَّا يُؤْكَلُ فَإِنَّهُ يُزِيلُهُ عَنْ مَوْضِعِ الْمَهْنَةِ إِلَى مَوْضِعِ طَاهِرٍ يَصُونُهُ فِيهِ وَلَا يَضَعُهُ عَلَى رَأْسِهِ وَلَا يُقْبَلُهُ تَحَرُّزًا مِنَ الْبِدْعَةِ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ .

وَقَدْ كَانَ سَيِّدِي أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَرْجَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا جَاءَهُ الْقَمْحُ لَمْ يَتْرِكْ أَحَدًا مِنَ الْفُقَرَاءِ فِي الزَّوَاوِيَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَيَعْمَلُ عَمَلًا حَتَّى يَلْتَقِطُوا مَا وَقَعَ مِنَ الْحَبِّ عَلَى الْبَابِ أَوْ عَلَى الطَّرِيقِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ حِينَئِذٍ يَرْجِعُونَ إِلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَهَذَا الْبَابُ مُجَرَّبٌ كُلُّ مَنْ عَظَّمَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَطَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَأَكْرَمَهُ ، وَإِنْ وَقَعَتِ الشَّدَّةُ بِالنَّاسِ جَعَلَ اللَّهُ لِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَرْجًا وَمَخْرَجًا فَعَلَى مِنْوَالِهِمْ فَانْسَجَ إِنْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ .

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنَّهُ إِذَا قَدَّرَ أَنْ يَحْمِلَ الْحَوَائِجَ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ أَوْ عَلَى دَابَّتِهِ فَهُوَ بِهِ أَوْلَى لِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ رَاكِبَهَا ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّوَاضُّعِ وَالِامْتِنَالِ وَتَرْكِ الْبِدْعَةِ .

وَيَنْبَغِي لَهُ إِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ وَأَحَدٌ يَمْشِي مَعَهُ إِلَى السُّوقِ

أَنْ يُرِدْفَهُ خَلْفَهُ لِيَكْمُلَ لَهُ امْتِنَالُ السُّنَّةِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُرِدِفُ خَلْفَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَفِيهِ فَايِدَةٌ أُخْرَى وَهِيَ التَّوَاضُّعُ فَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا يَتَّعَاطَاهُ بَعْضُ أَهْلِ الْوَقْتِ مِمَّنْ يَتَّحَامِي ذَلِكَ وَهُوَ خِلَافُ السُّنَّةِ فَإِنْ احتَاجَ إِلَى مَنْ يَحْمِلُ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْحَوَائِجِ فَيَسْتَأْجِرُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يُعْطِي لغيرِهِ أَنْ يَحْمِلَ بِلَا أُجْرَةٍ اللَّهُمَّ إِنَّا أَنْ يَحْلِفَ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ فَيَتَّعِينَ عَلَيْهِ إِبْرَارٌ فَسَمِهِ لَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يُعْلِمَهُ أَنْ لَا يَحْلِفَ بَعْدُ .

وَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَسْتَعِينَ بِأَحَدٍ مِمَّنْ يَقْرَأُ عَلَيْهِ خَوْفًا أَوْ يَتَّعَجَلُ أَجْرَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا .

وَكَانَ السَّلْفُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يَتَحَرَّزُونَ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرًا وَقَدْ رَأَيْتُ الشَّيْخَ الْجَلِيلَ أَبَا إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ التَّنِيسِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ تِلْمَسَانَ وَكَانَ فَاضِلًا فِي الْعِلْمِ وَالِدِّينِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ إِلَى خَارِجِ الْبَلَدِ فَعَطِشُوا وَاشْتَدَّ عَطَشُهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَاءٌ فَرَأَوْا عِمَارَةً فَجَاءُوا إِلَيْهَا يَطْلُبُونَ الْمَاءَ فَإِذَا بَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ تِلْمَسَانَ الْقَرْيَةِ وَكَانَ قَدْ قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي إِسْحَاقَ فَذَهَبَ فَأَتَى بِلَيْنٍ فِيهِ سَكَّرٌ فَأَعْطَاهُ لِلشَّيْخِ لِيَشْرَبَ فَأَبَى عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ وَجْهِ حِلِّ ؟ فَقَالَ لَهُ ؛ لِأَنَّكَ قَرَأْتَ عَلَيَّ وَلَا يُمَكِّنِي أَنْ آخُذَ مِنْكَ شَيْئًا لِنَلَا أَتَعَجَّلَ ثَوَابَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا فَرَغَبَهُ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَفْعَلْ .

وَقَدْ كَانَ سَيِّدِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَسْتَقْضِي حَاجَةً مِمَّنْ قَرَأَ عَلَيْهِ فِي الْغَالِبِ ، وَذَلِكَ خِيفَةً مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَرَجَ إِلَى السُّوقِ لِقَضَاءِ بَعْضِ حَوَائِجِهِ فِي وَقْتٍ فَأَخَذَ جُمْلَةَ حَوَائِجِهِ فَأَشْغَلَ يَدَيْهِ مَعًا فَتَنَزَلَ الْبِيَّاعُ مِنَ الدُّكَّانِ

وَسَأَلَهُ أَنْ يَحْمِلَ لَهُ بَعْضَ الْحَوَائِجِ فَأَبَى عَلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَعْطَاهُ شَيْئًا حَمَلَهُ لَهُ ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِ الْبِيَّاعُ رُؤْيَا رَأَاهَا فَسَكَتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ يَا سَيِّدِي أَمَا تُعْبِرُهَا لِي ، فَقَالَ لَهُ لَا يُمَكِّنِي ذَلِكَ وَأَنْتَ تَحْمِلُ لِي شَيْئًا فَيَكُونُ ذَلِكَ أُجْرَةَ عَلَيَّ عَلَى الْعِلْمِ فَرَغَبَهُ فَأَبَى عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُعْطِيَهُ حَاجَتَهُ يَحْمِلُهَا بِنَفْسِهِ فَمِنْ رَغَبَةِ الرَّجُلِ فِي تَعْبِيرِ تِلْكَ الرُّؤْيَا أَعْطَاهُ حَوَائِجَهُ فَحَمَلَهَا بِنَفْسِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَبَّرَ لَهُ رُؤْيَاهُ وَمَضَى لِسَبِيلِهِ فَانْظُرْ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ إِلَى تَحَرُّزِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ فِيهَا فَأَيُّنَ الْحَالِ مِنَ الْحَالِ فَيَكُونُ الْعَالَمُ مُتَقَيِّظًا لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَلَيْسَ هَذَا خَاصًّا بِمَنْ قَرَأَ عَلَيْهِ لَيْسَ إِلَّا بَلْ هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ حَصَلَ لَهُ مِنْهُ إِرْشَادٌ مَا أَوْ تَعْلِيمٌ مَا فَيَتَحَفَّظُ مِنْ هَذَا جَهْدَهُ وَدَيْنَ اللَّهِ يُسِرُّ .

فَإِنْ كَانَ الْعَالِمُ لَهُ عُذْرٌ فِي التَّخْلُفِ عَنْ قَضَاءِ حَاجَتِهِ بِيَدِهِ إِمَّا لِضَعْفٍ مِنْ كِبَرٍ أَوْ غَيْرِهِ أَوْ شَغْلٍ مَعَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ أَوْ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ أَمْرِ دِينِهِ الصَّرُورِيِّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْدَارِ الشَّرْعِيَّةِ فَالْتِيَابَةُ إِذْ ذَاكَ لَهُ أَفْضَلُ بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ فِي وَقْتِهِ إِذْ أَنْ إِلْقَاءَ الْعِلْمِ لِأَهْلِهِ لَا يَفُوقُهُ غَيْرُهُ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ لِلْعَمَلِ بِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَمَعَ هَذَا لَوْ تَوَالَتْ بِهِ الْأَشْعَالُ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُخَلِّي نَفْسَهُ مِنْ إِحْيَاءِ هَذِهِ السُّنَّةِ أَغْنِي الْخُرُوجَ إِلَى السُّوقِ وَلَوْ مَرَّةً فِي وَقْتِ مَا فَإِنْ لَمْ يَجِدْ سَبِيلًا لِكَثْرَةِ الْأَشْتِعَالِ عَلَيْهِ فَلْيَخْرُجْ إِلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَشْتَغِلُونَ عَلَيْهِ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَذْمُومِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي وَطْءِ الْأَعْقَابِ ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مَا خَرَجُوا مَعَهُ إِلَّا

لِضُرُورَةٍ تَعْلِيمِيهِمْ وَخَرَجَ هُوَ لِإِظْهَارِ سُنَّةٍ وَلَا يُعَكَّرُ عَلَى هَذَا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الْأَسْوَاقِ إِذْ أَنْ ذَلِكَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا كَلَامُ الْبَشَرِ ، نَعَمْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَقْرَأَ حَدِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَرِيقِهِ إِذْ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلُ مِنْ كَلَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَيَّنُ أَحْيَرَامُهُ وَتَعْظِيمُهُ

وَكَذَلِكَ لَا يَقْرَأُ فِي الْأَسْوَاقِ وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْمَشْيِ مَعَهُ لِهَذِهِ الضَّرُورَةِ إِمَّا هُوَ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ فِتْنَةٍ وَطْءِ عَقْبِهِ فَإِنْ وَقَعَ لَهُ خَوْفٌ مِمَّا مِنْ هَذِهِ السُّنَّةِ فَتَرُكُ هَذِهِ السُّنَّةِ أَوْلَى بِهِ أَوْ يَخْرُجُ لِفِعْلِهَا وَحَدَهُ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ فِي التَّخْلُفِ عَنْ قَضَاءِ حَاجَتِهِ بِيَدِهِ فَيَسْتَنْبِئُ مَنْ يَقْضِي لَهُ ذَلِكَ لَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يُعَلِّمَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُحَاوَلَةٍ مَا خَرَجَ إِلَيْهِ بِسَبَبِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْبِيَاعَاتِ الْفَاسِدَةِ فِي الْأَسْوَاقِ وَمَا لَا يَجُوزُ بَيْعُهُ وَمَا يُكْرَهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِهِ .

فَجُمْلَةُ مَا تَحْصُلُ فِي خُرُوجِهِ إِلَى السُّوقِ مِنَ النَّيَّاتِ وَالْآدَابِ يَبُوءُ عَنْ خَمْسِينَ خَصْلَةً وَهِيَ عَلَى سَبِيلِ التَّنْبِيهِ لِمَا عَدَاهَا فَلْيَتَنَبَّهْ مَنْ يَتَنَبَّهْ مِمَّنْ يُوفَّقُ لِذَلِكَ ، وَاللَّهُ يُوفِّقُ الْجَمِيعَ بِمَنِّهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ أَكْثَرُهَا فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَالْحَاصِلُ أَنَّ مَا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ النَّيَّاتِ إِلَى الْمَسْجِدِ يَخْرُجُ بِهِ إِلَى السُّوقِ وَمَا يَخْتَصُّ بِالْمَسْجِدِ وَحَدَهُ فَهُوَ مَعْلُومٌ مَذْكُورٌ قَبْلَ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ .

وَمَنْ دَقَّقَ النَّظَرَ وَجَدَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِحَسَبِ مَا يَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الثُّورِ وَالْحُضُورِ

فَصَلِّ فِي رُجُوعِ الْعَالِمِ مِنَ السُّوقِ إِلَى بَيْتِهِ وَكَيْفِيَّةِ نَيْتِهِ فِي ذَلِكَ فَإِذَا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ فَيَنْوِي فِي رُجُوعِهِ كُلَّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي خُرُوجِهِ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى السُّوقِ وَمِنْهُ تَعْلِيمُ جَاهِلِهِمْ وَالتَّعَلُّمُ مِنْ عَالِمِهِمْ وَيَنْوِي فِي رُجُوعِهِ إِلَى بَيْتِهِ نِيَّةَ الْخُلُوةِ عَنِ النَّاسِ فَيَكُونُ مَا جُورًا فِي خُطَاهُ إِلَى الْخُلُوةِ وَإِذَا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِئْذَانِ عَلَى أَهْلِهِ بِنِيَّةِ امْتِنَالِ السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَيُقَدِّمُ رِجْلَهُ الْيُمْنَى حِينَ دُخُولِهِ وَيُؤَخِّرُ الْيُسْرَى ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ عِنْدَ خُرُوجِهِ وَلَا تَقَعُ التَّفْرِيقَةُ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ إِلَّا بَيْنَ الْمَسْجِدِ وَبَيْتِ الْخَلَاءِ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ حَمَامٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ مَوَاضِعِ الْفَضَلَاتِ وَيُسَمِّي اللَّهُ تَعَالَى حِينَ دُخُولِهِ وَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَمْتِنَالِ السُّنَّةَ فِي الدُّعَاءِ الْوَارِدِ حِينَ الدُّخُولِ إِلَى الْبَيْتِ وَهُوَ أَنْ يَقُولَ ( اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا ) ثُمَّ يَتَعَوَّذُ وَيَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إِلَى آخِرِهَا .

وَيَنْوِي حِينَ دُخُولِهِ إِلَى بَيْتِهِ نِيَّةَ الْخُلُوةِ عَنِ النَّاسِ كَمَا تَقَدَّمَ لَكِنْ يَنْوِي بِذَلِكَ لِيَسَلَّمَ النَّاسُ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ لِسَانِهِ وَنَظَرِهِ وَسَمْعِهِ وَبَطْنِهِ وَسَعْيِهِ وَحَسَدِهِ وَبَغْيِهِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْخِصَالِ الرَّدِيئَةِ إِذْ أَنْ كُلَّ مَنْ قَرَّبَ مِنْ بَابِ



رَبِّهِ تَعَالَى كَانَ أَسْوَأَ ظَنًّا بِنَفْسِهِ كَمَا قَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ لَمَّا انْعَزَلَ فِي خَلْوَتِهِ عَنِ النَّاسِ وَانْفَرَدَ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ قَالَ وَجَدْتُ لِسَانِي كَلْبًا عَقُورًا قَبْلَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ مَنْ خَالَطَهُ فَحَبَسْتُ نَفْسِي لِيَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ شَرِّهِ وَآفَتِهِ .  
وَفِي هَذِهِ النِّيَّاتِ مِنَ الْخَيْرَاتِ أَشْيَاءٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْهَا أَنَّهَا

تَحْتَوِي عَلَى عَدَمِ الدَّعْوَى وَعَلَى عَدَمِ التَّكْبِيرِ وَالتَّجَبُّرِ وَالتَّخِيلَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخِصَالِ الرَّدِيئَةِ فَبِنَفْسِ هَذِهِ النِّيَّةِ تَنْدَفِعُ كُلُّهَا وَفِي الْخَلْوَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ أَشْيَاءٌ مُتَعَدِّدَةٌ تَحْصُلُ لَهُ دُونَ كَلْفَةِ يَتَكَلَّفُهَا وَسَيَّئَاتِي بَيَانُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذِكْرِ حَالِ الْمُرِيدِ ، وَاللَّهُ يَنْفَعُ بِالْجَمِيعِ بِمَنْهِ وَيَحْذَرُ أَنْ يَنْوِيَ بِالْخَلْوَةِ سَلَامَتَهُ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ دَاءٌ عُضَالٌ وَالْعُطْبُ فِيهِ مَوْجُودٌ إِذْ أَنْ فِيهِ تَحْسِينُ الظَّنِّ بِنَفْسِهِ وَإِسَاءَةُ الظَّنِّ بغيرِهِ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذَا حِينَ رُجِعَ الْعَالِمُ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى بَيْتِهِ فَأَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ وَإِنَّمَا ذِكْرُ بَعْضِ ذَلِكَ هُنَا زِيَادَةً تَنْبِيهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُؤَقِّقُ ، فَإِنْ احتَاجَ أَهْلُهُ إِلَى حَاجَةٍ أُخْرَى أَوْ نَسِيَ شَيْئًا مِمَّا خَرَجَ إِلَيْهِ فَلَا يَعُودُ إِلَى السُّوقِ وَيَتْرُكُ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ ضَرُورِيًّا اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ يَخَافُ فَوَاتَ أَمْرٍ ، مِثْلَ مَرِيضٍ يَحْتَاجُ إِلَى فِصَادٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ غِذَاءٍ أَوْ دَوَاءٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لِنَلَا يَمْضِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ فِي الْأَسْوَاقِ كَمَا سَبَقَ ؛ لِأَنَّ الْأَهْلَ إِذَا عَلِمُوا أَنَّهُ مَهْمَا أَعُوزَهُمْ شَيْءٌ يَقْضِي لَهُمْ تَكْثُرَ حَوَائِجِهِمْ وَيَضِيعُ عَلَيْهِ وَقْتُهُ فَإِذَا عَلِمُوا مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً جَمَعُوا لَهُ الْحَوَائِجَ كُلُّهَا فِي خُرُوجِهِ فَيَحْفَظُ عَلَيْهِ وَقْتَهُ وَإِذَا قَعَدَ فِي بَيْتِهِ مَعَ أَهْلِهِ وَبَنِيهِ فَاجْرُ الْخَلْوَةِ حَاصِلٌ لَهُ ، فَإِنْ عَمِلَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْبِ بِحَضْرَتِهِمْ أَوْ مَعَ عِلْمِهِمْ فَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ عَمَلِ السِّرِّ وَلَهُ تَضْعِيفُ الثَّرَابِ فِيهِ إِذْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا ثَلَاثَةً مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ لَا تَخْرُجُ عَنْ عَمَلِ السِّرِّ ، وَإِنْ عَمِلْتَ فِي الْجَهْرِ وَهِيَ سُجُودُ التَّلَاوَةِ إِذَا مَرَّ النَّالِي بِسَجْدَةٍ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي

سِرِّهِ فَيَسْجُدُ لَهَا بِحَضْرَةِ غَيْرِهِ وَإِذَا كَانَ صَائِمًا فَدَعِيَ إِلَى طَعَامٍ ، فَقَالَ إِنِّي صَائِمٌ ، وَإِذَا كَانَ مَعَ أَهْلِهِ يَعْمَلُ عَمَلًا وَهُمْ مَعَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ كَلْفٌ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ عَمَلِ السِّرِّ وَلَا عَنْ الْخَلْوَةِ .  
أَمَّا سُجُودُ التَّلَاوَةِ فَلِأَنَّهُ مَأْمُورٌ إِذَا مَرَّ بِسَجْدَةٍ يَسْجُدُ لَهَا فَإِذَا كَانَ مَعَهُ غَيْرُهُ فَلَا يَتْرُكُهَا لِأَجْلِ الْغَيْرِ إِذْ أَنْ تَرَكَ الْعَمَلَ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءً وَالرِّيَاءُ مَمْنُوعٌ فِعْلُهُ .

وَأَمَّا الصَّوْمُ فَيَحْتَاجُ إِلَى ذِكْرِهِ إِذَا خَافَ التَّشْوِيشَ عَلَى مَنْ دَعَاهُ حَتَّى يُرْفَعَ عَنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ تَشْوِيشِ خَاطِرِهِ ، وَأَمَّا الْعَمَلُ بِحَضْرَةِ أَهْلِهِ فَلَوْ كَلَّفَ أَنْ لَا يَعْمَلَ الْعَمَلَ إِلَّا بِعَيْبَتِهِ عَنْهُمْ لَكَانَ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ وَمَشَقَّةٌ وَفَتْحٌ بَابِ لِتْرِكِ الْعَمَلِ ، لَكِنْ إِذَا أَرَادَ جَمْعَ خَاطِرِهِ وَقَدَّرَ أَنْ يَكُونَ بِمَعَزَلٍ عَنِ الْأَهْلِ فَهُوَ أَوْلَى بِهِ ، وَهَذَا يُشْتَرَطُ فِي حَقِّ الضَّعِيفِ الَّذِي يُجَلُّ بِحَالِهِ الْجَمِيعِ .

وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّنْفُلِ فِي الْبَيْتِ إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّنْفُلِ فِي الْمَسْجِدِ يَعْنِي لِقَضِيئَةِ عَمَلِ السِّرِّ فَإِنْ كَانَ فِي الْبَيْتِ أَوْلَادٌ أَوْ مَنْ يُفَرِّقُ خَاطِرَهُ فِي عِبَادَتِهِ فَبِي الْمَسْجِدِ أَفْضَلُ انْتَهَى .  
وَأَمَّا أَهْلُ التَّمَكِينِ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى ذَلِكَ .

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي بَيْتِهِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ وَقَرَهُ أَهْلُهُ وَاحْتَرَمُوهُ كَثِيرًا فَإِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ كَثُرَ لَعَطُهُمْ وَيَتَكَلَّمُونَ بِمَا يَخْتَارُونَ فَسَأَلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ لَا يَسْمَعُ مَا نَقُولُ ، فَمَنْ كَانَ هَذَا حَالُهُ كَيْفَ تَنْصَرِفُ هِمَّتُهُ لِرُؤْيَاةِ الْأَوْلَادِ مُمَارَاجَتِهِمْ أَوْ غَيْرِهِمْ .

وَقَدْ سَمِعْتُ سَيِّدِي أَبَا مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ تَكُونُ فِي وَقْتِ دُونَ وَقْتٍ فَفِي بَعْضِ

الْأَوْقَاتِ تَكُونُ فِي الْبَيْتِ الْحَرَكَةُ الْكَثِيرَةُ وَالْبُكَاءُ الْكَثِيرُ مِنَ الْوَالِدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُشَوِّشُ الْخَاطِرَ فَلَا أَسْمَعُهُ وَلَا أَعْرِفُ بِهِ وَكُلُّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى حَالِي وَبَعْضُ الْأَوْقَاتِ أَشْعُرُ بِهِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحُضُورِ وَالتَّفْرِقَةِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ فِي تِلَاوَتِهِ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَبَعْضُ الْأَيَّامِ أَصْلَى الصُّحُحِ ثُمَّ اسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَمَا يَجِيءُ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ بِقَلِيلٍ إِلَّا وَأَنَا قَدْ حَتَمْتُ ، وَبَعْضُ الْأَيَّامِ لَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ الْحُضُورِ فَإِنْ كُنْتُ حَاضِرًا كَانَ ذَلِكَ وَبِحَسَبِ التَّفْرِقَةِ يَكُونُ الْبُطْءُ فِي الْخَتْمِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ لَا يَسْتَوِيَانِ ، فَعَلَى هَذَا فَالْخُلُوةُ عَنِ الْأَهْلِ مُشْتَرَطَةٌ فِي حَقِّ الضَّعِيفِ وَفِي وَقْتِ التَّفْرِقَةِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُعْطِيَهُمْ حَظَّهُمْ مِنْهُ فِي وَقْتِ مَا وَيُؤَاكِلُ أَهْلَهُ وَبَنِيهِ وَجَوَارِيَهُ وَعَبِيدَهُ مِنْ صَحْفَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَرُبَّمَا كَانَ هَذَا أَفْضَلَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خَلَوَاتِهِ ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ وَجُوهًا مِنَ الْخَيْرِ مِنْهَا امْتِنَالُ السُّنَّةِ وَالتَّوَضُّعُ وَإِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ مَنْ رَأَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَ الْكَلْبِ فَالْكَلْبُ خَيْرٌ مِنْهُ وَقَوْلُهُ هَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ أَلَّا تَرَى أَنَّ الْكَلْبَ مَقْطُوعٌ لَهُ بِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ مُحْتَمَلٌ لِدُخُولِهَا إِلَّا مَنْ اسْتَشْنَى فَالْكَلْبُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ أَفْضَلُ مِنْهُ وَفِي الْأَكْلِ مَعَ مَنْ تَقَدَّمَ تَرَكُ رِعُونََةَ النَّفْسِ وَتَرَكُ رِيَاسَتِهَا وَالتَّعَاطُفَ وَالتَّخَوُّفَ وَالتَّوَجُّهَ وَرُؤْيَا الْفَضْلِ لِعَبْرَتِهَا مِمَّا هُوَ بَيِّنٌ وَاضِحٌ فَيَقْوَى الرَّجَاءُ لِمَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ النَّاجِينَ ، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُنَجِّنَنَا مِنْ جَمِيعِ الْمَهَالِكِ بِفَضْلِهِ أَجْمَعِينَ .

وَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْخُلُوةِ مَعَ وَجُودِ

الْأَهْلِ فَهُوَ عَلَى جَادَّةِ مَذْهَبِ الْعُلَمَاءِ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - وَمَذْهَبُ بَعْضِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ أَنَّ عَمَلَ السَّرِّ هُوَ الَّذِي لَا يُعْرَفُ بِهِ الْمَلَكَانِ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ آدَابِ الْعَالِمِ فِي أَخْذِهِ الدَّرْسِ فِي الْمَسْجِدِ

أَخْذُ الدَّرْسِ فِي الْبَيْتِ وَالْمَدْرَسَةِ وَبَقِيَ الْكَلَامُ عَلَى أَخْذِهِ الدَّرْسِ فِي بَيْتِهِ أَوْ فِي الْمَدْرَسَةِ فَإِنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ لِضَرُورَةٍ مَا أَعْنِي لَا يُمَكِّنُهُ الْخُرُوجُ لِأَجْلِهَا فَأَخْذُهُ الدَّرْسِ فِي الْبَيْتِ أَوْلَى بَلْ أَوْجَبُ ؛ لِأَنَّ تَرَكَهُ فِيهِ ضَرَرٌ فِي الْعَالِبِ عَلَيْهِ وَعَلَى إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ .

فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَالْأَدَبُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْمَسْجِدِ لَكِنْ يَخْتَصُّ الْبَيْتَ بِبَعْضِ الْآدَابِ ، وَإِنْ كَانَتْ مَطْلُوبَةً فِي الْمَسْجِدِ لَكِنْ فِي الْبَيْتِ تَتَأَكَّدُ ، فَمِنْهَا كَثْرَةُ تَوَاضُعِهِ لِلدَّاحِلِينَ عَلَيْهِ أَعْنِي فِي تَلْقِيهِمْ بِبِشَاشَةِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ التَّلْقِي إِذْ أَنَّ الْبَيْتَ مَحَلُّ انْقِيَابِهِمْ بِخِلَافِ الْمَسْجِدِ ؛ لِأَنَّهُمْ وَغَيْرُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ فَإِنْ لَمْ يَسْطُرْ لَهُمُ الْأُنْسُ وَإِلَّا كَانَ سَبَبًا لِانْقِيَابِهِمْ أَوْ عَدَمِ مَجِيئِهِمْ أَوْ يَقِلُّ فَهَمُّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ مَا يَلْقِيهِ إِلَيْهِمْ وَمِنْهَا أَنْ يَأْذَنَ لِلطَّلَبَةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْاسْتِفْتَاءِ أَوْ التَّلْعِيمِ أَوْ لِيَسْمَعَ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْخَلِيفَةِ أَذْرَكَتِ الْعُلَمَاءُ وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ إِذَا مَنَعَ عَنِ الْعَامَّةِ لَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ الْخَاصَّةُ انْتَهَى .

وَيَحْتَمَلُ عَدَمَ الْإِنْفِاعِ بِهِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ لَا يُوقَفُونَ لِلْعَمَلِ بِهِ .

وَالثَّانِي : أَنَّ ثَوَابَ الْعِلْمِ يَكْثُرُ بِانْتِشَارِهِ ، فَكُلَّمَا انْتَشَرَ زَادَ الثَّوَابُ لِمُعَلِّمِهِ وَحَصَلَ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ .

وَإِذَا وَقَعَ الْإِخْتِصَاصُ بِهِ امْتَنَعَ انْتِشَارُهُ ، وَإِذَا امْتَنَعَ انْتِشَارُهُ ذَهَبَ بَعْضُ ثَوَابِهِ .

وَالثَّلَاثُ : أَنَّ يُحْرَمَ الْخَاصَّةُ فَهَمُّ تِلْكَ الْمَسَائِلِ وَمَعَانِيهَا ؛ لِأَنَّ فِي إِخْتِصَاصِهِمْ بِذَلِكَ نَوْعَ تَكْبُرٍ وَتَجَبُّرٍ وَبُخْلِ

بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُنْفِقُوهُ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي مَنْ بِهِ عَلَيْهِمْ فَحَرِّمُوا الْفَهْمَ فِيهِ .  
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي

الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ { الْآيَةَ وَمَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ أَنْ بَعْضَ الْمُتَكَبِّرِينَ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ  
وَلَكِنَّهُمْ مَنَعُوا فَأَنْدَتَهُ وَهِيَ الْفَهْمُ فِيهِ وَالْعَمَلُ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَطْلُوبُ فَبَقِيَ الْعَوَامُّ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ ،  
وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُسْتَعَانَ .

وَمِنْ آدَابِهِ أَنْ يَكُونَ الْإِذْنَ مَشْهُورًا مَعْلُومًا ؛ لِأَنَّ عَدَمَ اشْتِهَارِهِ سَبَبٌ لِقَلَّةِ انْتِشَارِ الْعِلْمِ أَوْ يَكُونُ فِيهِ بَعْضُ كَتْمٍ  
لَهُ .

وَمِنْ آدَابِهِ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُ أَخْذِ الدَّرْسِ فِي الْبَيْتِ بَحِيثٌ لَا يُسْمَعُ فِيهِ لِأَهْلِ الْبَيْتِ حَسٌّ وَلَا كَلَامٌ خِيفَةٌ مِمَّا  
يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي لَا يُشْعُرُ بِهَا .

وَمِنْ آدَابِهِ أَنْ يَكُونَ الْوَقْتُ مَعْلُومًا ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا وَقَعَ الضَّرْرُ بِهِ وَبِمَنْ يَأْتِي إِلَيْهِ إِذْ أَنْ وَقْتُ الْإِذْنَ  
بَقِيَ غَيْرَ مَضْبُوطٍ لَهُمْ .

وَمِنْهَا أَنَّهُ إِذَا سَمِعَ الْإِذْنَ وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ فِي أَثْنَاءِ الدَّرْسِ قَطَعَ وَقَامَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ لِيَتَأَهَّبُوا لِلصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ  
فِي جَمَاعَةٍ إِذْ أَنْ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ إِظْهَارِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ .

فَإِذَا خَرَجَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ظَهَرَتْ بِذَلِكَ الشَّعَائِرُ وَاقْتَدَى بِهِ النَّاسُ فِي ذَلِكَ وَحَصَلَ لَهُمْ بَرَكَاتٌ امْتِنَالِ  
السُّنَّةِ لِمَا فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسْجِدِ مِنَ الْبَرَكَاتِ وَالْخَيْرَاتِ وَالثَّوَابِ الْمُرْتَبِّ عَلَى ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ .

أَلَا تَرَى إِلَى وَصْفِ الْوَاصِفِ لِبَعْضِ حَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الْإِذْنَ خَرَجَ فَيَحْصُلُ  
لِلْعَالِمِ بَرَكَاتٌ الْإِمْتِنَالِ وَالِاقْتِدَاءِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، وَإِنْ كَانَتْ صَلَاةُ الْعَالِمِ  
فِي الْبَيْتِ فِي جَمَاعَةٍ مَعَ طَلَبْتِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ يَحُورُونَ بِهَا فَضِيلَةَ الْجَمَاعَةِ لَكِنْ يَذْهَبُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ إِذَا صَلَّوْا فِي  
الْبَيْتِ الْفَضَائِلِ وَالْأَجُورِ

الْمَذْكُورَةَ فِي الْمَشْيِ إِلَى الْمَسْجِدِ وَيَكُونُ مَا وَقَعَ مِنْهُ وَمِنْهُمْ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمَكْرُوهَةِ كَرَاهَةً شَدِيدَةً إِذْ أَنَّ النَّاسَ  
يَقْتَدُونَ بِهِ وَبِهِمْ فِي ذَلِكَ .

وَقَدْ يُنَوَّلُ الْأَمْرُ إِلَى تَعْطِيلِ الْمَسَاجِدِ أَوْ بَعْضِهَا مِنَ الْجَمَاعَاتِ .

إِذْ الْعَالِبُ عَلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ لَا يَعْدَمُونَ مَنْ يُصَلِّيَ مَعَهُمْ فِي الْبُيُوتِ فَيَجِدُونَ السَّبَبَ لِلْقُدُورَةِ بِالْعَالِمِ فِي تَرْكِ هَذِهِ  
الشَّعِيرَةِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَهُ ضَرُورَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسْجِدِ لِأَجْلِهَا فَأَرْبَابُ الضَّرُورَاتِ لَهُمْ  
أَحْكَامٌ تَخْصُهُمْ لَكِنْ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَذْكَرَ لِمَنْ حَضَرَهُ أَنَّهُ مَضْرُورٌ لِتَرْكِ ذَلِكَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ الْوَجْهَ الَّذِي  
لِأَجْلِهِ تَرَكَ .

وَقَدْ قَالَ مَا لِكُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا كُلُّ الْأَعْدَارِ تُبْدَى .

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَافِظُونَ عَلَى آدَابِ الشَّرِيعَةِ كَمَا يُحَافِظُونَ عَلَى  
الْوَاجِبَاتِ مِنْهَا .

أَلَا تَرَى أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى الْمَسْجِدِ لِشِدَّةِ مَرَضِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَيْهِ يَتَهَادَى بَيْنَ اثْنَيْنِ لِأَجْلِ شُهُودِ  
الصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ لِيَشْهَدَ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ وَاغْتِنَامَ بَرَكَتِهِمْ وَالصَّلَاةَ مَعَهُمْ وَخَلْفَهُمْ إِذْ الْعَالِبُ أَنْ فِيهِمْ مَنْ هُوَ

مَغْفُورٌ لَهُ وَمَنْ صَلَّى خَلْفَ مَغْفُورٍ لَهُ غُفِرَ لَهُ .

وَلِأَجْلِ هَذَا الْمَعْنَى كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَأْتِي إِلَى الْمَسْجِدِ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ رَغْبَةً مِنْهُ فِي فَضِيلَةِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ فَإِذَا امْتَلَأَ الصَّفُّ الْأَوَّلُ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى الصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى آخِرِ النَّاسِ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ أَمَّا سَبْقِي فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ فَلَأَحُوزَ فَضِيلَةَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ مَعَ أَوَّلِ الْوَقْتِ وَأَمَّا انْتِقَالِي إِلَى مَا سِوَاهُ فَلَعَلَّ أَنْ أُصَلِّيَ خَلْفَ مَغْفُورٍ لَهُ فَيَغْفِرَ لِي سَيِّمًا إِنْ كَانَ الْمَغْفُورُ لَهُ إِمَامًا فَيَخِ عَلَى بَخِ .

فَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي الْمَسَاجِدِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الدِّينِ وَمُهَيِّمَاتِهِ .

وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِذَا فَاتَتْهُ تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ مَعَ الْإِمَامِ أَعْتَقَ رَقَبَةً .

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَكَانَ لِلْعَالِمِ عُذْرٌ فِي التَّخَلُّفِ فِي الْبَيْتِ عَنِ الْمَسْجِدِ فَلْيَأْذَنْ لِمَنْ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ مِنَ الطَّلَبَةِ وَغَيْرِهِمْ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسْجِدِ لِأَجْلِ إِظْهَارِ شَعِيرَةِ الْجَمَاعَةِ وَلَا يُمَسِّكُهُمْ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ مَعَهُمْ وَيُصَلِّي هُوَ مَعَ مَنْ حَضَرَهُ مِنَ أَهْلِ الْبَيْتِ إِنْ أَمَكَنَ فَإِذَا قَضَوْا صَلَاتَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ رَجَعُوا إِلَيْهِ إِنْ كَانَ بَقِيَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ وَظِيفَتِهِمْ إِنْ شَاءُوا ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُصَلِّي مَعَهُ فِي الْبَيْتِ صَلَّى فَذَا فَهُوَ أَفْضَلُ لَهُ وَأَبْرَكُ لِأَجْلِ امْتِنَالِ السُّنَّةِ فِي إِذْنِهِ لَهُمْ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسْجِدِ لِإِظْهَارِ السُّنَّةِ وَالشَّعِيرَةِ كَمَا سَبَقَ .

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَثْرَةُ الْمَسَاجِدِ وَقَلَّةُ الْمُصَلِّينَ فِيهَا .

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو طَالِبِ الْمَكِّيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَقَدْ كَانُوا يَكْرَهُونَ كَثْرَةَ الْمَسَاجِدِ فِي الْمَحَلَّةِ الْوَاحِدَةِ .

رُوي أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ لَمَّا دَخَلَ الْبَصْرَةَ جَعَلَ كُلَّمَا خَطَا خُطْوَتَيْنِ رَأَى مَسْجِدًا ، فَقَالَ مَا هَذِهِ الْبِدْعَةُ كُلَّمَا كَثُرَتْ الْمَسَاجِدُ قَلَّ الْمُصَلُّونَ أَشْهَدُ لَقَدْ كَانَتْ الْقَبِيلَةُ بِأَسْرَهَا لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مَسْجِدٌ وَاحِدٌ وَكَانَ أَهْلُ الْقَبِيلَةِ يَتَنَاقَبُونَ الْمَسْجِدَ الْوَاحِدَ فِي الْحَيِّ مِنَ الْأَحْيَاءِ .

وَاحْتَلَفُوا إِذَا اتَّفَقَ مَسْجِدَانِ فِي مَحَلَّةٍ فِي أَيَّهِمَا يُصَلِّي .

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ فِي أَقْدَمِهِمَا .

وَالِيهِ ذَهَبَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ : وَكَانُوا يُجَاوِزُونَ الْمَسَاجِدَ الْمُحَدَّثَةَ إِلَى

الْمَسْجِدِ الْعَتِيقِ انْتَهَى .

فَإِذَا كَانَ الْعَالِمُ يَتَحَقَّقُ مِنْ هَذَا انْسَلَتْ

هَذِهِ التُّلْمَةُ فَلَمْ يُوْجَدْ تَعْطِيلٌ بِرَكْعَةِ الْآتِبَاعِ .

وَقَفْنَا اللَّهُ تَعَالَى لِذَلِكَ بِمَنْه .

وَلْيَحْذَرُ أَنْ يَمِيلَ أَوْ يَعْتَرَّ بِبَعْضِ عَوَائِدِ بَعْضِ أَهْلِ الْوَقْتِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَمَا أَشْبَهَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ بَعْضَ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْفَتْوَى يَسْمَعُ الْأَذَانَ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَلَا يُزْعِرُهُ ذَلِكَ وَلَا يَتَحَرَّكُ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْمَسْجِدِ وَلَوْ كَانَ عَلَى طَهَارَةٍ وَيَنْتَظِرُ حَتَّى يَأْتِيَهُ أَحَدٌ مِنَ الطَّلَبَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ فَيُصَلِّي مَعَهُ الْفَرَضَ وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ السِّيَاسَةِ بَأَن يَحْصُلَ لَهُمْ فَضِيلَةُ الْجَمَاعَةِ دُونَ خُرُوجِ وَحَرَكَةٍ إِلَى الْمَسْجِدِ وَدُونَ مُخَالَطَةِ الْعَوَامِ ، فَإِنْ لَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ فِي الْوَقْتِ وَخَشِيَ خُرُوجَهُ صَلَّى مَعَ أَهْلِهِ إِنْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ وَإِلَّا صَلَّى فَذَا ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَسْجِدُ عَلَى بَابِهِ أَوْ بِجَوَارِهِ ، وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ أَحَدٌ وَقَدْ يُصَلِّي فِيهِ مَنْ لَا يُؤْبَهُ لَهُ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ الْعِلْمَ ، وَلَوْ كَانَ الْمَسْجِدُ بَعِيدًا لَكَانَ

العالم أولى من يهرع إليه حين قرع سمعه النداء ؛ لأنه أعلم بقول النبي : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ أَكْثَرَكُمْ أَجْرًا أَعْدَكُمْ دَارًا } مَعَ عِلْمِهِ بِمَا فِي الْجَمَاعَةِ وَإِظْهَارِ الشَّعَائِرِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْبَرَكَاتِ وَالْكَتُوزِ فِي الْعَالِمِ لَا يُبَادِرُ إِلَيْهَا إِلَّا مَنْ يَعْرِفُهَا .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ { أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ ثَلَاثًا .

رَجُلٌ أُمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَرُؤُوسَهَا عَلَيْهَا سَاحِطٌ ، وَرَجُلٌ سَمِعَ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ فَلَمْ يُجِيبْ .

{ انْتَهَى .

ثُمَّ مَعَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ تَجِدُ الْجَامِعَ الْأَعْظَمَ فِي عَالِبِ الْأَوْقَاتِ إِذَا صَلَّى الْإِمَامُ يَسْتُرُهُ عَوَامُ النَّاسِ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ الْعِلْمَ ، وَقَدْ يَطْرَأُ عَلَيْهِ سَهْوٌ ، فَلَا يَجِدُ مِنْ يُسَّحُّ لَهُ وَلَا مَنْ يَسْتَحْلِفُهُ إِنْ جَرَى

عَلَيْهِ أَمْرٌ يُخَوِّجُهُ لِلْخُرُوجِ مِنَ الصَّلَاةِ فَيَكُونُ سَبَبًا لِإِفْسَادِ صَلَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ إِنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ لَا تَجِدُ فِيهِ فِي الْعَالِمِ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ عَكْسُ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلْفُ وَالْخَلْفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { لِيَلْبِسِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَانْتَهَى } ، وَالسُّنَّةُ الْمَاضِيَةُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ الْأَمْتَلُ فَالْأَمْتَلُ مِنْهُمْ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّلَاثُ عَلَى هَذَا الْمَنْهَاجِ إِلَى آخِرِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْأَمْتَلُ فَالْأَمْتَلُ مِنْهُمْ كَانُوا أَسْرَعَ سَبْقًا لِتِلْكَ الْمَوَاضِعِ فِي الْمَسْجِدِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَأَخَّرَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ ، وَهَذِهِ سُنَّةٌ قَدْ أُمِيتَتْ وَثَرَكَتْ فِي الْعَالِمِ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، لَكِنَّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ بَقِيَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ خَيْرٌ قَائِمَةٌ بِهَذِهِ الشَّعْبَةِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، فَإِنَّكَ تَجِدُ بِهَا الْمَسَاجِدَ مُصَانَّةً مُرْفَعَةً عَظِيمَةً لَا تَرْفَعُ فِيهَا الْأَصْوَاتُ ، وَلَا تُدْخَلُ إِلَّا لِلصَّلَاةِ أَوْ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَمَا قَدَّمَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَغَيْرِهِ ، فَهُمْ مَا شُونَ عَلَى ذَلِكَ الْأَسْلُوبِ أَوْ قَرِيبٍ مِنْهُ .

وَالَهُمْ عَادَةٌ حَسَنَةٌ قَدْ مَضَى ذِكْرُهَا وَهِيَ أَنَّ الَّذِينَ يَعْمُرُونَ الصُّفُوفَ الْأَمْتَلُ فَالْأَمْتَلُ لَكِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ الْإِمَامَ هُمْ أَكْثَرُ امْتِيَارًا مِنْ غَيْرِهِمْ فِي الْفَضْلِ وَالذِّينِ ، وَهُمْ مَعْلُومُونَ قَلَّ أَنْ يَغِيبَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، فَإِنْ غَابَ لِضُرُورَةٍ قَدَّمُوا مَوْضِعَهُ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ أَوْ يُقَارِبُهُ ، فَيُصَلِّي الْإِمَامُ وَهُوَ مُطْمَئِنُّ الْقَلْبِ مِمَّا يَطْرَأُ عَلَيْهِ فِي صَلَاتِهِ ، إِذْ أَنَّهُمْ فِي الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ بِحَيْثُ لَا يَغْفُلُونَ عَنْ حَرَكَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ ، وَهَذَا عَكْسُ مَا الْحَالُ عَلَيْهِ الْيَوْمَ حَتَّى إِثْنُهُ لَوْ حَضَرَ أَحَدٌ مِمَّنْ يُقْتَدَى بِهِ الْيَوْمَ فِي الْمَسْجِدِ لَرَأَيْتَهُ بَعِيدًا مِنَ الْإِمَامِ ، وَقَدْ

لَا يُصَلِّي فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ تَتَقَدَّمُهُ السَّجَادَةُ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ فَأَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .  
فَهَذَا بَعْضُ الْأَدَابِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْعَالِمِ إِذَا أَخَذَ الدَّرْسَ فِي بَيْتِهِ .

وَأَمَّا إِذَا كَانَ يَأْخُذُهُ فِي الْمَدْرَسَةِ فَادَابُهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْمَسْجِدِ ، لَكِنَّ الْمَسْجِدَ لَهُ آدَابٌ تَخْصُّهُ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا ، وَالْمَدْرَسَةُ لَهَا آدَابٌ تَخْصُّهَا سَنَدُ ذِكْرُهَا قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، لَكِنَّ أَخَذَ الدَّرْسَ فِي الْمَسْجِدِ أَفْضَلُ لِأَجْلِ كَثْرَةِ الْإِنْفِاعِ بِالْعِلْمِ لِمَنْ قَصَدَهُ وَمَنْ لَمْ يَقْصِدْهُ ، بِخِلَافِ الْمَدْرَسَةِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي إِلَيْهَا غَالِبًا إِلَّا مَنْ قَصَدَ الْعِلْمَ أَوْ الْاسْتِفْتَاحَ فَأَخَذَهُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَقْلُ رُتْبَةً فِي الْإِنْتِشَارِ مِنْهُ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَخَذَهُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَكْثَرَ انْتِشَارًا مِنْهُ فِي الْبَيْتِ ، وَالْعَالِمُ أَنَّهُ لَا يَقْصِدُ أَخَذَ الدَّرْسَ فِي الْمَدْرَسَةِ إِلَّا لِأَجْلِ الْمَعْلُومِ ، فَإِذَا

كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَيَنْبَغِي لَهُ إِذَا أَخَذَ الدَّرْسَ فِي الْمَدْرَسَةِ أَنْ يَأْخُذَ بِتِلْكَ التِّيَابِ الَّتِي وَصَفَتْ فِي الْمَسْجِدِ وَتِلْكَ  
الْأَدَابِ .

بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَزِيدَ فِي إِخْلَاصِ نِيَّتِهِ وَيَذْفَعَ الشَّوَابِ عَنْ نَفْسِهِ لِنَلَا يَتَعَلَّقَ خَاطِرُهُ بِالْمَعْلُومِ أَوْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ ،  
بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِنَانِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعُرْبِيِّ { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ } ، وَرَوَى  
الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { بَلِّغُوا عَنِّي  
وَلَوْ آيَةً } .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :  
{ نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ } انْتَهَى ، فَإِذَا جَاءَهُ الْمَعْلُومُ دُونَ  
سُؤَالٍ وَلَا اسْتِشْرَافٍ نَفْسٍ فَلَا بَأْسَ بِأَخْذِهِ

إِذَا كَانَتْ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَيْهِ .

هَذَا عَلَى جَادَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ التَّعْلِيمُ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ ، وَعَلَامَةٌ صِدْقِهِ فِيَمَا وَصَفَ مِنْ تَعْلِيمِهِ لِلَّهِ  
تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا قَطَعَ عَنْهُ الْمَعْلُومَ لَا يَتْرُكُ التَّعْلِيمَ وَلَا مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْاجْتِهَادِ وَلَا يَتَبَرَّمُ وَلَا يَتَضَجَّرُ ، بَلْ يَكُونُ  
فِي وَقْتِ قَطْعِ الْمَعْلُومِ أَكْثَرَ تَعْلِيمًا وَأَشَدَّ حِرْصًا عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَحَّضَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَعْلُومُ قَدْ قُطِعَ  
عَنْهُ اخْتِيَارًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكَيْ يَرَى صِدْقَهُ فِي عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ بِهِ ، فَإِنَّ رِزْقَهُ مَضْمُونٌ لَهُ مُطْلَقًا لَا يَنْحَصِرُ ذَلِكَ فِي  
جِهَةٍ دُونَ أُخْرَى .

قَالَ : عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { تَكْفَلَ اللَّهُ بِرِزْقِ طَالِبِ الْعِلْمِ } انْتَهَى ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَسِّرُهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ  
تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ تَكْفَلَ بِرِزْقِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ ، لَكِنَّ حِكْمَةَ تَخْصِيصِ طَالِبِ الْعِلْمِ  
بِالدُّرِّ أَنْ ذَلِكَ يَتَبَسَّرُ عَلَيْهِ بِلَا تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ كَمَا سَبَقَ ، فَجَعَلَ نَصِيحَتَهُ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ فِي الدَّرْسِ  
وَالْمُطَالَعَةِ وَالتَّفْهِيمِ لِلْمَسَائِلِ وَإِلْقَائِهَا ، وَذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى سَبِيلِ اللُّطْفِ بِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ .  
وَهَذَا مِنْ كَرَامَاتِ الْعُلَمَاءِ أَعْنِي فَهَمَّ الْمَسَائِلِ وَحُسْنَ إِلْقَائِهَا وَالْمَعْرِفَةَ بِسِيَاسَةِ النَّاسِ فِي تَعْلِيمِهَا ، كَمَا أَنَّ  
كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِيهَا أَشْيَاءٌ أُخْرَى يَطُولُ تَعْدَادُهَا مِثْلُ الْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ وَالطَّيْرَانِ فِي الْهَوَاءِ .  
وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَصُونَ هَذَا الْمَنْصِبَ الشَّرِيفَ مِنَ التَّرَدُّدِ لِمَنْ يُرْجَى أَنْ يُعِينَ عَلَى إِطْلَاقِ الْمَعْلُومِ أَوْ التَّنَحُّثِ فِيهِ  
أَوْ إِنْشَاءِ مَعْلُومٍ عَوَضَهُ .

وَقَدْ حَدَّثَنِي مَنْ أَتَقُّ بِهِ أَنَّهُ رَأَى بَعْضَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَكَانَ يُدْرَسُ فِي مَدْرَسَةٍ فَانْقَطَعَ الْمَعْلُومُ عَنْهُ وَعَنْ  
طَلْبَتِهِ أَوْ

نُفِصَ مِنْهُ ، فَقَالُوا لِلْمُدْرَسِ : لَعَلَّكَ أَنْ تَمْشِيَ إِلَى فُلَانٍ وَكَانَ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا لِتَجْتَمِعَ بِهِ عَسَى أَنْ يَأْمُرَ بِإِطْلَاقِ  
ذَلِكَ الْمَعْلُومِ ، فَقَالَ : نَعَمْ مِرَارًا إِلَى أَنْ عَزَمُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَحْجِي مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَكْذِبَ  
هَذِهِ الشَّيْبَةَ عِنْدَهُ ، فَقَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنِّي أُصْبِحُ كُلَّ يَوْمٍ أَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا  
مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ فَأَقُولُ هَذَا وَأَقْفُ بَيْنَ يَدَيَّ مَخْلُوقٍ أَسْأَلُهُ ذَلِكَ ، وَاللَّهِ لَا فَعَلْتَهُ فَلَمْ يَمْشِ إِلَيْهِ .

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَذْكُرَ قَطْعَ الْمَعْلُومِ بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يُشْهِرُهُ إِذْ أَنْ ذَلِكَ مِنَ الصَّجْرِ وَقِلَّةِ الثَّقَةِ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ تَعَالَى

والتَّعَرُّضِ إِلَى أَطْلَاعِ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ضَرُورَاتِهِ ، وَالْعَالِمِ أَوْلَى مَنْ يَتَّقُ بَرِّهَ فِي الْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ ، بَلِ الْمَنْعُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ هُوَ عَطَاءٌ ؛ لِأَنَّ اخْتِيَارَ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ أَحْسَنَ وَأَوْلَى مِنَ اخْتِيَارِ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ ، إِذْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ .

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَدْرَسَةِ عَلَى مَا وُصِفَ فِي الْمَسْجِدِ مِنَ التَّوَاضُعِ وَالْقُرْبِ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الطَّلَبَةِ وَغَيْرِهِمْ وَلَا يَمْنَعُ أَحَدًا مِنَ عَامَّةِ النَّاسِ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ إِذَا مُنِعَ عَنِ الْعَامَّةِ لَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ الْخَاصَّةُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَإِعْلَاقُ بَابِ الْمَدْرَسَةِ فِيهِ الْإِخْتِصَاصُ عَنِ الْعَامَّةِ وَمَنْعُهُمْ مِنَ الْإِسْتِمَاعِ لِلْعِلْمِ وَالتَّيَرُّكِ بِهِ وَبِأَهْلِهِ ، وَكَذَلِكَ الْبُؤَابُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ حِجَابٌ عَنِ الْعِلْمِ أَيْضًا وَإِخْتِصَاصٌ بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، بَلِ يَفْتَحُ الْبَابَ وَلَا يَمْنَعُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى الدُّخُولَ كَمَا هُوَ فِي الْمَسْجِدِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّمَا جُعِلَ الْبُؤَابُ لِأَجْلِ أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْعَوَامِ إِذَا دَخَلُوا الْمَدْرَسَةَ تَشَوَّشَ الْمَوْضِعَ وَكَشَفُوا عَوْرَاتِهِمْ عِنْدَ الْفَسْفِيسَةِ ، وَقَدْ يَسْرِقُ بَعْضُهُمْ بَعْضَ أَقْدَامِ الْفُقَهَاءِ ، وَقَدْ يَكْثُرُ لَعْنُهُمْ . فَالْجَوَابُ : أَنَّ الْبُؤَابَ الَّذِي يَقَعْدُ عَلَى الْبَابِ أَوْ غَيْرِهِ يَكُونُ وَاقِفًا عِنْدَ أَخَذِهِمُ الدَّرْسَ ، فَلَا يَتْرُكُ أَحَدًا مِمَّنْ يُتَّهَمُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا أَنْ يَقْرُبَ مِنْ نَاحِيَةِ أَقْدَامِهِمْ ، وَإِنْ رَأَى أَحَدًا يُرِيدُ أَنْ يَكْشِفَ عَوْرَتَهُ نَهَاهُ وَرَجَرَهُ وَمَنْعَهُ مِنْ ذَلِكَ .

وَيَنْبَغِي لَهُ أَيْضًا أَنْ لَا يَتَّخِذَ نَقِيبًا بَيْنَ يَدَيْهِ قَائِمًا كَانَ أَوْ جَالِسًا ، وَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ الْيَوْمَ مِنَ الْعَوَائِدِ الَّتِي لَيْسَتْ لِمَنْ مَضَى ؛ لِأَنَّ عُلَمَاءَ السَّلَفِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ فُرْقٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَجَالِسِهِمْ وَفِي مَجَالِسِ عِلْمِهِمْ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ ، وَمَا يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنْ اتِّخَاذِ الْحَاجِبِ وَالْبُؤَابِ وَالتَّقِيْبِ إِذَا يَفْعَلُهُ أَحَدٌ ثَلَاثَةَ أَشْخَاصٍ : إِمَّا مُتَكَبِّرٌ فِي نَفْسِهِ مُتَجَبِّرٌ ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرَهُ الْإِتْسَامَ بِالْعِلْمِ وَهُوَ مَنَسُوبٌ إِلَيْهِ فَهُوَ مَعْدُودٌ فِي الْمُتَكَبِّرِينَ ،

وَإِمَّا رَجُلٌ جَاهِلٌ يُرِيدُ الْعُلُوفَ فِي الْأَرْضِ بِجَهْلِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ عَلِمَ حَالَ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي تَوَاضُعِهِمْ لَتَشَبَّهَ بِهِمْ إِنْ سَلِمَ مِمَّا ذُكِرَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالتَّجَبُّرِ .

وَالثَّلَاثُ وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الْوَجْهِينِ الْمَدْكُورِينَ وَأَعْظَمُ ثُبُوتًا فِي الصُّدُورِ وَهِيَ الْعَوَائِدُ الْمُسْتَمِرَّةُ ، حَتَّى إِنَّهُ قَدْ يُدْرِكُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ الْوَاهِمُ فِي تِلْكَ الْعَوَائِدِ الْمُسْتَمِرَّةِ فَقَدْ يَجْعَلُهَا مِنْ قَبِيلِ الْمُنْدُوبِ إِنْ سَلِمَ مِنَ الْقَوْلِ بِوَجُوبِهَا مُسْتَنْدًا فِي ذَلِكَ إِلَى مَا أَنْسَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَائِدِ لِكُونِهِ نَشَأً فَوْجِدَهَا مَعْمُولًا بِهَا ، وَالْعُلَمَاءُ بَرَاءٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَفِي فِعْلِ مَنْ يُسْكِتُ الطَّلِبَ إِخْمَادًا لِلْعِلْمِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ بَعْضُ الطَّلَبَةِ لَمْ تَطْهَرْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ وَيُرِيدُ أَنْ يَنْحَتَ فِيهَا حَتَّى تَبِينَ لَهُ ، أَوْ عِنْدَهُ سُؤَالٌ وَارِدٌ يُرِيدُ أَنْ يُلْقِيَهُ حَتَّى يُزِيلَ مَا عِنْدَهُ ، فَيُسْكِتَ إِذْ ذَاكَ فَيَمْنَعُهُ مِنَ الْمَقْصُودِ .

وَكَذَلِكَ الْمُدْرَسُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يُسْكِتَ أَحَدًا إِلَّا إِذَا خَرَجَ عَنِ الْمَقْصُودِ أَوْ كَانَ سُؤَالُهُ وَبَحْثُهُ مِمَّا لَا يَنْبَغِي فَيُسْكِتُهُ الْعَالِمُ بِرَفْقٍ وَيُرْشِدُهُ إِلَى مَا هُوَ أَوْلَى فِي حَقِّهِ مِنَ السُّكُوتِ أَوْ الْكَلَامِ ، فَكَيْفَ يَقُومُ عَلَى الطَّلَبَةِ شَخْصٌ سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنَ الْعَوَامِ النَّافِرِينَ عَنِ الْعِلْمِ فَيُؤَدِّبُهُمْ بِبِدَاةِ لِسَانِهِ وَرَجَرِهِ بِعُنْفٍ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى نُفُورِ الْعَامَّةِ أَكْثَرَ سِيَّمَا وَمِنْ شَأْنِهِمُ التُّفُورُ فِي الْعَالِمِ مِنَ الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّهُ حَاكِمٌ عَلَيْهِمْ ، وَالتُّفُوسُ فِي الْعَالِمِ تَنْفِرُ مِنْ

الْحُكْمِ عَلَيْهَا ، فَإِذَا رَأَى الْعَوَامُ ذَلِكَ الْفِعْلَ الْمَذْمُومَ يُفْعَلُ مَعَ الطَّبِئَةِ أَمْسَكَتِ الْعَامَّةُ عَنِ السُّؤَالِ عَمَّا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَثْمًا لِلْعِلْمِ وَاخْتِصَاصًا بِهِ كَمَا سَبَقَ .

وَشَأْنُ الْعَالِمِ سَعَةُ الصَّدْرِ وَهُوَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَضِيقَ عَنِ سُؤَالِ الْعَامَّةِ وَجَفَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَيْهِ ؛ إِذْ أَنَّهُ مَحَلُّ الْكَمَالِ وَالْفَضَائِلِ وَقَدْ عَلِمَ مَا فِي سَعَةِ الْخُلُقِ مِنَ الثَّنَاءِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَنَاقِبِ الْعُلَمَاءِ مَا لَا يَأْخُذُهُ حَصْرٌ .

أَمَّا الْكِتَابُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } الْآيَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } فَتَخْصِيصُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْخُلُقِ بِالذِّكْرِ فِيهِ تَخْصِيصٌ عَظِيمٌ وَإِرْشَادٌ بَلِيغٌ عَلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ ، وَالِاتِّصَافُ بِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ الْمَمْدُوحَةِ شَرْعًا . فَإِنَّ قَالِ الْعَالِمِ مَثَلًا : إِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُسَكِّنَهُمْ فَأَدَّتِ الضَّرُورَةُ إِلَى مَنْ يُسَكِّنُهُمْ عَنْهُ ، وَهَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّكْبِيرِ وَالتَّجَرُّبِ .

فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا يَرُدُّهُ فِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِعْلُ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ إِلَى هَلْمٍ جَرًّا .  
أَمَّا

فِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ حَجَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّةَ الْوُدَاعِ وَمَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى نَاقَتِهِ ، وَهَذَا يَسْأَلُهُ ، وَهَذَا يُحَدِّثُهُ ، وَهَذَا يُنَادِيهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ تَمَّ حَاجِبٌ وَلَا طَرَادٌ وَلَا إِلَيْكَ إِلَيْكَ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَقُولُ : { اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُورًا لَا رِيَاءَ فِيهِ وَلَا سُمْعَةً } .

وَإِنَّمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَلِكَ لِلتَّشْرِيعِ لِأَمْتِهِ فَإِنَّهُ صَاحِبُ الْعِصْمَةِ الْكُبْرَى وَالْمَنْزِلَةِ الْمُنِيفَةِ الْعُظْمَى عِنْدَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْعُدُ لِلنَّاسِ عُمُومًا وَيَتَكَلَّمُ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهِ مِنَ التَّبْلِيغِ وَالتَّعْلِيمِ الْأَحْكَامِ ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ قَالَ : عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { مَنْ يَرِذِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ ، وَاللَّهُ يُعْطِي } أَنْتَهَى .

فَأَخْلَصَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَطِيَّةَ وَالْهَبَةَ لِلَّهِ تَعَالَى وَحَدَّهُ .

وَكَلامُهُ كَانَ عَامًّا ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَخْصُ قَوْمًا دُونَ آخَرِينَ بِإِلْقَاءِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهِمْ إِذْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ تَسَاوَوْا فِي الْأَحْكَامِ وَبَقِيَتْ الْمَوَاهِبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَخْصُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْغَالِبُ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتْ مُخَالَفَةُ السُّنَّةِ فِي أَمْرٍ أَنَّهُ لَا يَنْجَحُ ، وَمِنْ مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ أَنْ يَخْتَارَ قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلتَّعْلِيمِ دُونَ غَيْرِهِمْ .

وَأَمَّا فِعْلُ أَصْحَابِهِ بَعْدَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ فَكَثِيرٌ فِي هَذَا الْبَابِ بِحَيْثُ لَا يَأْخُذُهُ حَصْرٌ .

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنَّهُ إِذَا جَلَسَ أَنْ يَنْوِي بِجُلُوسِهِ إِظْهَارَ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا نَوَى ذَلِكَ عَادَتْ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ بَرَكَتُ تِلْكَ النِّيَّةِ السُّنِّيَّةِ

فَيُوقَفُ وَيُسَدَّدُ وَيَعَانُ وَيُحْمَلُ وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا يَتَوَقَّعُهُ غَيْرُهُ ، أَوْ يُصَيِّبُهُ مِنَ الْمَلَلِ وَالسَّامَةِ وَالصَّجَرِ وَالْكَبْرِ وَالْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ وَيَحْتَمِلُهُمْ كَاحْتِمَالِ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ ، بَلْ هُمْ أَعْظَمُ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً مِنْ أَوْلَادِهِ ؛ لِأَنَّ جُلُوسَهُ مَعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ تَعَالَى مُجَرَّدًا عَنْ حَظِّ النَّفْسِ ، وَشَفَقَتُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ لَهُ فِيهَا حَظُّ الْبَشَرِيَّةِ فِي الْغَالِبِ فَكَانَ احْتِمَالُهُ لَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَوْلَادِهِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالْبَرَكَتُ حَاصِلَةٌ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْبُؤَابِ وَالتَّقْيِبِ



فَلَا فَرْقَ إِذَنْ بَيْنَ بَابِ الْمَدْرَسَةِ وَأَبْوَابِ الْأَمْرَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُتَوَصَّلُ إِلَى أَبْوَابِهِمْ فِي الْغَالِبِ إِلَّا بِالْحَاجِبِ وَالنَّقِيبِ فَقَدْ اسْتَوِيَا فِي هَذَا الْمَعْنَى ، فَلَوْ قَدَرْنَا أَنْ أَحَدًا مِنْ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ بَفْتَوَى إِلَى بَابِ الْمَدْرَسَةِ يَجِدُ الْحَاجِبَ وَالْأَبْوَابَ وَغَيْرَهُمَا يَمْنَعُونَهُ ، بَلْ يَمْتَنِعُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ رُؤَيْتِهِ الْبِغَالِ وَالْغُلَمَانَ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْمَدْرَسَةِ ، وَلَا يَتَجَاسَرُ أَنْ يَصِلَ الْبَابَ بَلْ يَنْصَرِفُ وَيَتْرُكُ مَا جَاءَ بِسَبَبِهِ .

وَلَا يَظُنُّ طَائِفَةٌ أَنَّ الرُّكُوبَ عَلَى الدَّوَابِّ مَكْرُوهٌ ، بَلْ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا أَوْ جَائِزًا فَمَنْ بَعُدَتْ دَارُهُ ، وَهُوَ صَحِيحُ الْبَدَنِ فَرُكُوبُهُ مِنَ الْقِسْمِ الْجَائِزِ ، وَمَنْ كَانَ ضَعِيفًا لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ وَكَانَ أَخَذَ الدَّرْسَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَوْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ وَيَزِيدُ مَرَضُهُ بِهِ زِيَادَةً تَضُرُّهُ شَرْعًا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ وَاجِبًا . وَأَمَّا مَنْ كَانَ صَحِيحُ الْبَدَنِ قَرِيبَ الدَّارِ فَلَا يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْمَشْيَ فِي حَقِّ هَذَا أَفْضَلُ ، إِذْ أَنَّهُ مَأْشٍ إِلَى أَصْلِ الْعِبَادَاتِ ؛ فَإِنْ كَانَ الْمُسْتَفْتَى قَوِيًّا فِي دِينِهِ وَجَاءَ إِلَى بَيْتِ الْمَدْرَسَةِ وَجَدَ الْحُجَّابَ أَغْلَظَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ ،

وَإِذَا وَصَلَ إِلَى الْبَابِ وَجَدَ مَنْ يَمْنَعُ وَصُولَ خَبْرِهِ إِلَى الْعَالِمِ حَتَّى إِتَى قَدْ بَيَّنَّ بَعْضُهُمْ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُوَصِّلَ الْفَتَوَى إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرُدَّهُ أَوْ يُكَلِّمَهُ .

وَهَذَا فِيهِ مَا فِيهِ مِنْ فِعْلِ الْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ ، فَلَوْ كَانَ الْعَالِمُ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَكَانَ النَّاسُ يَتَوَصَّلُونَ إِلَى قِضَاءِ أَغْرَاضِهِمْ مِمَّا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ ، وَلَوْ قَدَرْنَا أَنْ أَحَدًا خَرَجَ مِنْهُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَخْرُجُ فِي الْغَالِبِ عَلَى صِفَةٍ قَدْ يَتَعَذَّرُ عَلَى بَعْضِ الْعَوَامِّ الْوُصُولَ إِلَيْهِ إِلَّا بِوِاسِطَةٍ ، وَقَدْ يَخْرُجُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ بِغَيْرِ نَقِيبٍ وَلَا غَيْرِهِ وَهُوَ نَادِرٌ ، وَالتَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ ، وَتَفْصِيلُ هَذَا يَطُولُ وَبِالْجُمْلَةِ فَهَيْمًا أُشِيرُ إِلَيْهِ غَنِيَّةً عَنِ الْبَاقِي .

وَيَنْبَغِي لِلْعَالِمِ إِذَا جَاءَتْهُ الْفَتَوَى أَنْ يَسْأَلَ عَمَّنْ وَقَعَتْ لَهُ حَتَّى يَسْمَعَ ذَلِكَ مِنْ لَفْظِهِ إِنْ كَانَ حَاضِرًا أَوْ يُسَهِّلَ حُضُورَهُ وَيَتَشَبَّثَ فِي فَهْمِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَسْمَعُهَا مِنْهُ ؛ لِأَنَّ الْوَرَقَةَ قَدْ يُكْتَبُ فِيهَا غَيْرُ ذَلِكَ فَيَفْتِي عَلَى وَهْمٍ أَوْ غَلَطٍ ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْخَطَرِ مَا فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ جَوَابُهُ صَوَابًا عَلَى مَا رَأَاهُ مَكْتُوبًا ، فَإِنْ تَعَذَّرَ حُضُورُ مَنْ وَقَعَتْ لَهُ النَّازِلَةُ فَشَأْنُ الْعَالِمِ أَنْ يَتَبَيَّنَ جَهْدَهُ وَأَنْ يَأْمُرَ مَنْ أَتَى بِالْفَتَوَى أَنَّهُ يُعَاوِدُ صَاحِبَ الْوَاقِعَةِ إِنْ تيسَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَالْمَقْصُودُ وَالْمَطْلُوبُ أَنْ لَا يُفْتِيَ إِلَّا بَعْدَ التَّحَرُّزِ الْكُلِّيِّ وَالتَّحْفِظِ الْعَظِيمِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ فِي ذَلِكَ وَيَنْشِرَ صَدْرُهُ ، ثُمَّ بَعْدَ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ لِذَلِكَ وَالْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ أَمْرِ الْفَتَوَى لَا يُعَجَّلُ بِالْكَتْبِ عَلَيْهَا بَلْ يُؤَخَّرُ ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ الدَّرْسِ ، فَيَعْرِضُ الْمَسْأَلَةَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَيَرَى رَأْيَهُ وَرَأْيَهُمْ فِيهَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُ فَإِنْ وَافَقَ مَا عِنْدَهُ مَا قَالُوهُ فِيهَا وَنَعِمَتْ ، وَإِنْ خَالَفُوهُ بَحَثَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى لَهُمْ مَا يُرِيدُ أَنْ يُفْتِيَ بِهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَإِذَا فَرَّغَ مِنَ الْبَحْثِ فِي ذَلِكَ كَتَبَ عَلَيْهَا بِمَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ الصَّوَابُ عِنْدَهُ وَلِيَحْذَرَ مِنَ الْعَجَلَةِ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ وَيُفْتِي بِمَا تَحَقَّقَ أَوْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَإِنَّ الْغَلَطَ فِي ذَلِكَ قَلَّ أَنْ يُسْتَدْرَكَ .

وَقَدْ كَانَ سَيِّدِي الشَّيْخُ الْجَلِيلُ أَبُو الْحَسَنِ الْمَعْرُوفُ بِالزَّيَّاتِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَاسْتَفْتَتْهُ فَأَجَابَهَا ثُمَّ مَضَتْ لِسَبِيلِهَا فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَإِذَا بِالشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَجَعَلَهُ فِي فَمِهِ

وَوَجَّحَ بِجَرِي حَافِيًا إِلَى أَنْ لَحِقَ الْمَرْأَةَ فَأَخَذَ الْفَتْوَى مِنْهَا ، ثُمَّ رَجَعَ فَسَأَلَهُ أَصْحَابُهُ عَنْ مُوجِبِ ذَلِكَ ، فَقَالَ : ذَكَرْتُ أَنِّي وَهَمْتُ فِي جَوَابِهَا فَأَسْرَعْتُ لِنَلَا تَفْوُتِي ، فَقَالُوا لَهُ : لَوْ أَمَرْنَا لَفَعَلْنَا ذَلِكَ ، فَقَالَ : مَا هِيَ فِي ذِمَّةِ أَحَدٍ مِنْكُمْ فَلَوْ فَعَلْتُ ذَلِكَ لَكَانَ أَحَدُكُمْ يَقُومُ عَلَيَّ هَيِّتِي ، وَحَتَّى يَلْبَسَ نَعْلِي ، وَحَتَّى يَمْشِيَ الْمَشْيَ الْمُعْتَادَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْهُ قَلِيلًا ، فَقَدْ تَفَوْتُ الْمَرْأَةَ وَلَا تُعْلَمُ جِهَتُهَا ، وَالَّذِي تَتَعَلَّقُ الْمَسْأَلَةُ بِذِمَّتِهِ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ مَا جَرَى عَلَيْهِ فَيَبَادِرُ إِلَى خَلَاصِ نَفْسِهِ .

وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا جَاءَتْهُ الْفَتْوَى يَقُولُ لِمَنْ أَتَى بِهَا : مَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَكْتُبَ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّ الْخَطَّ قَدْ يُزَادُ فِيهِ وَيُنْقَصُ فَيَقَعُ مُخَالَفًا لِمَا الْمَسْأَلَةُ عَلَيْهِ ، فَلَا يُفْتِي حَتَّى يَحْضُرَ صَاحِبُ النَّازِلَةِ ، فَإِذَا حَضَرَ سَأَلَهُ عَمَّا وَقَعَ لَهُ فَيُخْبِرُهُ بِهِ فَيَقُولُ لَهُ : إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِ يَحْضُرُ الْجَوَابَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَإِذَا جَاءَ مِنَ الْعَدِ يَسْأَلُهُ الْجَوَابَ يَقُولُ لَهُ الشَّيْخُ : أَعِدْ عَلَيَّ الْمَسْأَلَةَ فَإِذَا أَعَادَهَا عَلَيْهِ ، فَإِنْ كَانَتْ مُوَافِقَةً لِمَا قَالَهُ بِالْأَمْسِ بَحَثَ فِيهَا مَعَ مَنْ حَضَرَهُ ثُمَّ أَفْتَاهُ أَوْ كَتَبَ لَهُ عَلَيْهَا ، وَإِنْ خَالَفَ مَا قَالَهُ بِالْأَمْسِ قَالَ لَهُ الشَّيْخُ : أَيُّمَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي بِالْأَمْسِ أَوْ الَّذِي بِالْيَوْمِ فَيُرَدُّهَا وَلَا يُفْتِي لَهُ فِيهَا بِشَيْءٍ ، وَيَقُولُ لَهُ : لَا أَعْلَمُ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ حَتَّى أُفْتِيَ عَلَيْهِ ، هَكَذَا هُوَ حَالُ الْعُلَمَاءِ فِي التَّحَرُّزِ عَلَى ذِمَّتِهِمُ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَسْأَلَةُ مَشْهُورَةً مَعْرُوفَةً لَا تَحْتَاجُ إِلَى بَحَثٍ وَلَا تَطْوِيلِ نَظَرٍ ، فَلَا بَأْسَ بِالْجَوَابِ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُؤَقِّقُ لِلْسَّدَادِ بِمَنِّهِ .

فَلَوْ مَشَى الْعَالِمُ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ الْقَوِيمِ

لَحَصَلَ لَهُ فَايْدَاتَانِ عَظِيمَتَانِ : إِحْدَاهُمَا : بَرَاءَةُ ذِمَّتِهِ .

وَالثَّانِي : انْتِفَاعٌ مِنْ حَضْرِهِ وَتَعْلِيمُهُمْ فِي أَقَلِّ زَمَانٍ ؛ لِأَنَّ أَخَذَ الدَّرْسِ سَهْلٌ يَسِيرٌ فِي الْعَالِبِ إِذَا التُّبَّهَاءُ مِنْ الطَّلِبَةِ قَدْ طَاعُوا عَلَيْهِ غَالِبًا ، وَهُمْ قَدْ عَرَفُوا مَا أَخَذَهُ وَمُرَادَهُ وَمُشْكَلَاتِهِ وَالْجَوَابَ عَنْهَا وَحَلَّهَا وَالْفَتَاوَى لَيْسَتْ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا نَوَازِلُ تَنْزُلُ عَلَى غَيْرِ تَعْيِيَةٍ وَلَا أَهْبَةٍ ، وَفِيهَا تَظْهَرُ نِبَاهَةُ طَلَبَتِهِ وَتَحْصُلُ لَهُمْ بِهَا الْفَائِدَةُ الْجَمَّةُ وَالتَّثْبُتُ فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي تَقَعُ لَهُمْ مِنْهَا .

وَعَنْ ابْنِ يُونُسَ قَالَ مَعْنُ بْنُ عِيْسَى سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ : لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَيُؤْخَذُ مِنْ سِوَاهُمْ : لَا يُؤْخَذُ مِنْ مُبْتَدِعٍ يَدْعُو إِلَى بَدْعِيهِ ، وَلَا سَفِيهِ مُعَلِّمٍ بِسَفَهِهِ ، وَلَا مِمَّنْ يَكْذِبُ فِي حَدِيثِ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانَ يَصْدُقُ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ هَذَا الشَّانَ ، وَقَالَ مَالِكٌ : لَيْسَ يَسْلَمُ رَجُلٌ يُحَدِّثُ بِكُلِّ مَا سَمِعَهُ وَلَا يَكُونُ إِمَامًا أَبَدًا ، ثُمَّ قَرَأَ { وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } أَنْتَهَى ، وَيُحْذَرُ أَنْ يَبْرُدَّ لِأَحَدٍ أَوْ يَسْعَى فِي طَلَبِ التَّدْرِيسِ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ مِنْ مَدْرَسَةٍ أَوْ غَيْرِهَا ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا يَجْلِسُ لِلَّهِ تَعَالَى فَيَعْلَمُ وَيَتَعَلَّمُ وَيُفِيدُ وَيَسْتَفِيدُ لِكَيْ يَظْهَرَ مَا أَوْجِبَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ حَرَمَهُ أَوْ كَرِهَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ ، فَمَا كَانَ أَصْلُهُ لِهَذِهِ الْمَعَانِي وَمَا جَانَسَهَا فَيَنْبَغِي بَلَّ يَجِبُ أَنْ لَا يَخْلُطَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنْ أَقْدَارِ الدُّنْيَا .

وَالْعَالِمُ أَوْلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى مَعَالِي الْأُمُورِ وَأَكْمِلُهَا إِذْ أَنَّهُ قُدُورَةٌ لِلْمُقْتَدِينَ وَهُدًى لِلْمُهْتَدِينَ ، فَإِذَا رَأَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَتَسَبَّبُ فِيهَا ذَكَرَ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْإِفْتِدَاءِ بِهِ فِي طَلَبِ حُطَامِ الدُّنْيَا ، وَالْعَالِبُ أَنَّ النَّفْسَ

تَأْتِسُ بِأَقْلٍ مِنْ هَذَا ، وَإِنْ كَانَ ذِمَّةً مَوْجُودًا فِي الْكُتُبِ وَأَحْوَالِ السَّلَفِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَكِنَّ شَأْنَ النَّاسِ الْيَوْمِ فِي الْعَالِبِ الْإِفْتِدَاءِ بِمَنْ فِي وَفْتِهِمْ ، وَلَا يَتَعَرَّضُونَ لِلنَّظَرِ فِي حَالِ مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُ إِثَارًا لِلتَّوَصُّلِ إِلَى أَعْرَاضِهِمْ .

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، فَالْعَالِمُ أَوْلَى مَنْ يَتَحَفَّظُ عَلَى نَفْسِهِ صِيَانَةً لِلْعِلْمِ وَإِقَامَةً لِحُرْمَتِهِ ، بَلْ إِذَا غُرِضَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا ذُكِرَ فَلْيَتَرَبَّصْ وَلْيَسْتَحِرْ اللَّهَ تَعَالَى وَيَسْتَشِرْ وَلَا يَعْجَلْ ، فَإِنَّ الْعَجَلَةَ مِنَ الشَّرَاهَةِ ، وَالشَّرَاهَةُ مَذْمُومَةٌ لِقَوْلِهِ : عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { إِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلُوةٌ خَضِرَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى } انْتَهَى .  
وَإِذَا فَعَلَ مَا ذُكِرَ وَكَانَ أَخَذَهُ لِذَلِكَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ فَيُبَارِكُ لَهُ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِإِشْرَافٍ مِنْهُ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ ، وَالْبَرَكَةُ هِيَ الْمَقْصُودُ وَالْمَأْمُولُ ؛ لِأَنَّ الْبَرَكَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الْقَلِيلِ أَغْنَتْ عَنِ الْكَثِيرِ وَأَعَانَتْ عَلَى طَاعَةِ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَوَجْهٌ آخَرٌ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي الْحَدِيثِ ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا سَأَلَهُ كَانَتْ يَدُهُ سُفْلَى ، وَلَيْسَ هَذَا مَنْصِبَ الْعُلَمَاءِ ؛ لِأَنَّ يَدَ الْعُلَمَاءِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هِيَ الْعُلْيَا ، وَلَا عُذْرَ لَهُ فِي الطَّلَبِ لِمَا ذُكِرَ لِأَجْلِ الْعَائِلَةِ وَالْمُلَازِمِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَرَكَ ذَلِكَ تَقِيَّةً عَلَى هَذَا الْمَنْصِبِ الشَّرِيفِ لَمْ يُضَيِّعِ اللَّهُ الْكَرِيمُ قَصْدَهُ ، وَأَتَاهُ بِهِ أَوْ فَتَحَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْبِهِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ ، وَسَدَّ خَلَّتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَى مَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ ، وَلَيْسَ رِزْقُهُ بِمُنْحَصِرٍ فِي جِهَةٍ بَعِيْنَهَا .  
وَإِعَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَبَدًا مُسْتَمِرَّةً عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

بِرِزْقٍ مِنْ هَذَا حَالَهُ مِنْ غَيْرِ بَابٍ يَقْصِدُهُ أَوْ يُؤْمَلُهُ ، بَلِ الْأَمْرُ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّ مَنْ لِلَّهِ تَعَالَى بِهِ اعْتِنَاءٌ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ بِهِ كُلَّ جِهَةٍ يُؤْمَلُهَا أَوْ يَقْصِدُهَا ؛ لِأَنَّ مَرَادَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُمْ انْقِطَاعُهُمْ إِلَيْهِ وَتَعْوِيلُهُمْ فِي كُلِّ أَمْرِهِمْ عَلَيْهِ وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَسْبَابِ ، بَلْ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ وَمُدَبِّرِهَا وَالْقَادِرِ عَلَيْهَا .  
وَكَيْفَ لَا يَكُونُ الْعَالِمُ كَذَلِكَ ، وَهُوَ الْمُرْشِدُ لِلْخَلْقِ وَالْمَوْضِعُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ لِلسُّلُوكِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَمَنْ تَرَكَ جِهَةً لِلَّهِ تَعَالَى فَهُوَ قَاصِدٌ إِلَى أُخْرَى فَيَبْدُلُ عَنْهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا .  
قَالَ : عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوْضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } انْتَهَى فَالْحَاصِلُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْعَالِمَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ تَوَكَّلُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ مِنْ بَيْتٍ أَوْ مَسْجِدٍ أَوْ مَدْرَسَةٍ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ سَوَاءً فِي حَقِّهِ لَا فَرْقَ بَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَيَجِيءُ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّهُ إِذَا قُطِعَ عَنْهُ الْمَعْلُومُ لَا يَتَسَخَّطُ وَلَا يَتَصَجَّرُ وَيَبْقَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ ، بَلْ يَزِيدُ فِي الْإِجْتِهَادِ ؛ لِأَنَّهُ تَمَحَّضٌ لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا تَقَدَّمَ قَبْلُ

( فَصْلٌ ) وَيَنْبَغِي لَهُ بَلْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِمَّا ذُكِرَ أَنْ لَا يَتَرَدَّدَ لِأَحَدٍ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَى أَنَّهُ مِنْ أَوْلَادِ الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْعَالِمَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّاسُ عَلَى بَابِهِ لَا عَكْسَ الْحَالِ أَنْ يَكُونَ هُوَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ، وَلَا حُجَّةَ لَهُ فِي كَوْنِهِ يَخَافُ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ حَاسِدٍ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِمَّنْ يَخْشَى أَنَّهُ يُشَوِّشُ عَلَيْهِ ، أَوْ يَرْجُو أَحَدًا مِنْهُمْ فِي دَفْعِ شَيْءٍ مِمَّا يَخْشَاهُ ، أَوْ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِقَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَلْبِ مَنْفَعَةٍ لَهُمْ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ عَنْهُمْ ، فَهَذَا لَيْسَ فِيهِ عُذْرٌ يَنْفَعُهُ .

أَمَّا الْأَوَّلُ : فَلِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ إِذَا أَخَذَ ذَلِكَ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ خَائِفًا مِمَّا ذُكِرَ فَذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ إِشْرَافِ النَّفْسِ ، وَقَدْ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ مَنْ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ فِي مَعْلُومِهِ عُقُوبَةً لَهُ مُعْجَلَةً .  
وَأَمَّا الثَّانِي : فَهُوَ يَتَرَكِبُ أَمْرًا مَحْذُورًا مُحَقَّقًا لِأَجْلِ مَحْذُورٍ مَطْنُونٍ تَوَقَّعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ قَدْ يَكُونُ وَقَدْ لَا يَكُونُ ، وَهُوَ مَطْلُوبٌ فِي الْوَقْتِ بَعْدَ ارْتِكَابِ ذَلِكَ الْفِعْلِ الْمَذْمُومِ شَرْعًا ، بَلِ الْإِعَانَةُ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِ وَحَوَائِجِ

المُسْلِمِينَ إِنَّمَا هُوَ الْإِنْفِطَاحُ عَنْ أَبْوَابٍ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ، وَالتَّعْوِيلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ ، إِذْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْقَاضِي لِلْحَوَائِجِ وَالِدَّافِعُ لِلْمَخَافِ وَالْمُسَخِّرُ لِقُلُوبِ الْخَلْقِ وَالْإِقْبَالُ بِهَا عَلَى مَنْ شَاءَ كَيْفَ يَشَاءُ .

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ خَطَابًا لِسَيِّدِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ : { لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ } فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا فِي مَعْرِضِ الْإِمْتِنَانِ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْعَالَمُ إِذَا كَانَ

مُتَّبِعًا لَهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ سِيمًا فِي التَّعْوِيلِ عَلَى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالسُّكُونِ إِلَيْهِ دُونَ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعَامِلُهُ بِهِذِهِ الْمُعَامَلَةَ اللَّطِيفَةَ الَّتِي عَامَلَ بِهَا نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِبَرَكَةِ الْإِتِّبَاعِ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَيَسَلِّمُ بِذَلِكَ مِنَ التَّرَدُّدِ إِلَى أَبْوَابٍ مَنْ لَا يَنْبَغِي كَالَّذِي يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ وَهُوَ سَمٌّ قَاتِلٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا خَفَاءَ فِي أَحْوَالِهِمْ يَا لَيْتَهُمْ لَوْ اقْتَصَرُوا عَلَى مَا ذُكِرَ لَا غَيْرَ ، بَلْ يَضُمُونَ إِلَى ذَلِكَ مَا هُوَ أَشَدُّ وَأَشْنَعُ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ تَرَدُّدَهُمْ إِلَى أَبْوَابِهِمْ مِنْ بَابِ التَّوَضُّعِ أَوْ مِنْ بَابِ إِرْشَادِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَخْطِرُ لَهُمْ وَهُوَ كَثِيرٌ قَدْ عَمَّتْ بِهِ الْبُلُوى ، وَإِذَا اعْتَقَدُوا ذَلِكَ فَقَدْ قَلَّ الرَّجَاءُ مِنْ تَوْبَتِهِمْ وَرُجُوعِهِمْ إِذْ أَنَّهُ لَا يُتَوَّبُ أَحَدٌ قَطُّ مِنَ الْخَيْرِ .

وَقَدْ نَقَلَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْعُدْلَ إِذَا تَرَدَّدَ لِبَابِ الْقَاضِي فَإِنَّ ذَلِكَ جُرْحَةٌ فِي حَقِّهِ وَتَرَدُّدٌ بِهِ شَهَادَتُهُ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي التَّرَدُّدِ إِلَى بَابِ الْقَاضِي وَهُوَ عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ سَالِمٌ مَجْلِسُهُ مِمَّا يَجْرِي فِي مَجَالِسٍ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ، فَكَيْفَ التَّرَدُّدُ لِغَيْرِ الْقَاضِي ، فَمِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَوْجَبِ الْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ

( فَصْلٌ ) وَلِيَحْذَرَ أَنْ يَتْرُكَ الدَّرْسَ لِعَوَارِضٍ تَعْرِضُ لَهُ مِنْ جِنَازَةٍ أَوْ غَيْرِهَا إِنْ كَانَ يَأْخُذُ عَلَى الدَّرْسِ مَعْلُومًا ، فَإِنَّ الدَّرْسَ إِذْ ذَاكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ، وَحُضُورُ الْجِنَازَةِ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ يَتَعَيَّنُ ، فَإِنَّ الذِّمَّةَ مَعْمُورَةٌ بِهِ وَلَا شَيْءَ آكَدُ وَلَا أَوْجَبُ مِنْ تَخْلِيصِ الذِّمَّةِ ، إِذْ تَخْلِيصُهَا هُوَ الْمَقْصُودُ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْظَرُ فِي الْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ ، فَلَوْ حَضَرَ الْجِنَازَةَ وَأَبْطَلَ الدَّرْسَ لِأَجْلِهَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِ أَنْ يُسْقِطَ مِنَ الْمَعْلُومِ مَا يَخْصُ ذَلِكَ ، بَلْ لَوْ كَانَ الدَّرْسُ لَيْسَ لَهُ مَعْلُومٌ لَتَعَيَّنَ عَلَى الْعَالِمِ الْجُلُوسُ إِلَيْهِ ، إِذْ أَنَّهُ تَمَحَّضَ لِلَّهِ تَعَالَى .

وَلَسَمَاعُ مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْعَالِمِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ حِجَّةً مَبْرُورَةً كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ، فَأَيُّنَ هَذَا مِنْ فَضْلِ الْجِنَازَةِ ؟ ، وَقَدْ مَاتَ أَحَدُ أَوْلَادِ الْحَسَنِ أَوْ الْحُسَيْنِ فَخَرَجَ لِجِنَازَتِهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَبَقِيَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَا تَخْرُجُ إِلَى جِنَازَةِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ ابْنِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ابْنِ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ مُجِيبًا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ : صَلَاةٌ رَكْعَتَيْنِ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ حُضُورِ جِنَازَةِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ ابْنِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ابْنِ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا فَضَّلَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى صَلَاةً رَكْعَتَيْنِ نَافِلَةً عَلَى حُضُورِهَا فَمَا بِأَلِكِ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَمَا بِأَلِكِ بِالْقَاءِ مَسَائِلِ الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّهُ خَيْرٌ مُتَعَدِّ سِيمًا فِي زَمَانِنَا هَذَا .

وَكَذَلِكَ لَا يَتْرُكُ الدَّرْسَ لِأَجْلِ مَرِيضٍ يَعُودُهُ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ مِنَ التَّعْزِيبَةِ وَالتَّهْنِئَةِ الْمَشْرُوعَةِ ؛ لِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ مَنْدُوبٌ ، وَإِلْقَاءُ الْعِلْمِ مُتَعَيَّنٌ إِنْ كَانَ يَأْخُذُ عَلَيْهِ مَعْلُومًا وَقَدْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَعْلُومًا بَلْ لَوْ عَرِيَ عَنْهُمَا مَعًا

لَكَانَ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُنْدُوبَاتِ .

فَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ وَعَلِمَ مِنْ أَنَّهُ يَتْرُكُ مَا يُدْبِ إِلَيْهِ لِأَجْلِهِ ، فَمَا بَالُكَ بِبَطَالَةِ الدَّرْسِ لِأَجْلِ بَدْعَةٍ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ

وَقَدْ كَثُرَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي هَذَا الزَّمَانِ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ شَعِيرَةٌ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ فَيُطْلُونَ الدَّرْسَ لِأَجْلِ الصُّحْبَةِ لِأَجْلِ الْمَيِّتِ أَوْ الثَّلَاثِ لَهُ أَوْ تَمَامِ الشُّهُرِ أَوْ السَّنَةِ أَوْ الْفَرَحِ كَالْعَقِيقَةِ وَغَيْرِهَا كَالسَّلَامِ عَلَى الْغَائِبِ وَالتَّهْنِئَةِ بِوِلَايَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، فَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ مُنْدُوبًا فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي غَيْرِ وَقْتِ الدَّرْسِ إِذَا سَلِمَ مِنَ الْمَوَانِعِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ أَوْ الْبِدَعِ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ تَرْكُهُ مَعَ إِظْهَارِ تَقْبِيحِهِ وَالتَّشْنِيعِ عَلَى فَاعِلِهِ وَالتَّحْدِيدِ مِنْهُ بِمَا أَمَكَّنَهُ .

وَإِذَا كَانَ الْعَالِمُ مَا شِئًا عَلَى هَذَا الْمَنْهَاجِ انْسَدَّتْ بِهِ هَذِهِ التَّلَمَّةُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَتَجِدُ بَعْضَهُمْ يُطْلُونَ الدَّرْسَ لِبَدْعَةِ الصُّبْحَةِ أَوْ الثَّلَاثِ أَوْ التَّهْنِئَةِ بِوِلَايَةِ خُطَّةٍ أَوْ السَّلَامِ عَلَى غَائِبٍ قَدِيمٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فَيَتْرُكُونَ الْوَاجِبَ وَيَصِيرُ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْمَعْلُومِ فِيهِ مِنَ الشُّبْهِةِ مَا فِيهِ ، وَيَمْضُونَ إِلَى بَدْعَةٍ يَأْتِيهِمْ لَوْ فَعَلُوهَا وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ مَا فَعَلُوهُ مَكْرُوهٌ أَوْ حَرَامٌ ، لَكِنَّ بَعْضَهُمْ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ أَوْ مُنْدُوبٌ إِلَيْهِ بِحَسَبِ مَا يَخْطُرُ لَهُ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي تَأْبَاهَا قَوَاعِدُ الشَّرِيعَةِ .

مِثَالُهُ أَنْ يَتْرُكَ الدَّرْسَ وَيَرْوِحَ إِلَى تَهْنِئَةٍ مَنْ يَخَافُ مِنْهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَنْصِبَ مِنْ يَدِهِ أَوْ يَرْجُوهُ لِمَنْصِبٍ آخَرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَقَاصِدِهِمْ

(فَصْلٌ) وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْظُرَ أَوَّلًا فِي الْمَدْرَسَةِ إِذَا عَرَضَتْ عَلَيْهِ هَلْ هِيَ مِنْ وَجْهِ حِلٍّ أَمْ لَا ؟ فَإِنْ كَانَتْ مِنْ وَجْهِ حِلٍّ فَلَا بَأْسَ إِذَنْ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ غَيْرِهِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ شُبْهِةٍ فَالْعُلَمَاءُ مُنْزَهُونَ عَنِ الشُّبْهِاتِ بَلْ يَتَأَكَّدُ الْأَمْرُ فِي حَقِّهِمْ .

وَقَدْ يَصِيرُ تَرْكُ الشُّبْهِاتِ فِي حَقِّهِمْ وَاجِبًا ؛ لِأَنَّهُمْ الْقُدُورَةُ وَالنَّاسُ لَهُمْ تَبَعٌ ، فَإِذَا افْتَحَمُوا الشُّبْهِاتِ افْتَدَى بِهِمُ النَّاسُ فِي تَنَاوُلِهَا ، وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَهُ أَوْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي الْمَعْلُومِ الَّذِي قُرِّرَ لَهُ بِهِدَا الْعِتْبَارِ ، وَهَذَا كُلُّهُ مَا لَمْ يَتَعَيَّنِ الْعَصَبُ ، وَأَمَّا مَعَ التَّعَيَّنِ فَلَا يَحِلُّ وَقَدْ كَثُرَ وَفُوعٌ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ الْفُطَيْعِ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَتَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ يَعْصِبُ الْمَوَاضِعَ ، وَكَذَلِكَ الْأَلَاتُ مِثْلُ الْأَعْمِدَةِ وَالرُّحَامِ وَالشَّبَابِيكِ .

وَقَدْ يَأْخُذُونَ بَعْضَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الْمَسَاجِدِ وَبَعْضِ الْبُيُوتِ وَبَعْضِ الْحَمَامَاتِ عَلَى يَقِينٍ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُعْضِبُونَ النَّاسَ مِنَ الصَّنَاعِ وَغَيْرِهِمْ فِي بِنَائِهَا بِذَلِكَ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيِّ قَلَّمَا يُوضَعُ الْأَسَاسُ إِلَّا وَقَدْ وَقَعَتِ الْخُطْبَةُ فِي طَلَبِ تَوَلِّيَةِ تِلْكَ الْأَمَاكِنِ ، وَلَا يَصِلُ إِلَى تَوَلِّيَتِهَا إِلَّا مَنْ لَهُ الشُّوْكَةُ الْقَوِيَّةُ فَكَيْفَ يَقَعُ السَّعْيُ فِي مَوْضِعٍ وَقَعَ بِنَاؤُهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ؟ أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ نَادَى مُنَادٍ يَقُولُ : كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ فِي الْمَوْضِعِ الْفُلَانِيِّ شَيْءٌ فَلْيَأْتِ لِقَامِ نَاسٍ يَدْعُونَ مَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ وَيُشْتُونَ ذَلِكَ ، فَيَصِيرُ تَصَرُّفُ هَذَا الْعَالَمِ فِي مِلْكِ النَّاسِ بَغَيْرِ إِذْنِهِمْ ، وَهَذَا أَمْرٌ قَبِيحٌ لَوْ فَعَلَهُ بَعْضُ الْعَوَامِّ فَكَيْفَ يُقَدِّمُ عَلَيْهِ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَثِيرٌ مِنْ

المدارس بُنيت على هذا الأسلوب فالجواب : أن ما يتعين فيه شيء مما ذكر كان الإقدام عليه حراماً بخلاف ما لم يتعين .

ألا ترى أنه لو نادى مُنادٍ على مدرسةٍ قديمةٍ فيقول : كلُّ من غُصِبَ له فيها شيءٌ فليأتِ يأخذُ ما غُصِبَ منه لم يأتِ أحدٌ لائقِراضٍ صاحبها وانقراضٍ ورثته أو الجهلِ بهم في الغالب .

وإذا كان ذلك كذلك فقد صار ذلك مجهولاً لا تُعرف جهاته ولا أربابُه فيرجعُ إذ ذاك إلى بيتِ مالِ المسلمين ، وإذا رجع إليه فهو مُرصدٌ فيه لمصالحهم ومن أهمها إقامةُ وظيفةِ إلقاءِ العلمِ والإعانةِ عليه وتحصيله ، فقد اُتفقوا فلما حُجِّجَ لمن احتجَّ بهذا على جوازِ التصرفِ في الحرامِ البينِ ولا عُذرَ له في القولِ بأن ذلك قد صار في الذمةِ لأحدٍ وجهين : أحدهما : أن ما كان من ذلك مُعيناً ، فهو مُستحقٌّ لصاحبه والغاصبُ له مأمورٌ في كلِّ زمنٍ برده لمُستحقِّه .

والوجهُ الثاني : أن ذمةَ هذا الغاصبِ مُستغرقةٌ لكثرةِ غصبه وكثرةِ الحقوقِ المُرتبةِ فيها ، فصارَ ما في يده من الأموالِ وإن كثرت مُستحقةً لأربابها ، وتبقى الفضلُ الكثرةِ عليه على أن ما في يده في الغالب من غير وجهه ، فتحصلَ من هذا أنه لا يجوزُ الإقدامُ على تلكِ المواضعِ كما تقدّمَ ولا عُذرَ لمن يقولُ : إن الضروراتِ أُلجأتُ إلى أخذِ هذه الجهاتِ والمواضعِ لكثرةِ العائلةِ والملازمِ .

والجوابُ عن هذا مأخوذٌ مما نطقَ به القرآنُ العزيزُ وصرَّحَ به .

قال تعالى في مُحكمِ التنزيلِ { ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذريةً } ذكرَ سبحانه وتعالى ذلك في معرضِ إقامةِ الحجَّةِ على

من عدا الرُّسلَ صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين فإيَّهم حُجِّجَ الله تعالى على خلقه .

ومع كثرةِ عائلاتهم لم يمنعهم ذلك من صفةِ الإقامةِ بعباءِ التوبةِ والرسالةِ ، فكلُّ في ذلك على مُقتضى ما أريد منه .

وقد كان عيشتهم صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين على ما قد علمَ واشتهرَ من شطَفِ العيشِ وحَشِنِ الملبسِ وقلةِ الجِدَّةِ ، تَكْرِماً لهم وترفيحاً لِمنازلهم السنيةِ .

وقد كان السلفُ رضوانُ الله عليهم يُحبُّونَ الفقرَ ويعملونَ عليه ويهربونَ من الدنيا وأسبابها ، لا جرمَ أنَّا لما أخذنا في الصَّدِّ من أحوالهم جاء الخوفُ من الفقرِ والاعتدالُ بالعائلةِ ، فلما حُجِّجَ لمن احتجَّ بالضروراتِ لما تقدّمَ من الجوابِ بذكرِ أحوالِ الرُّسلِ صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين وأحوالِ السلفِ رضوانُ الله عليهم أجمعين .

وقد كان سيدي أبو محمدٍ رحمه الله تعالى يقولُ : ما أتى على من أتى في هذا الزمانِ إلا من الضروراتِ المُعتاداتِ غيرِ الشرعيَّاتِ ، فكان رحمه الله يقولُ : هذه الضروراتُ تُقطعُ من أصلها ، ولا حاجةَ تدعو إليها .

مثالُ ذلك أن يقولَ الفقيهُ : لا بُدَّ من فوقانيةِ على صفةٍ ، لا بُدَّ من عمامةِ على صفةٍ ، ولا بُدَّ من كُتُبٍ ، ولا بُدَّ من دابةٍ ، فإذا جاءتِ الدابةُ لا بُدَّ لها من غلامٍ وكلفةٍ في الغالبِ ، ولا بُدَّ لبعضهم من بغلةٍ ، وبعضهم يتخذُ لِغلامِهِ بغلةً أيضاً ، وقد يحتاجُ الغلامُ إلى زوجةٍ ، فلا يزالُ هكذا في ضروراتٍ حتى يرجعَ في الدنيا مُتسعٍ

الْحَالِ وَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ مَضْرُورٌ ، حَتَّى لَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ مَنْ فِي الْوَقْتِ مِنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا الْمَتَسِّعَةِ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَقُولُ :

أَسْتَحِقُّ أَخْذَ الزَّكَاةِ نَظْرًا مِنْهُ إِلَى مَا قَدَّمْتَاهُ وَأَشْبَاهَهُ مِنَ الْمَسْكِنِ عَلَى صِفَةِ الزَّوْجَةِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَطْعَمِ وَالْأَوَانِي وَالْجَوَارِي وَالْخُدَمِ وَالْعُلَمَانَ ، فَتَأْتِي الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ ، وَهُوَ مَهْمُومٌ تَجِدُهُ يَشْكُو مِنْ كَثْرَةِ الضَّرُورَاتِ الَّتِي يَدْعِيهَا ، فَكَانَ سَيِّدِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ : هَذِهِ الضَّرُورَاتُ تُقَطِّعُ مِنْ أَصْلِهَا فَلَا ضَرُورَةَ إِلَّا شَرْعِيَّةً ، وَالضَّرُورَاتُ الشَّرْعِيَّةُ لَا يُحْتَاجُ فِيهَا فِي الْغَالِبِ إِلَى كُلْفَةٍ . فَالْحَاصِلُ مِنْ هَذَا أَنَّ الضَّرُورَاتِ الَّتِي لَهُمْ إِنَّمَا حَدَثَتْ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ ، وَالْعَالِمُ أَوْلَى مَنْ يَتَّبِعُ الشَّرْعَ وَيَحْتُلُّ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ الْقُدْوَةُ ، وَعَلَى أَحْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ يَدُورُ أَمْرُ النَّاسِ فِي أَقْبَادِهِمْ بِهِ فِي ذَلِكَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ

(فصل) وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ آكِدَ الْأُمُورِ وَأَهْمُهَا عِنْدَهُ الْفَنَاعَةَ ؛ لِأَنَّ بِهَا يَسْتَعِينُ عَلَى مَا أَخَذَ بِصَدَدِهِ ، فَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ مَنْصِبٌ مِنْ حِلٍّ وَكَانَ لَهُ غُنْيَةٌ عَنْهُ ، فَلَا حَاجَةَ تَدْعُو إِلَى أَخْذِهِ ، وَتَرَكُهُ أَفْضَلُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَخْذِهِ وَالتَّصَدُّقِ بِمَا يَحْصُلُ مِنْهُ مِنَ الرَّفْقِ ؛ لِأَنَّ تَرْكَ طَلَبِ الدُّنْيَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَخْذِهَا وَالتَّصَدُّقِ بِهَا

وَمِنْ كِتَابِ الْقُوتِ كَمَا الْحَسَنَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : لَا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنْ رَفْضِ الدُّنْيَا . وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ ثَوْرٍ قُلْتُ لِلْحَسَنِ : يَا أَبَا سَعِيدٍ رَجُلَانِ طَلَبَ أَحَدُهُمَا الدُّنْيَا بِحِلَالِهَا فَأَصَابَهَا فَوَصَلَ بِهَا رَحِمَهُ وَقَدَّمَ فِيهَا لِنَفْسِهِ وَرَجُلٌ رَفَضَ الدُّنْيَا قَالَ : أَحَبُّهُمَا إِلَيَّ الَّذِي رَفَضَ الدُّنْيَا ، قَالَ : فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ الْقَوْلَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا اعْتَدَلَ الرَّجُلَانِ أَحَبُّهُمَا إِلَيَّ الَّذِي جَانَبَ الدُّنْيَا انْتَهَى . وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ وَيُبَيِّنُهُ مَا خَرَجَهُ مَالِكٌ فِي مَوْطِئِهِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ إعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْفَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا : بَلَى قَالَ : ذَكَرُ اللَّهُ تَعَالَى انْتَهَى .

الْعَالِمُ أَوْلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى أَعْلَى الْأُمُورِ وَأَسْفَاهَا ؛ وَلِأَنَّ الْعِلْمَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَأَجْلَهَا ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ عِوَضًا لِلَّهِمْ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَهُ بِالنِّيَّةِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا فَنَعَمْ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا جَرَى لِلشَّيْخِ الْجَلِيلِ أَبِي إِسْحَاقَ التَّنِيْسِيِّ فِي شَرْيَةِ لَبِنٍ ، فَمِنْ بَابِ أَوْلَى مَا هُنَا ، بَلْ لَوْ عُرِضَ عَلَيْهِ الْمَنْصِبُ ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ لَكَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَنَزَّهُ عَنْهُ وَيَتْرُكُهُ إِقَامَةً لِحُرْمَةِ الْعِلْمِ ، وَلِكَيْ يَتَّصِفَ بِصِفَاتِ أَهْلِ اللَّهِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَهُ ضَرُورَةٌ شَرْعِيَّةٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فَيَأْخُذُ مِنْ ذَلِكَ بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ دُونَ زِيَادَةٍ ، وَيَقْتَصِرَ عَلَيْهَا .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، انْسَدَّتْ بِهِ هَذَا الثُّلْمَةُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، فَتَجِدُ بَعْضَهُمْ لَهُ فِي الْمَدْرَسَةِ ثَلَاثِمِائَةَ دِرْهَمٍ مَثَلًا ، وَفِي الْأُخْرَى دُونَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ ، فَتَجِدُ بَعْضَ الْمُدْرَسِينَ لَهُ دُنْيَا كَثِيرَةٌ ، وَهُوَ يَدْعِي الضَّرُورَاتِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ نَظَرِهِمْ إِلَى الضَّرُورَاتِ الْمُعْتَادَاتِ .

وَيَنْبَغِي لَهُ أَيْضًا ، بَلْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي الْعِلْمِ الَّذِي يَأْخُذُ عَلَيْهِ الْمَعْلُومَ إِنْ كَانَ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ أَمْ لَا ، فَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ ، فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى تَعْلِيمِهِ عَوَضًا ، وَإِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ عَلَيْهِ فَيَجُوزُ لَهُ أَخْذُهُ مَعَ أَنَّ التَّرْكَ أَوْلَى وَأَرْفَعُ .

وَإِذَا أَخَذَهُ فَإِنَّمَا يَأْخُذُهُ عَلَى نِيَّةِ الْإِعَانَةِ عَلَى مَا هُوَ بِصَدَدِهِ مِنَ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ لَا عَلَى الْعَوَضِ وَالْإِجَارَةِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَخْذُهُ الرَّزْقَ لِلَّهِ لَا غَيْرَ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ .

فَصَلُّ فِي مَوَاضِعِ الْجُلُوسِ فِي الدَّرُوسِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَوَاضِعِ الْاجْتِمَاعِ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَحْسَنَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ وَإِلَيْكَ الْقَوْلُ فِي الْقِيَامِ لِلدَّخْلِ فِي أَوَائِلِ الْكِتَابِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَا يَجُوزُ فِيهِ وَمَا يُمْنَعُ مِنْهُ ، وَبَقِيَ الْكَلَامُ عَلَى مَوَاضِعِ الْجُلُوسِ وَتَبَيَّنَ مَا أَحَدُوا فِيهِ مِنَ الْعَوَائِدِ ، فَيَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يُحَذِّرَ مِنْ هَذِهِ الْبِدَعِ الْمُسْتَهْجَنَةِ الَّتِي أُحْدِثَتْ إِذْ أَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ لِمَنْ مَضَى ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي الْإِتِّبَاعِ لَهُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَوْلَى بِالتَّوَاضُعِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ النَّاسِ مُطَالِبِينَ بِذَلِكَ .

وَطَلَبُ مَوْضِعٍ مَعْلُومٍ لِلْجُلُوسِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الْكِبَرِ وَالْخَيْلَاءِ وَالْإِزْدِرَاءِ بِمَنْ دُونَهُ غَالِبًا ، وَذَلِكَ بَعِيدٌ عَمَّنْ اتَّصَفَ بِالْعِلْمِ سَيِّمًا مَنْ هُوَ جَالِسٌ لِالِقَائِهِ أَوْ لِسَمَاعِهِ ، وَالْعِلْمُ يَطْلُبُهُ بِتَرْكِ مَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ طَلَبِ الْحُظُوظِ الْخَسِيسَةِ وَالْأَمَانِي الْفَاسِدَةِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي بَابِ الْقِيَامِ أَنَّ سِمَةَ الْعَالِمِ إِنَّمَا هِيَ بوجُودِ الْفَضْلِ وَالِدِّينِ وَالْوَرَعِ وَالتَّقَشُّفِ وَالتَّوَاضُعِ وَالتَّنَازُلِ لِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى لَا بِضِدِّهِ ، وَطَلَبُ مَوْضِعٍ مَعْلُومٍ مِنْ بَابِ التَّعْظِيمِ لَا خَفَاءَ بِهِ ، وَالْعُلَمَاءُ بُرَاءٌ مِنْ ذَلِكَ .  
أَلَا تَرَى { أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَنْ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ وَكَانَ عَنْ يَسَارِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ تُجَاهَهُ وَأَعْرَابِيٌّ عَنْ يَمِينِهِ فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ عُمَرُ : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا أَبُو بَكْرٍ فَأَعْطَى الْأَعْرَابِيَّ فَضْلَهُ ، وَقَالَ : أَلَا فَيَمِّنُوا أَلَا فَيَمِّنُوا أَلَا فَيَمِّنُوا ، { قَالَ أَنَسٌ : فَهِيَ سُنَّةٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَبِالضَّرُورَةِ أَنَّ جِهَةَ الْيَمِينِ أَفْضَلُ .

وَقَدْ كَانَ الْأَعْرَابِيُّ فِي جِهَتِهَا وَالصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْيَسَارِ ، فَلَمْ يَضُرَّ

أَبَا بَكْرٍ ذَلِكَ ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ عَنْ فَضِيلَتِهِ الَّتِي أَوْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهَا إِذْ أَنَّ الْفَضِيلَةَ إِنَّمَا هِيَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ لَا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فَإِنْ ظَهَرَتِ الْفَضْلَةُ لِلنَّاسِ وَأَمَرُوا بِتَعْظِيمِ صَاحِبِهَا فَلْيَكُنْ ذَلِكَ عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ ، أَلَا تَرَى { أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ لَمَّا أَنْ أَسْتَأْذَنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : لَا أُؤْثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا فَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ } .

وَكَذَلِكَ نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ : لَمَّا أَنْ أَفْرَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ بَيْنَ رَجُلٍ وَوَلَدِهِ فَخَرَجَتْ الْفُرْعَةُ لِلْوَلَدِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : آثِرْنِي بِهَا يَا بُنَيَّ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ : الْجَنَّةُ هَذِهِ يَا أَبَتِ لَا يُؤْثِرُ بِهَا أَحَدٌ أَحَدًا فَانْظُرْ - رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ - كَيْفَ فَعَلَ هَذَا الصَّحَابِيُّ هَذَا الْفِعْلَ مَعَ أَبِيهِ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقَرَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى ذَلِكَ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَرَّ الْوَالِدِينَ مُتَأَكِّدٌ طَلَبُهُ فِي الشَّرْعِ لَكِنْ عَلَى مَا أَحْكَمْتَهُ السُّنَّةُ لَا عَلَى مَا يَخْطُرُ لَنَا أَوْ يَهْجِسُ فِي أَنْفُسِنَا .

أَلَا تَرَى إِلَى مَا جَرَى لِمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّتِهِ مَعَ الْخَلِيفَةِ لَمَّا أَرَادَ الْخَلِيفَةُ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ الْمُوَطَّأِ



وَجَلَسَ الْخَلِيفَةُ إِلَى جَانِبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ وَأَمَرَ وَزِيرَهُ جَعْفَرًا أَنْ يَقْرَأَ ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ لَمْ يُؤْخَذْ إِلَّا بِالتَّوَاضُعِ وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ - وَأَنْ تَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ ، فَقَامَ الْخَلِيفَةُ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، هَذَا وَهُوَ خَلِيفَةُ ذَلِكَ الزَّمَانِ مَعَ

أَنَّهُ فِي الْفَضِيلَةِ كَانَ بَحِيثٌ يُعْلَمُ مَوْضِعُهُ مِنْهَا ، وَلَأَجْلِ مَا عِنْدَهُ مِنْ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ انْقَادَ إِلَى الْأَدَبِ وَالتَّوَاضُعِ ، وَلَمْ يَزِدْ ذَلِكَ إِلَّا رَفْعَةً وَهَيْبَةً ، بَلْ ارْتَفَعَ قَدْرُهُ بِذَلِكَ وَبَقِيَ يُثْنِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ فِي مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ .  
وَمِنْ كِتَابِ الْقُوتِ إِذَا جَمَعَ الْعَالِمُ ثَلَاثًا تَمَّتِ النِّعْمَةُ بِهِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ الصَّبْرُ وَالتَّوَاضُعُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ ، وَإِذَا جَمَعَ الْمُتَعَلِّمُ ثَلَاثًا تَمَّتِ النِّعْمَةُ بِهِ عَلَى الْعَالِمِ الْعَقْلُ وَالأَدَبُ وَحُسْنُ الْفَهْمِ انْتَهَى .

فَمَنْ أَرَادَ الرُّفْعَةَ فَلْيَتَوَاضَعِ لِلَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لَا تَقَعُ إِلَّا بِقَدْرِ النُّزُولِ .  
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى أَصْلِ الشَّجَرَةِ صَعِدَ إِلَى أَغْلَاهَا ، فَكَأَنَّ سَائِلًا سَأَلَهُ مَا صَعِدَ بِكَ هَاهُنَا أَعْنِي فِي رَأْسِ الشَّجَرَةِ وَأَنْتَ قَدْ نَزَلْتَ تَحْتَ أَصْلِهَا ، فَكَانَ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ : مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ .  
وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَمَنْ سَبَقَ إِلَى مَوْضِعٍ ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَكَوْنُهُ يُقِيمُ أَحَدًا مِنْ مَوْضِعِهِ ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الْبِدْعَةِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّجَبُّرِ { نَهَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ أَنْ يَقَامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَيَجْلِسَ فِيهِ آخَرَ ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا } انْتَهَى .

وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ ، وَهُوَ نَصٌّ فِي عَيْنِ الْمَسْأَلَةِ فَعَلَى هَذَا فَحَيْثَمَا بَلَغَ بِالْإِنْسَانِ الْمَجْلِسُ جَلَسَ فِيهِ السُّنَّةُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْبِدْعَةِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَالْفَضِيلَةُ عِنْدَ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّمَا هِيَ بِالتَّصَافِ بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، وَلَيْسَتْ بِالمَوَاضِعِ وَلَا بِالْخُلُوعِ وَلَا بِوُجُودِ الْمَنَاصِبِ ، وَلَكِنْ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُمْ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ فِي التَّوَاضُعِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ ، فَلَوْ جَلَسَ مَنْ لَهُ فَضِيلَةٌ عِنْدَ الْأَقْدَامِ لَصَارَ

مَوْضِعُهُ صَدْرًا وَعَكْسُهُ عَكْسُهُ ، فَلْيُخَذَرْ مِنْ هَذَا التَّنَافُسِ الْمَذْمُومِ شَرْعًا ، فَإِنَّهُ سُمُّ قَاتِلٌ لِفَاعِلِهِ وَلِمَنْ يَقْتَدِي بِهِ ، وَهُوَ نَوْعٌ قَبِيحٌ كَمَا تَقَدَّمَ أَوَّلَ الْكِتَابِ فِي الْقِيَامِ وَالتَّلَاسِ ، بَلْ هَذَا أَشَدُّ قُبْحًا لِأَنَّهُ مُصَادِمٌ لِلنَّهْيِ .

فَإِنْ قَالَ الْقَائِلُ : إِنَّمَا يُفَعَّلُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّرْفِيحِ لِلْعِلْمِ وَالتَّوَقُّيرِ لَهُ .  
فَالْجَوَابُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ بِفِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِينَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَلَا يُتَّبَعُ غَيْرُهُمْ وَلَا يُرْجَعُ إِلَّا إِلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ حُطُوظَ النُّفُوسِ وَمُخَالَفَةَ السُّنَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ { فَلَا شَيْءَ أَعْلَى وَلَا أَرْفَعَ مِنْ اتِّبَاعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاتِّبَاعِ أَصْحَابِهِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ } .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّ هَذَا لَزَمَانٌ لَا يُشْبِهُ ذَلِكَ الزَّمَانَ لِتَعْظِيمِ الصِّدْرِ الْأَوَّلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا لِأَجْلِ عِلْمِهِمْ الْعَزِيزِ وَدِيَانَتِهِمْ .

فَالْجَوَابُ : أَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ وَالسُّنَّةَ الشَّرِيفَةَ وَرَدَا جَمِيعًا لِلْهَلِّ كُلِّ زَمَانٍ ، وَلَمْ يَخْصِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ قَرْنًا دُونَ قَرْنٍ وَلَا قَوْمًا دُونَ آخَرِينَ ، بَلْ أَتَى بِذَلِكَ عُمُومًا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ : { وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ } ، وَقَالَ : عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضٌ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ } انْتَهَى .

أَيَّ عَمَلٍ بِهِ فَالْمُنَزَّلَةُ الَّتِي يُرَاعَى حَقُّهَا فِي الشَّرْعِ إِنَّمَا بِالْعِلْمِ وَالْإِنصَافِ بِالْعَمَلِ بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَتَقْدِيمُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي هَذَا الزَّمَانِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا

هُوَ لِتَعْظِيمِ الدُّنْيَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَمَنْ كَانَتْ لَهُ خِلَعَةٌ أَوْ هَيْئَةٌ قَدَمُوهُ فِي الْمَجَالِسِ ، وَمَنْ كَانَ رَثَّ الْحَالِ أَخْرُوهُ عَكْسُ حَالِ السَّلَفِ كَمَا هُوَ مُشَاهِدٌ مِنْ عَوَائِدِ أَكْثَرِهِمْ ، فَلَا حَاجَةَ تَدْعُو إِلَى ذِكْرِ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فِي ذَلِكَ .

الْغَالِبُ مِنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُرَاعُونَ الْإِنصَافَ فِي ذَلِكَ أَنْ لَوْ كَانَ جَائِزًا فِي الشَّرْعِ .

فَالْحَاصِلُ مِنْ هَذَا : أَنَّ ذَلِكَ مُجَرَّدُ حِطِّ مَذْمُومٍ شَرْعًا كَمَا تَقَدَّمَ فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ ذَلِكَ ، بَلْ يُوضِحُ الْأَمْرَ وَيُنَكِّرُهُ وَيُزَجِّرُ فَاعِلَهُ وَيُفَيِّحُ لَهُ فِعْلَهُ وَيُشَنِّعُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ حَسَبَ اسْتِطَاعَتِهِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الشَّخْصُ مِمَّنْ يَحْتَنَاجُ النَّاسَ إِلَيْهِ لِلْفِتْنَى ، وَهُوَ مَقْصُودٌ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ فِي أُمُورِ الدِّينِ ، وَكَانَ لَهُ مَكَانٌ يُعْرَفُ بِهِ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ لِلضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ بِخِلَافِ غَيْرِهِ ، إِذْ لَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَيْهِ وَالضَّرُورَاتُ لَهَا أَحْكَامٌ تَخْصُهَا ، وَاللَّهُ الْمَوْقُوفُ .

فَصَلِّ فِي ذِكْرِ آدَابِ الْمُتَعَلِّمِ قَدْ تَقَدَّمَ رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ ذَكَرُ بَعْضِ آدَابِ الْعَالِمِ ، وَفِي ذِكْرِهِ غُنْيَةٌ عَنْ ذِكْرِ آدَابِ الْمُتَعَلِّمِ إِذْ أَنَّ الْغَالِبَ فِيمَا ذَكَرَ اشْتِرَاكُهُمَا فِي ذَلِكَ ، لَكِنْ قَدْ يَخْتَصُّ الْمُتَعَلِّمُ بِبَعْضِ بُدْيِ يَسِيرَةٍ يَنْبَغِي الشَّبِيهِ عَلَيْهَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْعَالِمِ أَنْ تَكُونَ نِيَّتُهُ فِي التَّعْلِيمِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ يُظْهِرَ الْحَقَّ عَلَى نَفْسِهِ ، وَعَلَى غَيْرِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، ثُمَّ هُوَ فِي حَقِّ الْمُتَعَلِّمِ أَكْثَرُ ؛ لِأَنَّهُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ مُتَّصِفٌ بِالْجَهْلِ فَيَحْرُسُ عَلَى تَخْلِيصِ نِيَّتِهِ مِنَ الشُّوَابِ فِي نَفْسِهِ ، وَهُوَ أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى لَا لِأَجْلِ أَنْ يَرْتَفِعَ قَدْرُهُ عِنْدَ النَّاسِ ، أَوْ يُعْرَفَ بِالْعِلْمِ ، أَوْ لِمَعْلُومٍ يَأْخُذُهُ بِهِ ، أَوْ لَأَنْ يَرَأَسَ بِهِ عَلَى الْجَهَالِ ، أَوْ لَأَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ ، أَوْ لَأَنْ يُسْمَعَ قَوْلُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخَطُوطِ الْمَذْمُومَةِ شَرْعًا الَّتِي تُخْرِجُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ تَعَالَى ، بَلْ يَفْعَلُ ذَلِكَ خَالِصًا لَوْجِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُرِيدُ غَيْرَ ذَلِكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِخْبَارًا عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ انْصَفَ بَعْضُ مَا ذَكَرَ : { أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ أَذْهَبَ فَخُذْ الْأَجْرَ مِنْ غَيْرِي }

، وَلَا تَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْعِلْمَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَإِذَا كَانَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فَيَتَعَيَّنُ تَخْلِيصُهُ لِلَّهِ تَعَالَى فَيَتَبَدُّهُ أَوَّلًا بِالْإِخْلَاصِ الْمَحْضِ ، حَتَّى يَكُونَ الْأَصْلُ طَيِّبًا فَتَأْتِي الْفُرُوعُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الطَّيِّبِ فَيَرْجَى خَيْرُهُ ، وَتَكْثُرُ بَرَكَتُهُ ، وَالْقَلِيلُ مِنَ الْعِلْمِ مَعَ حُسْنِ النِّيَّةِ فِيهِ أَنْفَعُ وَأَعْظَمُ بَرَكَتَةً مِنَ الْكَثِيرِ مِنْهُ مَعَ تَرْكِ الْمُبَالَغَةِ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ وَمِنْ مَرَاقِي الرُّفْقَى لِلْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لَوْجِهِ لِلَّهِ لَمْ يَزَلْ مُعَانًا ، وَمَنْ طَلَبَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَزَلْ مُهَانًا انْتَهَى هَذَا إِذَا كَانَ هُوَ الدَّاحِلُ بِنَفْسِهِ لَطَلَبَ الْعِلْمَ ، فَإِنْ كَانَ وَوَيْلَهُ هُوَ الَّذِي يُرْشِدُهُ لِذَلِكَ فَيَتَعَيَّنُ عَلَى الْوَالِيِّ أَنْ يُعَلِّمَهُ النِّيَّةَ فِيهِ ، وَلِيَحْذَرَ أَنْ يُرْشِدَهُ لَطَلَبَ الْعِلْمِ بِسَبَبِ أَنْ يَرَأَسَ بِهِ ، أَوْ يَأْخُذَ مَعْلُومًا عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فَإِنَّ هَذَا سُمُّ قَاتِلٍ يُخْرِجُ الْعِلْمَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ تَعَالَى بَلْ يَقْرَأُ ، وَيَجْتَهِدُ لِلَّهِ تَعَالَى خَالِصًا كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

فَإِنْ جَاءَ شَيْءٌ مِنْ غَيْبِ اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَهُ عَلَى سَبِيلِ أَنَّهُ فُتُوْحٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى سَأَفَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ لَأَجْلِ إِجَارَةٍ ، أَوْ مُقَابَلَةٍ عَلَى مَا هُوَ بِصَدَدِهِ إِذْ أَنْ أَعْمَالَ الْآخِرَةِ لَا يُؤْخَذُ عَلَيْهَا عِوَضٌ .  
 وَقَدْ رَوَى أَنْ يَحْيَى بْنَ يَحْيَى رَاوِيَ الْمُوْطَأَ لَمَّا أَنْ جَاءَ إِلَى مَالِكٍ لِيَقْرَأَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : اجْتَهِدْ يَا بَنِي فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ شَابٌّ فِي سَنِكَ فَقَرَأَ عَلَيَّ رِبِيعَةَ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَيَّامٌ وَتُوْفِّيَ الشَّابُّ فَحَضَرَ جِنَارَتَهُ عُلَمَاءُ الْمَدِينَةِ ، وَلَحْدَهُ رِبِيعَةُ بِيَدِهِ ثُمَّ رَأَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ فِي النَّوْمِ ، وَهُوَ فِي حَالَةٍ

حَسَنَةٍ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ : غَفَرَ اللَّهُ لِي ، وَقَالَ لِمَلَانِكَيْتِهِ : هَذَا عَبْدِي فَلَا تَكَاثُ نَبِيَّتَهُ أَنْ يَبْلُغَ دَرَجَةَ الْعُلَمَاءِ فَبَلَّغُوهُ دَرَجَتَهُمْ فَأَنَا مَعَهُمْ أَنْتَظِرُ مَا يَنْتَظِرُونَ .

قَالَ فَقُلْتُ : وَمَا يَنْتَظِرُونَ قَالَ : الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعُصَاةِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَسْعَى لِطَلْبِ الْمَعْلُومِ ، وَلَا فِي زِيَادَتِهِ ، وَلَا فِي تَنْزِيلِهِ فِي الْمَدَارِسِ ، وَلَا فِي الْوُقُوفِ عَلَى أَبْوَابِ مَنْ يُرْجَى ذَلِكَ مِنْهُمْ ، فَإِنْ فَعَلَ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرَ كَانَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي نَبِيَّتِهِ ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ الذَّمُّ بِنَصِّ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } ، وَلَا يَخْرُجُ عَنِ الْمَدْرَسَةِ إِلَى غَيْرِهَا ، وَلَا مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى غَيْرِهِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ مِنْ زِيَادَةِ الْعِلْمِ ، إِمَّا لَأَنْ يَكُونَ مُدْرَسُ الْمَدْرَسَةِ الْآخَرَى أَعْلَمَ ، أَوْ أَفِيدَ ، أَوْ أَصْلَحَ مِنَ الْأَوَّلِ ، أَوْ لَأَنْ تَنْكَرَرَ عَلَيْهِ مَسَائِلُ الْعِلْمِ ، وَتَثَبَّتْ ، وَإِنْ كَانَ الثَّانِي أَقْلَ الْعِلْمَاءِ مِنَ الْأَوَّلِ لَأَجْلِ مَعْلُومٍ ، فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ غَيْرَ مَا ذَكَرَ كَانَ قَدْحًا فِي نَبِيَّتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَالْمُبْتَدِي يَحْتَاجُ إِلَى تَخْلِيصِ نَبِيَّتِهِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُنتَهِي ؛ لِأَنَّ الْمُنتَهِي عَارِفٌ بِالِالدَّسَائِسِ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَيْهِ إِنْ حَصَلَ لَهُ التَّوْفِيقُ لَهُ بِخِلَافِ الْمُبْتَدِي

، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَا يَضُرُّهُ أَخْذُ الْمَعْلُومِ مَعَ اشْتِغَالِهِ بِالْعِلْمِ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا سَبَقَ ، اللَّهُمَّ إِنْ أَنْ لَا يَقْدِرَ عَلَى تَخْلِيصِ نَبِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى لِبَقَاءِ تَعَلُّقِ خَطَرِهِ بِالسَّبَابِ ، وَيَأْخُذُ الْمَعْلُومَ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَتَرُكُ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ أَوْلَى بِهِ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَقَعَ فِي بَحْرِ مَخَوْفٍ ، وَالْغَالِبُ فِيهِ الْعَطْبُ لِمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ يَقُولُ : { مَنْ عَمِلَ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ شَيْئًا يُرِيدُ بِهِ عَرْضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ رَجَحَهَا لِيُوجِدَ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ } أَوْ كَمَا قَالَ .

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى تَعَلُّمُ الْعِلْمِ فَيُخَافُ عَلَيْهِ ، فَتَرْكُهُ أَوْلَى بِهِ فَإِنْ اضْطُرَّ إِلَى مَسْأَلَةٍ فَلْيَسْأَلْ عَنْهَا أَهْلَ الْعِلْمِ ، وَحِينَئِذٍ يَقْدُمُ عَلَيْهَا ، وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا عَلِمْتَ عِلْمًا فَلْيُرِّ عَلَىكَ أَثْرُهُ ، وَسَمْتُهُ ، وَسَكِينَتُهُ ، وَوَقَارُهُ ، وَحِلْمُهُ لِقَوْلِهِ : عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ } .

وَعَنْ ابْنِ يُونُسَ ، وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ : لَمْ يَكُونُوا يَهْدِرُونَ الْكَلَامَ هَكَذَا ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ شَهْرٍ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ فِي قَوْلٍ مِنْ قَالَ : مِنَ الْعُلَمَاءِ طَلَبْنَا الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَبَى الْعِلْمُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا وَهُوَ الظَّاهِرُ : أَنَّهُ كَانَ أَوَّلًا جَاهِلًا لَا يَعْرِفُ مَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْوُطَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ ، فَلَمَّا أَنْ قَرَأَ الْعِلْمَ وَجَدَ قَوَاعِدَهُ مَاشِيَةً عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ : وَاجِبٌ وَمَنْدُوبٌ وَمُبَاحٌ وَمَكْرُوهٌ وَمَحْرَمٌ ، فَلَمَّا أَنْ عَلِمَ الْوَاجِبَ لَمْ يَسْعَهُ إِلَّا فِعْلُهُ ، وَكَذَلِكَ

الْمُحَرَّمِ عَكْسُهُ ، وَالْمُنْدُوبُ مَا لَهُ فِي فِعْلِهِ ثَوَابٌ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي تَرْكِهِ عِقَابٌ ، وَالْمَكْرُوهُ ضِدُّهُ ، وَالْمُبَاحُ مَا اسْتَوَى طَرَفَاهُ فَالْمُكَلَّفُ مُخَيَّرٌ فِي فِعْلِهِ ، وَفِي تَرْكِهِ فَاتَّعِ الْعِلْمَ ، وَبِاتِّبَاعِهِ صَارَ لِلَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّ نِيَّتَهُ كَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَيْهِ أَوْلاً فَوَجَدَ الْعِلْمَ يَمْنَعُهَا فَتَرَكَهَا .

وَقَدْ نَقَلَ مَعْنَى هَذَا الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَرَاقِي الرُّنْمَى لَهُ فَقَالَ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ :  
الْعِلْمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْعَمَلُ لِلَّهِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَطْلُبُ الْعِلْمَ لِعَبْرِ اللَّهِ فَيَرُدُّهُ الْعِلْمُ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ الْعِلْمَ يَأْبَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ انْتَهَى .  
هَذَا وَجْهٌ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ هَذَا إِنْسَانٌ غَرُّ فَسَلِمَ ، وَلَا يُمَكِّنُ لِعَاقِلٍ أَنْ يَغُرَّ بِنَفْسِهِ ، وَيَرْجُو أَنْ يَسْلَمَ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : قَدْ تَدْعُو الضَّرُورَةَ ، وَهُوَ الْعَالِبُ إِلَى طَلَبِ الْمَعْلُومِ ، وَإِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ مَدَارِسَ جَمَّةٍ لِأَجْلِ قِيَامِ الْبِنْيَةِ ، وَضَرُورَاتِ الْبَشَرِيَّةِ فَالْجَوَابُ : أَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنْهُ ، وَقَعَ الْخَلَلُ ، وَرَجَعَتْ أَعْمَالُ الْآخِرَةِ لِمُجَرَّدِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ عَطَبٌ عَظِيمٌ إِذْ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تُطْلَبُ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَا يَخْلُو طَالِبُ الْعِلْمِ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا فِي دِينِهِ وَاتِّقًا بِرَبِّهِ ، أَوْ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَاشْتِغَالُهُ بِالْعِلْمِ ، وَإِقْبَالُهُ عَلَيْهِ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَنْ يَدُورَ عَلَى الْمَدَارِسِ ، أَوْ غَيْرِهَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِرِزْقِهِ خُصُوصًا كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنْ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ( فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ) فَجَعَلَ الْمَشْيَ سَبَبًا لِلرِّزْقِ ، فَالْجَوَابُ أَنْكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى تَمَامِ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى { وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } بَانَ لَكَ أَنَّ آخِرَ الْآيَةِ

الْكَرِيمَةِ فِيهِ التَّنْبِيهُ لِلْمُتَسَبِّبِينَ عَلَى التَّحْفُظِ فِي مَا يُحَاوِلُونَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا ، إِذْ أَنَّ يَوْمَ النُّشُورِ فِيهِ الْحِسَابُ فَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْوَرَعِ فِي السَّبَبِ خَيْفَةً مِنَ الْحِسَابِ وَالْمُنَاقَشَةِ يَوْمَ النُّشُورِ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { لَا تَرُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْتَاهُ ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ } انْتَهَى .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : { لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ فِي جَوْ السَّمَاءِ تَعْدُو حِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا } انْتَهَى .

فَارْتَدَدْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ هَذَا إِلَى تَرْكِ الْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَالِاشْتِغَالِ بِالْأَعْمَالِ الْآخِرِيَّةِ ثَقَّةً بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِكِفَايَتِهِ ، فَإِنَّهُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ الْكَرِيمُ ، فَإِنْ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِقَوْلٍ مِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الشَّغْفُ بِالْأَسْبَابِ فَقَالَ : طَيْرَانِ الطَّائِرِ سَبَبٌ فِي رِزْقِهِ فَالْجَوَابُ أَنَّ طَيْرَانَ الطَّائِرِ فِي الْهَوَاءِ لَا يُمَاتِلُ التَّسَبُّبَ فِي الرِّزْقِ ؛ لِأَنَّ الْهَوَاءَ لَيْسَ فِيهِ حَبٌّ يَلْتَقِطُ ، وَلَا جِهَةٌ تُقْصَدُ أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَنْزِلُ فِي مَوَاضِعَ شَتَّى لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ ، وَلَا عَقْلٌ لَهُ يُدْرِكُ بِهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ طَيْرَانَهُ فِي الْهَوَاءِ لَيْسَ هُوَ مِنْ بَابِ طَلَبِ الرِّزْقِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ حَرَكَةِ يَدِ الْمُرْتَعَشِ لَا حُكْمَ لَهَا ، فَيَتَرَدَّدُ فِي الْهَوَاءِ حَتَّى يُؤْتَى بِرِزْقِهِ إِلَيْهِ ، أَوْ يُؤْتَى بِهِ إِلَى رِزْقِهِ ، وَهَذَا الَّذِي يَتَعَيَّنُ حَمْلُ طَيْرَانِ الطَّائِرِ عَلَيْهِ أَعْنِي فِي أَنَّهُ لَا حُكْمَ لَهُ فِي الرِّزْقِ ، وَلَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمَاهُ مُتَوَكِّلًا مَعَ

طَيْرَانِهِ ، وَلِذَلِكَ مَثَلٌ بِهِ ، وَالْعَاقِلُ الْمُكَلَّفُ أَوْلَى بِالتَّوَكُّلِ مِنْهُ سَيِّمًا مِنْ دَخَلٍ فِي بَابِ الْإِشْتِغَالِ بِأَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ طَلَبُ الْعِلْمِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي ، وَهُوَ الْعَاجِزُ عَنِ التَّوَكُّلِ لِعَدَمِ

قُوَّةَ الْيَقِينِ عِنْدَهُ فَالْأَسْبَابُ عَلَيْهِ مُتَّسِعَةٌ فَيَتَسَبَّبُ فِي شَيْءٍ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَهُوَ أَوْلَى بِهِ ، بَلْ أَوْجَبُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ أَوْ سَاخَ النَّاسِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ ، وَيَكْفِيهِ مَعَ ذَلِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعِلْمِ ، وَقَدْ يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ فَيَصِيرُ كَثِيرًا .

وَعَلَى هَذَا كَانَ حَالُ السَّلَفِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فِي كَوْنِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعْلُومٌ عَلَى سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا حَدَّثَتْ الْأَرْزَاقُ عَلَى أَعْمَالِ الْآخِرَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَمِنْهُ دَخَلَ الْفَسَادُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ تَعَاطَى أَسْبَابَ الْآخِرَةِ ، وَمِنْ كِتَابِ سِيرِ السَّلَفِ لِلْحَافِظِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ الْأَصْبَهَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ ذُو الثَّنُونِ الْمِصْرِيُّ : رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَزْدَادُ بِعِلْمِهِ بُغْضًا لِلدُّنْيَا ، وَتَرْكًا لَهَا ، فَالْيَوْمَ يَزْدَادُ الرَّجُلُ بِعِلْمِهِ لِلدُّنْيَا حُبًّا ، وَلَهَا طَلَبًا ، وَكَانَ الرَّجُلُ يُنْفِقُ مَالَهُ عَلَى الْعِلْمِ ، وَالْيَوْمَ يَكْتَسِبُ الرَّجُلُ بِعِلْمِهِ مَالًا ، وَكَانَ يُرَى عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ زِيَادَةُ إِصْلَاحٍ فِي بَاطِنِهِ ، وَظَاهِرِهِ ، فَالْيَوْمَ تَرَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِسَادَ الْبَاطِنِ ، وَالظَّاهِرِ انْتَهَى .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ طَالِبَ الْعِلْمِ التَّسَبُّبُ فِي الصَّنَائِعِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَخْرُجُ بِهِ عَنْ سَمْتِهِ ، وَوَقَارِهِ ، وَزِيَّهِ فَالْجَوَابُ : أَنَّ هَذَا أَيْضًا مِنَ الْبِدَعِ الَّتِي أُحْدِثَتْ ؛ لِأَنَّ السَّلَفَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ فَرْقٌ فِي الزِّيَّ ، وَلَا الْمَلْبَسِ لَفَقِيهِ ، وَلَا لِعَيْرِهِ ، وَمِنْ كِتَابِ الْقُوتِ قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ عَلَى أَيْمَةِ الْهُدَى أَنْ يَكُونُوا فِي مِثْلِ أَدْنَى أَحْوَالِ النَّاسِ لِيَقْتَدِيَ بِهِمُ الْعَنِيُّ ، وَلَا يَزِرِي بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ ، وَعَوْتَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي لِبَاسِهِ ، وَكَانَ يَلْبَسُ الْخَشِينَ مِنَ الْكِرَاسِ قِيمَةً قِيمَتِهِ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمٍ إِلَى خَمْسَةِ ، وَيَقْطَعُ مَا فَضَلَ عَنْ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ فَقَالَ : هَذَا أَدْنَى إِلَى التَّوَاضُعِ ، وَأَجْدَرُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ .

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التَّنَعُّمِ ، وَقَالَ : { أَلَا إِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيَسُؤُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ } ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مَنْ رَقَّ ثَوْبُهُ رَقَّ دِينُهُ ، وَرُويَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدُوا بِالنَّعِيمِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ } انْتَهَى .

أَلَا تَرَى إِلَى قِصَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ثَوْبِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ إِحْدَى عَشْرَةَ رُفْعَةً إِحْدَاهَا مِنْ أَدِيمٍ ، هَذَا وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا بِالْكَ بَعِيرِهِ ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَانَ ذَلِكَ فِي زَمَانٍ لَاتَّقِ بِهِمْ ، وَهَذَا زَمَانٌ لَا يَلِيقُ بِهِ مَا ذَكَرْتُمْ فَالْجَوَابُ : أَنَّ الزَّمَانَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ سَوَاءٌ إِذْ أَنَّ الْكُلَّ عَمَّهُمُ الْخَطَّابُ ، وَتَنَاوَلْتَهُمُ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَدْ تَجَدَّدَ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ هَذَا الزَّمَانِ مُتَّصِفًا بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ الْجَلِيلَةِ

كتاب : الفرج بعد الشدة  
المؤلف : القاضي أبو علي الحسن بن علي التنوخي

ولم أعلم من أمري شيئاً، إلا أنني أفقت فلم أره، ووجدت أعضائي سالمة، ووجدت حولي من الجماجم والعظام أمراً عظيماً، فلم يزل عقلي وقوتي يثوبان إلي إلى أن قمت، ومشيت .

فعثرت بشيء تأملته، فإذا هو هميان، فأخذته، وشددت به وسطي، ومشيت إلى أن بعدت عن الموضوع، فوصلت إلى شبيهه بوهدة، فجلست فيها، وغطيت نفسي بما أمكنني من القصب بقية ليلتي .  
فلما طلعت الشمس أحسست بكلام المجتازين، وحوافر بغالم، فخرجت وعرفتهم قصتي، وركبت بغل أحدهم .  
فلما بعدت عن الأجمة، وأمنت على نفسي، فتحت الهميان، فإذا فيه رقعة بخط أبي، بأصل ما كان في الهميان من الدنانير، وبما أنفقه، فإذا هو هميان أبي الذي كان في وسطه لما افترسه السبع .  
فحسبت المصروف، ووزنت الباقي، فإذا هي بأزاء ما بقي من الأصل، ما نقصت شيئاً .  
قال: وأخرج الهميان، وفتحته، وأخرج الرقعة، فقال أبو علي: نعم، هذا خط أبيك .  
وعجبت الجماعة من ذلك .

نجا من الأسد وافترس مملوكه

وبلغني عن رجل من أهل الأنبار، قال: خرجت إلى ضيعة لي في ظاهر الأنبار، راكباً دابة لي، ومعني مملوك لي أسود في نهاية الشجاعة .  
فلما صرنا في بعض الطريق، بالقرب من الموضوع الذي أنا طالبه، إذ نشأت سحابة، فأمرت، وكان المساء قد أدركنا، فملنا إلى قباب كانت في الطريق للسابلة، فلجاناً إليها، فقوي المطر حتى منعنا من الحركة، فأشار الغلام علي بالمبيت .  
فقلت له: تخاف اللصوص ويملك .  
فقال لي: تخاف وأنا معك ؟ قلت: فالسبع ؟ قال: نصير الدابة داخل القبة، وأنت تليها، وأنا عند الباب، وأشد وسطي بالحبل الذي معنا، وأشد طرفه برجلك، حتى لا يأخذني النوم، فإن جاء الأسد، أخذني دونك .  
وما زال يحسن لي ذلك الرأي حتى أطعته، وملنا إلى إحدى القباب، ودخلناها، وفعل ما قال .  
فوالله ما مضت قطعة من الليل، حتى جاء الأسد، فأخذ الأسود فدقه، واحتمله، وجر رجلي المشدودة معه في الحبل .

فلم يزل يجبرني على الشوك والحجارة، إلى أن صار بي إلى أجمته، وأنا لا أعقل شيئاً من أمري، ولا أحس بأكثر ما يجري، ولا تمييز لي يؤدي بي إلى الاجتهاد في حل الحبل من رجلي .  
ثم رمى بالأسود، وربض عليه، وما زال يأكل منه، حتى شبع، وترك ما فضل منه، وليس في من حس الحياة غير النظر فقط، ثم مضى، فنام بالقرب من مكاننا .  
وبقيت زماناً على تلك الحال، ثم سكن روعي، ورجعت إلي نفسي، لطول مكث الأسد في نومه، فحللت رجلي

من الحبل، وقمت أدب، فعثرت بشيء لا أدري ما هو، فأخذته، فإذا هميان ثقيل، فشددته على وسطي،  
وخرجت من الأجمة، وقد قارب الصبح أن يسفر.  
وصرت إلى القبة التي فيها دابتي، فإذا هي واقفة بجأها، فأخرجتها، وركبتها، وانصرفت إلى منزلي، وفتحت  
الهميان، فوجدت فيه جملة دنانير.  
فحمدت الله تعالى على السلامة وبقي الرعب في قلبي، والتألم في بدني، مدة.  
الباب العاشر

فيمن اشتد بلاؤه بمرض ناله فعافاه الله سبحانه بأيسر سبب وأقاله

دعاء يشفي من الوجع

حدثني علي بن عمر بن أحمد الحافظ، من حفظه، قال: حدثنا أبو بكر النيسابوري، قال: حدثنا أبو بشر بن عبد  
الأعلى، قال: أخبرنا عبد الله بن وهب أن مالكا، أخبره عن يزيد بن خصيفة، عن عمرو بن عبد الله بن كعب  
السلمي عن نافع بن جبير بن مطعم، عن عثمان بن أبي العاص الثقفي، قال: شكوت إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم، وجعاً بي، قد كاد يبطلني، فقال لي: يا عثمان، ضع يدك عليه، وقل: بسم الله، أعوذ بعزة الله  
وقدرته، من شر هذا الوجع، ومن شر ما أجد وأحاذر، سبع مرات.  
قال: فقلتها، فشفايني الله.

وجأ نفسه بسكين فعوفي من مرضه

حدثنا أحمد بن عبد الله بن أحمد الوراق، قال: حدثنا أحمد بن سليمان الطوسي، قال: حدثنا الزبير بن بكار،  
قال: حدثني محمد بن الضحاك، عن أبيه، ومحمد بن سلام عن أبي جعدة، قال: برص أبو عزة الجمحي الشاعر،  
فكانت قريش لا تؤاكله، ولا تجالسه، فقال: الموت خير من هذه الحياة.  
فأخذ حديدية، ودخل بعض شعاب مكة، فطعن بها في معدته. والمعد: موضع عقبي الراكب من الدابة.  
قال أبو جعدة: فمرت الحديدية بين الجلد والصفاق، فسال منه ماء أصفر، وبرئ لوقته، فقال:  
اللهم ربّ وائلٍ ونهدٍ... والمهمهات والجبال الجرد  
قال مؤلف هذا الكتاب: والذي في كتاب الطوسي: لا هم، وهو الصواب عندي.

وربّ من يرعى بياض نجد... أصبحت عبداً لك وابن عبد  
أبرأتني من وضح في جلدي... من بعد ما طعنت في معدّي

يا قديم الإحسان لك الحمد

حدثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف بن يعقوب بن بهلول التنوخي، قال: كان ينزل باب الشام من الجانب  
الغربي من بغداد رجل مشهور بالزهد والعبادة، يقال له: لبيب العابد، لا يعرف إلا بهذا.  
وكان الناس ينتابونه، وكان صديقاً لأبي، فحدثني لبيب، قال: كنت مملوكاً رومياً لبعض الجنند، فرباني، وعلمي

العمل بالسلاح، حتى صرت رجلاً، ومات مولاي بعد أن أعتقتني .  
فوصلت إلى أن حصلت رزقه لي، وتزوجت بامرأته، وقد علم الله أنني لم أرد بذلك إلا صيانتها، فأقمت معها مدة.

ثم اتفق أني يوماً حية داخلية في جحرها، فأمسكت ذنبها، فانثنت علي، فنهشت يدي، فشلت .  
ومضى علي ذلك زمان طويل، فشلت يدي الأخرى، لغير سبب أعرفه، ثم جفت رجلاي، ثم عميت، ثم خرس.

وكنت علي ذلك الحال - ملقى - سنة كاملة، لم تبق لي جارحة صحيحة، إلا سمعي، أسمع به ما أكره، وأنا طريح علي ظهري، لا أقدر علي الكلام، ولا علي الحركة، وكنت أسقى وأنا ريان، وأترك وأنا عطشان، وأهمل وأنا جائع، وأطعم وأنا شبهان.  
فلما كان بعد سنة، دخلت امرأة إلى زوجتي، فقالت: كيف أبو علي، لبيب؟ فقالت لها زوجتي: لا حي فيرجى، ولا ميت فيسلى .

فأقلقني ذلك، وآلني ألماً شديداً، وبكيت، ورجيت إلى الله عز وجل في سري بالدعاء.  
وكنت في جميع تلك العلل لا أجد ألماً في جسمي، فلما كان في بقية ذلك اليوم، ضرب علي جسمي ضرباً عظيماً كاد يئلفني، ولم أزل علي ذلك الحال، إلى أن دخل الليل وانتصف، فسكن الألم قليلاً، فنمت .  
فما أحسست إلا وقد انتهت وقت السحر، وإحدى يدي علي صدري، وقد كانت طول هذه السنة مطروحة علي الفراش لا تنشال أو تشال.  
ثم وقع في قلبي أن أتعاطى تحريكها، فحركتها، فتحركت، ففرحت بذلك فرحاً شديداً، وقوي طمعي في تفضل الله عز وجل علي بالعافية .

فحركت الأخرى فتحركت، فقبضت إحدى رجلي فانقبضت، فرددتها فرجعت، ففعلت مثل ذلك مراراً.  
ثم رمت الانقلاب من غير أن يقلبني أحد، كما كان يفعل بي أولاً، فانقلبت بنفسي، وجلست .  
ورمت القيام فأمكنني، فقممت ونزلت عن السرير الذي كنت مطروحاً عليه، وكان في بيت من الدار.  
فمشيت ألتمس الحائط في الظلمة، لأنه لم يكن هناك سراج، إلى أن وقعت علي الباب، وأنا لا أطمع في بصري.  
فخرجت من البيت إلى صحن الدار، فرأيت السماء والكواكب تزهر، فكادت أموت فرحاً.  
وانطلق لساني بأن قلت: يا قديم الإحسان، لك الحمد .

ثم صحت بزوجتي، فقالت: أبو علي؟ فقلت: الساعة صرت أبو علي؟ أسرجي، فأسرجت.  
فقلت: جيئني بمقراض، فجاءت به، فقصصت شارباً لي كان بزوي الجند .

فقالت زوجتي: ما تصنع؟ الساعة يعيبك رفقاًؤك .

فقلت: بعد هذا لا أخدم أحداً غير ربي .

فانقطعت إلى الله عز وجل، وخرجت من الدار، وطلقت الزوجة، ولزمت عبادة ربي .

وقال أبو الحسن: وخبر هذا الرجل معروف مشهور، وكانت هذه الكلمة: يا قديم الإحسان لك الحمد، صارت عادته، يقولها في حشو كلامه .

وكان يقال إنه مجاب الدعوة، فقلت له يوماً: إن الناس يقولون إنك رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامك،



فمسح يده عليك، فبرئت .

فقال: ما كان لعافيتي سبب غير ما عرفتك.

أبراً أبو بكر الرازي غلاماً ينفث الدم بإطعامه الطحلب

حدثني أبو الحسن محمد بن لعلي الخلال البصري، أحد أبناء القضاة، قال: حدثني بعض أهل الطب الثقات: أن غلاماً من بغداد قدم الري وهو ينفث الدم، وكان لحقه ذلك في طريقه.

فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحدق، صاحب الكتب المصنفة، فوصف له ما يجد.

فأخذ الرازي مجسه، ورأى قارورته، واستوصف حاله، منذ ابتداء ذلك به، فلم يقد له دليل على سل ولا قرحة، ولم يعرف العلة، فاستنظر الرجل ليفكر في الأمر.

فقامت على العليل قيامته وقال: هذا إياس لي من الحياة، لحدق الطبيب، وجهله بالعلة، فزاد ما به .

وولد الفكر للرازي أن عاد إليه وسأله عن المياه التي شربها في طريقه، فأخبره أنه شرب من مستنقعات وصهاريج.

فقام في نفس الرازي، لحدة خاطر وجودة الذكاء، أن علقه كانت في الماء وقد حصلت في معدته، وأن ذلك النفث من فعلها.

فقال له: إذا كان غداً جئتك بعلاجك، ولا أنصرف من عندك حتى تبرأ بإذن الله تعالى، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك يطيعونني فيما أمرهم به .

قال: نعم.

وانصرف الرازي، وجمع ملء مركنين كبيرين من طحلب، وأحضرهما من غد معه، وأراه إياهما.

وقال له: أبلع جميع ما في هذين المركنين، فبلع الرجل شيئاً يسيراً، ثم وقف .

فقال له: أبلع.

فقال: لا أستطيع.

فقال للغلمان: خذوه، فنيموه، ففعلوا به ذلك، وفتحوا فاه، وأقبل الرازي يدير الطحلب في حلقة، ويكبسه كبساً شديداً ويطلبه ببلعه، شاء أو أبى، ويتهدده بالضرب، إلى أن بلع كارهاً أحد المركنين، وهو يستغيث فلا ينفعه مع الرازي شيء.

إلى ان قال له العليل: الساعة أقذف ما في بطني، فزاد الرازي فيما يكبسه في حلقة.

فذرعه القيء، فقذف، فتأمل الرازي قذفه، فإذا فيه علقه، وإذا بما لما وصل إليها الطحلب، دبت إليه بالطبع، وتركت موضعها، فلما قذف العليل، خرجت مع الطحلب، ونهض العليل معافى.

أصيب بوجع في المعدة وشفاه لحم جرو سمين

وحكى الحسن بن محمد السطوي، غلام كان يخدم أبي رحمه الله، قال: حدثني أبو الحسن علي بن الحسن الصيدلاني البناتاذري، خليفة القاضي أبي القاسم علي بن محمد التنوخي على القضاء ببنا تاذر، قال: كان عندنا بسوق الأربعاء، من بنا تاذر، غلام حدث من أولاد التناء، لحقه وجع في معدته شديد، بلا سبب يعرفه، وكانت

تضرب عليه في أكثر الأوقات ضرباً عظيماً، حتى كاد يتلف، وقل أكله، ونحل جسمه .  
فحمل إلى الأهواز، فعولج بكل شيء، فما نجح فيه دواء، فرد إلى بيته وقد يئس منه .  
فاستدعى والده طبيباً حاذقاً، وأراه ولده، فقال له الطبيب: أقعد وأشرح لي حالك، منذ حال الصحة، فشرحها.  
وطاوله في الحديث، إلى أن قال له العليل: إني دخلت بستاناً لنا، وكان في بيت البقر منه، رمان كثير، قد جمع  
للبيع، فأكلت منه رمانات عدة.

فقال له الطبيب: كيف كنت تأكل؟ قال: كنت أعض رأس الرمانة بجمي، وأرمي به، وأكسرهما، وأكلها، قطعاً  
قطعاً.

فقال له الطبيب: في غد أعالجك، وتبرأ بإذن الله تعالى، وخرج.

فلما كان من الغد، جاءه بقدر إسفيدباج، قد طبخها بلحم جرو سمين، وقال للعليل: كل هذا.  
فقال: ما هو؟ قال: إذا أكلت عرفتك.

قال: فأكل العليل.

فقال له الطبيب: أمتل من الطعام، ففعل، ثم أطعمه بطيخاً كثيراً، ثم تركه ساعة، وسقاه فقاعاً قد خلط بماء حار  
وشبت.

ثم قال: أتدري أي شيء أكلت؟ قال: لا أدري.

قال: أكلت لحم كلب، فحين سمع الغلام ذلك، اندفع فقذف جميع ما في بطنه.

فأمر الطبيب بعينه ورأسه فأمسكا، وأقبل يتأمل القذف، إلى أن طرح الغلام شيئاً أسود، كالنواة الكبيرة،  
يتحرك.

فأخذه الطبيب، وقال له: ارفع رأسك، فقد برئت، وفرج الله تعالى عنك.

فرفع الغلام رأسه، وانقطع القذف، وسقاه الطبيب شيئاً يقطع الغثيان، وصب على رأسه ماء ورد، وسكن  
نفسه، ثم أخذ ذلك الشيء الذي يشبه النواة، فأراه إياه، فإذا هو قراد.

وقال له: إني قد زكنت أن الموضع الذي كان فيه الرمان، كان فيه قردان من البقر، وأنه قد دخلت واحدة  
منهن في رأس إحدى الرمانات التي اقتلعت رؤوسها بفيك، فنزل القراد إلى حلقك، وعلق بمعدتك يمتصها.  
وعلمت أن القراد يهش إلى لحم الكلب، فأطعمتك إياه، وقلت: إن صح ظني، فسيعلق القراد بلحم الكلب،  
تعلقاً يخرج معه إن قذفت، فتبرأ، وإن لم يكن ما ظننت صحيحاً، فما يضرك من أكل لحم الكلب.

فلما أحب الله تعالى من عافيتك صح حدسي، فلا تعاود بعد هذا إدخال شيء في فيك لا ترى ما فيه .  
وبريء الغلام، وصح جسمه.

ذكاء طبيب أهوازي

وحدثنا الحسن غلامنا، عن ابن الصيدلاني هذا، قال: كان لي أكار حدث، فانتفخ ذكره انتفاخاً عظيماً واحمر،  
وضرب عليه ضرباً شديداً، فلم يكن ينام الليل، ولا يهدأ النهار، وعولج فلم يكن إلى برئه سبيل.

قال: فجاء مطبب من الأهواز، يريد البصرة، فسألته أن ينظر إليه.

فقال لي: قل له يصدقني عن خبره في أيام صحته، وإلى الآن، قال: فحدثه.

فقال له: ما صدقتني، ومالي إلى علاجك سبيل، إلا أن تصدقني.

فقال لي الغلام: إن صدقتك يا أستاذ، فأنا آمن من جهتك على نفسي؟ قلت: نعم.  
فقال: أنا غلام حدث، وعزب، فوطئت حماراً لي في الصحراء ذكراً.

فقال له الطبيب: الآن علمت أنك قد صدقت، والساعة تقرأ.  
ثم أمر به فأمسك إمساكاً شديداً، وأخذ ذكره بيده، فجسه جساً شديداً، والغلام ساكت.  
إلى أن جس منه موضعاً، فصاح الغلام، فأخذ الطبيب خيط إبريسم، فشد الموضع شداً شديداً، ولم يزل يمرخ  
إحليل الغلام بيده، ويسلته، إلى أن ندت منه حبة شعير من نقب ذكر الغلام، وقد كبرت وجرحت الموضع،  
فسال منه شيء يسير كماء اللحم.  
فأعطاه مرهماً، وقال له: استعمل هذا أياماً فإنك تقرأ، وتب إلى الله تعالى من هذا الفعل.  
فاستعمل الغلام ذلك المرهم، فبرئ.

### شج رأسه فمرض ثم شج بعدها فصلح

وحدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبيد الله الدقاق، المعروف بابن العسكري، شيخ مجرب ثقة، كان ينزل  
في درب الشاكرية من نهر المعلى، في الجانب الشرقي من بغداد، في المذاكرة، قال: كان أبي إذا جلس يفتش في  
دفاتره، وأنا صبي، أجيء فأخذ منها الشيء بعد الشيء، استحسنته، فألعب به.  
وكنت أرى في دفاتره دفترًا فيه خطوط حمراء، فأستحسنته وأطلبه فيمنعني منه، حتى بلغت مبلغ الرجال.  
فجلس يوماً يفتش كتبه، فرأيت الدفتر، فأغفلت أبي وأخذته، ففتحتة أقرؤه، فإذا هو مولدي، وقد عمله بعض  
المنجمين.

فوجدت فيه، أنني إذا بلغت أربعاً وثلاثين سنة، كان علي فيها قطع.  
فالتفت أبي فرأى الدفتر معي، فصاح وأخذه مني، ونظر إلى أي موضع بلغت، فتوقف وأخذ يضعف ذلك في  
نفسي لئلا أعتهم.  
ومضت السنون، فلما بلغت السنة التي ذكرها المنجم، ركبت مهراً لي، وخرجت من دار الضرب، وأبي فيها،  
وكان إليه العيار، فبلغت إلى ساباط بدر بسيما، بدر بديزج.  
فنفر المهر من كلب كان في الطريق رابضاً، فضرب رأسي حائطاً كان في الساباط، فوقع عن المهر مغشياً  
علي.

ثم حملت إلى دار الضرب، وأحضر طبيب، وقد انتفخ موضع الضربة من رأسي إنتفاخاً عظيماً، فأشار بفصدي،  
ففصدت فلم يخرج لي دم.

فحملت إلى بيتنا، ولم أشك في أني ميت لشدة ما لحقني، فاعتلت، وضعفت نفسي خوفاً مما ذكرته من حكم  
المنجم.

فكنت يوماً جالساً مستنداً إلى سرير، وقد أيست من الحياة، إذ حملتني عينا، فخفق رأسي، فضرب درابزين  
السري، فشج الموضع المنتفخ، فخرج منه أرتال دم، فخفف ما بي في الحال، فصلحت، وبرئت، وعشت إلى  
الآن.

وكان له يوم حدثني بهذا الحديث أربعاً وثمانين سنة وشهور، على ما أخبرني.

القطيعي الطبيب وذكأؤه ومكارم أخلاقه

وحدثني أبو الحسن علي بن أبي محمد الحسن بن محمد الصلحي الكاتب، قال: رأيت بمصر طبيباً مشهوراً يعرف بالقطيعي، وكان يقال: إنه يكسب في كل يوم ألف درهم، من جرايات يجريها عليه قوم من رؤساء العسكر، ومن السلطان، وما يأخذه من العامة.

قال: وكان له دار قد جعلها شبه البيمارستان، من جملة داره، يأوي إليها ضعفاء الأكلة، يعالجهم، ويقوم بأودهم وأدويتهم، وأغذيتهم، وخدمتهم، وينفق أكثر كسبه في ذلك.

قال أبو الحسن: فأسكت بعض فتيان الرؤساء بمصر - وأسماءه لي فذهب عني اسمه - وكنت هناك، فحمل إليه أهل الطب، وفيهم القطيعي، فأجمعوا على موته، إلا القطيعي، وعمل أهله على غسله ودفنه.

فقال القطيعي: دعوني أعالجه، فإن برئ، وإلا فليس يلحقه أكثر من الموت الذي أجمع هؤلاء عليه.

فخلاه أهله معه، فقال: هاتم غلاماً جليداً ومقارع، فأتي بذلك.

فأمر به فمد، وضرب عشر مقارع من أشد الضرب، ثم جس مجسه، وضربه عشرأ أخرى شديدة أيضاً، ثم جس مجسه، وضربه عشرأ أخرى.

ثم جس مجسه، وقال للطب: أيكون للميت نبض يضرب؟ فقالوا: لا.

قال: فجسوا نبض هذا.

فجسوه، فإذا به يتحرك، فضرب عشر مقارع أخرى، فصاح.

فقطع الضرب عنه، فجلس العليل يجس بدنه، ويتأوه، وقد ثابت إليه قوته.

فقال له الطبيب: ما تجد؟ قال: أنا جائع.

قال: أطعموه الساعة، فجاءوه بما أكله، وقمنا وقد رجعت قوته، وبرئ.

فقال له الطب: من أين لك هذا؟ قال: كنت مسافراً في قافلة فيهم أعراب يخفروننا، فسقط منهم فارس عن

فرسه، فأسكت، فعمد شيخ منهم إليه، فضربه ضرباً عظيماً، فما رفع عنه الضرب حتى أفاق، فعلمت أن ذلك الضرب جلب عليه حرارة أزالته سكتته.

فقست عليه أمر هذا العليل.

مريض بالاستسقاء تشفيه أكلة جراد

حدثني بعض المتطببين بالبصرة، قال: حدثنا أبو منصور بن مارية، كاتب أبي مقاتل صالح بن مرداس الكلبي،

أمير حلب، وكان أبو منصور من رؤساء أهل الصراة الذين يضربون المثل بنعمتهم وترفهم، وكان ثقة أديباً،

وقد شاهدته أنا، ولم أسمع منه هذه الحكاية، قال: أخبرني أحد شيوخنا، قال: كان بعض أهلنا قد استسقى، فأيس

من حياته، وحمل إلى بغداد، فشور أهل الطب فيه، فوصفوا له أدوية كثاراً، فعرفوا أنه قد تناولها بأسرها، فلم

تنجع، فأيسوا منه، وقالوا: لا حيلة لنا في برئه.

فلما سمع العليل ذلك، قال لمن معه: دعوني الآن أتزود من الدنيا، وأكل ما أشتهي، ولا تقتلوني قبل أجلي

بالحمية.

فقالوا: كل ما تريد.

فكان يجلس على دكان بياب الدار، ومهما رأى ما يجتاز به على الطريق، شراه، وأكله.  
فمر به رجل يبيع جراداً مطبوخاً، فاشتري منه عشرة أرطال، وأكلها بأسرها.  
فلما كان بعد ساعة، أنحل طبعه، وتواتر قيامه، حتى قام في ثلاثة أيام أكثر من ثلثمائة مجلس، وضعف، وكاد يتلف.

ثم انقطع القيام، وقد زال كل ما في جوفه، وعادت بطنه إلى حالها في الصحة، وثابت إليه قوته، وبرئ.  
فخرج برجليه في اليوم الخامس، يتصرف في حوائجه، فرآه أحد الطب، فعجب من أمره، وسأله عن الخبر، فعرفه.

فقال: ليس من شأن الجراد أن يفعل هذا، ولا بد أن يكون في الجراد الذي فعل هذا خاصية، فأحب أن تدلني على الذي باعك الجراد، فلم يزالوا في طلبه حتى وجدوه.

فقال له الطبيب: من أين لك هذا الجراد؟ فقال: أنا أصيده، وأجمع منه شيئاً كثيراً، وأطبخه، وأبيعه.

فقال: من أين تصيده؟ فذكر قرية بالقرب من بغداد.

فقال له الطبيب: أعطيك ديناراً، وتدع شغلك، وتجيء معي إلى الموضع.

قال: نعم، فخرجا وعاد الطبيب من غد، فذكر أنه رأى الجراد يرعى في صحراء أكثر نباتها حشيشة يقال لها: مازريون، وهي دواء الاستسقاء.

وإذا دفع إلى العليل منها وزن درهم، أسهله إسهالاً يزيل الاستسقاء، ولكن لا يؤمن أن لا ينظبط، ولا يقف، فيقتله الذرب، والعلاج بها خطر جداً، وهي مذكورة في الكتب الطبية، ولكنها لفرط خطرها لا يصفها الأطباء، فلما وقع الجراد على هذه الحشيشة، وانطبخت في معدته، ثم طبخ الجراد، ضعف فعلها بطبخين اجتماعاً عليها، وقضى أن تناولها هذا بالاتفاق، وقد تعدلت بمقدار ما يدفع طبعه دفعاً لا ينقطع، فبرأ.

### مريض بالاستسقاء يبرأ بعد أن طعم لحم أفعى

وحدثنا أبو الحسن محمد بن طرطى الواسطي، قال: سمعت أبا علي عمر بن يحيى العلوي الكوفي، قال: كنت في بعض حججتي في طريق مكة، فاستسقى رجل كان معنا من أهل الكوفة، وثقل في عنته.  
وسل الأعراب قطاراً من القافلة كان هذا العليل على جمل منه، ففقد، وجزعنا عليه، وعلى القطار، وكنا راجعين إلى الكوفة.

فلما كان بعد مدة، جاء العليل إلى داري معافى، فسألته عن قصته وسبب عافيته.

فقال: إن الأعراب لما سلوا القطار، ساقوه إلى محلهم، وكان على فراسخ يسيرة من الحججة، فأنزلوني، ورأوا صورتي، فطرحوني في أواخر بيوتهم.

وتقاسموا ما كان في القطار، فكنت أزحف وأتصدق من البيوت ما أكله، وتمنيت الموت، وكنت أدعو الله تعالى به أو بالعافية.

فرأيتهم يوماً وقد عادوا من ركوبهم، وأخرجوا أفاعي قد اصطادوها، فقطعوا رؤوسها وأذناها، واشتروها، وأكلوها.

فقلت: هؤلاء يأكلون هذه فلا تضرهم بالعادة التي قد مرنوا عليها، ولعلي إذا أكلت منها شيئاً أن أتلف فأستريح مما أنا فيه.

فقلت لبعضهم: أطعمني من هذه الحيات، فرمى إلي واحدة منها مشوية، فيها أرطال، فأكلتها بأسرها، وأمعت، طلباً للموت، فأخذني نوم عظيم، فانتبهت وقد عرقت عرقاً عظيماً، فاندفعت طبيعتي، فقممت في بقية يومي وليلي أكثر من مائة مجلس، إلى أن سقطت طريحاً وجوفي يجري.

فقلت: هذا طريق الموت، فأقبلت أتشهد، وأدعو الله تعالى بالرحمة والمغفرة.

فلما أضاء الصبح، تأملت بطني، فإذا هي قد ضمرت جداً، وزال عنها ما كان بها، فقلت: أي شيء ينفعي هذا، وأنا ميت؟ فلما أضحى النهار، انقطع القيام، ووجبت صلاة الظهر، فلم أحس بقيام، وجعت، فجئت لأزحف على العادة، فوجدت بدني خفيفاً، وقوتي صالحة، فتحاملت ومشيت، وطلبت منهم مأكولاً فأطعموني، وقويت، وبت في الليلة الثانية معافى لا أنكر شيئاً من أمري.

فأقمت أياماً، إلى أن وثقت من نفسي بأني إن مشيت نجوت، فأخذت الطريق مع بعضهم، إلى أن صرت على الحجة، ثم سلكتها، منزلاً، منزلاً، إلى الكوفة مشياً.

#### القاضي أبو الحسين بن أبي عمر يجزن لموت يزيد المائي

حدثني أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازي الكاتب: قال: حدثني أبو بكر الجعابي الحافظ، قال: دخلت يوماً على القاضي أبي الحسين بن أبي عمر، وهو مغموم، فقلت: لا يغم الله قاضي القضاة، ما هذا الحزن الذي أراه به؟ قال: مات يزيد المائي.

فقلت: يبقي الله قاضي القضاة، ومن يزيد المائي، حتى إذا مات اغتم عليه قاضي القضاة، هذا الغم كله؟ فقال: ويحك، مثلك يقول هذا في رجل كان أوحد زمانه في صناعته، وقد مات وما ترك أحداً يقاربه في حذقه، وهل فخر البلدان إلا بكثرة رؤساء الصنائع، وحذاق أهل العلوم فيها؟ فإذا مضى رجل لا مثيل له في صناعة لا بد للناس منها، فهل يدل هذا إلا على نقصان العالم وانحطاط البلدان.

ثم أقبل يعدد فضائله، والأشياء الطريفة التي عاج بها، والعلل الصعبة التي زالت بتدبيره، فذكر من ذلك أشياء كثيرة، منها: قال: أخبرني منذ مدة رجل من جلة أهل البلد، أنه كان حدث بابنة له علة طريفة، فكنتم أمرها، ثم أطلع عليها أبوها، فكنتمها هو مديدة، ثم انتهى أمر البنت إلى حد الموت.

قال: وكانت العلة، أن فرج الصبية كان يضرب عليها ضرباناً عظيماً لا تنام معه الليل ولا النهار، وتصرخ أعظم صراخ، ويجري في خلال ذلك منه دم يسير كماء اللحم، وليس هناك جرح يظهر، ولا ورم. قال: فلما خفت المأثم، أحضرت يزيد، فشاورته.

فقال: أتأذن لي في الكلام، وتبسط عذري فيه.

فقلت له: نعم.

قال: لا يمكنني أن أصف لك شيئاً، دون أن أشاهد الموضع بعيني، وأفتشه بيدي، وأسائل المرأة عن أسباب لعلها كانت الجالبة للعلة.

قال: فلعظم الصورة، وبلوغها حد التلف، أمكنته من ذلك .  
فأطال المسائلة، وحدثها بما ليس من جنس العلة، بعد أن جس الموضوع من ظاهره، وعرف بقعة الألم، حتى كدت  
أن أثب به، ثم صبرت، ورجعت إلى ما أعرفه عن سيرته، فصبرت على مضض .  
إلى أن قال: تأمر من يمسكها، ففعلت .  
فأدخل يده في الموضوع دخولاً شديداً، فصاحت الجارية، وأغمي عليها، وانبعث الدم، وأخرج يده وفيها حيوان  
أقل من الخنفساء، فرمى به .  
فجلست الجارية في الحال، وقالت: يا أبة، استرني، فقد عوفيت .  
فأخذ يزيد الحيوان بيده، وخرج من الموضوع، فلحقته، فأجلسته .  
وقلت: أخبرني ما هذا؟ فقال: إن تلك المسائلة التي لم أشك من أنك أنكرتها، إنما كانت لأطلب دليلاً أستدل به  
على سبب العلة .

إلى أن قالت لي الصبية: إنما في يوم من الأيام، جلست في بيت دولاب البقر، في بستان لكم، ثم حدثت العلة  
بها، من غير سبب تعرفه، في غد ذلك اليوم .  
فتخيلت أنه قد دب في فرجها من القراد الذي يكون على البقر - وفي بيوت البقر قراد - قد تمكن من أول  
داخل الفرج، فكلما امتص الدم من موضعه ولد الضربان، وأنه إذا شبع، خف الضربان، لانقطاع مصه، ونقط  
من الجرح الذي يمتص منه إلى خارج الفرج .  
فقلت: أدخل يدي، وأفتش .  
فأدخلت يدي، فوجدت القراد كما حدثت، فأخرجته، وهذا هو الحيوان، وقد تغيرت صورته لكثرة ما امتص  
من الدم، مع طول الأيام .  
قال: فتأملنا الحيوان، فإذا هو قراد، وبرئت المرأة .  
قال مؤلف هذا الكتاب: ولم يذكر القاضي أبو الحسين في كتابه هذا الخبر، ولعله اعتقد أنه مما لا يجب إدخاله  
فيه .

#### زمنة مقعدة يشفيها الحنظل

حدثني المؤمل بن يحيى بن هارون، شيخ نصراني يكنى بأبي نصر، كان ينزل بباب الشام، رأيته في سنة خمسين  
وثلاثمائة، قال: حدثني قرة بن السراج العقيلي، وكان ينزل، إذا جاء من البادية، بشارع دار الرقيق بالقرب من  
درب سليمان، قال: كان عندنا بالبادية، جارية بالغ، زمنة، مقعدة سنين، ومن عادتنا أن نأخذ الحنظل فنقوم  
رؤوسه، ونملأه باللبن الحليب، ونرد على كل واحدة رأسها، وندفنها في الرماد الحار، حتى تغلي، فإذا غلت،  
حسا كل واحد منا من الحنظلة ما في رأسها من اللبن، فتسهله، وتصلح بدنه .  
قال: وقد كنا أخذنا في سنة من السنين، ثلاث حناظل، لثلاثة أنفس، يشربونها، وجعلنا اللبن فيها على الصفة  
المارة، فرأها الجارية الزمنة .

فلتبرمها من الحياة، وضجرها من الزمانة، خالفنا إلى الحناظل الثلاث، فحستها كلها، وعلمنا بذلك بعد أن  
رأينا من قيامها ما جزعنا منه، وأيسنا من حياتها، وخشينا أن تعدينا، فأبعدناها عن البيوت .

فلما كان الليل، انقطع قيامها، فمشت برجلها إلى أن عادت إلى البيوت لا قلبه بها، وعاشت بعد ذلك سنين، وتزوجت، وولدت.

اشترى الرشيد لطيبه ضياعاً غلتها ألف ألف درهم

وحدث جبريل بن بختيشوع، قال: كنت مع الرشيد، بالرقعة، ومعه المأمون ومحمد، وكان الرشيد رجلاً كثير الأكل والشرب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، ودخل المستراح، فغشي عليه فيه . فأخرج وقد قوي عليه الغشي، حتى لم يشك غلمانته في موته، وحضر ابنه، وشاع عند الخاصة والعامه خبره . وأرسل إلي، فجئت، فجسست عرقه، فوجدت نبضاً خفيفاً، وأخذت عرقاً في رجليه فكان كذلك، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاءً وحركة الدم.

فقلت لهم: إنه لم يميت، والصواب أن يحجم الساعة.

فقال كوثر الخادم، لما يعرف من أمر الخلافة وإفضائها إلى صاحبه محمد: يا ابن الفاعلة، تقول أحجموا رجلاً ميتاً؟ لا يقبل قولك ولا كرامة.

فقال المأمون: الأمر قد وقع، وليس يضر أن نحجمه.

وأحضر الحجام، فتقدمت، وقلت له: ضع محامك، ففعل، فلما مصها رأيت الموضع قد احمر، فطابت نفسي بذلك، وعلمت أنه حي.

فقلت للحجام: أشرط، فشرط، فخرج الدم، فسجدت شكراً لله تعالى، وجعل كلما خرج الدم، تحرك رأسه، وأسفر لونه، إلى أن تكلم.

فقال: أين أنا؟ فطبيت نفسه، وغديناه بصدر دراج، وسقيناها نبيذاً، وما زلت أسعطه بالطيب في أنفه، حتى تراجعته إليه قوته، وأدخل الخاصة والقواد إليه، فسلموا عليه من بعد، لما كان قد شاع من خبره، ثم تكاملت قوته، ووهب الله له العافية.

فلما برأ من علته، دعا صاحب حرسه، وحاجبه، وصاحب شرطته، فسأل صاحب الحرس عن غلته في كل سنة، فعرفه أنها ألف ألف درهم، وسأل صاحب شرطته عن غلته، فعرفه أنها خمسمائة ألف درهم.

ثم قال: يا جبريل: كم غلتك؟ فقلت: خمسون ألف درهم.

فقال: ما أنصفناك، حيث غلات هؤلاء وهم يجرسوني، ويجبوني عن الناس، على ما هي عليه، وتكون غلتك ما ذكرت، وأمر بإقطاعي ما قيمته ألف ألف درهم.

فقلت: يا سيدي مالي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تهب لي ما اشتري به ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، ففعل، وتقدم بمعاونتي على أبتباعها.

فابتعت بمباته، وجعلاته، ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، فجميع ما أمتلكه ضياع لا إقطاع فيها.

## الحجامة

الحجامة، استخراج الدم من قفا العنق، أسفل القذال، بالمحجم، بأن يشرط الحجام القفا بموساه، ثم يضع المحجم، وهو أداة كالكأس، فيمتص الدم، ويجتذبه، والحجامة من الطب القديم، وهي أحد ثلاثة أشياء كان الأطباء القدماء يوصون بها في كل سنة، وهي: الحجامة، والفصد، وتناول المسهل، وكان الناس يعتبرون القيام بهذه



الثلاثة من الواجبات، ويكون تحت إشراف الطبيب، ويحتفلون بذلك، وإذا احتجم الإنسان، أو افتصد، أو تناول مسهلاً، جاءت الهدايا من أصحابه ومعارفه، وقد أفرد الشيخ الرئيس، ابن سينا، في كتابه القانون، فصلاً للحجامة، أثبت فيه شروطها، وكيفية إجرائها ح ١ - ٢١٢ - ٢١٣ وفصلاً للفصد ح ١ - ٢٠٤ - ٢١٢، وفصلاً في المسهلات ح ١ - ١٩٦ - ٢٠٠، ومن الطريف أن نذكر أن جهل الأطباء في الماضي بأصول التعقيم، كان يؤدي، في بعض الأحيان إلى إصابة من يفصدونه، إصابة قد تؤدي إلى وفاته، فيتعرض الطبيب للتهمة بأنه قد سم الموضع الذي أجرى به الفصد، ويكون ذلك سبباً لقتله، وللتخلص من هذه التهمة، أصبح الطبيب ملزماً بأن يضع الموضع في فمه، ويمتصه، قبل إجراء الفصد، ثم يمسحه بلحيته، ويقوم بالفصد، فكانت النتيجة، أن زادت نسبة الإصابات، وتعرض الطبيب للانتقام بأنه قد وضع السم في لحيته، وقد أودت هذه التهم بحياة كثير من الأطباء الأبرياء.

لسعته عقرب فعو في

وحدثني أبو جعفر طلحة بن عبيد الله بن قناش الطائي، الجوهري، البغدادي، قال: كان في درب مهرويه، بالجانب الشرقي ببغداد، قديماً، رجل من كبراء الحجرية، وكان متشيباً بغلام من غلمان، رباه صغيراً. فاعتل الغلام علة من بلسام، وهو الذي تسميه العامة: البرسام، فبلغ إلى درجة قيحة، وزال عقله.

فتفرقوا عنه يوماً، وهو في موضع فيه خيش، ووكلوا صبيّاً بمراعاته، فسمعوا صياح الفتى الموكل به، فبادروا إليه.

فقال: أنظروا إلى ما قد أصابه.

فإذا عقرب قد نزل من المسند على رأس العليل، فلسعته في عدة مواضع، فإذا به قد فتح عينيه وهو لا يشكو ألاماً.

فسألوه عن حاله، فطلب ما يأكل، فأطعموه، وبرأ.

فلاموا طبيبه، فقال: علام تلوموني، لو أمرتكم أن تلسعوه بعقرب، أكنتم تفعلون ؟

**أبرأته مضيرة لعقت فيها أفعى**

حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الرازي، المعروف بابن حمدون، قال: حدثني أبو بكر أحمد بن علي الرازي الفقيه رحمه الله، قال: سمعت أبا بكر بن قارون الرازي، وكان تلميذاً لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب، قال أبو بكر بن حمدون: وقد رأيت هذا الرجل بالري، وكان يحسن علوماً كثيرة، منها الحديث، ويرويه، ويكتبه الناس عنه، ويوثقونه، ولم أسمع هذا منه، قال المؤلف رحمه الله: ولم يتهياً لي مع كثرة ملاقاتي أبا بكر الرازي الفقيه رحمه الله، أن أسمع هذا الخبر منه، قال ابن قارون: حدثنا أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب، بعد رجوعه من عند أمير خراسان، لما استدعاه ليعالجه من علة صعبة، قال: اجتزت في طريقي إلى نيسابور، ببسطام، وهي النصف من طريق نيسابور إلى الري.

قال: فاستقبلني رئيسها، فأنزلني داره، وخدمني أتم خدمة وسألني أن أقف على ابن له به استسقاء.

فأدخلني إلى دار قد افتردها له، فشاهدت العليل، ولم أطمع في برئه، فسألني أبوه عن السر في حاله، فصدقته،

وآيسته من حياة أبنه.

وقلت له : مكنه من شهواته، فإنه لا يعيش.

ثم خرجت إلى خراسان، فأقمت بها سنة كاملة، وعدت، فاستقبلني الرجل أبو الصبي فلم أشك في وفاته، وتركت مساءلته عن ابنه، فإني كنت نعيته إليه، وخشيت من تثقيلي عليه، فأنزلي داره، ولم أجد عنده ما يدل على ذلك، وكرهت مسألته عن أبنه لئلا أجدد عليه حزناً.

فقال لي بعد أيام: تعرف هذا الفتى؟ وأوماً إلى شاب حسن الوجه والسحنة، صحيح البدن، كثير الدم والقوة، قائم مع الغلمان يخدمنا.

فقلت: لا.

فقال: هذا ابني الذي آيستي منه عند مضيك إلى خراسان.

فتحيرت، وقلت له: عرفني سبب برته.

فقال: إنه كان بعد قيامك من عندي، فطن أنك آيستي منه.

فقال لي: لست أشك أن هذا الرجل - وهو أوحده زمانه في الطب - قد آيسك مني، والذي أسألك، أن تمنع هؤلاء، يعني غلماني الذين كنت قد أخذتهم إياهم، فإنهم أترابي، وإذا رأيتهم معافين، وقد علمت أني ميت، تجدد على قلبي الهم والمرض، حتى يعجل لي الموت، فأرحني من هذا بأن لا أراهم، وأفرد لخدمتي دايتي.

ففعلت ما سألت، وكان يحمل إلى الداية في كل يوم ما تأكله، وكانت الداية تأتيه بما يطلب من غير همية.

فلما كان بعد أيام يسيرة، حمل إلى الداية مضيرةً لتأكل منها، فتركها بحيث يقع عليها نظر ابني، ومضت في شغلها.

فذكرت بعد أن عادت، أن ابني قد نهاها عن أكل ما في الغضارة، ووجدتها قد ذهب كثير مما كان فيها، وبقي بعضه متغير اللون.

قالت: فقلت له: ما السبب؟ فقال: رأيت أفعى عظيمة قد خرجت من موضع ودبت إليها وأكلت منها ثم قذفت فيها، فصار لوهاً كما ترين، فقلت: أنا ميت، وهوذا يلحقني ألم شديد، ومتى أظفر بمثل هذا؟ وجئت، فأكلت من الغضارة ما استطعت، لأموت عاجلاً وأستريح، فلما لم أستطع زيادة أكل رجعت حتى جئت إلى فراشي، وجئت انت.

قالت: ورأيت أنا المضيرة على يده وفمه فصحت.

فقال: لا تعلمي أبي شيئاً، وأدفي الغضارة بما فيها، لئلا يأكلها إنسان فيموت، أو حيوان فيلسع إنساناً فيقتله، ففعلت ما قال، وخرجت إليك.

قال: فلما عرفني ذلك، ذهب علي أمري، ودخلت إلى ابني، فوجدته نائماً.

فقلت: لا توظيه، حتى ننظر ما يكون من أمره.

فأتيته آخر النهار، وقد عرق عرقاً شديداً، وهو يطلب المستحم، فأهضناه إليه، فاندفع بطنه، فقام من ليلته، ومن غده، أكثر من مائة مجلس، فازداد يأسنا منه، وقل القيام، إلا أنه استمر أياماً، ثم انقطع القيام، وقد صار بطنه مثل بطون الأصحاء، فطلب فراريج، فأكل، إلى أن صار كما ترى.

فعجبت من ذلك، وذكرت أن الحكماء الأوائل قالت: إن المستسقي إذا أكل من لحم حية عتيقة مزمنة لها مئون سنين، برأ، ولو قلت لك، إن هذا علاجه، لظننت أني أذافلك، ومن أين يعلم كم عمر الحية إذا وجدت، فسكت عنها.

## الباب الحادي عشر

من امتحن من اللصوص بسرقة أو قطع

فعوض من الارتجاع والخلف بأجمل صنع

قاطع طريق يرد على القافلة ما أخذ منها

حدثني علي بن شيراز بن سهل القاضي بعسكر مكرم رحمه الله، قال: حدثني أبو الحسين عبد الواحد بن محمد الخصيي ابن بنت ابن المدبر، ببغداد، قال: حدثني محمد بن علي، قال: حدثني الحسن بن دعبل بن علي الشاعر الخزاعي، قال: حدثني أبي قال: لما قلت:

مدارس آيات خلت من تلاوة

قصدت بها أبا الحسن علي بن موسى الرضا، وهو بخراسان، ولي عهد المأمون، فوصلت إليه، وأنشدته إياها، فاستحسنها، وقال: لا تنشدها أحداً حتى أمرك.

واتصل خبري بالمأمون، فأحضرني، وسألني عن خبري، ثم قال لي: يا دعبل، أنشدني: مدارس آيات خلت من تلاوة.

فقلت: لا أعرفها يا أمير المؤمنين.

فقال: يا غلام، أحضر أبا الحسن علي بن موسى، فلم يكن بأسرع من أن حضر.

فقال له: يا أبا الحسن، سألت دعبلًا من مدارس آيات فذكر أنه لا يعرفها.

فالتفت إلي أبو الحسن، وقال: أنشده يا دعبل.

فأنشدت القصيدة، ولم ينكر المأمون ذلك، إلى أن بلغت إلى بيت فيها، وهو:

وآل رسول الله هلب رقاہم ... وآل زياد غلظ القصرات

فقال: والله لأهلبنها.

ثم تمتمتها إلى آخرها، فاستحسنها، وأمر لي بخمسين ألف درهم، وأمر لي علي بن موسى بقريب منها.

فقلت: يا سيدي، أريد أن تمب لي ثوباً يلي بدنك، أتبرك به، وأجعله كفنًا.

فوهب لي قميصاً قد أبتذله، ومنشفة، وأظنه قال: وسراويل.

قال: ووصلني ذو الرئاستين، وهملني على بردون أصفر، وكنت أسايره في يوم مطير، وعليه ممطر خز، فأمر لي به، ودعا بغيره فلبسه، وقال: إني آثرتك به، لأنه خير المطرين، قال: فأعطيت به ثمانين ديناراً، فلم تطب نفسي ببيعه.

وقضيت حاجتي، وكررت راجعاً إلى العراق.

فلما صرت ببعض الطريق، خرج علينا أكراد يعرفون بالماريخان، فسلبوني، وسلبوا القافلة، وكان ذلك في يوم مطير.

فاعتزلت في قميص خلق قد بقي علي، وأنا متأسف - من جميع ما كان علي - على القميص والمنشفة اللذين وهبهما لي علي بن موسى الرضا، إذ مر بي واحد من الأكراد، وتحتة البرذون الأصفر الذي حملني عليه ذو الرياستين، وعليه الممطر الخز، ثم وقف بالقرب مني، وابتدأ ينشد: مدارس آيات، ويكي.  
فلما رأيت ذلك، عجبت من لص كردي يتشيع، ثم طمعت في القميص والمنشفة.  
فقلت: يا سيدي لمن هذه القصيدة؟ فقال: ما أنت وذاك، ويلك.  
فقلت له: فيه سب أخبرك به.

فقال: هي أشهر من أن يجهل صاحبها.  
قلت: فمن هو؟ قال: دعبل بن علي الخزاعي، شاعر آل محمد، جزاه الله خيراً.  
فقلت له: يا سيدي، أنا - والله - دعبل، وهذه قصيدتي.  
فقال: ويلك، ما تقول؟ فقلت: الأمر أشهر من ذلك، فسل أهل القافلة، تخبر بصحة ما أخبرتك به.  
فقال: لا جرم - والله - لا يذهب لأحد من أهل القافلة خلافة فما فوقها.  
ثم نادى في الناس: من أخذ شيئاً فليرده علي صاحبه، فرد علي الناس أمتعتهم، وعلي جميع ما كان معي، ما فقد أحد عقلاً.  
ثم رحلنا إلى مأمنا سالمين.

قال راوي هذا الخبر عن دعبل: فحدثت بهذا الحديث علي بن همزاد الكردي فقال لي: ذاك - والله - أبي الذي فعل هذا.

قاطع طريق يتفلسف  
وحدثني عبد الله بن عمر بن الحارث الواسطي السراج، المعروف بأبي أحمد الحارثي، قال: كنت مسافراً في بعض الجبال، فخرج علينا ابن سباب الكردي، فقطع علينا، وكان بزّي الأمراء، لا بزّي القطاع.  
فقربت منه لأنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يدل علي فهم وأدب، فداخلته فإذا برجل فاضل، يروي الشعر، ويفهم النحو، فطمعت فيه، وعملت في الحال أبياتاً مدحته بها.  
فقال لي: لست أعلم إن كان هذا من شعرك، ولكن اعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة، لأعلم أنك قلته، وأنشدني بيتاً.

قال: فعملت في الحال اجازة له ثلاثة أبيات.

فقال لي: أي شيء أخذ منك؟ لأرده إليك.

قال: فذكرت له ما أخذ مني، وأضفت إليه قماش رقيقين كانا لي.

فرد جميع ذلك، ثم أخذ من أكياس التجار التي نهبها، كيساً فيه ألف درهم، فوهبه لي.  
قال: فجزيته خيراً، ورددته عليه.

فقال لي: لم لا تأخذه؟ فوريت عن ذلك.

فقال: أحب أن تصدقني.

فقلت: وأنا آمن؟ فقال: أنت آمن.

فقلت: لأنك لا تملكه، وهو من أموال الناس الذين أخذتها منهم الساعة ظلماً، فكيف يحل لي أن أخذه؟ فقال لي: أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب اللصوص، عن بعضهم، قال: إن هؤلاء التجار خانوا أماناتهم، ومنعوا زكاة أموالهم، فصارت أموالهم مستهلكة بما، واللصوص فقراء إليها، فإذا أخذوا أموالهم - وإن كرهوا أخذها - كان ذلك مباحاً لهم، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وهؤلاء يستحقون أخذ الزكاة، بالفقر، شاء أرباب الأموال أم كرهوا.

قلت: بلى، قد ذكر الجاحظ هذا، ولكن من أين يعلم إن هؤلاء ممن استهلكت أموالهم الزكاة؟ فقال: لا عليك، أنا أحضر هؤلاء التجار الساعة، وأريك بالدليل الصحيح أن أموالهم لنا حلال. ثم قال لأصحابه: هاتوا التجار، فاجاءوا.

فقال لأحدهم: منذ كم أنت تنجر في هذا المال الذي قطعنا عليه؟ قال: منذ كذا وكذا سنة.

قال: فكيف كنت تخرج زكاته؟ فتدلجج، وتكلم بكلام من لا يعرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يخرجها.

ثم دعا آخر، فقال له: إذا كان معك ثلثمائة درهم، وعشرة دنانير، وحالت عليك السنة، فكم تخرج منها للزكاة؟ فما أحسن أن يجيب.

ثم قال لآخر: إذا كان معك متاع للتجارة، ولك دين على نفسين، أحدهما مليء، والآخر معسر، ومعك دراهم، وقد حال الحول على الجميع، كيف تخرج زكاة ذلك؟ قال: فما فهم السؤال، فضلاً عن أن يتعاطى الجواب.

فصرفهم، ثم قال لي: بان لك صدق حكاية أبي عثمان الجاحظ؟ وأن هؤلاء التجار ما زكوا قط؟ خذ الآن الكيس.

قال: فأخذته، وساق القافلة لينصرف بما.

فقلت: إن رأيت أيها الأمير أن تنفذ معنا من يبلغنا المأمّن، كان لك الفضل. ففعل ذلك.

### القاضي التنوخي والد المؤلف والكرخي قاطع الطريق

وحدثني أبي رضي الله عنه، قال: لما كنت مقيماً بالكرخ، أتقصد القضاء بما، وبالمرج وأعمالها، كان بواي رجل من أهل الكرخ، له ابن، هو ابن عشر سنين أو نحوها، وكان يدخل داري بلا إذن، ويمرح مع غلمانني، وأهب له في الأوقات دراهم وثياباً، وأحمله، وأرقصه، كما يفعل الناس بأولاد غلمانهم.

ثم صرفت عن الكرخ، ورحلت، ولم أعرف للرجل ولا لولده خيراً.

ومضت السنون، فأنفذني أبو عبد الله البريدي من واسط، برسالة إلى أبي بكر بن رائق، فلقيته بحدود العاقول، والمحدث أريد واسطاً.

وقد كان قيل لي قبل إصعادي، أن في الطريق لصاً يعرف بالكرخي، مستفحل الأمر.

وكنت خرجت من واسط، بطالع اخترته، على موجب تحويل مولدي لتلك السنة، وقد استظهرت عند نفسي، وكفاني الله تعالى - في إصعادي - أمر اللص، فلم أر له أثراً.

فلما انحدرت إلى واسط، وكنا في بعض الطريق، خرج علينا اللصوص في سفن عدة، بقسي، ونشاب، وسلاح شاك، وهم نحو مائة نفس، كالعسكر العظيم.

وكان معي غلمان يرمون، فحلفت أن من رمى منهم بسهم، ضربته إذا صرت في البلد مائة مقرعة، وذلك أي خفت أن يقصدنا اللصوص، ثم لا يرضون إلا بقتلي.

قال: وبادرت فأخذت ذلك السلاح الذي كان معهم، فرميت جميعه في الماء، واستسلمت للأمر طلباً للسلامة. وجلست أفكر في الطالع الذي خرجت به، فإذا ليس ما يوجب - عندهم - القطع علي، والناس قد أديروا إلى الشاطئ، وأنا في جملتهم، حيث تفرغ سفنهم، وينقل ما فيها إلى الشط، وهم يخطون بالسيوف، وكنت في وسط الكار، وما انتهى الأمر إلي.

فجعلت أعجب من حصول القطع، وأن الطالع لا يوجبه، ولست أتهم علمي مع هذا. فأنا كذلك، وإذا بسفينة فيها رئيسهم قد طرح على زبزي كما يطرح على سفن التجار، ليشرف على ما يؤخذ منها.

فحين رأي، منع أصحابه من انتهاب شيء من زبزي، وصعد إلي وحده، فتأملني طويلاً، ثم انكب وقبل يدي، وكان متاشماً، فلم أعرفه.

قال: فارتعت، وقلت: يا هذا مالك؟ فسفر، وقال: أما تعرفني يا سيدي؟ فتأملت، وأنا جزع، فلم أعرفه. فقلت: لا والله.

فقال: بلى، أنا عبدك، ابن فلان الكرخي حاجبك، وأنا الصبي الذي ربيتني في دارك، وكنت تحملي على عنقك، وتطعمني بيدك.

فتأملت، فإذا الخلقة خلقت، إلا أن اللحية غيرته في عيني، فسكن خاطري، وقلت: يا هذا، كيف بلغت إلى هذا الحال؟ قال: يا سيدي، نشأت، فلم أتعلم غير معالجة السلاح، وجات إلى بغداد أطلب الديوان، فما قبلي أحد، فانضاف إلي هؤلاء الرجال، وطلبت قطع الطريق ولو كان السلطان أنصفني، ونزلي بحيث أستحق من الشجاعة، وانتفع بخدمتي، ما كنت أفعل هذا بنفسي.

قال: فأقبلت عليه أعظه، وأخوفه الله، ثم خشيت أن يشق ذلك عليه، فيفسد رعايته لي، فأقصرت.

ثم قال: يا سيدي، لا يكون بعض هؤلاء قد أخذ منك شيئاً؟ قلت: ما ذهب منا إلا سلاح رميته أنا إلى الماء، وشرحت له الصورة.

فضحك، وقال: قد والله أصاب القاضي، فمن في الكار ممن تعني به حتى أطلقه؟ قلت: كلهم عندي بمنزلة واحدة، فلو أفرجت عن الجميع كان أحسن بك.

فقال: والله، لولا أن أصحابي قد تفرقوا بما أخذوا، لفعلت، ولكنهم لا يطبعوني في رده، ولكني لا أدع ما بقي من السفن في الكار أن يؤخذ منها شيء، فجزيته خيراً.

فصعد إلى الشط، وأصعد جميع أصحابه، ومنع أن يؤخذ شيء من باقي السفن، فما تعرض لها أحد، ورد على

قوم ضعفاء أشياء كثيرة كانت أخذت منهم، وأطلق الكار.  
وسار معي في أصحابه، إلى أن صار بيني وبين المأمّن شيء يسير ثم ودعني، وانصرف في أصحابه.

### ابن حمدي اللص البغدادي وفتوته وظرفه

وحدثني عبد الله بن عمر الحارثي، قال: حدثني بعض التجار البغداديين، قال: خرجت بسلع لي، ومتاع من بغداد أريد واسطاً، وكان البريدي بها، والدنيا مفتتنة جداً.  
فقطع علي، وعلى الكار الذي كنت فيه، لص كان في الطريق، يقال له: ابن حمدي، يقطع قريباً من بغداد، فأفقرني، وكان معظم ما أملكه معي، فسهل علي الموت، وطرح نفسي له.  
وكنت أسمع ببغداد، أن ابن حمدي هذا، فيه فتوة، وظرف، وأنه إذا قطع، لم يعرض لأرباب البضائع اليسيرة، التي تكون دون الألف درهم، وإذا أخذ من حاله ضعيفة شيئاً، قاسمه عليه، وترك شطر ماله في يديه، وأنه لا يفتش امرأة، ولا يسلبها، وحكايات كثيرة مثل ذلك.  
فأطمعني ذلك في أن يرق لي، فصعدت إلى الموضع الذي هو جالس فيه، وخاطبته في أمري، وبكيت، ورقفته، ووعظته، وحلفت له أن جميع ما أملكه قد أخذه، وأني أحتاج إلى أن أتصدق من بعده.  
فقال لي: يا هذا، الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا إلى هذا، فإنه قد أسقط أرزاقنا، وأحوجنا إلى هذا الفعل، ولسنا فيما نفعه نرتكب أمراً أعظم مما يرتكبه السلطان.  
وأنت تعلم أن ابن شيرزاد ببغداد يصادر الناس ويفقرهم، حتى أنه يأخذ الموسر المكثّر، فلا يخرج من حبسه، إلا وهو لا يهتدي إلى شيء غير الصدقة، وكذلك يفعل البريدي بواسط والبصرة، والديلم بالأهواز.  
وقد علمت أنهم يأخذون أصول الضياع، والدور، والعقار، ويتجاوزون ذلك إلى الحرم والأولاد، فاحسب أننا نحن مثل هؤلاء، وأن واحداً منهم صادرك.  
فقلت: أعزك الله، ظلم الظلمة، لا يكون حجة، والقيح لا يكون سنة، وإذا وقفت أنا وأنت، بين يدي الله عز وجل، أترضى أن يكون هذا جوابك له؟ فأطرق ملياً، ولم أشك في أنه يقتلني، ثم رفع رأسه، فقال: كم أخذ منك؟ فصدقته.  
فقال: أحضروه، فأحضر، فكان كما ذكرت، فأعطيني نصفه.  
فقلت له: الآن، قد وجب حقي عليك، وصار لي بإحسانك إلي حرمة.  
فقال: أجل.  
فقلت: إن الطريق فاسد، وما هو إلا أن أتجاوزك حتى يؤخذ هذا مني أيضاً، فأنفذ معي من يوصلني إلى المأمّن.  
قال: ففعل ذلك، وسلمت بما أفلت معي، فجعل الله فيه البركة، وأخلف.  
قطع عليه الطريق فتخلص بخاتم عقيق  
حدثني الحسن بن صافي، مولى ابن المتوكل القاضي، وكان أبوه يعرف بغلام ابن مقلة قال: لما حصل المتقي لله بالرقّة، ومعه أبو الحسين علي بن محمد بن علي، ابن مقلة، وزيره، كاتبني بأن أخرج إليه، فخرجت، ومعني جماعة من أسبابه، وأسباب الخليفة إلى هيت.  
وضم إلينا ابن فتيان خفراء، يؤدوننا إلى الرقة، ورحلت من هيت، ومعنا الخفراء والغلمان، ومن انحدر معنا من

هيت، فصرنا نحواً من مائتي مقاتل .

فلما كان في اليوم الرابع من مسيرنا، ونحن في البر الأقر، وقد نزلنا نستريح، إذا بسواد عظيم من بعيد، لا نعلم ما هو، فلم نزل نرقبه إلى أن بان لنا، وإذا هو نحواً من مائة مطية، على كل مطية رجلان .

فجمعنا أصحابنا ورجالنا، وقرب القوم منا وأناخوا جهلم وعقلوها، وأخذوا جحفهم، وسلوا سيوفهم، وتقدمهم رئيس لهم، فقال لنا: يا معشر المسافرين، لا يسلن أحد منكم سيفاً، ولا يرمي بسهم، فمن فعل ذلك فهو مقتول .

ففشل كل من كان معنا، وقاتل قوم منا قتالاً ضعيفاً، وخالطنا الاعراب، وأخذوا جماعة منا، وأخذونا، وجميع ما كان معنا، فأقتسموه، وتركونا مطرحين في الشمس .

فإذا بي قد عريت، وبقي علي خلق لا أتوارى منه بشيء، وليس معي ماء أشربه، ولا ظهر أركبه، وليس بيني وبين الموت إلا ساعات يسيرة، فقامت علي القيامة، واشتد جزعي، ولم يكن لي حيلة، فأيست من الحياة . فأنا كذلك، إذ وجدت شستجة، كان لي فيها خاتم عقيق، كبير الفص، كثير الماء، فأخذته، ووقع لي في الحال وجه الحيلة، فجعلته في قطن، وخبأته معي وقصدت رئيس القوم، وهو الذي تولى أخذ مالي، وعرف موضعي وقدري .

فقلت له: قد رأيت عظيم ما أخذته مني، وأنا خادم الخليفة أطال الله بقاءه، وقد خرجت لأمر كبير من خدمته، وقد فزت بما أخذته مني، فما قولك في أمر آخر أعظم مما أخذته، أعاملك به، وأسديه إليك حالاً لا يجري مجرى الغصوب، على أن تؤمنني على نفسي، وترد علي من ثيابي ما يسترتني، وترد علي من دواي دابة، وتسقيني ماء، وتسيرني حتى أحصل في مأمي؟ فقال: ما هو؟ قلت: تعطيني أمانك، وعهودك، ومذامك، على الوفاء، ففعل .

فانفردت به، وجعلت يدي مقابلة للشمس، وأريته الخاتم، وأقمت فسه في شعاع الشمس، فكاد يخطف بصره، ورأى ما لم ير مثله .

وقال: استره، وقل لي خبره .

فقلت: هذا خاتم الخلافة، وفسه هذا ياقوت أحمر، وهو الذي يتداوله الخلفاء منذ العهد الطويل، ويعرف بالجلبل، ولا يقوم أمر الخلفاء إلا به، وقد كان محبوباً ببغداد، فأمرني الخليفة أن أحمله إليه في جملة ما حملته، وحيث حصل هذا الخاتم من بلاد الله، تشبث الخلفاء إلى أخذه بكل ثمن، وإن حصل عندك حتى تمتنع من بيعه إلا بمائة ألف دينار - ولم يقدرُوا عليك - لأعطوك إياها، والرأي أن تأخذه، وتنفذه إلى ناحية الشام، وتخفي حصول الخاتم في يدك، فإني إذا حضرت بحضرة الخليفة، وعرفته خبره، جاءتك رسله بالרגائب، حتى يرتجع منك بأي ثمن احتكمت .

فقال: إذاً خذ من ثيابك ما تريد .

فأخذت من ثيابي ما احتجت إليه، وأخذ الخاتم فخبأه في جيبي، وأركبني راحلة موطأة، وأعطاني إداوتين كبيرتين ماءً، وسار معي، والناس قد هلكوا من العطش .

ولم يزل يسير معي، إلى أن بلغنا إلى حصن في البرية، يعرف بالزيتونة، من بناء هشام بن عبد الملك، وفيه رجل



من بني أمية، يكنى بأبي مروان، معه في الحصن نحواً من مائتي رجل.  
فلما حصلت عنده، انصرف الأعرابي، وعرفت أبا مروان خبري في القطع ومن أنا، فأعظم أمري، وأكرمني،  
وأنفذ معي من أصحابه من بلغني الرقة سالماً

### سرق ماله بالبصرة واستعاده بواسطة

حدثني محمد بن عمر بن شجاع المتكلم، ويلقب بجنيده، قال: حدثني رجل من الدقاقين، في دار الزبير بالبصرة،  
قال: أورد علي رجل غريب، سفتجة بأجل، فكان يتردد علي، إلى أن حل ميعاد السفتجة.  
ثم قال لي: دعها عندك حتى آخذها متفرقة، فكان يجيء في كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفذت، وصار بيننا  
معرفة، وألف الجلوس عندي، وكان يراني أخرج من كيسي من صندوق لي، فأعطيه منه.  
فقال لي يوماً: إن قفل الرجل، صاحبه في سفره، وأمينه في حضره، وخليفته على حفظ ماله، والذي ينفي الظنة  
عن أهله وعياله، فإن لم يكن وثيقاً تطرقت الحيل عليه، وأرى قفلك هذا وثيقاً، فقل لي ممن ابتعته، لأبتاع مثله.  
فقلت: من فلان بن فلان الأقفالي، في جوار باب الصفارين.

قال: فما شعرت يوماً، وقد جئت إلى دكاني، فطلبت صندوقي لأخرج منه شيئاً من الدراهم، فحمله الغلام إلي،  
ففتحته، فإذا ليس فيه شيء من الدراهم.

فقلت للغلامي، وكان غير متهم عندي: هل أنكرت من الدرايات شيئاً؟ قال: لا فقلت: فتش، هل ترى في  
الدكان نقباً؟ قال: لا.

فقلت: فمن السقف حيلة؟ قال: لا.

قلت: فاعلم أن الدراهم قد ذهبت.

فقلق الغلام، فسكنت، وقمت لا أدري ما أصنع، وتأخر الرجل عني، فلما غاب اقمته، وذكرت مسألته عن  
القفل.

فقلت للغلام، أخبرني كيف تفتح دكاني وتغلقه؟

قال: رسمي أن ادرب درابتين درابتين، والدرايات في المسجد، فأحملها في دفعات، اثنتين أو ثلاثاً، فأشرجها، ثم  
أقفل، وكذلك عندما أفتحها.

فقلت: البارحة، واليوم، فعلت ذلك؟ قال: نعم.

فقلت: فإذا مضيت لترد الدرايات، أو تحضرها، على من تدع الدكان؟ قال: خالياً.

قلت: فمن هنا ذهبت.

ومضيت إلى الصانع الذي ابتعت منه القفل، فقلت: جاءك إنسان منذ أيام، واشترى منك مثل هذا القفل؟

قال: نعم، رجل من صفته كيت وكيت، فأعطاني صفة صاحبي.

فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء، لما انصرفت أنا، ومضى الغلام يحمل الدرايات، فدخل هو إلى  
الدكان فاختماً فيه، ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه، والذي يقع على قفلي، وأنه أخذ الدراهم، وجلس طول  
ليلته خلف الدرايات. فلما جاء الغلام، وفتح درابتين، وحملها ليرفعها، خرج، وأنه ما فعل ذلك، إلا وقد خرج

إلى بغداد.

فسلمت دكاني إلى الغلام، وقلت له: من سأل عني فعرفه أي خرجت إلى ضياعي.

قال: فخرجت، ومعني فقلي ومفتاحه، وقلت: أبتدى بطلب الرجل بواسط.

فلما صعدت من السميرية، طلبت خاناً في الكتبيين بواسط، لأنزله، فأرشدت إليه، فصعدت، فإذا بقفل مثل قفلي سواء على بيت.

فقلت لقيم الخان: هذا البيت من ينزله؟ فقال: رجل قدم من البصرة أمس.

فقلت: أي شيء صفته؟ فوصف لي صفة صاحبي، فلم أشك أنه هو، وأن الدراهم في بيته.

فاكترت بيتاً إلى جانبه، ورسدت البيت، حتى انصرف قيم الخان، وقمت ففتحت القفل بمفتاحي، فحين دخلت البيت، وجدت كيساً بعينه، فأخذته، وخرجت وأقفلت الباب، ونزلت في الوقت إلى السفينة التي جئت فيها، وأرغبت الملاح، وأحذرت إلى البصرة.

فما أقمت بواسط إلا ساعتين من نهار، ورجعت إلى منزلي بمالي بعينه.

### وضع السيف على عنقه ثم نجا سالماً

وحدثني عبيد الله بن محمد الصروي، قال: حدثني أكار بنهر سابس، قال: خرجت من نهر سابس، إلى موضع في طرف البرية، يقال له: كرخ راذويه، أريد أعمال سقي القران.

فبلغني أن رجلاً يقطع الطريق وحده، وحذرت منه.

فلما خرجت من القرية، رأيت رجلاً تدل فراسته على شدته ونجدته، وفي يده زقاية، فجسرتني على الطريق.

قال: فترافقنا، حتى انتهينا إلى سقاية في البرية، فخرج علينا اللص متحزماً، متسلحاً، فصاح بنا.

فطرح رفيقي كارة كانت على ظهره، وأخذ زقايتيه، وبادر إلى اللص.

فلما داخله اللص ليضربه، ضرب بعصاه يد اللص، فعطل اللص الضربة، وضرب الزقاية فقطعها، ثم ضرب بسيفه رجل الرجل فأقعده، ثم وشحه بالسيف حتى قتله، وحمل علي ليقتلني.

فقلت له: ما حاربتك، ولا امتنعت عليك من أخذك ثيابي، فلأي شيء تقتلني؟ فقال: استكف فاستكنت، فكنتني بتكتي ثم حمل الثياب وانصرف.

فبقيت متحيراً، مشفياً على التلف، بالعطش، والشمس، والوحوش، فما زلت أتمطى في التكة حتى قطعها، وقمت أمشي إلى أن جنني الليل.

فرايت في الصحراء - على بعد - ضوء نار خفياً، فقدرته في قرية، فقصدته، فإذا هو يخرج من قبة في

الصحراء، فقربت منها، واطلعت، فإذا اللص جالس في القبة، يشرب نبيذاً، ومعه امرأة.

فلما بصرتني صاح، وتناول سيفه وخرج إلي، فما زلت أناشده الله، وأحلف له أنني ما علمت أنه هو، ولا

قصدته عمداً، وإنما رأيت النار فقصدتها، فلم يعبا بقولي.

وحلفته المرأة أن لا يقتلني بحضرتها، فجدبني إلى نهر جاف قريب من القبة، وطرحني تحته، وجرده سيفه ليقتلني.

فسمع صوت الأسد قريباً منه، فارتعدت يده، وسكت، وأخذ يسكتني، فأنست بالسبع وزدت في الصياح.

فما شعرت إلا والسبع قد تناوله من على صدري وهروا في الصحراء.  
فقلت، وأخذت السيف، وجمت إلى القبة، فلم تشك المرأة أنني هو، فقالت: قتلته؟ فقلت: الله عز وجل قتله، لا أنا، وقصصت عليها القصة، وسألته عن شأنها.  
فقالت: أنا امرأة من أهل القرية الفلانية، أسرني هذا الرجل، وخبأني في هذا الموضع، وهو يتردد إلي في كل ليلة. فأرهبته، فدلتي على دفائن له في الصحراء، فأخذتها، وحملت المرأة، وبلغت القرية، وسلمتها إلى أهلها.  
وفرت بمال عظيم أغنائي عن مقصدي، وعدت إلى بلدي.  
كيف استعاد التاجر البصري ماله  
وحدثني أيضاً، قال: حدثني ابن الدنانيري التمار الواسطي، قال: حدثني غلام لي قال:

كنت ناقداً بالأبلة، لرجل تاجر، فافتضيت له في البصرة نحو خمسمائة دينار عيناً وورقاً، ولففتها في فوطة، وأشفيت على المصير إلى الأبلة.  
فما زلت أطلب ملاحاً، حتى رأيت ملاحاً مجتازاً في خيطية خفيفة فارغة، فسألته أن يحملني، فسهل علي الأجرة، وقال: أنا راجع إلى منزلي بالأبلة، فانزل معي، فنزلت، وجعلت الفوطة بين يدي.  
وسرنا إلى أن تجاوزنا مسماران، فإذا رجل ضرير على الشط، يقرأ أحسن قراءة تكون.  
فلما رآه الملاح كبر، فصاح هو بالملاح: احملي، فقد جنني الليل، وأخاف على نفسي، فشمته الملاح.  
فقلت له: احمله، فدخل إلى الشط فحملة، فلما حصل معنا رجع إلى قراءته، فحلب عقلي بطيبتها.  
فلما قربنا من الأبلة، قطع القراءة، وقام ليخرج في بعض المشارع في الأبلة، فلم أر الفوطة، ففقت واقفاً، واضطربت، وصحت.

فاستغاث الملاح، وقال: الساعة تقلب الخيطية، وخاطبني خطاب من لا يعلم حالي.  
فقلت له: يا هذا، كانت بين يدي فوطة فيها خمسمائة دينار.  
فلما سمع الملاح ذلك، بكى، ولطم، وتعرى من ثيابه، وقال: أدخل الشط ففتش، ولا لي موضع أحيى فيه شيئاً فستهمني بسرقتي، ولي أطفال، وأنا ضعيف، فالله، الله في أمري، وفعل الضرير مثل ذلك.  
وفتشت الخيطية فلم أجد شيئاً، فرحتهما، وقلت: هذه محنة لا أدري كيف التخلص منها، وخرجنا، فعملت على الهرب، وأخذ كل واحد منا طريقاً، وبت في بيتي، ولم أمض إلى صاحبي، وأنا بليدة عظيمة.  
فلما أصبحت، عملت على الهرب إلى البصرة، لأستخفي فيها أياماً، ثم أخرج إلى بلد شاسع.  
فانحدرت، فخرجت في مشرعة بالبصرة، وأنا أمشي وأتعثر وأبكي قلقاً على فراق أهلي وولدي، وذهاب معيشتي وجاهي، إذ أعترضني رجل.

فقال: يا هذا، ما بك؟ فقلت: أنا في شغل عنك، فاستحلقتني، فأخبرته.  
فقال: امض إلى السجن ببني نمير، واشتر معك خبزاً كثيراً، وشواءً جيداً، وحلوى، وسل السجن أن يوصلك إلى رجل محبوس، يقال له: أبو بكر النقاش، وقل له: أنا زائر، فإنك لا تمنع، وإن منعت، فهب للسجان شيئاً يسيراً فإنه يدخلك إليه، فإذا رأيته فسلم عليه ولا تخاطبه حتى تجعل بين يديه ما معك، فإن أكل وغسل يديه، فإنه يسألك عن حاجتك، فأخبره خبرك، فإنه سيدلك علي من أخذ مالك، ويرتجعه لك.

ففعلت ذلك، ووصلت إلى الرجل، فإذا هو شيخ مثقل بالحديد.  
فسلمت عليه، وطرح ما معي بين يديه، فدعا رفقاء كانوا معه فأقبلوا يأكلون معه، فلما استوفى وغسل يديه.  
قال: من أنت، وما جاء بك؟ فشرحت له قصتي.

فقال: امض الساعة لوقتك - ولا تتأخر - إلى بني هلال، فاقصد الدرب القلابي حتى تنتهي إلى آخره، فإنك  
تشاهد باباً شعناً، فافتحه وادخل بلا استئذان، فستجد دهليزاً طويلاً يؤدي إلى باين، فادخل الأيمن منهما،  
فسيدخلك إلى دار فيها بيت فيه أوتاد وبواري، وعلى كل وتد إزار ومترز، فانزع ثيابك، وعلقها على الوتد،  
واتزر بالمترز واتشح بالإزار، واجلس، فسيجيء قوم يفعلون كما فعلت، إلى أن يتكاملوا، ثم يؤتون بطعام فكل  
معهم، وتعهد أن تفعل كما يفعلون في كل شيء.

فإذا أتوا بالبيذ فاشرب معهم أقداً يسيرة، ثم خذ قدحاً كبيراً، فاملأه، وقم، وقل: هذا ساري لخالي أبي بكر  
النقاش، فسيضحكون ويفرحون، ويقولون: هو خالك؟ فقل: نعم، فسيقومون ويشربون لي، فإذا تكامل شربهم  
لي، وجلسوا، فقل لهم: خالي يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم: بجايتي يا فتيان، ردوا على ابن أختي المترز الذي  
أخذتموه أمس من السفينة بنهر الأبله، فإنهم يردونه عليك.  
فخرجت من عنده، ففعلت ما قال لي، وجرت الصورة، على ما ذكر، سواء بسواء، وردت الفوطة علي بعينها،  
وما حل شداها.

فلما حصلت لي، قلت لهم: يا فتيان، هذا الذي فعلتموه هو قضاء لحق خالي، وأنا لي حاجة تحصني.  
فقالوا: مقضية.

فقلت: عرفوني كيف أخذتم الفوطة؟ فامتنعوا، فأقسمت عليهم ب حياة أبي بكر النقاش.  
فقال لي واحد منهم: تعرفني؟ فتأملت، فإذا هو الضرير الذي كان يقرأ. وإنما كان يتعمى حيلة ومكراً.  
وأوماً إلى آخره، وقال: أتعرف هذا؟ فتأملت، فإذا هو الملاح بعينه.  
فقلت: أخبراني كيف فعلكما؟

فقال الملاح: أنا أدور في المشارع في أول أوقات المساء، وقد سبقت المتعمى فأجلسته حيث رأيت، فإذا رأيت  
من معه شيء له قدر، ناديته وأرخصت عليه الأجرة وحملته، فإذا بلغ إلى القارئ، وصاح بي، شتمته، حتى لا  
يشك الراكب في براءة الساحة، فإن حملة الراكب فذاك، وإن لم يحمله رفقته حتى يحمله، فإذا حملة، وجلس هذا  
يقرأ قراءته الطيبة، ذهل الرجل كما ذهلت أنت، فإذا بلغنا إلى موضع نكون قد خلبنا فيه رجلاً متوقفاً لنا،  
يسبح حتى يلاصق السفينة، وعلى رأسه قوصرة، فلا يفتن الراكب، فيستلب هذا الرجل المتعمى - بحفة -  
الشيء الذي قد عينا عليه، فيلقيه إلى الرجل الذي عليه القوصرة، فيأخذها ويسبح إلى الشط، فإذا أراد  
الراكب النزول، وافتقد ما معه، عملنا كما رأيت، فلا يتهمنا، ونتفرق، فإذا كان الغد، اجتمعنا واقتسمنا ما  
أخذناه، واليوم كان يوم القسمة، فلما جئت برسالة خالك أستاذنا، سلمنا إليك الفوطة، قال: فأخذتها،  
وانصرفت

صادف درء السيل درءاً يصدعه

حدثني عبيد الله بن محمد الصروي، قال: حدثني بعض إخواني: أنه كان ببغداد رجل يطلب التلصص في حديثه،

ثم تاب وصار بزازاً.

قال: فانصرف ليلة من دكانه، وقد أغلقه، فجاء لص منزلي بري صاحب الدكان، في كمة شمعة صغيرة، ومفتاح، فصاح بالحارس، وأعطاه الشمعة في الظلمة، وقال: أشعلها وجنني بها، فإن لي في هذه الليلة في دكاني شغلاً.

فحضر الحارس وأشعل الشمعة، وركب اللص المفاتيح على الأقفال ففتحها، ودخل الدكان. فجاء الحارس بالشمعة مشعلة، فأخذها منه وهو لا يتبين وجهه، وجعلها بين يديه، وفتح سفظ الحساب، وأخرج ما فيه، وجعل ينظر في الدفاتر، ويوري بيده أنه يحسب، والحارس يطالعه في تردده، ولا يشك في أنه صاحب الدكان.

إلى أن قارب السحر، فاستدعى اللص الحارس، وكلمه من بعيد، وقال له: أطلب لي حمالاً. فجاء بحمال، فحمل عليه من متاع الدكان أربع زرم مثمينة، وأقفل الدكان، وانصرف ومعه الحمال، وأعطى الحارس درهمين، فلما أصبح الناس، جاء صاحب الدكان ليفتحه، فقام إليه الحارس يدعو له، ويقول: فعل الله بك وصنع كما أعطيتني البارحة الدرهمين.

فأنكر الرجل ما سمعه، ولم يرد جواباً، وفتح دكانه، فوجد سيلان الشمعة، وحسابه مطروحاً، وفقد الرزم الأربع، فاستدعى الحارس، وقال له: من كان الذي حمل معي الرزم البارحة من دكاني؟ فقال له الحارس: أليست استدعيت مني حمالاً، فجننتك به، فحملها معك؟ قال: بلى، ولكني كنت ناعساً متنبذاً، وأريد الحمال، فجنني به، فمضى الحارس فجاءه بالحمال، فأغلق الرجل الدكان، وأخذ الحمال معه، ومشى، وقال: إلى أين حملت الرزم البارحة، فإني كنت متنبذاً.

قال: إلى المشرعة الفلانية، واستدعيت فلاناً الملاح، فركبت معه. فصعد الرجل المشرعة، فسأل عن الملاح فدل عليه وركب معه. وقال: أين أوصلت اليوم أخي الذي كان معه الأربع رزم؟ قال: إلى المشرعة الفلانية. قال: أطرحني إليها، فطرحه.

قال: ومن حملها معه؟ قال: فلان الحمال. فدعا به، ولطفه، وقال: أين حملت الرزم الأربع البارحة؟ واستدله برفق وأعطاه شيئاً، فجاء به إلى باب غرفة، في موضع بعيد عن البلد، قريب من الصحراء، فوجد الباب مقفلاً. واستوقف الحمال إلى أن فش القفل وفتح الباب، ودخل، فوجد الأربع رزم بحالها، وإذا في البيت بركان معلق على حبل، فلق الرزم فيه، ودعا الحمال فحملها.

فحين خرج من الغرفة، استقبله اللص، وفهم الأمر، فاتبعه إلى الشط، فجاء إلى المشرعة، ودعا الملاح ليعبر. فدعا الحمال من يحط عنه، فجاء اللص، فحط عنه، كأنه مجتاز متطوع، فأدخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها، ثم جعل البركان على كتفه، وقال للتاجر: يا أخي أستودعك الله، فقد استرجعت رزمك، فدع كساتي. فضحك منه وقال: أنزل ولا خوف عليك. فنزل معه، فاستتابه، ووهب له شيئاً، وصرفه.

## قصة الأخوين عاد وشداد

وحكى عبيد الله بن محمد بن الحسن العباسي الشاعر، قال: حدثني شاعر كان يعرف بغلام أبي الغوث، قال: كنت من أهل قرية من نواحي الشام، أسكنها أنا وأسلافي، فكنا نطحن أقواتنا في رحى ماء على فراسخ من البلد، يخرج إليها أهل البلد وأهل القرى المجاورة بغلاتهم، فتكثر، فلا يتمكن من الطحن إلا الأقوى فالأقوى. فمضيت مرة ومعى غلة، وحملت معى خبزاً ولحماً مطبوخاً يكفيني لأيام، وكان الزمان شاتياً، لأقيم على الرحى، حتى يخف الناس فأطحن فيها، على عادتي تلك.

فلما صرت عند الرحى، حططت أعدالي، وجلست في موضع نزه، وفرشت سفرتي لأكل. واجتاز بي رجل عظيم الخلق، فدعوته ليأكل، فجلس فأكل كلما كان في سفرتي، حتى لم يدع فيها شيئاً، ولا أوقية واحدة.

فعجبت من ذلك عجباً شديداً بان له في، فأمسك، وغسلنا أيدينا.

فقال لي: على أي شيء مقامك هنا؟ فقلت: لأطحن هذه الغلة.

فقال لي: فلم لا تطحنها اليوم، فأخبرته بسبب تعذر ذلك علي.

قال: فنار كالجمل، حتى شق الناس وهم مزدحمون على الرحى، وهي تدور، فجعل رجله عليها فوقف ولم تدر. فعجب الناس، وقال: من فيكم يتقدم؟ فجاء رجل أيد شديداً، فأخذ بيده، ورمى به كالكرة، وجعله تحت رجله الأخرى، فما قدر أن يتحرك.

وقال: قدموا غلتي إلى الطحن وإلا كسرت الرحى، وكسرت عظام هذا.

فقالوا: يا هذا هات الغلة، فجنث بها، فطحنت، وفرغت منها، وجعلتها في الأعدال.

وقال لي: قم.

قلت: إلى أين؟ قال: إلى منزلك.

قلت: لا أسلك الطريق وحدي، فإنه مخوف، ولكن أصبر حتى يفرغ أهل قريتي، وأرجع معهم.

فقال: قم وأنا معك، ولسنا نخاف - ياذن الله عز وجل - شيئاً.

فقلت في نفسي: من كانت تلك القوة قوته يجب أن آنس به، فقممت، وحملت الغلة على الحمير، وسرنا إلى أن جئنا إلى قريتي، ولم نلق في طريقنا بأساً.

فلما دخلت إلى بيتي، خرج والدي وإخوتي، وعجبوا من سرعة ورودي بالغلة، ورأوا الرجل، فسألوني عن القصة، فأخبرتهم.

وسألنا الرجل أن يقيم في ضيافتنا، ففعل، فذبنا له بقرة، وأصلحنا له سكباجاً، وقدم إليه، فأكل الجميع بنحو المائة رطل خبزاً.

فقال له أبي: يا هذا، ما رأيت مثلك قط، فأبي شيء أنت؟ ومن أين معاشك؟ قال: أنا رجل من الناحية الفلانية، وأسمي شداد، وكان لي أخ أشد بدناً وقلباً مني، وأسمه عاد، وكنا نبذرق القوافل من قريتنا إلى مواضع كثيرة، ولا نستعين بأحد، وتخرج علينا الرجال الكثيرة، فألقاهم أنا وأخي فقط فنهزمهم، فأشتهر أمرنا، حتى كان إذا قيل قافلة عاد وشداد، لم يعرض لها أحد، فمكثنا كذلك سنين كثيرة.

فخرجنا مرة أنا وأخي، نسير قافلة قد خفناها، فلما صرنا بالفلاة، رأينا سواداً مقبلاً نحونا، فأستطرفنا أن يقدم علينا أحد، ثم بان لنا شخص رجل أسود، على ناقة حمراء، ثم خالطنا.

وقال: هذه قافلة عاد وشداد؟ قلنا: نعم.

فترجل ودعانا للبراز، فانتضينا سيوفنا وانقضضنا عليه، فضرب ساق أخي بالسيف ضربة أقعدته، وعدا علي، فقبض على كتفي، فما أطلقت الحركة.

فكفني، ثم كتف أخي، وطرحنا على الناقة كالزاملتين، ثم ركبها وسار بعد أن أخذ من القافلة ما كان فيها من عين، وورق، وحلي، وشيئاً من الزاد، وأقر الراحلة بذلك.

وسار بنا على غير محجة، في طريق لا نعرفه، بقية يومنا وليلتنا وبعض الثاني، حتى أتى جبلاً لا نعرفه، فأوغل فيه، وبلغ إلى وجه منه فدخله، فانتهى إلى مغارات، فأناخ الراحلة، ثم رمى بنا عنها، وتركنا في الكتاف.

وجاء إلى مغارة على بابها صخرة عظيمة لا يقلعها إلا الجماعة، فنحاهما عن الباب واستخرج منها جارية حسناء، فسألها عن خبرها، وجلسا يأكلان مما جاء به من الزاد، ثم شربا، فقال لها: قومي، فقامت، ودخلت الغار.

ثم جاء إلى أخي، فذبحه وأنا أراه، وسلخه، وأكله وحده، حتى لم يدع منه إلا عظامه.

ثم استدعى الجارية، فخرجت، وجعلنا يشربان، فلما توسط شربه، جرتي، فلم أشك أنه يريد ذبحي، فإذا هو قد طرحني في غار من تلك المغارات، وحل كتافي، وأطبق الباب بصخرة عظيمة، فأيست من الحياة، وعلمت أنه قد أدخلني لغد.

فلما كان في الليل، لم أحس إلا بامرأة تكلمني، فقلت لها: ما بالك؟ فقالت: إن هذا العبد قد سكر ونام، وهو يذبحك في غد كما ذبح صاحبك، فإن كانت لك قوة فاجهد في دفع الصخرة واخرج فاقته، وأنج بي

وبنفسك.

فقلت: ومن أنت؟

قالت: أنا امرأة من البلد الفلاني، ذات نعمة، خرجت أريد أهلاً لي في البلد الفلاني، فخرج علينا هذا العدو لله، فأهلك القافلة التي كنت فيها، ورآني فأخذني غصباً، وأنا منذ كذا وكذا شهراً، على هذه الصورة، يرتكب مني

الحرام، وأشاهد ذبحه للناس وأكله لهم، ولا يوصف له إنسان بشدة بدن إلا قصده، حتى يقهره، ثم يجيء به فيأكله، ويعتقد أن شدته تنتقل إليه، وإذا خرج حبسني في الغار، وخلف عندي مأكولاً وماءً لأيام، ولو اتفق أنه

يحتبس عني - فضل يوم - مت جوعاً وعطشاً.

فقلت: إنني ما أطيق قلع الصخرة.

قالت: ويلك، فجرب نفسك.

قال: فجئت إلى الصخرة فاعتمدت عليها بقوتي، فتحرت، فإذا قد وقع تحت الصخرة حصاة صغيرة، وقد

صارت الصخرة مركبة تركيباً صحيحاً، وذلك لما أراده الله تعالى من خلاصي.

فقلت: أبشري، ولم أزل أجتهد، حتى زحزحت الصخرة شيئاً أمكنني الخروج منه، فخرجت.

فأخذت سيف الأسود، واعتمدت بكلتي يدي فضربت ساقه، فإذا قد أبنت أحدهما وكسرت الأخرى، فانتهى،

ورام الوثوب فلم يقدر، فضربته الأخرى على حبل عاتقه فسقط، وضربته أخرى فأبنت رأسه.

وعمدت إلى المغارات فأخذت كلما وجدت فيها من عين، وورق، وجوهر، وثوب فاخر خفيف الحمل، وأخذت زاداً لأيام، وركبت راحلته، وأردفت المرأة، ولم أزل أسلك في طرق لا أعرفها، حتى وقعت على محجة، فسلكتها، فأفضت بي إلى بعض القرى، فسلمت الراحلة إلى المرأة، وأعطيتها نفقة تكفيها إلى بلدها، وسيرتها مع خفراء، وعدت إلى بلدي بتلك الفوائد الجليلة.

وعاهدت الله تعالى، أن لا أتعرض للطريق، ولا للخفارة أبداً.

وأنا الآن آكل من ضياع اشتريتها من ذلك المال، وأقوم بعمارتهما، وأعيش من غلتها، إلى الآن.

### قارع سبعين من قطاع الطريق وانتصف منهم

وحكى سعد بن محمد بن علي الأزدي، الشاعر البصري المعروف بالوحيد، قال: حدثني أبو علي الكردي، رجل رأيته بعسكر عمران بن شاهين قصده من عند حسنويه بن الحسين الكردي، فقبله، وأجرى عليه، وكان شجاعاً نجداً، فحدثني، قال: خرجنا مرة بالجمال، في أيام موسم الحج، عددنا سبعون رجلاً، من فارس وراجل، فاعترضنا الحاج الخراسانية، وكنا لهم.

وكان لنا عين في القافلة، فعاد وعرفنا أن في القافلة رجلاً من أهل شاش وفرغانة معه اثني عشر حملاً بزاً، وجارية في قبة عليها حلي ثقيل، فجعلنا أعيننا عليه، حتى وثبنا عليه، وهو وجاريتته في عمارية.

قال: فقطعنا قطاره وكنفناه، وأدخلناه وما معه بين الجبال، ووقعنا على ما معه، وفرحنا بالغنيمة.

وكان للرجل برذون أصفر يساوي مائتي درهم، فلما رأنا نريد القفول، قال: يا فتیان، هناكم الله بما أخذتم، ولكني رجل حاج، بعيد الدار، فلا تتعرضوا لسخط الله بمنعي من الحج، وأما المال فيذهب ويحيى، وتعلمون، أنه لا نجاة لي إلا على هذا البرذون، فاتركوه لي، فليس بين ثمنه في الغنيمة التي أخذتموها، فتشاورنا على ذلك.

فقال شيخ فينا مجرب: لا تردوه عليه، واتركوه مكتوفاً هنا، فإن كان في أجله تأخير، فسيقيض الله له من يحل كتافه، وكنت فيمن عزم على هذا.

وقال بعضنا: ما مقدار دابة بمائتي درهم حتى نمنعها رجلاً حاجاً، فلا حاجة لنا فيها، وجعلوا يرققون قلوب الباقين حتى سمحنا بذلك، فأطلقناه، ولم ندع عليه إلا ثوباً يستر عورته.

فقال: يا فتیان، قد مننتم علي، وأحسنتم إلي، ورددتم دابتي، وأخشى إذا أنا سرت أن يأخذها غيركم، فأعطوني قوس ونشاي، أذب بها عن نفسي وعن فرسي.

فقلنا: إنا لا نرد سلاحاً على أحد.

فقال بعضنا: وما مقدار قوس قيمته درهمان، وما نخشى من مثل هذا؟ فأعطيناه قوسه ونشابه، وقلنا له: انصرف، فشكرنا، ودعا لنا، ومضى حتى غاب عن أعيننا.

فما كدنا نسير، والجارية تبكي، وتقول: أنا حرة، ولا يحل لكم أن تأخذوني.

فحنن في هذا، وإذا بالرجل قد كر راجعاً، وقال: يا فتیان، أنا لكم ناصح، فإنكم قد أحسنتم إلي، ولا بد لي من مكافأتكم على إحسانكم، بنصيحتي لكم.

فقلنا: وما نصيحتك؟ فقال: دعوا ما في أيديكم، وانصرفوا سالمين بأنفسكم، ولكم الفضل، فإنكم مننتم علي



رجل واحد، وأنا أمن على سبعين رجلاً، وإذا هو قد انقلبت عيناه في وجهه، وخرج الزبد من أشدائه، وصار كالجمل الهائج.

فهز أنا به، وضحكنا عليه، ولم نلتفت إلى كلامه، فأعاد علينا النصيحة، وقال: يا قوم قد مننت عليكم، فلا تجعلوا لي إلى أرواحكم سيلاً.

فزاد غيظنا عليه، فقصدناه، وحملنا عليه، فانحاز منا، ورمى بخمس نشابات، كانت بيده، فقتل بها منا خمسة، واحداً، واحداً.

وقال: إن جماعتكم تموت على هذا، إن لم تخلوا عما في أيديكم.

فلم نزل ندافعه، ويقتل منا، حتى قتل ثلاثين رجلاً، وبقي معه نشاب في جعبته.

فقلنا: أما ترون ويحكم أنه لم يخط له سهم واحد؟ وأحجمت الجماعة عنه، وأفرجنا عن الجمال والقبة، فصار القطار في حوزته.

فتنكس ونحن نراه، ففتق عدلاً بسيف أخرجه من رحله، وأخرج منه جعبة نشاب، وأراناها، فلما رأينا ما صار إليه من النشاب ينسنا منه وولينا عنه.

فقال: يا فتيان، سألتكم هذا فلم تجيبوني إليه فمن نزل عن دابته فهو آمن، ومن أحب أن يكون فارساً، فهو بشأنه أبصر.

فشددنا عليه، فقتل منا جماعة، فاضطررنا إلى أن نرجلنا، فحاز دوابنا وحده، وساقها قليلاً.

ثم رجع، وقال: أطلبكم بحكمكم، من رمى سلاحه فهو آمن، ومن تمسك به فهو أبصر، فرمينا سلاحنا.

فقال: امضوا سالمين آمنين، فأخذ جميع السلاح والدواب، وإننا لندعوها بأسمائها، فتشذ عنه، فيرميها فيصرعها، حتى قتل منها جماعة، وفاتتنا الغنيمة، والسلاح.

وكان ذلك سبب توبيتي، أنفةً لما لحقنا منه، وأنا على ذلك الحال إلى اليوم.

## الباب الثاني عشر

فيمن ألجأه الخوف إلى هرب واستتار

فأبدل بأمن ومستجد نعم ومسار

يجي بن طالب الحنفي يبارح وطنه مديناً ويعود إليه موسراً

أخبرني أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، فيما أجاز لي روايته عنه، بعدما سمعته منه، قال: حدثنا محمد بن زكريا

الغلابي، قال: غني الرشيد يوماً بهذا الشعر:

ألا هل إلى شمّ الخزامى ونظرةٍ ... إلى قرقرى قبل الممات سبيل

فيا أثلاث القاع من بطن توضح ... حنيني إلى أظلالكنّ طويل

أريد فهو ضاً نحوكم فيصدني ... إذا رمته دينٌ عليّ ثقيل

قال مؤلف الكتاب: ووجدت الشعر في غير هذه الرواية:

ويا أثلاث القاع قد ملّ صحبتي ... صحابي فهل في ظنكّن مقيل  
أحدت نفسي عنك أن لست راجعاً ... إليك فحزني في الفؤاد دخيل  
رجع للحديث.

فاستحسن الرشيد الشعر، وسأل عن قائله، فعرف أنه ليحيى بن طالب الحنفي اليمامي.

فقال: حي هو أم ميت؟ فقال بعض الحاضرين: هو حي كميت.

قال: ولم؟ قال: هرب من اليمامة، لدين عليه ثقل، فصار إلى الري.

فأمر الرشيد أن يكتب إلى عامله بالري، يعرفه ذلك، وأن يدفع إليه عشرة آلاف درهم، وأن يحمل إلى اليمامة  
على دواب البريد، وكتب إلى عامله باليمامة بقضاء دينه.

فلما كان بعد أيام، قال الرشيد لمن حضره: إن الكتب وردت بامتنال ما أمرت به.

وعاد يحيى إلى وطنه موسراً، وقد قضى دينه عنه، من غير سعي منه في ذلك.

العتابي يؤدب الأمين والمأمون

ذكر محمد بن عبدوس في كتابه كتاب الوزراء، قال: حدثني عبد الواحد بن محمد، يعني الحنفي، قال: حدثني  
يموت بن المزرع، قال: كان العتابي، يقول بالاعتزال، فاتصل ذلك بالرشيد، وكثر عليه في أمره، فأمر فيه بأمر  
غليظ، فهرب إلى اليمن، وكان مقيماً فيها على خوف وتوق.

فاحتال يحيى بن خالد، إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من خطبه ورسائله، فاستحسنها الرشيد، وسأل عن الكلام لمن  
هو؟ فقال يحيى: هو كلام العتابي، وإن رأيت يا أمير المؤمنين، أن يحضر حتى يسمع الأمين والمأمون، ويضع هما  
خطباً، لكان في ذلك صلاحاً لهما.

فأمنه الرشيد، وأمر بإحضاره.

ولما اتصل خبر ذلك بالعتابي، قال يمدح يحيى بن خالد:

ما زلت في سكرات الموت مطّرحاً ... قد غاب عني وجه الأرض من خيلتي  
فلم تنزل دائباً تسعى لتنقذي ... حتى أختلست حياتي من يد الأجل

لماذا قتل أبو سلمة الخلال

وذكر في بعض كتب الدولة:

أن أبا سلمة الخلال، لما قوي الدعوة، وشارفوا العراق، وقد ملكوا خراسان وما بينها وبين العراق، استدعى بني  
العباس، فصيرهم في منزله بالكوفة، وكان له سرداب، فجعل فيه جميع من كان حياً في ذلك الوقت من ولد عبد  
الله ابن العباس، وفيهم السفاح، والمنصور، وعيسى بن موسى، وهو يراعي الأخبار.

وكان الدعوة يؤمرون بقصده إذا ظهروا وغلبوا على الكوفة، ليعرفهم الإمام، فيسلمون الأمر إليه.

فلما أوقع قحطية بابين هبيرة الواقعة العظيمة على الفرات، وغرق قحطية، وانهمز ابن هبيرة، ولحق بواسط،

وتحصن بها، ودخل ابنا قحطية الكوفة بالعسكر كله، قالوا لأبي سلمة: أخرج إلينا الإمام، فدافعهم، وقال: لم

يحضر الوقت الذي يجوز فيه ظهور الإمام، وأخفى الخبر عن بني العباس، وعمل على نقل الأمر عنهم، إلى ولد

فاطمة رضي الله عنهم، وكاتب جماعة منهم، فأتوا عنه.

وساء ظن بني العباس به، فاحتالوا حتى أخرجوا مولى لهم أسود كان معهم في السرداب، وقالوا له: اعرف لنا الأخبار، فعاد إليهم، وعرفهم أن قحطبة غرق، وأن ابن هبيرة انهزم، وأن ابني قحطبة قد دخلا الكوفة بالعسكر منذ كذا وكذا.

فقالوا: أخرج وتعرض لابني قحطبة، وأعلمهما بمكاننا، ومرهما بأن يكبسا الدار علينا ويخرجانا. فخرج المولى، وكان حميد بن قحطبة عارفاً به، فتعرض له، فلما رآه أعظم رؤيته، وقال: وبلك ما فعل سادتنا، وأين هم؟ فخبره بخبرهم، وأدى إليه رسالتهم.

فركب في قطعة من الجيش، وأبو سلمة غافل، فجاء حتى ولج الدار، وأراه الأسود السرداب، فدخل ومعه نفر من الجيش، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقالوا: وعليكم السلام.

فقال: أيكم ابن الحارثية؟ وكانت أم أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله، وكان إبراهيم بن محمد – الذي يقال له الإمام – لما بث الدعوة، قال لهم: إن حدث بعدي حدث، فالإمام ابن الحارثية الذي معه العلامة، وهي: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمةً، ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

قال: فلما قال ابن قحطبة: أيكم ابن الحارثية؟ ابتدره أبو العباس، وأبو جعفر، كلاهما يقول: أنا ابن الحارثية. فقال ابن قحطبة: فأيكما معه العلامة؟ فقال أبو جعفر: فعلمت أي قد أخرجت من الأمر، لأنه لم يكن معي علامة.

فقال أبو العباس: ونريد أن نمن ... وتلا الآية.

فقال له حميد بن قحطبة: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، مد يدك أبايعك، فبايعه. ثم انتضى سيفه، وقال: بايعوا أمير المؤمنين، فبايعه أخوته، وبنوا عمه، وعمومته، والجماعة الذين كانوا معه في السرداب.

وأخرجه إلى المنبر بالكوفة، وأجلسه عليه، فحصر أبو العباس عن الكلام، فتكلم عنه عمه داود بن علي، فقام دونه على المنبر بمراقبة، وجاء أبو سلمة، وقد استوحش وخاف.

فقال حميد: يا أبا سلمة، زعمت أن الإمام لم يقدم بعد؟ فقال أبو سلمة: إنما أردت أن أدافع بخروجهم إلى أن يهلك مروان، فإن كانت له كرة لم يكونوا قد عرفوا فيهلكوا، وإن هلك مروان أظهرت أمرهم على ثقة. فأظهر أبو العباس قبول هذا العذر منه، وأقعده إلى جانبه، ثم دبر عليه بعد مدة حتى قتله.

وقد روي هذا الخبر على غير هذا السياق، فقالوا: قدم أبو العباس السفاح وأهله على أبي سلمة سراً، فستر أمرهم، وعزم على أن يجعلها شورى بين ولد علي والعباس، حتى يختاروا منهم من أرادوا.

ثم خاف أن لا يتفق على الأمر فعزم على أن يعدل بالأمر إلى ولد الحسن والحسين رضي الله عنهم، وهم ثلاثة: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وعمر بن علي بن الحسين.

ووجه بكتب إليهم مع رجل من مواليتهم من ساكني الكوفة.

فبدأ بجعفر بن محمد، فلقبه ليلاً، فأعلمه أنه رسول أبي سلمة، وأن معه كتاباً إليه.

فقال: ما أنا وأبو سلمة، وهو شيعة لغيري؟ فقال له الرسول: تقرأ الكتاب، وتجيّب عنه بما رأيت.

فقال جعفر لخادمه، قرب مني السراج، فقربه، فوضع عليه كتاب أبي سلمة، فأحرقه.

فقال: ألا تجيب عنه؟ فقال: الجواب ما رأيت.

ثم أتى عبد الله بن الحسن، فقبل كتابه، وركب إلى جعفر.

فقال جعفر: مرحباً بك أبا محمد، لو أعلمتني لجتتك.

فقال: إنه أمر يجلب عن الوصف.

فقال: وما هو؟

قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الأمر، ويراني أحق الناس به، وقد جاء به شيعتنا من خراسان.

فقال له جعفر: ومتى صاروا شيعتك؟ أنت وجهت أبا مسلم إلى خراسان، وأمرته بلبس السواد؟ أتعرف أحداً

منهم باسمه ونسبه؟ قال: لا.

قال: كيف يكونون شيعتك، وأنت لا تعرف أحداً منهم، ولا يعرفونك؟ فقال عبد الله: هذا الكلام كان منك

لشيء.

فقال جعفر: قد علم الله تعالى أنني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أدخره عنك، فلا تمنين نفسك

الآباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء القوم، وما هي لأحد من ولد أبي طالب، وقد جاءني مثل ما جاءك.

فانصرف غير راض بما قاله له.

وأما عمر بن علي بن الحسين، فرد عليه الكتاب، وقال: لا أعرف من كتبه.

قال: وأبطأ أبو سلمة على أبي العباس ومن معه، فخرج أصحابه يطوفون بالكوفة، فلقي حميد بن قحطبة، ومحمد

بن صول أحد موالبيهم، فعرفاه، لأنه كان يحمل إليهم كتب محمد بن علي وإبراهيم بن محمد، فسألاه عن الخبر،

فأعلمهما أن القوم قد قدموا، وأنهم في سرداب يعرف ببني أود، فصارا إلى الموضع، فسلما عليهم.

وقالا: أيكما عبد الله؟ فقال المنصور وأبو العباس: كلانا عبد الله.

فقال: أيكما ابن الحارثية؟ فقال أبو العباس: أنا.

فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ودنوا فبايعوه.

وأحضره إلى المسجد الجامع، فصعد على المنبر، فحصر، وتكلم عنه عمه داود بن علي، وقام دونه بمراقبة.

### أمير البصرة العباسي يحيي أمويًا

أخبرنا أبو الفرج علي بن الحسين، المعروف بالأصبهاني، قال: أخبرني أحمد بن عبد العزيز، قال: حدثنا عمر بن

شبة، قال: حدثني محمد بن عبد الله بن عمرو، قال: أخبرني طارق بن المبارك عن أبيه، قال: جاءني رسول

عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة، فقال لي: يقول لك عمرو: قد جاءت هذه الدولة وأنا حديث السن، كثير

العيال، منتشر الأموال، فما أكون في قبيلة إلا وشهر أمري، وقد عزمت على أن أفدي حرمي بنفسي، وأنا

صائر إلى باب الأمير سليمان بن علي، فصر إلي.

فوافيته، فإذا عليه طيلسان مطبق أبيض، وسراويل وشي مشدود.

فقلت: سبحان الله، ما تصنع الحادثة بأهلها، أيها الإنسان تلقى هؤلاء القوم الذين تريد لقاءهم وعليك مثل هذا؟ قال: والله، ما ذهب علي ذلك، ولكن ليس عندي ثوب، إلا وهو أشهر من هذا.

فأعطيته طيلسانى، وأخذت طيلسانه، ولويت سراويله إلى ركبته، فدخل، ثم خرج مسروراً.  
فقلت: حدثني بما جرى بينك وبين الأمير.

قال: دخلت إليه، ولم يرني قط، فقلت: أيها الأمير، لفظتني البلاد إليك، ودلني فضلك عليك، فإما قبلتني غانماً، وإما رددتني سالماً.

فقال: من أنت؟ فانتسبت إليه.

فقال: مرحباً، أقعد فتكلم، غانماً مسروراً، ثم اقبل علي، وقال: ما حاجتك يا ابن أخي؟ فقلت: إن الحرم اللواتي أنت أقرب الناس إليهن، قد خفن بخوفنا، ومن خاف خيف عليه.

فوالله ما أجابني إلا بدموعه تسيل على خديه، وقال: يا ابن أخي، يحقن الله دمك، ويحفظك في حرمك، ويوفر عليك مالك، والله، لو أمكنتني ذلك في جميع أهلك لفعلت، ولكن كن متوارياً كظاهر، وآمناً كخائف، ولتأتني رقاعك.

قال: وكان - والله - يكتب إليه كما كان يكتب الرجل إلى ابن عمه.

قال: فلما فرغ من كلامه، رددت عليه طيلسانه، فقال: مهلاً، إن ثيابنا إذا خرجت عنا، لم تعد إلينا.

ووجدت هذا الخبر، بإسناد ليس هو لي، برواية عن العتيبي، قال: حدثنا طارق بن المبارك النراع البصري - ولم يتجاوزوه - قال: قدم جدك عمرو بن معاوية البصرة، حين نكب بنو أمية، قال: فجعل لا ينزل بحمي، إلا أجهزوه واشتهر.

فقال لي: أذهب بنا أضع يدي في يد هذا الرجل، يعني سليمان بن علي، وذكر نحوه.

وقال في آخره: فلما صار عمرو إلى منزله، دفعت إليه ثوبه، وطلبت ثوبي، فردهما علي جميعاً، وقال: إنا لم نأخذ ثوبك لنحبسه، ولم نعطك ثوبنا لترده.

عبد الملك بن مروان يؤمن ابن قيس الرقيات ويحرمه العطاء

أخبرني أبو الفرج علي بن الحسين، المعروف بالأصبهاني، إجازة في كتابه: الأغاني الكبير، قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن العباس البيهقي، وأبو عبد الله الحرمي بن أبي العلاء وغيرهما، قالوا: حدثنا الزبير بن بكار، قال:

حدثنا عبد الله بن البصير البربري، مولى قيس بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: قال عميد الله بن قيس الرقيات: خرجت مع مصعب بن الزبير، حين بلغه خروج عبد الملك بن مروان، فلما نزل مصعب مسكن،

وتبين الغدر ممن معه، دعاني، ودعا جمال، فمألاً المناطق منه، وألبسنيها.

وقال: أمض حيث شئت، فإني مقتول.

فقلت: لا والله، لا أروح حتى آتي سبيلك، فأقمت معه حتى قتل.

ومضيت إلى الكوفة، فأول بيت دخلته إذا فيه امرأة معها بنتان كأنهما ظبيتان، فرقيت في درجة لها إلى

مستشرف، فقعدت فيه.

قال: فأصعدت لي ما أحتاج إليه من الطعام، والشراب، والفرش، والماء، والوضوء.

فأقمت كذلك عندها أكثر من حولن تقوم بكل ما يصلحني، وتغدو علي في كل صباح، فتسألني عن حوائجي، فما سألتني من أنا، ولا أنا سألتها من هي؟ وأنا في أثناء ذلك أسمع الصباح في، والجعل.

فلما طال بي المقام، وفقدت الصباح والجعل، وغرضت بمكاني، جاءت إلي في الصباح تسألني الحاجة، فأعلمتها أنني قد غرضت بموضعي، وأحببت الشخصوص إلى أهلي.

فقال لي: يأتيك ما تحتاج إليه إن شاء الله تعالى.

قال: فلما أمسيت، وضرب الليل برواقه، رقت إلي، وقالت: إن شئت فنزلت، وقد أعدت راحلتين، عليهما جميع ما أحتاج إليه، ومعهما عبد، وأعطت العبد نفقة الطريق، وقالت: العبد والراحتان لك.

فركبت، وركب معي العبد، حتى أتيت مكة، فدققت باب منزلي، فقالوا: من أنت يا هذا؟ فقلت: عبيد الله بن قيس الرقيات، فولولوا، وبكوا، وقالوا: لم يرتفع طلبك إلا في هذا الوقت.

فتوقفت عندهم حتى أسحرت، وهضت، فقدمت المدينة، ومعني العبد، فجنئت إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو يعيش أصحابه، فجلست معهم، وجعلت أتعاجم، وأقول: بناريناوي طيار.

فلما خرج أصحابه، كشفت له عن وجهي، فقال: ابن قيس؟ فقلت: عائدًا بك.

فقال: ويحك، ما أجدهم في طلبك، وأحرصهم على الظفر بك، ولكني أكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان - وهي زوجة الوليد بن عبد الملك - وعبد الملك أرق شيء عليها.

فكتب إليها يسألها التشفع إلى عمها عبد الملك.

فلما وصلها الكتاب، دخلت على عمها، فسأها: هل من حاجة؟ قالت: نعم، لي حاجة.

فقال: قد قضيت كل حاجة لك، إلا ابن قيس الرقيات.

فقلت: لا تستثنين علي.

فنفخ بيده، فأصاب حر وجهها، فوضعت يدها على خدها.

فقال لها: أرفعي يدك، فقد قضيت كل حاجة لك وإن كانت ابن قيس الرقيات.

فقلت: حاجتي أن تؤمنه، فقد كتب إلي يسألني أن أسألك ذلك.

قال: هو آمن، فمر به يحضر المجلس العشية.

فحضر، وحضر الناس - حين بلغهم - مجلس عبد الملك.

قال: فأخر الإذن لابن قيس، وأذن للناس، فدخلوا، وأخذوا مجالسهم، ثم أذن له.

فلما دخل عليه، قال عبد الملك: يا أهل الشام أتعرفون من هذا؟ قالوا: لا.

قال: هذا ابن قيس الرقيات، الذي يقول:

كيف نومي على الفراش ولما... تشمل الشام غارة شعواء  
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي... عن خدام العقيلة العذراء

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إسقنا دم هذا المنافق.

قال: الآن، وقد أمنته، وصار في منزلي وعلى بساطي؟ قد أخرجت الإذن له لتقتلوه، فلم تفعلوا.

فاستأذنه ابن قيس، أن ينشده مديحه، فأذن له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

عاد له من كثيرة الطرب... فعينه بالدموع تنسكب

كوفية نازح محلّتها ... لا أمم دارها ولا صعب  
والله ما إن صبت إليّ ولا ... يعرف بيني وبينها نسب  
إلاّ الذي أورثت كثيرة في القل ... ب وللحبّ سورة عجب  
حتى قال فيها:

إنّ الأغرّ الذي أبوه أبو ال ... عاص عليه الوقار والحجب  
يعتدل التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب  
فقال له عبد الملك: يا ابن قيس، تمدحني بالتاج، كأني من العجم، وتقول في مصعب ابن الزبير:

إنّما مصعبٌ شهابٌ من اللّ ... ه تجلّت عن وجهه الظلماء  
ملكه ملك رافةٍ ليس فيه ... جبروت منه ولا كبرياء  
أما الأمان فقد سبق لك، ولكن - والله - لا تأخذ مع المسلمين عطاءً أبداً.  
وأخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، عن حماد بن إسحاق، عن أبيه: أن عبيد الله بن قيس الرقيات، منعه عبد  
الملك بن مروان عطاءه من بيت المال، وطلبه ليقتله، فاستجار بعبد الله بن جعفر، وقصده، فالتقاه نائماً.  
وكان ابن قيس صديقاً لسائب خاثر، فطلب الإذن على ابن جعفر، فتعذر، فجاء بسائب خاثر ليستأذن له.  
قال سائب خاثر: فجئت من قبل رجلي عبد الله بن جعفر، ونبحت نباح الجرو الصغير، فانتبه ولم يفتح عينيه،  
ورفسي برجله.

قال: فدرت إلى عند رأسه، ونبحت نباح الكلب الهرم، فانتبه وفتح عينيه.  
فقال: مالك، ويلك؟ فقلت: عبيد الله بن قيس الرقيات بالباب.  
فقال: ائذن له، فأذنت له، ودخل، فرحب به عبد الله وقربه، فعرفه ابن قيس خبره.  
فدعا بظبية فيها دنانير، وقال لي: عد له ما فيها.  
فجعلت أعد له، وأطرب، وأحسن صوتي بجهدني، حتى عددت له ثلاثمائة دينار، وسكت.  
فقال عبد الله: لماذا سكت، ويلك؟ ما هذا وقت قطع الصوت الحسن.  
فجعلت أعد ما في الظبية، وفيها ثمانمائة دينار، فدفعها إليه.  
فلما قبضها التفت إلى ابن جعفر، وقال له: تسأل أمير المؤمنين في أمري؟ قال: نعم، إذا دخلت عليه، ثم إنه دعا  
له بطعام، فأكل أكلاً فاحشاً، وركب ابن جعفر، فدخل معه إلى عبد الملك، فلما قدم الطعام جعل يسيء  
الأكل.

فقال عبد الملك، لابن جعفر: من هذا؟ قال هذا رجل لا يجوز أن يكون كاذباً إن استبقي، وإن قتل كان  
أكذب الناس.

قال: كيف؟ قال: لأنه يقول:

ما نقموا من بني أمية إلاّ ... أنّهم يلمون إن غضبوا  
فإن قتلته بغضبك عليه أكذبكم فيما مدحكم به.  
قال: فهو آمن، ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال.

قال: أحب أن تهب لي عطائه، كما وهبت لي دمه .

قال: قد فعلت، وأمر له بذلك.

### هشام بن عبد الملك وحماد الراوية

عن حماد الراوية، قال: كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك، جعل هشام يجفوني دون سائر أهله من بني أمية، في أيام يزيد.

فلما مات يزيد، وأفضت الخلافة إلى هشام خفته، ومكثت في بيتي سنة، لا أخرج إلا إلى من أتق به من إخواني سرّاً.

فلما لم أسمع أحداً يذكرني، أمنت، فخرجت فصليت الجمعة عند باب الفيل، فإذا بشرطين قد وقفما علي .  
وقالا: يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر .

فقلت في نفسي: من هذا كنت أحذر، ثم قلت للبشرطين: هل لكما أن تدعاني آتي بيتي، فأودع أهلي، وداع من لا يرجع إليهم أبداً، ثم أصبر معكما ؟ فقالا: ما إلى ذلك سبيل.

فاستسلمت في أيديهما، وصرت إلى الأمير وهو في الإيوان الأحمر، فسلمت عليه، فرد علي السلام، ورمى إلي كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر، أما بعد، فإذا قرأت كتابي هذا، فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير أن يروع ولا يتعتع، وأدفع إليه خمسمائة دينار، وجمالاً مهرياً، يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق، فأخذت الخمسمائة دينار، وإذا جمل مرحول، فجعلت رجلي في الغرز، وسرت اثنتي عشرة ليلة، حتى دانيت دمشق.

ونزلت على باب هشام، واستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء، مفروشة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب خز حمر، وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب، يقلبه بيده، فتفوح رائحته.

فسلمت عليه، فرد علي، واستداني، فدنوت منه، حتى قبلت رجله .

وإذا جاريتان لم أر مثلهما، في أذن كل واحدة منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان تتوقدان.

قال: أتدري فيم بعثت إليك ؟ قلت: لا .

قال: بعثت إليك بسبب بيت خطر في بالي، لم أدر من قائله .

قلت: وما هو ؟ قال:

ودعوا بالصبح يوماً فجاءت ... قينةٌ في يمينها إبريق

فقلت: هذا يقوله عدي بن زيد العبادي، في قصيدة له .

قال: أنشدنيها، فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح الصب ... ح يقولون لي أما تستفيق

ويلومون فيك يا ابنة عبد ال ... له والقلب عندكم موثوق

لست أدري إذ أكثروا العذل فيها ... أعدو يلومني أم صديق



ودعوا بالصباح يوماً فجاءت ... قينةً في يمينها إبريق  
قدمته على عقار كعين ال ... ديك صفى خلالها الراووق  
قال: فطرب، ثم قال: أحسنت يا حماد، والله، يا جارية: اسقيه، فسقتني شربة ذهب بثلث عقلي.  
وقال: أعد.

فأعدته، فاستخفه الطرب حتى نزل عن فراشه، ثم قال للجارية الأخرى: اسقيه، فسقتني شربة ذهب بثلث  
عقلي.

فقلت: إن سقيت الثالثة افتضحت.

ثم قال: سل حوائجك.

قلت: كائنة ما كانت؟ قال: نعم.

قلت: إحدى الجاريتين.

قال: هما لك بما عليهما وما لهما.

ثم قال للأولى: اسقيه، فسقتني شربة سقطت منها ولم أعقل حتى أصبحت، فإذا بالجاريتين عند رأسي، وإذا  
عشرة من الخدم مع كل واحد منهم بدرة.

وقال لي أحدهم: إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام، ويقول لك: خذ هذا فانتفع به في سفرك.  
فأخذتها، والجاريتين، وانصرفت.

### أكل على مائدته فأمضى له الأمان

عن عبد الله بن عمران أبي فروة، قال: كان عبد الله بن الحجاج الثعلبي من أشرف قيس، وكان مع ابن الزبير،  
فلما قتل، دخل عبد الله بصفة أعرابي على عبد الملك بن مروان ليلاً وهو يتعشى مع الناس، فجلس وأكل  
معهم، ثم وثب فقال:

منع القرار فجئت لحوك هارباً ... جيشٌ يجرّ ومقنبٌ يتلمّع

فقال: أي الأخايث أنت؟، فقال:

إرحم أصيبية هديت كأثمهم ... حجلٌ تدرّج بالسريّة جوع

فقال: أجاج الله بطوفهم، فأنت أجمعتهم، فقال:

مالٌ لهم مما يضمن جمعته ... يوم القليب فحيز عنهم أجمع

فقال: كسب سوء خبيث، فقال:

ولقد وطئت بني سعيد وطأة ... وابن الزبير فعرشه متضعع

وأرى الذين رجوا تراث محمد ... أفلت نجومهم ونجمك يسطع

فقال: الحمد لله على ذلك، فقال:

أدنو لترحمي وتقبل تويتي ... وأراك تدفعني فأين المدفع؟

فقال: إلى النار، فقال:

صاقت ثياب الملبسين فأولني ... عرفاً وألبسني فتوبك أوسع

قال: فرمى إليه بمطرف خز كان عليه .

فقال عبد الله: أمنت والله .

فقال له عبد الملك: كن من شئت إلا عبد الله بن الحجاج .

فقال: أنا - والله - هو، وقد أمنتني، أكلت طعامك، ولبست ثيابك، فأني خوف علي .

فقال: ما هداك إلا جدك، وأمضى له الأمان .

الفضل بن الربيع يتحدث عما لاقى أيام استناره من المأمون

حدثني علي بن هشام أبي قيراط الكاتب، بواسط، في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، من لفظه، قال: حدثني أبو علي بن مقله، قبل وزارته الأولى، قال: حدثني أبو عيسى محمد بن سعيد الديناري، عن أبي أيوب سليمان بن وهب عن أبي طالوت كاتب ابن طاهر، قال: سمعت الفضل بن الربيع، يقول: لما استترت من المأمون، أخفيت نفسي حتى عن عيالي وولدي، وكنت أنتقل وحدي .

فلما اقترب المأمون من بغداد، ازداد حذري، وخوفي على نفسي، فتشددت في الاحتياط والتواري، وأفضيت إلى منزل بزاز كنت أعرفه في درب باب الطاق، وشدت المأمون في طلبي فلم يعرف لي خبراً . فذكرني يوماً، فاغتاض على إسحاق بن إبراهيم، وجد به في طلبي، فأغلظ له، فخرج إسحاق من حضرته، وجد بأصحاب الشرط، وأوقع بعضهم المكاره، ونادى في الجانيين، من جاء به فله عشرة آلاف درهم وإقطاع غلته ثلاثة آلاف دينار في السنة، وإن من وجد بعد النداء ضرب خمسمائة سوط وهدمت داره وأخذ ماله وحبس طول الدهر، فنودي بذلك عشياً .

فما شعرت، إلا وصاحب الدار قد دخل علي وأخبرني الخبر، وقال: والله، ما أقدر بعد هذا على سترك، ولا آمن من زوجتي، وجاريي، وغلامي، وأن تشره نفوسهم إلى المال، فيدلون عليك، وأهلك بهلاكك، وإن صفح الخليفة عنك، لم آمن من أن تتهمني بأي دلت عليك، فيكون ذلك أقبح وأشنع، وليس الرأي لي ولك إلا أن تخرج عني .

فورد علي ذلك أعظم مورد، وقلت: إذا جاء الليل خرجت عنك .

قال: ومن يطيق الصبر على هذا الضرر إلى الليل، فإنك إن وجدت عندي قبل الليل أهلكتي وأهلكت نفسك، وهذا وقت حار، وقد طال عهد الناس بك، فقم وتنكر واخرج .  
فقلت: كيف أتنكر ؟

فقال: تأخذ أكثر لحيتك، وتغطي رأسك وبعض وجهك، وتلبس قميصاً ضيقاً، وتخرج .

فقلت: أفعل .

فجاء بمقراض فأخذت أكثر لحيتي، وتنكرت، وخرجت من عنده في أول أوقات العصر، وأنا ميت خوفاً .

فمشيت في الشارع، حتى بلغت الجسر، فوجدته قد رش، وهو حال من الناس، متزلق .

فلما توسطته، إذا أنا بفارس من الجند الذين كانوا في داري في أيام وزارتي، قد قرب مني، فعرفني، وقال: طلبة أمير المؤمنين، وعدل إلي ليقبض علي .

فلحلاوة النفس دفعته ودابته، فزلق، ووقع في بعض السفن التي في الجسر، وتعادى الناس لخلاصه، وظنوا أنه

زلق بنفسه.

وتشاغل عني بهم، وزدت أنا في المشي، ولم أعد لثلاً ينكر حالي من يراني، إلى أن عبرت الجسر ودخلت درب سليمان.

فوجدت امرأة على باب دار مفتوح، فقلت لها: يا امرأة، أنا خائف من القتل، فأجبريني واحقني دمي.  
فقلت: أدخل، وأومات إلى غرفة، فصعدت.

فلما كان بعد ساعة، إذا بالباب يدق، ففتحت، وإذا زوجها قد دخل، فتأملت، فإذا هو صاحبي على الجسر، وهو مشدود الرأس يتأوه من شجة لحقته، وثيابه مغموسة بالدم.  
وسألته المرأة عن خبره، فأخبرها بالقصة، وقال لها: قد زمنت دابتي وأنفذتها لتباع في سوق اللحم، وقد فاتني الغنى، وجعل يشتمني، وهو لا يعلم بوجودي معه في الدار، وأقبلت المرأة تترفق به إلى أن هدأ.  
فلما صليت المغرب، وأقبل الظلام، صعدت المرأة إلي، وقالت: أظنك صاحب القصة مع هذا الرجل.  
فقلت: نعم.

فقلت: قد سمعت ما عنده، فاتق الله في نفسك واخرج، فدعوت لها.

فنزلت، ففتحت الباب فتحاً رقيقاً، وقالت: اخرج، وكانت الدرجة في الدهليز، فأفضيت إلى الباب، فلما انتهيت إلى آخر الدرب وجدت الحراس قد أغلقوه، فتحيرت.  
ثم رأيت رجلاً يفتح باباً بمفتاح رومي، فقلت: هذا رومي، وهو ممن يقبل مثلي.  
فدنوت منه وقلت: أسترني، سترك الله.

فقال: ادخل، فدخلت، فرأيت رجلاً فقيراً وحيداً، فأقمت ليلتي عنده، وبكر من غد، وعاد نصف النهار ومعه حمالان يحمل أحدهما حصيراً ومخدة، وجرار، وكيزان، وغضائر جدداً، وقدراً جديداً، ويحمل الآخر خبزاً وفاكهة، ولحماً، وثلجاً، فدخل، وترك ذلك كله عندي، وأغلق الباب.

فنزلت، وعذلت، وقلت له: لم كلفت نفسك هذا؟ فقال: أنا رجل مزين، وأخاف أن تستقدرني، وقد أفردت لك هذا، فاطبخ أنت وأطعمني في غضارة أجيء بها من عندي، فشكرته على ذلك، وأقمت عنده ثلاثة أيام.  
فلما كان آخر اليوم الثالث، ضاق صدري، فقلت له: يا أخي الضيافة ثلاثة أيام، وقد أحسنت وأجملت، وأريد الخروج.

فقال: لا تفعل، فإني وحيد، ولست ممن يطرق، وخبرك لا يخرج من عندي أبداً، فأقم إلى أن يفرج الله عنك، فلست أتناقل بك.

فأبيت للحين، وخرجت على وجهي أريد منزل عجوز بباب التبن من مواليها، فدققت الباب عليها، فخرجت، فلما رأيتني بكت، وحمدت الله على رؤيتي، وأدخلتني الدار.

فلما كان في السحر، وأنا نائم، بكرت العجوز فغمزت علي بعض أصحاب إسحاق بن إبراهيم، فما شعرت إلا بإسحاق نفسه، في خيله ورجله، قد أحاط بالدار، ثم كبسها واستخرجني منها، حتى أوقفني بين يدي المأمون حافياً حاسراً.

فلما رأني سجد طويلاً ثم رفع رأسه، وقال: يا فضل، أتدري لم سجدت؟ فقلت: نعم، شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعدو دولتك، المغربي بينك وبين أخيك.

قال: ما أردت هذا، ولكني سجدت شكراً لله على ما أهدني من العفو عنك، فحدثني بخبرك؟ فشرحت له من أوله إلى آخره.

فأمر بإحضار العجوز مولاتنا، وكانت في الدار تنتظر الجائزة، فقال لها: ما حملك على ما فعلت، مع إنعامه وإنعام أهله عليك؟ قالت: رغبة في المال.

قال: هل لك زوج أو ولد أو أخ؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائة سوط، وتخليدها في السجن.

ثم قال لإسحاق: أحضر الساعة الجندي، وامرأته، والمزين، فحضروا في مجلس واحد، فاستثبني فيهم، فعرفته أنهم القوم بأعيانهم.

فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على فعله، فقال: الرغبة في المال، ووالله، إنه الذي أثبتني في الجيش، ولكني رغبت في المال العاجل.

فقال: أنت بأن تكون حجاماً أولى بأن تكون من أوليائنا، وأمر بأن يسلم للمزينين في الدار، ويوكل به من يعسفه حتى يتعلم الحجاماة.

وأمر باستخدام زوجته قهرمانة في دور حرمة، وقال: هذه المرأة عاقلة أديبة.

وأمر بتسليم دار الجندي وقماشه إلى المزين، وأن يجعل رزقه له، ويجعل جندياً مكان ذلك الجندي، وأطلقني إلى داري.

فرجعت إليها آخر النهار، آمناً، مطمئناً.

ووجدت الخبر بخلاف هذا في كتاب الوزراء لابن عبدوس، فإنه ذكر: أن الفضل ابن الربيع استتر، فطال استتاره، واستعجمت عليه الأخبار، فغير زيه، وخرج في السحر، وكان استتر بناحية الحربية من الجانب الغربية. فمشى وهو لا يدري أين يقصد، لحيرته، وبعد عهده بالطرق، فأداه المشي إلى الجسر، وقد أسفر الصبح، فأيقن بالعطب، وقصد منزلاً لرجل كانت بينه وبينه مودة، بسويقة نصر.

فلما صار ببعض المشارع، سمع النداء عليه، ببذل عشرة آلاف درهم، فتخفى حتى جاوزه الركبان والمنادي، ومشى.

فراه رجل، فانتبه له، وقال: يا فضل، وكان في أحد جانبي الطريق الذي الفضل فيه، فأمه إلى الجانب الذي كان فيه، ليقبض عليه، فاعترضته حمير وجمال عليها حص.

ونظر الفضل يميناً وشمالاً، فلم يجد مذهباً، وبصر بدرب، فدخله، فوجده لا ينفذ، ووجد في صدره باباً مفتوحاً، فهجم على المنزل، وفيه امرأة، فاستغاث بها، فأجارتها، وبادرت إلى الباب فأغلقتة، وناشدها الله أن تستره إلى الليل، فأمرته بالصعود إلى غرفة لها، فلم يستقر به القعود حتى دق الباب، فلما فتح الباب، دخل الرجل الذي رآه، وعزم على القبض عليه، وإذا المنزل له.

فقال لزوجته: فاتني الساعة عشرة آلاف درهم.

قالت له: وكيف ذلك؟ قال لها: مر بي الفضل، فمددت يدي لأقبض عليه، فابتلعتة الأرض.

فقالت له امرأته: الحمد لله - عز وجل - الذي كفالك أمره وأبقى دينك عليك، ولم تكن سبباً لسفك دمه، أو مكروه يلحقه.

فلما خرج، سعدت إليه، فقالت: قد سمعت، وما هذا المكان لك بموضع، فخرج إلى بعض منازل معامليه، فلما صار إليه، نبه العامل عليه، وأسلمه إلى طالبيه، فحمل إلى المأمون، فلما رآه، وسأله عن خبره، شرح له قصته، فأمر للمرأة بثلاثين ألف درهم وقال للرسول: قل لها، يقول لك الفضل: هذا جزاء لك على ما فعلته من الجميل، فردتها، وأبت قبولها، وقالت: لست آخذ على شيء فعلته لله عز وجل، جزاءً، إلا منه.

### وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

حدثنا أبو الحسن محمد بن عمر بن شجاع، المتكلم البغدادي، الملقب بجنيدي، قال: حدثنا الفضل بن ماهان السيرافي، وكان مشهوراً بسلوك أقاصي بلاد البحر، قال: قال لي رجل من بعض بياسرة الهند، والبيسر هو المولود على ملة الإسلام هناك، قال: كان في أحد بلاد الهند ملك حسن السيرة، وكان لا يأخذ ولا يعطي مواجهة، وإنما كان يقلب يده إلى وراء ظهره. فيأخذ ويعطي بما، إعظاماً للملك، وهي سنة لهم هناك ولأولادهم.

وإنه توفي، فوثب رجل من غير أهل المملكة، فاحتوى على ملكه، وهرب ابن له كان يصلح للملك خوفاً على نفسه من المتغلب.

ورسوم ملوك الهند، أن الملك إذا قام عن مجلسه، لأي حاجة عرضت له، كانت عليه صدرة، قد جمع فيها كل نفيس وفاخر من اليواقيت والجواهر، مضروب في الإبريسم في الصدرة، ويكون فيها من الجواهر ما إن لو أراد أن يقيم بها ملكاً أقامه.

قال: ويقولون: ليس بملك من إذا قام عن مجلسه وليست معه، حتى إذا حدثت عليه حادثة وهرب بما أمكنه إقامة ملك منها.

فلما حدثت على الملك تلك الحادثة، أخذ ابنه صدرته وهرب بما.

فحكى عن نفسه: أنه مشى ثلاثة أيام، قال: ولم أأطعم طعاماً، ولم تكن معي فضة ولا ذهب، فأبتاع به مأكولاً، ولم أقدر على إظهار ما معي، وأنفت أن أستطعم.

قال: فجلست على قارعة الطريق، فإذا رجل هندي، مقبل وعلى كتفه كارة، فحطها وجلس حدائي.

فقلت: أين تريد؟ قال: الرستاق الفلاني.

قلت: وأنا الآخر كذلك.

قال: فنصطحب؟ قلت: نعم.

فصحبته طمعاً في أن يعرض علي شيئاً من مأكوله، فلم يفعل، ولم تطب نفسي أن أبدأه بالسؤال.

فلما فرغ قام يمشي، فمشيت معه، وبت معه، طمعاً في أن تحمله المؤانسة على العرض علي، فعمل بالليل كما عمل بالنهار.

قال: وأصبحنا في غد، فمشينا، فعاملني بمثل ذلك أربعة أيام، فصار لي سبعة أيام لم أذق فيها شيئاً.

فأصبحت في الثامن ضعيفاً مهووساً لا قدرة لي على المشي، فعدلت عن الطريق، وفارقت الرجل، فرأيت قوماً بينون، وقيماً عليهم، فقلت للقيم: استعملني مثل هؤلاء بأجرة تعطينيها عشياً.

فقال: نعم، ناولهم الطين.

فقلت: عجل لي أجرة يوم، ففعل، فابتعت بها ما أكلته .  
وقمت أناولهم الطين، فكنت - لعادة الملك - أقلب يدي إلى ظهري وأعطيهم الطين، فكما أذكر أن ذلك خطأ  
بينه علي ويسفك دمي، أبادر بتلافي ذلك، فأرد يدي بسرعة من قبل أن يفتنوا بي .  
قال: فلمحتني امرأة قائمة، فأخبرت سيدتها بخبري، وكانت صاحبة البناء، وقالت: لا بد أن يكون هذا من أولاد  
الملوك.

قال: فلما انقضى النهار، وانصرف الصناع، فأردت الانصراف معهم. تقدمت إلى القيم أن يجسني عن المضي  
مع الصناع، فاحتسني.  
فجاءتني بالدهن والعروق لأغتسل بهما، وهذا مقدمة إكرامهم، وسنة لعظمائهم، فتغسلت بذلك، وجاءوني  
بالأرز والسمن والسكر، فطعمت، وعرضت المرأة علي نفسها بالتزويج، فأجبت، وعقدت العقد، ودخلت بها  
من ليلتي، وأقمت معها أربع سنين، تعطيني من مالها، وتنفق علي، وكانت لها نعمة .  
فأنا ذات يوم جالس على باب دارها، وإذا برجل من بلدي، فاستدعيته، فجاء، فقلت له: من أين أنت؟ فقال:  
من بلد كذا وكذا، فذكر بلدي.

فقلت: ما جئت تصنعها هنا؟ قال: كان فينا ملك، حسن السيرة، فمات، فوثب علي ملكه رجل ليس من  
أهل المملكة، وكان للملك الأول ابن يصلح للملك، فخاف علي نفسه فهرب، وإن الملك المنغيب أساء عشرة  
الرعية، فوثبنا عليه فقتلناه، وانتشرنا في البلاد نطلب ابن الملك المتوفي، لنجلسه مكان أبيه، فما عرفنا له خبراً.  
فقلت: أتعرفني؟ قال: لا .  
قلت: أنا طلبتكم.

قال: وأعطيته العلامات، فعلم صحة ما قلته له، فكفر لي .  
فقلت: أكنتم أمرنا إلى أن ندخل الناحية.  
قال: أفعل.

فدخلت إلى المرأة فأعلمتها بالخبر، وحدثتها بأمرني كله، وأعطيتها الصدرية.  
وقلت: هذه قيمتها كذا وكذا، ومن حالها كذا وكذا، وأنا ماض مع الرجل، فإن كان ما ذكره صحيحاً، فإن  
العلامة أن يجيئك رسولي فيذكر الصدرية، فأنهضي إلي، وإن كانت مكيدة كانت الصدرية لك.  
قال: ومضى مع الرجل، فكان الأمر صحيحاً، فأنفذ إلى زوجته من حملها إليه، فجاءت .  
فحين اجتمع شمله، واستقام أمره، أمر البنائين فبنوا له دار ضيافة عظيمة، وأمر أن لا يجوز في عمله مجتاز إلا حمل  
إليها، فيضاف فيها ثلاثة أيام، ويزود لثلاثة أيام آخر، فكان يفعل ذلك، وهو يراعي الرجل الذي صحبه في  
سفره، ويقدر أن يقع في يده.  
فلما كان بعد حول، استعرض الناس، وكان يستعرضهم في كل يوم، فلا يرى الرجل، فيصرفهم، فلما كان في  
ذلك اليوم، رأى الرجل بينهم.  
فحين وقعت عينه عليه، أعطاه ورقة تنبول، وهذه علامة غاية الإكرام، ونهاية رتبة الإعظام، إذا فعله الملك  
بإنسان من رعيته.

فحين فعل ذلك بالرجل، كفر له، وقيل الأرض، فأمر الملك بتغيير حاله، وإحسان ضيافته.

ثم استدعاه، فقال له: أتعرفني؟ فقال: كيف لا أعرف الملك، وهو من عظم شأنه، وعلو سلطانه، بحيث هو . قال: لم أرد هذا، أتعرفني قبل هذا الحال؟ قال: لا . فذكره الملك بالقصة، ومنعه إياه من الطعام في السفر . قال: فبهت الرجل .

فقال الملك: رده إلى الدار، وزيدوا في إكرامه، وحضر الطعام فأطعم . فلما أراد النوم، قال الملك لزوجته: إذهبي إلى هذا الرجل فأغمزيه . قال: فجاءت المرأة، فلم تزل تغمزه إلى أن نام، فجاءت إلى الملك، وقالت: إنه قد نام . قال: ليس هذا نوم، حركوه، فحركوه، فإذا هو ميت . قال: فقالت له المرأة: أي شيء هذا؟ قال: فساق لها حديثه معه، وقال: وقع في يدي، فتناهيت في إكرامه، والهند لهم أكباد عظيمة، وأفهام طريفة، فأدخلت عليه حسرة عظيمة إذ لم يحسن إلي، فقتلته، وقد كنت أتوقع موته قبل هذا بما توهمه واستشعره من العلة في نفسه، لفرط الحسرة .

### الباب الثالث عشر

فيمن نالته شدة في هواه فكشفها الله عنه

وملكه من يهواه

رأى القطع خيراً من فضيحة عاتق حدثنا أبو بكر محمد بن بكر البسطامي، غلام ابن دريد وصهره، قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن دريد، قال: حدثنا أحمد بن عثمان العلي عن أبي خالد عن الهيثم بن عدي، قال: كان لعمر بن دويرة السحيمي أخ قد كلف بابنة عم له كلفاً شديداً، وكان أبوها يكره ذلك ويأباه . فشكاه إلى خالد بن عبد الله القسري، أمير العراق، أنه يسيء جوارره، فحبسه، ثم سئل خالد في أمر الفتى، فأطلقه، فبقي الفتى كلفاً بابنة عمه، وهو ناء عنها مدة .

ثم زاد ما في نفسه، فحمله الحب على أن تسور الجدار عليها، وحصل معها . فأحس به أبوها، فقبض عليه، وأتى به خالد بن عبد الله، وادعى عليه اللصوصية، وأتاه بجماعة شهدوا على أهم وجدوه في بيته ليلاً، قد دخل للتلصص .

فسأل خالد الفتى، فاعترف أنه دخل ليسرق، وما سرق شيئاً، يدفع بذلك الفضيحة عن ابنة عمه، فأراد خالد أن يقطعه .

فرجع عمرو أخوه إلى خالد رقعة فيها:

أخالد قد والله أوطيت عشوة ... وما العاشق المظلوم فينا بسارق  
أقر بما لم يأت غير أنه ... رأى القطع خيراً من فضيحة، عاتق  
ومثل الذي في قلبه حل قلبها ... فمن لتجلو المم عن قلب عاشق

ولولا الذي قد خفت من قطع كفه ... لألفيت في أمريهما غير ناطق  
إذا مدّت الغايات للسبق في العلى ... فأنت ابن عبد الله أول سابق  
قال: فأرسل خالد مولى له يسأل عن الخبر، ويفحص جلية الأمر، فأتاه بصحيح ما قاله عمرو في شعره.  
فأحضر أبا الجارية، وأمره بتزويجها من الفتى، فامتنع، وقال: ليس هو كفاء لها.  
فقال له خالد: والله، إنه لكفاء لها، إذ بذل يده عنها، وإن لم تزوجه طائعاً لأزواجه وأنت كاره.  
فزوجه العم، وساق خالد المهر من عنده، فكان يسمى العاشق، إلى أن مات.  
وجدت في كتاب العمرين، لحمد بن داود الجراح الكاتب، وهو رسالة كتب بها إلى أبي أحمد يحيى بن علي بن  
المنجم، فيمن يسمى من الشعراء: عمراً، فقال: عمرو بن دويرة البجلي، سحيمي، كوفي، أخبرني أحمد بن أبي  
علقمة، عن دعيل بن علي، وذكر أبو طالب بن سودة، عن محمد بن الحسن الجعفري، عن الحسن بن يزيد  
القرشي، عن أبي بكر الوالي، قال: كان لعمرو بن دويرة، أخ قد كلف بابنة عم له .. وذكر نحوه، إلا أنه أتى  
في الشعر بزيادة بيت، وهو بعد البيت الذي أوله: أقر بما لم يأتته:  
ومثل الذي في قلبه حلّ قلبها ... فكن أنت تجلو المهم عن قلب وامق  
وأخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أخبرني محمد بن الحسن القرشي، قال: أخبرني الحرمي بن أبي العلاء،  
عن الزبير بن بكار، فذكره مع البيت الزيادة.

### من مكارم المقتدر

حدثني أبو العلاء صاعد بن ثابت بن إبراهيم بن علي بن خداهي النصراني الكاتب، الذي كان خليفة الوزراء،  
قال: حدثني أبو الحسين بن ميمون الأفتس، الذي كان وزير المتقي، ولما دخل أبو عبد الله البريدي بغداد،  
مقلداً الوزارة الثانية للمتقي، قبض عليه وأحدره للبصرة.  
فلما وردھا البريدي منهزماً، أطلقه، وأحسن إليه، وأمرني بإنزاله بالقرب مني، وإيناسه بملازمتي، وأفتقاده  
بالدعوات، ففعلت، فكنا متلازمين لا نكاد نفترق.  
ووجدته أحلى الناس حديثاً، وأحسنهم أدباً، وأعمهم فضلاً، ولم أر قط أشد تغزلاً، ولا هالكاً في العشق منه.  
فحدثني يوماً، قال: عشقت مغنية في القيان عشقاً شديداً، فراسلت مولاتها في بيعها، فاستامت فيها ثلاثة آلاف  
دينار.  
وكنت أعرف من نفسي الملل، فخشيت أن أشتريها فأملها، فدافعت بذلك، ومضت أيام، وكانت هي تأتي إلى  
عندي، وكان يمضي لي معها أطيب عيش.  
فانصرفت من عندي يوماً، وكان المقتدر بالله أمر أن تشتري له مغنيات، وأنا لا أعلم، وكانت الجارية حسنة  
الوجه جيدة الغناء، فحملت إلى المقتدر في جملة جوار، فأمر بشرائهن كلهن، فاشتريت في جملتهن.  
وأنفدت من غد أستدعيها من سيدتها، فأخبرت بالخبر، فقامت علي القيامة، ودخل إلى قلبي من الألم،  
والاحترق، والقلق، أمر ما دخل مثله قط في قلبي، فضلاً عن عشق.  
وزاد الأمر علي، حتى انتهى بي إلى حد الوسواس، فامتنعت عن النظر في أمر دارني، وتشاغلته بالبكاء، ولم  
يكن لي سبيل إلى العزاء.



وكنت أكتب - حينئذ - لأم المتقي لله، وهو حدث، فتأخرت عنهم أياماً، وأخللت بأمرهما، وأنا متوفر تلك الأيام على الطواف في الصحاري، لا أكل، ولا أشرب، ولا أتشغل بأكثر من البكاء والهيمنان. فأنكر المتقي وأمه تأخري، فاستدعاني المتقي، وخاطبني في شيء من أمره، فوجدني لا أعقل ولا أحصل ما يقوله، ولا أفهمه.

فسألني عن سبب اختلائي، فصدقته، وبكيت بين يديه، وسألته أن يسأل أباه بيع الجارية علي، أو هبتها لي. فقال: ما أجسر على هذا. قال: وزاد علي الأمر، وبطلت.

وبلغ أم المتقي الخبر، فراسلتها أسألها مثلما سألت أبنها، فرثت لي، وحملت نفسها علي أن خاطبت السيدة أم المقتدر في أمري.

فقالت لها أم المقتدر: ما العجب من الرجل، فإن الذي في قلبه من العشق قد أعماه عن الرأي بل العجب منك، كيف وقع لك أنه يجوز أن يقول أحد للخليفة: إنزل عن جاريته لرجل يعشقها. فراسلني أم المتقي بما جرى، فزاد ما بي من القلق.

وكنت لا ألقى أحداً من الرؤساء في الدولة، كالوزير، وحاشية الخليفة، إلا وأقصدهم، وأبكي بين أيديهم، وأحدثهم حديثي، وأسألهم مسألة الخليفة في تسليم الجارية إلي، إما ببيع، أو هبة. فمنهم من ينكر علي ويوبخني، ومنهم من يرثي لي ويعذرنني، ومنهم من يشير علي بالإمساك، ومنهم من يقول: إذا علم الخليفة هذا، وأنت تتعرض لحرمة، كان في هذا إتلاف نفسك، وأنا ملازم أبواهم، وتركت خدمة صاحبي.

إلى أن طال علي الأمر وعلى المتقي وأمه، لعدم ملازمتي الباب ووضع من محلي، وبطل أمر داري وضيعتي، وأمور صاحبي.

إلى أن طال هذا على المتقي وأمه، فطلبها كاتباً يصرفاني به.

وبلغني الخبر، وقد كنت أيسر من الجارية، فعذلت نفسي، وقلت: ليس بعد هذا الصرف إلا الفقر والنكبة، وذهاب الخير والنفس، ولو كنت اشتريت هذه الجارية، لكنت الآن قد مللتها، فلم أفقر نفسي، ولم أقطع تصرفي؟ وأقبلت أعظ نفسي، وأسليها ليلتي كلها، إلى أن طأوعتني على الصبر.

وباكرت دار المتقي، وبدأت في النظر في أمره، ورأوا مني خلاف ما تقدم، فسروا بذلك، وقالوا: أنت أحب إلينا من الغريب نستأنفه، فضمنت لهم الملازمة وتمشية الأمور.

فأقمت علي ذلك مدة، ثم اشتقت إلى الشرب، وقد كنت فقدته وهجرته منذ فقدت الجارية إلى ذلك اليوم. فقلت للغلام: قم، أمض، وأصلح لنا مجلساً للشرب، وأدع أصحابنا أعني أصدقائي الذين يعاشرونني، للروح إلي، ولا تدع غناء، فلما انقضى شغلي عدت إلى داري، واجتمع أصدقائي، فصوبوا رأبي، وجلسنا نشرب، ونحدث، ونلعب بالشطرنج.

فقالوا: لو دعوت لنا مغنياً.

فقلت: أخاف أن أذكر به أمري مع الجارية.

فجلسوا عندي إلى أن صليت العشاء الآخرة، وانصرفوا، وجلست وحدي أشرب القدح بعد القدح إلى أن مضت قطعة من الليل، وإذا أنا بباي يدق دقاً عنيفاً.

فقال بواي: من هذا؟ قالوا: خدم من دار الخليفة أمير المؤمنين.

فقلمت، ولم أشك أن حديشي قد اتصل به فأنكره، وقال: مثل هذا لا يصلح أن يكون كاتباً محرمة، ولا مدبراً أمر غلام حدث، وقد أمر بالقبض علي.

فقمت أمشي لأخرج من باب آخر كان لي، وأستتر، فإذا الخدم قد دخلوا، ومعهم بغلة عليها عمارية، وشوع، وإذا قد أنزلوا من العمارية جاريتين، إحداهما عشيقتي، فبهت.

فقال لي أحد الخدم، وهو كالرئيس عليهم: مولانا أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول: عرفت خبرك مع الجارية في هذه الساعة، فرحمتك، وقد وهبتها لك مع جميع مالها، وتركها الخادم ومضى.

ودخلت معها عدة أحمال عليها الأثقال من صنوف الثياب، والفرش، والآلات، والقماش، وعدة جوار، وتركوا ذلك عندي، وانصرفوا.

فأخذت بيد معشوقتي، وأدخلتها المجلس، فلما رأت الشراب والمجلس معاً، قالت: سلوت عني، وشربت بعدي. فحلفت لها أي ما شربت نبيداً منذ فارقتها إلا في هذا اليوم، وحدثتها حديشي بطوله.

وقلت لها: ما السبب في مجيئك؟ وما جرى؟ فقال: أعلم أن الخليفة لم يرني - منذ اعترضني وأمر بشرائي - إلا الليلة، وكان قد اتصل مزح السيدة معي، فأما كانت استدعتني منذ مدة، وسألني عن خبري معك، فأخبرتها.

ثم قالت: هل تحبينه؟ فقلت: نعم، حباً شديداً.

ففعجت من ذلك، وقالت: ثقلنا عليك وعلى محبوبك، ولكن يكون الخير إن شاء الله تعالى، ووعدتني الجميل التام، والوعد الحسن.

فلما كان هذه الليلة، قعد الخليفة يشرب مع الجوارى والسيدة حاضرة، فاستدعيت، وغنيت.

فقال لي الخليفة: إن كنت تحسنين الصوت الفلاني، فغنبيه، وكان صوتك علي، فغنيت، وتمثلت لي صورتك، وذكرت شربي معك، فلم أملك دموعي، حتى جرت.

فقال المقتدر: ما هذا؟ فتحيرت، وجزعت، ونظرت إلى السيدة، فضحكت، وضحك الجوارى.

فقال المقتدر: ما القصة؟ فدافعت السيدة.

فقال: بحياتي أصدقيني.

فقال: علي أن لا تؤذي الجارية، ولا غيرها.

فقال: نعم، وحياتك.

فحدثته الحديث، فلما استوفاه، قال لي: يا جارية، الأمر هكذا؟ إنما بكيت من عشق ابن ميمون؟ فسكت.

فقال: إن صدقتني وهبتك له.

فقلت: نعم.

فأقبل علي أمه، فقال: ما هو بكثير إن وهبتها لخدم لنا.

فقالت: قد - والله - أردت أن أسألك هذا، ولكن إن تفضلت به ابتداء منك، كان أحسن.  
فقال لبعض الخدم: خذ هذه الجارية، وجميع ما كان سلم إليها في حجرتها من جوار، وقماش، واحمله إلى دار ابن ميمون، كاتب ابني إبراهيم، وأقره سلامي، وعرفه أبي قد وهبت ذلك كله له.  
فلما قمت، تصايحوا: قد جاء فرجك، وبلغت منك، فقممت إلى حجرتي، وجمعت ما ترى، وحملته إليك.  
قال: فشكرت الله عز وجل على ذلك، وجلست معها، وما شيل ما في مجلسي، حتى اجتمعنا، وجلست معها فيه، وغنت.  
وبكرت من غد نشيطاً، مسروراً، أشكر السيدة، وأم المتقي، وأدعو لهما، وأقامت الجارية عندي، إلى أن ماتت.

### فارق جاريته ثم أجمع شملهما

حدثني عبيد الله بن محمد بن الحسن الصروي، قال: حدثني أبي، قال: كان ببغداد رجل من أولاد النعم، ورث من أبيه مالاً جليلاً، وكان يتعشق جارية، وأنفق عليها شيئاً كثيراً، ثم اشتراها، وكانت تحبه ويحبها، فلم يزل ينفق ماله عليها إلى أن أفلس.  
فقالت له الجارية: يا هذا، قد بقينا كما ترى، فلو طلبت معاشاً نقتات منه.  
قال: فلم يجد له صناعة غير الغناء، إذ كان الفتى من محبته للجارية، وإحضاره المغاني إليها، ليزيدها في صنعها، قد تعلم الضرب والغناء، وخرج صالحاً في طبقة الغناء والحدق فيه.  
فشاور بعض معارفه، فقال: ما أعرف لك معاشاً أصلح من أن تغني للناس، وتحمل جاريتهك إليهم فتأخذ على هذا الكثير، ويطيب عيشك.  
فأنف من ذلك، وعاد إليها، فأخبرها بما أشير عليه به، وأعلمها أن الموت أشهى عنده من هذا، فصبرت معه على الشدة مدة.  
ثم قالت: قد رأيت لك رأياً.  
فقال: قولي.

قالت: تبعني، فإنه يحصل لك من ثمني ما تعيش به عيشاً صالحاً، وتخلص من هذه الشدة، وأحصل أنا في نعمة، فإن مثلي لا يشتريها إلا ذو نعمة.  
فحملها إلى سوق النخاسين، فكان أول من اعترضها فتى هاشمي من أهل البصرة، ظريف، قد ورد بغداد للعب والتمتع، فاشتراها بألف وخمسمائة دينار عيناً.  
قال الرجل: فحين لفظت بالبيع، وقبضت الثمن، ندمت، واندفعت في بكاء عظيم، وحصلت الجارية في أقبح من صورتي، وجهدت في الإقالة، فلم يكن إلى ذلك سبيل.  
فأخذت الدنانير في الكيس، وأنا لا أدري إلى أين أذهب، لأن بيتي موحش منها، وورد علي من اللطم والبكاء ما هوسني.  
فدخلت مسجداً، وجلست فيه أبكي، وأفكر فيما أعمل، فحملتني عيني، فتركت الكيس تحت رأسي كالمنخدة، ونمت.

فما شعرت إلا بإنسان قد جذبه من تحت رأسي فانتبهت فرعاً، فإذا بإنسان قد أخذ الكيس، ومر يعدو، فقممت

لعدو ورائه، فإذا رجلي مشدودة بحيط في وتد مضروب في آخر المسجد، فإلى أن تخلصت من ذلك، غاب الرجل عن عيني .

فبكيت، ولطمت، ونالني أمر أشد من الأول، وقلت: قد فارقت من أحب، وبعته، لأستغني بثمانه عن الصدقة، فقد صرت الآن فقيراً، مفارقاً لمن أحب .

فجئت إلى دجلة، ولففت وجهي برداء كان على راسي، ولم أكن أحسن أسبح، ورميت بنفسي في الماء لأغرق . فظن الحاضرون أن ذلك لغلط وقع علي، فطرح قوم نفوسهم خلفي، فأخذوني، وسألوني عن أمري، فأخبرتهم، وبقيت منهم بين راحم ومستجهل .

إلى أن خلا بي شيخ منهم، فأخذ يعظني، ويقول: يا هذا، ذهب مالك، فكان ماذا حتى تتلف نفسك، أو ما علمت أن فاعل هذا في نار جهنم، ولست أول من افتقر بعد غنى، فلا تفعل وثق بالله تعالى . ثم قال لي: أين منزلك؟ فقلت: في الموضع الفلاني .

فقال: قم معي إليه، وما فارقتني حتى حملني إلى منزلي، وما زال يؤنسني، ويعظني، إلى أن بان له السكون في، فشكرته .

وانصرف، فكذت أن أقتل نفسي لو حشنة منزلي علي، ثم ذكرت النار والآخرة، فخرجت من بيتي هارباً، إلى بعض أصدقائي القدماء في حال سعادي، فأخبرته خبري، فبكى رقة لي، وأعطاني خمسين درهماً . وقال: أقبل رأبي، وأخرج الساعة من بغداد، وأجعل هذه نفقة لك إلى حيث وجدت قلبك يساعدك إلى قصده، وأنت من أولاد الكتاب، وخطك جيد، وأدبك صالح، فأقصد بعض العمال، وأطرح نفسك عليه، فأقل ما في الأمر أن تصير محرراً بين يديه، وتعيش معه، ولعل الله أن يصنع لك صنعاً .

فعملت على هذا، وجات إلى الكتبيين، وقد قوي في نفسي أن أقصد واسط، وكان لي فيها أقارب، فأجعلهم ذريعة لي إلى التصرف مع بعض عمالها .

فحين جئت إلى الكتبيين، إذا بزلال مقدم، وخزانة كبيرة، وقماش كثير ينقل إلى الزلال، وإلى الخزانة . فسألت: من يحملني إلى واسط؟ فقال أحد ملاحي الزلال: نحن نحملك بدرهمين إلى واسط، ولكن هذا الزلال لرجل هاشمي من أهل البصرة، ولا يمكننا من حملك معه على هذه الصورة، ولكن تلبس ثياب الملاحين، وتجلس معنا كأنك واحد منا .

فحين رأيت الزلال، وسمعت أنه لرجل هاشمي، من أهل البصرة، طمعت أن يكون مشتري جاريتي، فأتفرج بسماعها إلى واسط .

فدفعت الدرهمين إلى الملاح، وعدت فاشتريت لي جبة من جباب الملاحين فلبستها، وبعثت تلك الثياب التي كانت علي، وأصفتها إلى ما معي من النفقة، واشتريت خبزاً وإداماً، وجلست في الزلال . فما كان إلا ساعة حتى رأيت جاريتي بعينها، ومعها جاريتان تخدمانها، فحين رأيتها سهل علي ما كان بي، وما أنا عليه .

وقلت: أسمع غناءها، وأراها، من ها هنا إلى البصرة، واعتمدت على أن أجعل قصدي إلى البصرة، وطمعت في أن أداخل مولاها، فأصير أحد ندمائه .

وقلت: ولا تخليبي هي من المواد، فأني واثق بما.

ولم يكن بأسرع من أن جاء الفتى الذي اشتراها راكباً، ومعه عدة ركبان، فنزلوا في الزلال وانحدروا. فلما صاروا بكلوإدى، أخرج الطعام، فأكل هو والجارية، وأكل الباقيون على سطح الزلال، وأطعموا الملاحين. ثم أقبل على الجارية، فقال لها: إلى كم هذه المدافعة عن الغناء، وهذا الحزن والبكاء، ما أنت أول من فارق مولاه، فعلمت ما عندها من أمري.

ثم ضربت ستارة في جانب الزلال، واستدعى الذين في سطحه، وجلس معهم خارج الستارة، فسألت عنهم، فإذا هم إخوته، وأخرجوا الصواني، ففرقوها عليهم، وأحضروا النبيذ.

وما زالوا يترفقون بالجارية، إلى أن استدعت العود، فأصلحته، وجست أوتاره، ثم اندفعت تغني، من الثقيل

الأول بإطلاق الوتر في مجرى الوسطى

بان الخليط بمن عرفت فأدلجوا ... عمداً لقتلك ثم لم يتحرّجوا

وغدت كأنّ على ترائب نحرها ... جهر الغضا في ساجدة يتأجّج

قال: ثم غلبها البكاء، وقطعت الغناء، وتنغص على الفتية سرورهم.

ووقعت أنا مغشياً علي، فظن القوم أي قد صرعت، فأذن بعضهم في أذني، وصب علي الماء، فأفقت بعد ساعة.

وما زالوا يداورونها، ويرفقون بها، ويسألونها الغناء، إلى أن أصلحت العود، واندفعت تغني في الثقيل الثاني:

فوقفت أنسب بالذين تحمّلوا ... وكأنّ قلبي بالشفار يقطع

فدخلت دارهم أسائل عنهم ... والدار خالية المنازل بلقع

ثم شهقت فكادت تتلف، وارتفع لها بكاء عظيم، وصعقت أنا، فتبرم بي الملاحون، وقالوا: كيف حملنا هذا

الجنون معنا.

فقال بعضهم: إذا بلغت بعض القرى فأخرجوه وأرجمونا منه.

فجاءني أمر عظيم، أعظم من كل شيء دفعت إليه، ووضعت في نفسي التصبر، والحيلة في أن أعلمها بمكاني من الزلال، لتمنع من إخراجي.

وبلغنا إلى قرب المدائن، فقال صاحب الزلال: اصعدوا بنا إلى الشط، فطرحوا إلى الشط، وخرج الجماعة، وقد

كان المساء قد قرب، وصعد أكثر الملاحين يتغوطون، فخلا الزلال، وكان الجوّاري فيمن صعد إلى مستراح

ضرب هن.

فمضيت سارقاً نفسي حتى صرت خلف الستارة، فغيرت طريقة العود عما كانت عليه، إلى طريقة أخرى،

ورجعت إلى موضعي من الزلال.

وفرغ القوم من حاجتهم في الشط، ودافعوا والقمر منبسط.

فقالوا لها: بالله يا ستي غنينا شيئاً، ولا تنغصي علينا عيشنا.

فأخذت العود فجسسته، فشهقت شهقة كادت تتلف، وقالت: والله، قد أصلح هذا العود مولاي، على طريقة

من الضرب كان بها معجباً، وكان يضر بها معي، ووالله إنه معنا في الزلال.

فقال لها صاحبها: والله، لو كان معنا ما امتنعنا من عشرته، فلعله أن يخف بعض ما بك، فننتفع بغنائك.

فقال: ما أدري ما تقولون، هو - والله - معنا.

فقال الرجل للملاحين: ويحكم، حملتم معنا إنساناً غريباً؟ فقالوا: لا.

فأشفقت أن ينقطع السؤال، فصحت: نعم، هوذا أنا.

فقالت: كلام مولاي، والله، وجاء بي الغلمان إلى الرجل.

فلما رأي عرفني، وقال: ويحك، ما هذا الذي أصابك؟ وما أدراك إلى هذه الحال؟ فصدقته عن أمري، وبكيت،

وعلا نحيب الجارية من خلف الستارة، وبكا هو وإخوته بكاء شديداً، رقة لنا.

ثم قال: يا هذا، والله، ما وطئت هذه الجارية، ولا سمعت منها غناء قبل هذا اليوم، وأنا رجل موسع علي والحمد

لله، وقدمت إلى بغداد لسماع الغناء، وطلب أرزاقني من الخليفة، وقد بلغت من الأمرين ما أردت.

فلما عولت على الرجوع إلى وطني، أحببت أن أستصحب معي مغنية من بغداد، فاشتريت هذه الجارية،

لأضمها إلى عدة مغنيات عندي بالبصرة.

وإذ كنتما على هذه الحالة، فأنا - والله - أغتتم المكرمة والثواب فيكما، وأشهد الله تعالى على أي إذا صرت

إلى البصرة أعتقها وأزوجك إياها، وأجري عليكما ما يكفيكما، على شريطة إن أجبتني إليها.

قلت: وما هي؟ قال: أن تحضرها عندي متى أردنا الغناء، تغني بحضورك وتنصرف بانصرافك إلى دار أفرغها

لكما، وقماش أعطيكما إياه.

قلت: يا سيدي، وكيف أمتع من هو المعطي، وأبخل على من يرد حياتي علي، بهذا المقدار، وأخذت أقبل يده،

فمنعني.

ثم أدخل رأسه إلى الجارية، وقال: يرضيك هذا؟ فأخذت تدعو له، وتشكره.

فاستدعى غلاماً له، وقال له: خذ بيد هذا الرجل، وغير ثيابه، وبخره، وقدم له ما يأكله، وجننا به، فأخذني

الغلام، وفعل بي ذلك، وعدت، فتركت بين يدي صينية.

فاندفعت الجارية تغني بنشاط، واستدعت النبيذ، وشربت، وشربنا، وأخذت أقترح عليها الأصوات الجياد،

فتضاعف سرور الرجل بها.

وما زلنا على ذلك أياماً، حتى وصلنا نهر معقل، ونحن سكارى، فشد الزلال في الشط.

وأخذتني بولة الماء في الليل، فصعدت على ضفة نهر معقل لأبول، فحملني السكر على النوم.

ودفع الزلال وأنا لا أعلم، وأصبحوا فلم يجدوني، ودخلوا البصرة، ولم أنتبه أنا إلا بحمي الشمس، فجئت إلى

الشط، فلم أر لهم عيناً ولا أثراً.

وكنت قد أجلت الرجل أن أسأله بمن يعرف؟ وأين داره من البصرة؟ واحتشمت غلماناه أن أسألهم، فبقيت

على شاطئ نهر معقل، كأول يوم بدأت بي الخنة، وكان ما كنت فيه منام.

فاجتازت بي سمارية، فقعدت فيها، ودخلت إلى البصرة، وما كنت دخلتها قط، فنزلت خاناً، وبقيت متحيراً، لا

أدري ما أعمل، ولم يتوجه لي معاش.

إلى أن اجتاز بي إنسان أعرفه، فتيعته لأكشف له حالي، ثم أنفت من ذلك، ودخل الرجل إلى منزله، فعرفته،

وجئت إلى بقال كان على باب الخان الذي نزلته، فأعطيته دانقاً، وأخذت منه ورقة، وجلست أكتب رقعة إلى

الرجل.

فاستحسن البقال خطي، ورأى رثاثة زبي، فسألني عن أمري، فأخبرته أبي رجل ممتحن فقير، قد تعذر علي التصرف، وما بقي معي شيء، ولم أشرح له أكثر من هذا.

فقال لي: تعمل معي كل يوم بنصف درهم، وطعامك وكسوتك علي، وتضبط حساب دكاني؟ فقلت: نعم. فقال: اصعد.

فخرقت الرقعة، وصعدت، فجلست معه، أدبر أمره، وضبط دخله وخرجه، وكان غلما نه يسرقونه، فأديت له الأمانة.

فلما كان بعد شهر، رأى الرجل دخله زائداً، وخرجه ناقصاً، فحمدني.

وبقيت معه كذلك شهراً آخر، ثم جعل رزقي في كل يوم درهماً.

ولم يزل حالي معه يقوى، إلى أن حال الحول، وقد بان له الصلاح في أمره، فدعاني إلى أن أتزوج بابنته، ويشاركني، ففعلت.

ودخلت بزوجتي، ولزمت الدكان، وحالي يقوى، إلا أنني في خلال ذلك، منكسر النفس، ميت النشاط، ظاهر الحزن.

وكان البقال ربما شرب فيجربني إلى مساعدته، فامتنع، وأظهر له أن ذلك بسبب حزني علي موتي لي.

واستمرت بي الحال على هذا سنتين وأكثر.

فلما كان في بعض الأيام، رأيت الناس يجتازون بفاكهة، ولحم، ونبيد، اجتيازاً متصلاً، فسألت عن ذلك؟ فقبل

لي: اليوم الشعانين، يخرج فيه أهل الظرف واللعب، بالطعام والشراب، والقيان إلى الأبله، فيرون النصرى، ويشربون، ويفرحون.

فدعيتني نفسي إلى التفرج، وقلت: لعلني أصل إلى أصحابي، أو أقف لهم على خير، فإن هذا من مظاهرهم.

فقلت لحمي: أريد أن أنظر إلى هذا المنظر.

فقال: شأنك وما تريد، فأصلح لي طعاماً، وشراباً، وسلم إلي غلاماً وسفينة.

فخرجت وركبت السفينة، وبدأت بالأكل، ثم قدمت آنية الشراب، وجلست أشرب حتى وصلت البله، وأبصرت الناس وقد ابتدأوا ينصرفون.

فإذا بالزلال بعينه، في أوساط الناس، سائراً في نهر الأبله، فتأملته، فإذا أصحابي على سطحه، ومعهم عدة

مغنيات.

فحين رأيتهم لم أتمالك فرحاً، فطرحت إليهم، فحين رأوني عرفوني، فكبروا، وأخذوني إليهم، وسلموا علي.

وقالوا: وبك، أنت حي؟ وعانقوني، وفرحوا بي، وسألوني عن قصتي، فأخبرتهم بها، من أولها إلى آخرها، علي

أتم شرح.

فقالوا: إننا لما فقدناك في الحال، وقع لنا أنك بالسكر وقعت في الماء فغرقت، ولم نشك في ذلك، فخرقت الجارية

ثيابها، وكسرت العود، وجزت شعرها، وبكت، ولطمت، فما منعناها من شيء من هذا.

ووردنا البصرة، فقلنا لها: ما تحيين أن نعمل معك؟ فقد كنا وعدنا مولاك وعداً، تمنعنا المروءة من استخدامك

بعده في حال أو سماع.

فقالت: يا مولاي لا تمنعني من القوت اليسير، ولبس الثياب السوداء، وأن أصنع قبراً في بيت من الدار، وأجلس عنده، وأتوب من الغناء، فمكناها من ذلك، فهي جالسة عنده إلى الآن.

وأخذوني معهم، فحين دخلت، ورأيتها بتلك الصورة، ورأيتني، شهقت شهقةً عظيمةً، فما شككت في تلفها، وأعتقتها، فما افترقنا ساعةً طويلةً.

ثم قال لي مولاي: خذها.

فقلت: بل تعتقها وتزوجني بها، كما وعدتني.

ففعل ذلك، ودفع لنا ثياباً كثيرةً، وفرشاً، وقماشاً، وحمل إلي خمسمائة دينار.

وقال: هذا قدر ما أردت أن أجره عليك في كل شهر من أول شهر دخولي إلى البصرة، وقد اجتمع في طول هذه المدة، والجارية في كل شهر غير هذا، وشيء آخر لكسوتك، وكسوة الجارية، والشرط في المنادمة وسماع الجارية من وراء الستارة باق، وقد وهبت لك الدار القلانية، وهذه مفاتيحها.

فأخذت المفاتيح، وأتيت إلى الدار، فوجدتها مفروشة بأنواع الفرش، وإذا بذلك الفرش والقماش الذي أعطيته فيها، والجارية.

فسررت بذلك سروراً عظيماً، وجئت إلى البقال، فحدثته حديثي، وطلقت ابنته، ووفيتها صداقها.

وأقمت مع الجارية سنين، وصرت رب ضيعة ونعمة، وصار حالي إلى قريب مما كنت عليه أولاً.

وأنا أعيش كذلك مع جاريتي، إلى الآن.

### أمير البصرة يجمع بين متحابين

روى أبو روق الهزاني، عن الرياشي: أن بعض أهل النعم بالبصرة، اشترى جارية، وأحسن تأديبها وتعليمها،

وأحبها حباً شديداً، وأنفق عليها حتى أملق، ومسهما الضر الشديد، والفقر المبيد.

فقال لها يوماً: قد ترين ما صرنا إليه من الفقر، ووالله، لموتي وأنت معي، أهون علي مما أذكره لك، ويسوءني أن أراك على غير الحالة التي تسرني فيك، ونهاية الأمر بنا، أن تحل بأحدنا منيته، فيقتل الآخر نفسه عليه، فإن رأيت أن أبيعك لمن يحسن إليك، فيغسل عنك ما أنت فيه، وأتفرج أنا بما لعله يصير إلي من الشيء من ثمنك، ولعلك تحصيلين عند من تتوصلين إلى نفعي معه.

فقالت: والله لموتي وأنا على تلك الحالة، أهون علي من انتقالي إلى غيرك، ولكن أفعل ما بدا لك.

وقالت له الجارية: إني لأرثي لك يا مولاي، مما أرى بك من سوء الحال، فلو بعثني فانتفعت بثنمي، فلعل الله أن يصنع لك صنعاً جميلاً، وأقع أنا بحيث يحسن حالي، فيكون ذلك أصلح لكل واحد منا.

فخرج، وعرضها للبيع، فأشار عليه أحد أصدقائه، ممن له رأي، أن يحملها إلى عمر بن عبيد الله بن معمر

التميمي، وكان أمير البصرة يومئذ، فأعجبته.

فقال لمولايها: كم شراؤها عليك؟ قال: بألف دينار، وقد أنفقت عليها أكثر من مائة ألف درهم.

قال: أما ما أنفقت عليها، فغير محتسب لك، لأنك أنفقت في لذاتك، وأما ثمنها، فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم،

وعشرة سفاط ثياب، وعشرة رؤوس من الخيل، وعشرة من الرقيق، أراضيت؟ قلت: نعم، رضيت، فأمر بالمال

فأحضر.



فلما قبض المولى الثمن، وأراد الانصراف، استعبر كل واحد منهما إلى صاحبه باكياً، وأنشأت الجارية تقول:  
هيناً لك المال الذي قد حوته ... ولم يبق في كفي إلا التفكير  
أقول لنفسي وهي في كرباتهما ... أقلّي فقد بان الحبيب أو أكثرني  
إذا لم يكن للأمر عندي حيلة ... ولم تجدي شيئاً سوى الصبر فاصبري  
قال: فاشتد بكاء المولى، وعلا نحيبه، ثم أنشأ يقول:  
فلولا فعود الدهر بي عنك لم يكن ... يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري  
أروح بهم في الفؤاد مبرح ... أناجي به قلباً طويل التفكير

عليك سلام، لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر  
فقال له ابن معمر: قد شئت يا هذا، خذ جاريته، بارك الله لك فيها وفيما صار إليك من المال، وانصرفا  
راشدين، فوالله، لا كنت سبياً في فرقة محبين.

فأخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب، وأثرى وحسنت حاله.  
وأخبرني الحسن بن عبد الرحمن بن خالد الرامهرمزي، خليفة أبي رحمه الله على القضاء بها، قال: حدثنا أحمد بن  
سعيد، أن الزبير حدثهم، قال: حدثني ابن أبي بكر المؤملي، قال: حدثني عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار  
بن ياسر، قال: كانت لفتى من العرب جارية جميلة، وكان بها معجباً، يجد بها وجداً شديداً، فلم يزل ينفق عليها  
حتى أملق واحتاج، وجعل يسأل إخوانه، فقالت الجارية ... وذكر بقية الخبر على قريب مما رواه الرياشي،  
والألحان في الشعر على ما رواه الزبير.  
ووجدت هذا الخبر مذكوراً بقريب من هذه الألفاظ، في كتاب أخبار المتيمين للمدائني، وقد زاد فيه، أن الجارية  
كانت قينة، ولم يذكر الشعر الأول.

### من مكارم جعفر بن يحيى البرمكي

وحدثني أبو الفرج علي بن الحسين المعروف بالأصبهاني، إملاء من حفظه، قال: حدثني الحسين بن يحيى  
المرداسي، قال: حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصللي، قال: حدثني أبي، قال: لما دخل الرشيد البصرة  
حاجاً، كنت معه، فقال لي جعفر بن يحيى: يا أبا محمد، قد وصفت لي جارية مغنية حسناء محسنة، تباع، وذكر  
أن مولاهما ممتنع من عرضها إلا في داره، وقد عزمت على أن أركب مستخفياً، فأعترضها، أفتساعدني؟ فقلت:  
السمع والطاعة.

فلما كان في نصف النهار حضر النحاس، فأعلم بحضوره، فخرج جعفر بعمامة وطيلسان ونعل عربية، وأمرني  
فلبست مثل ذلك، وركبنا حمارين قد أسرجا بسروج التجار، وركب النحاس معنا، وطلبنا الطريق.  
فلم يزل النحاس يسير بين أيدينا، حتى أتينا باباً شاهقاً يدل على نعمة قديمة، ففرع النحاس الباب، وإذا بشاب  
حسن الوجه، عليه أثر ضر باد، وقميص غليظ خشن، ففتح لنا الباب، وقال لنا: انزلوا يا سادة، فدخلنا.  
فأخرج لنا الرجل قطعة حصير خلق، ففرشها لنا، فجلسنا عليها.  
فقال له النحاس: أخرج الجارية، فقد حضر المشتري.

فدخل البيت، وإذا الجارية قد خرجت في القميص الغليظ الذي كان على الفتى بعينه، وهي فيه - مع خشونته - كأنها في الحلبي والحلل، لحسن وجهها، وفي يدها عود.

فأمرها جعفر بالغناء، فجلست، وضربت ضرباً حسناً، واندفعت تغني:

إن يمس حبلك بعد طول تواصلٍ ... خلقاً ويصبح بيتكم مهجوراً

فلقد أراني والجديد إلى بلى ... دهرًا بوصلك راضياً مسروراً

جدلاً بمالي عندكم لا أبتغي ... بدلاً بوصلك خلةً وعشيراً

كنت المني وأعزّ من وطئ الحصى ... عندي وكنت بذاك منك جديراً

ثم غلبها البكاء حتى منعها من الغناء، وسمعنا من البيت نحيب الفتى، وقامت الجارية تتعثر في أذيالها، حتى دخلت البيت، وارتفعت لهما ضجة بالبكاء والشهيق، حتى ظننا أنهما قد ماتا، وهمنا بالانصراف.

فإذا بالفتى قد خرج وعليه ذلك القميص بعينه، فقال: أيها القوم، أعذروني فيما أفعله وأقوله.

فقال له جعفر: قل.

فقال: أشهد الله تعالى، وأشهدكم، أن هذه الجارية حرة لوجه الله تعالى، وأسألكم أن تزوجوني بها.

قال: فتحير جعفر أسفاً على الجارية، ثم قال لها: أتخبين أن أزوجك. من مولاك؟ قالت: نعم.

فقرر الصداق، وخطب، وزوجها به، ثم أقبل على الفتى، وقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: حديثي طويل، إن نشطت له حدثتك به.

فقال: لا أقل من أن نسمعه، فلعلنا أن نبسط عذرك.

فقال: أنا فلان ابن فلان، وكان أبي من وجوه أهل هذا البلد، ومياسيره، وهذا عارف بذلك، وأوماً إلى

التخاس.

وأسلمني أبي إلى الكتاب، وكانت لأمي صبية قريب سني من سنها، وهي جاريتي هذه، وكانت معي في المكتب، تتعلم ما أتعلم، وتنصرف معي.

فبلغت، ثم بطلت من الكتاب، وتعلمت الغناء، فكنت لمحبي لها أتعلمه معها، وتعلق قلبي بها، وأحببتها حباً شديداً.

وبلغت أنا أيضاً، فخطبني وجوه أهل البصرة لبنائهم، فخبرني أبي، فأظهرت له الزهد في التزويج، ونشأت متوفراً على الأدب، متقلباً في نعم أبي، غير متعرض لما يتعرض له الأحداث، لتعلق قلبي بالصبية، ورغبة أهل البلد تزداد في، وعندهم أن عفتي لصلاح، وما كانت إلا لتعلق قلبي بالجارية، وأن شهوتي لا تتعدها لأحد.

وبلغ حذقها في الغناء إلى ما قد سمعتموه، فعزمت أمي على بيعها، وهي لا تعلم ما في نفسي منها، فأحسست

بالموت، واضطرت إلى أن حدثت أمي عن الصورة، فحدثت أبي، فاجتمع رأيهما على أن وهبا لي الجارية،

وجهازها كما يجهب أهل البيوتات بناقن، وجليت علي، وعمل لنا عرس حسن، ونعمت معها دهرًا طويلاً.

ثم مات أبي، وخلف لي مالاً كثيراً، فلم أحسن أن أرب نعمته، وأسأت التدبير فيها، وأسرعت في الأكل

والشرب والقيان، وأنا مع ذلك أجذر في اليوم الواحد بخمسين ديناراً أو أكثر.

فأوجب ذلك أن تلفت النعمة، وأفضت الحال إلى نقض الدار وبيع ما فيها، حتى صرت إلى ما ترى، وأنا على

هذا منذ سنين.

فلما كان في هذا الوقت، وبلغني دخول الخليفة، ووزيره، وأهل مملكته، البصرة، قلت لها: يا ستي، أعلمي أن شبابك قد بلي، وأن عمرك في الشقاء ينقضي، وبالله، إن نفسي تالفة من فراقك، ولكني أؤثر تلفها مع وصولك إلى نعمة ورفاهية، فدعيني أعرضك، لعل أن يشتريك بعض هؤلاء الأكابر، فتحصلي معه في رغد عيش، فإن مت بعدك فذاك الذي أؤثر، ويكون كل واحد منا قد تخلص من الشقاء، وإن حكم الله تعالى علي بالبقاء، صبرت على قضائه.

فبكت من ذلك، وقلقت، ثم قالت: إفعل ما تحب .

فخرجت إلى هذا النحاس، فأطلعت على أمري، وقد كان يسمع غناءها أيام نعمتي، وعرف حالها وحالي، وأعلمته أنني لا أعرضها إلا عندي، فإنها - والله - ما طرقت رجلها خارج باب الدار قط، وقصدت بذلك أن يراها المشتري، ولا تدخل بيوت الناس، ولا إلى السوق، وإنما لم يكن لها ما تلبسه إلا قميصي هذا، وهو مشترك بيننا، ألبسه أنا إذا خرجت لأبتاع القوت، وتتشح هي بأزارها، وإذا جئت إلى البيت، ألبستها إياه، وأتشح أنا بالأزار.

فلما حصل من يعترضها، وخرجت فغنتكم، لحقني من القلق والبكاء لفرافها أمر عظيم، فدخلت إلي، وقالت: يا هذا، ما أعجب أمرك، أنت مللتي، وأردت بيعي وفراقي، وتبكي هذا البكاء؟ فقلت لها: يا هذه، إن فراق نفسي أسهل علي من فراقك، وإنما أردت أن تتخلصي من هذا الشقاء. فقالت: والله، لو ملكت منك ما ملكت مني، ما بعثك أبداً، وأموت جوعاً وعرياً، فيكون الموت هو الذي يفرق بيننا.

فقلت: أتريدين أن تعلمي صدق قولي؟ قالت: نعم.

قلت: هل لك أن أخرج الساعة إلى المشتري فأعتقك بين يديه وأتزوجك، ثم أصبر معك على ما نحن فيه إلى أن يأذن الله تعالى بفرج أو موت؟ فقالت: إن كان قولك صادقاً، فافعل ما بدا لك من هذا، فما أريد غيره. فخرجت إليكم فكان مني ما قد علمتم، فاعذروني.

فقال جعفر الوزير: أنت معذور، وهنض، وهنضت معه، والنحاس معنا.

فلما قدم حمارة ليركب، دنوت منه، وقلت: يا سبحان الله، مثلك في جودك، يرى مثل هذه المكرمة، فلا ينتهز الفرصة فيها؟ والله، لقد تقطع قلبي عليهما.

فقال: ويحك، وقلبي - والله - كذلك، ولكن غيظي من فوت الجارية إياي يمنعني من التكرم عليه.

فقلت: وأين الرغبة في الثواب؟ فقال: صدقت والله.

ثم التفت إلى النحاس فقال: كم كان الخادم سلم إليك عند ركوبنا، لتشتري به الجارية؟ فقال: ثلاثة آلاف دينار.

فقال: أين هي؟ فقال: مع غلامي.

فقال لي وللنحاس: خذاها وادفعاها إلى الفتى، وقولا له: يكتسي ويركب ويجيئي، لأحسن إليه وأستخدمه. فرجعنا إلى الفتى، فإذا هو يبكي، فقلت له: قد عجل الله فرجك، أعلم أن الذي خرج من عندك هو الوزير جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وقد أمر لك بهذا، وهو يقول لك كذا وكذا.

قال: فصعق، حتى قلت قد تلف، ثم أفاق، فأقبل يدعو لجعفر، ويشكرني.  
وكنت قد ركبت فلحقت بالوزير، وأعلمته، فحمد الله عز وجل على ما وهبه له، وعاد إلى داره وأنا معه.  
فلما كان وقت العشاء، جئنا إلى الرشيد، فأقبل يسأل جعفر خبره في يومه، وهو يخبره، إلى أن قص عليه حديث  
الفتى والجارية.  
فقال له الرشيد: فما عملت معه؟ فأخبره.

فاستصوب رأيه، وقال: وقع له برزق سلطاني في رسم أرباب النعم، في كل شهر كذا وكذا، واعمل به بعد  
ذلك ما شئت.  
فلما كان من الغد، جاءنا الفتى راكباً بشياب حسنة، وهيأة جميلة، فإذا به من أحلى الناس كلاماً، وأتمهم أدباً.  
فحملته إلى جعفر، وأوصلته إلى مجلسه، فأمر بتسهيل وصوله إليه، وخلطه بحاشيته، ووقع له عن الخليفة بما رسم  
له، وعن نفسه بشيء آخر.  
وشاع حديثه في البصرة، وفي أهل العسكر، فلم يبق فيهم متغزل، ولا متظرف، إلا أهدى له شيئاً جليلاً، فما  
خرجنا من البصرة إلا وهو رب نعمة صالحة.  
ووجدت هذا الخبر، على خلاف هذا، ما ذكره أبو علي محمد بن الحسن ابن جمهور العمي البصري الكاتب، في  
كتاب السمار والندامى: أن الرشيد لما حج ومعه إبراهيم الموصلى، ... فأخبرنا بالخبر على قريب ما روينا  
وذكرناه، وأن الجارية بدأت وغنت بصوت من صناعة إبراهيم، وهو:  
تمت عليّ الزفرة الصاعدة ... وملّني العائد والعائدة  
يا ربّ كم فرّجت من كربة ... عتي فهذي المرّة الواحدة  
وأن الذي حضر لتقليب الجارية، الرشيد وجعفر بن يحيى متنكرين، ومعهما إبراهيم الموصلى والنخاس، وأنهم  
انصرفوا، وقطعوا الثمن بمائة ألف درهم، ثم عادوا والمال معهم، فأمروا بإعادة التقليب، فخرجت الجارية،  
فغنت بصوت، الغناء فيه لإبراهيم، وهو:  
ومن عادة الدنيا بأنّ صروفها ... إذا سرّمتها جانب ساء جانب  
وما أعرف الأيام إلاّ ذميمة ... ولا الدهر إلاّ وهو للثأر طالب  
ثم ذكر بقية الحديث على قريب من هذا، وفي الخبر الأول زيادات، ليست في خبر ابن جمهور.

### من مكارم يحيى بن خالد البرمكي

وبلغني خبر لجعفر بن يحيى، مع جارية، يقارب هذا الخبر، أخبرني به أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد  
الرامهرمزي، خليفة أبي رضي الله عنه، على القضاء بها، قال: أخبرني أحمد بن الصلت الحماني، قال: حدثنا مفلح  
وسنبر النخاسان، قالوا: أرسل إلينا جعفر بن يحيى البرمكي، يطلب جارية قوالة، ذات أدب وظرف، على صفة  
ذكرها وحدها، فما زلنا نحصر على طلبها، ونتواصف من يعرف عنها مثل ذلك.  
وإلى جانبنا شيخ من أهل الكوفة يسمع كلامنا، فأقبل علينا، وقال: عندي بغية الوزير، فأنهضوا إن شئتم  
لتنظروا إليها.

قال: فبهضنا معه، حتى إذا وصلنا إلى داره، وجدناها ظاهرة الإختلال، ووجدنا فيها مسحاً خلقاً، وثلاث قصبات عليها مسرجة، فارتبنا بقوله لنا، لما ظهر من سوء حاله.

ثم أخرج إلينا جارية كأنها - والله - فلقمة قمر، تتثنى كالقضيب، فاستقرأناها، فقرأت آيات من القرآن، حركت منا ما كان ساكناً، وأتبعها بقصيدة مليحة، شوقتنا، وأطربتنا.

فقلنا لها: أصانعة؟ وأشرنا إلى يدها.

فقال: نعم، تعلمت العمل بالعود وأنا صغيرة.

فقلنا: فغنيينا به.

فقال: سبحان الله، هل يصلح أن أستجيب لذلك إلا للمولى مالك إن دعاني إليه أجبته.

قال: وراح الرسول إلى جعفر، فأخبره بما شاهدته.

فلم يتمالك جعفر، لما سمع بصفة الجارية، حتى استنهض الرسول إلى مجلس الشيخ، وهو يتبعه، حتى عاينه، وسأله إخراجها إليه.

فلما رآها جعفر أعجب بما قبل أن يستنطقها، ثم إنه استنطقها، فأخذت بمجامع قلبه.

فقال لمولاه: قل ما شئت؟ فقال الشيخ: لست أحدث أمراً حتى أستأذنها، ولولا الضر الذي نحن فيه لما عرضتها، لكن حالي كما يشاهده الوزير من فقر، وضر، ودين كثير قد فدحني، ومن أجله فارقت وطني، وعرضت على البيع ثمرة فؤادي.

فقال له جعفر: ما مقدارها في نفسك إن أردت بيعها؟ فقال: ثلاثون ألف دينار.

فقال جعفر: فهل لك أن تأمرها بأن تغنيينا؟ فأقبل الشيخ عليها فاستدناها، وأمرها أن تغني، فأخذت العود،

وأصلحته، ثم استعبرت، وغنت بصوت، الغناء من صنعة إبراهيم:

ومن عادة الأيام أن صروفها ... إذا سرّ منها جانب ساء جانب

وما أعرف الأيام إلا ذميمة ... ولا الدهر إلا وهو بالنار طالب

قال: ثم ألقاها العود من يدها، وصرخت، وصرخ الشيخ، وجعلا يتحجان.

ثم إن الشيخ أقبل على جعفر ومن معه، وقال: أشهدكم أنني قد أعتقتها، وجعلت عتقها صداقها، والله، لا ملكها أحد أبداً.

فغضب جعفر، وأقبل من حضر على الشيخ يؤنبونه ويستجهلونه، ويقولون له: ضيعت هذا المال الجليل، وعجلت، وجهلت.

فقال الشيخ: النفس أولى أن يبقى عليها من المال، والرازق الله سبحانه وتعالى، وعاد جعفر إلى أبيه فأخبره بما كان من الرجل والجارية.

فقال له أبوه: فما صنعت بهما؟ قال: تركتهما وانصرفت.

فقال له: ويحك، ما أنصفت يا ولدي، أو ما أنفت على نفسك أن تفرق بين متحابين مثلهما، مقترين، فقيرين، أو تنصرف عنهما، ولا تجبر حالهما؟ أَرْضِيتَ أن يكون الكوفي أسمع منك.

ودعا بغلام، فحمل معه إلى الشيخ ثلاثين ألف دينار على بغال.

فلما وصل المال إلى الشيخ قبله وأخذه، وحمد الله عز وجل، ودعا لجعفر ولوالده، وعاد بالمال والجارية إلى منزله بالكوفة، وهو فرح مسرور، وقد فرح الله عنه .

### أين نوال ابن جعفر من نوال ابن معمر

ووجدت في بعض كتيبي: أن عمر بن شبة، قال: حدثني أبو غسان، قال: أخبرني بعض أصحابنا، قال: إشتري عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما جارية من مولدات أهل مكة، كان يتعشقها غلام من أهلها، وقدم في أمرها إلى المدينة، فنزل قريباً من منزل عبد الله بن جعفر، ثم جعل يلطف عبد الله بطرائف مكة، حتى عرفت الجارية أنه ورد.

وجعلت الجارية تراسله، فأدخلته ليلة في إصطبل دواب عبد الله بن جعفر، فعشر عليه السائس، فأعلم عبد الله بن جعفر، وأتاه به.

فقال له: مالك، قبحك الله، أبعث تحرمك بنا تصنع مثل هذا؟ فقال له: إنك ابتعت الجارية، وكنت لها محباً، وكانت تجد بي مثل ذلك.

قال: فدعا بالجارية، وسألها، فجاءت بمثل قصة الفتى .  
فقال له: خذها، فهي لك.

فلما كان بعد ذلك بقريب، عشق عبد السلام بن أبي سليمان، مولى مسلم، جارية لآل طلحة، يقال لها: رواح، ورجا أن يفعلوا به مثلما فعل ابن جعفر بالفتى المكي، فلم يفعل الطلحيون ذلك، فسأل في ثمنها، حتى اجتمع له، فاشتراها منهم.

فقال عبد السلام في ذلك:

وأين فلا تعدل نوال ابن جعفر ... وأين لعمرى من نوال ابن معمر

يطير لدى الجنات هذا لفضله ... ويرفض هذا في الجحيم المسعر

ابن أبي حامد صاحب بيت المال يحسن إلى رجل من المتفهمة

وقد كان فيما يقارب عصرنا مثل هذا، وهو ما حدثني به أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني الحافظ، قال:

حدثني أبو أحمد محمد بن أحمد الجرجاني الفقيه، قال: كنا ندرس على أبي إسحاق المروزي الشافعي، وكان يدرس عليه معنا فتى من أهل خراسان، له والد هناك، وكان يوجه إليه في كل سنة، مع الحاج، قدر نفقة السنة. فاشترى جارية، فوقع في نفسه، وألفها، وألفته، وكانت معه سنين .

وكان رسمه أن يستدين في كل سنة، ديناً، بقدر ما يعجز من نفقته، فإذا جاء ما أنفذه أبوه إليه، قضى دينه، وأنفق الباقي مدة ثم عاد إلى الاستدانة.

فلما كان سنة من السنين، جاء الحاج، وليس معهم نفقة من أبيه.

فسألهم عن سبب ذلك، فقالوا له: إن أباك أعتل علة عظيمة صعبة، واشتغل بنفسه، فلم يتمكن من إنفاذ شيء إليك.

قال: فقلق الفتى قلقاً شديداً، وجعل غرماؤه يطالبونه كالعادة، في قضاء الدين وقت الموسم، فاضطر، وأخرج الجارية إلى النخاسين، فعرضها.

وكان الفتى ينزل بالقرب من منزلي، وكنا نصطحب إلى منزل الفقيه، ولا نكاد نتفارق.  
فباع الجارية بألف درهم وكسر، وعزم على أن يفرق منها على غرمائه قدر ما لهم، ويتمون بالباقي.  
وكان قلقاً، موجعاً، متحيراً، عند رجوعنا من النحاسين.  
فلما كان الليل إذا بباي يدق، فقمتم ففتحتنه، فإذا بالفتى.  
فقلت: مالك؟ فقال: قد امتنع علي النوم، وقد غلبتني وحشة الجارية، والشوق إليها.  
ووجدته من القلق على أمر عظيم، حتى أنكرت عقله، فقلت: ما تشاء؟ فقال: لا أدري، وقد سهل علي أن  
ترجع الجارية إلى ملكي، وأبكر غداً فأقر لغرمائي بما لهم، وأحسب في حبس القاضي، إلى أن يفرج الله تعالى عني،  
ويجئني من خراسان ما أقضي به ديني في العام المقبل، وتكون الجارية في ملكي.  
فقلت له: أنا أكفيك ذلك في غد إن شاء الله، وأعمل في رجوع الجارية إليك، إذا كنت قد وطنت نفسك على  
هذا.

قال: فبكرنا إلى السوق، فسألنا عمن اشترى الجارية.  
فقالوا: امرأة من دار أبي بكر بن أبي حامد، صاحب بيت المال.

فجئنا إلى مجلس الفقيه، فشرحت لأبي إسحاق المروزي بعض حديث الفتى، وسألته أن يكتب رقعة إلى أبي بكر  
بن أبي حامد، يسأله فيها فسخ البيع، والإقالة، وأخذ الثمن، ورد الجارية، فكتب رقعة مؤكدة في ذلك.  
فقمتم، وأخذت بيد الخراساني صديقي، وجئنا إلى أبي بكر بن أبي حامد، فإذا هو في مجلس حافل، فأمهلنا حتى  
خف، ثم دنوت أنا والفتى، فعرفني، وسألني عن أبي إسحاق المروزي، فقلت: هذه رقعته خاصة في حاجة له.  
فلما قرأها، قال لي: أنت صاحب الجارية؟ قلت: لا، ولكنه صديقي هذا، وأومأت إلى الخراساني، وقصصت  
عليه القصة، وسبب بيع الجارية.

فقال: والله، ما أعلم أي ابتعت جارية في هذه الأيام، ولا ابتعت لي.  
فقلت: إن امرأة جاءت وابتاعتها، وذكرت أنها من دارك.  
قال: يجوز.

ثم قال: يا فلان، فجاءه خادم، فقال له: امض إلى دور الحرم، فاسأل عن جارية اشتريت أمس، فلم يزل يدخل  
ويخرج من دار إلى دار، حتى وقع عليها، فرجع إليه.  
فقال له: أعشرت عليها؟ فقال: نعم، فقال: أحضرها، فأحضرها.  
فقال لها: من مولاك؟ فأومأت إلى الخراساني.  
فقال لها: أفتحيين أن أردك عليه؟ فقالت: والله، ليس مثلك يا مولاي من يختار عليه، ولكن لمولاي علي حق  
التربية.

فقال: هي كيسه عاقلة، خذها.

قال: فأخرج الخراساني الكيس من كفه، وتركه بحضرتة.

فقال للخادم: امض إلى الحرم، وقل لمن: ما كنتن وعدتن به هذه الجارية من إحسان، فعجلنه الساعة.

قال: فجاء الخادم بأشياء لها قدر وقيمة، فدفعها إليها.

ثم قال للخراساني: خذ كيسك فاقتض منه دينك، ووسع بباقيه على نفسك وعلى جاريتك، والزم العلم، فقد أجريت عليك في كل شهر قفيز دقيق، ودينارين، تستعين بها على أمرك .  
قال: فوالله ما انقطعت عن الفتى، حتى مات أبو بكر بن أبي حامد .

### ابن أبي حامد صاحب بيت المال يحسن إلى صيرفي

قال مؤلف هذا الكتاب: وجدت هذا الخبر مستفيضاً ببغداد، وأخبرت به على جهات مختلفة، وهذا أביنها، وأصحها إسناداً، إلا أنني أذكر بعض الطرق الأخرى التي بلغتني: حدثني أحمد بن عبد الله، قال: حدثني شيخ من دار القطن ببغداد، قال: كان لأبي بكر بن أبي حامد مكرومة طريفة، وهي أن رجلاً يعرف بعبد الواحد ابن فلان الصيرفي، باع جاريتيه، وكان يهواها، على أبي بكر بن أبي حامد - يعني صاحب بيت المال - بثلاثمائة دينار. فلما جاء الليل، استوحش لها وحشة شديدة، ولحقه من الهيمان، والقلق، والجنون، والأسف على فراقها، ما منعه من النوم، ولحقه من البكاء والسهر، ما كادت تخرج نفسه معه .  
فلما أصبح خرج إلى دكانه يتشغل بالنظر في أمره، فلم يكن له إلى ذلك سبيل.  
وزاد عليه القلق والشوق، فأخذ ثمن الجارية، وجاء إلى أبي بكر بن أبي حامد، فدخل عليه، ومجلسه حافل، فسلم، وجلس في أخريات الناس، إلى أن تقوضوا.  
فلما لم يبق غيره، أنكر ابن أبي حامد حاله، فقال له: إن كانت لك حاجة فاذكرها .  
فسكت، وجرت دموعه، وشهق .

فرفق به ابن أبي حامد، وقال له: قل، عافاك الله، ولا تستح.  
فقال له: بعث أمس، جارية كانت لي، وكنت أحبها، واشتريت لك - أطال الله بقاءك - وقد أحسست بالموت أسفاً على فراقها .

وأخرج الثمن فوضعه بحضورته، وقال له: أنا أسألك أن ترد علي حياتي، بأخذ هذه الدنانير، وإقالي من البيع.  
قال: فتبسم ابن أبي حامد، وقال له: لما كانت بهذا الخل من قلبك لم بعثها؟ فقال: أنا رجل صيرفي، وكان رأس مالي ألف دينار، فلما اشتريتها، تشاغلتم بما عن لزوم الدكان، فبطل كسبي، وكنت أنفق عليها من رأس المال نفقة لا يحتملها حالي، فلما مضت مدة، خشيت الفقر، ونظرت، فإذا أنا لم يبق معي من رأس المال إلا الثلث أو أقل، وصارت تطالبي من النفقة، بما لو أطعتها فيه، ذهبت هذه البقية، وحصلت على الفقر .  
فلما منعتها، ساءت أخلاقها ونغصت عيشي، فقلت أبيعها، وأدير ثمنها فيما أختل من حالي، وتستقيم عيشتي، وأستريح من أذاها، وأتصبر على فراقها، ولم أعلم أنه يلحقني هذا الأمر العظيم، وقد آثرت الآن الفقر، وأن تحصل الجارية عندي، أو أن أموت، فهو أسهل علي مما أنا فيه .

فقال ابن أبي حامد: يا فلان، فجاء خادم أسود .

فقال له: أخرج الجارية التي اشتريت لنا بالأمس .

قال: فأخرجت جاريتي .



فقال: يا بني، إن مثلي لا يطأ قبل الإستهراء، ووالله، ما وقعت عيني على الجارية - منذ اشتريت - إلا الساعة، وقد وهبتها لك فخذها، وخذ دنانيرك، بارك الله لك فيهما.

ثم قال للخادم: هات ألف درهم، فجاء بها.

فقال للجارية: قد كنت عولت على أن أكسوك، فجاء من أمر مولاك ما رأيت ولم أر من المروءة منعه منك، فخذني هذه الدراهم، واتسعي بها في نفقتك، ولا تحملي مولاك ما لا يطيق، فتحصلين عند من لا يعرف قدرك كمعرفته، ولك علي ألف درهم في كل سنة، يجيء مولاك فيأخذها لك، إذا شكرك، ورضي طريقتك.

قال: فقام الرجل، وقبل يديه، وجعل يبكي، ويدعو له.

ولم يزل المال واصلاً إليه في كل سنة، حتى مات ابن أبي حامد.

### الحسن بن سهل يحسن إلى الفسطاطي التاجر

ويشبه هذا الحديث، ما وجدته في كتاب أعطانيه أبو الحسين عبد العزيز ابن إبراهيم المعروف بابن حاجب النعمان، وهو يومئذ كاتب الوزير المهلي على ديوان السواد، وذكر إنه نسخه من كتاب أعطاه إياه أبو الحسين الخصيبي، وكان فيه إصلاحات بخط ابن مابنداذ.

اشترى الحسن بن سهل، من الفسطاطي التاجر، جارية بألف دينار، فحملت إلى منزل الحسن، وكتب للفسطاطي بتمنيتها.

فأخذ الكتاب إلى من أحاله عليه بالمال، وانصرف إلى منزله، فوجده مفروشاً نظيفاً، وفيه ريجان قد عبي تعبياً حسنة، ونبيد قد صفي.

فقال: ما هذا؟ فقيل له: جاريتك التي بعتهما السعة، قد أعدت لك هذا لتتصرف إليها، فبعتهما قبل انصرافك. قال: فقام الفسطاطي، فرجع إلى الحسن.

وأحضر الحسن الجارية، فرأى زياً حسناً، ونظافةً، وتزينت بزينة لم تر من مثلها، مع ما رأى فيها من الحسن والجمال، والبهاء والكمال، فهو يجيل الفكر والنظر فيها، إذ رجع الفسطاطي إليه، وهو كالجنون المخبول، وقال: أقلني بيع الجارية، أقلك الله في الدنيا والآخرة.

فقال: ما إلى هذا سبيل، وما دخلت قط دارنا جارية، فخرجت منها. قال: أيها الأمير، إنه الموت الأحمر.

قال: وما ذلك؟ فقص عليه قصته، وحبها لها، وتلفهه عليها، وأنه لم يقدر على فراقها وأن الندم قد لحقه، والشوق قد تمكن من فؤاده، وأنه إن دام ذلك عليه، كان فيه تلف نفسه، وبكى، ولم يزل يتضرع له. فرق له الحسن، وأحضر الجارية من ساعته، وقال لها: هل لك في مولاك رغبة؟ فقالت: أيها الأمير، في مثله يرغب، فرد الجارية عليه.

وقال له: خذ هذه الألف دينار، لك هبة، لا يرجع إلى ملكي منها دينار واحد.

فأخذ الفسطاطي الجارية والدنانير، وقال: الجارية حرة لوجه الله تعالى، وهذه الألف دينار صداقها، ثم كتب كتابها.

وعاد إلى منزله، وجلس مع جاريتيه علي ما أعدته له.

الأشتر وجيداء

أخبرني أبو الفرج علي بن الحسين المعروف بالأصبهاني، قال: حدثني جعفر بن قدامة، قال: حدثني أبو العيناء، قال: كنت أجالس محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسين ابن علي بن أبي طالب سلام الله عليهم أجمعين، وكان قد حمل إلى المتوكل أسيراً، فحبسه مدة، ثم أطلقه المتوكل، وكان أعرابياً فصيحاً، فحدثني يوماً قال: حدثني نير بن مخلف الهلالي، وكان حسن الوجه جداً، قال: كان منا فتى يقال له بشر بن عبد الله، ويعرف بالأشتر، وكان يهوى جارياً من قومه، يقال لها: جيداء، وكانت ذات زوج.

وشاع خبره في حبيها، فمنع منها، وضيق عليه، حتى لم يقدر أن يلم بها.

فجاءني ذات يوم، وقال: يا أخي، قد بلغ مني الوجد، وضاق علي سبيل الصبر، فهل تساعدني علي زيارتها؟ قلت: نعم فركبت، وسرنا، حتى نزلنا قريباً من حبيها، فكمنا في موضع.

فقال لي: إذهب إلى القوم فكن ضيفاً لهم، ولا تذكر شيئاً من أمرنا، حتى ترى راعية لجيداء صفتها كذا وكذا، فأعلمها خبري، وواعدها بوعد.

فمضيت وفعلت ما أمرني به، ولقيت الراحية فخاطبتها، فمضت إلى جيداء، وعادت إلي، فقالت: قل له: موعدك الليلة عند الشجيرات.

فلما كان الوقت الذي وعدتنا فيه، إذا بجيداء قد أقبلت، فوثب الأشتر إليها، فقبل بين عينيها.

فقمنا مولياً عنهما، فقالا: نقسم عليك إلا ما رجعت، فوالله، ما بيننا ما نستره عنك، فرجعت، وجلسنا نتحدث.

فقال لها: يا جيداء، أما فيك حيلة لتتعلل الليلة؟ فقالت: لا والله، إلا أن نعود إلى ما تعرف من البلاء والشدة. فقال: ما من ذلك بد، ولو وقعت السماء على الأرض.

فقالت: هل في صاحبك هذا من خير؟ فقلت: إي والله.

فخلعت ثيابها، ودفعتها إلي، وقالت: البسها، وأعطني ثيابك، ففعلت.

فقالت: إذهب إلى بيتي، فإن زوجي سيأتيك بعد العتمة، ويطلب منك القدح ليحلب فيه الإبل، فلا تدفعه إليه من يدك، فهذا فعلي به، ودعه بين يديه، فإنه سيذهب ويحلب، ثم يأتيك به ملآن لبناً، ويقول: هاك غبوقك، فلا تأخذه منه، حتى تطيل نكدك عليه، ثم خذه، أو دعه حتى يضعه هو، ثم لست تراه حتى تصبح.

قال: فذهبت، وفعلت ما أمرني به، وجاءني بالقدح، فلم آخذه منه، وأطلت عليه النكد، ثم أهويت لآخذه، وأهوى ليضعه، فاختلفت أيدينا، فانكفأ القدح.

فقال: إن هذا لطماح مفرط، وضرب بيده إلى سوطه، ثم تناولني به، وضرب ظهري، فجاءت أمه، وأخته،

فانتزعوني من يده، بعد أن زال عقلي، وهممت أن أجأه بالسكين.

فلما خرجوا من عندي، لم ألبث إلا يسيراً، حتى دخلت أم جيداء، تؤنبي، وتكلمني، فلزمت الصمت والبكاء.

فقالت: يا بنية، اتقي الله، وأطيعي بعلك، وأما الأشتر فلا سبيل لك إليه، وها أنا أبعث إليك بأختك لتؤنسك، ومضت.

ثم بعثت إلي بالجارية، فجعلت تكلمني، وتدعو علي من ضربيني، وأنا ساكت، ثم اضطجعت إلى جانبي. فشددت يدي على فمها، وقلت: يا جارية، إن أختك مع الأشر، وقد قطع ظهري بسببها، وأنت أولى بسترها مني، وإن تكلمت بكلمة فضححتها، وأنا لست أبالي. فاهتزت مثل القضيب فرعاً، فطمنتها، وطيبت قلبها، فضحكت، وبات معي منها أظرف الناس، ولم نزل نتحدث حتى برق الصبح، فخرجت، وجئت إلى صاحبي. فقالت جيداء: ما الخبر؟ فقلت: سلي أختك عن الخبر، فلعمري إنما عالمة به، ودفعت إليها ثيابها، وأريتها ظهري، فجزعت، وبكت، ومضت مسرعة، وجعل الأشر يبكي، وأنا أحدثه بقصتي، وارتحلنا.

### أقسم أن يغسل يده أربعين مرة إذا أكل زيرباجة

حدثني أبو الفرج أحمد بن إبراهيم الفقيه الحنفي المعروف بابن النرسي من أهل باب الشام ببغداد، وقد كان خلف أبا الحسن علي بن أبي طالب بن البهلول التنوخي على القضاء بهيت، وما علمته إلا ثقة، قال: سمعت فلان التاجر، يحدث أبي - وأسمى التاجر، وأنسيته أنا، قال: حضرت عند صديق لي من البزازين، وكان مشهوراً، في دعوة، فقدم في جملة طعامه، زيرباجة، ولم يأكلها، فامتنعنا من أكلها. فقال: أحب أن تأكلوا منها، وتعفوني من أكلها، فلم ندعه حتى أكل. فلما غسلنا أيدينا، انفرد يغسل يده، ووقف غلام يعد عليه الغسل، حتى قال له: قد غسلت يدك أربعين مرة، فقطع الغسل.

فقلنا له: ما سبب هذا؟ فامتنع، فألحنا عليه.

فقال: مات أبي وسني نحواً من عشرين سنة، وخلف علي حالاً صغيرة، وأوصاني قبل موته بقضاء ديون عليه، وملازمة السوق، وأن أكون أول داخل إليه، وآخر خارج منه، وأن أحفظ مالي. فلما مات، قضيت دينه، وحفظت ما خلفه لي، ولزمت الدكان، فرأيت في ذلك منافع كثيرة. فبينما أنا جالس يوماً ولم يتكامل السوق، وإذا بامرأة راكبة على حمار، وعلي كفله منديل ديبقي، وخادم يمسك بالعنان، فنزلت عندي.

فأكرمتها، ووثبت إليها، وسألتها عن حاجتها، فذكرت ثياباً.

فسمعت - والله - نغمة، ما سمعت قط أحسن منها، ورأيت وجهاً لم أر مثله، فذهب عني عقلي، وعشقتها في الحال.

فقلت لها: تصبرين حتى يتكامل السوق، وآخذ لك ما تريدين، ففعلت، وأخذت تحادثني، وأنا في الموت عشقاً لها.

وخرج الناس، فأخذت لها ما أرادت، فجمعته، وركبت ولم تخاطبني في ثمنه بحرف واحد، وكان ما قيمته خمسة آلاف درهم.

فلما غابت عني أفقت، وأحسست بالفقر، فقلت: محتالة، خدعتني بحسن وجهها، ورأتني حدثاً، فاستغرتني، ولم أكن سألتها عن منزلها، ولا طالبتها بالثمن، لدهشتي بها.

فكنتم خبري لنلا أفتضح، وأتعجل المكروه، وعولت على غلق دكاني، وبيع كل ما فيها، وأوفي الناس ثمن

متاعهم، وأجلس في بيتي مقتصرًا على غلة يسيرة من عقار كان خلفه لي أبي .  
فلما كان بعد أسبوع، إذا بما قد باكرتني، ونزلت عندي، فحين رأيتهما أنسيت ما كنت فيه وقمت لها .  
فقلت: يا فتى، تأخرنا عنك، وما شككنا أنا قد روعناك، وظننت أنا قد احتلنا عليك .  
فقلت: قد رفع الله قدرك عن هذا .  
فاستدعت الميزان، فوفيتي دنانير قدر ما قلت لها عن ثمن المتاع، وأخرجت تذكرة بمتاع آخر .  
فأجلستها أحادثها، وأتمتع بالنظر إليها إلى أن تكامل السوق، وقمت، ودفعت إلى كل إنسان ما كان له،  
وطلبت منهم ما أرادت، فأعطوني، فجنتها به، فأخذته وانصرفت، ولم تخاطبني في ثمنه بحرف .  
فلما غابت عني ندمت، وقلت: الخنة هذه، أعطتني خمسة آلاف درهم، وأخذت مني متاعاً بألف دينار، والآلآن  
إن لم أفع لها على خبر، فليس إلا الفقر، وبيع متاع الدكان، وما قد ورثته من عقار .  
وتناولت غيبتهما عني أكثر من شهر وأخذ التجار يشددون علي في المطالبة، فعرضت عقاري، وأشرفت على  
الهلكة .  
فأنا في ذلك، وإذا بما قد نزلت عندي، فحين رأيتهما زال عني الفكر في المال، ونسيت ما كنت فيه، وأقبلت علي  
تحدثني، وقالت: هات الطيار، فوزنت لي بقيمة المتاع دنانير .  
فأخذت أطاؤها في الكلام، فبسطتني، فكادت أموت فرحاً وسروراً، إلى أن قالت: هل لك زوجة؟ فقلت: لا  
والله يا سيدتي، وما أعرف امرأة قط، وبكيت .  
فقلت: ما لك؟ خير، وهبتها ثم قمت وأخذت بيد الخادم الذي كان معها، وأخرجت له دنانير كثيرة،  
وسألته أن يتوسط الأمر بيني وبين سته .  
فضحك، وقال: إنما هي - والله - أعشقت منك لها، وما بها حاجة إلى ما اشترته منك، وإنما تحببك محبة  
لمطاولتك، فخاطبها بما تريد، فإنها تقبله، وتستغني عني .  
فعدت، وكنت قلت لها: إني أمضي لأنقد الدنانير، فلما عدت، قالت: نقدت الدنانير؟ وضحكت، وقد كانت  
رأتني مع الخادم .  
فقلت لها: يا ستي، الله، الله، في دمي، وخاطبته بما في نفسي منها، فأعجبها ذلك، وقبلت الخطاب أحسن  
القبول .  
وقالت: الخادم يجيبك برسالتني بما تعمل عليه، وقامت ولم تأخذ مني شيئاً، فوفيت الناس أموالهم، وحصلت ربحاً  
واسعاً، واغتممت خوفاً من انقطاع السبب بيني وبينها، ولم أتم ليلتي قلقاً وخوفاً .  
فلما كان بعد أيام جاءني الخادم، فأكرمته، وهبت له دنانير لها صورة، وسألته عنها .  
فقال: هي - والله - عليلة من شوقها إليك .  
فقلت: فاشرح لي أمرها؟ فقال: هذه صبية ربتها السيدة أم أمير المؤمنين المقتدر بالله، وهي من أخص جواريتها  
عندها، وأحضاهن، وأحبهن إليها .  
وإنما اشتهدت رؤية الناس، والدخول والخروج، فتوصلت حتى صارت القهرمانه، وصارت تخرج في الحوائج،  
فترى الناس .

وقد - والله - حدثت السيدة بحديثك، وسألتها أن تزوجها منك، فقالت: لا أفعل، أو أرى الرجل، فإن كان يستحقك، وإلا لا أدعك واختيارك.

وتحتاج إلى أن تتحيل في إدخالك إلى الدار بجيلة، إن تمت وصلت إلى تزويجها، وإن انكشفت ضربت عنقك، فما تقول؟ فقلت: أصبر على هذا.

فقال: إذا كان الليلة، فأعبر إلى المخرم، وادخل المسجد الذي بنته السيدة على شاطئ دجلة، وعلى حائطه الأخير مما يلي دجلة، اسمها مكتوب بالآجر المقطوع، فبت فيه.

قال أبو الفرج بن النرسي: وهو المسجد الذي قد سد بابه الآن سبكتين، الحاجب الكبير، مولى معز الدولة، المعروف بجاشنكير، وأضافه إلى ميدان داره، وجعله مصلى لعلمانه.

قال الرجل: فلما كان قبل المغرب مضيت إلى المخرم، فصليت في المسجد العشاءين، وبت فيه. فلما كان وقت السحر، إذا بطيار لطيف قد قدم، وخدم قد نزلوا معهم صناديق فارغة، فجعلوها في المسجد، وانصرفوا، وبقي واحد منهم، فتأملته، فإذا هو الواسطة بيني وبينها.

ثم صعدت الجارية واستدعتني، فقمتم، وعانقتها، وقبلت يدها، وقبلتني قبلا كثيرة، وضمنتني، وبكيت، وبكت.

وتحدثنا ساعة، ثم أجلسني في واحد من الصناديق، وكان كبيراً، وأقفلته.

وأقبل الخدم يتراجعون بشياب، وماء ورد، وعطر، وأشياء قد أحضروها من مواضع، وهي تفرق في باقي الصناديق، وتقفل، ثم حملت الصناديق في الطيار، وانحدر.

فلحقني من الندم أمر عظيم، وقلت: قتلت نفسي لشهوة لعلها لا تتم، ولو تمت ما ساوت قتل نفسي، وأقبلت أبكي، وأدعو الله عز وجل، وأتوب، وأنذر الندور، إلى أن حملت الصناديق بما فيها، ليجاز بها في دار الخليفة، وحمل صندوقي خادمان أحدهما الواسطة بيني وبينها.

وهي كلما اجتازت بطائفة من الخدم الموكلين بأبواب الحرم، قالوا: نريد نفتش الصناديق، فتصيح على بعضهم، وتشتتم بعضهم، وتداري بعضهم.

إلى أن انتهت إلى خادم ظننته رئيس القوم، فخاطبته بخضوع وذلة، فقال لها: لا بد من فتح الصناديق وبدأ بصندوقي فأنزله.

فحين أحسست بذلك ذهب عقلي، وغاب علي أمري، وبلت في الصندوق فرقاً، فجري بولي حتى خرج من خلله.

فقال: يا أستاذ، أهلكني، وأهلك التجار، وأفسدت علينا متاعاً بعشرة آلاف دينار في الصندوق ما بين ثياب مصبغات، وقارورة فيها أربعة أمنان من ماء زمزم، قد انقلبت وجرت على الشياب، والساعة تستحيل ألوانها.

فقال: خذي صندوقك، أنت وهو، إلى لعنة الله، ومري.

فحمل الخادمان صندوقي، وأسرعوا به، وتلاحقت الصناديق.

فما بعدنا ساعة حتى سمعتها تقول: ويلاه، الخليفة، فعند ذلك مت، وجاءني ما لم أحسبه.

فقال لها الخليفة: والى، يا فلانة، أى شىء فى صناديقك؟ فقالت: ثياب للسيدة.

فقال: افتحها حتى أراها.

فقالت: يا مولاي، الساعة تفتحها ستنا بين يديك.

فقال: مري، هوذا أجي.

فقالت للخدم: أسرعوا، ودخلت حجرة، ففتحت صندوقي، وقالت: اصعد تلك الدرجة، ففعلت، وأخذت بعض ما فى تلك الصناديق، فجعلته فى صندوقي، وأقفلته.

وجاء المقتدر، فحملت الصناديق إلى بين يديه، ثم عادت إلي، فطيبت نفسي، وقدمت لي طعاماً وشراباً، وما يحتاج إليه، وأقفلت الحجرة، ومضت.

فلما كان من غد جاءني، فصعدت إلي، وقالت: الساعة تجيء السيدة لترك، فانظر كيف تكون؟ فما كان بأسرع من أن جاءت السيدة، فجلست على كرسي، وفرقت جواربها، ولم يبق معها غير واحدة منهن، ثم أنزلني الجارية.

فحين رأيت السيدة قبلت الأرض، وقمت فدعوت لها.

فقالت لجاريته: نعم ما اخترت لنفسك هو - والله - كيس، عاقل، ومضت.

فقامت معها صاحبي وتبعها، وأتت إلي بعد ساعة، وقالت: أبشر فقد - والله - وعدتني أن تزوجني بك، وما بين أيدينا عقبة إلا الخروج.

فقلت: يسلم الله تعالى.

فلما كان من غد حملتني فى الصندوق، وخرجت كما دخلت، وكان الحرص على التفتيش أقل، وتركت فى المسجد الذى حملت منه فى الصندوق، وقمت بعد ساعة، ومضيت إلى منزلي، وتصدقت، ووفيت بنذري. فلما كان بعد أيام، جاءني الخادم برقعته، بخطها الذى أعرفه، وكيس فيه ثلاثة آلاف دينار عيناً، وهى تقول فى رقعته: أمرتني السيدة بإنفاذ هذا الكيس من مالها إليك، وقالت: اشتر ثياباً، ومركوباً، وغلاماً يسعى بين يديك، وأصلح به ظاهره، وتجميل بكل ما تقدر عليه، وتعال يوم الموكب إلى باب العامة، وقف حتى تطلب، وتدخل على الخليفة، وتتزوج بحضرتة.

فأجبت على الرقعة، وأخذت الدنانير، واشترت منها ما قالوه، واحتفظت بالباقي.

وركبت بغلتي يوم الموكب إلى باب العامة، ووقفت، وجاءني من استدعاني، فأدخلني على المقتدر، وهو على السرير، والقضاة، والهاشميون، والحشم، قيام، فداخلتني هبة عظيمة، فخطب بعض القضاة، وزوجني، وخرجت.

فلما صرت فى بعض الممرات، عدل بي إلى دار عظيمة، مفروشة بأنواع الفرش الفاخر، والآلات، والخدم، فأجلست، وتركت وحدي، وانصرف من أجلسني.

فجلست يومى لا أرى من أعرف، وخدم يدخلون ويخرجون، وطعام عظيم ينقل، وهم يقولون: الليلة تزف فلانة - اسم زوجتي - إلى زوجها، ها هنا.

فلما جاء الليل أثر الجوع فى، وأقفلت الأبواب، وأيست من الجارية، فبقيت أطوف فى الدار، إلى أن وقعت على المطبخ، فإذا قوم طباخون جلوس، فاستطعمت منهم، فلم يعرفوني، وظنوا أنى بعض الوكلاء، فقدموا إلي

زيرباجة، فأكلت منها، وغسلت يدي بأشنان كان في المطبخ، وأنا مستعجل لئلا يفتن بي، وظننت أني قد نقيت من ريجها، وعدت إلى مكاني.

فلما انتصف الليل إذا بطبول، وزمور، والأبواب تفتح، وصاحبتني قد أهديت إلي، وجاءوا بها فجلوها علي، وأنا أقدر أن ذلك في النوم، ولا أصدق فرحاً به، وقد كادت مرارتي تنشق فرحاً وسروراً، ثم خلوت بها، وانصرف الناس.

فحين تقدمت إليها وقبلتها، رفستني فرمت بي عن المنصة، وقالت: أنكرت أن تفلح يا عامي، أو تصلح يا سفلة، وقامت لتخرج.

فبعثت بها، وقبلت يديها ورجليها، وقلت: عرفيني ذنبي، واعلمي بعده ما شئت.

فقالت: ويلك، تأكل، ولا تغسل يدك؟ وأنت تريد أن تختلي بمنلي؟ فقلت: اسمعي قصتي، واعلمي ما شئت بعد ذلك.

فقالت: قل.

فقصصت عليها القصة، فلما بلغت أكثرها، قلت: وعلي، وعلي، وحلفت بأيمان مغلظة، لا أكلت بعد هذا زيرباجة، إلا غسلت يدي أربعين مرة.

فأشفقت، وتبسمت، وصاحت: يا جواري، فجاء مقدار عشر جواري ووصائف فقالت: هاتم شيئاً للأكل.

فقدمت إلينا مائدة حسنة، وألوان فاخرة، من موائد الخلفاء، فأكلنا جميعاً، واستدعت شراباً، فشربنا، وأنا وهي، وغنى لنا بعض أولئك الوصائف.

وقمنا إلى الفراش، فدخلت بها، وإذا هي بكر، فافتضضتها، وبت بليلة من ليالي الجنة، ولم نفترق أسبوعاً، ليلاً ونهاراً، إلى أن انقضت وليمة الأسبوع.

فلما كان من غد، قالت لي: إن دار الخليفة لا تحتمل المقام فيها أكثر من هذا، وما تم لأحد أن يدخل فيها بعروس غيرك، وذلك لعناية السيدة بي، وقد أعطتني خمسين ألف دينار، من عين وورق، وجوهر، وقماش، ولي بخارج القصر أموال وذخائر أضعافها، وكلها لك، فاحرج، وخذ معك مالاً، واشتر لنا داراً حسنة، عظيمة الاتساع، يكون فيها بستان حسن، وتكون كثيرة الحجر، ولا تضيق على نفسك، كما تضيق نفوس التجار، فإني ما تعودت أسكن إلا في القصور، واحذر من أن تبتاع شيئاً ضيقاً، فلا أسكنه، وإذا ابتعت الدار، فعرفني، لأنقل إليك مالي، وجواري، وأنقل إليك.

فقلت: السمع والطاعة.

فسلمت إلي عشرة آلاف دينار، فأخذتها، وأتيت إلى داري، واعترضت الدور، حتى ابتعت ما وافق اختيارها، فكتبت إليها بالخبر، فنقلت إلي تلك النعمة بأسرها، ومعها ما لم أظن قط أني أراه، فضلاً عن أني أملكه، وأقامت عندي كذا وكذا سنة، أعيش معها عيش الخلفاء، وأتجر في خلال ذلك، لأن نفسي لم تسمح لي بترك تلك الصنعة، وإبطال المعيشة، فتزايد مالي وجاهي، وولدت لي هؤلاء الشباب، وأوماً إلى أولاده، وماتت رحمها الله، وبقي علي مضرة الزيرباجة، إذا أكلتها، غسلت يدي أربعين مرة.

القهرمان: وجمعه قهارة: مدير البيت، أو أمين الدخل والخرج، يونانية تفسر الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية ٥٩، وأصل عمل القهرمان في بلاط الخليفة، أن تؤدي الرسائل عن الخليفة، ولكن ضعف الخلفاء، واحتجاجهم في قصورهم، وتسلب النساء، أدى إلى سيطرة القهرمان.

وكانت خالصة جارية الخيزران، لها في البلاط العباسي مقام منذ أيام المنصور، فكانت تدخل على المنصور، وهو في مخدعه الطبري ٨ - ٧٢ وكانت ترسل بين سيدتها الخيزران والخلفاء الطبري ٨ - ٢٠٥ وكانت الخيزران تستشيرها في ما يجد لها من أمور الطبري ٨ - ٢٠٦ وكانت مدلة على سيدتها، جريئة عليها الطبري ٨ - ٢١٢ وكان مال الخيزران في حوزتها الطبري ٨ - ٢١٣ كما كان مال المهدي وهو ولي عهد في حوزتها أيضا الطبري ٨ - ٧٢.

وكان للمكتفي، داية اسمها فارس، نصبها قهرمان لما استخلف، وكانت تتدخل في نصب الوزراء وعزلهم القصة ٣ - ١٧١ من نشوار الخاضرة وفي دولة المقتدر، وكانت دولة السيدة أمه كتاب الوزراء للصايي ٣٠٨ أصبح للقهرمان سيطرة تامة على أمور الدولة، بحكم صلتها بالخليفة والسيدة، فكانت القهرمان تتدخل في ترشيح الوزراء وكبار العمال تجارب الأمم ١ - ٢١ و ٢٤ وفي عزلهم واعتقالهم تجارب الأمم ١ - ٤٠ وقد تحضر القهرمان عقوبة الوزير المعزول ١ - ٩٠ تجارب أو يعهد إليها الخلفة بتعذيب من يريد تعذيبه ١ - ٨٤ أو يعتقل لديها من يريد اعتقاله ١ - ٤٠ تجارب ومن شهرات القهرمانات في الدولة العباسية، فاطمة القهرمان، غرق بما طيارها في يوم ريح عاصف، تحت جسر بغداد في السنة ٢٩٩ - ١ - ٢٠ وأم موسى الهاشمية عينت قهرمان في قصر الخليفة في السنة ٢٩٩ - ١ - ٢٠ تجارب وسيطرت سيطرة عظيمة، بحيث أن صاحبها فرج النصرانية كان تحمل خاتم الخليفة لمن يعده بتوليته الوزارة الوزراء ٢٩٣ وانتهى أمر أم موسى بالاعتقال والمصادرة تجارب الأمم ١ - ٨٣، وزيدان القهرمان، اعتقل عندها الوزير علي بن عيسى لما عزل عن الوزارة ١ - ٤٠ تجارب، وبلغ من سطوتها، أن الوزير ابن الفرات كان يعنون رسائله إليها: يا أختي الوزراء ١٧٢، وتمثل القهرمان، وكانت موصوفة بالشر والإسراف في العقوبة تجارب الأمم ١ - ٨٤ وكانت تجلس للمظالم، وتنتظر في رفاع الناس، في كل جمعة، وتصدر عنها التوقيعات المنتظم ٦ - ١٤٨.

وكانت للقاهرة قهرمان اسمها اختيار، كانت هي السبب في استيزار محمد بن القاسم ابن عبيد الله تجارب الأمم ١ - ٢٦٠.

وعلم، قهرمان المستكفي، وكان اسمها حسن الشيرازية، أغرت أمير الأمراء توزون، فخلع المتقي وسمله، ونصب المستكفي خليفة بدلاً منه، وأصبحت علم، قهرمان الخليفة الجديد، فسيطرت على جميع مرافق الدولة وأمورها تجارب الأمم ٢ - ٧٥، وعندما اعتقل المستكفي اعتقلت علم معه تجارب ٢ - ٨٦ وسملت عينها، وقطع لسانها تجارب ٢ - ١٠٠.

وكان لعز الدولة، بختيار البويهى، قهرمان اسمها تحفة، تعقد الخالقات مع كبار الموظفين، لتحميهم، ثم يرشوها خصومهم، فتركهم إلى غيرهم تجارب الأمم ٢ - ٣٢١ - ٣٢٣.

وكانت للأخشيد بمصر، قهرمان اسمها سماية، بلغ من تأثيرها أن خصومة حصلت بين خليفة قاضي مصر الذي نصبه المطيع، وبين أحد الشهود، فأسقط القاضي شهادته، وأسجل بذلك، فشكا إليها الشاهد ذلك، فأحضرت



القاضي، وأمرته بإحضار السجل، فأحضره، فمزقت الحكم الذي أسجل فيه إسقاط شهادة الشاهد، وأصلحت بينهما، راجع ذلك في أخبار القضاة في كتاب الولاية للكندي ص ٥٦٨ .

وكانت وصال قهرمانه الخليفة القائم، تشترك في اختيار الوزراء المنتظم ٨ - ٢١١ و ٢٥٢ .  
ومن القهرمانات، نظم القهرمانه، التي ذكرها القاضي التوخي، في القصة ٤ - ٧٠ من نشوار المحاضرة.  
ومنهن الجارية، صاحبة هذه القصة، وكانت مملوكة للسيدة أم المقتدر، واشتهت أن تتصرف، وأن تخرج إلى خارج القصر، فقهرمتها السيدة، مما يدل على أن مبارحة قصر الخلافة محرم على الحرم، إلا على القهرمانه.

### إسحاق الموصلبي يتطفل ويقترح

حدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني رحمه الله تعالى، إملاء من حفظه، وكتبته عنه في أصول سماعتي منه، ولم يحضرنى كتابي فأنقله منه، فأثبتته من حفظي، وتوخيت ألفاظه بجهدني، قال: حدثني محمد بن يزيد بن أبي الأزهر، قال: حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلبي، قال: حدثني أبي، قال: غدوت يوماً، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة، والخدمة فيها، فركبت بكرة، وعزمت على أن أطوف الصحراء، وأتفرج بها.  
فقلت لغلماني: إن جاء رسول الخليفة، فعرفوه أي بكرة في مهم لي، وأنكم لا تعرفون أين توجهت.  
ومضيت، وطف ما بدا لي، ثم عدت وقد همى النهار، فوقف في شارع المخرم، في الظل، عند جناح رحب في الطريق، لأستريح.

فلم ألبث أن جاء خادم يقود حمراً فارهاً، عليه جارية راكبة، تحتها منديل ديبقي، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه، ورأيت لها قواماً حسناً، وطرفاً فائناً، وشمائل ظريفة، فحدست أنها مغنية.  
فدخلت الدار التي كنت واقفاً عليها، وعلقها قلبي في الوقت علوقاً شديداً، لم أستطع معه البراح.  
فلم ألبث إلا يسيراً، حتى أقبل رجلا شابان جميلان، لهما هيئة تدل على قدرهما، راكبان، فاستأذنا، فأذن لهما، فحملني حب الجارية على أن نزلت معهما، ودخلت بدخولهما، فظننا أن صاحب الدار دعاني، وظن صاحب الدار أي معهما.

فجلسنا، فأتي بالطعام فأكلنا، وبالشراب فوضع، وخرجت الجارية، وفي يدها عود، فرأيتها حسناء، وتمكن ما في قلبي منها، وغنت غناء صالحاً، وشربنا.

وقمت قومة للبول، فسأل صاحب المنزل من الفتيتين عني، فأخبراه أنهما لا يعرفاني، فقال: هذا طفيلي، ولكنه ظريف، فأجملوا عشرته.

وجئت، فجلست، وغنت الجارية في لحن لي:

ذكرتك إذ مرّت بنا أمّ شادن ... أمام المطايا تستريب وتطمح

من المولعات الرمل أدماء حرّة ... شعاع الضحى في منتها يتوضّح

فأدته أداءً صالحاً، ثم غنت أصواتاً فيها من صنعتي:

الطلول الدوارس ... فارقتها الأوانس

أوحشت بعد أهلها ... فهي قفر بسابس

فكان أثرها فيه أصلح من الأول، ثم غنت أصواتاً من القديم والحديث، وغنت في أضعافها من صنعتي، في

شعري:

قل لمن صدّ عاتبا ... ونأى عنك جانبا

قد بلغت الذي أرد ... ت وإن كنت لاعبا

واعترفنا بما أدّعي ... ت وإن كنت كاذبا

فكان أصلح ما غنته، فاستعدته منها لأصححه لها، فأقبل علي رجل منهم، فقال: ما رأيت طفيلياً أصفق منك وجهاً، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت، وهذا تصديق للمثل: طفيلي ويقترح، فأطرقت، ولم أجهه، وجعل صاحبه يكفه عني، فلا يكف.

ثم قاموا إلى الصلاة، وتأخرت، فأخذت العود وشددت طبقتيه، وأصلحته إصلاحاً محكماً، وعدت إلى موضعي، فصليت، وعادوا، وأخذ الرجل في عربدته علي، وأنا صامت.

وأخذت الجارية العود، وجسته، فأنكرت حاله، وقالت: من مس عودي؟ فقالوا: ما مسه أحد.

قالت: بلي، والله، قد مسه حاذق متقدم، وشد طبقتيه، وأصلحه إصلاحاً متمكناً من صنعته.

فقلت لها: أنا أصلحته.

قالت: بالله عليك، خذه، فاضرب به.

فأخذته، وضربت به مبدأً عجيباً، فيه نقرات محرّكة، فما بقي في المجلس أحد إلا وثب فجلس بين يدي.

وقالوا: بالله عليك يا سيدنا، أتغني؟ قلت: نعم، وأعرفكم نفسي أيضاً، أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وإني -

والله - لأتية على الخليفة، وأنتم تشتموني اليوم، لأنني تلمحت معكم بسبب هذه الجارية، ووالله، لا نطق

بحرف، ولا جلست معكم، أو تخرجوا هذا المعاند.

ونفضت لأخرج، فتعلقوا بي، فلم أرجع، فلحقتني الجارية، فتعلقت بي، فلنت، وقلت: لا أجلس، حتى تخرجوا

هذا البغيض.

فقال له صاحبه: من هذا كنت أخاف عليك، فأخذ يعتذر.

فقلت: أجلس، ولكني، والله، لا أنطق بحرف وهو حاضر، فأخذوا بيده، فأخرجوه.

فبدأت أغني الأصوات التي غنتها الجارية من صنعتي، فطرب صاحب البيت طرباً شديداً، وقال: هل لك في أمر

أعرضه عليك؟ فقلت: وما هو؟ قال: تقيم عندي شهراً، والجارية لك بما لها من كسوة.

فقلت: أفعل.

فأقمت عنده ثلاثين يوماً، لا يعرف أحد أين أنا، والمأمون يطلبني في كل موضع، فلا يعرف لي خبراً.

فلما كان بعد ذلك، سلم إلي الجارية والخدام، وجئت بها إلى منزلي، وكان أهل منزلي في أقبح صورة لتأخري

عنهم.

وركبت إلى المأمون من وقتي، فلما رأي، قال لي: يا إسحاق، ويحك، أين كنت؟ فأخبرته بخبري.

فقال: علي بالرجل الساعة، فدللتهم على بيته، فأحضر، فسأله المأمون عن القصة، فأخبره بما.

فقال: أنت ذو مروءة، وسبيلك أن تعان عليها، فأمر له بمائة ألف درهم.

وقال: لا تعاشر ذلك المعربد السفيل.

فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين .

وأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال لي: أحضر الجارية، فأحضرته إياها، فغنته.  
فقال لي: قد جعلت لها نوية كل يوم ثلاثاء، تغنيني من وراء الستارة، مع الجوارى، وأمر لها بخمسين ألف درهم.  
فربحت - والله - بتلك الركبة، وأربحت.

### أنت طالق إن لم تكوئي أحسن من القمر

ووجدت في بعض الكتب: أن عيسى بن موسى، كان يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق، إن لم  
تكوئي أحسن من القمر .

فنهضت، واحتجبت عنه، وقالت: قد طلقيني، فبات بليلة عظيمة.

فلما أصبح غدا إلى المنصور، وأخبره الخبر، وقال: يا أمير المؤمنين، إن تم طلاقها، تلفت نفسي غماً، وكان  
الموت أحب إلي من الحياة.

وظهر للمنصور منه جزع شديد، فأحضر الفقهاء، واستفتاهم، فقال جميع من حضر، قد طلقت، إلا رجلاً من  
أصحاب أبي حنيفة، فإنه سكت.

فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ .

فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، والتين والزيتون، وطور سين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان في أحسن  
تقويم، فلا شيء أحسن من الإنسان.

فقال المنصور لعيسى بن موسى: قد فرج الله تعالى عنك، والأمر كما قال، فأقم على زوجتك.  
وراسلها أن أطيعي زوجك، فما طلقت .

ما ثمانية وأربعة واثنان

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني، قال: أخبرني أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، قال: حدثني أبي، قال:

حدثني أحمد بن عبيد، عن الهيثم بن عدي، عن عبد الملك بن عمير، قال: قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة،

فأرسل إلى عشرة، أنا أحدهم، من وجوه أهل الكوفة، فسمرنا عنده.

ثم قال: يحدثني كل رجل منكم أحدثاً، وأبدأ أنت يا أبا عمرو.

فقلت: أصلح الله الأمير، أحدث الحق، أم حديث الباطل؟ فقال: بل حديث الحق .

فقلت: إن أمرء القيس بن حجر الكندي، آلي ألية، أن لا يتزوج بامرأة حتى يسألها عن ثمانية، وأربعة، واثنين،

فجعل يخطب النساء، فإذا سأهن عنها، قلن: أربعة عشر .

فبينما هو يسير في الليل، وإذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة، كأنها القمر لثمه، فأعجبته .

فقال لها: يا جارية، ما ثمانية، وأربعة، واثنان؟ فقالت: أما الثمانية: فأطباء الكلبة، وأما الأربعة: فأخلاف الناقة،

وأما الاثنان: فتديا المرأة.

فخطبها من أبيها، فزوجه منها، واشترطت هي عليه، أن تسأله ليلة يأتيها، عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك،

على نفسه، وعلى أن يسوق لها مائة من الإبل، وعشرة أعبد، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس، ففعل ذلك.

ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة، وأهدى إليها نخباً من سمن، ونخباً من عسل، وحلّة من قصب .  
فنزل العبد ببعض المياه، فنشر الحلّة، ولبسها، فتعلقت بشجرة فانشقت، وفتح النحيين، وأطعم أهل الماء منهما.  
ثم قدم على حي المرأة وهم خلوف، فسألها عن أبيها، وأمها، وأخيها، ودفع إليها هديتها.  
فقالت: أعلم مولاك، أن أبي ذهب يقرب بعيداً، ويبعد قريباً، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين، وأن أخي  
يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعائكما نضبا.  
فقدم الغلام على مولاها، وأخبره بما قالت .

فقال: أما قولها: ذهب أبي يقرب بعيداً، ويبعد قريباً، فإن أباهما ذهب يحالف قوماً على قومه .  
وأما قولها: ذهبت أمي تشق النفس نفسين، فإن أمها ذهبت تقبل امرأة.  
وأما قولها: إن أخي يراعي الشمس، فإن أخاها في سرح له يراها، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح.  
وأما قولها: إن سماءكم انشقت، فإن الحلّة التي بعثت بها معك انشقت.  
وأما قولها: إن وعائكما نضبا، فإن النحيين الذين بعثت بهما نقصا، فأصدقني .  
فقال: يا مولاي، إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسي، فأخبرتهم أني ابن عمك، ونشرت الحلّة  
فلبستها، وتجملت بها، فعلقت بشجرة، فانشقت، وفتحت النحيين، فأطعمت منهما أهل الماء .  
فقال: أولى لك .

ثم ساق مائة من الإبل، وخرج نحوها، ومعه الغلام، فنزلا منزلاً .  
فقام الغلام ليسقي، فعجز، فأعانه امرؤ القيس، فرمى به الغلام في البئر، وانصرف حتى أتى المرأة بالإبل،  
فأخبرهم أنه زوجها.  
فقيل لها: قد جاء زوجك .  
فقالت: والله، لا أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزوراً، وأطعموه من درتها وذنبها، ففعلوا، فأكل ما  
أطعموه .

فقالت: اسقوه لبناً حازراً وهو الحامض، فشرب .  
فقالت: أفرشوا له عند الفرث والدم، ففرشوا له، فنام .  
فلما أصبحت، أرسلت إليه: إني أريد أن أسألك .  
فقال: سلي عما بدا لك .

فقالت: مم يختلج شفتاك؟ فقال: لتقبيلي فاك .  
فقالت: مم يختلج كشحك؟ قال: لالتزامي إياك .  
فقالت: مم يختلج فخذاك؟ فقال: لتوركي إياك .  
فقالت: عليكم بالبعد، فشدوا أيديكم به، ففعلوا .  
قال: ومر قوم، فاستخرجوا امرؤ القيس من البئر، فرجع إلى حيه، واستاق مائة من الإبل، وأقبل إلى امرأته.  
فقيل لها: قد جاء زوجك .

فقالت: والله، ما أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزوراً، وأطعموه من كرشها وذنبها، ففعلوا، فلما  
أتوه بذلك، قال: أين الكبد والسنام والملحة، وأبي أن يأكل .

فقلت: أسقوه لبناً حاراً، فأبى أن يشرب، وقال: أين الضرب والزبد؟ فقلت: افرشوا له عند الفرث والدم، فأبى أن ينام، وقال: افرشوا لي فوق التلعة الحمراء، واضربوا لي عليها خباء.  
ثم أرسلت إليه تقول: هات شرطي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها سلمي عما شئت.  
فقلت: مم تختلج شفتاك؟ قال: لشربي المشعشات.  
قلت: مم يختلج كشحك؟ قال: للبسي الحبرات.  
قلت: فمم يختلج فخذاك؟ قال: لركوبي السابقات.  
فقلت: هذا هو زوجي، فعليكم به، واقتلوا العبد، فقتلوه، وأقبل امرؤ القيس على الجارية.  
فقال ابن هبيرة: لا خير في سائر الحديث الليلة، بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن يأتينا أحد بأعجب منه، فقمنا، وانصرفنا، وأمر لي بجائزة.

### أخبار قيس ولبنى

وجدت في كتاب الأغاني الكبير، لأبي الفرج المعروف بالأصبهاني، الذي أجاز لي روايته، في جملة ما أجاز لي، أخبار قيس بن ذريح اللبي، فقال في صدرها: أخبرني ببحر قيس بن ذريح ولبنى امرأته، جماعة من مشايخنا، في قصص متصلة ومتقطعة، وأخبار منظومة ومنثورة، فألفت جميع ذلك ليتسق حديثه، إلا ما جاء منفرداً، وحسن إخراجها عن جملة النظم، فذكرته على حدته.  
فمن أخبرنا ببحره أحمد بن عبد العزيز الجوهري، قال: حدثنا عمر بن شبة، ولم يتجاوز به إلى غيره، وإبراهيم بن محمد بن أيوب عن ابن قتيبة.  
والحسن بن علي عن محمد بن أبي السري، عن هشام محمد الكلبي، وعلى روايته أكثر المعول.

ونسخت أيضاً من أخباره المنظومة، أشياء ذكرها القحذمي، عن رجاله، وخالد بن كلثوم عن نفسه، ومن روى عنه، وخالد بن جميل.

ونثفاً حكاها اليوسفي صاحب الرسائل، عن أبيه، عن أحمد بن حماد، عن جميل، عن ابن أبي جناح الكعبي، وحكى كل متفق فيه متصلاً، وكل مختلف في معانيه منسوباً إلى راويه، قالوا جميعاً: كان منزل في ظاهر المدينة لذريح، وهو أبو قيس، وكان هو وأبوه من حاضرة المدينة.  
فمر قيس في بعض حوائجه، ذات يوم، بحى من بني كعب بن خزاعة، والحى خلوف، فوقف على خباء لبني بنت الحباب الكعبية، واستسقى ماء، فسقته، وخرجت إليه به، وكانت امرأة مديدة القامة، شهلاء، حلوة المنظر والكلام، فلما رآها وقعت في نفسه، وشرب من الماء.  
فقلت له: أتزل عندنا؟ قال: نعم، فنزل بهم، وجاء أبوها، فنحز له وأكرمه.

وانصرف قيس، وفي قلبه من لبني حر لا يطفأ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع خبره، وروي شعره فيها.  
وأثاها يوماً آخر، وقد اشتد وجده بما، فسلم، فظهرت له، وردت سلامه، ورحبت به، فشكى إليها ما يجد بما، وما يلقي من حبه، فبكت وشكت إليه مثل ذلك، فعرف كل واحد منهما، ما له عند صاحبه.  
ثم انصرف إلى أبيه، فأعلمه بحاله، وسأله أن يزوجه إياها، فأبى عليه، وقال له: يا بني عليك يا حدى بنات عمك،

فهن أحق بك، وكان ذريح كثير المال، وأحب أن لا يخرج ماله إلى غريبة .  
فانصرف قيس، وقد ساءه ما خاطبه به أبوه، فأتى أمه وشكى ذلك إليها، واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يجب .

فأتى الحسين بن علي، سلام الله عليهما، فشكى ما به، فقال له الحسين: أنا أكفيك .  
فمضى معه إلى أبي لبني، فلما بصر به، وثب إليه، وأعظمه، وقال: يا ابن رسول الله، ما جاء بك إلي؟ ألا بعثت إلي فأتيتك؟ قال: قد جئتك خاطباً ابنتك لبني، لقيس بن ذريح، وقد عرفت مكانه مني .  
فقال: يا ابن بنت رسول الله، ما كنت لأعصى لك أمراً، وما بنا عن الفتى رغبة، ولكن أحب الأمرين إلينا، أن يخطبها ذريح علينا، وأن يكون ذلك عن أمره، فإننا نخاف أن يسمع أبوه بهذا، فيكون عاراً ومسبة علينا .  
فأتى الحسين سلام الله عليه ذريحاً، وقومه مجتمعون، فقاموا إليه وقالوا له مثل قول الخزاعي .  
فقال: يا ذريح، أقسمت عليك بحقي، إلا خطبت لبني لابنك قيس .  
فقال: السمع والطاعة لأمرك .

وخرج معه في وجوه قومه، حتى أتى حي لبني، فخطبها ذريح من أبيها على ابنه قيس، فزوجه بها، وزفت إليه .  
فأقام معها مدة، لا ينكر أحدهما من صاحبه شيئاً .  
وكان قيس أبر الناس بأمه، فأهته لبني وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمه في نفسها، وقالت: لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بري .

ولم تر للكلام موضعاً حتى مرض قيس مرضاً شديداً، فلما برئ، قالت أمه لأبيه: لقد خشيت أن يموت قيس ولم يترك خلفاً، وقد حرم الولد من هذه المرأة، وأنت ذو مال، فيصير مالك إلى الكلاله، فزوجه غيرها، لعل الله عز وجل يرزقه ولداً، وألحت عليه في ذلك .

فأمهل ذريح حتى اجتمع قومه، ثم قال له: يا قيس، إنك اعتللت هذه العلة ولا ولد لك، ولا لي سواك، وهذه المرأة ليست بولود، فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله تعالى أن يهب لك ولداً تقر به عينك وأعيننا .  
فقال قيس: لست متزوجاً غيرها أبداً .

فقال أبوه: يا بني، فإن مالي كثير، فتسر بالإماء .

فقال: ولا أسوؤها بشيء أبداً .

قال أبوه: فإني أقسم عليك إلا طلقته .

فأبى، وقال: الموت - والله - أسهل علي من ذلك، ولكني أخيرك خصلة من خصال .

فقال: وما هي؟ قال: تتزوج أنت، فلعل الله عز وجل أن يرزقك ولداً غيري .

فقال: ما في فضل لذلك .

قال: فدعني أرحل عنك بأهلي، وأصنع ما كنت صانعاً، لو كنت مت في عتلي هذه .

فقال: ولا هذا .

قال: فادع لبني عندك، وأرتحل عنك إلى أن أسلوها، فإني ما تحب نفسي أن أعيش، وتكون لبني غائبة عني أبداً،

وأن لا تكون في حبالتي .

فقال: لا أرضى بذلك، أو تطلقها، وحلف لا يكنه سقف بيت أبداً، حتى يطلق لبني .

وكان يخرج فيقف في حر الشمس، ويجيء قيس فيقف إلى جانبه، فيظله بردائه، ويصلى هو بحر الشمس، حتى يفيء الفيء عنه، وينصرف إلى لبنى، فيعانقها، ويبكي، وتبكي معه.  
وتقول له: يا قيس، لا تطع أباك، فتهلك، وتهلكني معك.  
فيقول لها: ما كنت لأطيع أحداً فيك أبداً.

فيقال: إنه مكث كذلك سنة، ثم طلقها لأجل والده، فلم يطق الصبر عنها.  
قال ابن جريج: أخبرت أن عبد الله بن صفوان لقي ذريحاً أبا قيس، فقال له: ما حملك على أن فرقت بين قيس ولبنى، أما علمت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: ما أبالي فرقت بين الرجل وامرأته، أو مشيت إليهما بالسيف.

وروى هذا الحديث، إبراهيم بن يسار الرمادي، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، قال: قال الحسين بن علي عليهما السلام لذريح بن سنة، أبي قيس: أحل لك أن فرقت بين قيس ولبنى، أما أي سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: ما أبالي فرقت بين الرجل وامرأته، أو مشيت إليهما بالسيف.  
قال أبو الفرج: أخبرني محمد بن خلف، وكيع، قال: حدثني محمد بن زهير، قال: حدثنا يحيى بن معين، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا ابن جريج، قال: أخبرنا عمر بن أبي نصر، عن ليث بن عمرو، أنه سمع قيس بن ذريح يقول ليزيد بن سليمان: هجري أبوي، إثنى عشرة سنة، أستأذن عليهما، فيرداني، حتى طلقتهما.  
قالوا: فلما بانت لبنى منه، بطلاقه إياها، وفرغ من الكلام، لم يلبث حتى استطير عقله، ولحقه مثل الجنون، وجعل يبكي وينشج أحر نشيج، وبلغها الخبر، فأرسلت إلى أبيها ليحملها، وقيل: أقامت حتى انقضت عدتها، وقيس يدخل إليها، فأرسلت إلى أبيها ليحملها، فأقبل أبوها بهودج على ناقه، ومعه إبل، ليحمل أاثها.  
فلما رأى قيس ذلك، أقبل على جاريتها، وقال: ويحك، ما دهاني فيكم؟ فقالت: لا تسألني، وسل لبنى. فذهب ليلم بجائها، فمنعه قومها، وأقبلت عليه امرأة من قومها، وقالت: ويحك تسأل، كأنك جاهل أو متجاهل، هذه لبنى ترحل الليلة أو غداً.

فسقط مغشياً عليه، ثم أفاق، وبكى بكاءً كثيراً، ثم أنشأ يقول:  
وإني لمفن دمع عيني بالبكا ... حذار الذي قد كان أو هو كائن  
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلة ... فراق حبيب لم بين وهو بائن  
وما كنت أخشى أن تكون مني ... بكفئك إلا أن ما حان حائن  
قال أبو الفرج: في هذه الأبيات غناء، ولها أخبار قد ذكرت في أخبار المجنون قيس بن الملوح، مجنون بني عامر، ثم ذكر أبو الفرج بعد هذا عدة قطع من شعر قيس بن ذريح.  
ثم قال: قالوا: فلما ارتحل بما أبوها إلى قومها، أتبعها ملياً، ثم علم أن أباه يسوءه أن يسير معها، ويمنعه ذلك، فوقف ينظر إليها ويبكي، حتى غابوا عن عينيه، ففكر راجعاً، فنظر إلى أثر خف بعيرها، فأكب عليه يقبله، ورجع يقبل موضع مجلسها، وأثر قدميها، فليم على ذلك، وعنفه قومه في تقبيل التراب، فقال:  
وما أحببت أرضكم ولكن ... أقبّل إثر من وطئ الترابا  
لقد لاقيت من كلني بلبنى ... بلاء ما أسيغ له شرابا

إذا نادى المنادي بأسم لبني ... عييت فما أطيق له جوابا  
ثم ذكر أبو الفرج قطعاً من شعر قيس، وأخباراً من أخباره منشورة، بأسانيد مفردة على الإسناد الذي روته  
عنه ههنا، ثم رجع إلى مواضع من الحديث الذي جمع فيه من أسانيد، وأتى بسياقة يطول علي أن أذكرها في  
كتابي هذا، جملتها عظيم ما لحق قيس من التملل، والسهر، والحزن، والأسفار، والبكاء العظيم، والجزع  
المفرط، وإلصاق خده بالأرض على آثارها، وخروجه في أثرها، وشم رائحتها، وعتابه نفسه في طاعة أبيه على  
طلاقها.

ثم اعتل علة أشرف منها على الموت، فجمع له أبوه فتيات الحي يعلنه، ويحدثه، طمعاً في أن يسلو عن لبني،  
ويعلق بواحدة منهن، فيزوجه منها، فلم يفعل، وقصة له مع طبيب أحضر له، وقطع شعر كثيرة لقيس في خلال  
ذلك.

ثم إن أبا لبني شكاً قيساً إلى معاوية بن أبي سفيان، وذكر تعرضه لها بعد الطلاق.  
فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم بهدر دمه إن تعرض لها، فكتب مروان بذلك إلى صاحب الماء.  
ثم إن أباهما زوجها، فبلغ ذلك قيساً، فاشتد جزعه، وجعل يبكي أشد بكاء، وأتى حلة قومها، فنزل عن راحلته،  
وجعل يتعمد في موضعها، ويمرغ خده على ترابها، ويبكي أحر بكاء، ثم قال قصيدته التي رواها أبو الفرج، التي  
أولها:

إلى الله أشكو فقد لبني كما شكاً ... إلى الله فقد الوالدين يتيم

وذكر بعد هذا أخباراً له معها، واجتماعات عفيفة كانت بينهما، بحيل طريفة، ووجدتها به، وبكائها في طلاقها،  
وإنكار زوجها - الذي تزوجها بعد قيس - ذلك عليها، ومكاشفتها له، وعلة أخرى لحقت قيساً، واشتهارهما،  
وافتنضاحهما، وما لحق قيساً ولبني من الخبل، واختلال العقل، وقطع شعر كثيرة لقيس أيضاً في خلال ذلك،  
وأن قيساً مضى إلى ابن أبي عتيق، فمضى به إلى يزيد بن معاوية، ومدحه وشكى إليه ما جرى عليه، فرق له،  
ورحمه، وأخذ له كتاب أبيه بأن يقيم حيث أحب، ولا يعترض له أحد، وأزال ما كتب به إلى مروان، من هدر  
دمه، وقطع شعر كثيرة أخرى لقيس في خلال ذلك، وأخبار مفردة، ومفصلة.

ثم قال: وقد اختلف في أكثر أمر قيس ولبني وذكر كلاماً يسيراً في ذلك، والجميع في نيف وعشرين ورقة.  
وذكر القحذمي: أن ابن أبي عتيق، صار إلى الحسين بن علي، وجماعة من قريش وقال لهم: إن لي حاجة أحب أن  
تقضوها، وأنا أستعين بجاهكم وأموالكم عليها.

قالوا: ذلك مبذول لك منا، فاجتمعوا بيوم وعدهم فيه، فمضى بهم إلى زوج لبني، فلما رأهم، أعظم مسيرهم  
إليه، وأكبره.

فقالوا: قد جنناك بأجمعنا في حاجة لابن أبي عتيق.

فقال: هي مقضية كائنة ما كانت.

فقال له ابن أبي عتيق: قد قضيتها كائنة ما كانت؟ قال: نعم.

قال: تهب لي اليوم لبني زوجتك، وتطلقها ثلاثاً.

قال: فإني أشهدكم أنها طالق ثلاثاً.



فاستحيا القوم، واعتذروا، وقالوا: والله، ما عرفنا حاجته، ولو علمنا أنها هذه، ما سألناك إياها.  
قال ابن أبي عائشة: فعوضه الحسين بن علي عليهما السلام عن ذلك مائة ألف درهم.  
وحمل ابن أبي عتيق، لبنى معه، فلم تنزل عنده، حتى انقضت عدتها، وسأل القوم أباهما، فزوجها قيساً، ولم تنزل  
معه حتى مات.

فقال قيس يمدح ابن أبي عتيق:  
جزى الرحمن أفضل ما يجازي ... على الإحسان خيراً من صديق  
فقد جرّبت إخواني جميعاً ... فما ألفت كابن أبي عتيق  
سعى في جمع شملي بعد صدع ... ورأي حدث فيه عن الطريق  
وأطفأ لوعة كانت بقلبي ... أغصّني حرارتها بريقي  
قال: فقال له ابن أبي عتيق: يا حبيبي، أمسك عن هذا الحديث، فما سمعه أحد إلا ظنني قواداً.

### عشق جارية زوجته فوهبتها له

ووجدت في بعض كني: قال أبو عبد الله محمد بن علي بن حمزة: كانت لزوجتي جارية حسنة الوجه، فعلقته،  
وعلمت زوجتي بذلك، فحجبتها عني، فاشتد ما بي من الوجد عليها، وقاسيت شدة شديدة.  
فبينما أنا ذات ليلة نائم، ومولاهما زوجتي إلى جانبي، إذ رأيت في منامي كأن الجارية حيالي، وأنا أبكي، إذ لاح لي  
إنسان فأنشدني:

وقفت حيالك أذري الدموع ... وأخلط بالدمع مني دما  
وأشكو الذي بي إلى عاذلي ... ولا خير في الحب أن يكتما  
رضيت بما ليس فيه رضا ... بتسليم طرفك إن سلّما  
فتهت عليّ وأقصيتني ... وأعزز عليّ بأن أرغما  
قال: فانتبهت فرعاً مرعوباً، ودعوت بدواة وقرطاس، وجلست في فراشي، وكتبت الشعر.  
فقالت لي زوجتي: ماذا تصنع؟ فقصصت عليها القصة والرؤيا.  
فقالت: هذا كله من حب فلانة؟ قد وهبتها لك.

بالله يا طريفي الجاني على كبدي

أخبرني أبو الفرج الأصبهاني إجازة، قال: أخبرني عمي الحسن بن محمد، قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد، قال:  
حدثنا محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي، قال: حدثنا معبد الصغير المغني، مولى علي بن يقطين، قال: كنت  
منقطعاً إلى البرامكة، فبينما أنا ذات يوم في منزلي، وإذا بابي يدق، فخرج غلامي ثم رجع إلي.  
فقال: على الباب فتى ظاهر المروءة، يستأذن عليك.

فأذنت له، فدخل علي شاب، ما رأيت أحسن منه وجهاً، ولا أنظف ثوباً، ولا أجمل زياً، عليه أثر السقم ظاهر.  
فقال لي: يا سيدي أنا منذ مدة أحاول لقاءك، ولا أجد إليه سبيلاً، ولي إليك حاجة.  
قلت: ما هي؟ فأخرج إلي ثلثمائة دينار، فوضعها بين يدي.  
ثم قال: أسألك أن تقبلها، وتصنع في بيتين قلتهما لحناً تغنيني به.

فقلت له: هاتهما، فأشدني:

بالله يا طري الجاني على كبدي ... لتطفنّ بدمعي لوعة الحزن  
أولا تؤخر حتى يجبوا سكني ... فلا أراه ولو أدرجت في كفني

قال: فصنعت فيهما لحناً، ثقيل أول، مطلق في مجرى الوسطى، ثم غنيتة إياه، فأغمي عليه، حتى ظننته قد مات.  
ثم أفاق، فقال: أعد فديتك.  
قلت: أحشى أن تموت.

فقال: هيهات، هيهات، أنا أشقى من ذلك، فأعد علي.  
وما زال يخضع ويتضرع، حتى أعدته، فصعق صعقة أشد من الأولى، حتى ظننت نفسه قد فاظت، فلما أفاق،  
رددت عليه الدنانير.

وقلت له: خذ دنانيرك، وانصرف عني، فقد قضيت حاجتك، وبلغت وطراً مما أردته، ولست أحب أن أشارك  
في دمك.

فقال: لا حاجة لي في الدنانير، وهذه مثلها لك، وأخرج ثلاثمائة دينار أخرى.

وقال: أعد علي الصوت مرة أخرى، وحلال لك دمي.

فقلت: لا والله، إلا على شرط.

قال: وما هو؟ قلت: تقيم عندي، وتتحرم بطعامي وتشرب أقداحاً من النبيذ تشد قلبك، وتسكن بعض ما  
بك، وتحديثي بقصتك.

فقال: أفعل.

فأخذت الدنانير، ودعوت بطعام، فأصاب منه، وبالنبيذ، فشرب أقداحاً، وغنيتة بشعر غيره في معناه، وهو  
يشرب ويبيكي.

ثم قال: الشرط، أعزك الله، فغنيتة صوته، فجعل يبكي أحر بكاء، ويتحب.

فلما رأيت ما به قد خف عما كان يلحقه، والنبيذ قد شد من قوته، كررت عليه صوته مراراً، ثم قلت له:  
حدثني حديثك.

فقال: أنا رجل من أهل المدينة، خرجت يوماً متنزهاً في ظاهرها، وقد سال العقيق، في فتية وأقران، فبصرنا  
بفتيات قد خرجن لمثل ما خرجنا نحن له، فجلسن قريباً منا.

ونظرت بينهن إلى فتاة كأنها قضيب بان قد طله الندى، تنظر بعينين، ما ارتد طرفهما إلا بنفس من يلاحظهما،  
فأطلنا وأطلن، حتى تفرق الناس.

وانصرفنا، وقد أبقيت بقلبي جرحاً بطيئاً اندماله، فسرت إلى منزلي وأنا وقيذ.

وخرجت من غد إلى العقيق، وليس فيه أحد، فلم أر لها أثراً، ثم جعلت أتبعها في طرق المدينة وأسواقها، فكان  
الأرض ابتلعتهما، وسقمت، حتى يئس مني أهلي.

فأعلمت زوجة أبي بذلك، فقالت: لا بأس عليك، هذه أيام الربيع قد أقبلت، وهي سنة خصب، والساعة يأتي  
المطر، فتخرج وأخرج معك، فإن النسوة سيجنن، فإذا رأيتها أتبعتهما، حتى أعرف موضعها، ثم أصل بينكما،

وأسعى لك في تزويجها.

قال: فكأن نفسي اطمأنت، ورجعت، وجاء المطر، وسال العقيق، وخرجت مع إخواني إليه، وزوجة أبي معنا، فجلسنا مجلسنا الأول، فما كنا والنسوة إلا كفرنسي رهان، فأومأت إلى زوجة أبي، فجلست قريباً منها.

وأقبلت على إخواني، فقلت لهم: أحسن والله القائل، إذ يقول:

رمتني بسهم أقصد القلب وانثنت ... وقد غادرت جرحاً به وندوبا

فاقبلت على صويجاتها، وقالت: أحسن والله القائل، وأحسن من أجابه حيث يقول:

بنا مثل ما تشكو فصيراً لعلنا ... نرى فرجاً يشفي السقام قريباً

قال: فأمسكت عن الجواب، خوفاً أن يظهر مني ما يفضحني وإياها، وانصرفنا.

وتبعته زوجة أبي، حتى عرفت بيتها، وصارت إلي، وأخذت بيدي، ومضينا إليها، وتزاورنا، وتلاقينا على حال مراقبة ومحالسة.

حتى ظهر ما بيني وبينها، فحجبتها أهلها، وتشدد عليها أبوها، فلم أقدر عليها.

فشكوت إلى أبي شدة ما نالني، وشدة ما ألقى، وسألته خطبتها.

فمضيت أنا وأبي ومشيحة قومي إلى أبيها، فخطبها، فقال: لو كان بدأ بهذا من قبل أن يشهرها، لأسعفناه

بما حبه وبما ألتمس، لكنه قد فضحها، فلم أكن لأحقق قول الناس فيها بتزويجها إياها، فانصرفت على يأس منها ومن نفسي، قال معبد: فسألته أن ينزل بقربي، فأجابني، وصارت بيننا عشرة.

ثم جلس جعفر بن يحيى يوماً للشرب، فأتيته، فكان أول صوت غنيته بشعر الفتى، فطرب عليه طرباً شديداً، وقال: ويحك لمن هذا الصوت؟ فحدثته فأمر بإحضار الفتى، فأحضر في وقته، فاستعاده الحديث، فأعاده.

فقال له: هي في ذمتي، حتى أزوجك بما فطابت نفسي ونفس الفتى، وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح.

وغدا جعفر إلى الرشيد، فحدثه الحديث، فعجب منه، وأمر بإحضارنا جميعاً، وأمر بأن أغنيه الصوت، فغنيت، وشرب عليه، وسمع حديث الفتى.

فأمر من وقته، بأن يكتب إلى عامل الحجاز، باشخاص الرجل وابنته، وسائر أهله إلى حضرته.

فلم تمض إلا مسافة الطريق، حتى أحضر، فأمر الرشيد بإحضاره إليه، فأوصل، وخطب إليه الجارية للفتى،

فأجابه، فزوجه إياها، وحمل الرشيد إليه ألف دينار مهرها، وألف دينار لجهازها، وألف دينار لنفقتها، في طريقه، وأمر للفتى بألفي دينار.

وكان المديني بعد ذلك من جملة ندمائه.

به من غير دانه وهو صالح

أخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، قال: حدثني محمد بن يزيد بن أبي الأزهر، قال: حدثنا حماد بن إسحاق،

قال: حدثني أبي، قال: سرت إلى سر من رأى بعد قدمي من الحج، فدخلت إلى الواثق بالله، فقال: بأي شيء

أطرفني من الأحاديث التي استفدتها من الأعراب وأشعارهم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين جلس إلي فتى من

الأعراب في بعض المنازل، فحاورني، فرأيت منه أحلى ما رأيت من الفتيان، منظرًا، وحديثًا، وظرفًا، وأدبًا.

فاستنشدته، فأنشدني:

سقى العلم الفرد الذي في ظلاله ... غزالان مكتنآن مؤتلفان

إذا أمتنا ألتفًا بجيد تواصل ... وطرفاهما للريب مسترقان

أردتُما ختلاً فلم أستطعهما ... ورمياً ففاتاني وقد قتلاي

ثم تنفس تنفساً، ظننت أنه قد قطع حيازيمه.

فقلت له: ما لك بأبي أنت؟ فقال: وراء هذين الجبلين شجني، وقد حيل بيني وبين المرور بهذه البلاد، ونذروا

دمي، فأنا أتمتع بالنظر إلى هذين الجبلين، تعللاً بهما، إذا قدم الحاج، ثم يحال بيني وبين ذلك.

فقلت له: زدني مما قلت، فأنشدني:

إذا ما وردت الماء في بعض أهله ... حضور فعرض بي كأنتك مزاح

فإن سألت عني حضور فقل لها: ... به غير من دانه وهو صالح

فأمرني الوراق، فكتبت الشعرين.

فلما كان بعد أيام دعاني، فقال لي: قد صنع بعض عجائز دارنا في أحد الشعرين لحناً، فاسمعه، فإن ارتضيته

أظهرناه، وإن رأيت فيه موضع إصلاح أصلحناه.

ثم غني لنا به من وراء الستارة، فكان في غاية الجودة، وكذلك كان يصنع إذا وضع لحناً.

فقلت له: أحسن - والله - صانعه، يا أمير المؤمنين.

فقال: بحياتي؟ فقلت: إي وحياتك، وحلفت له بما وثق به.

فأمر لي برطل، فشربته، ثم أخذ العود، فغناه ثلاث مرات، وسقاني عليه ثلاثة أرطال، وأمر لي بثلاثين ألف

درهم.

فلما كان بعد أيام، دعاني فقال: قد صنع بعض عجائز دارنا في الشعر الآخر لحناً، وأمر فغني به، فكان حالي

مثل الحال في الشعر الأول، وحلفت له على جودته، فغناه ثلاث مرات، وسقاني ثلاثة أرطال، وأمر لي بثلاثين

ألف درهم.

ثم قال: هل قضيت حق حديثك؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك، وأتم نعمته عليك.

فقال: ولكنك لم تقض حق الأعرابي، ولا سألتني معونته على أمره؟ وقد سبقت مسألتك، وكتبت بخبره إلى

صاحب الحجاز، وأمرته بتجهيزه، وخطبة المرأة له، وحمل صداقها إلى قومها عنه من مالنا، ففعل.

فقبلت يده، وقلت: السبق إلى المكارم لك، وأنت أولي بها من غيرك من سائر الناس.

قال: أبو الفرج: وصنعة الوراق في الشعرين جميعاً من الرمل.

عمر بن أبي ربيعة والجعد بن مهجع العذري

وحدثني أبو الفرج القرشي، المعروف بالأصبهاني، قال: نسخت من كتاب محمد بن موسى بن حماد، قال: ذكر

الرياشي قال: قال حماد الراوية: أتيت في مكة، إلى حلقة فيها عمر بن أبي ربيعة المخزومي، فتذاكرنا العذريين،

وقال عمر بن أبي ربيعة: كان لي صديق من بني عذرة يقال له: الجعد بن مهجع، وكان أحد بني سلامان، وكان

يلقى من الصباية، مثل الذي ألقاه بالنساء، على أنه كان لا عاهر الخلوة، ولا سريع السلوة.

وكان يوافي الموسم في كل سنة، فإذا غاب عن وقته، ترجحت عنه الأخبار، وتوكت له الأسفار، حتى يقدم.

فغمني ذات سنة إبطاؤه، حتى قدم حاج عذرة، فأتيت القوم أنشد صاحبي، فإذا غلام قد تنفس الصعداء، وقال:  
عن أبي المسهر تسأل؟ قلت: نعم، وإياه أردت.

فقال: هيهات، هيهات، أصبح - والله - أبو المسهر، لا ميؤوس منه فيهمل، ولا مرجو فيعلل، أصبح - والله -  
كما قال القائل:

لعمرى ما حَبِّي لأسماء تاركي ... أعيش ولا أقضي به فأموت  
فقلت: ما الذي به؟ فقال: مثل الذي بك، من هتكتكما في الضلال، وجر كما أذيال الخسار، كأنكما لم تسمعا  
بجينة ولا نار.

فقلت: ومن أنت منه، يا ابن أخي؟ قال: أخوه.

فقلت له: يا ابن أخي، ما منعك أن تسلك مسلكه من الأدب، وأن تترك منه مركبه إلا أنك وإياه كالبيجاد  
والبرد، لا ترقععه ولا يرقعك.  
ثم صرفت وجه ناقتي، وأنا أقول:

أرائحة حجاج عذرة وجهة ... ولما يرح في القوم جعد بن مهجع  
خليلان نشكو ما نلاقي من الهوى ... متى ما يقل أسمع وإن قلت يسمع  
ألا ليت شعري أي شيء أصابه ... فلي زفرات هجن ما بين أضلعي  
فلا يبعثك الله خلاً فأني ... سألقى كما لاقيت في الحب مصرعي  
ثم انطلقت حتى وقفت موقفاً من عرفات، فبينما أنا كذلك، وإذا بإنسان قد تغير لونه، وساءت هيأته، فأدنى ناقته

من ناقتي، ثم خالف بين أعناقهما، وعانقتي وبكى، حتى اشتد بكأؤه.

فقلت: ما وراءك؟ فقال: برح العذل، وطول المطل، ثم أنشأ يقول:

لئن كانت عديّة ذات لبّ ... لقد علمت بأن الحبّ داء

ألم تنظر إلى تغيير جسمي ... وأنّي لا يفارقني البكاء

وأنّي لو تكلفني سواها ... لخفّ الكلم وانكشف الغطاء

وأنّ معاشرى ورجال قومي ... حتوفهم الصباية واللقاء

إذا العذريّ مات خليّ ذرع ... فذاك العبد يكيه الرشء

فقلت: يا أبا المسهر، إنما ساعة تضرب إليها أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها، فلو دعوت الله تعالى، كنت  
مؤملاً لك أن تظفر بحاجتك.

قال: فتركني، وأقبل على الدعاء، فلما تدلت الشمس للغروب، وهم الناس أن يفيضوا، سمعته يتكلم بشيء،

فأصغيت إليه، فإذا هو يقول:

يا ربّ كلّ غدوة وروحة ... من محرم يشكو الضنا ولوحه

أنت حسيب الخطب يوم الدوحة

فقلت: وما يوم الدوحة؟ فقال: والله لأخبرنك ولو لم تسألني، ثم أقبل عليّ، وقال: أنا رجل ذو مال من نعم

و شاء، وذو المال لا يصدره القل، ولا يرويه الشماد.

وأني خشيت عام أول على مالي التلف، وقطر الغيث أرض كلب، فانتجعت أخوالاً لي منهم، فأوسعوا لي عن صدر المجلس، وسقوني جمة الماء، وكنت معهم في خير أخوال.

ثم إني عزمت على مرافقة إبلي بماء لهم، فركبت فرسي، وسمطت خلفي شراباً كان أهدها إلي بعضهم، ثم مضيت.

حتى إذا كنت قريباً من الحي ومرعى الغنم، رفعت لي دوحة عظيمة، فنزلت عن فرسي، وشددته ببعض أغصانها، وجلست في ظلها.

فبينما أنا كذلك إذ سطع غبار في ناحية الحي، ثم رفعت لي شخصوس ثلاثة، ثم نظرت فإذا بفارس يطرد مسحلاً وأتاناً، فتأملته، فإذا علي درع أصفر، وعمامة خز سوداء، وإذا فروع شعره تضرب خصريه، فقلت: غلام، حديث عهد بعرس، أعجلته لذة الصيد، فترك ثوبه، ولبس ثوب امرأته.

فما كان إلا يسيراً، حتى طعن المسحل، وثنى بطعنة للأتان، فصرعهما، وأقبل راجعاً نحوي، وهو يقول:

نطعنهم سلكى ومخلوكة ... كرك لأمين على نابل

فقلت: إنك تعبت، وأتعبت فرسك، فلو نزلت.

فتنى رجله، فنزل، وشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة، وألقى رمحه، وأقبل حتى جلس، فجعل يحدثني حديثاً ذكرت به قول أبي ذؤيب:

وإن حديثاً منك لو تبدلينه ... جنى النحل في ألبان عوذٍ مطافل

وقمت إلى فرسي، فأصلحت من أمره، ثم رجعت وقد حسر العمامة عن رأسه، وإذا غلام كأن وجهه الدينار المنقوش.

فقلت: سبحانك اللهم، ما أعظم قدرتك، وما أحسن صنعتك؟ فقال لي: مم ذلك؟ فقلت: لما راعني من جمالك، وما بهمني من نورك.

فقال: وما الذي يروعك من حبيس التراب، وأكيل الدواب؟ وما يدري أينعم بعد ذلك، أم يبتس.

قلت: لا يصنع الله بك إلا خيراً.

ثم تحدثنا ساعة، فأقبل علي، فقال: ما الذي سمطت في سرجك؟ قلت: شراباً، أهدها إلي بعض أهلي، فهل لك فيه من أرب؟ فقال: أنت وذاك.

فأتيت به، فشرب منه، وجعل - والله - ينكت بالسوط أحياناً على ثناياه، فيتبين لي أثر السوط فيهن.

فقلت: مهلاً، إنني أخاف أن تكسرهن.

فقال: ولم؟ قلت: لأنهن رقاق عذاب.

قال: ثم رفع صوته يغني:

إذا قبل الإنسان آخر يشتهي ... ثناياه لم يأثم وكان له اجرا

فإن زاد زاد الله في حسناته ... مثاقيل يححو الله عنه بها الوزرا

قال: ثم قام إلى فرسه، فأصلح من أمره، ثم رجع، فبرقت له بارقة تحت الدرع، فإذا ثدي كأنه حق عاج.

فقلت: ناشدتك الله: امرأة أنت؟

فقلت: نعم والله، إلا أنها تكره العار، وتحب الغزل، ثم جلست، فجعلت تشرب معي، وما أفقد من أنسنا شيئاً، حتى نظرت إلى عينيها، كأنهما عينا مهابة مذعورة، فوالله، ما راعني إلا ميلها تحت الدوحة سكرى.  
فزين الشيطان لي - والله - الغدر، وحسنه في عيني، ثم إن الله عز وجل عصمني منه، فجلست منها حجرة.  
ثم انتبهت فرعة مذعورة، فلاثت عمامتها برأسها، وجالت في متن فرسها، وقالت: جزاك الله عن الصحبة خيراً.  
فقلت: ألا تزوديني منك زاداً؟ فناولتني يدها، فقبلتها، فشممت - والله - منها ريح الشباب المطلول، فذكرت قول الشاعر:

كأنها إذ تقصّي النوم وانتبهت ... سيّابة ما لها عين ولا أثر  
فقلت: وأين الموعد؟ فقلت: إن لي أخوة شوساً، وأباً غيوراً، ووالله، لأن أسرك، أحب إلي من أن أضرك، وانصرفت.

فجعلت أتبعتها بصري حتى غابت، فهي - والله - يا ابن أبي ربيعة، أحلتني هذا المحل، وأبلغتني هذا المبلغ.  
فقال: يا أبا المسهر، إن الغدر بك مع ما تذكر للمليح، فبكي، واشتد بكأؤه.  
فقلت: لا تبك، فما قلت لك ما قلت إلا مازحاً، ولو لم أبلغ حاجتك إلا بمالي وروحي لسعيت في ذلك حتى أقدر عليه.

فقال لي: جزيت خيراً.  
فلما انقضى الموسم، شددت على ناقتي، وشدت على ناقته، ودعوت غلامي فشدت على بعير له، وحملت عليه قبة من آدم حمراء، كانت لأبي ربيعة المخزومي، وحملت معي ألف دينار، ومطرف خز، وانطلقنا، حتى أتينا بلاد كلب.

فسألنا عن أبي الجارية، فوجدناه في نادي قومه، وإذا هو سيد القوم، والناس حوله، فوقفنا على القوم، وسلمت، فرد الشيخ السلام.

ثم قال: من الرجل؟ قلت: عمر بن أبي ربيعة المخزومي.

فقال: المعروف غير المنكر، فما الذي جاء بك؟ قلت: جئت خاطباً.  
قال: الكفو والرغبة.

قلت: إني لم آت لنفسي من غير زهادة فيك، ولا جهالة بشرفك، ولكني أتيت في حاجة ابن أختكم هذا العذري.

فقال: والله، إنه لكفي الحسب، رفيع النسب، غير أن بناقي لم ينفقن إلا في هذا الحي من قريش، فوجمت لذلك وعرف التغير في وجهي، فقال: إني صانع بك ما لم أصنع بغيرك.

قلت: مثلي من شكر، فما ذاك؟ قال: أخيرها، وهي وما اختارت.

قلت: ما انصفتني، إذ تختار لغيري، وتولي الخيار غيرك.

فأشار إلي العذري، أن دعه يخبرها، قال: فأرسل إليها: أن من الأمر كذا وكذا.

فأرسلت إليه: ما كنت أستبد براي دون القرشي، والخيار في قوله وحكمه.

فقال لي: إنما قد ولتكم أمرها، فاقض ما أنت قاض.

فقلت: اشهدوا أني قد زوجتها من الجعد بن مهجع، وأصدقته هذه الألف دينار، وجعلت تكرمتهما العبد،

والبعير، والقبة، وكسوت الشيخ هذا المطرف، وسألته أن يبني الرجل عليها من ليلته .  
فأرسل إلى أمها، فأبت، وقالت: أخرج ابنتي كما تخرج الأمة؟ قال الشيخ: فعجلي في جهازها.  
فما برحت، حتى ضربت القبة في وسط الحرم، وأهديت إليه ليلاً، وبت أنا عند الشيخ.  
فلما أصبحت، أتيت القبة، فصحت بصاحبي، فخرج إلي، وقد أثر السرور فيه.  
فقلت: إيه .

فقال: أبدت - والله - كثيراً مما كانت تخفيه عني يوم لقيتها، فسألته عن ذلك، فأنشأت تقول:  
كتمت الهوى لما رأيتك جازعاً ... وقلت فتى بعض السرور يريد  
وأن تطرحني أو تقول فتية ... يضرب بها برح الهوى فتعود  
فوريت عمّا بي وفي داخل الحشا ... من الوجد برح فاعلمنّ شديد  
فقلت: أقم على أهلك، بارك الله لك فيهم، وانطلقت، وأنا أقول:  
كفيت الفتى العذريّ ما كان نابه ... وإني لأعجب النوائب حمال  
أما استحسنت مني المكارم والعلی ... إذا طرحت آتي لمالي بذال  
فقال العذري:

إذا ما أبو الخطاب خلّى مكانه ... فأفّ لدينا ليس من أهلها عمر  
فلا حيّ فتیان الحجازين بعده ... ولا سقيت أرض الحجازين بالمطر  
رضي أن يموت بعد أن يتمتع بحبيته أسبوعاً واحداً

أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد بن جعفر البصري، المعروف بابن لنكك، في رسالة له، في فضل الورد على  
الترجس، فقال فيمن سمى بنته من سائر العرب وردة: فمنهم شرحبيل بن مسعود التنوخي، وعائد الطائي، وهي  
التي كان داود بن سعد التميمي عاشقاً لها، فاستقبل النعمان بن المنذر، في يوم يؤسه، وقد خرج يريدتها، وهو لا  
يعلم بيوم النعمان.

فقال له: ما حملك على استقبالي في يوم يؤسي؟ فقال: شدة الوجد، وقلة الصبر.  
فقال: أو لست القائل؟:

وددت وكاتب الحسنات آني ... أقارع نجم وردة بالقдах  
على قتلي بأبيض مشرفي ... وكوني ليلة حتى الصباح  
مع الحسناء وردة إن قلبي ... من الحبّ المبرّح غير صاح  
فإن تكن القдах عليّ تلقى ... ذبحت على القдах بلا جناح  
وإن كانت عليه بيمن جدّي ... لهوت بكاعب خود رباح  
قال: نعم.

قال: فإني مخيرك إحدى اثنتين، فاحتر لنفسك.

قال: ما هما أبيت اللعن؟ قال: أحلي سبيلك، أو أمتعك سبعة أيام، ثم أقتلك.

قال: بما تمتعني؟ قال: بوردة.



قال: قبلت الثاني .

فساق النعمان مهرها إلى عمها، وجمع بينهما، فلما انقضت الأيام، أقبل على النعمان، وهو يقول :

إليك ابن ماء المزن أقبلت بعدما ... مضت لي سبع من دخولي على أهلي

مجيء مقرّ لاصطناعك شاكر ... مننت عليه بالكريم من الفعل

لتقضي فيه ما أردت قضاءه ... من العفو، أهل العفو، أو عاجل القتل

فإن كان عفوً كنت أفضل منعم ... وإن تكن الأخرى فمن حكم عدل

فأحسن جائزته، وخلي سبيله، وأنشأ النعمان يقول:

لم ينل ما نال داو ... د بن سعد بن أنيس

إذ حوى من كان يهوى ... ونجا من كلّ بوس

وكذاك الطير يجري ... بسعود ونحوس

قال مؤلف هذا الكتاب: ووجدت كتاباً لأحمد بن أبي طاهر، سماه: كتاب فضائل الورد على النرجس، أكبر

قدراً، وأغزر فائدة من كتاب ابن لنكك، فوجدته قد ذكر فيه هذا الخبر.

قال: وممن سمى ابنته وردة، شرحبيل بن مسعود التنوخي، وهو صاحب العين، على مسيرة يوم وليلة من تيماء

اليمن.

وسليمان بن صرد، أمير الجيش الذي يقال لهم: التوابون، الذين تولوا الطلب بدم الحسين عليه السلام، وقتل

عبيد الله بن زياد.

وسمى عائذ الطائي بنته وردة، وهي التي كان داود بن سعد التميمي، عاشقاً لها .... وساق الخبر كما ذكره.

## الورد

الورد: في اللغة، نور كل شجرة، وزهر كل نبتة، ثم اقتصر على الورد المعروف، وقد توصل الإنسان بفضل

عنايته إلى إنتاجه على أشكال وألوان مختلفة، وبروائح عطرة متنوعة لسان العرب، المنجد.

وكانت عناية الإنسان بالورد، منذ أقدم الأزمان، واستعمله الأطباء دواءً، ووصفوه لكثير من الشكاية القانون

في الطب لابن سينا ١ - ٢٩٩ والجامع لمفردات الأدوية ٤ - ١٨٩ و ١٩٠.

وذكر القاضي التنوخي، في نشوار الخاضرة ٥ - ١٩ إنه أبصر ورداً أصفر، عد ورق الورد منه، فكانت ألف

ورقة، وإنه رأى ورداً أسود حالك اللون، وإنه رأى بالبصرة، وردة نصفها أحمر قاني الحمرة، ونصفها الآخر

ناصع البياض.

وكان المتوكل يقول: أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، فكل منا أولى بصاحبه، وحرّم الورد على جميع

الناس، واستبد به، وقال: إنه لا يصلح للعامة، فكان لا يرى الورد إلا في مجلسه، وكان في أيام الورد يلبس

الثياب الموردة، ويفرش الفرش الموردة، ويورد جميع الآلات مطالع البلور ١ - ٩٣ وأراد مرة أن يشرب على

الورد، ولم يكن الموسم موسم ورد، فأمر، فضربت له دراهم خفيفة، مقدارها خمسة آلاف ألف درهم، ولونت

بألوان الورد، ونثرت في مجلسه كما ينثر الورد، وشرب عليها الديارات ١٦٠.

وذكر التنوخي في نشوار الخاضرة، في القصة ١ - ١٦٣ إنه شاهد الوزير المهلبي اشترى في ثلاثة أيام متتابة

ورداً بألف دينار، فرشاه في مجالسه، وطرحه في بركة أمامه، وشرب عليه، وذكر في القصة ١ - ١٦٤ أن أبا القاسم البريدي، شرب بالبصرة في يوم واحد على ورد بعشرين ألف درهم.

وأولم الوزير أبو الفضل الشيرازي، لمز الدولة البويهية، وليمة في داره الكائنة على ملتقى فحري دجلة والصرارة، موضعها الآن في رأس الجعيفر بالكرخ، فشد حبلاً مفتولة على وجه الماء بين الشاطئين، ثم نشر الورد بكميات غطت وجه النهر، ومنعته الحبال المعترضة من الانحدار، فاستقر في موضعه، راجع وصف الوليمة وما صرف عليها في كتاب الملح والنوادر للحصري ٢٧٦ و ٢٧٧.

وكان الورد يتخذ للتحيات في مجالس الشراب، بأن يقدم الساقى للنديم وردة، أو غصن آس، أو تفاحة، مما له منظر جميل، ورائحة عذبة، وقد أفرد صاحب الموشى باباً في الورد ٢٠٤ - ٢٠٦، وما قيل في تفضيله ومدحه من الأشعار، ثم قال: إن فضائل الورد أكثر من أن يحصى عددها، أو يبلغ أمدها، وأنه أفرد لذلك كتاباً، بوجه أبواباً، وترجمه بكتاب العقد، وشحنه بفضل الورد الموشى ٢٠٦، كما ذكر أن بعض المنظرين، كان يفضل الآس على الورد، لأن الورد موسمي، والآس دائم الخضرة، الموشى ٢٠٥، قال ابن زيدون:

لا يكن عهدك ورداً... إن عهدي لك آس

وأشهر أنواع الورد، الجوري، نسبة إلى جور، مدينة بفارس معجم البلدان ٢ - ١٤٧ ومنه يستخرج ماء الورد.

وفي بغداد أغنية قديمة، ما زالت شائعة، تقول:

أحبك، أحبك... وأحب كل من يحبك

وأحب الورد جوري... لأنه بلون حدك

لاحظ أن المتعارف أن يشبه خد المحبوب بالورد، أما شاعرنا العامي البغدادي، فقد عكس الوضع، وشبه الورد بوجنة المحبوب، فجاء نهاية في حسن التعبير.

### إبراهيم بن سيابة يشكو فلا يجاب

أخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، قال: أخبرني حبيب بن نصر المهلي، قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد، قال: حدثني عبد الله بن نصر المروزي، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الطلحي، قال: حدثنا سليمان بن يحيى بن معاذ، قال: قدم على نيسابور إبراهيم بن سيابة، يعني الشاعر البصري، الذي كان جده حجاجاً، فأعتقه بعض بني هاشم، فصار مولى لهم، فأنزلته علي، فجاءني ليلة من الليالي وهو مكروب، وقد هام، فجعل يصيح بي، يا أبا أيوب؟ فخشيت أن يكون قد غشيتته بلية، فقلت له: ما تشاء؟ فقال:

أعياني الشادن الريب

فقلت له: ماذا يقول؟، فقال:

اشكو إليه فلا يجيب

فقلت: داره، وداوه، فقال:

من أين أبغي شفاء دائي... وإتما دائي الطبيب

فقلت: فلا، إذن، إلى أن يفرج الله تعالى، فقال:  
يا ربّ فرّج إذن وعجّل... فإنّك السامع المجيب  
ثم انصرف.

عزل عن الرفيقة فولّي دمشق

قال محمد بن عبدوس، في كتاب أخبار الوزراء والكتاب، أخبرني جعفر بن أحمد، قال: حدثني أبو العباس بن الفرات، قال: حدثني محمد بن علي بن يونس، قال: لما سلمت عمل دمشق إلى أبي المغيث الرافقي، سألتني أن أكتب له عليه، ففعلت، فلما تأنست أنا وهو، حدثني أول خبره في تقلد الناحية.

فقال لي: كنت قصدت عيسى بن موسى، ابن عمي، وهو يتقلد حمص، فقلدني ربع فامية، فأقمت إلى أن قدم ابن عم له، وهو أقرب إليه مني، فصرفني، فانصرفت عنه إلى الرفيقة، ومعني شيء مما كسبته. وكانت لابنة عم لي، جارية نفيسة، قد رببتها، وعلمتها الغناء، وكنت أدعوها، فألفتها، ووقعت من قلبي موقِعاً عظيماً، واشتد حبي لها، فعملت على أن أبيع منزلي وأبتاعها، وناظرت مولاتها في ذلك، فحلفت أن لا تنقص ثمنها عن ثلاثة آلاف دينار.

فنظرت، فإذا أنا أفترق، ولا تفي حالي بثمنها، فقامت قيامتي، واشتد وجدي، وانحدرت إلى سر من رأى، أطلب تصرفاً، أو ما به شراؤها.

وكان محمد بن إسحاق الطاهري، وأبوه، يرحبان لي، فقصدت محمداً، ومعني دواب، وبقية من حالي، فأقمت عليه مدة لم يسنح لي فيها تصرف، فاشتدت بي رقة الحال، فانحدرت إلى بغداد، أقصد إسحاق بن إبراهيم الطاهري، فوردت في زورق.

وفكرت في أمري، وعلى من أنزل، فلم أثق بغير محمد بن الفضل الجرجاني، لمودة كانت بيني وبينه، فقصدته، ونزلت عليه، ووقع ذلك منه أجل موقع، وفاتشني عن أمري، وسألني عن حالي، فذكرت له قصتي مع الجارية. فقال: والله، لا تبرح من مجلسك حتى تقبض ثمنها، وأمر خادمه، فأحضر كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار، وسلمت إلي، وتأيت عليه، فحلف أيماناً مؤكدة أن أقبلها.

وقال: إن اتسعت لقضائه، واحتجت إليه، لم أمتنع من أخذه منك، فأخذت الكيس وشكرته، وتشاغلنا بالشرب.

فلما كان من الغد، أتى رسول إسحاق بن إبراهيم الطاهري يطلبني، فصرت إليه، فاحتفى به، وأكرمني، وقال: ما ظننت أنك توافي بلداً أحله، فتنزل غير داري.

فقلت: والله، ما وافيت إلا قاصداً الأمير، ولكن دوابي تأخرت، فتوقعت ورودها، لأصير إلى باب الأمير عليها. فدعا بكتب وردت من محمد بن عبد الملك، وفيها كتاب من أمير المؤمنين المعتصم، بولايتي دمشق، وأراني كتاباً يعلمه فيه، ما جنى علي بن إسحاق من قتل رجاء بن أبي الضحاك بدمشق، وأن أمير المؤمنين رأى تقليدك، وطلبت بسر من رأى، فذكر له أنك انحدرت إلى إسحاق بن إبراهيم، فأمر بتسليم كتبك إلي، ودفع مائة ألف دينار لك معونة على خروجك، وأحضر المال، ووكل بي من يستحطني على البدار.

فورد علي من السرور ما أدهشني، وودعته، وخرجت إلى محمد بن الفضل، فعرفته ما جرى، وودعته أيضاً،

وأخرجت دنانيره، فرددتها عليه، فحلف بأيمان غليظة عظيمة، لا عادت إلى ملكه أبداً.  
وقال: إن جلست في عملك واتسعت، لم أمتنع أن أقبل منك غير هذا.  
فشخصت، ومررت بالرافقة وابنتت الجارية، وبلغت مناي بملكها، واجتزت بجمص، وابن عمي، وأنا أجل منه  
عملاً، ودخلت عملي، فصنع الله سبحانه، ووسع.

### أين اختبأ الأسدي

ووجدت في كتاب المتيمين للمدائني: أن رجلاً من بني أسد، علق امرأة من همدان بالكوفة، وشاع أمرهما،  
فوضع قوم المرأة عليه عيوناً، حتى أخبروا أنه قد أتاها في منزلها، فأتوا دارها، واحتاطوا بها.  
فلما رأت ذلك، ولم تجد للرجل مهرباً، وكانت المرأة بادنة، فقالت له: ما أرى لك موضعاً أستر لك من أن  
أدخلك خلف ظهري، وتلزمي، فأدخلته بينها وبين القميص، ولزمها من خلفها.  
ودخل القوم، فداروا في الدار، حتى لم يتركوا موضعاً إلا فتشوه، فلما لم يجدوا الرجل، استحيوا من فعلهم،  
وأغلظت المرأة عليهم، وعنفتهم، فخرجوا. وأنشأ الرجل يقول:  
فحبك أشهاني وحبك قادي ... لهمدان حتى أمسكوا بالمخنق  
فجاشت إليّ النفس أول مرة ... فقلت لها لا تفرقي حين مفرقي  
رويدك حتى تنظري عمّ تنجلي ... عماية هذا العارض المتألق  
جميل وبثينة

ذكر الهيثم بن عدي، أن جماعة من بني عذرة حدثوه: أن جميل وبثينة حضر ذات ليلة عند خباء بثينة، حتى إذا  
صادف منها خلوة تنكر، ودنا منها، وكانت الليلة ظلماء، ذات غيم ورعد وريح.  
فحذف بحصاة، فأصابت بعض أترابها، ففرغت، وقالت: ما حذفني في هذه الليلة إلا الجن.  
ففظنت بثينة أن جميلاً فعل ذلك، فقالت لتربها: ألا فانصري يا أخية إلى منزلك حتى تنامي، فانصرفت، وبقيت  
مع بثينة أم الحسين - ويروي أم الجسير - بنت منظور، وكانت لا تكتمها.  
فقامت إلى جميل، فأدخلته الخباء معها، وتحدثوا جميعاً، ثم اضطجعوا، وذهب به النوم حتى أصبحوا.  
وجاءهم غلام زوجها بصبح من اللبن، بعث به إليها، فرآها نائمة، ونظر جميلاً، فمضى لوجهه، حتى خبر  
سيده.

وكانت ليلى رأت الغلام والصبح معه، وقد عرفت خبر جميل وبثينة، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله، وطاولته  
الحديث، وبعثت بجارية لها، وقالت: حذري جميلاً وبثينة.  
فجاءت الجارية ونهبتها، فلما تبينت بثينة أن الصبح قد أضاء، والناس قد انتشروا، ارتاعت لذلك.  
وقالت: يا جميل نفسك، فقد جاء غلام بعلي بصبح من اللبن، فرآنا نائمين.  
فقال جميل، وهو غير مكترث:

لعمرك ما خوفتني من مخافة ... عليّ ولا حذرتني موضع الحذر  
وأقسم ما تلقى لي اليوم غرة ... وفي الكف مني صارم قاطع ذكر  
فأقسمت عليه أن يلقي نفسه تحت النضد، وقالت: إنما أسألك خوفاً على نفسي من الفضيحة، لا خوفاً عليك،

ففعل ذلك، ونامت، وأضجعت أم الحسين إلى جانبها، وذهبت خادماً ليلياً إليها، فأخبرتها الخبر، فتركت العبد يمضي إلى سيده، فمضى والصبوح معه، وقال له: إني رأيت بشينة مضطجعة، وجميل إلى جنبها. فجاء زوجها إلى أخيها وأبيها، فعرفهما الخبر، وجاءوا بأجمعهم إلى بشينة، وهي نائمة، فكشفوا عنها الثوب، فأرأوا أم الحسين إلى جانبها نائمة.

فحجل زوجها، وسب عبده، وقالت ليلياً لأبيها وأخيها: قبحكما الله، في كل يوم تفضحان المرأة في فنائكما، ويلكما، هذا لا يجوز.

فقالا: إنما فعل هذا زوجها.

فقالت: قبحه الله وإياكما، فجعلنا يسبان زوجها، وانصرفوا.

وأقام جميل تحت النضد إلى الليل، ثم ودعها وانصرف.

### العمر أقصر مدة من أن يضيع في الحساب

حدثني الحسن بن صافي مولى ابن المتوكل القاضي، قال: حدثنا أبو القاسم علي بن أحمد الليثي الكاتب المعروف بابن كردويه، قال: كان لي صديق من أهل راذان، عظيم النعمة والضيعة، فحدثني، قال: تزوجت في شبابي امرأة من آل وهب، ضخمة النعمة، حسنة الخلقة والأدب، كثيرة المروءة، ذات جوار مغنيات، فعشقتها عشقاً مبرحاً، وتمكن لها من قلبي أمر عظيم، ومكث عيشي بها طيباً مدة طويلة. ثم جرى بيني وبينها بعض ما يجري بين الناس، فغضبت علي، وهجرتني، وأغلقت باب حجرتها من الدار دوني، ومنعتني الدخول إليها، وراسلتني بأن أطلقها.

فترضيتها بكل ما يمكنني، فلم ترض، ووسطت بيننا أهلها من النساء، فلم ينجح.

فلحقتني الكرب والغم، والقلق والجزع، حتى كاد يذهب بعقلي، وهي مقيمة على حالها.

فجئت إلى باب حجرتها، وجلست عنده مفترشاً التراب، ووضعت خدي على العتبة، أبكي وأنتحب،

وأتلافها، وأسألها الرضا، وأقول كلما يجوز أن يقال في مثل هذا، وهي لا تكلمني، ولا تفتح الباب، ولا

تراسلني.

ثم جاء الليل، فتوسدت العتبة إلى أن أصبحت، وأقمت على ذلك ثلاثة أيام بلياليها، وهي مقيمة على المهجران.

فأيست منها، وعدلت نفسي، ووبختها، ورضتها على الصبر، وقمت من باب حجرتها، عاملاً على التشاغل

عنها.

ومضيت إلى حمام داري، فأمطت عن جسدي الوسخ الذي كان لحقه، وجلست لأغير ثيابي وأتبخر.

فإذا بزوجتي قد خرجت إلي، وجواربها المغنيات حوالها، بالآتمن يغنين، ومع بعضهن طبق فيه أوساط،

وسنبوسج، وماء ورد، وما أشبه ذلك.

فحين رأيتها استطرت فرحاً، وقمت إليها، وأكبت على يديها ورجليها.

وقلت: ما هذا يا ستي؟ فقالت: تعال، حتى نأكل ونشرب، ودع السؤال.

وجلست وقدم الطبق، فأكلنا جميعاً، ثم جيء بالشراب، واندفع الجوارب بالغناء، وأخذنا في الشراب، وقد كاد

عقلي يزول سروراً.

فلما توسطنا أمرنا، قلت لها: يا ستي، أنت هجرتيني بغير ذنب كبير أوجب ما بلغته من الهجران، وترضيتك بكل ما في المقدرة، فما رضيت، ثم تفضلت إبتداء بالرجوع إلى وصالي بما لم تبلغه آمالي، فعرفيني ما سبب هذا؟ قالت: كان الأمر في سبب الهجر ضعيفاً كما قلت: ولكن تداخلني من التجني ما يتداخل الحبوب، ثم استمر بي اللجاج، وأراني الشيطان أن الصواب فيما فعلته، فأقمت على ما رأيت.

فلما كان الساعة، أخذت دفترًا كان بين يدي وتصفحته، فوقع عيني منه على قول الشاعر:

العمر أقصر مدة ... من أن يضيّع في الحساب

فتغمي ساعاته ... فمرورها مرّ السحاب

قالت: فعلمت أنما عظة لي، وأن سبيلي أن لا أسخط الله عز وجل بإسخطا زوجي، وأن لا أستعمل اللجاج، فأسوءك، وأسوء نفسي، فجتتك لأترضاك، وأرضيتك.

فانكبت على يديها ورجليها، وصفا ما كان بيننا.

/الباب الرابع عشر

ما اختير من ملح الأشعار

في أكثر ما تقدم من الأمثال والأخبار

قال لقيط بن زرارة التميمي:

قد عشت في الناس أطواراً على خلقٍ ... شتى وقاسيت فيها اللين والقطعا

كلاً لبست فلا التعماء تطرني ... ولا تخشعت من لأوائها جزعا

لا يملأ الهول صدري قبل وقعته ... ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

ما سدّ لي مطلع ضاقت ثنيته ... إلا وجدت وراء الضيق متسعاً

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وإني صبرت النفس بعد ابن عنبسٍ ... وقد لجّ من ماء الشؤون لجوج

لأحسب جلدًا أو ليستاء حاسدٌ ... وللشرّ بعد القارعات فروج

ويروى لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

إنّي أقول لنفسي وهي ضيقةٌ ... وقد أناخ عليها الدهر بالعجب

صبراً على شدة الأيام إنّ لها ... عقيب وما الصبر إلا عند ذي الحسب

سيفتح الله عن قربٍ بنافعةٍ ... فيها لمثلك راحتٌ من التعب

ويروى لعثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل إنه لغيره:

خليلي لا والله ما من ملحةٍ ... تدوم على حيّ وإن هي جلّت

فإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها ... ولا تكثر الشكوى إذا التعل زلت

فكم من كريمٍ قد بلي بنوائبٍ ... فصابرها حتى مضت وأضمحلّت

وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأيت صبري على الذلّ ذلت  
وأنشد معاوية بن أبي سفيان متمثلاً:

فلا تياسن واستغن بالله إنه ... إذا الله سنّى حلّ عقدٍ تيسراً  
ولأبي دهب الجمحي من قصيدة:

وإني لحجوبٌ غداة أزورها ... وكنت إذا ما جنتها لا أعرج  
عسى كربةً أمسيت فيها مقيمةً ... يكون لنا منها نجاءً ومخرج  
فيكبت أعداءً ويجذل ألفاً ... له كبدٌ من لوعة البين تلعج  
ولخارثة بن بدر الغداني:

وقل للفرّاد إن نزا بك نزوةً ... من همّ أفرخ أكثر الروع باطله  
ولتوبة بن الحمير العقيلي:

وقد تذهب الحاجات يطلبها الفتى ... شعاعاً وتحشى النفس ما لا يضيرها  
ولجرير بن الخطفي:

يعافي الله بعد بلاء جهدي ... وينهض بعدما يبلى السقيم

ولزياد بن عمرو من بني الحارث بن كعب، وقيل لزياد بن عمرو الغداني وقيل لزيادة بن زيد العذري:

إذا مذهبٌ سدّت عليك فروجه ... فإنك لاق لا محالة مذهبا

ولا تجعلن كرب الخطوب إذا عرت ... عليك رتاجاً لا يزال مضيباً

وكن رجلاً جلدًا إذا ما تقلّبت ... به صيرقيات الأمور تقلّباً

ولغيره، ولم يسم قائلاً:

نوائب الدهر أدبتي ... وإنما يوعظ اللبيب

قد ذقت حلواً وذقت مرّاً ... كذاك عيش الفتى ضروب

ما مرّ يؤسّ ولا نعيمٌ ... إلا ولي فيهما نصيب

وقريب منه ما أنشدني أبي رحمه الله تعالى، عن ابن دريد، عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، عن عمه:

كأنّ قوماً إذا ما بدّلوا نعماً ... بنكبةٍ لم يكونوا قبلها نكبوا

ومثله، أو يقاربه لغيره، مفرد:

إنّ البطون إذا جاعت، متى شبعت ... كأثما لم يقاس الجوع طاويها

وذكر أبو تمام الطائي في كتاب الحماسة، لجابر بن تغلب الطائي:

كأنّ الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى ... ولم يك صعلوكاً إذا ما تمّ ولا

ولم يك في يؤسّ إذا بات ليلة ... يناغي غزلاً ساجي الطرف أكحلا

ولسعيد بن مضاء الأسدي وقيل إنه للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فما نوب الحوادث باقياتٌ ... ولا اليؤسى تدوم ولا النعيم

كما يمضي سرورك وهو جمٌّ ... كذلك ما يسوءك لا يدوم

فلا تهلك على ما فات وجداً ... ولا تفردك بالأسف المهموم

وقريب منه لكثير عزة، في محمد بن الحنفية عليه السلام، لما حبسه ابن الزبير، من أبيات:  
تحدت من لاقيت ألك عائدٌ ... بل العائد المظلوم في سجن عارم  
وما رونق الدنيا بباقي لأهلها ... وما شدة الدنيا بضربة لازم  
لهذا وهذا مدّة سوف تنقضي ... ويصبح ما لاقيته حلم حالم  
ولبعض الأعراب، قريب منه:

كأنك لم تعدم من الدهر لذّة ... إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب  
وللأضبط بن قريع التميمي من أبيات:

لكل ضيق من الأمور سعه ... والليل والصبح لا بقاء معه  
لا تحقرن الوضيع علك أن ... تلقاه يوماً والدهر قد رفعه  
قد يجمع المال غير آكله ... ويأكل المال غير من جمعه  
قد يقطع الثوب غير لابسه ... ويلبس الثوب غير من قطعه  
قد يرفع البيت غير ساكنه ... ويسكن البيت غير من رفعه  
فارض من الله ما أتاك به ... من قرّ عيناً بعيشه نفعه  
وصل حبال البعيد إن وصل ال ... حبل وأقص القريب إن قطعه

قال مؤلف هذا الكتاب، ولي من هذا الروي، وقريب من هذا المعنى، أبيات وهي:

اصبر فليس الزمان مصطبراً ... وكلّ أحداثه فمناقشه  
كم من فقير غناه في شيع ... قد نال خفضاً في عيشه ودعه  
وكم جليل جلت مصائبه ... ثم تلافاه بعد من وضعه  
فعاد بالعزّ آمناً جذلاً ... وعاد أعداؤه له خضعه  
وأشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب:  
ربّ ريحٍ لأناس عصفت ... ثم ما إن لبثت أن ركدت  
وكذاك الدهر في أفعاله ... قدم زلت وأخرى ثبتت  
بالغ ما كان يرجو دونه ... ويدّ عما استحقت قصرت  
وكذا الأيام من عادتها ... أنها مفسدة ما أصلحت  
ثم تأتيك مقاديرٌ بها ... فترى مصلحة ما أفسدت  
وللحسين بن مطير الأسدي:

إذا يسّر الله الأمور تيسرت ... ولانت قواها واستقاد عسرها  
فكم طامع في حاجة لا ينالها ... وكم آيس منها أتاه بشيرها  
وكم خائف صار المخيف ومقتر ... تمول والأحداث يحلو مريرها  
وقد تغدر الدنيا فيمسي غنيها ... فقيراً ويغنى بعد عسر فقيرها  
وكم قد رأينا من تكدر عيشة ... وأخرى صفا بعد انكدار غدورها



ولسكين الدارمي:

وإي لأرجو الله حتى كأني ... أرى بجميل الظنّ ما الله صانع  
وأنشدني محمد بن الحسن بن المظفر بن الحسين، قال: أنشدني الحسن ابن أبي الحضرم، قال: أنشدنا ثعلب:  
إلى الله كلّ الأمر في الخلق كلّه ... وليس إلى المخلوق شيء من الأمر  
إذا أنا لم أقبل من الدهر كلّما ... تكرّهت منه طال عتبي على الدهر  
ووسّع صدري للأذى كثرة الأذى ... وقد كنت أحياناً يضيق به صدري  
وصيرني يأسى من الناس راجياً ... لحسن صنيع الله من حيث لا أدري  
وأخبرني أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الراهمزمي، خليفة أبي رحمه الله على القضاء بها، قال: أخبرنا  
وكيع، محمد بن خلف القاضي، أن طلحة بن عبيد الله أخبره، قال: حدثني عبد الله بن شبيب، قال: أنشدني  
الثوري، وذكر البيتين الأولين، ثم بيتاً ثالثاً، وهو:  
وعوّدت نفسي الصبر حتى ألفتة ... وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر  
ثم ذكر البيتين الآخرين على نحو ذلك.

وقال آخر:

إذا ضاق صدري بالأمر تفرّجت ... لعلمي بأنّ الأمر ليس إلى الخلق  
وقال آخر:

يضيق صدري بغمّ عند حادثة ... وربّما خير لي في الغمّ أحياناً  
وربّ يوم يكون الغمّ أوّله ... وعند آخره روحاً وريحاناً  
ما ضقت ذرعاً بغمّ عند نائبة ... إلاّ ولي فرجٍ قد حلّ أو حاناً  
وأنشدني محمد بن الحسن، قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن عبد الواحد، قال: أنشدنا ثعلب، عن الزبير:  
لا أحسب الشرّ جاراً لا يفارقني ... ولا أحزّ على ما فاتني الودجا  
وما لقيت من المكروه نازلةً ... إلاّ وثقت بأنّ ألقى لها فرجا  
وأخبرني أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الراهمزمي، خليفة أبي رحمه الله على القضاء بها، قال:  
أنشدنا أحمد بن عمر الحنفي، قال: أنشدنا الرياشي، قال: أنشدنا القحذمي، فذكر البيت الأول، ثم قال:  
ولا تراني لما قد فات مكثباً ... ولا تراني بما قد نلت متهجاً  
ثم ذكر البيت الثالث.  
ولبعض الأعراب:

وقلّ وجه يضيق إلاّ ... ودونه مذهب فسيح

من روّح الله عنه هبت ... من كلّ وجه إليه ريح

قريّ على أبي بكر الصولي، بالبصرة، في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، في كتابه: كتاب الوزراء، وأنا أسمع،  
حدثك الحسين بن محمد، قال: حدثني البيمارستاني، قال: أنشدت أبا العباس إبراهيم بن العباس الصولي، وهو  
في مجلسه بديوان الضياع:

ربّما تكره النفوس من الأم ... ر له فرجةٌ كحلّ العقال

فنكت بقلمه، ثم قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

أنشدني أحمد بن عبد الله الوراق، قال: أنشدنا أحمد بن القاسم بن نصر أخو أبي الليث الفرائضي، قال: أنشدنا دعبل بن علي الخزاعي، قصيدته: مدارس آيات خلت من تلاوة، فذكر القصيدة إلى آخرها وفيها ما يدخل في هذا الباب:

فلولا الذي أرجو في اليوم أو غدٍ ... تقطع قلبي إثرهم حسرات  
فيا نفس طيبي، ثم يا نفس أبشري ... فغير بعيدٍ كلما هو آت  
ولا تجزعي من دولة الجور إني ... كأني بما قد آذنت بشتات  
عسى الله أن يرتاح للخلق إته ... إلى كل حيٍّ دائم اللحظات  
ولعلي بن الجهم من قصيدة:

غير الليالي بادياتٍ عودٍ ... والمال عارية يفاد وينفذ  
ولكل حالٍ معقبٌ ولربما ... أجلى لك المكروه عما يحمد  
لا يؤيسنك من تفرج كربةٍ ... خطبٌ رماك به الزمان الأُنكد  
صبراً فإن اليوم يتبعه غدٌ ... ويد الخليفة لا تطاولها يد  
كم من عليلٍ قد تحطّاه الردى ... فنجا ومات طبيبه والعود  
ولغيره في مثله:

قد يصحّ المريض من بعد يأسٍ ... كان منه ويهلك العواد  
ويصاد القطا فينجو سليماً ... بعد هلكٍ ويهلك الصياد  
ولعبد الله بن المعتز من أبيات:

وكم نعمةٍ لله في صرف نقمةٍ ... ومكروه أمرٍ قد حلا بعد إمرار  
وما كل ما تقوى النفوس بنافعٍ ... وما كل ما تخشى النفوس بضرار  
وله مفرد:

ولربما انتفع الفتى بضرار من ... ينوي الضرار وضره من ينفع  
وقريب منه:

ربما خير للفتى ... وهو للخير كاره

وأتاه السرور من ... حيث تأتي المكاره

أنشدني أبو إسحاق محمد بن عبد الله بن محمد بن شهرام الكاتب وأبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن علي بن يحيى المنجم، وأخبراني أن فيه لحناً من الرمل:

فلا تيأسن من فرجةٍ أن تناولها ... لعل الذي ترجوه من حيث لا ترجو  
وقال آخر:

أتى من حيث لا تـرجوه صنعٌ ... وتأتى أن تهمّ به الظنون  
وحيث تراك تـيأس فأرج خيراً ... فإنّ الغيب محتجبٌ مصون  
فكن أرجى لأمر ليس تـرجو ... من المرجو أقرب ما يكون  
وقال آخر:

وإذا تصبـك خصاصةً فأرج الغنى ... وإلى الذي يعطي الرغائب فأرغب  
وأنشدني أبي رحمه الله لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر:  
أراها تمخّض بالمعضلات ... فيا ليت شعري ما الزبده  
ألا إن زبدها فرجةٌ ... تحلّ العقال من العقده  
ولأبي إسحاق إسماعيل بن القاسم الملقب بأبي العتاهية:  
إنما الدنيا هباتٌ ... وعوارٍ مستردّه  
شدةٌ بعد رخاءٍ ... ورخاءٌ بعد شدّه  
وله أيضاً:

الناس في الدين والدنيا ذوو درجٍ ... والمال ما بين موقوفٍ ومختلج  
من ضاق عنك فأرض الله واسعةٌ ... في كلّ وجه مضيقٍ وجه منفرج  
قد يدرك الراقد الهادي برقدته ... وقد يخيب أخو الروحات والدلج  
خير المذاهب في الحاجات أنجحها ... وأضيق الأمر أدناه من الفرج  
ويروى له، والقافية كلها واحدة، وهذا هو الإيطاء، وأبو العتاهية يرتفع عنه، فإما أن يكون الشعر لغيره ممن  
جهل هذا العيب، أو له وجه لا أعلمه، وأوله:

يا صاحب الهمّ إنّ الهمّ منقطعٌ ... أبشر بذاك فإنّ الكافي الله  
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تـيأسنّ كأن قد فرّج الله  
الله حسبك بما عذت منه به ... وأين أمنع منّ حسبه الله  
هنّ البلياء، ولكن حسينا الله ... والله حسبك، في كلّ لك الله  
هون عليك، فإنّ الصانع الله ... والخير أجمع فيما يصنع الله  
يا نفس صبراً على ما قدر الله ... وسلّمي تسلمي، فالحاكم الله

يا ربّ مستصعب قد سهّل الله ... وربّ شرّ كثير قد وقى الله  
إذا بكيت فتق بالله وأرض به ... إنّ الذي يكشف البلوى هو الله  
الحمد لله شكراً لا شريك له ... ما أسرع الخير جدّاً إن يشا الله  
ولمحمد بن حازم الباهلي، في مثل هذا:

طوبى لمن يتولّى الله خالقهُ ... ومن إلى الله يلجأ يكفه الله  
وربّ حاذر أمر يستكين له ... ينجو وخيرته ما قدر الله  
ومن دعا الله في اللأواء أنقذه ... وكلّ كرب شديد يكفه الله

وليحيى بن خالد بن برمك، من أبيات:  
ألا يا بائعاً ديناً بدنياً ... غرور لا يدوم لها نعيم  
سينقطع التلذذ عن أناس ... أداموه وتنقطع الموموم  
وأنشدني أبي، القاضي أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي رحمه الله، من قصيدة لسالم بن عمرو  
الخاصر:

إذا أذن الله في حاجة ... أتاك النجاح على رسله  
وقرب ما كان مستبعداً ... ورد الغريب إلى أهله  
فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل الله من فضله  
ووجدت بخط عمي القاضي أبي جعفر أحمد بن محمد بن أبي الفهم التنوخي، مكتوباً:  
إذا أذن الله في حاجة ... أتاك النجاح بما ويركض  
وإن عاق من دونها عائق ... أتى دونها عارض يعرض  
ولعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من أبيات:  
لا تعجلنّ فرّبما ... عجل الفتي فيما يضرّه  
والعيش أحلى ما يعو ... د على حلاوته مُمرّه  
ولربّما كره الفتي ... أمراً عواقبه تسرّه  
ولغيره:

كم مرّة حفت بك المكاره ... خار لك الله وأنت كاره  
ولغيره:

ربّ أمر تزهق النفس له ... جاءها من خلل اليأس الفرج  
لا تكن من وجه روح آيساً ... ربّما قد فرجت تلك الرتج  
بينما المرء كئيبٌ موجعٌ ... جاءه الله بروح فابتهج  
ربّ أمر قد تضايقت له ... فأتاك الله منه بالفرج  
وقال آخر:

إذا الحادثات بلغن المدى ... وكادت تذوب لهنّ المهج  
وجلّ البلاء وقلّ العزاء ... فعند التناهي يكون الفرج  
ولبعضهم مفرد:

البؤس يعقبه النعيم وربّما ... لاقيت ما ترجوه فيما ترغب  
وأنشدني عبيد الله بن محمد بن الحسن العقبسي المعروف بالصوري، لنفسه:  
إذا أذن الله في حاجة ... أتاك النجاح بغير احتباس  
فيأتيك من حيث لا ترتجي ... مرادك بالنجع بعد الإياس  
ولمحمد بن حازم الباهلي:

وارحل إذا أجذبت بلادٌ ... منها إلى الخصب والربيع

لعلّ دهرًا غداً بنحسٍ ... بكرّ بالسعد في الرجوع  
ووجدت في بعض الكتب منسوباً إلى أبي تمام الطائي:  
وما من شدّة إلا سيأتي ... لها من بعد شدّتها رخاء  
وأنشدني الأمير أبو الفضل جعفر بن المكتفي بالله، قال: أنشدني بعض أصحابنا - ولم يسم قائلًا - وأخبرني  
بعض الشعراء: أن البيت الأول لقيس بن الخطيم، ووجدته وحده في كتاب الأمثال السائرة منسوباً إلى قيس بن  
الخطيم:

وكلّ شديدة نزلت بقومٍ ... سيأتي بعد شدّتها رخاء  
فإنّ الضغط قد يحوي وعاءً ... ويتركه إذا فرغ الوعاء  
وما ملئ الإناء وسدّ إلا ... ليخرج منه ما امتلأ الإناء  
وأنشدت:

متى تصفو لك الدّنيا بخيرٍ ... إذا لم ترض منها بالزّاح  
ألم تر جوهر المصفّى ... ومخرجه من البحر الأجاج  
وربّ مخيفة فجأت بهولٍ ... جرت بمسرةٍ لك وابتهاج  
وربّ سلامة بعد امتناعٍ ... وربّ إقامة بعد اعوجاج  
ومحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي عيينة المهلب، من أبيات، ومحمد هذا، هو والد أبي خالد يزيد بن محمد  
المهلب، نديم المتوكل:

إني لرحال إذا همّ برك ... ربح اللّبان عند ضيق المعترك

عسري على نفسي ويسري مشترك ... لا تملك النفس على شيءٍ هلك  
وليس في همّ لما فات درك ... ولم يدم شيءٌ على دور الفلك  
ربّ زمانٍ ذلّه أرفق بك ... لا عار إن ضامك دهرٌ أو فتك  
فقد يعود بالذي قواه لك ... كم قد رأينا سوقةً صار ملك  
وقال آخر:

لكل غمّ فرجٌ عاجل ... يأتيك في المصبح والممسي  
لا تتهم ربك فيما مضى ... وهون الأمر تطب نفساً  
ولعبد الله بن المعتز:

سواء على الأيام حفظٌ وإغفال ... وتارك سعيٍ واحتيالٍ ومحتال  
ولا همّ إلا سوف يفتح قفله ... ولا حال إلا بعدها للفتى حال  
وقال آخر:

جزعت كذا ذو همّ يجزع قلبه ... ألا ربّ يأسٍ جاء من بعده فرج  
كأنك باحجوب قد لاح نجمه ... وذو همّ من بين المضائق قد خرج  
وأنشد لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لا تكره المكروه عند نزوله ... إنَّ المكاره لم تنزل متباينه  
كم نعمة لا تستقلّ بشكرها ... لله في جنب المكاره كامنه  
حدثنا علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا قال: أنشدني رجل من قريش:  
ألم تر أن ربك ليس تحصي ... أياديه الحديثة والقديمه  
تسلّ عن الهموم فليس شيء ... يقيم ولا همومك بالمقيمه  
لعلّ الله ينظر بعد هذا ... إليك بنظرة منه رحيمه  
وأنشدني محمد بن عبد الواحد بن الحسن بن طرخان، قال: أنشدني أبو الحسن علي بن هارون بن علي بن يحيى  
المنجم، لنفسه من أبيت كتب بها إلى علي بن خلف بن طناب، فعملت فيه صوتاً:  
بيني وبين الدهر فيك عتاب ... سيطول إن لم يحمه الإعتاب  
يا غائباً بمزاره وكتابه ... هل يرتجى من غيبتك إياب  
لولا التعلّل بالرجاء تقطعت ... نفسٌ عليك شعارها الأوصاب  
لا يأس من فرج الإله فرّبما ... يصل القطوع ويقدم الغياب  
ولآخر غيره:  
فلا تياس وإن أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الزمن الطويل  
وقال آخر:

فلا تياس وإن صحّت ... عزيمتهم على الدلج  
فإنّ إلى غداة غدٍ ... سيأتي الله بالفرج  
فتصبح عيسهم عرجاً ... وقد كانت بلا عرج  
وقال آخر:

ربّما يطلع النفرج في الكر ... به كالبدر من خلال السحاب  
وتزول الهموم في قدر الزرّ ... تفرّى عن عروة الجلباب  
وقال آخر:

رميت بالهمّ لما أن رميت به ... ولم أقم غرضاً للهمّ يرميني  
ولست آيس من روح ومن فرج ... ومن لطائف صنعٍ سوف تكفيني  
وكلّ ما كان من دهري إليّ شوى ... ما سلّم الله من أحداثه ديني  
وقال آخر:

وكم من ضيقه ركدت بغمّ ... فكان عقيها فرج مفاجي  
وأضيق ما يكون الأمر أدنى ... وأقرب ما يكون إلى انفراج  
ولعلي بن جبلة:

عسى فرجٌ يكون عسى ... نعللّ نفسنا بعسى  
فلا تقنط وإن لاقى ... ت همّاً يقبض النفسا  
فأقرب ما يكون المر ... ء من فرج إذا بنسا

حدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: أنشدني الحسين بن عبد الرحمن، وذكر البيت الأول، والثالث، ولم يذكر الثاني، ولا سمى قائلًا.

وقال آخر:

لعمرك ما المكروه من حيث تتقي ... وتخشى ولا الخبوب من حيث تطمع  
وأكثر خوف الناس ليس بكائنٍ ... فما درك المهّم الذي ليس ينفع

وقال آخر:

رضيت بالله إن أعطى شكرت وإن ... يمنع قنعت وكان الصبر من عددي  
إن كان عندك رزق اليوم فاطرحن ... حمل المهموم فعند الله رزق غد

ولأبي يوسف البهيلي الكاتب، عم المفجع الشاعر، وهو من قرية من أعمال النهروانات، من قصيدة:

لا البؤس يبقى ولا النعيم ولا ... حلقة ضيقٍ، ستفرج الحلقة

صبراً على الدهر في تجوّره ... كم فتح الصبر مرّة غلقه

وقال آخر:

كتاب : الفرج بعد الشدة  
المؤلف : القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي

---

جديد همك يبلية الجديدان ... فاستشعر الصبر إن الدهر يومان

يوم يسوء فيتلوه فيذهبه ... يوم يسرّ وكلّ زائل فان

وقال آخر:

لا تعجلّ همّاً بما ليس تدري ... إن تراخى، يكون أو لا يكون

وقال آخر:

عادي الهمّ واعطج ... كلّ همّ إلى فرج

وقال آخر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... نواب هذا الدهر أم كيف يحذر

يرى الشيء فما يتقي فيخافه ... وما لا يرى مما بقي الله أكثر

وقال آخر:

الهمّ فضلّ والقضاء مغالب ... وصروف أيام الفتى تتقلب

والبؤس يتبعه النعيم وربّما ... لاقيت ما ترجوه فيما ترهب

ولا تياسنّ وإن تضايق مذهب ... فيما تحاول أو تعدّر مطلب

وانظر إلى عقبى الأمور فعنها ... لله عادة فرجة تترقب

ولبعض الأعراب:

فلا تحسبن سجن اليمامة دائماً ... كما لم يدم عيش بسفح ثير

ولحوط بن ذياب الأسدي:

تعلمني بالعيش عرسي كأنما ... تعلمني الشيء الذي أنا جاهله

ولآخر:

يعيش الفتى بالفقر يوماً وبالغنى ... وكلّ كأن لم يلقه حين يذهب

كأنك لم تعدم من الدهر لذّة ... إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

تخطي النفوس مع العيا ... ن وقد تصيب مع التظنّه

كم من مضيق بالقضا ... ء ومخرج بين الأسنّة

ولسليمان بن المهاجر البجلي، من أبيات:

إنّ المساء قد تسرّ وربّما ... كان السرور بما كرهت جديرا

وللبحتري:

لا يياس المرء أن ينجيه ... ما يحسب الناس أنّه عطبه

إنّ سرّك الأمر قد يسوء وكم ... نوّه يوماً بخامل لقبه

ولأبي العتاهية:



ولربما استيأست ثم أقول: لا ... إن الذي ضمن النجاح كريم  
وأنشدني بعض إخواني لسعيد بن حميد، وقال: فيه لحن من الرمل:  
يومٌ عليك مباركٌ ... ما عشت في فرح وطيب  
عاد الحبيب لوصله ... وحجبت عن عين الرقيب  
وكذا الزمان يدور بال ... أفراح من بعد الكروب  
فاشرب شراباً نقله ... تقبيل سألقة الحبيب  
ودع الهموم فإنها ... تنأى عن الصدر الرحيب  
لا بدّ من فرج قريب ... يأتيك بالعجب العجيب  
وحدثني علي بن محمد بن إسحاق الأنصاري الخطمي، قال: سمعت براهيمز في سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، مغنياً  
يقال له ابن هاني، يعني على الطنبور:

علل همومك بالمني ... ترجى إلى أجل قريب  
لا بدّ من صنع قريب ... يأتيك بالعجب العجيب  
لا تياسن وإن أل ... ح اللهر من فرج قريب  
روح فؤادك بالرضا ... ترجع إلى روح وطيب  
قال: فسألته من قائلها، فقال: عبيد الله بن عبيد الله بن طاهر.  
قال مؤلف هذا الكتاب: وقريب من البيت الأخير:

حرك مناك إذا اغتمم ... ت فإنهنّ مراوح  
وحدثني الحسين بن علي بن محمد، ويعرف أبوه بالبعدي النديم، قال: سمعت عبد الواحد بن حمزة الهاشمي، من ولد  
إبراهيم الإمام، يعني على الطنبور، وكان حاذقاً طيباً، لحناً من الرمل:  
ليس لي صبر ولا جلد ... قد براني الهمّ والسهد  
من ملّات تورّقي ... ما لها من كثرة عدد  
ولعلّ الله يكشفها ... فيزول الحزن والكد  
وأنشدني محمد بن عبد الواحد بن الحسن بن طرخان، لنفسه، وقال: لي فيه لحن من الرمل:

هاكها صرفاً تلالاً ... لم يدنسها المزاج  
واترك الهمّ لشاني ... ك فللهمّ انفراج  
ثم وجدت بعد ذلك، أن إسحاق الموصلي، ذكر في كتابه الأغاني المعروف بشجاء، أبياتاً لم يسم قائلها، وذكر  
أن فيها للغريص لحناً من التقيل الثاني بالنصر، في مجراها:  
يا أبا وهب صفيي ... كلّ ضيق لانفراج  
اسقي صهباء صرفاً ... لم تدنس بمزاج

وقال آخر:

رضيت بالله إن أعطى شكرت وإن ... يمنع منعت وكان الصبر من عددي  
إن كان عندك رزق اليوم فاطرحن ... عنك الهموم فعند الله رزق غد  
وقال آخر:

سهل على نفسك الأمورا ... وكن على مرها صبورا  
فإن ألت صروف دهر ... فلا تكن عندها ضجورا  
فكم رأينا أخوا هموم ... أعقب من بعدها سرورا  
فرب عسر أتى يسر ... فصار معسوره يسيرا  
وأنشدني أبو الفرج القرشي المعروف بالأصبهاني، لنفسه، من قصيدة:  
تعز ولا تأسى علي وتأس ... فجدّي محظوظ وأمري مقبل  
لعل الليالي أن تعود كعهدنا ... وتجمعنا حال تسر وتجذل  
ويعقب هذا اليأس نعي، وهنأ ... سرور، وبلوانا سراح معجل  
وأنشدني سعيد بن محمد بن علي الأزدي البصري المعروف بالوحيد، لنفسه:  
إن الزمان عزور ... له صروف تلور  
فاصبر قرب اغتمام ... يأتيك منه حبور  
ورب هم تفرى ... فلاح منه سرور  
قال مؤلف هذا الكتاب: ولي في محنة لحقتني، فكشفها الله تعالى عني بفضله:  
هون على قلبك الهموم فكم ... قاسيت هما أذى إلى فرح  
ما الشر من حيث تتقيه ولا ... كل مفض إلى ترح  
وأنشدني الأموي، أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، لنفسه من قصيدة، أولها:  
هل مشتكى لغريب الدار ممتحن ... أو راحم لوثيق الأسر مرتحن  
يقول فيها:  
كأن جلدي سجن فوق أعظمه ... والروح محبوسة للهم في البدن  
فالحمد لله حمد الصابرين على ... ما ساءني من قضاياها وأفجعني  
لعل دهرى بعد اليأس يسعفني ... بما أحب وما أرجو ويعقني  
وأن أنال المنى يوماً وإن طويت ... من فوق جثماني الأثناء من كفني  
وأنشدني لنفسه من قصيدة أولها:  
لقد بكر الناعي فوثب أن رأى ار ... تياعي لخطب عز فيه التجمل  
ويقول فيها:  
وما زال هذا الدهر يأتي بأضرب ... تسر وتبكي كلها تتقل  
فلا حزن يبقى على ذي كآبة ... ولا فرح يحظى به من يؤمل  
وأنشدني أيضاً لنفسه قصيدة منها:  
في ذمة الله من سارت بسيرهم ... مسرّي وأقام الخوف والحرق  
لئن أساء بنا دهر قضى شططاً ... وأرهق النفس هم حكمه رهق  
لقد أناب بعثي بعد معتبة ... لجت عوانقها وامتدت العلق  
وقال آخر:

يا قارع الباب رب مجتهد ... قد أدمن القرع ثم لم يلج

وربّ مستولج على مهلٍ ... لم يشق في قرعه ولم يهج  
علام يسعى الحريص في طلب ال ... رزق بطول الرواح والدج  
وهو وإن كفّ عنه طالبه ال ... رزق، وإن عاج منه لم يعج  
فاطو على الهمّ كشح مصطبرٍ ... فأخر الهمّ أوّل الفرج  
اصحب الدنيا مياومةً ... وادفع الأيام تندفع  
وإذا ما ضيقةً عرضت ... فالقها بالصبر تتسع  
وقريب منه، ما أنشدناه علي بن هارون بن علي بن يحيى المنجم، ولم يسم قائلاً:  
أدرج الأيام تدرج ... وبيوت الهمّ لا تلج  
ربّ أمر عزّ مطلبه ... هوّنته ساعة الفرج  
ولابن دريد من قصيدة:

كما لم يكن عصر الغضارة لابناً ... كذلك عصر الوؤس ليس بلائث  
وأنشدني أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي البصري الكاتب المعروف بالبغاء، لنفسه:  
تنكّب مذهب الهمج ... وعذ بالصبر تتهجج  
فإنّ مظلم الأيّا ... م محجوجّ بلا حجج  
تسامحنا بلا شكر ... وتمنعنا بلا حرج  
ولطف الله في إيّا ... فما فتح من اللجج  
فمن ضيق إلى سعة ... ومن غمّ إلى فرج  
وأنشدني أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج الكاتب البغدادي، لنفسه من قصيدة:

فسلّ عنك الهموم مصطبراً ... وكن لما كان غير منزعج  
كلّ مضيق يتلوّه متّسع ... وكلّ همّ يفضي إلى فرج  
ولغيره:

تشفّع بالنبيّ فكلّ عبد ... يجاب إذا تشفّع بالنبيّ  
ولا تخرج إذا ما ضقت يوماً ... فكم لله من لطفٍ خفيّ  
وإن ضاقت بك الأسباب يوماً ... فتق بالواحد الفرد العليّ  
كتب أبو محمد المهلب، وهو وزير، إلى أبي، كتاباً بخطه، فرأيت فيه كلاماً يستوفيه، ويتمثل عقبيه بهذين البيتين:  
لئن درست أسباب ما كان بيننا ... من الودّ ما شوقي إليك بدارس  
وما أنا من أن يجمع الله بيننا ... بأحسن ما كنّا عليه بآيس  
ولغيره، مفرد:

وقد يجمع الله الشيتين بعدما ... يظنّان كلّ الظنّ أن لا تلاقيا  
أنشدني عبيد الله بن محمد الصروي، لنفسه، من أبيات:  
وما أنا من بعد ذا آيسٍ ... بأن يأذن لله لي في اجتماع  
وأعس جدّ النوى باللقا ... وأرغم بالقرب أنف الزماع  
وأنشد أبو العتاهية:

الدهر لا يبقى على حالةٍ ... لا بد أن يقبل أو يدبر  
فإن تلقاك على وهلةٍ ... فاصبر فإن الدهر لا يصبر  
وقال آخر:

إذا ضيّقت أمراً ضاق جداً ... وإن هوّنت ما قد عزّ هانا  
فلا تهلك لما قد فات غمّاً ... فكم شيء تصعب ثمّ لانا

قال مؤلف هذا الكتاب: إن هذا المصراع الأخير، يشبه قول بشار بن برد، وهو من أحسن ما قيل في معناه، وهو يدخل في مضمون هذا الكتاب، في باب من نالته شدة في هواه:

لا يؤيسنك من مخترقةٍ ... قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرةٍ ... والصعب يمكن بعلمنا جمحا  
ولبشار خبر مع المهدي، في هذين البيتين، ليس هذا موضعه.

وأخذ المعنى أبو حفص الشطرنجي، نديم المتوكل، فقال:

عرّضنّ للذي تحبّ بحبّ ... ثمّ دعه يروضه إبليس

صابر الحبّ لا يصدك عنه ... من حبيب تجهمّ وعبوس

فلعلّ الزمان يدنيك منه ... إنّ هذا الهوى نعيمٌ ويوس

وأخبرني من أنشدني الشعر، أن فيه لحناً من خفيف الرمل بالوسطى، لبعض المغنين في زمن المتوكل.

وفي هاتين القطعتين، معنى من القول بديع، لحنه عليّة بنت المهدي، حيث تقول: ولها فيه لحن مشهور، على ما

وجدت أبا الفرج الأصبهاني يذكره في كتابه الأغاني الكبير، وقد ظرفه:

تحبّ فإنّ الحبّ داعية الحبّ ... فكم من بعيد الدار مستوجب القرب

تبينّ فإن حدثت أن أخوا هوىً ... نجا سالماً فأرج النجاة من الحبّ

إذا لم يكن في الحبّ سخطٌ ولا رضى ... فأين حلالات الرسائل والكتب

وللعباس بن الأحنف، في غير هذا المعنى، ولكنه من هذا الباب:

أما تحسبني أرى العاشقين؟ ... بلى، ثمّ لست أرى لي نظيراً

لعلّ الذي بيديه الأمور ... سيجعل في الكره خيراً كثيراً

قال مؤلف هذا الكتاب: وقيل لي إن في البيت الأول منهما لحناً ثانياً ثقيل مطلقاً.

ووجدت في بعض الكتب، البيت الثاني منهما غير منسوب إلى أحد، وقد جعل قبله بيتاً، وهو:

تعزّ وهون عليك الخطوب ... عساك ترى بعد هذا سرورا

ووجدت في كتاب أبي القاسم الحسين بن محمد بن الحسن بن إسماعيل السكوني: حدثنا إبراهيم بن محمد، قال:

أنشدنا أحمد بن يحيى، قال: أنشدنا ابن الأعرابي:

تعزّ وهون عليك الأمور ... عساك ترى بعد هذا سرورا

فإنّ الذي بيديه الأمور ... سيجعل في الكره خيراً كثيراً

وأنشدنيهما أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن علي بن يحيى المنجم، وقال لي: فيهما لعريب، من الثقيل الثاني لحناً.

وقال آخر:

قربت لي أملاً فأصبح حسرة ... ووعدتني وعداً فصار وعيدا  
فلأصبرن على شقائي في الهوى ... فلربما عاد الشقي سعيدا  
وقال آخر:

لعلك أن تلاقني في ليال ... وأيام من الدنيا بقينا  
حبيباً نازحاً أمسيت منه ... على يأسٍ وكتت به ضنينا

وأخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني: قال: حدثني أحمد بن محمد الأسدي، قال: حدثني محمد بن صالح بن شيخ  
بن عميرة، عن أبيه، قال: حجب طل الخادم عن عليّة بنت المهدي، فقالت: وصحفت اسمه في أول بيت:

أيا سرورة البستان طال تشوّقي ... فهل لي إلى ظلّ لديك سبيل  
متى يلتقي من ليس يقضى خروجه ... وليس لمن يهوى إليه سبيل  
عسى الله أن يرتاح من كربة لنا ... فيلقى اغتباطاً خلةً وخليل  
وقال العباس بن الأحنف، ويروي لمحمد بن دنقش حاجب المعتصم بالله:

قالوا لنا إنّ بالقاطول مشتانا ... ونحن نأمل صنع الله مولانا  
والناس يأتمرون الرأي بينهم ... والله في كل يوم محدث شانا  
وأنشدنيهما أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، لفضل الشاعرة، وقال لي: فيهما لعريب لحن، ولغيرها عدة ألحان.

وأنشدني سعيد بن محمد الأزدي، المعروف بالوحيد، لنفسه:  
كانت على رغم النوى أيامنا ... مجموعة النشوات والأطراب  
ولقد عتبت على الزمان لبينهم ... ولعله سيمنّ بالإعتاب  
ومن الليالي إن علمت أحبة ... وهي التي تأتيك بالأحباب  
وأنشدني أيضاً لنفسه:

إن راعني منك الصدود ... فلعلّ أيامي تعود  
إذ لا تناولنا يد ال ... نعماء إلا ما نريد  
ولعلّ عهدك بالهوى ... يجيى فقد تحيى العهود  
فالغصن يبس تارة ... وتراه مخضراً يمد  
إني لأرجو عطفة ... يكي لها الواشي الحسود  
فرجاً تقرّ به العيون ... فينجلي عنها السهود

وحدثني علي بن الحسن، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: أنشدني محمد بن إبراهيم.  
قال مؤلف هذا الكتاب: وحدثني الحسين بن الحسن بن أحمد بن محمد بن يحيى الوائقي، قال: سمعت أبا علي بن  
مقلة، ينشد، في نكته عقيب الوزارة الأولى، والإلحاقات من رواية الوائقي:

إذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاق لما به الصدر الرحيب  
وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في أماكنها الخطوب  
ولم تر لانكشاف الضرّ وجهاً ... ولا أغنى بحيلته الأريب  
أتاك على قنوطك منه غوث ... يمنّ به القريب المستجيب  
وكلّ الحادثات وإن تنهت ... فموصولٌ بها فرجٌ قريب

وقال آخر:

في كلّ بلوى تصيب المرء عافيةً ... ما لم يصب بوفاةٍ أو بذي عار  
وكلّ خطبٍ يلاقي حدّه جملٌ ... ما لم يكن يوم يلقى فيه في النار  
وأنشدني الفضل بن أحمد بن الفضل الحنائي، قال: أنشدني الأمير أبو محمد جعفر بن ورقاء الشيباني لنفسه ...  
قال مؤلف هذا الكتاب: ورأيت أنا أبا محمد، وأنشدني أشياء، وحدث بأخبار، ولم أسمع هذا منه:  
الحمد لله على ما قضى ... في المال لما حفظ المهجه  
ولم تكن من ضيقة هكذا ... إلا وكانت بعدها فرجه  
وحدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: أنشدني الحسين بن عبد  
الرحمن:

لعمرو بنّي اللذين أراهما ... جزوعين إن الشيخ غير جزوع  
إذا ما الليالي أقبلت بإساءة ... رجونا بأن تأتي بحسن صنيع  
وحدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: قال رجل من قريش:  
حلبنا الدهر أشطره ومرّت ... بنا عقب الشدائد والرحاء  
فلا تأسف على دنيا تولّت ... ولا تفرغ إلى غير الدعاء  
هي الأيام تكلمنا وتأسو ... وتأتي بالسعادة والشقاء  
قال مؤلف هذا الكتاب: البيت الأول والثالث من هذه الأبيات، لعلي بن الجهم بن بدر من بني سامة بن لؤي، لما  
حبسه المتوكل، من قصيدة مشهورة، أولها:  
توكلنا على ربّ السماء ... وسلّمنا لأسباب القضاء  
وهي نيف وعشرون بيتاً، وقد رواها الناس له، وما روى أحد منهم البيت الثاني، ولا علمت أحداً جاء به، غير ابن  
أبي الدنيا.

وقال آخر:

عسى فرجٌ من حيث جاءت مكارهي ... يجيء به من جاءني بالمكاره  
عسى منقذٌ موسى بحسن أقداره ... وقد طرحت أمّه في بحاره  
سيرتاح لي فما أعاني بفرجةٍ ... فينتاشني منها بحسن اختياره  
وقال آخر:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت ... بما فقدناه من مالٍ ومن نشب  
فالمال مكتسبٌ والعزّ مرتجعٌ ... إذا النفوس وقاها الله من عطب  
ولحمود الوراق:

إذا منّ بالسراء عمّ سرورها ... وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر  
وما منهما إلاّ له فيه منّةٌ ... تضيق بها الأوهام والوصف والشكر  
وقال مؤلف هذا الكتاب:

لئن عداني عنك الدهر يا أملي ... وسلّ جسمي بالأسقام والعلل  
وشتّ شمل تصافينا والفتا ... فالدهر ذو غيرٍ والدهر ذو دول

فالحمد لله حمد الصابرين على ... ما ساء من حادث يوهي قوى الأمل  
قد استكنت لصرف الدهر والتحفت ... عليّ منك غواشي الخوف والوجل  
واعترضت منك بسقم شأنه جلل ... ومن وصالك بالهجران والملل  
وبعد أمني من غدرٍ ومقليةٍ ... غدرًا تصرّح بالألفاظ والرسل  
ومن لقائك لقياً الطبّ أرحمهم ... فظّاً، وأرفقهم مدنٍ إلى الأجل  
ولست آيس من رجوع الوصال ولا ... عود العوافي، ولا أمن من السبل  
قال: ولي آيات أيضاً من قصيدة، في محنة لحقني، فكشفها الله تعالى بلطفه عني:  
أما للدهر من حكم رضيّ ... يدال به الشريف من الدينيّ  
فتستعلي الرؤوس على الذنابي ... ويتتصف الذكيّ من الغييّ  
وأقول فيها:

ومن عاصاه دمعٌ في بلاءٍ ... فليس بكاء عيني بالعصيّ  
وما أبكي لو فرّ لم يفره ... زمانٌ خان عهد فتىّ وفيّ  
ولا آسى على زمنٍ تقصّى ... بعيشٍ ناضرٍ غضّ نديّ  
ولكن من فراق سراة قومٍ ... عهدتموا شمساً في النديّ  
ومن حدثٍ يفوتني المعالي ... على عهدٍ بما حدث فتىّ  
وأنّ يدي تقصّر عن هلاك آل ... عدوّ وعن مكافاة الوليّ  
وما تغني الحوادث إن ألمت ... سوى قلبٍ عن الدنيا سخيّ  
وصبر ليس تنزحه الليالي ... كترح الدلو صافية الركيّ  
وليس بأيس من كان يخشى ... ويرجو الله من صنع قويّ  
قال: ولي قصيدة قتلها بالأهواز، لما صرفت في الدفعة الأولى من تقليدي القضاء، بالأهواز، وقبضت ضيعة من  
ضياعي، فخرجت إلى بغداد أطلبها، وبلغني عن أعداء لي، إظهار شماتة بالحال، وتعصب للصارف:

لئن أشمت الأعداء صر في ومحنتي ... فما صرفوا فضلي ولا ارتحل المجد  
مقامٌ وترحالٌ وقبضٌ وبسطةٌ ... كذا عادة الدنيا وأخلاقها النكد  
وما زلت جلداً في الملمات قبلها ... ولا غرو في الأحيان أن يغلب الجلد  
فكم ليث غاب شرّده تعالّب ... وكم من حسامٍ فله غيلةٌ عمد  
وكم جيفةٌ تعلو وترسب درّة ... ومنحسة تقوى إذا ضعف السعد  
ألم تر أنّ الغيث يجري على الربيّ ... فيحظى به إن جاد صيّه الوهد  
وكم فرجٍ والخطب يعناق نيله ... يجيء على يأس إذا ساعد الجدّ  
لقد أقرض الدهر السرور فإن يكن ... أساء اقتضاءً فالقروض لها ردّ  
فكم فرحة تأتي على إثر ترحهٍ ... وكم راحة تطوى إذا أتصل الكدّ  
وكم منحة من محنة تستفيدها ... ومكروه أمر فيه للمرتحي رفد  
على أنّي أرجو لكشف الذي عرا ... مليكاً له في كلّ نائبة رفد  
فيمنع منّا الخطب، والخطب صاغراً ... وتمسي عيون الدهر عتّا هي الرمّد

ونعتاض باللقيا من البين أعصراً ... مضاعفةً تبقى ويستهلك البعد  
ونضحى مراحي قد غنينا عن الغنى ... بيا راهبي نجران ما صنعت هند

ولي أيضاً من قصيدة في محنة أخرى:

أعيا دواي أساته ودواهم ... فغلوت لا أرجو سوى المتطول  
ربُّ عليه في الأمور توكلّي ... هو عدتي في النائبات ومونلي  
سييح مما قد أقاسي فرجةً ... فيغيثني منه بحسن تفضل  
وقال آخر:

فصبراً أبا جعفر إته ... مع الصبر نصرٌ من الصانع  
فلا تيأسن أن تنال الذي ... تؤمل من فضله الواسع  
وقال آخر:

وإذا ضاق زمانٌ بامرئ ... كان فيه عند ضيق متسع  
وقال آخر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويتلي الله بعض القوم بالنعم  
ولحمود الوراق:

صابر الدهر على كرّ النوائب ... من كنوز البرّ كتمان للصائب  
وألبس الدهر على علاته ... تجد الدهر مليئاً بالعجائب  
وأنشدني الوحيد لنفسه:

عليك رجاء الله ذي الطول والعطف ... بجملة ما تبدي من الأمر أو تخفي  
فقد خلق الأيام دائرة بنا ... تقلبنا من كرّ صرفٍ إلى صرف  
فكم فرج لله يأتي مرفرفاً ... على خافق الأحشاء في تلف مشف  
فلا تمكين من طرفك اليأس والأسى ... لعل الذي ترجوه في مرجع الطرف  
وصبراً جميلاً إن لله عادة ... مجرّبة، إتياعه العسف باللطف  
وقال ابن بسام:

ألا ربّ ذلّ ساق للنفس عزّة ... ويا ربّ نفسٍ للتعزّز ذلّت  
تبارك رزاق البرية كلّها ... على ما رآه، لا على ما استحقت  
فكم حاصلٍ في القيد والباب دونه ... ترقّت به أحواله وتعلّت  
تشوب القذى بالصفو والصفو بالقذى ... ولو أحسنت في كلّ حال ملّت  
سأصدق نفسي إن في الصدق راحة ... وأرضى بدنياي، وإن هي قلت  
وإن طرقتني الحادثات بنكبة ... تذكّرت ما عوفيت منه فقلت  
وما محنة إلا والله نعمة ... إذا قابلتها أدبرت واضمحلّت  
وأنشدني أبو الفرج المخزومي المعروف بالبيغاء، لنفسه:

كل الأمور إلى من ... به تتم الأمور  
وأفزع إليه إذا لم ... يجرك عجزاً مجير



وكلّ صعبٍ عسيرٍ ... عليه سهل يسير  
ولآخر:

أيها الإنسان صبراً ... إنّ بعد العسر يسرا  
اشرب الصبر وإن كا ... ن من الصبر أمراً  
وقال آخر:

كأنك بالأيام قد زال بؤسها ... وأعطتك منها كلّ ما كنت تطلب  
فترجع عنها راضياً غير ساخطٍ ... وتحمدها من بعد ما كنت تعتب  
وحدثني الحسن بن صافي مولى ابن المتوكل القاضي، قال: قرأت على حائط مسجد مكتوباً بالقلم:  
ليس من شدة تصيبك إلا ... سوف تمضي وسوف تكشف كشفها  
لا يضق ذرعك الرحيب فإنّ ال ... نار يعلو لهيبها ثم تطفأ  
كم رأينا من كان أشقى على الهل ... ك فوافت نجاته حين أشقى  
وقال آخر:

الدهر خدنٌ مصافٍ ذو مخادعةٍ ... لا يستقيم على حالٍ لإنسان  
حلواً ومرّاً وجمّاً وذو فرقٍ ... يخالط السوء منه فرط إحسان  
وقال آخر:

لئن قدّمت قبلي رجالاً، لطالما ... مشيت على رسلي وكنت المقدّما  
ولكنّ هذا الدهر يعقب صرفه ... فيبرم منقوضاً وينقض مبرما  
وأنشدني أبو الفرج البيهقي لنفسه:

كم كربةٍ ضاق صدري عن تحمّلها ... فملت عن جلدي فيها إلى الجزع  
ثم استكنت فأدّنتني إلى فرجٍ ... لم يجز بالظنّ في يأس ولا طمع  
وأنشدني سيدوك الواسطي لنفسه من قصيدة:

أبي الله إلا أن يغيب عباده ... بجلسته تحت الشراع المطّب  
إلى أن يموت المرء يرجو ويتقي ... ولا يعلم الإنسان ما في المغيب  
وأنشدني سعد بن محمد بن علي الأزدي، المعروف بالوحيد لنفسه:

يا نفس كوني لروح الله ناظرة ... فإنّه للأمان طيب الأرج  
كم لحظة لك مخلوس تقلّبها ... كانت مدى لك بين اليأس والفرج  
وأنشدني طلحة بن محمد المقرئ الشاهد، قال: أنشدني نبطويه، ولم يسم قائلاً:  
أتياؤس أن يساعذك النجاح ... فأين الله والقدر المتاح  
هي الأيام والنعمى ستجزى ... يجيء بما غدوّ أو رواح  
وقال آخر:

إذا اشتدّ عسرٌ فأرج يسراً فإنّه ... قضى الله أنّ العسر يتبعه اليسر  
عسى فرج يأتي به الله إنّه ... له كلّ يوم في خليقته أمر  
فكن عندما يأتي به الدهر حازماً ... صبوراً فإنّ الحزم مفتاحه الصبر

فكم من همومٍ بعد طولٍ تكشّفت ... وآخر معسور الأمور له يسر  
وقال آخر:

وأكثر ما تلقى الأماني كواذباً ... فإن صدقت جازت بصاحبها القدرا

وآخر إحسان الليالي إساءة ... على أنّها قد تتبع العسر اليسرا

ولأبي صفوان القديدي البصري من أبيات إلى إبراهيم ابن المدبر لما عزل عن البصرة:

لا تجزعن فإن العسر يتبعه ... يسرٌ ولا يؤس إلا بعده ريف

وللمقادير وقت لا تجاوزه ... وكلّ أمر على الأقدار موقوف

وربّ من كان معزولاً فيعزل من ... ولّي عليه وللأحوال تصريف

فكم عزيز رأينا بات محتجباً ... فصار يحجب عن قوم به خيفوا

وقال أبو الشبل عاصم بن وهب التميمي، البرهجي، البصري من قصيدة:

من ذا رأيت الزمان أيسره ... فلم يشب يسره بتعسير

أم هل ترى عسرة على أحد ... دامت فلم تنكشف بتيسير

وجدت بخط أبي الحسين بن أبي الغل الكاتب:

ليس لما ليست له حيلة ... إلا عزاء النفس والصبر

وخير أعوان أخي محنة ... صبرٌ إذا ضاق به الصدر

والمرء لا يبقى على حالة ... والعسر قد يتبعه اليسر

وقال آخر:

صبراً قليلاً فإن الدهر ذو غير ... ما دام عسرٌ على حالٍ ولا يسر

قد يرحم المرء من تغليظ محنته ... وليس يعلم ما يجي له القدر

والدهر حلّوٌّ ومرٌّ في تصرفه ... خيرٌ وشرٌّ وفيه العسر واليسر

أنشدني محمد بن إسحاق بن يحيى بن علي بن يحيى المنجم، وأخبرني أن فيه لحناً من المهجوع قديماً:

كن عن همومك معرضاً ... وكل الأمور إلى القضا

وأبشر بطول سلامةٍ ... تسليك عمّا قد مضى

وأنشدني علي بن أبي طالب بن أبي جعفر بن المهلول التنوخي، قال: أنشدنا جدي القاضي أبو جعفر، لنفسه:

فصبراً وإمهالاً فكلّ ملمة ... سيكشفها الصبر الجميل فأمهل

وأنشدنا، قال: أنشدني جدي القاضي أبو جعفر، لنفسه أيضاً:

وقد يأمل الإنسان ما لا يناله ... ويأتيه رزق الله من حيث يبأس

وأنشدني أيضاً، قال: أنشدني جدي القاضي أبو جعفر، لنفسه:

إذا استصغرت من دنياك حالاً ... ففكّر في صروف كنت فيها

وأحدث شكر من نجاك منها ... وأبدلها بنعمى ترصّيها

وقال آخر:

الدهر إعراض وإقبال ... وكلّ حال بعدها حال

وصاحب الأيام في غفلةٍ ... وليس للأيام إغفال

ما أحسن الصبر ولا سيّما ... بالحرّ إن حالت به الحال  
وأنشدني محمد بن بشير مولى الأزدي لنفسه:  
إني رأيت وللأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر  
فأصبر على مضض الإدلاج في السحر ... وفي الرواح إلى الحاجات والبكر  
لا يعجزنك ولا يضجرك مطلبها ... فالنجح يتلف بين العجز والضجر  
وقلّ من كان في أمر يحاوله ... وأستجد الصبر إلّا فاز بالظفر  
وأخبرني أبو عبيد الله المرزباني، قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد، قال: أخبرنا أبو عثمان الأشناداني عن التوزي، عن  
الأصمعي، قال: بلغني أن الأشتر دخل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه.

وحدثني أحمد بن محمد الجوهري، قال: حدثنا محمد بن جرير، قال: حدثنا عمر بن شبة، قال: حدثنا علي بن محمد  
المدائني، قال: حدثنا أبو إسحاق المالكي، قال: دخل الأشعث بن قيس على أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو  
قائم يصلي، فقال: يا أمير المؤمنين، أدووب بالليل، ودووب بالنهار، فافتل علي عليه السلام، وهو يقول:  
إصبر على مضض الإدلاج في السحر ... وفي الرواح إلى الحاجات والبكر  
لا تضجرن ولا يحزنك مطلبها ... فالنجح يتلف بين العجز والضجر  
إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر  
وقلّ من لجّ في شيء يطالبه ... واستشعر الصبر إلّا فاز بالظفر  
وأخبرني أبو عبيد الله، قال: حدثني الحسن بن محمد المخرمي، قال: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، قال: حدثنا  
أحمد بن طارق، قال: حدثنا عمر بن ثابت، عن أبيه، عن حبة بن جوين، قال: رأيت أمير المؤمنين علياً عليه السلام،  
فقال لي: يا حبة، ما لي أراك أصبحت مهموماً؟  
فقلت: يا أمير المؤمنين، علي لأمر محمولة.  
فقال: لا تضجر، أما علمت ما قلت في الصبر.  
فقلت: وما هو؟ فقال:

إصبر على مضض الإدلاج في السحر ... وفي الرواح إلى الحاجات والبكر  
وذكر بقية الأبيات.

وقال آخر، وفيه صنعة:  
قد فرّج الله من الهجر ... ونلت ما آمل بالصبر  
في ساعة اليأس أتاني المنى ... كذاك تأتي دول الدهر  
وقال آخر:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله ... عند الإله وأنجاه من الكرب  
من شدّ كفاً بصبرٍ عند نائبة ... ألوت يداه بجبلٍ غير منقضب  
وقال آخر:

ما أحسن الصبر في موطنه ... والصبر في كلّ موطن حسن  
حسبك من حسنه عواقبه ... عاقبة الصبر ما لها ثمن  
وقال آخر:

إن خفت من خطب ألم فبعده ... فرجٌ يرجى عنده ويخاف  
فأصبر على قحم النوائب مثلما ... صبرت لها آباؤك الأشراف  
وأنشدت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي:  
صبرت على اللذات لما تولت ... وألذمت نفسي الصبر حتى استمرت  
وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأيت صبري على الذلّ ذلت  
فقلت لها يا نفس عيشي كريماً ... لقد كانت الدنيا لنا ثم ولت  
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن أطمعت تافت وإلا تسلت  
فكم غمرة دافعتها بعد غمرة ... تجرعتها بالصبر حتى تولت  
أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أنشدني الحسن بن القاسم المؤدب، قال: أنشدنا محمد بن القاسم بن بشار  
الأنباري، لأبي العتاهية:

الدهر لا يبقى على حالة ... لا بدّ أن يقبل أو يدبرا  
فإن تلقاك بمكروهه ... فأصبر فإن الدهر لن يصبرا  
ولعلي بن الجهم:

هي النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر أيام تجور وتعدل  
وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... وأفضل أخلاق الرجال التجميل  
وللواثق بالله:

هي المقادير تجري في أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال  
يوماً تريك وضيع القوم مرتفعاً ... إلى السماء ويوماً تخض العالي  
ولسعيد بن حميد الكاتب:

لا تعبتن على النوائب ... فالدهر يرغم كلّ عاتب  
واصبر على حدثانه ... إن الأمور لها عواقب  
ما كلّ من أنكرته ... ورأيت جفوته تعاتب  
ولكلّ صافية قذى ... ولكلّ خالصة شوائب  
والدهر أولى ما صبر ... ت له على رنق المشارب  
كم نعمة مطوية ... لك بين أثناء النوائب  
ومسرة قد أقبلت ... من حيث تنتظر المصائب

ووجدت بخط أبي الحسين بن أبي البغل الكاتب، من أبيات؛ ولم أجده نسبه إلى نفسه:  
فصبراً على حلو القضاء ومرّه ... فإنّ اعتياد الصبر أدعى إلى اليسر  
وخير الأمور خيرهنّ عواقباً ... وكم قد أتاك النفع من جانب الضرّ

ومن عصم الله الرضا بقضائه ... ومن لطفه توفيقه العبد للصبر  
ثم وجدت في كتاب أبي عبد الله محمد بن العباس الزبيدي، الذي ألفه فيمن رثى ما لا يرثى مثله، وعليه ترجمة بخط  
الصولي: مرثي البهائم، والنبات، والأعضاء، وغير ذلك، قصيدة نسبها الزبيدي إلى ابن أبي البغل، وذكر بخطه  
أيضاً، أنه عارض بها في سنة ثمان وثلثمائة قصيدة يرثي بها ستوراً له لما حبس، وهي تزيد على مائة وخمسين بيتاً، وهي

حسنة، كثيرة الحكم، فاخترت منها ما يجري مجرى الأبيات الثلاثة المقدمة، لأني وجدتها فيها، وبعدها:

وإني لأرجو الله يكشف محنتي ... ويسمع للمظلوم دعوة مضطرّ  
فيرأب ما أتأى، ويعطف ما أتوى ... ويعدل ما استوحى ويجبر من كسري  
لقد عجمتني الحادثات مثقفاً ... إذا ضاقه همُّ ثناه إلى الصبر  
وما حزني أن كرّ دهري بصرفه ... عليّ ولكن أن يفوت له وتري  
فإن فاتني وتري فأيسر فانت ... إذا أنا عوّضت الثواب من الوفّر  
ولطف كفايات الإله مبشّري ... بنيل الذي أملت لا بيدٍ صفر  
فإن يهلّ البحر أمراً فهو آملٌ ... بلوغ الغنى فيما يهول من البحر  
وربّ مضيقٍ في القضاء ووارطٍ ... رأى محرّجاً بين المتقفّة السمر  
ووجدت بخطه أيضاً لبعض الشعراء:

ليس لمن ليست له حيلة ... موجودة خير من الصبر  
والصبر مرٌّ ليس يقوى به ... غير رحيب الذرع والصدر  
ألق فضول الهمّ عن جانبٍ ... وافزع إلى الله من الأمر  
وذكر إسحاق الموصلي في كتاب شجاع أن في الأول مع بيتين ذكرهما غير هذا الثاني والثالث، لحن من الثقيل الأول،  
بإطلاق الوتر في مجرى البصر.

وقال آخر:

وما التحف الفتى بالصبر إلا ... وكفّت عنه أيدي النائبات  
وذو الصبر الجميل يفيد عزّاً ... ويكرم في الحياة وفي الممات  
ووجدت بخط القاضي أبي جعفر بن البهلول التنوخي لبعض الشعراء:  
الصبر مفتاح ما يرجمي ... وكلّ خير به يكون  
فاصبر وإن طالت الليالي ... فربّما طواع الحرون  
وربّما نيل باصطبار ... ما قيل هيهات أن يكون  
ولأبي الحسين الأطروش المصري من أبيات:

ما زلت أدمغ شدّتي بتصبري ... حتى استرحت من الأيادي والمن  
فاصبر على نوب الزمان تكراً ... فكأنّ ما قد كان منها لم يكن  
حدثني علي بن أبي الطيب، قال؛ حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: حدثنا أبو الحسن الخنطبي،  
قال: قال هشام بن عبد النماري: أثاروا قبراً بنمار فأصابوا فيه حجراً مكتوب فيه:

اصبر لدهر نال من ... ك فهكذا مضت الدهور  
فرح وحزن مرّة ... لا الخوف دام ولا السرور  
وقال آخر:

اصبر على الدهر إن أصبحت منغمساً ... بالضيق في لججٍ تهوي إلى لجج  
فإن تضايق أمر عنك مرتجعاً ... فاطلب لنفسك باباً غير مرتجع  
لا تيأسن إذا ما ضقت من فرجٍ ... يأتي به الله في الروحات والدلج

فما تجرّع كأس الصبر معتصمٌ ... بالله إلا أتاه الله بالفرج  
وأنشدنيهما أبو إسحاق إبراهيم بن علي الهجيمي بالبصرة، وقد أتت عليه يومئذ مائة سنة وثلاث سنين، قال:  
أنشدت لبعضهم: وجعل أولها: لا تيأسن، والثاني: فإن تضايق، والثالث: فاصبر على الدهر، والرابع فما تجرّع.  
وقال آخر:

وألزمت نفسي الصبر في كلّ محنةٍ ... فعادت بإحسانٍ وخيرٍ عواقبه  
ومن لم ينط بالصبر والرفق قلبه ... يكن غرضاً أودت بنبل جوانبه  
وقال آخر:

وإني لأغضي مقلنيّ على القذى ... وألبس ثوب الصبر أبيض أبلجا  
وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ ... عليّ فما ينفك أن يتفرّجاً  
وكم من فتى سدّت عليه وجوهه ... أصاب لها في دعوة الله مخرجا  
ولمحمد بن يسير:

إنّ الأمور إذا أنسدّت مسالكها ... فالصبر يفرج منها كلّما رتجا

لا تيأسن وإن طالّت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا  
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا  
وقريب منه لمدرّك بن محمد الشيباني على ما وجدته في كتاب:  
مستعمل الصبر مقرون به الفرج ... يبلى فيصبر والأشياء ترتج  
حتى إذا بلغت مكنون غايتها ... جاءتك تزهري في ظلماتها السرج  
فاصبر، ودم، واقرع الباب الذي طلعت ... منه المكاره فالمعري به يلج  
بقدره الله فأرض الله وأرج به ... فعن إرادته الغمّاء تنفرج  
ووجدت في نسخة عتيقة من شعر أبي عبد الرحمن العطوي، هذه الأبيات منسوبة إليه، وفيها ألفاظ مختلفة، فألحقتها  
تحت الرواية الأولى المنسوبة إلى مدرّك.

ووجدت في هذه النسخة لأبي عبد الرحمن العطوي، أبياتاً منها:

ينوب الخطب أوله غليل ... وآخره شفاء من غليل  
وكم من خلّة كانت إلى ما ... يجيش عنانه أهدى سبيل  
وكم غادٍ مسيف ضمّ أهلاً ... ومال موبق قبل المقيّل  
وكلّ منيخةٍ بفناء قومٍ ... من الأحداث فهي إلى رحيل  
كلا نجمي صروف الدهر خيراً ... وشرّاً لابسٍ ثوب الأفول  
وقال آخر:

لقّ الحوادث تسليمًا ولا ترع ... واصبر فليس بمغنٍ شدة الجزع  
من صاحب الدهر لاقى من تصرفه ... ما لا يدوم على يأس ولا طمع  
حيناً يسرّ وأحياناً يسوء فلا ... هذا بياق ولا هذا بمنقطع  
وكتب إلي أبو أحمد عبد الله بن عمر بن الحارث المعروف بالحارثي، جواباً، قصيدة منها:  
قلّ من سرّه رضى الدهر إلا ... ساءه سخطه بما لا يطاق

وكذا عادة الزمان شتات ... والنتائم وإلفه وافتراق  
ولأبي أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم، إلى أبي علي محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان لما ولي الوزارة، من أبيات:  
لقد كذبت فيك العدو ظنونه ... وقد صدقت فيك الصديق المواعيد  
وقد تحسن الأيام بعد إساءة ... وإن كان في الأمر المؤجل تبعيد  
وأنشدني بعض شعراء قريش، وهو أبو الحسن علي بن الحسن الجمحي من أهل البائين، بلد قريب من سيراف، لأبي  
صخر الهذلي، وقال لي: فيه لحن من الرمل مزوم قديم:  
بيد الذي شغف الفؤاد به ... فرج الذي ألقى من الهم  
كربٌ بقلبي ليس يكشفه ... إلاً ملكٌ عادل الحكم  
ولأبي تمام الطائي:

أألفة النحيب كم افتراق ... أطلّ فكان داعية اجتماع  
وليست فرحة إلاً وجاءت ... لموقوف على ترح الوداع  
وأنشدني أحمد بن الحسن بن سخت البغدادي، ويعرف بالخصاص، وبابن بنت هرثمة، قال: أنشدنا أحمد القطربلي،  
وغنانا فيه، وهو من أبيات ذكرها ابن بنت هرثمة:  
ولله لطفٌ يرتجى ولعله ... سيعقبنا من كسر أيدي النوى جبرا  
وقال آخر:

وربّ أمر مرتج بابه ... عليه أن فتح أقفال  
ضاقّت بذى الحيلة في فتحه ... حيلته والمرء محتال  
ثم تلقته مفاتيحه ... من حيث لا يخطر بالبال  
ولعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، من أبيات، جواباً:  
دعوت مجيباً يا أبا الفضل سامعاً ... ويا رب مدعوً وليس بسامع  
فأوقعت شكواك الزمان وصرفه ... إليه بحق في أحقّ المواقع  
فصبراً قليلاً كلّ هذا سينجلي ... ويدفع عنك السوء أقدر رافع  
فما ضاق أمرٌ قطّ إلاً وجدته ... يؤول إلى أمر من الخير واسع  
ولمحمد بن حازم الباهلي:

إذا نابي خطبٌ فرعت لكشفه ... إلى خالقي من دون كلّ حميم  
وإنّ من استغنى وإن كان معسراً ... على ثقةٍ باللّه غير ملوم  
ألا ربّ عسرٍ قد أتى اليسر بعده ... وغمرة كرب فرّجت لكظيم  
هو اللهر يومٌ يوم بؤسٍ وشدةٍ ... ويوم سرورٍ للفتى ونعيم  
وله:

ألا ربّ أمرٍ قد تربت وحاجةٍ ... لها تحت أحناء الضلوع غليل  
فلم تلبث الأيام أن عاد عسرها ... ليسرٍ ونجم والأمر تحول  
وقال آخر:

اصبر على مفضّ الزمان ... وإن رمى بك في اللجج

فلعلّ طرفك لا يعو ... د إليك إلا بالفرج

وقال آخر:

كن لما لا ترجو من الأمر أرجى ... منك يوماً لما له أنت راجي

إنّ موسى مضى ليقبس ناراً ... من شعاع أضواء والليل داجي

فانثنى راجعاً وقد كلّم اللّ ... ه وناجاه وهو خير مناجي

وكذا الأمر حين يشتدّ بالمرء ... مؤدّ لسرعة الإنفراج

حدثنا محمد بن بكر بن داسه البصري، بما، قال: حدثنا أبو حاتم المغيرة بن محمد المهلبي، قال: حدثنا أبو بشر محمد

بن خالد البجلي، قال: حدثني أبو فزارة العكلي، عن القاسم بن معن المسعودي، قال: أتى الحجاج بعبد الله بن

وهيب النهدي، فقال له: أنت القائل؟

فيا صاحبي رحلي عسى أن أراكما ... كما كنتما إنّ الزمان يوب

فلا تياساً من فرحة بعد ترحة ... وللدهر أمرٌ حادثٌ وخطوب

سيرحمنا مولى شعيبٍ وصالحٍ ... وأرحامنا ندلي بما فتخيب

وذكر بقية الشعر والخبر.

أنشدني أبو العباس هبة الله بن محمد بن يوسف بن يحيى بن علي بن يحيى المنجم، لجدّه أبي أحمد يحيى بن علي، من

قصيدة:

خاف من فقرٍ تعجّله ... والغنى أولى بمنتظره

ليس منكوراً ولا عجباً ... أن يعود الماء في نهره

قال مؤلف هذا الكتاب: البيت الأول كأنه مأخوذ من قول الله عز وجل: " الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم

بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً " ، والثاني: من المثل المشهور على ألسنة العامة.

وكتب أبو علي بن مقلة، في نكته، إلى زنجي الكاتب، رقعة يشكو فيها عظم محنته، ويقول: إن فرط يأسه من

زوالها، قد كاد يتلف نفسه.

فكتب إليه زنجي، في جملة الجواب:

ألا أيها الشاكي الذي قال مفصّحاً ... لقد كاد فرط اليأس أن يتلف المهج

رويدك لا تياس من الله واصطبر ... عسى أن يوافينا على غفلة فرج

وأنشدني أبو الفرج الخزومي، المعروف بالبيغاء، لنفسه:

صبرت ولم أحمد على الصبر شيمتي ... لأنّ مآلي لو جزعت إلى الصبر

ولله في أثناء كلّ ملّمةٍ ... وإن آلت، لطفٌ يحضّ على الشكر

وكم فرجٍ واليأس يحجب دونه ... أتاك به المقلور من حيث لا تدري

وأنشدني محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب لنفسه:

ما قادي طمع يوماً إلى طبعٍ ... ولا ضرعت إلى خلقٍ من البشر

ولا اعتصمت بجمل الصبر معتمداً ... على المهيمن إلاّ فزت بالظفر

وأنشدني الوحيد لنفسه:

إني وإن عصبت بالعيش نائبةً ... فسبّطني بين اليأس والطمع



لا أستدتم إلى صبر أجرعه ... ولا أسرّ زمان السوء بالجزع  
وأنشدني أبو الفرج المخزومي المعروف بالبيغاء، لنفسه:  
لا تستكن لطوارق النوب ... والى الخطوب بوجه محتسب  
فدنوّ ما ترجوه من فرج ... يأتي بحسب تكاثف الكرب  
كم خائفٍ من هلكة سبياً ... نال النجاة بذلك السبب  
وأنشدني أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، المعروف بالحاقمي، لنفسه:  
من صاحب الصبر اقتدر ... أولى بفوز من صبر  
إن ساءك الزمان سرّ ... الصبر عنوان الظفر  
ولغيره:

كم نكبة في حشاها نعمة ويدٍ ... لله ينجي بها من هول مطّلع  
وكم فزعت إلى الأيام ثم أتت ... تمدّ أيديها نحوي من الفرع  
إذا بدت نكبةً فالخطأ أو اخرها ... تنظر إلى فرج للكرب متّسع  
وقرىء على حائط مكتوب:

يا معمل الوجناء بالهجر ... وقاطع السبب والقفر  
وهارباً من زمنٍ جائرٍ ... يجني الملمات على الحرّ  
اصبر فما استشفعت في مطلبٍ ... لسامعٍ خيراً من الصبر

وابشر فإنّ اليسر يأتي الفتى ... أفنط ما كان من اليسر  
وأنشدني سعد بن محمد الأزدي البصري المعروف بالوحيد، لنفسه:  
لا يوحشئك من جميل تصبّر ... خطبٌ فإنّ الصبر فيه أحزم  
العسر أكرمه ليسر بعده ... ولأجل عين ألف عين تكرم  
لم تشك منّي عسرة ألبستها ... لؤماً ولا خوراً على ما تحكم  
المرء يكره بؤسه ولعله ... تأتيه منه سعادة لو يعلم  
وأنشدني أيضاً لنفسه:

كانت إليك من الحوادث زلّة ... فاصبر لها فاعلّها تستنفر  
إنّا لنمتهن الخطوب بصبرنا ... والخطب ممتهنّ لمن لا يصبر  
ولربّ ليلٍ بتّ فيه بكربةٍ ... وغدا بفرحتها الصباح الأنور  
وقال آخر:

أدبتني طوارق الحدّثان ... فتجافيت عن ذنوب زماني  
كيف أشكو من الزمان صروفاً ... أظهرت لي جواهر الإخوان  
فتبيّنت منهم الخير والشرّ ... وأهل الوفاء والخذلان  
وتوكّلت في أموري على اللّ ... ه اللّطيف المهيمن المتّان  
وتيقنت أنّه سوف يكفي ... في خطوب الدهور والأزمان  
ثمّ يحو باليسر عسراً وبالنع ... مة ضرراً كما أتى في القرآن

إن تصبّرت وانتظرت غياث ال ... له وافى كاللّمح بالأجفان  
هو عوفي في كلّ خطب ملّم ... عدمت فيه نصرة السلطان  
ورجائي إن خاب منّي رجائي ... في جميع الإخوان والخلائن  
وقال آخر:

إن أكن خبت إن سألت فما ذا ... لك في مطلب الكرم بعار  
يحرم الليث صيده وهو منه ... بين حدّ الأنياب والأظفار  
ويزلّ السهم السديد عن القصد ... د وما تلك زلّة الإسوار  
ليس كلّ الأقطار تروى من الغي ... ث وإن عمّها بصوب القطار  
إن يخبّي رشاء دلوي فقد أح ... كمت إكراهه بعقد مغار  
أو يعد فارغاً إليّ فما أل ... قيت إلّا إلى المياه الغزار  
إن أساء الزمان لي فلقد أح ... سنت صبراً وما أساء اختياري  
وعسى فرجة تفتّح نحوي ... ناظر النصر بعد طول انتظار  
ما لقيت الإعسار بالصبر إلّا ... بشرتني وجوهه باليسار  
وللقاضي أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي من قصيدة:  
صبراً فسوف تحقّق الآمال ... وتحول عمّا ساءنا الأحوال  
إن كان قد ظفر الصلود بوصلنا ... فلسوف يظفر بالصلود وصال  
فالدهر لا يبقى على حدثانه ... ولكلّ شيء نقلة وزوال  
وله من قصيدة قاهها في الحداثة:

إن ساء يومٌ من الأيام سرّ غدّ ... أو سدّ باب سبيلٍ قنحت سبل  
وهكذا الدهر ألواناً تصرّفه ... بالشرّ والخير يجري حين ينقل  
وأنشد سعد بن محمد الأزدي المعروف بالوحيد البصري لنفسه:  
بين البلاءين فرق صرفه نعم ... غرّ وبعض الظما خير من الرق  
وفي الخطوب إذا ألقت كلاكلها ... صنع عوائده الإمساك للرمق  
كم موثّق مدّ عنقاً نحو ضاربه ... بصارم كشعاع الشمس مؤتلق  
حتى أتى فرج بعد القنوط له ... حالت يميناه بين السيف والعق  
وأنشدني أيضاً لنفسه:

يراع الفتى للخطب تبدو صدوره ... فيأسى وفي عقباه يأتي سروره  
ألم تر أنّ الليل لما تراكمت ... دجاه بدا وجه الصباح ونوره  
فلا تصحبّ اليأس إن كنت عالماً ... لبيباً فإنّ الدهر شتىّ أموره  
وأنشدني أيضاً لنفسه:

أتحسب أنّ الرّوس للمرء دائمٌ ... ولو دام شيء عدّه الناس في العجب  
لقد عرفتك الحادثات نفوسها ... وقد أدّبت إن كان ينفعلك الأدب  
ولو طلب الإنسان من صرف دهره ... دوام الذي يخشى لأعياه ما طلب

ولمحمد بن غياث:

خبو النجم يتلو اشتعالاً ... ونقص البدر يؤذن بالتمام

وأكمل ما تكون الشمس حسناً ... إذا رفعت لها سجف الغمام

وللقاسم بن يوسف الكاتب، من قصيدة:

فإن تفقدوا يومكم نعمة ... ففي غدكم نعمة زائدة

عسى أن تدور صفوف الزما ... ن بحسن الخلافة والعائدة

ولإبراهيم بن المهدي وهو في استتاره من المأمون، قصيدة، منها:

ولله نفسي إن في لعبرة ... وفي الدهر نقض للعري بعد إبرام

غدوت على الدنيا مليكاً مسلطاً ... ورحت وما أحوي بما قيس إهمام

وهل ليلة في الدهر إلا أرى بما ... قد أثبت أقداماً وزلّ بأقدام

كذاك رأينا الدهر يقدم صرفه ... على كل نفس بين بؤس وإنعام

فيرفع أقواماً وكانوا أذلة ... ويهوي من الصيد الكرام بأقوام

فيسقيهم شرين سخناً وبارداً ... بكأسين شتى من هوان وإكرام

وكائن ترى من معدم بعد ثروة ... وآخر يؤتى ثروة بعد إعدام

وله في هذا الاستتار قصيدة منها:

سبحان مقتدر ملك السماء له ... والأرض يملك أعلاها وأسفلها

يختص من نعم من شاء من بشر ... بما يشاء وعمّن شاء حوّلها

أضحت حياتك في بؤس تكابده ... بعد النعيم كذاك الدهر بدّلها

عدمتم باقي حياة قد شجيت بما ... فما على الجهد أبقاها وأطوّلها

في فترة من مرير العيش مفضعة ... قد كنت من قبل ريب الدهر أجهلها

حتى إذا هي حلّت بي أعترضت لها ... صبراً عليها فإني لست أحفلها

مستنظراً نعمة لا شيء يحجبها ... عن العباد إذا الرحمن أرسلها

فربّ مسهلة في الأرض صعبها ... وصعبة منه ولّت حين سهّلها

لكنّ في ثنيها تأتي حوادث لو ... لا الله منها لفاضت مهجتي ولها

وقال آخر:

إني لأعلم أنّ حبك قاتلي ... والنفس تفرق أن يحلّ بها الردى

لا تياسن فقد يفرّق دائماً ... شمل الجميع ويجمع المتبدداً

وعسى الليالي بالوصال رواجع ... فيعود دهري مصلحاً ما أفسدا

وقال آخر:

اصبر سينكشف القناع ... إنّ الأمور لها انقطاع

ولها من الفرج اتّسع ... ولكل ما ارتفع اتّضاع

وإذا تضايقت الأمور ... رتلا تضايقها اتّسع

حدثني أحمد بن محمد الأزدي، المعروف بأبي عمر بن نيزك العطار، الشاعر، قال: بت ليلة، حرج الصدر، ضيقه،

فرأيت في منامي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه، وهو ينشدني أبياتاً في الفرج، فانتبهت ولم يبق في حفظي منها إلا قوله:

وحميد ما يرجوه ذو أمل ... فرج يعجله له صبر

ولأبي الحسين بن أبي البغل الكاتب:

إلى الله أشكو ما ألقى من الأذى ... وحسبي بالشكوى إليه ترّوحا  
هو الفراج الغمّاء بعد اشتدادها ... ومعقب عسر الأمر يسراً ومسرحا  
أطال يدي بعد لذّة فأعتلت ... ودافع عني ما كرهت وزحرحا  
لئن عرضت لي نكبة بعد أنعم ... توالت ففاتت أن تعدّ وتشرحا  
فما أنا من تجديد صنع بيّاس ... ولا كان، فما كان، إذ كان، أصلحا  
وما يقف الإنسان في طيّ دهره ... كمرّ الليالي مسعفاتٍ وجنّحا  
وله:

إن كان هذا الأمر قد ساعني ... لطال ما قد سرّني الدهر  
والأمر في معناهما واحداً ... لذاك شكراً ولذا صبر  
حتى أرى الأقدار قد فرّجت ... وكلّ عسرٍ فله يسر  
وله:

إن يأذن الله فيما بتّ آمله ... أتى النجاح حديثاً غير مطلول  
ما لي سوى الله مأمولٌ لثابته ... والله أكرم مأمولٍ ومسؤول  
وله:

حزنت وذو الأحران يجرج صدره ... ألا ربّ حزنٍ جاء من بعده فرج  
كأنك بالحبوب قد لاح نجمه ... وذو العسر من بين المضايق قد خرج

ولابن الرومي:

لعلّ الليالي بعد شحطٍ من النوى ... ستجمعنا في ظلّ تلك المآلف  
نعم إنّ للأيام بعد انصرافها ... عواطف من إحسانها المتضاعف  
وله:

لكلّ خيرٍ وشرٍّ ... دون العواقب غيب  
وربّ جلاب همّ ... له من الصنع جيب  
وأنشدني أبو علي أحمد بن المدائني بالهائم الراوية، ولم يعرف قائله:  
أقول قول حكيمٍ ... فاعرف بفهمك شرحه  
كم فرجةٍ إثر ضيقٍ ... وفرجةٍ بعد ترّحه  
فالعسر يعقب يسراً ... والهّمّ يكسب فرّحه  
والعيش فاعلم ثلاث ... غنى، وأمن، وصحّه  
ولمؤلف هذا الكتاب:

قل لمن أودى به الترح ... كلّ غمّ بعده فرح

لا تضق ذرعاً بنازلةً ... وأرمها بالصبر تنفسح  
غالط الأيام مجتهداً ... كلّ ما قد حلّ منترح  
وأزح بالراح طارقها ... فجلاء الكربة القدح  
وألق بالمزج المريح أذى ... حدّها إن شئت تسترح  
ووجدت بخط عبيد الله بن أحمد الكاتب، النحوي، الملقب بمجججخ: أنشدنا ابن دريد، قال: أنشدنا عبد الرحمن بن

أخي الأصمعي، عن عمه للنابغة الشيباني:  
وكائن ترى من ذي هموم ففرّجت ... وذي غربة عن داره سيؤوب  
وهو من أبيات، لا يذكر باقيها مؤلف هذا الكتاب.  
ولبعض الشعراء:

لا يرعك الشرّ إن ظهرت ... بتهاويل مخايله  
ربّ أمر سرّ آخره ... بعدما ساءت أوائله  
ولكشاجم من قصيدة:

ليس إلاّ تيقني أنّ إيرا ... د الليالي من بعده إصدار  
ووراء الأسي سرورٌ وبعد ال ... عسر يسرٌ وتحت ليلٍ نهار  
وأخبرني الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الراهمهمزي، قال: أخبرني أحمد بن سعيد اللمشقي، أن الزبير حدثه، قال:  
أنشدني إسحاق، قال: أنشدني الفضل بن الربيع:

فلا تجزع وإن أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الزمن الطويل  
ولا تظنن برّبك ظنّ سوء ... فإنّ الله أولى بالجميل

قال مؤلف هذا الكتاب: وقد رويت في الجزء الأول منه، في أخبار وجب أن تكتب هناك، ما روي من أن هذه  
الآبيات للحسين بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهما، وما روي أيضاً إلهما لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن  
علي بن أبي طالب عليهم السلام.

وقال أبو جعفر محمد بن وهيب الحميري، قصيدة أولها:

هل الهمّ إلاّ فرجة تنفرّج ... لها معقب يحدي إليها ويزعج  
أبي لي إغضاء الجفون على القذى ... يقيني بأن لا عسر إلاّ مفرّج  
أخطط في ظهر الحصير كآثني ... أسير يخاف القتل والهمّ يفرج  
ويا ربّما ضاق القضاء بأهله ... وأمكن من بين الأستة مخرج  
وله أيضاً:

أجارتنا إنّ التعفّف بالياس ... وصبراً على استنرار دنيا يابس  
جديران أن لا يبدءا بمذلةٍ ... كريماً وأن لا يجوجه إلى الناس  
ولي مقلةٌ تنفي القذى عن جفونها ... وتأخذ من إبحاش دهرٍ يابناس  
أجارتنا إنّ القداح كواذبٌ ... وأكثر أسباب النجاح مع الياس  
وللنابغة الذبياني من قصيدة:

فلا تحسبنّ الخير لا شرّ بعده ... ولا تحسبنّ الشرّ ضربة لا زب

وأنشدني علي بن محمد السري الهمداني، وكتبه لي بخطه، قال: أنشدنا علي بن سليمان الأخفش، قال: أنشدني الأول عن ابن الأعرابي، لبعض شعراء تنوخ:  
ألا لا تموتنَّ اغتماماً وحسرةً ... وهماً إذا ما سارح القطر أجدا  
وصبراً فإنَّ الجذب ليس بدائم ... كما لم يدم عشب لمن كان معشياً  
وجدت في كتاب الأبيات السائرة، لعينة بن المنهال، قال جبلة العذري: قال مؤلف هذا الكتاب: هو جبلة بن حريث العذري، من عذرة، وهذا البيت من أبيات لا يتعلق بكتابي منها إلا ما ذكرته:  
استقدر الله خيراً وارضينَّ به ... فيينما العسر إذ دارت مياسير  
وفي غير هذا الكتاب، لبعض الشعراء:  
أما علمت بأنَّ العسر يتبعه ... يسرُّ كما الصبر مقرون به الفرج

وقال آخر:

إذا ما الين أخرجني ... فليس على النوى حرج  
دعي لومي على صلتني ... سيقطع بيننا حجج  
سأركب كلَّ مظلمة ... أفرجها فتنفرج  
غداً للين موعداً ... فإنَّ إلى غدٍ فرج  
وقد بلغني على وزنها، وإعرابها، وقافيتها، أبيات لأبي محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وهي:  
دنا التهجير والدج ... وقصدي للمنى لحج  
ولي همٌّ يؤرّقني ... عليّ لبحره لجج  
أطاف عليّ في وضحٍ ... عليه من البلا نهج  
أقول لنفس مكثب ... عليه من الردى ثبج  
رضاً، ما دمت سالمةً ... فإنَّ العيش مندمج  
ولا تستحقني شيئاً ... فرحب الحقّ منبلج  
وزور القول منمحقّ ... إذا دارت به الحجج  
وعاذلة تعاتبني ... وجنح الليل معتلج  
فقلت: رويد معتبتي ... لكلّ ملمّة فرج  
ذريبي خلف قاضية ... تضايقي وتنفرج  
أسرّك أن أكون رفع ... ت حيث الأمر والمهج  
وأني بتّ يصهرني ... بحر جهنم وهج  
فأدرك ما قصدت به ... ويبقى العار والحرج  
إذ أكدت جائله ... فلي في الأرض منعرج  
ووجدت كتاباً قد جمع فيه شعر صاحب الزنج، الخارج بالبصرة، نسب إليه فيه من هذا الشعر ستة أبيات، أولها:  
وعاذلة تعاتبني.

وأخبرني أبي، أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي، قال: حدثنا أبو بكر يموت بن المزرع بن يموت بن

موسى العبدى البصرى، وكان ابن أخت الجاحظ، قال: حدثنا يزيد بن محمد المهلبى، قال: حدثنا قبيصة بن حاتم المهلبى، عن أبيه، قال: كتب حفص بن عمر هزارمرد إلى المنصور، يخبره بأنه وجد في بعض خانات المولتان ببلاد الهند، مكتوباً: يقول عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهم، انتهيت إلى هذا الموضع، بعد أن مشيت حتى انتعلت الدماء، وأنا أقول:

عسى مشربٌ يصفو فيروي ظمأه... أطال صداها المشرب المتكثّر  
عسى بالجنوب العاريات ستكتسى... وذى الغليات المستنذل سينصر

عسى جابر العظم الكسير بلطفه... سير تاح للعظم الكسير فيجبر

عسى صوراً أمسى لها الجور دافناً... يتاح لها عدلٌ يجيء فتظهر

عسى الله، لا تياس من الله، إته... يهون عليه ما يجل ويكبر

فكتب إليه المنصور: قرأت كتابك، والأبيات، وأنا وعبد الله، وأهله، كما قيل:

نحاول إذلال العزيز لأته... رمانا بظلم واستمرت مرائه

فإن بلغك لعبد الله خبر، فأعطه الأمان، وأحسن إليه.

وأخبرني أبي، قال: حدثني الحرمي، قال: حدثني إسحاق بن محمد النخعي، قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن المهلبى،

عن عمه، قال: كتب حفص بن عمر، أو قال عمر بن حفص هزارمرد، إلى المنصور، فذكر مثله، إلا أنه لم يأت

بالبيت الذي أوله: عسى صوراً..

وأخبرني أبي، قال: وجدت بخط أبي يعلى، وكان عالماً بأمر الطالبين وأخبارهم وأنسابهم، وأشعارهم، أبياتاً للقاسم

بن إبراهيم، أولها:

يقابل هذا أيها المتحير... وإن قال فيك القائلون فأكثروا

وقد أضيفت إلى هذه الأبيات.

وقد ذكر القاضي أبو الحسين، هذا الخبر في كتابه، بغير إسناد، على نحو هذه الروايات إلا أنه زاد شيئاً، فقال:

حدثني أبي، قال: روي لنا عن العتيبي، قال: حدثني بعض مشايخنا، قال: أتيت السند، فدخلت خاناً، فإني لأدور فيه،

إذ قرأت كتاباً في بعض بيوته: يقول علي بن محمد... وذكر القصة، والأبيات الخمسة، ولم يذكر ما كتب به إلى

المنصور، ولا جوابه، وقال في آخره: فحدثت بهذا الحديث بعض أولاد البخنكان، فقال لي: كنت عاملاً بالشام،

على السراة، فدخلت كنيسة فيها للنصارى، موصوفة، أنظر إليها، فإذا بين التنصوير مكتوب: يقول صالح بن علي

بن عبد الله بن عباس، نزلت هذه الكنيسة يوم كذا من شهر كذا من سنة ثمان عشرة ومائة، وأنا مكبل بالحديد

محمول إلى أمير المؤمنين هشام، وأنا أقول:

ما أنسدَّ بابٌ ولا ضاقت مذاهبه... إلا أتاني وشيكاً بعده الفرج

قال: وكان بين ذلك، وبين أن نزل صالح بن علي، على تلك الكنيسة بعينها بخارية مروان بن محمد، أربع عشرة

سنة.

وروى القاضي أبو الحسين في كتابه، عن صديق له أنشده:

إني رأيت مغبة الصبر... تفضي بصاحبها إلى اليسر

لا بد من عسر ومن يسر... بهما تلور دوائر الدهر

وكما يلذ اليسر صاحبه... فكذاك فليصبر على العسر

وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، قال: وجد في عذبة سيف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، سلام الله عليه وتحياته، رقعة فيها:

غنى النفس يكفي النفس حتى يكفها ... وإن أعسرت حتى يضر بها الفقر  
فما عسرة فاصبر لها إن لقيتها ... بدائمة حتى يكون لها يسر  
ومن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسي ... وفي غير الأيام ما وعد الدهر  
وأنشد في كتابه:

وما الدهر إلا ما تراه فموسر ... يصير إلى عسر وذو فاقة يثري  
وأنشد في كتابه أيضاً، ووجد في بعض كتبي عن ابن دريد، قال: أنشدنا العباس بن الفرغ الرياشي، ولم يسم قاتلاً:  
لعمر ك ما كلّ التعلّ ضائر ... ولا كلّ شغل فيه للمرء منفعه  
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى ... عليك سواء فاغتنم لذّة الدعه  
وإن ضقت يوماً فرج الله ما ترى ... ألا ربّ ضيق في عواقبه سعه  
وأنشدني في كتابه أيضاً، لأبي يعقوب الحرّمي:

يقولون صبراً، والنصير شيمتي ... ألم تعلموا أنّ الكريم صبور  
هل الدهر إلا نكبة وسلامة ... وإلا فيؤس مرة وحوور  
وأنشدني القاضي أبو الحسين في كتابه، عن صديق له، وكان بعض الفقهاء يتمثل به:  
وكلّ كرب وإن طالت بليته ... يوماً تفرّج غمّاه فتكشف  
وأنشد أيضاً في كتابه، ولم يسم قاتلاً:

مفتاح باب الفرّج الصبر ... وكلّ عسر بعده يسر  
والدهر لا يبقى على حالة ... وكلّ أمر بعده أمر  
والكرب تفنيه الليالي التي ... أتى عليها الخير والشرّ  
حدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا ابن الجراح، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا، قال: أنشدني أحمد بن يحيى، قوله:  
مفتاح باب الفرّج الصبر ... وكلّ عسر معه يسر  
وذكر الأبيات، إلا أنه قال في الثاني: والأمر يأتي بعد الأمر، وقال في الثالث: يفنى عليها الخير والشر، وزاد فيها  
رابعاً، وهو:

وكيف تبقى حال من حاله ... يسرع فيها النفع والضرّ  
قال القاضي أبو الحسين في كتابه: كان بعض إخواني يتمثل كثيراً بيت هدية، وهو:  
عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب  
قال مؤلف هذا الكتاب: وتام هذا الشعر:  
فيأمن خائفٌ ويفكّ عانٍ ... ويأتي أهله النائي الغريب  
وقد ذكرتهما فيما تقدم من كتابي هذا، في قصة يعقوب بن داود، لما أطلقه الرشيد، ثم وجدتهما مع بيتين آخرين، في  
غير هذا المعنى، في كتاب الأمثال، لعبيدة بن النهمال، فقال: قال هدية بن الخشرم: فذكر البيتين، مع بيتين غيرهما،  
ليس في هذا المعنى، وهما:

فيا ليت الرياح مسخّرات ... بحاجتنا تصبّح أو تؤوب



فتخبرنا الشمال إذا أتتنا ... وتخبر أهلنا عنّا الجنوب  
وذكر أبو الفرج الأصبهاني، في كتابه المجرد، في الأغاني، أن في هذين البيتين، لحنين: هزجاً، وخفيف رمل، لعريب.  
وروى القاضي أبو الحسين في كتابه، لناجم البصرة، يعني الخائن صاحب الزنج:  
الحمد لله شكراً لا اقضاء له ... إن الزمان لذو جمع وتفريق  
قد ينقل المرء من ضيق إلى سعة ... ويسلس الأمر يوماً بعد تعويق  
والدهر يأتي على كلِّ بأجمعه ... وليس من سعة تبقى ولا ضيق  
وذكر القاضي أبو الحسين في كتابه، ولم ينسبه إلى أحد:  
ألا فاصطبر ما دام في النفس مسكّة ... عسى فرج يأتي به الله في غد  
وإنَّ أمر ربِّ السماء وكيله ... حريٌّ بحسن الظنِّ غير مبعّد  
قال مؤلف هذا الكتاب: وأنشدني محمد بن إسحاق بن يحيى بن علي بن يحيى المنجم، فجعل أوله:  
سأصبر ما دامت بنفسي مسكّة  
وقال لي: إن فيها لحناً قديماً من الثقيل الثاني، يغنيه.  
وأنشد أبو الحسين القاضي في كتابه، ولم يسم قاتلاً:  
خلقان لا أرضى فعالهما ... تيه الغنى ومذلة الفقر  
إذا غنيت فلا تكن بطراً ... وإذا افتقرت فته على الدهر  
وأصبر فلست بواجِدٍ خلقاً ... أدنى إلى فرج من الصبر  
وأنشد أيضاً في كتابه، ولم ينسبه إلى قاتله:  
إذا تضايق أمرٌ فانظر فرجاً ... فأضيق الأمر أدناه من الفرج  
ووجدت في بعض الكتب: أن أبا العباس ثعلباً، أنشد هذا البيت، وبيتاً قبله، وهو:  
النسل من واحدٍ والشكل مختلفٌ ... والدهر فيه بنو الدنيا على درج  
وأنشدناه أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، عن الأخفش، قال: أنشدنا المبرد:  
الناس من واحدٍ والشكل مختلفٌ  
وذكر البيتين.

حدثني علي بن أبي الطيب، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الجراح، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، قال: حدثني  
محمد بن الحسن، قال: رأيت مجنوناً قد ألجأه الصبيان إلى مسجد، فجاء حتى قعد في زاوية، ففرقوا عنه، فقام وهو  
يقول:  
إذا تضايق أمرٌ فانظر فرجاً  
وذكر البيت وحده